

جان بول سارتر

سِنُّ الرَّسِيدِ

دروب الحزينة

تقدّمها الفضية
الدكتور سيميل ديس

مشرقات دار الآداب ببيروت

جہان پوئل سارتر

سین الرید

دروب الحریۃ - ۱-

تقدیم الفنیۃ
الدکتور سیتیل دیرین

مشورات مارا آواہن بیروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية : كانون الثاني ١٩٦٢

في وسط شارع « فرسينجيتوري » ، أمسك رجل طويل بذراع ماتييو ؛ وكان ثمة شرطي يذرع الرصيف الآخر .

– اعطني شيئاً يا معلم ؛ اني جائع .

وكانت عيناه متقاربتين وشفته غليظتين . وكانت تتبعث منه راضحة الحمر ، فسأله ماتييو :

– اليس الأمر انك – بالاحرى – عطشان ؟

فقال الرجل بجهد :

– أقسم لك ، يا صاحبي ، أقسم لك .

وكان ماتييو قد عثر في جيبه على قطعة من ذات الفرنكات الخمسة ، فقال له :

– الأمر عندي سواء ؛ فانما سألتك لأتحدث فقط .

وأعطاه الفرنكات الخمسة . فقال الرجل وهو يستند الى الجدار :

– إن ما فعلته الآن حسن ؛ وبالمقابل ، سأتمنى لك شيئاً عظيماً ..

ماذا تراني سأتمنى لك ؟

وأخذوا يفكران معاً ؛ وقال ماتييو :

– ما تشاء .

فقال الرجل :

- حسناً ؛ اني اتمنى لك السعادة . هذا ما اتمناه لك ؛
وضحك ضحكة انتصار . ورأى ماتيو ان الشرطي كان يقترب
منهما فخاف على الرجل وقال :

- طيب . مع السلامة .

وأراد ان يبتعد ، ولكن الرجل امسك به وهو يقول بصوت مائع :

- ليس هذا كافياً ، ليس كافياً .

- إذن ما الذي يلزمك ؟

- اود ان اعطيك شيئاً ما ...

وقال الشرطي :

- سوف أقبض عليك بتهمة الاستعطاء .

وكان شاباً ذا خدين احمرين ، وكان يحاول ان يتظاهر بالقسوة .

وقد أضاف من غير تأكيد :

- مضى عليك نصف ساعة وأنت تزجج المارة .

فسارع ماتيو يقول بحوية :

- إنه لا يستعطي . وإنما نحن نتحدث .

فهز الشرطي كتفيه وتابع طريقه . وكان الرجل يترنح بطريقة

مقلقة . بل لقد يبدو عليه انه قد رأى الشرطي .

- وجدت ما سوف اعطيك إياه . سأعطيك طابعاً من مدريد .

وأخرج من جيبه مستطيلاً من الورق المقوى الاخضر وبسطه لماتيو .

وقرأ ماتيو :

« س . ن . ت . دياريو كونفيديرال . ايجامبلار ٢ . فرنسا .

اللجنة النقابية الفوضوية ، ٤١ شارع بلفيل ، باريس ١٩ . » وكان

ثمة طابع قد الصق تحت العنوان . وكان الطابع اخضر هو ايضاً ، وكان

يحمل ختم مدريد . ومدّ ماتيو يده :

— شكراً جزيلاً .

فقال الرجل غاضباً :

— ولكن حذار ! انها ... انها مدريد !

فنظر اليه ماتيو : كان الانفعال بادياً على الرجل ، وكان يبذل

جهوداً عنيفة ليعبر عن فكرته ، ولكنه عدل واكتفى بالقول :

— مدريد .

- نعم .

— أقسم لك اني كنت اريد ان اسافر اليها . ولكن ذلك لم يتيسر لي .

وغدا مغموماً كثيراً ، وقال « إنتظر » ثم أمره اصبعه على مهل

فوق الطابع وأضاف :

— حسناً . تستطيع ان تأخذه .

— شكراً .

وخطا ماتيو بضع خطوات ، ولكن الرجل ناداه :

— ايه !

فقال ماتيو :

— ايه ؟

فاذا الرجل يشير اليه عن بعد بقطعة الفرنكات الخمسة :

— هناك شخص أعطاني خمسة فرنكات اخرى . فأنا ادعوك الى قرح

من « الروم » .

— ليس هذا المساء .

وابتعد ماتيو بأسف غامض . لقد قضى عهداً من حياته كان فيه

يتسكع في الشوارع والحانات مع الجميع ، وكان اول قادم يستطيع ان

يدعوه . اما الآن ، فقد انتهى ذلك : ان تلك الأساليب لم تكن تجدي

شيئاً ، وان كانت مدعاة تسلية ومرح . لقد رغب في الذهاب الى اسبانيا

للقتال . وحث ماتيو خطاه ، وفكر في ضيق : « مهما يكن من أمر ،

فلم يكن لأحدنا ما يقوله للآخر ، وأخرج من جيبه البطاقة الخضراء .
« ان مصدرها مدريد ، ولكنها ليست مرسلّة اليه . لا بدّ ان احداً
قد اعطاه إياها . وقد لمسها مرات قبل ان يعطيني إياها ، لأن مصدرها
مدريد . » وكان يتذكّر وجه الرجل والهيئة التي بدا عليها اذ نظر الى الطابع
نظرة مشغوفة : ونظر ماتيوي الى الطابع بدوره من غير ان يكفّ عن
السير ، ثم أعاد قطعة الورق المقوى الى جيبه . وصفر قطار ، وفكّر
ماتيوي : « اني عجوز » .

وكانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين ؛ لقد وصل ماتيوي قبل
الأوان . ومرّ من غير ان يتوقف ، بل هو لم يلفت رأسه الى البيت
الصغير الأزرق . ولكنه كان يرمقه بجانب عينه : كانت جميع النوافذ
سوداء ، الا نافذة السيدة « دوفيه » . انه لم يُفتح له « مارسيل » بعد
ان تفتح باب الدخول : لقد كانت منحنية على امها ، وكانت تحيطها
بحركات رجولية وهي في سريرها الكبير ذي المظلة . وظلّ ماتيوي
مغتتماً ، وكان يفكر : « خمسمئة فرنك للذهاب الى ٢٩ ، يعني ثلاثين
فرنكاً في اليوم ، او أقلّ من ذلك . فاذا تراني افعل ؟ » واستدار
ثم عاد على عقبيه .

وكان الضوء قد انطفأ في غرفة السيدة دوفيه . وبعد لحظة ، اضيئت
نافذة مارسيل ، وعبر ماتيوي المرتفع ، وحاذى حانوت السمان وهو
يتجنب ان يقطع نعليه الجديدين . وكان الباب مشقوقاً ، فدفعه
على مهل فصرّ : « سآتي يوم الاربعاء بقنينتي وأضع قليلاً من الزيت
في الرزّات . » ودخل وأغلق الباب ، ثم خلع نعليه في الظلام . وطقق
الدرج قليلاً وهو يصعده ، وحذاؤه في يده ؛ وكان يلامس باهامه
كل درجة قبل ان يضع عليها قدمه . وفكّر : « أية مهزلة ! »
وفتحت مارسيل الباب قبل ان يبلغ سطح الدرج . وانبعث من
غرفتها غبار ورديّ فيه رائحة السوسن وانتشر على الدرج . وكانت قد

ارتدت قبيصها الاخضر . فاستشف منه ماتيو ثنية خاصرتها الرقيقة الريانة .
ودخل ، وكان يخيل اليه دائماً انه يدخل محارة . وأقفلت مارسيل
الباب بالمفتاح : واتجه ماتيو الى الخزانة الكبيرة المحفورة في الجدار ،
ففتحها ووضع فيها حذاءه ، ثم نظر الى مارسيل فرأى انها تشكو شيئاً
ما ، فسألها بصوت منخفض :

— ما الذي تشكين ؟

فقالت مارسيل بصوت منخفض :

— لا شيء . وانت ، يا عزيزي ؟

— اني بلا درهم واحد . اما ما عدا ذلك ، فلا بأس .
وقبلها في عنقها وفي فيها . وكانت تنبعث من العنق رائحة عنبر ،
ومن القم تبغ مبتذل . وجلست مارسيل على حافة السرير ، وأخذت
تنظر الى ساقها ، بينما كان ماتيو يتزرع ثيابه .
وسألها ماتيو : — ماذا هناك !

وكان على المدخنة صورة لم يكن يعرفها . واقترب فرأى فناة هزيلة
ترتدي ثوب الصبيان وتضحك ضحكة قاسية حيية . وكانت ترتدي
سترة رجل وحذاء ذا كعب مسطح . وقالت مارسيل من غير ان ترفع
رأسها :

— هذه انا .

والتفت ماتيو : فاذا مارسيل مشمرة قبيصها عن فخذيها الممثلتين ؛
وكانت تنحني الى أمام فيستشعر ماتيو تحت القميص هشاشة صدرها
الثقيل .

— اين عثرت عليها ؟

— في مجموعة . ان تاريخها هو صيف ٢٨ .

وطوى ماتيو سترته بعناية ودفعها الى الخزانة الى جانب الحذاء . ثم
سأل :

— أصبحت الآن تفرجين على مجموعات العائلة ؟
— لا ، ولكن لا ادري ، لقد اخذتني الرغبة اليوم في ان استعيد
أشياء من حياتي ، كيف كنت قبل ان اعرفك ، حين كنت ممثلة
بالعافية . أعطني إياها .
فأتاها ماتيو بالصورة ، فانتزعتها من بين يديه . وجلس الى قربها ،
فارتعشت وابتعدت قليلاً . وكانت تنظر الى الصورة ببسمة غامضة ،
وقالت :

— لقد كنت ظريفة .
كانت الفتاة واقفة متصلبة ، مستندة الى حاجز حديقة . وكانت
تفتح فها ، فكأنها هي ايضاً تقول « ان هذا ظريف » ، تقوله بالطلاقة
المرتبكة نفسها ، والجرأة القلقة ذاتها . بيد انها كانت شابة وهزيلة .
وهزت مارسيل رأسها :

— ظريف ! ظريف ! لقد رافقها الى حديقة اللكسمبورغ طالب
في الصيدلة . أتري القميص الذي كنت ألبسه ؟ لقد اشترته في اليوم نفسه ،
اذا كان المفروض ان نقوم يوم الاحد التالي بنزهة كبيرة في «فونتانبلو» .
يا إلهي !...

كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فانه لم يسبق لحركاتها ان كانت
على مثل هذه الفجاءة ، ولا لصوتها ان كان خشناً ، رجولياً ، كما
هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا
دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة
الوردية ؛ وكان يشق على المرء ان يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ،
بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كنفها
وجذبها اليه :

— انك آسفة على ذلك الزمن ؟
فقالت مارسيل بجفاف :

- ذلك الزمن ، كلا : بل انا آسفة على الحياة التي كان يمكن ان احيها .

وكانت قد بدأت دراسة الكيمياء فقطعها المرض . وفكر ماتيو :
« لكأنها حاقدة عليّ » . وفتح فمه ليسألها . ولكنه رأى عينيها فصمت ،
وكانت تنظر الى الصورة نظرة حزينة متوترة .
- لقد سمعت ، أليس كذلك ؟

- نعم .
فهزت كتفيها ورمت بالصورة على السرير . وفكر ماتيو : « إن
لها حقاً حياة كثيفة » وأراد ان يقبلها في خدّها ، ولكنها تخلصت بلا
عنف ، وبضحكة صغيرة عصبية . وقالت :
- كان ذلك منذ عشر سنوات .

وفكر ماتيو : « انني لا امنحها شيئاً » . كان يأتي لرؤيتها اربع
ليال في الاسبوع ؛ وكان يروي لها بالتفصيل كل ما قام به ، وكانت
تمنحه النصائح بصوت جاد لا يخلو من تسلط ؛ وكانت غالباً تقول :
« انني اعيش بالوكالة » وسألها :

- ماذا فعلت امس ؟ هل خرجت ؟
فصدرت عن مارسيل حركة ضجرة مستديرة :
- لا ، فقد كنت متعبة . لقد قرأت قليلاً ، ولكن امي كانت
تضايقي طوال الوقت من اجل الحانوت .

- واليوم ؟
فقالته بلهجة شرسة :
- لقد خرجت اليوم . شعرت بحاجة الى تنشق الهواء ، والى محاذاة
الناس . وقد هبطت حتى شارع « دولاغيتيه » وكان هذا يسليني . ثم
انني كنت اريد ان ارى « اندريه » .
- وهل رأيتها ؟

- اجل ، خمس دقائق . وحين خرجت من بيتها ، بدأت السماء تمطر . إنه لشهر حزيران عجيب ، ثم ان الناس كانوا ذوي سحن لثيمة . فاستقلت سيارة وعدت .

وسألت برخاوة :

- وانت ؟

ولم تكن لما تيو رغبة في السرد فقال :

- كنت امس في الليسه لاعطاء آخر دروسي . وقد تعشيت في مطعم «جارك» ، وكان ذلك مميناً كالعاده . وفي هذا الصباح ، قصدت المحاسب لأرى ان كانوا يستطيعون ان يسلفوني شيئاً ؛ ويبدو ان هذا امرٌ لا يُفعل . ومع ذلك فقد كنت اتدبر امرى في « بوفيه » مع المحاسب . ثم رأيت « ايفيش » .

ورفعت مارسيل حاجبيها ونظرت اليه : ولم يكن يجب ان يحدثها عن ايفيش . وأضاف :

- انها الآن مكشّرة ، يائسة .

- وما السبب ؟

وكان صوت مارسيل قد اشتد ، واتخذ وجهها تعبيراً رجولياً رصيناً ؛ كانت تشبه شرقياً سميناً . وقال ماتيو بطرف شفثيه :

- ستسقط في الامتحان .

- لقد سبق ان قلت لي إنها كانت تدرس .

- نعم ... على طريققتها ، اي ان عليها ان تبقى ساعات بطولها تجاه كتاب ، من غير ان تقوم بحركة . ولكن تعريفين طبعها : ان لها بديهيات ، وشأنها في ذلك شأن المجنونات . كانت في دورة تشرين الاول قد درست علم النبات ، وكان الممتحن مسروراً ؛ ثم رأت نفسها فجأة تجاه رجل اصلع يتحدث عن مجوفات البطن ، فبدأ لها ذلك مضحكاً ، وفكرت « طزّ في مجوفات البطن ! » ، ولم يستطع الرجل ان يتزع

منها اية كلمة .

وقالت مارسيل وهي تحلم :

— عجيبة هذه الفتاة الصغيرة الطيبة .

وقال ماتيو :

— أخشى على اي حال ان تقع هذه المرة ايضاً فيها وقعت فيه ، او

ان تخترع شيئاً آخر . سترين .

هذه اللهجة ، لهجة التجرد الحامي ، ألم تكن كذبة ؟ لقد كان يقول كل ما يمكن ان يعبر عنه بالكلمات . ولكن هناك شيء آخر

غير الكلمات ! .

وتردد لحظة ، ثم خفض رأسه ، ثابت المهمة : ان مارسيل لم تكن

بجهل شيئاً من عاطفته لإيفيش ، بل لعلها كانت تقبل ان يحبها . وهي

على العموم لم تكن تطلب إلا امرأ واحداً : ان يتحدث عن ايفيش بهذه

اللهجة بالذات . ولم يكن ماتيو قد كف عن ملامسة ظهر مارسيل ،

وكانت مارسيل قد بدأت تخفق جفونها ، كانت تحب ان يلامس ظهرها ،

ولا سيما عند منبت الصلب وبين الراسلين . ولكنها تفلتت فجأة وتلبس

وجهها القسوة . فقال لها ماتيو :

— اسمعي يا مارسيل ، انه سيان عندي ان تنجح ايفيش او تسقط ،

فليست هي مصنوعة للطب اكثر مما انا مصنوع له . وأياً ما كان ، وحتى

لو اجتازت امتحان « شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة » ، فستصاب

بالاغماء عند اول تشریح في العام القادم ، ولن تضع بعد ذلك قدميها

في المعهد . ولكن اذا لم تنجح هذه المرة ، فلا بد ان ترتكب حماقة ما .

ذلك ان اسرتها لا تود ان تسمح لها ، في حالة السقوط ، ان تعود

الى الدراسة .

فسألته مارسيل بصوت رقيق :

— اي نوع من الحماقات تقصد على الضبط ؟

فقال مضطرباً :

- لست ادري .

- آه ! اني اعرفك جيداً يا عزيزي المسكين : انت لا تجرؤ على الاعتراف بأنك تخشى ان تطلق على نفسها رصاصة تحترق جلدها . وانت تزعم مع ذلك انك تكره الاحداث الروائية . ولكن قل لي : لكأنك لم ترها قط ، بشرتها ؟ اني سأصاب بالهلع اذا جرحت بشرتي ، ولو لم يتجاوز الأمر ان أمرت فوقها اصبعي . وانت تتصور بعد ذلك ان الدمى التي تملك مثل تلك البشرة سوف تتلف نفسها برصاص المسدس ؟ اني أستطيع بكل سهولة ان أتمثلها مسترخية فوق كرسي ، وقد غطي شعرها وجهها ، بينما هي تتأمل مسحورة في مسدس صغير لطيف موضوع أمامها ، إن هذه صورة روسية جداً . أما ان أتصور شيئاً آخر ، فكلا ، ثم كلا ، ثم كلا ! ان المسدس ، يا صاحبي ، إنما جعل لمثل جلودنا التمساحية .

وأسندت ذراعها الى ذراع ماتيو ، وكانت بشرته أشدّ بياضاً من بشرة مارسيل .

- انظر الى هذا ، يا عزيزي ، ولا ميبا الى جلدي ، فكأنه جلد ماعز مدموغ .

واخذت تضحك :

- الا ترى اني املك كل ما يلزم لصنع مرغاة ؟ اني اتمثل ثقباً صغيراً جميلاً تحت ثديي الأيسر ، ذا أطراف نظيفة محمّرة . إن ذلك لن يكون بشعاً ...

وكانت ما تزال تضحك . ووضع ماتيو يده على فمها :

- اسكتي . سوف توقظين العجوز .

فصمتت وقال لها :

- كم انت عصبية !

فلم تجب . ووضع ماتيوي يده على فخذ مارسيل وجعل يلامسها برفق .
كان يحب تلك البشرة الزبدية بزغبتها الذي يُشعر لسه بالعدوية ، كألف
رعشة دقيقة . ولم تتحرك مارسيل : كانت تنظر الى يد ماتيوي . وانتهى
الأمر بماتيوي الى ان يرفع يده . وقال :

- انظري إليّ .

ورأى لحظةً عينيها المحاطتين بدائرة مزرقّة ، فترةً نظرةً متعاليةً
ياثسة .

- ما بك ؟

فقالت وهي تصرف رأسها : ليس بي شيء .
كان الأمر معها دائماً كذلك : كانت كسيحة . انها لن تستطيع
بعد لحظة ان تمالك نفسها : وستنفجر . ولم يكن ثمة ما يُفعل ، إلا
قتل الوقت حتى تلك اللحظة . وكان ماتيوي يخشى انفجاراتها الصامتة :
فقد كانت العاطفة في هذه الغرفة المحارة امراً لا يحتمل ، اذ كان
ينبغي التعبير عنها بصوت منخفض وبلا حركة خشية ايقاظ السيدة دوفيه .
ونهض ماتيوي ، فشى حتى الخزانة وتناول من جيب سترته البطاقة :
- خذي انظري .

- ما هذا ؟

- لقد اعطاني إياها شخص لقيته الساعة في الطريق . كان ذا هيئة
محبّبة ، وقد اعطيته بعض المال .

فاخذت مارسيل البطاقة بلا اكتراث . واحسّ ماتيوي انه مرتبط الى
الرجل بنوع من الاشتراك في ذنب . واطاف :

- إن هذا ، لو تعلمين ، يمثّل لديه شيئاً ما .

- وهل هو فوضوي ؟

- لا ادري . لقد اراد ان يقدم لي قدحاً :

- وهل رفضت ؟

- نعم .

فسألته مارسيل بأهمال : لماذا ؟ لعل ذلك يكون مسلياً .

فقال ماتيو : - ربما !

وعادت مارسيل ترفع رأسها ، ونظرت الى الساعة نظيرة حسيمة
مرحة . وقالت :

- إن هذا غريب . فإنه يضايقي دائماً ان تروي لي مثل هذه
الامور ، والله اعلم كم هي الآن كثيرة . ان حياتك مليئة بالفرص
الفائتة .

- اتدعين هذه فرصة فائتة ؟

- اجل . فقد كنت في الماضي تفعل اي شيء لتخلق هذا النوع

من اللقاءات .

فقال ماتيو باقتناع واقرار : - ربما اكون قد تغيرت قليلاً . فإذا

تظنين ؟ أتظنين اني شخت ؟

فقالت مارسيل ببساطة : - انت في الرابعة والثلاثين .

في الرابعة والثلاثين . وفكر ماتيو بلينفيس، فاعتبرته انتفاضة استياء

صغيرة .

- اجل ... اسمعي . لا احسب ان الأمر هكذا ، وانما كان ذلك

بدافع من قلق ووسواس . فانت تدركين انه ما كان لي ان اشارك

في الأمر .

فقالت مارسيل - إنه ينلر جداً الآن ، ان تشارك في الأمر .

فأضاف ماتيو بحوية :

- وهو كذلك ، ما كان له ان يشارك فيه : فان المرء اذ يكون

ثملاً يقوم بما يعطف النفس . وهذا ما كنت اود ان اتحاشاه .

وفكر : « ليس هذا صحيحاً تماماً ، فأنا لم أفكر كل هذا التفكير . »

لقد أراد ان يقوم بجهد صدقٍ وصراحة . وكان قد سبق لماتيو ومارسيل

ان تعاهدا على ان يتكاشفا كل شيء . وقال :
— ذلك انه ...

ولكن مارسيل كانت قد انخرطت في الضحك ، في هديل منخفض
عذب ، شأنها اذ تلامس شعره وهي تقول له « يا عزيزي المسكين . »
على انها لم تكن تبدو عليها الرقة وقالت :

— اني اعرفك في هذا جيداً . فكم انت تخاف مما يعطّف النفس !
وبعد ذلك ؟ حتى ولو تبادلت قليلاً مما يعطّف النفس مع هذا الفتى
المسكين ، فأى بأس في ذلك ؟

فسألها ماتيو : — وماذا كان ذلك يجديني ؟
انما كان حقاً يدافع عن نفسه ضد نفسه .

وابتسمت مارسيل بسمة لا ودّ فيها : ففكّر ماتيو ممتعضاً « انها
تبحث عني » . وكان يشعر بأنه مسالم ، وانه مجبول بعض الشيء ،
وانه بالاجمال في مزاج طيب ، ولم تكن به رغبة في النقاش فقال :
— اسمعي ، انت على خطأ بأن تجعلني من هذه الحكاية وليمة . فأنا
اولاً لم تكن لي سعة من الوقت : كنت قادماً اليك .

فقالت مارسيل : انت على حق تماماً . فليس هذا بندي بال ، ليس
هناك ما يستدعي ضرب قطر بالسوط ... على انه مع ذلك عارض
ينذر بشيء ما ...

فانتفض ماتيو : حبداً لو انها لا تستعمل مثل هذه الكلمات المنفرة .
وقال :

— حسناً . ما الذي ترينه في ذلك مثيراً للاهتمام الى هذا الحد ؟
فقالت : — انه دائماً صفاء ذهنك المعهود . انك طريف يا عزيزي .
فانت لشدة هلعك من ان تخدع نفسك ، تفضل ان ترفض اجمل مغامرة
في الدنيا على ان تخاطر بالكذب على نفسك .
فقال ماتيو : — هذا صحيح ، وانت تعرفينه جداً .

وكان يجدها ظالمة . ان « صفاء الذهن » هذا (وكان يكره هذه العبارة ، ولكن مارسيل كانت قد تبنتها منذ حين . وكانت عبارة السنة الماضية « الاستعجال » . ولم تكن الكلمات تعيش لديها اكثر من فصل واحد) صفاء الذهن هذا قد اعتادا عليه معاً ، وكانا مسؤولين عنه ؛ واحدهما تجاه الآخر ، وما كان شيئاً اقل من المعنى العميق لحيبها . فحين اخذ ماتيو عهدده تجاه مارسيل ، كان قد انصرف نهائياً عن افكار الوحدة ، عن الأفكار النضرة المضللة الحبيبة التي كانت تنزلق اليه في الماضي بمثل حيوية السمك الهارب . إنه لم يكن يستطيع ان يحب مارسيل إلا في الصفاء والوضوح ، لقد كانت هي صفاءه ، ورفيقه ، وشاهده ، وناصحه وحكّمه . وقال :

— اذا كنت اكذب على نفسي ، فسأشعر اني اكذب عليك في الوقت نفسه . وسيكون ذلك امراً لا استطيع احتماله .

قالت مارسيل : — نعم .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة تماماً .

— لا يبدو عليك انك مقتنعة تماماً ؟

فقالت برخاوة : — بلى .

— أتظنين اني اكذب على نفسي ؟

— لا .، الحقيقة ان الانسان لا يمكنه ابداً ان يعرف . غير اني لا

أظن ذلك . ولكن ، أتدري ما الذي أظنه ؟ أظن انك تعقم نفسك

قليلاً . لقد فكرت بهذا اليوم . اوه ! ان كل شيء واضح ونظيف

لديك ، انه يبعث رائحة الغسيل ، كما لو انك مررت بألة التجفيف .

على ان ما ينقص ذلك ، انما هو الظل . ليس هناك بعداً ما لا جدوى

منه ، وليس هناك ما هو متردد ولا ملتبس . إن ذلك لشديد الحرارة .

ولا تقل الآن انك انما تفعل ذلك من اجلي : فأنت تعرف منحدرك ،

إنك تحب ان تحلل نفسك .

وكان ماتيو ممتعاً . كانت مارسيل تبدو قاسية بما فيه الكفاية غالباً ، وكانت تظلّ دائماً على حذر ، وتندرع بالهجوم والاحتراس ، وإذا لم يكن ماتيو من رأيها ، كانت تظنّ غالباً انه يريد السيطرة عليها . بيد انه نادراً ما احسنّ لديها هذه الإرادة العازمة بأن لا تروق له . وبعد ذلك ، كانت تمة تلك الصورة على السرير ... ونظر الى وجه مارسيل في قلق : لم تكن بعد اللحظة التي تعزم فيها على الكلام .

وقال ببساطة : - انه لا يهمني الى هذا الحدّ ان اعرف نفسي .

فقالت مارسيل : - اعرف ، فليس ذلك غاية ، وانما هو وسيلة . إنه من اجل ان تتحرّر من نفسك ، ان تنظر الى نفسك ، ان تحكم على نفسك : ذلك هو موقفك المفضل . انك تتصور ، اذ تنظر الى نفسك ، انك لست ما تنظر اليه ، وانك لست شيئاً . والحق ان هذا هو مثلك الأعلى : ان لا تكون شيئاً .

فردّد ماتيو على مهل - ، ان لا اكون شيئاً ؟ كلا . ليس الأمر كذلك . اسمعي : اني ... اني اريد ألاّ اكون متوقفاً إلا على نفسي . - نعم . ان تكون حراً . حراً حرية كاملة : هذا هو عيبك .

قال ماتيو : - ليس هذا عيباً .. انه ... ماذا تريد ان يفعل

المرء غير ذلك ؟

وكان في ضيق : لقد شرح هذا كله مئة مرة لمارسيل ، وكانت تعلم ان هذا هو اشدّ ما كان يشقّ عليه .

- اذا ... اذا لم احاول ان استردّ وجودي لحسابي ، فسيبدو لي

عيباً جداً ان اوجد .

وكانت مارسيل قد اتخذت هيئة ضاحكة ، مصرّة :

- نعم ، نعم ... ذلك هو عيبك .

وفكر ماتيو : « انها تثير اعصابي حين تصطنع الكياسة والدهاء . »

ولكنه ندم على تفكيره وقال بلطف :

- ليس هو عيباً : وإنما هكذا أنا .
- لماذا لا يكون الآخرون كذلك ، اذا لم يكن هذا عيباً ؟
- انهم لكذلك ، ولكنهم لا يعون هذا .
وكانت مارسيل قد كفتت عن الضحك ، وكانت قد ارتسمت عند
زاوية شفيتها ثنية قاسية حزينة . وقالت :

- اما انا فليست حاجتي لأن اكون حرة شديدة لهذا الحد .
ونظر ماتيو الى رقبتها المنحنية ، وأحس انه غير مرتاح : كان أبدأ
ذلك الندم ، ذلك الندم اللامعقول ، الذي كان يستولي عليه كلما كان
في صحبتها . وفكر بأنه لم يكن يضع نفسه قط في موضع مارسيل :
« ان الحرية التي احدثها عنها هي حرية انسان مكتمل الصحة . » ووضع
يده على عنقها ، وشد برقة بين اصابعه ذلك اللحم الدُهني الذي ادركه
بعض الوهن .

- مارسيل ! هل انت متزعجة ؟
فأدارت عينين كدرتين بعض الشيء :
- كلا .

وصمتا . وكان ماتيو يشعر باللذة على اطراف اصابعه . على اطراف
اصابعه فقط . وزلق يده على مهل في ظهر مارسيل ، فأسبلت مارسيل
جفنيها . ورأى اهدابها الطويلة السوداء . وجذبها اليه : لم تكن له رغبة
بها تماماً في تلك اللحظة ، وإنما كانت رغبته ان يرى هذا الفكر الحرون
المقرن يذوب كما يذوب عرق من الثلج تحت حرارة الشمس . وتركت
مارسيل رأسها يسقط على عنق ماتيو ، فرأى عن كذب بشرتها السمراء
ودواثرها المزرقة والمصببة . وفكر : « يا إلهي ! كم هي تشيخ ! »
وفكر أيضاً بأنه كان شيخاً . وانحنى عليها بشعور من الضيق : كان
يود لو ينسى نفسه وينساها . ولكن مضى عليه وقت طويل وهو لا
ينسى نفسه إذ يضاجعها . وقبلها في فمها ؛ وكان لها فم جميل صارم .

وانقلبت على مهل الى خلف ، واستلقت على السرير ، مغمضة العينين ، متناقلة ، شاحبة ، ونهض ماتيو ، فنزع بنطلونه وقيصه ووضعها مطويين عند أسفل السرير ، ثم تمدد تجاهها . ولكنه رأى ان عينيها كانتا مفتوحتين على سعتها ، حادثين ، تنظران الى السقف ، وكانت يداها مشبكتين تحت رأسها .

وقال ماتيو : - مارسيل !

فلم تجب . كانت مقطبة السحنة ؛ ثم اذا هي فجأة تنهض . وعاد هو يجلس على طرف السرير ، وقد ازعجه ان يشعر بعريه . وقال جازماً :
- ستقولين لي الآن ماذا هناك .

فقال بصوت رخو :

- لا شيء .

فقال بحنان : - بلى ، هناك شيء ينكدك . ألم نتعاهد يا مارسيل على ان نتصارح بكل شيء ؟

- لا حيلة لك في الامر ، وهو سيزعجك .

فأخذ يداعب شعرها على مهل :

- قولي ، مع ذلك .

- حسناً : لقد وقع الامر .

- ماذا ؟ ما الذي وقع ؟

- لقد وقع الامر .

فغضض وجه ماتيو :

- هل انت متأكدة ؟

- كل التأكد . انت تعرف اني لا أجنّ قط : فقد تأخر الامر

شهرين .

فقال ماتيو - تنفّه !

وكان يفكر : « كان عليها ان تقول لي ذلك منذ ثلاثة اسابيع على

الاقبل . » وكانت به رغبة لان يفعل شيئاً ما بيديه : كان يحشو غليونيه
مثلاً ؛ ولكن غليونيه كان في الخزانة مع سترته . وتناول سيكارة من
على طاولة الليل ، وما لبث ان اعادها الى مكانها .
قالت مارسيل : - تلك هي القصة ! انت تعلم الآن ما هناك .
فماذا تفعل ؟

- سوف ... سوف نجهضه ، اليس كذلك ؟
قالت مارسيل : - حسناً . إن عندي عنواناً .
- من اعطاك إياه ؟
- اندريه . ولقد قصدته هي ذات مرة .
- أتكون تلك المرأة التي وسختها في العام الماضي ؟ ولكن اسمعي :
القد قضت ستة أشهر قبل ان تشفى . انني لا اريد .
- وإذن ؟ هل تريد ان تكون اباً ؟

وتخلّصت منه ، وعادت تجلس على بعد يسير عنه . وكانت تبدو
نقاسية المظهر ، ولكنه ليس مظهر رجل . وكانت قد وضعت يديها
مبسوطتين على فخذيها ، فكانت ذراعاها تشبهان عروتين من الطين الطيبخ .
ولاحظ ماتيو ان وجهها كان قد أصبح رمادياً . وكان الهواء وردياً
مسكراً ، فكانا يستنشقان الورد ، ويأكلان منه : ثم كان هناك هذا
الوجه الرمادي ، وتلك النظرة الثابتة ، فكانما كانت تمتنع عن السعال .
قال ماتيو : - انتظري . انت تقولين لي هذا ، هكذا ، فجأة :
سوف تفكر .

وبدأت يدا مارسيل ترتجفان ، وقالت بحاسة مفاجئة :
- لا حاجة بي الى ان تفكر ؛ فليس عليك انت ان تفكر .
وكانت قد ادارت رأسها نحوه ، وكانت تنظر اليه . نظرت الى عنق
ماتيو ، والى كتفيه والى خاضرتيه ، ثم استمرت نظرها في هبوطه . وكانت
تبدو عليها الدهشة . واحمرّ ماتيو احمراراً عنيفاً وضم ساقيه . ورددت

مارسيل :

- لا حيلة لك في الامر .

ثم أضافت بسخرية شاقة : « انها الآن قضية نسائية . »

وانقبض فيها لدى نطقت بالكلمات الاخيرة : فمٌ مبرنق ذو انعكاسات
بنفسجية ، حشرة قرمزية منهمة في افتراس هذا الوجه المرمد . وفكر
ماتيو « انها مهانة . وهي تكرهني . » وكانت به رغبة لأن يقيء .
وكان يبدو ان الغرفة قد أخلت فجأة من دخانها الوردى ؛ وكان بين
الاشياء فراغات كثيرة . وفكر ماتيو : « لقد فعلتُ لها « ذلك ! »
وفجأة بدا له المصباح والمرآة بانعكاساتها الرصاصية ، والساعة ، والمقعد
الموسد ، والخزانة الفاغرة الفم ، هذه كلها بدت له آليات مربعة :
أديرتُ فدحرجتُ في الفضاء حيواتها الدقيقة بعناد صلب ، كظاهر صحيفة
موسيقية يُصرّ على ان يعزف لازمته المكررة . واهتز ماتيو ، دون ان
يتمكن من انتزاع نفسه من هذا العالم الكئيب المزّ . ولم تكن مارسيل
قد تحركت ، وكانت ما تزال تنظر الى بطن ماتيو ، والى تلك الزهرة
المجرمة التي كانت تستريح بتنعّم فوق فخذيه بهيئة من البراءة ماجنة .
وكان يعلم انها كانت راغبة في ان تصرخ وتبكي ، ولكنها لن تفعل
ذلك ، خشية ان توقظ السيدة دوفيه . وقبض فجأة على مارسيل من
قامتها وجذبها اليه ، فانهارت على كتفه ، ونشقت ثلاث مرات او اربعا ،
بلا دموع . وكان هذا كل ما تستطيع ان تسمح به لنفسها : عاصفة
بيضاء .

وحين رفعت رأسها ثانية ، كان روعها قد هدأ . وقالت بصوت

الاجابى :

- اعدرني يا عزيزي ، فقد كنت بحاجة الى تفريج ، اذ اني
مماسكة منذ الصباح . وانا بالطبع لا ألومك في شيء .
فقال ماتيو : - ستكونين على حق في ذلك . اني لست فخوراً ،

فهذه المرة الاولى ... واية قذارة يا آلهي ! لقد قمت بجحافة تدفعين انت ثمنها . على اي حال ، لا بأس ، لا بأس . اسمعي ، من تكون هذه المرأة الطيبة ؟ وأين تسكن ؟

- شارع مورير رقم ٢٤ . يبدو انها امرأة طيبة الى حد غريب .
- ارى ذلك . تقولين ان اندريه هي التي ارشدتك اليها ؟
- نعم ، انها لا تأخذ إلا اربعمئة فرنك .
- وأضافت مارسيل بصوت متعقل :
- ترى انه سعرٌ مضحك كما يبدو .
- نعم ، ارى ذلك .
- قلها ماتيو بمرارة ، ثم أضاف :
- انها على العموم فرصة مناسبة .

وكان يشعر بالارتباك ، كأنه عريس . رجل طويل مرتبك ، عار تماماً ، قد ارتكب سوءاً وكان يتسم بلطف ليحمل الناس على نسيانه . ولكنها لم تكن تستطيع ان تنساه : كانت ترى فخذيه البيضاوين ، القصيرتين بعض الشيء ، وعريه الراضي الجازم . كان كابوساً غريباً . «لو كنتُ لياها لأخذتني الرغبة في ان أصفع هذا اللحم والشحم كله .» وقال :

- وهذا هو ما يقلقني حقاً : انها لا تأخذ مبلغاً كافياً .

فقالت مارسيل : - الحمد لله انها تطلب هذا المبلغ القليل : فانا املكها ، هذه الفرنكات الاربعمئة ، وكانت لحيّاطي ، ولكنها ستنتظر .

وأضافت بقوة : - انا على يقين ، لو تعلم ، بأنها ستعني بي كما يعنون بالنساء في احدى العيادات السريّة التي يسلبونك فيها اربعة آلاف فرنك كما لو كانوا يأخذون منك درهماً واحداً . ثم اننا ليس لنا الخيار .

فردّ ماتيو : - ليس لنا الخيار . متى ستذهبن ؟

- غداً ، حوالى منتصف الليل . يبدو انها لا تستقبل إلا ليلاً . هذا طريف ، أليس كذلك ؟ اظن انها مجنوننة بعض الشيء . ولكن ذلك

يناسبني ، بسبب امي . انها تدير في النهار حانوت خرضوات ؛ وهي لا تكاد تنام قط . انك تدخل ساحة ، فترى ضوءاً تحت باب . هناك بيتها . فقال ماتيو : - حسناً . اني ذاهب اليها .

فنظرت اليه مارسيل مذعورة :

- أتكون مجنوناً ؟ انها ستطردك ، اذ ستعبرك من رجال الشرطة .

فردد ماتيو : - اني ذاهب اليها .

- ولكن لماذا ؟ ما عساك ستقول لها ؟

- اريد ان استخبر ، وان ارى ما يكون شأنها . فاذا لم يرقني ذلك ، فلن تذهبي . فانا لا اود ان تدعي لمجنونة عجوز ان تمزق لحمك . سأقول اني قادم من قبيل اندريه ، وان لي صديقة واقعة في مأزق ولكنها الآن مريضة ، او اقول شيئاً من هذا القبيل .

- وبعد ذلك ، اين اذهب اذا لم يرق لك ذلك ؟

- اعتقد ان لدينا يومين نتقلب فيها ، أليس كذلك ؟ سوف اقصد « ساره » غداً ، ولا بد انها تعرف احداً . فانت تذكرين انها وزوجها لم يكونا راغبين ، اول الامر ، في الاولاد .

فبدا على مارسيل انها قد استراحت بعض الشيء . ولامست رقبته تقول :

- انك لطيف ، يا عزيزي ؛ اني لا اعلم ما الذي تنوي ان تصنعه ، ولكنني واثقة من انك تود ان تفعل شيئاً ؛ تود لو انهم يجرون لك العملية بدلاً مني ...

وأحاطت بذراعيها الجميلتين عنقه ، وأضافت بلهجة استسلام هزلية :

- اذا سألت « ساره » في الامر ، فسترشدك حتماً الى يهودي . وقبلها ماتيو ، فتراخت كلياً . وقالت :

- يا حبيبي ، يا حبيبي .

- لإخلمي قبيلك .

فاستجابت ، وقلبها فوق السرير ، وداعب نهديسها ، وكان يحب برعميها الجلديتين العريضين ، تحيط بهما تورمات محمومة. وكانت مارسيل تنهد ، مغمضة العينين ، جامدة ، نومة . ولكن جفنيها كانا يتشجان . وتلبث الاضطراب هنيهة ، وقد حطّ على ماتيو كأنه يدّ دافئة . ثم فكّر ماتيو فجأة : « انها حامل » فعاد الى الجلوس . وكان رأسه ما يزال يطنّ بموسيقى حامزة .

— اسمعي يا مارسيل . إن الامر غير مناسب اليوم . اننا ، كلينا ، نأثر الاعصاب اكثر مما ينبغي . ساحيني .
فندت عن مارسيل هممة صغيرة ناعسة ، ثم نهضت فجأة ، واخذت تحلّل اصابعها في شعرها ، وقالت ببرودة :
— كما تريد .

ثم اضافت بلهجة اكثر وداً :
— انت على حق ، آخر الامر . فكلانا نأثر الاعصاب . كنت اشتهي مداعباتك ولكن كان بي خوف .
فقال ماتيو : — مع الاسف . لقد وقع الشرّ ، فليس لنا ان نخشى شيئاً بعد .

— ادري ذلك ، ولكن هذا لم يكن امراً عاقلاً . اني لا ادري ما اقول لك : فانت تخيفني بعض الشيء يا عزيزي .
ونهض ماتيو :

— حسناً ، انا ذاهب لأرى تلك العجوز .
— نعم . وستصل بي غداً بالهاتفون لتخبرني حقيقة الامر .
— ألا تستطيع ان أراك غداً مساء ؟ سيكون ذلك أسهل .
— لا . لا مساء الغد . بعد غد اذا شئت .
وكان ماتيو قد ارتدى قبضه وبنطلونه . وقبل مارسيل في عينيها :
— انك لست عاتبة عليّ ؟

– ليست هي غلظتك . لقد حدث ذلك مرة طوال سبع سنوات ،
فليس لك ما تلوم نفسك عليه . واتمنى الا تنفر مني بدورك ؟
– انك مجنونة .
– اني اشمئز من نفسي قليلاً لو كنت تعلم ، وأشعر كما لو اني
ركام من الطعام ...
فقال ماتيو بخنان :
– يا صغيرتي ، يا صغيرتي المسكينة . اني اعدك بان ينتهي كل
شيء قبل ثمانية ايام .
وفتح الباب بلا ضجة ، فتسلل الى الخارج وهو يمسك نعليه بيده .
وفي اعلى الدرج ، التفت : كانت مارسيل ما تزال مضطجعة على السرير .
وكانت تبسم له ، ولكن ماتيو شعر بأنها كانت تكن له بعض الضغينة .

* * *

انفصل شيء ما في عينيها الثابتين ، فتدحرجتا بيسر في محجريهما .
ولم تكن تنظر اليه بعد ، وما كان عليه بعد ان يؤدي لها حساباً عن
نظراته . لقد كان جسمها المذنب ، اذ كانت محتبئة بثيابها الداكنة
وبالليل ، يُحس انه في منجى ، وكانت تسترد شيئاً فشيئاً دفئه وبرائه ،
وكانت تعود لتفتح تحت القماش . كيف لي ان أتذكر القنينة ، القنينة
التي ينبغي ان آتي بها بعد غد ؟ كان وحيداً .
وتوقف مضعوقاً : لم يكن ذلك صحيحاً ، فهو ليس وحيداً ، ولم
تتركه مارسيل ؛ بل كانت تفكر فيه ، كانت تفكر : « القدر !
لقد فعل لي هذا ! لقد نسي نفسه وهو في » ، كالطفل الذي يغوط في
لفائفه . « وكان بوسعه ان يخطو خطى واسعة في الطريق الحالية ، السوداء
المغفلة ، وهو غارق في ثيابه حتى العنق ، ولكنه لن يفلت منها . لقد
كان وجدان مارسيل باقياً هناك ، مليئاً بالمصائب والصراخ ، ولم يتركه

ماتيو : لقد كان هناك ، في الغرفة الوردية ، عارياً وبلا سلاح ، امام تلك الشفافية الثقيلة التي هي أشدّ ازعاجاً من النظر . « مرة واحدة » قال ذلك لنفسه غاضباً . وردّد بصوت منخفض ليقنع مارسيل « مرة واحدة ، في سبع سنوات ! » ولكن مارسيل لم تكن لتقتنع : لقد كانت باقية في الغرفة ، وكانت تفكر في ماتيو . وكان شيئاً لا يُحتمل ان يُحكّم عليه هكذا ، وان يُحقد عليه . هناك ، في الصمت . من غير ان يستطيع الدفاع عن نفسه ، حتى ولا اخفاء عورته بيديه . ليته في تلك اللحظة نفسها قد استطاع ان يُوجدَ بالنسبة لآخرين ، بمثل هذه القوة .. ولكن جاك واوديت كانا نائمين ؛ اما دانيال ، فكان ثملاً او مخبولاً . واما ايفيش فكانت لا تفكر قطّ بالغايبين . ربما كان بوريس... ولكن وجدان بوريس لم يكن إلاّ لمعة صغيرة مغتلمة ، وما كان بوسعه ان يصمد لهذا الصفاء الوحشي الجامد الذي كان يبهر ماتيو على البعد . كان الليل قد كفنّ معظم الوجدانات : وكان ماتيو وحيداً مع مارسيل في الليل .

وكان ثمة ضوء في مقهى كامو . وكان المعلمم يراكم الكراسي ، وكانت الخادمة تثبت مصراعاً خشبياً على احد عارضيّ الباب . ودفع ماتيو المصراع الآخر ودخل . وكانت به رغبةٌ لأن يرى بكل بساطة . وارتفق المشرب :

– عتم مساءً جميعاً !

فنظر اليه المعلمم . وكان ثمة ايضاً احد موظفي شركة السكك الحديدية يشرب الخمر وقبعته على عينيه . وجدانات . وجدانات . انيسة شاردة . ورفع موظف السكك قبعته الى خلف ، بطرف سبابته ، ونظر الى ماتيو . وتراخى وجدان مارسيل ثم ذاب في الليل .

– أعطني قدح بيرة .

فقال المعلمم – إن مجيئك اصبح نادراً .

- ومع هذا ، فليس السبب اني غير عطشان .
قال الموظف - صحيح ان الحر شديد يدعو الى العطش . فكأننا
في ايام الصيف .

وصمتا . كان المعلم يغسل الاقداح ، وكان الموظف يصفى . وكان
ماتيو مسروراً لأنها كانا ينظران اليه بين حين وآخر . ورأى رأسه في
المرآة ، وكان ينبعث مصفراً مستديراً من بحر من الفضة : كان رواد
مقهى كامو يجيئ اليهم دائماً انها الساعة الرابعة صباحاً بسبب النور، اذ
كان بخار فضي يوسع العيون ويبيض الوجوه والأيدي والأفكار .
وشرب . وفكر : « انها حامل . هذا طريف : ليس لدي شعور بأن
هذا صحيح . » كان ذلك يبدو له مزعجاً ومضحكاً ، كما لو ان احداً
يرى رجلاً عجوزاً وامرأة عجوزاً يتبادلان قبلة على الفم : ان مثل هذه
الاعمال ينبغي ألا تحدث بعد سبع سنوات . « انها حامل . » كان في
بطنها كتلة زجاجية صغيرة تنتفخ رويداً، وستشبه آخر الأمر عيناً : « انها
تنتفخ وسط القذارات الثاوية في بطنها . انها حية . » ورأى دبوساً
كان يقترب متردداً في الظل . وحدث صوت مائع وانفجرت العين :
ولم يبق بعد الا غطاء كثيف جاف . « سوف تذهب الى تلك العجوز ؛
وسوف تدعها تمزقها . » وكان يحس انه سام . « حسناً . » وانتفض :
تلك كانت افكاراً كالحبة ، افكار الساعة الرابعة صباحاً .
- تصبحون على خير .

ودفع وخرج .

« ما الذي فعلته ؟ » كان يمشي على مهل ، محاولاً ان يتذكر .
« منذ شهرين ... » ولم يكن يتذكر شيئاً على الاطلاق ، الا ان يكون
ذلك قد حدث عقب عطلة الفصح . لقد أخذ مارسيل بين ذراعيه
كالعادة ، بدافع من حنان ، من غير شك ، بدافع من حنان لا بدافع
من رغبة ؛ اما الآن ... فلقد خدع . « طفل . كنت أحسب اني

كنت اعطيها اللذة ، وهأنذا قد صنعت لها طفلاً . انني لم افهم شيئاً مما كنت افعله . وعليّ الآن ان اعطي تلك العجوز اربعمئة فرنك ، وهي سوف تُدخل آلتها بين فخذني مارسيل وتضربها ؛ فتمضي الحياة كما جاءت . ولذا اهدم هذه الحياة لا اكون اكثر علماً بما افعل مما كنت حين خلقتها . « وضحك ضحكة صغيرة جافة : « والآخرون ؟ اولئك اللذين اعتزموا برصانة وجدّ ان يكونوا آباء ويشعرون بأنهم والدون ، أتراهم حين ينظرون الى بطون زوجاتهم يفهمون خيراً مما افهم ؟ لقد خبطوا خبط عشواء ، بثلاث ضربات من فروجهم . اما الباقي ، فهو عمل في الغرفة السوداء وفي العصير الملّامي ، كما هو الشأن في الصورة الفوتوغرافية . انه شيء يتمّ بدونهم . « ودخل باحة بيت ، ورأى نوراً تحت باب : « هذا بيتها » وشعر بالحجل . وطرق ماتيو الباب ، فقال صوت :

— من هناك ؟

— أودّ ان اكلّمك .

— ليست هذه ساعة يزّار فيها الناس .

— اني آت من قبل اندريه باسنيه .

فشقّ الباب . ورأى ماتيو خصلة من الشعر الاصفر وأنفاً كبيراً .

— ماذا تريد ؟ انه لا يجديك ان تقوم بعمل البوليس ، فاني لا

أخالف القانون . ان لي الحق بأن يكون عندي ضوء طوال الليل ، اذا

شئت ذلك . فاذا كنت مفتشاً فما عليك الا ان تبرز لي اوراقك .

قال ماتيو — لست من البوليس ، وانما لدي مشكلة ، وقد قيل لي

ان بوسعي ان اتوجّه اليك .

— ادخل .

فدخل ماتيو . وكانت العجوز ترتدي بنطال رجل وقيصاً ذا سحاب

وكانت شديدة الهزال ، ذات عينين ثابتتين قاسيتين .

– هل تعرف اندريه باسنيه ؟
وكانت تحدجه بنظرة غاضبة ، فقال ماتيو :
– نعم . لقد جاءتك في السنة الماضية حوالي عيد الميلاد لأنها كانت
متضايقة ، وشبه مريضة ، وقد ذهبت اربع مرات لمعالجتها .
– وبعد ذلك ؟

وكان ماتيو ينظر الى يدي العجوز . كانتا يدي رجل ، يدي انسان
يخنتق . . وكانتا مشقتين ، معلقتين ، بأظافر محفوفة سوداء وندوب
وشقوق . . وكان يظهر على السلامي الاولى للابهام الأيسر ارتشاح دموي
بنفسجي وقشرة كثيفة سوداء . وارتعش ماتيو وهو يفكر ببشرة مارسيل
الرقيقة السمراء . وقال :

– لست قادماً من أجلها ، بل من اجل صديقة لها .
فضحكت المرأة ضحكة جافة :

– هذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها رجل على المجيء لاستعراض
نفسه امامي . لأنني لا اريد ان يكون لي علاقة بالرجال ، هل تفهم ذلك ؟
وكانت القاعة قدرة مبعثرة الاثاث . كانت الصناديق ماثورة في كل
مكان . وكان على الارض المربعة قش . ورأى ماتيو على طاولة زجاجة
من الروم وقدحاً ممتلئاً الى النصف .

– لقد أتيت لأن صديقتي ارسلتني . انها لا تستطيع ان تأتي اليوم ،
وقد رجتني ان اتفاهم معك .

وكان قد شق باب في جوف القاعة . وكان بوسع ماتيو ان يقسم
أنه كان ثمة احد خلف هذا الباب . وقالت له العجوز :

– الحق ان هؤلاء الفتيات الصغيرات بلهاوات . انه يكفيهن ان ينظرن
اليك ليرين انك من اولئك الذين تخلقوا نلحق المصائب او قلب الاقداح
او تحطيم المرايا . وبالرغم من ذلك تراهن يودعنك أثنى ما لديهم .
انهن ، في آخر المطاف ، يستحقن ذلك .

وظل ماتيو مؤدباً :

— وددت لو أرى اين تقومين بالعمليات .

فقدفته العجوز بنظرة كره وتحدت :

— هكذا اذن ؟ من قال لك اني اقوم بالعمليات ؟ وعن اي شيء
تتحدث ؟ ولماذا تتدخل في ذلك ؟ اذا كانت صديقتك تريد ان تقابلني ،
فلتأت اليّ .. اني اريد ان اتفاهم معها وحدها . لقد كنت تريد ان
تأخذ فكرة ، أليس كذلك ! أتراها قد سألتك ان تأخذ فكرة حين
جلست بين فخذيك ؟ لقد ارتكبت مصيبة . حسناً . كل ما استطع ان
اقوله لك هو ان تتمنى ان اكون ابرع منك . وداعاً .
فقال ماتيو :

— الى اللقاء ، يا سيدتي .

وخرج . وكان يحس انه تحرر . وانفتل على مهل الى جادة «اورليان» .
كان بوسعه ان يفكر بمارسيل ، للمرة الاولى منذ ان غادرها ، بلا ضيق
ولا جزع ، بل بحزن عطوف . وفكر « سأقصد ساره غداً . » :

كان بوريس ينظر الى الخوان ذي المربعات الحمراء ويفكر بما تيسر دولارو . كان يفكر : « إن هذا الشخص عظيم . » وكانت الجوقة قد صمتت ، وكان الهواء شديد الزرقة ، وكان الناس يتحدثون فيها بينهم . وكان بوريس يعرف الجميع في القاعة الضيقة الصغيرة : ولم يكونوا اشخاصاً قد قدموا للهزل والمجون ؛ وانما كانوا يجيئون بعد الفراغ من عملهم ، جادّين جائعين . اما الزنجي الذي كان يواجه « لولا » ، فهو مغني « الباراديز » ؛ واما الاشخاص الستة الجالسون في الداخل مع نسائهم ، فهم موسيقيو « نينيت » ، ولا ريب في انهم قد حدث لهم شيء ، سعادة غير منتظرة ، وربما عقداً للصيف (لقد تحدثوا عشية الامس حديثاً مبهماً عن مربع في القسطنطينية) لأنهم كانوا قد طلبوا شبانيا ، وكانوا في العادة اقرب الى البخل . ورأى بوريس كذلك الشقراء التي كانت ترقص رقصة « جاوى » وهي بثوب البحارة . اما ذلك الطويل الهزيل ذو النظارات الذي كان يدخن سيكاراً ، فقد كان مدير ملهى في شارع تولوزيه أغلقته دائرة الشرطة منذ حين . وكان يقول انه سيعاد فتحه عما قريب ، لأنه كان مدعوماً من المراجع العليا . وكان بوريس يأسف بمرارة لأنه لم يقصده ، وسوف يقصده بالتأكيد اذا فتح مرة اخرى . وكان الرجل مع فتى صغير يبدو من بعيد جذاباً ، وهو

أشقر ذو وجه دقيق ، فيه جمال ، وهو لا يأتي بكثير من الحركات المصطنعة . ولم يكن بوريس يطبق اللواطين كثيراً ، لأنهم كانوا يلاحقونه طوال الوقت ، ولكن ايفيش كانت تقدرهم وتقول : « ان هؤلاء يجرؤون ، على الاقل ، على ألا يكونوا كسائر الناس . » وكان بوريس ممتلئ التقدير لآراء اخته ، وكان يبذل جهوداً كثيرة ليحترم العتات . وكان الزجاجي يأكل الكرنب . وفكر بوريس : « انني لا احب الكرنب » وكان يود لو يعرف اسم الطعام الذي قُدِّم لراقصة «جاوى» : طعام اسمر كان يبدو انه لذيذ . وكان على الخوان لطفة من الخمر الاحمر . لطفة جميلة ، حتى لكأن الخوان كان ، في ذلك المكان ، من الحرير الاطلس . وكانت لولا قد نثرت بعض الملح على اللطفة ، لأنها كانت تحب الترتيب . وكان الملح وردياً . وليس صحيحاً ان الملح يشرب اللطخات . وأوشك ان يقول للولا ان الملح لم يكن يشرب اللطخات . ولكن ذلك كان يقتضيه ان يتكلم : وكان بوريس يشعر بأنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . وكانت لولا بالقرب منه ، متعبه حارة ، ولم يكن بوريس يستطيع ان ينتزع من نفسه ادنى كلمة ، فقد كان صوته ميتاً . سأكون كذلك لو كنت أبكم . كان لذيذاً ان صوته كان يخفق في داخل حنجرتة ، رقيقاً كالقطن ، ولم يكن يستطيع مع ذلك ان يخرج . كان ميتاً . وفكر بوريس : « احب كثيراً دولارو » واغتبط . وقد كان اغتباطه يزداد لو لم يكن يشعر ، بجانبه الايسر كله ، من الصدغ حتى الخاصرة ، أن لو كانت تنظر اليه . لا ريب في انها كانت نظرة مشغوفة ، فان لولا لم تكن تستطيع قط ان تنظر اليه على نحو آخر . وكان ذلك مزعجاً بعض الشيء لأن النظرات المشغوفة تستدعي بالمقابل حركات ودية او بسات ؛ وما كان بوريس ليستطيع القيام بأية حركة . وكان مشلولاً . غير ان ذلك لم يكن عظيم الأهمية : فانه لم يكن مفروضاً فيه ان يرى نظرة لولا : كان يحزرها

ولكن ذلك كان شأنه . كان هناك مديراً ظهره ، وشعره في عينيه ، فلم يكن يرى ادنى طرفٍ من لولا ، وكان بوسعه ان يفترض بأنها كانت تنظر القاعة والناس . ولم يكن بوريس ناعساً ، بل كان مرتاحاً ، لأنه كان يعرف جميع الناس في القاعة ؛ ورأى لسان الزنجي الوردي ؛ وكان بوريس يحترم هذا الزنجي : فحين خلع الزنجي حذاءه اخذ عليه من الثقاب بين اصابع قدميه ، ففتحتها وأخرج منها عوداً فأشعله ، كل ذلك بقدميه . وفكر بوريس باعجاب : « هذه عملية عظيمة . ان على الجميع ان يحسنوا استعمال اقدامهم كأيديهم . » وكان جانبه الايسر يؤله لفرط ما نظر اليه ، وكان يعلم انها تقترب ، تلك اللحظة التي ستسأله فيها لولا : « بمَ تفكر ؟ » فقد كان من المستحيل اطلاقاً تأخير هذا السؤال . ان ذلك لم يكن يتوقف عليه : فان لولا ستطرحه في اوانه ، بلون من القدرية . وكان بوريس يشعر بأنه ينعم بردح قصير من الزمن ، ثمين جداً . وفي الحقيقة ، كان ذلك لذيذاً : كان بوريس يرى الخوان ، وكان يرى قدح لولا (كانت لولا قد تناولت طعاماً بسيطاً ، لأنها لم تكن تتعشى قط قبل دورها الغنائي) وكانت قد شربت قدحاً من « شانوغرويو » ، وكانت شديدة العناية بنفسها ، وكانت تستجيب لطائفة من الهوايات الصغيرة ، لأنها كانت شديدة اليأس من الشيخوخة . وكان قد بقي بعض الحمرة في القدح ، فكأنه دم مغبر . وبدأ الجاز يعزف : « اذا اصبح لون القمر اخضر . » فتساءل بوريس : « اتراني احسن غناء هذا اللحن ؟ » كم كان يكون عظيماً لو تمخطر في شارع بيغال ، تحت ضوء القمر ، وهو يصفر لحناً صغيراً . كان دولارو قد قال له « انك تصفر كالحنزير » وأخذ بوريس يضحك في داخله ، وفكر : « ذلك الحمار ! » وكان يفيض وداً لماتيو . وألقى نظرة سريعة الى جانب ، من غير ان يحرك رأسه ، فرأى عيني لولا الثقيلتين تحت خصلة رائعة من الشعر الاحمر . والحق

ان بإمكان المرء ان يحتمل نظرة ما . بحسبك ان تعتاد هذه الحرارة الخاصة التي تلهب وجهك حين تشعر بأن احداً يراقبك بشغف . وكان بوريس يُسلم نظرات لولا جسمه ورقبته الهزيلة وهذا الجانب من وجهه الذي كانت تحبه كثيراً . وبهذا الثمن ، كان يوسع ان يتغلغل عميقاً في نفسه ، ويشغل ذاته بأفكار صغيرة مستحبة كانت تخطر له .

وسألته لولا : - بم تفكر ؟

- بلا شيء

- إن الانسان يفكر دائماً بشيء ما .

فقال بوريس : - كنت افكر بلا شيء .

- حتى ولا انك تحب اللحن الذي يعزفونه ، او تود ان تتعلم استعمال

« المصنفات » ؟

- مثل هذا ، بلى .

- اترى اذن ؟ لماذا تقول لي ذلك ؟ اود ان اعرف جميع ما

تفكر به .

- إن هذا لا يُقال ولا اهمية له .

- لا اهمية له ! نحيّل اليّ انك لم تعطّ لساناً الا لتتحدث في الفلسفة

مع استاذك .

فنظر اليها وابتسم : « احبها كثيراً لأنها صهباء ، ولأنها تبدو مسنة .»

وقالت لولا : « اي طفل عجيب ! »

وغمز بوريس بعينه واتخذ موقف الابتهاال . انه لم يكن يجب ان

يحدثوه عن نفسه ، فقد كان ذلك شديد التعقيد بحيث انه كان يضيع

فيه . وكان يبدو على لولا انها غاضبة ، ولكن ذلك يعود بكل بساطة

الى انها كانت تحبه بشغف ، وانها كانت تتألم بسببه . كانت تمر لحظات

كهنه تشعر فيها انه قد أسقط يدها ، فكانت تعذب نفسها بلا سبب ،

وكانت تنظر الى بوريس بشرود . وتكف عن ان تعرف ما عساهما
تفعل به ، وكانت يداها تضطربان وحدهما . وكان بوريس في أول
الأمر يدهش لذلك ، ولكنه قد اعتاده الآن . ووضعت لولا يدها على
رأس بوريس وقالت :

— أتساءل عما في داخل رأسك . إن هذا يخيفني .

فقال بوريس ضاحكاً : — لماذا ؟ اقسم لك ان الأمر بريء .

— نعم ، ولكني لا استطيع ان اقول لك .. انه يأتي من تلقاء
نفسه ، فكل فكرة من افكارك فراراً صغيراً .

وأشعث شعره فقال بوريس :

— لا ترفمي خصلتي ، فانا لا احب ان يرى الناس جيبني .

وتناول يدها ، فلامسها قليلاً . ثم اراحها على الطاولة . وقالت لولا :

— انت هنا ، رقيق لطيف ، واعتقد انك مرتاح معي . وفجأة، لا

يبقى ثمة احد ، فانسأل : اين عسك قد ذهبت ؟

— اني هنا .

وكانت لولا تنظر اليه عن كذب ، وكانت قد شوهدت وجهها الباهت

مماحة حزينة ، وكانت تلك هي الهيئة نفسها التي تتخذها حين تغني

اغنية « المسلوخين » . كانت تمد شفيتها ، هاتين الشفتين الغليظتين

بزواياهما المرتخية ، اللتين احبهما في البدء . ومنذ احس بهما على فمه ،

كان يستشعر عرياً لزجاً محموماً وسط قناع من الجبس . وكان الآن يفضل

بشرة لولا التي بلغ من بياضها ان توهم بأنها غير حقيقية .

وسألته لولا بخجل :

— هل ... تشعر بالانزعاج معي ؟

— لا اشعر ابداً بالانزعاج .

وتنهدت لولا ، وفكر بوزيس برضى : عجيب ان تبدو مسنة الى

هذا الحد ، انها لا تعلن عن عمرها ، ولكنها بكل تأكيد في حدود

الأربعين . وكان يحب كثيراً ان يبدو الاشخاص الذين يرتبطون به مستنين .
اذ كان يجد ذلك مدعاة للاطمئنان . وبالإضافة الى ذلك ، كان هذا
يكسبهم نوعاً من المشاشة مريباً بعض الشيء ، لا يظهر للوهلة الأولى ،
لأنهم كانوا يملكون جميعاً إهاباً مدبوغاً كأنه الجلد . واخذته الرغبة في
ان يقبل وجه لولا المضطرب ، وفكر بأنها متلاشية القوى ، وانها
قد ضيقت حياتها ، وانها كانت وحيدة ، بل ربما كانت اشد وحدة
منذ بدأت تحبه . وفكر باستسلام : « انني لا املك شيئاً لها . » وفي
تلك اللحظة ، كان يجدها لطيفة الى حد بعيد .

وقالت لولا : - اشعر بنجمل .

وكان صوتها ثقيلاً مظلماً كأنه بساط من القطيفة الحمراء .

- لماذا ؟

- لأنك طفل .

وقال :

- انني اغتبط اذ تقولين : طفل . إنها كلمة جميلة بالنسبة لصوتك .
أنت تقولين « طفل » مرتين في « السلوخين » ، وهذا وحده كافٍ
لحملي على الذهاب للاستماع اليك . هل كان الحضور وافرين ، ذلك
المساء ؟

- كانوا من الطغمة . لا ادري من اين جاءوا . وكانوا يثرثرون .
وكانت رغبتهم في الاستماع إلي مثل رغبتهم في ان يُسئقوا . وقد اضطر
سارونيان الى اسكاتهم ، وقد تضايقت جداً ، لو تعلم ، وشعرت بأني
مبتذلة . على أنهم مع ذلك قد صفقوا حين دخلت .
- هذا طبيعي .

فقال لولا : - لقد مللت . انني انفر من الغناء لهؤلاء الحيوانات .
أشخاص جاءوا لأنه كان عليهم ان يردوا الدعوة لزوجين . ليتك رأيتهم
قادمين جميعاً وهم يتسمون ، وينحنون ويمسكون كرسي المرأة إذ تجاس .

وانت بالطبع ستضايقهم حين تأتي ، فينظرون اليك من فوق الى تحت .
(وقالت لولا فجأة) انني يا بوريس اغني لأعيش .

— طبعاً .

— لو كنت فكرت ان الأمر سينتهي بي هكذا ، لما بدأت قط .
— مهما يكن مع امر ، فقد كنت تعيشين ايضاً من الغناء ، حين
كنت تغنين في الموزيك هول .

— لم يكن الأمر كذلك .

وساد صمت ، ثم اسرعت لولا تضيف :

— لإسمع : الشخص القصير الذي يعني بعدي ، الشخص الجديد ،
لقد حدثته هذا المساء . انه لطيف ، ولكنه ليس روسياً اكثر مني .
وفكر بوريس : « تظن انها تضجرتني » وعزم على ان يقول لها
مرة اولى واخيرة انها لا تضجرت قط . ولكن ذلك سيكون فيما بعد ،
لا اليوم .

— لعله قد تعلم الروسية ؟

فقالت لولا : — نعم ، وعليك ان تقول لي ان كانت لهجته جيدة .
— لقد ترك اهلي روسيا عام ١٧ ، وكان عمري ثلاثة اشهر .
فانتهت لولا الى القول : — انه مضحك ألا تعرف الروسية .

وفكر بوريس بأنها طريفة ، وانها تخجل من ان تحبني لأنها أسنّ
مني . اما انا ، فأجد ذلك طبيعياً ، اذ لا بد من ان يكون هناك من
هو اكبر من الآخر . خصوصاً وان ذلك اكثر اخلاقية ، فان بوريس
ما كان ليعرف ان يحب فتاةً في مثل سنه . فاذا كان الاثنان في عمر
الشباب ، فانهما لا يحسنان التصرف ، بحيث ان الأمر يضطرب ، كما
لو انهما يلعبان او يعبثان . فليس الأمر كذلك مع الأشخاص الناضجين .
انهم اشداء ، وهم يقودونك ، ثم ان لحبهم وزناً . وحين يكون بوريس
بفرقة لولا ، فانه يشعر برضى الضمير ، ويحس انه مبرّر . لقد كان

بالطبع يؤثر صحبة ماتيو ، لأن ماتيو لم يكن امرأة ، والرجل أطرف .
ثم ان ماتيو كان يشرح له بعض الغوامض . غير ان بوريس كان غالباً
ما يتساءل عما اذا كان ماتيو يكن له الصداقة . فقد كان ماتيو قاسياً ،
لامبالياً . صحيح انه ينبغي ألا يكون الاصدقاء فيما بينهم أرقاء ، ولكن
هناك الف طريقة أخرى ليظهر المرء انه حريص على شخص آخر ، وكان
بوريس يجد انه كان بوسع ماتيو بين الفينة والفينة ان يقول كلمة او
يظهر حركة ثم عن وده . لقد كان ماتيو يسلك مع ايفيش مسلكاً مختلفاً
جداً . واستعاد بوريس فجأة صورة وجه ماتيو اذ كان يوماً يساعده
ايفيش على ارتداء معطفها ، فأحس في قلبه بانقباض مزعج . بسمة ماتيو :
على ذلك الفم المر الذي كان بوريس يحبه كثيراً ، تلك البسمة الرقيقة
الحجول . ولكن سرعان ما امتلأ صدر بوريس بالدخان . ولم يعد يفكر
بشيء . وقالت لولا :

- هوذا يذهب مرة اخرى .
- وكانت تنظر اليه بضيق .
- بم كنت تفكر ؟
- قال بوريس على مضض :
- كنت افكر بدولارو .
- وابتسمت لولا بسمة حزينة .
- ألا تستطيع ايضاً ، في بعض الاحيان ، ان تفكر بي ؟
- لا حاجة بي الى التفكير فيك ، ما دمت هنا .
- ولماذا تفكر دائماً بدولارو ؟ كنت تود ان تكون معه ؟
- اني مسرور بان اكون هنا .
- انت مسرور بان تكون هنا او بأن تكون معي ؟
- الأمر سواء .
- الأمر سواء بالنسبة اليك . لا بالنسبة لي . حين اكون معك ، لا يهمني

ان اكون هنا او في مكان آخر . والحق اني لا يسرني قط ان اكون معك .

فسألها بورييس دهشاً : - صحيح ؟

- ليس هو سروراً . ولست بحاجة الى ان تتغابي ، فانت تعرف ذلك جيداً : لقد رأيتك مع دولارو ، وانت لا تدري بعد اين تكون ، حين يكون هنا .

- هذا لا يشبه ذلك .

وادنت لولا منه وجهها المتهدم ، وكان يبدو عليها الابتهاال :

ولكن انظر الي ، وقل لي لماذا تتعلق هذا التعلق الشديد به ؟

- لا ادري . اني لا اتعلق به الى هذا المقدار . انه عظيم . اسمعي يا لولا : يضايقي ان احديثك عنه ، لأنك قلت لي انك لا تطيقينه .

واغتصبت لولا بسمه :

- عجيب كم تدور على نفسك ! ولكن يا عزيزي لم اقل لك اني لا اطيقه . كل ما هناك اني لم افهم قط ما تجده فيه من الأمور العظيمة . ولكن اشرح لي ، فأنا لا اريد الا ان افهم .

وفكر بورييس : « هذا غير صحيح . فلن اقول ثلاث كلمات الا وتأخذ في السعال »

وقال بتحفظ : اجد انه لطيف قريب الى النفس »

- انك تقول لي ذلك دائماً . ليست هذه هي الكلمة التي اختارها لو سئلت . قل لي انه يبدو ذكياً ، وانه مثقف ، فأنا أقرّك علي ذلك . ولكنه ليس لطيفاً قريباً الى النفس . على كل حال ، أتحدث عن شعوري . الشخص اللطيف القريب في رأبي هو من يشبه بورييس ، ومن يكون صريحاً . اما هو ، فانه يجعل الناس في ضيق لأنه متشكك متردد : يخذع من حوله . انظر مثلاً الى يديه .

- ما بال يديه ؟ اني احبها .

- انهما يدان ضخمتان لعامل . وهما ترتجفان دائماً بعض الشيء كما لو انه ينتهي لساعته من عمل مرهق .
- من اجل هذا احبهما !

- ولكن الواقع انه ليس عاملاً . حين اراه يقبض بيده الكبيرة على كأس الويسكي ، يشعرني حقيقة بالقسوة والمتعة ، وانا لا اكره هذا ولكن بعد ذلك ينبغي ألا يراه احد وهو يشرب ، بذلك الفم الغريب الذي يملكه ، فم الاكليريكي . انني لا استطيع ان اشرح لك ، فأنا أجدّه صارماً ، ثم انك اذا نظرت الى عينيه ، ظهر لك بوضوح انه ذو ثقافة : انه شخص لا يحب شيئاً ببساطة ، لا ان يشرب ، ولا ان يأكل ، ولا ان يضاجع النساء ، يحب ان يفكر بكل شيء : وهو في ذلك يشبه الصوت الذي يملكه ، صوت حاسم قاطع لرجل لا يحطىء قط . أنا اعرف ان المهنة تقتضي ذلك ، حين يشرح المعلم الدرس للاطفال : كان لي مدرس يتكلم مثله ، ولكنني لست بعد في المدرسة ، وهذا يضايقني . أنا افهم ان يكون احدنا هذا كله او ذاك كله ، ان يكون وحشاً ، او ان يكون من النوع المتميز ، معلماً او راعياً ، ولكنني لا افهم ان يكون الاثنان معاً . ولا ادري ان كانت هناك نساء يروق لهن ذلك ، ويجب الاعتقاد بأن هناك مثل هؤلاء النساء . اما انا فاصارحك بأنني اشمئز من ان يمستي شخص مثل هذا . وانا لا احب ان اشعر بيديه ، يدي المصارع . تمسّاني ، فيما يريق عليّ حماماً بارداً بنظره الثلج .

واستعادت لولا نَقَسَها . وفكر بوريس : « ما الذي لديها ايضاً ؟ » . ولكنه كان هادئاً جداً . ان الاشخاص الذين كانوا يحبونه لم يكونوا مضطرين الى ان يتبادلوا الحب فيما بينهم ، وكان بوريس يجسد من الطبيعي جداً ان يحاول كل منهم ان ينفّره من الآخرين .
وتابعت لولا بلهجة مصالحة :

- انني افهمك جيداً ، فانت لا تراه بالعينين اللتين اراه بهما ، وانت

متأثر لأنه كان استاذك ، ودليلي على ذلك طائفة من الحركات الصغيرة ، فأنت مثلاً شديد القسوة على الطريقة التي يرتدي بها الناس ثيابهم ، إذ لا تجدهم قط انيقين ، بينما هو بالذات قبيح اللباس دائماً ، ويرتدي ربطة عنق يأنف منها صبيّ فندقى .. والأمر لديك سواء .

واحس بوريس بأنه مخدّر مسالم ، فقال موضعاً :

— لا بأس في ان يرتدي الانسان ثياباً قبيحة اذا لم يكن يهتم بثيابه .

أما المزعج فهو ان يريد ان يبهز الناس ، ثم يفشل في ذلك .

قالت لولا : — اما انت ، فانك لا تفشل ، ايها البغي الصغير !

فقال بوريس بتواضع — انني اعرف ما يناسبني .

وفكر في انه كان يرتدي صدارة زرقاء ذات جانين كئيفين ،

فأخذ السرور : كانت صدارة جميلة . وكانت لولا قد تناولت كفته

واخذت تلاعبها بين يديها . ونظر بوريس الى يده التي كانت تقفز

وتسقط ، وفكر : انها ليست لي ، فكأنها قرص معجنات . ولم يعد

يشعر بها ، فأحس من ذلك بالتسلية ، وحرك اصبعاً ليردها الى الحياة .

ولامس الإصبع راحة لولا ، فرمت له لولا بنظرة عرفان . وفكر

بوريس بانزعاج : ان هذا هو الذي يرعبني . وقال في نفسه انه

كان يكون ايسر عليه ان يبدو رقيقاً لو لم تكن لولا تتخذ غالباً مثل

هذه المظاهر الخاضعة المائعة . اما ان يسمح امام الناس بأن تداعب

امرأة يديه ، فان ذلك لم يكن ليزعجه قط . كان يفكر دائماً بأن

ذلك كان يناسبه : فحتى لو كان وحده ، في المترو مثلاً ، كان

الناس ينظرون اليه دهشين ، وكانت الساقطات الصغيرات اللواتي يخرجن

من المشغل يهزأن به . وقالت لولا فجأة : /

— لم تقل لي حتى الآن لماذا تراه عظيماً الى هذا الحد ؟

كانت هكذا ابدأ ، لا تستطيع قط ان تقف اذا ما بدأت . وكان

بوريس على يقين من انها كانت تعذب نفسها ، ولكنها كانت ولا

شك تحب ذلك ، في آخر الأمر .
ونظر إليها ، وكان الهواء حولها ازرق ، وكان وجهها ذا لون
ابيض مزرق . ولكن عينيها ظلتا محموتين قاسيتين .
- قل ، لماذا ؟

فهدر بوريس قائلاً : - لأنه عظيم . كفاك ملاحظة لي . انه لا
يتعلق بشيء .

- وهل من الخير الا يتعلق احدٌ بشيء ؟ الا تتعلق بشيء انت ؟
- آه بلى . إنني اتعلق بك .

فبدأ على وجه لولا طابع الشقاء ، وادار بوريس رأسه . انه بالرغم
من كل شيء لم يكن يحب ان يطيل النظر اليها اذ تبدو كذلك .
كانت تتأكل نفسها ، وكان يجد هذا شيئاً سخيفاً ، ولكنه لم يكن له
في الأمر حيلة . كان يفعل كل ما كان يتوقف عليه . كان أميناً للولا ،
وكان غالباً ما يتلفن لها ، وكان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لمرافقتها
بعد خروجها من مربع « سومطرا » ، وكان ينام عندها في تلك
الليالي . اما ما دون ذلك ، فالأرجح انه كان قضية مزاج . وقضية
سنن أيضاً ، فالمنسون شرسون ، وهم يعتقدون ان حياتهم هي دائماً
في خطر . حين كان بوريس صغيراً ، ترك ملعقته ذات يوم تسقط
الى الأرض ، فأمروه ان يلمتها ، فرفض ، وركبه العناد . واذ ذاك
قال والده بلهجة جلال لا تنسى : « حسناً ، انا الذي سألمها » .
ورأى بوريس جسماً كبيراً ينحني بتصلب ، ورأساً اصلع ، وسمع
طققة . وكان ذلك تجديدياً لا يُحتمل ، واذ هو ينفجر باكياً .
ومنذ ذلك الحين ، أخذ بوريس يعتبر البالغين كأنهم آلهة ضخام كساح .
فاذا ما انحنوا ، خيّل الى الناس انهم سينكسرون ، واذ ما تعثروا او
سقطوا ، كنتاً بين ان يأخذنا الضحك او تأخذنا الرهبة الدينية . اما اذا
امتألت عيونهم بالدمع ، كما هو شأن لولا الآن ، أسقط في ايدينا .

إن دموع البالغين هي كارثة صوفية ، شيء يشبه الدموع التي يذرفها
الإله على خبائة الانسان . ومن وجهة نظر اخرى ، كان محمد لدى
لولا ان تكون شغوفاً الى هذا الحد . لقد سبق لما تيسو ان شرح له أن
على المرء ان يكون لديه شغف وحاسة ، وكذلك قال ديكرارت .
وقال متابعاً فكرته بصوت عال :

— إن لدى دولارو شغفاً وحاسة ، ولكن ذلك لا يمنعه من ألا
يتعلق بشيء . إنه حر .
— اذا كان الامر كذلك ، فأنا ايضاً حرة ، لانني لا اتعلق
الا بك .

فلم يجب بوريس . وسألت لولا :
— أأنت حرة ؟
— ليس الامران سواء .

وكان ذلك أعسر من ان يُشرح . لقد كانت لولا ضحية ، ثم
انها لم تكن محظوظة ، ثم انها كانت مقلقة أكثر مما ينبغي . وذلك كله
لم يكن في صالحها . ثم انها كانت تنزع الى ان تصبح بطلة ، وقد
كان ذلك امرأ حسناً على نحو ما ، بل كان حسناً جداً ، مبدئياً . وقد
سبق لبوريس ان حدثت ايفيش بذلك ، فاتفقا على ان ذلك كان حسناً .
ولكن كانت هناك الطريقة : فان المرء ينزع الى البطولة ليهدم .
نفسه ، او بدافع من اليأس ، او ليؤكد حرته ، فهو لا يستحق الا
الثناء . اما لولا ، فكانت تفعل ذلك بتخلٍ منهم ، وكانت تلك فترة
استرخائها . بل انها لم تكن حتى متسمة .
وقالت لولا بلهجة جافة :

— انك تضحكني . انها دائماً طريقتك في ان تضع دولارو مبدئياً
فوق الآخرين . ذلك اني أتساءل ، فيما بيننا ، عن يكون أكثر حرية :
هو ام انا ؟ إن له بيته المؤثث . وله راتبه الثابت ، وتقاعده المضمون ،

وهو يعيش كموظف صغير . وبعد هذا كله ، حدثني عن تلك الحياة التي يعيشها مع تلك المرأة التي لا تخرج قط ، فكل شيء كامل ، وليس هناك من يتمتع بالحرية أفضل من ذلك : اما انا ، فليس لي الا أطاري ، وانا وحيدة ، اعيش في الفندق ، بل لست ادري ان كنت سأوفق الى عقد الصيف القادم .

فردد بوريس : - ليس الامران سواء λ وكان منزعجاً . كانت لولا لا تأبه كثيراً للحرية ، وانما كانت تعلق عليها تلك الاهمية الكبيرة ذلك المساء لأنها كانت تريد ان تهزم ماتيو في ميدانه بالذات .

- اوه ! سأقتلك يا عزيزي اذا ظللت هكذا . ماذا ! اي الامرين ليسا سواء ؟

فقال موضحاً :

- انت حرة من غير ان تريدي ذلك . إن هذا يحدث عفواً . اما ماتيو ، فالامر لديه يأتي بالعقل والمحاكمة .

فهزت لولا رأسها وهي تقول : - ما زلت غير فاهمة .

- اسمعي : انه لا يكثر ببنيته ، فهو يعيش هناك كما يعيش في اي مكان آخر ، وأعتقد كذلك انه لا يكثر بالمرأة التي يعيش معها . وهو يبقى معها لانه يجب ان يضاجع امرأة ما . إن حريته لا تُرى ، انها في الداخل .

وكانت لولا تبدو وكأنها غائبة ، وكانت له رغبة لان يعذبها قليلا ليري رد فعلها ، وأضاف :

- أنك تتعلقين بي اكثر مما ينبغي ؛ اما هو فلن يسمح لنفسه ابداً ان يؤخذ على هذا النحو .

فصاحت لولا مجروحة : - هكذا إذن ! اني متعلقة بك اكثر مما ينبغي ، ايها الوحش الصغير ! وتعتقد انه لا يتعلق هو اكثر مما ينبغي

بأختك ؟ لم يكن لك الا ان تنظر اليه ، ذلك المساء في « سومطرا » .
فسألها بوريس : - يتعلق بايفيش ؟ انك تحزنينني بهذا الكلام .
فقهقهت لولا ، وملاً الدخان فجأة رأس بوريس . وانقضت لحظة ،
ثم حدث ان كانت موسيقى الجاز تعزف لحن « مستشفى سان جيمس »
فأخذت بوريس الرغبة في الرقص .
- هل ترقص هذا اللحن ؟

ورقصا . وكانت لولا قد اغمضت عينيها ، فكان يسمع صوت نفسها
القصير . وكان اللوطي الصغير قد نهض واتجه ليدعو راقصة « الجاوى »
الى الرقص . وفكر بوريس بأنه سيراه عن كثب فاغتمبط لذلك . وكانت
لولا ثقيلة بين ذراعيه ؛ وكانت تجيد الرقص ، وكان ينبعث منها عطر
لذيذ ، ولكنها كانت اثقل مما ينبغي . وفكر بوريس بأنه يؤثر الرقص
مع ايفيش . وكانت ايفيش تجيد الرقص إجادة عظيمة . وفكر : « يجب
على ايفيش ان تتعلم استعمال المصفقات » ثم لم يعد يفكر بشيء ، بسبب
رائحة لولا . وضم لولا اليه واستنشق بقوة . ففتحت عينيها ونظرت اليه
باهتمام :

- هل تحبني ؟

فقال بوريس مقطباً وجهه : - نعم .

- ولماذا تقطب وجهك ؟

- هكذا . انك تضايقينني .

- ولماذا ؟ اليس صحيحاً انك تحبني ؟

- بلى .

- لماذا لا تقول لي ذلك قط من تلقاء نفسك ؟ هل يجب عليّ دائماً

ان اسألك عنه ؟

- لانه لا يخطر لي . ان هذه امور متكلفة ، وأجد الا يقولها الانسان .

- أيزعجك ان اقول لك اني احبك ؟

— لا ، تستطيعين انت ان تقولي ذلك ما دام يخطر لك ، ولكن يجب الا تسأليني اذا كنت احبك .
— يا عزيزي ، من النادر ان اسألك عن شيء . يكفيني معظم الوقت ان انظر اليك واشعر اني احبك . ولكن هناك لحظات ارغب فيها ان المس حبك انت .

فقال بوريس برصانة :

— فهمت ، ولكن عليك ان تنتظري ان يخطر لي ذلك ، فان لم يأت من تلقاء نفسه ، فلا معنى له بعد .
— ولكنك انت نفسك تقول ، ايها الساذج الصغير ، بانه لا يخطر لك حين لا تسأل عن شيء .

فاخذ بوريس يضحك وقال :

— هذا صحيح ، انك تريدني احراجي . ولكن تعلمين ان بوسع الانسان ان يكن " لأحد عواطف طيبة ، غير انه لا يرغب في التحدث عنها .

فلم تجب لولا . وتوقفا ، وشفقا ، ثم استؤنفت الموسيقى . ورأى بوريس بسرور ان اللوطني يتجه نحوهما وهو يرقص . ولكن حين تمكن من رؤيته ، اصيب بخيبة شديدة : لقد كان في حوالى الاربعين . كان وجهه يحتفظ بظلاء الشباب ، ولكنه كان قد شاخ من تحته ، وكانت له عينا دمية كبيرتان زرقاوان وفم طفولي ، ولكن كانت تحته عينيه الخفيفتين جيوب ، وتجاعيد حول فمه ، وكان منخراه مقروضين كما لو انه موشك على الموت ، ثم ان شعره الذي كان يشبه من بعيد بخاراً مذهباً ، كان من القلة بحيث لا يكاد يغطي صلعته . ونظر بوريس بذعر الى هذا الصبي المسن " الأمرد وفكر "لقد كان شاباً كان هناك اشخاص جعلوا ليكون عمرهم خمسة وثلاثين عاماً — ماتيو مثلاً — لأنهم لم يكن لهم قط شباب . اما الشخص الذي كان حقاً شاباً ، فقد كان يبقى كذلك

طوال عمره . وكان ذلك يمكن ان يمتد حتى خمسة وعشرين عاماً .
اما بعد ذلك ... فكان شيئاً مريباً ، واخذ ينظر الى لولا ، وقال لها
بسرعة :

– لولا ، انظري إليّ . اني احبك .
وأصبحت عينا لولا ورديتين ، ومشيت على قدم بوريس . واكتفت
بالقول :

– حبيبي .

وودّ ان يصرخ : « ولكن ضمّيني اليك ضمناً أقوى ، أشعريني
بأنني احبك » . بيد ان لولا لم تكن تقول شيئاً ، كانت بدورها وحيدة ،
وكان قد آن لذلك الاوان ! كانت تبتم بغموض ، وكانت قد اسبلت
جفنيها ، وكان وجهها قد انغلق على سعادتها . وجه هاديء فارغ .
وأحسّ بوريس بأنه قد ترك ، وغمرته فجأة الفكرة الخائفة : لا اريد ،
لا اريد ان أشيخ . في العام الماضي ، كان هادئاً لا يفكر قط بهذه
الامور ، اما الآن ، فهو متشائم يحس طوال الوقت بأن شبابه يسيل
من بين اصابعه . حتى الخامسة والعشرين . وفكر بوريس : لديّ بعد
خمس اعوام سفيدة ، وبعد ذلك انسف عربي . ولم يعد يحتمل سماع
هذه الموسيقى والشعور بهؤلاء الناس حوله . وقال :

– هل تخرج ؟

– بعد قليل ، يا اعجوبي الصغيرة .

وعادا الى طاولتهما . ونادت لولا الخادم ووقفت ، ثم ألقت معطفها
المخمل على كتفيها وقالت : « هيا بنا » .

وخرجا . ولم يعد بوريس يفكر باشياء كثيرة ، ولكنه كان يحسّ
بالكتابة . وكان شارع «بلانش» غاصاً بالأشخاص ، أشخاص قساة ومستئين .
والتقيا المايسترو «بيرانيز» من ملهى «الشابوتيه» فحيتياه ، وكانت ساقاه
«القصيرتان» تدرمان تحت كرشه . ربما ترهلت أنا ايضاً . فلا أستطيع

بعد ان انظر الى نفسي في مرآة ، وأشعر بأن حركاتي جافة وكاسرة .
كما لو كنت من الخشب الميت ... وكانت كل لحظة تمرّ ، كانت
كل لحظة تنهك شبابه . ليتني أستطيع ان اوفر نفسي ، ان أعيش على
مهمل ، في بطء ، إذن لربما كسبت بعض السنوات . ولكن من أجل
ذلك ، ينبغي الا انام كل ليلة في الثانية صباحاً ونظر الى لولا بمحمد .
« انها تقتلني » وسألته لولا :

— ما بالك ؟

— ليس بي شيء .

وكانت لولا تسكن في فندق بشارع نافارين . وتناولت مفتاحها من
على اللوحة وصعدا في صمت . وكانت الغرفة عارية ، وكان في احدى
الزوايا محفظة تغطيها البطاقات ، وعلى الجدار الداخلي صورة لبوريس
مثبتة بالمسامير . كانت صورة هوية كبرتها لولا . وفكر بوريس :
« هذه ، هذه ستبقى ، حين اكون قد اصبحت جسماً مهدماً ،
وستظل هيئتي هنا هيئة الشباب . » وكانت به رغبة لتمزيق الصورة .

قالت لولا : — انك كئيب ؟ فاذا هناك ؟

فقال بوريس : — اني منهوك ، واحسّ بألم في رأسي .

ويدت لولا قلقة :

— هل انت مريض يا حبيبي ؟ الا تريد قرصاً ؟

— لا ، لا بأس ، ان الألم يتقلص .

وأخذت لولا ذقنه ورفعت له رأسه :

— يبدو عليك انك ناغم عليّ . الست ناغماً عليّ ؟ بلى ! انت

ناغم ! ماذا فعلت ؟

وبدا عليها انها مذعورة . فاحتجّ بوريس برخاوة :

— لست ناغماً عليك . انت مجنونة .

— بلى انت ناغم . ولكن ماذا فعلت لك ؟ الأفضل ان تقول لي

ذلك ، لأنني استطيع اذ ذاك ان اشرح لك . انه بكل تأكيد سوء تفاهم . وليس لإصلاحه بالأمر المستحيل . بوريس ، ابتهل اليك ، قل لي ماذا هناك .

— لا شيء .

وأحاط بذراعيه عنق لولا وقبلها في فمها . وارتعشت لولا . وتنشق بوريس نفساً معطراً ، وكان يشعر وهو بازاء فمها بعري لزج . وكان مهتاجاً . وغطت لولا وجهه بالقبل ، وكانت تلهث بعض الشيء .

وشعر بوريس بأنه كان راغباً في لولا ، فسره ذلك : لقد كانت الرغبة تُتعب الأفكار السوداء ، بل جميع الأفكار الاخرى . وخلق لنفسه حركة كبيرة في رأسه ، وأفرغ رأسه نفسه من فوق بسرعة . وكان قد وضع يده على كشح لولا ، وكان يلامس بشرتها عبر الثوب الحريري : فلم يكن بعد الا يداً ممددة على بشرة من حرير . وشنّج قليلاً يده فانزلق القماش تحت أصابعه كجلد ناعم ميت . اما البشرة الحقيقية ، فقد كانت تصمد من تحت ، مطاطة ، مثلجة كقفاز من جلد جدي مدبوغ . وقذفت لولا ، بحركة طائفة ، معطفها على السرير ، فانبثقت ذراعاها عاريتين ، وانعقدتا حول عنق بوريس : وكانت تنبعث منها رائحة عطر . وكان بوريس يرى إبطيها المحلوقين المنقطين بنقط صغيرة قاسية ذات لون اسود مزرق : فكأنها رؤوس شظايا صغيرة مغروزة بعمق . وبقي بوريس ولولا واقفين حيث داهمتها الرغبة لأنهما لم يكونا يملكان بعد قوة الذهب . وأخذت ساقا لولا ترتجفان ، وتساءل بوريس عما اذا كانا سيسقطان على مهل فوق السجادة . وضم اليه لولا ، وأحس بعدوبة نهديها الثقيلة . وتنهدت لولا :

— آه !

وكانت قد انقلبت الى خلف ، فاذا هو مسحور بهذا الرأس الأصفر ذي الشفتين المتفتحتين ، هذا الرأس الميدوزي . وفكر : «ان هذه هي آخر

أيامها الجميلة ، وشدها اليه شداً أقوى . « سيأتي صباحٌ تنهار فيه فجأة » ولم يكن يكرهها ؛ وكان يحس وهو مشدود اليها بأنه قاس هزيل ممثليء عضلات ، وكان يغمرها بذراعيه ويحميها من الشيخوخة . ثم اخذته لحظة شرود ونعاس : ونظر الى ذراعي لولا البيضاءين كشعر امرأة عجوز ، فحسب انه يمسك بالشيخوخة بين يديه ، وان عليه ان يشدها بكل قواه حتى ليخنقها . وهممت لولا سعيدة :

— ما أشد ما تَضميني . انك توجعني . انني اشتهيك .

وتخلص بوريس : لقد كان مصدوماً بعض الشيء .

— اعطيني منامتي ، فسوف اخلع ثيابي في غرفة التواليت .

ودخل غرفة التواليت واغلق الباب بالفتاح : كان يكره ان تدخل

لولا فيما هو يخلع ثيابه . وغسل وجهه وقدميه وتسلّى بذرة المسحوق على ساقيه . وكان قد استعاد هدوءه تماماً ، وفكر : « ان هذا لطريف » وكان رأسه شاردأً ثقيلأً ، ولم يعد يعرف جيداً ما يفكر به . وانتهى الى القول « يجب ان احداث دولارو بهذا » . وخلف الباب ، كانت تنتظره ، ولا شك في انها كانت عارية . ولكن لم تكن به رغبة في الاستعجال . جسم عارٍ ، مليء بالروائح العارية ، شيء يبعث على الاضطراب ، وذلك ما لم تكن لولا تريد ان تفهمه . كان عليه الآن ان يدع نفسه يسيل في صميم شهوة باهظة ، ذات مذاق قوي . ان من الممكن احتمالها اذ ينغمر فيها الانسان : اما قبل ذلك ، فلم يكن يسهه الا يخاف منها . وفكر في غيظ : « مهما يكن من امر ، فاني لا اريد ان أقع في الإغماء كالمرّة السابقة . » ومشط شعره بعناية فوق المغسلة ليرى اذا كان يفقد شعره . ولكن لم تسقط منه شعرة على الخرف الابيض . وحين ارتدى منامته ، فتح الباب ودخل الغرفة .

وكانت لولا متحددة على السرير عارية . كانت لولا اخرى ، مسترخية ونحيقة ، وكانت ترصده عبر جفونها . وكان جسدها فوق الغطاء الازرق

ذا لون ابيض مفضّض ، كبطن سمكة ، مع طاقة شعر احمر في شكل
مثلث . كانت جميلة . واقترب بوريس من السرير وتأملها في مزيج من
الاغترام والاشمئزاز ، وبسطت له ذراعيها ، وقال بوريس :
- انتظري .

وضغط على الزر ، فانطفأ النور . وامست الغرفة حمراء كلها :
فقد كان معلقاً منذ حين على البناية المقابلة ، في الطابق الثالث ، إعلان
مضيء . وتمدد بوريس الى جانب لولا وأخذ يلامس كتفيها ونهديها .
وكانت بشرتها من العذوبة حتى ليخال انها كانت محتفظة بثوبها الحريري .
وكان نهديها رخوين بعض الشيء ، ولكن بوريس كان يحب ذلك : لقد
كانا نهدي امرأة عاشت . وكان اطفاء النور بلا جدوى ، فقد كان
بوريس يرى ، بسبب ذلك الاعلان اللعين ، وجه لولا مصفراً في اللون
الاحمر ، ذا شفتين سوداوين : كان يبدو عايبها انها تتألم ، وكانت عينها
قاسيتين . وأحس بوريس بأنه ثقيل فاجع ، كما حدث له في «نيم» حين
قفز الثور الاول الى الحلبة : ان شيئاً ما سيقع ؛ شيئاً لا مفر منه ،
شيئاً مريعاً تافهاً ، كموت الثور الدامي . وقالت لولا مبتهلة :
- اخلع منامتك .

فقال بوريس : - لا .
وكان هذا امرأ طقسياً . كانت لولا في كل مرة تطلب منه ان يخلع
منامته وكان بوريس مضطراً للرفض . وانزلت يدا لولا تحت سترته
وأخذتا تلامسانه على مهل . وجعل بوريس يبكي .
- انك تدغدغيني .

وتعانقا . وبعد لحظة ، أخذت لولا يد بوريس وضغطتها على بطنها ،
لدى طاقة الشعر الاحمر : كان لها دائماً متطلبات غريبة ، وكان بوريس
يضطر احياناً لمقاومتها . وترك ، لبضع لحظات ، يده ممدودة بلا حركة
عند فخذي لولا ، ثم صعد بها على مهل حتى كتفيها . وقالت لولا

وهي تجذبه اليها :

- تعال ، اني اعبدك ، تعال ! تعال !

وما لبثت ان هممت ، وقال بوريس في نفسه : « حسناً ، سوف أقع في الاغماء ! » وكانت موجة لزجة تصعد من جنبه الى رقبته. وقال بوريس وهو يكثر على اسنانه « لا اريد » ؛ ولكن خيل اليه فجأة انه كان يُرفع من عنقه ، كأنه ارنب ، فترك جسده ينبطح على جسد لولا ، ولم يعد الا دوراناً شهوانياً احمر . وقالت لولا :

- حبيبي .

وأزاحت جانباً على مهل وخرجت من السرير . وظل بوريس متلاشياً ، ورأسه في الوسادة . وسمع لولا تفتح باب غرفة التواليت وفكر : « حين ينتهي الامر معها ، فسأكون طاهراً . اني لا اريد قصصاً بعد . اني اشتهت من المضاجعة . ولكي اكون منصفاً ، اعترف بأنني لا اشتهت من ذلك الى هذا الحد ، ولكني استفظع السقوط في الاغماء . ان المرء لا يدري عند ذلك ما يفعله بعد ، ويشعر بأنه قد سيطر عليه ، فاذا يجدي بعد هذا ان يكون قد اختار امرأة ما ؟ سيكون الامر سواء مع جميع النساء ، اذ يصبح فيزيولوجياً . » وردد بنفور : فيزيولوجي ! وكانت لولا تغتسل لليل . وكان صوت الماء عذباً بريئاً ، فاستمع اليه بوريس بسرور . لقد كان مهلوسو العطش في الصحراء يسمعون مثل هذه الاصوات ، اصوات ينبوع . وحاول بوريس ان يتصور انه كان مهلوساً . لقد كانت الغرفة ، والضوء الاحمر ، وقرقرة المياه ، كل ذلك كان هولوسات ، وانه يوشك ان يجد نفسه في الصحراء ، مضطجعاً على الرمل . وعلى عينيه خوذته الفلّينية . وبرز له فجأة وجه ماتيو ، ففكر : « ان هذا لظريف . اني احب الرجال اكثر من النساء . اني اذا اكون مع امرأة ، لا ابلغ من السعادة ربع ما ابلغه اذ اكون مع رجل . على اني لا اود بأي ثمن ان انام مع رجل . » وابتهج وهو يفكر : « راهباً

سأصبح حين اترك لولا! وأحس بأنه خشن "نقي". وقفزت لولا الى السرير وأخذته بين ذراعيها وهي تقول :

- يا صغيري ! يا صغيري !

وداعبت شعره ، وسادت لحظة صمت طويلة . وكان بوريس قد بدأ يرى نجوماً تدور حين اخذت لولا تتكلم . وكان صوتها غريباً جداً في الليل الاحمر .

- ليس لي غيرك يا بوريس ، اني وحيدة في العالم ، فيجب ان تحبني كثيراً ، وانا لا استطيع ان افكر بسواك . اذا فكرت في حياتي ، تأخذني الرغبة في ان ألقى بنفسي في الماء ، فيجب ان افكر فيك طوال النهار . فلا تكن قاسياً يا حبيبي ولا تؤذني ، انت كل ما يبقى لي . اني بين يديك يا حبيبي ، فلا تؤذني . لا تؤذني ابداً ، اني وحيدة جداً ! واستفاق بوريس منتفضاً وواجه الموقف بوضوح ، فقال بصوت جلي :
- اذا كنت وحيدة ، فلأنك تحبين ذلك ، ولأنك ذات كبرياء .
والا لأحبيت رجلاً اكبر منك سناً . اما انا ، فاني شاب اكثر مما ينبغي ، ولا استطيع ان امنعك من ان تكوني وحيدة . وعندي فكرة
انك قد اخترتني من اجل هذا .

قالت لولا :

- لا ادري ، اني مشغوفة بحبك . هذا كل ما ادريه .
وكانت تضمه بوحشية بين ذراعيها . وسمعتها بوريس تقول كذلك :
« اني اعبدك » ثم استغرق في نوم عميق .

للصيف . كان الهواء فاتراً كثيفاً ؛ وكان ماتيو يسير وسط المرتفع ،
تحت سماء صافية ، وكانت ذراعاها تجدفان ، وهما تُبعدان بُسْطاً ذهبية
ثقيلة . الصيف . صيف الآخرين . اما في نظره ، فقد كان نهار اسود
يبتدىء ، وهو سيزحف متلوياً حتى المساء ، عملية دفن تحت الشمس .
عنوان . المال . لا بد من الركض في اربع زوايا باريس . ساره
ستعطي العنوان . ودنياال يدينه المال . او جاك . لقد حلم بأنه كان
قاتلاً ، وكان باقياً له شيء من الحلم في جوف عينيه ، سحقه ضغطه
الثور الباهر . ١٦ شارع دولامبر . كانت سارة تسكن هناك ، في
الطابق السادس ، وكان المصعد لا يعمل طبعاً . ورتي ماتيو الدرج على
قدميه . كانت خلف الابواب المغلقة نساء يرتبن البيوت وقد ربطن على
صدورهن وزرة ، وعقدن على رؤوسهن منشفة ؛ كان النهار بالنسبة
اليهن ايضاً يبتدىء . اي نهار ؟ كان ماتيو يلهث لهائماً خفيفاً حين
دق الجرس ، وفكر / « يجب عليّ ان اترتض » وفكر بضجر :
« اقول ذلك كلما رقيت درجاً . » وسمع كردهة دقيقة ؛ وفتح له
الباب رجل قصير اصلع ذو عينين صافيتين ، وكان يبتسم . وعرفه
ماتيو : كان المانياً مهاجراً سبق له ان رآه مراراً في مقهى « الدوم »

وهو يرشف مفتوناً فنجان قهوة بالكريم ، او وهو منحنٍ فوق شطرنج يتأمل احجاره ويلحس شفثيه الغليظتين . وقال ماتيو :
- اودّ ان ارى سارة .

فاكتسى وجه الرجل القصير بالجدّ ، وانحنى وهو يصفق عقبه ؛ وكانت اذناه بنفسجيتين . وقال بتصلب :
- اسمي ويمولر .

فقال ماتيو من غير ان يتأثر : - واسمي دولارو .
واستعاد الرجل القصير ابتسامته البشوش وقال :

- ادخل ، ادخل . انها تحت ، في الاستديو . وستكون سعيدة جداً .
وأدخله في الممر ثم اختفى وهو ينطنط . ودفع ماتيو الباب الزجاجي وولج ستوديو غوميز . وتوقف على سطيحة الدرج الداخلي وقد بهره النور الذي كان يتدفق من الشبابيك الزجاجية الكبيرة المغبرة . وطرف ماتيو بعينيه ، وكان رأسه يؤله .

وقال صوت ساره : - من هناك

فانحنى ماتيو فوق الدرايزين . وكانت ساره جالسة على الديوان ، وهي تلبس « كيمونو » اصفر ، وكان يرى رأسها تحت شعر متصلب قليل . وكان يضيء قبالتها مصباح : هذا الرأس الاحمر ، رأس الاصعل . . .
وفكر ماتيو منزعجاً : « انه برونه » ولم يكن قد رآه منذ ستة اشهر ، ولكن لم يكن يسره قط ان يلقاه ثانية لدى ساره : ان ذلك مربكٌ حقاً ، وإن لديهما اشياء كثيرة يقولانها ، وان صداقتهما المختصرة كانت منتصبة بينهما . ثم ان برونه كان يجلب معه جوّ الخارج ، عالماً سليماً برمته ، عالماً قصيراً عنيداً بثوراته وعنفه ، وعمله اليسدوي وجهوده الصابرة ونظامه ؛ إنه لم يكن بحاجة للاستماع الى السرّ الصغير المغيّب ،

(١) القصير الرأس .

سر المخدع ، الذي قدم ماتيو ليبوح به الى ساره . ورفعت ساره رأسها وابتسمت قائلة :

— مرحباً ، مرحباً .

فبادلها ماتيو بسمتها : وكان يرى ، من فوق ، هذا الوجه المسطح الذي زال رونقه وتأكلته الطيبة ، وبرى تحته الثديين الكبيرين الرخوين اللذين كانا يبدوان الى نصفهما خارج الكيمونو . واسرع بالهبوط ، وسألته ساره :

— ما الذي جاء بك ؟

فقال ماتيو : — يجب ان اسألك شيئاً .

فتورد وجه ساره شراهة وقالت :

— كل ما تريد .

واضافت وقد ابهجها السرور الذي كانت تقدر انها ستمنحه إياه :

— اتلدري مَنْ عندي ؟

والثفت ماتيو الى برونيه وصافحه . وكانت ساره ترنو اليهما بعين حنان . وقال برونيه :

— مرحباً ، ايها الاشتراكي الخائن العتيق !

وكان ماتيو مسروراً بأن يسمع هذا الصوت ، رغم كل شيء . وكان برونيه هائلاً وشديداً ، ذا وجه فلاحى بطيء التعبير . ولم يكن يبدو عليه انه قريب الى القلب بصورة خاصة . وقال ماتيو :

— مرحباً ، حسبتك قد متّ .

فضحك برونيه من غير ان يجيب . وقالت ساره بنهم :

اجلس بالقرب مني .

وكانت تعلم انها ستؤدي له خدمة ، فهو الآن ملكها . وجلس ماتيو . وكان بابلو الصغير يلعب تحت الطاولة بأجسام مكعبة . وسأل ماتيو :

– ما اخبار غوميز ؟
قالت ساره : – انها الاخبار عينها . انه في برشلونه .
– وهل بلغك شيء من انبائه ؟
فأجابت ساره ساخرة : – في الاسبوع الماضي كتب لي يروي
انتصاراته !

والتمعت عينا برونيه :
– اتعلم انه اصبح كولونيلاً ؟
كولونيل . وفكر ماتيو برجل الامس فانقبض قلبه . اما غوميز ،
فقد ذهب ، هو . كان ذات يوم قد علم من جريدة «باري سوار»
سقوط «ايرون» . فظل وقتاً طويلاً يذرع مرسمه جيئة وذهاباً ، وهو
يمرر اصابعه عبر شعره الاسود . ثم هبط وهو عاري الرأس ، مرتدياً
سترته . وظل المرسم في الحالة التي تركه عليها : لوحة غير ناجزة على
المسند ، ولوح من النحاس محفور نصف حفر على الطاولة ، وسط زجاجات
الحامض وكانت اللوحة والنقش يمثلان الأنسة ستيمنسون . وكانت عارية
في اللوحة . وتمثلها ماتيو ثملة رائعة تغني بصوت ابحح وذراعها في
ذراع غوميز . وفكر : « مهما يكن من امر ، فقد كان اقمى مما
ينبغي مع ساره . » وسألته ساره بصوت جدل :

– ايبكون الوزير هو الذي فتح لك ؟
لم تكن تريد ان تتحدث عن غوميز . وكان قد سبق لها ان غفرت
له كل شيء ، خياناته وفراره وقسوته . ولكنها لم تغفر له هذا ،
رحياه الى اسبانيا : فقد ذهب ليقتل بشراً . وقد قتل بعض البشر .
وقد كانت الحياة البشرية ، في رأي ساره شيئاً مقدساً .

وسألها ماتيو دهشاً : – اي وزير ؟
فقالت ساره باعتزاز ساذج :
– الفأر الصغير ذو الاذنين الحمرابين ، هو وزير . لقد كان عضواً

في حكومة مونيخ الاشتراكية عام ٢٢ . اما الآن ، فهو يموت جوعاً .
- وطبعاً ، التقطته انت ؟
فأخذت ساره تضحك .

- لقد جاءني يحمل محفظته . والحقيقة انه لم يبق له مكان يذهب
اليه . وقد طردوه من فندقه لأنه لم يكن يملك بعد ما يدفعه .
فعدّ ماتيو على اصابعه وقال :

- مع « انيا » و « لوبيز » و « ساني » يصبح نزلًاوك اربعة
فقال ساره بلهجة اعتذار :

- اما « انيا » فذاهبة . لقد وجدت عملاً .
قال برونيه :

- يا للحاقة !

- ماذا ؟ ما هي الحاقة ؟

قالت ساره وهي تضع يدها على ذراع ماتيو :

- آه ، تعال لنجدتي ، يا عزيزي ماتيو .

- ولكن ما هي القصة ؟

قال برونيه لساره بلهجة استياء :

- ان الامر لا يهم ماتيو :

ولم تكن تصغي اليه بعد ؛ فقالت بلهجة اشفاق :

- انه يريدني ان اطرد وزيرتي .

- تطردينه ؟

- ويقول اني مجرمة لاحتفاظي به .

فقال برونيه بهدوء : - ان ساره تبالغ .

والتفتت الى ماتيو ، واخذ يشرح له ، على مضض :

- الواقع ان لدينا معلومات سيئة عن هذا الرجل . ويبدو انه كان

منذ ستة اشهر يجوس ممرات السفارة الالمانية . وليس المرء بحاجة لأن

يكون داهية ليفهم ما يمكن لمهاجر يهودي ان يفعل هناك .
قالت سارة : - ليست لديك ادلة .
- أجل . ليس لنا ادلة . ولو كان هناك ادلة ، ما كان هنا قط .
ولكن حتى ولو لم يكن هناك الا تخمينات ، فان سارة عديمة الحذر
بايوائه .

وقالت سارة بحماسة : - ولكن لماذا ؟ لماذا ؟
قال برونيه برقة : - اسمعي يا ساره ! انك على استعداد لنسف
باريس كلها من اجل ان تجنّبي الذين تحمينهم ايّ ازعاج !
فابتسمت سارة ابتسامة خفيفة وقالت :
- ليس باريس كلها . ولكن المؤكد انني لن أضحّي بـ «ويمولر»
من اجل قضاياك الحزبية . إن ... إن الحزب امر مجرد تماماً .
قال برونيه : - هذا ما كنت اقول بالذات .
فهزت ساره رأسها بعنف ، وكان وجهها قد احمرّ وعيناها الكبيرتان
الخضراوان قد دمعتا ، فقالت بغیظ :
- الوزير الصغير ، لقد رأيتك يا ماتيو ، فهل يمكن ان يؤذي حتى
ذبابه !

وكان هدوء برونيه عظيماً . كان هدوء البحر . وكان ذلك مهدّئاً
ومغيظاً في الوقت نفسه . لم يكن يبدو عليه قط انه رجل واحد ، بل
كان يعيش حياة جمهورٍ كامل بكل هدوئها وصمتها وصخبها . ووضح
قائلاً :

- إن غوميز يرسل لنا احياناً بعض الرسل ، وهم يأتون الى هنا
فنلتقيهم في منزل ساره ، وانت تدرك ان الرسائل التي يحملونها سرية ،
أفيكون هذا هو المكان الذي تختاره من جميع الأمكنة لتستضيف فيه
رجلاً اشتهر بأنه جاسوس ؟
فلم يجب ماتيو . كان برونيه قد استعمل الصيغة الاستفهامية ، ولكن

ذلك كان امرأ خطابياً : انه لم يكن يسأله رأيه . ولقد انقضى وقت طويل على انقطاع برونيه عن اخذ رأي ماتيو في اي أمر من الامور .
- انني اجعلك حكماً يا ماتيو : اذا طردت « ويمولر » قذف نفسه في نهر السين . (ثم اضافت بلهجة يائسة) فهل يحق لنا حقاً ان ندفع انساناً الى الانتحار لمجرد شبهة ؟

وكانت قد انتصبت ، قبيحة ومشرفة ، لتولد في نفس ماتيو شعور المشاركة الملتطخة الذي يحس به المرء تجاه المسحوقين والمصابين والمرضى بالالتهابات والقروح . وسأل :

- هل الأمر جدّ ؟ هل سيقذف نفسه في السين ؟
فقال برونيه : - طبعاً لا ، بل سيعود الى السفارة الالمانية وسيحاول ان يبيع نفسه كلياً ...

قال ماتيو : - الامر سواء . انه في جميع الاحوال هالك .

فهز برونيه كتفه بلا مبالاة وقال :

- نعم ، صحيح .

قالت ساره وهي تنظر اليه بقلق :

- اتسمعه يا ماتيو ؟ اذن ، من هو على صواب ؟ قل شيئاً .
ولم يكن لدى ماتيو ما يقوله . لم يكن برونيه يسأله رأيه ، وما عساه يجديه رأي رجل بورجوازي ، مثقف قذر ، كلب حراسة ؟
« سوف يستمع بتأدب مثلج ، ولكنه لن يكون اشد تائراً من صخرة ، وسيديني بما اقوله ، وهذا كل ما في الأمر . » ولم يكن ماتيو يريد ان يدينه برونيه . وقد كان ثمة فترة لم يكن احدهما يدين فيها الآخر ، بصورة مبدئية . وكان برونيه يقول آنذاك :
ان الصداقة ليست مجعولة للانتقاد ، وانما هي مجعولة لمنح الثقة .
ولعله ما زال يقول ذلك ، ولكنه اذا قاله الآن ، فانما يعني رفاقه في الحزب .

وقالت ساره : ماتيو !

فانحنى برونيه نحوها ولامس ركبتيها وهو يقول بهدوء :
- اسمعي يا ساره . انني احب كثيراً ماتيو ، واقدر ذكاه . وحين
يكون الأمر ان يُوضّح مقطع من سبينوزا او من كانط ، فهو الذي
استشير به بكل تأكيد . اما هذه القضية ، فهي بليدة جداً ، واقسم لك
انني لست بحاجة الى حكم ، حتى ولو كان استاذ فلسفة . لقد حددت
موقفي .

وفكر ماتيو : طبعاً . طبعاً . وكان قلبه قد انقبض ، ولكنه لم يكن
ناقماً على برونيه . من اكون حتى اعطي النصائح ؟ وما الذي فعلته في
حياتي ؟ وكان برونيه قد نهض فقال :

- يجب ان امضي . وطبعاً ، ستعملين ما تشائين ، يا ساره . انت
لست من الحزب ؛ ومع ذلك فان ما تؤدينه لنا عظيم . ولكن اذا
احتفظت به ، فاني اطلب اليك ببساطة ان تمرّتي عليّ حين يرسل لك
غوميز اخباره .

فقالت ساره : - حسناً .

وكانت عيناها تلتصقان ، وكان يبدو انها قد تحرّرت . وقال
برونيه :

- ولا تدعي شيئاً يظهر . احرقني كل شيء .
- اعدك بذلك .

والتفت برونيه الى ماتيو :

- هيياً ، الى اللقاء ، ايها الأخ القديم .

ولم يمدّ يده ، وكان يتأمله بتنبّه ، وبشيء من القسوة ، نظرة
مارسيل ، مساء امس ، ودهشتها الحاقدة . وكان عارياً تحت نظراته ،
شخصاً طويلاً عارياً ، من لبّ الحيز . شخصاً مرتبكاً عديم الخلق .
من اكون حتى اعطي نصائح ؟ وطرف بعينه : كان برونيه يبدو قاسياً

ذا عقد . اما انا ، فاني أحمل الإجهاض على وجهي . وتكلم برونيه فلم يكن صوته ذاك الصوت الذي كان ماتيو ينتظره ، إذ قال بهدوء :

— إن سحنتك رديئة . فما الذي تشكوه ؟

وكان ماتيو قد نهض ايضاً :

— انني واقع في ... ارتباك . ولكن لا أهمية لذلك .

فوضع برونيه يده على كتفه . وكان ينظر اليه متردداً :

— إنها لحماقة . يضيع المرء كل وقته وهو يعدو ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يجد وقتاً للاهتمام بالاصدقاء القدامى . فلو انك مت ، فسأعلم نبأ موتك بعد شهر ، وبالصدفة .

قال ماتيو ضاحكاً : — لن اموت في مثل هذا التاريخ المبكر .

وأحس بقبضة برونيه على كتفه ، وكان يفكر : « إنه لا يدبني » فأحس بعرفان متواضع يستولي عليه . وظل برونيه جاداً فقال :

— لا ، ليس في مثل هذا التاريخ المبكر . ولكن ...

وبدا عليه اخيراً انه يعزم :

— هل انت حرّ حوالى الساعة الثانية ؟ ان عندي بعض فراغ ، وبوسعي ان اقفز الى بيتك ، ويمكننا ان نتحدث قليلاً ، كالسابق . فقال ماتيو :

— كالسابق ، انني حرّ تماماً . وسأنتظرك .

وابتسم له برونيه بصداقة . وكان قد احتفظ ببسمته الساذجة المرحّة . واستدار حول نفسه ، وتوجه نحو السلم . وقالت ساره :

— سأرافقك .

وتبعها ماتيو بعينيه . وكان برونيه يرقى الدرج بمرونة اخاذة . وقال في نفسه : « لم يضع كل شيء . » واختلج شيء ما في صدره ،

شيء فاتر ومتواضع كان يشبه الأمل . وخطا خطوات . واصطفق الباب فوق رأسه . وكان بابلو الصغير ينظر اليه بوقار . واقترب ماتيوي من الطاولة واخذ مقصاً . وطارت ذبابة كانت قد حطت على صفحة النحاس . وكان بابلو ما يزال ينظر اليها . واحس ماتيوي بالانزعاج ، من غير ان يعرف السبب . وكان لديه شعور بأن عيني الصبي تبلعانه . وفكر : « ان الصبيان هم شرهون صغار ، وجميع حواسهم أفواه » . لم يكن نظر بابلو نظراً انسانيّاً بعد ، ومع ذلك فقد كان شيئاً أكثر من الحياة : فلم يمض وقت طويل على خروج الطفل من بطن ، وكان هذا يُرى واضحاً ، كان هناك ، صغيراً ، متردداً ، وكان لا يزال محتفظاً بأثر خملي وخم من شيء مُقاء ، ولكن كان يكمن وراء الاخلاط المضطربة التي كانت تملأ محجريه وجدان صغير نهم . وكان ماتيوي يلعب بالمقص . وفكر « ان الطقس حار » . وكانت الذبابة تطن حوله ، كان هناك ، في حجرة وردية ، داخل بطن آخر ، جسم صغير متجعد ينتفخ . وسأله بابلو :

— أتعلم بمَ حلمت ؟
— كلا .

— حلمت بأني كنت ريشة .

فقال ماتيوي في نفسه : « انه يفكر ! » وسأله :

وماذا كنت تفعل حين كنت ريشة ؟

— لا شيء . كنت نائماً .

ورمى ماتيوي فجأة بالمقص على الطاولة ، فاخذت الذبابة ترفرف مذعورة ، ثم حطت على صفحة النحاس بين فُرصتين رقيقتين تمثلان ذراع امرأة . كان لا بد من الاسراع ، لأن الجسم الصغير كان ينتفخ في هذه الأثناء ، وكان يبذل جهوداً غامضة لكي ينزع عنه الغطاء اللزج ، ولكي ينتزع نفسه من الظلمات ، ويصبح شبيهاً بهذا ، بهذا المحجم الشاحب الرخو

الذي كان يلتهم العالم .

وخطا ماتيو بضع خطوات على الدرج . وكان يسمع صوت ساره .
لقد فتحت الباب ووقفت على العتبة تبسم لبرونيه . ما الذي تنتظر لتهبط ؟
وانفتل الى الصبي والى الذبابة . صبي . لحم مفكر يصرخ وينزف .
حين يُقتل . إن الذبابة أسهل قتلاً من صبي . وهز كتفيه : « انني
لن اقتل احداً . انما سوف امنع طفلاً من ان يولد . » وكان بابلو قد
عاد يلعب بمكعباته ، كان قد نسي ماتيو . ومد ماتيو يده ولمس الطاولة
باصبعه . وكان يردد لنفسه بدهشة « امنع ولادة ... » فكأتما كان ثمة
في مكان ما طفل جاهز ينتظر ساعة القفز من هذه الناحية من الديكور ،
في هذه الغرفة تحت هذه الشمس ، وكان ماتيو يسد عليه الطريق .
والواقع ان ذلك كان كذلك تقريباً : كان ثمة رجل قصير متنكر وماكر ،
كاذب وأليم ، ذو بشرة بيضاء ، واذنان عريضتان وشامات ، مع قبضة
من العلامات الفارقة تشبه تلك التي توضع على الجوازات ، رجل قصير
لن يعدو قط في الطرقات ، لأن له قدماً على الرصيف واخرى في
الساقية ، وكان ثمة عينان ، عينان خضراوان كعيني ماتيو او سودوان
كعيني مارسيل اللتين لن تريا ابداً سماوات الشتاء المخضرة ، ولا البحر ،
ولا أي وجه ، وكان ثمة ايدٍ لن تلمس الثلج ابداً ، ولا بشرة النساء ،
ولا لحاء الشجر : كان ثمة صورة للعالم دامية ، مضيئة ، عابسة مهووسة ،
كثيية ، تفيض بالآمال ، صورة تغمرها الحدائق والبيوت وفتيات فارعات
رقيقات ، وحشرات مريعة ، صورة توشك ان تُفجّر برأس دبوس
ككرة من كرات اللوفر . قالت ساره :

— ها أنذا ، هل جعلتك تنظر !

فرفع ماتيو رأسه واستشعر التفريج : كانت منحنية على الدرزين ،
ثقيلة قبيحة ، كانت امرأة بالغة ، لحماً قديماً يبدو وكأنه خارج من
الملوحة وكأنه لم يولد قط ، وابتسمت له ساره وهبطت الدرج مسرعة ،

وكان الكومينو يتطاير حول ساقها القصيرتين . وقالت بشراهة :

– نعم ؟ ماذا هناك ؟

وكانت عيناها الكبيرتان المضطربتان تنفحصانه بالحاح . وانفتل وقال بحفاء :

– ان مارسيل حامل .

– اوه !

وكان يبدو على سارة انها اقرب لأن تكون مغتيبة . وسألت بنجل :

– إذن .. سوف ..؟

قال ماتيو بحماسة : – لا ، لا . اننا لا نريد اطفالاً .

قالت : – حسناً ، فهمت .

وخفضت رأسها ولزمت الصمت ، ولم يستطع ماتيو ان يحتمل هذا الحزن الذي لم يكن حتى عتاباً ، فاستطرد يقول بوحشية :

– أظن ان ذلك قد حصل مرة معك ، كما اخبرني غوميز .

– نعم . في الماضي .

ورفعت عينيها فجأة وازافت باندفاع :

– ان هذا ليس ذا اهمية على الاطلاق اذا أدرك في حينه .

وكانت تمتنع عن ادانته ، وكانت تتخلى عن تحفظاتها وعن مأخذها ، ولم يكن لها بعد الا رغبة واحدة ، هي ان تطمئن .

– ليس الأمر بذي بال على الاطلاق ...

وكان يوشك ان يبتسم وان يواجه المستقبل بثقة ؛ ستكون وحدها التي تحمل الحداد بسبب هذه الميتة الصغيرة الخفية . وقال ماتيو مغتاضاً :

– اسمعي يا ساره ، وحاولي ان تفهميني : اني لا اريد ان اتزوج .

وليس ذلك بدافع من انانية ؛ ولكني اجد الزواج ...

وصمت : كانت ساره متزوجة ، كانت قد تزوجت غوميز منذ

خمس سنوات . واضاف بعد لحظة :
- ثم ان مارسيل لا تريد اولاداً .
- الا تحب الاولاد ؟
- ان هذا لا يهتأ .
فبدا على سارة الامتعاض وقالت :
- نعم ، نعم .. اذن ، في الحقيقة ...
وأخذت يديه :

- ماتيو ، يا صديقي المسكين ، لا بد انك كثير الانزعاج ! وبودي
لو استطيع ان اساعدك .
قال ماتيو : - هذا بالذات ما اريده . انك تستطيعين ان تساعدينا .
حين حدث لك ذلك ... الانزعاج ، ذهبت ترين احدآ ما ، رجلاً
روسياً ، على ما اظن .

قالت ساره : - نعم (وتغيرت سحتها) كان ذلك مريعاً !
فقال ماتيو بصوت عكر : - آه .. انه .. انه مؤلم جداً .
- ليس ألم مما ينبغي ، ولكن ... (وقالت بلهجة اشفاق) كنت
افكر بالطفل . انت تعلم ان غوميز كان يريده . وحين كان يريد
شيئاً ما ، في ذلك العهد ... ولكن ذلك كان مريعاً .. وابدأ لن ..
ان بوسعه ان يبتهل إليّ وهو جاثٍ على ركبتيه ، الآن ، ولكنني لن
اعيدها ابدأ .

ونظرت الى ماتيو بعينين شاردتين :
- لقد اعطوني حزمة صغيرة ، بعد العملية ، وقالوا لي « لاقدني
ذلك في بالوعة » . في بالوعة . كجرذ ميت !
وأضافت وهي تضم يديه بقوة : - اسمع يا ماتيو ! انك لا تعلم
ما انت قادم عليه !
فسألها ماتيو غاضباً :

- واذا وضعت ولدأ ، اترك تكونين اكثر علماً مني ؟

طفل : وجدان جديد ، نور صغير جديد يطير مستديراً ، فيصطدم بالجلدران ويعجز عن الفرار بعد .

– لا ، وانما اقصد : انت لا تعلم ما الذي تطلبه من مارسيل ؛ انني اخشى ان تكرهك فيما بعد .

وتمثل ماتيو عيني مارسيل ، عينيها الكبيرتين القاسيتين المحاطتين بدائرة مزرقة . وسأل بجفاء :
– هل تكرهين غوميز ؟

فأتت ساره حركة اشفاق وعجز : انها لم تكن تستطيع ان تكره احداً ، ولا سبها غوميز . ثم قالت بلهجة غامضة :

– مهما يكن من امر ، فليس بوسعي ان ارسلك الى هذا الروسي الذي ما زال يعمل ، ولكنه يشرب الآن ، فليست لي به ثقة بعد ، وقد حدثت له قصة قدرة منذ عامين .

– الا تعرفين شخصاً آخر ؟

فقالت ساره بهدوء : – لا اعرف احداً .

ولكن طيبتها كلها ما لبثت ان انبثقت على وجهها فجأة فصاحت :

– بلى ، بوسعي ان ارشدك ، فكيف لم افكر بذلك ؟ سوف

اتدبر الامر ، والدمان . ألم تره عندي ؟ يهودي متخصص بالأمراض النسائية . انه اخصائي الاجهاض ، على نحو ما وستكون معه مطمئناً .

لقد كان له في برلين زبائن كثيرون . وحين استولى النازيون على السلطة ، ذهب يقيم في فيينا . وبعد ذلك ، حدث الانشلونس فأبحر الى باريس يحمل بيده محفظة صغيرة . ولكن كان قد حول كل ماله الى زوريخ قبل ذلك بوقت طويل .

– اتظنين انه سيقبل ؟

– طبعاً . انني ذاهبة لأراه اليوم بالذات .

فقال ماتيو : – انني مسرور . مسرور جداً . هل يأخذ اجراً

غالباً جداً ؟

- كان يتقاضى هناك حتى ألفي مارك .

فامتقع ماتيو :

- عشرة آلاف فرنك ؟

فأضافت بحموية :

- ولكن ذلك سرقة. كان يحمل الناس على ان يدفعوا ثمن شهرته .
أما هنا ، فلا يعرفه احد ، ولا بد ان يكون معقولاً . وسوف اعرض
عليه ثلاثة آلاف فرنك .

فقال ماتيو وهو يركز على اسنانه : - حسناً .

وكان يتساءل : « من اين آتي بهذا المال ؟ »

وقالت ساره : - اسمع ، لماذا لا اقصدك منذ هذا الصباح ؟ انه
يسكن شارع « بليز ديغوف » وهو قريب جداً . سوف ارتدي ثيابي
وأهبط . فهل تنتظرنني ؟

فقال ماتيو : - لا ... ان عندي موعداً في العاشرة والنصف . انك

جوهرة يا ساره .

وأخذها من كتفيها وهزتها وهو يبتسم . لقد أزالته عنه اعرق مخاوفه
وجعلت من نفسها ، بدافع السباحة ، شريكة عمل كان يوحى بالذعر :
كانت تشع سروراً . وسألته :

- اين ستكون حوالي الحادية عشرة ؟ ان بوسعي ان اخابرك

بالتفون .

- سأكون في مقهى « ديبون » بشارع سان ميشال . وبوسعي ان

ابقي فيه حتى تتصلي بي .

- في « ديبون » ؟ اتفقنا .

وكان مئزر ساره قد انفتح عن ثدييها الهائلين . فضمها ماتيو اليه

بدافع حنان ، وحتى لا يرى جسدها بعد . قالت ساره :

- الى اللقاء ، الى اللقاء ، يا عزيزي ماتيو .

ورفعت اليه وجهها الرقيق الذي زال رونقه . وكان في هذا الوجه
تواضع يثير الاضطراب والشهوة ويرغب في إيذائها وارهاقها بالحجل .
كان دانيال يقول : « حين اراها ، افهم معنى السادية . » وقبلها
ماتيو على خديها .

* * *

« الصيف ! » كانت السماء تسلط على الشارع ، وكانت شبحاً
معدنياً ؛ كان الناس يعومون في السماء ، وكانت وجوههم تتوهج .
وتنشق ماتيو رائحة خضراء حية ، غباراً فنياً ، وطرف بعينيه وابتسم .
« الصيف ! » وخطا بضع خطوات ، فعلق بنعله القطران الاسود
الذائب المنقط بحبات بيضاء : لقد كانت مارسيل حاملاً ، وليس هو
بعد الصيف ذاته .

كانت نائمة ، وكان جسدها ساحماً في ظلّ كثيف ، وكان يرشح
وهي نائمة . وكان نهذاها الجميلان البنفسجيان قد ارتخيا ، وكانت
قطيرات تنبجس حول حلمتيها ، بيضاء مالحة كالزهور . انها تنام .
انها تنام دائماً حتى الظهر . اما الجسم المتجمد الصغير ، في جوف
بطنها . فلم يكن لينام ، وهو لا يملك وقتاً للنوم : انه يتغذى ويتنفخ .
وكان الزمن يسيل دفعات صلبة لا تنقطع . كان الجسم المتجمد
يتنفخ ، وكان الوقت يسيل . « يجب ان اجد المال في الثماني والاربعين
ساعة . »

حديقة الكسمبورغ ، حارة بيضاء ، تماثيل وحمام : وأطفال .
الاطفال يركضون ، والحمام يطير . ركض ، بروق بيضاء ، فرق
صغيرة تتبدد . وجلس على كرسي من حديد : « اين اجد المال ؟
ان دانيال لن يعبرني اياه . ومع ذلك فسوف اطلبه منه .. ثم ، كآخر
سهم ، ستكون لي امكانية التوجه الى جاك . » وكان العشب يزيد

حتى قدميه ، وكان تمثال يمدّ له مؤخرته الحجرية الفتية ، وكان الحمام يسجع ، طيور من حجر : « ليست القضية ، بعد كل حساب ، الا قضية خمسة عشر يوماً ، وسوف ينتظر هذا اليهودي حتى آخر الشهر ، ويوم ٢٩ سأقبض راتي . »

وتوقف ماتيو فجأة : كان يرى نفسه وهو يفكر ، وكان يشمئز من نفسه : « في هذه الساعة ، يضرب برونيه في الشوارع ، على هواه في النور ، وهو خفيف لأنه ينتظر ، هو يمشي عبر مدينة من زجاج مفضض لن يلبث ان يكسره ؛ انه يستشعر القوة ، وهو يمشي متأيلاً مترنحاً ، بكل حذر ، لأن الوقت لم يحن بعد لتحطيم كل شيء ، انه ينتظر ، انه يأمل . اما انا ، اما انا ! ان مارسيل حامل . هل ستقنع ساره ذلك اليهودي ؟ اين اجد المال ؟ هذا ما افكر به ! » واستعاد فجأة صورة عينين متقاربتين تحت حاجبين كثيفين اسودين : « مدريد ، كان بودي ان اذهب اليها . اقسم لك . ولكن ذلك لم يتم . وفكر فجأة : « لقد شخت . »

اني شيخ . هأنذا مسترخ على كرسي ، منخرطٌ حتى العنق في حياتي ، وغير مؤمن في شيء . ومع ذلك ، فقد وددت انا ايضاً ان اذهب الى « اسبانية » ما . ثم لم يتم ذلك . هل هناك « اسبانيات » ؟ اني هنا ، أتلمظ ، واحس مذاق الدم القديم والمياه المعدنية ، مذاق اني مذاق بالذات ، انني موجود . ذلك هو الوجود : ان يشرب الانسان نفسه على غير عطش . اربعة وثلاثون عاماً . منذ اربعة وثلاثين عاماً وانا اتذوق نفسي ، وانا شيخ . لقد عملت ، وانتظرت ، وكان لي ما اريد : مارسيل ، باريس ، الاستقلال ، وانتهى الامر ، فأنا لا انتظر بعد شيئاً . وكان ينظر الى هذه الحديقة النمطية ، الجديدة دائماً ، التي هي نفسها دائماً ، كالبحر ، تجتازها منذ مئة عام موجات الالوان والاصوات نفسها . كان هناك ما يلي : هؤلاء الاطفال الذين

كانوا يركضون بلا انتظام ، الاطفال انفسهم منذ مائة عام ، وهذه الشمس نفسها تنصب على ملكات الجبس ذوات الاصابع المكسورة وجميع هذه الاشجار . وكأنت هناك ساره وكيمونوها الاصفر ، ومارسيل جبلي ، والمال . ان ذلك كله كان من الطبيعة والعادية والرتابة بحيث كان يكفي لأن يملأ حياة ، تلك هي الحياة . اما الباقي ، الاسبانيات ، والقصور في اسبانيا ، فقد كان ... ماذا ؟ دين ؟ لا ديني صغير حار يصلح لي ؟ المصاحبة الخفية السارفيمية لحياتي الحقيقية ؟ لا دليل ؟ كذلك كانوا يروني ، هم ، دانيال ، ومارسيل وبرونيه وجاك : الانسان الذي يريد ان يكون حراً . انه يأكل ويشرب كسائر الناس ، وهو موظف في الحكومة ، وهو لا يتعاطى السياسة ، وهو يقرأ جريدتي « الافر » و « البوبولير » . وهو يعاني ضيقاً مالياً . ولكنه يريد فحسب ان يكون حراً ، كما يريد آخرون مجموعة من الطوايع . ان الحرية هي حديقته المقدسة ، ضلوعه اليسير مع نفسه . شخص كسول بارد ، خيالي بعض الشيء : ولكنه في الحقيقة عظيم الرشاد ، صنع لنفسه سعادة جمود عادية وصلبة ، وهو يبرر نفسه بين الفينة والفينة باعتبارات رفيعة . ايكون هذا هو ما انا ؟

كان في السابعة من عمره ، وكان في « بيتيفيه » عند عمه جول ، طبيب الاسنان « وحيداً في قاعة الانتظار ، وكان يتكلم منع نفسه من ان يوجد : كان عليه ان يحاول الا يلتهم نفسه ، كشأن من يحتفظ على لسانه بمائع مثلج فيما هو يمسك حركة الابتلاع الصغيرة التي تجعله يسيل الى الحنجرة . وكان قد نجح بأن يُفرغ رأسه تماماً . ولكن هذا الفراغ كان ما يزال يحتفظ بمذاق . كان يوم حماقات . وكان يقبع في حرارة ريفية تنبعث منها رائحة الذباب ؛ والواقع انه كان قد قبض على ذبابة ونزع جناحيها . ولاحظ ان رأسها كان يشبه طرف عود ثقاب ، فذهب الى المطبخ وأتى بالمبرد وراح يحكه به ليرى اذا كان سيشتعل . ولكن

كان يفعل ذلك كله باهمال : كانت مهزلة حقيرة فارغة ، وكان لا ينجح في الاهتمام بنفسه ، وكان يعلم جيداً ان الذبابة لن تشتعل . وكان على الطاولة مجلات ممزقة وآنية صينية جميلة ، خضراء ورمادية ، ذات عُرَى تشبه برائن البيغاء ؛ وكان عمه جول قد قال له ان عمر هذه الآنية ثلاثة آلاف عام . وكان ماتيو قد اقترب من الآنية ، ويداه خلف ظهره ، ونظر اليها وهو يتراقص في قلق : انه لمخيف ان يكون الانسان كرتية من العجين ، في هذا العالم الهرم المشوي ، تجاه آنية عديمة الاحساس ذات ثلاثة آلاف عام . وكان قد اولاهها ظهره وأخذ يقلب عينيه وينخر امام المرأة ، من غير ان ينجح في تسلية نفسه ، ثم عاد فجأة الى الطاولة ، ورفع الآنية التي كانت ثقيلة جداً ، وقذف بها ارضاً : هكذا خطر له ذلك ، وما لبث ان شعر بأنه خفيف ، كخيوط من خيوط « العذراء » . وقد نظر الى شظايا البورسلين مسحوراً . لقد حدث شيء ما لهذه الآنية ذات الثلاثة الآلاف عام بين هذه الجدران الخمسينية ، تحت نور الصيف القديم ، شيء وقع يشبه الصباح . وكان قد فكر : « انا الذي فعلت ذلك ! » واستشعر الفخر ، وأحس بأنه متحرر من العالم وبلا جذور ، بلا اسرة ، بلا اصول ، وانه انبثاق صغير عنيد فجر قشرة الارض . وكان في السادسة عشرة ، وكان وحشاً صغيراً ، وكان مستلقياً على الرمل ، في « اركاشون » . وكان ينظر الى امواج المحيط المسطحة . وكان قد ضرب شاباً من بوردو قذفه بالحجارة ، فأجبره على اكل التراب . وفيما كان جالساً في ظل الصنوبر ، متقطع الانفاس ، مملوء المنخرين برائحة الصمغ الصنوبري ، كان لديه احساس بأنه انفجار صغير معلق في الهواء ، انفجار صريح ، شرس ، غير قابل للتفسير . وكان قد قال لنفسه : « سأصبح حراً » او انه بالاحرى لم يقل لنفسه شيئاً على الاطلاق . وانما كأن هذا ما يود ان يقوله ، وكان ذلك رهاناً . كان قد راهن بأن حياته كلها ستشبه هذه اللحظة الفريدة . وكان في الحادية

والعشرين ، وكان يقرأ سبينوزا في غرفته وكان يوم الثلاثاء المرفع ، وكانت شاحنات كبيرة ملونة تعبر الشارع وهي محملة بدمى من الورق المقوى ؛ وكان قد رفع عينيه وراهن مرة اخرى ، بذلك التفخيم الفلسفي الذي اعتادا عليه منذ حين ، هو وبرونيه ؛ كان قد قال لنفسه : « سوف اصنع سلامي » ! وعشر مرات ، ومئة مرة ، اعاد مراهنته ، وكانت الكلمات تتغير مع السن ، ومع الطُرُز الفكرية ، واكن الرهان ظل هو هو ؛ ولم يكن ماتيو ، في نظر نفسه بالذات ، شخصاً طويلاً ثقيلاً بعض الشيء ، كان يدرس الفلسفة ، في معهد للذكور ، ولم يكن كذلك شقيق جاك دولارو ، النائب في المحاكم ، ولم يكن عشيق مارسيل ولا صديق دانيال وبرونيه : انه لم يكن شيئاً آخر غير هذا الرهان . اي رهان ؟ وأمرّ يده على عينيه اللتين اتعبهما النور : انه لا يعرفه بعد معرفة جيدة ؛ كان له الآن ، اكثر فأكثر غالباً ، فترات نفي طويلة . ولا بد له لكي يفهم رهانه ان يكون في افضل حالات نفسه .
- الكرة ، من فضلك .

وتدحرجت كرة التنس حتى قدميه ، وكان صبي صغير يعدو نحوه . وفي يده مضرب . والتقط ماتيو الكرة وقذفها اليه . ولم يكن بالتأكيد في افضل حالاته : فقد كان يأسن في تلك الحرارة الكثيبة ، وكان ضحية الاحساس الرتيب القديم بالشيء اليومي المألوف : لقد جهد في ترديد العبارات التي كانت تثير حماسه في الماضي : « ان اكون حرّاً ، ان اكون قضيتي ، ان استطيع القول : اني موجود لأنني أريد ذلك ؛ ان اكون بداءتي بالذات . » ولكن هذه كانت كلمات فارغة جوفاء ، كلمات مثقف مزعجة .

ونفض . نهض موظف ، موظف كان يشكو قلة المال ، وهو قادم على لقاء احد تلامذته الاقدمين . وفكر : « هل فات الأوان ؟ ألسنت بعد الا موظفاً ؟ » لقد سبق له ان انتظر طويلاً ؛ ولم تكن

سنواته الاخيرة الا حراسة سلاح . كان ينتظر عبر الالف هم صغير ؛ وبالطبع كان يجري وراء النساء ، في ذلك العهد ، وكان يسافر ، ثم كان عليه ان يكسب عيشه . ولكن عبر ذلك كله ، كان اهتمامه الوحيد هو ان يظل على استعداد . لعمل ما . عمل حر وواع يلزم حياته كلها ويكون بدء وجود جديد . انه لم يستطع قط ان ينخرط كلياً في حب ما ، في لذة ما ، ولم يكن قط شقياً حقاً : كان ينجس اليه دائماً انه كان في مكان آخر ، وانه لم يولد بعد تماماً . كان ينتظر . وفي هذه الاثناء ، كانت السنوات قد جاءت على مهل ، وبصورة خفية ، وقبضت عليه من الخلف ؛ اربع وثلاثون سنة . « كان عليّ ، وانا في الخامسة والعشرين ، ان ألنزم . مثل برونيه . هذا صحيح ، ولكن المرء ، في تلك السن ، لا يلتزم وهو مدرك القضية تمام الادراك . » وكان قد فكر بالذهاب الى روسيا ، وبالانصراف عن دراسته ، وبتعلم مهنة يدوية . ولكن ما كان يُمسكه كل مرة على حافة هذه الالوان من النقص العنيف ، هو انه كان يفتقر الى الاسباب الكافية لتنفيذها . انها ، بلا اسباب ، ما كانت لتكون الا ضرباً من العناد . وهكذا استمر في الانتظار ...

وكانت قوارب شراعية تدور في حوض اللوكسمبورغ ، تصفحها فوارة الماء بين الفينة والفينة . وتوقف لينظر الى حفلتها الاستعراضية المائية الصغيرة . وفكر : « لن انتظر بعد . انها على حق : لقد افرغت نفسي واعمقتها حتى لم اعد الا انتظاراً . صحيح اني الآن مُفرغ . ولكني لا انتظر بعد شيئاً . »

وهناك ، بالقرب من فوارة الماء ، كان قارب صغير في طريق الضياع ، تائهاً على حدة . وكان جميع الناس يضحكون وهم ينظرون اليه ؛ وكان صبي شقي يحاول ان يقبض عليه بواسطة عِصَاة ٥

نظر ماتيو الى ساعته : « العاشرة واربعون دقيقة . لقد تأخرت . »
 ولم يكن يحب ان يتأخر ، وكان يخشى دائماً ان تكون قد تركت نفسها
 تموت . كانت تنسى كل شيء ، وكانت تهرب من نفسها . وكانت
 تنسى نفسها بين دقيقة واخرى ، وكانت تنسى ان تأكل ، وكانت
 تنسى ان تنام . وسوف تنسى يوماً ان تتنفس وينتهي كل شيء .
 وكان شابان قد توقفا بالقرب منه : وكانا يتأملان طاولة بعبوس .

وقال أحدهما : - « سيت داون » .

فأجاب الآخر : - اني أسيت داون .

وضحكا وجلسا . وكان لهما ايد معتنى بها ، الهيئة قاسية والبشرة
 رقيقة . وفكر ماتيو في حنق « ليس هنا إلا الماحين » ! تلامذة او
 طلاب ليسيه ؛ الشباب الذكور المحاطون باناث رماديات كانوا يشبهون
 حشرات لامعة عنيدة . وفكر ماتيو : « إن الشباب شيء ظريف :
 يريق في الخارج ، وفي الداخل لا تحس شيئاً . » صحيح ان ايفيش
 كانت تحس بشبابها ، وكذلك بوريس ، ولكنها يدخلان في الاستثناء .
 انهما من شهداء الشباب . « لم اكن ادري اني انا كنت شاباً ، ولا
 برونيه ولا دانيال . وانما شعرنا بذلك فيما بعد . »

وحلم ، في غير سرور بالغ ، بأنه سيصطحب ايفيش الى معرض غوغان . وكان يحب ان يُريها لوحات جميلة ، وافلاماً جميلة ، واشياء جميلة ، لأنه لم يكن جميلاً ، وكان ذلك بمثابة الاعتذار . ولكن ايفيش لم تكن لتعذره : انها ستنظر الى اللوحات هذا الصباح ، كما كانت تنظر في المرات السابقة ، نظرتها الهوساء المتوحشة ، وسيقف ماتيو الى جانبها ، قبيحاً ، ثقيل الظل ، منسياً . ومع ذلك ، فانه لم يكن بودة ان يكون جميلاً : ذلك انها ليست اكثر وحسدة إلا تجاه الجمال . وقال لنفسه : « لا ادري ما الذي اريده منها . » وفي هذه اللحظة بالذات ، لمحها ؛ كانت تهبط الجادة الى جانب فتى طويل مجعد كان يضع النظارات ، وكانت ترفع نحوه وجهاً وتمنحه بسمتها المشرقة ؛ كانا يتحدثان بحوية . وحين رأت ماتيو ، انطفت عيناها ، وحيث رفيقها تحية سريعة ، ثم عبرت شارع « ديزيكول » بهيئة مستنيمة . ونهض ماتيو :

— تحية يا ايفيش .

فقال — صباح الخير .

وكان وجهها في افضل زينته : كانت قد ردت خصلاتها الشقراء حتى انفها ، وكان هدبها يهبط حتى عينيها . اما في الشتاء ، فقد كان الهواء يناثر شعرها ويعرّي وجنتيها البارزتين الممتعتين وذلك الجبين المنخفض الذي كانت تدعوه « جيبني الكلموكي » . وكانت تبدو سحنة عريضة صفراء طفولية وشهوانية كالقمر بين غمامتين . اما اليوم فان ماتيو لم يكن يرى الا وجهاً مزيفاً ضيقاً نقياً كانت تغطي به وجهها الحقيقي كقناع مثلث . والتفت الشبان المجاورون لماتيو اليها : وكانوا يفكرون : الفتاة الجميلة . ونظر اليها ماتيو بحنان ؛ لقد كان بين هؤلاء جميعاً ، الوحيد الذي يعرف ان ايفيش كانت بشعة وجلست هادئة مستوحشة . ولم تكن قد طلت وجهها بالمسحوق ، لأن المسحوق

كان يتلف البشرية . وسأل الخادم :
 - وماذا تطلب السيدة ؟
 فابتسمت له ايفيش ، وكانت تحب ان تُدعى «سيدة» ؛ ثم التفتت
 الى ماتيو مترددة ، فقال ماتيو :
 - خذي قدح « ببيرمنت » ، فانت تحبين ذلك .
 فقالت وقد راقها هذا : - احب ذلك ؟ اذن اريده : (وسألته
 حين مضى الخادم) وما هذا المشروب ؟
 - انه نعنغ أخضر .
 - ذلك الشيء الاخضر اللزج الذي شربته في المرة السابقة ؟ اوه !
 اني لا اريده . فهو يديق الفم . انني انساق دائماً ، فيجب عليّ ألا
 أصغي اليك . إن ذوقينا مختلفان .
 فقال ماتيو متزعجاً : - ولكنك قلت إنك تحبين هذا ؟
 - صحيح . غير اني فكرت بعد ذلك ، وتذكرت الطعام .
 (وارتعشت) لن اشرب منه بعد ابداً .
 فصاح ماتيو ينادي الخادم .
 - لا ، لا . دعه يأتي به ، إن منظره جميل . كل ما هنالك اني
 لن أمسه . فلست عطشى .

وصمت . ولم يدر ماتيو ما ينبغي ان يقول لها : نادرة هي الاشياء التي
 كانت تثير اهتمام ايفيش ؛ ثم انها لم تكن راغبة في الكلام . كانت
 مارسيل هناك ؛ إنه لم يكن يراها ، ولم يكن يسميها ، ولكنها كانت
 هناك . اما ايفيش ، فكان يراها ، وكان يستطيع ان يدعوها باسمها او
 ان يلمس كتفها ؛ ولكنها كانت معزل عن الإدراك ، بقامتها الدقيقة
 وعنقها الجميل القاسي ؛ كان يبدو انها مطليّة مبرنقة ؛ كأنها امرأة
 من تاهيتي مرسومة على لوحة لغوغان ، غير قابلة للاستعمال . ستلفن
 ساره الساعة ، فينادي الخادم : « السيد دولارو » ؛ وسيسمع ماتيو

في آخر لحظة صوتاً اسود : « انه يطلب عشرة آلاف فرنك ، لا تنقص فلساً واحداً » . مستشفى ، عملية جراحية ، رائحة اثير ، قضايا مالية . وجهد ماتيو ليلتفت الى ايفيش التي كانت قد اغمضت عينيها وكانت تُمرُّ اصبعاً خفيفاً على جفنيها . وفتحت عينيها :
- لدي شعور بأنهما تبقيان مفتوحتين من تلقاء نفسها . وبين فترة وفترة اغمضهما لأريحهما . هل هما حراوان ؟

- كلا .

- انها الشمس ؛ ان عينيّ تؤلماني دائماً في الصيف . وايام كهذه ، ينبغي الا يخرج فيها المرء الا حين يهبط الليل ؛ والا فهو لا يدري اين يلتجئ لأن الشمس تلاحقه في كل مكان . ثم ان ايدي الناس لزجة . ولمس ماتيو باصبعه ، تحت الطاولة ، باطن كفه بالذات : فكان جافاً . ان الآخر ، الفتي الطويل المجمعّد ، هو الذي كانت يداه دبقتين . وكان ينظر الى ايفيش من غير اضطراب ؛ وكان يحس انه مذنب ومتحرر ، لأنه كان اقل تعلقاً بها .

- أيزعجك اني اضطررتك الى الخروج هذا الصباح ؟

- على اي حال ، كان من المستحيل ان الازم غرفتي .

فسألها ماتيو دهشاً : - ولماذا ؟

فنظرت اليه ايفيش بنفاد صبر :

- انت لا تدري ما عساه ان يكون بيتٌ للطلاب . ان الفتاة تُحمى فيه حماية حقيقية ، ولا سيما في فترة الامتحانات . ثم ان المرأة قد أحببني ، فهي تدخل كل لحظة الى غرفتي بحجج مختلفة ، فتلامس شعري ، وانا اكره ان ألمس .

وكان ماتيو لا يكاد يصغي اليها : فقد كان يعلم انها لم تكن تفكر بما تقوله . وهزت ايفيش رأسها مغتاضة :

- ان سمينة « البيت » هذه تحبني لأنني شقراء . ويحدث دائماً الشيء

نفسه فهي مستحقرني بعد ثلاثة اشهر : مستقول اني مرآية .
فقال ماتيو : - انت مرآية .

قالت بلهجة طويلة تذكر بوجنتيها المستقرتين : - طبعاً ...
- ثم إن الناس ينتهي بهم الأمر الى ملاحظة انك تخمين عنهم خديك
وانك تسبلين عينيك امامهم كقديسة منافقة .

- حسناً ! هل يروق لك انت ان يُعرف من تكون ؟ (وأضافت
بشيء من الاحتقار) : صحيح انك لا تتأثر بهذه الامور . اما فيما
يخص نظري الى الناس مواجهة ، فاني لا استطيع ذلك : إن عيني
تزعجاني على الفور .

قال ماتيو : - غالباً ما أزعجتني في البدء . كنت تنظرين الي فوق
الجبين ، في مستوى الشعر ، انا الذي أخشى كثيراً ان أصبح أصلع ...
كنت احسب انك قد لاحظت فجوة مضيئة وانك لا تستطيعين بعد
ان تنزعني عنها نظرك .

- اني انظر الى الجميع على هذا النحو .

- نعم ، او من جانب : هكذا ...

ورماها بنظرة خفية سريعة. فضحكت ، وقد راقها ذلك وأغضبها .

- حسبك ! لا اريد ان يقلدني أحد .

- ولكني لم أقصد الخبث /

- طبعاً ، غير اني أخاف حين تأخذ مني تعابيري .

قال ماتيو وهو يتسهم : - اني افهم ذلك .

- ليس هذا ما يبدو عليك انك تعتقده : فلو كنت اجمل انسان

في الدنيا ، لما اختلف الأمر عندي .

قال ماتيو :

- اسمعي ، سأقصد صيدلية لآتيك بقرص . ولكني انتظر مخابرة

تلفونية . فاذا طلبني أحد ، فستكونين لطيفة اذا قلت للمخادم بأني

سأعود على التور ، فليطلبني مرة اخرى .
قالت برودة : - لا ، لا تذهب ، فاني اشكرك كثيراً ، ولا
قائدة من ذلك . انها هذه الشمس .

وصمتا : ففكر ماثيو في لون من السرور المعبذب « انني أبصع
نفسي » . وكانت ايفيش تلمس تنورتها بباطن كفتيها وهي ترفح
اصابعها قليلاً كما لو انها مستضرب اصابع البيانو . وكانت يداها ابداً
محمرتين ، لأن جريان دمها كان رديئاً ، وكانت تدعها على العموم في
الهواء وتمحركهسما لتجعلها تصفران . ولم تكونا تفيدانها قط للأخذ ،
وانما كانتا صنمين صغيرين خشنين في طرف ذراعيها ، وكانتا ثلاثان
الاشياء بحركات دقيقة غير ناجزة وتبدوان اقرب الى تسويتها منها الى
التقاطها . ونظر ماثيو الى أظافر ايفيش الطويلة المقرنة ، المطلية بصورة
حنيفة ، التي تكاد تكون صينية : كان يكفي المرء ان يتأمل هذه
الزينة المربكة اللطيفة حتى يدرك ان ايفيش لم تكن تستطيع ان تصنع
شيئاً بأصابعها . وقد سقط احد هذه الأظافر ، ذات يوم ، من لقاء
نفسه ، فكانت تحتفظ به في تابوت صغير ، وبين فترة واخرى ،
كانت تنفضه بمزيج من النفور واللذة . وقد سبق لماتيو ان رآه :
كان محتضناً بطلاته ، وكان يشبه جُعللاً ميتاً . « انني اتساءل : ما
الذي يشغلها ، انها لم تكن اكثر ازعاجاً مما هي الآن . لا بد ان السبب
استعاناتها ، الا ان تكون متزعجة معي : انني ، في آخر المطاف ،
رجل كبير . »

وقالت ايفيش فجأة بلهجة محايدة :

« ان الامر ، بكل تأكيد ، لا يبدأ هكذا حين يصبح الانسان

أصغر

للحال ماثيو وهو يتسم :

« لا ، بالتأكيد . انت تذكرين مقاله لك الطبيب في « لاون » :

انت مصابة بطرف من التهاب اللثة .
وكان يتكلم بعدوية ، وكان يتسم بعدوية ، وكان يشعر انه معطل
بالعدوية : كان ينبغي له وهو مع ايفيش ان يتسم دائماً ، وان يأتي
حركات عذبة وبطيئة . . كدانيال مع قططه .
وقالت ايفيش : - إن عيني " قولاني .. يعني شيء تافه لذلك ...
(وترددت) اني ... اني اشعر بالالم في اعماق عيني . في صميم
اعماقها . الا يوجد هذا ايضاً في بدء ذلك الجنون الذي كنت تحدثني عنه ؟
فسألها ماتيو : - آه ! قصة ذلك اليوم ؟ اسمعي يا ايفيش : في
المرّة الاخيرة كانت القضية تتعلق بقلبك ، كنت تخافين من ثورة قلبية .
فيا لك من شخص عجيب ! لكأنك بحاجة الى تعذيب نفسك ، ثم
تصرحين فجأة ، في مرات اخرى ، انك رخصة العود ، فيجب ان
تختاري .

وكان صوته يخلف لديه ، في اعماق فمه ، مذاق سكر .
وكانت ايفيش تنظر عند قدميها نظرة غامضة .
- لا بد ان يحدث لي شيء .
فقال ماتيو : - اعرف ذلك . ان نخط حياتك قد انكسر . ولكنك
قلت لي انك لا تعتقدين ذلك حقاً .
- أجل لا اعتقد ذلك حقاً .. وهناك ايضاً اني لا استطيع ان
اتصور مستقبل . انه مسلود .

وصحمت فنظر اليها ماتيو في صمت . بلا مستقبل ... وفجأة الحس في
فمه بمذاق مر ، وشعر بانه كان متعلقاً بايفيش بكل قواه . كان صحيحاً
انه لم يكن لها مستقبل : ايفيش في الثلاثين من عمرها ، ايفيش في
الاربعين ، ان ذلك لم يكن ذا معنى . وفكر : انها غير قابلة للحياة .
حين يكون ماتيو وحده ، او حين كان يتكلم مع دانيال ، مع مارسيل ،
كانت حياته تنبسط امامه واضحة رتيبة : بضع نساء ، بضع رحلات ،

بضعة كتب . منحدر طويل كان ماتيوي يهبطه على مهل ، بل كان يجد
غالباً ان ذلك لم يكن يمضي بسرعة كافية . وفجأة ، حين يرى ايفيش ،
كان يخيل اليه انه يعيش كارثة . كانت ايفيش عذاباً صغيراً شهوانياً
وفاجعاً ليس له من غد : انها ستذهب ، ستصبح مجنونة . سموت
بنوبة قلبية ، او ان اهلها سيحجزونها في « لاون » . ولكن ماتيوي لم
يكن يطيق ان يعيش من دونها . وتحركت يده حركة حيية : لقد ودّ
لو يأخذ ذراع ايفيش فوق المرفق ويضمها بكل قواه . « اني اكره
ان يمسي احد » وسقطت يد ماتيوي . وقال بسرعة :
- ان « بلوزتك » جميلة جداً يا ايفيش .

وكانت هذه غلطة : حنت ايفيش رأسها بتصلب وربت على بلوزتها
بهيشة ضيق . كانت تتلقى التهاني كأنها اهانات : وكان الامر كما لو
ان صورة عنها كانت تُقدّم بضربات فأس ، صورة مشوهة وباهرة .
كانت تخشى ان تؤخذ بها . كانت وحدها تستطيع ان تفكر بشخصها
كما ينبغي . وكانت تفكر فيه بلا كلام ، وكان ذلك يقيناً صغيراً
رقيقاً ، ملاطفة . ونظر ماتيوي بذل الى كتفي ايفيش المزيلتين ، والى
عنقها المستقيم المستدير . كانت غالباً ما تقول : « اني اشتهر من
الاشخاص الذين لا يحسون اجسامهم . » وكان ماتيوي يحس جسمه ،
ولكنه يحس على انه اقرب الى ان يكون حزمة كبيرة مربكة .

- اما زلت راغبة في رؤية صورة غوغان ؟
- اية صور ؟ آه ! المعرض الذي حدثني عنه ؟ حسناً ، بوسعنا
ان نذهب اليه .

- لا يبدو عليك انك راغبة في ذلك .

- بلى .

- ولكن يجب ان تقولي ، يا ايفيش ، اذا لم تكوني راغبة في ذلك .

- ولكن ائت راغب في ذلك .

— أنت تعلمين اني سبق ان ذهبت اليه . وانا راغب في ان اريك اياه اذا كان ذلك يسرك . ولكن اذا لم تكوني حريصة على ذلك ، فانه لا يهمني .

— في هذه الحالة ، افضل ان اذهب اليه في يوم آخر .

قال ماتيو خائب الظن : — ولكن المعرض ينتهي غداً .

فقال ايڤيش بلهجة رخوة :

— فليكن ، لا بد ان يعاد هذا المعرض .. هذه المعارض تعاد ،

ليس كذلك ؟

قال ماتيو بعدوبة حاتقة :

— ها أنت ذي يا ايڤيش . قولي انك لست راغبة بعد في رؤية

المعرض ؛ انك تعرفين انه لن يعاد قبل مضي وقت طويل .

فقال بلطف : طيب ، لا اريد ان اذهب اليه ، لان ذلك الامتحان

قد خلف عندي الاشمزاز . انه امر جهنمي ان يحملونا على انتظار

النتائج هذه الفترة الطويلة .

— أليس موعد اعلانها غداً ؟

— تماماً .

واضافت وهي تلامس بطرف اصبعها كم ماتيو :

— يجب الاتهم بي اليوم ، فلست بعد انا . اني متوقفة على

الآخرين ، وهذا مذل . ان في ذهني طوال الوقت صورة ورقة صغيرة

بيضاء ملصقة على جدار رمادي . انهم يفرضون عليك ان تفكر بذلك .

حين نهضت هذا الصباح ، احسست بانني اصبحت في الغد ؛ اما اليوم

فهو يوم لا جدوى منه ، يوم محذوف . لقد سرقوه مني ، ولم يبق لي

شيء يذكر .

واضافت بصوت منخفض سريع :

— لقد فوتت اعداد درس علم النبات .

فقال ماتيو : - فهبت .

وود لو يجد في ذكرياته ضيقاً يتيح له ان يفهم ضيق ايفيش ، ربما كان ذلك عشية امتحان « الاغريغاسيون » ... كلا ، ان الامر لم يكن مشابهاً في اي حال . لقد عاش تلك الحالة هادئاً آمناً بلا اخطار . اما الآن ، فقد كان يحس انه رخص العود ، وسط علم مهلده ، ولكن ذلك كان عبرة ايفيش .

قالت ايفيش :

- اذا نجحت في الامتحان التحريري ، فسأشرب قليلاً قبل ان

اذهب الى الشفهي .

فلم يجيب ماتيو : ورددت ايفيش :

- قليلاً جداً .

- لقد قلت ذلك في شباط ، قبل ان تذهبي لتأدية الامتحان الشفهي ،

وكان الأمر في آخر المطاف انك شربت اربعة اقداح من الروم ، وكنت عملة تماماً .

قالت بلهجة مزيفة : - الحق اني لن انجح في التحريري .

- هذا مفهوم ، ولكن لنفرض انك نجحت ؟

- لن اشرب عند ذاك .

ولم يلح ماتيو : كان على يقين مع انها ستقدم الى الامتحان الشفهي

وهي عملة : « ما كنت انا الذي افعل ذلك ، فقد كنت شديد الحذر . »

وكان حاتقاً على ايفيش ومشمئزاً من نفسه . واتي الخادم بقدرح عملاءه

الى النصف بالنعنع الأخضر .

- سأعطيك في الحال دلو الثلج .

فقالت ايفيش : - شكراً .

وكانت تنظر الى القدرح ، وكان ماتيو ينظر اليها . وكانت رغبة

حقيقية غامرة قد غمرته : ان يكون ، لمدة لحظة ، هذا الوصي المهووس الممتلئ

يراحته بالذات ، ان يشعر من الداخل بهاتين الذراعين الطويلتين اللدقيتين ،
ان يحس ، لدى الثنية ، بشرة الساعد تلتصق كالشفة ببشرة الذراع ،
ان يحس هذا الجسم وجميع القبلات الصغيرة المتحفظة التي يمنحها لنفسه
بلا انقطاع . ان اكون ايفيش دون ان اكف عن ان اكون انا .
واخذت ايفيش اللدو من يدي الخادم ، ووضعت مكعب ثلج في
قدحها . وقالت :

- لم آخذ له لأشرب ، وانما هو جميل المنظر .

وطرفت بعينها قليلاً ثم ابتسمت بسمة طفولية .

- انه جميل .

ونظر ماتيو الى القدح بغيظ ، وجهد في مراقبة تحرك المائع محمراً
كثيفاً مرتبكاً ، وبياض قطعة الثلج المعكر . وعيشاً كان ذلك . كان
القدح في نظر ايفيش شهوة صغيرة لزجة خضراء تدبقتها حتى اطراف
اصابعها ؛ واما في نظره ، فلم يكن شيئاً . بل كان اقل من لاشيء :
قدحاً فيه نمنع . وكان بوسعه ان يفكر بما كانت تحسه ايفيش ، ولكنه
لم يكن يشعر بشيء قط ؛ كانت الاشياء في نظرها ألواناً من الحضور
الخائف الضالع في الذنب ، دوامات واسعة تحترقها حتى اللحم ، ولكن
ماتيو كان ينظر اليها دائماً عن بعد . ورمى اليها بنظرة وتنهد : لقد كان
متأخراً ، على مألوف عادته ؛ ان ايفيش قد كفت عن النظر الى
القدح ؛ وكانت تبلو حزينة ، وكانت تضغط بعصية على احلى
خصلات شعرها .

- اريد سيكارة .

وتناول ماتيو علبة « الغولد فلاك » من جيبه ؛ ومدها لها :

- سأشعلها لك .

- شكراً ، افضل ان اشعلها بنفسى .

وأشعلت السيكارة وسحبت منها بعض المجات . وكانت قد أدنت

يدها من فمها واخذت تتسلى - بهوس - بأن تركض الدخان في باطن
كفها .. وأوضحت كأنما توضح لنفسها :
- اودّ لو كان الدخان كأنما يخرج من يدي . سيكون شيئاً ظريفاً :
يد تنفث الضباب .

- إن هذا لا يمكن . فالدخان يسرع أكثر مما ينبغي .
- اعرف ذلك ، وهو ما يزعجني ، ولكني لا أستطيع ان اكفّ ،
اني احس نفسي يدغدغ يدي ، وهو يمرّ في الوسط تماماً ، فكأنها
مفصولة بجدار الى قسمين .

فضحك ضحكة قصيرة وصمت ، وكانت ما برحت تنفخ على
يدها مستاءة ، عنيدة . ثم ألقت بسيكارتها وهزت رأسها ، وبلغت
رائحة شعرها منخري ماتيو . وكانت رائحة حلوى وسكر معطر
بالونيلة ، لأنها كانت تغسل شعرها بصفار البيض ، ولكن عطر هذه
الحلوى كان يخلف مذاقاً شهوانياً .

وأخذ ماتيو يفكر في سارة . وسألها :

- بم تفكرين يا ايفيش ؟

فلبث لحظة فاعرة الفم ، مضطربة ، ثم استعادت هيأتها التأملية ،
فانغلق وجهها من جديد واحس ماتيو بأنه متعب من فرط النظر اليها ،
وكان يشعر بالألم في زاوية عينيه . وكرّر سؤاله :

- بم تفكرين ؟

فانقضت ايفيش - : إنني ... إنك تسألني هذا السؤال طوال
الوقت ، انا لا افكر بشيء محدد . تلك هي امور لا يمكن قولها ،
فهي لا تتخذ شكلاً .

- ولكن مع ذلك ؟

- نعم ، كنت انظر مثلاً الى هذا الرجل القادم . ماذا يريدني أن
اقول ؟ يجب ان اقول له إنه سمين ، وهو يحس جيئته بمنسديل ،

ويرتدي ربطة عنق جاهزة ... انه طريف ان تقسرنني على ان اسرد ذلك (قالتها فجأة بنجل وغيظ) انه لا يستحق ان يُقال .

– بلى ، بالنسبة لي ، لو كان بوسعي ان اتمنى شيئاً ، لتمنيت ان تكوني مضطرة الى التفكير بصوت عال .

وابتسمت ايفيش بالرغم منها وقالت :

– هذا اعتراف . إن الكلمة لم تُصنع لمثل هذا .

– هذا طريف ، فانت تكنين للكلمة احتراماً يشبه احترام المتوحشين .

فيبدو عليك الايمان بأنها لم تصنع إلا لاعلان الموتى والزيجات او للنطق بالقداس . والحق انك لم تكوني تنظرين الى الاشخاص ، يا ايفيش ؛ لقد رأيتك : كنت تنظرين الى يدك ، ثم نظرت الى قدمك . ثم اني اعرف بم تفكرين .

– ولماذا إذن تسألني عنه ؟ لا ينبغي للانسان ان يكون داهية ليحرره ، كنت افكر بذلك الامتحان .

– انت تخافين ان تسقطي ، أليس كذلك ؟

– طبعاً ، أخاف ان اسقط . او بالاحرى لا . لست خائفة . فأنا اعلم اني ساقطة .

واستشعر ماتيو في فه من جديد مذاق كارثة . اذا سقطت فلن أرلها بعد . وستكون ساقطة بالتأكيد : إن هذا امر بديهي .

وقالت ايفيش يائسة :

– انني لا أريد العودة الى « لاون » . فاذا عدت اليها وأنا ساقطة فلن اخرج منها ابداً . لقد قالوا لي إن هذه هي فرصتي الأخيرة .

وعادت تضغط خصلات شعرها . وقالت مترددة :

– لو كانت لدي شجاعة ...

فقال ماتيو قلقاً : ماذا كنت تفعلين ؟

– اي شيء . كل شيء ولا العودة الى هناك . لاني لا اريد ان

اقضي حياتي هناك ، لا اريد .

- ولكن سبق ان قلت لي ان اباك ربما باع المنشر قبل عسام او عامين ، وان الجميع سيأتون للاقامة في باريس .

قالت ايفيش وهي تدير اليه عينين تقدهان شرر الغضب :

- تطلبون مني مزيداً من الصبر ! هكذا انتم جميعاً . ووددت لو رأيتكم هناك ! عامان في ذلك الكهف ، أصبر عامين ١٩ الا يمكنك ان تضع في رأسك انهم انما يسرقون مني عامين ؟
واضافت بغضب :

- ليست لي الا حياة واحدة . ان من يسمعك تتكلم على هذا النحو يظن انك تعتقد نفسك خالداً . ان عاماً ، في نظرك ، يمكن ان يعوض ا (وطفرت الى عينيها الدموع) ليس صحيحاً ان هذا يعوّض .. إن شبابني هو الذي يفرّ هناك قطرة قطرة . اني اريد ان اعيش على التو ، فأنا لم ابدأ وليس لي وقت للانتظار ؛ لقد بدأت اشبح ، فانا في الحادية والعشرين .

قال ماتيو : - ارجوك يا ايفيش ، انك تخيفيني . حساولي مرة واحدة على الاقل ان توضح لي كيف نجحت في اعمالك التطبيقية .
انت تارة مسرورة وتارة يائسة .

فقالت ايفيش بلهجة كثيبة : - لقد سقطت في كل شيء .

- كنت اظن انك نجحت في الفيزياء .

فقالت ايفيش بسخرية :

- ماذا تقول ! ثم ان الكيمياء كانت تدعو الى الرثاء . اني لا استطيع ان أحشو رأسي بمقادير الجرعات ... فما أقسى ذلك !

- ولكن لماذا اخترت ذلك ؟

- ماذا ؟

- الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة .

فقال بلهجة متوحشة :

— كان لا بد من الخروج من « لاون » .
فأتى ماتيو بحركة عجز ؛ وصمتا . وخرجت امرأة من المقهى
ومرت مستهلة أمامها . وكانت جميلة ، ذات أنف صغير جداً في
وجه املس ، وكان يبدو عليها أنها تبحث عن انسان . وبلغ عطرها أنف
ايفيش : فرفعت رأسها الكئيب على هيئة ثم رأتها فتغيرت سحتها .
وقالت بصوت منخفض عميق : — يا للمخلوقة الرائعة !
فنفر ماتيو من هذا الصوت .

وجمدت المرأة وهي تطرف بعينيها للشمس ؛ وكان عمرها يقدر
بالخامسة والثلاثين ، وكانت ساقاها الطويلتان يشف عنهما نسيج ثوبها
الخفيف ؛ ولكن ماتيو لم يكن راغباً في رؤيتها ، وإنما كان ينظر الى
ايفيش . وكانت ايفيش قد اصبحت قبيحة تقريباً ، وكانت تضغط
بقوة يديها فيما بينهما . لقد قالت لماتيو ذات يوم : « ان الأنوف الصغيرة
ترغبني في عفتها . » وانحنى ماتيو قليلاً فرأى ثلاثة ارباع وجهها ؛
وكانت تبدو مستنيفة قاسية ، ففكر بأنها كانت راغبة في ان تعض .
وقال ماتيو بعدوية : — ايفيش .

فلم نجب ، وكان ماتيو يعلم أنها لا تستطيع ان تجيب : فهو لم
يكن موجوداً بعد في نظرها ، وكانت وحيدة .
— ايفيش !

في مثل هذه اللحظات كان يشعر بأنه اشد تعلقاً بها ، حين تسكن
جسمها الصغير اللذيذ الذي يكاد يتصنع اللطافة قوة أليمة ، حباً
للجمال ملتهب معتكر ، فاقد الرونق . وفكر : لست جميلاً ؛ وأحس
بلوره انه وحيد .

وذهبت المرأة . وتبعها ايفيش بعينيها وتمتمت بسورة عن
الغضب :

- هناك لحظات اودّ فيها لو كنت رجلاً .
وندتّ عنها ضحكة صغيرة جافة ، ونظر اليها ماتيو بحزن . وصاح
الخدم :

- السيد دولارو مطلوب على التلفون .
فقال ماتيو : - هأنذا .

ونفض :

- اعذرني . انها ساره غوميز .
فابتسمت له ايفيش برودة ؛ ودخل المقهى وهبط الدرج .
- السيد دولارو ؟ الحجرة الاولى .

وتناول ماتيو السماعة ، ولم يكن باب الحجرة ينغلق .
- آلو ، ساره ؟

فقال صوت ساره المغن :

- مرحباً مرة اخرى . لقد سُوي الامر .
- آه ، اني مسرور .

- ولكن يجب ان تعجل : انه مسافر يوم الأحد الى الولايات
المتحدة . وهو يريد ان يُجري ذلك بعد غدٍ على الأبعد ؛ ليكون لديه
الوقت لمراقبتها قليلاً في الأيام الاولى .

- حسناً ... إذن سأخبر مارسيل هذا اليوم بالذات . غير انه يفاجئني
بعض الشيء ، فيجب ان اجد المال . كم هو يريد ؟
فقال صوت ساره :

- آه ! انني متأسفة . هو يريد أربعة آلاف نقداً . واقسم لك انني
ألمحت ، وقلت انك كنت متضايقاً ، ولكنه لم يرد ان يعرف
شيئاً .

وأضافت وهي تضحك : - انه يهودي قدر !
وكانت ساره تفيض شفقة مكتومة ، ولكنها حين تبادر الى تأدية

خدمة ما ، تصبح متوحشة ومنشغلة كأخت من اخوات الإحسان . وكان ماتيو قد أبعث السماعة قليلاً ، وكان يفكر : اربعة آلاف فرنك ، ثم يسمع ضحكة ساره تفرقع على القطعة الصغيرة السوداء ؛ لقد كان ذلك كابوساً .

— من هنا الى يومين ؟ حسناً... سوف .. سوف اتدبر الأمر ، شكراً يا ساره ، إنك جوهرة . هل ستكونين في البيت هذا المساء ، قبل العشاء ؟

— طوال النهار .

— حسناً . سأمر . هناك شؤون اخرى يجب تسويتها .

— الى هذا المساء .

وخرج ماتيو من الحجرة .

— اريد قسيمة للتلفون يا آنسة . اوه ! ولكن لا ، لا حاجة بي الى ذلك .

ورمى عشرين فلساً في صحن ، ورفى الدرج على مهل . لم تكن به حاجة الى الاتصال بمارسيل قبل ان يسوي قضية المال هذه . « سأذهب ظهراً للقاء دانيال » وعاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر اليها بلا حنان . وقالت بلطف :

— لقد ذهب عني الصداق .

فقال ماتيو : — اني مسرور بذلك .

وكان قلبه مليئاً بالسخام .

ونظرت اليه ايفيش من جانب ، عبر اهدابها الطويلة . وابتسمت بسمه مختلطة ملاطفة .

— بوسعنا .. بوسعنا مع ذلك ان نذهب لرؤية معرض غوغان .

فقال ماتيو بلا اندهاش : — كما تشائين .

ونهما ، ولاحظ ماتيو ان قدح ايفيش كان فارغاً . وصاح :

— تاكسي .
قالت ايفيش : — ليس هذا التاكسي .. انه مكشوف وسيكون الهواه
في وجهينا .

فقال ماتيو للسائق : — لا ، لا ، تابع سيرك ، فاني لم اكن
اناديك انت .

وقالت ايفيش : — اوقف هذا التاكسي ، انظر ما اجمله ! لكأنه
عربة القربان المقدس ! ثم انه مغلق .

وتوقف التاكسي فصعدت ايفيش . وفكر ماتيو : « سوف اطلب
الف فرنك زيادة من دانيال ما دمت ساستدين منه ، ان ذلك يتيح لي
الاتفاق حتى آخر الشهر . »

— غاليري ديوزار ، شارع سانت اونوريه .
وجلس صامتاً بالقرب من ايفيش . وكانا متزعجين ، كلاهما .
ورأى ماتيو ، بين قدميه ، ثلاث سكاير محترقة الى النصف ، ذات
اطراف مذهبة .

— كان في هذا التاكسي من كان نائر الاعصاب .
— ولماذا ؟

فأراها ماتيو السكاير . وقالت ايفيش :

— انها امرأة . فهناك آثار حمرة :

فايتسا وصمتا ، وقال ماتيو :

— ذات مرة ، وجدت في تاكسي مئة فرنك .

— ولا بد انك سررت بذلك .

— اوه ! ارجعتها الى السائق .

قالت ايفيش : — عجباً ! لو كنت انا ، لاحتفظت بها . فلماذا

فعلت ذلك ؟

فقال ماتيو : — لا ادري .

وعبر التاكسي ساحة سان ميشال ، وكان ماتيو يقول : « انظري
ما اشد اخضرار السين » ولكنه لم يقل شيئاً . وقالت ايفيش فجأة :
— كان بوريس يفكر باننا سنذهب ثلاثتنا هذا المساء الى « سومطرا » ؛
اود لو ...

وكانت قد لفتت رأسها ، وكانت تنظر الى شعر ماتيو وهي تمد
فها بصورة رقيقة . ولم تكن ايفيش متدلة بالذات ، ولكنها كانت تنخذ
بين الفينة والفينة هيئة حنان رغبة منها بان تحس وجهها ثقيلاً عذباً
كالشمر . وحكم ماتيو عليها بأنها مزعجة وغير لائقة . وقال :
— يسرني ان ارى بوريس وان اكون معك ، غير ان ما يزعجني
قليلاً هو وجود لولا كما تعلمين . انها لا تستطيع ان تهضمني .
— وماذا في ذلك ؟

وساد صمت ، كأنها قد تمثلا في وقت واحد انها كانا رجلاً
وامراً ، مسجونين معاً في تاكسي . وقال لنفسه بانزعاج « ينبغي الا
يكون ذلك . » واستطردت ايفيش :

— لا ارى ان لولا تستحق ان يُهتم بها . انها جميلة وهي تغسني
جيداً ، وهذا كل ما في الامر .
— اني اجدها قريبة للنفس .

— طبعاً . ان هذه هي اخلاقتك . انت تريد دائماً ان تكون كاملاً ،
فا ان يزدريك الناس حتى تجهد لاكتشاف مزايا لديهم . (وازافت)
اني لا اجدها قريبة للنفس .
— ولكنها لطيفة معك .

— لا يسعها ان تكون غير ذلك ، ولكني لا احبها ، فهي تمثل .
فرفع ماتيو حاجبيه وقال : — تمثل ؟ ان هذا هو آخر شيء آخذه
عليها .

— من الغريب انك لم تلاحظ ذلك : انها تطلق تنهدات اكبر منها

ليظن الناس انها يائسة . ثم تطلب لنفسها الطعام للدمس .
واضافت بحبث خفي :

• - لقد كنت اظن ان اليائسين لا يبالون كثيراً بان يموتوا : ويدهشني
دائماً ان اراها تحسب نفقاتها فلساً فلساً وتوفر المال .

- ان هذا لا يمنع ان تكون يائسة . فكذلك يفعل البشر الذين
يشيخون : حين يشمئزون من انفسهم ومن حياتهم ، يفكرون بالمال
ويعنون بانفسهم .

فقالت ايفيش بحفاف :

- اذن ، ينبغي الا يشيخ المرء ابداً .

فنظر اليها نظرة ضيق وسارع بضييف :

- انت على حق ، فليس جميلاً ان يشيخ المرء .

قالت ايفيش : - اما انت ، فليست لك سن ، ويخيل الي انك
كنت دائماً كما كنت ؛ انك تتمتع بشباب الجهاد . واحاول احياناً ان
اتصور كيف كنت في طفولتك ، ولكن يعجزني ذلك .

فقال ماتيو : - كانت لي خصلات شعر .

- اما انا ، فأتصور انك كنت كما انت اليوم ، اقصر قليلاً .

ولا بد ان ايفيش لم تعرف هذه المرة أنها كانت تبدو رقيقة . وشاء
ماتيو ان يتكلم ولكن كان في حنجورته لون غريب من اللغدغة ، وكان
خارج نفسه . كان قد خلف وراءه مارسيل وساره وممرات مستشفى
لا تنتهي كان يعبرها منذ الصباح ، لقد كف عن ان يكون في اي
مكان ، وكان يشعر بانه حر ؛ وكان هذا النهار الصيفي يلامسه بكتله
الكثيفة الحارة ، وكانت به رغبة لان يستسلم له بكل ثقله . وخيل اليه
لحظة اخوى انه كان مطلقاً في الفراغ ، مع احساس بالحرية لا يحتمل ،
ثم مد ذراعه فجأة ، فأخذ ايفيش من كتفيها وجذبها اليه . وتركته
ايفيش يفعل وهي متصلبة ، كتلة واحدة ، كما لو انها كانت تفسد

توازنها . ولم تقل شيئاً ، وكان يبدو عليها مظهر الحياء .
وكان التاكسي قد سلك شارع ريفولي ، وكانت قناطر اللوفر تتطاير
ثقيلةً عبر الزجاج ، كأنها حمامات كبيرة . وكان الطقس حاراً ، وكان
ماتيو يحس جسماً حاراً في جنبه ؛ وعبر المرأة الأمامية كان يرى أشجاراً
وعلماً مثلث الألوان في رأس صار . وتذكر حركة رجل رآه مرة في
شارع « موفتار » . رجل انيق المظهر ، ذي وجه رمادي ، وكان قد
اقرب من مقلاة في الطريق ، فنظر طويلاً الى قطعة من لحم بارد
موضوعة في صحن ، حيث تعرض المآكل ، ثم مد يده وتناول قطعة
اللحم ؛ وكان يبدو عليه انه يجد ذلك في غاية البساطة ، فلا بد انه
كان يشعر بأنه هو أيضاً حر . وقد صاح البائع ، فاستاق شرطي ذلك
الرجل الذي كان يبدو مندهشاً . وظلت ايفيش على صمتها .
وفكر ماتيو بغیظ « انها تدينني » .

وانحنى ؛ ولكي يعاقبها ، لامس بطرف شفنيه فأ بارداً ومغلقاً ؛
وكان مصدوماً . وظلت ايفيش صامته . وحين رفع رأسه رأى عينيهما
فتلاشت فرحته الطاغية . وفكر : « رجل متزوج يداعب فتاة في تاكسي »
وسقطت ذراعاه ، ميتةً ، متزغرة . وانتصب جسم ايفيش في نوسان
آلي كرقاص أبعد عن موضع توازنه . وقال ماتيو في نفسه : « انتهى
الامر . ولا مجال بعد لإصلاحه » . وكان يكور ظهره ، وكان يود
لو يذوب . ورفع شرطي عصاه ، فتوقف التاكسي . وكان ماتيو ينظر
امامه باستقامة ، ولكنه لم يكن يرى الشجر ؛ كان ينظر الى حبه .
كان ذلك حياً . انه الآن حب . وفكر ماتيو : « ماذا فعلت ؟ »
لحمس دقائق خلت ، لم يكن ذلك الحب موجوداً ؛ كان بينهما عاطفة
نادرة وثمينة ، لم يكن لها اسم ، ولم تكن تستطيع ان تعبر عن نفسها
بالحركات . وهو قد قام بحركة ، الحركة الوحيدة التي ما كان ينبغي
له ان يقوم بها - والحق انه لم يتقصدها ، وانما جاءت من تلقاء نفسها :

حركة ظهر هذا الحب بعدها امام ماتيو، كشيء ضخم مزعج ومبتذل .
ستفكر ايفيش بعد الآن بأنه كان يحبها ، وستفكر : انه كالأخرين ؛
بعد الآن سيحب ماتيو ايفيش، كسائر النساء اللواتي احبهن . « ما الذي
تفكر به ؟ » كانت جالسة الى جانبه متصلة صامته ، وكانت هذه
الحركة بينها ، اني اكره ان يمسي احد، هذه الحركة الخرقاء الرقيقة ،
التي كانت قد اكتسبت عناد الاشياء الماضية ، ذلك العناد الذي لا
يلبس . « انها تغلي غضباً، انها تحقرني ، انها تفكر بأني كالأخرين . »
وفكر بيأس : ليس هذا ما كنت ابغيه منها . ولكنه لم ينجح في ان
يتذكر ما الذي كان يريد قبل . كان الحب هناك ، صادقاً خاصاً ،
برغبته البسيطة ومسالكة المتذلة ، وكان ماتيو هو الذي ولده حراً كل
الحرية . وفكر بقوة : « ليس هذا صحيحاً ، فأنا لا اشتهيها ، ولم
اشتهيها قط . » ولكنه كان مدركاً انه سيشتهيها ، فأن الامور كلها
تنتهي هناك . سوف انظر الى ساقها والى صدرها، ثم .. ذات يوم ...
ورأى فجأة مارسيل ممتدة على السرير ، عارية كلها، مغمضة العينين :
كان يكره مارسيل .

وكان التاكسي قد توقف ، وفتحت ايفيش الباب وهبطت الى
الأرض . ولم يتبعها ماتيو على التو : كان يتأمل بعين صريحة هذا الحب
الجديد كل الجدة ، والقديم مع ذلك ، هذا الحب لدى رجل متزوج ،
خجول ومداور ، هذا الحب المذل لها ، الدليل مسبقاً ، وكان يتقبله
كأنه قدر . وهبط اخيراً ، فدفع ولحق بايفيش التي كانت تنتظره
تحت الباب الكبير . « ليتها تستطيع ان تنسى . » ورمى اليها بنظرة
عجلى فألقى القسوة على وجهها . وفكر : « اذا وضعنا الأمور في
افضل مواضعها نرى ان شيئاً ما قد انتهى بيننا . » ولكن لم تكن لديه
رغبة بالامتناع عن حبها . ودخلا المعرض من غير ان يتبادلا كلمة .

« الملك الأعظم ! » ثناءت مارسيل ، واستوت قليلاً ، ونفضت رأسها ، وكانت اول فكرة لها : « إن الملك الأعظم يأتي هذا المساء . » وكانت تحب زيارته العجيبة ، ولكنها كانت ذلك اليوم ، تفكر بها من غير سرور . كان في الجوّ حولها هولٌ ثابت ، هولٌ ظُهريٌّ : وكانت حرارة متدرّجة تملأ الغرفة ، وكانت قد قامت بمهمتها في الخارج ، وخلّفت إشراقها في ثنايا الستار وأسنت هناك ، جامدة كحيية كأنها قدر . « لو كان يدري ، ما أشدّ نقاوته ، انبي سوف أنفرّه . » وكانت قد جلست على حافة السرير ، كالليلة البارحة ، حين كان ماتيو عارياً ازاءها ، وكانت تنظر الى أصابع رجله باشمزاز ضجر ، وكانت عشية الامس ما تزال هنا ، دقيقة جداً ، بنورها الوردى الميت ، كأنها رائحة قد بردت « لم استطع ... لم استطع ان اقول له . » وكان يمكن ان يقول : « حسناً ! ستدبّر الأمر ! » بلهجة حيّة مرحة ، وكأنه يلتهم عقاراً . وكانت تعلم انها ما كان لها ان تحتمل هذا الوجه ؛ وقد بقي ذلك في حنجرتها . وفكرت : « الظهر ! » وكان السقف رمادياً كالفجر الكاذب ، ولكن الحرارة كانت حرارة ظهريّة . وكانت مارسيل تنام متأخرة ولا تعرف بعدُ

الأصباح ، وكان يخيّل اليها أحياناً أن حياتها قد توقفت ذات يوم ظهراً ،
وانها كانت ظهراً ابدياً مسترخياً على الأشياء ، ممطراً ، وبسلاً أمل ،
وغير مجد الى حد بعيد . وفي الخارج ، كان النهار المشرق ، والتبرج
المنبسط . كان مسأتيو يسير في الخارج ، في النثار الحيّ المرح لذلك
النهار المبتديء بدونها ، والذي كان قد أصبح له ماضٍ . وفكّرت
بغير شعور صداقة : « إنه يفكّر بي . انه ينشغل » وكانت منزوعة
لأنها كانت تتخيل تلك الشفقة القوية تحت الشمس المشرقة ، شفقة
الانسان السليم المنهمكة المرتبكة . كانت تحسّ انها بطيئة لزجة ،
ما تزال ملطخة بآثار النوم ، كانت على رأسها تلك القبعة النحاسية ،
وفي فيها مذاق نشافة ، وفي جانبها ذلك الدفء ، وتحت ذراعيها ،
في رأس الشعيرات السود ، تلك الجواهر من البرد . وكانت بها
رغبة للتقيؤ ، ولكنها كانت تهاسك : إن نهارها لم يبدأ بعد ، إنه
هناك ، رابضٌ تجاه مارسيل ، في توان غير مستقرّ ، وإن اية حركة
ستجعله ينهار كما يتهافت الثلج . وأخذتها ضحكة قاسية : « حرّيته ! »
حين يستيقظ المرء في الصباح ، معتكر القلب ، وامامه خمس عشرة
ساعة يقتلها قبل ان يتمكن من العودة الى النوم ، فإذا يجديه ان يكون
حرّاً ؟ « إن الحرية لا تعين المرء على الحياة » وكانت ريشات صغيرة
دقيقة مطلية بالمقرّ تداعب أعماق حنجرتها ، ثم إن نفوراً من كل شيء
تجمّع كتلة على لسانها ، كان يشدّ شفيتها الى خلف . « انني محظوظة ،
فيبدو ان هناك نساء يتقيأن طوال النهار ، في الشهر الثاني ؛ اما انا ،
فأقيء قليلاً في الصباح ، وأجدني بعد الظهر متعبة ، ولكنني أظل
صامدة ؛ وقد عرفت امي نساء لم يكن يطقن رائحة التبغ ، وليس
ينقصني بعد غير هذا . » ونهضت فجأة وهرعت الى المغسلة ، فقاءت
ماء مزبدأعكراً يشبه بياض بيضة مخفوقة قليلاً . وتشبثت مارسيل بطرف
المغسلة الخرفية ونظرت الى المائع المنتفخ بالهواء : انه في نهاية المطاف

يشبه النبي . وراودتها بسمه صفراء وتمتت « ذكرى حب » . ثم ساد صمت معدني كبير في رأسها وابتدأ نهارها . ولم تكن تفكر بعد في شيء ، فأمرت يدها في شعرها ، وانتظرت : « اني في الصباح آقيء دائماً مرتين » ثم تمثلت فجأة وجه ماتيو ، وهيئته الساذجة المقتنعة حين قال : هل نجھضه ؟ واخترقها برق من الحقد .

واقرب القبيء . وفكرت اولاً بالزبدة فأخذها الاشمزاز ، وكان يخيل اليها انها تمضغ قطعة من الزبدة صفراء ونامسة ، ثم أحست بما يشبه ضحكة كبيرة داخل حنجرتها . فالتحت فوق المغسلة . وكان خيط طويل يتدلى من شفيتها ، وكان لا بد لها من ان تسعل لتخلص منه . ولم يكن ذلك ينفرها . ومع هذا ، فقد كانت سريعة في النفور من نفسها : فحين اصيبت في الشتاء الماضي بالإسهال ، لم تكن تريد ان يمستها ماتيو بعد ، وكان يخيل اليها طوال الوقت انها كانت ذات رائحة . ونظرت الى البلغم الذي كان يتسرب على مهل الى ثقب التفريغ ، تاركاً آثاراً ملتعة لزجة كأنها البزاق . وقالت بصوت منخفض : « طريف ! طريف ! » ولم يكن ذلك ينفرها : لقد كان هذا من الحياة ، كتبرعمات الربيع اللزجة ؛ لم يكن ذلك ابعث على النفور من النسخ الأحمر الزكي الذي يطلي البراعم . « ليس هذا ما ينفر » وأجرت قليلاً من الماء لتنظيف الطست ، ونزعت قيصها بحركات رخوة . وفكرت : « لو كنت حيواناً لتركوني وشأني » وكان بوسعها ان تستسلم لهذا الاسترخاء الحي ، وأن تستحم فيه كما لو انها وسط تعب كبير سعيد . انها لم تكن حيواناً . « هل نجھضه ؟ » انها تشعر ، منذ عشية أمس ، بأنها كانت مطاردة .

وكانت المرأة تعكس صورتها محاطةً باشعاعات رصاصية . واقتربت منها ، ولم تنظر الى كتفيها ولا الى نهديها . انها لم تكن تحب جسمها . ونظرت الى بطنها ، والى حوضها الواسع الخصب . لسبع سنوات

خلت ، ذات صباح - وكان ماتيو قد قضى الليل معها ، وكانت هي المرة الاولى - كانت قد اقربت من المرأة بهذا الاندهاش المتردد نفسه ، وكانت آنذاك تفكر : « صحيح اذن ان بوسع المرء ان يحب ! » وكانت تتأمل بشرتها الملساء الحريرية ، كأنما هي قطعة نسيج ، ولم يكن جسمها الا سطحاً معمولاً ليعكس العاب النور العميقة وليتغصن تحت الملامسات ، كالماء تحت الريح. انها لم تكن اليوم تلك البشرة نفسها : كانت تنظر الى بطنها فتجد إزاء غزارة هذه البراري الغذائية الهادئة إحساساً سبق ان راودها اذ كانت صغيرة وهي ترى اثناء النساء اللواتي كن يرضعن اولادهن في حديقة اللكسمبورغ : فقد كان وراء الخوف والاشمزاز ، نوع من الأمل . وفكرت : « انه هنا » في هذا البطح كانت حبة فريز دموية صغيرة تعجل لتحميا ، في سرعة بريئة ، حبة فريز دموية بليدة كل البلادة لم تبلغ بعد ان تكون حيواناً ، وسيسقطونها بطرف سكنين . « هناك اخريات ، في هذه الساعة ، ينظرن الى بطونهن ويفكرن ايضاً : انه هنا . ولكن هؤلاء فخورات . » وهزت كتفيها : اجل ، انه معمول للامومة ، هذا الجسم الذي كان يتفتح بكيفية غير معقولة . ولكن الرجال قد قرروا في ذلك شأناً آخر . سوف تقصد تلك العجوز : لم يكن لها الا ان تتخيل انه ورم ليفي . « والحق انه في هذه الساعة ليس الا ورماً ليفياً » ستقصد العجوز ، وسترفع ساقيها في الهواء وسوف تحك العجوز بآلتها ما بين فخذيهما . ثم يكف الحديث عن ذلك الى الابد . ولا يكون بعد الا ذكرى مقبلة يملك جميع الناس أمثالها في الحياة . وستعود الى غرفتها الوردية ، وستستأنف القراءة ، والتأمل في الاحشاء ، ويستمر ماتيو في رؤيتها اربع ليالٍ في الاسبوع ، وسيعاملها فترة اخرى بلطف ورقة ، كأمر صغيرة ، وحين يضاجعها يضاعف احتياطاته ، وسوف يأتي ايضاً دانيال ، دانيال الملاك الاعظم ، بين فترة واخرى ... ماذا ! انها فرصة قد فاتت ... وفاجأت عينيها

في المرأة ، وانفتلت بحيوية : انها لم تكن تريد ان تكسره ماتيو .
وفكرت : « لقد آن لي ان أبدأ زينتي » .

ولكنها لم تكن تملك الصبر على ذلك . فعادت تجلس على السرير ،
ووضعت يدها بعدوبة على بطنها، فوق الشعيرات السود تماماً ، وضغطت
قليلاً ، لا اكثر مما ينبغي ، وفكرت بشيء من الحنان : « انه هنا »
ولكن الكره لم يكن لينهزم . وقالت لنفسها في حرص : « لا اريد ان
اكرهه . انه على حق . فلقد تعاهدنا انه في حال حدوث ... ولم يكن
يستطيع هو ان يعرف . انها غلطتي ، فأنا لم اقل له شيئاً قط » وحسبت
ذات لحظة ان نفسها ستفزع ، فهي لم تكن تخشى شيئاً كأن تحقره .
ولكنها ما لبثت ان انتفضت : « وكيف كان لي ان اخبره ؟ انه لا
يسألني عن شيء ابدأ . » طبعاً: لقد تعاهدا مرةً والى الأبد ان يتكاشفا
كل شيء . ولكن هذا كان مناسباً له خصوصاً . كان يحب خاصةً
ان يتحدث عن نفسه ، ان يعرض حالاته الضميرية الصغيرة ، ودقائقه
الاخلاقية . اما مارسيل فقد كانت تثق به : بدافع الكسل . ولم يكن
يتبرم من اجلها ، وكان يفكر : لو كانت تشكو شيئاً لأبأتني .
ولكنها لم تكن تستطيع ان تتكلم : ان ذلك لم يكن يخرج من فها .
« يجب ان يعرف مع ذلك ، اني لا استطيع ان اتحدث عن نفسي ،
فأنا لا احب نفسي بما فيه الكفاية لأتحدث عن نفسي . » الامع دانيال ،
فقد كان دانيال يعرف كيف يحملها على الاهتمام بنفسها : فما كان
الطف طريقته في سؤالها ، وفي النظر اليها بعينيهما الجميلتين المداعبتين ،
ثم انه كان بينها سر . فما كان اعجب دانيال : كان يراها بالخفية ،
وكان ماتيو يجهل كل شيء عن علاقتها؛ ولم يكونا يعلان شيئاً ضاراً ،
بل كان ما بينها شبه لعبة ، ولكن هذا الضلوع كان يخلق بينها صلة
للذئذة وخفية؛ ثم ان مارسيل لم يكن ليؤذيها ان يكون لها شيء من الحياة
الشخصية ، شيء يكون حقاً ملكها ، ولا تكون مضطرة الى مشاركة

احد فيه . وفكرت : « ليس له الا ان يفعل كدانيال . لماذا لا يكون هناك احد غير دانيال يستطيع ان يحملي على الكسلام ؟ ليته ساعدني قليلاً ... » لقد احست طوال نهار امس بانقباض في حلقها ، وكانت تود لو تقول له : « وماذا لو احتفظنا به ؟ » آه ! ليته تردد ، ولو لحظة ، اذن لقلت له ذلك . ولكنه جاء ، واتخذ مظهره الساذج : « ألا نجھضه ؟ » ولم يستطع ذلك ان يخرج من فها . « كان قلقاً حين خرج : انه لم يكن يريد ان تهدمني تلك المرأة . هذا صحيح : سوف يبحث عن عناوين ، وسيشغله ذلك ، الآن وقد انتهت اعماله التدريسية ، وهذا خيرٌ له من ان يتسكع مع تلك الصغيرة . ثم انه قد ارتبك كمن كسر اناءً من فخار . ولكن ضميره ، في صميمه ، مرتاح كل الراحة ... ولا بد انه عاهد نفسه على ان يملأني حباً . » وضحكت ضحكة قصيرة : « لا بأس . غير ان عليه ان يعجل : فعما قليل سأتجاوز سن الحب . »

وشتجت يديها على القماش ، وكانت مذعورة : « اذا بدأت احتقره ، فماذا يبقى لي ؟ » ولكن ، هل كانت تعلم ان كانت تريد طفلاً ؟ كانت ترى من بعيد ، عبر المرأة ، كتلة مظلمة متراخية بعض الشيء : وكان ذلك جسمها ، جسم السلطانة العقيم . « ولكن أترأه كان حقاً سيعيش ؟ اني متهتة . » سوف تقصد هذه العجوز ، متخفية في الليل . وستمر العجوز يدها في شعرها ، كما أمرتها في شعر « اندريه » ، وتناديها بلهجة ضلوع قدرة : يا قطي الصغيرة : « حين لا تكون المرأة متزوجة ، فأن حبها مُربكٌ كالسيلان . انني مصابة بمرض جنسي . هذا ما ينبغي ان ا قوله لنفسي . »

ولكنها لم تستطع الامتناع عن ان تمر يدها متمهلة على بطنها . وفكرت : انه هنا . هنا . شيء حي قليل الحظ مثلها . حياة نافلة ، ولا معقولة ، كحياتها ... وفكرت فجأة في هوس : « مهما يكن ، فإنه كان سيكون

لي ، حتى ولو كان ابله ، ولو كان مشوهاً ، كان سيكون لي «
ولكن هذه الرغبة الخفية ، وهذا القسم الغامض ، كانا من التوحّد
وطاقة الكتمان ، وكان ينبغي اخفاؤهما على كثير من النساء ، بحيث
أحسّت فجأة بأنها مذنبه ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها .

كانت تُرى أولاً فوق الباب لافتة « ج. ف » والاعلام المثلثة
الألوان : وكان هذا ينبيء فوراً بالموضوع . ثم كان المرء يلج الصالونات
الكبيرة الحالية ، ويغرق في نور اكاديمي كان يسقط من شبّاك قد زال
صقله : وكان ذلك يدخل عينيك مذهّباً ، ثم يأخذ في الذوبان ،
ويصبح رمادياً . جدران مشرقة ، وبُسط من المخمل البيج . وفكر
ماتيو : « الروح الفرنسية . » حمام من الروح الفرنسية . وكان هناك
مثله في كل مكان ، على شعر ايفيش ، وعلى يدي ماتيو : كانت
تلك الشمس المنقّاة وصمت هذه الصالونات الرسمي ؛ وأحس ماتيو
بأنه مرهق بغمامة من التبعات المدنية : كان ينبغي ان يتحدث المرء بصوت
منخفض ، وألاً يمس الأشياء المعروضة ، وان يمارس باعتدال ، ولكن
بحزم ، حسّه النقدي ، وألاً ينسى في اي حال أوفر للفضائل «فرنسية» :
الانسجام . وبعد هذا ، طبعي ان يكون على الجدران لطخات ، هي
اللوحات ، ولكن ماتيو كان قد فقد كل رغبة في النظر اليها . ومع
ذلك ، فقد اقتاد ايفيش ، وأراها ، من غير أن يتكلم ، منظرًا من
مناظر « بريتاني » مع تل نصب عليه صليب ، ومسيحاً على صليب ،
وباقة ، وامرأتين من تاهيتي راكعتين على الرمل ، وجاعة من الفرسان

الماوريس . ولم تكن ايفيش تقول شيئاً ، وكان ماتيو يتساءل عما عساها تفكر به . وكان يحاول احياناً ان ينظر الى اللوحات ، ولكن ذلك لم يكن ينتج شيئاً . وفكر بانزعاج : « اللوحات امرٌ لا يأخذك ، انها تعرض نفسها ؛ ووجودها او عدم وجودها متوقف عليّ ، فأنا حرّ ازاءها . » جرّ أكثر مما ينبغي : لقد كان ذلك يخلق له حريةً اضافية ، وكان يحس نفسه في الزيف . وقال :

— هذا هو غوغان .

وكانت لوحةً صغيرةً مربعة وعليها عنوان « صورة الفنان، بريشته » غوغان ممتنع مسرّح ، ذو ذقن ضخم ، وهيئة ذكاء مبتدل وعبوس صبي . ولم تجب ايفيش فرمى ماتيو اليها نظرة خفية : فلم ير إلا شعرها الذي كان يريق النهار الكاذب قد اذهب لمعانه الذهبي . وكان ماتيو ، حين نظر الى هذه الصورة للمرة الاولى في الاسبوع السابق ، قد وجدها جميلة . اما الآن ، فهو يستشعر الجفاف . والحق انه لم يكن يرى اللوحة : فقد كان ماتيو ممتلئاً حتى درجة الإشباع بالواقع والحقيقة ، مرتعد الفرائص بروح الجمهورية الثالثة ؛ وكل ما كان واقعياً ، كان يراه ، وكان يرى كل ما يمكن ان يوضح هذا النور الكلاسيكي ، والجدران ، والأقشة في اطرها ، والألوان المتصلبة على اللوحات . ولكن ليس اللوحات : كانت اللوحات قد انطقت ، وكان يبدو بشعاً ومريعاً ، في اعماق هذا الحمام الصغير من الانسجام ، ان يكون قد وُجد اشخاص ليرسموا ويمثلوا على الأقشة اشياء غير موجودة .

ودخل رجل وسيدة . وكان الرجل طويلاً مورداً ذا عينين تشبهان ازرار الحذاء العالي وشعر ناعم ابيض ؛ اما المرأة فكانت اقرب الى نوع الغزال . وكان عمرها يقدر بالأربعين . وما كادا يدخلان حتى بدا عليهما وكأنهما في منزلها : ولا بد ان ذلك كان عادة ، فقد كان

ثمة صلة لا تنكر بين مظهرهما الفنيّ وميزة النور ؛ ولا بد ان نور المعارض الوطنية هو الذي كان يحفظها خير حفظ . و اشار ماتيو يُري ايفيش عفونة كبرية مظلمة على جانب الجدار الداخلي :
- انه هو ايضاً .

كان غوغان ، وهو عارٍ حتى النطاق تحت سماء عاصفة ، يحدد فيها نظرة قاسية مزيفة هي نظرة المهلوسين . وكانت الوحدة والتكبر قد التهمت وجهه ؛ وكان جسمه قد اصبح ثمرة سميثة طرية من ثمرات المناطق الاستوائية مع جيوب مليئة بالماء . وكان قد فقد « الجدارة » - تلك الجدارة الانسانية التي كان ماتيو لا يزال يحتفظ بها ولا يدري ماذا يفعل بها - ولكنه كان يحتفظ بالعزة . وكان خلفه موجودات غامضة ، جماعة من الأشكال السوداء . وحين رأى ماتيو للمرة الأولى هذا اللحم الداعر الرهيب ، اخذه انفعال شديد ؛ ولكنه كان وحده . اما اليوم فقد كان إلى جانبه جسم صغير حاقد ، وكان ماتيو خجلاً من نفسه . لقد كان زائداً عن الضرورة : نفاية ضخمة عند اسفل جدار .
واقرب الرجل والسيدة ، واقبلا ينزرعان بلا تكلف امام القماشة . واضطرت ايفيش الى التنحي خطوة جانبية ، لأنها كانا يمنعان عنها الرؤيا . وانقلب الرجل الى خلف ونظر إلى اللوحة بقسوة آسفة . لقد كان رجل اختصاص ، وكان يضع عقدة على هيئة وردة . وقال وهو يهز رأسه :

- تس ، تس ! ما اقل ما احب هذا ! اقسم انه يظن نفسه المسيح . وذلك الملاك الاسود خلفه ، هناك ، هناك ... إن هذا ليس بالأمر الجليدي .

واخذت السيدة تضحك ، وقالت بصوت زهري :
- يا إلهي ! صحيح .. ذلك الملاك .. إن هذا شيء ادبيّ ...
وقال الرجل بعمق : - لا احب غوغان حين يفكر . ان غوغان

الأصيل هو غوغان الذي يرسم الديكور .
وكان ينظر الى غوغان بعينه ، عيني اللعبة ، ويبدو جافاً وهزيباً
في ثوبه الفلانيل الرمادي الجميل تجاه هذا الجسم الكبير العاري . وسمع
ماتيو نقنقة غريبة فالتفت : كانت ايفيش مأخوذة بضحكة مجنونة ،
وقد رمت له نظرة يائسة وهي تعض على شفيتها : وفكر ماتيو في
اشراقة من فرح : « انها غير عاتبة عليّ » وأخذها من ذراعها
واقتاذا وهي منحنية الى اريكة من الجلد ، في وسط القاعة . وتهاكت
ايفيش فوق الاريكة وهي تضحك ؛ وكان جميع شعرها قد تناثر على
وجهها . وقالت بصوت مرتفع :

هذا فظيخ ! كيف كان يقول : « لا احب غوغان حين يفكر ! »
والسيدة الفاضلة ؟ انه يلائمه تماماً ان يكون مع سيدة مثلها .
وكان والرجل السيدة منتصبين : وكان يبدو انهما يتشاوران فيما ينبغي
عمله : وقال ماتيو بحياء :

– هناك لوحات اخرى ، في القاعة المجاورة .
فكفّت ايفيش عن الضحك ، وقالت بصوت شرس :
– لا ، إن الوضع مختلف الآن . فهناك أشخاص .
– اتريدون ان نخرج ؟
– افضل ذلك ، فان جميع هذه اللوحات اعادت لي الصداع .
اودّ ان اتنزّه قليلاً في الهواء الطلق .

ونفضت . فتبعها ماتيو وهو يلقي نظرة اسف على اللوحة الكبيرة
المعلقة على الجدار الایسر : فقد كان يود ان يُريها ايها . كانت
صورة امرأتين تطآن ، بأقدامهما العارية ، عشباً وردياً . وكانت احدهما
قرتدي قبعة ، وكانت ساحرة . اما الاخرى ، فكانت تمد ذراعها بهدوء
نبوي . ولم تكونا حيتين تماماً . وكان يبدو انهما فوجئتا وهما تتحولان
الى شيتين .

وفي الخارج ، كان الشارع يشتعل . وأحس ماتيو بأنه انما كان يعبر أتوناً . وقال بالرغم عنه :

- ايفيش .

فقطبت ايفيش ورفعت يديها الى عينيها ، وقالت بغضب :

- كأنها تُفقدان بالدبابيس . اوه اني أكره الصيف .

ومشياً بضع خطوات . وكانت ايفيش ترنح قليلاً ، وهي ما تزال تضغط بيديها على عينيها .

وقال ماتيو : - حذار ، إن الرصيف يقف .

وخفضت ايفيش يديها فجأة ، فرأى ماتيو عينيها الصفراوين متباعدين .
وعبرا الرصيف صامتين . وقالت ايفيش فجأة :

- ينبغي ألا تكون عامة .

فسألها ماتيو مندهشاً : - تعين المعارض ؟

- نعم .

- لو لم تكن عامة (كان يحاول ان يستعيد لهجة الألفة التي كانا معتادين عليها) فأني أتساءل كيف كان لنا ان نذهب اليها .

فقالت ايفيش بحفاء : - كنا لا نذهب اليها !

وصمتا . وفكر ماتيو : « لم تكف عن الحقد عليّ » ثم اخترقه فجأة يقين غير محتمل : « انها تريد ان تفرقع . وهي لا تفكر بغير هذا . لا بد انها تفتش في رأسها عن عبارة للاستئذان المهذب ، فأذا وجدتها تركتني . ولست اريد ان تذهب . » فكر في ذلك بقلق .
وسألها :

- أليس لديك شيء خاص تعملينه ؟

- متي ؟

- الآن .

- كلا . لا شيء .

- ما دمت تريدين ان تتزهي ، فأني افكر ... هل يزعجك ان

ترافقي حتى منزل دانيال ، شارع مونبارتر ؟ نستطيع ان نفرق عند بابه وستسمحين لي ان امنحك تاكسي لتدخلني الى المعهد .
كما تريد ، غير اني لن اعود الى المعهد ، بل سأذهب لرؤية بوريس .

« انها باقية » ولم يكن ذلك يثبت له انها ساحتها . كانت ايفيش تجزع من ترك الامكنة والناس ، حتى ولو كانت تكرههم ، لأن المستقبل كان يخيفها . وكانت تستسلم بتثاقل متجههم الى اشد المواقف لإغائة ، ثم ينتهي بها الأمر الى ان تجد فيها نوعاً من الراحة . ومع ذلك ، فقد كان ماتيو مسروراً : فما دامت معه : فسيمنعها من التفكير . اذا تكلم بلا انقطاع ، واذا فرض نفسه ، استطاع ان يؤخر قليلاً تفتح الافكار الغاضبة والمزدرية التي ستولد لديها . كان ينبغي ان يتكلم على التو ، في اي موضوع . ولكن ماتيو لم يكن يجد ما يقوله . وانتهى الى ان يسألها بارتباك :

— لقد راقت لك هذه اللوحات ، بالرغم من كل شيء ؟

فهزت ايفيش كتفها :

— طبعاً .

وكان ماتيو راغباً في ان يمسخ جبينه ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك . « ستكون بعد ساعة حرة ، وستحکم علي حكماً مبرماً ولن يتسغني بعد » ان ادافع عن نفسي .. ليس ممكناً ان ادعها تذهب هكذا (هذا ما قرره) يجب ان اشرح لها . «

وانقتل اليها ، ولكنه رأى عينيها الشاردتين قليلاً ، فلم يتأت له الكلام .

وسألت ايفيش فجأة : — اتظن انه كان مجنوناً ؟

— غوغان ؟ لا ادري . أسبب صورته تسأليني هذا السؤال ؟

— بسبب عينيهِ . ثم ان هناك هذه الاشكال السوداء خلفه ، فكأنها

همسات .

واضافت في شيء من الاسف :
- لقد كان جميلاً .

فقال ماتيو وقد بوغت : - عجباً ! هذه فكرة ما كانت لترد على
بالي .

وكانت لإيفيش طريقة في التحدث عن المشاهير من الموتى تثير
استغرابه بعض الشيء : فهي لم تكن تقيم بين الرسامين الكبار وبين
لوحاتهم اي صلة ؛ لقد كانت اللوحات اشياء ، اشياء جميلة شهوانية
ينبغي امتلاكها ؛ وكان يخيّل اليها انها كانت موجودة منذ الأبد ؛ اما
الرسامون فقد كانوا بشراً كسائر البشر : انها لم تكن تحمد لهم اعمالهم ،
ولم تكن تحترمهم . وكانت تسأل عما اذا كانوا لذيين ظرفاء ، وعما
اذا كانت لهم خليلات ؛ وقد سألتها ماتيو يوماً عما اذا كانت تحب لوحات
تولوز - لوتريك فأجابت : « اية فظاعة ! ما كان اقبحه ! » فاحس
ماتيو بانه شخصياً قد جرح .
- أجل ، لقد كان جميلاً .

فهز ماتيو كتفيه . لقد كانت ايفيش تستطيع - ما شاءت - ان
تأكل بعينها طلبة السوربون التافهين النضرين كالبنات . بل ان ماتيو قد
وجدتها جذابة ، ذلك اليوم الذي كانت تتأمل فيه فتى قاصراً من فتیان
الميم ترافقه راهبتان ، فقالت برصانة حائرة بعض الشيء : « اعتقد اني
سأصبح لوطية ! » وكان يمكن لها ان تجد النساء جميلات . اما غوغان ،
فلا . ليس هذا الرجل الناضج الذي صنع لها لوحاتٍ كانت تحبها .
وقال :

- كل ما هنالك ، اني لا اجده قريباً الى القلب .

فقلبت ايفيش شفيتها استياء وصمتت .

وقال ماتيو بحوية : - ماذا هناك يا ايفيش ؟ انك تلوميني لأنني

قلت انه لم يكن قريباً الى القلب ؟

— لا ، ولكنني أتساءل لماذا قلت ذلك .
— هكذا . لأن هذا هو شعوري : ان هيئة التكبر التي يبدو عليها
تجعل عينيه شبيهتين بعيني سمكة مسلوقة .
واخذت ايفيش تشد على خصلة من شعرها ، وكانت قد اتخذت
هيئة عناد تافه .

وقالت بلهجة محايدة : — ان له هيئة من النبيل .
فقال ماتيو باللهجة نفسها : — صحيح .. ان كنت تقصدين هيئة
التعجرف .

فقالت ايفيش بضحكة قصيرة : — طبعاً .
— لماذا تقولين طبعاً ؟
— لأنني كنت واثقة من انك ستصف ذلك بالتعجرف .
فقال ماتيو بعذوبة :

— لم اكن اريد ان اقول عنه اي سوء . فانت تعلمين اني احب
ان يكون الانسان متكبراً .
وسادت فترة صمت طويلة . ثم قالت ايفيش بفضفاضة ، وبلهجة بليدة
مغلقة :

— ان الفرنسيين لا يحبون ما هو نبيل .
وكانت ايفيش تتحدث بكل رضى عن المزاج الفرنسي اذ تكون
غاضبة، وهي تتحدث دائماً بهذه اللهجة البليدة . وازافت بصوت مفرط
اللطافة :

— والواقع اني ادرك سبب ذلك . فلا بد ان ذلك يبدو ، من
الخارج ، مبالغاً فيه جداً .

ولم يجب ماتيو : لقد كان ابو ايفيش نبيلاً . ولولا ثورة ١٩١٧
لحربت ايفيش في موسكو، في المدرسة الداخلية لأنسات النبالة، ولقدّمت
الى القصر ، ولتزوجت ضابطاً من الحرس ، طويلًا وجميلاً ، ذا جبين

ضيق ونظرة ناعسة . اما الآن ، فان السيد سرغين هو صاحب منشرة آلية في لاون . وكانت ايفيش في باريس ، كانت تنتزه في باريس ، مع ماتيو ، وهو بورجوازي فرنسي لم يكن يحب النبالة ، وسألت ايفيش فجأة :

– أهو الذي ... رحل ؟

فقال ماتيو على عجل : – أجل ، هل تريدان ان اروي لك قصته ؟
– احسب اني اعرفها : كان متزوجاً ، وكان له اولاد ، اليس

كذلك ؟

– أجل ، كان يعمل في مصرف . ثم كان ينطلق يوم الاحد الى الضاحية وهو يحمل مرسماً وعلبة الوان . كان ما يسمى برسام ايام الاحد .
– رسّام ايام الاحد ؟

– نعم : في البدء ، كان كذلك ، يعني انه كان هاوياً يخرّبش اللوحات يوم الاحد كما يصطاد صياد الشبكة ، بدافع من المحافظة على الصحة ، لأن من يرسم المناظر في الريف يستنشق الهواء النقي .
واخذت ايفيش تضحك ، ولكن ليست الضحكة التي كان يتوقعها ماتيو ، فسألها بقلق :

– هل يسليتك انه بدأ بأن يكون رسام ايام الاحد ؟

– لم اكن افكر به .

– وبمّ كنت تفكرين ؟

– كنت اتساءل عما اذا كانوا يتحدثون ايضاً ، في بعض الاحيان ، عن كتاب يوم الاحد .

كتاب الاحد : بورجوازيون صغار يكتبون كل عام قصة قصيرة او خمس قصائد او ستاً ليطعموا حياتهم بشيء من المثالية . بدافع من المحافظة على الصحة . وارتعش ماتيو وسألها بجذل :

– اتقصدين اني احدهم ؟ حسناً ، ترين ان ذلك يفضي الى كل

شيء فلعلني أرحل يوماً ما الى تاهيتي .

فالتفتت اليه ايفيش ونظرت اليه وجهاً لوجه . وكان يبدو عليها الاستياء والخوف : فلا بد انها كانت خائفة من جرأتها هي بالذات . وقالت بصوت لا طابع له :

- سأستغرب ذلك :

فقال ماتيو : - ولمَ لا ؟ قد لا أرحل الى تاهيتي ، وانما الى نيويورك . ان بودي لو أذهب الى أميركا .

وكانت ايفيش تشد على خصلاتها بعنف ، وقالت :

- نعم ، اذا كان ذلك في بعثة ، مع أساتذة آخرين .

فنظر ماتيو اليها صامتاً ، واستطردت :

- ربما كنت على خطأ ... انني أستطيع ان أتمتلك وأنت تلقي محاضرة في جامعة أمام طلاب أميركيين ، ولكن لا على ظهر سفينة ، مع مهاجرين . وربما كان ذلك لأنك فرنسي .

فسألها وهو يحمر "نجلاً" : - أتعقدن انه يلزمني غرف من الدرجة الممتازة ؟

فقالت ايفيش بايجاز : - لا ، بل من الدرجة الثانية .

فشق عليه قليلاً ان يتلع ريقه . « أود كثيراً لو أراها ، هي ، على ظهر سفينة ، مع مهاجرين ، اذن لماتت قهراً » .

وانتهى يقول : - أخيراً ، مها يكن من أمر ، فاني أجد غريباً منك ان تقرري هكذا اني لن أستطيع الذهاب . والواقع انك على خطأ ، فقد راودتني الرغبة كثيراً في الماضي . غير ان ذلك قد زال لأنني أجده أمراً بليداً . ثم ان هذه الحكاية كلها مضحكة خاصة وانها جاءت بصدد غوغان الذي ظل بيروقراطياً حتى الأربعين من عمره .

فانفجرت ايفيش بضحكة ساخرة ، وسألها ماتيو :

- أليس ذلك صحيحاً ؟
- بلى .. ما دمت تقوله . مهما يكن من أمر ، فيكفي ان ننظر إليه على قاشته ...
- ماذا ترين ؟
- أتصور انه لا ينبغي ان يكون هناك كثير من البيروقراطيين على شاكلته . لقد كان يبدو ... ضائعاً .
- وتمثل ماتيو وجهاً ثقيلاً ذا ذقن هائلة . لقد فقد غوغان الجدارة الانسانية ، وقد قبل أن يفقدها . وقال :
- فهمت . تقصدين اللوحة الكبيرة في الداخل ؟ لقد كان مريضاً جداً في تلك الاثناء .
- فابتسمت ايفيش بأزدراء :
- انما أتكلم عن اللوحة الصغيرة التي كان ما يزال فيها شاباً : انه يبدو جديراً بأي شيء .
- ونظرت الى الفراغ ، بشيء من الشرود ، فأحس ماتيو للمرة الثانية بعضمة الحسد .
- طبعاً ، اذا كان هذا ما تقصدينه ، فلست رجلاً ضائعاً .
- قالت ايفيش : — اوه ! كلا .
- فقال : — ثم اني لا أفهم لم تكون هذه مزياً ، وإلا فأني لا أفهم ما تقصدين .
- حسناً ! لا نتكلم بعد في ذلك .
- طبعاً . أنت كذلك دائماً : توجهين انتقادات مغلفة ، ثم ترفضين أن تشرحها . إن ذلك أسهل مما ينبغي .
- فقالت بلا اكتراث : — انا لا أوجه انتقادات الى أحد .
- فكف ماتيو عن السير ونظر اليها . وتوقفت ايفيش على مضض :
- وقفزت خطوة وهي تتفادى نظر ماتيو :

– اسمعي يا ايفيش ! ستقولين لي ما تقصدين بذلك ؟
فقالته بدهشة : – بأي شيء ؟
– بقصة هذا الرجل « الضائع » .
– أما زلنا نتحدث في هذا الموضوع ؟
قال ماتيو : – ان ذلك يبدو بليداً ، ولكني أود أن أعرف ماذا
تقصدين بذلك .

فعدت ايفيش تشد على خصلات شعرها . وكانت بين وقت وآخر
تفتح فيها فيحسب ماتيو انها ستتكلم : ولكنها لم تقل شيئاً . ثم
قالت :

– سيان عندي أن يكون المرء كذلك ، أو يكون شيئاً آخر .
وكانت قد لفتت خصلة حول إصبعها وأخذت تشد عليها كما لو انها
تريد أن تنتزعها . وأضافت فجأة بصوت سريع ، وهي تحدد نظرها في
رأس حذائها :

– أنت مستقر ، ولن تتغير ولو وهبوك ذهب الدنيا .
قال ماتيو : – هكذا تظنين اذن ؟ وما هو دليلك ؟
– انه شعور : ان المرء يُحس أن لك حياة مصنوعة ناجزة ، ولا
سما أفكارك . واذن فانك تمد يدك الى الأشياء حين تظن انها في متناولك
ولكنك لا تزعج نفسك لتذهب فتأخذها .

فردد ماتيو : – وما هو دليلك ؟ (ولم يكن يجد شيئاً آخر يقوله :
كان يفكر بأنها على حق) .

فقالته ايفيش في ضجر : – كنت أظن . كنت أظن انك لا
تريد ان تجازف بشيء ، وانك أذكى من أن تفعل ذلك . (ثم
أضافت بلهجة مصطنعة) ولكن ما دمت تقول انك لست كذلك ...
وفكر ماتيو فجأة بمارسيل فأخذه الحجل ، وقال بصوت
منخفض :

— كلا ، انني كذلك ، انني كما تظنين .
فقلت ايفيش بلهجة انتصار : — آه ! أترى ؟
— وانت ... هل تجدين ذلك يستحق الاحتقار ؟
فقلت ايفيش في رفق :

— بل على العكس . انني أجد هذا أفضل بكثير . لا بد ان الحياة
مع غوغان مستحيلة (وأضافت دون ان يبدو في لهجتها اي سخريه)
أما معك ، فان المرء يحس بالطمأنينة ، ولا مجال لأن يخشى أبداً ما
هو غير متوقع .

فقال ماتيو بجفاف : — صحيح . اذا كنت تعنين انني لا أنساق
للاهواء ... انت تعلمين ان بوسعي ان أنساق لها كأني انسان آخر ،
ولكنني أجد ذلك قبيحاً .

قالت ايفيش : — أعرف ذلك . إن كل ما تفعله منهجي ... جداً.
فشعر ماتيو بأنه يصفر :

— بأي صدد ، تقولين هذا يا ايفيش ؟

فقلت ايفيش بلهجة غامضة : — بصدد كل شيء .

— اوه ! لا بد ان لديك فكرة صغيرة معينة .

فهممت من غير ان تنظر اليه :

— لقد كنت كل اسبوع تأتي ومعك « الاسبوع في باريس » ثم

تنظم برنامجاً ...

فقال ماتيو مغتاضاً : — ولكن ذلك كان من أجلك يا ايفيش ...

فقلت ايفيش بتأدب : — أعرف هذا ، واني أكنّ لك العرفان .

وكان ماتيو مبالغاً أكثر منه مجروحاً :

— انني لا أفهم يا ايفيش . ألم تكوني تحبين سماع الموسيقى او

مشاهدة اللوحات ؟

— بلى .

– كم تقولين ذلك برخاوة !
– كنت أحب ذلك كثيراً في الحق . (وازدافت بعنف مفاجيء)
ولكنني استفظع ان تُتخلق لي واجبات تجاه الاشياء التي أحبها .
فردد ماتيو : – آه .. انك .. انك لم تكوني تحبين ذلك .
وكانت قد رفعت رأسها وقذفت شعرها الى الخلف ، فانكشف
وجهها الأصفر العريض ، وكانت عيناها تطلقان الشرارات . وكان
ماتيو جزءاً مرهقاً: ينظر الى شفطي ايفيش الدقيقتين الرخوتين ، ويتساءل
كيف استطاع ان يقبلها . واستطرد يقول بأشفاق :
– كان ينبغي ان تخبرني ، ولو فعلت لما قسرتك قط .
لقد جرّتها الى الحفلات الموسيقية والى المعارض ، وكان يشرح لها
اللوحات ، وفي هذه الاثناء كانت تكرهه . وقالت ايفيش وكأنها لم
تسمعه :

– ما عسى ان تهمني انا ، اللوحات ، اذا لم اكن استطيع ان
امتلکها ؟ كنت كل مرة انفجر غضباً ورغبة في ان أحملها ، ولكن
لم يكن ممكناً حتى لمسها . وكنت اشعر بك الى جانبي هادئاً ولانقأ:
فقد كنت تذهب الى هناك ، كما لو انك تذهب الى القديس .
وصمتا . وكانت ايفيش قد احتفظت بهيئتها القاسية . وأحس ماتيو
فجأة بانقباض في حنجرتة :

– ايفيش ، ارجوك ان تعذرني بسبب ما حدث في هذا الصباح .
قالت ايفيش : – هذا الصباح ؟ اني لا افكر به بعد ، بل كنت
افكر بغوغان .

قال ماتيو : – إن ذلك لن يحدث مرة اخرى ، بل اني لم افهم
كيف امکن ان يحدث ذلك .
وكان يتكلم تبرئة لضميره : فقد كان مسدراً ان قضيته كانت
خاسرة . ولم تجب ايفيش فاستطرد ماتيو جاهداً :

- وكانت هناك المتاحف وحفلات الموسيقى ايضاً ... ليتك تعلمين
كم انا آسف ! إن المرء يظن احياناً انه على وفاق مع انسان آخر ...
ولكنك لم تكوني تقولين شيئاً قط .

وكان يحسب ، لدى كل كلمة ، انه سيتوقف . ثم كانت تأتبه
كلمة اخرى من جوف حنجرته وهي ترفع له لسانه .. وكان يتكلم
باشمئزاز ويتشججات صغيرة . وأضاف :
- سأحاول ان اتغير .

وفكر « اني كريبه » وكان غضب يائس يعانق وجنتيه . وهزت
ايفيش رأسها وقالت :

- لا يستطيع الانسان ان يتغير .

وكانت تتكلم بلهجة متعقّلة ، فاحتقرها ماتيو بكل صراحة . ومشيا
صامتين ، جنباً الى جنب ؛ وكان النور يغمرهما ، وكان احدهما يكره
الآخر . ولكن في الوقت نفسه كان ماتيو يرى نفسه بعيني ايفيش ،
فيأخذها الاشمئزاز من نفسه . ورفعت كفها الى جبينها وضغطت صدغها
بين أصابعها :

- الا نزال بعيدين ؟

- ربع ساعة . هل انت متعبة ؟

- اوه ! نعم . اعدرني ، ان السبب هو هذه اللوحات . (وضربت
برجلها الارض ونظرت الى ماتيو نظرة تائهة) ها هي تفلت مني ،
وتختلط جميعاً في رأسي . وهذا يحدث كل مرة .

وأحس ماتيو ببعض الارتياح : - هل تريدان ان تعودى ؟

- أعتقد ان ذلك أفضل .

فنادى ماتيو سيارة تاكسي . وكان على عجلٍ ليكون وحده الآن .
وقالت ايفيش من غير ان تنظر اليه : - الى اللقاء .

وفكر ماتيو : وملهى « سومطرا » ؟ هل ينبغي لي ، بالرغم من

ذلك ، ان اقصدہ وحدي ؟
ولكن لم تكن به رغبةً حتى لأن يراها مرة اخرى : وأعادت :
- الى اللقاء .
وابتعد التاكسي ، وتبعه ماتيو بعينه بضع لحظات في ضيق . ثم
انصفق باب فيه ، وأغلق زجاجه ، فأخذ يفكر في مارسيل .

كان دانيال يخلق ذقنه أمام مرآة خزائنه ، وهو عارٍ حتى نطاقه :
« ان هذا هو لهذا الصباح ، وعند الظهر سينتهي كل شيء . » ولم
يكن ذلك مجرد مشروع : فقد كان الأمر هنا ، في النور الكهربائي ،
وفي صرير آلة الحلاقة . ولم يكن ممكناً محاولة ابعاده حتى ولا تقريبه
لتنتهي القضية بسرعة : كل ما هناك انه كان ينبغي ان يُعاش . وكانت
الساعة لم تتجاوز العاشرة ، ولكن الظهر كان حاضراً في الغرفة ، محمداً ،
صريحاً ، يشبه العين . وفيما بعد ذلك ، لم يكن ثمة الا اصيلٌ مبهم
كان يتلوى كالدودة . وكان داخل عينيه يؤلمه لأنه كان قد نام قليلاً ،
ولأن بئراً كان قد نبت تحت شفته ، احمرارٌ صغير ذو رأس ابيض :
ان الأمر قد أصبح الآن كذلك ، كلما شرب الخمر . وأرهف دانيال
اذنه : كلا ، كانت هذه ضجة في الشارع . ونظر الى البئر المحمر
المحموم . وكانت هناك ايضاً الدوائر الكبيرة المزرقّة تحت عينيه - وفكر :
« اني اهدم نفسي » وكان يُعنى صناية كبيرة بأن يُمرَّ الموسى حول
البئر لئلا يجلفه ؛ سوف تبقى هناك باقة صغيرة من الهُلب الاسود ،
ولكن فليكن : كان دانيال يستفزع جلف البثور . وفي الوقت نفسه كان
يرهف اذنه : لقد كان باب غرفته مشقوقاً ليستطيع ان يسمع بوضوح :

وكان يقول لنفسه : « لن اخطئها هذه المرة » .
وكان ثمة خفيف خفيف يكاد لا يسمع ، ولكن دانيال كان قد قفز ،
والموسى في يده ، وفتح باب الدخول فوراً . غير انه كان قد فات
الاولان : فقد فرت الصبية ، ولا بد انها قابعة الآن في زاوية سلّم ،
وانها تنتظر خافقة القلب ، ممسكة انفاسها .

واكتشف دانيال فوق القش ، عند قدميه ، باقة من القرنفل: وقال
بصوت مرتفع : « انثى صغيرة قدرة ! » كان على يقين بأنها ابنة
البوابة . وكان حسبه ان ينظر الى عينيها ، عيني السمكة المقلية ، حين
كانت تسلم عليه . وهذا مستمر منذ خمسة عشر يوماً : كل يوم ، لدى
عودتها من المدرسة ، كانت تضع زهوراً امام باب دانيال . ورفس باقة
القرنفل الى اسفل السلم . « يجب ان ارهف السمع وانا في الغرفة
الصغيرة طوال الصباح ، فهذا وحده استطيع ان اقبض عليها . » سوف
يظهر عارياً حتى النطاق ، ويحدد فيها نظراً قاسياً . وفكر : « انها انما
تحب رأسي . رأسي وكتفي لأن لها مثلاً اعلى . وسيؤثر فيها ان ترى
ان لي شعراً في صدري . » وعاد الى غرفته واستأنف حلالة ذقنه .
وكان يرى في المرأة وجهه الغامض المتكبر ذا الوجنتين الزرقاوين ؛
وفكر في شيء من الاستياء : « ان هذا هو ما يهيجهن » وجه ملاك ؛
كانت مارسيل تدعوه بملاكها العزيز ، وينبغي له الآن ان يتحمل نظرات
هذه العفريته المنتفخة بالمراهقة . وفكر دانيال بغيظ : « القذارات ! » وانحنى
قليلاً ، وبضربة ماهرة من موساه ، قطع بثره . ليست دُعابة رديئة ان يشوه
هذا الوجه الذي كن يحببته الى ذلك الحد . « من يدري ؟! ان وجهاً مجروحاً
يظل وجهاً ، وهو يعني دائماً شيئاً ما : ولسوف اضجر من ذلك بأسرع من
السابق ! » واقرب من المرأة ونظر الى نفسه من غير رضى ؛ وقال لنفسه :
« الواقع اني احب ان اكون جميلاً » وكان يبدو عليه التعب ، وقرص
نفسه لدى جنبيه : « يجب ان انقص كيلو غراماً » سبعة اقداح ويسكي ،

ليلة امس ، وحده ، في حانة « جوني » وحتى الساعة الثالثة لم يكن قد استطاع ان يقرر العودة الى البيت ، لأنه كان كثيراً ان يضع رأسه على الوسادة ، وان يحس انه ينسرب في الظلام ، وهو يفكر بان ثمة غداً . وفكر دانيال في كلاب القسطنطينية : لقد طوردت في الشوارع ووضعت في اكياس او في سلال ، ثم اطلقت في جزيرة جرداء ؛ فأخذت تلتهم بعضها ؛ وكانت ريح البحر تحمل عواها احياناً الى مسامع البحارة : « ليست الكلاب هي ما كان ينبغي ان توضع في تلك الجزيرة . » ولم يكن دانيال يحب الكلاب . وارتدى قبصاً من الحرير الاصفر وبنطلوناً من الفلانيل الرمادي ؛ واختار بعناية ربطة عتق : ستكون اليوم الربطة الخضراء ذات الخطوط ، لأن سحته كانت سيئة . ثم فتح الباب فدخل الصباح الى غرفته ، صباح ثقيل ، خائق ، مُعدّ سلفاً لهذا الظرف . واستسلم دانيال لحظة للحرارة الآسنة ، ثم نظر فيما حوله : كان يحب غرفته لأنها كانت لا شخصية، ولم تكن تسلمه ، فكأنها غرفة فندق . اربعة جدران عارية ، اريكتان ، كرسي ، طاولة ، خزانة ، سرير ولم تكن لدانيال ذكريات . ورأى سلة الخيزران الكبيرة ، مفتوحة في وسط القاعة ، فصرف بصره : كان ذلك لليوم . وكانت ساعة دانيال تسجل العاشرة والخامسة والعشرين ، وفتح باب المطبخ ثم صفّر وظهر « سيببون » اول ما ظهر . وكان ابيض واحمر ذا لحية صغيرة . ونظر الى دانيال بقسوة وتثائب بوحشية ، وهو يقيم من ظهره جسراً . وركع دانيال في لطافة واخذ يربت على فقمه . وكان القط يرسل له ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، ضربات من رجله على كتمه . وبعد لحظه ، أخذه دانيال من جلد رقبته ووضعها في السلة ، فظل فيها سيببون بلا حركة ، مسحوقاً خاضعاً . وجاءت « ملفينا » بعد ذلك ، وكان دانيال يحبها اقل من الاخرين لأنها كسنت ممثلة ولثيمة . وحين اطمأنت الى انه كان يراها ، اخذت تدندن من بعيد وتتظاهر بالدلال ، وكانت تفرك رأسها بمصراع الباب . ولامس دانيال

بأصبعه رقبتها الكثيفة ، فانقلبت على ظهرها ، متصلبة القدمين ، فدغدغ حلمتيها تحت فروها الأسود ، وهو يقول بصوت مُغنٍ محسوب « ها ها ! ها ها ! » وكانت هي تندرج من جنب الى آخر مع حركات من رأسها لطيفة . وفكر : « انتظري قليلاً لئرى ، انتظري حتى الظهر . » وأمسكها من رجليها ووضعها بالقرب من سيببون . وكان يبدو عليها بعض الدهشة ، ولكنها تدرجت وهي متجمعة ، وعادت الى الدندنة .

ونادى دانيال : « بوبيه ، بوبيه ، بوبيه ! » ولم تكن بوبيه لتأتي قط حين كانت تنادى ؛ فاضطر دانيال للذهاب الى المطبخ بحثاً عنها . وحين رأته ، قفزت الى فرن الغاز وهي تخور بعض خوار مغتاض . وكانت قطعة مزاريب ، وكان لها جرح كبير يعترض جانبها الأيمن . وكان دانيال قد وجدها في اللكسمبورغ ، ذات مساء شتوي ، قبيل اغلاق الحديقة ، فحملها الى بيته . وكانت متغرسة وردينة ، وكانت غالباً ما تعض ملفينا : وكان دانيال يحبها . وأخذها بين ذراعيه فارتدت برأسها الى خلف وهي ترخي اذنيها وتمد عنقها : كان يبدو عليها الاستغراب . وأمر أصابعه على فقمها فعضت طرف هذا الاصبع ، وهي هائجة ملتدة ؛ واذ ذاك قرصها في رقبتها فرفعت رأسها الصغير العنيد . ولم تكن تهمهم - كانت بوبيه لا تهمهم قط - ولكنها نظرت اليه مواجهةً ففكر دانيال ، بدافع العادة : « من النادر ان تنظر اليك قطه في عينيك . » وفي الوقت نفسه كان يشعر بأن ضيقاً لا يُحتمل كان يغمره ، فكان عليه ان يصرف نظره وقال : « هنا ، هنا ، يا ملكتي ، هنا ، هنا ! » وابتسم لها من غير ان ينظر اليها . وكانت الاخريان قد بقيتا جنباً الى جنب ، بليدتين مهممتين ، فكأنه غناء زيزان . وتأملها دانيال في عزاء غير مقتنع : « لحم محمّر ! » وكان يفكر بحلمتي ملفينا الورديتين . ولكنه اضطر الى بذل جهود كثيرة

لادخال بوبيه في السلة : كان عليه ان يدفعها من مؤخرتها ، فانقلبت وهي تبصق ، وأرسلت له ضربة مخلب ، فقال دانيال : « آه ! هكذا اذن ؟ » واخذها من رقبتها ومن جنبها ، وطواها بالقوة ، فصر الخيزران تحت مخالب بوبيه . وأخذت القطة لحظة ذهول ، فاغتم دانيال الفرصة ليرد الغطاء بالقوة ويغلق القفلين وهو يقول : « اف » . وكانت يده تؤلمه قليلاً ، ألماً يسيراً جافاً ، كأنه الدغدغة . ونهض وهو يتأمل السلة برضى ساخر : « لقد حبست ! » وكانت على ظاهر كفه ثلاثة خدوش ، وفي اعماق نفسه دغدغة اخرى ؛ دغدغة غريبة توشك ان تسوء . وتناول لفيفة الخيوط من على الطاولة ووضعها في جيب بنطلونه .

وتردد : « امامي طريق طويلة . وسوف يصيبني الحر » وكان يوده لو يأخذ سترته من الفلانيل ، ولكنه لم يكن قد اعتاد ان يخضع بسهولة لرغباته ، ثم انه سيكون مضحكاً ان يسير تحت الشمس ، محمراً سائل العرق ، وبين ذراعيه هذا العبء ، مضحكاً وغريباً بعض الشيء : وقد ابتسم لهذا ، فاختر سترته من التويد البنفسجي التي لم يكن يحملها بعد منذ نهاية ايار . ورفع السلة من عروقه وفكر : « ما اثقلها، هذه الحيوانات القذرة ! » وكان يتصور وضعها الذليل المربك وذعرها الشديد . « هذا اذن ما كنت احبه ! » كان حسبه ان يجلس المعابيد الثلاثة في سجن من الخيزران لتعود قطعاً ، مجرد قطع ، ضرعيات صغيرة مغرورة ومحدودة تموت من الرعب - فاقدة القدسية الى ابعد حد ممكن . « قطع : لم تكن إلا قطعاً » واخذ يضحك : وكان يشعر كما لو انه يمثل على احد . وحين اجتاز باب الدخول ، اخذه غثيان ، ولكن ذلك لم يدم : كان يشعر وهو على الدرج بأنه قاسٍ وجاف ، وتحت ذلك ننانة غريبة ، فتانة لحم نية . وكانت البوابة على عتبة الباب ، فابتسمت له . وكانت تحب دانيال كثيراً لأنه كان شديد اللياقة

والاناقة .

– انت مبكر جداً يا سيد سورينو .

فأجاب دانيال بلهجة اهتمام : – كنت أخشى ان تكوني مريضة يا سيدتي العزيزة . لقد عدت متأخراً مساء أمس فرأيت النور تحت باب غرفتك .

فقال البوابة وهي تضحك : – لقد كنت من فرط التعب بحيث نمت من غير ان اظفيء النور . وفجأة سمعتك تدق الجرس ، فقلت : آه ، هذا السيد سورينو . ولم يكن خارج البناية سواك . وبعد ذلك مباشرة أطفأت النور ، وكانت الساعة زهاء الثالثة ، أليس كذلك ؟ – تقريباً ...

قالت : – حسناً ! أظن ان معك سلة كبيرة ؟

– انها قطي .

– أتكون مريضة ، الحيوانات المسكينة الصغيرة ؟

– لا ، ولكنني أخذها الى بيت اختي في « مودون » . إن الطبيب البيطري يقول انها بحاجة الى الهواء .

وأضاف بجد : أنعرفين ان القطط يمكن ان تصبح مسلولة ؟

فقال البوابة مأخوذة : – مسلولة ؟ اذن ، إعتن بها جيداً . (واضافت) على أي حال ، ان ذهابها سيحدث فراغاً لديك ؛ وقد اعتدت على رؤيتها ، هذه الحيوانات اللطيفة، حين كنت ارتب بيتك . ولا بد ان ذلك يُحزنك .

فقال دانيال : – يحزنني كثيراً ، ايتها السيدة ديبوي .

وابتسم لها بسمة رصينة وتركها . « المرائية العجوز ، لقد قُطعت ، فلا بد انها كانت تدللها حين لا اكون في البيت : على اني كنت قد منعتها من ان تلمسها ؛ وهي تحسن صنعا بان تراقب ابنتها . » وعبر المدخل المكشوف فبهره النور ، النور القذر المحرق النافذ . وكان يؤلمه

في عينيه ، وكان هذا متوقفاً : فليس افضل من الأصباح الغائمة لمن يكون قد شرب في العشية . ولم يكن يرى شيئاً بعد ، وكان يسبح في النور وحول رأسه دائرة من حديد . وفجأة رأى ظله ضخماً كثيفاً ، مع ظل سلة الخيزران التي كان يؤرجحها في ذراعه . وابتسم دانيال : لقد كان طويلًا جداً . وانتصب على طول قامته ، ولكن الظل بقي قصيراً مشوهاً ، فكأنما هو ظل قرد من فصيلة الشامبنزي . وقال في نفسه « الدكتور جيكل ومستر هايد . كلا » لا حاجة بي الى تاكسي . سوف انزّه مستر هايد حتى موقف ٧٢ . وسيوصله الاوتوبيس ٧٢ الى شارنتون . وكان دانيال يعرف ، على بعد كيلومتر من هناك ، ركناً منعزلاً على شاطئ السين . وقال في نفسه : « اني بالرغم من كل شيء لن يُغنى عليّ ، فانه لا ينقص بعد غير هذا ! » وكان ماء السين شديد السواد كثيف الاقدار في ذلك الموضع ، مع بقع مخضرة من الزيت ، بسبب مصانع « فيري » . وتأمل دانيال نفسه في نفور : وكان يحس نفسه من شدة العذوبة ، في الداخل ، من شدة العذوبة بحيث ان ذلك لم يكن طبيعياً . وفكر : « هوذا الانسان » في شيء من الرضى . لقد كان قاسياً كله ومسدوداً ، وكان تحت ذلك ضحية صغيرة تطلب الزحمة . وفكر : « غريب ان يستطيع المرء ان يكره نفسه كأنما هو انسان آخر . » والواقع ان ذلك لم يكن صحيحاً : فهما فعل ، فانه لم يكن ثمة الا دانيال واحد . حين كان يحتقر نفسه ، كان يحس بأنه ينفصل عن نفسه ، وانه يسبح ، كأنه قاضٍ مجرد ، فوق تحرير غير نقي ، ثم كان فجأة يؤخذ ، ويُشَرَّق من تحت ويتدبق في نفسه . وفكر « طزاً سأشرب قطرة . » وكان عليه ان يقوم بدورة صغيرة ، وسوف يتوقف عند « شامبيونيه » شارع تايدوس . وحين دفع الباب ، كانت الحانة خالية ، وكان الخادم يمسح الغبار عن طاولات الخشب الاحمر التي كانت على شكل براميل . وكان الظلام

لذيذاً في عيني دانيال ، وفكر : « ان بي صداعاً كبيراً . » ووضع
السلة وجلس على كرسي عالٍ من كراسي المشرب . وقال الساقى
مؤكدأ :

– طبعأ ، قدح ويسكي صغير كثيف .

فقال دانيال بجفاف : – كلا .

فلمينلقوا بعادتهم تلك في تصنيف الناس ، كأنما هم مظلات او
ماكنات خياطة . انا لست ... ان المرء ليس شيئاً قط . ولكنهم
يعرفونك بحركة يد . فهذا يمنح هبات سخية ، وذلك خفيف الظل ،
وانا احب اقداح الويسكي الصغيرة الكثيفة .

وقال دانيال : – قدح جن – فز .

فأتاه الساقى بما طلب من غير ان يبدي اية ملاحظة : لا بد انه
كان متزعجأ . هذا افضل . لن اضع قدمي بعد الآن في هذه الحانة ؛
انهم اكثر الفة مما ينبغي . ثم ان مذاق الجن – فز ، كان مذاق ليموناضة
تطهيرية . وكانت تنناثر غبارأ محمضأ على اللسان وتنتهي بمذاق فولاذي .
وفكر دانيال : انها لا تؤثر فيّ بعد .

– اعطني قدح فودكا مفلفلة في كأس مستديرة .

وشرب الفودكا وظل لحظة وهو يحلم ، وفي فه "شهب" نارية .
وكان يفكر : « ألن ينتهي ذلك ابدأ ؟ » ولكنها كانت افكارأ سطحية ،
كما هو المألوف ، شكات بلا رصيد . « ما الذي لن ينتهي ابدأ ؟ ما
الذي لن ينتهي ابدأ ؟ » وسمع مواء "قصير وخربشة ، فقفز الساقى ،
وقال دانيال بايجاز :

– انها ققط .

ونزل عن الكرسي العالي ، ورمى عشرين فرنكأ على الطاولة ثم اخذ
السلة . وحين رفعها ، اكتشف انها خلقت على الأرض نقطة صغيرة
حمراء : وكان ذلك دمأ . وفكر دانيال في ضيق : « ما عساها تصنع

في الداخل ؟ » ولكنه لم يكن راغباً في رفع الغطاء . لم يكن في السلة ، هذه اللحظة ، الا خوف كثيف غير متميز : فاذا فتح السلة ، عاد هذا الخوف فأصبح قططه ، وهذا ما لم يكن دانيال ليحتمله . « آه ! لن نستطيع احتمالاه ؟ وإذا رفعته ، ذلك الغطاء ؟ » ولكن دانيال كان قد خرج ، وعاد النور يعشي عينيه ، وكان عشاءً شفافاً لزجاً : ان عينيك تتأكلانك ، فتحسب انك لا ترى الا ناراً ، ثم تلاحظ فجأة انك انما كنت ترى بيوتاً لفترة طويلة ، بيوتاً تبعد عنك مئة خطوة ، مشرقة وخفيفة ، كأنها الدخان : وفي جوف الطريق ، كان ثمة جدار كبير ازرق . وفكر دانيال : « ان من المحزن ان يرى المرء بوضوح . » وكان يتخيل الجحيم على هذا الشكل : نظراً يخرق كل شيء ، وبه يستطيع المرء ان يرى آخر الدنيا . حتى اعماق نفسه . وتحركت السلة من تلقاء نفسها في ذراعه ؛ انها تخربش في الداخل . هذا الذعر الذي يحسه قريباً من يده ، لم يكن ليدرك تماماً اذا كان يحدث لديه اشمزازاً ام يحدث لذة : والحق ان ذلك سواء . وفكر دانيال : « مهما يكن ، فان هناك ما يطمئنها ، انها تشعر برائحتي . هذا صحيح . فأنا بالنسبة اليها رائحة . » ولكن صبراً : ان دانيال لن يلبث طويلاً حتى يفقد هذه الرائحة المألوفة ، وسوف يتنزّه بلا رائحة ، وحيداً بين الناس الذين لا يملكون حواس مرهفة تمكّنهم من ان يعرفوك بالرائحة . انه يود ان يكون بلا رائحة ولا ظل ، ولا ماض ، الا يكون شيئاً آخر غير انتزاع من نفسه ، لا يلحظ ، نحو المستقبل . ولاحظ دانيال انه كان يسبق جسمه ببضع خطوات ، عند مستوى المصباح ، وانه كان يرى نفسه قادماً ، وهو يعرج قليلاً بسبب حمله ، غارقاً في العرق . كان يرى نفسه قادماً ، ولم يكن بعد الا مجرد نظر . ولكن امرأة مصبغة عكست له صورته ، فتبدد الوهم . وامتلاً دانيال بماء موحل وتافه : هو نفسه . سيملاً ماء السين التافه الموحل السلة ، وستمزق القطط فيما

بينها بمخالبتها . وغمره اشمزاز كبير ففكر : « انه عمل مجاني » وكان قد توقف ووضع السلة ايضاً : « ان المرء يعذب نفسه عبر الاذى الذي يلحقه بالآخرين . وليس بوسعك قط ان يبلغ نفسه مباشرة . » وفكر من جديد بالقسطنطينية : لقد كانوا يحبسون الزوجات الخائئات في كيس مملوء بالقطط الكلبة ثم يرمون الكيس في البوسفور . براميل ، اكياس من جلد ، سلال من خيزران : سجون . « هناك ما هو اسوأ من ذلك . » وهز دانيال كتفيه : فكرة اخرى ليس لها من رصيد . انه لم يكن يريد ان يمثل دوراً فاجعاً ، فهو قد فعل ذلك ما فيه الكفاية في الماضي . وان من يمثل الأدوار الفاجعة يأخذ نفسه اخذاً جاداً . وأبدأ ، ابدأ ، لن يأخذ دانيال نفسه اخذاً جاداً . وظهر الأوتوبيس فجأة ، فأشار دانيال للسائق وصعد في الدرجة الأولى .

— كم الى نهاية الخط ؟

فقال قاطع التذاكر : — ست قسائم .

سيثير ماء السين جنونها . المساء النبي ذو الانعكاسات البنفسجية . واقبلت امرأة تجلس قبالة ، برصانة واكفهرار ، ومعها طفلة . ونظرت الطفلة الى السلة باهتمام ، ففكر دانيال « ذبابة صغيرة قدرة » وماءت السلة فانتفض دانيال كما لو انه أخذ بجرم قتل . وسألت الطفلة بصوت واضح :

— ما هذا ؟

فقالت امها : — شت ، اتريدين ان تتركبي السيد وشأنه ؟

قال دانيال : — انها قطط .

وسألت الطفلة : — وهل هي لك ؟

— نعم .

— ولماذا تحملها في سلة ؟

فأجاب دانيال بعدوبة : — لأنها مريضة .

- هل تستطيع ان اراها ؟
 قالت امها : - انك تبالغين يا جانين .
 - لا يستطيع ان اريك اياها ، فان المرض قد جعلها شريرة .
 فقالت الطفلة بلهجة تعقّل ساحرة :
 - اوه ... انها لن تكون معي شريرة .
 فقال دانيال بصوت منخفض سريع :
 - اتظنين ذلك ؟ اسمعي يا صغيرتي العزيزة .. لانني اريد ان اغرقها ،
 قططي ... هذا ما سأفعل ، وهل تعرفين لماذا ؟ لأنها ، في هذا
 الصباح بالذات ، مزقت وجه فتاة صغيرة جميلة مثلك ات تحمل إليّ
 الزهور . وسوف يضطرون الى ان يضعوا لها عيناً من زجاج .
 فقالت الطفلة مذعورة : - ها !
 ونظرت لحظة الى السلّة بجزع ثم ارتمت في أحضان امها . وقالت
 الأم وهي تدير نحو دانيال عينين مغتاظتين :
 - لا لا ! اترين ؟ يجب ان يكون الاطفال هادئين وألا يثرثروا
 في كل لحظة . ولكن لا بأس يا قطتي الصغيرة ، لا شيء هناك ، وانما
 اراد السيد ان يمزح .
 وبادلها دانيال نظرتها بهدوء : « انها تحتقرني » هذا ما فكر به
 وهو راض . وكان يرى خلف الزجاج بيوتاً رمادية تنخطف ، وكان
 يعلم ان المرأة تنظر اليه : « امّ مغتاظة . انها تبحث عما يمكنها ان
 تحتقره فيّ . وليس ذلك وجهي . » فلم يكن ثمة من يحتقر وجه
 دانيال . « ولا ثوبي ، فهو جديد ورقيق . آه ! ربما يديّ . »
 وكانت يدها قصيرتين وقويتين ، وسميتين بعض الشيء ، وعلى اصابعها
 شعرٌ اسود . وبسطها على ركبتيه : « انظري اليهما ، هيا انظري
 اليهما ! » ولكن المرأة كانت قد تخلّت عن متابعة المباراة : كانت
 تحدّد نظرها امامها تحديداً غليظاً ، وكانت تلمس الراحة . وتأملها

دانيال في شيء من الشراة : هؤلاء الناس الذين كانوا يرتاحون ، كيف كانوا يعملون ؟ كانت قد تركت نفسها تسقط بكل قوتها في نفسها بالذات وتذوب فيها . ولم يكن شيء في هذا الرأس يشبه فراراً مجنوناً من الذات ، او فضولاً او حقداً او اية حركة ، حتى ولا تموجاً خفيفاً : لا شيء الا عجينة النوم الكثيفة . واستيقظت فجأة ، واقلت هيئة انتعاش ترتسم على وجهها وقالت :

— هنا ، هنا . تعالي إذن ! ما أشدّ ما يزعجني ان اجرجرك دائماً !

واخذت ابنتها من يدها وسحبته . وقبل ان تنزل الطفلة التفتت وألقت نظرة ذعر على السلة وانطلق الاوتوييس ثم توقف ؛ ومرّ امام دانيال أشخاص يضحكون ، وصاح به قاطع التذاكر :

— آخر الخطّ .

وانتفض دانيال : كانت السيارة فارغة . ونهض ثم هبط . وكانت ساحة تغص بالنساء وكانت الحانات منتثرة فيها ؛ وكانت جماعة من العمال والنساء متجمعة حول عربة . ونظرت بعض النساء اليه بدهشة . وحثّ دانيال خطاه وانعطف الى زقاق قذر كان يهبط نحو السين . وكان على جانبي الطريق براميل ومستودعات . وكانت السلة قد أخذت نموء بلا انقطاع ، وكان دانيال يكاد يعدو : كان يحمل دلواً مثقوباً يسقط منه الماء نقطة نقطة . وكانت كل موأة نقطة ماء . وكان الدلو ثقيلاً ، فأخذه دانيال بيده اليسرى ، ومسح جبينه باليمنى . كان لا ينبغي التفكير بالقطط . آه ! انك لا تريد التفكير بالقطط ؟ طيب ! ينبغي اذن ان تفكر فيها بالذات ، وهذا أمرٌ شديد اليسر ! وتمثّل دانيال عيني بويبه الذهبيتين وفكّر بسرعة في اي شيء ، في البورصة حيث ربح عشرة آلاف فرنك في الليلة الماضية ، وفي مارسيل ، التي كان ينبغي ان يراها في المساء نفسه ، فان هذا كان يومه : « الملاك

الأكبر ! » وقهقهه دانيال : كان يحترق مارسيل احتقاراً عميقاً : « انها لا يملكان الجرأة للاعتراف بأن احدهما لا يجب الآخر بعد . لئن كان ماتيو يرى الأمور على حقيقتها ، فعليه ان يتخذ قراراً . ولكنه لا يريد . انه لا يريد ان يضيع نفسه . إنه هو ، طبيعي سليم . » هكذا فكر دانيال بسخرية وماء القطط كما لو انها قد غطست في ماء غالٍ واحسّ دانيال بانه يضيع رشده . ووضع السلّة ارضاً ثم رفسها رفستين عنيفتين ، فقامت فيها فوضى واضطراب ، ثم صمت القطط . وظل دانيال جامداً لحظة وهو يشعر برعشة خلف اذنيه . وخرج عمالٌ من احد المستودعات فتابع دانيال سيره . ووصل . وهبط درجاً حجرياً الى شاطئ السين وجلس ارضاً بالقرب من حلقة حديدية ، بين برمبل من القطران وركام من البلاط . وكان السين اصفر تحت السماء الزرقاء . وكانت قوارب سوداء مملوءة بالبراميل مربوطة الى الرصيف المقابل . وكان دانيال جالساً في اشعة الشمس ، وكان صدغاه يؤلمانه . ونظر الى الماء المتموج المنتفخ الذي كانت تنبعث منه اشعاعات لبنية ثم اخرج من جيبه مكبته وقطع بسكينه طرفاً طويلاً من خيط . ومن غير ان ينهض ، تناول بيده اليسرى بلاطة ، فأطبق احد طرفي الخيط على عروة السلّة ولف بقية حول البلاطة ، ثم عقد عدة عقد ووضع البلاطة على الأرض . فاذا هو امام آلة غربية . وفكر دانيال بأن عليه ان يحمل السلّة باليد اليمنى والبلاطة باليد اليسرى فيسقطها في الماء في وقت واحد . وربما عامت السلّة عشر ثانية ثم تجذبها قوة وحشية الى اعماق الماء فتغرق فوراً . وفكر دانيال بأن الحر يزعمجه ، فاحتقر سترته السميكه ولكنه لم يرد ان ينزعها . وكان ذلك يخفق فيه ، ويطلب الرحمة ، وكان دانيال ينظر الى نفسه وهو يئن ، قاسياً جافاً : « إن من لا يملك الجرأة على ان يقتل نفسه بالجملة ، يجب ان يفعل ذلك بالتفصيل » لسوف يقترب من الماء ، وسوف يقول : وداعاً لما احبه

أكبر الحب في هذا العالم ... » ونهض قليلاً على يديه ، ونظر حوله :
الى اليمين كان الشاطئ خالياً ، والى اليسار ، في البعيد ، رأى صياداً
أسود في الشمس . إن التموجات ستنشر تحت الماء ، حتى تبلغ فلينة
شبكة : « وسوف يظن ان سمكة ما تعض . » وضحك واخرج منديله
ليمسح العرق الذي كان يتلأأ على جبينه . وكان عقرباً ساعته اليدوية
يشيران الى الحادية عشرة وخمس وعشرين . « عند الحادية عشرة
والنصف ! » وكان ينبغي ان يطيل هذه اللحظة العجيبة : لقد كان
دانيال مزدوجاً ، وقد أحس نفسه ضائعاً في غيمة عتيقة ، تحت سماء
من رصاص ، وفكر بما تيو بشيء من الكبرياء ؛ وقال لنفسه « انا
الحر » . ولكنها كانت كبرياء لا شخصية ، لأن دانيال لم يكن بعد
أحداً . ونهض في الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين وكان يحس
انه من الضعف بحيث اضطر الى الاعتماد على البرميل . وعلقت بسترته
التويد لطخة من القطران فنظر اليها .

ورأى اللطخة السوداء على القماشة البنفسجية وشعر فجأة انه لم يكن
بعدهُ الا واحداً . واحداً . جباناً . شخص كان يحبّ قططه ولا يريد
ان يقذف بها في الماء . وأخذ سكينه وانحنى فقطع الخيط . في صمت :
فحتى في داخله كان يسود الصمت ، وكان من الحجل بحيث لم يطق
ان يتحدث امام نفسه . وأخذ السلة وعاد يصعد الدرج : فكان كما
لو انه يمرّ وهو يلفت رأسه امام انسان كان ينظر اليه بازدراء . وكان
الخلاء والصمت ما يزالان في نفسه . وحين بلغ اعلى الدرجات ، جرؤ
على ان يوجه لنفسه الكلمات الاولى : « ماذا كانت تلك القطرة من
الدم ؟ » ولكنه لم يجرؤ على فتح السلة : فأخذ يمشي وهو يعرج . هذا
أنا . هذا أنا . هذا أنا . القدر . ولكن كان في اعماقه نوع غريب
من الابتسام لأنه انقذ بوبيه . وصاح :

— تاكسي !

فتوقف التاكسي . وقال دانيال ،

— ٢٢ ، شارع مونمارتر . هل تريد ان تضع هذه السلة بالقرب منك ؟

واستسلم لهدفة التاكسي . ولم يعد يحترم نفسه . ثم تغلب الحجل مرة اخرى وعاد يرى نفسه : وكان هذا غير محتمل . وفكر بمرارة : « لا بالجملة ولا بالتفصيل » وحين تناول محفظته ليدفع للسائق ، لاحظ بلا فرح انها كانت محشوة بالأوراق المالية . « أن اربح المال ، نعم ، أستطيع ان افعل ذلك . »
وقالت البوابة :

— هانت ذا قد عدت ، يا سيد سورينو ؟ إن احداً قد صعد اللحظة الى بيتك . احد اصدقائك ، رجل طويل ذو كتفين هكذا . وقلت له إنك غير موجود . فقال : ليس موجوداً ؟ إذن سأدع ورقة تحت بابسه .

ونظرت الى السلة وقالت :

— ولكنك اعدتها ، الحيوانات اللطيفة ؟

فقال دانيال :

— ماذا تريدن ايها السيدة ديوي ؟ قد يكون ذلك عملاً إجرامياً ولكنني لم استطع ان انفصل عنها .
وفكر وهو يرقى السلم : « انه ماتيو . إن هذا يجيء في اوانه تماماً . » وكان مسروراً ان يستطيع كره احد . والتقى بماتيو عند الشقة الثالثة ، فقال ماتيو :

— مرحباً ، كان املي قد انقطع في رؤيتك .

فقال دانيال : — لقد ذهبت أنزّه قططي .

وأدهشه ان يستشعر في داخله لوناً من الحرارة . وسأله بسرعة :
— انك تصعد معي ثانية ؟

- نعم . ان لديّ خدمة اودّ ان اطلبها منك :
فرماه دانيال بنظرة سريعة ولاحظ ان وجهه كان معقراً . وفكر :
« يبدو عليه انه منزعج . » وكان راغباً في مساعدته . وصعدا .
ووضع دانيال المفتاح في القفل ثم دفع الباب . وقال : « تفضل ادخل »
ولمس كتفه لمساً خفيفاً ثم سحب يده على الفور . ودخل ماتيو غرفة
دانيال واقتعد اريكة وقال :

- لم افهم شيئاً مما قالته لي البوابة . كانت تزعم انك حملت
قططك الى بيت اختك . فهل تصالحت مع اختك ؟

فتتلعج شيء ما فجأة في نفس دانيال : « ما عساها تكون هيئته
لو عرف من اين انا آت ؟ » ونظر من غير ود الى عيني صديقه
النافذتين الجادتين : « هذا صحيح . انه هو طبيعي وسليم . » وأحس
ان هوة تفصله عنه . وضحك وقال :

- آه ! نعم ! بيت اختي ... لقد كانت كذبة صغيرة بريئة .
وكان يعلم ان ماتيو لا يلح : فقد كان ماتيو معتاداً عادة مزعجة وهي
ان يعامل دانيال كإنسان مولع بالكذب ، ويتصنع انه لا يهتم قط
لمعرفة الدوافع التي كانت تدفعه الى الكذب . والواقع ان ماتيو حدج
السلة بنظر حائر وصمت .

وسأله دانيال : - أسمح لي بلحظة ؟
وكان قد اصبح جافاً كله . ولم تكن له الا رغبة واحدة : ان
يفتح السلة بأسرع وقت ممكن : « ماذا كانت تلك النقطة من الدم ؟ »
وركع وهو يفكر : « سوف تثب على وجهي . » وقرّب وجهه فوق
الغطاء بحيث يكون في متناولها تماماً . وفكر وهو يفتح الغطاء : « انه
محتاج الى بعض الازعاج . وهذا ما يفقده لفترة من الزمن تفاؤله وهيئته
المستقرة » وافلتت بوبيه من السلة وهي تزجر وفرت الى المطبخ . وخرج
سيبيون بدوره : وكان قد حافظ على كرامته ، ولكن لم يكن يبدو

قط مطمئناً . ومشى على مهل حتى الخزانة ، ونظر فيها حوله نظرة عجلى ، ثم تمطى وتسرب تحت السرير . ولم تكن ملفينا لتتحرك . ففكر دانيال : « انها مجروحة » وكانت قابعة في قعر السلة ، متلاشية . ووضع دانيال اصبعاً تحت ذقنها وقسرها على ان ترفع رأسها : لقد تلقت ضربة مخلب قوية على انفها ، وكانت عينها اليسرى مغمضة ، ولكن الدم كان قد انقطع . وكان على فقمها قشرة مسودة ، وكان شعرها حول القشرة متصلباً ولزجاً .

وسأل ماتيو : « ماذا هناك ؟ » وكان قد نهض وجعل ينظر الى القطة بتأدب . « انه يجذني مضحكاً لأنني منشغل بقطة . وكان يبدو له ذلك طبيعياً جداً لو كنت منشغلاً بطفل . » وأوضح دانيال :
- لقد اصيبت ملفينا بضربة سيئة . ولا شك ان بوبيه هي التي خشتها . انها لا تطاق . اعذرني يا عزيزي ، فأنا اطلب منك دقيقة صغيرة لأعالجها .

ونهض يأتي بزجاجة ارنيكه وعلبة قطن من الخزانة . وتبعه ماتيو بعينيه من غير ان يقول كلمة ، ثم امرت يده على جبينه بحركة عاجزة . وأخذ دانيال يغسل انف ملفينا ، وكانت القطة تتخبط تخبطاً ضعيفاً . وقال دانيال :

- كوني جميلة ، كوني عاقلة . هيا ، هيا .
وكان يفكر بأنه كان يزعج ماتيو الى ابعد حد ، وكان هذا يزيد رغبة في العمل . ولكنه حين رفع رأسه ، رأى ان ماتيو كان ينظر في الفراغ نظرة قاسية .

وقال دانيال بأعمق صوت يملكه : - اعذرني يا عزيزي ، انني احتاج بعد الى دقيقة صغيرة فقط . كان لا بد من ان اغسل هذه اللدابة ، فأنت تعرف ان الجرح يلتهب بسرعة . الا ازعجك أكثر مما ينبغي ؟
أضاف هذه العبارة الاخيرة وهو يوجه له بسمه صريحة ، فارتعش

ماتيو ثم اخذ يضحك . وقال :

- تابع ، تابع ، ولا تنظر بعينيك المخمليتين .

عيناك المخمليتان ! لقد كان شعور ماتيو بالتفوق شيئاً كريهاً : « هو يحسب انه يعرفني ، وهو يتحدث عن اكاذبي . وعن عيني المخمليتين . انه لا يعرفني على الاطلاق ، ولكن يسليه ان يلصق علي طابعاً ، كما لو كنت شيئاً . »

وضحك دانيال في ود . ومسح بعناية رأس ملفينا . وكانت ملفينا تغمض عينيها ، وكانت عليها مظاهر النشوة ، ولكن دانيال كان يعلم جيداً انها تتألم . وربت على جنبيها تربيئة صغيرة . وقال وهو ينهض :
- هكذا ! غداً لن يظهر الجرح بعد . ولكن الاخرى بعثت لها بضربة مخلب شديدة لو تعلم .

فقال ماتيو بلهجة غياب : - بوبيه ؟ انها خبيثة .

ثم قال فجأة :

- ان مارسيل حامل .

- حامل !

وكانت دهشة دانيال قصيرة المدى ، ولكن كان عليه ان يقاوم رغبة شديدة في الضحك . هكذا اذن ! هكذا اذن ! « صحيح .. انهن يبسلن دماً كل شهر قري ، وهن فوق ذلك قادرات على التناسل كالورثك ' » وفكر باشمزاز في انه سيراهما في المساء ذاته . « اني أتساءل عما اذا كانت لدي الشجاعة للمس يدها . »

وقال ماتيو بلهجة موضوعية :

- اني مرتبك ارتباكاً قذراً .

فنظر اليه دانيال وقال بايجاز :

(١) سلك بحري .

- انا افهم موقفك :

ثم سارع يوليه ظهره بحجة انه ذاهب يضع زجاجة الارنيكة في الخزانة . وكان يخشى ان ينفجر فيه ضاحكاً . وأخذ يفكر في موت امه ، وكان هذا يخطر دائماً على باله في مثل هذه المناسبات . وانتفض انتفاضتين متشجبتين او ثلاثاً . وكان ماتيو ماضياً في التكلم خلف ظهر دانيال . فقال :

- القضية ان هذا يُلْهِمًا . انت لم ترها كثيراً، فلم تستطع ان تدرك الامر . انها نوع من « الوالكيري » (واضاف بلا خباثة) والكييري في الغرفة . والامر في نظرها سقوط مربع .

فقال دانيال في دافع من المشاركة :

- اجل ، ثم ان القضية بالنسبة اليك لا تستحق هذا . فبالرغم مما احسنت اليها ، لا تتورع عن ان تجلب لك الذعر الآن . انا اعلم ان مثل هذا يقتل الحب عندي لو حدث .
فقال ماتيو : - لا اكن لها بعد حباً :

- صحيح ؟

وكان دانيال عميق الدهشة والتسلية : « ستشهد هذا المساء فصلاً رياضياً . » وسأله :

- بالطبع لا .

- ولماذا « بالطبع » ؟ ينبغي لك ان تصارحها بذلك . هل ...

- لا ، لا اريد ان اتركها ، اذا كان هذا ما تقصد اليه .

- واذن ؟

وكان دانيال يجد متعة كبيرة ، وكان يستعجل الزمن ليجتمع

بممارسة . قال ماتيو :

- اذن لا شيء . فليكن . فليست هي غلطتها اذا كنت لا احبها بعد .

- وهل هي غلطتك ؟

فقال ماتيو باختصار : - نعم .
- ستستمر في رؤيتها وفي ...
- وبعد ذلك ؟
فقال دانيال : - اذا مثلت طويلاً هذا الدور ، فسيتمهي بك الامر الى ان تكرهها .
فبدأت على ماتيو القسوة وكأنه صدم :
- لا اريد ان يلحق بها الضيق والانزعاج .
قال دانيال بلا مبالاة : - هذا اذا كنت تؤثر ان تضحي بنفسك .
وحين كان ماتيو يقلد شيعة « الكواكر »^١ ، فان دانيال كان يكرهه .

- ما عساني اضحيّ به ؟ سأذهب الى المعهد ، وسأرى مارسيل .
وسأكتب قصة كل عامين . وهذا هو بالذات ما فعلته حتى الآن .
ثم اضاف بمرارة لم يكن دانيال يعهدا عنده :
- انا كاتب من كتّاب الاحد . ومن جهة اخرى ، اراني متعلقاً بها ، وانه يزعجني كثيراً الا اراها . غير ان ذلك يشبه الآن الصلات العائلية .
وساد صمت . واقبل دانيال يجلس في الاريسة ، تجاه ماتيو . وقال ماتيو :

يجب ان تساعدني . ان عندي عنواناً ، ولكن ليس معي مال .
أعزني خمسة آلاف فرنك
فردد دانيال بلهجة غير واثقة : - خمسة آلاف فرنك ؟
محفظته المتورمة ، المحشوة في جيبه الداخلي ، محفظة بائع الجنازير ، كان حسبه ان يفتحها ، وان يتناول منها خمس اوراق . لقد سبق لماتيو

(١) شيعة المرتعشين البروتستانتية .

ان ادى له الخدمات مراراً . وقال ماتيو :
- سأرد لك نصف المبلغ في آخر الشهر . والنصف الآخر يوم ١٤
تموز لأنني في ذلك اليوم سأقبض رائي آب وايلول معاً .
ونظر دانيال سحنة ماتيو المقعرة وفكر : « ان هذا الشخص متزعج
تماماً . » ثم فكر بالقطط واحس انه غير قابل للرحمة والشفقة . وقال
بصوت آسف :

- خمسة آلاف فرنك ! ولكني لا املكها يا عزيزي ، واني شديد
الاسف ...

- لقد قلت لي ذات يوم انك ستعقد صفقة طيبة .
فقال دانيال : - اسمع يا عزيزي المسكين : ان صفقتك الطيبة
كانت خيبة عظيمة ، وانت تعرف ما هي البورصة . ثم ان الامر بسيط
جداً ، فليس لدي بعد الا ديون :

ولم يسبغ على صوته كثيراً من الاخلاص لأنه لم يكن راغباً في
الاقناع . ولكن حين رأى ان ماتيو لم يكن يصدقه ، اخذه الغضب :
« ليحلّ عن ظهري ! انه يحسب نفسه عميقاً ، ويتخيل انه يقرأ في
أعماق . وأنا أتساءل : لماذا يريدني ان اساعده : فليس عليه الا ان
يلجأ لأمثاله . » والذي كان امراً لا يطاق هو هذه الهيئة الطبيعية المركبة
التي لم يكن ماتيو ينجح في فقدها ، حتى في الاوضاع الفاجعة . قال
ماتيو باندفاع :

- حسناً ! اذن لا تستطيع حقاً ؟

وفكر دانيال : « لا بد انه محتاج اليها حاجة ماسة حتى يلح هذا
الالحاح . »

- لا استطيع حقاً . اني متأسف يا عزيزي .
وكان متزعجاً بانزعاج ماتيو ، ولكن ذلك كان امراً لا يخاو من
اللذة : فقد كان لديه شعور بأنه يرد لنفسه ظفراً : وكان دانيال

يجب المواقف الزائفة حياً كبيراً .
وسأله بروح المشاركة : - هل انت محتاج اليها حاجة عاجلة ؟ الا
يمكنك ان تستعين بآخرين ؟
- اوه ! أنت تعلم ، كان هذا خصوصاً لتفادي اللجوء الى جاك .
فقال دانيال خائباً بعض الشيء : - صحيح . ان هناك اخاك .
انت في هذه الحالة واثق من الحصول على حاجتك .
فبدا على ماتيو اليأس :
- ليس الامر كذلك . لقد قرر في رأسه انه ينبغي الا يعيرني بعد
فلساً ، وان ذلك بمثابة خدمة سيئة لي . وقد قال لي : « إن عليك ،
وانت في هذه السن ، ان تكون مستقلاً » .
فقال دانيال في وضوح :
- اوه ! ولكن في مثل هذه الحالة ، اكيد انه يعيرك مالاً .
ومدّ على مهل طرف لسانه واخذ يلحس به الشفة العليا برضى :
لقد عرف ان يجد على التو تلك المهجة التفاضلية السطحية المتحمسة التي
كانت تثير غضب الناس . وكان ماتيو قد احمرّ :
- لا استطيع ان اقول له ان ذلك من اجل هذا بالذات .
قال دانيال : - هذا صحيح . (وفكر لحظة) . مهما يكن من
امر ، فأمامك بعد كما تعلم تلك الشركات التي تُقرض الموظفين . وعلى
ان اقول ان الناس يقعون في معظم الاحوال على مرابين . ولكن الفائدة
لا تؤثر عليك ، بمجرد ان يكون معك المال .
فبدا على ماتيو الاهتمام ، وفكر دانيال في ضجر بأنه قد طمأنه
بعض الشيء :
- من هم هؤلاء الناس ؟ هل يعيرون المال على التو ؟
فقال دانيال بحوية : - آه ، كلا فذلك يقتضي عشرة ايام :
يجب عليهم ان يحققوا في الامر .

وصمت ماتيو ، وكان يبدو انه يفكر ؛ واستشعر دانيال فجأة صدمة صغيرة لينة : لقد قفزت ملفينا الى ركبتيه فاستقرت عليهما وهي تهتمهم : « هذه واحدة ليس عندها حقد . » هذا ما فكر به في اثمناز. وأخذ يربت عليها بيد خفيفة مهمة . لم يكن الحيوانات والناس يبلغون ان يكرهوه : بسبب نوع من الجمود المفرط البساطة ربما بسبب وجهه . وكان ماتيو قد استغرق في حساباته البائسة الصغيرة : هو ايضاً لم يكن لديه حقد . وانحنى دانيال فوق ملفينا وأخذ يحك رأسها : وكانت يده ترتجف .

وقال من دون ان ينظر الى ماتيو :

— سأكون في الحقيقة مسروراً بأن لا يكون معي مال . وقد فكرت في ذلك : انت الذي تريد دائماً ان تكون حراً ، ان ذلك يمنحك فرصة رائعة لتقوم بعمل من اعمال الحرية . ولم يبدُ على وجه ماتيو انه فهم فقال :

— عمل من اعمال الحرية ؟

ورفع دانيال رأسه وقال :

— نعم ، ليس لك الا ان تتزوج مارسيل .

فنظر اليه ماتيو وهو يقطب حاجبيه : ولا بد انه كان يتساءل عما اذا لم يكن دانيال يسخر منه . وحدد دانيال بصره بجد متواضع . فسأله ماتيو :

— هل انت مجنون ؟

— ولماذا ؟ ليس امامك الا كلمة تقولها فتغير حياتك كلها ، وهذا

ما لا يحدث كل يوم .

فأخذ ماتيو يضحك ، وفكر دانيال متزعجاً : « انه يفضل من الموضوع جانبه المضحك » وقال ماتيو :

— انك لن تنجح في اغرائي ، ولا سيما في هذه اللحظة .

فقال دانيال باللهجة الخفيفة نفسها :
— ولكن الحقيقة أنه لا بد ان يكون مسلياً جداً ان يفعل الانسان عكس ما يريده . فهو اذ ذلك يشعر بانه اصبح شخصاً آخر .
فقال ماتيو : — واي شخص آخر ؟ اتريدني ايضاً ان اصنع ثلاثة اطفال ، لمجرد اللذة في أن أحسني شخصاً آخر حين آخذهم الى التزهة في الاكسمبورغ ؟ إنني اتصور في الحقيقة اني سأتغير اذا اصبحت شخصاً هالکاً تماماً .

فقال دانيال : « ليس الى هذا الحد ، ليس الى هذا الحد الذي تظن » . ثم قال :

— يبدو انه ليس مزعجاً الى حد كبير ان يكون المرء شخصاً هالکاً ، ولكنه في هذه الحالة هالک برمته ، مدفون . شخص متزوج وله ثلاثة اطفال كما تقول . ولا بد ان هذا يهدئك !

قال ماتيو : — صحيح . اني التقى اشخاصاً كهؤلاء كل يوم . مثلاً : آباء طلاب يأتون لرؤيتي . اربعة صبيان ، ازواج مخدوعون ، اعضاء جمعية اهل الطلاب . انهم يبدون اقرب الى الهدوء ، بل انهم ذوو وداعة . قال دانيال : — ولديهم ايضاً نوع من المرح . انهم يصيبونني بالدوار . وانت ، ألا يغريك ذلك حقاً ؟ اني أتملك زوجاً ناجحاً ، وستكون مثلهم ، سميناً مرتباً قريب النكته ، ذا عينين من السلواوئيد . واحسبني انا لا احتقر ذلك .

قال ماتيو من غير ان يتفعل : — ان هذا يناسبك . اما انا فازلت افضل ان اطلب خمسة آلاف فرنك من اخي .

ونهض . فوضع دانيال ملفينا ارضاً ونهض هو ايضاً . « هو يعلم اني املك المال ومع ذلك لا يكرهني : فاذا ينبغي اذاً ان نفعل لهم ؟ » . وكانت المحفظة هناك ، وكان حسب دانيال ان يضع يده في جيبيه ويقول : « خذ يا عزيزي ، لقد اردت ، على سبيل المزاح ، ان اتفرج

عليك قليلاً . » ولكنه خشي ان يحقر نفسه . وقال متردداً :
- آسف . سوف اكتب لك ان وجدت وسيلة ما .
وكان قد رافق ماتيو حتى باب الدخول . فقال ماتيو بمرح :
- لا ترهق نفسك ، سوف اتدبر امري .
واغلق الباب . وحين سمع دانيال قدمه الخفيفة على الدرج فكر :
« ان هذا غير قابل للاصلاح . » واحس بانقطاع نفسه . ولكن ذلك
لم يطل ، وقال في نفسه : « انه لم يكف لحظة واحدة عن ان يكون
معتدلاً ، نشيطاً ، في غاية الاتفاق مع نفسه . صحيح انه منزعج ، ولكن
ذلك يبقى امراً خارجياً . اما في الداخل ، فهو في بيته . » وذهب
ينظر الى وجهه الجميل القائم في المرأة وفكر : « مهما يكن ، فانه
يساوي الفأ لو كان مجبراً على ان يتزوج مارسيل . »

كان قد مضى على يقظتها وقت طويل ، ولا بد انها كانت تتأكل .
 وكان ينبغي طمأننتها والتأكيد لها بانها لن تذهب الى هناك في اي حال .
 وتمثل ماتيو بحنان وجهها المسكين الحرب الذي رآه ليلة امس فتبدى له
 فجأة انه رخص بصورة مؤلمة . « يجب ان اتلفن لها . » ولكنه عزم
 ان يمر اولاً ببيت جاك : « لربما كان عندي خبر جميل ابلغها اياه »
 وكان يفكر بغيظ في الهيئة التي سيبدو عليها جاك . هيئة تسلية وتعقل
 تتجاوز التأنيب كما تتجاوز الرفق ، مع رأس منحني جانباً وعينين نصف
 مغمضتين . « ماذا ؟ بحاجة ايضاً الى مال ؟ » وقف شعر ماتيو لذلك .
 واجتاز الرصيف وفكر في دانيال : انه لم يكن عاتباً عليه . هكذا .
 لم يكن مستطاعاً ان يعتب المرء على دانيال . بل كان عاتباً على جاك .
 وتوقف امام مبنى مربع في شارع ريومور وقرأ بانزعاج ، شأنه
 كل مرة : « جاك دولارو ، كاتب في محكمة ، الطابق الثاني » :
 كاتب في محكمة ! ودخل واخذ المصعد ، وهو يفكر : « ارجو الا
 تكون اوديت موجودة » .

وكانت موجودة ؛ ولقد لمحها ماتيو عبر الباب الزجاجي للصالون
 الصغير . وكانت جالسة على ديوان ، انيقة طويلة نظيفة الى حد التفاهة ؛
 وكانت تقرأ . وكان جاك يقول برضى : ان اوديت احسدى نساء

باريس النادرات اللواتي يجدن وقتاً للقراءة .
وسألت روز :

- هل يريد السيد ماتيو ان يرى السيدة ؟
- نعم . سوف اسلم عليها ؛ ولكن هل لك ان تخبري السيد أنني
سألقاه بعد لحظة في مكتبه ؟
ودفع الباب فرفعت اوديت نحوه وجهها الجميل العاق المزيتع ،
وقالت بلهجة مسرورة :

- مرحباً ، ماتيو . هل جئت تزورني ؟
فقال ماتيو : « أزورك ؟ » . وكان ينظر بود ممتعض هذا الجبين
المهاديء العالي وهاتين العينين الخضراوين . كانت جميلة من غير شك
ولكن جلالاً يبدو أنه كان يفرّ من تحت الانظار . وكان ماتيو قد
حاول مئة مرة ، وهو الذي اعتاد وجوهاً كوجه لولا الذي كان حسه
يفرض نفسه منذ الوهلة الاولى بقسوة - حاول ان يمسك هذه الملامح
الماربة . ولكنها كانت تفر ، وكان مجموعها ينحلّ في كل لحظة
فيحتفظ وجه اوديت بسرّه البرجوازي المخيب . وقال ماتيو :
- وددت لو كانت هذه الزيارة لك ، ولكن يجب ان ارى جاك ،

فان عندي خدمة اطلبها منه /
قالت اوديت : - ولكنك لست مستعجلاً الى هذا الحد ، ان جاك
لن يهرب . اجلس هنا .

وافسحت له مكاناً الى جانبها . وقالت وهي تبتسم :
- حذار ، فقد اغضب منك ذات يوم . انك تهملني . وان لي
الحق بان تزورني شخصياً ؛ فلقد وعدتني بذلك .
- يعني انك انت التي وعدتني بان تستقبلي ذات يوم .
فقالت ضاحكة :
- كم انت مؤدّب ! انك لست مرتاح الضمير .

وجلس ماتيو . وكان يحب اوديت كثيراً . ولكنه لم يكن يسدي قط ما ينبغي ان يقوله لها .

– كيف حالك يا اوديت ؟

وسكب حرارة في صوته ليخفي بلادة سؤاله . فقالت :

– جيد جداً . اتلدري اين كنت هذا الصباح ؟ كنت في سان جرمان بسيارتي لأرى فرنسواز ، وقد سحرني ذلك .
– وذاك ؟

– انه مشغول جداً في هذه الايام . فانسا لا اكاد اراه . ولكن صحته فظيعة كالعادة .

وأحس ماتيو فجأة باستياء عميق . وفكر : « انها لجاك . » ونظر بصيق الى الذراع الطويلة السمراء التي كانت تخرج من ثوب بسيط جداً يشده عند الحصر زنار احمر ، ثوب يكاد يكون لفتاة . كانت الذراع والثوب والجسد الذي تحت الثوب ملك جاك ، كهذه الاريكة ذات الوسادة ، وهذه الخزانة البلاذرية ، وهذا الديوان . لقد كانت هذه المرأة المتحفظة المحتشمة تفوح منها رائحة الامتلاك . وساد صمت . ثم اتخذ ماتيو الصوت الحار الأنفى الذي كان يحتفظ به لاوديت فقال :

– ان ثوبك جميل جداً .

قالت اوديت بصحكة مغتظة :

– اوه ، اسمع ، دع هذا الثوب وشأنه ! انك كلما رأيتني حدثني عن اثوابي . قل لي بالاحرى ماذا فعلت هذا الاسبوع ؟
وضحك ماتيو ايضاً وكان يحس نفسه منفرجاً .

– الحق ان عندي شيئاً أقوله عن هذا الثوب بالذات .

قالت اوديت : – يا الهي ، وما عساه يكون ؟

– انني اتساءل عما اذا لم يكن واجباً عليك ان تضعي في اذنيك اقراطاً حين ترتدينه .

– اقراط ؟

ونظرت اليه اوديت نظرة فريدة . فقال ماتيو :

– هل تجدين ان ذلك سيكون مبتذلاً ؟

– على الاطلاق . ولكن هذا يجعل الوجه غير متحفظ .

ثم اضافت فجأة وهي تضحك :

– لا شك في انك ستكون اكثر ارتياحاً معي اذا لبست اقراطاً .

فقال ماتيو باهام : – كلا ، ولماذا ؟

وكان مدهوشاً ، وكان يفكر : «انها ليست غبية بالتأكيد» . وكان

رأيه في ذكاء اوديت مثل رأيه في جمالها : كان لديها شيء لا يمكن
لمسه .

وساد صمت ؛ ولم يدر ماتيو ما يقوله بعد . ومع ذلك فلم يكن

راغباً في الذهاب ، كان يتذوق لوناً من الطمأنينة . وقالت له اوديت

يلطف :

– انني مخطئة في امساكك . اذهب سريعاً الى جاك ، فيبدو عليك

انك مهموم .

ونفض ماتيو . وفكر في انه سيطلب مالاً من جاك، فشر بتتملات

في اطراف اصابعه . وقال بشغف :

– الى اللقاء يا اوديت . لا لا . لا تزعجي نفسك . سأمر ثانية

لاودعك .

وكان يسائل نفسه وهو يطرق باب جاك الى اي حد كانت هي

ضحية . ؟ ان المرء لا يعرف الحقيقة مع هذا النوع من النساء .

وقال جاك :

– ادخل .

ونفض نشيطاً مستقيماً ، وتقدم من ماتيو . وقال بحرارة :

– مرحباً ، ايها العزيز . كيف الحال ؟

وكان يبدو افئى كثيراً من ماتيو بالرغم من انه كان الابن الاكبر.
وكان ماتيو يجده يسمن لدى الجنين بالرغم من انه كان لا بد لابساً
مشداً .

وقال ماتيو ببسمة ودية :

— مرحباً .

وكان يستشعر الزيف ، انه منذ عشرين عاماً يستشعر الزيف كلما
كان يفكر بأخيه او يراه . وقال جاك :

— نعم . ما الذي اتى بك ؟

فأشار ماتيو بحركة مقطبة . فسأله جاك :

— ليس الامر على ما يرام ؟ ولكن اجلس على هذه الاريكة . هل

تريد قدح ويسكي ؟

قال ماتيو :

— لا بأس بالويسكي .

وجلس منقبض الخنجرة . وكان يفكر : سأشرب الويسكي وامضي
من غير ان اقول كلمة . ولكن الاوان قد فات ، فقد كان جاك
يعرف تماماً ما ينبغي عمله : « سيفكر ببساطة اني لم اجرؤ على طلب
المعونة منه » . وكان جاك ما يزال واقفاً . وتناول زجاجة ويسكي وملاً
قدحين وهو يقول :

— هذه آخر زجاجاتي ، ولكنني لن اجدد مؤونتي قبل الخريف .

اننا لا ننفك نطلب كأساً من الجن — فز ، في اثناء الايام الحارة ،

غير ان هذا افضل ، فما رأيك ؟

فلم يجب ماتيو ، وكان ينظر بلا وداعة الى هذا الوجه الوردى

النضر ، وهذا الشعر الاشقر المقصوص قصيراً . وكان جاك يتسم ببراءة .

وكان شخصه كله يتنفس البراءة ، بيد ان عينيه كانتا قاسيتين . وفكر

ماتيو بغضب : « انه يتصنع البراءة ، وهو يعلم جيداً لماذا جئت وهو

الآن يبحث عن شخصه . « وقال بقسوة :

– انت تحزر جيداً اني جئت اطلب منك معونة .

هكذا ، لقد اُقيمتُ الكلمة . ولم يكن بوسعه الآن ان يتراجع بعد ؛

فقد بدأ اخوه يرفع حاجبيه كمن اصيب بدهشة عميقة . وفكر ماتيو

بامتعاض : « انه لن يوفر علي شيئاً . » وقال جاك :

– ولكن لا ، لم احزر ذلك . ولماذا تريدني ان احزره ؟ هل تشير

بذلك الى ان هذا هو الغاية الوحيدة لزيارتك ؟ .

وجلس ، وهو ما يزال مستقيم القامة ، متصلباً بعض الشيء ، وشبك

ساقيه بمرونة ، كأنما ليعوض عن صلابة صدره . وكان يرتدي بذلة

رياضية رائعة من القماش الانكليزي . وقال ماتيو :

– لا اريد ان اشير الى شيء على الاطلاق .

وطرف بعينه واضاف وهو يضغط قدحه بقوة :

– ولكنني بحاجة الى اربعة آلاف فرنك بين اليوم والغد .

« سيقول لا . المهم ان يرفض بسرعة فأستطيع ان افرقع . »

ولكن جاك لم يكن مستعجلاً قط : كان كاتباً في محكمة ، وكانه

لديه الوقت الكافي . وقال وهو يهز رأسه هزة عارف :

– اربع اوراق ؟ . ولكن قل لي ! من تظني ؟

ومد ساقيه وتأمل حذاءه في سرور وقال ؟

– انك تسألني يا ماتيو ، تسألني وتعلمني . اوه . لا تحمل ما

اقوله على محمل سوء (قال ذلك حين رأى حركة من ماتيو) فانا لا

افكر في انتقاد مسلكك ، ولكنني مع ذلك افكر ، واسائل نفسي وارى

ذلك من فوق ، وكدت أقول « كالفيلسوف » لو لم اكن اتحدث حقاً

الى فيلسوف . اسمع ! انني حين افكر فيك ازداد اقتناعاً بان المرء ينبغي الا

يكون رجلاً مباديء . اما انت فحشوت بالمبادئ . وانت تخترع المزيد

منها ولا تنسجم معها . نظرياً ليس هناك من هو اكثر استقلالاً منك .

وهذا جميل ، انك تعيش فوق الطبقات . غير اني اتساءل ما عساک
تصبح لو لم اكن موجوداً . لاحظ اني اسعد مما ينبغي ، انا الذي ليس
لي مبادئ ، في ان استطيع معاونتك بين وقت وآخر . ولكن يحتمل
الي اني لو كنت املك افكارك لحرصت على الا اطلب شيئاً من
بورجوازي كرية (واضاف وهو يضحك من كل قلبه) ذلك اني
بورجوازي كرية .

واستطر- وهو لا يكف عن الضحك :
وهناك ما هو اسوأ من ذلك . وهو انك - انت الذي تبصق على
العائلة - تستغل علاقاتنا العائلية لتطلب مني المعونة . فالحق انك ما كنت
تتوجه الي لو لم اكن اخاك .

ثم بدت عليه امائر الاهتمام الصريح فتساءل :

- الا يزعمجك هذا كله في آخر المطاف ؟

قال ماتيو وهو يضحك ايضاً :

- اني مضطر الي ذلك .

لن ينخرط في مناقشة فكرية . فان المناقشات الفكرية مع جاك
كانت تنتهي دائماً نهاية سيئة . وكان ماتيو يفقد فوراً رباطته . وقال
جاك ببرودة :

- نعم . بالطبع . الا تظن ان قليلاً من التنظيم ؟ ... ولكن هذا
هو بلا شك مناقض لأفكارك . لاحظ جيداً اني لا اقول ان هذه
غلطتك : انها في نظري غلطة المبادئ .

قال ماتيو ليجيب بشيء ما :

- انت تعلم ان رفض المبادئ هو ايضاً مبدأ .

قال جاك : - اوه . ليس هذا بالضرورة .

وقال ماتيو في نفسه : انه الآن سيدفع . ولكنه نظر الي خدي اخيه
الملتئين وسحنته المزهرة وهيبته المكشوفة ، والمصدومة مع ذلك ، وفكر

والانتقباض في صدره : « يبدو ان الانفراج ممتنع عليه . » ولحسن الحظ
استطرد جاك يقول مردداً :

- اربع اوراق . ان هذه حاجة مفاجئة . فحين جئتني في الاسبوع
الماضي تطلب خدمة صغيرة ، لم يكن هذا الموضوع وارداً .

قال ماتيو : - صحيح . ان هذا ... ان تاريخ هذا هو الأمس فقط .
وفكر فجأة في مارسيل ، وتمثلها كثيبة عارية في الغرفة الوردية
فأضاف بلهجة ملححة ادهشته هو نفسه :

- جاك ، انني بحاجة الى هذا المال .

فرمقه جاك بفضول وعضّ ماتيو على شفثيه : ان الاخوين لم يعتادا ،
اذا كانا معاً ، ان يظهر عواطفها بمثل هذه الطريقة الحية .

- الى هذا الحد ؟ هذا غريب . انك مع ذلك آخر من ... انك ...
عادة تستدين مني قليلاً من المال لانك لا تعرف او لا تريد ان تنظم
نفسك . ولكني ما كنت لاظن قط ... (واذاف بلهجة مستفهمة بعض
الشيء) طبعاً لن اسألك شيئاً .

وكان ماتيو متردداً : هل اقول له انها ضرائبي ؟ لا . هو يعرف
اني قد دفعتها في ايار . وقال فجأة :

- ان مارسيل حامل .

واحس بأنه يحمر فهز كتفيه ، ولم لا ، بعد كل حساب ؟ لماذا
هذا الخجل المحرق المفاجيء ؟ ونظر الى اخيه مواجهة بعينين عدوانيتين .
وبدا على جاك الاهتمام .

- أكنت تريد ولداً ؟

كان يتقصد الا يفهم . فقال ماتيو بلهجة كاسرة :

- كلا ، وانما كان ذلك عرضاً .

قال جاك : - ان هذا ليدهشني ايضاً . لقد كان بوسعك ان تريد

دفع تجاربيك حتى النهاية خارج النظام القائم ...

- نعم . ولكن ليس الأمر هكذا على الإطلاق .
وساد صمت ، ثم استأنف جاك وقد استعاد انطلاقه :

- واذاً ؟ متى يكون الزواج ؟

فاحمر ماتيو من الغضب : ان جاك يرفض كعادته ان يواجه الموقف بطريقة شريفة ، فهو يدور حوله بعناد ، وفي هذه الاثناء يجهد فكره في ايجاد عشاء نسر يستطيع منه ان يأخذ نظرات ساحجة على مسلك الآخرين . فمهما قيل له ومهما عمل ، فان حركته الاولى انما يفعلها ليرتفع فوق المناقشة . وما كان يستطيع ان يرى منها شيئاً الا من عل ، كان مشغولاً بأعشاش النسور . وقال ماتيو بوحشية :

- لقد قررنا ان تجهض .

فلم يتحرك جاك وقال بلهجة محايدة : - وهل اجتمعت بطبيبك ؟
- نعم .

- هل هو رجل مأمون ؟ ان صحة هذه المرأة الشابة ، هي علي ما قلت لي ، رقيقة .

- لدي اصدقاء يضمنونه .

قال جاك : - نعم ، نعم ، طبعاً .

واغمض عينيه لحظة ثم فتحها . وضم يديه باطراف اصابعه وقال :
- ان قضيتك بالاجمال ، اذا فهمتك جيداً ، هي التالية : لقد علمت ان صديقتك حامل ، وانت لا تريد ان تتزوج لأسباب مبدئية ، ولكنك تعتبر نفسك ملتزماً تجاهها بواجبات لا تقل حسماً عن واجبات الزواج . ولما كنت لا تريد ان تتزوجها ولا ان تلحق الاذى بسمعتها ، فقد قررت ان تجهضها في افضل الظروف الممكنة . وقد اوصاك بعض اصدقائك بطبيب موثوق يطلب منك اربعة آلاف فرنك . فلم يبق لك الا ان تحصل على المبلغ . ان الأمر كذلك .

قال ماتيو : - تماماً !

– ولماذا انت محتاج الى المال بين اليوم والغد ؟
– ان الطبيب المشار اليه مسافر الى اميركا بعد ثمانية ايام .
قال جاك : – حسناً ، فهمت !

ورفع يديه المضمومتين حتى مستوى عينيه وتأملها بدقة كمن ليس له بعد الا ان يستخرج النتائج مما قال . ولكن ماتيو لم ينخدع بذلك :
ان كاتب محكمة لا ينتهي الى النتائج بسرعة . وكان جاك قد خفض يديه ووضعها على ركبتيه ، بعد ان فكها واستغرق في اريكته وكفت عيناه عن البريق . وقال بصوت ناعم :
– انهم ينظرون في هذه اللحظة الى عمليات الإجهاض نظرة قاسية جداً .

فقال ماتيو : – اعرف هذا . فانه يتفق لهم ذلك بين وقت وآخر فيضعون في السجن بعض الأفراد المساكين الذين ليس لهم من يحميهم ، ولكن الاخصائيين الكبار لا يشعرون بأي قلق .
قال جاك – : تريد ان تقول : ان في هذا ظلماً . وانا من رأيك تماماً ولكني لا استنكر النتائج كلياً . فان افرادك هؤلاء المساكين ، هم بطبيعة الاشياء ، من العقاقيريين او من صانعات الملائكة الذين يتلفون امرأة تحضك بآلات قدرة .
قال ماتيو متضامناً :

– مهما يكن فاني جئت اطلب منك اربعة آلاف فرنك .
قال جاك : – و ... هل انت متأكد تماماً بأن الاجهاض منسجم ومبادئك ؟

– ولم لا ؟
– لا ادري . فعليك انت ان تدري ذلك . انت من دعاة السلام بدافع من احترامك للحياة البشرية ، وها انت ستهدم حياة .
فقال ماتيو : – انني مصمم تماماً . وقد اكون مسالماً ، ولكني لا

احترم الحياة البشرية . فلا بد انك تخلط بينها .

قال جاك : - آه .. كنت اظن ..

وكان يتأمل ماتيو بهدوء منبسط .

- ها انت ذا الآن تلبس جلد قاتل الاطفال . وكم يتعارض ذلك

ونفسيك يا عزيزي ماتيو !

وفكر ماتيو : انه يخشى ان يأخذوني : فهو لن يعطي فلساً واحداً .

وكان يود لو يستطيع ان يقول له : « اذا دفعت ، فلن تتعرض لأية

مخاطرة . لأنني سوف اتوجه الى رجل بارع ليس اسمه مسجلاً على

لوائح الشرطة . اما اذا رفضت فسأضطر لارسال مارسيل الى عقابري ،

وفي هذه الحالة لن اضمن شيئاً ، لأن الشرطة تعرفهم كلهم وتستطيع

ان تقبض عليهم بن ليلة وضحاها » . ولكن هذه الحجج كانت مباشرة

اكثر مما ينبغي بحيث لن تؤثر على جاك ؛ واكتفى ماتيو بالقول :

- ان الاجهاض ليس جريمة قتل ولد .

وتناول جاك سيكارة واشعلها وقال بلا حماس :

- نعم . اقر ذلك . ليس الاجهاض قتل ولد . ولكنه قتل

« ميتافيزيقي » (واضاف بجد) ليس لي يا عزيزي ماتيو اعتراض

على القتل الميتافيزيقي كما انه ليس لي اعتراض على الجرائم الكاملة .

اما ان ترتكب انت قتلاً ميتافيزيقياً ، انت ، على ما انت عليه ...

وصفق لسانه بلهجة تأنيب واضاف :

- كلا . ان هذه بكل تأكيد نعمة ناشرة .

انتهى الأمر ، ان جاك يرفض ، وسيكون بوسع ماتيو ان يذهب ،

وقد اوضح صوته وسأل تيرتة لدمته :

- اذاً فلا تستطيع ان تساعدني ؟

فقال جاك : - افهمني جيداً . فأنا لا ارفض ان تؤدي لك خدمة .

ولكن اتكون هذه حقاً لخدمة ؟ ثم انني مقتنع بأنك ستجد بسهولة المال

الذي تحتاج اليه ...
ونهض فجأة كما لو انه اتخذ قراراً ما واقبل يضع يده بود على كتف
اخيه ويقول بحرارة :

- اسمع يا تيو . لنقل اني رفضت : فانا لا اريد ان اساعدك على
ان تكذب على نفسك . ولكني سأقترح عليك شيئاً آخر ...
وكان ماتيو علي وشك النهوض ، فوقع على مقعده واخذه مرة
اخرى غضبه الأخوي . ان ذلك الضغط الصلب والعذب على كتفه كان
امراً غير محتمل ؛ وارتد برأسه الى خلف ورأى وجه جاك مختصراً .
- اكذب على نفسي ؟ اسمع يا جاك . قل بالأحرى انك لا تريد
ان تلتطخ نفسك في عملية اجهاض او انك لا توافق على ذلك ، او انك
لا تملك المال الضروري ، فهذا من حقك ولست املك ان اؤاخذك عليه ،
ولكن لماذا تحدثني عن الكذب ؟ فليس هنا اي كذب . اني لا اريد
اولاداً : ولكن يأتيني ولد ، فأحذفه ، هذا كل ما في الأمر .

وسحب جاك يده وخطا بضع خطوات وهو يفكر ، وفكر ماتيو :
« سيلقي علي خطاباً ، وقد كان علي الا اقبل اية مناقشة » .
وقال جاك بصوت رصين :

- اني يا ماتيو اعرفك اكثر مما تظن وانك لترعيني . لقد مضى
وقت طويل وانا اخشى شيئاً من هذا القبيل : ان هذا الطفل الذي
سيولد هو النتيجة المنطقية لوضع ارتضيته لنفسك ، وتريد ان تحذفه لأنك
لا تريد ان تقبل جميع نتائج تصرفاتك . اسمع ، هل تريد ان اقول
لك الحقيقة ؟ ربما كنت لا تكذب على نفسك في هذه اللحظة بالذات
ولكن حياتك برمتها قائمة على كذبة .

قال ماتيو ، وكان يبتسم :

- ارجوك ، لا تزعج نفسك : علمني ما اخفيه عن نفسي .
فقال جاك : - ان ما تخفيه عن نفسك هو انك بورجوازي فنجمل :

ولكني عدت الى البورجوازية بعد الوان كثيرة من الضياع والشروء ،
فعقدت معها زواجا عاقلاً ؛ اما انت ، فانك بورجوازي بالذوق ،
بالمزاج ، ومزاجك هو الذي يدفعك الى الزواج (واضاف بقوة) ذلك
انك متزوج يا ماتيؤ .

فقال ماتيؤ : - يا للنبا الجديد !

- اجل . انك متزوج ولكنك تزعم العكس لان لديك نظريات . لقد
اخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابة : فانت تاتقي بها اربع مرات في
الاسبوع وتقضي الليل معها . وهذا مستمر منذ سبعة اعوام ، فليس فيه
بعد اي اثر من مغامرة ، انك تحترمها وتشعر بواجبات نحوها ، ولا
تريد ان تركها . وانا على يقين بانك لا تلتمس اللذة وحدها ، بل انا
اتصور ان اللذة مها كانت قوية ، فلا بد انها مع الزمن قد ضعفت ،
والواقع انك لا بد ان تجلس اليها في المساء لتسرد عليها مطولاً حوادث
اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة .

قال ماتيؤ وهو يهز كتفيه : « طبعاً » . وكان غاضباً على نفسه ،
فقال جاك :

- حسناً ! هل تريد ان تقول لي بمَ يختلف ذلك عن الزواج الا
بالسكنى الدائمة ؟

فقال ماتيؤ ساخراً :

- السكنى الدائمة ؟

- اتصور انه لن يكلفك كثيراً ان تستنكف عنها .

وفكر ماتيؤ : « لم يسبق له ان صارحني من قبل بهذا كله . انه
ينتقد » . وكان لم يبق له الا ان يصفق الباب . ولكن ماتيؤ كان يعرف
انه باق حتى النهاية : كانت لديه رغبة مقاتلة ومستعدية في ان يعرف
رأي اخيه . فقال :

- ولماذا تقول : ان ذلك لن يكلفني كثيراً ؟

– لانك تكسب هناك الراحة وتكسب مظهراً من الحرية : ان لك جميع حسنات الزواج ، ولكنك تستخدم مبادئك لترفض مساوئه . انك ترفض ان تجعل الوضع شرعياً ، وهذا امر يسير عليك . فاذا كان هناك من يتألم من ذلك ، فلست اياه .

قال ماتيو بصوت متجبر :

– ان مارسيل تشاطرنى آرائي في الزواج .
وكان يستمع الى نفسه وهو يلفظ كل كلمة فيجد انه كرهه جداً .
وقال جاك :

– اوه ! لو لم تكن تشاطرك اياها فسوف تكون بلا شك اوفر كبرياء من ان تصارحك بها . اتدري اني لست افهمك ... انت السريع الغضب اذا سمعت من يتحدث عن الظلم ، ومع ذلك تجعل هذه المرأة في وضع ذليل منذ اعوام لمجرد اللذة في ان تقول لنفسك انك منسجم ومبادئك . ولت هذا كان صحيحاً . ليتك تطابق حقاً حياتك على افكارك . ولكني اكرر لك انك متزوج وان لك شقة لطيفة ، وانك تقبض في مواعيد محددة راتباً طيباً ، وليس عندك اي قلق بشأن المستقبل ما دامت الدولة تضمن لك تقاعداً ... وانك تحب هذه الحياة الهادئة المنظمة ، حياة موظف حقيقية .

قال ماتيو : – اسمع ، ان بيننا سوء تفاهم . انه لا يهمني الا قليلاً ان اكون بورجوازيًا او لا اكون . بل كل ما اريده هو ... (وانهى عبارته بين اسنان مشدودة في شيء من الحجل) هو ان احتفظ بحريتي . فقال جاك : – كنت احسب انا ان الحرية هي في مواجهة الاوضاع التي يختارها الانسان مملء ارادته وفي قبول جميع تبعاتها . ولكن هذا ليس هو رأيك : انك تشجب المجتمع الرأسمالي ، ومع ذلك فانت موظف في هذا المجتمع ، وانك تكن وداً مبدئياً للشيوعيين : ولكنك تحاذر جداً ان تلتزم ، وانت لم تقترع قط . وانك تحقر الطبقة

الرجوازية وانت مع ذلك برجوازي ابن برجوازي واخو برجوازي وتعيش
كأنك برجوازي .

واشار ماتيو بحركة من يده ولكن جاك لم يدع له ان يقاطعه فقال بشفقة مؤنبة :
— لقد بلغت مع ذلك سن الرشد يا عزيزي ماتيو . ولكنك تخفي
عن نفسك هذا ايضاً ، وتريد أن تجعل نفسك اصغر مما انت . والحق اني
ربما كنت ظالماً ، فلعلك لم تبلغ بعد سن الرشد . لأنها سن معنوية ،
ولعلمي بلغت قبلك .

وفكر ماتيو : « حسناً ، سيحدثني الآن عن شبابه . » وكان جاك
شديد الاعتزاز بشبابه ، وكان ذلك ضابته . كان يتيح له ان يدافع عن
قضية النظام بضمير مرتاح . فطوال خمسة اعوام قلّد باجتهاد جميع
الوان الشرود التي كانت شائعة ، فاعتنق السريالية وكانت له علاقات
مشيرة للغرور ، وتشمم احياناً ، قبل ان يضاجع ، منديلاً مبدلاً
بكلورور الخدر الاثري . وذات يوم نظم حياته حين حملت له اوديت
ستمئة الف فرنك كمهر . وكان قد كتب لماتيو يقول : « ينبغي ان
تكون لنا شجاعة ان نعمل كجميع الناس حتى لا نكون كأحد . » وكان
قد اشترى دراسة كاتب محكمة . وقال :

— اني لا الومك على شبابك ، على العكس فقد كنت محظوظاً في
تجنب بعض الانحرافات . غير اني مع ذلك لست آسفاً على شبابي .
والحق انه كان امامنا نحن الاثنين ، كما تعلم ، ان نستهلك غرائز جدنا
القرصان ، غير اني استفدتها انا كلها دفعة واحدة . أما أنت فتستهلكها
بالتقسيم . وينقصك ان تمس قعرها . واعتقد انك في الاصل كنت
اقل قرصنةً مني وهذا الذي يضيعك : ان حياتك هي تسوية ابدية بين
حسن تمرد وفوضى متواضع جداً في حقيقته وبين نزعاتك العميقة التي
تدفع بك الى النظام والصحة المعنوية ، واكاد اقول الروتين . والنتيجة هي
انك ظلت طالباً قديماً غير مسؤول . ولكن انظر الى نفسك جيداً يا

عزيزي . إنك في الرابعة والثلاثين وان شعرك يبيض قليلاً . ليس بقدر شعري طبعاً . - وليس فيك بعد شيء من الفتوة . وان حياة البوهيمي لا تناسبك . وما هي البوهيمية حقاً ؟ لقد كان ذلك شيئاً جميلاً منذ مئة عام . اما اليوم فهي قبضة من التائهين لا يشكلون خطراً على احد . وقد فاتهم القطار . انك في سن الرشد يا ماتيو ، انك في سن الرشد ، او ينبغي ان تكون فيه .

قال ماتيو : - اسمع ! ان سن رشذك انت انما هي سن الخضوع ، وانا لست حريصاً عليها على الاطلاق .

ولكن جاك لم يكن ، لشروده ، يصغي اليه . وقد اصبح نظره فجأة صافياً ومرحاً فاستطرد يقول بحوية :

- اسمع ، قلت لك اني سأقدم لك اقتراحاً ، فاذا رفضت فلن يصعب عليك ان تجد أربعة آلاف فرنك . ولن اندم . انني اضع عشرة آلاف فرنك تحت تصرفك اذا تزوجت صديقتك .

وكان ماتيو قد تنبأ بذلك . وكان هذا على اي حال ييسر له مخرجاً صالحاً ينقذ المظهر ؛ فقال وهو ينهض :

- اشكرك يا جاك ، انك لطيف جداً ، ولكني لا أوافق على اقتراحك . انا لا اقول انك مخطيء على طول الخط ، ولكن اذا كان لا بد لي من ان اتزوج يوماً ، فيجب أن تأتيني الرغبة لذلك . أما الآن ، فلن يكون الزواج الا ضربة عناد بليدة لأخرج من المغطس . ونهض جاك ايضاً وهو يقول :

- فكّر جيداً ، وخذ وقتك . ان امرأتك ستستقبل هنا استقبالاً جيداً . ولست بحاجة الى ان أقول لك ذلك ، فاني واثق باختيارك ، وستكون اوديت سعيدة في ان تعاملها كصديقة . والحق ان زوجتي تجهل كل شيء عن حياتك الخاصة .

فقال ماتيو : - لقد فكرت في الأمر ملياً .

قال جاك بلهجة ودية (اتراه كان مستاءً الى هذا الحد ؟) ...
- كما تشاء . (وأضاف) متى نراك ؟ .
فقال ماتيو : - سأتي يوم الاحد لتناول الغداء . الى اللقاء .
قال جاك : - الى اللقاء ، و ... اذا خطر لك ان تغير رأيك ، فان
اقتراحي يظل قائماً .

وابتسم ماتيو وخرج من غير ان يجيب . وفكر : « انتهى الامر !
انتهى الامر ! » وهبط السلم وهو يعدو ، ولم يكن جذلاً ، ولكنه
كان راغباً في الغناء . والآن لا بد ان جاك قد عاد يجلس الى مكتبه ،
شارد العين ، ذا ابتسامة حزينة ورصينة : « ان هذا الفتى يقلقني ، بالرغم
من انه بلغ سن الرشد . » او ربما ذهب يقوم بدورة لدى اوديت :
« ان ماتيو يسبب لي القلق . اني لا استطيع ان اقول لك لماذا ، ولكنه
ليس عاقلاً . » وما عساها تقول ؟ اتراهما ستلعب دور المرأة الناضجة
المفكرة ، ام انها ستقتصر على بعض حركات الموافقة السريعة من غير ان
ترفع انها عن كتابها ؟

وقال ماتيو لنفسه : « عجباً ، لقد نسيت ان اودع اوديت ! »
وندم على ذلك : وكان مستعداً لأن يستشعر الندم . « لعل هذا صحيح !
أتراني اجعل مارسيل حقاً في وضع ذليل ؟ » وتذكر هجيات مارسيل
العنيفة ضد الزواج : « والحق اني عرضت عليها الزواج . مرة . منذ
خمس سنوات . » والواقع ان ذلك كان في الهواء . ومهما يكن فقد
سخرت منه مارسيل . وفكر : « آه ! الحقيقة ان عندي عقدة نقص
لإزاء اخي ! » ولكن لا ؛ لم يكن الامر كذلك ، مهما كان شعوره
بالذنب ، فان ماتيو لم يكف قط عن ان يعطي نفسه الحق ضد جاك .
« غير ان الامر هو ما يلي : انه قدر يملك علي نفسي . فاذا لم اخجل
امامه ، فاني اخجل من اجله . آه ! (وفكر :) ان المرء لا
ينتهي مع اهله . وهذا يشبه الجلدري . فهي تصيبك اذ تكون طفلاً »

وتطبعك مدى الحياة » وكانت هناك حانة عند زاوية شارع مونثورغوي :
فدخل . وأخذ قطعة بديلة من الصندوق . وكانت غرفة التليفون في
زاوية مظلمة . وكان منقبض القلب حين فتح الآلة .

– الو ! الو ! مارسيل ؟

وكان تليفون مارسيل في غرفتها . فقالت :

– هذا انت ؟

– نعم .

– ماذا هناك ؟

– كان الامر مستحيلاً مع العجوز .

فقالت مارسيل بلهجة ارتياب : – هم !

– أوكد لك . كانت سكرى تقريباً ، وكان الوضع منتناً عندها ،

ومقرفاً ، وليتك رأيت يديها . ثم انها متوحشة .

– طيب . وبعد ؟

– ان هناك شخصاً آخر . بواسطة ساره . شخص جيد جداً .

وقالت مارسيل بلا اكتراث :

– آه ! وكم ؟

– اربعة آلاف .

فرددت مارسيل غير مضدقة :

– كم ؟

– اربعة آلاف .

– اترى اذاً ! ان هذا غير ممكن ، يجب ان اذهب ...

قال ماتيو : – لن تذهبي . بل سأستدين .

– ممن ؟ من جاك ؟

– انني خارج من لدنه .

– ودانيال . ؟

– انه يرفض ايضاً ، الحيوان !. لقد رأيت هذا الصباح وانا متأكد انه محشو حشواً .

فسألته مارسيل بحماسة :

– انك لم تقل له ان ذلك كان من اجل ... هذا .

فقال ماتيو : – لا .

– وما الذي ستفعله ؟

– لا ادري . (وشعر بأن صوته يعوزه التأكيد فأضاف بحزم :)

« لا تنزعجي . ان امامنا ثمانين واربعين ساعة : وسوف اجد المال . حين يتدخل الشيطان في الموضوع فان اربعة آلاف فرنك لا بد ان توجد . »

وقالت مارسيل بلهجة غريبة :

– حسناً جدّها ، جدّها .

– سأخبرك . هل نحن على موعدنا مساء الغد ؟

– نعم .

– وهل انت بخير ؟

– لا بأس .

– انت لست ...

فقالت مارسيل بصوت جاف :

– بلى . انني اشعر بالضيق . (واضافت بلهجة اعتذار) . مهما

يكن ، فاعمل جهدك انت يا عزيزي المسكين .

قال ماتيو : – سأتيك بالآلاف الاربعة مساء الغد .

وتردد وأضاف بجهد :

– احبك .

فأعدت مارسيل السماعة من غير ان تجيب . وخرج من الغرفة .

وحين كان يعبر المقهى كان ما يزال يسمع صوت مارسيل الجاف :

« اشعر بالضيق » انها حاقدة علي . بالرغم من انني افعل ما استطيع .
« في وضع ذليل » اصحيح اني اضعها في وضع ذليل ؟ واذا ...
وتوقف عند حافة الرصيف . واذا كانت تريد الطفل ؟ في هذه الحالة ،
كل شيء ينقلب ، كان يكفي التفكير بذلك لحظة ليأخذ كل شيء
اتجاهاً آخر . فتلك هي قصة اخرى ، وان ماتيو ، ماتيو نفسه ، سيتغير
من الرأس حتى القدم ، وهو لم يكف عن ان يكذب على نفسه ،
اذ كان رجلاً قديراً ؛ رائع القذارة . ومن حسن الحظ ان هذا لم
يكن صحيحاً . ولا يمكن ان يكون صحيحاً . فلقد سمعتها غالباً تسخر
من صديقاتها المتزوجات اذ يكن حاملات . وكانت تدعوهن « اوعية
مقدسة » وكانت تقول : « انهن ينفجرن فخراً لأنهن سييظن . » وان
من يقول هذا ، لا يحق له ان يغير رأيه برأي لطيف ، لأن ذلك سيكون
استغلالاً للثقة . وان مارسيل غير جديرة باستغلال الثقة ؛ والا لقاتل
لي ، ولماذا تراها لا تقول لي ، ما دمنا نتكاشف كل شيء . اوه !
ثم... كفى ! كفى ! لقد اتعبه ان يدور في هذا الدغل المعقد. مارسيل ،
ايفيش ، المال ، المال ، ايفيش ، مارسيل ، سأفعل كل ما ينبغي .
ولكني اود ان لا افكر بعد ذلك ، بحياة الرب ، اريد ان افكر بشيء
آخر . وفكر ببرونيه ، ولكن ذلك كان ابعد على الحزن : صداقة
ميتة ؟ وكان يحس انه ناثر الاعصاب وحزين لأنه كان سيراه مرة
ثانية . ورأى كشكاً للصحف فاقرب منه : « باري - ميدي ، مع
فضلك . »

وكان قد نقد ، فأخذ صحيفه بلا تمييز : وكانت « اكسلسيور » .
ودفع ماتيو ثمنها ومضي . « اكسلسيور » لم تكن صحيفة مؤذية .
وكانت من ورق سميك حزين ومحملي كأنه التيبوكة . ولم يكن من شأنها ان
تثير غضبك ، وكل ما هناك انها كانت تنزع منك مذاق الحياة فيما
انت تقرأها . وقرأ ماتيو : « قصف فالنسيا من الجو » . ورفع رأسه

مغتاضاً غيضاً مبهماً : كان شارع ريومور من نحاس مسود . الساعة الثانية ، لحظة النهار التي يبلغ فيها الحر أكاب صورته ، اذ كان يتلوى ويفرقع في وسط الرصيف كأنه شرارة كهربائية طويلة . « اربعون طائرة تدور طوال ساعة فوق وسط المدينة وتقذف مئة وخمسين قنبلة . العدد الدقيق للموتى والجرحى لا يزال مجهولاً . » ورأى من طرف عينه ، تحت العنوان ، نصاً صغيراً ضيقاً مريعاً كان يبدو فيه ثرثرة ووثائق : « من موفدنا الخاص » ، وكان يحوي ارقاماً . وقلب ماتيو الصفحة ، ولم تكن به رغبة لأن يعرف اكثر مما عرف . خطاب للسيد فلندان في « بار لودوك » . فرنسا جاثمة فوق خط مجينو... ستوكوفسكي يصرح لنا : « لن اتزوج غريتا غاريو . » جديد حول قضية ويدمن .

زيارة ملك انكلترا : حين تنتظر باريس اميرها الساحر . جميع الفرنسيين ... وانتفض ماتيو وفكر : « جميع الفرنسيين قدرون . » لقد كتبها له غوميز مرة من مدريد . وأغلق الصفحة ، وأخذ يقرأ في الصفحة الاولى برقية الموفد الخاص . كان تعداد القتلى خمسين والجرحى ثلاثمئة ، ولم يكن هذا كل شيء ، بل كان هناك بالتأكيد جثث تحت الانقاض . لا طائرات ولا مدافع مضادة . وكان ماتيو يحس بغموض انه مذنب . خمسون قتيلاً وثلاثمئة جريح ، ما كان هذا يعني بالضبط ؟ مستشفى مليء ؟ شيء يشبه اصطدام قاطرة حديدية ؟ خمسون قتيلاً . لقد كان في فرنسا الوف من البشر لم يستطيعوا ان يقرأوا صحيفتهم ذلك الصباح ، من غير ان تصعد الى حنجرتهم كتلة من الغضب ، الوف من البشر حرقوا الارم وهم يتمتمون : « قدرون » وحرقت ماتيو الارم وتتم « قدرون ! » . واستشعر مزيداً من الذنب . ليته على الاقل استطاع ان يجد في نفسه انفعالاً صغيراً حياً ومتواضعاً ، وواعياً لحدوده . ولكن لا : لقد كان فارغاً ، وكان امامه غضب كبير ، غضب يائس ، وكان يراه ، وكان بوسعه ان يلمسه . غير انه كان

غضباً جامداً ، كان ينظر ليحيا ، لينفجر ، ليتألم ، ليعيره جسمه ، لقد كان غضب الآخرين « قدرون » كان يحرق الارتم ، وكان يمشي بخطى كبيرة ، ولكن الغضب لم يكن ليحيه ، كان ما يزال خارجاً . لقد كنت انا في فالنسيا . ورأيت فيها حلبة مصارعة الثيران في عام ٣٤ ، وسباقاً كبيراً للثيران مع اورتيجا والاستودينت . وكانت فكرته تصنع دوائر حول المدينة ، باحثة عن كنيسة ، عن شارع ، عن واجهة بيت يستطيع ان يقول عنه : « لقد رأيت هذا ، وقد هدموه ، فهو غير موجود بعد . » وانقضت الفكرة على شارع مظلم تسحقه بنايات ضخمة . لقد رأيت هذا ، وكان يتنزه فيه صباحاً ، وكان يخنق في ظل محترق ، وكانت السماء تشتعل عالية ، فوق الرؤوس . حسناً : لقد سقطت القنابل في هذا الشارع ، على البنائيات الرمادية الضخمة ، فاتسع الشارع اتساعاً ، وقد سالت السماء الذائبة على الرصيف والشمس تصفع الانقاض . وكان ثمة شيء ما يستعد للولادة ، فجر غضب خجول . حسناً ! ولكن ذلك تلاشى ، وتسطح . وكان خلاء ، وكان يمشي بخطى معدودة في وقار شخص يسير وراء جنازة ، في باريس ، لا في فالنسيا ، في باريس ، يسكنه شبح من الغضب . وكانت الواجهات تشتعل ، وكانت السيارات تجري في الشارع ، وكان هو يسير وسط رجال قصار يلبسون اقنعة فاتحة ، وسط فرنسيين لم يكونوا ينظرون الى السماء ، لم يكونوا يخافون السماء ، ومع ذلك ، فهناك ، في مكان ما تحت السماء نفسها ، امر واقعي : فقد توقفت السيارات ، وتحطم الزجاج ، وقرصت نساء بليدات خرساوات تبدو عليهن هيئة الدجاج الميت ، بالقرب من جثث حقيقية ، وهن يرفعن الرأس بين الفينة والاخرى ، فينظرن السماء ، السماء السامة ، جميع الفرنسيين قدرون . وكان ماتيو يشعر بالحر ، وكان حراً حقيقياً . وأمر مندبله على جبينه ، وفكر : « ليس بوسع الانسان ان يتألم من اجل ما يريد . »

لقد كان هناك قصة فظيعة وفاجعة كانت تطلب ان يتألم من اجلها...
« انني لا استطيع ، فلست في الميدان . انسي في باريس ، وسط
موجوداتي انا ، جاك خلف مكتبه يقول : « لا » ودانيال يقهقه ،
ومارسيل في الغرفة الوردية ، وايفيش التي قبلتها هذا الصباح . وجودي
الحقيقي ، المنقر ، لفرط ما هو حقيقي . ان لكل عالمه ، وعالمي هو
مستشفى في داخله مارسيل حُبلى وهذا اليهودي الذي يطالب مني اربعة
آلاف فرنك . وهناك عوالم اخرى . غوميز . لقد كان في الميدان ،
لقد ذهب ، وكان هذا نصيبه . وشخص الامس . انه لم يذهب ،
ولا بد انه يتيه في الشوارع ، مثلي . ولو انه يلتقط صحيفة فيقرأ :
« قصف فالنسيا » فلن يكون بحاجة الى ان يبتسر نفسه ، لأنه سيتألم
هناك ، في المدينة ذات الانقراض . لمساذا تراني في هذا العالم المتن
بالضوضاء وبالآلات الطبية وبالتسلية الخفية في سيارات التاكسي ، في
هذا العالم الذي لا اسبانيا فيه ! لماذا لا اكون في الميدان مع غوميز ومع
برونيه ؟ لماذا لم تأخذني الرغبة في الذهاب للقتال ؟ أكان بوسعي ان
اختر عالماً آخر ؟ أتراني ما زلت حراً ؟ ان بوسعي ان اذهب حيث
اشاء فلا اجد اية مقاومة ولكن ذلك اسوأ : انني في قفص لا حواجز
له . وانه يفصلني عن اسبانيا لا شيء ... ومع ذلك فان هذا الفاصل
غير قابل للعبور : ونظر الى الصفحة الاخيرة من اكسلسيور : صور من
الموفد الخاص . اجسام ممددة على الرصيف عند اسفل جدار . وفي
منتصف الشارع امرأة ضخمة ، ملقاة على ظهرها ، وقد ارتفع ثوبها
عن فخذيها ولم يكن لها رأس بعد . وطوى ماتيو الصحيفة ورمها في
الساقية .

وكان بوريس يترقبه امام باب البناية . واذا لاحظ ماتيو بدت عليه
هيئة برودة وتكلف رصانة : تلك كانت هيئته المجنونة . وقال :
- لقد طرقت بابك . ولكني اعتقد انك لم تكن في البيت .

فسأله ماتيو في اللهجة نفسها :

— هل انت متأكد من ذلك ؟

فقال بوريس :

— لست متأكداً تماماً ، وكل ما أستطيع ان اقله لك هو انك لم

تفتح لي الباب .

فنظر اليه ماتيو وهو متردد . مهما يكن من امر ، فان الساعة لم

تكذ تتجاوز الثانية ، ولن يصل برونيه قبل نصف ساعة . وقال :

— اصعد معي ، فسوف نُفرغ ما في قلبينا .

وصعدا . وعلى الدرج قال بوريس بصوته الطبيعي .

— الا يزال موعدنا قائماً في « سومطرا » هذا المساء ؟

فانفتل ماتيو وتصنع انه يبحث عن مفاتيحه في جيبه ، وقال :

— لا ادري ان كنت سأذهب . لقد فكرت بـ .. لعل لولا تفضل

ان تكون لها وحدها .

قال بوريس : — طبعاً . ولكن ماذا في ذلك ؟ انها ستكون مؤدبة .

ومهما يكن فاننا لن نكون وحدنا ! ستكون هناك ايفيش .

فسأله ماتيو وهو يفتح الباب :

— هل رأيت ايفيش ؟

فأجاب بوريس : — لقد تركتها الساعة .

قال متنجياً : — تفضل .

ودخل بوريس قبل ماتيو وتوجه بألفة مليئة باليسر نحو المكتب .

وكان ماتيو ينظر بارتباك الى ظهره الهزيل وفكر : « لقد رأها . »

وقال بوريس :

— هل ستأتي ؟

وكان قد التفت وتأمل ماتيو بهيئة ضاحكة رقيقة . فسأله ماتيو :

— ألم تقل لك ايفيش ... شيئاً عن هذا المساء ؟

- هذا المساء ؟
- نعم . كنت اتساءل عما اذا كانت ستجيء : فهي تبدو شديدة الانهماك بامتحانها .
- قال بوريس : – انها تريد ان تأتي بلا شك . وقد قالت انه سيكون طريفاً ان نلتقي نحن الاربعة معاً .
- فردد ماتيو : – نحن الاربعة ؟ هل قالت نحن الاربعة ؟
- فقال بوريس ببراءة : – حتماً : فان هناك لولا .
- انها تنتظر اذاً ان آتني ؟
- فقال بوريس دهشاً : – طبعاً .
- وساد صمت . وكان بوريس قد انحنى فوق الشرفة ينظر الى الطريق . فخبه ماتيو وارسل له ضربة كبيرة من قبضته في ظهره . وقال بوريس :
- اني احب شارعك كثيراً ، ولكنه يوحى بالملل مع مرور الزمن . ويدهشني دائماً انك تعيش في شقة .
- ولماذا ؟
- لا ادري . ان عليك انت الحر ان تبيع اثاثك وتعيش في الفندق . هل تتصور ذلك ؟ ان تقيم شهراً في غرفة في مونتارتر وشهراً آخر في ساحة « التنبل » وشهراً ثالثاً في شارع « موفتار » ...
- فقال ماتيو متضامناً : – ليس لهذا اية اهمية .
- قال بوريس بعد ان حلم طويلاً : – نعم . ليس لهذا اية اهمية .
- (وأضاف بلهجة متزعجة) ان الجرس يرن .
- فذهب ماتيو يفتح الباب : وكان برونيه . وقال ماتيو :
- مرحباً ، لقد جئت قبل الموعد .
- فقال برونيه مبتسماً : – صحيح ، وهل هذا يزعجك ؟
- على الاطلاق .
- وسأل برونيه : – من هذا ؟

فقال ماتيو : - بوريس سرغين .
قال برونيه : - آه ! التلميذ العظيم ؟ انا لا اعرفه .
وانحنى بوريس ببرودة وتراجع حتى جوف الغرفة . وكان ماتيو واقفاً امام برونيه مرتنحي الذراعين .
- انه يحقر ان يُعتبر التلميذ .
فقال برونيه من غير ان يتفعل : - مفهوم .
وكان يلف سيكارة بين اصابعه ، صلباً ولامبالياً تحت انظار بوريس الحاقده . وقال ماتيو :
- اجلس ، خذ الاريكه .
وجلس برونيه على كرسي وهو يقول مبتسماً :
- لا . ان ارائكك مفسدة ... (وأضاف) هكذا اذا اياها الاشتراكي الخائن القديم ؟ يجب على من يريد لقاءك ان يأتي حتى عرينك .
فقال ماتيو : - ليست هي غلطي : فقد سعيت غالباً لرؤيتك ولكنك تكاد لا توجد .
قال برونيه : - صحيح . فقد اصبحت نوعاً من وكلاء السفر .
انهم يجعلونني اضرب في كل مكان حتى اني في بعض الايام يشق علي ان اجد نفسي بالذات .
واستطرد بلهجة ودية :
- وانما اجد نفسي على احسن صورها حين اراك ، ويخيل الي اني استودعت نفسي عندك .
فابتسم له ماتيو ابتسامة عرفان وقال :
- لقد فكرت مراراً ان علينا ان نلتقي اكثر مما نفعل . ويخيل الي اننا نشيخ شيخوخة ابطأ ، اذا كان بإمكاننا ان نلتقي نحن الثلاثة بين فترة واخرى .
فنظر اليه برونيه بدهشة :
- نحن الثلاثة ؟

— طبعاً : نعم ، دانيال وانت وانا .

قال برونيه في ذعر :

— صحيح ، دانيال ! ان هذا الصديق ما يزال موجوداً ! وانت ما تزال تراه بين فترة واخرى . أليس كذلك ؟

فسقطت فرحة ماتيو : حين كان برونيه يلتقي بورتال او بوروليه فلا بد انه كان يقول لها ، باللهجة الضجرة نفسها : « ماتيو ؟ انه استاذ في معهد بوفون . وما زلت اراه بين فترة واخرى . » . وقال بمرارة :

— اجل . ما زلت اراه ، فتصور !

وساد صمت . وكان برونيه قد وضع يديه على ركبتيه . كان هناك ثقيلًا وكثيفاً ، كان جالساً على كرسي لماتيو ، وكان يجني وجهه بصورة عنيدة نحو شعلة عود ثقاب ، وكانت الغرفة مملأى بحضوره ، وبدخان سيكارته ، وبحركاته البطيئة . وكان ماتيو ينظر الى يديه الكبيرتين ، يدي الفلاح ، ويفكر : « لقد جاء » . وشعر بأن الثقة والفرح كانا يحاولان بقاء ان يولدا في قلبه من جديد . وسأله برونيه :

— وما عدا ذلك ؟ ما هي احوالك ؟

— وأحس ماتيو بالضيق : ليس هناك من شيء . وقال :

— لا شيء .

— انني أتمثلك : اربع عشرة ساعة من الدروس اسبوعياً ، ورحلة الى الخارج في العطلة الكبرى .

فقال ماتيو ضاحكاً وهو يتجنب النظر الى بوريس : — نعم . واخوك ؟ ألا يزال صليب نار ؟

قال ماتيو : — كلا . انه ينوع . وهو يقول ان صلبان النار ليست ديناميكية بما فيه الكفاية .

قال برونيه : — هذا طريدة لدوريو .

— يتحنون عن ذلك ... (وأضاف ماتيو من غير تفكير) . لقد

تنازعت معه اليوم .

فألقى برونيه عليه نظراً سريعاً حاداً :

— ولماذا ؟

— ان الامر دائماً هكذا : اطلب منه خدمة فيجيبني بموعظة .

فقال برونيه ساخراً : — ولهذا توسعه انت شيئاً . اترك ما تزال

تأمل ان تغيره ؟

فقال ماتيو متضايقاً : — كلا . ليس الامر كذلك .

وصمنا لحظة اخرى . وفكر ماتيو بحزن : « ان الوضع يتبلد . »
ليت بوريس يفكر في الذهاب . ولكن يبدو انه لا يفكر بذلك . فهو
قائم في ركنه مقشعراً ، شبيهاً بكلب مريض . وكان برونيه قد جلس
على كرسيه منفرج الساقين ، وكان هو ايضاً يلقي على بوريس نظراً
ثقيلاً . وفكر ماتيو برضى : « انه يود لو يرحل . » واخذ يرمق
بوريس بين عينيه : فربما انتهى به الامر الى ان يفهم تحت نيران هذه
الانظار المشتركة . ولكن بوريس لم يكن ليتحرك . وقال برونيه بصوت
واضح :

— الا زلت تدرس الفلسفة ، ايها الشاب ؟

فأوما بوريس برأسه ان نعم .

— واين وصلت فيها ؟

فقال بوريس بحفاء : — اني انهي شهادة الليسانس .

قال برونيه بلهجة استغراق : — شهادة الليسانس ؟ الحمد لله ؟

ثم قال بصراحة :

— أترك ستكرهني اذا خطفت منك ماتيو مدة لحظة ؟ ان لك

حظاً في ان تراه كل يوم ، اما انا ... (وسأل ماتيو) هل تأتي

لنقوم بجولة في الخارج .

واقرب بوريس من برونيه بصلافة وقال :

– لقد فهمت . إبق هنا ، إبق : فانا الذي سأخرج .
وانحنى قليلاً : لقد كان مجروحاً ، وتبعه ماتيو حتى الباب وقال
له بجملة :
– الى هذا المساء . اليس كذلك ؟ سأكون هناك حوالى الحادية
عشرة .

فابتسم له بوريس ابتسامة آسفة : – الى هذا المساء . واغلق
ماتيو الباب وعاد الى برونيه ، يقول له وهو يفرك يديه :
– واذاً ؟ لقد افرغته ؟
وضحكا . وسأل برونيه :

– ربما سلكت في ذلك مسلكاً شديداً . انك غير عاتب علي .
قال ماتيو ضاحكاً : – على العكس . إنه معتاد . ثم اني مسرور
جداً في ان اراك وحدك .

قال برونيه بصوت حازم : – كنت حريصاً على ان اذهب بسرعة
لاني لا املك الا ربع ساعة .
فتمطمت ضحكة ماتيو وقال :

– ربع ساعة ؟ انا اعرف انك لا تملك وقتك : ولقد كنت لطيفاً
بأن تجيء .

– الحقيقة اني كنت مأخوذاً طوال النهار ، ولكنني حين رأيت
سحنتك هذا الصباح فكرت : يجب قطعاً ان احديثك .
– وهل كانت سحنتي قدرة ؟

– نعم يا عزيزي المسكين . كانت ممتعة اكثر مما ينبغي ومتورمة
اكتر مما ينبغي مع رجفة في الاجفان وفي زاوية الفم .

واضاف بشغف : – وقلت في نفسي : انني لا اريد ان يتلفوه لي.
فسعل ماتيو وقال :

– لم اكن اعتقد انه كان لي وجه معبر الى هذا الحد ... كنت قد

رقت ، وكانت لدي هموم ... اوه انت تعلم ، كهوموم جميع الناس ، مجرد هموم مالية .

ولم يبد على برونيه انه اقتنع فقال :
- ان لم يكن الامر الا كذلك فلا بأس ، لان بوسعك ان تتدبر امرك دائماً . ولكن كان يبدو عليك بالاحرى مظهر شخص ادرك انه قد عاش افكاراً مزعجة .

قال ماتيو بحركة غامضة : - « اوه ! الافكار ... » وكان ينظر الى برونيه نظرة عرفان متواضع . وكان يفكر : « لقد اتى من اجل هذا . كان نهاره مشغولاً بعدد من المواعيد الهامة فازعج نفسه ليأتي الى نجدتي » . ومهما يكن فقد كان افضل لو ان برونيه استجاب لمجرد الرغبة في رؤيته . وقال برونيه :

- اسمعني ! فانا لا اريد ان احدثك بالمواربة ، وانما جئت اقدم لك عرضاً : هل تريد ان تدخل الحزب ؟ اذا قبلت اصطحتك وانتهت القضية في عشرين دقيقة .

فانتفض ماتيو وسأله :

- في الحزب الشيوعي ؟

فأخذ برونيه يضحك ، وتكسرت جفونه وكان يكشف عن اسنانه الباهرة وقال :

- طبعاً ، فانت لا تريدني ان ادخلك عند « لاروك » ؟

وساد صمت ثم سأله ماتيو برقة :

- لماذا تريدني يا برونيه ان اصبحت شيوعياً ؟ الصالح ام لصالح الحزب ؟

قال برونيه : - لصالحك . وليست بك حاجة الى ان تتخذ هيئة رقابة ، فاني لم اصبحت رقيب دعاية للتجنس في الحزب الشيوعي ، ثم لتفاهم : ان الحزب لا يحتاج اليك قط . وانت لا تمثل في نظره الا

رأس مال صغيراً من الذكاء . وهذا ، اقصد المثقفين ، نملك منه ما
بوسعنا بيعه ، ولكنك انت بحاجة الى الحزب .

وردد ماتيو : - لصالحني . لصالحني .. (واستطرد فجأة) اسمع :
انني لم اكن اتوقع عرضك هذا فقد بوغت به . ولكن ... اود لو
تقول لي ما الذي تفكر فيه ؟ . انت تعلم اني اعيش محاطاً بصبيبة لا
ينشغلون الا بانفسهم وهم معجبون بي مبدئياً . وليس هناك من يتحدثني
قط عن نفسي ! وانا ايضاً احياناً ، اجد مشقة في ان اعثر على نفسي .
واذن ؟ اتظن اني بحاجة الى ان التزم ؟

فقال برونيه بقوة : - نعم . نعم . انت بحاجة الى ان تلتزم .
اولا تحس ذلك بنفسك ؟

وابتسم ماتيو بحزن : كان يفكر في اسبانيا . وقال برونيه :
- لقد سلكت طريقك . انت ابن برجوازي ، ولم تكن تستطيع ان
تأتي الينا هكذا . بل كان يجب ان تتحرر . وقد تمّ هذا الآن ! فانت
حر . ولكن ما جدوى هذه الحرية ان لم تكن لتمكّن المرء من
الالتزام ؟ لقد انفقت خمسة وثلاثين عاماً وانت تنظف نفسك ، وكانت
النتيجة فراغاً (واضاف ببسمة ودية) انت ، لو تدري ، جسم غريب .
انك تعيش في الهواء ، ولقد قطعت صلاتك البرجوازية ، وليست لك
اية علاقة بالبروليتارية ، فانت عائم ، أنت مجرد ، انت غائب . ولا
بد ان هذا ليس شيئاً طريفاً دائماً .

قال ماتيو : - لا ، ليس شيئاً طريفاً دائماً .
واقرب من برونيه وهزّه من كتفيه : لقد كان يحبه حباً قوياً .
وقال له :

- ايها الداهية الملعون ، ايها المومس الملعون ! يسرنني كثيراً ان تقول
لي كل هذا !

وابتسم له برونيه بشرود : كان يتابع فكرته فقال :

— لقد تنازلتَ عن كل شيء لتكون حراً . فقم بخطوة اخرى «
تنازل عن حريتك نفسها : وسيُرد لك كل شيء .
قال ماتيو ضاحكاً : — انك تتكلم كالحوري . كلا يا عزيزي !
لنتكلم بجد . فان هذا لن يكن تضحية كما تعلم . انا اعرف جيداً اني
سأسترد كل شيء ، بلحماً ودماً وحماسات حقيقية . ولكنك تعرف يا
برونيه اني انتهيت الى فقدان حسّ الحقيقة : فليس هناك ما يبدو لي
حقيقياً مئة بالمئة .

ولم يجب برونيه : كان يتأمل . وكان له وجه ثقيل قرميدي اللون
ذو ملامح مرتجفة وجفون حمراء ، صفراء جداً وطويلة جداً . وكان
يشبه بروسيّاً . وكان ماتيو كلما رآه احس في منخرينه بنوع من الفضول
الحائر .

وكان يتنفس على مهل ويتوقع ان يشم فجأة رائحة انسانية قوية .
ولكن لم يكن لبرونيه رائحة . وقال ماتيو :

— انك حقيقي انت وكل ما تلمسه يبدو حقيقياً . فان غرفتي منذ
دخلتها تبدو حقيقية وتثير اشمزازي .
واضاف فجأة : — انك انسان .

فسأله برونيه مدهوشاً : — انسان ؟ ان العكس مقلق . فاذا تريد
ان تقول ؟

— لا شيء غير ما قلت : لقد اخترت ان تكون انساناً .

انسان ذو عضلات قوية معقدة بعض الشيء ، يفكر بحقائق قصيرة
قاسية ، انسان مستقيم ، مقلق ، واثق من نفسه ، ارضي ، متمرد على
المغريات الملائكية للفن وعلم النفس والسياسة ، انسان برمنه ، ولا شيء
غير انسان . وقد كان ماتيو هناك ، تجاهه ، متردد ، رديء الشيوخة ،
رديء الصنع ، تحاصره جميع دوارات اللاإنساني . وفكر : « امسا
انا ، فلا ابدو انساناً . » ونهض برونيه واقبل على ماتيو يقول :

— واذن ؟ افعل مثلي ، فما الذي يمنعك من ذلك ؟ اترك تصور
ان بوسعك ان تعيش كل حياتك بين هلالين ؟ .

فنظر اليه ماتيو متردداً وقال :

— طبعاً ، طبعاً . واذا اخترت فاني اختار ان اكون معكم ، وليس
هناك اختيار آخر .

فردد برونيه : — ليس هناك اختيار آخر . (وتلبث لحظة ثم
سأل) : واذن ؟

قال ماتيو : — دعني قليلاً اتنفس .

فقال برونيه : — تنفس ، تنفس ، ولكن عجل . فغداً تصبح
اكبر سناً مما ينبغي ، وستكون لك عاداتك الصغيرة ، وستكون عبيد
حريتك . وربما كان العالم ايضاً اكبر سناً مما ينبغي .

قال ماتيو : — انني لا افهم .

فنظر اليه برونيه وقال بسرعة :

— ستشرب الحرب في ايلول .

قال ماتيو : — انك تمزح .

— يمكنك ان تصدقني . فالانكليز يعرفون ذلك ، وقد أُخطرت به
الحكومة الفرنسية ، وفي النصف الثاني من ايلول سيدخل الألمان الى
تشيكوسلوفاكيا .

قال ماتيو منزعجاً : — يا لهذه الاساليب !

فسأل برونيه متضايقاً : — ولكن الا تفهم شيئاً ؟ .

غير أنه تدارك واطاف برقة :

— لو كنت تفهم ، لما كنت بحاجة الى ان اوضح لك . اسمع : انك

مثلي من المشاة . افرض انك تمضي في الحالة التي انت فيها الآن : فانك توشك
ان تنفجر كفقاعة ، وتكون قد حلمت حياتك خمسة وثلاثين عاماً ، ثم
تأتي ذات يوم قبلة فتفجر احلامك ، وستموت من غير ان تكون قد

استيقظت . لقد كنت موظفاً مجرداً ، وستكون بطلاً مضحكاً ، وستسقط
من غير ان تكون قد فهمت شيئاً . كل ذلك ليتمكن السيد شنيدر من
المحافظة على مصالحك في معامل سكودا .

وسأله ماتيو : - وانت ؟ (واطاف مبتسماً) انني اخشى يا
عزيزي الا تستطيع الماركسية ان تحمي الناس من القنابل .
فقال برونيه : - وانا اخشى ذلك ايضاً . اتدري اين سيرسلونني ؟
الى مقدمة خط ماجينو : انه مرمى الرصاص المضمون .
- واذن ؟

- ليس هو الامر نفسه ، فهذا خطر قد اضطلعنا به . انه لا شيء
الآن يستطيع ان ينزع من حياتي معناها ، لا شيء يستطيع ان يمنعها من
ان تكون قدراً .

واضاف بحوية :

- كما هي حياة جميع رفاقي ، في الواقع .
لكأنه كان يخشى ان يأثم بدافع الكبرياء .

ولم يجب ماتيو . وذهب يرتفق حاجز الشرفة وهو يفكر : لقد
« عبر خير تعبير » . وكان برونيه على حق : لقد كانت حياته قدراً .
سنه ، طبقته ، زمانه : لقد استرد كل شيء ، واضطلع بكل شيء ،
واختار العصا الرصاصية التي ستضربه في صدره ، والقنبلة الالمانية التي
ستبقر بطنه : لقد التزم ، وتنازل عن حريته ، فلم يكن بعد الا جندياً .
ولقد أعادوا له كل شيء ، حتى حريته . « انه اكثر حرية منه : انه
متفق مع نفسه ومتفق مع الحزب . » لقد كان هناك ، حقيقياً تماماً .
وفي فمه مذاق حقيقي للتبغ ، وكانت الالوان والاشكال التي يملأ بها
عينيه اكثر حقيقة واكثف من تلك التي كان ماتيو يستطيع ان يراها .
ومع ذلك فقد كان في اللحظة نفسها يتمدد عبر الارض كلها ، متألماً
ومكافحاً مع عمال جميع البلاد . في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة

بالذات ، هناك اشخاص يطلقون على انفسهم الرصاص في ضاحية مدريد ،
وهناك يهود نمساويون يحتضرون في معسكرات الاعتقال ، وهناك صينيون
في انقاض نكين ، وأنا هنا طري نصر . أحسني حراً ، وسوف آخذ
بعد ربع ساعة قبعتي واذهب لأتنزه في حديقة اللكسمبورغ . والتفت
الى برونيه ونظر اليه بمرارة وهو يفكر : « اني غير مسؤول . »
وقال فجأة : - لقد قصفوا فالنسيا .

فقال برونيه : - اعرف ذلك . ولم يكن هناك مدفع مضاد في المدينة
كلها ، وقد قذفوا قنابلهم على سوق .

لم يكن قد حرق الارم ، ولم يكن قد تخلى عن بهجته المطمئنة
وعن تدفقه المستنيم ، ومع ذلك ، فقد كان هو الذي قُصف ، وكان
إخوته واخواته واولاده هم الذين قتلوا . وذهب ماتيو يجلس على اريكة .
« ان ارائك مفسدة . » وانتصب بجوية ، وجلس على زاوية الطاولة .
قال برونيه :

- واذن ؟

وكان يبدو انه يترصده . قال ماتيو :

- اذن ؟ انك محظوظ .

- محظوظ بأن أكون شيوياً ؟

- نعم .

- رأي عجيب ! ان هذا يُختار يا عزيزي .

- أعرف ذلك . انك محظوظ في ان تكون قد استطعت الاختيار .

وقست ملامح برونيه قليلاً :

- هذا يعني انك لن تملك هذا الحظ .

والآن تجب الاجابة . وانتظر : نعم أم لا ؟ أن يدخل الحزب

ويمنح حياته معنى ، ويختار ان يكون انساناً ويعمل ، ويؤمن ، سيكون
في ذلك الخلاص . ولم يكن برونيه ليغادره بعينيه :

– أترفض ؟

فقال ماتيو يائساً : – نعم ، نعم يا برونيه : أرفض .
وكان يفكر : « لقد جاء بمنحني أفضل ما لديه ! » وأضاف :
– أنت تعلم ان هذا ليس قراراً نهائياً .. ففيما بعد ...
وهز برونيه كتفيه .

– فيما بعد ؟ اذا كنت تعول على اشراقة داخلية لتقرر ، فانت
توشك ان تنتظر طويلاً . هل تتصور انني كنت مقتنعاً حين دخلت
الحزب الشيوعي ؟ ان الاقتناع أمر يُصنع .

وابتسم ماتيو بحزن .

– أعرف ذلك جيداً : اركع فتؤمن . ربما كنت على حق . أما
أنا فاريد أن اؤمن أولاً .

قال برونيه بنفاد صبر : – طبعاً . انكم كلكم متشابهون ، أنتم
المثقفين : كل شيء يتحطم ، كل شيء ينهار ، البنادق ستنتقل من
تلقاء نفسها وأنتم هنا هادئون ، تطلبون حقم في أن تكونوا مقتنعين .
آه ! ليتك كنت تستطيع ان ترى نفسك بعيني أنا ، اذا لفهمت أن
الزمن مستعجل .

– حسناً . الزمن مستعجل ، أجل ! وبعد ذلك ؟

وأرسل برونيه الى مؤخرته صفة غيظ .

– ها نحن ذا ! انت تصنع انك متأسف على شكك . ولكنك
تحرص عليه . وتلك هي راحتك المعنوية : فما أن يهاجموها حتى تشبث
بها في شراسة ، كما يشبث أخوك بماله .

وقال ماتيو بهدوء : – هل يبدو عليّ في هذه اللحظة انني شرس؟
قال برونيه : – انا لا اقول ذلك .

وساد صمت . وكان يظهر على برونيه انه قد رق ؛ وفكر ماتيو :
ليته يستطيع ان يفهمني . وبدل جهداً : إن اقتناع برونيه هو الوسيلة

الوحيدة التي تبقى له لا قناع نفسه .

– ليس عندي ما ادافع عنه : فأنا لست فخوراً بحياتي ولا املك
مالاً : حريتي ؟ . انها تثقل عليّ : فهذه سنوات تنقضي وأنا حر من
أجل لا شيء . واني أذوب رغبة في ان استبدلها بيقين . لاني لا أطلب
أفضل من أن أعمل معكم ، فهذا سيبدلني من نفسي ، وأنا بحاجة الى ان
انسى نفسي قليلاً . ثم انني افكر مثلك بأن المرء لا يكون انساناً ما لم
يجد شيئاً يقبل ان يموت من اجله .

وكان برونيه قد رفع رأسه فقال بما يشبه المرح : – واذن ؟
– اذن ! انت ترى : لا استطيع الالتزام ؛ فليست عندي اسباب
كافية لذلك . انني احتج مثلك ضد الاشخاص أنفسهم ، وضد الاشياء
نفسها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية . انني لا استطيع في ذلك شيئاً .
فاذا اخذت اجري في الاستعراض رافعاً قبضتي ، منشداً «الانترناسيونال» ،
واذا صرحت لنفسي بأنني راضٍ مع ذلك ، فانما أكذب على نفسي .
وكان برونيه قد تلبس من هيئاته أكثفها وأكثرها طابعاً فلاحياً ، وكان
يشبه بُرجاً . ونظر اليه ماتيو في يأس :

هل تفهمني يا برونيه ؟ قل لي هل تفهمني ؟
فقال برونيه : – لا ادري ان كنت أفهمك جيداً ، ومهما يكن من
أمر ، فليس لك ان تبرر نفسك لأنه ليس ثمة من تهمه . انك تحتفظ بنفسك .
لمناسبة افضل ، وهذا حق ، وأتمنى ان تأتي هذه المناسبة في اقرب
وقت ممكن .

– وانا أتمنى ذلك ايضاً .

ونظر اليه برونيه بفضول :

– هل انت متأكد من انك تتمنى ذلك ؟

– طبعاً ...

– طبعاً ؟ حسناً ، فليكن . غير اني اخشى الا تأتي هذه المناسبة

سريعاً .

فقال ماتيو : - لقد قلت لنفسي هذا انا ايضاً . قلت لنفسي انها قد لا تأتي ابدأ ، او ربما انت بعد فوات الاوان . او ربما لم يكن هناك فرصة اصلاً .

- واذن ؟

- اذن ! في هذه الحالة سأكون شخصاً مسكيناً . هذا كل ما في الامر .

ونهض برونيه وهو يقول :

- هكذا ، هكذا اذن يا عزيزي . مهما يكن من امر فاني مسرور بأنني قد رأيتك .

- انك لن تذهب ... لن تذهب هكذا . فان عندك دقيقة اخرى ،

ليس كذلك !

ونظر برونيه الى ساعته : لقد تأخرت .

وساد صمت . وكان برونيه ينتظر بأدب . وفكر ماتيو : « يجب الا يذهب ، يجب ان احدهه » . ولكنه لم يكن يجد شيئاً يقوله له . وقال بسرعة :

- يجب الا نحقد عليّ .

فقال برونيه : - ولكني لست حاقداً عليك . انك لست مجبراً على

ان تفكر مثلي .

قال ماتيو آسفاً : - ليس هذا صحيحاً . انني اعرفكم جيداً ، انتم الآخرين : فانتم تعتقدون ان المرء مجبر على التفكير مثلكم ، الا ان يكون قديراً . انك تعتبرني قديراً . ولكنك لا تريد ان تقول ذلك ، لأنك تحم ان الحالة ميثوس منها .

فابتسم برونيه ابتسامة خفيفة وقال :

- اني لا اعتبرك قديراً . كل ما هنالك انك اقل انفصلاً عن طبقتك

مما كنت اظن .

وفيما كان يتكلم ، كان يقترب من الباب . وقال له ماتيو : - لا يمكن لك ان تعرف كم أثر في مجيئك لرؤيتي ومدك يد المعونة اليّ ، لمجرد ان سحنتي كانت قدرة هذا الصباح . انت على حق لو تعلم ، فانا بحاجة الى مساعدة . غير اني اريد معونتك انت .. لا معونة كارل ماركس . اود لو أراك غالباً وأتحدث معك ، فهل هذا مستحيل ؟
فصرف برونيه عينيه وقال :

- اود ذلك كثيراً ، ولكني لا املك كثيراً من الوقت .
وفكر ماتيو : « طبعاً لقد اشفق عليّ هذا الصباح فخببت شفقتي .
وقد عدنا الآن فأصبحنا غريبين احدنا بالنسبة الى الآخر . فليس لي اي حق في وقته » . وقال بالرغم منه :

- أتراك لا تذكر يا برونيه ؟ لقد كنت خير اصدقائي .

وكان برونيه يلعب بمزلاج الباب :

- لماذا تظن انني جئت ؟ لو انك قبلت عرضي ، لكان بإمكاننا

ان نعمل معاً ...

وصمتا . وكان ماتيو يفكر : « انه مستعجل ، وهو يدوب رغبة

في الذهاب . »

واضاف برونيه ، من غير ان ينظر اليه :

- انني ما زلت حريصاً عليك . حريصاً على سحنتك ، على يديك ،

على صوتك ، ثم ان هناك الذكريات بالرغم من كل شيء . ولكن

هذا لا يغير شيئاً في القضية : ان اصدقائي الوحيدين الآن ، انما هم

رفاق الحزب ، فان عندي مع هؤلاء ، عالماً مشتركاً برمته .

فسأله ماتيو : - وتظن انه ليس بيننا بعد اي شيء مشترك ؟

فرفع برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وكان حسبه ان يقول كلمة ،

كلمه واحدة ، حتى يجد ماتيو كل شيء من جديد ، صداقة برونيه ،

واسباباً للحياة . وكان ذلك مغرباً كالنوم . وانتصب ماتيو فجأة وقال :
- انني لا اريد ان احجزك . فتعال لتراني حين تجد الوقت .
قال برونيه : - بكل تأكيد . وانت اذا غيرت رأيك ، فأرسل
لي كلمة .

قال ماتيو : - بكل تأكيد .
وكان برونيه قد فتح الباب . وابتسم ماتيو ومضى ، وفكر ماتيو :
« لقد كان خير اصدقائي » .

لقد ذهب . كان يذرع الشوارع وهو يتأمل ويتهادى كأنه بحار ،
فتصبح الشوارع حقيقية الواحد بعد الآخر . ولكن حقيقة الغرفة كانت
قد اختفت معه . ونظر ماتيو الى اريكته الخضراء المفسدة والى كراسيه
والى ستائره الخضراء وفكر : « انه لن يجلس بعد على كراسي » ، ولن
ينظر بعد الى ستائري وهو يلف سيكارة . « ولم تكن الغرفة بعد الا
لطحنة نور خضراء كانت ترتجف لدى مرور الاوتوبيسات . واقرب
ماتيو من النافذة وارتمق حاجز الشرفة . وكان يفكر : لم يكن بوسعي
ان اقبل . وكانت الغرفة خلفه كأنها ماء هاديء ، ولم يكن ثمة الا
رأسه خارجاً من الماء ، كانت الغرفة المفسدة خلفه ، وكان واضعاً
رأسه خارج الماء ، وكان ينظر في الشارع وهو يفكر : هل هذا حقيقي ؟
هل حقيقي انني لم اكن استطيع ان اقبل ؟ وفي البعيد ، كانت طفلة
صغيرة تقفز بالحبل ، وكان الحبل يرتفع فوق رأسها كأنه عروة ويسوط
الارض تحت قدميها . اصيل صيفي . وكان النور قد حط في الشارع
وعلى السقوف ، متساوياً ، ثابتاً ، بارداً كأنه حقيقة أزلية . أصحيح
اني لست الا قدراً ؟ ان الاريكة خضراء ، وحبل القفز يشبه عروة :
هذا امر غير قابل للنقاش . ولكن حين تتعلق القضية بالناس ، فالنقاش
ممکن دائماً ، لان كل ما يفعله يمكن ان يشرح نفسه، من فوق او من
تحت ، حسب رغبتنا . لقد رفضت لأنني اريد ان اظل حراً ؛ وهذا ما

استطيع قوله ، واستطيع ان اقول كذلك : اني قد اصبت بالكبد ؛
احب ستائري الخضراء ، احب ان استنشق الهواء مساء وانا على شرفي .
ولا اريد ان يتغير ذلك . انه يروق لي ان اغضب واغتاظ من الرأسمالية
ولا اريد ان تلغى ، لأنه لا يبقى لي اسباب للغضب والغيط ، فروق لي
ان أحسني مزدرياً ومتوحداً ، يروق لي ان اقول لا ، دائماً لا .
وسخيفني ان يحاولوا حقاً بناء عالم يمكن العيش فيه ، لأنه لا يبقى لي
آنذاك الا ان اقول نعم ، وان اعمل كما يعمل الآخرون . من فوق او
من تحت ، من الذي يقرر ؟ لقد قرر برونيه . فهو يفكر بأني قدر ،
وجاك ايضاً ، ودانيال ايضاً . لقد قرروا جميعاً اني قدر . ماتيو هذا
المسكين ، انه هالك ، انه قدر . وماذا عساني استطيع ان اعمل انا
ضدّهم جميعاً ؟ يجب ان اقرر : ولكن ماذا أقرر ؟ حين قال الساعة
لا ، كان يحسب نفسه صادقاً ، وكانت حماسة مرّة قد نهضت فجأة
في قلبه . ولكن من كان يستطيع ان يحفظ ، تحت هذا النور ، بأصغر
جزء من الحاسة ؟ لقد كان نوراً لنهاية امل ، وكان يحد كل ما كان
يلمسه . ان الطفلة الصغيرة ستقفز بالحبل الى الابد ، وسيترفع الحبل
ابداً فوق رأسها وسيسوط ابداً الرصيف تحت قدميها ، وسينظر اليها
ماتيو الى الابد . ما جدوى القفز بالحبل ! ما جدواه ؟ ما جدوى ان
يقرر المرء ، ان يكون حراً ؟ فتحت هذا النور نفسه ، في مدريد
وفي فلنسيا ، كان بشرٌ قد وقفوا امام نوافذهم ينظرون الى الشوارع الخالية
الابدية ويقولون : « ما النفع ؟ ما جدوى متابعة النضال ؟ » . دخل
ماتيو الى غرفته ، ولكن النور تبعه اليها . اريكتي ، اثاثي . وكان
على الطاولة مثقلةٌ للورق تشبه عقرباً . فأخذها ماتيو من ظهرها ، كما
لو انها كانت حيّة . انها مثقتي : ما النفع ؟ ما النفع ؟ وترك العقرب
يسقط على الطاولة وقرر : اني شخص هالك .

كانت الساعة السادسة ؛ وكان دانيال قد نظر الى نفسه في المرآة وهو خارج من مكتبه ففكر : « الامر يعود من جديد . » وأحس بالخوف . وسلك شارع « ريومور » : كان بوسع المرء ان يخشى فيه ، فانه لم يكن الا قاعة كبيرة ذات سماء مفتوحة ، قاعة خطي ضائعة . وكان المساء قد أفرغ البنايات التجارية التي كانت تملأ جانبيه ؛ فعلى الأقل ، لم يكن هناك ما يغري بتخيّل امور صميمية خلف زجاجها الأسود . وكان نظر دانيال يتسرّب متحرراً بين هذه الأجراف المثقوبة حتى بركة السماء الوردية المنتنة التي كانت نجسها عند الأفق .

ولم يكن الاختباء يسيراً الى هذا الحد ، بل كان حتى بالنسبة لشارع ريومور أجلى مما ينبغي ؛ لقد كانت الفتحات الفارعات المزينة اللواتي يخرجن من المحلات يرمينه بنظرات جريئة ، فكان يُحسّ بجسده ويقول بين اسنانه : « القدرات » . كان يخشى ان يشم رائحتهن : إن رائحة المرأة تنبعث مها حرصت على ان تغسل نفسها ومن حسن الحظ ان النساء كنّ هناك نادرات ، فان هذا الشارع لم يكن رغم كل شيء شارعاً للنساء ، ولم يكن الرجال يهتمون به ، اذ كانوا يقرأون صحفهم

وهم سائرون ، او يفركون بحركات ضجيرة زجاج نظاراتهم او
يضحكون في الفراغ باندهاش . وكان جمهوراً حقيقياً بالرغم من انه
كان منتزحاً قليلاً ، وكان يسير ببطء ، فيخيل ان قدراً جاهرياً
ثقيلاً يسحقه . وانسجم دانيال مع هذا الصف البطيء ، واستعار من
هؤلاء البشر بسمتهم المستنمية وقدرهم الغامض المهدد ، فضاع : لم
يبقَ بعدُ فيه الا صوتُ وابلٍ أصمّ ، ولم يعدُ الا شاطئاً من النور
المنسي :

« سأصل ابكر مما ينبغي الى بيت مارسيل ، ولدي الوقت لأسير
قليلاً . »

وانتصب متصلباً حذراً : لقد وجد نفسه من جديد ، ولم يكن
يستطيع ان يضيع نفسه بعيداً جداً : « لدي للوقت لأسير قليلاً . »
وكان هذا يعني : سأقوم بجولة في السوق الخيرية ، وكان قد مضى
وقت طويل لم يكن دانيال ينجح فيه بأن يخلع نفسه . وما جدوى هذا
في الحق ؟ لقد كان يريد ان يذهب الى السوق الخيرية ؟ حسناً ،
سيذهب . سيذهب لأنه لم تكن لديه ادنى رغبة في ان يمتنع عن ذلك :
هذا الصباح ؛ القبط ، زيارة ماتيو ، وبعد هذا اربع ساعات من
العمل الكريه ، وهذا المساء مارسيل ، إن هذا غير محتمل ، فبوسعي
ان اعوض عن نفسي قليلاً .

مارسيل ، كانت مستنقماً . كانت تستسلم ساعات طويلة للوعظ
والإرشاد ، وكانت تقول : نعم ، نعم ، دائماً نعم ، وكانت الافكار
تغوص في رأسها ، فاذا هي غير موجودة الا في الظاهر . من
المستحسن ان يتسلى المرء لحظة مع الأغنياء ؛ فيمدّ لهم الجبل ليرتفعوا
في الاجواء هائلين ذوي خفة كفيكة مصنوعة من أحشاء الخراف ؛
فاذا شدت على الجبل عادوا يعومون على مستوى الأرض وقد جنّوا
وذعروا ، ورقصوا لكل هزة من الخيط في وثبات ثقيلة ، ولكن

ينبغي غالباً تغيير الأغبياء ، وإلا أدى ذلك الى الاشتزاز . ثم إن مارسيل كانت الآن فاسدة ؛ وسيكون الجو في غرفتها غير محتمل . إن المرء لا يستطيع الامتناع ، حين يدخل غرفتها عادة ، عن الاشتزاز . لم يكن ثمة رائحة شيء ، ولكن المرء لم يكن واثقاً من شيء ، فهو يحتفظ طوال الوقت بالقلق في أعماق رثتيه ، وهذا ما يؤدي غالباً الى الربو . سأذهب الى السوق الخيرية . ولم تكن ثمة حاجة الى كل هذا الاعتذار فان الأمر كله بريء : كان يريد ان يراقب حركات العمات وهن يصطدن . لقد كانت سوق جادة سياستبول الخيرية مشهورة في نوعها ، فهناك أغرى « دورا » مراقب المالية الفتاة الصغيرة القذرة التي قتلته . اما السوقة الذين كانوا يتسكعون امام آلات الدراهم بانتظار الزبون ، فقد كانوا اظرف كثيراً من زملائهم في مونبارناس : لقد كانوا ألسنة سوء للمناسبات ، او افظاظاً صغاراً غير مهذبين ، متوحشين وسوقة ، ذوي اصوات مبحوحة وحركات خفية مغلقة ، يسعون الى ربح عشرة فرنكات ووجبة عشاء . ثم كان هناك ايضاً « المحنونون » الذين كانوا يمتنون ضحكاً برقتهم ونعومتهم وأصواتهم التي تشبه العسل ، وما في انظارهم من خفقان وتواضع وشروود . ولم يكن دانيال يستطيع ان يتحمل خضوعهم . فقد كانوا يظهرون دائماً بمظهر المذنبين . وكانت تأخذه الرغبة في ضربهم ، فاننا نرغب في ضرب انسان يحكم على نفسه بنفسه لتزويد في ارهاقه ونحطم الف قطعة ما بقي له من كرامة . وكانت عاداته ان يستند الى جذع ويحلق فيهم بينما هم يتبخرون تحت اعين عشاقهم الشباب ، تلك الاعين الناعسة الماجنة . وكان المحنونون يظنونهم حامياً لاحد الفتيان . وكان يفسد عليهم كل لذتهم . واخذت دانيال عجلةً مفاجئة ، فحث خطاه : « سوف نضحك ! » وكانت حنجرتة جافة . وكان الهواء الجاف يحرق ما حوله . ولم يكن ليرى شيئاً بعد ، كانت ثمة لطفة امام عينيه ، ذكرى نور كثيف اصفر ، وكان هذا

النور البغيض يدفعه ويجذبه في وقت واحد ، وكان محتاجاً الى ان يراه ، ولكنه كان ما يزال بعيداً ، يعوم بين جدران واطقة ، كأنه رائحة كهف . وتلاشى شارع ريومور ، ولم يكن باقياً امامه الا مسافة ذات عقبات ، هي الناس : وكان ذلك يُشعر بالكابوس . غير ان دانيال لم يكن يستطيع قط ، في الكوابيس الحقيقية ، ان يبلغ نهاية الشارع . وانعطف الى جادة سيباستبول وقد تكلّس تحت السماء المشرقة ، وتباطأ في مشيته . سوق خيرية : لقد رأى اللافتة ، وتأكد من انه لم يكن يعرف وجوه المارة ، فدخل .

كان ممراً طويلاً ضيقاً مغبراً ، ذا جدران مطوية باللون الاسمر وقبح قاس ورائحة مستودع خمر . وانفجر دانيال في النور الاصفر الذي كان اشد جزناً ولزوجة مما هو في العادة ، وكان اشراق النهار يركنه في جوف القاعة ، وفي عيني دانيال كان ذلك نور دوار البحر : كان يذكره بتلك الليلة التي قضاها مريضاً علي باخرة بالرمو : فقد كان في غرفة الآلات الخالية ضباب اصفر مشابه جداً ، كان يحلم به احياناً فيستيقظ منتفضاً ، سعيداً بأن يجد الظلمات من جديد . وكانت الساعات التي يقضيها في السوق الخيرية تبدو له موقعة بضربات صماء تصدر عن اذرع دافعة . وكانت قد أُسندت الى الجدران علب ضخمة على اربعة ارجل ، وكانت تلك هي الالعاب . وكان دانيال يعرفها جميعاً : لاعبو كرة القدم ، ستة عشر تمثالاً خشبياً صغيراً ، مشكوكه على قضبان طويلة من النحاس ، ولاعبو البولو ، وسيارة الحديد الابيض التي كان يجب اركاضها على طريق من القماش ، من بيوت وحقول ، والقطط الصغيرة السود الخمس على السقف ، في ضوء القمر ، التي كانت تقتل بنحس طلاقات من مسدس ، والبنديقية الكهربائية ، وآلات توزيع الشوكولا والطور . وفي جوف القاعة ، كانت ثلاثة صفوف من « الكينراما » ، وكانت عناوين الافلام تنفصل في حروف ضخمة

سود : الزوجان الشابان ، الخادمتان الفاجرات ، الحمام الشمسي ، ليلة الزواج المستمرة . وكان سيد ذو نظارة قد اقترب خفية من احدى هذه الآلات ، فأدخل عشرين فلساً في الشق ، وألصق عينيه بعجلة خرقاء على بلور الميكا . وكان دانيال يَحْتَنق : كان هذا الغبار ، وهذه الحرارة ، ثم انهم اخذوا يضربون ضربات كبيرة ، ذات اوقات منتظمة ، فيما وراء الجدار . والى اليسار رأى المصيدة : كان شبان يلبسون ثياباً متواضعة قد تجمعوا حول الملاكم الزنجي ، وهو تمثال ذو مترين كان يضع في وسط بطنه وسادة من جلد وساعة . وكانوا اربعة ، واحد اشقر ، الشعر ، وآخر احمره ، واسمران ، وكانوا قد نزعوا ستراتهم وشمروا عن اكمامهم وكانوا يضربون بأذرعهم الهزيلة على الوسادة كأنهم صم . وكان عقرب على الساعة يشير الى قوة قبضاتهم . وراحوا ينظرون الى دانيال نظرات خفية ، ثم اخذوا يضربون ضرباً اشد . ووسع دانيال عينيه ليظهر لهم أنهم كانوا مخطئين بالعنوان ثم اولاهم ظهره ، والى اليمين بالقرب من الصندوق ، رأى في الظل شاباً طويلاً ذا خدين رماديين ، كان يرتدي ثوباً مدعوكاً كله ، وقيصاً للنوم وحذاء من قماش . ولم يكن بالتأكيد ممحوناً كالآخرين ! والواقع انه كان يبدو عليه انه لا يعرفه . وقد دخل هناك بالمصادفة - وان دانيال ليقسم على ذلك - وكان يبدو مستغرقاً في تأمل آلة رافعة . وبعد لحظة ، اقترب بلا ضجة يجذبه من غير شك المصباح الكهربائي والكوداك اللذان كانا قائمين خلف الزجاج فوق ركام من الملابس ، وأدخل بحث قطعة نقدية في شق الآلة ثم ابتعد قليلاً ، وبدا انه يسقط من جديد في تأمله ، وكان يلامس طرفي انفه باصبع مفكر . وأحس دانيال بأن رعشة معهودة كانت تجري على رقبتة وفكر : « إنه يحب نفسه جيداً ، يجب ان يلامس نفسه . » وكان هؤلاء اكثر الجميع جاذبية وأوفرهم روائية : اولئك الذين كانت ادنى حركة منهم تكشف

عن دلال غير واع ، وعن حب للنفس عميق ملبّد . وأخذ الشاب
 يدي الآلة بحركة حيّة وراح يحركها ببراعة . واستدارت الآلة الرافعة
 على نفسها بحركة دوامية وارتجافات شيخية . فكانت المكنة كلّها تهتزّ
 منها . وكان دانيال يتمنى له ان يربح المصباح الكهربائي ، ولكن
 نافذة بصقت ملبساً مختلف الألوان يشبه مظهر الفاصوليا البخيل المحدود .
 ولم يبد الشاب خائباً ، وبحث في جيبه وأخرج قطعة نقود اخرى .
 وقرر دانيال « انها آخر دراهمه ، وهو لم يأكل منذ أمس . » وكان
 ينبغي الا يقرر ذلك . كان ينبغي الا يستسلم فيتصور خلف هذا الجسم
 الهزيل الساحر ، المشغول بنفسه ، حياة غامضة من الحرمانات ، والحرية
 والأمل . ليس اليوم . وليس هنا ، في هذا الجحيم ، تحت هذا النور
 الكثيب ، ومع هذه الضربات الصمّاء التي يُضرب بها الجدار ، لقد
 عاهدت نفسي ان اصمد . ومع ذلك كان دانيال يدرك تماماً ان احدى
 هذه الآلات يمكن ان تشرق الانسان . فيفقد فيها ماله شيئاً فشيئاً ويعود
 الى تجربة حظه مرة ومرة ، وقد جفّ حلقه من الدوار والغضب : لقد
 كان دانيال يفهم جميع الدورات . وأخذت الآلة المنكّلة انها راضية عن
 حذرة متكررة : وكان يبدو على هذه الآلة المنكّلة انها راضية عن
 نفسها . / وأخذ دانيال الخوف : كان قد تقدم خطوة الى الامام ، وكان
 يدوب رغبة في وضع يده على ذراع الشاب - وكان قد بدأ فعلاً
 يُحسّ ملمس القماش الحشن المتتوف - وفي ان يقول له : « كفاك
 لعباً . » وكان الكابوس يوشك ان يعود ، بهذا المذاق من الأزلية
 ومن « التام - تام » المنتصر ، من الجهة الاخرى من الجدار ؛ وكان بحاجة
 الى ايام وليال ليخرج من هذا المستنقع من الحزن المتطامن الذي كان
 يصعد فيه ، هذا الحزن اللامتناهي المألوف الذي كان يوشك ان يغمر
 كل شيء . ولكن رجلاً دخل ، فتحرّر دانيال : لقد نهض وحسب
 انه سينفجر ضحكاً ، وفكّر : « هوذا الرجل » ؛ وكان تائهاً بعض

الشيء ، ولكنه كان مسروراً مع ذلك لأنه صمد . /
وتقدم الرجل في نزق ، وكان يسير وهو يطوي ركبتيه ، متصلب
المقامة ، أمرن الساقين . وفكر دانيال : « انت ؟ انك تلبس مشدأ . »
وكان عمره يقدر بالخمسين ، وكان قد حلق ذقنه منذ وقت قريب ،
وكان ذا وجه متفهّم يبدو ان الحياة قد دلّكته بحب ، وبشرة خمرية
تحت شعر ابيض ، وانف فلورنسي جميل ، ونظر اقسى قليلاً وأحسر
مما ينبغي : نظر المناسبة . وكان لدخوله تأثير : فقد انفتل السوقة
الاربعة ، وهم يتكاتفون المنظر نفسه من البراءة الفاسدة ، ثم عادوا
يرسلون قبضاتهم في بطن الجندي التمثال ولكن من غير حماسة . وترك
الرجل نظره يحط قليلاً عليهم في تحفظ لم تكن القسوة بعيدة عنه ،
ثم انفتل واقترب من لعبة كرة القدم . وأدار القضبان الحديدية وتفحص
المائل في جد باسم ، كما لو انه كان يسليه هو ذاته الهوس الذي
اقتاده الى هنا . ورأى دانيال هذه البسمة فتلقى ضربة زيف في صدره ،
واستفزع جميع هذه التصنعات والاكاذيب ، وأخذته الرغبة في الفرار .
ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : كانت اندفاعة بلا عاقبة ، وكان معتاداً
على ذلك . واستند الى جذع وأخذ يحديج الرجل بنظر ثقيل . والى
يمينه ، كان الشاب الذي يرتدي قميص النوم قد سحب من جيبه قطعة
نقود ثلاثة ، وكان يستأنف للمرة الثالثة رقصته الصغيرة الصامتة حول
الآلة الرافعة .

وانحنى الرجل الجميل على اللعبة وأمر سبابته على اجسام اللاعبين
الصغار : لم يكن يريد الانحطاط الى تقديم المغريات ، ولا ريب انه
كان يعتبر نفسه ، بشعره الابيض وثيابه الفاتحة ، قطعة حلوى لذيدة
لذة كافية لاجتذاب جميع هذا الذباب القتي . والواقع ان الصغير
الاشقر ، بعد لحظات من المشاورة ، انفصل عن الفرقة ، وكان قد
رمى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، واخذ يقترب من «المحون»

متهادياً ، وبداه في جيبه . وكان يبدو عليه الخوف والرَّقَب ، وكان نظره ، تحت حاجبيه الكثيفين نظر كلب . وتأمل دانيال في اشمزاز ردفه السمين وخديه الكبيرين الفلاحين اللذين كانت لحية صغيرة قد بدأت تلتطخهما . وفكر : « لحم امرأة وهو يُفرك كعجين الخبز . » سوف يقوده الرجل الى بيته ، فيغسله وينظفه بالصابون ، وربما عطره . واذ بلغ دانيال هذه الفكرة عاد اليه غضبه فتمم « قذرون ! » وكان الشاب قد توقف على بضع خطى من الرجل الكهل واخذ يصطنع بدوره ان يتفحص الآلة . وكان كلاهما منحنيًا فوق القضبان يحدجها ، من غير ان ينظر الى الآخر ، في مظهر اهتمام . وبعد ذلك ، بدا على الشاب انه يتخذ قراراً نهائياً : فقبض على زر وأدار احد القضبان على نفسه في سرعة ، فرسم اربعة لاعبين صغار نصف دائرة ثم توقفوا ورؤوسهم منخفضة .

وسأل الرجل بصوت يشبه معجون اللوز :

— هل تحسن اللعبة ؟ اوه ! هل تريد ان تشرح لي ؟ إنني لا

أفهم !

— تضع عشرين فلساً ثم تسحب ، فتأتيك الكرة ، ويجب ان ترسلها الى الثقب .

— ولكن يجب ان يلعب اثنان ، اليس كذلك ؟ انني احاول ان

ارسل الكرة الى الهدف ، وانت ، عليك ان تمنعني من ذلك ؟

فقال الشاب : — طبعاً (واطاف بعد لحظة) يجب ان نكون على

الطرفين ، هنا واحد ، وهناك واحد .

— اتريد ان تلعب معي دوراً ؟

فقال الشاب : — بكل ترحيب .

ولعبا . وقال الرجل بصوت مرتفع :

— ولكن ما ابرع هذا الشاب ! كيف تراك تفعل حتى تربح

طوال الوقت ؟ علمني .

فقال الشاب بتواضع : - إنها العادة .

- آه ! انت تتدرب ! انك تأتي الى هنا غالباً ، بلا شك ؟ اما انا ، فيتفق لي ان امرّ فأدخل ، غير اني لم التق بك قط . ولو التقيت بك للاحظتك ، اجل كنت لاحظتك ، فانا عالم بالفراسة ، وان لك وجهاً يثير الاهتمام . هل انت من « تورين » ؟

فقال الشاب متزعجاً : - نعم ، نعم ، بالتأكيد .

وكف الرجل عن اللعب واقترب منه ، فقال الشاب بسداجة :

- ولكن الدور لم ينته . فان امامك خمس كرات بعد .

فقال الرجل : - نعم ! اذن ، سنلعب عما قليل . انني افضل

ان اتكلم قليلاً ان كان ذلك لا يضايقك .

فابتسم الشاب ابتسامة مدروسة . واضطر الرجل الى ان يستدير على نفسه ليلحق به . ورفع رأسه وهو يمرّ لسانه على شفثيه الرقيقتين ، فالتقى بنظر دانيال . فكشّر دانيال . وصرف الرجل عينه بسرعة ، وبدا حائراً ، ففرك يديه فيما بينهما بحركة كاهن . ولم يكن الشاب قد رأى شيئاً ، وكان فاغر الفم ، فارغ النظر ، ممثلاً ، ينتظر ان يوجه اليه الكلام . وساد صمت ثم اخذ الرجل يحدثه في عذوبة ، من غير ان ينظر اليه ، بصوت مخنوق . واجهد دانيال نفسه في الانصات ، فلم يسمع الا كلمتي « فيلا » و « بايار » وهز الشاب رأسه في اقتناع ، وقال بصوت مرتفع :

- لا بد انه من النيكل !

فلم يجب الرجل ورمى بنظره سريعاً تجاه دانيال . وكان دانيال يحس بأن غضباً جافاً ولذيذاً كان يدفته . وكان يعرف جميع طقوس الذهاب : سوف يودع احدهما الآخر ، فيذهب الرجل اولاً ، بخطوة عجلي . ويعود الفتى الى رفاقه بلا مبالاة فيضرب بطن الزنجي التمثال

ضربة او ضربتين ، ثم يمضي بدوره بعد تحيات رخوة ، وهو يجرجر قدميه . وكان ينبغي ان يتبع هو بالذات . ويكون العجوز يذرع الطريق المجاورة ، فيرى فجأة دانيال في اعقاب الشاب الجميل . ويا لها من لحظة ! لقد كان دانيال يستمتع بها مقدماً ، فيلتهم بعينه وجه فريسته الرقيق التعب ، وترتجف يداه ، وتكون سعادته كاملة لولا ان يكون حلقه جافاً وأنه يكاد يموت من العطش . فاذا كان يجد فرصة مناسبة مارس عمل شرطة الاخلاق : وقد كان بوسعه دائماً ان يأخذ اسم الكهل ويخضعه لذعر شديد : « فاذا طلب مني بطاقة التفتيش فسوف أريه بطاقة السير الممنوحة لي من المحافظة »

قال صوت خجول : - مرحباً يا سيد لاليك .

وانتفض دانيال : لقد كان لاليك اسماً حربياً يتخذه لنفسه احياناً .
والتفت فجأة وقال بقسوة :

- ماذا تفعل هنا ؟ لقد منعتك من ان تضع قدمك في هذا المكان .

انه بوبي . وكان دانيال قد وظفه لدى صيدلي . وقد سمن وترهل ، وكان يرتدي بدلة جميلة ، ولم يكن يثير الاهتمام بعد على الاطلاق . وكان بوبي قد اخنى رأسه على كتفه مقلداً الطفل : وكان ينظر الى دانيال من غير ان يجيبه ببسمة بريئة حذقة كما لو انه قال : « كوكو : هأنذا . » وقد دفعت هذه البسمة بغضب دانيال الى ذروته ، فسأله :

- هل ستتكلم ؟

فقال الفتى بصوته المسترخي :

- انني ابحت عنك منذ ثلاثة ايام ، ولست اعرف عنوانك . وقد قلت لنفسي : ان السيد دانيال سيأتي ذات يوم ليقوم بدورته الصغيرة...
« ذات يوم ! يا للقذارة الوقحة ! » لقد كان يسمح لنفسه ان يحكم على دانيال ، وان يقوم بتنبؤاته الصغيرة : « هو يتصور انه

يعرفني ، وأن بوسعه ان يناور علي . « ولم يكن ثمة ما يُفعل : الا ان يُسحق كالبزاق : لقد كانت صورة "لدانيال متكيسة هناك ، تحت هذا الجبين الضيق ، وستبقى فيه دائماً . وكان دانيال ، بالرغم من نفوره ، يشعر انه متضامن مع هذا الأثر الرخي الحلي : انما كان هو نفسه الذي يعيش هكذا في ضمير بوبي .

وقال : - انك قبيح ! لقد سممت ، ثم ان هذه البذلة لا تنسجم معك ، فن اين التقطتها ؟ انه لمربع " كم يبدو ابتذالك واضحاً حين ترتدي ثياب الاحد !

ولم يبد على بوبي الانفعال . كان ينظر الى دانيال مباعداً ما بين عينيه بلطافة وهو دائم الابتسام . وكان دانيال يحتقر هذا الصبر الجامد ، الذي يشبه صبر الفقير ، وتلك الابتسامة المائعة اللزجة المطاطية : فحتى لو مزقت هذه الشفاه بالأظافر ، لظلت تلك الابتسامة دامية على الفم . وألقى دانيال نظرة سريعة نحو الرجل الجميل فرأى في غيظ انه كان هادئاً غير منزعج : كان منحنياً فوق الشباب الاشقر يشم شعره وهو يضحك بجذل . وفكر دانيال في غضب : « كان هذا متوقفاً . انه يراني مع هذا المحون فيظنني زميلاً له ، فهأنذا ملطّخ » وكان يكره روح المساعدة هذه المبولية . « انهم يتصورون ان جميع الناس ينتمون اليها . على اي حال ، افضل ان اقتل نفسي على ان اشبه هذا المحون ! »

وسأل بوحشية : - ماذا تريد ؟ لاني مستعجل ، ثم ارجع قليلاً الى الورا ، فان رائحة « البريانتين » التي تتصاعد منك تفعم الانف ! فقال بوبي في بطء : - اعذرني ، لقد كنت مستنداً هناك الى العمود ، ولم يكن يبدو عليك انك مستعجل قط ، ولهذا سمحت لنفسني ...

فقال دانيال وقد انفجر ضاحكاً :

- اوه ! ولكن الحقيقة انك تحسن الكلام ، فهل تراك اشتريت
لساناً مصنوعاً في الوقت الذي اشتريت فيه بذلتك المصنوعة ؟
وانزلت هذه السخرية على بوبي : وكان قد قلب رأسه وراح
ينظر الى السقف نظرة شهوة متواضعة عبر جفنيه المغمضين . « لقد
راق لي لأنه كان يشبه قطعة . » ولم يستطع دانيال ، اذ فكر بهذا ،
ان يكبت انتفاضة غضب : أجل ! ذات يوم ! لقد راق له بوبي
ذات يوم ! فهل كان هذا يكسبه حقواً مدى العمر ؟
وكان الرجل الكهل قد اخذ يد صديقه الشاب واحتفظ بها بين يديه
بحركة ابوية . ثم حياه وهو يربت على خده ، ورمى بنظرة ضالعة
الى دانيال ومضى في خطى واسعة راقصة . ومد له دانيال لسانه ، ولكن
كان قد اولاه ظهره . واخذ بوبي يضحك .

وسأل دانيال : - ماذا دهاك ؟

فقال بوبي : - ذلك انك مددت لسانك للعجوز (واضاف بلهجة
ناعمة) : « انك لا تتغير يا سيد دانيال ، وشيظنتك هي نفسها . »
وقال دانيال مذعوراً : - كفى ! (واخذه شك فسأله) وصيدليتك ؟
هل تركته ؟

فقال بوبي في لهجة شاكية : - لم يؤاتني الحظ عنده .

فنظر اليه دانيال في اشمزاز :

- غير انك مع ذلك قد سممت .

وخرج الشاب القصير الأشقر من السوق الخيرية بلا اكتراث ، فلامس
دانيال وهو يمر . وما لبث رفاقه الثلاثة ان تبعوه ، وراحوا يتراحمون
وهم يضحكون بأصوات عالية . وفكر دانيال : ماذا افعل هنا ؟
وبحث بعينيه عن كتفي الشاب صاحب قميص النوم ، وعن رقبتة الهزيلة ،
وقال بشرود :

- هيا ، تكلم ، ماذا فعلت له ؟ هل سرقتة ؟

فقال بوبي : - بل ان السبب هو زوجة الصيدلي . انها لم تكفي تطيقي .

وكان الشاب ذو قميص النوم قد خرج . واحس دانيال بأنه ضجر وخفيف ، وكان يخشى ان يجسد نفسه وحيداً مرة اخرى . وتابع بوبي :

- لقد غضبت لأنني كنت ارى رالف .

- لقد حذرتك بالأ تعاشر رالف بعد . انه سارق قدر !

فسأله بوبي بغیظ : - اذن يجب التخلي عن الاصدقاء بمجرد ان يواتينا الحظ ؟ لقد كنت اراه اقل من السابق ، ولكنني لم اكن ارید التخلي عنه دفعة واحدة . كانت تقول : « انه سارق ، وانا امنعه من ان يضع قدميه في صيدليتي » . ماذا تريد ، انها امرأة لثيمة . ولهذا كنت اراه في الخارج حتى لا تقبض علي . ولكن حدث ان المتمرن رأنا معاً . يا للعكروت القدر ، اعتقد ان عنده بعض الميول ... في البدء ، حين كنت هناك ، كان يلاطفني جداً ، فكيف اجرؤ على ان أصدّة ؟ فاذا به يقول لي : سوف اقبض عليك ! ودخل الى الصيدلية فسرّد كل شيء ، وقال انه رأنا معاً ، واننا كنا في وضع سيء ، وان الناس كانوا يلتفتون الينا فقالت المعلمة : ماذا قلت لك ؟ انني امنعك من رؤيته والا فلن تبقى عندنا . وقلت لها : اسمعي يا سيدتي : انت التي تأمرين حين اكون في الصيدلية ، اما حين اكون خارجاً فليس لديك ما تقولينه . وهكذا كان !

كانت السوق الخيرية خالية ، من الجهة الاخرى للجدار . وكان الطّرق قد كفّ . ونهضت امينة الصندوق ، وكانت شقراء سمينة ، فمضت بخطى بطيئة الى بائع العطور ، فنظرت الى نفسها في المرآة وهي تبتمس . ودقت الساعة السابعة . وردد بوبي في انبساط :

- في الصيدلية ، انت التي تأمرين ، اما حين اكون خارجاً فليس

لديك ما تقولينه .

وانتفض دانيال وسأله بطرف شفتيه :

– وهكذا طردوك ؟

فقال بوبي برصانة : – بل انا الذي ذهبت ، وانا اقول : افضل ان ارحل . وتصور انه لم يكن باقياً معي فلس واحد ! انهم لم يريدوا ان يدفعوا ما استحق ، ولكن طز : اني هكذا . ابيت لدى رالف ، وانا بعد الظهر ، لأنه يستقبل في المساء امرأة مشهورة له علاقة بها . اني لم آكل منذ امس الأول .

ونظر الى دانيال نظرة ملامسة :

– وقد قلت في نفسي : سأحاول مع ذلك ان أرى السيد لاليك ،

فهو سيفهمني .

فقال دانيال :

– انك ابله صغير . فأنت لا تثير اهتمامي بعد . اني ابذل جهداً كبيراً لأجد لك عملاً فتجعلهم يطردونك بعد شهر . وبعد ذلك ، لا تتصور اني اصدق نصف ما تقوله لي . انت تكذب كخالع الضرس . فقال بوبي : – إسأل ، وسترى ان كنت لا اقول الحقيقة .

– أسأل من ؟

– امرأة الصيدلي .

فقال دانيال : – سوف أتفادى ذلك جيداً حتى لا اسمع القصص .

ثم اني لا استطيع شيئاً من اجلك .

واحس بالاسترخاء ففكر : « يجب ان اذهب » ولكن ساقيه كانتا

مخدرتين .

وقال بوبي بلهجة مجردة :

– لقد فكرنا ، انا ورالف بأن نشتغل . وكنا نريد ان نعمل

لحسابنا .

– صحيح ؟ وانت آت تطلب مني ان اسلفك مالا لنفقاتك الأولى ؟
احتفظ بهذه القصص لآخرين . كم تريد ؟
فقال بوبي بصوت مبتل : – انك شخص لطيف يا سيد لاليك .
والحق اني كنت اقول لرالف في هذا الصباح بالذات : لألتقِ بالسيد
لاليك ، وسترى انه لن يتركني في المغطس .
وردد دانيال : – كم تريد ؟
واخذ بوبي يتلوى وهو يقول : – يعني ، لو كنت تستطيع ان
تدينني ، أسمع : تدينني ؟ فسوف اردها لك في آخر الشهر الأول .
– كم ؟
– مئة فرنك .
فقال دانيال : – خذ ، هذه خمسون فرنكاً ، وانا اهيك اياها .
ولكن اختفِ الآن !
ووضع بوبي الورقة في جيبه من غير ان يقول كلمة ، وبقي احدهما
تجاه الآخر ، مترددين .
وقال دانيال برخاوة : « اذهب » وكان جسمه كله من القطن .
فقال بوبي : « شكراً يا سيد لاليك » وخطا خطوة زائفة ، ثم
عاد على اعقابه ، واستطرد يقول :
– اذا اردت احياناً ان تتحدث الي او الى رالف ، فنحن نسكن
في الجوار ، ٦ شارع الاورس ، الطابق السابع . وانت مخطيء في حق
رالف ، فهو ، لو كنت تعلم ، يحبك كثيراً .
– إذذهب .
فابتعد بوبي متراجعاً ، وهو ما يزال يبتسم ، ثم استدار على نفسه
ومضى . واقترب دانيال من الآلة الرافعة ونظر اليها . وكان الى جانب
الكوداك والمصباح الكهربائي نظارة مزدوجة لم يلاحظها من قبل قط .
وادخل قطعة من عشرين فلساً في الشق وادار الأزرار كيفما اتفق ،

فاسقطت الآلة ملاقطها على سرير الملبس وأخذت تقشره بصورة غريبة.
والتقط دانيال خمس ملابس او ستاً في جوف يده وأكلها .

كانت الشمس تعلق بعض الذهب على البنايات الكبيرة السوداء ،
وكانت السماء ملامى بالذهب ولكن ظلاً مائعاً عذباً كان يصعد من
الرصيف ، وكان الناس يبتسمون لمداعبات الظل . وكان دانيال على
عطش جهنمي ، ولكنه لم يكن يريد ان يشرب : مُتْ ! مُتْ
عطشاً ! وفكر : « مهها يكن من امر ، فاني لم افعل شيئاً سيئاً . »
ولكن ذلك كان اسوأ : لقد استسلم للشر يلامسه ، وكان قد سمح
لنفسه بكل شيء ، الا ارواء الغليل ، بل هو لم يجرؤ حتى على ارواء
الغليل . وها هو ذا الآن يحمل هذا الشر في نفسه كدغدغة حية ، من
اعلى جسده حتى اسفله ، لقد كان متنتاً ، وكان لا يزال لديه بعد
ذلك المذاق الأصفر في عينيه ، كانت عيناه تجعلان كل شيء اصفر .
لقد كان افضل لو قتل نفسه لذةً وقتل الشر في نفسه . صحيح ان هذا
الشر كان يولد دائماً من جديد . والتفت فجأة وهو يفكر : « انه
جدير بان يتبعني ليرى اين اسكن ، واني اود لو يتبعني حتى اركله
ركلة شديدة في وسط الشارع ! » ولكن بوبي لم يكن ليظهر . لقد
ربح الآن نهاره ، فعاد الى المنزل . منزل رالف ، ٦ شارع الاورس .
وانتفض دانيال : « ليتني استطيع ان انسى هذا العنوان ! ليته يتأتى
لي ان انسى هذا العنوان . »

وكان الناس يثرثرون حوله ، آمنين مع انفسهم . وقال رجل لزوجته :
« هيه ! ولكن هذا يرجع عهده الى ما قبل الحرب . عام ١٩١٢ .
لا ١٩١٣ . كنت ما ازال لدى بول لو كاس . » السلام . سلام
الشجعان ، الشرفاء ، ذوي الارادة الصادقة . ولماذا تكون ارادتهم هي
الصادقة ، لا ارادتي ؟ لم يكن في اليد حيلة ، فكذلك كانت الامور .
شيء ما في هذه السماء ، في هذا النور ، في هذه الطبيعة ، قد قررت

ذلك كذلك . وكانوا يعرفون هذا، يعرفون انهم كانوا على حق، وان الله ، لو كان موجوداً ، لكان في جانبهم. ونظر دانيال الى وجوههم: كم كانوا قساةً ، بالرغم من استسلامهم . وكان حسبهم اشارة حتى يرتعوا عليه ويمزقوه . وستكون السماء والنور والأشجار والطبيعة كلها على وفاق معه ، كشأنها دائماً : فقد كان دانيال انساناً ذا ارادة سيئة . وكان ثمة بواب على عتبة بابه ، سمين ممتقع ، ذوكتفين منبسطين ؛ يستنشق الهواء . ورآه دانيال من بعيد ، ففكر : هوذا « الخير » . وكان البواب جالساً على كرسي ويداها على بطنه ، كأنه بوذا ، ينظر إلى الناس يمرون ، ويقرهم بين لحظة واخرى بايماءة من رأسه . وفكر دانيال في حسد : « لو كنت هذا الشخص ! » لا بد انه كان قلباً فاضلاً ، والى جانب ذلك ، شديد الحساسية بالقوى الطبيعية الكبرى ، الحرارة والبرد والنور والرطوبة . وتوقف دانيال : لقد سحرته هذه الجفون الطويلة البليدة ، وهذا الخبث المتكلف على خديعة الممثلتين . انه يتوحش ويخجل حتى لا يكون بعد الا هذا ، حتى لا يبقى في رأسه الا عجينة بيضاء مع عطر يسير يشبه عطر معجون الحلاقة . وفكر : « انه ينام الليل بطوله » . ولم يكن يدري بعد ان كانت به رغبة في قتله ، أم في التسلل الى دفء هذه الروح المنظمة .

ورفع الرجل السمين رأسه ، فاستعاد دانيال سيره : « ان بوسعي ان اؤمل دائماً ، اذا استمرت هذه الحياة التي اسوقها ، بأن اصبح في اقرب وقت ممكن بليد الذهن ، ضعيف الادراك . »

ألقى نظرة استياء الى محفظته : لم يكن يجب ان يحملها في ذراعه ، فان ذلك كان يعطيه هيئة المحامي ، ولكن استيائه سرعان ما تلاشى ، لأنه تذكر انه لم يحملها من غير قصد ؛ بل انها ستكون مفيدة له الى حد بعيد . ولم يكن يخفي عن نفسه انه يتعرض للمخاطر ، ولكنه كان هادئاً بارداً متعشاً بكل بساطة . « اذا وصلت طرف الرصيف في ثلاث

عشرة خطوة ...» وخطا ثلاث عشرة خطوة وتوقف جامداً على طرف الرصيف ، ولكن الخطوة الاخيرة كانت اوسع من سائر الخطى بوضوح ، اذ انه كان يفسح كأنه خبير بالمسافة : « والحق انه ليس لذلك اية أهمية ، فالقضية على كل حال في المحفظة . » وما كان لذلك ان يخطيء ، فانه امرٌ علميٌ ، بل ان المرء ليتساءل كيف لم يخطر لأحد ان يفكر من قبل . وفكر في قسوة : « ان الأمر هو ان السارقين اغبياء . » وعبر الرصيف ووضّح فكرته : « فقد كان عليهم منذ زمن طويل ان ينظّموا انفسهم في نقابة ، كالشعوذين . » جمعيةٌ لتطبيق الاساليب التكنيكية تطبيقاً مشتركاً ولاستغلالها ، ذلك ما كان ينقصهم . على ان يكون لهم مقر اجتماعي ، ورتبة شرف ، وتقاليد ومكتبة . وآلة للسينما ايضاً ، وافلام تفكك ببطء الحركات الصعبة . وكل اتقان جديد يُصور ، وتُسجل النظرية على اسطوانات وتحمل اسم مخترعها ؛ وكل شيء يُصنّف في فئة ؛ فيكون هناك مثلاً سرقة الاشياء المعروفة بالطريقة ذات الرقم ١٦٧٣ او بطريقة «سرغين» المسماة ايضاً بيضة كريستوف كولومب (لأنها سهلة جداً ولكن يجب ايجادها) وان بوريس مستعدٌ لتصوير فيلم صغير توضيحي . وفكّر : « آه ! وبعد ذلك دروس مجانية عن علم نفس السرقة ، فهذا امرٌ لا بد منه . » وكانت طريقته تعتمد كل الاعتماد على علم النفس . ونظر برضى الى مقهى صغير ذي طابق واحد ، ولونه اصفر ، ولاحظ فجأة انه كان في وسط جادة اورليان . وكان غريباً ان يبدو الناس على مثل هذا اللطف والقرب من القلب ، في جادة اورليان ، بين السابعة والسابعة والنصف مساء . ولا شك ان للنور أثراً كبيراً في الموضوع ، اذ كان « شاشاً » أحمر رائعاً ، وكان لطيفاً ان يوجد المرء في آخر باريس بالقرب من باب ، والشوارع تجري تحت قدميه نحو وسط المدينة التجارية العتيق ، نحو الاسواق ، نحو ازقة حيّ سانت انطوان المظلمة ،

حيث يشعر بأنه منغمر في منفى المساء والضواحي ، ذلك المنفى الديني الرقيق . لقد كان الناس يبدوون وكأنهم خرجوا الى الشارع ليكونوا معاً ، فهم لا يغضبون حين يُدفعون ، بل يمكن الظن بأن هذا يسرهم . ثم انهم ينظرون الى الواجهات باعجاب بريء مجرد تماماً . وفي جادة سان ميشال ينظر الناس ايضاً الى الواجهات ، ولكن بنيتة الشراء . وصمّم بوريس في حاسة « ساجيء الى هنا كل مساء » . وفي الصيف القادم ، سيستأجر غرفة في احد هذه البيوت ذات الطوابق الثلاثة التي كانت تبدو كأنها توائم وتذكر بثورة ٤٨ . ولكن اذا كانت النوافذ ضيقة الى هذا الحد ، فاني اتساءل كيف كانت النساء تعمل لإخراج الفروش والقائنها على الجنود . وكانت النوافذ محاطة كلها بسواد الدخان فكأنما لحستها نيران حريق ؛ ولم يكن هذا منظرأً حزيناً ، فان هذه الواجهات الكالحة المثقوبة بثقوب صغيرة سوداء تشبه فرجات سماء عاصفة تحت السماء الزرقاء ، واني انظر الى النوافذ ، ولو كان بوسعي ان اصعد الى سقف هذا المقهى ، لرأيت الخزائن ذات المرايا وسط غرف تشبه بحيرات عمودية ؛ والجمع يمرّ عبر جسمي ، وافكر في حراس بلدي ، وفي ابواب « باليه - رويال » المذهبة ، يوم ١٤ تموز ، ولست ادري لماذا افكر في ذلك : وفكر فجأة : « ماذا اتى يفعل عند ماتيو ذلك الشيوعي ؟ » لم يكن بوريس يحب الشيوعيين ، فهم أرصن مما ينبغي . ولا سيما برونيه ، فكأنه البسابة ، وفكر بوريس مقهقهاً « لقد طردني ... الحيوان ، طردني » ثم أخذته فجأة الرغبة في ان يكون شريراً ، كأنها ريح سموم صغيرة في رأسه : « لعنل ماتيو لاحظ انه منخدع على طول الخط ، ففكر في دخول الحزب الشيوعي . » وتسلى لحظة في تعداد العواقب التي لا تحصى لمثل هذا الانصواء . ولكنه شعر فجأة بالخوف فتوقّف . ان ماتيو لم ينخدع بكل تأكيد ، فان هذا سيكون خطيراً جداً ، الآن وقد التزم بوريس :

ففي صف الفلسفة احسن "بود" غريب للشيعوية ، ولكن ماتيو صرفه عنها . وهو يشرح له ما هي الحرية . وكان بوريس قد فهم على الفور : يجب على المرء ان يفعل كل ما يريد ، وان يفكر بكل ما يبدو التفكير فيه حسناً ، والا يكون مسؤولاً الا امام نفسه ، والا يكف لحظة عن وضع كل ما يفكر به ، وكل الناس ، موضع الامتحان . وكان بوريس قد بنى حياته على هذا ، وكان حراً بصورة دقيقة : وكان خصوصاً يضع جميع الناس موضع الامتحان ، باستثناء ماتيو وايفيش ؛ فقد كان لا جدوى من وضعهما كذلك ، بالنظر الى انهما كانا كاملين . وأما الحرية ، فلم يكن كذلك حسناً ان يتساءل المرء عنها ، لأنه يكف آنذاك عن ان يكون حراً . وحك بوريس رأسه في تملل ، وتساءل من اين تأتيه هذه الدفعات التي كانت تأخذه بين الفينة والفينة ؟ لتحطيم كل شيء وفكر في دهشة لذيدة : « ربما كنت في حقيقي ذات مزاج قلق . » لأن ماتيو ، اذا نظرنا الى الامور ببرودة ، لم يكن منخدعاً ، فقد كان هذا امرأ مستحيلاً : لم يكن ماتيو ذلك الشخص الذي ينخدع . واغبط بوريس ، وجعل يؤرجح محفظته بجذل في ذراعه . وتساءل ايضاً اذا كان اخلاقياً ان يكون المرء ذا شخصية قلقة ، فرأى لذلك حسنات وسيئات ، ولكنه امتنع عن ان يذهب بتقديراته الى ابعد من هذا ؛ سوف يستشير في ذلك ماتيو . كان بوريس يجسد شائناً ان يفكر شخص في مثل سنه تفكيراً مستقلاً بنفسه . وقد سبق له ان رأى كثيراً من هؤلاء الحبياء المزيفين في السوربون ، الذين كانت لهم دائماً نظرية خاصة محفوظة ، وكان ينتهي بهم الامر عادة الى الافلاس ، بطريقة او بأخرى ، وكانت نظرياتهم من غير هذا بشعة ، مقرنة . وكان بوريس يستفزع كل ما يدعو الى الهزؤ ، ولم يكن يريد ان يفلس ، ويؤثر ان يصمت ويعتبر رأساً فارغاً ، فقد كان هذا أقل تكديراً . سيكون الامر فيما بعد ، طبعاً ، شيئاً آخر ؛ اما الآن ،

فهو يلجأ الى ماتيو الذي كانت تلك مهمته . ثم انه كان يغتبط دائماً اذ يرى ماتيو يأخذ في التفكير : كان ماتيو يحمر ، وينظر الى اصابعه ، ويتلعم قليلاً ، ولكن ذلك كان عملاً طيباً وأنيقاً . وكانت ترد لبوريس ، بين حين وآخر ، فكرة صغيرة بالرغم منه ، فكان يجهد حتى لا يلاحظ ماتيو ذلك ، ولكن اذا حدث ان لاحظ هذا اللثيم ذلك قال له : « ان في رأسك شيئاً » ثم يرهقه بالأسئلة . ويقع بوريس في العذاب ، ويحاول مئة مرة ان يغير وجهة الحديث ، ولكن ماتيو كان عنيداً كالقمل ، وينتهي الامر ببوريس الى ان يلفظ الفكرة وينظر الى ما بين قدميه ، فيكون اسوأ ما في الامر ان ماتيو كان آنذاك يوسعه احتقاراً ويقول له بعد ذلك : « ان هذا سخيف جداً ، وانت تفكر كالحمقى . » كما لو ان بوريس ادعى انه عثر على فكرة عبقرية . وردد بوريس مقهقها « اللثيم ! » وتوقف امام مرآة صيدلية جميلة حمراء وتأمل صورته في غير ما تحيّر . وفكر « انسي انسان متواضع » وألقى نفسه قريباً الى القلب . وصعد الى الميزان الآلي ووزن نفسه ليرى اذا كان قد سمن منذ عشية الامس . وأضاءت كرة حمراء وأحدثت الآلة حركات متحشجة ، ثم تلقى بوريس تذكرة من الكرتون : سبعة وخمسين كيلو وخمسمئة . وأخذته لحظة رعب ، وفكر : « لقد زدت خمسمئة غرام » ولكنه لاحظ بسرور انه كان ما يزال يحصل المحفظة في يده . ونزل عن الميزان ، واستأنف سيره . سبعة وخمسون كيلو بالنسبة لطول متر وثلاثة وسبعين : هذا امر طيب . وكان مزاجه رقيقاً جداً ، وكان يشعر انه مخملي برمته في داخله . وفي الخارج ، كانت ثمة تلك الكتابة الدقيقة لذلك اليوم المسن الذي كان يسود رويداً حوله ويلامسه بضوئه الاحمر وعطوره الملائى بالأسف . ذلك النهار ، ذلك البحر الاستوائي الذي كان ينسحب مخلفاً لياه وحده تحت سماء مصفرة ، كان هو ايضاً مرحلة ، مرحلة صغيرة . إن الليل قادم ،

وسوف يذهب الى « سومطرا » وسيرى ماتيو ، وسيرى ايفيش وسيرقص .
وعما قليل ، عند الرزة التي تفصل بين النهار والليل ، ستكون تلك
السرقه الرائعة. وانتصب وحث الخطي : ينبغي ان يكون متنبهاً كل
التنبه ، ، بسبب هؤلاء الاشخاص الذين لا يبدو عليهم شيء ، بينما
يقلبون صفحات الكتب بجد ، وليسوا هم الا من رجال التحري .
وكانت مكتبة « غاربور » تستخدم ستة منهم ، وكان بوريس قد حصل
على هذه المعلومات من « بيكار » الذي امتهن هذه المهنة ثلاثة ايام
حين سقط في شهادة علم الارض ، فاضطر الى ذلك بعد ان قطع عنه
ذووه المؤن ؛ ولكنه ما لبث ان ترك هذه المهنة مشمئزاً . انه لم يكن
عليه فحسب ان يتجسس على الزبائن كالديك المتذلل ، بل لقد أُعطي
الأوامر بأن يترصد السدج ، لاسبى النظارات مثلاً ، الذين كانوا
يقتربون بحياء من مكان العرض ، وان يثب عليهم فجأة متهماً إياهم
بأنهم كانوا يريدون ان يخلتسوا كتاباً ويخفوه في جيوبهم . وكان المساكين
ينحلون بطبيعة الحال ، فكانوا يقتادونهم الى جوف ممر طويل في مكتب
صغير مظلم ، حيث كانوا يسلبونهم مئة فرنك تحت التهديد بالملاحقة
القانونية . وأحس بوريس بأنه ثمل : سوف ينتقم لهم جميعاً ؛ فانهم
لن يأخذوه ، هو ؛ وفكر : « ان معظم الناس يسيئون الدفاع عن
انفسهم ؛ فن مئة شخص يسرقون ، ثمانون يرتجلون ارتجالاً . » اما
هو ، فلم يكن ليرتجل ، صحيح انه لم يكن يعرف كل شيء . ولكنه
ما يعرفه قد درسه دراسة منهجية ، لأنه كان قد فكر دائماً بأن الانسان
الذي يعمل برأسه لا بد ان يملك فوق ذلك مهنة يدوية ليظل على اتصال
بالحقيقة . وحتى الآن ، لم يكن قد افاد اية افادة مادية من مشاريعه :
فليس شيئاً هاماً ان يملك ست عشرة فرشاة اسنان ، وعشرين منفضة
سجاير ، وموصلة ، ومنفخ نار ، وبيضة للرتي . وكانت الصعوبة
التكنيكية هي ما كان يأخذه بعين الاعتبار في كل حالة . فقد كان

افضل ، كما حدث في الاسبوع الماضي ، ان يختلس علبة صغيرة من سوس « البلاكوبيد » تحت نظر الصيدلي ، على ان يسرق محفظة نقود جلدية من حانوت خال . ان فائدة السرقة شيء معنوي كليا ؛ ومن هذه الناحية ، كان بوريس على وفاق تام مع الاسبرطيين القدامى ، فهذه عملية تقشف . ثم انه كانت هناك لحظة متعة ، هي حين يقول المرء لنفسه : سأعدّ حتى الخمسة ، وعند الخمسة يجب ان تكون فرشاة الأسنان في جيبي ؛ انه يشعر بانقباض في حلقه ، وباحساس هائل من الصفاء والقوة . وابتسم : سوف يدخل على مبادئه استثناء ؛ فللمرة الاولى ، ستكون الفائدة هي دافع السرقة ؛ فبعد نصف ساعة على الاغلب ، سيمتلك هذه الجوهرة ، هذا الكنز الذي لا غنى عنه : « تيزوروس هذا ! » قال في نفسه بصوت منخفض لأنه كان يجب كلمة « تيزوروس » التي كانت تذكره بالقرون الوسطى ، وأبيلارد ، وبفارست وأحزمة الطهارة التي كانت تُرى في متحف « كلوني » . « سوف يكون لي ، فأستطيع ان أتصفحه كل ساعة من النهار ، بينما كان ، حتى هذه اللحظة ، مضطراً الى تقليب اوراقه حيث هو معروض ، وبسرعة ، فضلاً عن ان الصفحات لم تكن مقصومة ؛ فلم يستطع غالباً ان يقتبس الا معلومات ناقصة . سوف يضعه ، في هذا المساء بالذات ، على طاولة سريره ، وحين يستيقظ في اليوم التالي ، ستكون نظراته الاولى له ؛ وقال في انزعاج : « آه ! ، كلا ! سأنام لدى لولا هذا المساء . » مهما يكن من امر ، فسيحمله الى مكتبة السوربون ، وميقطع بين فترة وأخرى عمل المراجعة ، ليلقي عليه نظرة عجلى تسليه : وتعاهد مع نفسه ان يحفظ عبارة او ربما عبارتين كل يوم ، وسيساوي ذلك في ستة اشهر ستة في ثلاثة ثمانية عشر مضروبة باثنين : ثلاثمائة وستين ، فاذا اضاف اليها الخمسمئة او الستمئة التي يعرفها ، اصبح ذلك في حدود الالف ، وهذا ما كان يسمى معرفة متوسطة

طيبة ، واجتاز جادة راسباي وسلك شارع دانفير - روشيرو بشيء من الاستياء . كان شارع دانفير - روشيرو يضرجه كثيراً ، وربما كان ذلك بسبب اشجار الكستناء ؛ مهما يكن من امر ، فهو مكان اجرد ، باستثناء مصبغة سوداء ذات ستائر حمراء بلون الدم تتدلى بصورة مزرية كخصلتين مسلوختين . والقى بوريس نظرة ود الى المصبغة ، حين ألم بها ، ثم انغمس في صمت الشارع الاشقر المميز . شارع ؟ انه لم يكن الا ثقباً ذا بيوت على الجانبين . وفكر بوريس : « نعم ، ولكن المرو يمر من تحته » واستمد من هذه الفكرة بعض العزاء ، وتمثل لدقيقة او دقيقتين انه كان يسير على قشرة رقيقة من الزيت لعلها ستتهار . وقال بوريس في نفسه : « يجب ان اروي هذا الماتيو ، فسوف يسيل له لعابه ! » لا . وصعد الدم فجأة الى وجهه ، انه لن يروي شيئاً على الاطلاق . بلى ، سيروي ذلك لإيفيش : لقد كانت تفهمه ، واذا كانت هي نفسها لا تسرق ، فلأنها لم تكن موهوبة . وسيروي القصة ايضاً للولا ، ليجعلها تفرغر من الضحك . اما ماتيو ، فلم يكن صريحاً في موضوع هذه السرقات . كان يقهقه برفق حين كان بوريس يتحدث عنها ، ولكن بوريس لم يكن على ثقة بأنه سيقهرها . كان يتساءل مثلاً عن المآخذ التي يمكن لماتيو ان يأخذها عليه . ان ذلك كان يثير جنون لولا ، ولكن هذا كان طبيعياً ، فهي لم تكن تستطيع ان تفهم بعض الدقائق ، لا سيما وانها كانت بخيلة بعض الشيء . كانت تقول له : « لن تتورع عن سرقة امك ، ولا بد ان تسرقني يوماً . » وكان يجب : « هيه ! هيه ! لو اتيح لي ذلك لما قلت لا ! » وبالطبع ، لم يكن جاداً في ذلك : ان المرء لا يسرق اصدقاءه الصميمين ، فان هذا ايسر من ان يعمل ، وانما كان يجب بهذا الجواب بدافع الانزعاج : لقد كان يكره هذه الطريقة التي تلجأ اليها لولا لترد كل شيء الى نفسها . اما ماتيو ... أجل ماتيو ، فلم يكن يفهم من موقفه شيء .

ما كان عساه ان يأخذ على السرقة ، ما دامت تنفّذ وفق القواعد ؟
 فقد تبرم بوريس بضع لحظات من توبيخ ماتيو الصامت ، ثم هز رأسه
 وقال في نفسه : « ان هذا ظريف ! » فبعد خمس سنوات ، اوسيع ،
 ستكون له افكاره هو ، فتبدو له افكار ماتيو مثيرة للعطف ومستنة ،
 وسيكون آنذاك حَكَمَ نفسه : « ما يدريني اننا سنتقابل بعد ؟ » ولم
 تكن لدى بوريس اية رغبة في ان يأتي ذلك اليوم ، وكان يلقي نفسه
 سعيداً للغاية ، ولكنه كان عاقلاً ، وكان يدري انها ضرورة : كان
 لا بد من ان يتغير ، وان يخلّف وراءه ركاباً من الاشياء والناس ،
 وهو لم يجعل بعد ذلك . لقد كان ماتيو مرحة ، شأنه شأن لولا ،
 وفي اللحظات التي كان بوريس يكنّ له فيها من الاعجاب اعظم الدرجات ،
 كان يجد ان في ذلك الاعجاب شيئاً مؤقتاً يتسح له ان يكون مولعاً بلا
 ذلك . لقد كان ماتيو افضل ما يمكن ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتغير
 في الوقت نفسه الذي يتغير فيه بوريس ، بل لم يكن يستطيع ان يتغير
 قط ، لأنه كان اكمل من ان يتغير . وأظلمت نفس بوريس لهذه
 الافكار فسره ان يصل الى ساحة ادمون رويستان : كان يروق له دائماً
 ان يجتازها بسبب الاوتوبيسات التي كانت تقفز اليك بثقل ، كأنها ،
 أدياك رومية كبيرة ، والتي كان ينبغي تفاديها بالتوّ ، ولم يكن ذلك
 بأكثر من دفع الصدر الى الوراء . « المهم ألا يكونوا قد جاءتهم الفكرة
 بادخال الكتاب اليوم بالذات . » وعند زاوية شارع « مسيو لوبرنس »
 وجادة سان ميشال ، توقف لحظة ؛ كان يريد ان يكبت نفاد صبره ،
 فلم يكن من الحكمة ان يصل محمّر الوجنتين من فرط الامل ، وعيناه
 عينا ذئب . كان من خطته ان يعمل ببرودة . وفرض على نفسه ان
 يظل جامداً امام حانوت بائع للمظلات والسكاكين ، وان ينظر بانتظام
 الى البضائع المعروضة ، واحدة بعد الاخرى ، الى مظلات النساء القصيرة
 الخضراء والحمراء ، والمزينة ، والى المظلات ذات الايدي العاجية التي

كانت تمثل رؤوس كلاب ... كل ذلك كان حزين المنظر حتى ليبعث على البكاء ، وبالإضافة الى هذا ، اوقف بوريس فكره على الاشخاص المسنين الذين كانوا يأتون لشراء هذه الحاجيات . وكان يوشك ان يبلغ حالة تصميم باردة وبلا جدل ، حين رأى فجأة شيئاً عاد فأغرقه في التهليل ، وتعم « سكين » وكانت يده ترتجفان . وكان سكيناً حقيقياً ذا شفرة سميقة وطويلة ، ومحز شديداً ، ويد من قرن اسود ، وكان انيقاً يشبه الهلال ، وكان على الشفرة لطختاً صمداً ، فكأنهما دم . وأن بوريس قائلاً : « اوه ! » وهو يتلوى من الرغبة . وكان السكين مفتوحاً ، موضوعاً على قطعة خشب مبرنقة : بين مظلتين ، ونظر بوريس اليه طويلاً ، ففقد العالم من حوله الوانه ، وكل ما لم يكن يريق هذه الشفرة الباردة ، فقد في عينيه قيمته ، وكان يريد ان يتخلى عن كل شيء ، فيدخل الحانوت ، ويشترى السكين ويفر الى اي مكان ، كأنه سارق ، وهو يحمل غنيمة . وقال في نفسه : « سيعلمني » بيكار « على قذفه . » ولكن حس واجباته الدقيق ما لبث ان تغلب : « سأشتريه بعد حين ، بعد حين لأكافيء نفسي اذا نجحت في ضربتي ! »

وكانت مكتبة « غاربوز » تقوم عند ملتقى شارع فوجيرار وجادة سان ميشال ، وكان لها مدخل من كل شارع ، وهذا ما كان يخدم مقاصد بوريس . وكانت قد وضعت امام الحانوت ست طاوولات طويلة محملة بالكتب التي كان معظمها كتباً مستعملة . ولاحظ بوريس من طرف عينه رجلاً ذا شارب احمر كان غالباً ما يجول في تلك النواحي ، وكان يرتاب في ان يكون « محجوناً » ، ثم اقترب من الطاولة الثالثة ، وكان الكتاب هناك ، ضخماً ، بل من الضخامة بحيث فقد بوريس شجاعته ، سبعمئة صفحة من الحجم الكبير ، اوراق مطبوعة بحرف نافر ، سميقة كالاصبع الصغير . وقال في نفسه بشيء من الارهاق :

« يجب ان أُدخل هذا في حقيقتي » ولكن كان حسبه ان ينظر الى العنوان المذهب الذي كان يتمتع بعدوبة على الغلاف ليحس بأن شجاعته تولد من جديد : « قاموس تاريخي واشتقائي للغة السوق واللغات العامية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن المعاصر . » وردد بوريس في نشوة : « تاريخي ! » ولمس بطرف اصبعه الغلاف في حركة اليفسة ورقيقة ليستعيد اتصاله به ، وفكر في اعجاب : « ليس هذا كتاباً ولكنه قطعة اثار . ولا ريب في ان الرجل ذا الشارب كان قد التفت اليه يترصده من ظهره . وكان ينبغي ان يبدأ التمثيلية فيقلب الاوراق ويتخذ مظهره الشارد المتردد الذي يستسلم آخر الأمر . وفتح بوريس القاموس كيفما اتفق وقرأ احد التعريفات . ولم تكن الصفحات التالية مقطوعة . فترك بوريس القراءة وأخذ يضحك وحده وهو يردد عبارة قراها ، ثم استعاد جدّه فجأة واخذ يعد : « واحد ! اثنان ! ثلاثة ! اربعة ! » بينما كانت فرحة قاسية ونقية تزيد خفق صدره .

وأحس بيد تخطّ على كتفه ، ففكر : « لقد أُخذت ، ولكنهم تصرفوا بأسرع مما ينبغي . انهم لا يستطيعون ان يشبّثوا شيئاً ضدي . » والتفت ببطء ورباطة . وكان الرجل دانيال سورينو ، احد اصدقاء ماتيو . وكان بوريس قد رآه مرتين او ثلاثاً ، وكان يجده رائعاً ، فقد كان مثلاً يبدو قاسياً . وقال سورينو :

— مرحباً ، ما الذي تقرأه ؟ يبدو عليك انك مسحور .

لم يكن يبدو قاسياً على الاطلاق ، ولكن يجب الاحتراس : بل هو في الحقيقة يبدو لطيفاً اكثر مما ينبغي ، فلا بد انه كان يعد ضربة قدره . ثم انه كان قد فاجأ بوريس وهو يتصفح هذا القاموس السوقي . فكأنه تفصّد ذلك ، ولا بد من ان يصل هذا الخبر الى مسمع ماتيو الذي سيسخر منه بصخب . وأجاب بلهجة متضايقة :

— لقد توقفت ، بينما انا مارّ من هنا .

وابتسم سورينو ، وتناول المجلد بكلتا يديه ورفعه حتى عينيه ، ولا يد انه كان حسير النظر بعض الشيء ، وأعجب بوريس بما كان في حركته من يسر : فان الذين كانوا يتصفحون الكتب عادة يحرصون على ابقائها فوق الطاولة ، خوفاً من رجال التحري الخصوصيين . ولكن كان يديهياً ان سورينو كان يعتقد كل شي مسموحاً به . وتمتم بوريس بصوت مخنوق وهو يصطنع اللامبالاة :

- انه كتاب يشر الفضول ...

فلم يُجب سورينو ، وكان يبدو مستغرقاً في القراءة ، فاغتاظ بوريس وأخضعه لامتحان قاس . ولكن كان لا بد له من ان يعترف ، بدافع من شرف التفكير ، بأن سورينو كان انيقاً الى حد الكمال . والحق انه كان في هذه البذلة من التويد الوردي تقريباً ، وفي هذا القميص من الكتان ، وفي هذه الربطة الصفراء ، جرة محسوبة تصادم بوريس قليلاً . كان بوريس يحب الأناقة الساذجة والمهملة بعض الشيء . ومهما يكن من امر ، فان المجموع كان غير قابل للانتقاد ، وبالرغم من انه طري كالزبدة الطازجة . وانفجر سورينو ضاحكاً ؛ وكانت له ضحكة حارة رائقة ، ثم ان بوريس وجده قريباً الى القلب لأنه كان يفتح فمه على سعته وهو يضحك . وقال سورينو :

- « ان يكون من الرجل ! » ان يكون من الرجل ! هذه لقطة ، سأفقد منها في المناسبات ! « ان يكون من الرجل ، اي ان يكون لوطياً » .

ووضع المجلد على الطاولة وسأل :

- هل انت من الرجل ، يا سرغين ؟

فقال بوريس ، منقطع النفس : - اني ...

قال سورينو : - لا يحمر وجهك (وأحس بوريس انه اصبح مقرمزي اللون) وثق بأن هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط . اني

أعرف من عساهم يكونون « من الرجل » . (لا شك في ان العبارة كانت تروق له كثيراً) - فان لحركاتهم استدارة رخية لا تخطئها العين ، اما انت ، فاني ألاحظك منذ فترة فتسحرني حركاتك : انها حية وجميلة ، ولكنها ذات زوايا . فلا بد انك حاذق جداً .

وكان بوريس يصغي الى سورينو بتنبه : فمن المهم دائماً ان تستمع الى من يشرح لك بأي عين يراك . ثم انه كان لسورينو صوت يلد سماعه . فان عينيه مثلاً كانتا مزعجتين : للوهلة الاولى ، يُظن انهما مليتان بالحنان ، ولكن اذا امعنا فيهما النظر ، اكتشفنا فيهما شيئاً قاسياً ، يكاد يكون هوساً . وفكر بوريس : « انه يحاول ان يمزح معي » فتدرع بالحذر . وقد كان بوده لو يسأل سورينو عما كان يعنيه بـ « الحركات ذات الزوايا » ولكنه لم يجرؤ ، وفكر بأن من الافضل التكم بأدنى حد ممكن ، ثم انه كان يحس تحت هذا النظر المليح عدوية غريبة حائرة تولد فيه ، فكانت تأخذه الرغبة في ان يتفرض ويضرب الارض بقدميه ليزيل هذا الدوار من العدوية . ولفت رأسه ، فكانت لحظة صمت شاقه . وفكر بوريس باستسلام : « سوف يعتبرني حيواناً » . وقال سورينو :

- أظن انك تدرس الفلسفة ؟

وكان سعيداً ان يجد حجة لقطع الصمت . ولكن ساعة السوربون في تلك اللحظة دقت دقة فتوقف بوريس ، وقد جلدته الذعر . وفكر في قلق « الثامنة والرابع . اذا لم يذهب فوراً ، فانت الفرصة . » فقد كانت مكتبة « غاربور » تغلق في الثامنة والنصف . ولم يكن يبلو على سورينو اية رغبة في الذهاب . وقال :

- اعترف لك بأنني لا افهم شيئاً في الفلسفة . اما انت ، فلا بد انك تفهم طبعاً ...

فقال بوريس وهو يتمزق : - لا ادري ، افهم قليلاً .

وكان يفكر : لا شك في اني ابدو قليل التهذيب . ولكن لماذا
تراه لا يذهب ؟ والحق ان ماتيو كان قد اخبره بأن سورينو كان يظهر
دائماً في وقت غير مناسب ، فتلك كانت قطعة من طبيعته الشيطانية .
وقال سورينو :

– أتصور انك تحب الفلسفة .

فقال بوريس وقد احس بأنه يحمر للمرة الثانية : – نعم .
وكان يحتقر ان يتحدث عما كان يحب : فذلك كان امراً وقحاً .
وكان لديه شعورٌ بأن سورينو يدرك ذلك ويتقصّد ان يظهر قليل التحفظ .
ونظر اليه سورينو نظرة تنبّه نافذ :
– ولماذا ؟

فقال بوريس : – لا ادري .

وكان هذا صحيحاً : انه لم يكن يدري . ومع ذلك فقد كان يحب
الفلسفة حباً شديداً ، حتى « كانت » . وابتسم سورينو قائلاً :
– على الاقل ، يرى الانسان ان هذا ليس حباً من الذاكرة .
فانتفض بوريس ، وأضاف سورينو بحماسة :

– اني امزح . والواقع اني اجد انك محظوظ . لقد درست انا
الفلسفة كالجميع ، ولكنهم لم يعرفوا ان يجيبوني بها ... واتصور ان
دولارو هو الذي نفرني منها : فهو اذكي من ان يستطيع فهمه . وقد
كنت اطلب منه احياناً بعض الشروح ، ولكن ما كان يبدأ في تقديمها حتى
اكف عن فهم اي شيء ؛ بل كان يخيل الي اني لم اكن افهم بعد
سؤالي !

وجرح بوريس بهذه اللهجة الهازئة ، وارتاب في ان يكون سورينو
راغباً في حمله بصورة غير مباشرة على ان يقول سوءاً عن ماتيو لمجرد
الرغبة في ان ينقل اليه ذلك . واعجبه سورينو ان يكون قاسياً بهذه
الصورة المجانية ، ولكنه ثار وقال بحماسة :

- ان ماتيو يشرح الامور شرحاً جيداً جداً .
فانفجر سورينو ضاحكاً ، وعض بوريس على شفثيه :
- ولكني لا اشك في ذلك لحظة . غير اننا صديقان قديمان جداً ،
وأتصور بأنه يحتفظ بمزاياه التربوية للشبان . فهو يختار عادة تلاميذه من
بين طلابه .

فقال بوريس : - انني لست تلميذه .
فقال دانيال : - لم اكن افكر فيك . فأنت لا تبدو عليك هيئة
التلميذ . وانما كنت افكر في « هورتيغير » ، ذلك الاشقر الطويل
الذي سافر في العام الماضي الى الهند الصينية . ولا بد انك سمعت من
يتكلم عنه : فنذ عامين ، كان شغوفاً به تماماً ، وكان الناس يرونهما
دائماً معاً .

وكان لا بد لبوريس من الاعتراف بأن الضربة قد نجحت ، فازداد
اعجابه بسورينو ، ولكنه ودّ مع ذلك لو يوجه قبضته الى سخنته .
وقال :

- لقد حدثني ماتيو عن ذلك .
وكان يحترق هورتيغير هذا الذي عرفه ماتيو قبله . وكان ماتيو يتخذ
احياناً مظهر الغموض حين كان بوريس يأتي للقائه في « الدوم » وكان
يقول « يجب ان اكتب لهورتيغير » وبعد ذلك ، يظل لحظة طويلة
حالمًا مجتهداً كجندي يكتب الى بلدته ، وكان يرسم دوائر في الهواء فوق
ورقة بيضاء ، بواسطة ريشة قلمه . وكان بوريس ينصرف الى العمل
الى جانبه ، ولكنه كان يحترقه . ولم يكن طبعاً يغار من هورتيغير ،
فقد كان يكنّ له على العكس شفقة ممزوجة بشيء من النفور
(والواقع انه لم يكن يعرف عنه شيئاً ، باستثناء صورة كانت تمثله
كفتى طويل سيء الحظ يرتدي بنطلوناً من الغولف ، وموضوع فلسفي
سخيف الى ابعد حد كان ملقى على طاولة ماتيو) غير انه لم يكن

يريد بأي ثمن ان يعامله ماتيو فيما بعد كما كان يعامل هورتيغير . وقد كان يؤثر ان ينقطع عن رؤية ماتيو اذا تصوره يقول ذات يوم بلهجة اهتمام وضجر امام فيلسوف شاب : « آه ا عليّ الآن ان اكتب لسرعين ا » . كان حسبه بأن يقبل بالألا يكون ماتيو إلا مرحلة في حياته ، وكان هذا شاقاً بحد ذاته - ولكنه لم يكن يطيق ان يكون مرحلة في حياة ماتيو .

وكان يبدو على سورينو انه عازم على الاقامة هناك . وكان يستند الى الطاولة بكلتا يديه ، في وضع لامبال ومستريح ، وأضاف :
- آسف كثيراً بأن اكون جاهلاً في هذا الميدان . فان الذين درسوا الفيلسفة قد أفادوا منها ، على ما يبدو ، مباحث كثيرة .

فلم يجب بوريس ، وقال سورينو :

- كنت بحاجة الى مدرب . الى شخص مثلك : شخص ليس بارعاً أكثر مما ينبغي ، ولكنه في الوقت نفسه جاد .
وضحك كأنما مرت برأسه فكرة زائفة :

- قل لي .. سيكون مسلياً ان آخذ دروساً منك ...

فنظر اليه بوريس بحذر . لا بد ان هذا شرك . انه لم يكن يتصور نفسه اطلاقاً وهو يعطي دروساً لسورينو الذي كان ولا بد اذكي منه والذي لا شك في انه سيطرح عليه طائفة من الاسئلة المربكة ، وعند ذلك سيختنق من الخجل . وفكر في استسلام بارد بأن الساعة لا بد ان تكون قد بلغت الثامنة والخامسة والعشرين . وكان سورينو ما يزال يبتسم ، وكان يبدو عليه انه مسحورٌ بفكرته ، ولكن كانت عيناه غريبتين . وكان بوريس يجد مشقة في النظر اليه مواجهة . وقال سورينو :
- انني كسول جداً ، لو تعلم . فيجب ان تعاملني بشيء من السلطة ...

ولم يستطع بوريس ان يمتنع عن الضحك وصارحه بصدق :

– احسب انني لن احسن ذلك على الاطلاق ..
قال سورينو : – بلى ، انني مقتنع بأنك ستستطيع .
فقال بوريس : – انك سوف تخيفني .
وهز سورينو كتفيه وقال :

– اسمع ! هل عندك دقيقة ؟ ان بوسعنا ان نأخذ قدهاً في الحانة
المواجهة « داركور » فنتحدث عن مشروعنا .
« مشروعنا » ... وكان بوريس يتابع بعينيه في قلق احد عمال
المكتبة الذي بدأ يراكم الكتب . وكان يود لو يتبع سورينو الى « داركور »
فقد كان شخصاً غريباً ، فضلاً عن انه كان جميلاً ، ثم انه كان
مسلماً ان يتحدث معه ، لأن على المرء ان يكون دقيقاً وحذراً ، اذ يشعر
طوال الوقت بأنه في خطر . وتخبّط لحظة ، ولكن حس الواجب تغلب
عليه فقال بصوت كان الأسى يقطعه :
– الواقع اني مستعجل بعض الشيء .
فتغير وجه سورينو وقال :

– حسناً ، لا اريد ان ازعجك . اعذرني بأن اكون قد امسكتك
هذا الوقت كله . هيا ، الى اللقاء ، وبلغ ماتيو سلامي .
وانفتل فجأة ومضى ؛ وفكر بوريس في ضيق : « اتراني قد
جرحته ؟ » وتبع بنظر قلق كتفي سورينو العريضتين ، وكان يصعد
جادة سان ميشال ، ثم فكر فجأة بأنه لم يكن امامه بعد دقيقة واحدة
يضيعها .

« واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . خمسة . »
وعند الخمسة ، سحب المجلد خفية بيده اليمنى وتوجه نحو المكتبة
من غير ان يحاول اخفاء نفسه .

خليط من الكلمات تفرّ في كل مكان ؛ كانت الكلمات تفرّ ؛ وكان

دانيال يفرّ جسمًا طويلًا هزيلًا ، مقوّسًا بعض الشيء ، ذا عينين جوزيتين ، ووجه قاسٍ فاتك ، انه راهب صغير ، راهب روسي ، اليوشا . خطوات ، وكلمات ؛ كانت الخطوات ترن حتى في داخل رأسه ؛ ان لا يكون الا هذه ، الا هذه الكلمات ، فذلك خير من الصمت : السخيف الصغير ، لقد اصبت في الحكم عليه . لقد منعتني اهلي من ان اتحدث الى الاشخاص الذين لا اعرفهم ، اتريدين حبة مابيس يا آنستي الصغيرة ، ان اهلي منعوني ... ها ! ليس هو الا محًا صغيرًا ، لا ادري ، لا ادري ، هل تحب الفاسفة ، لا ادري .. عجباً ! وكيف تراه يلدي ، ذلك الحمل المسكين ! ان ماتيو ينصب نفسه سلطاناً في صفته ، وقد رمى له بالمنديل ، وقاده الى المقهى فالتهم الصغير كل شيء ، القهوة بالكريم والنظريات ، كأنما يلتهم خبز القربان ؛ هيا ، هيا ، اذهب فتتزه ، لقد كان هناك ، متكلف الوقار متحدثاً كحمار محمّل بالذخائر . اوه ! لقد فهمت ، انني لم اكن اريد ان امد يدي اليك ، فأنا لست جديراً بذلك ؛ وهذه النظرة التي رماني بها حين قلت له انني لا افهم الفلسفة ! انه لم يجهد نفسه حتى لأن يكون مؤدباً ، في النهاية . اوه ! انا على يقين - وقد شعرت بذلك منذ عهد « هورتيغير » - بأنه يحذرهم مني X. وقال دانيال وهو يضحك راضياً : « هذا حسن جداً ، ان هذا درس ممتاز ، وبتكاليف قليلة ، انني مسرور لأنه صرفني عنه ؛ فلو جئنت واهتممت قليلاً به وحدته في ثقة ، اذن لذهب يطلع ماتيو علي ذلك كله ، ولتحدثنا في هذا بصخب » وتوقف توقفاً فجائياً ، حتى ان سيدة كانت تسير خلفه صدمته في ظهره وأرسلت صيحة صغيرة . « لقد حدثه عني ! » وكانت هذه فكرة - لا - تحتل ، اذ هي تخلف عندك موجة من عرق الغضب ؛ وكان ينبغي تصورهما معاً ، سعيدين بأن يكونا معاً ، الصغير فاغر الفم طبعاً ، يباعد ما بين عينيه ويرهف اذنيه ، حتى لا يفقد

شيئاً من المنّ الآلهي ، في مقهى ما من مقاهي مونتارتر ، احدى تلك
المحاشش القذرة التي تتصاعد منها رائحة الثياب الوسخة ... « لا بد
ان ماتيو كان ينظر اليه من تحت ، نظرة عميقة ، ثم يشرح له شخصيتي ،
مما يُميت من الضحك » وردد دانيال : « مما يميت من الضحك » ثم
غرز اظافره في باطن كفه . لقد حكما عليه من خلف ظهره ، فخللاه
وشرّحاه ، وكان بلا سلاح ، وكان لا يشعر بشيء ، وكان ممكناً
ان يوجد ذلك اليوم كسائر الايام ، كما لو انه لم يكن شيئاً آخر غير
شفافية لا ذاكرة لها ولا عاقبة ، كما لو انه لم يكن بالنسبة للآخرين
جسماً سمياً بغض الشيء ذاخدين يتهدلان ، وسجال شرقي يذبل ؛ وبسمة
قاسية ، ومن يدري ؟ ولكن لا ، لا احد . اذاً كان بوبي يعرف ،
وزالف يعرف ، فان ماتيو لم يكن يعرف . ان بوبي اريبان ، وليس
هو ضميراً واعياً ، انه يسكن رقم ٦ شارع الاورس ، مع رالف ،
ها ! ليتنا نستطيع ان نعيش بين العميان . انه ، هو ، ليس اعمى ،
وهو يفخر بأنه يرى جيداً ، وهو عالم نفسي دقيق . وله الحق بأن
يتحدث عني بالنظر الى انه يعرفني منذ خمسة عشر عاماً وأنه خير صديق
له ولا يحرم نفسه من التحدث عني ؛ لما ان يلتقي احداً ، حتى يكوننا
شخصين انا موجود بالنسبة اليهما ، ثم يكونوا ثلاثة ، ثم تسعة ، ثم
مئة . سورينو ، سورينو ، سورينو السمسار ، سورينو المضارب ،
سورينو الـ ... ها ! ليته يفتس ، ولكن لا ، انه يتنزه بمطلق الحرية
وفي رأسه رأيه فيّ ، وهو يُعدي به جميع من يقربون منه ، ويجب ان
أعدو في كل مكان وأحك وأحك وأحز وأغسل بالماء الكثير ، لقد
حككت مارسيل حتى العظم . ولقد مدت لي يدها ، في اليوم الاول ،
وهي تنظر الي طويلاً ، وقالت : « لقد حدثني ماتيو عنك كثيراً »
فنظرت اليها بدوري ، وكنت مبهوراً ، كنت هنا في داخلها ، كنت
موجوداً في هذا الجسم ، خلف هذا الجبين ، وداخل هاتين العينين ،

يا للقدرة ! اما الآن ، فهي لا تصدق كلمة واحدة مما يقوله لها عتي .
وابتسم برضى ؛ وكان شديد الاعتزاز بهذا النصر ، حتى انه نسي ،
لمدة لحظة ، ان يراقب نفسه : وحدث تمزق في نسيج الكلمات كبر
رويداً رويداً وامتد حتى اصبح صمتاً . الصمت الثقيل الفارغ . ما كان
ينبغي له ، ما كان ينبغي له ان يكف عن الكلام . وكانت الريح قد
سقطت ، وكان الغضب متردداً . وفي اعماق الصمت ، كان هناك
وجه سرغين ، كأنه جرح . وجه عذب غامض ، كم كانت إضاءته
بمحااجة الى صبر وحمياً . وفكر : « كان بوسعي ... » هذا العام
ايضاً ، هذا اليوم ايضاً ، كان بوسعه . اما بعد ... وفكر : « فرضتي
الأخيرة . » كانت هذه فرصته الاخيرة ، فأطفأها له ماتيو ، بكل
إهمال . كانوا يتركون له نماذج من رالف وبوبي . « اما هو ، الصبي
المسكين ، فسوف يجعل منه قرداً قبل ذلك . » وكان يمشي في صمت ،
وكانت خطاه تصدي وحدها في جوف رأسه ، كما تصدي في شارع
خال عند الصباح الباكر ، وكانت وحدتها كلية ، تحت هذه السماء
الجميلة العذبة كالضمير الطيب ، وسط هذا الحشد المشغول ، بحيث انه
كان يدهشه وجوده ، لا بد انه كان كابوس واحد من الناس ، واحد
سينتهي به الأمر الى التيقظ . ومن حسن الحظ ان الغضب قد نشر
قلوعه ، وغطى كل شيء ، فأحس بأن سؤره جذلة تنعشه ، وبدأ
الفرار ، وعاد صف الكلمات ؛ كان يكره ماتيو . انه واحد لا بد انه
يرى من الطبيعي جداً ، ان يوجد ، فهو لا يطرح على نفسه سؤالاً :
ان هذا النور اليوناني الصحيح ، وهذه السماء الفاضلة بجعولان له ، وهو
في بيته ، ولم يكن قط وحيداً ؛ وفكر دانيال : « اقسام انه يظن نفسه
غوته . » وكان قد رفع رأسه ، وكان ينظر الى المارة في عيونهم ،
ويدغدغ حقهه : « ولكن حذار ! اتخذ لك تلاميذ اذا كان هذا
يسليك ، ولكن لا تفعل ذلك ضدي ، لأنني سينتهي بي الأمر الى ان

العب معك دوراً قذراً . » واستخفت به دفقة غضب جديدة ، فبات لا يمس الارض ، وكان يطير ، وقد اخذه الفرح بان يشعر انه مربع ، وفجأة جاءتته الفكرة حادة ، حمراء لامعة : « ولكن ، ولكن ، ولكن ... قد يكون ممكناً مساعدته على ان يفكر ، وان يدخل في ذاته ، وان يتدبر امره بحيث لا تكون الاشياء يسيرة عليه اكثر مما ينبغي ، وستكون هذه خدمة عظيمة تؤدي له . » وكان يتذكر اللهجة المفاجئة الخشنة التي قذفته بها يوماً مارسيل : « حين تكون المرأة هالكة فليس امامها الا ان تحبل وتلد طفلاً » وقد كان يكون هذا امراً طريفاً لو لم يكونا متفقين تماماً على هذه القضية ، لو كان يعدو بحماسة بين حوانيت العقاقيرين ، بينما تكون هي في جوف غرفتها الوردية تذوب رغبةً في ان يكون لها ولد . انها ما كانت لتجرؤ على ان تقول له شيئاً ، ولكن ... لو كان ثمة احد ، صديق مشترك ، ليمنحها بعض الشجاعة ... وفكر : « انني شرير » وكان مغموراً بالفرح . لقد كان الشر هو هذا الشعور الطاغي بالسرعة ، حيث ينفصل المرء فجأة عن نفسه ويجري الى الامام كالسهم ؛ وتأخذه السرعة من رقبته وهي تزداد دقيقة فدقيقة ؛ وكان ذلك شيئاً لذيذاً لا يُحتمل ، لأن المرء يتدحرج بلا ضابط ، والقبر امامه فاغر الفم ، ويقتحم حواجز تنتصب ذات اليمين وذات اليسار ، على غير انتظار - ماتيو المسكين ، انني اقسى مما ينبغي ، فانا سأفسد له حياته - وتنكسر كالغصون الميتة ، وقد كانت مسكرةً ، هذه الفرحة التي يخرقها الخوف ، والتي هي جافة كانتفاضة كهربائية ، هذه الفرحة التي لم تكن تستطيع التوقف . « انني اتساءل عما اذا كان سيكون له بعد تلامذة ؟ رب اسرة : ان هذا لا يكون غالباً . » هيئة سرغين ، حين يأتي ماتيو ليبلغه زواجه ، والازدراء الذي سيشعر به هذا الفتى ، وذعره الساحق : « انك تتزوج ؟ » وسيتلعم ماتيو : « ان هناك واجبات احياناً . » ولكن الصغار لا يفهمون مثل هذه

الواجبات . لقد كان هناك شيء ما يحاول ان يولد من جديد في حياة ذلك هو وجه ماتيو ، وجهه الطيب الواثق ، ولكن السباق لم يلبث ان يُستأنف : ان الشر لا يتوازن الا بالسرعة القصوى ، شأنه في ذلك شأن الدراجة . وطفرت فكرته أمامه ، خفيفة فرحة : « انه رجل خير ، ماتيو . وليس هو شريراً . اوه ! كلا ! انه من جنس هابيل ، فهو له ضميره الخاص . واذن ، فعليه ان يتزوج مارسيل . وبعد ذلك ، لا يبقى له الا ان ينام على غاره ، فهو ما زال شاباً ، وستكون امامه حياة برمتها ليسعد بعمله الطيب . »

وكانت هذه الراحة المسترخية لضمير نقي ، ضمير نقي لا يُنفذ اليه ، تحت سماء رحيمة مألوفة ، كانت هذه الراحة من شدة تدويحها بحيث لم يعد يعرف ان كان يتمناها لماتيو او لنفسه بالذات . شخص منته ، خاضع ، هاديء ، أجل هاديء ... « واذا كانت لا تريد ... اوه ! لو كان ثمة حظ واحد لان تريد هذا الطفل ، فاني اقسم انها سوف تطلب منه ان يتزوجها مساء الغد . » السيد والسيدة دولارو ... السيد والسيدة دولارو يتشرفان باعلامكم ... وفكر دانيال : « انني بالاجمال ملاكها الحارس ، ملاك الاسرة . » كان ملاكاً اكبر ، ملاك حقد وكراهية ، ملاك قضاء يسلك طريق فيرسانجيتوري . وتمثل مرة اخرى ، للحظة ، جسماً طويلاً مرتبكاً وجميلاً ، ووجهاً هزيباً منحنيماً فوق كتاب ، ولكن الصورة ما لبثت ان تهاوت ، وكان بوبي هو الذي ظهر من جديد . « رقم ٦ شارع الاورس . » وكان يحس بأنه حر كالهواء ، وكان يمنح نفسه جميع الإجازات . وكان حانوت البقالة في شارع فيرسانجيتوري ما يزال مفتوحاً ، فدخله . وحين خرج ، كان يمسك بيده اليمنى سيف القديس ميشال الناري ، وفي اليد اليسرى علبة حلوى للسيدة دوفيه .

دقت العاشرة في الساعة الصغيرة . ولم يبد على السيدة دوفيه انها سمعت . كانت تحدّد في دانيال نظراً متنبهاً ، ولكن عينيها كانتا قد تورّدتا . وفكر : « انها لن تتأخر في الذهاب » وكانت تبتم له باحتيال ، ولكن رياحاً خفيفة متسرّبة من ثقب الباب كانت تذوب عبر شفّتيها المفتّرتين : كانت تتشاب تحت بسمتها . وفجأة ، رمت رأسها الى خلف وبدت تصمّم على أمر ؛ فقالت في اندفاع متلاعب :

— اسمعا يا ولدي ، اني ساوي الى سريري ! لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة اكثر مما ينبغي يا دانيال ، فانا معتمدة عليك في ذلك ، والا فانها ستنام حتى الظهر .

ونهضت واقبلت تربت كتف مارسيل بيدها الصغيرة الخفيفة، وكانت مارسيل جالسة على السرير . واستطردت تقول وهي تجد تسلية في ان تتحدث بين اسنانها المنقبضة :

— أتسمعين يا روديلارد ، انك تنامين في ساعة متأخرة جداً يا ابني ، تنامين حتى الظهر ، فتسمنين .

قال دانيال : — أقسم اني سأذهب قبل منتصف الليل . فابتسمت مارسيل : — اذا اردت ذلك .
والفتت نحو السيدة دوفيه وهو يصطنع الارهاق :

– ما حيلتي ؟
قالت السيدة دوفيه : – المهم ان تكونا عاقلين . وشكراً لحلوياتك
اللذيذة .

ورفعت العلبة المشرطّة الى مستوى عينيها بحركة تهديدية بعض
الشيء :

– انك ألطف مما ينبغي ، وانت تدللي كثيراً ، ولا بد من ان
اوبخك في النهاية !

فقال دانيال بصوت عميق : – انك لا تزيدين مروري الا بأن
تحببها .

وانحنى على يد السيدة دوفيه وقبلها . ورأى عن كثب ان بشرتها
كانت متجمدة ببقع خبّازية ، وقالت السيدة دوفيه وقد استخفتها الحركة :

– يا للملاك ! هيا ، اني ذاهبة !

وقبلت جبين مارسيل ، فأحاطت مارسيل قامتها بذراعها وشدتها اليها
لحظة ، فاشعنت السيدة دوفيه لها شعرها وتخلصت بخفة ، وقالت مارسيل :
– سأتي اليك عما قليل .

– لا ، لا ، ايها الفتاة الرديئة . اني اتركك للملاك .

وتسللت بحيوية طفلة صغيرة ، فتبع دانيال بنظرة باردة ظهرها
الدقيق : فلقد حسب انها لن تذهب ابداً . وانغلق الباب ، ولكنه لم
يحس بالعزاء : فقد كان يخاف بعض الخوف ان يبقى وحده مع
مارسيل . والتفت اليها فرأى انها كانت تنظر اليه مبتسمة .

وسألها : – ما الذي يجعلك تبتمين ؟

فقالت مارسيل : – يسّليني دائماً ان اراك مع امي . كم انت
متملّق يا ملاكي المسكين ؛ ان هذا لعار ، فانت لا تستطيع الامتناع
عن اغراء الناس .

وكانت تنظر اليه في حنان ملائكة . وكان يبدو انها مسرورة بان

يكون لها وحدها . وفكر دانيال في ضغينة : « ان لها قناع الحبّل »
وكان يؤذيه ان تبدو على هذا الحدّ من السرور . وكان يستشعر دائماً
بعض الضيق اذ كان يجد نفسه على حافة هذا الحديث الهامس وانسه
سيستغرق فيه . وتنحنح وفكسر : « سوف أُصاب بالربو » وكانت
مارسيل رائحة كثيفة حزينة ، موضوعة على السرير ، في كتلة ، وسوف
تتفسّخ لدى ادنى حركة .

ونَهضت : - عندي ما أريك اياه .

وذهبت لتأتي بصورة كانت على المدخنة ، ومدتها له وهي تقول :
- انت الذي تريد دائماً أن تعرف كيف كنت .

واخذها دانيال : كانت مارسيل وهي في الثامنة عشرة ، وكانت
تشبه الساقطات بفمها المرتخي وعينيها القاسيتين . وكان لها هذا اللحم
اللدن الذي كان يعوم كأنه ثوب فضفاض . ولكنها كانت هزيلة .
ورفع دانيال عينيه ففاجأ نظرتها القلقة . فقال بحكمة :
- لقد كنت جميلة ، ولكنك لم تتغيري قط .

فأخذت مارسيل تضحك :

- بلى ! انت تدري جيداً اني قد تغيرت ، ايها المخادع الكبير ،
ولكن اطمئن ، فلست مع امي .
واضافت :

- ولكن ألا ترى اني كنت فتاة جميلة ؟

فقال دانيال : - انني افضلك كما انت الآن . كان في فك شيء
من الرخاوة .. انت الآن تبدين اكثر إثارة للاهتمام .

فقالت بلهجة عابسة : - ان المرء لا يعرف متى تكون جاداً .
ومع ذلك فقد كان يسيراً ان يلاحظ الانسان انها كانت مفتونة .
واستقامت قليلاً والقت الى المرأة بنظرة سريعة . وانزعج دانيال
لهذه الحركة الخرقاء الحالية من الحشمة : لقد كان في غندرتها ايمان

طفولي طيب ضعيف يتناقض مع وجهها ، وجه المرأة المعانية .
وابتسم لها .

وقالت له : - وانا ايضاً اسألك لماذا تبتسم ؟
- لأنك قت بحركة طفلة صغيرة لتظري في المرأة . انه مؤثر جداً
ان تهتمي بنفسك بطريقة تلقائية .

فتوردت مارسيل وضربت بقدمها الارض :
- انه لا يستطيع ان يمتنع عن التملق ؟
وضحك الاثنان ، وفكر دانيال في غير ما شجاعة كبيرة : « هيباً
بنا » . وكانت الفرصة مؤاتية ، ولكنه كان يحس نفسه فارغاً ورخوياً .
وفكر بماتيو ليكتسب بعض الشجاعة ، فسرّه ان يجد ان حقه ما زال
على حاله لم يُمس . لقد كان ماتيو واضحاً جافاً كالعظمة . وكان كرهه
ممكنأ . اما مارسيل فلم يكن بالامكان كرهها .

- مارسيل ! انظري اليّ .
وكان قد تقدم وراح ينظر اليها نظرة اهتمام . وقالت مارسيل :
- هأنذا .

وردت له نظرتة ؛ ولكن رأسها كان يتحرك باهتزازات صلبة :
كان يصعب عليها ان تقاوم نظرة الرجل .
- يبدو عليك التعب :

فطرفت مارسيل بعينيها وقالت :
- اني ضعيفة المزاج . والسبب الآن هو هذا الحر الشديد .
وانحنى دانيال قليلاً وردد بلهجة عتاب آسف :

- متعبة جداً ! كنت انظر اليك الساعة ، بينما كانت امك تروي
لنا رحلتها الى روما : فكان يبدو عليك انك مشغولة جداً ، نائرة
الاعصاب جداً .

فقاطعتة مارسيل بضحكة مغتظة :

- اسمع يا دانيال . انها تروي لك هذه الرحلة للمرة الثالثة . وانت في كل مرة تستمع اليها بهيئة اهتمام مهووس ؛ واصارحك ان هذا يزعجني قليلاً ، فانا لا ادري ماذا يكمن في رأسك في هذه اللحظات . قال دانيال : - ان امك تسليني . انا اعرف هذه القصص ولكني احب ان اسمعها وهي ترويها بحركاتها الصغيرة التي تسحرني . وحرّك عنقه حركة صغيرة فانفجرت مارسيل ضاحكة : كان دانيال يحسن تقاليد الناس اذا اراد . ولكنه ما لبث ان استعاد جده ، فكفت مارسيل عن الضحك . ونظر اليها معاتباً . فاضطربت قليلاً تحت هذا النظر . وقالت له :

- انما تبدو الغرابة عليك انت هذا المساء . فما بك ؟

فلم يعجل في الجواب . وكان صمت ثقيل يخيم عليهما ، وكانت الغرفة أتوناً حقيقياً . وضحكت مارسيل ضحكة صغيرة ما لبثت ان ماتت على شفيتها . وكان دانيال مسروراً جداً . فقال :

- مارسيل ، ما كان ينبغي ان اقولها لك ...

فارتدت الى خلف : - ماذا ؟ . ماذا ؟ . ماذا هناك ؟ .

- انك غير حاقدة على ماتيو ؟

فامتقع لونها :

- اوه هل ... لقد اقسم لي الا يقول لك شيئاً .

- ان الامر يا مارسيل هام الى هذا الحد وتريدون ان تخفيه عني ؟ .

ألست اذاً صديقك ؟

فارتعشت مارسيل وقالت : - انه امر قدر ؟

هكذا ! حسناً : انها عارية ، لم تكن القضية بعد قضية ملاك او صور شباب ؛ لقد فقدت قناع جدارتها الضاحك . ولم يكن هناك بعد الا امرأة كبيرة حامل ، تنبث منها رائحة اللحم ، وكان دانيال يحس بالحر ، فأمرّ يده على جبينه العرق . وقال بهدوء :

كلا ، كلا ، ليست قدرة .
فندت عن مرفقها وذراعها حركة مفاجئة خططت هواء الغرفة
لللاهب وقالت :

- أنك تشمئز مني .
فأخذته ضحكة فتية :
- اشمئز ؟ انا ؟ ان بوسعك يا مارسيل ان تبحي طويلاً قبل ان
تجدي شيئاً يجعلني اشمئز منك .
فلم تجب مارسيل . وكانت قد خفضت رأسها في حزن . وقالت
باخيراً :

- لكم وددت ان ادعك بعيداً عن هذا كله .
وصمتا . ان بينها الآن صلة جديدة كالسلك السُرِّي . وسألها
دانيال :

- هل رأيت ماتيو ، منذ ان فارقتي ؟
فقالت مارسيل بلهجة فجائية :
- لقد خابرتني حوالي الساعة الواحدة .
وكانت قد تداركت نفسها وتصلبت ، ووقفت موقف الدفاع ،
منتصبة مقروصة المنخرين ؛ كانت تتألم .
- هل قال لك اني رفضت ان ادينه مالا ؟
- قال لي انه لم يكن معك مال .
-- بل كان معي .

فرددت دهشة : - كان معك ؟
- اجل كان معي ، ولكني لم اكن اريد ان ادينه ... قبل ان
أكون قد رأيتك على الأقل .
وبعد فترة اضاف :

- أينبغي لي يا مارسيل ان ادينه مالا ؟

فقلت في ارتباك : - ولكن ... لا ادري ان عليك ان ترى اذا كان ذلك في امكانك .

- هذا ممكن جداً . ان معي خمسة عشر الف فرنك استطع ان اتصرف بها من غير ان انزعج اطلاقاً .

قالت مارسيل : - اذاً نعم . نعم يا عزيزي دانيال . يجب ان تعبرنا مالا .

وساد صمت . وكانت مارسيل تدعك غطاء السرير بين اصابعها ، وكانت رقبتها الثقيلة تخفق . وقال دانيال :

- انك لا تفهميني . انا اقصد : هل ترغبن من صميم قلبك ان ادينه ؟

فرفعت مارسيل رأسها ونظرت اليه في دهشة :

- انك غريب يا دانيال ؛ لا بد ان في رأسك شيئاً .

- الحقيقة ... كنت اتساءل بكل بساطة عما اذا كان ماتيو قد استشارك .

فقلت ببسمة خفيفة : - ولكن طبعاً مهما يكن فنحن لا نتشاور ، وانت تعرف كيف نتصرف : يقول احدنا : نفعل هذا او ذاك ، فيعرض الآخر اذا لم يكن موفقاً .

قال دانيال : - نعم ، غير ان هذا يكون في صالح من له رأي ناجز : اما الآخر فيرتبك ولا يجد الوقت لتكوين رأي له .

قالت مارسيل : - ربما .

- انا اعرف كم يحترم ماتيو آراءك ولكن من اليسر علي ان اتمثل الحادث : فلقد تسلط علي طوال بعد الظهر . فلا بد انه كوّر ظهره كما يفعل في مثل تلك الحالات ، ثم قال وهو يجرض بريقه : « حسناً ! سنلجأ الى الوسائل الكبرى » . ولم يأخذه اي تردد ، والحق انه لم يكن يستطيع التردد : فهو رجل . ولكن ألم يتم ذلك في شيء

من العجالة ؟ لا بد انك انت نفسك لم تعرفي ما كنت تريدينه ؟

وانحنى من جديد نحو مارسيل :

– ألم تجر الامور على هذا الشكل ؟

ولم تكن مارسيل تنظر اليه . كانت قد لفتت رأسها من جهة المغسلة وكان دانيال يراها جانبياً . وكان يبدو عليها الأسى وقالت :

– هكذا تقريباً .

ثم احمرّ وجهها احمراراً عنيفاً :

– اوه ! لنكفّ عن التحدث في هذا يا دانيال ، ارجوك !

فليس ... ليس ذلك امراً للذيء .

ولم يكن دانيال ينزع عنها نظره . وفكر : « انها تخفق . » .

ولكنه لم يكن يدري بعد ان كان يلذه ان يلذها او يذل نفسه معها .

وقال في نفسه : « سيكون العمر ايسر مما كنت اظن . » وقال :

– لا تنغلقي يا مارسيل ، ابتهل اليك : انا اعرف كم يشق عليك

ان نتكلم عن هذا كله .

قالت مارسيل : – ولا سيما معك . فكم انت يا دانيال شخص آخر .

عجياً ، اني طهرها ! وارتعشت من جديد وشبكت ذراعها على

صدرها وقالت :

– اني لا اجروؤ على النظر اليك . فحتي لو لم تكن تشمئز مني

فيخيل اليّ اني قد فقدتك .

قال دانيال بمرارة : – اعرف ذلك . ان الملاك يجفل بسهولة . اسمعي

يا مارسيل ! كفتي عن اسناد هذا الدور المضحك الي . فليس لدي شيء

من ملاك ، كل ما هناك انني صديقك ، خير صديق لك . (واضاف

بحزم) وان لي كلمة اقولها : ان بوسعي ان اساعدك . هل انت

يا مارسيل متأكدة حقاً من انك لا تريدن طفلاً ؟

وتاه قليلا عبر جسم مارسيل ، فكأنه كان يريد ان ينفصل عن

نفسه . ثم اوقف هذا البدء في التجزؤ ، وتراكم الجسم على حافة السرير جامداً ثقيلًا . ولفتت رأسها نحو دانيال وكانت قرمزية ؛ ولكنها كانت تنظر اليه من غير ضغينة ، في جزع لا سلاح له . وفكر دانيال : « انها يائسة . »

— ليس لك الا ان تقولي كلمة : اذا كنت واثقة من نفسك ، فان ماتيو سيتلقى المال صباح الغد .

وكان يتمنى تقريباً ان تقول له : « اني واثقة من نفسي » وسبرسل المال وينتهي كل شيء . ولكنها لم تكن لتقول شيئاً ، وكانت قدالتفتت اليه ، كأنما كانتتنتظر ؛ وكان لا بدّ من المضيّ حتى النهاية . وفكر دانيال في اشمئزاز : « هكذا اذن ! اقسام ان هيئة العرفان تبدو عليها . » كما كان الشأن مع ملفينا يوم ضربها .

وقالت : — انت ! لقد تساءلت عن هذا ! اما هو ... الحق

يا دانيال ان ليس في الدنيا من يهتم بي سواك . ونهض ، واقبل يجلس بالقرب منها واخذ يدها . يد رخوة محمومة كأنها مسارة : واحتفظ بها في يده من غير ان يتكلم . وكان يبدو على مارسيل انها تقاوم دموعها . وكانت تنظر الى ركبتيها .

— الأمر لديك سواء اذا أجهض الطفل ؟

فقامت بحركة متعبة وقالت :

— وماذا تريد ان تفعل غير ذلك ؟

وفكر دانيال : « لقد ربحت ! » ولكنه لم يستشعر من ذلك اي سرور . كان يحنق . كانت مارسيل ، وهي قريبة هذا القرب ، تنبث منها رائحة لا تكاد تُحس ، بل لعلها اذا صح التعبير ليست رائحة ، ولكن كأنها كانت تُنخصب الهواء حولها . ثم انه كانت هناك تلك اليد التي ترشح في يده . وقسر نفسه على ان يشتدّ في ضغطها ، ليبر لها عن كل عصيره . وقال بصوت جاف :

— لا اعرف ما يمكن ان تفعله : سئى ذلك فيما بعد . اني في

هذه اللحظة لا افكر الا فيك فاذا رزقت هذا الطفل فربما كان ذلك كارثة ، ولكن ربما كان كذلك خطأ . ينبغي يا مارسيل ان لا تسيطيبي ان تهمني نفسك فيما بعد بأنك لم تفكري كفاية .

فقلت مارسيل : - نعم ، نعم ...

وكانت تنظر الى الفراغ نظرة ثقة ترد اليها شبابها . وفكر دانيال بالطالبة الشابة التي سبق له ان رأى صورتها . « صحيح ! لقد كانت شابة ... » ولكن اشاعات الشباب نفسها لم تكن مؤثرة على هذا الوجه العاق . وترك فجأة يدها وابتعد قليلاً عنها ، وردد بصوت مستعجل :
- فكري . هل انت حقاً متأكدة ؟

فقلت مارسيل : - لا ادري .

ونهضت : اعذرني ، يجب ان اطلّ على امي .

فانحنى دانيال بصمت : وكان ذلك شيئاً مألوفاً . وفكر حين اغلق الباب : « لقد ربحت ! » ومسح يديه بمنديله ثم نهض بحوية وفتح درج طاولة الليل : وكان يوجد فيها احياناً رسائل طريفة وقصاصات قصيرة من ماتيو ذات لهجة زواجية او شكاوى لا تنتهي من اندريه التي لم تكن سعيدة . وكان الدرج فارغاً ، وجلس دانيال ثانية على الاريقة وفكر : « لقد ربحت ، فهي تموت رغبة في ان تبيض » . وكان سعيداً انه وحيد : فقد كان يستطيع ان يستعيد الحقد . وقال في نفسه : « اقسم انه سيتزوجها . والحق انه كان لثيباً ، حتى انه لم يستشرها ، انه لا يستحق ان اكرهه لدوافع طيبة : فان لدي من العمل مع الآخرين ما فيه الكفاية » .

ورجعت مارسيل بوجه متحلل . وقالت بصوت جاف :

- واذا كانت لي رغبة في الطفل ؟ ماذا يجديني ذلك ؟ انني لا استطيع ان اكون في ترف الفتاة الام ، وليس وارداً ان يتزوجني ، ليس كذلك .

- فرغ دانيال حاجبيه مدهوشاً وسألها :
- ولماذا لا يستطيع ان يتزوجك ؟
- ف نظرت اليه مارسيل بذعر ثم آثرت ان تضحك قائلة :
- لكنك تعرف جيداً يا دانيال ما نحن عليه !
- فقال دانيال : – انني لا اعرف شيئاً على الاطلاق . لا اعرف الا شيئاً واحداً : ليس عليه ، اذا اراد ، الا ان يقوم بالخطوات الضرورية ، كجميع الناس بحيث تصبحن بعد شهر زوجته . اتكونين انت يا مارسيل التي قررت الا تتزوجي ابدأ ؟
- سوف اشمئز من ان يتزوجني على مضض .
- ليس هذا جواباً .
- وزال بعض توتر مارسيل ، فأخذت تضحك ، وادرك دانيال انه ضلّ الطريق . وقالت :
- الحقيقة أنه سيان عندي ان لا أُدعى السيدة دولارو .
- وقال دانيال بحموية : – انني متأكدة من ذلك . وانما عنيت :
- اذا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالطفل ؟ ...
- فبدت مارسيل مضطربة :
- ولكنني لم اواجه الامور قط على هذا النحو .
- ولا بد ان ذلك كان صحيحاً . ولقد كان شاقاً جداً حملها على ان تنظر الى الاشياء مواجهة : كان ينبغي ان يوضع انفها فوق الاشياء ، والا تناثرت في كل اتجاه . وازافت :
- ان هذا ... امر قد اتفقنا عليه : ان الزواج عبودية . وليس فينا من يريد .
- ولكنك تريدان الطفل ؟
- فلم تجب . وكانت اللحظة الحاسمة ؛ وردد دانيال بصوت قاس ،
- اليس كذلك ؟ انك تريدان الطفل ؟

وكانت مارسيل تتكلم باحدى يديها على الوسادة بينما وضعت الاخرى على فخذيها ، ثم رفعتها قليلاً ووضعتها على بطنها ، كما لو ان احشائها كانت تؤلمها ، وكانت هذه حركة خرقاء وساخرة . وقالت بصوت متوحد :

نعم . اريد الطفل .

ربحنا . وصمت دانيال . ولم يكن يستطيع رفع نظره عن هذا البطن . اللحم العدو ، اللحم المشحم والمغذي ، خزانة الطعام . وفكر في ان ماتيو كان قد اشتهاها فاخذته شعلة سريعة من الرضى : لكأنما انتقم بعض الانتقام . وكانت اليد السمراء ذات الخاتم تشنج على الحرير وتضغط على ذلك البطن . ما الذي كانت تشعر به ، في داخلها ، هذه الانثى الثقيله المتمزقة ؟ لقد كان يود ان يكونها . وقالت مارسيل بخفوت :

— لقد حررتني يا دانيال . فاني ... لم اكن استطيع ان اقول ذلك لأحد ابداً وكنت قد انتهيت الى الايمان بان ذلك كان إثمًا .

ونظرت اليه بضيق :

— اليس ذلك إثمًا ؟

فلم يتالك نفسه من الضحك :

— إثم ؟ انما ذلك فساد يا مارسيل . تجدين رغباتك آثمة حين تكون طبيعية ؟

— كلا ، انما اعني : تجاه ماتيو . ان ذلك بمثابة نقض للعهد .

— كل ما في الامر هو انه يجب ان تتفاهمي معه بصراحة .

فلم تجب مارسيل ؛ وكان يبدو عليها انها تجتر . وقالت فجأة

بحماسة :

— اوه ! لو كان لي ولد ما سمحت له بان يفسد حياته مثلي .

— انك لم تفسدي حياتك .

- بلى !
- ولكن لا يا مارسيل ، لم تفسديها بعد .
- بلى ! انني لم افعل شيئاً ، وليس هناك من يحتاج الي .
- فلم يجب : كان ذلك صحيحاً .
- ليس ماتيو بحاجة الي . واذا مت لم يؤثر ذلك عليه قط . وانت كذلك يا دانيال . صحيح انك تكن لي حياً كبيراً ، ولعل ذلك هو
- أتمن شيء عندي في الدنيا . ولكنك لست بحاجة الي ؛ بل الاصح انني انا بحاجة اليك .
- أيجيب ؟ ام يحتج ؟ كان ينبغي له الحذر : كانت مارسيل تبدو في احدى تلك الحالات المستبصرة الوقحة . وتناول يدها بلا كلمة
- وشدها شدةً ذا مغزى . وتابعت مارسيل :
- اما الطفل ، اجل ، ان الطفل سيكون بحاجة الي .
- فلامس يدها بخنان :
- يجب ان تقولي هذا كله لماتيو .
- لا استطيع .
- ولكن لماذا ؟
- انني عاجزة . وانتظر ان يأتي ذلك منه .
- ولكنك تعلمين جيداً ان ذلك لن يأتي منه ابداً : فهو لا يفكر فيه .
- ولماذا لا يفكر في ذلك ؟ لقد فكرت انت فيه ملياً .
- لا ادري . واذن ... سيبقى الأمر كما قررنا : سوف تعيرنا المال ، وسأذهب الي ذلك الطبيب .
- فصاح دانيال فجأة : - انك لا تستطيعين ، لا تستطيعين !
- وتوقف ينظر اليها في حذر : كان الانفعال هو الذي جعله يطلق هذه الصرخة البليدة . واثلجته هذه الفكرة ، لقد كان الترك يذعره .

وقرص شفتيه ، وأمر السخرية في عينيه ، وهو يرفع حاجبيه . وكان فاعاً لا جدوى منه ؛ كان الأفضل الا يراها : فقد احت كفتيها ، وكان ذراعها يتدليان على جنبيها ؛ وكانت تنتظر جامدة معطلة ، وهي سوف تنتظر على هذا النحو طوال اعوام حتى النهاية. وفكر : «حظها الاخير» كما سبق له ان فكر لنفسه منذ حين ، فبين الثلاثين والاربعين عاماً يلعب الناس حظهم الاخير . وهي سوف تلعب وتخسر ؛ فبعد بضعة ايام لن تكون بعد الا باثثة كبيرة . وكان ينبغي الحيلولة دون ذلك .

– وما ترين في ان احدث انا نفسي ماتيو في ذلك ؟
وكان شفقة هائلة موحلة قد غمرته . ولم يكن يميل قط الى مارسيل .
كان يشعر بالشمزاز عميق ، ولكن الشفقة كانت موجودة هنا ، لا تقاوم . وكان على استعداد ليفعل اي شيء من اجل ان يتخلص منها .
ورفعت مارسيل رأسها وكان يبدو عليها انها تظنه مجنوناً .

– تتحدث اليه ؟ انت ؟ ولكن بم تفكر يا دانيال ؟
– يمكن ان يقال له ... اني التقيت بك ...
– أين ؟ فأنا لا اخرج قط . وحتى لو فرضنا ذلك ، فهل يكون الامر قد بلغ بي ان اروي لك هذا ؟
– لا ، لا ، طبعاً .

ووضعت مارسيل يدها على ركبته .
– ارجوك يا دانيال ، لا تتدخل في هذا الامر . اني غاضبة من ماتيو ، وقد كان عليه الا يروي لك ...
ولكن دانيال كان متمسكاً بفكرته :

– اسمعي يا مارسيل . ألا تعرفين ما سوف نفعله ؟ سنقول له الحقيقة بكل بساطة . سأقول : يجب ان تغفر لنا سرأ صغيراً ، فقد كنا انا ومارسيل نلتقي احياناً ، ولم نخبرك بذلك .

فابتهلت مارسيل تقول :

- دانيال ، يجب ان نقول ذلك . اني لا اريد ان تتكلم عني .
لا اريد بأي ثمن ان اظهر بمظهر المطالب . فقد كان عليه هو ان يفهم .

وأضافت بلهجة زواجية :

- ثم انه ، لو تعلم ، لن يغفر لي ابداً انني لم اخبره انا نفسي بذلك . اننا نتصارع دائماً بكل شيء .
وفكر دانيال : - « هذه نكتة ! » ولكن لم تكن به رغبة للضحك.
وقال :

- ولكني لن اتكلم باسمك . سأقول له انني رأيتك ، وانسه كان يبدو عليك انك متألمة ، وان الامور ليست بالبساطة التي قد يتصورها.
سأقول ذلك كله كما لو انه صادر عني .

وقالت مارسيل بلهجة انزعاج :

- لا اريد . لا اريد .

وكان دانيال ينظر الى كتفيها وعنقها في نهم . وكان هذا العناد الابله يغيظه ، وكان يريد ان يحطمه . وكانت رغبة هائلة مشوّهة تتملكه : ان ينتهك هذا الضمير وان يغرق معه في المذلة . غير ان ذلك لم يكن من السادية : فقد كان اشد تلمساً وأوفر رطوبة وأكثر بشرية . كان بالاحري طيبة .

بل يجب يا مارسيل . انظري اليّ يا مارسيل .

وأخذها من كتفيها ، فغرقت اصابعه في زبدة دافئة .

- إن لم احدهه بذلك ، فلن تقولي شيئاً ابداً ... وسينتهي الامر ، وستعيشين بالقرب منه صامته ، وستنتهين الى كرهه .

فلم تجب مارسيل ، ولكنه ادرك من هيئتها الحاقدة المسترخية انها كانت بسبيل الاستسلام . وأضاف مرة اخرى :

— لا اريد.

فتركها وقال في غضب :

— ان لم تدعيني افعل ، فسألومك وقتاً طويلاً . سيكون انك افسدت حياتك بيدك .

وكانت مارسيل تُتمر طرف رجلها على منحدر السرير . وقالت :

— ينبغي ... ينبغي ان تُقال له اشياء مبهمه تماماً ، ان يوقظ انتباهه فحسب ...

فقال دانيال : — طبعاً .

وكان يفكر : « اعتمدي علي في ذلك . »

وبدت من مارسيل حركة اشفاق :

— هذا غير ممكن .

— وبعد ؟ كنت على وشك ان تكوني عاقلة ... لماذا يكون ذلك غير ممكن ؟

— ستكون مضطراً الى ان تقول له اننا كنا نتلاقى .

فقال دانيال في انزعاج :

— نعم . قلت لك ذلك . ولكني اعرفه : فهو لن يغضب من هذا . قد يفتاظ قليلاً ، في الظاهر ، ولكنه اذ يشعر بانسه مذنب فانه سيكون مسروراً اكثر مما ينبغي بأن يجد شيئاً يؤاخذك عليه . ثم اني سأقول له اننا نتلاقى منذ اشهر فقط ، وفي فترات نادرة . ومهما يكن ، فلا بد ان تقول له ذلك يوماً .

— هذا صحيح .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة ، وقالت بأسف عميق :

— لقد كان ذلك سرنا . اسمع يا دانيال، تلك كانت حياتي الخاصة ، وليست لي حياة غيرها .

وأضافت بكراهية :

- اني لا استطيع ان احتفظ لنفسى إلا بما اخفيه عنه .
- يجب ان تحاولي . من اجل الطفل .
- انها تكاد تستسلم : وليس ثمة بعد الا الانتظار ؛ كانت توشك ان تنزلق نحو الخضوع والاستسلام ، يقودها في ذلك ثقلها نفسه؛ ستكون بعد لحظة منتفخة كلها ، من غير سلاح ، وستقول له في دعة : « افعل ما يبدو لك ، اني بين يديك . » وكانت تسحره ؛ ولم يكن يعرف بعد ان كانت هذه النار التي تلتهمه هي « الشر » او الطيبة . الخير والشر ، خيرهما وشره ، كان ذلك سواء . لقد كان ثمة هذه المرأة ، وهذا التواصل المنفّر الباعث على الدوار .
- وأمرت مارسيل يدها في شعرها ، وقالت في تحدّ :
- حسناً ! لنحاول . انها ستكون على كل حال تجربة .
- فسألها دانيال :
- تجربة ؟ اهو ماتيو الذي تريدان ان تدخليه في التجربة ؟
- نعم .
- وهل تظنين بأنه سيظل لامبالياً ؟ وانه لن يتعجل ساعة اللقاء بك ليتفاهم معك ؟
- لا ادري .
- وقالت بجفاف :
- انني بحاجة الى احترامه .
- فأخذ قلب دانيال يخفق :
- ألا تحترمينه اذن بعد ؟
- بلى .. ولكني لست بعد في ثقة معه منذ مساء الامس . لقد كان .. انت على حق : لقد كان مهملاً أكثر مما ينبغي . انه لم يهتم بشأني . ثم ان مخابرة التلفزيونية اليوم ... تثير الشفقة . لقد ... واحمرّت :

— لقد ظنّ ان عليه ان يقول انه كان يحبني ، حين أنهى المخابرة .
وكان ذلك يرشح بتأنيب الضمير . ولا استطيع ان اصف لك الأثر
الذي خلّفه ذلك فيّ . واذا اتفق لي ان كففت عن احترامه ... ولكني
لا اريد ان افكر بذلك . انه يشقّ عليّ جداً ان اعتب عليه ، حين
يتفق لي ذلك . آه ! ليته يحاول غداً ان يدفعني قليلاً الى الكلام . ليته
يسألني مرة واحدة فقط : « ماذا يجول في رأسك ؟ »
وصمت ، وهزت رأسها في حزن . وقال دانيال :
— سوف احده . حين أغادرك ، سأترك له كلمة ، وأحدّد له
موعد لقاء للغد .

وصمتا . وأخذ دانيال يفكر في لقاء الغد : لقد كان يعد ان يكون
لقاءً عنيفاً وقاسياً ، وسوف يطهره ذلك من هذه الشفقة اللزجة . وقالت
مارسيل :

— دانيال ، عزيزي دانيال .

ورفعت رأسها فرأت نظرتة . وكانت نظرة ثقيلة ساحرة تفيض
بالعرفان الجنسي ، نظرة ما بعد المضاجعة . وأغمض عينيه : لقد كان
بينهما ما هو أقوى من الحب . لقد سبق ان انفتحت ، فدخل فيها ،
فليسا هما بعد الا شخصاً واحداً :
وردت مارسيل : — دانيال .

ففتح دانيال عينيه ، وسعل بمشقة ؛ وكان مصاباً بالربو . واخذ
يدها وقبلها قبلة طويلة وهو يمسك انفاسه . وكانت مارسيل تقول ،
من فوق رأسه :

— يا ملاكي .

سيقضي حياته كلها منحنيّاً فوق هذه اليد العاطرة ؛ وراحت تلامس
شعره بحنان .

كانت زهرة كبيرة بنفسجية تصعد نحو السماء ، وكانت هي الليل . وكان ماتيو ينتزّه في هذا الليل ، وكان يفكر : « انسي شخص هالك . » وكانت تلك فكرة جديدة كل الجدة ، وكان لا بدّ من تقليبها على وجوهها ، ومن شتمها في احتراس . وكان ماتيو يفقدها بين الفينة والفينة ، فلا تبقى بعد غير الكلمات . ولم تكن الكلمات خالية من بعض سحر غامض : « شخص هالك » . كان المرء يتخيّل كوارث جميلة : الانتحار ، الثورة ، ومخارج اخرى متطرفة . ولكن الفكرة كانت سريعاً ما تعود : لم يكن الامر كذلك ، لم يكن كذلك قط ؛ وانما كانت القضية بؤساً صغيراً هادئاً ومتواضعاً ، ولم تكن قضية يأس ، بل على العكس ، كان ذلك يبعث على الرضى والراحة : لقد كان ماتيو يشعر بأنه قد مُسّح له بكل شيء ، كما هو الشأن بالنسبة لمريض لا يُرجى شفاؤه . وفكر : « ليس علىّ بعدُ الا ان ادع نفسي أعيش . » وقرأ اسم « سومطرا » بأحرف نارية ، وهُرِع اليه الزنجي ، وهو يلامس قبعته . وتردد ماتيو على عتبة الباب : كان يسمع ضجيجاً ، وموسيقى تانغو ؛ وكان قلبه ما يزال ممتلئاً بالكسل والليل . ثم حدث ذلك فجأة ، كما يحدث في الصباح ، حين يلقي المرء نفسه واقفاً من غير ان يدرك كيف نهض : كان قد أزاح الستار الاخضر ، وهبط

درجات السلم السبع عشرة ، فاذا هو في كهف قرمزي ضاحج ، ذي
لطحاط بيضاء قدرة ، هي اغطية الموائد ؛ وكانت رائحة البشر منتشرة
هناك ، كانت القاعة تغص بالبشر ، كما هو الحال في قداس . وفي
جوف الكهف ، كان ثمة رعاة يرتدون القمصان الحريرية يعزفون
الموسيقى فوق منصة . وكان امامه اشخاص واقفون في جمود واحترام
كأنهم ينتظرون : وكانوا يرقصون ؛ وكانوا شرسين ، وكان يبدو أنهم
فريسة قدر لا ينتهي . واستعرض ماتيو القاعة بنظره المتعب بحثاً عن
بوريس وايفيش .

— هل تريد طاولة ، ياسيدي ؟

وكان شاب جميل ينحني امامه في هيئة سمسار .

وقال ماتيو : — انني ابحث عن شخص .

فعرفه الشاب ، وقال بودّ :

— آه ! ها انت يا سيدي ؟ إن الآنسة لولا ترتدي ثيابها

وأصدقاؤك في الداخل ، الى اليسار ، واني مرافقتك اليهم .

— لا ، شكراً . سأجدهم بنفسي . ان روادكم اليوم كثيرون .

— نعم ، لا بأس بعددهم . هولانديون . انهم يضحجون كثيراً ،

ولكنهم يستهلكون جيداً .

واختفى الشاب . وكان ينبغي الا يفكر المرء بأن يشق لنفسه طريقاً

بين الازواج الذين كانوا يرقصون . وانتظر ماتيو : كان يصغي الى

التانغو والى جر الاقدام ، وكان ينظر الى التقلبات البطيئة لهذا الاجتماع

الصامت . اكتاف عارية ، رأس زنجي ، بياض ياقة ، نساء رائعات

ناضجات ، كثير من الرجال المسنين كانوا يرقصون وعليهم مظهر

الاعتذار . وكانت ألحان التانغو الحادة تمر فوق رؤوسهم : لم يكن

يبدو على الموسيقيين أنهم يعزفون لهم . وتساءل ماتيو : « ماذا جئت

افعل هنا ؟ » وكانت سترته تلمع لدى المرفقين ، ولم يكن لبنظلوله

بعدُ أية ثنية ، ولم يكن يرقص جيداً ، وكان غير قادرٍ على ان يتسلّى وهو في تلك البطالة الرصينة . وأحس بالضيق : ان المرء لم يكن يستطيع في مونتارتر ان يشعر بالرضى والراحة ، فان قسوة حائرة كانت ترفرف في الهواء .

وأضاءت اللمبات البيضاء من جديد . وتقدم ماتيو الى الحلبة وسط الظهور الماربة . وكانت في احدى الزوايا طاولتان ، وإزاء واحدة منهما كان رجل وامرأة يتكلمان بلهجة حادة ، من غير ان ينظر احدهما الى الآخر . وإزاء الاخرى رأى بوريس وايفيش ، وكان احدهما ينحني نحو الآخر باهتمام في قسوة مليئة بالروعة . « لكأنهما راهبان صغيران . » وكانت ايفيش هي التي تتكلم ، وكانت تتحرك حركات حيّة . ولم يسبق لها قط ، حتى في لحظات الثقة ، ان بدت لماتيو في مثل ذلك الوجه . وفكر ماتيو : « كم هما شابان ! » وكانت به رغبة في ان يستدير على عقبه ويذهب . ولكنه اقترب ، لأنه لم يكن يستطيع بعد ان يتحمّل الوحدة ، وكان يحس انه كان ينظر اليهما من ثقب الباب . اهما سيلاحظانه عما قليل ، وسيدبران اليه ذينك الوجهين المتحللين اللذين كانا يواجهان بهما ابويهما والشخصيات الكبيرة ، وسيكون ثمة ، حتى في اعماق قلوبهما ، شيءٌ ما قد تغير . وكان شديد القرب من ايفيش في تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تراه . وكانت قد انحنت على اذن بوريس هامسة . وكانت تشبه قليلاً - قليلاً جداً - اختاً كبيرة ، وكانت تتحدث الى بوريس في تنازل مدهوش . وأحس ماتيو ببعض العزاء : ان ايفيش لم تكن تستسلم كلياً حتى مع اخيها ، بل هي تلعب دور الاخت الكبيرة ، ولم تكن تنسى نفسها قط . وضحك بوريس ضحكة مقتضبة وقال ببساطة :

- مسامير !

ووضع ماتيو يده على طاولتهما . « مسامير . » وكان حوارهما ينتهي

بهذه الكلمة الى الأبد : فكأنها كانت آخر عبارة في قصة او في مسرحية . وكان ماتيو ينظر الى ايفيش وبوريس : وكان يجدهما بطلي رواية . وقال :
- مرحباً .

فقال بوريس وهو ينهض : - مرحباً .
والقى ماتيو نظرة سريعة نحو ايفيش : وكانت قد استلقت الى الوراء ورأى عينين كثيبتين ممتعتين . كانت ايفيش الحقيقية قد اختفت .
وفكر في غيظ : « ولماذا الحقيقية ؟ »
وقالت ايفيش :

- مرحباً يا ماتيو .
ولم تبسم ، ولكن كان يبدو عليها كذلك مظهر الدهشة او الحقد؛
كان يبدو عليها انها كانت تجد حضور ماتيو طبيعياً جداً . وأشار بوريس
الى الجمع بحركة سريعة وقال في رضى :

- الحضور كثيرون .
فقال ماتيو : - نعم .
- هل تريد مكاني ؟
- لا ، لا تكلف نفسك ، فسوف تعطيه الساعة الى لولا .

وجلس . وكانت الحلبة خالية ، ولم يبق ثمة احد على منصة
الموسيقين : فان الرعاة كانوا قد انجزوا سلسلتهم من رقصات التانغو ،
وكانت جوقة الجاز الزنجية « فرقة هيجينو » توشك ان تحل محلهم .
وسأل ماتيو :

- ماذا تشربان ؟
وكان الناس يطنون حوله ، ولم تكن ايفيش قد اساءت استقباله ،
وكانت تغمره حرارة رطوبة ، وكان يستمتع بالكثافة السعيدة التي يخلّفها
الشعور بان يكون رجلاً بين الآخرين .

وقالت ايفيش : - قدح فودكا .
 - عجباً ! أصبحت تحبين ذلك ؟
 فقالت باقتضاب : - انه قويّ .
 فأشار ماتيو الى زيد ابيض في قدح بوريس وسأل بدافع من الإنصاف
 « وهذا ؟ » وكان بوريس ينظر اليه في إعجاب جـذـلٍ مشدوه ،
 فيحسّ ماتيو لذلك بالضيق . وقال بوريس :
 - إنه مسلّ . هو كوكتيل صاحب الحانة .
 - لقد طلبته اذن بدافع التأدّب ؟
 - انه يلحّ عليّ منذ ثلاثة اسابيع لأذوقه . وهو ، لو تعلم ، لا
 يُحسّن صنع الكوكتيل . لقد اصبح صاحب حانة لانه كان مشعوذاً ،
 وهو يقول انها المهنة نفسها ، ولكنه على ضلال .
 قال ماتيو : - أظن ان ذلك بسبب الطاسة ... ثم ان على من يكسر
 البيض ان يحذق تحريك اليد
 - كان خيراً له اذن ان يبقى مشعوذاً . ومهما يكن من امر ، فاني
 ما كنت آخذ من خليطه القدر لولا انه اعارني مئة فرنك هذا المساء .
 فقالت ايفيش :
 - ولكن كان معي مئة فرنك .
 قال بوريس : - وانا ايضاً ، ولكن لانه صاحب حانة .
 ثم قال موضحاً في دقّة قاسية :
 - يجب ان يقترض المرء مالاً من اصحاب الحانات .
 فنظر ماتيو الى صاحب الحانة ، وكان واقفاً وراء مشربه ، مرتدياً
 اللباس الابيض مشبك الساعدين ، يدخن سيكارتته . وكان ذا مظهر
 هاديء . وقال ماتيو :
 - وددت لو كنت صاحب حانة ... لا بد ان يكون ذلك طريفاً ...
 فقال بوريس : - كان ذلك سيكلفك غالياً ، لانك كنت ستحطّم

كل شيء .
وساد صمت : كان بوريس ينظر الى ماتيو ، وكانت ايفيش تنظر الى بوريس .
وقال ماتيو في نفسه باكتئاب : « ان وجودي هنا لا ضرورة له »
ومد له الخادم لائحة المشروبات : وكان عليه ان يكون حذراً ،
فهو لا يملك بعد اكثر من خمسمئة فرنك . وقال ماتيو :
- ويسكي .
وأخذه فجأةً نفوراً من التوفير ومن هذه الحزمة القابعة في محفظته .
فنادى الخادم :
- انتظر . انني افضل قدح شمبانيا .
واخذ اللائحة من جديد . وكان سعر « الموم » ٨٠٠ فرنك .
وقال لايفيش :
- وانت تأخذين منه ؟
- كلا (وبعد لحظة تفكير) نعم . هذا افضل .
- اعطنا زجاجة « موم » ذات شريطة حمراء .
قال بوريس : - يسرني ان اشرب الشمبانيا لاني لا احبه . ويجب ان اعتاد .
فقال ماتيو : - انكما ، كليكما ، منفوخان . تشريان دائماً مشروبات لا تحبانها .
وتفتح بوريس : كان يلذّه ان يحدثه ماتيو بهذه اللهجة . وعصت ايفيش على شفيتها . وفكر ماتيو في شيء من الارتياح : « لا يستطيع المرء ان يقول لها شيئاً . فان احدهما لا بد ان يغتاظ . » وكانا هناك ، تجاهه ، متنبهين ، قاسيين . كان كل منهما قد صنع لنفسه صورة خاصة عن ماتيو ، وكانا يطلبان منه ان يشبهها . غير ان هاتين الصورتين لم تكونا قابلتين للتوفيق .

وصمتوا .

وارخى ماتيو ساقيه وابتسم من الرضى . وكانت ألحان بوق تبليغه في دفعات ، مُزّنةً مجيدةً ؛ ولم يكن يفكر في ان يلتبس فيها نغماً : كان حسبه أنها هناك ، وانها تحدث ضجيجاً ، وكان هذا يخلف لديه متعةً ضخمة تكاد تكون جسدية . طبعاً ، كان يدرك جيداً انه كان انساناً هالكاً ؛ ولكن ذلك ، في آخر المطاف ، في هذا المرقص ، وازاء هذه الطاولة ، ووسط جميع هؤلاء الآخرين الهالكين مثله ، ان ذلك لم يكن ذا أهمية كبيرة ، ولم يكن شاقاً على الاطلاق . وأدار رأسه : كان صاحب الحانة ما زال يحلم ؛ وكان الى اليمين رجلٌ ذو نظارة واحدة ، وكان وحده ، ذا وجه مدمر . وأبعد قليلاً ، كان ثمة رجل آخر وامامه ثلاث كؤوس ومحفظة سيدة ؛ لا بد ان زوجته وصديقه يرقصان ، وكان يبدو عليه انه اقرب الى الارتياح والعزاء : وقد تئاب طويلاً خلف يده ، وطرفت عيناه الصغيرتان في نشوة . وكانت في كل مكان وجوه باسمة ونظيفة ، وعيونٌ مجوفة . واحس ماتيو فجأة انه متضامن مع جميع هؤلاء الاشخاص الذين كان خيراً لهم لو عادوا الى منازلهم ؛ ولكنهم لم يكونوا حتى ليقووا على ذلك ، فكانوا يلبثون هناك يدخّنون لفائف دقيقة ، ويشربون مزيجاً ذا مذاق من فولاذ ، ويبتسمون وآذانهم تقطر موسيقى ، ويتأملون بعيونهم الفارغة شظايا قنّدرهم ؛ وأحسّ نداءً خفياً لسعادة متواضعة جبانة : « لو كنت مثلهم ... ، وأخذته الخوف فانتفض ، والتفت الى ايفيش . لقد كانت ملاذه الوحيد ، بالرغم مما كانت تبدو عليه من حقد وابتعاد . وكانت ايفيش تنظر الى السائل الشفاف الذي كان باقياً في كأسها : كانت تحول عينيها في قلق . وقال بوريس :

— يجب ان تشرب دفعة واحدة .

فقال ماتيو : — لا تفعل ذلك ، فانك سوف تحرق حنجرتك .

قال بوريس في قسوة : - ان الفودكا تُشرب دفعة واحدة .
وتناولت ايفيش كأسها :

- اني افضل ان اجرعها دفعة واحدة ، فهي بذلك تنتهي سريعاً .
- لا ، لا تشربي . انتظري الشامبانيا .
فقلت في غيظ : - يجب ان التهم ذلك ، فاني اريد ان أتسلى .
وانقلبت الى خلف وهي تُدني الكأس من شفيتها ، وافرغت كل
محتواها في فيها ؛ وكانت تبدو وكأنها تملأ ابريقاً . وظلت كذلك لحظة
لا تجرؤ على الجرع ، وفي جوف حلقها تلك البحيرة النارية الصغيرة .
وكان ماتيو يتألم من اجلها .

وقال لها بوريس :

- لجرعي ! تخيّلني انه ماء : فليس هناك الا هذا .

وانفخ عنق ايفيش ، ووضعت الكأس وعلى وجهها كزازة فظيعة ؛
وكانت عينها مملوءتين بالدمع . وكان من شأن السيدة السمراء ، جارّتهم ،
ان تركت لحظة حلمها الجدل ، واسقطت عليها نظرة مليئة بالتوبيخ .
وقالت ايفيش :

- اوه ! انه يحرق ... هذا نار !

قال بوريس : - سأشترى لك زجاجة من اجل ان تتدربي .
وفكرت ايفيش لحظة :

- خير لي ان اتدرب بعضير الفاكهة ، فهو اقوى .

واضافت في شيء من ضيق : - احسب اني سأستطيع الآن ان
أتسلى .

فلم يجبها احد . والتفت بحوية الى ماتيو : وكانت هذه هي المرة
الاولى التي تنظر اليه :

- انت ، هل تقاوم الحمرة جيداً ؟

قال بوريس : - هو ! انه فظيح ! لقد شرب سبعة اقداح من

الويسكي حين كان ذات يوم يحدثني عن « كانت » . وانتهى الامر
 بي الى اني بت لا اسمع ، فقد تملت بدلاً منه .
 وكان ذلك صحيحاً : ان ماتيو لم يكن يستطيع ان يضيع نفسه ،
 حتى في مثل هذه الحالة . ففي الوقت كله الذي كان يشرب فيه ، كان
 يتعلق بأي شيء . واستعاد فجأة غوغان ، بسحته الضخمة الممتعة
 ذات العينين الفارغتين ؛ وفكر : « بكرامتي الانسانية . » وكان
 يخشى ، اذا هو استسلم لحظة ، ان يجد في رأسه فجأة فكرة ذبابة او
 صرصور ، تائهة عائمة كغيمة من الحر . وقال موضحاً في ذل :
 - اني استفظع ان أتمل . اني اشرب ، ولكني ارفض السكر
 بكل قواي .

فقال بوريس بإعجاب : - الحقيقة انك في هذا عنيد ، بل اعند من

بغل !

- لست عنيداً ، ولكني متوتر : فأنا لا أحسن التراخي والاستسلام .
 يجب عليّ دائماً ان افكر بما يحدث لي ، وهذا سلاح للدفاع .
 واضاف في سخرية ، كأنما يحدث نفسه :
 - اني قصبة مفكرة .

كأنما يحدث نفسه . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً ، انه لم يكن
 صادقاً : لقد كان يود في الحقيقة ان لا يروق لايفيش . وفكر : « أتراني
 اذن بلغت هذا ؟ » لقد بلغ ان يغتم فرصة انهيارها ، ولم يكن يحقر
 ان يستغل من ذلك فوائد دقيقة ، وكان يستخدمها ليتقدم من الفتيات
 الصغيرات بحركات متأدبة . « دنيا ! » ولكنه توقف مدعوراً : فحتى
 حين كان يصف نفسه بالدناءة ، لم يكن كذلك صادقاً ؛ انه لم يكن
 مغتاضاً حقاً . لقد كانت هذه طريقة ليستدرك نفسه ؛ كان يظن انه
 ينقذ نفسه من الاحتقار بـ «الصفاء» ، ولكن هذا الصفاء لم يكن يكلفه
 شيئاً ، بل كان بالاحرى يسليه . وهذا الحكم نفسه الذي كان يحمله

عن صفاته ، هذه الطريقة في ان يتسلق على كتفيه هو بالذات ...
« يجب ان أتغير حتى العظام . » ولكن لم يكن ثمة ما يستطيع
ان يعينه على ذلك : فقد كانت افكاره جميعاً ملوثة منذ مولدها . وفجأة ،
انفجر ماتيو كالجرح ، رأى نفسه كلّه منتفخاً : افكار ، افكار على
افكار ، افكار على افكار على افكار ، كان شفافاً حتى اللانهاية ،
وفاسداً حتى اللانهاية . ثم انطفأ ذلك ، فالقى نفسه جالساً تجاه ايفيش
التي كانت تنظر اليه نظرة غريبة . وسألها :

— هل درست اذن في المدة الاخيرة ؟

فهزت ايفيش كتفها في غضب :

— لا اريد ان يحدثني احدٌ في هذا ! لقد مللت ذلك ، وانا هنا
لأتسلى .

— لقد قضت نهارها متجمعة على الديوان ، وعيناها تشبهان
صحنين !

وأضاف بوريس باعتزاز ، من غير ان يهتم بالنظرة السوداء التي
كانت اخته ترميه بها :

— انها طريفة ! يمكن لها ان تموت برداً في ابان الصيف .

وكانت ايفيش قد ارتعشت ساعات طويلة ، ولعلها بكّت . اما الآن ،
فلم يكن شيء ليبدو عليها : كانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على
جفنيها ، وحمرة فريزية على شفتيها ، وكانت الحمر يلهب وجنتيها ،
وكانت كلها نابضة متفجرة . وقالت :

— اودّ لو اقضي امسية عظيمة ، لأن هذه آخر أمسية لي .

— انك مضحكة .

فقالت بعناد : — بلى ، سوف اسقط ، اعرف ذلك ، وسأرحل
على الفور ؛ فلن استطيع ان ابقى يوماً واحداً بعد في باريس ،
والآ ...

والآ ...

— لا شيء . ارجوك ، لا تتحدث بعد بهذا ، فانه يذلني . آه !
(وازافت بمرح) هي ذي الشمبانيا .

ورأى ماتيو الزجاجة ففكر : « ٣٥٠ فرنكاً » . ان الرجل الذي
لحقه بالأمس ، في شارع فرسانجيتوري ، كان هو ايضاً هالكاً ، ولكن
بكل تواضع ؛ من غير شمبانيا ولا حماقات جميلة ؛ ثم ان فوق ذلك
كان جائعاً . واشمأز ماتيو من الزجاجة ، كانت ثقيلة وسوداء ؛ وكان
لها حول عنقها منديل ابيض . وكان الخادم منحنيًا فوق دلو الثلج بتكلف
ووقار واحترام ، يديره بطرف أصابعه في براعة . وكان ماتيو ما يزال
ينظر الى الزجاجة ، وما يزال يفكر برجل الأمس ؛ فيحس قلبه منقبضاً
بضيق حقيقي ؛ ومن قبيل الصدف انه كان ثمة تلك اللحظة ، على
المنصة ، شاب رصين يغني في بوق . ثم كانت هناك تلك الزجاجة
التي كانت تدور بأناقة تحت الاصابع الصفر ، وجميع اولئك الاشخاص
الذين كانوا يتألمون في عصيرهم من غير ان يفعلوا مثل هذه المشاكل .
وفكر ماتيو : « ان رائحة الخمر الأحمر تنبعث منها ، والواقع انها
تشبهها . ثم انني لا احب الشمبانيا » وبدا له المرقص كله جحياً صغيراً
خفيفاً كفقاعة صابون ، وابتسم .

وسأله بوريس وهو يضحك مقدماً : — لماذا تتلوى من الضحك ؟

— تذكرت انني انا ايضاً لا احب الشمبانيا .

واخذوا جميعاً يضحكون . وكانت ضحكة ايفيش ثابتة ؛ وقد
ادارت جارتها رأسها وحدجتها . وقال بوريس : « اننا مغتبطون » ثم
اضاف :

— بوسعنا ان نفرغها في دلو الثلج حين يذهب الخادم .

فقال ماتيو : — كما تشاء .

قالت ايفيش : — كلا . اريد ان اشرب ، انا . وسأشرب الزجاجة

كلها اذا كنتما لا تريدان ان تشربا منها .
وسكب الخادم الخمر ، وحمل ماتيو كأسه الى شفتيه في كآبة .
وكانت ايفيش تنظر الى كأسها في تبرّم . وقال بوريس :
- لن يكون شيئاً رديئاً اذا كان قد قُدّم لنا وهو يغلي .
وانطفأت اللهب البيضاء ، واضيئت اللهب الحمراء مرة اخرى ،
وانبعثت ضربات طبل . وقفز الى المنصة رجلٌ قصير اصلع مكتنز
الجسم يرتدي السموكنج واخذ يبتسم في بوق :
- سيداتي وساداتي ، يسر ادارة « سومطرا » ان تقدم لكم الآنسة
الينور (وكرّر) الآنسة الـ - لـ - ينو - ر . ها !
ودخلت الى القاعة ، لدى اول نغمات رقصة شعبية ، فتاة طويلة
شقراء . وكانت عارية ، وكان جسمها يبدو ، في الهواء الأحمر ،
قطعة قطن كبيرة . والتفت ماتيو الى ايفيش : كانت تنظر الى الفتاة
العارية بعينيهما الكبيرتين الصفراوين على سعتها ؛ وكانت قد اتخذت
مظهرها القاسي الأهوس . وهمس بوريس :
- انني اعرفها .

وكانت الفتاة ترقص ، وقد استخفتها رغبة مجنونة بان تروق للجمهور ؛
وكانت تبدو غير بارعة ، وكانت تقذف بقوة ساقها الى امام ، واحدة
بعد الاخرى ، وكانت قدماها تبرزان في نهاية ساقها كالأصابع . وقال
بوريس :

- سوف تهلم نفسها ، وستندم !
والواقع انه كان في اطرافها الطويلة رخصة مقلقة ؛ وكانت حين
تضع رجلها على الارض ، تأخذ ساقها رعشات تهزها من الأخص
الى العجز . واقتربت من المنصة والتفت ، ففكر ماتيو : « والآن ،
ستشغل بردفيها » وكانت ضجة الأحاديث تغطي الموسيقى في موجات .
وقالت جارة ايفيش وهي تزوى شفتيها :

انها لا تحسن الرقص . وحين يكون ثمن المشروب خمسة وثلاثين فرنكاً ، فيجب الاعتناء بالبرنامج .

وقال الرجل السمين : - ان عندهم « لولا مونتيرو »
- هذا لا يغير الحقيقة . انه لأمر معيب ، فقد لموا هذه من الشارع .

وشربت جرعة من كأسها الممزوج واخذت تلعب بخواتمها . واجال ماتيو نظره في القاعة فلم يلتق الا بسحنات قاسية رصينة . وكان الناس يتلذذون بغيظهم : فقد كانت الفتاة تبدو لهم عارية مرتين ، لأنها كانت عديمة الخدق . وكأنها كانت تشعر بعداوتهم وكانت تأمل ان تعطفهم عليها . ودهش ماتيو لارادتها المصممة المتفانية : فقد كانت تمد لهم ساقها المنفرجتين في موجة من حماسة تمزق القلب . وقال بوريس :

- ما أشد ما تنفق نفسها !

فقال ماتيو : - انها لن تنجح ، فالناس يريدون ان يحترموا .

- بل يريدون خاصة ان يروا إستات .

صحيح ، ولكن يجب إحاطة ذلك باطار من الفن .

وذاث لحظة انثنت ساقا الراقصة تحت وهن رديها الجلدين ، فنهضت وهي تبتسم ورفعت ذراعيها في الهواء وهي تهزهما ، فسقطت منها رعشات انزلقت الى الراسلين ، وجاءت تتلاشى في ثنية الاصلاب ، وقال بوريس :

- ما أصلب وركيها . ان هذا لعجيب !

فلم يجب ماتيو ، وكان يفكر في ايفيش . ولم يكن يجرؤ على النظر اليها ، واكنه كان يتذكر مظهرها القاسي ؛ ان هذه الصبية الملعونة كانت ، في آخر المطاف ، كجميع الناس : كانت تلتهم بعينيها ، في احساس من الفظاظة ، هذا اللحم المسكين العاري ، وهي محمية بجملها ،

بشبابها الرصينة . وصعدت الى شفتي ماتيو موجة من الحقد سمّت فـه :
« لم يكن الامر يستحق ما اخذت نفسي به من تكآف وحذر ، في
هذا الصباح . » ولوى رأسه قليلاً ، فرأى قبضة ايفيش متشنجة فوق
الطاولة . وكان ظفر الإبهام القرمزي الرهيف يتجه الى الحلبة كأنه سهم
للإشارة : وفكر « انها متوحدة ، وهي تخفي وراء شعرها وجهها
المضطرب ، وهي تضم ساقها ، انها تلتذّ ا » وكانت هذه فكرة لا
يحتملها ، وقد اوشك ان ينهض ويمضي ، ولكنه لم يكن يقوى على
ذلك ، فاكتفى بأن فكر : « انما احبها لطهارتها » . وكانت الراقصة
ويداها على خاصرتهما ، تنتقل على عقبها ، فلامست طاولتهم بجانبها .
وودّ ماتيو لو يشتهي هذه الوسادة ليتلهّى عن افكاره ، وليمثل مع
ايفيش فصلاً جميلاً . وكانت الفتاة قد قرفت ، مباحة ما بين
ساقها ، وكانت تؤرجح ردفها على مهل من امام الى وراء ، كأحد
هذه المصابيح الصفراء التي تنوس ليلاً في المحطات الصغيرة وهي معلقة
بذراع غير مرئية . وقالت ايفيش :

— تفه ا اني لا اريد بعد ان اراها .

فالتفت اليها في دهشة ، ورأى وجهاً مثلثاً متحللاً بالغضب والاشمزاز .
وفكر في عرفان « انها لم تتأثر » . وكانت ايفيش ترتعش ، وودّ ان
يبتسم لها ، ولكن رأسه امتلأ بالجلجل ؛ وتسلل بوريس وايفيش
والجسد الداعر والغيمة الحمراء خارج متناول يده ، فاذا هو وحيد ،
واذا في البعيد نارٌ من بنغال ، وفي الدخان مسخٌ بأربع سيقان يستعرض
براعته ، وكانت موسيقى حفلة تبلغه في قفزات عبر ضجيج اوراق
رطبة . وتساءل : « ماذا دهاني ا » كان ذلك كالصباح : فانه لم
يكن حوله بعد الا مشهد ، وكان ماتيو في مكان آخر .

وكفّت الموسيقى فجمدت الفتاة مولية وجهها شطر القاعة . وكان لها
فوق بسمتها عينان جميلتان يائستان . ولم يصفق احد ، وندّت بعض

ضحكات جارحة . وقال بوريس :

— متوحشون !

وصفقت يديه في قوة ، فالتفتت اليه وجوه دهشة ، وقالت ايفيش غاضبة :

— اتريد ان تكف ؟ انك لن تصفقت لها .

فقال بوريس وهو يصفق : — انها تفعل ما تستطيع .
وهذا أولى !

فهز بوريس كتفيه وقال : — اني اعرفها . لقد تعشيت معها ومع لولا ، وهي فتاة طيبة ولكنها قاصرة الخيال .

واختفت الفتاة وهي تبتسم وترسل القبلات . وغمر القاعة نوراً ابيضاً ؛ فكانت اليقظة : كان الناس مسرورين ان يتلاقوا فيما بينهم بعد ان اخذت العدالة مجراها ، واشعلت جارة ايفيش سيكارة وبسطت وجهها لنفسها وحدها . ولم يكن ماتيو ليستيقظ ، وانما كان غارقاً في كابوسه الابيض ، وكانت الوجوه تتفتح حوله في اكتفاء ضاحك رخو ، ولم يكن يبدو على معظمها انها مسكونة . اما وجهي فلا بد انه كذلك ، ولا بد انه يملك ملائمة العينين وزوايا الفم ، ومع ذلك ، فلا بد ان يرى انه كان أجوف .. كان وجه كابوس ، ذلك الرجل الذي كان ينطنط على المنصة ويقوم بحركات يطلب فيها السكوت ، وعليه مظهر من يتلذذ سلفاً بالدهشة التي سوف يحدثها ، بأن يتصنع انه يسقط إسقاطاً في البوق ، من غير تعليق ، وبكل بساطة ، الاسم الشهير :

— لولا مونتيرو !

واهتزت القاعة مشاركة وحماسة ، وانفجر التصفيق وبدا بوريس مفتوناً .

— انهم منشرحون تماماً ، وسوف يمشي الحال .

وكانت لولا قد التصقت بالباب ؛ وكان وجهها المسطح الحرب

يشبه من بعيد فم أسد ، وكان كتفاها في بياضها الراءش ذي الاشعاعات
الخضراء تشبهان ظلال شجرة في مساء عاصف تحت اضواء سيارة .
وتتمت ايفيش :
ما اجملها !

واقتربت بخطى واسعة هادئة ، في يأس مليء بالارتياح ، وكانت لها
يدا سلطانة صغيرتان ومحاسنها المثقلة ، ولكنها كانت تضيء على مشيتها
سخاء رجل .

وقال بوريس في اعجاب :

— انها تنثر حولها الرضى ، فهم لن يحاولوا ان يجعلوها تتعثر .
وكان هذا صحيحاً : فان جلوس الصف الاول كانوا قد تقهقروا
على كراسيهم مستشعرين الرهبة ، يكادون لا يجرؤون على النظر عن
كئب الى هذا الوجه المجيد . وجه خطيب كبير شعبي ، عليه ظل
من الأهمية السياسية : كان الفم يدرك عمله ، وكان قد ألف التناؤب
العريض ، وكانت الشفتان بارزتين لتقيئا الفضاة والاشمزاز ولتنقلا
الصوت الى بعيد . وتجمدت لولا فجأة ، فتنهدت جارة ايفيش عجباً
وإعجاباً ، وفكر ماتيو « لقد استولت عليهم » .

واستشعر الضيق : لقد كانت لولا في صميم ذاتها شائخة ومهووسة ،
غير ان وجهها كان يكذب فيمثل الشموخ والهوس . وكانت تتألم ،
لان بوريس كان يوثسها ، غير انها كانت تغنم دورها في الغناء ، خمس
دقائق في اليوم ، لتتألم في فن ! « حسناً ! وانا ؟ ألسن أتألم في فن ،
وامثل دور الشخص الهالك بمرافقة الموسيقى ؟ (وفكر) ومع ذلك ،
فانا حقاً شخص هالك . » وكان الوضع حوله شبيهاً : كان ثمة اشخاص
غير موجودين على الاطلاق ، أنجرة ، ثم كان هناك اشخاص موجودون
اكثر مما ينبغي . كصاحب الحانة مثلاً . لقد كان الساعة يدخن سيكارة
يبدو غامضاً شاعرياً كأنه شجرة لبلاب ، اما الآن فقد استيقظ ، فاذا

هو صاحب حانة أكثر مما ينبغي ، كان يهزّ الدلو ويفتح الزجاجاة ويدلق منها زبدًا اصفر في كؤوس بحركات ذات دقة مبالغ فيها : كان يمثل دور صاحب الحانة . وفكر ماتيو في برونيه . « لعل المرء لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ولعل عليه ان يختار : اما ان لا يكون شيئاً او ان يمثل ما هو . (وقال في نفسه) سيكون هذا مريعاً ، لان المرء سيكون مزوراً بطبيعته . »

وأجالت لولا نظرها في القاعة ، على غير ما عجل . وكان قناعها المتألم قد قسا وتجمّد ، فكان يبدو منسياً على وجهها . ولكن ماتيو حسب انه يفاجيء في جوف عينيها ، ووحدهما كانتا حيتين ، وشعلة من فضول مرء ومهدّد لم يكن فيه تمثيل . ورأت اخيراً بوريس وايفيش فبدت مطمئنة . وابتسمت لهما بسمّة كبيرة مليئة بالطيبة ، ثم أعلنت بلهجة ضائعة :

— اغنية بحار : جوني بالمر .

وقالت ايفيش : — احبّ صوتها ، لكأنه قطعة مخمل كبيرة مضلّعة .

— نعم .

وفكر ماتيو : « جوني بالمر ايضاً ! »

وبدأت الموسيقى ، ورفعت لولا ذراعيها الثقيلتين . هكذا اذن ، انها تصلّب ، ورأى فأ دامياً ينفث :

من هو قاس ، حسود ، مرير ؟

ومن يغشّ في اللعب ، حين يخسر ؟

ولم يعد ماتيو يصغي ، وكان خجلاً أمام هذه الصورة للألم . كان يدرك جيداً انها لم تكن الا صورة ، ولكن مع ذلك ...

« لست اعرف ان اتألم ، اني لا اتألم ابداً بما فيه الكفاية . »
كان أشقّ ما في العذاب ، أنه كان شبحاً ، وان المرء يقضي وقته في

الجرى خلفه ، وبحسب دائماً انه سيدركه ويرتمي في داخله ويتعذب حقاً وهو يكثر على اسنانه ، ولكنه ما ان يسقط فيه حتى يفرّ ، فلا يجد المرء بعد الا نثاراً من كلام وألوفاً من المحاكيات العقلية المجنونة تضح بدقة « ان ذلك يثرثر في رأسي ، ولا يني يثرثر ، واني اعطي ايّ ثمن لاستطيع ان اصمت . » ونظر الى بوريس في غيرة ، لا بدّ ان وراء هذا الجبين المصدوم ألواناً عظيمة من الصمت .
من هو قاس ، حسود ، مريّر ؟

انه جوني بالمر !

« انني اكذب ا » كان انهياره ، وانتحابه اكاذيب وفراغاً ؛ كان قد قذف نفسه في الفراغ ، على سطح نفسه ، ليفلت من ضغط عالمه الحقيقي ، هذا الضغط الذي لا يحتمل . عالم اسود شديد الحرارة يُستن الاثير . في ذلك العالم ، لم يكن ماتيو شخصاً هالكاً - على الاطلاق ، بل كان اسوأ من ذلك : كان جدلاً - جدلاً ومذنباً ، وكانت مارسيل هي التي ستكون هالكة اذا لم يجد خمسة آلاف فرنك قبل اليوم التالي . ستكون هالكة حقاً . من غير غنائية ؛ لان ذلك يعني انها ستبيض الطفل او انها ستموت بين يدي امرأة عقاقيرية . في ذلك العالم لم يكن العذاب حالة نفسية ، ولم تكن ثمة حاجة الى الكلمات للتعبير عنه : وانما كان مظهرأ للاشياء . « تزوّجها انها البوهيمي المزيف ، تزوّجها يا عزيزي ، لماذا لا تزوّجها ؟ » وفكر ماتيو في اشمزاز : « اراهن انها ستموت من ذلك . » وصدقت الجميع وتنازلت لولا فابتسمت ، وانحنت وقالت :

- اغنية من اوبرا « الفلوس الاربعة » : خطيبة القرصان .

« لا احبها حين تغني هذا . لقد كانت مارغوليون ابرع منها . اشدّ غموضاً . اما لولا فهي عقلانية ، وهي بلا غموض . ثم انها طيبة اكثر مما ينبغي . انها تكرهني ، ولكن كراهية كبيرة صريحة ، وهذا

أمر سليم ، كراهية انسان شريف . « وكان يستمع بشرود الى هذه الافكار الخفيفة التي كانت تركز كالفقران في مستودع حبوب . وكان تحت ذلك نعاس ثقيل حزين ، عالم ينتظر في صمت : لا بد ان يسقط فيه ماتيو عاجلاً ام آجلاً . وتمثل مارسيل ، تمثل فيها القاسي وعينيها الشاردتين : « تزوجها ايها البوهيمي المزيّف ، تزوجها ، لقد بلغت سنّ الرشد ، يجب ان تتزوجها . »

سفينة حربية

ذات ثلاثين مدفعاً في الكوى

ستدخل المرفأ

« كفى ، كفى ! سأجد المال ، لا بد ان اجده والا تزوجتها ، هذا مفهوم ، فلست دنيئاً جباناً ، ولكن هذا المساء ، هذا المساء فقط ، دعوني من هذا كله ، اريد ان انسى ؛ ان مارسيل لا تنسى ، انها في الغرفة ، متمددة فوق السرير ، انها تتذكر كل شي ، وهي « تراني » وتصغي الى ضجّات جسمها ، وبعد ذلك ؟ سيكون لها اسمي ، وحياتي كلها عند اللزوم ، ولكن هذه الليلة لي . « والتفت الى ايفيش ، وارتمى نحوها ، فابتسمت له ، ولكنه صدم انفه بجدار زجاجي بينا كان الناس يصفقون ، ويطلبون « اغنية اخرى ، اغنية اخرى . « فلم تبال لولا بهذه الابطهالات : فقد كان لها دور غنائي آخر ، عند الساعة الثانية صباحاً ، وكانت ترفق بنفسها . وحيث الجمهور مرتين ، واقربت من ايفيش ، فالتفتت رؤوس الى طاولة ماتيو ، ونهض ماتيو وبوريس :

— مرحباً يا صغيرتي ايفيش ، كيف الحال ؟

وقالت ايفيش بلهجة رخوة : — مرحباً لولا .

ولامست لولا ذقن بوريس بيد خفيفة :

— مرحباً ايها اللثيم .

وكان صوتها الهاديء الرصين يضيفي على كلمة « لثيم » لونا من الجدارة ؛ وكان يبدو ان اولاً تقصّدت اختيارها من الكلمات الرديئة المؤثرة التي تطفح بها اغانيها . وقال ماتيو :

— تحية يا سيدتي .

فقلت : — آه ! انت هنا ايضاً ؟

وجلسوا . والتفتت لولا الى بوريس ، وكان يبدو انها مرتاحة كل الارتياح .

— يظهر انهم طاردوا الينور ؟

— انهم يتكلمون عنها .

— لقد جاءت تبكي في غرفتي . وكان سارونيان غاضباً ، فهذه هي المرة الثالثة منذ ثمانية ايام .

وسأل بوريس في قلق : — انه لن يسرحها ؟

— كان راغباً في ذلك : فليس بينهما تعاقد . فقلت له : اذا ذهبت ، ذهبتُ معها .

— وماذا قال ؟

— ان بوسعها ان تبقى اسبوعاً آخر .

وأجالت نظرها في القاعة وقالت بصوت مرتفع :

— ان الجمهور قذر ، هذا المساء .

قال بوريس : — عجباً ! ليس هذا رأيي !

وكانت جارة ايفيش التي كانت تلتهم لولا بعينيها في وقاحة قد ارتعشت . وأخذت ماتيو رغبة في الضحك ، وكان يجد لولا قريبة جداً الى القلب . وقالت لولا :

— ذلك انك غير معتاد . حين دخلت رأيت فوراً انهم ارتكبوا عملاً

رديئاً ، فقد كان مظهرهم سيئاً . (وازافت) هل تعلم ؟ اذا فقدت بالفتاة مكانها ، لم يبق لها الا ان تكون فتاة رصيف .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة ، وكان الشرود بادياً عليها ، فقالت
في عنف :

- لا يهمني ان تكون فتاة رصيف ، ان ذلك يناسبها اكثر من
الرقص .

وكانت تجهد في ان يظل رأسها مستقيماً وعيناها الورديتان الحائلتان
مفتوحتين . وفقدت شيئاً من اطمئنانها ، فأضافت في لهجة مصالحة
عاجلة :

- طبعاً ، اني ادرك ان عليها ان تكسب قوتها .
فلم يجب احد : فتألم ماتيو من اجلها : لقد كان شاقاً عايتها ان
تبقى رأسها مستقيماً . وكانت لولا تنظر اليها في سكينه ، كما لو انها
كانت تفكر : « طفلة ثري » . وضحكت ايفيش ضحكة صغيرة
وقالت بلهجة خبيثة :

- لست بحاجة الى الرقص .
وانكسرت ضحكتها وهوى رأسها . وقال بوريس في هدوء :
- ما اشد ما تقاوم !
وكانت لولا تتأمل رأس ايفيش في فضول . وبعد لحظة ، مدت
يدها الصغيرة السمينة ، فتناولت شعر ايفيش في قبضتها ورفعت لها رأسها ،
وكان يبدو عليها مظهر المرضة :

- ماذا دهاك يا صغيرتي ؟ هل افرطت في الشرب ؟
وكانت تزيح خصلات ايفيش الشقراء ، كأنها تزيح ستاراً ، كاشفة
عن خدين ممتعنين بارزيق . وفتحت ايفيش عينين محتضرتين ، وتركت
رأسها يهوي الي خلف . وفكر ماتيو من غير انفعال : « سوف تقيء » .
وكانت لولا تشد شعر ايفيش شدات صغيرة .

- افتحي عينيك ، افتحي عينيك ! هل تريدان ان ننظري الي ؟
فانفتحت عينا ايفيش على سعتهما ، وكانتا تلتمعان بالكراهية ، وقالت

بصوت واضح مثلج :

— حسناً ! هأنذا انظر اليك !

قالت لولا : — عجباً ! لست ثملة الى الحد الذي ظننت ! X

وتركت شعر ايفيش : فرفعت ايفيش يديها بحموية وردت خصلاتها على خديها ، وكانت تبدو وكأنها تسوي قناعاً ، والواقع ان وجهها المثلث عاد فظهر تحت اصابعها ، ولكن بقي حول فها وفي عينيها شيء ما لزوج ومنهوك . وظلت لحظة بلا حراك ، تشبه السائر في النوم ، بينما كانت الجوقة تعزف رقصة « سلو » . وسألت لولا :

— هل تدعوني للرقص ؟

فنهض بوريس وأخذها يرقصان . وتابعهما ماتيو بنظره ، ولم يكن راغباً في الكلام . وقالت ايفيش بلهجة غامضة :

— ان هذه المرأة توبختي .

— لولا ؟

— كلا . جارتني . انها توبختي .

فلم يجب ماتيو . واستتلت ايفيش :

— كنت اود كثيراً ان اتسلى هذا المساء ... وهكذا ! اني اكره

الشمبانيا .

« لا بد انها تكرهني ايضاً ، لأنني انا الذي حملتها على شربها . »
وأدهشه ان يراها تتناول الزجاجات من الدلو وتملاً قدحها ، فسألها :

— ماذا تفعلين ؟

— اعتقد اني لم اشرب قدرأ كافيا منها . هناك درجة يجب باوغها ،
وبعدها يكون المرء في حالة جيدة .

ففكر ماتيو بأنه كان عليه ان يمنعها من الشرب ، ولكنه لم يفعل شيئاً . وحملت ايفيش القدح الى شفيتها فارتسمت على وجهها كزازة
اشمزاز وقالت وهي تضع القدح :

- كم هو رديء !
ومرّ بوريس ولولا قرب طاولتهما ، وكانا يضحكان . وصاحت
لولا :

- كيف الحال ، ايتها الفتاة الصغيرة ؟
فقال ايڤيش ببسمة ودية : على خير ما يرام الآن .
واخذت قدح الشمبانيا وافرغته دفعة واحدة من غير ان تغادر لولا
بعينها . فبادلتها لولا بسمتها ، وابتعد الراقصان . وكان يبدو على
ايڤيش انها مفتونة ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

- انها تشده اليها ، وهذا ... مضحك . فهي تشبه الغولة .
وقال ماتيو في نفسه : « انها تغار ، ولكن من ايها ؟ »
كانت نصف سكرى ، وكانت تبتسم بسمة مهووسة وهي منشغلة
ببوريس ولولا . وكانت تهتم به كما تهتم بشجرة كرز ، وكان فقط
وسيلةً تمكنها من ان تتكلم بصوت مرتفع : فان ابتساماتها ومظاهرها
وجميع الكلمات التي تقولها ، انما كانت توجهها لنفسها عبره هو . وفكر
ماتيو : « لا بد ان ذلك امرٌ لا احتمله ، وهو يدعني بارداً
تماماً . »

وقالت ايڤيش فجأة :

- لرقص .

فانتفض ماتيو :

- ولكنك لا تحبين ان ترقصي معي .

قالت ايڤيش : - لا بأس ، اني سكرى .

ونهضت وهي تترنح ، وكادت تسقط ولكنها امسكت بطرف
الطاولة . وأخذها ماتيو بين ذراعيه وحملها ، فدخلوا في حمام بخاري ،
فانطبق الجمع عليهما ، مظلماً معطراً . وذات لحظة ابتلع ماتيسو ،
ولكنه سرعان ما وجد نفسه ، وكان يسير خلف زنجي ، وكان وحيداً ،

اذ كانت ايفيش قد طارت منذ الخطوات الاولى فهو لا يحس بها بعد.
- كم انت خفيفة !

واخفض عينيه فرأى اقداماً وفكر : « هناك كثيرون لا يرقصون
خيراً مني » وكان يمسك بايفيش بعيدة عنه ، في طرف ذراعه تقريباً ،
ولم يكن ينظر اليها . وقالت :

- انت ترقص بدقة . ولكن الظاهر ان ذلك لا يروق لك .

قال ماتيو : - انه يحيفني .

وابتسم : - انت مذهشة . كنت منذ لحظة لا تزالين تستطيعين
السير . وها انت ترقصين الآن كأنك محترفة .

فقالت ايفيش : - استطيع ان ارقص وانا سكرى ميتة ، واستطيع
ان ارقص طول الوقت ، فهذا لا يتعبني .

- حبذا لو كنت كذلك .

- انك لن تستطيع .

- اعرف ذلك .

وكانت ايفيش تنظر حولها في عصبية ، وقالت :

- انني لا ارى بعد الغولة .

- لولا ؟ هي الى اليسار خلفك .

قالت : - لنذهب نحوهما .

وصدما زوجاً من الراقصين هزيبلاً ، فاعتذر منهما الرجل وقذفتها
المرأة بنظرة سوداء ؛ وكانت ايفيش ، ورأسها مستدير الى الخلف ،
تسحب ماتيو القهقري . ولم يرها بورييس ولا لولا قادمين ؛ وكانت
لولا تغمض عينيها ، وكانت جفونها لطحنتين زرقاوين في وجهها القاسي ؛
وكان بورييس يبتسم وهو ضائع في عزلة ملائكية .

وسألها ماتيو : - والآن ؟

- لنبق هنا ، فالمكان ارحب .

وكانت ايفيش قد اصبحت ثقيلة تقريبا ، وكانت لا تكاد ترقص وعيناها مسمرتان على اخيها وعلى لولا . ولم يكن ماتيو يرى بعد الا طرف اذن بين خصلتين . واقترب بوريس ولولا وهما يستديران على نفسيهما ، وحين اصبحا قريبين جداً ، قرصت ايفيش اخاها فوق مرفقه :

— مرحباً يا « بوسيه » الصغير .
فحملت بوريس بعينه في دهشة وقال :
— ايه ! لا تهربي يا ايفيش ! لماذا تسميني هكذا ؟
فلم تجب ايفيش ، بل حملت ماتيو على الانفتال وأولت بوريس ظهرها . وكانت لولا قد فتحت عينيها ، فسألها بوريس :
— أفهمين لماذا تسميني « بوسيه » الصغير ؟
قالت لولا : — اظن اني افهم السبب .
وقال بوريس بضع كلمات اخرى ، ولكن ضجة التصفيق غطت صوته ، وكان الجواز قد صمت ، وكان الزوج يستعجلون الذهاب ليفسحوا المجال للجوقة الارجتينية .
وعادت ايفيش وماتيو الى طاولتهما . وقالت ايفيش :
— انني اتسلى بصورة جنونية .
وكانت لولا قد جلست ، فقالت لايفيش :
— انك ترقصين ببراعة كبيرة .
فلم تجب ايفيش ، وكانت تحدّد في لولا نظراً ثقيلاً . وقال بوريس لماتيو :

— لقد كنت ظريفاً ، وكنت احسب انك لم تكن ترقص .
— ان اختك هي التي ارادت .
فقال بوريس : — ان من كان قوياً مثلك ينبغي ان يقوم بالرقص البهلواني .

وساد صمت ثقيل . وكانت ايفيش معتصمة بالسكوت ، متوحدة
متطلبية ، ولم تكن لأحد رغبة في الكلام . وكانت سماء محلية صغيرة قد
تكوّنت فوق رؤوسهم ، مستديرة جافة ، خانقة . وأضيت اللمبات
من جديد . وعند انغام التانغو الاولى ، انحنى ايفيش نحو لولا وقالت
بصوت ابح :
- تعالي .

فقلت لولا : - لا اعرف ان اقود .
قلت ايفيش : - انا التي اقود .
وأضافت بلهجة رديئة وهي تكشف عن اسنانها :
- لا تخافي ، فاني اقود كالرجل .
ونهضتا ، فضمت ايفيش اليها لولا في وحشية ودفعتها نحو الحلبة .
وقال بوريس وهو يحشو غليونه :
- انهما ظريفتان .

- نعم .
وكانت لولا خاصة ظريفة : فقد كانت تبدو عليها هيئة فتاة صبية .
وقال بوريس :
- انظر .

وأخرج من جيبه سكيناً ضخماً ذا مقبض عاجي ووضع على الطاولة .
وقال موضحاً :

- انه سكين باسكي .
وأخذ ماتيو السكين في ادب وحاول ان يفتحه ، فقال له بوريس :
- لا يُفتح بهذه الطريقة ايها الشقي ! انك توشك ان تذبح نفسك !
واسترد السكين ففتحه ووضعه بالقرب من قدحه وقال :
- انه سكين قائد . هل ترى هذه اللطخات السمراء ؟ لقد اقسام
لي الشخص الذي باعني اياه ان هذا دم .

وصمتا . وكان ماتيو ينظر من بعيد الى رأس لولا المأساوي الذي كان ينزلق فوق بحر مظلم . « لم اكن ادري انها كانت طويلة الى هذا الحد . » وصرف عينيه فقراً على وجه بوريس سروراً ساذجاً انفطر له قلبه . وفكر في ندم : « انه مسرور لأنه معي ، وانا لا اجد قط شيئاً اقله له . » وقال بوريس :

— انظر الى هذه المرأة التي وصلت ، الى اليمين ، عند الطاولة الثالثة .

— الشقراء ذات المجوهرات ؟

— نعم ، انها مجوهرات مزيفة . هيا . انها تنظر الينا .

فأراق ماتيو نظرة خفية نحو فتاة طويلة وجميلة ذات مظهر بارد .

— كيف تجدها ؟

— بين بين

— كان لي معها اتصال يوم الثلاثاء الماضي ، وكانت محشوة ، وكانت تريد طوال الوقت ان تدعوني للرقص . وبالإضافة الى ذلك ، اهدت اليّ علبة سكاثرها الفضية . وقد جنّ جنون لولا . فأعادتها لها مع الخادم .

واضاف باقتضاب :

— كانت من فضة ، وكانت مطعمة بأحجار كريمة .

قال ماتيو : — انها تأكلك بعينها

— افهم ذلك .

— وماذا ستفعل بها ؟

فقال باحتقار : — لا شيء . انها خلية احدهم .

فسأله ماتيو عجباً : — يعني ؟ ها انت ذا فجأة متطهر !

فقال بوريس ضاحكاً : — ليس الامر كذلك . ولكن البغايا والراقصات والمغنيات متشابهات في آخر المطاف . فاذا ملكت احدهن

ملكتهنّ جميعاً . (ووضع غليونه وقال بجذ) ثم انني انسان طاهر ،
ولست مثلك .

قال ماتيو : - هكذا اذن !

فقال بوريس : - سترى ، سترى فسوف ادهشك : سأعيش
كالرهبان حتى تنتهي علاقي بلولا .

وكان يفرك يديه فيما بينهما بهيئة اغتباط . وقال ماتيو :
- لن تنتهي بمثل هذه السرعة .

- في اول تموز . بمّ تراهن ؟

- بلا شيء . انك تراهن كل شهر بأنك ستقطع علاقتك في الشهر
القادم ، ثم تخسر في كل مرة . انت مدين لي قبل الآن بمئة فرنك ،
وبزوج من نظارات السباق ، وخمس علب سكاير والسفينة التي رأيناها
في شارع السين وهي داخل زجاجة . انك لم تفكر قط في القطيعة ،
لأنك احرص على لولا مما ينبغي .

قال بوريس : - انت تؤذيني في صميم قلبي .

فأضاف ماتيو من غير ان يضطرب : - غير ان ذلك اقوى منك .
انك لا تستطيع ان تشعر انك ملتزم . ان هذا يثير جنونك .

قال بوريس بلهجة غضب مرح : - آن لك ان تصمت . وبوسعك
ان تتأكد من انك لن تحصل على سكايرك وعلى سفينتك !

- اعلم ذلك ، فأنت لا تسدد قط ديونك الشرفية : انك شقيّ
صغير .

فأجاب بوريس : - وانت ... انت انسان متوسط .

واشرق وجهه : - الا ترى انها اهانة فظيعة ان تقذف انساناً
بقولك : ياسيدي ، انت شخص متوسط .

قال ماتيو : - لا بأس .

- او ان تقول له ، وهذا افضل : - انت يا سيدي إمعة !

فقال ماتيو : - كلا ، ليس هذا ؛ فانك تضعف به مركزك .
فأقرّه بوريس على فكرته وقال : - انت على حق . انك كريبه ،
لأنك دائماً على حق .

وأشعل غليونه مرة اخرى بعناية ، وقال بلهجة مختلطة مهووسة :
- سأصارك برأيي : اود ان تكون لي امرأة من النساء المشهورات .
قال ماتيو : - عجباً ، ولماذا ؟

- لست ادري . اعتقد ان ذلك لا بد ان يكون طريفاً ، وأنهن
لا بد ان تكون لمن تصرفات كثيرة . ثم ان ذلك مثير للغرور ، فنهن
من تذكر اسمائهن في مجلة « فوغ » وانت تدرك معنى ذلك . تشتري
« فوغ » وتنظر الى الصور فترى الكونتيس مدام دوروكامادور مع
كلابها الستة ثم تفكر : لقد ضاجعت هذه المرأة مساء امس . لا شك
ان ذلك يروعك .

قال ماتيو : - أتلاحظ انها تبسم لك الآن ؟
- نعم . انها ثملة . وانها لو تدري خبيثة ، فهي تريد ان توقع
بيني وبين لولا لأنها لا تطيقها . (وقال مصمماً) اريد ان اوابها
ظهري .

- ومن هو الشخص الذي يجالسها ؟
- زميل . انه يرقص في « الالكازار » . هو جميل ، اليس
كذلك ؟ انظر الى سحنته . انه في حدود الخامسة والثلاثين ، وهو يشبه
شخصية « شاروبين »^١

قال ماتيو : - وماذا في ذلك ؟ ستصبح انت هكذا حين تبلغ
الخامسة والثلاثين .

فقال بوريس باقتضاب : - سأكون قد مت منذ وقت طويل حين

(١) بطل من ابطال «زواج الفيغارو» لبورماشييه ، نموذج المواثق الذي يفتح للحب - المترجم.

ابلى الخامسة والثلاثين .

- يروك ان تقول ذلك .

قال بوريس : - اني مسلول .

- اعرف ذلك (كان بوريس ذات يوم قد جرح لثتيه وهو ينظف

اسنانه فبصق دماً) اعرف ذلك . وبعد ؟

قال بوريس : - سيان لدي ان اكون مسلولاً . كل ما في الامر

اني اشمئز من العناية بنفسى . واري ان على الانسان الا يتجاوز الثلاثين ،

لأنه يصبح بعد ذلك طرحاً عجوزاً .

ونظر الى ماتيو وأضاف :

- انا لا اعنيك في هذا القول .

قال ماتيو : - نعم . ولكنك على حق ؛ ان المرء بعد الثلاثين

طرح عجوز .

- اود لو أعطي عامين اضافيين ، ثم ابقى طوال حياتي في تلك

الس . سيكون ذلك ممتعاً .

فنظر الى ماتيو في ود مدهوش . لقد كان الشباب بالنسبة لبوريس

مزيةً قابلة للاستهلاك ومجانبة . وينبغي ان يُفاد منها بوقاحة ، وكان في

الوقت نفسه فضيلة اخلاقية ينبغي للمرء ان يبدو جديراً بها . بل كان

اكثر من ذلك ، كان الشباب في نظره تبريراً . وفكر ماتيو « لا بأس ،

انه يعرف ان يكون شاباً . » ربما كان هو وحده ، بين جميع هؤلاء

الناس ، موجوداً هنا حقاً ، في هذا المرقص ، على كرسىه . « ليس الامر

سخيفاً الى هذا الحد : ان يعيش المرء شبابه بعمق ثم ينفجر في الثلاثين .

مهما يكن من امر ، فان المرء بعد الثلاثين ميت : »

قال بوريس : - يبدو عليك انك متضايق جداً .

فانتفض ماتيو : لقد كان بوريس محمراً من فرط الاضطراب ،

ولكن كان ينظر الى ماتيو في رغبة بالمساعدة قلقة . وسأله ماتيو :

- هل يُرى ذلك عليّ ؟
- وكيف ! انه يُرى جيداً جداً .
- اني في ضيق مادي .
- فقال بوريس بقسوة : - انك تسيء الدفاع عن نفسك . لو كنت اتقاضى مثل راتبك لما احتجت الى الاستدانة . هل تريد المئة الفرنك التي استدنتها من صاحب الحانة ؟
- شكراً . اني بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .
- فصفر بوريس صفرة مسموعة وقال :
- اوه ، معذرة ! هل سيقدمها لك صديقك دانيال ؟
- انه لا يستطيع .
- وأخوك ؟
- لا يريد .
- فقال بوريس حزياً : - اوه ! طز... (واضاف بارتباك) اذا كنت تريد ...
- اذا كنت اريد ماذا ؟
- لا شيء . كنت افكر : شيء مزعج . ان لولا تملك محفظة محشوة ، وهي لا تفعل بها شيئاً .
- اريد ان استدين من لولا .
- ولكني ما دمت اقسم لك انها لا تفعل بها شيئاً . لو كان الامر بحسابها في المصرف لما قلت ذلك : انها تشتري اسهماً ، وتضارب في البورصة ، فلنقل انها بحاجة الى مالها . ولكنها تحتفظ في بيتها بسبعة آلاف فرنك منذ اربعة اشهر ، وهي لم تمسّ منها فلساً ، بل هي لم تجد الوقت لإيداعها في البنك . اكرر لك انها قابضة في جوف محفظة . فقال ماتيو منزعجاً :
- انك لا تفهم . لا اريد ان استدين من لولا لأنها لا تطيقني .

فأخذ بوريس يضحك وقال :

- هذا صحيح . انها لا تطيقك .

- اترى اذن .

قال بوريس : - غير ان ذلك مزعج . انك متضايق جداً بسبب خمسة آلاف فرنك ، حتى اذا كانت في متناول يدك عدلت عن اخذها .
واذا طلبتها لحسابي انا ؟

قال ماتيو بحموية : - كلا ، كلا ، لا تفعل شيئاً ، فلا بد ان تعرف الحقيقة يوماً . (وأضاف بإلحاح) أتعدني حقاً ؟ سوف يزعجني ان تطلب منها .

فلم يجب بوريس . وكان قد تناول سكينه بين اصبعيه ورفعها على مهل الى مستوى جبينه ، موجهاً رأسه الى اسفل . واستشعر ماتيو الضيق وفكر : « انه دنيء . انه لا يحق لي ان اتلبس صورة الرجل الشريف على حساب مارسيل . » والتفت الى بوريس ، وكان يريد ان يقول له : « هيا ، اطلب المال من لولا . » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة واحدة ، ونقر الدم الى خديه . وباعد بوريس اصابعه فسقط السكين ، وانغرزت الشفرة في الارض الخشبية وأخذ مقبضها يهتز .
وعادت ايفيش ولولا الى مكانهما . ولم بوريس السكين ووضعها على الطاولة ثانية .

وسألت لولا : - ما هذا الشيء الفظيع ؟

قال بوريس : - انه سكين قائد . وقد جلبته لأجعلك تمشين في استقامة .

- انك مسخ صغير .

وكانت الجوقة قد بدأت تانغو آخر . ونظر بوريس الى لولا نظرة غامضة وقال بين اسنانه :
- تعالي نرقص .

قالت لولا : - ستميتونني جميعاً .
وكان وجهها قد اشرق ، وأضافت ببسمة سعيدة :
- انك لطيف .

ونفض بوريس ، وفكر ماتيو : « سيطلب منها المال مع ذلك »
وكان مسحوقاً بالخجل ، ولكنه كان يشعر بارتياح جبان . وجلست ايفيش
الى قربه ، وقالت بصوت ابح :
- انها عظيمة .

- نعم . انها جميلة .
- اوه ... ثم هذا الجسم ! كم هو مؤثر ذلك الوجه الخرب على
هذا الجسد المتفتح . لقد كنت اشعر بالزمن يمضي ، وأحس بأنها
سوف تدبل بين ذراعي .

وكان ماتيو يتابع بعينه بوريس ولولا . ان بوريس لم يبدأ الموضوع
بعد ، كان يبدو وكأنه يمازح لولا ، وكانت هي تبسم له . وقال ماتيو
بشروود :

- انها قريبة الى القلب .
فقال بلهجة جافة : - قريبة الى القلب ؟ اوه ، كلا ، انها انثى
قذرة .

واضاف في فخر : - لقد كنت اخيفها .
قال ماتيو : - لقد رأيت .
وكان يشبك ساقيه ثم يفكهما . وسألها :
- هل تريدان ان ترقصي ؟
قالت ايفيش : - لا . اريد ان اشرب (وملأت قدها الى منتصفه
وأضافت موضحة) من الخير ان يشرب المرء حين يرقص ، لأن الرقص
يمنع السكر والخمر يجعلك ضامداً .
وأضافت بلهجة متوترة :

— عجيب كم انا مسرورة !

وفكر ماتيو : « هذا هو . انه يحدثها » وكان بوريس قد اتخذ لهجة الجدد ، وكان يتكلم من غير ان ينظر الى لولا . ولم تكن لولا تقول شيئاً . وذات لحظة حجب كتفا زنجي عملاق رأس لولا عنه ، ثم ظهرت ثانية في هيئة غامضة ، ثم كفت الموسيقى ، وانفجر الجمع فخرج منه بوريس متغطراً مستاء . وكانت لولا تتبعه عن كثب . ولم يكن يبدو عليها السرور . وانحنى بوريس على ايفيش وقال بسرعة :
— أدّي لي هذه الخدمة : ادعها للرقص .

فنهضت ايفيش من غير ان تظهر دهشة وهرعت للقاء لولا . وقالت لولا :

— اوه ، كلا ، يا صغيرتي ايفيش ، اني متعبة جداً .

وتشاورتا لحظة ، ثم اقتادتها ايفيش . وسأل ماتيو :

— ألا تريد ؟

— كلا . وستدفع ثمن ذلك غالباً .

وكان ممتعاً ، وكانت هيئته الحاقدة المسترخية تكسبه شبهاً بأخته .

وكان ذلك شبهاً يثير القلق والاستياء . وقال ماتيو خائفاً :

— لا ترتكب اية حماقة .

وسأله بوريس : — انك عاتب عليّ ، اليس كذلك ؟ لقد منعني

من ان احدثها ...

— سوف اكون قادراً اذا كنت عاتباً عليك : فأنت تعلم اني تركتك

تحدثها ... ولماذا رفضت ؟

قال بوريس وهو يهز كتفيه :

— لا ادري ، فقد بدت بهيئة قدرة . وقالت انها كانت بحاجة الى

مالها . هكذا اذن ! (قال بلهجة اندهاش) للمرة الاولى اطلب منها

شيئا ... لقد اضاعت رشدها ! يجب ان تدفع الثمن ، امرأة في مثل

سنّها ، حين تريد ان تحصل على شخص مثلي !

– وكيف صورت لها الامر ؟

– قلت لها ان المال من اجل صديق يريد ان يشتري مرأباً . وقلت

لها اسمه : بيكار . وهي تعرفه . وصحيح انه يريد ان يشتري مرأباً .

– لا بد انها لم تصدقك .

قال بوريس : – لا ادري ، ولكن الذي ادريه انها ستدفع ثمن

ذلك على التو .

فصاح به ماتيو : – احتفظ بهدوتك .

فقال بوريس بلهجة عدائية : – اوه ... حسناً ! هذا من شأني .

ومضى ينحني امام الشقراء الطويلة التي تورّدت قليلاً ثم نهضت .

وحين اخذا يرقصان مرت لولا وايفيش بالقرب من ماتيو . وكانت

الشقراء تنصنع المرح على وجهها ، ولكن بسمتها كانت تخفي الحذر .

وكانت لولا تحتفظ بهدوتها ، وتقدم بعظمة فيبتعد الناس لمرورها تعبيراً

منهم عن الاحترام . اما ايفيش فكانت تسير القهقري وعيناها في السماء ،

بلا شعور . وتناول ماتيو سكين بوريس من شفرتها وضرب مقبضها

بالطاولة ضربات صغيرة جافة . وفكر : « سيسيل الدم » . وكان غير

مكترث بذلك على الاطلاق . كان يفكر بمارسيل . وفكر : « مارسيل ،

امرأتي . » وانغلق شيء ما عليه ، هادراً . امرأتي ، وستعيش في

منزلي . هكذا . وكان هذا طبيعياً ، طبيعياً جداً ، كما لو ان المرء

يتنفس ، ويبتلع ريقه . وكان ذلك يلامسه من كل مكان ، ابيض ،

لا تتشجج ، كن مرناً ، كن طبيعياً . في بيتي . سأراها كل يوم من

ايام حياتي . وفكر « كل شيء واضح . ان لي حياة . »

حياة . كان ينظر الى جميع تلك الوجوه المحمرة ، وهذه الاقار

الحمرء التي كانت تنزل على وسائد من غيوم : « ان لهم حيوات .

جميعاً . لكل حياته . وهي تنمطى عبر جدران المرقص ، عبر شوارع

باريس ، عبر فرنسا ، وتلتقي متشابكة ، وتتقاطع وتبقى كل منها مع ذلك شخصية خاصة كفرشاة اسنان ، كموسى حلاقة ، وكأشياء الزينة التي لا تُعار . كنت اعرف ذلك . كنت اعرف أنه كان لكل منهم حياته . ولم أكن اعرف انه كانت لي انا ايضاً حياة . كنت افكر : انني لا افعل شيئاً . وسوف افلت منها . والحقيقة اني كنت أُلجها . « ووضع السكين على الطاولة ، واخذ الزجاجه فحنها فوق قدحه : كانت فارغة . وكان باقياً بعض الشمبانيا في قدح ايفيش ، فنناول القلح وشرب .

« لقد تئابت ، وقرأت وضاجعت . وكان هذا يترك طابعه وأثره . كانت كل حركة من حركاتي تثير ، خارجاً عنها ، في المستقبل ، انتظاراً صغيراً عنيداً كان ينضج . وهذه الانتظارات هي انا ، وانا الذي انتظر نفسي في المنعطفات وفي ملتقيات الطرق ، وفي قاعة مختارية الدائرة الرابعة عشرة الكبرى ، انا الذي انتظر نفسي هناك ، على اريكة حمراء ، انتظر ان آتي الى هناك ، مرتدياً ثوباً اسود ، مع ياقة مستعارة قاسية ، ان آتي الى هناك لأموت من فرط الحرّ واقول : نعم ، نعم ، اوافق على ان اتخذها زوجة . « وهزّ رأسه بعنف ، ولكن حياته كانت تصمد جيداً حوله . « بهدوء ودفقة ، ووفقاً لاهوائي ولكسلي ، فرزت محارتي . وقد انتهى الآن كل شيء . انني مسور من كل مكان ! في الوسط يقوم منزلي وانا في داخله ، وسط ارائكي الجلدية الخضراء ، وفي الخارج يقوم شارع « الغيتيه » ذو الاتجاه الواحد لانني اهبطه دائماً ، وجادة « مين » وباريس كلها مستديرة حولي ، الشمال من امام ، والجنوب من خلف ، والبانتيون الى اليمين ، وبرج ايفل الى اليسار ، وباب غلينيانكور تجاهي ، وفي وسط شارع فيرسينجيتوري ثقب صغير مصقول باللون الوردي ، غرفة مارسيل ، امرأتي ، ومارسيل في داخلها ، عارية ، تنتظرني . ثم حول باريس

كلها ، تقوم فرنسا تخترقها الشوارع ذات الاتجاه الواحد ، ثم بحور مرقشة بالازرق او الاسود ، البحر المتوسط بالازرق ، وبحر الشمال بالاسود ، والمانش بلون قهوة مع الحليب ، ثم بلاد ، المانيا ، ايطاليا - اسبانيا بالابيض لانني لم اذهب لاقاتل فيها - ثم مدن مستديرة ، على مسافات محددة من غرفتي ، تومبوكتو ، تورنتو ، كازان ، نيغيني - نوفغورد ، جامدة كأنها انصاب . واذهب ، وامضي ، واتنزه ، وأتية ، ومهما تبت : فهذه عطلة جامعي ، فأينما ذهبت حملت معي محارتي ، وابقى في غرفتي بالمنزل ، وسط كتبي ، ولا اقرب ستمتراً واحداً من مراکش او من تومبوكتو . حتى ولو كنت استقل القطار ، او الباخرة ، او الاوتوكار ، لو ذهبت اقضي عطلي في مراکش ، ولو وصلت فجأة الى مراکش العاصمة ، فاني سأكون باقياً ابدأ في غرفتي ، بمنزلي . واذا مضيت اتنزه في الساحات والاسواق ، واذا شددت على كتف عربي ، لألمس فيه مراکش ... فان هذا العربي هو الذي سيكون في مراکش ، لا انا . اما انا ، فسأظل دائماً جالساً في غرفتي ، هادئاً متأملاً كما اخترت ان اكون ، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من المراكشي ومن برنسه . وفي غرفتي . الى الابد ، الى الابد عشيق مارسيل القديم ، والآن زوجها الاستاذ ، الى الابد ذلك الذي لم يتعلم الانكليزية ، ولم يدخل الحزب الشيوعي ، والذي لم يكن في اسبانيا ، الى الابد . »

« حياتي » . كانت تحيط به . كانت شيئاً غريباً لا بدء له ولا نهاية ، وليس هو مع ذلك لامحدوداً . كان يتابعها بنظرة من مختارية الى اخرى ، من مختارية الدائرة الثامنة عشرة حيث قضى في اكتوبر ١٩٢٣ مدة المحكمة الادارية ، الى مختارية الدائرة الرابعة عشرة حيث سيتزوج مارسيل في شهر آب او ايلول ٣٨ ؛ كان لها معنى مبهم وحائر كالايشاء الطبيعية ، وتففة لزج ، ورائحة غبار وبنفسج .

وفكر : « لقد قضيت حياة درداء ، حياة درداء . لم اعص قط . كنت انتظر ، كنت احفظ نفسي لما بعد - وهأني الاحظ انه لم تبك لي اسنان . فما العمل ؟ أحطّم المحارة . هذا يسير في القول . ومن جهة اخرى ، ما الذي سوف يبقى ؟ قطعة صغيرة من الصمغ اللزج سوف يزحف في الغبار مختلفاً وراءه اثرأ برآفاً . »

ورفع عينيه فرأى لولا ، وكان على شفيتها بسمة خبيثة . ورأى ايفيش : كانت ترقص ، ورأسها مرتد الى الخلف ، ضائعة ، لا عمر لها ولا مستقبل : « ليست لها محارة » كانت ترقص ، وكانت ثملة ، ولم تكن تفكر في ماتيو . على الاطلاق . ليس اكثر مما لو كان غير موجود . وكانت الجوقة قد اخذت تعزف تانغو ارجنتينياً . وكان ماتيو يعرفه جيداً ، هذا التانغو ، انه « ميو كابلو موريو » ولكنه كان ينظر الى ايفيش . وكان يخيل اليه انه كان يسمع هذه النغمة الحزينة القاسية للمرة الاولى . « انها لن تكون لي ابدأ ، لن تدخل ابدأ ، لن تدخل ابدأ في محارتي » وابتسم ، وكان يحسّ أماً صغيراً منعشاً ، وتأمل بحنان هذا الجسم الصغير الغضوب الدقيق الذي رست فيه حرите : « عزيزتي ايفيش ، عزيزتي الحرية » وفجأة اخذ يخلّق فوق جسمه الوسخ ، فوق حياته ، وعي نقي ، وعي بلا انا ، بعض هواء حار فحسب : كان يخلّق ، وكان نظراً ، ينظر الى البوهيمي المزيف ، البورجوازي الصغير المتشبت بأهوائه ، المثقف الفاشل « الذي ليس هو ثورياً ولا ثائراً » الخالم التجريدي الذي تحيط به حياته الدبقة ، وكان يحكم : « ان هذا الشخص هالك ، انه لم يسرقها . » اما هو ، الوعي ، فلم يكن متضامناً مع احد ، كان يدور في الحبيب الدائر ، مسحوقاً ، ضائعاً ، متألماً هناك على وجه ايفيش المرتنة بالموسيقى ، الحزينة ، الزائلة . وعي احمر ، شكوى صغيرة غامضة ، ميو كوبالو موريو ، وكان قادراً على كل شيء ، على ان ييأس حقاً من

اجل الاسبانيين ، وعلى ان يقرّر اي شيء . ليت ذلك يدوم هكذا ...
ولكن ذلك لا يمكن ان يدوم : كان الوعي ينتفخ وينتفخ ، وكفّت
الجوقة ، فانفجر . وألقى ماتيو نفسه وحيداً مع نفسه ، في قعر حياته ،
جافاً وقاسياً ، وكفّ عن ان يدين نفسه ، وعن ان يقبل نفسه ،
وكل ما هناك انه كان ماتيو : « نشوة اخرى . وبعد ذلك ؟ » وعاد
بوريس الى مكانه ، ولم يكن يبدو عليه كثير من الاعتزاز . وقال
لماتيو :

— اوه لا ، لا !

فسأله ماتيو : — ماذا هناك ؟

— الشقراء . انها امرأة قادرة .

— ماذا فعلت ؟

— فقطّب بوريس حاجبيه وارتعش من غير ان يجيب . وعادت ايفيش
تجلس بالقرب من ماتيو . وكانت وحيدة . واجال ماتيو نظره في القاعة
فاكتشف لولا بالقرب من الموسيقين ، وكانت تتحدث مع سارونيان .
وكان يبدو على سارونيان انه دهّش ، ثم رمى نظرة خفية باتجاه
الشقراء الطويلة التي كانت تهزّ المروحة باهمال . وابتسمت له لولا
وعبرت القاعة . وحين جلست ، كان يبدو عليها مظهر غريب . ونظر
بوريس الى حذائه الأيمن في تصنّع ، وساد صمت ثقيل . وصاحت
الشقراء :

— ان هذا مبالغ فيه ، فليس لك الحق ، وانا لن اذهب .

وانتفض ماتيو ، والتفت الجميع . كان سارونيان قد انحنى باكرام
مفرط فوق الشقراء كخادم في مطعم يتلقى طلب الزبون . وكان يحدثها
بصوت منخفض بلهجة هادئة قاسية . ونهضت الشقراء فجأة وقالت
لرفيقها :

— تعال .

فقال سارونيان : - لا ، لا ، انا الذي ادفع .
فدعكت الشقراء ورقة من فئة المئة فرنك ورمتها على الطاولة . وكان
رفيقها قد نهض ، وكان ينظر الى الورقة المالية في توبيخ . ثم اخذت
الشقراء ذراعه ومضى الاثنان مرتفعي الرأس ، وهما يهزان كشحيهما
هزة واحدة .

واقرب سارونيان من لولا وهو يصفر فقال في بسمة راضية :
- سيُحرُّ الجو حين تعود .
قالت لولا : - شكراً . لم اكن اتوقع ان يكون الامر بهذه
السهولة .

وكانت الجوقة الارجتينية قد غادرت القاعة ، فعاد الزوج يدخلون
بآلاتهم واحداً اثر الآخر . وحدد بوريس بلولا نظر غضب واعياب ،
ثم التفت فجأة نحو ايفيش وقال :
- تعالي لمرقص .

ونظرت اليها لولا نظرة ساكنة بينما كانا ينهضان . ولكن وجهها
نحلل فجأة حين ابتعدا . وابتسم لها ماتيو قائلاً :
- انك تفعلين ما تشائين في المرقص .
فقالت بلامبالاة : - انني اجذبهم . ان الاشخاص يأتون الى هنا
من اجلي .

وظلت عيناها قلقتين ، واخذت ترتب على الطاولة في عصبية . ولم
يعد ماتيو يعرف ما يقول لها . ومن حسن الحظ انها نهضت بعد لحظة
وهي تقول : « المعدرة . »

ورآها ماتيو تجتاز القاعة وتحنفي . وفكر : « انها ساعة المخدر »
وكان وحيداً . كانت ايفيش وبوريس يرقصان في صفاء يشبه صفاء
لحن موسيقي ويكادان لا يقلان عنه قسوة . وأدار رأسه ونظر الى قدميه .
ومرّ زمن . ولم يكن يفكر بشيء . وانتفض لنوع من الشكوى

المبحوحة . كانت لولا قد عادت ، وكانت عيناها منغلقتين ، وكانت تبتسم . وفكر : « لقد اخذت حسابها . » وفتحت عينيها وجلست . دون ان تكف عن الابتسام .

– أكنت تعلم ان بوريس كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟
فقال : – كلا . لم اكن اعرف . كلا . هل هو بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

وكانت لولا ما تزال تنظر اليه ، وكانت تهتز من خلف الى امام . وكان ماتيو يري حدقتين كبيرتين خضراوين مع بؤبؤين دقيقين . وقالت لولا :

– لقت رفضت ان اعيره اياها . هو يقول انها لبيكار ، وكنت اظن انه في هذه الحالة سيتوجه اليك .
فأخذ ماتيو يضحك :

– هو يعرف اني لا املك درهماً قط .
وسألت لولا بلهجة من لا يصدق :
– اذن لم يكن لديك علم بهذا ؟
– طبعاً ، لا .

قالت : – عجباً ! ان هذا غريب .
وكان يخيل لمن يراها انها ستسقط ، بما هي هيكل في الهواء ، كأنه حطام قديم ، او ان فيها سيتمزق ويطلق صرخة رهيبية . وسألته :

– هل أتى الى بيتك منذ حين ؟
– نعم ، حوالى الساعة الثالثة .
– ولم يحدثك عن شيء ؟
– ما الذي يُدهش في ذلك ؟ ربما التقى ببيكار بعد ظهر اليوم .
– هذا ما قاله لي .
– واذن ؟

فهزت لولا كنتفيها :

- ان بيكار يعمل طوال النهار في « ارجانتوي » .

فقال ماتيو بلامبالاة :

- كان بيكار في حاجة الى مال ، ولا بدّ انه مرّ على بوريس في الفندق . فلم يجده ، ثم التقى به وهو يهبط جادة سان ميشال . فنظرت اليه لولا باستهزاء :

- هل تتصور ان يأتي بيكار ليطلب خمسة آلاف فرنك من بوريس الذي لا يملك الا ثلاثمئة فرنك شهرياً كنفقات جيب ؟
فقال ماتيو مغتاضاً : - اذن لا ادري .

وكانت به رغبة لأن يقول لها : « ان المال لي . » فبهذا سيتهي الامر على الفور . ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب بوريس . « انها ناقمة عليه نقمة رهيبة ، فهو يبدو وكأنه ضالعٌ معي . » وكانت لولا تربت على الطاولة بطرف اظافرها القرمزية ؛ وكانت زاويتا فمها ترتفعان فجأة فترتجفان قليلاً ثم تسترخيان . وكانت ترصد ماتيو في إلحاح قلق ، ولكن ماتيو كان يُحسّ ان تحت هذا الغضب المتربّص فراغاً كبيراً معتكراً . وكانت به رغبة للضحك . وادارت لولا عينيها وسألته :

- اليس في الامر ، على الارجح ، امتحان ؟

فرددت بدهشة : - امتحان ؟

- أتساءل .

- امتحان ؟ اية فكرة غريبة .

- ان ايفيش تقول له دائماً اني بخيلة .

- ومن اخبرك ذلك ؟

فقالت لولا في لهجة انتصار : - ايدھشك ان اعرفه ؟ الحقيقة انه طفل وفيّ . ينبغي الا تتصور ان بالامكان ان يحدثه احد عني بالسوء من غير ان يبلغني ذلك . اني ادرك هذا في كل مناسبة ، مكنتفيّة

بالطريقة التي ينظر اليّ بها . او انه يطرح عليّ اسئلة في لهجة تتقصّد
عدم المسّ بالموضوع . يكفي ان اراه آتياً من بعيد . ان هذا اقوى .
منه ، فهو يريد ان يكون قلبه صافياً .
- واذن ؟

- لقد اراد ان يرى ان كنت حقاً بخيلة ، فاخترت قضية ببيكار
هذه . الا ان يكون هناك من اوحى له بذلك .
- ومن تريد ان يكون قد اوحى له ؟
- لست ادري . ان هناك كثيرين يفكرون بأنني عجوز وانه طفل .
يكفي ان ترى وجوه سمكات هذا المرقص حين ترانا معاً .
- أتتصورين انه يهتمّ بما يقلنه له ؟
- لا ، ولكن هناك من يحسبون انهم يعملون لصالحه حين يملأون
رأسه غروراً .

فقال ماتيو : - اسمعي ، لا حاجة بك الى لبس القفاز : ان كنت
تقصدينني بهذا الكلام ، فانك مخطئة .
قالت اولاً برودة : - آه ! هذا ممكن (وساد صمت ثم سألت
فجأة) كيف يتفق ان تحدث هنا مشاكل حين تأتي معه ؟
- لا ادري ، ولا افعل شيئاً لهذه الغاية . لم اكن اريد اليوم ان
آتي ... وانا اتصور انه يجب كلاً منا بشكل مختلف ، وان اعصابه
تثور حين يرانا نحن الاثنين في وقت واحد .
وكانت لولا تنظر امامها باستقامة نظرة غامضة متوترة . وقالت
اخيراً :

- اسمع هذا جيداً : اني لا اريد ان يؤخذ مني . انا متأكدة اني
لا اسيء اليه . وحين يملتي يستطيع ان يتركني ، وسوف يأتي ذلك
عما قريب . ولكني لا اريد ان يأخذه الآخرون مني .
وفكر ماتيو : « انها تكشف بضعاتها . » وكان ذلك طبعاً بتأثير

المخدر . ولكن هناك شيء آخر : كانت لولا تكره ماتيو ، ومع ذلك فان ما تقوله له هذه اللحظة لم تكن تجرؤ على ان تقوله لسواه . لقد كان بينها وبينه ، بالرغم من الكراهية ، نوع من التضامن . وقال : لا اريد ان آخذه منك .

فقال لولا بلهجة مغلقة : - لقد كنت اظن .

- يجب اذن الا تظني ذلك . ان علاقاتك ببوريس لا تعينني . ولو كانت تعينني لوجدت ان وضعكما هكذا جيداً جداً .

- كنت اقول لنفسني : يظن انه مسؤول لانه استاذة :

وصمتت ففهم ، ماتيو انه لم يقنعها . كانت يبدو وكأنها تبحث عن كلماتها . واضافت بمشقة :

- اعرف ... اعرف انني امرأة مسنة .. وانا لم انتظر لك للاحظ ذلك . ولكن من اجل هذا بالذات استطيع ان اساعده (واضافت في تحد) هناك اشياء استطيع ان اعلمها اياها . ثم ما الذي ينبئك بانني كبيرة عليه ؟ انه يحبني كما انا ، وهو سعيد معي اذا لم توضع في رأسه جميع هذه الافكار .

وكان ماتيو صامتاً . وصاحت لولا بعنف غير موثوق :

- ولكن لا بد انك تعرف انه يحبني . لا بد انه ابغاك ذلك ،

ما دام يقول لك كل شيء .

قال ماتيو : - اعتقد انه يحبك .

فأدارت لولا نحوه عينيها الثقيلتين :

- لقد رأيت الواناً كثيرة من الرجال ، ولا انكر ذلك ، ولكنني

اقول لك : ان هذا الطفل هو حظي الاخير : وبعد هذا ، افعلوا ما

شتم .

ولم يجب ماتيو على الفور . كان ينظر الى بوريس وايضش اللذين

كانا يرقصان ، وكانت به رغبة لان يقول للولا : « لا نتنازع ، فانت

ترين جيداً اننا متشابهان . « ولكن هذا الشبه كان يثير اشمئزازه قليلاً ؛ فقد كان في حب لولا ، بالرغم من عنفه ، وبالرغم من صفاته ، شيء ما رخوٌ وشره . ومع ذلك ، فقد قال من طرف شفتيه :

— تقولين هذا لي ... انني اعرفه مثل معرفتك له .

— ولماذا مثل معرفتي له ؟

— اننا متشابهان .

— وماذا يعني هذا ؟

فقال : — انظري الينا ، وانظري اليها .

فاتخذت لولا مظهر الازدراء وقالت :

— لسنا متشابهين .

وهز ماتيو كفيه ثم صمتا ، وهما على خلاف . وكان كلاهما ينظر الى بوريس وايفيش . وكان بوريس وايفيش يرقصان ، وكانا قاسيين من غير ان يعرفا ذلك . او ربما كان يعرفانه قليلاً . وكان ماتيو جالساً بالقرب من لولا ، ولم يكونا يرقصان لان الرقص لم يكن يناسب سنهما كثيراً . وفكر : « لا بد ان الناس ينظرون الينا كعاشقين . » وسمع لولا تتمم لنفسها وحدها : « ليتني اتأكد من ان ذلك هو حقاً لبيكار . »

وكان بوريس وايفيش عائدتين نحوهما . ونهضت لولا في جهد . وحسب ماتيو انها ستسقط ولكنها تشبثت بالطاولة واخذت نفساً طويلاً .

وقالت لبوريس :

— تعال ، اريد ان احدثك .

فبدأ الضيق على بوريس :

— الا تستطيعين ان تحدثيني هنا ؟

— لا .

— حسناً . انتظري حتى تستأنف الموسيقى وترقص .

قالت لولا - لا . اني متعبة . وسوف تأتي الى غرفتي . المعذرة
 يا صغيرتي ايفيش .
 قالت ايفيش بتودد : اني سكرى .
 وقالت لولا : سنعود عما قليل . ثم ان دوري في الغناء وشيك .
 وابتعدت لولا فتبعها بوريس على مضض . وتراخت ايفيش على
 مقعدها ، وهي تقول :
 - صحيح اني سكرى . ولقد شعرت بذلك وانا ارقص .
 فلم يجب ماتيو . وسألت ايفيش :
 - لماذا ذهبنا ؟
 - سوف يتحادثان . ثم إن لولا قد اخذت مخدراً . وانت تعلمين
 ان من يأخذ الجرعة الاولى لا يفكر بعد الا بأخذ الثانية .
 وقالت ايفيش حاملة :
 أظن اني احب ان آخذ مخدراً .
 - طبعاً .
 فقالت مغتاظة :
 - ولم لا ؟ اذا كان علي ان ابقى طوال حياتي في « لاون » ،
 فيجب ان أشغل نفسي .
 وصمت ماتيو فقالت :
 - آه فهمت ! انك غاضب علي لأنني سكرى .
 - كلا .
 - بلى ، انت توبخني .
 - كيف ذلك ؟ ثم انك لست سكرى الى هذا الحد .
 فقالت ايفيش في سرور :
 - اني سكرى الى - ابعد - حد .
 وبدأ الناس يذهبون . وكانت الساعة حوالي الثانية صباحاً . وكانت

لولا في غرفتها ، وهي حجرة صغيرة قدرة مفروشة بالمخمل الأحمر ،
تتهدد وتبتهل : بوريس ! بوريس ! بوريس ! انك تجنّني ، فيخفض
بوريس رأسه خائفاً وعنيداً . وكان ثوب طويل اسود يتطاير بين الجدران
الحمراء ، فينعكس بريقه الاسود في المرآة مع انبثاق الذراعين الجميلتين
البضاوين اللتين كانتا تتلويان في تأثير بالغ . ثم ان لولا ستختفي فجأة
خلف حاجز ، وهناك ستنشق في استسلام ، ورأسها مرتد كما لو انها
تريد وقف نزيه دموي من انفها ، نشقتين من مسحوق ابيض وكان
جبين ماتيو يسيل عرقاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ على مسحه ، وكان خجلاً
من ان يعرق امام ايفيش ؛ لقد رقصت من غير توقّف ، وظلّت
ممتعة الوجه ، ولكنها لم تكن ترشح عرقاً . وكانت قد قالت صباح
اليوم نفسه : « اني اشمئز من جميع هذه الايدي اللزجة » ؛ وهو
لا يعرف بعد ما يفعل بيديه . وكان يستشعر الضعف والتعب ، ولم
تكن به اية رغبة بعد ، ولم يفكر بشيء بعد . وبين لحظة واخرى ،
كان يقول ان الشمس لن تلبث طويلاً حتى تشرق ، وان عليه ان
يستأنف مساعيه ويخاير مارسيل ، وساره ، ويعيش نهراً آخر بطوله .
وكان هذا يبدو له امراً لا يُصدق . انه يودّ لو يبقى الى الابد امام
هذه الطاولة ، تحت هذه الانوار الاصطناعية . بالقرب من ايفيش .
وقالت ايفيش بصوت ثمل :

— اني مسرورة جداً .

ونظر اليها ماتيو : كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان
شيء تافه كافياً لإحالتها الى غضب . وقالت ايفيش :

— طز في الامتحانات ، واذا سقطت فسأكون مسرورة . اني هذا
المساء ادفن حياتي كطفلة .

وابتسمت وقالت في حماسة .

— انها تلتمع كلؤلؤة صغيرة !

– مالذي يلتصع كلؤلؤة صغيرة ؟
– هذه اللحظة . انها مستديرة ، معلقة في الفضاء كلؤلؤة صغيرة .
اني خالدة .

وتناولت سكين بورييس من مقبضها ، وأسندت صفحة الشفرة على
جانب الطاولة واخذت تتسلى بمحاولة طيها ، ثم سألت فجأة :

– ما بالها ، تلك ؟

– من ؟

– المرأة ذات الثوب الاسود ، الى جانبي . انها لم تكف منذ
مجيئها توبخني .

وأدار ماتيو رأسه : وكانت ذات الثوب الاسود تنظر الى ايفيش
من طرف عينها .

وسألت ايفيش : – الا ترى ؟ اليس صحيحاً .

– اظن ان نعم .

ورأى وجه ايفيش الصغير الكزّ وعينيها الغامضتين الحاقدين وفكر :
« كان خيراً لي ان اصمت . » وكانت ذات الثوب الاسود قد فهمت
جيداً انها كان يتحدثان عنهما : ذلك انها اتخذت مظهراً متغطرساً ،
وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر الى ايفيش بعينه الكبيرتين . وفكر
ماتيو « كم يبدو هذا مضجراً ! » وكان يستشعر الكسل والجبن ، وكان
مستعداً لإعطاء كل شيء ليحول دون حدوث شيء .

وتمت ايفيش وهي تخاطب السكين :

– هذه المرأة تحقرني لأنها محتشمة . اما انا فلست محتشمة : اني

اتسلى وأتمل ، وسوف أسقط في شهادتي (وازدافت فجأة بصوت
قوي) اكره الحشمة !

– اسكبي يا ايفيش ، ارجوك .

فنظرت اليه ايفيش نظرة مثلجة وقالت :

- اظن انك تكلمني ؟ صحيح . انت ايضاً محتشم . لا تخف :
فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين امي وابي ، فسأكون اكثر
احتشاماً منك .

وكانت مسترخية على مقعدها ، وكانت تسند بعناد شفرة السكين
على الطاولة وتثنيها بحركة مجنونة . وساد صمت ثقيل ثم التفتت ذات
الثوب الاسود الى زوجها وقالت :

- انني لا افهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع .
فنظر الزوج بخوف الى كفتي ماتيو وهمهم : « نعم »
واضافت المرأة : - ليس الخطأ كله خطأها ، وانما المذنبون هم
الذين ساقوها الى هنا .

وفكر ماتيو : « هكذا ! هذه هي الفضيحة ! » ولا شك في ان
ايفيش قد سمعت ، ولكنها لم تقل شيئاً ، وكانت عاقلة . عاقلة اكثر
مما ينبغي : كانت تبدو وكأنها ترصد شيئاً ، وكانت قد رفعت رأسها
وانخذت مظهرأ غريباً مهووساً وجدلاً .

وسألها ماتيو في قلق : - ماذا هناك ؟

وكانت ايفيش قد امتنعت تماماً .

- لا شيء . وانما أرتكب عملاً آخر غير محتشم ، لكي أسلتي
السيدة . اريد ان ارى كيف تحتل منظر الدم .

واطلقت جارة ايفيش صرخة خفيفة وخفقت اجفانها . ونظر ماتيو
بسرعة الى ايدي ايفيش : كانت تمسك السكين بيدها اليمنى وتشق
باطن يدها اليسرى بعناية . وكانت بشرتها قد انفلقت ما بين ربله
الابهام حتى جذر الاصبع الصغير . وكان الدم يقطر على مهل . وصاح
ماتيو :

- ايفيش .. يداك المسكينتان .

وكانت ايفيش تقهقه في غموض ، وسألته :

— هل تظنّ انها سوف تدير عينيها ؟
ومدّ ماتيو يده فوق الطاولة فتركه ايفيش يأخذ السكين بلا مقاومة .
وكان ماتيو ضائعاً ، وكان ينظر الى اصابع ايفيش الهزيلة التي كان
الدم قد لوّثها ، وكان يفكر بان يدها كانت تؤلمها . وقال :

— انت مجنونة ! تعالي معي ، فان سيّدة المغسلة سوف تضمّد
جرحك .

ونددت عن ايفيش ضحكة خبيثة :

— تضمّد جرحي ؟ هل انت مدرك لما تقول ؟

فنهض ماتيو : — تعالي يا ايفيش ، ارجوك ، تعالي بسرعة .

فقال ايفيش من غير ان تنهض :

— انه شعور لذيد جداً . لقد كنت اظنّ ان يدي كانت قطعة من

الزبدة .

وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى انفها ونظرت اليها بعين فاحصة .

وكان الدم يسيل في كل ناحية ، فكأنه ذهاب نمل واياه . وقالت :

— انه دمي . احبّ كثيراً ان ارى دمي .

قال ماتيو : — كفى ، كفى !

وامسك ايفيش من كتفها ، ولكنها تخلّصت منه بعنف فسقطت

نقطة دم كبيرة على الخوان . وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين

تلتمعان كراهية . وسألته :

— ما زلت تسمح لنفسك بان تلمسني ؟ (وازافت في ضحكة

شامتة) كان عليّ ان اوقن بانك ستجد ذلك مبالغاً فيه . انه يشرك

ويغضبك ان يتسلّى المرء بدمه .

وكان ماتيو يشعر بأنه يمتقع من فرط الغضب . فعاد يجلس ، وبسط

يده اليسرى على الطاولة وقال بتلذذ :

— مبالغ فيه ؟ يا ايفيش ، بل اني أجده جذاباً . اظنّ ان ذلك

لعب" تمارسه فتيات الطبقة النبيلة ؟
وزرع السكين دفعة واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريباً :
وحين ترك السكين ، ظلت مركوزة في لحمه ، مستقيمة ، ومقبضها
في الهواء . وقالت ايفيش مشمثة :
- آه ! آه ! إنزعها ! إنزعها !
فقال ماتيو وهو يكرّ على اسنانه :
- اترين ؟ ان هذا في متناول جميع الناس .

واستشعر العذوبة والكثافة ، وخشي قليلاً ان يغمى عليه . ولكن
كان في داخله نوع من الرضى المصدوم وارادة سرطان رديئة وخبیثة .
لأنه لم يفعل ضربة السكين هذه في باطن كفه ازدراء لايفيش فحسب ،
بل كان ذلك ايضاً تحدياً لجاك ، وبرونيه ، ودانيال ، وحياته .
وفكر : « اني حمار ، وان برونيه على حق اذ يقول بانني طفل عجوز . »
ولكنه لم يكن يستطيع ان يمنع نفسه من ان يكون مسروراً . وكانت
ايفيش تنظر الى يد ماتيو التي كانت تبدو مسمرة على الطاولة ، والى
الدم الذي كان يتدفق من حول الشفرة . ثم نظرت الى ماتيو ، وكانت
هيئتها قد تغيرت تماماً . وقالت على مهل :
- لماذا فعلت ذلك ؟

فسألها ماتيو في صلابة : وانت ؟
والى يسارهما ، كانت ثمة ضجة مهددة : كان ذلك للرأي العام .
وكان ماتيو يسخر منه ، وكان ينظر الى ايفيش . وقالت ايفيش :
- آه انني ... اني آسف جداً .

وتضخمت الضجة ، واخذت ذات الثوب الاسود تنقق :
- انهما ثملان ، وسيذبح احدهما الآخر ... يجب ان يُمنعا من
ذلك . انني لا استطيع ان ارى هذا .
والفتت بعض الرؤوس ، وهُرع الخادم :

- هل تريد السيدة شيئاً ؟
وكانت ذات الثوب الاسود تضغط منديلاً على فمها ، وأشارت الى ايفيش وماتيو من غير كامة . ونزع ماتيو بسرعة السكين من الجرح فأحدث له ذلك المأ شديداً .

- لقد جرحنا ايدينا بهذا السكين .
وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك ، فقال من غير ان يفعل :
- اذا شاء السيد والآنسة ان يتوجها الى المغسلة ، فان السيدة هناك تملك كل ما يلزم .

ونهضت ايفيش هذه المرة بوداعة ، فاجتازا الحلبة وراء الخادم ، وكل منهما يرفع احدى يديه في الهواء ؛ وكان هذا مشهداً هزلياً لم يستطع ماتيو معه ان يمتنع عن الانفجار بالضحك . ونظرت اليه ايفيش نظرة قلقة ثم أخذت تضحك هي ايضاً . وكانت من شدة الضحك بحيث ان يدها قد ارتجفت ، فسقطت نقطتا دم على البلاط .
وقالت ايفيش : - انني اتسلى كثيراً .

وصاحت سيدة المغسلة :

- يا الهي ! يا آنستي المسكينة ، ماذا فعلت بنفسك ؟ والسيد المسكين ؟
فقال ايفيش : - لقد لعبنا بسكين .

فقال سيدة المغسلة حانقة : - هكذا ! ان الحادث يقع بسرعة .
وهل كان سكين منزل ؟

- كلا .

- آه ! كنت احدث نفسي .. (وازافت وهي تفحص جرح ايفيش) ما اعمقه ! ولكن لا تقلقي . سوف اسوي كل شيء .
وفتحت خزانة فاخترت فيها نصف جسمها . وتبادل ماتيو وايفيش بيسمة . وكانت ايفيش تبدو وكأنها صحت من سكرها ، وقالت لماتيو :
- ما كنت اصدق ان بوسعلك ان تفعل هذا .

قال ماتيو : - ترين اذن ان كل شيء لم يضع .
فقال ايڤيش : - لقد بدأ هذا يؤلمني الآن .
قال ماتيو : - وانا كذلك .

وكان سعيداً . وقرأ كلمة « للسيدات » ثم « للسادة » بأحرف
من ذهب على باين ملمعين بالرمادي المصفر ، ونظر الى الارض ذات
المربعات البيضاء ، واستنشق رائحة معطرة بالأنيسون المطهر ، فتمدد
قلبه ، وقال باندفاع :

- ليس من الرديء جداً ان يكون المرء سيدة مغسلة !

فقال ايڤيش في تفتح : - طبعاً لا !

وكانت تنظر اليه في هيئة وحشية رقيقة ، وترددت لحظة ، ثم
اطبقت فجأة باطن كفتها اليسرى على كف ماتيو المجروحة ، فندت
عن ذلك اصطفاقاً مبتل . وقالت موضحة :

- ان هذا اختلاط الدمين .

فشدت ماتيو على يدها من غير ان يقول كلمة ، واحسّ بألمٍ حي ،
وكان لديه إحساس " بأن " فأ كان يفتح في يده . وقالت ايڤيش :

- انك تؤلمني كثيراً .

- اعرف ذلك .

وكانت سيدة المغسلة قد خرجت من الخزانة وهي تشعر ببعض عسر
هضم . وفتحت علبة حديدية وقالت :

- هذا هو العلاج .

ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود ، وإبراً ومقصات ولفافات .
فقال :

- انت مجهزة تجهيزاً جيداً .

فهزت رأسها في جدّ وقالت :

- آه ! هناك ايام لا مجال فيها للمزاح . امس الاول ، التقت امرأة .

قدحها على رأس واحدٍ من خيرة زبائننا . وكان هذا السيد يسيل دمه ويسيل ، فخشيت على عينيه ، وانتزعت من حاجبه شظية كبيرة من الزجاج .

وكانت سيدة المغسلة تشغل نفسها حول ايفيش :
- بعض الصبر يا جميلتي ، أن ذلك سيحرقك قليلاً ، انها صبغة اليود ، حسناً ، انتهى .

وسألت ايفيش بصوت منخفض :

- هل تصارحني ... اذا بدوت قليلة الرصانة ؟
- نعم .

- اودّ ان اعلم بمَ كنت تفكر حين كنت ارقص مع لولا .
- منذ لحظة ؟

- نعم ، حين دعا بوريس الشقراء . كنت وحيداً في ركنك .
قال ماتيو : - اظنّ اني كنت افكر بنفسي .

- كنت انظر اليك . . لقد كنت ... جميلاً تقريباً . لبتك تستطيع دائماً ان تحتفظ بتلك الهيئة .

- ليس بوسع المرء دائماً ان يفكر بنفسه .
وضحكت ايفيش :

- اما انا ، فأعتقد اني افكر دائماً بنفسي .

وقالت سيدة المغسلة : - اعطني يدك يا سيدي . انتبه ، سوف يحرقك قليلاً . حسناً ، لن يكون هذا شيئاً ذا بال .

وأحسّ ماتيو بحرق شديد . ولكنه لم يكثر له ، وكان ينظر الى ايفيش التي كانت تسرح شعرها بلا حذق امام المرأة ، وهي تمسك خصلاتها بيدها المضمّدة . وردّت شعرها الى خلف فبدا وجهها العريض عارياً . واحسّ ماتيو بأنه يمتليء برغبة قاسية ويائسة ، وقال :
- انك جميلة .

فقالت ايفيش وهي تضحك :
- كلا ، اني على العكس بشعة الى حد فظيع . وهذه هي هيثي
الخفيّة .

قال ماتيو : - اعتقد اني احبها اكثر من تلك .
قالت : - سأمرّح شعري غداً على هذا النحو .
فلم يجد ماتيو ما يجيب به ، فأحسني رأسه وصمت . وقالت سيدة
المغسلة :

- انتهى الامر .
ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رمادي .
- شكراً كثيراً يا سيدتي ، انك بارعة كمرضعة .
فاحمرّ وجه سيدة المغسلة من السرور وقالت :
- اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيراً من الاعمال التي تتطلب
الدقة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران
في رضى الى يديهما الصقعتين المضممتين . وقالت ايفيش :
- كأنّ لي يداً من خشب .
وكان الرقص قد خلا تقريباً . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي
واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالساً على طاولتها ، وكان
ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان
باقياً على طاولتها قدحان نصف ممتلئين وديزينة من السكاير في علبة
مفتوحة .

وقال ماتيو : - انه ضلال .
قالت ايفيش : - اجل ، لقد ضللت .
ونظر اليها بوريس نظرة جدل :
- ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : - انه سكينك القدر .
فقال بوريس وهو ينظر الى يديهما نظرة فنّان :
- يبدو أنه يقصّ جيداً .
وسأله ماتيو : - ولولا ؟
فاغمّ بوريس :
- إن الامر قد ساء كثيراً . لقد نطقتُ بحماقة .
- ماذا ؟

- قلت ان بيكار قد جاءني وقد استقبلته في غرفتي . يبدو اني
قلت شيئاً آخر في المرة الاولى ، الشيطان يدري ماذا !
- لقد قلت انه التقى بك في جادة سان ميشال .
قال بوريس : - هكذا اذن !
- وهل غضبت وصاحت ؟
- اوه ! كالتخزير . حسبك ان تنظر اليها .
ونظر ماتيو الى لولا . وكانت لها سحنة جهمة وقائمة . وقال ماتيو:
- اعذرني .

- ليس لك ان تعتذر : انها غلطتي . ثم ان الامر يُسوّى ، لقد
ألفت ذلك . انه يسوّى دائماً في آخر الامر .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر إلى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان
النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسرّبت الى القاعة ، على غير
احساس ، وكان المرقص يبعث برائحة الصباح . وفكر ماتيو : «لؤلؤة» ،
لقد قالت لؤلؤة صغيرة . « وكان سعيداً ، ولم يكن يفكر بعد بأي
شيء عن نفسه ، وكان يُحسّ انه جالسٌ في الخارج على مقعد : في
الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك
ايضاً : اني خالدة »
واخذت لولا تغنّي .

« في الدوم ، الساعة العاشرة » واستيقظ ماتيو . وهذه الأكمة الصغيرة من الشفّ الأبيض ، على السرير ، كانت يده اليسرى . وكانت تؤله ، ولكن جسمه كله كان منتعشاً . « في الدوم الساعة العاشرة . » وكانت قد قالت : « سأكون هناك قبلك ، فلن أستطيع ان اغمض عيني طوال الليل . » وكانت الساعة التاسعة ، وقفز من السرير وفكّر « ستغير تسريحتها . »

ودفع المصراعين : كان الشارع خالياً ، وكانت السماء واطئة رمادية ، وكان الطقس اقل حرارة من الأمس ، كان صباحاً حقيقياً . وفتح صنوبر المغسلة وغطّس رأسه بالماء : انني انا ايضاً من الصباح . وكانت حياته قد سقطت الى قدميه ، في ثنيات ثقيلة ، وكانت ما تزال تحيط به ، وكانت تُربك كعبيه ، ولكنه سيتجاوزها ، وسيخلفها وراءه كجلد ميت . السرير ، المكتب ، المصباح ، الأريكة الخضراء : انها ليست بعد شريكاته ، وانما كانت اشياء مغلقة من حديد وخشب ، ادوات . وكان قد قضى الليلة في غرفة فندق . وارتدى ثيابه وهبط السلم وهو يصفّر . وقالت البوّابة :

— هناك رسالة مستعجلة لك .

مارسيل ! وأحسّ ماتيو بمذاق مرّ في فمه : كان قد نسي مارسيل

ومدّت له البوابة مغلقاً أصفر : كان من دانيال . وقد كتب دانيال يقول :

« عزيزي ماتيو ، لقد بحثت حولي ، ولكنني لا أستطيع حقاً ان اجمع المبلغ الذي تطلبه . صدقني اني آسف . هل لك ان تمرّ عليّ ظهراً ؟ إن عندي ما احدثك به عن قضيتك . ولك ودي . »
وفكر ماتيو « حسناً ، سأذهب لرؤيته . إنه لا يريد ان يترك المال ، ولكنه ربما وجد حلاً . »

وكانت الحياة تبدو له هيئته ، وكان ينبغي ان تكون هيئته : مها يكن من امر ، فان ساره ستتكلّف أمر اقناع الطبيب بالانتظار بضعة ايام ؛ وعند الإلحاح يُرسل له المال الى اميركا .
وكانت ايفيش هناك ، في زاوية مظلمة . وقد رأى اولاً يدها المضمدة . وقال في عذوبة :

– ايفيش .

فرفعت عينيها اليه ، وبدا وجهها الكاذب المثلث ، وطهارتها الصغيرة الرديئة . وكانت خصلاتها تخفي نصف وجهها : لم تكن قد رفعت عينيها كما وعدت . وسألها ماتيو بحزن :

– هل نمت قليلاً ؟

– ابدأ .

وجلس . ورأت انه كان ينظر الى يديها المضمدتين ، فسحبت يدها بهدوء وأخفتها تحت الطاولة . واقترب الخادم ، وكان يعرف ماتيو جيداً ، فسأله :

– كيف الحال يا سيدي ؟

قال ماتيو : – لا بأس . اعطني فنجان شاي وتفاحتين .
وساد صمتٌ انتهزه ماتيو ليكفّن ذكريات الليل . وحين أحس بان قلبه كان خالياً رفع رأسه :

— انك لا تبدين مرتاحة . ايكون السبب ذلك الامتحان ؟
فلم تجب ايفيش الا بانقباض ازدرء ، وصمت ماتيو ، وكان ينظر الى
المقاعد الفارغة . وكانت امرأة راحة تغسل البلاط بماء كثير . وكان
« الدوم » يستيقظ رويداً رويداً ، وكان الصباح . لا بدّ من مرور
خمسة عشرة ساعة قبل ان تستطيع النوم . وأخذت ايفيش تتحدث
بصوت منخفض ، وبلهجة برمة ، وقالت :
— الساعة الثانية . والآن هي الساعة التاسعة . اني احسّ الساعات
تنهار تحتي .

وعادت تشدّ على خصلاتها شدّاً مهووساً . وكان هذا غير محتمل .
وقالت :

— اتعتقد ان هناك من يقبلي ان اكون بائعة ، في مخزن كبير ؟
— لا تفكّري بهذا يا ايفيش ، فانه قاتل .
— وعارضة ازياء ؟
— انك قصيرة بعض الشيء ، ولكن بوسعك ان تجرّبي ...
— سأفعل كل شيء حتى لا ابقى في لاون . سأكون غاسلة اوان
(وازدافت بلهجة مهمومة مسنة) في مثل هذه الحالات . الا يضع
الناس اعلانات في الصحف ؟
— اسمعي يا ايفيش ، ان امامنا الوقت للتفكير في الموضوع ، وانت
لم تسقطي بعد ، على اية حال .

وهزت ايفيش كتفيها فاستطرد ماتيو بحوية :
— ولكن حتى لو سقطت ، فلن تصبحي ضائعة . فانت تستطيعين
مثلاً ان تعودى الى بيتك لمدة شهرين ، وفي هذه الاثناء سأبحث حتى
أجد لك شيئاً .

وكان يتكلم بلهجة اقتناع طيبة ، ولكن لم يكن له اي امل : فحتى
لو حصل لها على عمل ؛ فانها لن تلبث اسبوعاً حتى تُطرد منه .

وقالت ايفيش في غضب :
 - شهران في لاون .. من الواضح انك تتكلم بلا معرفة . إن هذا ..
 ان هذا لا يحتمل !
 - مهما يكن من امر ، فانك ستقضي هناك العطلة .
 - صحيح .. لكن كيف يستقبلونني الآن ؟
 وصمتت . ونظر اليها من غير ان يقول كلمة : وكان لها وجهها
 الصباحي الممتنع . وكان يبدو ان الليل قد انزلق عليها . وفكر
 « ليس هناك ما يطبعا » ولم يستطع ان يمتنع عن ان يقول لها :
 - انك لم ترفعي شعرك ؟
 فقالت ايفيش بجفاء : - انت ترى ان لا .
 وقال في شيء من الغيظ : - ولكنك وعدتني بذلك مساء امس .
 قالت : - كنت ثملة (وردت بقوة كما لو كانت تريد ان تخيفه)
 كنت ثملة تماماً .
 - لم يكن يبدو عليك انك كنت ثملة الى هذا الحد حين وعدتني
 بذلك .
 فقالت في نفاذ صبر : - طيب ! وماذا في ذلك ؟ ان الناس
 مدهشون بوعودهم .
 فلم يجب ماتيو . وكان لديه احساس " بأن اسئلة عاجلة كانت تُطرح
 عليه بلا هوادة : كيف السبيل الى ايجاد خمسة آلاف فرنك قبل المساء؟
 كيف السبيل الى اعادة ايفيش الى باريس في السنة القادمة ؟ اي موقف
 يجب ان يتخذه الآن تجاه مارسيل ؟ ولم يكن لديه الوقت للتفكير ،
 ولأن يعود الى الأسئلة التي كانت اساس افكاره منذ عشية الامس : من
 انا ؟ ماذا فعلت بحياتي ؟ واذا كان يلفت رأسه لينفض هذا الهم الجديد ،
 رأى في البعيد طيف بوريس الطويل المتردد الذي كان يبدو عليه انه
 كان يبحث عنهما على السطحة . وقال متزعجاً :

– هوذا بوريس (ثم سألتها وقد اخذته شك مزعج) أنت التي قلت له ان يأتي ؟

فقالت ايفيش مندهشة : – كلا . كان عليّ ان القاه ظهراً لأنه..
لأنه كان يقضي الليل مع لولا . فانظر الى هيئته !
وكان بوريس قد رآهما ، فأقبل عليهما . وكانت عيناه مفتوحتين
على سعتهما وثابتتين ، وكان قبيحاً . وكان يبتسم . وصاح ماتيو :
« مرحباً » فرفع بوريس اصبعين نحو صدغيه ليحيي تحيته المألوفة ،
ولكنه لم يستطع ان ينجز حركته . والقى بيديه الاثنتين على الطاولة
وأخذ يتأرجح على عقبه من غير ان يقول كلمة . وكان ما يزال
يبتسم . وسألته ايفيش :

– ما بالك ؟! إنك تشبه فرنكشتين !

قال بوريس : – ماتت لولا .

وكان ينظر امامه باستقامة نظرة بلهاء . وبقي ماتيو يضع لحظات من
غير ان يفهم ، ثم غمره ذهول مندهش :
– ماذا ؟

وكان ينظر الى بوريس : ولم يكن ينبغي التفكير بسؤاله على الفور
فأمسك بذراعه وقسره على الجلوس بالقرب من ايفيش . وكرر
بآلية :

– ماتت لولا .

وأدارت ايفيش الى اخيها عينين منفرجتين . وكانت قد تراجعت
قليلاً وهي على المقعد ، كما لو أنها كانت تخاف ان تلمسه ، وسألته :
– هل انتحرت ؟

فلم يجب بوريس ، وأخذت يدها ترتجفان . فرددت ايفيش بعصبية :
– تكلم ! هل قتلت نفسها ؟ هل قتلت نفسها ؟
فاتسعت بسمه بوريس اتساعاً مقلماً ، وكانت شفتاه ترقصان. وكانت

شفتاه ترقصان . وكانت ايفيش تنظر اليه باحداد وهي لا تني تشد على عضلاتها . وفكر ماتيو في غيظ : « انها لا تفهم . » وقال :
- حسناً . ستخبرنا فيما بعد . لا تتكلم .
فبدأ بوريس يضحك وقال :
- لو كنتما .. لو كنتما ...

فصنعه ماتيو صفة جافة وصامتة ، من طرف اصابعه . فكف بوريس عن الضحك ونظر اليه وهو يرتجف ثم تجمع قليلاً والتزم الهدوء ، فاغر النسم ، بليد الهيئة . وكان الثلاثة صامتين ، وكان الموت بينهم ، مغفلاً مقدساً . ولم يكن ذلك حدثاً ، بل كان وسطاً ، مادة معجزة كان ماتيو يرى عبرها فنجان الشاي وطاولة المرمر ووجه ايفيش اللئيم . وسأل الخادم :

- وماذا يطلب السيد ؟
وكان قد اقترب وهو ينظر الى بوريس في سخرية . فقال ماتيو :
- اعطه كأس كونياك بسرعة (واطاف بلهجة طبيعية) ان السيد مستعجل .

وابتعد الخادم وما لبث ان عاد يحمل زجاجة وقدحاً : فأحس ماتيو انه رخو ومفرغ ، وشعر آنذاك فقط بمتاعب الليل . وقال لبوريس :
- اشرب .

فشرب بوريس بوداعة . ووضع القدح وقال ، كأنما يحدث نفسه :
- ليس الامر طريفاً !

قالت ايفيش وهي تقترب منه : - يا عزيزي ، يا صغيري العزيز .
وابتسمت له بخنان ، ثم امسكت بشعره وهزت رأسه ، فتنفس بوريس في تأس وقال :

- انت هنا .. ان يدريك حارتان .

قالت ايفيش : - والآن ، إحك لنا . هل انت واثق من انها

ماتت ؟

فقال بوريس في مشقة : - لقد تناولت المخدر هذه الليلة ، ولم تكن الامور حسنة بيننا .

فقالت ايفيش بحيوية : - فكان ان سممت نفسها .

قال بوريس : - لا ادري .

وكان ماتيو ينظر الى ايفيش في ذعر : كانت تلاطف يد اخيها في حنان ، ولكن شفتها العليا كانت تنكفيء بصورة غريبة فوق اسنانها الصغيرة . وعاد بوريس يتكلم بصوت اصم . ولم يكن يبدو انه يوجه اليها الحديث :

- لقد صعدنا الى غرفتها ، فتناولت المخدر . وكانت قد تناولته في المرة الاولى في مقصورتها ، حين تنازعنا .

قال ماتيو : - الواقع ان هذه لا بد ان تكون المرة الثانية . وأظن انها قد تناولته بينما كنت ترقص مع ايفيش .

قال بوريس في تعب : - حسناً . اذن ثلاث مرات . ولم يسبق لها ان تناولت هذا القدر من قبل . وقد نمنا من غير ان نتبادل الكلام . وكانت تقفز في السرير ، فلم اكن استطيع النوم . ثم هدأت فجأة ، فممت .

وأفرغ كأسه واستطرد :

- واستيقظت هذا الصباح لأنني كنت اخنق . وكانت ذراعها ممتدة فوقي ، فقلت لها : « انزعي ذراعك ، انك تخنقيني . » فلم تنزعها ، فظننت انها تفعل ذلك رغبة في المصالحة . فتناولت ذراعها ، فاذا هي باردة ، وقلت لها : « ما بالك ؟ » فلم تقل شيئاً . وعند ذلك دفعت ذراعها بكل قوتي ، فاوشكت ان تسقط على الارض . وخرجت من السرير فتناولت معصمها وضغطت عليها لأعيدها الى استقامتها . وكانت عيناها مفتوحتين . (واضاف في شيء من الغضب) لقد رأيت عينيها

ولا استطيع ان انساهما .

قالت ايفيش : - يا عزيزي الصغير :
وكان ماتيو يجهد ليشفق على بوريس ، ولكنه لا يوفق الى ذلك .
كان بوريس يبرمه اكثر من ايفيش ؛ فكأنه كان عاتباً على لولا ان
تموت .

واضاف بوريس بلهجة رتيبة :

- واخذت ثيابي فارتديتها ، ولم ارد ان يجدوني في غرفتها . ولم
يروني اخرج . ولم يكن ثمة احد على الصندوق . واستقلت تاكسي
وأنتيت .

وسألته ايفيش في عذوبة : - هل انت مهموم ؟
وكانت قد انحنت عليه ، من غير تعاطف مبالغ فيه ، وكان يبدو
وكأنها تسأله توضيحاً :

- انظر الي ، هل انت مهموم ؟

قال بوريس : - اني ... (ونظر اليها وقال فجأة) اني استنفض
ذلك .

ومر الخادم فناده : - اريد قدحاً آخر من الكونياك .

فسأله الخادم وهو يتسم : - وهل هو مستعجل كالقدح الاول ؟
فقال ماتيو بجفاء : - هيا ، لبّ الطلب بسرعة .

وكان بوريس يثير اشمزازة قليلاً ، فانه لم يكن قد بقي له شيء
من جماله الجانف الصلب . وكان وجهه الجديد يشبه وجه ايفيش اكثر
مما ينبغي . واخذ ماتيو يفكر في جسد لولا متمدداً على سرير في غرفة
فندق ، وكان بعض رجال يلبسون القبعات يوشكون ان يدخلوا الغرفة
وان ينظروا الى هذا الجسم الضخم في مزيج من الشهوة والهجم المهني ،
وسردون عليه الغطاء ويرفعون قيص النوم بحثاً عن الجروح ، وهم
يفكرون بأن مهنة المفتش لا تخلو احياناً من مزايا . وارتعش وقال :

- أهي وحدها هناك ؟
- قال بوريس باهتمام : – نعم ، واعتقد أنهم سيجدونها حوالي الظهر ، اذ ان الخادمة دائماً توقظها في مثل هذه الساعة .
- قالت ايفيش : – اي بعد ساعتين .
- وكانت قد استعادت هيئة الاخوت الكبيرة ، وكانت تلاطف شعر اخيها بشفقة وانتصار . وتركها بوريس تدلّه ، ثم صاح فجأة :
- يا إلهي !
- فانتفضت ايفيش وسألته قلقة :
- ماذا فعلت ؟
- قال بوريس : – رسائلي !
- ماذا ؟
- رسائلي . كنت غيباً فتركتها عندها .
- ولم يكن ماتيو يفهم :
- رسائل كتبتها لها ؟
- نعم .
- واذن ؟
- سيأتي الطبيب ، وسيعرفون انها ماتت مسمومة بالمخدرات .
- وهل كنت تتكلم في رسائلك عن المخدرات ؟
- فقال بوريس في كآبة : – نعم .
- وكان لدى ماتيو شعور بان بوريس كان يمثل ، فسأله :
- وهل تناولت مخدراً انت ؟ (وكان منزعجاً ان بوريس لم يصارحه بذلك من قبل)
- اني ... لقد حدث لي ذلك . مرة او مرتين ، بداعي الفضول ، ثم اني اتحدث عن شخص يبيع المخدرات ، شخص من « البول – بلانش » كنت قد اشتريت منه كمية للولا . ولا اريد ان يتضرر بسببي .

قالت ايفيش : - انت مجنون يا بوريس ... كيف استطعت ان
تكتب هذه الاشياء ؟

فرجع بوريس رأسه : - هل تريدن هذا المغطس ؟

قال ماتيو : - ولكن قد لا يجدونها ؟

- انها اول شيء يجدونه . فاذا فرضنا احسن الفروض ، فسوف
أستدعى كشاهد .

قالت ايفيش : - اوه ! كم سيغضب الوالد !

- قد يستدعيني الى لاون ويلصقني في مصرف .

فقالت ايفيش بصوت حزين : - ستكون رقيقاً لي اذن .

ونظر ماتيو اليهما في اشفاق : « هما كذلك اذن! » وكانت ايفيش
قد فقدت هيئتها المنتصرة : وكانا ، وهما قابعان احدهما ازاء الآخر ،
ممتنعين واهنين ، يشبهان عموزين . وساد صمت ، ثم لاحظ ماتيو ان
بوريس كان ينظر اليه من طرف عينيه ، وكان حول فـه ظل من
الخبث ، خبث فقير ضعيف ، وفكر ماتيو منزعجاً « ان هناك
مؤامرة . »

وسأله : - تقول ان الخادمة تأتي ظهراً لإيقاظها ؟

- نعم ، انها تدق الباب حتى تفتح لها لولا .

- حسناً ، انها الساعة العاشرة والنصف ، وامامك الوقت لتعود الى

هناك بهدوء وتلم رسائلك . خذ تاكسي ، بل بوسعك ان تستقل
الاورتوبيس .

وأدار بوريس عينيه وقال :

- لا استطيع ان اعود الى هناك .

ففكر ماتيو : « ها نحن قد وصلنا الى المقصود . » وسأله :

- هل هذا مستحيل عليك حقاً ؟

- لا استطيع .

ورأى ماتيو ان ايفيش كانت تنظر اليه ، فسأله :

– اين هي رسائلك ؟

– في صندوق صغير اسود امام النافذة . وفوق الصندوق محفظة ليس عليك الا ان تدفعها ، وسترى هناك ركماً من الرسائل ، ورسائلي مربوطة بشريط اصفر .

وانتظر لحظة ثم اضاف بلهجة لامبالاة :

– وهناك ايضاً رزم مالية .

رزم مالية . وصفر ماتيو بهدوء ، وكان يفكر : « ان الصبي ليس مجنوناً ، فقد فكر في كل شيء ، حتى في ان يدفع لي . »

– وهل الصندوق مقفل بالمفتاح ؟

– نعم ، والمفتاح في محفظة لولا ، والمحفظة على الطاولة . ستجد رزمة فيها مفتاح صغير مسطح . وهذا هو .

– وما رقم الغرفة ؟

– ٢١ ، الطابق الثالث ، الغرفة الثانية الى اليسار .

قال ماتيو : – طيب . اني ذاهب اليها .

ونفض ، وكانت ايفيش ما تزال تنظر اليه ، وكان يبدو الارتياح على بوريس . وقد رد شعره الى خلف في رشاقة ، وقال وهو يبتسم :

– اذا أوقفت ، فليس لك ان تقول انك ذاهب الى « بوليفار » وهو زنجي مرقص « كامتشاتكا » ، وانا اعرفه . انه يسكن ايضاً في الطابق الثالث .

قال ماتيو : – انتظراني هنا .

وكان قد اتخذ بالرغم منه لهجة آمرة ، وأضاف بهدوء :

– سأعود بعد ساعة .

قال بوريس : – سنتظرك .

ثم اضاف بلهجة اعجاب وعرفان : – انك شخص من ذهب .

وخطا ماتيو بضع خطى في جادة مونبارناس ، مسروراً بأن يكون وحيداً . وخلفه ، كان بوريس وايفيش على أهبة ان يتهامسا ، وان يشكلا من جديد عالمها الثمين الذي لا يمكن تنشُّقه . غير انه لم يكن يكثر لذلك . فقد كانت حوله شظايا هموم الامس : حبه لإيفيش ، حبل مارسيل ، المال ، ووسط ذلك لطحخة عمياء : الموت . وارسل بضع مرات تنهدة « أنف » وهو يمر يديه على جبينه ويفرك خديه . وفكر : « مسكينة لولا ، كنت احببها كثيراً . » ولكن لم يكن له هو ان يأسف عليها : لقد كان هذا الموت ملعوناً لأنه لم يتلق اية عقوبة ولم يكن له هو ان يعاقبه . لقد سقط ثقيلاً في نفس مستهامة وكان يحدث فيها دوائر . وعلى هذه النفس الصغيرة وحدها كانت تقع تبعة التفكير بهذا الموت وافتدائه . ليت بوريس أحسن بوميض من الحزن ... انه في الحقيقة لم يستشعر الا الفظاعة . وسوف يبقى موت لولا ابداً على هامش العالم . مُبعداً ابداً عن مكانه الطبيعي ، كأنه عتاب . « لقد ماتت كالكلب » وكانت هذه فكرة لا تطاق . وصاح ماتيو :

– تاكسي !

وحين استقر به المقام في السيارة ، احسن انه اصبح اهدأ من ذي قبل . بل هو قد شعر باحساس من الرفعة المطمئنة كما لو انه غفر لنفسه فجأه ان لا يكون بعد في سن ايفيش ، او كما لو ان الشباب فقد فجأة قيمته . وقال في اعتزاز مرّ : « انها يتوقفان عليّ . » وكان افضل الا يقف التاكسي بالقرب من الفندق .

– الى ملتقى شارعي نافارين ومارتير .

وكان ماتيو ينظر الى صفّ البنائيات الكبيرة الحزينة في جادة راسباي . وردّد : « انها يتوقفان عليّ . » وكان يحس انه صلب بل وكثيف بعد الشيء . ثم اظلم زجاج النوافذ ودلقت السيارة الى

مدخل شارع « باك » الضيق . وفجأة ادرك ماتيو ان لولا قد ماتت ،
وانه داخل على غرفتها ليرى عينيها مفتوحتين على سعتيها وجسمها
الابيض . وعزم قائلاً : « لن انظر اليها » كانت ميتة . كان
وجدانها قد تلاشى ، لا حياتها . كل ما هنالك ان هذه الحياة الخالية
قد توقفت بعد ان غادرها الوحش الطري الرقيق الذي سكنها طويلاً
جداً ، وكانت ترفرف وهي ملأى بصرخات لا اصداها لها ، وبآمال
غير مجدية ، وببروق مظلمة ، وبأشكال وروائح باطلة ، كانت
ترفرف على هامش العالم ، بين هلالين ، نهائية لا تُنسى ، وليست
دون المعدن قابلية للهدم ، ولم يكن ثمة ما يمنع من ان تكون قد
وجدت ، وانها قد بلغت درجة تغيرها القصى : ان مستقبلها قد
تخثر . وفكر ماتيو : « ان حياة انسان ما تُصنع بالمستقبل ، كما تُصنع
الاجسام بالفراغ . » وخفض رأسه : وكان يفكر بحياته نفسها . كان
المستقبل قد اخترقها حتى الصميم . وكان كل شيء فيه معلقاً ،
مؤجلاً . ان ابعد ايام طفولته ، اليوم الذي قال فيه : سأكون حرّاً ،
واليوم الذي قال فيه : سأكون كبيراً ، كانت تبدو له حتى اليوم ،
بمستقبلها الخاص ، كساء شخصية صغيرة صريحة فوقها ، وهذا المستقبل
انما كان هو : هو كما هو الآن ، متعباً آخذاً في النضج ، وكان لتلك
الايام حقوق عليه ، عبّر هذا الزمن الطويل المنصرم ، وكانت تلمسك
بمطلباتها ، وكان يأخذه غالباً ندم ساحق ، لأن حاضره اللامبالي المشمئز
من كل شيء ، انما كان المستقبل القديم لهذه الايام المنصرمة . لقد
كان هو الذي انتظره عشرين عاماً ، ومنه ، من هذا الانسان المتعب ،
طلب طفل قاس ان يحقق له آماله ؛ وكان يتوقف عليه ان تظل هذه
العهود الطفولية طفولية الى الأبد او ان تصبح الإرهاصات الاولى لقدر .
ان ماضيه لم يكن يكف عن ان يتعرض لتعديلات الحاضر ، وكان
كل يوم يزيد احلام العظمة هذه القديمة خيبة ، وكان لكل يوم

مستقبل جديد ؛ ومن إنتظار الى إنتظار ، ومن مستقبل الى مستقبل ، كانت حياة ماتيو تتسرب على مهل ... نحو ماذا ؟

نحو لا شيء . وفكر في لولا : لقد ماتت ولم تكن حياتها الا إنتظاراً ، كحياة ماتيو . وقد وُجدت هناك بكل تأكيد ، في صيف قديم ما ، طفلةٌ صغيرة ذات خصلات حمراء ، اقسمت ان تكون مغنية كبيرة ، وحوالي ١٩٢٣ ايضاً ، مغنية شابة نفذ صبرها في إنتظار ان تصبح نجمة مشهورة . وحبها لبوريس ، هذا الحب العظيم الذي تكته عجوز ، والذي عانت منه كثيراً ، كان معلقاً منذ اليوم الاول . لقد كان ، حتى الامس ، ينتظر وهو غامض مترنح وجهة مستقبله ، حتى الامس كانت تفكر انها ستعيش ، وبأن بوريس سيحبها يوماً ؛ ولم تكن اللحظات الاكثر امتلاء ، والاوfer ثقلاً ، ولم تكن ليالي الحب التي بدت لها اشدّ خلوداً - كل ذلك لم يكن الا إنتظارات .

ولم يكن ثمة ما يُنتظر : كان الموت قد ارتدّ الى خلف ، نحو جميع هذه الإنتظارات فأوقفها ، فاذا هي جامدة خرساء ، لا معقولة ، ولا هدف لها . لم يكن ثمة ما يُنتظر : ان احداً لن يعرف ابداً اذا كانت لولا ستنجح آخر الامر في حمل بوريس على حبها ، ولم يكن للقضية معنى . لقد ماتت لولا ، فلم يبق ثمة اية حركة تُعمل ، ولا اية ملاحظة ، ولا ايّ ابتهال ؛ لم يبق ثمة الا إنتظارات إنتظارات ، الا حياة منفضة ذات الوان مختلطة ، حياة تسرخي على نفسها . وفكر ماتيو فجأة : « اذا متّ اليوم ، فلن يعرف احدٌ ابداً اذا كنت هالكاٌ او اذا كنت ما ازال احتفظ بفرص لانقاذ نفسي . »

وتوقف التاكسي فهبط ماتيو وقال للسائق : « انتظرني » وعبر الرصيف موارباً ودفع باب الفندق ، ودلف الى ممرّ مظلم مغمم بالعطر . وفوق باب زجاجي ، الى اليسار ، كان ثمة مستطيل منقش بالمينا : « الاتجاه » ، والقي ماتيو نظرة عبر الزجاج : كانت القاعة تبدو خالية ،

ولم يكن يسمع الا تكتكة ساعة كان زبائن الفندق من مغنيات وراقصين وزنوج جاز يعودون في ساعة متأخرة ، ويستيقظون في ساعة متأخرة : فكان كل شيء ما يزال ينام . وفكر ماتيو : « ينبغي الا اصعد بأسرع مما يجب » وكان يشعر بان قلبه يخفق ، وكانت ساقاه رخوتين . وتوقف عند مصطبة الطابق الثالث ونظر فيما حوله . كان المفتاح في الباب « واذا كان ثمة احد ؟ » وأرهدف اذنه لحظة ثم طرق ، فلم يجب احد . وفي الطابق الرابع ، شدّ احدهم على مُفرغ الماء ، فسمع ماتيو هديرأ متتابعأ اعقبته ضجّة صغيرة مائعة وصافرة . ودفع الباب ودخل .

كانت الغرفة مظلمة ، وكانت ماتزال تحتفظ برائحة النوم الدبقة . وحدّق ماتيو بنظره في الظلام ، وكان مشوقأ لان يقرأ الموت على ملامح لولا ، كما لو ان ذلك كان عاطفة انسانية . وكان السرير قائماً الى اليمين ، في داخل الغرفة . ورأى ماتيو لولا ، بيضاء كلها ، تنظر اليه ، فهمس : « لولا ؟ » فلم تجب لولا . وكان لها وجه معبر تعبيرا مدهشأ ؛ ولكنه كان ممتنعأ على الفهم ، وكان نهداها عاريين ، وكانت احدى ذراعيها الجميلتين ممتدة في تصلب فوق السرير ، وكانت الاخرى غارقة تحت اللحاف . وردّد ماتيو وهو يقترب من السرير : « لولا ! » ولم يكن يستطيع ان يتزع بصره عن ذلك الصدر المعتز ، وكانت به رغبة لأن يلمسه . وبقي لحظات عند حافة السرير متردأ قلقأ ، تسمّم جسمه رغبة حريفة ، ثم انقل وتناول بسرعة محفظة لولا عن الطاولة . وكان المفتاح المسطح في المحفظة : فأخذ ماتيو واتجه الى النافذة . وكان نهار رمادي يتسلل عبر الأستار ، وكانت الغرفة مألأ بحضور جامد : وركع ماتيو امام الصندوق ؛ وكان الحضور الذي لا يُردّ هناك ، في ظهره ، كأنه نظرة . وادخل المفتاح في القفل ، ورفع الغطاء فأغرق كلتا يديه في الصندوق ، فاندعت

اوراق تحت اصابعه . وكانت اوراقاً مالية . وكان ثمة عدد وافر منها ، اوراق من ذوات الألف فرنك . وتحت ركام من الايصالات والحسابات ، كانت لولا قد اخفت رزمة من الرسائل معقودة بشريط اصفر . ورفع ماتيو الرزمة الى النور وتفحص الخط وقال هامساً : « هذه هي » ثم وضعها في جيبه . ولكنه لم يكن يستطيع ان يذهب ، وظلّ على ركبته ، ونظره محدد في الاوراق المالية . وبعد لحظة ، عيّن بعصبية في هذه الاوراق واختار بعضها من غير ان ينظر اليها . وفكر : « هذه اجرتي » . وكانت خلفه هذه المرأة الطويلة البيضاء ذات الوجه المندھش ، وكان يبدو على الذراعين ان بوسعها ان تمتد ابعد ، وعلى الاظافر الحمراء ان تلمس بعد . ونهض يمسح ركبته بظاهر يده اليمنى . وكانت يده اليسرى تقبض على رزمة من الاوراق المالية . وفكر : « لقد حُلت مشكلتنا » وكان يتأمل الاوراق في قبرم « لقد حُلت مشكلتنا ... » وكان يرهف اذنه بالرغم منه ، وكان يصغي الى جسم لولا الصامت ، وكان يشعر انه مستمر في مكانه ، وتمتم في استسلام : « حسناً ! » وانفجرت اصابعه فسقطت الاوراق المالية مستديرة في الصندوق . وعاد ماتيو يغلق الغطاء واقفل القفل ثم وضع المفتاح في جيبه وخرج من الغرفة في خطى ذئب .

وبهذه النور ، وقال في ذعر « لم آخذ المال . » وظل جامداً ويده على حاجز السلم ، وكان يفكر : « اني ضعيف ! » كان يفعل ما بوسعهم ليرتجف غضباً ، ولكن المرء لا يستطيع ابداً ان يغضب حقاً على نفسه . وفكر فجأة في مارسيل ، وفي العجوز الكريمة ذات اليدين الخائفتين فأخذه خوف حقيقي : « لم يكن ثمة الا حركة تُعمل للحيلولة دون أن تتألم ، ولتجنّبها مشكلة قدرة لا بد ان تطبعها . ولم استطع : اني أدقّ مما ينبغي . هيا ايها الصبي الشاطر ! (وفكر وهو ينظر الى يده المعصوبة) ولكنني استطع بعد هذا ان اطعن يدي

بالسكن لأتظاهر بأني المشؤوم الكبير امام الاوانس : انني لن ابلغ أبداً ان آخذ نفسي بالجد . « سوف تقصد العجوز ، ليس ثمة مخرج آخر وسيكون عليها هي ان تبدو رابطة الجأش ، وان تصارع الضيق والفضاعة ، وفي هذه الاثناء ، سيملك نفسه وهو يشرب اقداح الروم في حانة . وفكر مذعوراً : « كلا ، لن تذهب . سوف اتزوجها ، ما دمت لا اصلح الا لهذا . » وفكر : « سأتزوجها . » وهو يضغظ بشدة يده المجروحة على الحاجز . وخيل اليه انه كان يغرق . وتتم : « كلا ! كلا ! » وهو يرتد برأسه الى خلف ، ثم تنفس بقوة ، واستدار حول نفسه فعبّر الممرّ وعاد الى الغرفة . واستند الى الباب كما فعل في المرة الاولى وحاول ان يعوّد عينيه على الظلام . ولم يكن واثقاً حتى من انه يستطيع ان يسرق . وخطا بضع خطوات مترددة وتميّز اخيراً وجه لولا الرمادي وعينيها المفتوحتين اللتين كانتا تنظران اليه .

وسألت لولا : من هناك ؟

وكان صوتاً ضعيفاً ولكنه شرس . وارتعش ماتيو من الرأس حتى القدمين ، وفكر : « ذلك الأبله ! »
- انا ماتيو .

وساد صمت طويل ثم سألت لولا :

- كم هي الساعة ؟

- الحادية عشرة الا الربع .

قالت : - ان بي صداعاً .

ورفعت غطاءها حتى ذقنها وظلت جامدة ، وعيناها تحدقان في

ماتيو . وكان لا يزال يبدو عليها انها ميتة . وسألته :

- اين بوريس ؟ وماذا تفعل هنا ؟

فقال ماتيو موضحاً بسرعة : - لقد كنت مريضة .

- وماذا حدث لي ؟
- كنت متصلّبة مفتوحة العينين . وكان بوريس يتحدثك فلا تجيبين . وقد خاف .
- ولم يكن يبدو على لولا انها تسمع . ثم نددت عنها فجأة ضحكة كريهة سرعان ما خنقتها . وقالت في جهد :
- لقد حسب اني متّ ؟
- فلم يجب ماتيو .
- اليس كذلك ؟ لقد حسب اني متّ ؟
- فقال ماتيو متهرباً : – لقد خاف .
- فنفخت لولا قائلة : – أوف .
- وعاد الصمت من جديد . وكانت قد اغمضت عينيها ، وكان فكّاها يرتجفان . وكان يبدو انها تبذل جهداً عنيماً لتستردّ حواسّها . وقالت وما تزال عيناها مغمضتين :
- ناولني محفظتي ، فهي على طاولة الليل .
- فدّ لها ماتيو المحفظة ، فأخرجت منها علبة بودرة ونظرت الى مرآتها في نفور ، وقالت :
- صحيح اني ابدو بهيئة الميتة .
- ووضعت المحفظة على السرير وهي ترسل تنهّدة لإرهاق واضافت :
- والواقع اني لا اساوي خيراً من ذلك .
- هل تشكين شيئاً ؟
- اشكو . غير اني اعرف ما هو ، وسوف يزول في النهار .
- هل انت بحاجة لشيء ؟ اتريدني ان استقدم الطبيب ؟
- لا ، احتفظ بهدوئك . ان بوريس هو الذي ارسلك اذن ؟
- نعم . لقد كان يجن .
- وسألت لولا وهي تستوي قليلاً : – هل هو تحت ؟

- لا .. كنت ... كنت في « الدوم » .. اعني .. انه جاء يبحث عني هناك ، فقفزت الى تاكسي ، وهأنذا .
وسقط رأس لولا مع جديد على الوسادة .
- شكراً على كل حال .
واخذت تضحك . ضحكة لاهثة شاقّة .
- على العموم حصل الملاك الصغير على القسيّات ، وقد افرقع من غير ان يسأل عن الباقي . ثم انه اوفدك الى هنا لتأكد من اني قد متّ حقاً .

قال ماتيو : - لولا !

فقال لولا : - حسناً . لا حاجة الى الشعوذات !
وعادت تغمض عينيها فحسب ماتيو انها سيغمى عليها . ولكنها استطردت بجفاف بعد لحظة :
- اتريد ان تدعوه الى ان يطمئن . فأنا لست في خطر ، وانما هي توقعات تأخذني احياناً ... على كل حال سيعرف هو لماذا .
انه القلب الذي يرتخي قليلاً . قل له ان يأتي الى هنا فوراً . اني انتظره . وسأبقى هنا حتى المساء .

فقال ماتيو : - حسناً . الست حقاً بحاجة الى ايّ شيء ؟
- كلا ، سأشفى حتى المساء ، وسأذهب لأغني هناك .
واضافت :

- انه لم ينته معي بعد .
- اذن ، الى اللقاء .

وتوجّه الى الباب ولكن لولا نادته . وقالت بصوت مبتهل :
- هل تعديني بان تحمله على المجيء ؟ لقد ... لقد تخاصمنا قليلاً مساء امس ، فقل له اني لست عاتبة عليه بعد ، وانه لن يكون ثمة اية قضية . ولكن ليأت ! ارجوك ، ليأت ! اني لا استطيع ان

انحمل فكرة ان يظنتي قد مت .

وكان ماتيو متأثراً وقال :

— حسناً ، سأرسله لك .

وخرج ؛ وكانت رزمة الرسائل التي كان قد وضعها في جيب سترته الداخلي تثقل على صدره . وفكر ماتيو : « كيف سيستقبل النبأ ! وينبغي ان يعيد له المفتاح ، وسوف يتدبر امره ليضعه من جديد في المحفظة . » وحاول ان يردد بجذل : « لقد كنت متبصراً اذا لم آخذ المال ! » ولكنه لم يكن جذلاً ، فسيان ان يكون جينه قد اعقب نتائج مرضية : المهم انه لم يستطع ان يأخذ المال . وفكر . « مهما يكن ، فاني مسرور انها لم تمت . »

وصاح السائق : — هيه ! من هنا ياسيدي !

فالتفت ماتيو شاردأ :

— ماذا ؟ آه ، ها انت ؟ (وتذكر السائق) حسناً ! تُخذني

الى « الدوم » .

وجلس فألق التاكسي . . وكان يود ان يطرد فكرة هزيمته المذلة . فأخذ رزمة الرسائل وفك عقدها وأخذ يقرأ . وكانت كلمات صغيرة جافة كتبها بوريس من « لاون » في اثناء عطلة الفصح ؛ وكان الحديث يجري فيها احياناً عن الكوكابين ، ولكن بعبارات بلغ من سترها ان ماتيو قال في نفسه مندهشاً : « لم اكن اعلم انه كان حذراً . » وكانت جميع الرسائل تبدأ بعبارة « حبيبي لولا » ثم كانت مختصرات مقتضبة عن ايام بوريس . « انني اسبح . لقد تخاصمت مع ابي . تعرفت الى مصارع قديم سيعلمني المصارعة الحرة . دخنت سيكارة « هنري كلاي » حتى آخرها من غير ان اسقط رمادها . » وكان بوريس ينهي رسائله كلها بهذه الكلمات : « احبك حباً قوياً وأقبلك — بوريس . » ونخيل ماتيو بغير مشقة الظروف التي كانت تقرأ فيها هذه

الرسائل ، وخيبتها المتوقعة دائماً ، والجديدة دائماً مع ذلك ، والجهد الذي كان عليها ان تبذله كل مرة لتقول في اندفاع : « انه في صميمه يحبني ، وكل ما هنالك انه لا يعرف ان يقول ذلك . » وفكر : « ومع ذلك فقد احتفظت بهذه الرسائل . » وعاد يعقد الرسائل ويضع الرزمة في جيبه : « ينبغي ان يتدبر بوريس الامر باعادتها الى الصندوق من غير ان تراه . » وحين توقف التاكسي ، كان يخيل لماتيو انه كان حليف لولا الطبيعي . ولكنه لم يكن يستطيع ان يفكر فيها الا على النحو الذي يفكر فيه بالماضي . وحين دلف الى « اللوم » كان لديه احساس بأنه قادم ليدافع عن ذكرى امرأة ميتة .

وكان يخيل للمرء ان بوريس لم يأت حركة واحدة منذ ذهاب ماتيو . كان جالساً في ركن ، مقوس الكتفين ، فاغر القم ، مقروص المنخرين . وكانت ايفيش تهمس في اذنيه بحوية ، ولكنها صمتت حين رأت ماتيو داخلاً . واقترب ماتيو ورمى رزمة الرسائل على الطاولة وقال :

— هذه هي .

فتناول بوريس الرسائل وأخفاها بسرعة في جيبه . وكان ماتيو ينظر اليه بلا ود وسأله بوريس :

— هل كان الامر اصعب مما ينبغي ؟

— لم يكن صعباً على الاطلاق ولكن اسمع : ان لولا لم تمت .

فرفع بوريس عينيه نحوه ، وكان يبدو عليه انه لم يفهم ، فردد ببلاهة :

— لم تمت لولا .

وزاد استرخاؤه ، وكان يبدو مسحوقاً ، وفكر ماتيو : « عجباً !

لقد ابتداءً يألف فكرة موتها . »

وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين ينبعث منهما الشرر ، وقالت :

– لقد قررت ذلك . مم كانت تشكو ؟

فأجاب ماتيو بتصلب : – مجرد اغماء .

وصمتوا . وكان بوريس وايفيش يأخذان وقتهما ليهضما النبا . وفكر ماتيو : « انها مهزلة . » ورفع بوريس رأسه اخيراً وكانت له عينان زجاجيتان ، فسأله :

– وهي ... هي التي اعطتك الرسائل ؟

– كلا ، كانت ما تزال غائبة الحس حين اخذتها .

فشرب بوريس جرعة كونيالك ثم وضع القدرح على الطاولة ، وقال كأنما يحدث نفسه :

– هكذا اذن !

– هي تقول ان هذا يحدث لها احياناً حين تتناول المخدر . وقالت لي انك لا بد تعرف ذلك .

فلم يجب بوريس وكان يبدو على ايفيش انها تمالكت وعيها فسأله في فضول :

– ماذا قالت ؟ لا بد انها اضطربت حين رأتك امام سريرها ؟

– لم تضطرب اكثر مما ينبغي . قلت ان بوريس خاف وانه قد أتى يطلب معونتي . وبالطبع ، قلت اني قد جئت لأرى ماذا هناك .

(وقال لبوريس) سوف تذكر ذلك طويلاً . حاول الا تتناقض في اقوالك . ثم انك ستتدبر الامر لإعادة الرسائل حيث كانت من غير ان

تلاحظ هي ذلك :

وأمر بوريس يده على جبينه وقال :

– ان ذلك اقوى مني . فأنا أتمثلها ميتة .

ونقد صبر ماتيو :

– انها تريدك ان تذهب لرؤيتها في الحال .

فردد بوريس كأنما يعتذر :

- كنت ... كنت اظن أنها ماتت ،

فقال ماتيو مغتاضاً :

- كلا ! انها لم تمت . خذ تاكسي واذهب للقائها .

فلم يتحرك بوريس ، فسأله ماتيو :

- أسمع ؟ انها شقيّة كالصخور ، تلك المرأة الطيبة .

ومد يده ليمسك بذراع بوريس ، ولكن بوريس تخلص بهزّة

عنيفة ، وصاح بصوت شديد لفت اليه نظر امرأة كانت على السطّيحة :

« كلا ! » ثم اضاف بصوت منخفض في عناد رخي لا يقهر : « لن

اذهب » .

قال ماتيو مندهشاً :

- ولكن .. لقد انتهت مشاكل الامس : لقد وعدت الا تُثار

مرة اخرى :

قال بوريس وهو يهز كتفيه : - اوه ! مشاكل الامس ...

- واذن ، ماذا ؟

فنظر اليه بوريس نظرة استياء :

- انني اشمئز منها !

لأنك ظننت بأنها قد ماتت ؟ اسمع يا بوريس : تمالك نفسك .

ان هذه حكاية تهريج . لقد اخطأت ، والآن ، انتهى الامر .

قالت ايفيش في حاسة :

- انني ارى ان بوريس على حق .

وأضافت بلهجة كانت تحمل قصداً لم يدركه ماتيو :

- انني ... لو كنت مكانه لفعلت مثله .

- ولكنني أراك لا تفهمين ! انه سيجعلها تقتل نفسها حقاً !

فهزت ايفيش رأسها ، وكانت تبدو بوجهها الصغير الكئيب الخانق .

ورماها ماتيو بنظرة كره وفكر : « انها تجعله يركب رأسه » .

قالت ايفيش :

- اذا رجع اليها ، فانما يكون ذلك بدافع الشفقة . وانت لا تستطيع ان تطلب ذلك منه : فليس ثمة ما هو ادعى للاشمئزاز ، حتى بالنسبة اليها .

- ليحاول على الاقل ان يراها . وسوف يرى .

فبدت على وجه ايفيش ملامح نفاذ الصبر وقالت :

- هناك اشياء لا تحسن بها .

فظل ماتيو مشدوهاً ، وانتهز بورييس الفرصة وقال بصوت مضطرب :

- لا اريد ان اراها ثانية . لقد ماتت ، في نظري .

فصاح ماتيو : - ولكن هذا موقف سخيف !

فنظر اليه بورييس نظرة كثيبة :

- لم اكن اريد ان اقولها لك ، ولكن اذا رأيتها وجب عليّ ان

المسها (واضاف بنفور) وهذا ... ما لا اطيقه .

وأحس ماتيو بعجزه . وكان ينظر في تعب الى هذين الوجهين

المعادين ، وقال :

- حسناً ! اذن انتظر قليلاً ... ريثما تمحى هذه الذكرى ... قل

لي انك سترها غداً او بعد غد .

فبدا الانفراج على بورييس وقال بلهجة مزيفة :

- هو كذلك . غداً .

وأوشك ماتيو ان يقول له : « على الاقل تلفن لها بأنك لا تستطيع

ان تذهب اليها . » ولكنه امسك ، وفكر : « لن يفعل ذلك . سأتلفن

انا نفسي . » ونهض وهو يقول لايفيش :

- يجب ان اذهب لأرى دانيال . متى ستعلن النتائج ؟ الساعة

الثانية ؟

- نعم .

- اتريدين ان اذهب لأراها ؟
- لا ، شكراً . سيذهب بوريس .
- ومتى أراك ؟
- لا ادري .
- ارسلي كلمة عاجلة على التو اذا نجحت .
- نعم .
- وابتعد ماتيو وهو يقول :
- لا تنسي . الى اللقاء .
- فأجابا معاً :
- الى اللقاء .

وهبط ماتيو الى الطابق الارضي من « الدوم » وفتح دليل التلفون .
 مسكينة لولا ! ان بوريس سيعود غداً بلا شك الى « سومطرا » .
 « ولكن هذا اليوم الذي ستقضيه في انتظاره ... انني لا اتمنى ان اكون
 مكانها ! »

وسأل عاملة التلفون السمينة :

- هل تريدان ان تعطيني « ترودين .. - ٣٥ » ؟

فأجابت : - الغرفتان محجوزتان . يجب ان تنتظر .

وانتظر ماتيو ، وكان يرى من باين مفتوحين بلاط المغاسل
 الابيض . مساء امس ، امام « مغاسل » اخرى ... ذكرى غرام
 طريفة !

واحس بأنه يفيض حقداً على ايفيش . وقال في نفسه : « انهما
 يخافان الموت . انهما لا يكفيهما ان يكونا نضرين نظيفين ، فان نفسيهما
 كئيبتان ، لأنهما خائفان . خائفان من الموت ، من المرض ، من
 الشيخوخة . إنهما يتشبان بشبابهما كما يتشبث محتضر بالحياة . كم مرة
 رأيت ايفيش تربت على وجهها امام مرآة : انها ترتجف منذ الآن خشية

التجاعيد . انهما ينفقان وقتهما في اجترار ثيابهما ، ولا يرسمان مشاريع
الا للمدى قصير ، كما لو ان ليس امامهما الا خمسة اعوام او ستة .
وبعد ذلك ... بعد ذلك ، تتحدث ايفيش عن عزمها على الانتحار ،
ولكني مطمئن ، فهي لم تجرؤ ابدأ : انما هما سيحركان رماداً . لقد
تجمعت وجهي ، في آخر المطاف ، ولي جلد تمساح ، وخصلات تتعقد ،
ولكن لا تزال امامي انا سنوات اعيشها .. لقد بدأت اعتقد اننا نحن
الذين كنا شباناً . كنا نريد ان نصبح رجالاً ، وكننا مضحكين ،
ولكني أتساءل عما اذا كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الشباب هي ان لا
ينسأه المرء . « ولكنه ظل على قلقي ، وكان يحسهما فوق ، رأساً الى
رأس ، متهامسين ضالعين ، وقد كانا مع ذلك ساحرين . وسأل :

— هل جاء دوري ؟

فأجابت المرأة السمينة باستياء :

— لحظة يا سيدي . عندي زبون قد طلب « امستردام » .

وانفتل ماتيو وخطا خطوات : « لم استطع ان آخذ المال ! »
وكانت امرأة تهبط السلم ، منتعشة خفيفة ، من هاتيك اللواتي يقلن
بوجوه فتيات صغيرات : « اريد ان ابول ! » ورأت ماتيو فترددت
ثم استعادت مشيتها بخطى واسعة ، ينبعث منها العطر والجدل . ودخلت
الى المغاسل . « لم استطع ان آخذ المال : ان حريتي اسطورة . اسطورة
— كان برونيه على حق — وحياتي تنبني تحتها في دقة آلية . عدم ،
الحلم الفخور الكئيب بألا اكون شيئاً ، بأن اكون دائماً شيئاً آخر غير
ما انا . انما انا اتصنع الطفولة مع هذين الصغيرين منذ عام ، حتى لا
اكون في سني الحقيقية . عبث : فاني رجل ، شخص كبير ، انه
شخص كبير ، سيد ؛ ذلك الذي قبّل ايفيش الصغيرة في تاكسي .
وانما انا اكتب في صحيف يسارية حتى لا اكون في طبقتي . عبث :
فاني بورجوازي ، لم استطع ان آخذ مال لولا ، لقد اخافتني مقدساتهم .

وحسبى افلت من حياتي ، اشمس ذات اليمين وذات اليسار، بعد استئذان
 مارسيل ، بأنني ارفض في عناد ان اقصد المختارية ؛ عبث : فأنا
 متزوج ، واعيش حياة زواج . « وكان قد تناول الدليل ، وكان
 يقلب صفحاته في شرود وقرأ : « هوليبك : مؤلف مسرحي ، الشمال
 ٧٧ - ٨٠ » وكان يحس بألم في معدته ، وقال : « هكذا . ان
 ارادتي بأن اكون ما انا ، هي الحرية الوحيدة الباقية لي . حررتي
 الوحيدة : ارادة الزواج بمارسيل . « وكان متعباً جداً بأن يحس نفسه
 متأرجحاً بين تيارات متضادة حتى انه استشعر من ذلك بعض العزاء .
 وضغط على قبضتيه ، ولفظ داخلياً برصانة شخص كبير ، بورجوازي ،
 سيد ، رب اسرة : « اريد ان اتزوج مارسيل . »
 تفه : ا كانت كلمات ، وكان اختياراً طفولياً عابثاً . وفكر :
 « هذا ايضاً ، هذا ايضاً كذب : لست بحاجة الى ارادة لكي اتزوجها ؛
 فليس لي الا ان ادعني امضي . « واغلق الدليل ، وكان ينظر مرهقاً
 الى بقايا كرامته الانسانية : وفجأة خيل اليه انه كان يرى حرته .
 كانت خارج المتناول ، قاسية جامحة كالجمال : وكانت تأمره بصراحة
 ان يتخلى عن مارسيل ، . ولم تدم الا لحظة ، هذه الحرية التي لا
 تُشرح ، والتي كانت تأخذ مظاهر الجريمة ؛ لقد لمحها لمحاً : وكانت
 تحيفه ، ثم انها كانت بعيدة . وظل مستنداً الى ارادته الانسانية اكثر
 مما ينبغي ، الى هذه الكلمات الانسانية اكثر مما ينبغي : « سوف
 اتزوجها . »

قالت عاملة التالفون :

- هذا دورك يا سيدي خذ الغرفة الثانية .

قال ماتيو : - شكراً .

ودخل الغرفة .

- ارفع الساعة يا سيدي .

فرغ ماتيو السماعه بوداعة :

- آلو ؟ ترودين ٠٠ - ٣٥ ؟ انها مخابرة للسيدة مونتيرو . كلا ،
لا تزعجوها . وانما يصعد من يقول لها بعد حين ان المخابرة من السيد
بوريس : انه لا يستطيع ان يأتي .
قال الصوت السيد موريس ؟

- كلا ، ليس موريس ، وانما بوريس . لا يستطيع ان يأتي .
نعم . هكذا . شكراً . الي اللقاء يا سيدتي .

وخرج ، وفكر وهو يحك رأسه : « لا بد ان مارسييل تروح
الآن وتجيء حائرة ، وعليّ ان اتلفن لها ما دمت هنا . » ونظر الى عاملة
التلفون نظرة مترددة فسألته :
- هل تريد رقماً آخر ؟

- نعم . اعطيني « سيفير ٢٥ - ٦٤ »

وكان رقم ساره . وقال :

- آلو ساره ، انا ماتيو .

فقال صوت ساره الحشن :

- آلو صباح الخير . ما الاخبار ؟ هل دبّرت الامر ؟

فقال ماتيو : - على الاطلاق . ان الناس لا يعطون المال الا بشق
النفس . والحق اني اريد ان اسألك : الا تستطيعين ان تقصدي ذلك
الرجل وترجيه ان يمهلني في الدفع حتى آخر الشهر ؟
- ولكنه يكون قد سافر ، في آخر الشهر .
- سأرسل له المال الى اميركا .

وكانت لحظة صمت قصيرة ، وازافت ساره في غير حماسة :
- استطيع ان احاول على اي حال ، ولكن ذلك لن يتم بسهولة .
انه عجوز شحيح جداً ، ثم انه يجتاز الآن مرحلة حساسية صهيونية

- شديدة ، فهو يكره كل ما ليس يهودياً منذ طردوه من فيينا .
- حاولي هلي اي حال ، اذا كان هذا لا يزعجك .
 - هذا لا يزعجني على الاطلاق . سأقصدته فوراً بعد الفطور .
 - قال ماتيو : - شكراً يا ساره . انت شخص من ذهب .

قال بوريس : - انه غير منصف على الاطلاق .
 قالت ايفيش : - اجل ، اذا كان يتصور انه ادى خدمة للولا !
 وضحكت ضحكة قصيرة جافة ، وصمت بوريس راضياً : لم يكن
 ثمة من يفهمه خيراً من ايفيش . ولفت رأسه الى سلم المغاسل وفكر
 في قسوة : « الحق انه قد تجاوز حدوده . ان على المرء الا يحدث
 انساناً على النحو الذي حدثني به . انا لست هورتيغير » وكان ينظر
 الى السلم ، وكان يأمل ان يبسم لها ماتيو وهو صاعد . وظهر ماتيو
 مرة اخرى ، وخرج من غير ان يوجه لها بسمة ، فشق ذلك على
 بوريس .

وقال : - انه يبدو فخوراً جداً .

- من ؟

- ماتيو . لقد خرج اللحظة .

فلم تجب ايفيش بشيء . وكان يبدو عايباً مظهر الحياء ، وكانت
 تنظر الى يدها المعصوبة .

وقال بوريس : - انك عاتب علي . وهو يجد اني لست اخلاقياً .

قالت ايفيش : - نعم ، ولكن هذا سيزول عنه سريعاً . (وهزت

كتفها) اني لا احبه حين يكون اخلاقياً .

فقال بوريس : - اما انا ، فأجبه . (واطاف بعد تفكير)
ولكني اكثر اخلاقية منه .

قالت ايفيش : - بف ا (وتارجحت قليلاً على المقعد الصغير ،
وكانت تبدو ساذجة سمينة الخدين ، وقالت بلهجة ماجنة) اني انا لا
اكثر بالاخلاق . لا اكثر بها .

واحسن بوريس بأنه وحيد جداً . وقد كان يودّ لو يقترب من
ايفيش ، ولكن ماتيو كان لا يزال بينهما . وقال :

- انه غير منصف . فهو لم يدع لي الوقت لأشرح موقعي .

فقالت ايفيش بلهجة عادلة :

- هناك اشياء لا يمكن ان تُشرح له .

فلم يحتج بوريس . وكان ذلك بدافع العادة ، ولكنه كان يعتقد
بأن من الممكن شرح كل شيء لماتيو حين يكون هاديء المزاج : وكان
يخيل اليه دائماً انها لم يكونا يتحدثان عن الـ « ماتيو » نفسه : فان
« ماتيو » ايفيش كان أنفه .

وضحكت ايفيش ضحكة خفيفة وقالت :

- كم انت عنيد ، ايها البغل الصغير !

فلم يجب بوريس ، وكان يمضغ ما كان لا بدّ ان يقوله لماتيو :
بأنه لم يكن وحشاً صغيراً انانياً ، وانه اصيب بهزة عنيفة حين اعتقد
بان لولا قد ماتت . بل هو قد استشعر ذات لحظة بأنه سيتألم وان ذلك
قد ادهشه . كان يجد الألم لااخلاقياً ، ثم انه لم يكن يطيق حقاً ان
يتحملة . واذ ذلك بذل جهداً لنفسه ، بدافع الاخلاق . فسُدّ شيء
ما ، وحدث انقطاع ، وكان لا بدّ من الانتظار لعودة الامر الى
نصابه .

ضحكت ايفيش ضحكة صغيرة جرحت بوريس . فأضاف بدافع
من عدالة :

- لا بدّ أنها في هذه اللحظة تتألم .
- هذا صحيح .
قال : - انا لا اريد ان تتألم .
فقال ايڤيش بصوت مغنٍ : - ليس عليك اذن الا ان تذهب
فترها .

ففهم انها كانت تنصب له شركاً واجاب بحوية :
- لن اذهب . انها اولاً ... اني ما زلت أراها ميتة . ثم اني لا
اريد ان يتصور ماتيو انه يستطيع ان يعتبرني جاهلاً بليداً .
انها لن تستسلم ، بصدد هذا ، فانه لم يكن هورتيغير . وقالت
ايڤيش في عذوبة :

- صحيح بعض الشيء انه يعتبرك جاهلاً بليداً .
وكان هذا لؤماً ، ادركه بوريس من غير غضب : كان قصد
ايڤيش وجيهاً . فقد كانت تريد ان يقطع علاقته باولا ، وكان هذا
من اجل صالحه . وكان الجميع ينظرون الى صالح بوريس . ولكن هذا
الصالح كان يتغير وفق الاشخاص . واجاب في هدوء :
- اني اتظاهر بهذا امامه . وهذه هي خطي معه .
ولكنه كان قد أُصيب في صميمه ، وكان غاضباً على ماتيو . وتعلمل
قليلاً على المقعد فنظرت اليه ايڤيش نظرة قلقة وقالت :
- انك تفكر اكثر مما ينبغي يا عزيزي . ليس عليك ان تتصور
الا انها ماتت حقاً .

فقال بوريس : - سيكون هذا موافقاً لي ، ولكني لا استطيع .
فراق ذلك لإيڤيش وقالت :

- غريب .. اما انا فاستطيع ، حين اكفّ عن رؤية الناس ، فانهم
لا يوجدون بعد .

فتأمل بوريس اخته باعجاب وصمت : انه لم يكن يستشعر مثل هذه

القوة الروحية . وقال بعد لحظة :

- انني اتساءل عما اذا كان قد اخذ المال . سيزيد الطين بلة لو

فعل !

- اي مال ؟

- مال لولا . كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .

- عجباً !

وبدا على ايفيش الاستياء والدهشة . وتساءل بوريس عما اذا لم يكن من الافضل ان يمسك لسانه . صحيح ان العهد كان ان يتصارحا بكل شيء ، ولكن كان بالامكان ، بين الفينة والفينة ، ان يُجرى استثناء على القاعدة . وقال :

- يبدو انك ناقمة على ماتيو .

فزمت ايفيش شفيتها وقالت :

- انه يثير اعصابي : كان هذا الصباح يعتبرني رجلاً .

قال بوريس : - نعم ...

وكان يتساءل عما كانت ايفيش تعني ، ولكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك : كان عليها ان يتفاهما بالكلام القليل ، والاّ بطل السحر . وحلّ بينهما صمت ، ثم اضافت ايفيش فجأة :

- لرحل . انني لا استطيع ان اطيق « الدوم » .

قال بوريس : - وانا كذلك .

ونفضا وخرجا . واخذت ايفيش ذراع بوريس . وكانت لدى بوريس رغبة خفيفة وعنيدة بان يقيء . وسألها :

- انتظنين انه سيظلّ غاضباً وقتاً طويلاً ؟

قالت ايفيش نافذة الصبر : - كلا ، كلا .

فقال بوريس في خبث :

- انه غاضب عليك ايضاً .

فأخذت ايفيش تضحك :
- هذا ممكن جداً ، ولكنني سأسأف لذلك فيما بعد . ان في رأسي
هموماً اخرى .
قال بوريس باضطراب : - صحيح ، انك منزعجة .
- جداً .

- بسبب امتحانك ؟

فهزت ايفيش كتفيها ولم تجب . وسارا بضع خطوات صامتتين .
وكان يتساءل عما اذا كان ذلك حقاً بسبب امتحانها . وكان يتمنى لو
كان ذلك كذلك : فان هذا اوفر اخلاقية .

ورفع عينيه ، فرأى ان جادة مونبارناس كانت عظيمة تحت هذا
النور الرمادي . ان المرء ليحسب نفسه في تشرين الاول . وكان بوريس
يجب كثيراً شهر تشرين الاول . وفكر : « في تشرين الماضي ، لم
أكن اعرف لولا . » وفي اللحظة نفسها احس بأنه متحرر : « انها
حيّة » وللمرة الاولى ، منذ ترك جثتها في الغرفة المظلمة ، كان يحس
بانها حيّة ، وكان ذلك بمثابة البعث . وفكر : « ليس من الممكن ان
يظل ماتيو ناقماً عليّ مدة طويلة ما دامت لم تمت . » وحتى هذه
الدقيقة ، كان يعلم انها كانت تتألم ، وانها كانت تنتظره في ضيق ،
ولكن ذلك الالم وهذا الضيق كانا يبدوان له غير قابلين للمعالجة
وثابتين كالم الذين ماتوا يائسين . ولكن كان هناك خطأ : كانت لولا
على قيد الحياة ، وكانت ترتاح في سريرها مفتوحة العينين ، وكان
يعمر صدرها غضباً صغيراً حيّ ، كذلك الذي كان يعمره حين كان
يصل متأخراً الى الموعد المضروب . غضب لم يكن دون غضب الآخرين
احتراماً او اكثر منه . ربما كان اقوى . ولم يكن له ازاءها تلك
الواجبات المخيفة التي يفرضها الاموات ، بل واجبات رصينة ، واجبات
عائلية على العموم . وهكذا استطاع بوريس ان يبتعث وجه لولا من

غير اشمزاز او استفظاع . ولم يكن وجه ميتة ، ذلك الذي استجاب للنداء ، وانما كان ذلك الوجه النضر الغاضب الذي ادارته نحوه ليلة الامس حين كانت تصرخ به : « لقد كذبت عليّ » ، فانت لم تترّ بيكار : « وفي الوقت نفسه ، استشعر حقداً صلباً ضد هذه الميتة المزيّفة التي خلقت كل هذه الكوارث . وقال :

- لن اعود الى فندقتي . فهي جديرة بان تقصده .
- اذهب فم لدى كلود .

- نعم .

وخطرت لايفيش فكرة :

- عليك ان تكتب لها . سيكون ذلك أنسب .

- اكتب للولا ؟ اوه ! كلا .

- بلى .

- لن اعرف ماذا اقول لها .

- سأكتب لك هذه الرسالة ، ايها الابله الصغير .

- ولكن ماذا تقولين فيها ؟

فنظرت اليه ايفيش بدهشة :

- الا تريد ان تقطع علاقتك بها ؟

- لا ادري .

فبدا الانزعاج على ايفيش ، ولكنها لم تلح . وكانت لا تلح قط ، وكان هذا يناسبها . ولكن مهما كان الامر ، فان على بوريس ان يكون دقيقاً حذراً بين ماتيو وايفيش : اما الآن فان رغبته في فقد لولا لم تكن اشد منها في رؤيتها من جديد . وقال :

- سنري . لن يجدي التفكير بذلك الآن .

وكان يُحسّ بالرضى في هذه الجادة ، وكان للناس وجوه طيبة ،

وكان يعرفهم كلهم تقريباً بالنظر ، ثم انه كان ثمة شعاع شمس مرح

يلامس زجاج « حانوت الليلك » وقالت ايفيش :

— اني جائعة . وسوف اتناول الفطور .

ودلفت الى مقهى « ديماريا » فانتظرها بوريس في الخارج . واحس انه ضعيف واهن العاطفة كأنه ناقه ، وكان يتساءل عما يمكنه ان يفكر به ليحصل على لذة صغيرة . ووقع اختياره فجأة على « القاموس التاريخي والاشتقائي للغة العامية » فابتهج . كان القاموس الآن على طاولته الليلية ، ولم يكن يرى سواه . وفكر باغتياب : « انه قطعة اثاث . لقد كانت ضربة معلم . » ولما كانت السعادة لا تأتي وحدها ، فقد فكر ايضاً بالسكين ، فأخرجه من جيبه وفتحه : « اني محظوظ ! » كان قد اشترى ليلة امس ، وقد اصبح لهذا السكين تاريخ ، فهو قد شق بشرة كائنين هما اعز الكائنات لديه . وفكر : « انه يقطع جيداً » . ومرت امرأة فنظرت اليه في الحاح . وكانت مرتدية ثياباً غاية في الاناقة . والتفت ليراها من ظهرها . وكانت قد التفتت هي ايضاً ، فتبادلا نظرة ود .

وقالت ايفيش : — هأنذا .

وكانت تحمل تفاحتين كبيرتين من تفاح كندا . وفركت احدهما على مؤخرتها ، حتى اذا اصبحت ملتعبة جداً ، عضتها بينما مدت الأخرى لبوريس : فقال بوريس :

— لا ، شكراً . لست جائعاً . (واضاف) انك تثيرين نفوري .

— لماذا ؟

— انك تفركين تفاحتك على ففاك .

فقالت ايفيش : — ذلك لألمعها .

قال بوريس : — انظري الى المرأة الذاهبة . لقد احسست نحوها

بانجذاب .

وكانت ايفيش تأكل بطريقة ساذجة ، فقالت وفيها ممتلئ :

- وهذه ايضاً ؟
- قال بوريس : – ليس من هذه الجهة ، وانما خلفك .
فالتفتت ايفيش ورفعت حاجبيها وقالت ببساطة :
– انها جميلة .
- هل رأيت ثيابها ؟ ان حياتي لن تنقضي قبل ان تكون لي امرأة
كهذه . امرأة من الوسط الراقي . ولا بد ان ذلك ممتع .
وكانت ايفيش ما تزال تنظر الى المرأة التي كانت تبعد . وكان
في كل يد من يديها تفاحة ، وكان يبدو كأنها تبسطها لها . وقال
بوريس في كرم :
- وحين اتعب منها ، اعطيك اياها .
وعضت ايفيش تفاحتها مرة جديدة وقالت :
– هكذا اذن .
- وتناولت ذراعه وجذبتة فجأه . وكان على الجانب الأخر من جادة
مونبارناس مخزن ياباني . فعبرا الرصيف ووقفا امام المعروضات . وقالت
ايفيش .
- انظر الى الاقداح الصغيرة .
قال بوريس : – انه « للساكي »
– وما هذا !
- عصير الارز الياباني .
– سأتي لأشترى بعضها ، واجعلها فناجين شاي .
– انها اصغر مما ينبغي .
– سأملاها عدة مرات بالتالي .
– او انك تستطيعين ان تملئي ستة دفعة واحدة .
فقالت ايفيش مفتونة .
- نعم . سيكون امامي ستة اقداح مترعة . فأشرب تارة من احدها ،

وتارة من الآخر .

وتراجعت قليلاً وقالت بلهجة هوس ، وهي تكثر بأسنانها :
- اوه ! اود لو اشترى الخانوت كله .

وكان بوريس ينتقد ذوق اخته في اختيار هذه التحف . ومع ذلك
فقد اراد ان يدخل الخانوت ولكن ايفيش امسكته .

- ليس اليوم . تعال .

وعادا يصعدان شارع دانفير - روشرو ، وقالت ايفيش :

- لكي احصل على مثل هذه الاشياء الصغيرة - ما يملأ غرفة

كاملة - ربما بعت نفسي لشيخ عجوز !

فقال بوريس بقسوة : - لن تستطيعي ذلك . فهذه مهنة ، وهي

تحتاج الى تعلم .

وكانا يسيران ، وكانت هذه لحظة سعادة ؛ وكانت ايفيش قد

نسيت ، بالتأكيد ، امتحانها ، اذ كانت تبدو جدلة . في هذه اللحظات ،

كان بوريس يحس بأنها لا يشكّلان بعد الا شخصاً واحداً . وكان

في السماء قطع كبيرة زرقاء وسحاب بيضاء تغلي : كانت اوراق الشجر

مثقلة بالمطر ، وكان ذلك يبعث رائحة نار الحطب . كما في شارع

قرية كبير . وقالت ايفيش وهي تشرع في التهام تفاحتها الثانية :

- احب هذا الطقس . صحيح ان هناك بعض الرطوبة ، ولكنه

لا يدبّق . ثم انه لا يؤذي العيون . اني احسّتي قادرة على السير

عشرين كيلومتراً .

وتذكر بوريس في خفاء انه كان ثمة مقاه مجاورة . وحين تتحدث

ايفيش عن قدرتها على السير عشرين كيلومتراً ، فما لا ريب فيه انها

ستطلب الجلوس بعد ذلك توأ .

ونظرت الى اسد « بلفور » وقالت في نشوة :

- هذا الاسد يعجبني . انه ساحر .

قال بوريس : - يعني ...
وكان يحترم ذوق اخته حتى ولو لم يكن يقاسمها اياه . والحق ان
ماتيو قد كفل ذلك ، فقد قال له يوماً : « ان لأختك ذوقاً رديئاً ،
ولكنه افضل من اوثق ذوق : انه ذوق رديء عميق . » ولم يكن ثمة
مجال للمناقشة في هذه الظروف . ولكن بوريس كان شخصياً ميالاً الى
الجمال الكلاسيكي . وسألها :

- هل نسيت جادة « ارغو » ؟

- وايها هي ؟

- هذه .

فقالت ايفيش : - أحبذ ذلك . فانها شديدة البريق .

ومشيا في صمت . ولاحظ بوريس ان اخته كانت تتجههم وتصبح
عصبية ، وكانت تنقصد ان تمشي وهي تلوي قدميها ، ففكر في ذعر
متطامن : : « سيبدأ الاحتضار ! » وكانت ايفيش تدخل في الاحتضار
كلما كانت تنتظر نتائج احد الامتحانات . ورفع عينيه ورأى اربعة عمال
قادمين في اتجاههما وهم ينظرون اليهما ضاحكين . وكانت ايفيش خافضة
الرأس فلم ترهم على ما يبدو . وحين وصل الشبان الاربعة اليهما ،
افترقوا : فر اثنان منهما الى يسار بوريس ، والآخران الى يسار
ايفيش .

وقال احدهم مقترحاً : - هل نعمل « سندويش » ؟

فقال بوريس بلطف : - قبحك الله يا وجه الضراط !

وفي تلك اللحظة قفزت ايفيش في الهواء وارسلت صرخة ثابتة
سرعان ما خنقتها وهي تضع يدها امام فمها . وقالت وقد احمرت
خجلاً :

- اني اقف كفتاة مطبخ . لقد كان العمال الشبان بعيدين .

فسألها بوريس دهشاً : - ماذا هناك ؟

قالت ايفيش في اشمزاز : - لقد لمسني . يا للقدر !
واضافت في قسوة : - لا بأس . كان ينبغي الا اصرخ .
فسألها بوريس مُهاناً : - أيّهم ؟
فأمسكته ايفيش :

- ارجوك ، احتفظ برباطتك . انهم اربعة . ثم انه يكفيني ما
اصابني من هزؤ .

وقال بوريس موضحاً : - ليس ذلك لأنه لمسك . ولكني لا
استطيع ان التحمل ان يفعلوا لك ذلك حين اكون معك . حين تكونين
مع ماتيؤ ، لا يمسك احد . فكيف تراني ابدو ؟
قالت ايفيش بحزن : - هكذا يا عزيزي الصغير . وانا كذلك لا
احميك . اننا لا نوحى بالاحترام .

وكان هذا صحيحاً . وكان بوريس يعجب لذلك غالباً : حين كان
ينظر الى نفسه في المرآة ، كان يجد ان هيئته مرعبة . وردد :

- نعم ، اننا لا نوحى بالاحترام .
وضمّ احدهما الآخر ، واحسّاً بأنهما يتيمان .
وبعد لحظة سأله ايفيش : - ما هذا ؟
وكانت تشير الى جدار طويل اسود عبر خضرة شجر الكستناء .
فقال بوريس :

- انه « السانتيه » . سجن .
قالت ايفيش : - عظيم . انني لم أر في حياتي اكأب منه . هل يفر
منه السجناء ؟

فقال بوريس : - هذا نادر . لقد قرأت ان سجيناً قفز مرة من
فوق الجدار فتعلق في غصن ضخّم لشجرة كستناء ثم هرب .
وفكرت ايفيش ثم اومأت بأصبعها الى شجرة كستناء وقالت :
- لعلها هذه . ما رأيك بأن نجلس على المقعد هناك ؟ اني متعبة .

فرعاً رأينا سجيناً آخر يقفز .
 فقال بوريس على غير اقتناع :
 - ربما . ولكنهم يفعلون ذلك ليلاً على ما اعتقد .
 واجتازا الرصيف وراحا يجلسان . وكان المقعد مبتلاً ، وقالت
 ايفيش في رضى :
 - انه رطب .
 ولكنها ما لبثت ان بدأت تتلملم وتشد على خصلاتها . وكان على
 بوريس ان يربت على يدها حتى لا تنتزع شعرها . وقالت ايفيش :
 - لئلمس يدي . انها مثلجة .
 وكان هذا صحيحاً . وكانت ايفيش قبيحة ، وكان يبدو انها
 تتألم ، وكان جسمها كله يهتز بالانتفاضات الصغيرة . ورآها بوريس
 حزينة جداً حتى انه حاول ان يفكر بلولا ، بدافع الود .
 ورفعت ايفيش رأسها فجأة : وكانت تبدو عليها هيئة العزم المظلم .
 وسألته :
 - هل معك زهرك ؟
 - نعم .
 وكان ماتيو قد اعطى ايفيش ورق لعب في محفظة جلدية صغيرة ،
 فأهدته ايفيش الى بوريس ، وكانا يلعبان به غالباً . وقالت :
 - لنلعب .
 فأخرج بوريس الزهر من المحفظة . وازافت ايفيش :
 - « مانشان » و « جميلة » ابداً .
 وابتعد احدهما عن الآخر . واقتعد بوريس الحجر ودحرج الزهر
 على المقعد . وكان قد سحب بوكر ملوك ، وقال :
 - ضربة موفقة .
 قالت ايفيش : - اني اكرهك .

وَقَطَّبَتْ حَاجِبِيهَا وَقَبِلَ أَنْ تُحْرِكَ الزَّهْرَ نَفَخَتْ عَلَى أَصَابِعِهَا وَهِيَ
تَدْنِدُنُ . وَكَانَ ذَلِكَ تَضَرَعًا . وَفَكَرَ بَوْرِيْسُ : « أَنْ الْأَمْرَ جَدٌ ، فَهِيَ
تَرَاهُنَّ عَلَى نَجَاحِهَا فِي الْأَمْتِحَانِ » وَرَمَتْ إِيْفِيْشُ الزَّهْرَ فَخَسِرَتْ : أَدْ
حَصَلَتْ عَلَى ثَلَاثِ سِيْدَاتٍ . وَنَظَرَتْ إِلَى بَوْرِيْسٍ بَعِيْنِيْنِ يَتَطَنَّايِرُ
مِنْهُمَا الشَّرْرَ وَقَالَتْ :
- إِلَى الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ .

وَسَحِبَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ ثَلَاثَةَ آسَاتٍ وَصَرَّخَتْ : « ضَرْبَةٌ مُوْفَقَةٌ » .
وَقَذَفَ بَوْرِيْسُ الزَّهْرَ وَكَانَ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى بُوْكَرِ آسٍ .
وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَا غَايَةَ سِبَاقِهَا ، مَدَّ يَدَهُ بِحِجَّةٍ أَنَّهُ يَلِمُ الْوَرَقَ ، ثُمَّ
دَفَعَ وَرَقَتَيْنِ دَفْعَةً خَفِيَّةً بِطَرَفِ سِبَابَتِهِ وَأَصْبَعَهُ الْوَسْطَى ، فَجَاءَ مُلْكَانِ
مَكَانَ الْآسِ وَالْبُوْكَرِ ، فَإِذَا هُوَ يَعلَنُ بِلَهْجَةٍ غِيْظٍ :
- زَوْجَانِ .

فَقَالَتْ إِيْفِيْشُ مُنْتَصِرَةً : - لَقَدْ جَاءَنِي أَنَا « مَانِشُ » آخِرًا .
وَكَانَ بَوْرِيْسُ يَتَسَاءَلُ عَمَّا إِذَا كَانَتْ قَدْ رَأَتْهُ يَغْتَشُ . وَلَكِنْ ذَلِكَ
كَانَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ بِدُونِ أَهْمِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ : أَنْ إِيْفِيْشُ لَمْ تَكُنْ تَهْتَمُّ إِلَّا
بِالنتيجة . وَقَدْ رُبِحَتْ بِزَوْجِيْنِ مُقَابِلِ زَوْجٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَدَخَلَ :
وَقَالَتْ بِبَسَاطَةٍ :

- طَيِّبْ !

- هَلْ تَرِيدِيْنِ أَنْ تَلْعَبِيْ بَعْدَ ؟

فَقَالَتْ : - لَا ، هَذَا حَسَنٌ . أَنْتِ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ الْعَبَّ لِأَعْرِفُ
أَنْ كُنْتُ سَائِجِحٌ .

قَالَ بَوْرِيْسُ : - لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ؛ حَسَنًا : لَقَدْ نَجِحْتِ :

فَهَزَّتْ إِيْفِيْشُ كَتْفَيْهَا وَقَالَتْ :

- لَا أَوْمَنُ بِذَلِكَ .

وَصَمَتَا وَظَلَا جَالِسِيْنِ مُتَقَارِبِيْنِ ، خَافِضِي الرُّأْسِ . وَلَمْ يَكُنْ بَوْرِيْسُ

ينظر الى ايفيش ولكنه كان يشعر بأنها ترتجف . وقالت ايفيش :
- ان الحر يضايقني ، اية فظاعة : ان يدي دبقتان ، وانا دبقة
من فرط الضيق .

والواقع ان يدها اليمنى التي كانت منذ لحظة باردة جداً ، اصبحت
ملتهبة . اما اليسرى فقد كانت تستريح جامدة معصوبة على ركبتيها .
وقالت :

- ان هذا الضماد يثير اشمزازي . اني أشبه احد مشوهي الحرب ،
وانا شديدة الرغبة في انتزاعه .

فلم يجب بوريس . ودقت ساعة في البعيد دقة . فانتفضت ايفيش
وسألت بصوت شرود :

- انها الثانية عشرة والنصف ؟

فقال بوريس وهو يراجع ساعته :

- انها الواحدة والنصف .

وتبادلا النظر فقال بوريس :

- لقد آن الوقت لأن اذهب الى الجامعة .

فالتصقت به ايفيش وأحاطت كتفيه بذراعيها :

- لا تذهب يا عزيزي بوريس . اني لا اريد ان اعرف شيئاً .

- سأسافر الى لاون هذا المساء و ... لا اريد ان اعرف شيئاً .

فقال لها بوريس في لطف :

- انك تستسلمين . يجب ان تعلمي الحقيقة قبل ان تواجهي الاهل .

فتركت ايفيش ذراعيها تسترخيان وقالت :

- اذن اذهب . ولكن عد بأسرع وقت ممكن . اني انتظرك هنا :

فقال بوريس مشدوهاً :

- هنا ؟ الا تفضلين ان تقطع الطريق معاً ؟ ستتظرنيني في مقهى

من مقاهي الحي اللاتيني .

قالت ايفيش : - لا ، لا ، بل سأنتظرك هنا .
- كما تريدن . واذا هطل المطر ؟
- بوريس ، ارجوك ، لا تعذبني . اسرع . سأبقى هنا ، حتى
ولو هطل المطر ، حتى ولو زلزلت الارض . انني لا استطيع ان
انهض على ساقي ، وليست لدي القوة بعد لأرفع إصبعاً واحداً .
ونهض بوريس وراح يسير على عجل . وحين عبر الطريق التفت
مرة اخرى . وكان يرى ايفيش من ظهرها : كانت مسترخية على
مقعدها ، وقد غرق رأسها في كتفيها ، وكانت تشبه شحاذة مسنة :
وقال في نفسه : « لعلها ستكون ناجحة ، بالرغم من كل شيء » :
وخطا بضع خطوات ، وتمثل فجأة وجه لولا . وجهها الحقيقي . وفكر :
« انها شقية ! » واخذ قلبه يخفق خفقاً عنيفاً .

بعد لحظة . بعد لحظة يواصل بحثه الذي لا طائل تحته ؛ بعد لحظة ، تلاحقه عينا مارسيل الحاقدتان المتعبتان ، ووجه إيفيش الهارب ، وقناع لولا الجنائزي ، سيجد مرة أخرى مذاق حمى في جوف فمه ، وسيأتي الضيق ليسحق معدته . بعد لحظة . واستغرق في أريكته واشعل غليونه ؛ وكان خالياً وهاثماً ، وكان مستسلماً لرطوبة الحانة المظلمة . وكان هناك ذلك البرميل المبرنق الذي كان بمثابة طاولة ، وصور اولئك المثلات وقبعات البحارة تلك المعلقة بالجدران ، وذلك الجهاز اللاسلكي الذي لا يرى والذي كان يوشوش كنافورة ماء ، واولئك السادة الضخام الاثرياء الجميلون الذين يدخنون السيجار في جوف القاعة وهم يشربون البورتو - الزبائن الآخرون ، رجال اعمال ، اذ كان الآخرون قد ذهبوا ليفطروا منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة في حوالى الواحدة والنصف ، ولكن كان من اليسير ان يتصور المرء انه كان الصباح وان النهار كان هناك ، هادئاً ، كبحر وديع ، وكان ماثبو يدوب نفسه في هذا البحر الذي لا حماسة له ولا موج ، ولم يكن بعد الا نغمة لا تكاد تُسمع ، ضججة من اصوات متميِّزة ، نوراً ذا لون صديء وهددهة لجميع هذه الايدي الجميلة الجراحية التي كانت تتأرجح وهي تحمل السيجار ، كقوافل تحمل التوابل . وكان يعلم جيداً انهم

أثما يعبرونه هذه القطعة الضئيلة من الحياة الفاغرة ، وأن عليه أن يردُّ بعد حين ، ولكنه كان يفيد منها بلا جشع : ان العالم ما يزال يحتفظ للاشخاص الهالكين بكثير من المباهج الصغيرة المتواضعة ، بل هو يحتفظ لهم بمعظم نعمه العابرة ، شريطة ان يستمتعوا بها في تواضع . وكان دانيال جالساً الى يساره بأبهة وصمت . وكان ماتيو يستطيع على هواه ان يتأمل وجهه الجميل ، وجه شيخ عربي ، وكانت تلك ايضاً بهجة صغيرة للعيون .

ومدّ ماتيو ساقيه وابتسم لنفسه . وقال دانيال :

— انني اوصيك خيراً بخمر « كزيريس » الذي يشربونه .

— حسناً ، ولكنك ستقدم لي منه قدحاً : فأنا لا املك فلساً .

فقال دانيال : — اقدمه لك . ولكن قل لي : اتريد ان اعيرك مثني فرنك ؟ انني خجلٌ من أن أعرض عليك هذا المبلغ الضئيل ... قال ماتيو : — لا ، لا حاجة الى ذلك .

وكان دانيال قد أدار نحوه عينيه الكبيرتين اللطفتين . وألح :

— أرجوك . ان معي أربعمئة فرنك حتى آخر الأسبوع : وسوف

نقاسمها .

وكان ينبغي ان يتجنب قبولها ، فان ذلك لم يكن من قواعد اللعبة .

فقال ماتيو :

— لا ، لا . اؤكد لك . انك لطيف جداً .

وكان دانيال يُثقل عليه نظرة مساعدة كثيفة :

— أأست حقاً محتاجاً الى شيء ؟

قال ماتيو : — بلى ، أنا محتاج الى خمسة آلاف فرنك ، ولكن

ليس في هذه اللحظة . في هذه اللحظة أنا محتاج الى قدح كزيريس والى محادثتك .

فقال دانيال : — أتمنى ان تكون محادثتي في مستوى الكزيريس .

ولم يكن قد أشار أية إشارة الى رسالته المستعجلة ، ولا الى الاسباب التي حملته على استدعاء ماتيو . والحق أن ماتيو كان يحمده له ذلك : فلا بدّ ان هذا آت عما قريب . وقال :
- إسمع : لقد رأيت برونيه ، أمس .
فقال دانيال بتأدب : - صحيح ؟
- أعتقد جيداً ان الامر قد انتهى بيننا هذه المرة .
- هل تنازعتما ؟

- لم نتنازع فقط ، بل فعلنا ما هو اسوأ .
وكان دانيال قد اتخذ مظهر الاسف ، فلم يستطع ماتيو أن يمتنع عن الابتسام ، وسأله :

- أترارك لا تكترث برونيه ، أنت ؟
فقال دانيال : - انني لم أكن حميمي الصداقة معه ، كما هو شأنك .
إنني أحترمه كثيراً ، ولكن لو كنت الحاكم لحشوته قشاً ووضعته في « متحف الانسان » فرع القرن العشرين .
قال ماتيو : - إنه لن يبدو فيه وجهاً رديئاً .
وكان دانيال يكذب : فقد سبق له أن أحب برونيه كثيراً .
وتذوّق ماتيو الكزيريس .
وقال : - إنه للذيذ .

فقال دانيال : - نعم ، هذا أفضل ما عندهم . ولكن مؤونتهم تنفذ ، ولا يستطيعون أن يجدّوها بسبب حرب اسبانيا .
ووضع قدحه الفارغ وأخذ زيتونة من صحن وقال :
- أتعلم أنني سأطالعك على سرّ ؟
وانتهى الامر : لقد تسلّلت تلك السعادة المتواضعة الخفيفة في الماضي . ونظر ماتيو إلى دانيال من زاوية عينه : كان دانيال يتخذ مظهر النبالة والغموض . وقال ماتيو :

- هياً .

فقال دانيال بصوت مردّد : - إنني أتساءل عما سيخلف ذلك في نفسك . إنني سأسّف إذا كنت ستحقد عليّ .

فقال ماتييو باسمًا : - ليس لك إلا أن تتكلّم فتعلم تأثير ذلك .

- حسنًا ... احزر مَنْ رأيت مساء أمس ؟

فردّد ماتييو خائبًا : - من رأيت مساء أمس ؟ لست أدري ، فربما رأيت جماعة كبيرة من الناس .

- مارسيل دوفيه .

- مارسيل ؟ عجباً .

ولم يندهش ماتييو كثيراً : صحيح أن دانيال ومارسيل لم يكونا قد اجتمعا كثيراً ، ولكن كان يبدو على مارسيل أنها تكنّ الودّ لدانيال .
وقال :

- إنك محظوظ . هي لا تخرج أبداً . أين التقيت بها ؟

فقال دانيال مبتسماً : - في بيتها . فأين تريد أن يكون ذلك ، ما دامت لا تخرج أبداً ؟

وأضاف وهو يخفّف جفنيه بتواضع :

- اصارحك بأننا نتلاقى بين وقت وآخر .

وساد صمت ، وكان ماتييو ينظر الى جفون دانيال الطويلة السود التي كانت تخفق قليلاً . ودقّت ساعة الثانية ، وكان صوت زنجي يغني على مهل : « هناك سرير في كارولين » إننا نتلاقى بين وقت وآخر . وأدار ماتييو رأسه وثبتّ نظره في الباقة الحمراء لقبعة بحار . وردّد من غير ان يفهم :

- انكما تتلاقيان . ولكن ...

فقال دانيال في شيء من الانزعاج :

- في بيتها ، لقد قلت لك ذلك .

- في بيتها . أتعني انك تقصدها هناك ؟
 فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :
 - أية فكرة هذه ؟ وكيف حدث ذلك ؟
 - الامر بكل بساطة اني كنت دائماً أكنّ ودّاً كبيراً لمارسيل
 دوفيه . وكنت شديد الإعجاب بشجاعتهما وكرم نفسها
 وصمت لحظة ، فردّد ماتيو في اندهاش : « شجاعة مارسيل وكرم
 نفسها . » لم تكن هذه هي الصفات التي كان أكثر تقديراً لها لدى
 مارسيل . وتابع دانيال :
 - كنت ذات يوم ضجراً ، فأخذتني الرغبة بأن أذهب فأدقّ باهما ،
 واستقبلتني بترحاب . هذا كل ما في الامر : ومنذ ذلك الحين استمررنا
 في اللقاء . وكانت غلظتنا الوحيدة أننا أخفينا عنك ذلك .
 وغرق ماتيو في العطور الكثيفة ، وفي جوّ الغرفة الوردية : كان
 دانيال جالساً على الكرسي ذي الوسادة ، ينظر إلى مارسيل بعينيه
 الكبيرتين الوعليتين فتبتسم مارسيل بارتباك كما لو ان هناك من يريد
 تصويرها . وهزّ ماتيو رأسه : إن ذلك لم يكن معقولاً ، كان
 مستحيلًا وباعتاً على النفور ، لأن هذين الشخصين لم يكن يربطهما شيء
 مشترك ، فلا يعقل ان يتفاهما .
 - كنت تقصدها ، وقد أخفت عني ذلك ؟
 وأضاف بهدوء :
 - هذا مزاح .
 فرفع دانيال عينيه وتأمّل ماتيو في غموض ، وقال بصوت عميق :
 - ماتيو ، انت تعرف أنني لم أسمح لنفسني قط بأيّ مزاح حول
 علاقاتك مع مارسيل ، فهي علاقات ثمينة جداً .
 قال ماتيو : - انا لا أنكر ذلك . لا أنكر ذلك . ولكن هذا لا
 يمنع أن يكون الامر مزاحاً .

فترك دانيال ذراعيه تسقطان ، ثابت الهمة ، وقال في أسي :
- حسناً . لنبق اذن عند هذه النقطة .
قال ماتيو : - لا ، لا . تابع . فانت طريف للغاية : كل ما
هنالك اني لا اصدق .
فقال دانيال في عتاب :
- ولكنك لا تيسر لي المهمة . انه يشق علي كثيراً ان اتهم
نفسي تجاهك . وهذا حسبي (وتنهذ) وكنت اود لو تصدق كلامي .
ولكن ما دمت بحاجة الى ادلة ...
وكان قد اخرج من جيبه محفظة محشوة بالاوراق المالية . ورأى
ماتيو الاوراق وفكر : « الدنيء ! » ولكن بكسل ، وشكلياً . وقال
دانيال :
- انظر .

ومد رسالة الى ماتيو ، فتناولها : كان خط مارسيل . وقرأ :
- « كنت علي حق » ، شأنك دائماً ، يا ملاكي . كان هو الزهر
الذي ذكرت . ولكني لا افهم كلمة واحدة مما كتبت لي . موافقة
ليوم السبت ، ما دمت مشغولاً غداً . ان امي تقول بانها ستوبحك
بشدة ، من اجل السكاكر . تعال بسرعة يا ملاكي ، سنتنظر زيارتك
بفارغ الصبر . مارسيل .

ونظر ماتيو الى دانيال وقال :

- اذن ... هذا صحيح ؟

فأوما دانيال برأسه : وكان متصباً مقطباً كشاهد مبارزة . واعد
ماتيو قراءة الرسالة ، وكان تاريخها العشرين من نيسان . « لقد كتبت
هذا . » وكان هذا الاسلوب المصطنع لا ينم عنها : وفرك انفه في
تلمل ، ثم انفجر ضاحكاً :

- ملاك ، انها تدعوك ملاكاً ، وهذا ما لا يخطر على بالي .

اتصوره ملاكاً سقط من السماء ، شخصاً من فئة «لوسيفير» . ثم انك ترى العجوز : لقد اكتملت الصورة .

فبدا دانيال مضطرباً ، وقال بجفاف :

– اقتنعتَ اخيراً ... لقد كنت اخشى ان تغضب ...

فأدار ماتيو رأسه اليه ونظر اليه في تردد ؛ وكان يرى جيداً ان دانيال كان يتوقع غضبه .

وقال : – هذا صحيح ، كان عليّ ان اغضب ، وهذا طبيعي . ولكن اسمع : ربما جاء ذلك فيما بعد . اما الآن فانا مذهول .

وافرغ قدحه ، وقد اخذته الدهشة – بدوره – لأنه لم يغضب .

– وهل تراها غالباً ؟

– بصورة غير منتظمة . مرتين تقريباً في الشهر .

– ولكن ما عساكما تجدان للكلام ؟

فانتفض دانيال والتمعت عيناه . وقال بصوت اعذب مما ينبغي :

– اتكون لديك موضوعات للتحدث تقترحها علينا ؟

فقال ماتيو بصوت مصالح :

– لا تغضب . ان هذا جديدٌ جداً ، غير متوقع قط بالنسبة إليّ ... حتى انه يسليني تقريباً . ولكن ليست لي مقاصد سيئة . اذن ، هذا صحيح ؟ انكما تحبان ان تتحدثا فيما بينكما ؟ ولكن – لا تصرخ ، ارجوك ، فأنا اطلب الفهم ، باي شيء تتحدثان ؟

فقال دانيال في برودة :

– بكل شيء . ان مارسيل لا تنتظر مني بالطبع احاديث رفيعة جداً ، ولكن ذلك يُريحها .

– ان هذا لا يصدق ، فاننا مختلفان جداً .

ولم يكن ينجح في التخلص من تلك الصورة اللامعقولة : مارسيل في أبهة ، وهو في محاسنه الحفية النبيلة ، ومظاهر «الكاغليسترو» لديه ،

وبسمته الافريقية الطويلة ، ومارسيل ، تجاهه ، متصلبة ، مرتبكة
امينة ... امينة ؟ متصلبة ؟ انها ليست متصلبة الى هذا الحد : « تعال
ايها الملاك ، فنحن ننتظر زيارتك . » كانت مارسيل هي التي كتبت
ذلك ، وكانت هي التي تحاول ان تتعود على هذه اللطافات الكثيفة .
وللمرة الاولى احسن ماتيو بان نوعاً من الغضب يلامسه ، وفكر :
« لقد كذبت عليّ انها تكذب عليّ منذ ستة اشهر . » واستطرد :

— يدهشني كثيراً ان تكون مارسيل قد اخفت عني شيئاً .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

— اتكون انت الذي طلبت اليها ان تصمت ؟

— نعم انا . لم اكن اريدك ان تقود علاقتنا . اما الآن ، فاني

اعرفها منذ وقت بعيد ، ولم يبق للقضية كبير اهمية .

وردّد ماتيو وقد هدأ قليلاً :

— أنت الذي طلبت اليها ذلك ؟

واضاف : — وهي لم تبد اية صعوبة ؟

— لقد ادهشها ذلك كثيراً .

— نعم ، ولكنها لم ترفض .

— كلا . لا بدّ انها لم تجد ذلك شديد الإجرام . لقد ضحكت كما

اذكر وقالت : « انها حالة ضميرية » وهي تعتقد اني احب ان احيط

نفسي بالاسرار (واطاف بسخرية محجبة استاء لها ماتيو كثيراً) في

البدء كانت تسميني « لوهنجران » . وبعد ذلك ، وقع اختيارها كما

تري على « ملاك » .

قال ماتيو : — نعم .

وكان يفكر : « انه يسخر منها » واستشعر الذلّ لمارسيل . وكان

غيلونه قد انطقاً فمدّ يده وتناول بالية حبة زيتون . وكان الأمر خطيراً :

انه لم يكن يحسن نفسه خامداً بما فيه الكفاية ، وانما كان يأخذ خبل

فكري ، كمن اكتشف انه انما كان مضللاً علي طول الخط .. ولكن لو كان الامر قد حدث في السابق ، لكان الشيء الحمي الذي في داخله قد نرف . وقال في بساطة ، بصوت كثيب :

– كنا نتصارع بكل شيء ...

قال دانيال : – كنت تتصور ذلك . ايستطيع الانسان ان يقول كل شيء ؟

فرفع ماتيو كتفيه في غيظ ، ولكنه كان خصوصاً غاضباً على نفسه . وقال :

– وهذه الرسالة ! اننا ننتظر زيارتك ! يخيل اليّ اني اكتشف « مارسيل » اخرى .

فبدا دانيال مدعوراً :

– « مارسيل » اخرى .. انك تذهب بعيداً ! اسمع .. انك ، مقابل عمل طفولي ، لن ...

– لقد كنت تأخذ عليّ الساعة ، انت نفسك ، اني لا آخذ الامور مأخذاً جدياً بما فيه الكفاية ...

فقال دانيال :

– ذلك انك تنتقل من النقيض الى النقيض (وازدادت بلهجة تفهّم ودية) الامر هو انك تثق اكثر مما ينبغي باحكامك على الناس . ان هذه الحكاية الصغيرة تثبت ببساطة ان مارسيل اكثر تعقيداً مما كنت تظنّ .

قال ماتيو : – ربما . ولكن هناك شيئاً آخر .

لقد اخطأت مارسيل ، وكان يخشى ان يحقد عايبها : كان لا ينبغي ان يفقد ثقته بها اليوم – اليوم إذ لعله سيكون مجبراً على ان يضحّي لها بحريته . كان بحاجة الى ان يحترمها ، والاّ كان ذلك اقسى من ان يُحتمل . وقال دانيال :

- والواقع اننا كنا دائماً على نية ان نخبرك بذلك ، ولكن كان طريقاً جداً ان تقوم بالتأمر ، حتى اننا كنا نؤجل ذلك من يوم الى آخر .

حتى اننا ! كان يقول : اننا ؛ لقد كان بوسع امريء ان يقول « نحن » وهو يتحدث الى مارسيل عن ماتيو . ونظر ماتيو الى دانيال بلا صداقة : كانت تلك لحظة الحقد عليه . ولكن دانيال كان يدّعه بلا سلاح ، كما هو شأنه دائماً . وقال له ماتيو فجأة :

- دانيال ، لماذا فعلت ذلك ؟

فأجاب دانيال : - لقد اجبتك : لأنني رجوتها أن تفعل . ثم انه كان يسئليها - ولا بد - ان يكون لها سر .

فهز ماتيو رأسه

- كلا . هناك شيء آخر . لقد كانت تعرف جيداً ما كانت تفعله .

فلماذا فعلته ؟

قال دانيال : ولكن ... اتصور انه لا ينبغي ان يكون من المناسب دائماً ان تعيش في دائرة اشعاعك . لقد بحثت لنفسها عن زاوية ظل .

- ها هي تجدني طاغياً كاسحاً ؟

- انها لم تقل لي ذلك بصراحة ، ولكن هذا ما حسبت اني افهمه . (واضاف مبتسماً) ماذا تريد ، انك قوة ! تأكد انها معجبة بك ، انها معجبة بطريقتك في ان تعيش داخل بيت من الزجاج وان تصيح من على السطوح بما ألفت الناس ان يحتفظوا به لأنفسهم : غير ان ذلك يستنفدها . انها لم تحدثك عن زياراتي ؛ لانها خشيت ان تفسر عواطفها نحوي ، وان تضغط عليها لتعطي هذه العواطف اسماً ، وان تحملها لتحيلها قطعاً صغيرة . أتدري ؟ انهم بحاجة الى الظلام والغموض ... فان ذلك شيء متردد وغير محدد اطلاقاً ...

– هل صارحتك بذلك ؟
– نعم ، صارحتني . لقد قالت لي : ان ما يسليني معك هو انني
لا اعرف قط اين انا ذاهبة . اما مع ماتيو ، فاني اعرف دائماً ذلك .
مع ماتيو ، اعرف دائماً ذلك . وايضاً : « ان المرء لا يخشي معك
ما ليس متوقفاً » . واحس ماتيو بشيء من الغثيان .

– لماذا تراها لم تحدثني قط ؟
– هي تزعم انك لا تسألها عن ذلك .
وكان هذا صحيحاً ، وخفض ماتيو رأسه : لقد كان كلما اراد
ان يسر عواطف مارسيل يأخذه كسل لا يقهر . وحين حسب مرة
انه يلاحظ طيفاً في عينيها ، هزّ كتفيه : « لو كان ثمة شيء لقالته
لي . انها تقول كل شيء . » وهذا ما كنت اسميه : ثقتي بها . لقد
افسدت كل شيء .

وانفض وقال فجأة :
– لماذا تخبرني بذلك اليوم ؟
– لا بد ان تُخبر بذلك اليوم او غداً .
وكانت هذه اللهجة الفرارية مقصودة لإثارة الفضول : ولكن ماتيو
لم ينخدع بها ، فأضاف يقول :
– لماذا اليوم ، ولماذا انت ؟ لقد كان اكثر طبيعية ... ان تحدثني هي
بذلك اولاً .

فقال دانيال بارتباك مصطنع :
– يبدو اذن انني اخطأت ... ولكني حسبت ان هذا كان في
صالحكما انما الاثنين .
حسناً . وتصلب ماتيو : « حذار من الضربة القاسية . ان هذه
هي البداية فقط . » واطاف دانيال :
– سأقول لك الحقيقة : ان مارسيل تجهل اني تحدثت اليك ، وحتى

الامس لم تكن تبدو عازمة على إطلاعك على الحقيقة في هذا الوقت المبكر . سأكون شاكراً لك اذا اخفيت عنها محادثتنا بعناية .

فضحك ماتيو بالرغم منه :

– هكذا اذن ايها الشيطان ! انك تبذر الاسرار في كل مكان . بالامس فقط كنت تتآمر مع مارسيل عليّ ، واليوم تطلب مني ان اضلع معك ضدها . فأني نوع طريف من الخونة انت !

فابتسم دانيال وقال :

– ليس في شيء من الشيطان . ان ما حملني على الكلام قلق حقيقي استولى عليّ مساء امس . فقد خيّل اليّ انه كان بينكما سوء تفاهم خطير . ومن الطبيعي ان تكون مارسيل من العزة بحيث تمتنع عن ان تحدثك هي نفسها بذلك .

فضغط ماتيو قدحه بقوة في يده : لقد بدأ يفهم .

– الامر هو بصدد ... (وانهى دانيال العبارة بحشمة) بصدد

حادثتك .

قال ماتيو : – آه ، هل قلت لها انك كنت عالماً بذلك ؟

– لا ، لا ، لم أقل شيئاً . هي التي تحدثت اولاً .

– هكذا اذن !

« امس كانت تبدو على التلفون خائفة من ان احدها بالموضوع .

وفي المساء ، قالت له كل شيء مهزلة اخرى . » وأضاف :

وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك .. ان هناك شيئاً غير لائق .

فسأله ماتيو منقبض الحنجرة :

– ما الذي يتيح لك أن تقول ذلك ؟

– ليس هناك شيء واضح .. وانما هي الطريقة التي قدمت لي بها

الاشياء ؟

- ماذا هناك ؟ هل هي حاقدة عليّ لأنني جعلتها تحمل ؟
- لا اظن . ليس هذا هو الامر . وانما هو بشأن مسلكك امس .
لقد حدثني عنه بحقد .
- ما الذي فعلته ؟

- لا استطيع ان اقول لك على الضبط . اسمع ، هذا ما قالته لي
ضمن اشياء اخرى : « انه هو الذي يقرر دائماً ، فاذا لم أكن متفقة
معه ، فن المفهوم ان احتج . ولكن ذلك لصالحه هو لأن له رأيه
الناجز ، وهو لا يترك لي الزمن ابدأ لتكوين رأي » . اني لست
متأكدآ من العبارات .
فقال ماتيو مشدوهاً :

- ولكن لم يكن امامي قراراً اتخذه . لقد كنا دائماً على اتفاق حول
ما ينبغي ان تفعله في مثل هذه الحالة .

- نعم ، ولكن هل حرصت على معرفة رأيها امس الاول ؟
قال ماتيو : - كلا . كنت متأكدآ من انها كانت تفكر مثلي .
- نعم ، الواقع انك لم تسألها عن شيء . متى واجهتما للمرة
الاخيرة ... هذه الامكانية ؟
- لا ادري ، منذ عامين او ثلاثة .

- عامان او ثلاثة ... او لا تظن انها يمكن ان تكون قد غيرت
رأيها في هذه الاثناء ؟

وفي جوف القاعة ، كان السادة قد نهضوا ، وكانوا يتبادلون
التنهائي وهم يضحكون ، واثامهم خادماً بقبعاتهم ، فخرجوا وهم يحثون
صاحب الحانة بحركة ودية ، ووقف الخادم الراديو . وعادت الحانة
تسقط في صمت جاف ، وكان في الجو مذاق كارثة . وفكر ماتيو :
« سينتهي الامر نهاية سيئة . » ولم يكن يعرف جيداً ما الذي سينتهي
نهاية سيئة : هذا النهار العاصف ، ام قصة ذلك الإجهاض ، ام علاقته

بمارسيل ؟ كلا ، كان شيئاً أشدّ غموضاً واعرض : حياته ، اوروبا
هذا السلام التافه المشؤوم . وتمثّل شعر برونيه الاشقر : « ستقع
الحرب في ايلول . » وفي هذه اللحظة ، كان من في الحانة الخالية
المظلمة يكاد يصدق ذلك . لقد كان في حياته شيء ما قد فسد ، في
هذا الصيف . وسأله :

– هل هي خائفة من العملية ؟

فقال دانيال بلهجة باردة : – لا ادري .

– هل ترغب في ان اتزوجها ؟

فأخذ دانيال يضحك :

– لست ادري . انك تسألني اكثر مما اطيق الجواب عليه . مهما
يكن من امر ، فليست القضية من السهولة بهذا المكان . اتسمعي ؟
يجب ان تحدّثها هذا المساء . من غير ان تذكرني طبعاً : كما لو ان
بعض الوسواس قد استولت عليك . وسوف يدهشني الا تقول لك كل
شيء ، بالنسبة للوضع الذي رأيتها فيه امس : كان يبدو عليها انها
شقية جداً .

– حسناً . سأحاول ان احملها على الكلام .

وساد صمت ، ثم اضاف دانيال بلهجة انزعاج :

– هكذا : لقد اخبرتك .

قال ماتيو : – نعم ، شكراً على كل حال .

– هل انت حاقد عليّ ؟

– على الاطلاق . ان هذا هو نوع الخدمة الذي يمكنك ان تؤديه ،

ان يسقط على رأسك كالقرميدة .

فانفجر دانيال ضاحكاً : وكان يفغر فمه على سعته ، فترى اسنانه

الباهرة وجوف حلقه .

ما كان لي ان افعل ذلك ، اليد موضوعة على الساعة ، كانت تفكر ، ما كان لي ان افعل ذلك ، لقد كنا نتصارع بكل شيء ، وفكر : كانت مارسيل تكاشفني بكل شيء ، آه ! وفكر ، انه يعرف ، الآن يعرف ، خبل مرهق في رأسها وهذا الصوت الصغير في رأسها ، كانت مارسيل تقول لي دائماً كل شيء ، ، والامر الآن في رأسها ، هذا غير محتمل ، افضل مئة مرة ان يكرهني ، ولكنه كان هناك ، جالساً على مقعد المقهى ؛ متباعد الذراعين ، كما لو انه ترك شيئاً ما يسقط ، وعينه محددة في الارض كما لو ان شيئاً ما قد تحطم عليها . لقد تم الامر ، وتمت المحادثة . لم أر ، ولم اسمع ، ولم أكن هناك ، ولم اعلم شيئاً ، وقد كانت هي ، وقد قبلت الكلمات وانا لا اعرف شيئاً ، وكان الصوت الرصين يرتفع كاللدخان نحو سقف المقهى ، سوف يأتي الصوت من هناك ، الصوت الجميل الرصين الذي كان يُرعى دائماً صفيحة السماعه ، وسيخرج من هناك وسيقول انتهى الامر ، يا إلهي يا إلهي ؛ ما الذي سيقوله ؟ انني عار ، انني ممتليء وهذا الصوت سيخرج مجلبياً من الصفيحة البيضاء ، ما كان ينبغي لنا ، ما كان ينبغي لنا ، لقد كانت موشكة على ان تغضب من دانيال ، اذا كان ممكناً ان تغضب منه ، لقد كان كريماً جداً وطيباً ؛ وكان الوحيد الذي اهتم بي ، واخذ قضيتي بيده ، ذلك الملك ، ومنح قضيتي صوته الرائع . امرأة ، امرأة ضعيفة ، ضعيفة يدافع عنها في عالم الرجال والاحياء صوت غامض حار ، وسيخرج الصوت من هناك وسيقول : كانت مارسيل تقول لي كل شيء ، مسكين ماتيو ، يا ملاكي الحبيب ! وفكرت : الملك تبللت عيناه ، دمع عذب ، دمع غزارة وخصوبة ، ومع امرأة حقيقية بعد ثمانية ايام محرقة ، ومع امرأة عذبة مدافع عنها . لقد اخذني بين ذراعيه فلافني ودافع عني ، ماء العينين الراقص والملاطفة الملتوية على الخدين ، وارتجافة

الشفنين ، طوال ثمانية ايام نظرت في البعيد الى نقطة ثابتة ، وعيناها جافتان خاليتان : انهم سيقتلونه لي ، وطوال ثمانية ايام كانت مارسيل الدقيقة ، مارسيل القاسية ، مارسيل العاقلة ، مارسيل الرجل ، انه يقول يأتي رجل ، وهذا هو الماء ، المرأة الضعيفة ، المطر في العينين ، فلماذا اقاوم ، غداً سأكون قاسية وعاقلة ، مرة ، مرة واحدة ، الدموع ، الندم ، الاشفاق المعذب على النفس ، والذل الاعذب ايضاً ، هاتان اليدان المخمليتان على خاصرتي ، على فخذي ، كانت راغبة بأخذ ماتيو بين ذراعيها وطلب الصفح منه ، الصفح وهي راحة : ماتيو المسكين ، يا عزيزي الكبير . مرة ، مرة واحدة ، ما اجمل ان يدافع عنها ، وان يُصفح عنها . وارهقتها فكرة مفاجئة . وكان خل يسيل في عروقها ، هذا المساء ، حين يدخل الى بيتي ، وحين احيط عنقه بذراعي ، وحين اقبله ، سيعرف كل شيء ، وعليّ انا ان اظاهر بأني لا اعرف انه يعرف . آه ! اننا نكذب عليه ، هكذا فكرت في يأس ، ولا نزال نكذب عليه ، اننا نقول له كل شيء ، ولكن صراحتنا مسمومة . انه يعرف ، وسيدخل هذا المساء ، وسأرى عينيه الطيبتين ، وسأفكر ، انه يعرف ، وكيف تراني استطيع ان اتحمل ذلك ، يا عزيزي ، يا عزيزي الكبير ، للمرة الاولى في حياتي سببت لك حزناً ، آه ! سأقبل كل شيء ، سأذهب الى العجوز ، سأقتل الطفل ، اني خجلة ، سأفعل ما يشاء ، كل ما يشاء .

ورن جرس التلفون تحت اصابعها ، فشنتجت يدها على السماعة ، وقالت :

- آلو ! آلو ! انت دانيال ؟

قال الصوت الجميل الهاديء : - نعم ، من يكلمني ؟

- انا مارسيل .

- صباح الخير يا عزيزتي مارسيل .

قالت مارسيل : - صباح الخير . (وكان قلبها يخفق بشدة)
- هل نمت نوماً هنيئاً ! (وكان الصوت الرصين يصدي في
جوفها ، وكان هذا للذيداً وغير محتمل) لقد تركتك في ساعة متأخرة
جداً مساء امس ، ولا بد ان توبخني السيدة دوفيه على ذلك ؛ ولكن
أمل الا تكون قد عرفت شيئاً .

فقالت مارسيل لاهثة :

- كلا ، لم تعرف شيئاً . كانت غاطسة في نومها حين خرجت...
وألحّ الصوت العذب يقول : - وانت ، هل نمت نوماً هانئاً ؟
- انا ؟ لا بأس ... اني ناثرة الاعصاب قليلاً كما تعلم .
فأخذ دانيال يضحك ، وكانت ضحكة مترفة جميلة ، هادئة وقوية .
وانفجرت مارسيل قليلاً . وقال :

- ينبغي الا تثور اعصابك . لقد سارت الأمور جيداً .

- سارت ... صحيح ؟

- صحيح . بل احسن مما كنت آمل . الحق اننا يا عزيزتي مارسيل
لم نعرف قدر ماتيو تماماً .

واحس مارسيل ان ندماً مرّاً يعضها ، فقالت :

- اليس كذلك ؟ اننا لم نعرف قدره .

قال دانيال : - لقد اوقفني منذ الكلمات الاولى . وقال لي انه
ادرك جيداً ان شيئاً ما غير طبيعي ، وان هذا قد آلمه طوال نهار امس .

فسألت مارسيل بصوت محتق :

- هل قلت ... هل قلت له اننا كنا نتقابل ؟

فقال دانيال في دهشة : - طبعاً ! ألم نتفق على ذلك ؟

- بلى ... بلى ... بلى ... وكيف تلقى هذا النبأ ؟

فبدا على دانيال التردد وقال :

- بصورة جيدة . جيدة جداً بالنتيجة . لم يرد اولاً ان يصدق...

— لا بد انه قال لك : كانت مارسيل تجربني كل شيء .

— قال ذلك في الواقع (وبدا انه مسرور) قاله حرفياً .

قالت مارسيل : — اسمع يا دانيال : انني نادمة !

وسمعت من جديد الضحكة العميقة الجذلة :

— هذا هو وضعه ايضاً . لقد ذهب ممتلئاً بالندم . آه ! فاذا كنما

معاً في هذا الوضع ، فاني اود لو اختبئ في مكان ما من غرفتك

حين يأتي للقائك : فسيكون ذلك شيئاً لذيذاً !

وضحك من جديد ، ففكرت مارسيل في عرفان متواضع : « انه

يسخر مني . » ولكن الصوت كان قد اصبح رصيناً ، وكانت السماعة

تهتز كالأرغن :

— لا ، الحقيقة يا مارسيل ان كل شيء يسير على ما يرام ، وانا

مسرور من اجلك كما تعلمين . انه لم يتركني اتكلم ، وواقفني منذ

الكلمات الاولى ، وقال لي : « يا لمارسيل المسكينة ، انني مجرم كبير ،

وانا احتقر نفسي ، ولكني سأصلح خطي ، اتظن اني استطيع بعد

ان اصلحه ؟ » وكانت عيناه متوردتين . فما اشد ما يحبك !

وكانت مارسيل تقول :

— اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال !

وساد صمت ، ثم اضاف دانيال :

— لقد قال لي انه يريد ان يحدثك هذ المساء بكل صراحة :

« سنفقاً الدم . » فكل شيء هو الآن بين يديك يا مارسيل . سيفعل

كل ما تشائين .

— اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال ! (ثم تمالكت نفسها قليلاً

واضافت) لقد كنت طيباً جداً و ... اود ان اراك في اقرب فرصة

ممكنة ، فعندي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولا استطيع ان اكلمك من

غير ان اري وجهك . هل تستطيع غداً ؟

فبدا لها الصوت أكثر جفافاً كأنما قد فقد اوتاره التوافقية :
- آه ! غداً ، لا ! انني طبعاً متشوق لرؤيتك ... اسمعي
يا مارسيل ، سأخابرك .
قالت مارسيل : - حسناً ، خابرنني بسرعة . آه يا دانيال ،
يا عزيزي دانيال ...
قال دانيال : - الى اللقاء يا مارسيل . كوني بارعة هذا المساء .
وصاحت : - دانيال ...
ولكنه كان قد اغلق التلفون . ووضعت مارسيل الساعة وأمرت
مندليها على عينيها الرطبتين : « الملاك ! لقد اقلت بسرعة ، خشية
ان اشكره . » واقتربت من النافذة ونظرت الى المارة : نساء وسوقة
وبضعة عمال ، فوجدت ان هيئة السعادة كانت بادية عليهم . وكانت
امرأة شابة تعدو وسط الشارع ، وكانت تحمل ابنها بين ذراعيها ؛
وتحدثه وهي تعدو لاهثة وتضحك في وجهه . وتابعتها مارسيل بعينيها
ثم اقتربت من المرأة فنظرت فيها الى نفسها باندهاش . وكان على خشبة
المغسلة ثلاث وردات حمر في قدح للاسنان . وتناولت مارسيل احداها
في تردد وأدارتها بنجمل بين اصابعها ، ثم اغمضت عينيها وغرزت
الوردة في شعرها الاسود . « وردة في شعري ... » وفتحت اجفانها ،
ونظرت الى نفسها في المرأة ، وربتت على شعرها ثم ابتسمت لنفسها في
تأثر .

قال الرجل القصير :

- تفضل وانتظر هنا يا سيدي .
- وجلس ماتيو على مقعد صغير ، وكانت غرفة انتظار صغيرة تنبعث منها رائحة الملفوف ؛ وإلى اليسار كان باب زجاجي يلمع لمعاناً ضعيفاً . ودقّ الجرس فذهب الرجل القصير ليفتح . ودخلت امرأة شابة وهي تلبس ثياباً ذات احتشام بائس .
- تفضلي واجلسي يا سيدتي .
- ورافقها وهو يمسه مساً خفيفاً حتى المقعد الصغير ، فجلست وهي تطوي ساقها تحتها . وقالت المرأة الشابة :
- لقد سبق لي ان جئت ؛ والفضية هي قضية قرض .
- نعم ، يا سيدتي ، بكل تأكيد .
- وكان الرجل القصير يحدثها في وجهها :
- هل انت موظفة ؟
- انا لا ، وانا زوجي .

وأخذت تفتش في محفظتها ؛ ولم تكن قبيحة ، ولكن كانت لها هيئة قاسية مذعورة ؛ وكان الرجل القصير ينظر اليها في نهم . وأخرجت من محفظتها ورقتين او ثلاثاً مطوية بعناية ، فأخذها واقرب من الباب

الزجاجي ليتبين ما فيها بوضوح وتفحصها طويلاً . وقال وهو يردّها لها :

— حسناً ، حسناً جداً . ولدان ؟ انك تبدين صبيّة بعد ... اننا ننتظر الاولاد بفارغ الصبر ، اليس كذلك ؟ ولكن حين يصلون ، تختلّ ميزانية البيت . هل انتم منزعجون قليلاً في هذه الفترة ؟
فاحمر وجه المرأة الشابة وفرك الرجل القصير يديه ، وقال في طيبة :
— حسناً ، سنتدبر كل شيء . فانما نحن هنا من اجل ذلك .

ونظر اليها نظرة تفكر باسمه ثم ابتعد . واقتت المرأة الشابة نظرة عداة لماتيو واخذت قداعب قفل محفظتها . واحس ماتيو بالانزعاج :
لقد دخل عند الفقراء الحقيقيين ، وهو سيأخذ ما لهم ، مالاّ رمادياً كالحلأ يبعث رائحة الملقوف . وخفض رأسه ونظر الى الارض الخشبية بين قدميه ، فاذا هو يتذكر الاوراق المالية الحريرية المعطرة في صندوق لولا ؛ ان ذلك ليس هو هذا المال نفسه .

وفتح الباب الزجاجي وبدا رجل طويل ذو شاربين ابيضين . وكان له شعر فضي مسرّح بعناية الى خلف وتبعه ماتيو في المكتب . ودلّه السيد بلطف على مقعد من الجلد المهترىء فجلس كلاهما . واسند السيد مرفقيه على الطاولة وضم يديه الجميلتين البيضاوين . وكان يضع ربطة عنق خضراء غامقة تُفرحها جوهرة . وسأله بلهجة ابوية :

— هل تريد ان تستفيد من خدماتنا ؟

— نعم .

ونظر الى ماتيو ؛ وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحان تجحطان قليلاً ..

— السيد ... ؟

— دولارو .

— انك لا تجهل ان نُظّم شركتنا انما تقدم خدماتها للموظفين

وحدهم ؟

كان الصوت جميلاً وبيض ، سميناً بعض الشيء ، كاليدين .
فقال ماتيو :

– انني موظف . استاذ .

قال السيد مهتماً : – آه ، آه ! اننا سعداء بصورة خاصة بأن
نساعد الجامعيين . هل انت استاذ في ليسيه ؟

– نعم ، في ليسيه بوفون .

فقال السيد في انبساط :

ممتاز . والآن سننجز الشكليات الصغيرة المعتادة ... اود اولاً ان
اسألك ان كنت تحمل تذكرة هوية ، او اي ورقة مماثلة ، جواز سفر ،
دفترآ عسكرياً ؛ بطاقة انتخابية ...

فد له ماتيو اوراقه ، فتناولها السيد وتأملها لحظة في شرود وقال :

– حسناً ، حسناً جداً . وما هي قيمة المبلغ الذي تريده ؟

فقال ماتيو : – اريد ستة آلاف فرنك .

وفكر لحظة ثم اضاف :

– بل لنقل سبعة آلاف .

وكان قد سُرَّ بالمفاجأة ، وفكر : « لم اكن اظن ان الامر سيجري

بهذه السرعة . »

– هل تعرف شروطنا ؟ اننا نقرض لمدة ستة اشهر من غير تجديد

ممكن . اننا مضطرون لأن نطلب عشرين بالمئة فائدة ، لأن عندنا
نفقات باهظة ولأننا نتعرض لمجازفات كبيرة .

فقال ماتيو بسرعة : – حسناً ، حسناً !

فأخرج السيد ورقتين مطبوعتين من درجه :

– هل لك ان تتفضل فتملاً هذه الشكليات ؟ وتوقع في اسفل

الصفحتين ؟

وكان ذلك طلباً للإقراض على نسختين ، وكان عليه ان يذكر

الاسم والسن والحالة المدنية والعنوان . واخذ ماتيو يكتب . وقال السيد وهو يجيل نظره في الورقتين :

- ممتاز . مولود في باريس .. عام ١٩٠٥ .. من اب وام فرنسيين .. حسناً ، هذا كل ما يجب الآن . وحين نسلمك السبعة الآلاف فرنك ، سنطلب منك ان توقع على ورقة ذات طابع اعترافاً بالدين . والطابع على نفقتك .

- حين التسليم ؟ الا يمكن ان تعطوني اياها على الفور ؟
فيبدأ السيد مندهشاً جداً :

- على الفور ؟ ولكننا بحاجة يا سيدي العزيز الى خمسة عشر يوماً على الاقل لنجمع معلوماتنا .

- اية معلومات ؟ لقد رأيت اوراقى ..
فتأمل الرجل ماتيو بلطف مرح وقال :

- آه ! ان الجامعيين متشابهون جميعاً ! كلهم مثاليون . لاحظ يا سيدي ، انني في هذه الحالة الخاصة لا اضع كلامك موضع الشك . ولكن بصورة عامة ، ما الذي يثبت ان الاوراق التي تقدم لنا ليست مزيفة ؟ (وضحك ضحكة صغيرة حزينة) : ان من يتصرف بالمال يتعلم الحذر . ان هذا شعور قبيح ، انا وافقك على ذلك ، ولسكن لا يحق لنا ان نكون واثقين . (وانهى كلامه بقوله) هوذا اذن : يجب ان نقوم بتحقيقنا الصغير ، وسوف نتوجه مباشرة الى وزارتك . لا تخش شيئاً ، بكل السرية المرغوب فيها . ولكنك تعرف ما هي الشكليات الادارية : فأنا اشك كثيراً في ان تستطيع انتظار مساعدتنا بطريقة معقولة قبل الخامس من تموز .

فقال ماتيو وهو منقبض الحنجرة :

- هذا يستحيل علي . (وأضاف) : انني بحاجة الى المال هذا المساء او صباح الغد على الابد ، فانا بحاجة عاجلة له . ألا تستطيع

ان ... بفائدة اكبر ؟
فبدت الدهشة والاستغراب على الرجل ، ورفع يديه الجميلتين
في الهواء :

– ولكننا لسنا مرابين يا سيدي العزيز ! لقد تلقت شركتنا تشجيع
وزارة الأشغال العامة . انها اذا صح لنا القول منظمة رسمية . اننا
نتقاضى فوائد عادية ووضعت بالنظر لنفقاتنا ولمجازفاتنا ، ولا نستطيع
ان نستجيب لمثل هذه المساومات .

وأضاف في قسوة :

– اذا كنت مستعجلاً ، فقد كان عليك ان تأتي قبل الآن . ألم
تقرأ ارشاداتنا ؟

قال ماتيو وهو ينهض :

– كلا . لقد فاجأني الوقت .

فقال الرجل ببرودة :

– اني اذن آسف ... هل يجب تمزيق الاوراق التي ملأتها ؟
وفكر ماتيو في ساره : « لا بد انها ستقنعه بتأجيل القبض »
وقال :

– لا تمزقها . سأتدبر امري حتى ذلك الحين .

فقال الرجل بلهجة ودية :

– نعم ، ستجد بلا شك صديقاً يقرضك لمدة خمسة عشر يوماً ما
انت بحاجة اليه . (وقال وهو يوميء باصبعه الى الورقة) هذا إذن هو
عنوانك : ١٢ شارع هويغنز ؟

– نعم .

– حسناً ، في الايام الاولى من تموز سنرسل لك دعوة صغيرة .
ونهض فرافقه ماتيو حتى الباب . وقال ماتيو :

– الى اللقاء يا سيدي . شكراً .

فقال الرجل وهو ينحني :

— اننى سعيد بان اؤدي لك خدمة . فالى اللقاء .
وعبر ماتيو غرفة الانتظار بخطى كبيرة . وكانت المرأة الشابة ما
تزال هناك ، وكانت تعض قفاها بهيئة شاردة . وقال الرجل ممن
خلف ماتيو :

— هل لك ان تدخلني يا سيدتي ؟

وفي الخارج ، كانت انوار نباتية ترتعش في الهواء الرمادي .
ولكن ماتيو كان يشعر الآن بأنه كان طوال الوقت مسجوناً داخل جدران .
وفكر : « هزيمة اخرى » ولم يكن لديه أمل بعد الا بساره .
وكان قد بلغ جادة سيباستوبول ، فدخل مقهى وطلب قسيمة من
المحاسبة :

— التلفون ، في الداخل الى اليمين .

وفيما هو يركب الرقم تتم : « المهم ان تكون قد نجحت . اوه !
المهم ان تكون قد نجحت »

وكان ذلك نوعاً من الصلاة المبتهلة . وقال :

— آلو ، آلو ساره ؟

فقال صوت : — آلو ، نعم . انا ويمولر .

قال ماتيو : — انا ماتيو دولارو . هل تستطيع ان اتكلم مع

ساره ؟

— لقد خرجت .

— آه ! هذا مزعج ... الا تدري متى ستعود ؟

— لا ، لا اعرف . هل لديك شيء تريد ان تبلغها إياه ؟

— لا ، قل لها فقط انني اتصلت بها .

واعاد الساعة وخرج . إن حياته لم تكن بعد متوقفة عليه بل
كانت بين يدي ساره ؛ ولم يكن باقياً له الا ان ينتظر . وأشار الى

اوتوبيس وصعد يجلس بالقرب من امرأة عجوز كانت تسعل في منديلها. وفكر : « إن اليهود يتفاهمون فيما بينهم » سيقبل معها ، سيقبل بلا شك .

- دانفير - روشيرو ؟

فقال قاطع التذاكركر : - ثلاث قسائم .

وأخذ ماتيو القسائم الثلاث وراح ينظر من النافذة ؛ وكان يفكر بمارسيل في حقد حزين . وكان الزجاج يرتجف ، وكانت العجوز تسعل ، وكانت الازهار قرقص على قبعتها القشبية السوداء . القبعة ، الازهار ، العجوز ، ماتيو ، كل شيء كان محمولاً بالآلة الضخمة ؛ لم تكن العجوز ترفع أنفها عن منديلها ، ومع ذلك فقد كانت تسعل عند ملتقى شارع « الاورس » وجادة سيباستوبول ، وكانت تسعل في شارع ريومور ، وكانت تسعل في شارع مونتورغوي ، وكانت تسعل على جسر « البونيف » فوق ماء رمادي هاديء . « واذا لم يقبل اليهودي ؟ » . ولكن هذه الفكرة لم تكن تنجح في اخراجه من خدره ، إنه لم يكن بعد الا كيساً من الفحم فوق اكياس أخرى ، في قلب شاحنة . « فليكن . سينتهي الأمر ، وسأقول لها هذا المساء اني أتزوجها . » وكان الاوتوبيس الضخم والطفولي يحمله ، ويميل به ذات اليمين وذات اليسار ، ويهزه ، ويصدمه ، وكانت الأحداث تصدمه بمسند المقعد ، بالزجاج ، وكانت سرعة حياته تهدده ، وكان يفكر : « إن حياتي ليست بعد لي ، انها ليست بعد الا قديراً » ، وكان ينظر فيرى بنايات شارع « سان بير » السوداء تنبثق ، وكان ينظر الى حياته التي كانت تتوالى . اتزوجها ، لا اتزوجها : « ان هذا لا يعنيني بعد . القضية هي وجه الفليس او قفاه . »

وتوقف الاوتوبيس توقفاً عنيفاً مفاجئاً ، فانتصب ماتيو ونظر الى ظهر السائق في قلق : لقد اتت حريته كلها ترتد عليه . وفكر :

« لا ، ليست القضية هي وجه الفاس او قفاه . فهما حدث ، فانما ينبغي ان يحدث بارادتي . » حتى ولو ترك نفسه موزعاً يائساً ، ولو ترك نفسه ككيس من الفحم ، فانما يكون قد اختار ضياعه : لقد كان حراً ، حراً في كل شيء ، حراً في ان يكون أبله او يكون آلة ، حراً ليقبل ، حراً ليرفض ، حراً ليتعلل او يتردد : كان بوسعه ان يفعل ما يريد : ان يتزوج او يترك ، ان يجر جر طوال سنوات هذه الكرة المعلقة بقدمه ، فليس لأحد الحق في ان ينصحه ، ولن يكون له « خير » او « شر » الا ان يكون قد اخترعهما . كانت الاشياء حوله قد اصطفيت في دائرة ، وكانت تنتظر من غير ان تعمل إشارة ، ومن غير ان تأتي اية ايماءة . كان وحيداً ، وسط صمت شيطاني ، حراً ووحيداً ، من غير عون ولا عذر ، محكوماً عليه ان يقرر من غير مساعدة ممكنة ، محكوماً عليه الى الابد ان يكون حراً .

وصاح قاطع التذاكرو : - دانفير - روشيرو .
 ونهض ماتيو وترجل ، ودلف الى شارع « فروادفو » وكان متعباً
 ثائر الأعصاب ، وكان لايني يرى صندوقاً مفتوحاً وسط غرفة مظلمة ،
 وفي جوف الصندوق اوراق معطرة ناعمة ، وكان ذلك يشبه ندماً ،
 وفكر : « آه ! كان علي ان آخذها . »
 قالت البوابة :

- رسالة مستعجلة لك . لقد وصلت اللحظة .
 وتناول ماتيو الرسالة فزق الظرف ، وللحال انهارت الجدران التي
 كانت تحاصره ، وخيّل اليه ان عالمه يتغير . كانت هناك ثلاث كلمات ،
 وسط الصفحة ، مكتوبة بخط كبير هابط :
 « سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش »
 وسألت البوابة : - إنه ليس خبراً سيئاً ، على الاقل ؟

- كلا .
- آه ! حسناً . لأنك كنت مشدوهاً ؟
- سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش
- انه تلميذ قديم من تلامذتي قد سقط في الامتحان .
- آه ! انهم يشددون في الامتحانات ، على ما قيل لي .
- يتشددون كثيراً .
- قالت البوابة : — تأمل ! جميع هؤلاء الشبان الذين ينجحون .
وبعد ذلك ، ها هم اولاء يحملون الألقاب . فاذا تريد ان
يفعلوا بهم ؟
- هذا ما اتساءل عنه .
- وقرأ للمرة الرابعة رسالة ايفيش ، وكان مصفوحاً بفخامه كلماتها
المقلقة . سقطت ، فاقدة الشعور ... وفكر : « انها الآن ترتكب حماقة
ما . وهذا واضح كالنهار . انها ترتكب حماقة ما . »
- كم هي الساعة ؟
- السادسة .
- الساعة السادسة . لقد تلقت النتيجة في الساعة الثانية . وها هي
اربع ساعات تمضي وهي مقذوفة في شوارع باريس . ووضع الرسالة
في جيبه ، وقال للبوابة :
- مدام غارنيه : أعيرني خمسين فرنكاً .
- فقالت البوابة مندهشة :
- ولكني لا اعرف ان كنت أملكها .
- وفتشت في درج طاولة عملها :
- خذ ، ليس معي الا مئة فرنك ، وستعيدها اليّ هذا المساء .
- قال ماتيو : — حسناً . شكراً .
- وخرج ، وكان يفكر : « اين عساها تكون ؟ » وكان رأسه

فارغاً ، وكانت يدها ترتجفان . وكانت سيارة تاكسي بطيئة مارّة في شارع فروادفو ، فأوقفها ماتيو :

– بيت الطالبات . ١٧٣ شارع سان جاك . بسرعة .
قال السائق : – حسناً .

« اين عساها تكون ؟ في احسن الحالات تكون قد ذهبت إلى لاون ، وفي اسوأها ... وانا متأخر اربع ساعات » وكان منحنيًا الى أمام ، وكان يضغط بشدة قدمه اليمنى على السجادة مستعجلاً السيارة .

وتوقف التاكسي ، فترجل ماتيو وقرع جرس البيت :

– هل الآنسة ايفيش سرغين موجودة ؟

فنظرت اليه السيدة في تحدٍ وقالت :

– اني ذاهبة لأرى .

وما لبثت ان عادت :

– إن الآنسة سرغين لم تعد منذ هذا الصباح . فهل هناك ما تود

إبلاغها إياه ؟

– لا .

وعاد ماتيو فاستقل السيارة :

– اوتيل بولونيا ، شارع سوميرار .

وبعد لحظة ، طرق على الزجاج وقال :

– هنا ، هنا ، الفندق هو الى اليسار .

وقفز الى الأرض ودفع الباب الزجاجي :

– هل السيد سرغين موجود ؟

وكان الخادم السمين الأحسب واقفاً عند الصندوق ، فعرف ماتيو

وابتسم له :

– إنه لم يعد هذه الليلة .

– وأخته ... فتاة شقراء هل مرّت هنا اليوم ؟
فقال الخادم : – اوه ، انني اعرف الآنسة ايفيش جيداً . لا .
انها لم تأت ، وليس هناك الا السيدة مونتيرو التي تلفنت مرتين تسأل
عن السيد بوريس وتطلب ان يذهب توأاً لرؤيتها فور عودته ؛ فاذا رأيته
أبلغه ذلك .

قال ماتيو : – حسناً .

وخرج . أين عساها تكون ؟ في السينما ؟ إن هذا غير محتمل قط .
تجرجر اقدامها في الشوارع ؟ إنها على كل حال لم تترك باريس بعد ،
وإلاّ لمرّت ببيت الطالبات لتأخذ محافظتها . وسحب ماتيو الرسالة من
جيبه وتفحص الظرف : لقد أرسل من مكتب بريد شارع كوجاس ،
ولكن ذلك لم يكن يثبت شيئاً . وسأله السائق :

– اين نذهب ؟

فنظر اليه ماتيو نظرة مترددة وأشرقت في ذهنه فكرة : « لكسي
تكتب هذا لا بدّ انها قد ثملت . » وقال :

– إسمع : عليك ان تجتاز على مهل جادة سان ميشال مرة اخرى
ابتداءً من المحطة . انني أبحث عن إنسان ، ويجب ان أُلّمّ بجميع
المقاهي .

ولم تكن ايفيش في بياريتز ، ولا في « لامبورس » ولا في « داركور »
ولا في « البيار » ولا في « باليه دو كافييه » . وفي مقهى كابولاد ،
لمح ماتيو طالباً صينياً كان يعرفها . وتقدّم . وكان الصبي يشرب
البورتو وهو معتلّ كرسياً المشرب . وقال ماتيو وهو يرفع اليه رأسه :
– اطلب العذرة . اظنّ انك تعرف الآنسة سرخين ، فهل رأيتهما
اليوم ؟

فقال الصيني وكان يتكلم بمشقة :

– كلا . حصلت لها مصيبة .

فصاح ماتيو : - ماذا ، حصلت لها مصيبة ؟
قال الصيني : - كلا ، وانما أسأل إن كانت قد حصلت
لها مصيبة .

فقال ماتيو وهو يوليه ظهره :

- لا ادري .

ولم يكن يفكر بعد حتى بأنه يحمي ايفيش مع نفسها ؛ لم تكن
لديه الا حاجة مؤلمة عنيفة لرؤيتها . وفكر في غضب . «واذا حاولت
ان تقتل نفسها ؟ إنها سخيفة الى هذا الحد . » وبعد كل شيء ، ربما
كانت بكل بساطة في مونبارناس . وقال :

- الى مفرك « فافين » .

وصعد ثانية الى السيارة . وكانت يدها ترتجفان : فوضعها في جيبه ؛
واستدارت السيارة حول نبع مديسيس فلمح ماتيو ريناتا صديقة ايفيش
الاطيالية . وكانت خارجة من اللكسمبورغ والمحفظة في يدها ، فصاح
ماتيو بالسائق :

- قف ، قف .

وقفز من التاكسي وعدا اليها :

- هل رأيت ايفيش ؟

فأخذت ريناتا مظهراً رصيناً وقالت :

- مساء الخير يا سيدي .

قال ماتيو : - مساء الخير ، هل رأيت ايفيش ؟

- ايفيش ، نعم ، رأيتها .

- متى ؟

- منذ ساعة تقريباً .

- اين ؟

- في حديقة اللكسمبورغ (واضافت ريناتا بانزعاج قليل) كانت

مع شخص غريب . هل عرفت ان المسكينة سقطت ؟
 - نعم . اين ذهبت ؟
 كانا يريدان الذهاب الى مرقص « لاتارنتول » على ما اعتقد .
 - واين هو ؟
 - شارع « مسيولوبرنس » انه كما سترى بائع اسطوانات ،
 والمرقص تحت الارض .
 - شكراً .
 وخطا ماتيو بضع خطوات ثم عاد يقول :
 - اعذريني ، نسيت ايضاً ان اقول لك الى اللقاء ؟
 قالت ريناتا : - الى اللقاء يا سيدي .
 وعاد ماتيو الى سائقه :
 - شارع « مسيولوبرنس » على بعد خطوتين . سرّ على مهل ،
 وسأوقفك .
 « المهم ان تكون ما زالت هناك ! اني سأجوب جميع مراقص
 بلحي اللاتيني . »
 - قف . هنا . ستتظرنني لحظة .
 ودخل ماتيو الى حانوت بائع اسطوانات وسأل .
 - مرقص « لاتارنتول » ؟
 - في الطابق الارضي . إهبط الدرج .
 وهبط ماتيو درجاً ، واستنشق رائحة رطبة عفنة ، ثم دفع مصراع
 باب من الجاد ، وتلقى ضربة في معدته : كانت ايفيش هناك .
 وكانت ترقص . واستند الى حاجز الباب وفكر : « انها هنا . »
 وكان كهفاً خالياً مضاداً للعفونة ، وبلا ظل . وكان ضوء
 مصفى يهبط من السقف ذي الورق المزيّن . ورأى ماتيو زهاء خمس
 عشرة طاولة ضائعة وسط هذا البحر الضوئي الميت . وكانت قد

ألصقت على الجدران البنية قطع ملونة من الورق المقوى كانت تمثل نباتات غريبة ، ولكنها كانت قد تقوّست والتوت بتأثير الرطوبة ، وكان الصبّار قد انتفخ تجعّدت . وكان ثمة حاك غير مرئي يذيع رقصة باسادوبل ، وكانت هذه الموسيقى المعلّبة تزيد القاعة عرياً . كانت ايفيش قد أراحت رأسها على كتف مراقصها ، وكانت تلتصق به بشدة . وكان يجيد الرقص . وقد عرفه ماتيو : كان ذلك الشاب الطويل الأسمر الذي كان يصطحب ايفيش مساء امس في جادة سان ميشال . وكان يشمّ شعر ايفيش بين وقت وآخر ويقبله . فكانت اذ ذاك تقذف رأسها الى خلف وتضحك ، وهي ممتعة ، مغمضة العينين ، فيما كان يهمس في اذنها ؛ وكانا وحدهما وسط الحلبة . وفي جوف القاعة ، كان اربعة شبان وفتاة طلت وجهها بالمساحيق يصفقون بأيديهم ويصرخون « اوليه » واقتاد الشاب الطويل الأسمر ايفيش الى طاولته وهو يمسكها من قامتها ، فتجمّع الطلاب حولها واحتفلوا بمقدمها ؛ وكانوا على مظهر طبيعي ومتصنع في الوقت نفسه ، وكانوا يحيطونها بحركات دائرية ولطيفة اما المرأة المزينة فكانت قائمة على حذر . كانت واقفة ، ثقيلة ومرنحية ، ونظرها محدد . وأشعلت سيجارة وقالت بتفكير :

- اوليه .

وانهارت ايفيش على كرسي بين المرأة الشابة وبين قصير أشقر ذي لحية قصيرة . وكانت تضحك بجنون . وقالت وهي تلوح بيدها امام وجهها :

- كلا ، كلا ! لا حاجة الى دليل ، لا حاجة الى دليل !

ونهض ذو اللحية على عجل ليتنازل عن مقعده للراقص الأسمر . وفكر ماتيو : « تمت اللوحة ، لقد اعترفوا له بحقه في الجلوس الى جانبها . » وكان يبدو على الأسمر الجميل انه يجد الأمر طبيعياً جداً ؛

والواقع انه الوحيد الذي كان يبدو راضياً مرتاحاً .
واومات ايفيش باصبعها الى ذي اللحية ، وقالت ضاحكة ؟
- لقد فرّ لأنني وعدته بأن اقبله .
فقال ذو اللحية بكل رصانة :
- اسمحي لي ، انك لم تعديني بذلك ، بل هددتني به .
قالت ايفيش : - حسناً ! لن اقبلك ، بل سأقبل « ايرما » .
فقالت المرأة الشابة وقد ثارت دهشتها وغرورها :
- تريدان ان تقبليني يا صغيرتي ايفيش !
- نعم ، تعالي .
وجذبتها من ذراعها في تسلط . فابتعد الآخرون وقد أخذهم العجب ،
وقال احدهم : « ما هذا يا ايفيش ! » بصوت لا يخلو من تأنيب
لطيف . وكان الجميل الأسمر ينظر اليها ببرودة وهو يتسم بسمه
خفيفة ؛ كان يراقبها ، واستشعر ماتيو الذل ؛ ان ايفيش لم تكن ،
بالنسبة لهذا الشاب الأنيق ، الا فريسة ؛ لقد كان يعرفها بنظرة
شهوانية عارفة ، وقد كانت عارية امامها ، وكان يحزر نهديه وفخذها
ورائحة لحمها ... وانتفض ماتيو فجأة ، وتقدم من ايفيش ، مرتخي
الساقين : لقد لاحظ انه كان يشتهيها للمرة الاولى بنجمل ، عبر
شهوة شخص آخر .
وكانت ايفيش قد قامت بألف حركة متصنعة قبل ان تقبل جارتها .
واخيراً ، تناولت رأسها بين يديها ، وقبلتها في شفيتها ثم دفعتها عنها
بعنف وهي تقول في تأنيب :
- ان رائحتك هي رائحة الكاد الهندي .
وانزع ماتيو بالقرب من طاولتهم وقال :
- ايفيش !
فنظرت اليه فاغرة الفم ، وتساءل عما اذا كانت قد عرفته . ورفعت

- على مهل يدها اليسري وأرته اياها وقالت :
- هذا انت ؟ عجباً ، انظر !
- كانت قد نزعت ضهادها ، فرأى ماتيو قشرة محمرة دبقة مع صخور صغيرة من القيح الاصفر .
- وقالت ايفيش خائبة :
- لقد احتفظت بضادك . صحيح ، انت متبصر .
- قالت المرأة بلهجة اعتذار :
- لقد نزعته بالرغم منا . انها شيطان صغير .
- ونفضت ايفيش فجأة ونظرت الى ماتيو نظرة مبهمة :
- خذني من هنا . اني اُذل نفسي .
- فتبادل الشبان النظرات ، وقال ذو اللحية لماتيو :
- اننا لم نجعلها تشرب . بل نحن حاولنا منعها من ذلك .
- فقالت ايفيش باشمزاز :
- هذا صحيح . انهم لؤماء .
- قال الراقص الجميل :
- الا انا يا ايفيش ، الا انا .
- وكان ينظر اليها نظرة مشاركة : فالتفتت اليه ايفيش وقالت :
- الا هذا الذي هو انسان قدر !
- قال ماتيو على مهل :
- تعالي .
- واخذها من كنفها وساقها ، وكان يسمع خلفه ضجة واجمة .
- وفي وسط الدرج ، تناقلت ايفيش ، فابتهل قائلاً : « ايفيش ! »
- فنفضت خصلاتها مقهقهة وقالت :
- اريد ان اجلس .
- ارجوك .

فعدت ايفيش الى الضحك ثم رفعت تنورتها الى ما فوق - ركبتهما
وقالت :

- اريد ان اجلس هنا .
فتناولها ماتيو من قامتها وحملها . وحين بلغا الشارع تركها : ولم
تتخبط ، وطرفت بعينيهما ونظرت فيما حوله نظرة ضجرة . وقال ماتيو
مقترحاً :

- هل تريدان ان تعودي الى بيت الطالبات ؟
فقال ايفيش في صيحة : - كلا .
- اتريدان ان آخذك الى بورييس ؟
- انه ليس في البيت .
- واين هو ؟
- الشيطان يدري .
- اين تريدان ان تذهبي ؟
- ما يدري انا ؟ عليك انت ان تجد ، فأنت الذي اخذتني .
وفكر ماتيو لحظة وقال :
- حسناً .

وامسكها حتى التاكسي وقال :
- ٢٢ ، شارع هويغنز .
وقال : - اني آخذك الى بيتي . تستطيعين ان تتمددي على ديواني
وسأعد لك الشاي .
فلم تعترض ايفيش . وصعدت الى السيارة على مشقة وارتعت فوق
الوسائد .

- هل تشكين شيئاً ؟
وكانت مزرقّة ، وقالت :
- اني مريضة .

قال ماتيو : - سأقول له ان يقف امام صيدلية .

فقال بعنف : - كلا .

قال ماتيو : - اذن تمددي واغمضي عينيك . سنصل عما قليل .
فأنت ايفيش قليلاً . وفجأة اخضر لونها واطلت من الباب . وكان
ماتيو يرى ظهرها الهزيل يهزه التقيؤ . ومدّ يده فأمسك بلا ضجة
قفل الباب : كان يخشى ان يفتح . وبعد لحظة ، انقطع السعال ،
فارتدى ماتيو بحوية الى خلف ، واخذ غليونه وحشاه وهو مستغرق .
وتركت ايفيش نفسها ترتدي على الوسائد ، واعاد ماتيو غليونه الى
جيبه . وقال لها :

- لقد وصلنا .

واستقامت ايفيش بمشقة وقالت :

- اني خجلة .

وترجل ماتيو قبلها ومدّ لها ذراعيه ليعينها ، ولكنها دفعته وقفزت
بحوية الى الرصيف . واسرع يدفع للسائق والتفت اليها ، فاذا
هي تنظر اليه نظره محايدة ؛ وكانت رائحة قيء يسير تنبعث من فمها
البنقي . واستنشق ماتيو هذه الرائحة بهوس :

- هل تحسنت حالتك ؟

فقال ايفيش بلهجة قائمة :

- لست بعد ثملة ، ولكن رأسي يخفق .

ودلتها ماتيو برفق على السلم . وقالت له بلهجة عدائية :

- عند كل درجة ، ضربة في رأسي .

وتوقفت لحظه عند السطح الثاني لتسردّ انفاسها .

- اني الآن اذكر كل شيء .

- ايفيش !

- كل شيء . لقد تدحرجت مع اولئك الاشخاص القدرين وجعلت

نفسى عرضة للانظار ... ثم انني ... سقطت في الشهادة .
قال ماتيو : - تعالي . لم يبق الا طابق واحد .
وصعدا في صمت . وقالت ايفيش فجأة :
- كيف عثرت عليّ ؟
فانحنى ماتيو ليدخل المفتاح في القفل ، وقال :
- كنت ابحث عنك ، ثم التقيت ريناتا .
ودمدت ايفيش خلف ظهره :
- كنت ارجو طوال الوقت ان تأتي .
قال ماتيو وهو يمتحي امامها : « ادخلي » فلامسته وهي تلمّ به ،
واستولت عليه الرغبة في ان يأخذها بين ذراعيه . وخطت ايفيش بضع
خطى مترددة ودخلت الغرفة . ونظرت فيما حولها نظرة مقطّبة :
- هذا هو بيتك !
قال ماتيو : - نعم .
وكانت هذه هي المرة الاولى التي يستقبلها فيها عنده . ونظر الى المقاعد
الجلدية الخضراء والى طاولة عمله ؛ ورآها بعيني ايفيش فداخله منها
الحجل وقال :
- هو ذا الديوان . تمدّدي عليه .
فارتمت ايفيش على الديوان دون ان تنبس بحرف .
- هل تريدين شايًا ؟
قالت ايفيش : - اني اشعر بالبرد .
وراح ماتيو يأتيها بغطاء الرجلين وعمدة على ساقها . واغضت
ايفيش عينيها ووضعت رأسها على وسادة . وكانت تتألم ، وكان على
جبينها ثلاثة تجعدات عمودية ، عند منبت الانف .
- هل تريدين شايًا ؟
فلم تجب . واخذ ماتيو المغلاة الكهربائية وراح يملأها من حنفية

المطبخ . ووجد في قفص الطعام نصف ليمونة قديمة قد تزججت بقشرتها الجافة ، ولكن ربما كان من الممكن استقطار دمعة او دمتين منها اذا عُصرت جيداً . ووضعها على صحن مع فنجانين وعاد الى الغرفة يقول :

- وضعت الماء للغلي .

فلم تجب ايفيش : كانت نائمة . وسحب ماتيو كرسيماً بازاء الديوان وجلس بلا ضجة . وكانت تجهيزات ايفيش الثلاثة قد اختفت ، وكان جبينها نقياً املس ؛ كانت تبسم وعيناها مغمضتان . وفكر : « ما انضر شبابها ! » لقد وضع امله كله في طفلة . وما كان اشد ضعفها وخفتها وهي على هذا الديوان : لم تكن تستطيع ان تساعد احداً ، بل كان ينبغي ، بالعكس ، ان تُساعد لكي تحيا . ولم يكن ماتيو يستطيع ان يساعدها . ستذهب ايفيش الى « لاون » وستوحش هناك شتاءً او شتاءين ، ثم يأتي شخص - شخص شاب - فيأخذها . « وانا سأتزوج مارسيل . » ونهض ماتيو وذهب يرى على مهل ان كان الماء يغلي ، ثم عاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر بحنان الى هذا الجسم الصغير الضعيف الملطخ الذي يظل شريفاً الى هذا الحد في النوم ، وفكر بأنه كان يحب ايفيش فدهش لذلك : ان الحب شيء لا يُحس به ، وهو لم يكن انفعالاً خاصاً ، ولا لوناً خاصاً من عواطفه ، وانما هو اشبه بأن يكون لعنة ثابتة في الأفق ، نذيراً عمسية . واخذ الماء يغني في المغلاة ، وفتحت ايفيش عينيها ، فقال ماتيو :

- اني اعد لك شاي . هل تريدون ؟

قالت ايفيش بلهفة ضيق : - شاي ؟ ولكنك لا تحسن اعداد

الشاي .

واعادت كفها خصلاتها على وجنتيها ونهضت وهي تفرك عينيها ،

وقالت :

- اعطني علبة الشاي ، سأعده لك على الطريقة الروسية . ولكننا بحاجة الى مغلاة روسية .

فقال ماتيو وهو يمدّ لها علبة الشاي :

- ليس عندي الا مغلاة عادية .

- اوه ! ثم هذا شاي سيلاني . فليكن !

ووقف امام المغلاة :

- وابريق الشاي ؟

قال ماتيو : « صحيح » وانطلق يأتي بأبريق الشاي من المطبخ .

- شكراً .

وكانت هيبتها ما تزال قائمة ، ولكنها منتعشة . وصبت الماء في

ابريق الشاي وعادت الى الجلوس بعد لحظات وهي تقول :

- ينبغي ان نتركه لينقع .

وساد صمت ، ثم استطردت :

- انني لا احب بيتك .

قال ماتيو : - كنت اعتقد ذلك جيداً . واذا تحسنت حالتك قليلاً ،

كان بوسعنا ان نخرج .

فقالت ايفيش : - واين نذهب ؟ كلا . انني مسرورة بأن أكون

هنا . لقد كانت جميع تلك المقاهي تدور حولي ؛ ان الناس كانوا

كوايبس .. صحيح ان البيت هنا قبيح ، ولكنه هاديء . الا تستطيع

ان تسدل الستائر ؟ سنضيء بعد ذلك هذا المصباح الصغير .

فنهض ماتيو ، وذهب يغلق المصابيح ويحلّ الاربطة ، فالتفت

الستائر الثقيلة ، واضاء مصباح مكتبه : وقالت ايفيش مفتونة :

- هذا هو الليل .

- واستندت الى وسائد الديوان :

- ما انعم هذا ! لكأن النهار قد انتهى . اودّ ان يكون الظلام

- سائدا حين اخرج من هنا .
- قال ماتيو : - لبقني هنا ما شئت . فلن يأتي احد ، واذا جاء احد تركناه يدق من غير ان نفتح . اني حرٌ تماماً .
- ولم يكن هذا صحيحاً : كانت مارسيل تنتظره عند الساعة الحادية عشرة . وفكر في ضغينة : سوف تنتظر . وسألها :
- متى تذهبن ؟
- غداً . هناك قطار عند الظهر .
- وظلّ ماتيو لحظة دون ان يتكلم . ثم قال وهو يراقب صوته :
- سأصحبك الى المحطة .
- قالت ايفيش : - كلا . اني اكره هذا ، فذلك يقتضي وداعات مائة تمطط كالكاوتشوك . ثم اني سأكون ميتة من التعب .
- قال ماتيو : - كما تشائين . هل ابرقت لاهلك ؟
- كلا . كان بوريس يريد ان يفعل ذلك ، ولكني منعته .
- اذن ، ينبغي ان تبلغهم ذلك بنفسك ؟
- فخففت ايفيش رأسها وقالت :
- نعم .
- وساد صمت وكان ماتيو ينظر الى رأس ايفيش المنحني وكتفيتها الهزيلتين : وكان يخيل اليه انها كانت تركه رويداً رويداً . وسألها :
- هذه اذن آخر امسية لنا في هذا العام :
- فقالت في ضحكة ساخرة : - ها ! في هذا العام ! ...
- قال ماتيو : - ايفيش ... لا ينبغي لك ... سأذهب اولاً لرؤيتك في « لاون » .
- لا اريد . ان كل ما يتعلق بلاون ملطخ .
- اذن ستعودين .
- كلا .

— هناك دورة في تشرين الثاني ، ولا يستطيع اهيك . . .

— انت لا تعرفهم .

— صحيح . ولكن ليس من الممكن ان يفسدوا حياتك كلها عقاباً لك على انك سقطت في الامتحان .

قالت ايفيش : — انهم لن يفكروا في معاقبتي . ولكن سيكون الأمر اسوأ من ذلك ؛ سوف يهملوني ، وسأخرج من افكارهم بكل بساطة . (واستخف بها الغضب فأضافت) وهذا ما استحقه فعلاً ! انني لمت جديرة بتعلم اية مهنة ، وانا افضل ان ابقى في لاون طوال حياتي على ان اعيد من جديد هذه الشهادة ...

فقال ماتيو قلقاً : — لا تقولي هذا يا ايفيش . لا تستسلمي منذ الآن : انك تكرهين لاون .

فقالت وهي منقبضة الاسنان :

— اوه ! نعم ، انني اكرهها بفضاعة .

ونفض ماتيو ليأتي بابريق الشاي والفناجين . وفجأة صعد للدم الى وجهه ، فالتفت اليها وتمم من غير ان ينظر اليها :

— اسمعي يا ايفيش : ستذهبين غداً ، ولكني اعدك بأنك ستعودين في نهاية تشرين الاول . وسوف اتدبر الامر حتى ذلك الحين .

فسألته ايفيش في دهشة متعبة :

— ستتدبر الامر ؟ ولكن ليس هناك مجال لتدبر الامر : قلت لك

اني غير جديرة بتعلم مهنة .

وجرؤ ماتيو على رفع نظره اليها ، ولكنه لم يستشعر الاطمئنان ؛ فأنى له ان يجد الكلمات التي لا تنغصها ؟

— ليس هذا ما كنت أعنيه ... فلو .. لو انك اردت ان تسمح لي بأن اساعدك ...

وكان يبدو على ايفيش انها لم تفهم بعد ، فأضاف ماتيو :

- سيكون معي بعض المال .
فأخذت ايفيش غصّة وقالت :
- آه ! أهذا ما تعنيه ؟
ثم اضافت بحفاة :
- ان هذا مستحيل .

قال ماتيو في حرارة : - على الاطلاق ، ان هذا ليس مستحيلاً
على الاطلاق . اسمعي : في اثناء العطلة ، سأقتصد بعض المال ؛ ان
اوديت وجاك يدعوانني كل عام لقضاء شهر آب في مقصورتها في
« جوان لبيان » ، ولم ألب دعوتها حتى الآن ، ولكن لا بد من
ان ألبها ذات يوم . وسأذهب هذا العام ، فأصيب بعض التسلية
وأوفر بعض المال ... (وأضاف بحيوية) لا ترفضني قبل ان تعرفني :
سيكون هذا قرصاً .

وتوقف . وكانت ايفيش قد تراخت ، وكانت تنظر اليه من تحت
نظرة سيئة :

- ولكن لا تنظري الي هكذا يا ايفيش !

فقالت ايفيش بصوت مقطب :

- آه ، لا ادري كيف انظر اليك ، ولكني اعرف ان بي صداعاً .
وأسببت عينيها واطافت :

- عليّ ان اعود الى البيت لأنام .

- ارجوك يا ايفيش : اصغي الي . سوف اجد المسال وستعيشين
في باريس ، ولا تقولي لا ، ابتهل اليك ، لا تقولي لا من غير ان
تفكري . ان هذا لا يمكن ان يزعجك : ستردين لي المال حين
تكسبين حياتك بالعمل .

فهزت ايفيش كتفيها ، واطافت ماتيو بحماسة :

- او ان بوريس هو اللذي يردّ المال .

فلم تجب ايفيش ، وكانت قد دفنت رأسها في شعرها ، وكان ماتيو
ما يزال مزروعاً امامها ، مترعجاً وشقيماً .
- ايفيش .

وظلت معتصمة بصمتها . وكانت به رغبة بان يأخذها من ذقنها
ويرفع لها رأسها قسراً .

- ايفيش ! آن لك ان تجيبي علي . لماذا لا تجيبين ؟

وظلت ايفيش صامتة . وأخذ ماتيو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً .
وكان يفكر : « سوف تقبل . لن اتركها قبل ان تقبل . سوف ..
سوف اعطي دروساً خصوصية ، او سأصحيح المسودات . »
وقال : - ستقولين لي يا ايفيش لماذا لا تقبلين ؟

وكان ممكناً التغلب على ايفيش بالارهاق : ينبغي ارهاقها بالأسئلة
التي تتغير لهجتها بين فترة واخرى . وعاد يقول :
- لماذا لا تقبلين ؟ قولي لماذا لا تقبلين ؟

وتعمت ايفيش اخيراً ، من غير ان ترفع رأسها :
- لا اريد ان اقبل مالك .

- لماذا ؟ انك تقبلين مال اهلك .

- ليس الامران سواء .

- صحيح : ليس الامران سواء . لقد قلت مئة مرة إنك كنت
تحتقرينه .

- ليس عندي مبرر لقبول مالك .

- وربما كان عندك مبرر لقبول ما لهم ؟

قالت ايفيش :

- لا اريد ان يكون الناس كرماء معي . اما اذا كان ذلك من ابي ،

فلست محتاجة معه الى العرفان ..

فصاح ماتيو :

— ما هذه الكبرياء يا ايفيش ؟ انه لا يحق لك ان تفسدي حياتك من اجل قضية كرامة . فكري في الحياة التي ستعيشينها هناك . ستندمين يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، لكونك قد رفضت .

فتحلت ايفيش وقالت :

— دعني ، دعني !

وأضافت بصوت منخفض خشن :

— اوه ! إيّ عذابٍ الا ان يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في مواقف كريهة .

قال ماتيو على مهل :

— ولكني لا افهمك . لقد قلت لي في الشهر الماضي ان المال كان شيئاً محترماً ، ولا ينبغي ان نوليه اي اهتمام . كنت تقولين : لا يهمني من اين يأتي ، المهم ان املكه .

فرفعت ايفيش كتفيها ، ولم يعد ماتيو يرى منها الا اعلى رأسها وطرفاً من رقبتها بين خصلاتها وباقه قبصها . وكانت الرقبة اشد سمرة من بشرة الوجه .

— ألم تقولي لي ذلك ؟

— لا اريد ان تعطيني مالاً .

ففقده ماتيو صبره ، وقال في ضحكة متقطعة :

— آه ! ذلك اذاً لأنني رجل !

فسألته ايفيش : — ماذا تقول ؟

وكانت تنظر اليه في حقد بارد :

— ان هذا صفيق . وانا لم افكر في ذلك قط ، واني اسخر منه ،

ولم اكن اتصور ...

— واذن ؟ فكري : للمرة الاولى في حياتك ستكونين حرة

تماماً ؛ ستعيشين حيث تريدن ، وستفعلين كل ما يروق لك . لقد

سبق ان قلت لي انك تودين ان تُعدّي شهادة ليسانس في الفلسفة .
تستطيعين ان تجربي ، وسنساعدك انا وبوريس .
وسألته ايفيش : - لماذا تريد ان تعمل خيراً ؟ اني لم اعمل معك
شيئاً من ذلك قط .. بل لقد كنتُ معك غير محتملة ، وهأنت الآن
مشفقٌ عليّ .

- اني لست مشفقاً عليك .
- اذن لماذا تعرض عليّ مالا ؟
فتردد ماتيو ، ثم قال وهو يصرف عنها بصره :
- لا استطيع ان احتمل التفكير بالألا اراك بعد .
وساد صمت ، ثم سأله ايفيش بلهجة غير واثقة :
- تريد ... تعني انك .. انما تفعل ذلك بدافع الانانية ؟
فقال ماتيو بجفاف : - بدافع انانية محضة . كل ما في الامر أنني
راغب في رؤيتك .

وجرؤ علي ان يلتفت اليها . وكانت تنظر اليه مقطبة الحاجب ،
فاغرة الفم . ثم بدا عليها فجأة انها تنفرج . وقالت في غير
اكتراث :

- اذن ربما . ان هذا يعنك ، في هذه الحالة . وسرى . وانت
على حق ، في آخر المطاف : ان يأتي المال من هنا او من هناك .
وتنفس ماتيو وفكر : « حسناً ! » ولكنه لم يكن قط مطمئناً :
لقد كانت ايفيش بهيبتها الشرسة . وسألها ليزيدها إلزاماً :
- وكيف تراك ستحملين اهلك على ابتلاع هذا ؟

فقال ايفيش بغموض :

- سأقول اي شيء . فاما ان يصدقوني او لا يصدقوني : وما أهمية
ذلك ما داموا لا يدفعون بعد ؟
وخفضت رأسها في هيئة قائمة وقالت :

- لا بد من العودة الى هناك :

فجهد ماتيو بأن يستر غيظه :

- ولكن ما دمت ستعودين ؟

قالت : - ان هذا غير واقعي .. اقول لا ، واقول نعم ، ولكني لا انجح في ان اصدق ذلك . إنه بعيد . في حين اني سأكون في لاون مساء الغد .

ولست حنجرتها وقالت :

- انني احستها هنا . ثم انه يجب علي ان أهيب حقايب ، وهذا ما يستغرق ساعات الليل بطولها .

ونهضت : - لا بد ان الشاي قد جهز . تعال لنشرب :

وصبت الشاي في الفناجين ، وكان اسود كالفهوة . وقال ماتيو :
- سأكتب لك .

قالت : - وانا ايضاً ، ولكن لن يكون لدي ما اقوله لك .

- متصفين لي بيتكم ، وغرفتك : اني اود ان اتخيلك وانت هناك .

قالت : - اوه ، كلا . لا احب ان اتحدث في هذا كله . انه يكفيني ان اعيشه .

وفكر ماتيو في الرسائل القصيرة الجافة التي كان بوريس يبعثها الى لولا . ولكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة : كان ينظر الى يدي ايفيش ، والى اظافرهما الحمر المدببة ، والى معصميهما الهزيلين وفكر :
« سأراها مرة اخرى . » وقالت ايفيش وهي تضع فنجانها :

- اي شاي غريب !

وانتفض ماتيو اذ سمع جرس الباب يرن . ولم يقل شيئاً : كان يأمل ان تكون ايفيش قد سمعت . وسألت :

- هجياً ! ألم يرن الجرس ؟

فوضع ماتيُو اصبعاً على شفثيه وهمس :

— لقد اتفقنا على ألا نفتح الباب .

فقالت ايفيش بصوت واضح :

— بلى ، بلى ربما كان ذلك هاماً . اذهب سريعاً فافتح الباب .

وتوجه ماتيُو الى الباب . وكان يفكر : « انها تكره ان تكون

ضالعة معي . » وفتح الباب فيما كانت ساره تهم بدقه ثانية . وقالت

ساره لاهنة :

— مرحباً ! انك تجعلني اركض كما ترى . لقد اخبرني الوزير

الصغير انك تلفنت ، فأتيت . ولم اهتم بان اضح قبعتي .

ونظر اليها ماتيُو في ذعر : كانت مصبوبة في ثوبها البشع الاخضر ،

وهي تضحك عن اسنان نخرة وشعرها مشعث وهيتها هيئة طيبة مفتعلة .

كانت تفرز الكارثة . وقالت بحوية :

— مرحباً ! ترين اني ... مع ...

فدفعته ساره في ود ومدت رأسها من فوق كتفه وسألت في

فضول شره :

— من عندك ؟ آه ! انها ايفيش سرخين . كيف حالك ؟

ونفضت ايفيش وقامت بحركة احترام . وكانت الخيبة بادية عليها :

وكذلك كان شأن ساره . وكانت ايفيش هي الشخص الوحيد الذي لم

تكن ساره تحتمله . وقالت ساره :

— كم انت هزيلة ! انا متأكدة من انك لا تأكلين بما فيه الكفاية .

وانت في ذلك غير عاقلة .

ووقف ماتيُو في وجه ساره وهو ينظر اليها بإحداًد : وأخذت ساره

تضحك وقالت بجذل :

— ها هو ماتيُو يوسع لي عينيه . انه لا يريد ان احدثك عن

صحتك .

والتفتت الى ماتيو وقالت :

— لقد عدت في ساعة متاخرة من الليل . ولم اجد « والدمان » .
كان لم يمض على وجوده في باريس عشرون يوماً ، حتى غرق في
ركام من الاعمال المشبوهة . وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين
عثرت عليه .

قال ماتيو : — انك لطيفة يا سارة ، فشكراً .

ثم اضاف باندفاع : — سنتحدث عن هذا فيما بعد . تعالي خذي
فنجان شاي .

قالت : — لا ، لا ، لا ! بل لن اجلس ، فعلياً ان انجسه الى المكتبة
الاسبانية ، فهم يريدون ان يروني بصورة عاجلة . هناك صديق لغوميز
وصل الى باريس .

فسألها ماتيو ليكسب الوقت : — ومن هو ؟

— لا اعرف بعد . قالوا لي : صديق لغوميز ، قادم من مدريد .
ونظرت الى ماتيو في حنان ، وكانت عيناها تبدوان شارديتين من
فرط الطيبة .

— ان عندي نبأ سيئاً لك يا عزيزي ماتيو : انه يرفض .

— هم !

غير انه تأتى له ان يقول :

— تودين من غير شك ان تكلميني على حدة ؟

وقطب حاجبيه عدة مرات ، ولكن ساره لم تكن تنظر اليه .

وقالت في أسى :

— لا يحتاج الامر الى ذلك . فليس عندي ما اقوله لك تقريباً .

ثم اضافت بصوت مثقل بالسر :

— لقد ألححت ما وسعني ذلك . ولكن عبثاً . يجب على الشخص

المعني ان يكون عنده صباح الغد ، ومعه المال .

قال ماتيو بحوية : - حسناً ! لا تتكلم بعدُ بهذا :
وضغط على الكلمات الأخيرة ، ولكن ساره كانت حريصة على ان
تبرّر نفسها فقالت :

- لقد بذلت جهدي ، وابتهلت اليه ، لو تعلم . فقضال لي ،
« هل هي يهودية ؟ » فقلت كلا . وعند ذلك قال : « انسي لا
أقرض احداً . اذا شاءت ان اخلصها فلتدفع . والا ، فان العبادات
غير مفقودة في باريس . »

وسمع ماتيو الديوان يفرقع خلفه . واستطردت ساره :
- لقد قال : « انني لا أقرضهم ابداً . لقد عذبونا هناك اكثر
 مما ينبغي . » وهذا صحيح كما تعلم ، وانا اكاد افهم موقفه . لقد
حدثني عن يهود فيينا ، وعن معسكرات الاعتقال . ولم اكن اريد
ان اصدقه ... ولكن صوته اختنق : « لقد عذبوهم عذاباً شديداً . »
وصمتت ، وحلّ صمت ثقيل . ثم اضافت وهي تنفض رأسها :

- وإذن ، ما الذي ستفعله ؟

- لا ادري .

- ألا تفكر في ...

فقال ماتيو بحزن : - بلى ، اتصور ان الأمر سيتهي الى هذا .
قالت ساره في انفعال : - يا عزيزي ماتيو !
ونظر اليها في قسوة ، فصمتت منزعجة . ورأى شيئاً ما يشرق في
عينيهما يشبه أشعة وجدانية ، ثم قالت بعد لحظة :
- حسناً . انني اذن أفرنقع . اتصل بي صباح الغد ، فانا اريد
ان اعرف .

قال ماتيو : - حسناً . الى اللقاء يا ساره .
وصاحت ساره وهي ازاء الباب : - الى اللقاء يا صغيرتي ايفيش .
قالت ايفيش : - مع السلامة يا سيدتي .

وحين ذهبت ساره ، استعاد ماتيو مشيته عبر الغرفة . وكان يشعر بالبرد . وقال ضاحكاً :

- ان هذه المرأة الطيبة زوبعة . انها تدخل كالعاصفة فتلقي كل شيء ارضاً ثم تمضي كالريح .

فلم تقل اي فيش شيئاً . وكان ماتيو يعلم انها لن تجيب . واقبل يجلس بالقرب منها وقال من غير ان ينظر اليها :

- اي فيش : سوف اتزوج مارسيل .

وساد صمت آخر . وكان ماتيو ينظر الى الستائر الثقيلة الخضراء التي كانت تتدلى على النافذة . وكان متعباً . واوضح لاي فيش ، وهو خافض الرأس .

- لقد اخبرتني امس الاول انها حامل .

وعانت الكلمات مشقة حتى تخرج : انه لم يكن يجرؤ على الالتفات الى اي فيش ، ولكنه كان يعلم انها كانت تنظر اليه . وقالت بصوت مثلوج :

- انني اتساءل لماذا تقول لي ذلك . فهذه شؤونك .

فهز ماتيو كتفيه وقال :

- كنت تعلمين جيداً انها كانت ...

قالت اي فيش في ترقع : - خليلتك ؟ اقول لك انني لا اهم كثيراً بهذه الامور .

وترددت لحظة ثم قالت بلهجة شاردة :

- انني لا افهم لماذا يبدو عليك الارهاق . اذا تزوجتها ، فهذا

يعني انك راغب في ذلك . والا فان الوسائل ، على ما قيل لي ، غير مفقودة ...

قال ماتيو : - ليس معي مال . لقد بحثت في كل مكان ...

- ومن اجل هذا ، كتلفت بوريس بان يقترض خمسة آلاف فرنك

من لولا ؟

— آه ! تعلمين ! انني لم ... واخيراً نعم ، نعم ، من اجل هذا ، اذا شئت .

قالت ايفيش بصوت ابيض :

— ان هذا شيء قدر .

— نعم .

وقالت ايفيش : — والواقع ان ذلك لا يعني . لا بد انك تعرف ما عليك ان تفعله .

وانتهت شرب فنجانها وسألته :

— كم الساعة ؟

— التاسعة الا ربعا .

— هل هبط الليل ؟

فتوجه ماتيو الى النافذة ورفع الستائر، فتسلل نهاراً قدر عبر الشقوق.

— لم يهبط بعد تماماً .

قالت ايفيش وهي تنهض : — اوه ! لا بأس ! انني مع ذلك

ذاهبة . (واضافت بلهجة انين) ان علي ان اعد جميع تلك الحقائق .

قال ماتيو : — اذن مع السلامة .

ولم تكن له رغبة في امساكها .

— الى اللقاء .

— هل اراك مرة اخرى في تشرين الاول ؟

لقد نددت هذه الكلمات عنه بالرغم منه . فانتفضت ايفيش

انتفاضة عنيفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها :

— في تشرين الاول ؟ في تشرين الاول ! آه ، كلا !

واخذت تضحك وقالت :

— اعذرني . ان هيتك غريبة لو تعلم . انني لم افكر قط بان اقبل

مالك : انك لن تملك منه اكثر مما يحتاجه تأنيث بيتك الزوجي .
قال ماتيو وهو يأخذ بذراعها : - ايفيش !
فأطلقت ايفيش صرخة وتخلصت منه فجأة وقالت :
- دعني . لا تلمسني .
فترك ماتيو ذراعه تسقط . وكان يحسُّ غضباً يائساً يتملكه . وتابعت
ايفيش لاهثة :
- لقد شككت في ذلك . صباح امس .. حين جرؤت على لمسي ...
قلت لنفسني : ان هذه تصرفات رجل متزوج .
قال ماتيو بخشونة :
- كفى ، لا حاجة الى الالاح . لقد فهمت .
وكانت هناك ، مُعسكرةً امامه ، محمرّة من الغضب ، وعلى
شفتيها بسمة غطرسة : وخاف من نفسه . فارتمى خارجاً وهو يُدافعها ،
وصفق باب الدخول خلفه .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
وعيناً أمدُّ ذراعيّ . »

كان مقهى «ايتروا موسكيتير» يلتئم بكل انواره في المساء الحائر .
وكان جمعٌ عاطلٌ قد تحلّق قرب الرصيف : عما قليل سينبسط فوق
باريس دانتيل الليل المضيء ، من مقهى الى مقهى ، ومن واجهة الى
واجهة ؛ كان الناس ينتظرون الليل وهم يستمعون الى الموسيقى ، وكان
مظهر السعادة بادياً عليهم ، وكانوا يتدافعون في ارتعاش امام هذا
الاحمرار الليلي الصغير الاول . واستدار ماتيو حول هذا الجمع الغنائي :
ان عذوبة المساء لم تكن له .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
ابداً ، ابدأ لن تعرف . »

شارع طويل مستقيم . وخلفه ، في غرفة خضراء ، كان وجدان
صغير حاقه يدفعه بكل قواه . وامامه ، في غرفة وردية ، كانت
تنتظره امرأة لا تتحرك ، وهي تبتسم املآ . سوف يدخل بعد ساعة
بخطى ذئبية في الغرفة الوردية ، سيدع نفسه ليبتلعه هذا الامل العذب ،
هذا العرفان ، هذا الحب ، طوال الحياة ، طوال الحياة . ان اناساً

يلقون بأنفسهم في الماء لأقل من هذا .

- ايها الحمار !

وارتمى ماتيوا الى امام ليتجنب السيارة ؛ فاصطدم بالرصيف ووجد نفسه على الارض : كان قد سقط على يديه ، واطلق تجديفة . ونهض ، وكانت راحته تؤلمه ، وتأمل يديه الموحلتين في خطورة : كانت اليد اليمنى سوداء ، مع بعض الجروح ، وكانت اليسرى توجعه ، وكان الرجل يلطخ ضماده . وتمم بجد : « لم يكن ينقص الا هذا ، لم يكن ينقص الا هذا . » وسحب منديله وبلله ريقاً وفرك راحته في شيء من الحنان ؛ وكانت به رغبة للبكاء . وظل معلقاً لحظة ، وكان ينظر الى نفسه في دهشة . ثم انفجر ضاحكاً . كان يضحك من نفسه ، ومن مارسيل ، ومن ايفيش ، ومن ارتبائه المضحك ؛ ومن حياته ، ومن عواطفه المثيرة للشفقة . وكان يتذكر آماله القديمة فيضحك منها لأنها افضت الى ما هو عليه ، الى هذا الانسان الملىء بالرصانة والذي كان يبكي لأنه سقط على الارض ؛ كان ينظر الى نفسه بلا خجل ، في تسلية باردة وضارية ، وكان يفكر : « من يقول اني كنت آخذ نفسي أخذاً جاداً ! » وتدفت الضحكة بعد بضعة ارتجافات : لم يكن ثمة من يضحك بعد .

فراغ . استعاد الجسم سبره وهو يجرجر قدميه ، ثقيلًا حارًا تنتابه الرعشات وحروق الغضب في الخنجرة . وفي المعدة . ولكن لم يكن ثمة بعد من يسكنه . وقد أفرغت الشوارع كأنما سالت في ثقب البوالبع . ولقد غاب منها شيء كان ما يزال يملأها منذ لحظات . وبقيت الاشياء هناك لم تمس . ولكن حزمته قد حلت ، فتدلّت من السماء كأنها تحجرات هائلة ، وصعدت من الارض كأنها « منهيرات » مُحالة : لقد تلاشت جميع اغراعاتها الصغيرة المألوفة ، وجميع اغنياتها الرقيقة في الرياح ، فهي صامتة خرساء . لقد كان ثمة في الماضي مستقبل انسان

كان يرغمي عليها فتعكسه في نُشارٍ من الإغراءات المختلفة . لقد مات المستقبل .

واستدار الجسم الى اليمين ، وغرق في نُخار مُشع راقص في اعماق شقٍ متدرّج ، بين قطع من الثلج مخنّطة بالأشعة . وكانت كتلٌ داكنة تجرّ نفسها وهي تنصرّ . وعلى مستوى ارتفاع العينين كانت ازهار زغباء تتأرجح . وبين هذه الازهار ، وفي جوف هذا الشقّ ، كانت تنسلّ شفافيةٌ تراقب نفسها في هوس مثلوج . « سأذهب لآخذها » وتشكّل العالم من جديد ، صاحِباً منهمكاً ، مع سيارات واناس وواجهات ؛ ووجد ماتيو نفسه في وسط شارعٍ « ديار » . ولكن لم يكن بعدُ هو العالم نفسه ، ولا ماتيو نفسه تماماً . ففي نهاية العالم ، وراء البنايات والشوارع ، كان ثمة باب مغلق . وبحث في محفظته وسحب منها مفتاحاً . كان هناك ذلك الباب المغلق ، وكان هنا هذا المفتاح الصغير المسطح : كانت هذه هي اشياء العالم الوحيدة ؛ ولم يكن بينها الا ركام من العقبات والمسافات . « بعد ساعة . امامي وقت كافٍ لأذهب اليها سيراً على الاقدام . » ساعة : الوقت الكافي تماماً للذهاب الى ذلك الباب ولفتحه ؛ وفيما وراء هذه الساعة لم يكن ثمة شيء . وكان ماتيو يسير بخطى متساوية ، وهو في سلام مع نفسه ، وكان يُحسّ نفسه خبيثاً وهاذنأ . « واذا كانت لولا ما تزال في سريرها ؟ » واعاد المفتاح الى جيبه وفكر : « مهما يكن ، فسوف آخذ المال . »

كان المصباح ينضيء بضياء سيئ . وبالقرب من النافذة ، بين صورتَي مارلين دياتريش وروبرت تايلور ، كان ثمة رزنامة تحمل مرآة صغيرة منقّطة بالصدأ . واقترّب منها دانيال وهو ينحني قليلاً وعاد يربط عقدة عنقه ؛ وكان مستعجلاً ليرتدي ثيابه كلها : وفي المرآة

خلفه ، رأى وجه رالف الهزيل القاسي يكاد يحويه الظلّ ووسخ المرأة الابيض ، واخذت يدها ترتجفان : كانت به رغبة لأن يضغظ هذا العنق الهزيل الذي كانت جوزته بارزة وان يفجره بين أصابعه . وكان رالف مديراً رأسه نحو المرأة ، ولم يكن يدري ان دانيال كان يراه فوجهه اليه نظرة غريبة ؛ وفكر دانيال وهو يرتعش رعشة كانت في حقيقة امرها رعشة لذة : « ان وجهه يشبه وجه القاتل ، وهو مهان ، وانه ليكرهني . » وأبطأ في ربط عقده . وكان رالف ما يزال ينظر اليه ، وكان دانيال يستمتع بهذا الحقد الذي كان يجمعها . حقدٌ مختم يبدو ان عمره عشرون عاماً ، حقدٌ يمتلكها ، وكان يطهره . « ذات يوم سيأتي شخص مثله فيقتلني من الخلف . » سوف يكبر الوجه القتيّ في المرأة ، ثم ينتهي الامر ، وسيكون الموت الشائن الذي يناسبه . واستدار على عقبه ، فخفض رالف عينيه بسرعة . وكانت الغرفة أتوناً .

— أليس لديك منشفة ؟

وكانت يدا دانيال مبتلتين .

— انظر في دلو الماء .

وكان في دلو الماء منشفة قدرة . فمسح دانيال يديه بعناية :

— لم يعرف الماء ، دلو الماء هذا . ويبدو انكما ، انما الاثنان ، لا

تغتسلان كثيراً .

فقال رالف بلهجة متقبضة : — اننا نغتسل بماء الجنفية الموجودة

في الممر .

وساد صمت ثم قال موضحاً :

— وذلك انسب .

وكان يلبس حذاءه وهو جالس على طرف السرير، وجسمه منحني ،

وركبته اليمنى مرتفعة . وكان دانيال يتأمل هذا الظهر الهزيل ، وهاتين

الذراعين الفتيين ذواتي العضلات اللتين كانتا تخرجان من قبيص ذي
كمتين قصيرين : وفكر في غير ما تعرّض : ان فيهما الجمال . ولكنه
كان يشمئز من هذا الجمال . بعد لحظة سيكون في الخارج ، وسيكون
هذا كله من الماضي . ولكنه كان يعلم ما كان ينتظره في الخارج .
وحين حل معطفه تردد : كان كتفاه وصدره غارقة بالعرق ، وكان
يفكر في خوف بأن ثقّل المعطف سيُلصق قبيصه الكتاني بلحمه الرطب .
وقال لرالف :

- ان الجو عندك حار حرارة فظيعة .

- اننا تحت السقف .

- كم الساعة ؟

- التاسعة . لقد دقت هذه اللحظة .

لا تزال ثمة عشر ساعات للقتل قبل ان يطلع النهار . انه لن ينام .
حين كان ينام هنا ، كان الامر دائماً اعظم مشقة . ورفع رالف
رأسه :

- كنت اود ان اسألك يا لالريك ... أنت الذي نصحت لبوبي

ان يعود الى العمل لدى الصيدلي ؟

- نصحت ؟ كلا . وانما قلت له انه كان ابله اذ تركه .

.. آه ! حسناً . ان الامرين يختلفان . لقد جاءني هذا الصباح يقول

لي ذلك ، وانه سيقدم اعتذاره ، وانك انت الذي كنت تريده ، ولم

يكن يبدو عليه انه صريح .

قال دانيال : - لا اريد شيئاً على الاطلاق ، وانا لم اقل له

خصوصاً ان يقدم اعتذاراته .

وابتسم كلاهما في احتقار . وأراد دانيال ان يضع معطفه ولكنه لم

يجد الشجاعة لذلك وقال رالف وهو ينحني :

- لقد قلت له : افعل ما بدا لك . فليس هذا يعني . فما دام

السيد لاليك هو الذي ينصحك ... ولكنني ارى الآن ...
وقام بحركة غاضبة ليربط سير حذائه الايسر ، وقال :
- لن اقول له شيئاً . انه هكذا . ويجب ان يكذب . ولكن هناك
واحداً اقسم لك اني سأقبض عليه عند المنعطف :
- الصيدلي ؟

- نعم . لا اقصد الصيدلي العجوز ، بل الشاب .
- الصيدلي المتمرن ؟

- نعم . ذلك المحنون . كم قد روى عني وعن بوبي ... وليس
لبوبي ما يفخر به لأنه التحق بتلك الصيدلية . ولكن لا تخف ، سأذهب
يوماً وانتظر هذا المتمرن عند الباب .

وابتسم بنجيب ، وكان يلتذ في غضبه :
- سأقصده ويدي في جيبي ، وعليّ ذلك المظهر الذي تعرفه .
كيف الحال ؟ قل لي : ما الذي حكيتك عني ؟ ماذا ؟ ماذا حكيت
عني ؟ وستراه يقول : « لم اقل شيئاً ، لم اقل شيئاً . » آه ! لم
تقل شيئاً ؟ خذ اذن : ضربة في المعدة يسقط بعدها ارضاً ، فأقفز
فوقه وأدق عنقه في الرصيف .

وكان دانيال ينظر اليه في غيظ سافر ، وكان يفكر : « كلهم
متشابهون » . كلهم . ما عدا بوبي الذي كان متخفياً . كانوا يتحدثون
دائماً ، فيما بعد ، عن عزمهم على دق عتق احد الناس : وكان رالف
يزداد حماساً ، وعيناه ملتومتان ، واذناه مورّدتان ؛ كان بحاجة الى
ان يأتي حركات حية ومفاجئة . ولم يستطع دانيال ان يقاوم رغبته
في إذلاله اكثر من ذلك .

- ولكن الا تظن انه هو الذي سيهزمك ؟
- هو ؟ (كان رالف يقهقه فقهقه كريمة) بوسعه ان يأتي ،
وليس لك الا ان تسأل خادم « الاورينتال » فذلك واحد قد جرب

وفهم . شاب في الثلاثين ذو ذرايين هكذا . وكان يقول انه يريد ان يخرجني .

فابتسم دانيال بوقاحة وقال :

- وبالطبع التهمته بلقمة واحدة .

فقال رالف مجروحاً : - اوه ! ليس لك الا ان تسأل . كان هناك عشرة تقريباً يتفرجون علينا . قلت له : - «أتأتي الى الخارج؟» اسمع ، كان هناك بوبي وشخص طويل آخر رأيتك معه . وخرج صاحبنا وهو يقول : «أتريد ان تعلم رب اسرة كيف يعيش !» وماذا فعلت له ؟ بدأت بلقمة على عينه ، ثم لكمة بمرفقي على انفه ، هكذا في صفحة وجهه . وكان قد نهض مقلداً حركات القتال . واستدار حول نفسه ، مظهرأ فخذه الصغيرتين القاسيتين المصبوبتين في بنطلونه الازرق .

وأحس دانيال بأن الغضب ينال منه كل منال ، وقد ود لو يضره .

وتابع رالف :

- كان يبول دماً . ثم هوب ! ضربة على الفخذين ، وسقط

ارضاً ! ولم يكن يدري بعد اين اصبح ، رب الاسرة ذاك !

وصمت قائماً متعجباً ، منطوياً على مجده . وكان يشبه حشرة .

وفكر : «سوف اقتله» ولم يكن يصدق هذه القصص كثيراً ، ولكن

كان يشعر بالذل ان يكون رالف قد هزم رجلاً في الثلاثين . واخذ

بضحك وقال بمشقة :

- انك تريد ان تتصنع الشجاعة . ولا بد ان تقع اخيراً على رجل

شجاع !

واخذ رالف بضحك هو ايضاً ، وتقاربا ، فقال :

- لا اريد ان اتصنع الشجاعة ، ولكن ليس السيمان هم الذين

يخيفونني .

قال دانيال : - انك اذاً لا تخاف احداً ؟ اليس كذلك ؟ ألا تخاف أحداً ؟

وكان رالف محمراً من الخجل ، وقال :

- ليس اسمن الناس اقواهم !

فقال له دانيال وهو يدفعه :

- وأنت ؟ أرنا ان كنت قوياً . أرنا ان كنت قوياً !

وظل رالف لحظة فاجر القم ، ثم تطاير من عينيه الشرر ، وقال بصوت مصفّر :

- اما معك انت ، فأريد بكل تأكيد . على سبيل المزاح طبعاً . بلطافة . ولن تنتصر .

فقبض عليه دانيال من نطاقه :

- سوف اريك يا صغيري !

وكان رالف مرناً وقاسياً ؛ وكانت عضلاته تنزلق تحت يدي دانيال . وقد تصارعا في صمت ثم اخذ دانيال ينفخ ، وكان يشعر بغموض انه شخص طويل ذو شاربين . ونجح رالف في رفعه ، ولكن دانيال دفع يديه الاثنتين في وجهه فتركه رالف . وما لبثا ان ألفيا نفسيهما وجهاً لوجه ، مبتسمين وحادقين . وقال رالف بصوت غريب :

- آه ! انك تريد ان تؤذي ؟ تريد ان تؤذي ؟

وارتمى فجأة على دانيال ، ورأسه الى امام . وتفادى دانيال ضربة رأسه وقبض عليه من رقبته . وكان مرهقاً لاهثاً ، بينما لم يكن يبدو على رالف انه متعب اطلاقاً . وتماسكا من جديد ، وبدأا يستديران على نفسيهما وسط الغرفة . وكان دانيال يشعر في جوف فمه بمذاق حامز محمود : « يجب ان ننتهي من ذلك ، والا انتصر علي . » ودفع رالف بكل قوة ، ولكن رالف صمد . واستولى غضب مجنون على

دانيال وفكر : « انني مضحك . » وانحنى فجأة . فأمسك رالف من جنيبه ورفعه ، ثم القاه على السرير ، وترك نفسه يسقط فوقه بمثل تلك الاندفاعية . وتحبب رالف وحاول ان يحمش ، ولكن دانيال قبض على معصميه والقاهما على الوسادة . وظلاً على هذا الوضع لحظات ، وكان دانيال اشدّ تعباً من ان يستطيع النهوض ثانية . وكان رالف مستمرّاً على السرير ، عاجزاً ، مسحوقاً تحت نقل هذا الرجل ، رب الاسرة . وكان دانيال ينظر اليه في تلذذ ؛ وكانت عينا رالف طافحتين بجنون حاقد ، وكان جميلاً .

وسأله دانيال بصوت متقطع :

— من الذي انتصر ؟ من انتصر يا صاحبي الصغير ؟

فابتسم رالف على الفور وقال بصوت زائف :

— انك قوي يا سيد لاليك !

فركه دانيال ونهض على قدميه . وكان قد فقد انفاسه واستشعر المذلة . وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفجر . وقال :

— لقد كنت من قبل قوياً . اما الآن فان انفاسي نخوني .

وكان رالف قد نهض ، وكان يسوي ياقة قميصه ولم يكن يلهث . وحاول ان يضحك ولكنه كان يتفادى نظر دانيال : وقال :

— ليس النفس شيئاً ذا بال ، ايها اللاعب البارع . فما عليك الا

ان تتمرّن .

قال دانيال :

— انك تحسن المصارعة ، ولكن هناك فرق الوزن .

وقهقه كلاهما بانزعاج . وكان دانيال يرغب في ان يأخذ بخناق رالف وان يلكمه في وجهه بكل قواه . ولبس معطفه ، فالتصق قميصه المبلل عرقاً ببشرته . وقال :

— هيا . اني ذاهب . مساء الخير .

— مع السلامة ، يا سيد لاليك.

قال دانيال : — لقد خبيأت لك شيئاً في الغرفة . ففتش عنه .
جيداً تجده .

وانغلق الباب . وهبط دانيال السلم ، وساقاة مرتختين . وفكر :
« عليّ قبل كل شيء ان اغتسل من الرأس حتى القدمين . » واذ
كان يعبر عتبة الباب ، جاءتته فكرة اوقفته حالاً : لقسد حلق
ذقنه في الصباح قبل ان يخرج ، وكان قد ترك موسى الحلاقة على المدخنة ،
مفتوحاً .

حين فتح ماتيو الباب أثار جرساً خفيفاً ومليئاً . وفكر . « لم
ألاحظ هذا الصباح ، فلا بد انهم وصلوا المجري الكهربائي مساءً ،
بعد الساعة التاسعة . » والقي نظرة مواربة ، عبر زجاج المكتب ثم رأى
ظلاً : كان هناك بعضهم . ومشى بغير عجلة الى لوحة المفاتيح .
الغرفة ٢١ . كان المفتاح معلقاً في مسار . فتناول ماتيو بسرعة ووضع
في جيبه ، ثم استدار وعاد الى السلم . وفتّح باب خلف ظهره ،
ففكر : « سوف ينادوني . » ولم يكن خائفاً : فقد كان هذا متوقفاً .
وقال صوت قاس :

— هيه ! اين انت ذاهب !

فالتفت ماتيو . كانت امرأة طويلة هزيلة ذات نظارات . وكان
يبدو عليها الاهتمام والقلق . فابتسم لها ماتيو . ورددت سؤالها :
— اين انت ذاهب ؟ الا تستطيع ان تسأل عند الصندوق ؟
بوليفار . كان اسم الزنجي بوليفار . فقال ماتيو بهدوء :
— انني ذاهب لأرى السيد بوليفار ، في الطابق الثالث ،
فقالته المرأة مرتابة :

— حسناً . لأنني رأيتك واقفاً امام اللوحة .

- كنت انظر اذا كان مفتاحه هنا .
قال ماتيو : - كلا ، فهو موجود في غرفته .
واقتربت المرأة من اللوحة . حظت على اثنين . وقالت في عزاء
خائب :

- نعم . انه موجود .
وأخذ ماتيو يرقى الدرج من غير ان يخيب . وتوقف لحظة عند
سطيحة الطابق الثالث ، ثم ادخل المفتاح في قفل الغرفة ٢١ وفتح
الباب .

وكانت الغرفة غارقة في الليل . ليل احمر كان يُشعر بالحُمى
والعطر . واغلق الباب خلفه بالمفتاح وتقدم نحو السرير . وقد مدَّ
يديه اولاً الى امام ليحتمي من العقبات ، ولكنه تعود بسرعة . وكان
السرير مدعوكاً ، وكان على الفراش وسادتان ما زالتا مجوفتين بوزن
الرؤوس . وركع ماتيو امام الصندوق وفتحه ؛ وأخذته رغبة خفيفة
بأن يقيء . وكانت الاوراق المالية التي تركها في الصباح قد سقطت
فوق رزم الرسائل : فأخذ ماتيو منها خمس اوراق ؛ انه لم يكن يريد
ان يسرق شيئاً لنفسه . « ماذا تراني سأفعل بالمفتاح ؟ » وتردد لحظة
ثم عزم على ان يتركه في قفل الصندوق . وحين نهض لاحظ في
جوف الغرفة ، الى اليمين ، باباً لم يكن قد رآه صباحاً . فذهب
يفتحه : كان غرفة تواليه . وأشعل ماتيو عود نقاب فرأى وجهه
المذهَّب بالأشعة ينبثق في مرآة . وظل ينظر الى نفسه حتى انطفأ العود ،
ثم تركه يسقط وعاد الى الغرفة . واصبح يميّز بوضوح الاثاث ،
وثياب لولا ، ومنامتها ، وثوبها الليلي ، وتايورها ، كل ذلك مرتب
ومعلق على الكرسي والمشاجب : وضحك ضحكة شريرة وخرج .
وكان المر خالياً ، ولكن كان يُسمع وقع خطى وضحكات ،
وكان ثمة اشخاص يرقون الدرج . وهم بأن يعود الى الغرفة ؛ ولكن

لا ، فقد كان لديه مواء ان يقبض عليه ، وأدخل المفتاح في القفل وأغلق الباب وهو يدير المفتاح مرتين . وحين نهض رأى امرأة يتبعها جندي . وقالت المرأة :

- في الطابق الرابع .

وقال الجندي :

- ذلك مرتفع .

وتركها ماتيوي عمران ؛ ثم هبط . وكان يفكر في مرح بأنه ما يزال عليه ان يقوم بأشق عمل : ان يُعيد المفتاح الى اللوحة . وعند الطابق الاول توقف وانحنى على الدربزون . وكانت المرأة على عتبة الباب الخارجي ، وكانت توليه ظهرها وتنظر الى الشارع . وهبط ماتيوي الدرجات الاخيرة بلا ضجة وعائق المفتاح بالمسار ؛ ثم صعده الدرج مرة اخرى بخطى خفيفة حتى سطیحة الطابق الاول ، وانتظر لحظة ؛ ثم هبط السلم بصخب . والتفتت المرأة فحيّتها وقال :

- الى اللقاء يا سيدتي .

فدمدمت : - ... اللقاء .

وخرج ، واحسّ نظر المرأة بثقل على ظهره ، وكانت به رغبة للضحك .

« مات الوحش . مات السم » . ومشى بخطوات واسعة وساقاه مرتحيتان . انه خائف ، وفه جاف . والشوارع شديدة الزرقة ، والجو عذب جداً . « الشعلة تلتهم الفتيل ، وبرميل البارود في نهايته . » وصعد الدرج اربع اربع : وكان شاقاً عليه ان يضع المفتاح في القفل . ان يده ترتجف وفرت قطتان بين ساقيه : انه الآن يخيفها . « مات الوحش ... »

كان الموسى هناك ، على طاولة الليل ، مفتوحاً . واخذه من مقبضه

ونظر اليه . المقبض أسود ؛ والشفرة بيضاء . « الشعلة تاتهم الفتيل... »
وأمرّ إصبعه على حدّ الشفرة ، فشعر في طرف إصبعه مذاق جرح
حامزاً ، فارتعش : إن على يدي ان تفعل كل شيء . إن الموسى
لا يُساعد ، فهو ليس الا جموداً ، وهو يزن زنة حشرة في اليد .
وخطا بضع خطى في الغرفة ؛ وطلب معونة ، وكانت هذه إشارة
كل شيء جامد وصامت . الطاولة جامدة . الكرامي جامدة ، ساجدة
في نور جامد . وحده واقف ، وحده حيّ في النور الازرق . لن
يساعدني شيء ، لن يحدث شيء . القلط تخربش في المطبخ . وأسند يده
الى الطاولة ، فاستجابت لضغطة بضغطة مشابه ، لا اكثر ولا أقل . إن
الأشياء عبيد . وديعة . منقادة . ستفعل يدي كل شيء . وتثاب
ضيقاً وضجراً . إنه وحيد في الديكور . فلا شيء ، يدفعه للتقرير ،
ولا شيء يمنعه عنه : يجب ان يقرّر وحده . وليس عمله إلاّ غيبوبة .
تلك الزهرة الحمراء بين فخذيه ، ليست موجودة ، وتلك البركة
الحمراء على ارض الغرفة ، ليست موجودة . ونظر الى ارض الغرفة .
إن ارض الغرفة موحدّ أملس : فليس ثمة مكان للطخة . « سأكون
راقداً على الارض ، جامداً ، مفتوح البنطلون قدّرة ، وسيكون
الموسى على الأرض ، أحمر ، مثلماً ، جامداً . » إنه يسحر نفسه
على الموسى وعلى الارض ، لو كان بوسعه ان يتخيّلها بقوة كافية ،
تلك البركة الحمراء ، وهذا الحرق ، بحيث يتحققان من تلقاء
نفسهما من غير ان يكون محتاجاً الى إتيان تلك الحركة . انني سوف
أتحمل الألم . انني اريدة ، وأدعوه . اما هذه الحركة ، هذه الحركة ...
ونظر الى الارض ، ثم الى الشفرة . عبثاً : الهواء عذب ، والغرفة
مظلمة بعدوبة ؛ والموسى يتمتع بعدوبة ويثقل بعدوبة في يده . حركة ،
لا يدّ من حركة ، والحاضر يسقط لدى اول نقطة دم . انها يدي ،
يدي التي يجب ان تعمل كل شيء .

وتوجهه الى النافذة ، ونظر الى السماء . وازاح الستائر . بيده اليسرى ، وأضاء الكهرياء . بيده اليسرى . ونقل الموسيقى الى يده اليسرى . وأخذ محفظة نقوده . فأخرج منها خمس اوراق من فئة الألف فرنك . وتناول مغلفاً من على مكتبه ، فوضع المال في المغلف . وكتب على المغلف : الى السيد دولاريو ، ١٢ شارع هويغنز . ووضع المغلف في مكان بارز على الطاولة . ونهض ، ومشى ، وحمل الوحش الملصق ببطنه ؛ انه يمصه ، وهو يحسه . نعم . لقد أخذ في الشراك . طوال الليل . واستعادت يده اليمنى الموسيقى . انه يخاف يده ؛ وهو يراقبها . إنها متصلبة في طرف ذراعه . وقال : « هيا ! » وعبر به ارتعاش صغير ضاحك من الجنين الى الرقبة . « هيا . لنته من ذلك ! » ليته يجد نفسه مقطوع العضو ، كما يجد المرء نفسه واقفاً في الصباح : إذ يدق المنبه ، من غير ان يعلم كيف نهض . ولكن يجب اولاً ان يعمل هذه الحركة القذرة ، هذه الحركة المبولية ، ان يفك ازراره طويلاً ، وفي صبر . وصعد جمود الموسيقى الى يده ، والى ذراعه . جسم حي وحار ذو ذراع حجرية . ذراع صنيعة ضخمة ، جامدة ، مثلجة ، وفي طرفها موسى . وفك أصابعه ، فسقط الموسيقى على الطاولة :

الموسى هناك مفتوح : على الطاولة : لم يتغير شيء ! انه يستطيع ان يمد يده ويأخذه . وسيطع الموسيقى جامداً . ان الاوان لم يفت بعد ، ولن يفوت الوقت ، فان الليل بطوله لي . ومشى عبر الغرفة : انه غير حاقد على نفسه بعد ، انه لا يريد شيئاً بعد ، انه عائم . ان الوحش هنا ، بين فخذه ، مستقيم قاس ، قدارة ! ان كان ذلك ينفرك اكثر مما ينبغي يا صغيري ، فان الموسيقى هنا ، على الطاولة . « مات الوحش ... » الموسيقى . الموسيقى . ودار حول الطاولة ، من غير ان ينزع نظره عن الموسيقى . ألا يمنعني اذن شيء

من اخذه ؟ لا شيء . كل شيء جامدٌ هاديء . ومدٌ يده ، ولس الشفرة ؛ ان يدي ستفعل كل شيء . وقفز الى خلف ففتح الباب وقفز الى السلم . وهبطت احدى قططه السلم امامه مذعورة .

وكان دانيال يعدو في الشارع : وفوق ، كان الباب ما يزال مفتوحاً على سعته ، والمصباح مضاءً ، والموسى على الطاولة ، وكانت القطط تائهة في السلم المظلم . ولم يكن ثمة ما يمنعه من ان يعود أدراجه . لقد كانت الغرفة تنتظره باستسلام . ولم يكن ثمة ما هو مقررٌ ، ولن يتقرر شيء ما ابداً . كان ينبغي ان يركض ، ان يفرّ الى ابعد مكان ممكن ، ان يفرق في الضجيج ، في الانوار ، وسط الناس ، وان يعود فيصبح رجلاً بين البشر ، وان يلفت اليه نظر الآخرين ؛ وعدا حتى بلغ « روا اولاف » فدفع الباب . يكاد يفقد انفاسه . وقال وهو يلهث :

- اعطني كأس ويسكي .

وكان قلبه يخفق بشدة حتى اطراف اصابعه ، وكان له في فمه مذاق حبر . وجلس في القاعة الداخيلية . وقال له الخادم بلهجة احترام :

- يبدو عليك التعب .

وكان نروجياً طويلاً يتكلم الفرنسية بلا لكمة . وكان ينظر في ود الى دانيال ، فأحس دانيال انه اصبح زبوناً غنياً احمق بعض الشيء وهو يترك « بقشيشاً » سخياً . وابتسم واجاب موضحاً :

- ليس الامر على ما يرام . ان بي بعض الحمى .

فهز الخادم رأسه ومضى . وسقط دانيال من جديد في وحدته . كانت غرفته تنتظره ، هناك فوق ، متهيئة ، والباب كان مفتوحاً على سعته ، وكان الموسى يلتصق على الطاولة . « لن استطيع ابداً ان اعود الى بيتي . » وسوف يشرب ما وسعه ذلك . حتى اذا دقت الساعة

الرابعة ، اقبل الخادم بحمله بمعونة صاحب الحانة الى سيارة تاكسي .
كما يحدث كل مرة .
وعاد الخادم بكأس ممتلئة الى النصف وزجاجة « بيريه » وقال :
- كما تحبّه تماماً .
- شكراً .

وكان دانيال وحيداً في هذه الحانة الهادئة . وكان النور الاشقر يُزبد حوله : وكان خشب الحواجز الاشقر يلتمع بعدويسة ، وكان مطايماً ببرنيق كثيف ؛ وحين كان المرء يمسه ، كان يدبّق . وصبّ ماء البيريه في كأسه ، فاحتدم الويسكي لحظة ، وصعدت الى السطح فقاقيع متحمّسة ، فتزاحمت كنساء ثرثرات ، ثم هدأ هذا الاضطراب الصغير كله . ونظر دانيال الى المائع الاصفر حيث كانت اثاره زبد عائمة : فكانه بيرة طائشة . وعلى المشرب ، كان الخادم وصاحب الحانة يتحدثان الزوجية ، وهما لا يظهران .
- كأس اخرى .

وكنس الكأس بضربة من يده وارسلها تتحطم على الارض . فصمت صاحب الحانة والخادم فجأة ، وانحنى دانيال فوق الطاولة : كان السائل يزحف متمهلاً على البلاط وهو يُرسل ذبولاً نحو رجل كرمي .
وكان الخادم قد هُرع ، فقال دانيال وهو يتسم :
- انني عادم الخدق ...

فسأله الخادم : - هل اعطيك سواء ؟
وكان قد انحنى ، فانتفخ جانبا ، ليمسح السائل ويسلم شظايا الزجاج . قال دانيال فجأة :

- نعم ... كلا . (واذاف في لهجة مزاح) ان هذا انذار ..
يجب الا تناول الخمر هذا المساء . اعطني اذن نصف قدح بيريه مع قطعة حامض .

فابتعد الخادم . واحسن دانيال ببعض الهدوء . وكان حاضر كئيف
يتشكّل حوله من جديد . رائحة الزنجبيل ، الضوء الاشقر ، الحواجز
الخشبية ...
- شكراً .

وكان الخادم قد فض الزجاجة وملاً القدح الى نصفه . وشرب
دانيال ثم وضع الكأس . وفكر : « كنت اعرف ذلك ! كنت اعرف
اني لن افعله ! » حين كان يمشي بخطى واسعة في الشوارع وحين
كان يصعد السلم اربع اربع ، وكان يعلم انه يمضي حتى النهاية .
وكان يعرف ذلك حين اخذ الموسيقى في يده ، ولم ينخدع لحظة واحدة ،
فاي ممثل رديء هو ! وكل ما هناك انه نجح في آخر الامر بان يخيف
نفسه ، وعند ذلك هرب . واخذ كأسه وضغطها في يده : كان يريد
بكل قواه ان يشمئز من نفسه ، وهو لن يجد قط مناسبة رائعة كهذه .
« قدر ! جبان وممثل : قدر ! » وحسب ذات لحظة انه سيبلغ ذلك ،
ولكن لا ، انما كانت تلك كلمات من الواجب ... آه ! اي
انسان ، اي قاض ، كان يقبل اي قاض او اي حكّم ، ولكن
ليس هو نفسه ، ليس هذا الاحتقار القاسي لنفسه الذي لم يكن يملك
قط قدراً كافياً من القوة ، هذا الاحتقار الضعيف المحتضر الذي كان
يبدو كل لحظة على وشك ان يتلاشى والذي لم يكن يمر . ليت احداً
يعرف ، ليت بوسعه ان يحس الاحتقار الثقيل لإنسان آخر يضغظ
عليه .. ولكنني لن استطيع ابداً ، اني افضل لو أخصي نفسي . ونظر
الى ساعته ، الحادية عشرة ، ما يزال هناك ثماني ساعات قبل الصباح .
ان الوقت لم يكن ينقضي .

الحادية عشرة ! وانتفض فجأة : « ان ماتيو هو الآن عند مارسيل .
انها تحدّته ، في هذه اللحظة بالذات تحدّته وتضع ذراعيها حول عنقه ،
وتجد انه لا يكاشفها بالسرعة الكافية ... هذا ايضاً ، انما فعلته انا . »

واخذ يرتجف بكل اعضائه : سوف يستسلم ، سينتهي به الامر الى الاستسلام . لقد افسدت له حياته .

وترك كأسه ووقف ونظره محدود ، انه لا يستطيع لا ان يحتقر نفسه ولا ان ينسى نفسه . انه يود لو يكون ميتاً وهو موجود ، انه يستمر بعناد في ان يوجد . يود لو يكون ميتاً ؛ يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ، يفكر بانه يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ... « ان هناك وسيلة . » وكان قد تكلم بصوت مرتفع ، فهرع اليه الخادم :

— هل ناديتني ؟

قال دانيال بشرود : — نعم . هذا لك .

ورمى مئة فرنك على الطاولة . هناك وسيلة . وسيلة لتسوية كل شيء ! ونهض واتجه بخطوة حية الى الباب . « وسيلة عظيمة » واخذته ضحكة صغيرة : كان يشعر دائماً بالجدل حين تتاح له الفرصة بان يمثل على نفسه دوراً ممتعاً .

اغلق ماتيو الباب على مهل وهو يرفعه قليلاً على رزاته ، حتى لا يُحدث صريراً ، ثم رفع قدمه على الدرجة الاولى من السلم ، فانحنى وفك سير حذائه . وكان صدره يلامس ركبته . ونزع حذاءه فأخذه بيده اليسرى ، ثم نهض ووضع يده اليمنى على الحاجز ، وقد رفع نظره الى الغيمة الوردية الممتعة التي كانت تبدو معلقة في الظلمات . انه لم يكن يدين نفسه بعد . وصعد على مهل في الظلام وهو يتجنب ان يجعل الدرجات تصرّ .

وكان باب الغرفة مشقوقاً فدفعه . وكان الجو ثقيلاً . وكانت حرارة النهار كله قد حطت في جوف هذه الحجرة ، كأنها ثمالة . وكانت امرأة جالسة على السرير تنظر اليه مبتسمة : انها مارسيل . وكانت قد ارتدت « روبديشمبر » ابيض جميلاً ذا حزام مذهب ، وكانت قد تزينت بعناية ، وكان منظرها مرحاً وذا أهبة . واغلق ماتيو الباب خلفه ، وظلّ جامداً ، مرتخي الذراعين ، وقد اخذته في حلقه عذوبة الوجود التي لا تُحتمل . كان هناك ، كان يتفتح هناك ، بالقرب من هذه المرأة المبتسمة مستغرقاً كله في هذه الرائحة ، رائحة المرض والحلويات والحب . وكانت مارسيل قد ألقت رأسها الى خلف ، وكانت تتأمله في خبث بين جفونها المسبلة . وبادلتها بسمتها وراح يضع حذاءه

في الخزانة . وتنفس في ظهره صوت يفيض حناناً :

- حبيبي .

فالتفت فجأة واستند الى الخزانة ، وقال بصوت منخفض :

- مرحباً .

فرفعت مارسيل يدها حتى صمدغها وحركت اصابعها :

- مرحباً ، مرحباً .

ونهمت ، واقبلت تحيط عنقه بذراعيها وتقبّله وهي تزلق لسانها في فمه . وكانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على جفنيها ؛ وكان في شعرها زهرة . وقالت وهي تداعب رقبته :

- انك تشكو الحرّ .

وكانت تنظر اليه من تحت الى فوق ، ورأسها مقلوب بعض الشيء ، وهي ترشق طرف لسانها بين اسنانها ، في هيئة انتعاش وسعادة . وكانت جميلة . وفكر ماتيو وهو منقبض القلب ببشاعة ايفيش الهزيلة . وقال :

- انت اليوم جدلى . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام

امس ، كما ظهر في التلفون .

- كلا . كنت بليدة . اما اليوم ، فالامور على ما يرام تماماً .

- هل قضيت ليلة هانئة ؟

- نعم كالربوع !

وقبلته مرة اخرى ، فأحسّ على شفثيه مخمل ذلك الفم الغنيّ ثم ذلك العُري الأجرد ، الحارّ . الحاذق : لسانها . وتقلت منها على مهل . وكانت مارسيل عارية تحت « الروبديشمبر » فرأى نهديها الجميلين وشعر بمذاق سكرّ في فمه وتناولت يده وجذبته نحو السرير :

- تعال اجلس بالقرب مني .

وجلس بالقرب منها ، وكانت ما تزال تحتفظ بيده بين يديها ، وكانت تشده في انتفاضات صغيرة مرتبكة ، وكان ينخيل لماتيو ان

حرارة هذه الايدي كانت تصعد حتى الإبطن وقال :
- ما أشدّ الحرّ عندك .

فلم تجف ، وكانت تلتهمه بعينيها ، وشففتها مفرّتان ، في هيئة متواضعة واثقة . وامرّ يده اليسرى متمهلاً بالقرب من معدته ثم ادخلها خفية في جيبه اليمنى ليأخذ تبغّه . ففاجأت مارسيل هذه اليد وارسلت صيحة خفيفة :

- ولكن ما بال يدك ؟

- لقد جرحتها .

وتركت مارسيل يد ماتيو اليمنى ثم خطفت يده الاخرى ، وقلبتها كقرص من المعجنات ، وتأملت راحتها بعين ناقدة :
- ولكن ضمادك قدرٌ جداً ، وانك توشك ان تتن الجرح ! ثم ان عايه وحلاً ، فما هذا ؟

- لقد وقعت على الارض :

فأطلقت ضحكة لطيفة دهشة :

لقد جرحت يدي ، لقد وقعت على الارض . ما هذه الغفلة !
وماذا اخترعت ؟ انتظر سأربط لك ضماداً آخر ، فانك لا تستطيع ان تبقى هكذا .

وفكّت يد ماتيو وهزّت رأسها :

- انه جرح بشع ، فكيف حسبت حسابك ؟

- حدث هذا مساء امس في « سومطرا » .

- في « سومطرا » ؟

خدّان عريضان ممتعان ، وشعر ذهبي ، وغداً ، غداً سأسرح شعري هكذا من أجلك . واجاب :

- انه هوى من أهواء بوريس . كان قد اشترى سكيناً ، فتحدّاني

ان ازعه في يدي .

- وانت بالطبع عجلت في تنفيذه . انك مجنون تماماً يا حبيبي
المسكين . ان جميع هؤلاء الصبية سوف يستحمةقونك ... انظر هذه اليد
المسكينة المعطّلة !

وكانت يد ماتيو مرتاحة جامدة بين يديها الملتهبتين ؛ وكان الجرح
يشير الاشمزاز بقشرته الرطبة السوداء . ورفعت مارسيل اليد الى
وجهها ببطء ، ونظرت اليها باحداد ثم انحنى فجأة فألصقت شفثيها
بالجرح في اندفاع ذليل . وتساءل : « ماذا دهاها ؟ » وجذبها اليه
وقبلها في اذنها . وسألته مارسيل :

- هل انت مرتاح معي ؟

- طبعاً .

- لا يبدو عليك ذلك .

فابتسم لها ماتيو من غير ان يجيب . ونهضت وراحت تأخذ حقيبتها
من الخزانة . وكانت توليه ظهرها ، وقد تناولت على رأس قدميها
ورفعت ذراعيها لتبلغ الطبقة العليا ؛ وكان كشحها قد تهدّلا على طول
ذراعيها . وكان ماتيو ينظر الى هاتين الذراعين العاريتين اللتين داعبها
غالباً وكانت شهواته القديمة تطوف حول قلبه . وعادت اليه مارسيل
بتناقل نشيط :

- اعطني يدك .

وكانت قد صبّت مطهراً على سفنجة صغيرة ، فأخذت تغسل يده.
واحسّ عند جانبه دفء هذا الجسد الذي كان قد ألفه .

- لحس !

وكانت مارسيل تبسط له طرف نسيج مصمّغ ، فمدّ لسانه ولحس
الفتشارة الوردية بوداعة . واطبقت مارسيل طرف النسيج على الجرح ،
واخذت الضهاد القديم فأمسكته لحظة بطرف اصابعها وهي تنظر اليه
باشمزاز مرح .

- ماذا تراني سأفعل بهذا الشيء الفظيع ؟ حين تذهب ، سألقيه في القمامة .

ثم لفّت يده بشف في حركة خفيفة :

- هكذا اذن : لقد تحدّك بوريس ؟ فأتلفت يدك ؟ اي طفل كبير انت ! هل تراه فعل مثلك ، هو ؟
قال ماتيو : - كلا .

فضحكت مارسيل : - لقد تغلب عليك اذن !

وكانت قد وضعت في فمها دبوساً انكليزياً ، وكانت تمزّق الشفّ بكلتا يديها . وقالت وهي تشدّ على الدبوس بشفتيها :

- هل كانت ايفيش موجودة ؟

- حين جرحت يدي ؟

- نعم .

- لا ، كانت ترقص مع لولا .

وشكّت مارسيل الدبوس في الضهاد : وكان قد بقي على عرقه النحاسي اثر من احمر الشفاه .

- هكذا اذن ! لقد تسليتم كثيراً !

- لا بأس .

- ان مقهى « سومطرا » جميل ! أتعرف ماذا اريد ؟ ان تأخذني اليه مرة .

فقال ماتيو منزعجاً : - ولكن ذلك سيتعبك .

- اوه ! مرة واحدة ... وستفعل ذلك في أهنة ، فقد مضى وقت طويل لم اخرج به معك .

لم اخرج معك ! وكان ماتيو يردّد بغيظ هذه الكلمة الزوجية :
ان مارسيل لم تكن محظوظة مع الكلمات . وقالت مارسيل :
- هل تريد ؟

فقال : - اسمعي ، مهما يكن من امر ، فان هذا لا يمكن ان يتم قبل الخريف : يجب عليك في هذه الاثناء ان ترتاحي تماماً : ثم بعد ذلك يغلق المقهى ابوابه في عطلة السنوية . ان لولا سندهب في دورة الى افريقيا الشمالية .

- اذن سندهب في الخريف . اتعدني بذلك ؟

- أعدك .

وسعلت مارسيل في ارتباك ، ثم قالت :

- ارى جيداً انك غاضبٌ عليّ .

- انا ؟

- نعم ... لقد كنت مزعجةً امس الاول :

- ولكن لا ... لماذا ؟

- بلى . كنت نائرة الاعصاب :

- كان من الممكن ان تكوني اقل ثورة اعصاب من ذلك . ولكن

الغلظة غلطتي يا صغيرتي .

قالت : - ليس هناك ما تؤاخذ به نفسك ، ولم يكن هناك قط ما

تؤاخذ به نفسك .

ولم يجرؤ على ان يلتفت نحوها ، فقد كان يتمثل تماماً هيئة وجهها ،

ولم يكن يستطيع ان يتحمل هذه الثقة التي لا تفسر ولا يستحقها .

وساد صمت طويل : وكانت تنتظر بكل تأكيد كلمة رقيقة ، كلمة

صفح . ولم يستطع ماتيو ان يتناسك بعد ، فقال :

- انظري .

واخرج محفظته من جيبه وبسطها على ركبتيها ، فهدت مارسيل

عنقها واسندت ذقنها على كتف ماتيو .

- ماذا عليّ ان انظر ؟

- هذا .

وسحب الأوراق المالية من المحفظة وقال وهو يفرقها بلهجة انتصار :

— واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة .
وكانت الأوراق محتفظة بعدُ برائحة لولا . وانتظر ماتيو لحظة والأوراق على ركبتيه ، واذ رأى مارسيل لا تنبس بحرف ، التفت إليها ، فاذا هي رافعة بصرها تنظر الى الأوراق وهي تطرف بعينيها . ولم يكن يبدو عليها أنها تفهم . وقالت على مهل :
— خمسة آلاف فرنك .

وقام ماتيو بحركة متواضعة ليضع المال على طاولة الليل وقال :
— نعم ! خمسة آلاف فرنك . لقد عانيت حتى وجدتها .
ولم تجب مارسيل . وكانت تعضّ شفتها السفلى وتنظر الى الأوراق نظرة غير مصدقة . وكانت قد شاخت فجأة . ونظرت الى ماتيو بأسى ولكن بثقة ايضاً . وقالت :
— كنت اظن ...

فقاطعها ماتيو ، وقال بصراحة :
— سيكون بوسعك ان تقصدي اليهودي ، ويبدو انه عظيم . فقد مرت تحت يديه مئات النساء في فيينا . وكلهن من الطبقة الثرية .

فانطفت عينها مارسيل وقالت :
— حسناً ، فليكن ، فليكن .
وكانت قد اخذت دبوساً انكليزياً من حقيبتها ، وكانت تفتحها وتغلقه بعصبية . واطاف ماتيو :

— اني اعطيك اياها . واطن ان ساره ستصحبك اليه فتدفعين له ، وهو يريد ان يأخذ المال مقدماً ، ذلك الخنزير .
وبعد لحظة صمت سألته مارسيل :
— اين وجدت هذا المال ؟

- قال ماتيو : - احزري !
 - دانيال ؟
 فهز كتفيه : كانت تعلم جيداً ان دانيال لم يرد ان يقرضه شيئاً .
 - جاك ؟
 - كلا . لقد قلت لك امس ، بالتلفون .
 قالت بجفاف : - اني عمزت . من ؟
 فقال : - لم يعطني اياها احد .
 فابتسمت مارسيل ابتسامة صفراء :
 - لن تقول لي مثلاً انك قد سرقتها ؟
 - بلى .
 فرددت في ذعر :
 - هل سرقتها ؟ ان هذا ليس صحيحاً ؟
 - بلى ، سرقتها من لولا .
 وساد صمت ، ومسح ماتيو عرق جبينه وقال :
 - سأروي لك .
 ورددت مارسيل في هدوء :
 - لقد سرقتها .
 وكان وجهها قد اصبغ رمادياً ؛ وقالت من غير ان تنظر اليه :
 - لا بدّ انك راغب في التخلص من الطفل .
 - انني راغب خصوصاً في الا تقصدي تلك العجوز .
 وكانت تفكر ، وكان فيها قد استعاد ثنيتيه القاسية الشرسة :
 وسألها :
 - هل توبخيني لأنني سرقتها ؟
 - لا يهمني ذلك :
 - اذن ، ماذا هناك ؟

فقامت مارسيل بحركة مفاجئة سقطت معها حقيبة الادوية على الارض . فنظرا اليها معاً ، ودفعها ماتيو بقدمه ، وأدارت مارسيل نحوه رأسها ، وكانت الدهشة بادية عليها . وردد ماتيو :

– قولي لي ماذا هناك ؟

فضحكت ضحكة جافة .

– لماذا تضحكين ؟

فقالت : – انني اسخر من نفسي .

وكانت قد نزعت الزهرة التي كانت تحملها في شعرها وأخذت تقلبها بين اصابعها . وتمتمت :

– لقد كنت شديدة البلاهة .

وقست ملامح وجهها . وظلت فاغرة الفم كما لو انها كانت راغبة في الكلام ، ولكن الكلام لم يكن يأتي . كانت تبدو وكأنها خائفة مما ستقول . وتناول ماتيو يدها ولكنها تحللت منه ، وقالت وهي لا تنظر اليه :

– أعلم انك رأيت دانيال .

– هكذا ! كانت قد انقلبت الى خلف وشنجت يديها على غطاء السرير ؛ وكانت تبدو مذعورة ومتحررة . وكان ماتيو يحس ايضاً انه متحرر : كانت جميع الاوراق على الطاولة ، وكان لا بد من الماضي حتى النهاية . وكان امامها الليل كله من اجل هذا . وقال ماتيو :

– نعم لقد رأيت . كيف عرفت هذا ؟ انك انت التي ارسلته إذن ؟ لقد رتبنا كل شيء ، معاً ، أليس كذلك ؟

قالت مارسيل : – لا تتكلم بهذا الصوت المرتفع . انك توشك ان توقظ امي . لم اكن انا الذي ارسلته ، ولكني كنت اعلم انه كان يريد ان يراك .

قال ماتيو بحزن : – ان هذا شيء قبيح .

فقلت مارسيل بمرارة : - اجل ، شيء فبيح .
وصمتا . كان دانيال موجوداً ، وكان قد قبع بينهما. وقال ماتيو :
- حسناً ، ينبغي ان نتصارع تماماً ، فلم يبق لنا شيء نعماله
غير هذا .

قالت مارسيل : - ليس هناك ما نتصارع بشأنه . لقد رأيت
دانيال . فقال لك ما كان يريد ان يقول ، وحين تركته ذهبت فسرقت
خسة آلاف فرنك من لولا .

- نعم ، وانت منذ اشهر تستقبلين دانيال خفية . ترين اذن ان
هناك أشياء ينبغي تفسيرها (وسألها فجأة) اسمعي : ماذا حدث
امس الاول ؟

- امس الاول ؟

- لا تتصنعي عدم الفهم . لقد قال لي دانيال انك تأخذين عليّ
موقف امس الاول .

قالت : - اوه ! دعك من هذا ولا تشغل به رأسك .

فقال ماتيو : - ارجوك يا مارسيل ، لا تنغلقي . اقسم لك ان نيتي
حسنة ، واني اعترف بجميع اخطائي : ولكن اخبريني ماذا حدث
امس الاول . ان الامور ستسير خيراً مما هي اذا استطعنا ان نسترد
بعض الثقة احدنا بالآخر .

وكانت تردد وقد افرخ روعها قليلاً . وقال لها وهو يأخذ
بيسدها :

- ارجوك ...

- حسناً ... كان ذلك كالمرات السابقة : انك تهزأ بما قد يكون
في رأسي من افكار :

- وماذا كان في رأسك ؟

- لماذا تريد ان تُنطقني به ؟ انك تعرفه جيداً .

قال ماتيو : - صحيح ، اعتقد اني اعرفه .
وفكر : « انتهى الامر ، سأتزوجها . » وكان هذا هو البداية
بعينها . « لا بد ان اكون قدراً جداً لأتحيل ان يوسعي ان اقطع
وحدني بالأمر . » كانت موجودة هنا ، وكانت تتألم ، وكانت شقية
وخبيثة ، ولم يكن عليه الا ان يفعل حركة واحدة حتى يرد لها
هدوءها . وقال :

- تريدان ان نتزوج ، أليس كذلك ؟
فتزعت منه يدها ونهضت بوثة واحدة . فنظر اليها مذعوراً :
كانت قد اصبحت شاحبة ، وكانت شفتاها ترتجفان :

- انك ... ايكون دانيال هو الذي قال لك ذلك ؟
قال ماتيو مشدوهاً : - كلا ، ولكن هذا ما فهمته .
فقال وهي تضحك : - هذا ما فهمته ! لقد قال دانيال اني
كنت منزعجة ، ففهمت انت انني اطلب الزواج . هذا ما تظنه بي ،
انت ماتيو ، بعد سبع سنوات .

وأخذت يداها ايضاً ترتجفان . واستولت على ماتيو الرغبة بأن يأخذها
بين ذراعيه ، ولكنه لم يجرؤ ، وقال :
- انت على حق ، فانه لم يكن لي ان افكر هذا التفكير .
ولم يكن يبدو عليها انها تسمع . وألح قائلاً :

- اسمعي : لقد كانت لي اعداري : لقد اخبرني دانيال بأنه كان
يراك من غير ان تعلميني ذلك .
وظلت على صمتها ، فقال على مهل :
- انما هو الطفل الذي تريدان ؟

قالت مارسيل : - ها ! ان هذا لا يعنك . ان ما اريده لم يعد
يعنك .

فقال ماتيو : - ارجوك . ان الاوان لم يفت بعد ...

فَهَزت رَأْسَهَا : - هذا غير صحيح . لقد فات الاوان .
- ولكن لماذا ، يا مارسيل ؟ لماذا لا تريدان ان تتحدثي معي
بهدوء ؟ تكفيننا ساعة ، فيسوتى كل شيء ، ويتضح كل شيء ...
- لا اريد .

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟
- لأنني لم اعد اقدرك بما فيه الكفاية . ثم لأنك لم تعد تحبني .
وكانت قد تكلمت بلهجة تأكيد ، ولكنها كانت مدعورة بما
قالته ؛ ولم يكن في عينيها بعد الا استفهام قلق . واستطردت بحزن :
- لكي تفكر بي كما فكرت ، فلا بد انك قد كففت عن
حبي ...

وكان هذ شبه سؤال . فلئن اخذها بين ذراعيه ، ولئن قال لها
انه كان يحبها لأنقذ بعد كل شيء : سوف يتزوجها ويرزقان
الولد ، وسيعيشان جنباً الى جنب طوال الحياة : وكان قد نهض ؛
وكان يوشك ان يقول لها : « احبك » وترنح قليلاً وقال بصوت
واضح :

- هذا صحيح : اني لم اعد احبك .
وكان قد نطق بالعبارة منذ وقت طويل ، منذ ان بدأ يستمع اليها ،
في دعر . وفكر : « انتهى الامر . انتهى كل شيء . » وكانت
مارسيل قد ارتدت الى خلف وهي تطلق صيحة انتصار ، ولكنها
سرعان ما وضعت يدها على فمها وأومات له ان بصمت وتمتمت
بلهجة قلقة :

- امي .
فأرهما اذنيهما ؛ ولكنهما لم يسمعا الا صوت السيارات الجارية في
البعيد . قال ماتيو :
- مارسيل . اني ما زلت متعلقاً بك بكل قواي .

فأطلقت مارسيل ضحكة متعجرفة :
 - طبعاً ... انك متعلق فقط ! أهذا ما تود ان تقوله لي ؟
 وأخذ يدها وقال لها :
 - اسمعي ...
 فحررت يدها في انتفاضة جافة وقالت :
 - كفى ، كفى . لقد عرفت ما كنت اود ان اعرفه .
 ورفعت بعض خصلات مبللة بالعرق كانت متدلّية على جبينها .
 وابتسمت فجأة ، كأنها تذكرت امرأ وأضافت في اشرافة فرح حاقد :
 - ولكن اخبرني ، انك لم تقل لي هذا امس ، على التلفون . لقد
 قلت لي بقوة : « احبك » ولم يكن احد يطلب منك ان تقول
 ذلك .
 فلم يجب ماتيو . وقالت بلهجة ساحقة :
 - لا بد انك تحتقرني ...
 قال ماتيو : - اني لا احتقرك .. انما ...
 قالت مارسيل : - اذهب عني .
 فقال ماتيو : - انك مجنونة . لا اريد ان اذهب ، ويجب ان
 أشرح لك انني ...
 فرددت بصوت اصمّ ، وهي مسبلة الجفنين :
 - اذهب عني .
 فصاح يائساً : - ولكني احتفظت لك بكل خناني ، وانا لا
 افكر في ان اهجرك . اريد ان ابقى بالقرب منك طوال حياتي ،
 وسأتزوجك و ...
 قالت : - اذهب عني ، اذهب ، ولا اريد ان اراك بعد .
 اذهب والا فلست مسؤولة عما قد اصنع ، سوف آخذ في
 الصراخ ...

ورأحت ترتجف بكل جسمها . واقترب ماتييو خطوة منها ، ولكنها دفعته بعنف :

– ان لم تذهب ناديت امي .
وفتح الخزانة فتناول حذاءه ، وكان يشعر انه مضحك وكريسه وقالت من ورائه :

– إستعد مالك .
فالتفت ماتييو وقال : – كلا . ان هذا على حدة . ليس هذا سبباً لأن ...

فتناولت الاوراق المالية من على الطاولة ولفذتها في وجهه ، فتطايرت عبر الغرفة وسقطت على رجل السرير ، بالقرب من حقيبة الادوية . ولم يلمسها ماتييو ؛ وكان ينظر الى مارسيل . وكانت قد أخذت تضحك ، في ارتعاش ، مغمضة العينين . وكانت تقول :

– ها ! ما اعجب هذا ! انا التي كنت اظن ...
واراد ان يقرب ولكنها فتحت عينيها وارثدت الى الخلف وهي نوميء الى الباب . وفكر : « اذا بقيت صاحت » واستدار على عقبه وخرج من الغرفة وحذاؤه في يده . وحين بلغ اسفل الدرج وضع حذاءه وتوقف لحظة ، ويده على مقبض الباب ، مرهفاً سمعه . وسمع فجأة ضحكة مارسيل ، ضحكة منخفضة كالحلة كانت ترتفع صاهلة وتنخفض متقطعة . وصاح صوت :

– مارسيل ! ما بك ؟ مارسيل ؟
وكانت هي الام . وتوقفت الضحكة وسقط كل شيء في الصمت من جديد . وأصغى ماتييو لحظة اخرى ، حتى اذا لم يسمع بعد شيئاً ، ففتح الباب على مهل وخرج .

كان يفكر : « إنني دنيء » وكان هذا يدهشه كثيراً . ولم يكن فيه بعد الا التعب والحيل . وتوقف عند سطيحة الطابق الثاني ليلهث . وكانت ساقاه رخوتين ؛ لقد نام ست ساعات في ثلاثة ايام ، بل ربما اقل من ذلك : « انني ذاهب لأنام . » سوف يلقي ملابسه بلا نظام ، وسيترشح حتى يبلغ سريره فيسقط عليه . ولكنه كان يعلم انه سيظل مستيقظاً طوال الليل ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما في الظلام . وصعد : كان باب المنزل قد بقي مفتوحاً ؛ لا بد ان ايفيش قد هربت تائهة . وكان القنديل في المكتب ما يزال يشتعل . ودخل فرأى ايفيش . كانت جالسة على الديوان ، متصلبة جامدة . وقالت :

- اني لم اذهب .

فقال ماتيو بجفاء : - ارى ذلك :

وظلا لحظة صامتين ؛ وكان ماتيو يسمع صوت لهائه القوي المنتظم .

وقالت ايفيش وهي تدوير رأسها :

- لقد كنت لثيمة .

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى شعر ايفيش وكان يفكر :

« أتراني فعلت هذا من اجلها ؟ » وكانت قد خفضت رأسها ،

فتأمل رقبته السمرء العذبة في حنان بالغ : كان بوده ان يشعر انه كان متعلقاً بها اكثر من اي شيء في العالم ، ليكون لعمله على الاقل هذا التبرير . ولكنه لم يشعر بشيء ، الا بغضب لا موضوع له ، وقد كان العمل خلفه عارياً ، منزلقاً ، غير مفهوم : لقد سرق ، وترك مارسيل حاملاً ، من اجل لا شيء .

وجهدت ايفيش لتقول في تودد :

— كان يجب عليّ ان اتدخل لإعطاء رأيي ...

فهز ماتيو كتفيه وقال :

— لقد قطعت صلتي بمارسيل :

فرفعت ايفيش رأسها .

وقالت بصوت مبتذل :

— وهل تركتها .. بلا مال ؟

فابتسم ماتيو وفكر : « طبعاً ، لو فعلت ذلك ، لوجدت مأخذاً عليّ الآن . »

— كلا ، لقد تدبرت الامر .

— وهل وجدت مالاً ؟

— نعم .

— اين ؟

فلم يجب . ونظرت اليه في قلق :

— ولكنك لم ...

— بلى . لقد سرقته ، ان كان هذا ما تقصدينه . سرقته من لولا .

لقد صعدت الى غرفتها حين كانت غائبة عنها .

وطرفت ايفيش بعينيها وأضاف ماتيو :

— سأعيده لها طبعاً . انه قرض قسري . هذا كل ما في الامر .

وكانت البلادة تبدو على ايفيش ، فرددت على مهل ، كما فعلت

مارسيل منذ حين :

- لقد سرقت لولا .

فانزعج ماتيو لمظهرها المندھش ، وقال في حيوية :

- نعم ، ان هذا ليس عملاً مجيداً لو تعلمين كان هناك سلم يُرقي ، وباب يفتح :

- ولماذا فعلت ذلك ؟

فضحك ماتيو ضحكة موجزة :

- ليتني أعرف !

فنهضت فجأة وقد أصبح وجهها قاسياً متوحشاً كما كان يبدو اذ تلتفت في الشارع لتتابع بنظرها امرأة جميلة اوفتي ناضراً . ولكنها كانت تنظر هذه المرة الى ماتيو . وشعر ماتيو انه كان يحمر ، فقال في تردد :

- لم اكن اريد ان أنحلي عنها . وانما كنت اريد فقط ان أعطيها المال حتى لا اكون مجبراً على الزواج بها :

قالت ايفيش : - نعم ، فهمت .

ولم يكن يبدو عليها قط انها فهمت ؛ كانت تنظر اليه . وألح وهو يلفت رأسه :

- ولكن ما وقع قبيح : انها هي التي طردتني . لقد تلتقت ذلك باستياء كبير ، ولا ادري ماذا كانت تنتظر .

ولم تجب ايفيش ، فصمت ماتيو . على ضيق . وكان يفكر :
« لا أريد ان تكافئني »

قالت ايفيش : - انك جميل .

وأحسن ماتيو في إرهاب ان حبه الحاد يولد فيه من جديد . وكان يخيل اليه انه كان يترك مارسيل للمرة الثانية . ولم يقل شيئاً ، وجلس بالقرب من ايفيش ، وتناول يدها . وقالت له :

– فطّيح كم تبدو عليك الوحدة :

وكان خجلاً . وانتهى الى القول :

– انني اتساءل عما عساك تظنّين يا ايفيش ؟ ان هذا كله مشير للشفقة . لقد سرقت ، لو تعلمين ، بدافع الذعر ، وهأنذا الآن اشعر بالندم .

قالت ايفيش وهي تبسم :

– ارى جيداً انك تشعر بالندم : واطنّ اني كنت اشعر بمثله لو كنت في مكانك : ان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بذلك ، في اليوم الاول .

وكان ماتيو يشدّ بقوة على اليد الصغيرة الحرون ذات الأظافر المقرّنة . وقال :

– انك على خطأ ، فلست ...

قالت ايفيش : – اسكت .

وسحبت يدها بحركة مفاجئة ، وردّت شعرها كله الى خلف ؛ كاشفةً خديها وأذنيها . وكان يكفيها بضع حركات سريعة ، وحين خفضت يديها ، كان شعرها ممتاسكاً ، ووجهها عارياً . وقالت :

– هكذا .

وفكر ماتيو : « انها تريد ان تنزع مني حتى ندمي . » ومدّ ذراعه ، فجذب اليه ايفيش ، واستسلمت ؛ وكان يسمع في داخله لحناً صغيراً جذلاً كان يحسب انه أضع منه حتى ذكراه . واهتزّ رأس ايفيش قليلاً على كتفه ، وكانت تبسم له ، مفرّعة الشفتين . وبادلها بسمتها ، ثم قبلها قبلة خفيفة ، ثم نظر اليها فتوقف للحن الصغير فجأة ، وقال في نفسه : « ولكنها ليست الا طفلة » . وكان يحسّ انه وحيدٌ وحدةً مطلقة . وقال بعذوبة :

– ايفيش !

فنظرت اليه في دهشة .

– ايفيش ... لقد اخطأتُ .

وكانت قد قطبت حاجبيها ، وكانت انتفاضات صغيرة تهزّ رأسها وترك ماتيو ذراعيه تسقطان ، وقال في تعب :

– اني لا اعرف ما الذي اريده منك .

فانتفضت ايفيش وتخلصت بسرعة . وكانت عيناها ترسلان الشرر ولكنها سترتها واتخذت هيئة حزينة عذبة . وبقيت يداها وحدهما غاضبتين : كانتا تتطايران حولها وتحطّان على رأسها وتشدّان شعرها . وكان ماتيو مُحسّ بالجنّات في حلقه ، ولكنه كان ينظر الى هذا الغضب بلا اكتراث . كان يفكر : « لقد أفسدتُ هذا ايضاً . » وكان مسروراً تقريباً : لقد كان ذلك بمثابة تفكير . واستطرد يقول وهو يبحث عن النظر الذي كان يصير على الافلات منه :

– يجب ألاّ أمسك .

فقالت محمّرة من الغضب :

– اوه ، ليس لهذا اهمية .

ثم اضافت بلهجة مغنيّة :

– كان يبدو عليك انك فخور جداً لكونك اتخذت قراراً ، وقد ظننت انك كنت قادماً لتبحث عن مكافأة .

وعاد يجلس بالقرب منها واخذ على مهل ذراعها ، ما فوق المرفق قليلاً ، ولم تتخلص منه .

– ولكني احبك يا ايفيش .

فتصلبت ايفيش ، وقالت له :

– اودّ ان تظنّ ...

– ان اظنّ ماذا ؟

ولكنه كان يحزر ما تفكر به . وترك ذراعها . وقالت ايفيش :

- اني ... اني لا اكن حباً لك .
فلم يجب ماتيو . وكان يفكر : « انها تأخذ بثأرها ، هذا مألوف . »
والواقع ان ذلك كان على الارجح صحيحاً : فلماذا تراها كانت تحبه ؟
انه لم يكن يتمنى شيئاً بعد ، الا ان يبقى فترة طويلة صامتاً بالقرب
منها ، وان تذهب في آخر الامر من غير ان تتكلم . ومع ذلك فقد
قال :

- هل تعودين العام القادم ؟

قالت : - سأعود .

وكانت تبسم له بسمة تكاد تكون رقيقة ، وكانت لا بدّ تقدّر ان
كرامته قد حُفّظت . وكان هذا هو الوجه نفسه الذي أدارته نحوه مساء
أمسى ، فيما كانت سيدة المغاسل تضمد يدها . ونظر اليها في غير
وثوق ، وكان يشعر ان رغبته تولد من جديد ، تلك الرغبة الحزينة
المتطامنة التي لم تكن رغبةً في شيء . واخذ ذراعها ، واحسّ تحت
اصابعه بتلك البشرة النضرة . وقال :

- اني ...

وصمت . كان ثمة من يدق الباب : دقة اولاً ، ثم دقتين ، ثم
جرساً غير منقطع . وأحسّ ماتيو بأنه مثلج ، وفكر : « مارسيل ! »
وكانت ايفيش قد امتنعت ، لقد جاءت الفكرة نفسها بكل تأكيد .
وتبادلا النظر . وهمست :

- يجب ان تفتح .

قال ماتيو : - اعتقد ان نعم .

ولم يتحرك . وكان الدق على الباب قد اصبح عنيفاً . وقالت ايفيش
وهي ترتجف :

- فظيع ان يفكر المرء ان وراء هذا الباب احداً .

قال ماتيو : - نعم .. هل تريدان .. هل تريدان ان تدلفي الى

المطبخ ؟ سوف اغلق بابه فلا يراك احد .
فنظرت اليه ايفيش نظرة تسلط هاديء :
- كلا . سوف ابقى .
وذهب ماتيو ليفتح فرأى في الظل رأساً كبيراً منقبضاً يشبه القناع :
كانت لولا . ودفعته لتدخل بسرعة وسألته :
- اين بوريس ؟ لقد سمعت صوته .
ولم يكن لماتيو الوقت حتى لإغلاق الباب فدخل الى المكتب على
عقبه . وكانت لولا قد تقدمت نحو ايفيش بلهجة تهديد :
- اخبرني اين بوريس !
فنظرت اليها ايفيش نظرة مذعورة . ومع ذلك فلم يكن يبدو على
لولا انها تتجه اليها - او الى اي شخص آخر - بل لم يكن مؤكداً
انها رأتها . ووقف ماتيو بينها :
- انه ليس هنا .
فأدارت لولا نحوه وجهها المتحلل . كانت قد بكت .
- لقد سمعت صوته .
قال ماتيو وهو يحاول ان يمسك نظرها :
- ان في المنزل ، الى جانب هذا المكتب ، مطبخاً وحماماً . فبوسعك
ان تبحي في كل مكان ان كان ذلك يروقك .
- اين هو اذن ؟
وكانت مرتدية ثوبها الحريري الاسود ومحفظة بماكياجها المسرحي .
كان يبدو على عينيها انها متخترتان . وقال ماتيو :
- لقد ترك ايفيش حوالى الساعة الثالثة . ولا تدري ماذا فعل
بعد ذلك .
واخذت لولا تضحك كامرأة عمياء . وكانت يداها تتشنجان على
محفظة مخرمبة صغيرة سوداء كان يبدو انها تحتوي شيئاً واحداً ، قاسياً

وثقيلاً . ورأى ماتيو المحفظة فأخذه الخوف ، وكان لا بدّ من ان
يصرف ايفيش على التو .

وقالت لولا : - حسناً ، اذا كنتما لا تعرفان ماذا صنع ، فبوسعي
ان اخبركما . لقد صعد الى غرفتي حوالي السابعة اذ كنت قد خرجت ،
ففتح بابي ونزع قفل صندوق وسرق مني خمسة آلاف فرنك .
ولم يجرؤ ماتيو على ان ينظر الى ايفيش ، وقال لها على مهل ، وهو
مطرق الى الارض :

- ايفيش ، من الخير ان تذهبي ؛ يجب ان اتحدث الى لولا .
هل ... هل استطيع ان اراك مرة اخرى هذه الليلة ؟
وكانت ايفيش ممتعة فقالت :

- اوه ، كلا اريد ان اعود الى بيت الطالسبات ، فان عليّ ان
احزم حقائبي ، ثم اني اريد أن أنام . انني شديدة الرغبة في النوم .
وسألت لولا :

- هل هي مسافرة ؟

قال ماتيو : - نعم . صباح الغد .

- وهل يسافر بوريس ايضاً ؟

- كلا .

واخذ ماتيو يد ايفيش :

- لذهبي فنامي يا ايفيش . لقد قضيت يوماً شاقاً الا تزالين مصرّة
على الاّ اصحبك الى المحطة ؟

- نعم . افضل ان لا .

- اذن ، الى السنة القادمة .

وكان ينظر اليها ، وهو يرجو ان يجد في عينيها بريق حنان ، ولكنه
لم يستطع ان يقرأ فيها الا الذعر . وقالت :
- الى السنة القادمة .

وقال ماتيو بحزن : - سأكتب لك يا ايفيش .
- نعم . نعم .
وكانت تهمّ بالخروج ، فسدت لولا عليها الطريق :
- عفواً ! الذي يثبت لي انها ليست ذاهبة لتلتقي ببوريس ؟
قال ماتيو : - وبعد ؟ أتصور انها حرة .
قالت لولا وهي تقبض بيدها اليسرى على معصم ايفيش :
- إبقى هنا .
فأطلقت ايفيش صرخة ألم وغضب وصاحت :
- دعيني ، لا تمسّني ، لا اريد ان يمستني احد .
ودفع ماتيو لولا بقوة فتراجعت بضع خطى وهي تزجر . وكان
ينظر الى محفظتها . وتمتت ايفيش بين اسنانها :
- يا للمرأة القدرة !
وكانت تجسّ معصمها باهمها وسابقتها . وقال ماتيو من غير ان
ينزع نظره عن المحفظة :
- لولا ، دعيتها تذهب . ان لدي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولكن
دعيتها اولاً تذهب .
- وهل تقولين لي اين بوريس ؟
قال ماتيو : - لا ، ولكني سأشرح لك حكاية هذه السرقة .
قالت لولا : حسناً . اذهبي اذن . واذا رأيت بوريس قولي له
اني قدمت شكوى .
قال ماتيو : - سوف تُسحب الشكوى .
وظل ينظر الى المحفظة ، واطاف :
- وداعاً يا ايفيش .
فلم تجب ايفيش ، وسمع ماتيو في عزاء وقع قدميها الخفيف . ولم
يرها تذهب ولكن الصوت انطلقاً : فأحس بانقباض في قلبه . وخطت

لولا الى امام وصاحت :

– قولي له إنه اخطأ العنوان . قولي له انه ما يزال أصغر من ان يتغلب عليّ .

والتفتت الى ماتيو : هذه النظرة المزعجة نفسها التي لم يكن يبدو عليها انها ترى . وسألته في قسوة :

– وإذن ، تفضل فاحك قصتك .

قال ماتيو : – اسمعي يا لولا .

ولكن لولا كانت قد عادت الى الضحك ، وقالت :

– انني لم اولد أمس . اوه ! كلا ! لقد قالوا لي كثيراً انني اكاد اكون بعمر أمه .

وتقدم ماتيو منها : – لولا !

– لقد قال لنفسه : « ان العجوز تخبثني في جلدهما ؛ وستكون سعيدة جداً بان تجمع ثروتها من جديد ، وسوف تشكرني على ذلك . »

إنه لا يعرفني ! إنه لا يعرفني !

وامسكها ماتيو من ذراعيها وهزها كأنها شجرة خوخ ، فيما كانت تصيح وهي تضحك :

– إنه لا يعرفني !

وقال مخشونة : – هل تراك ستصمتين ؟

فهدأت لولا ؛ وبدت وكأنها تراه للمرة الاولى :

– تفضل .

قال ماتيو : – أصبح انك رفعت عليه شكوى ؟

– نعم . ما الذي تود ان تقوله لي ؟

قال – انا الذي سرقتك .

وكانت لولا تنظر اليه بلا اكتراث ، فكان عليه ان يردّد :

– انا الذي سرقت الخمسة الآف فرنك .

قالت – آه ! انت ؟

وهزت كتفيها .

– لقد رأته صاحبة الفندق .

– كيف تكون قد رأته ، مادمت اقول لك اني انا الذي سرقت .
قالت لولا منزعة :

– لقد رأته . فقد صعد حوالي الساعة السابعة وهو يتخفى ، وتركته يفعل لأنني كنت قد امرتها بذلك . ولقد انتظرته طوال النهار ، وكان قد انقضى على خروجي عشر دقائق . كان لا بدّ يترصدني عند زاوية الشارع ، فما ان رأني أذهب حتى صعد .

وكانت تتكلم بصوت قاتم سريع كان يبدو انه يعبر عن اعتقاد لا يتزعزع ، وفكر ماتيو بخيبة : « لكأنها بحاجة الى ان تؤمن بذلك . » وقال :

– اسمعي : في اية ساعة عدت الى الفندق ؟

– المرة الاولى ؟ الساعة الثانية .

– حسناً ! كانت الاوراق المالية آنذاك لا تزال في الصندوق .

– اقول لك ان بوريس قد صعد عند الساعة السابعة .

– من الممكن ان يكون قد صعد ، وربما كان آتياً لرؤيتك .
ولكنك لم تنظري في الصندوق ؟

– بلى .

– هل نظرت فيه عند الساعة الثامنة ؟

– نعم .

قال ماتيو : – انك غير صادقة يا لولا . انا واثق من انك لم تنظري فيه . فعند الساعة الثامنة كان المفتاح معي ، وما كان بإمكانك ان تفتحيه . ولئن اكتشفت السرقة عند الساعة الثامنة ، فكيف تريد ان اصدق انك انتظرت منتصف الليل حتى تقصدي منزلي ؟ عند الساعة الثامنة تزيّنت بهدوء ، وارتديت ثوبك الجميل الاسود وذهبت الى « سومطرا » . اليس هذا صحيحاً ؟

فنظرت اليه لولا نظرة مغلقة :

– لقد رأته صاحبة الفندق يصعد .
– نعم ، ولكنك انت لم تنظري في الصندوق . وكان المال ما يزال فيه عند الساعة الثامنة . وقد صعدت عند الساعة العاشرة واخذته . وكان في المكتب عجوز رأني ؛ وبوسغها ان تشهد . اما انت فقد اكتشفت السرقة عند منتصف الليل .

قالت لولا في تعب :

– نعم . عند منتصف الليل . ولكن الامر سواء . لقد اصبت بضيق في « سومطرا » فعدت الى الفندق . وتمددت ثم ادنيت الصندوق مني . كان هناك .. كان هناك رسائل كنت اود ان أعيد قراءتها .

وفكر ماتيو : « صحيح : الرسائل . لماذا تريد ان تخفي أمر سرقتها ؟ » وكان كلاهما صامتاً ؛ وبين الفينة والفينة ، كانت لولا تنوس من الورا الا الامام ، كمن ينام واقفاً . وبدت أخيراً وكأنها تستيقظ :

– أنت ، انت الذي سرقني ؟

– انا .

وضحكت مقتضية ؟

– احتفظ بتدجيلاتك للقضاة اذا كان يروق لك ان تقضي ستة أشهر في السجن بدلاً منه .

– تماماً يا لولا : فما يُجديني أن أعرض نفسي للسجن بدلاً من

بوريس ؟

فلوت فيها :

– هل أدري ما الذي تفعله معه ؟

– إن هذا سخيف ! إسمعي : أقسم لك اني انا الذي سرقت :

كان الصندوق امام النافذة ، تحت حقيبة . وقد أخذت المال وتركت

القفل في المفتاح .

وكانت شفتنا لولا ترتجفان ، وكانت تدعك محفظتها في عصبية :
- أهذا كل ما تريد ان تقوله لي ؟ إذن دعني أذهب .
وارادت ان تمرّ ، فأوقفها ماتيو :
- لولا ، انك لا تريدان ان تدعي نفسك تقتنعين .
فدفعته لولا بضربة من كتفها .

- الا ترى إذن في أية حالة أنا ؟ من تظنني بحكاية صندوقك
هذه ؟ (وازافت وهي تقلد صوت ماتيو) لقد كان الصندوق تحت
حقيبة امام النافذة . لقد جاء بوريس الى هنا ، وانت تحسب اني لا
اعرف ذلك ؟ لقد اتفقتما معاً على ما ينبغي ان يُقال للعجوز .
(وقالت بصوت مربع) دعني إذن أذهب ، دعني أذهب !
واراد ماتيو ان يأخذها من كتفها ، ولكن لولا ارتمت الى خلف
وحاولت ان تفتح محفظتها ، فانتزعها منها ماتيو وألقى بها الى الديوان.
وقالت لولا :

- يا لك من وحش

فقال ماتيو وهو يتبسم :

- أهو كبريتات ام مسدس ؟

فأخذت لولا ترتجف بكل اعضائها . وفكر ماتيو : « هكذا :
انها نوبة الأعصاب » وكان يشعر بأنه يحلم حلماً مشؤوماً غريباً . ولكن
كان ينبغي إقناعها . وكفّت لولا عن الارتجاج . كانت قد انزوت
بالقرب من النافذة وهي ترقبه بعينين تلتصقان بحقد عاجز . وأدار ماتيو
رأسه : إنه لم يكن يخاف حقدها ، ولكن كان على ذلك الوجه قحط*
بائس لا يُحتمل .

وقال بتمهل : - « لقد صعدت الى غرفتك هذا الصباح ،
فأخذت المفتاح من حقيبتك . وحين استيقظت ، كنت على وشك ان

أفتح الصندوق . ولم يتح لي الوقت ان اعيد المفتاح الى مكانه ، وهذا ما جعلني افكر بالعودة الى غرفتك هذا الصباح .
قالت لولا : - عبث ما تقول . فقد رأيتك تدخل هذا الصباح .
وحين حدثتلك لم تكن قد وصلت حتى الى سريري .
- كنت قد دخلت مرة اولى وعدت .
وقهقهت لولا فأضاف على مضض :
- بسبب الرسائل .

فلم يكن يبدو عليها انها تسمع : كان لا فائدة إطلاقاً من ان يحدثها عن الرسائل ، انها لم تكن تفكر الا بالمال ، وكانت بحاجة الى التفكير به لتلهب غضبها ، وهو ملاذها الوحيد . وانتهت الى القول في ضحكة صغيرة جافة .

المصيبة انه طلب مني الخمسة آلاف فرنك مساء أمس ، أتفهم ؟
ومن أجل هذا بالذات تخاصمنا .

فأحس ماتيو بعجزه : كان الأمر بديهاً ، فان المذنب لا يمكن ان يكون الا بوريس . وقال في إرهاق : « كان عليّ ان افكر بهذا . » وقالت لولا في بسمة خبيثة :

- لا تجهد نفسك إذن . سوف أقبض عليه ، واذا نجحت في ان تضلل القاضي ، فأحصل عليه بطريقة اخرى . هذا كل ما في الأمر .

ونظر ماتيو الى المحفظة على الديوان ونظرت اليها لولا كذلك .
وقال :

- لقد طلبت منك المال لأجلي أنا .

- نعم . ومن أجلك ايضاً سرق كتاباً من احدى المكتبات بعد الظهر ؟ لقد افتخر بهذا بينما كان يرقص معي .
وتوقفت فجأة ثم أردفت بهدوء مهدد :

— حسناً ! انت الذي سرقني اذن ؟

— نعم .

— إذن ، أعد لي المال

فظل ماتيو مشدوهاً . وازدافت لولا بلهجة انتصار ساخرة :

— أعدّه لي فوراً فأسحب شكواي .

فلم يجب ماتيو . وقالت لولا :

— كفى . لقد فهمت .

وأخذت محفظتها من جديد من غير ان يحاول منعها عن ذلك .

وقال في مشقة :

— لو كنت املكه في الحقيقة فإذا يثبت هذا ؟ ان بوسع بوريس

ان يستودعي اياه ، في رأيك .

— انا لا اطلب منك هذا . اطلب منك ان تردّه لي .

— ليس المال معي بعد .

— ايّ خلط هذا ! لقد سرقني عند الساعة العاشرة ، ولم يبق

معك شيء عند منتصف الليل ؟ تهاني .

— لقد أعطيت المال :

— لمن ؟

— لن اقول لك ذلك .

وأضاف بحموية :

— لم أعطه لبوريس .

فابتسمت من غير ان تجيب ، وتوجهت الى الباب فلم يوقفها .

وكان يفكر : : « ان دائرة الشرطة التي تتبع لها منطقتها تقع في شارع

مارتير . وسوف أقصدها لأشرح القضية . » ولكنه حين رأى ظهر

هذا الشبح الاسود الذي كان يسير في صلابه كارثة عمياء ، خاف

وفكر في المحفظة ، وبذل جهداً أخيراً :

– استطيع في آخر المطاف ان اخبرك لمن اعطيت المال : اعطيته للآنسة دوفيه ، وهي صديقة لي .

وفتحت لولا الباب وخرجت . وسمعتها تصرخ في الغرفة الخارجية فوثب قلبه . وبرزت لولا مرة اخرى ، وكانت تبدو عليها هيئة المجانين ، وقالت :

– هناك شخص .

وفكر ماتيو : « انه بوريس . »

وكان دانيال . ودخل في شموخ وانحنى امام لولا . وقال وهو يمد مغلفاً :

– هذه يا سيدتي هي الخمسة آلاف فرنك . تفضلي وتحققي من نها مالك .

وفكر ماتيو في وقت واحد « ان مارسيل هي التي تُرسله » و « لقد اصغى من وراء الباب » وكان دانيال يصغي من وراء الابواب ليتدبّر أمر دخوله . وسأله ماتيو :

– أتراها قد

فطمأنه دانيال بحركة وقال :

– كل شيء على ما يرام .

وكانت لولا تنظر الى المغلف نظرة حذرة تشبه نظرة الفلاحين . وسألت :

– فيه خمسة آلاف فرنك ؟

– نعم .

– ما الذي يثبت لي انها اوراقى المالية ؟

فسألها دانيال : – ألم تسجلي أرقامها ؟

– اتظن ذلك ؟

قال دانيال في لهجة عتاب :

– آه ، ينبغي يا سيدتي ان تسجلي الارقام دائماً :
وجاء ماتييو وحي مفاجيء : لقد تذكر رائحة عطر (قبرص)
الكثيفة التي انبعثت من الصندوق فقال :
– شمتيها .

فترددت لولا لحظة ، ثم خطفت المغلف ومزقتها وأدنت الاوراق
المالية من أنفها . وخشي ماتييو ان ينفجر دانيال ضاحكاً ؛ ولكن
دانيال كان رصيناً كأنه بابا ، كان ينظر الى لولا بعين متفهمة ؛
وسألت :

– اذن ؟ لقد أجبرت بوريس على إعادتها ؟
قال دانيال : – لا اعرف احداً يدعى بوريس . انها صديقة لماتييو
اعطتني إياها لأردّها له . وقد اتيت ركضاً وسمعت نهاية حديثكما .
واعتذر من ذلك يا سيدتي .

وظلت لولا جامدة : وذراعاها متدلّيتان على جنبها ، تشد محفظتها
بيدها اليسرى ، بينما كانت اليمنى متشنجة على الاوراق المالية ؛ وكانت
هيئتها قلقة مشدوهة . وسألت فجأة :

– ولكن لماذا فعلت ذلك انت ؟ ما هي خمسة آلاف فرنك ، بالنسبة

اليك ؟

فابتسم ماتييو بلا مرح :

– يبدو انها شيء كثير .

ثم اضاف على مهل :

– يجب ان تفكري بسحب شكواك يا لولا . او اذا شئت قدمي

شكواك ضدّي أنا .

فأدارت لولا رأسها وقالت بسرعة :

– لم اقدم شكوى بعد .

وظلت مزروعة وسط القاعة ، تائهة . وقالت :

- كانت هناك أيضاً رسائل .
- ليست هي معي بعد . لقد أخذتها هذا الصباح له . اذ كنتنا
نظنّك مينة . وهذا ما اوحى لي بان اعود لآخذ المال .
فنظرت لولا الى ماتيو من غير حقد ، وبقدر كبير من الدهشة
ونوعٍ من الاهتمام ، وقالت :
- لقد سرقت مني خمسة آلاف فرنك ! ان هذا ... هذا طريف !
ولكن سرعان ما انطفأت عيناها وقست ملامح وجهها ، وكان يبدو
عليها انها تتألم . وقالت :
- انني ذاهبة .
فتركاها تخرج في سكون . التفتت عند عتبة الباب :
- اذا لم يفعل شيئاً ، فلماذا لا يعود ؟
— لا ادري .
- فندت عن لولا شهقة قصيرة واعتمدت عارضة الباب . وخطا
ماتيو خطوة نحوها ، ولكنها تمسكت :
- اعتقد انه سيعود ؟
— أظنّ : انها غير قادرين على ان يُسعدا الناس ، ولكنها مع
ذلك لا يستطيعان ان يتخليا عنهم ، فان ذلك أشقّ من ان يحمله :
- قالت لولا : — نعم . نعم . هياً . وداعاً .
— وداعاً يا لولا . انك ... لا تحتاجين شيئاً ؟
— كلا .
- وخرجت وسمعا الباب ينغلق . وسأل دانيال :
- من هي هذه السيدة العجوز ؟
— لولا ، صديقة بورييس سرغين . انها « مخلوعة » .
فقال دانيال : — يبدو عليها ذلك .
واحسّ ماتيو بانزعاج ان يبقى معه وحيداً ؛ فقد كان يخيّل اليه

انه قد وضع فجأة في حضور خطيبته . كانت هناك ، تجاهه ، حية ، كانت تعيش في اعماق عيني دانيال ، والله يعلم اي شكل اتخذته في هذا الوجدان المدلل المزور . وكان يبدو على دانيال انه مستعد لاستغلال الموقف . فقد كان حفيماً وقحاً سيء النفس كما كان يبدو في ابدأ ايامه . وقسا ماتيو ورفع رأسه ؛ وكان دانيال بشعاً وقال دانيال في ابتسامة رديئة :

– انك تبدو كريهاً .

فقال ماتيو : – كنت أهمّ بان اقول لك مثل ذلك . اننا نضمران !

فهزّ دانيال كتفيه . وسأله ماتيو :

– هل انت قادم من لندن مارسيل ؟

– نعم .

وهي التي أعادت لك المال ؟

فقال دانيال متهرباً : – انها لم تكن بحاجة اليه .

– لم تكن بحاجة اليه ؟

– كلا .

– قل لي على الاقل ان كانت لديها الوسطة ...

قال دانيال : – ليست القضية هكذا بعد يا عزيزي . ان هذه قصة

قديمة :

وكان قد رفع حاجبه الأيسر وهو يتأمل ماتيو في سخرية ، كما لو

كان ذلك عبر نظارة خيالية . وفكر ماتيو : « اذا كان قصده ان

يدهشني ، فهو يُحسِنُ صنعاً كذلك اذا منع يديه من الارتجاف . »

وقال دانيال بلا اكتراث :

– انني اتزوجها . وسنحتفظ بالولد .

واخذ ماتيو سيكارة فأشعلها . وكان محته يهتز كالجرس . وقال

في هدوء :

- لقد كنت تحبها إذن !
- ولمَ لا ؟
- وفكر ماتيو : « ان المقصودة هي مارسيل » مارسيل ! ولم يكن
ينجح في ان يُقنع نفسه بذلك كل الاقتناع . وقال :
- اسمع يا دانيال : اني لا اصدقك .
- انتظر قليلاً ، وسترى جيداً .
- كلا ، اقصد انك لن تجعلني اصدق انك تحبها ، وانا اتساءل
عماً وراء هذا كله .
- وكان التعب يبدو على دانيال ، وكان قد جلس على حافة المكتب ،
واضعاً قدماً على الارض ، مؤرجحاً الاخرى غير في اكثرث . وفكر
ماتيو في غضب : « انه يتسلى »
- وقال دانيال : – ستكون مندهشاً جداً اذا عرفت ماذا هناك .
- وفكر ماتيو : « تفه ! لقد كانت خليته ! » وقال في جفاء :
- اذا لم يكن عليك ان تقول لي ذلك ، فاسكت .
- فنظر اليه دانيال لحظة كما لو كان يتسلى بأن يثير فضوله ، ثم نهض
دفعه واحدة وأمرّ يده على جبينه وقال :
- ان الأمر يسوء .
- وكان يتأمل ماتيو في اندهاش :
- لم أجيء لأحدثك في هذا . اسمع يا ماتيو ، اني ...
- واغتنصب ضحكة :
- ستعتبر نفسك رجلاً ذا أهمية إن قلت لك ذلك .
- قال ماتيو : – حسناً . تكلم او لا تتكلم .
- إذن ، اني :
- وتوقف ايضاً ، فأتمّ عنه ماتيو العبارة ، وقد نفذ صبره :
- انك عشيق مارسيل ، هذا ما كنت تود ان تقوله .

فبعد ماتيو ما بين عينيه وارسل صفرةً خفيفة . واحسّ ماتيو ان وجهه يحمرّ . وقال دانيال بلهجة اعجاب :
- لقد وجدتها ببراعة ! انك لا تطلب الا هذا ، اليس كذلك ؟
كلا يا عزيزي . إنك لا تملك حتى هذا العذر .
فقال ماتيو ذليلاً : - وانت ايضاً ليس لك الا ان تتكلم .
قال دانيال : - انتظر . اليس لديك ما يُشرب ؟ ويسكي ؟
فقال ماتيو : - كلا . ولكن عندي « روم » ابيض .
(وأضاف) انها فكرة عظيمة : سوف نشرب قدهاً .
ومضى الى المطبخ ففتح الخزانة وفكر : « لقد كنت دنيئاً وعاذ
بقديحين وزجاجة « روم » . فأخذ دانيال الزجاجاة وملاً القديحين حتى
أترعها . وقال :

- انه من مصنع « الروم » المارينيكي ؟

- نعم .

- الا تزال تقصده أحياناً ؟

قال ماتيو : - احياناً . نخبك !

فنظر اليه دانيال نظرة استقصاء ، كما لو ان ماتيو كان يخفي عنه شيئاً ما وقال وهو يرفع قدهه :

- نخب غرامياتي :

قال ماتيو مغتاضاً : - انك سكران .

فقال دانيال : - صحيح اني شربت قليلاً . ولكن اطمئن . كنت

صامتاً حين صعدت الى بيت مارسيل . وبعد ذلك ...

- وهل انت قادم من عندها ؟

- نعم . وقد توقفت قليلاً في « الفلاستاف »

- لا بدّ انك وجدتها ... فور ذهابي ؟

فقال دانيال مبسماً : - كنت انتظر ان تخرج . وحين رأيتك

تنفتل في منعطف شارع صعدت .
فلم يتالك ماتيو حركة انزعاج وقال :
- أكنت ترصدني ؟ اوه .. فليكن . وهكذا لم تبق مارسيل
وحدها . حسناً ! ما الذي كنت تودّ ان تقوله لي ؟
قال دانيال في ودّ مفاجيء : - لا شيء على الاطلاق يا عزيزي .
كنت اودّ ببساطة ان اعلن لك زواجي .
- أهذا كل شيء ؟
- هذا كل شيء ؛ نعم .. هذا كل شيء .
فقال ماتيو في برودة : - كما تشاء .
وصمتا لحظة ، ثم سأله ماتيو :
- كيف ... كيف حالها ؟
فسأله دانيال بسخرية : - اتريد ان اقول لك انها سعيدة وفرحة ؟
وفرّ عليّ تواضعي .
فقال ماتيو بجفاء : - ارجوك . صحيح . ليس لي اي حقّ في
سؤالك .. ولكنك في الحقيقة قد جئت الى هنا ..
قال دانيال : - أجل ، كنت أظنّ أنّي سأجد مشقة اكبر لإقناعها :
ولكنها ارتمت على اقتراحي كما يرتمي الفقر على العالم .
ورأى ماتيو مايشبه الحقد يلتمع في عينيه ، فسارع يقول لكسي
يعذر مارسيل :
- لقد كانت ضائعة ...
فهز دانيال كتفيه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . ولم يكن ماتيو
يجرؤ على النظر اليه : كان دانيال يتلذذ بنفسه ، ويتكلم بعذوبة ،
ولكنه كان يبدو وكأنه مأخوذ . وشبك ماتيو يديه وحدّد نظره في
حدثائه . وأضاف على مشقة ، كأنما يحدث نفسه :
- لقد كانت تريد الطفل إذن ؟ اني لم افهم هذا . ولو

قالته لي ...

وكان دانيال صامتاً ، فاستطرد ماتيو في جهده :
- كان الطفل . . . سيولد . اني انا .. كنت اريد حذفه
وأفرض انه من الأفضل ان يولد .
فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :
- اني لن أراه أبداً ، وبالطبع ؟
ولم يكن يبدو على عبارته انها استفهام . فأضاف من غير ان ينتظر
الجواب

- واخيراً ، هذا هو الوضع . اعتقد ان بوسعي ان اكون مسروراً .
فانت تنقذها على نحو ما ... ولكني لا أفهم شيئاً في الأمر . لماذا
فعلت ذلك ؟

فقال دانيال بجفاء : - طبعاً ليس ذلك بداعي محبة البشر ، ان
كنت ترمي الى هذا . (واطاف) ان شرابك كرهه .. ومع ذلك ،
فأعطني قدحاً آخر .

فلأ ماتيو القدحين وشربا . وقال دانيال :

- وإذن ، ما الذي ستفعله الآن ؟

- لا شيء . لا شيء بعد .

- وتلك الصغيرة سرغين ؟

- كلا .

- بالرغم من انك تحررت الآن ؟

- الأمر لدي سواء !

- قال دانيال وهو ينهض :

- مساء الخير . لقد جئت اريد لك المال واطمئنك قليلاً : ان مارسيل

لن تخشى شيئاً ، فهي تثق بي . لقد هزتها هذه القصة كلها هزاً
عنيفاً ولكنها ليست شقية على كل حال .

فردّد ماتيو : - سوف تتزوجها ! (واضاف بصوت منخفض)
انها تكرهني .

فقال دانيال بقسوة : - ضع نفسك موضعها !

- اعرف ذلك . لقد وضعت نفسي موضعها . هل حدثتكَ عني ؟
- قليلاً جداً .

قال ماتيو : - اتدري . ان لي رأياً في زواجكما .

- هل انت نادم ؟

- كلا . بل أجد ذلك مشؤوماً .

- شكراً .

- اوه ! بالنسبة لكل منكما . لا ادري لماذا !

- لا تقلق . سيسير كل شيء على ما يرام . فاذا رزقنا ذكراً

أسميناها ماتيو .

فنهض ماتيو وهو يشدّ قبضته وقال :

- إخرس !

قال دانيال : - هيتاً ، لا تغضب !

وردّد بلهجة شاردة : - لا تغضب ، لا تغضب .

ولم يعزم على الذهاب . فقال له ماتيو :

- بالاجمال ، لقد جئت ترى هيتي بعد هذه القصة ؟

قال دانيال : - لا يخلو الأمر من هذا . بكل صراحة . لا يخلو

الأمر من هذا .. إنك تبدو دائماً ... شديد الصلابة : وكنت تضايقتني

بذلك .

قال ماتيو : حسناً ، وقد رأيتَ اني لست صليلاً الى هذا الحد :

- نعم .

وخطا دانيال بضع خطوات الى الباب ، ثم عاد فجأة الى ماتيو :

وكان قد فقد هيئته الساخرة ، ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من الوضع ،

وقال :

— انني يا ماتيو لوطي .

فقال ماتيو : — ماذا تقول ؟

وكان دانيال قد ارتدّ الى خلف وهو ينظر اليه بعينين مدهوشتين
يتبعث منهما شرر الغضب .

— ان هذا يثير اشمزازك ، اليس كذلك .

فردّ ماتيو بهدوء ؛ — انت لوطي ؟ كلا ، ان هذا لا يثير
اشمزازي ، ولماذا تراه يثير اشمزازي ؟

قال دانيال : — ارجوك ، لا تظنّ انك مجبر على ان تظهر بمظهر
المتحررين الواسعي التفكير ...

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى دانيال ويفكر : « انه لوطي »
ولم يكن شديد الدهشة .

وتابع دانيال بصوت مصفّر :

— اراك لا تقول شيئاً . انك على حق . ان ردّ فعلك مناسب
تماماً ، وهو الذي يميّز به كل رجل سليم ، ولكنك تحسن صنعاً ،
كذلك بان تحتفظ به لنفسك .

وكان دانيال جامداً ، وذراعااه ملتصقتان بجسمه ، وكان يبدو عليه
اله في ضيق . وتساءل ماتيو في قسوة : « ما الذي دهاه لكي يأتي
فيعذب نفسه عندي ؟ » وكان يفكر بانه لا بد قد وجد شيئاً يقوله ،
ولكنه كان غارقاً في لامبالاة عميقة شالّة . ثم ان ذلك كان يبدو له
طبيعياً جداً وعادياً جداً : لقد كان دنيئاً ، وكان دانيال لوطياً ،
وكان هذا في طبيعة الاشياء . وقال اخيراً :

— بوسعك ان تكون ما تريد . ان هذا لا يعنيني .

فقال دانيال وهو يبتسم في رفعة : — أتصور في الحقيقة ان هذا
لا يعنيك . فحسبك ما تعانیه مع ضميرك بالذات .

— اذن لماذا تأتي فتروي لي هذا ؟
فقال دانيال وهو يتنحرج : — لقد اردت ان اعرف الاثر الذي
يُخلفه ذلك على شخص مثلك ... ثم اني — الآن وهناك من يعرف —
ربما توصلت الى تصديق ذلك ...
وكان اخضر اللون وهو يتكلم في صعوبة ، ولكنه كان مستمراً في
الابتسام . ولم يستطع ماتيو ان يتحمل هذه البسمة فأدار رأسه . وقهقهه
دانيال .

— أيد هشك هذا ؟ ويُزعج افكارك عن اللوطيين ؟

فرجع ماتيو رأسه بحوية وقال :

— لا تتحدلق . انك متعب . ولست بحاجة لأن تتحدلق معي . ربما
كنت تنفر من نفسك ، ولكن ليس اكثر مما انفر من نفسي ، فنحن
متساويان . (وفكر قليلاً واطاف) والواقع انك من أجل هذا تروي
لي حكاياتك . لا بد ان الاعتراف امام انسان ضعيف اقل مشقة ،
والمرء مع ذلك يملك ميزة الاعتراف .

فقال دانيال بصوت مبتذل لم يكن ماتيو يعهده فيه :

— انك خبيث صغير .

وصمنا . وكان دانيال ينظر امامه باستقامة وفي نظر محدد ، على
طريقة العجّز . واخترق ماتيو ندماً حاداً :

— اذا كان الامر كذلك ، فلماذا تتزوج مارسيل ؟

— ليس لهذا اية علاقة .

قال ماتيو : — اني ... اني لا استطيع ان ادعك تتزوجها .

فانتصب دانيال وانطبعت على وجهه ، وجه الغريقت ؛ لطخات
حمراء داكنة ، وسأل في عبوس :

— صحيح ، ألا تستطيع ؟ وكيف تفعل لتمنعي من ذلك ؟
فنهض ماتيو من غير ان يجيب . وكان التلفون على مكتبه ، فتناول

الساعة وركب رقم مارسيل . فنظر اليه دانيال في سخرية . وساد صمت طويل . وقال صوت مارسيل :

— آلو ؟

فانتفض ماتيو وقال :

— الو ، انا ماتيو .. اسمعي .. لقد كنت ، لقد كنا أبلهين منذ ساعة . اودّ .. الو ! مارسيل ؟ هل تسمعي ؟ (وقال غاضباً)
مارسيل ؟ آلو !

ولم تكن تجيب ، ففقد صوابه وصاح في الجهاز :

— مارسيل ، اريد ان اتزوجك !

وبعد صمت قصير ، حدثت خربشة في آخر الخط ، ثم أغلق التليفون . واحتفظ ماتيو لحظة بالساعة في يده ، ثم وضعها بهدوء على الطاولة . وكان دانيال ينظر اليه من غير ان يقول كلمة ، ولم يكن يبدو عليه مظهر المنتصر . وشرب ماتيو جرعة « روم » وعاد يجلس في الاربكة وقال :

— حسناً !

فابتسم دانيال ، وقال على سبيل التعزية :

— ليطمئن بالك : فان اللوطيين هم دائماً ازواج ممتازون ، وهذا

معهود .

— دانيال ! ان كنت تنزوجها لتقوم ببادرة طيبة ، فانك ستفسد

حياتها .

قال دانيال : — انت آخر من ينبغي ان يقول لي ذلك . ثم اني

لا اتزوجها لأقوم ببادرة طيبة . ثم ان ما تريده قبل كل شيء انما هو

الطفل .

— وهل ... هل تعرف ؟

— كلا !

- لماذا تتزوجها ؟
- بدافع صداقتي لها .
- ولم تكن اللهجة مقنعة . وصبّ أحدهما للآخر فشربا ، وقال ماتيو في عناد :
- انني لا اريد ان تكون شقية .
- أقسم لك انها لن تكون شقية .
- وهل تؤمن بأنك تحبها ؟
- لا اعتقد . لقد عرضت عليّ ان أعيش بجانبها ؛ ولكن ذلك لا يناسبني . انني سأدعوها للإقامة معي . وقد تفاهنا على ان نترك العاطفة تأتي رويداً رويداً .
- واضاف في سخرية شاقة :
- انني مصمم على ان اقوم بواجباتي كزوج حتى النهاية .
- ولكن هل ...
- واحمرّ وجه ماتيو بعنف :
- هل تحب النساء ايضاً ؟
- فنخر دانيال نخرة غريبة وقال :
- ليس كثيراً .
- فهمت .
- وتخفّض ماتيو رأسه وامتلات عيناه بدموع الخجل ، وقال :
- انني ازداد نفوراً من نفسي منذ عرفت انك ستتزوجها .
- وشرب دانيال وقال بلهجة شاردة محايدة :
- نعم ، اعتقد انك تحسّ بأنك قدر بما فيه الكفاية .
- فلم يحب ماتيو . وكان ينظر الى الارض بين قدميه : « انه لوطني »
- وسوف تتزوجه . « وفتح يديه وصفق عقبه بالارض : كان يُحسّ .
- انه مطارد . وثقل الصمت عليه فجأة فقال لنفسه : « ان دانيال ينظر

الي ، وسارع يرفع رأسه . وكان دانيال ينظر إليه حقاً ، وبهيئة
حقد انقبض لها قلب ماتيو ، فسأله :

— لماذا تنظر إلي هكذا ؟

قال دانيال : — انت تعلم ! هناك من يعلم !

— انك لن تحترق ان تطلق النار علي ؟

فلم يجب دانيال . واحترق ماتيو فجأة بفكرة لا يُتختمل فقال :

— دانيال : انك تنزوتجها لتعذب نفسك .

فقال دانيال بصوت ابيض :

— وبعد ؟ ان هذا لا يعني احداً سواي .

فوضع ماتيو رأسه بين يديه وقال : « يا إلهي ! »

واضاف دانيال بحموية : — ان هذا لا اهمية له على الاطلاق بالنسبة

اليها . لا اهمية له .

— هل تكرهها ؟

— كلا .

وفكر ماتيو في حزن : « كلا . انما يكرهني انا » .

واستعاد دانيال بسمته وسأله :

هل تفرغ الزجاجه ؟

فقال ماتيو : — لنفرغها .

وشربا ، ولاحظ ماتيو انه راغب في التدخين ، فتناول سيجارة من

جيبه واشعلها . وقال :

— لا يعنيني ما تكونه . حتى وبعد ان اخبرني ذلك . ومع هذا ،

يبقى شيء اريد ان اسألك عنه : لماذا تشعر بالخجل ؟

فضحك دانيال ضحكة جافة :

— كنت انتظرك هنا يا عزيزي . اني خجل من كوني لوطياً لأنني

لوطي . انا اعرف ما سوف تقوله لي : « لو كنت مكانك ، لما

استسلمت لهذا ، بل طالبت بمكاني تحت الشمس ، ان هذا ذوق
كالاذواق الاخرى السخ ، الخ ... » ولكن ذلك لا يؤثّر عليّ . انا
اعرف انك ستقول لي هذا كله ، وذلك لأنك لست لوطياً . ان جميع
اللوطيين يشعرون بالحجل ، وهذا في طبيعهم .

فسأله ماتيو في حياء : - ولكن أليس الافضل ان يقبل المرء نفسه؟
فبدا على دانيال الانزعاج وأجاب في قسوة :

- ستحدثني عن ذلك مرة اخرى ، يوم تقبل ان تكون ذنباً .
كلا . ان اللوطيين الذين يتباهون او يتظاهرون او حتى يقبلون بكل
بساطة ... انهم اموات . لقد قتلوا انفسهم لفرط ما شعروا بالحجل .
وانا لا اريد هذا الموت .

ولكن كان يبدو وكأنه قد انفرج ، وكان ينظر الى ماتيو بلا حقد
وأضاف في عدوية :

- لقد قبلت نفسي اكثر مما ينبغي . اني اعرف نفسي في الزوايا .
ولم يكن ثمة ما يقال . واشعل ماتيو سيجارة اخرى . ثم انه كان
باقياً بعض « الروم » في قعر قدحه فشربه . وكان دانيال يثير
اشمئزازه . وفكر : « بعد عامين ، بعد اربعة . . . أتراني سأصبح
هكذا ؟ » وأخذته الرغبة فجأة بأن يحدث مارسيل في هذا : فانما
كان يستطيع ان يحدثها وحدها عن حياته ، عن مخاوفه ، عن آماله .
ولكنه تذكر انه لن يراها بعد ابداً ، فتحوّلت رغبته المعلقة التي لم
يكن لها من اسم الى ضرب من الضيق . كان وحيداً .

وكان يبدو على دانيال انه يفكر : كان نظره ثابتاً وكانت شفثاه
بين الفينة والفينة تفرّان . واطلق تنهّدة صغيرة ، وبدأ شيء ما
يتطامن في وجهه . وأمرّ يده على جبينه : كان يبدو عليه الدهشة .
وقال في صوت منخفض :

- ومع ذلك ، لقد فاجأت نفسي اليوم .

وابتسم بسمة غريبة ، تكاد تكون طفولية ، بسمة بدت في غير محلها على وجهه الزيتوني حيث كانت لحيته التي لم تخلق جيداً تخلف لطخات زرقاء . وفكر ماتيو : « صحيح ، لقد مضى الى النهاية ، هذه المرة . » وأنته فجأة فكرة انقبض لها قلبه : « انه حر » واختلط النفور الذي كان دانيال يوحيه له ، اختلط بالحسد وقال :

— لا بد انك في حالة نفسية غريبة .

قال دانيال : — نعم ، في حالة غريبة .

وكان ما يزال يبتسم باخلاص . وقال :

— اعطني سيجارة .

فسأله ماتيو : — انك تدخن ، الآن ؟

— واحدة . هذا المساء .

وقال ماتيو فجأة :

— اود لو اكون في وضعك .

فردد دانيال في غير اندهاش كثير : — في وضعي ؟

— نعم .

فرفع دانيال كتفيه وقال :

— انك في هذه القصة رابع في جميع الميادين .

فضحك ماتيو ضحكة جافة . واوضح دانيال :

— انت حر .

قال ماتيو وهو يهز رأسه :

— كلا ، ليس المرء حرّاً لمجرد ان يترك امرأة .

فنظر دانيال الى ما ماتيو في فضول :

— ومع ذلك فقد كان يبدو عليك هذا الصباح انك مؤمن بهذا .

— لا ادري . لم يكن ذلك واضحاً . ليس ثمة ما هو واضح .

الحقيقة اني تركت مارسيل من اجل لا شيء .

وكان يحدد نظره في ستائر الناقله التي كانت تحركها زيتج ليلية
خفيفة . وكان متعباً . واضاف :

— من اجل لا شيء . في هذه الحكاية كلها لم اكن الا رقصاً
ونقياً : صحيح ان مارسييل ليست بعد في حياتي ، ولكن هناك كل
الباقي .

— اذا ؟

فأشار ماتيو الى مكتبه بحركة عريضة غامضة :

— كل هذا ، كل الباقي .

وكان مسحوراً بدانيال . كان يفكر : « أهذه هي الحرية ؟ لقد
عمل ، وهو الآن لا يستطيع ان يتراجع الى خلف : ولا بد ان يبدو
له غريباً ان يحس خلفه عملاً مجهولاً لم يعد يفهمه تقريباً وسيقلب
حياته . اما انا ، فان كل ما فعله ، افعله من اجل لا شيء ، فكأن
الناس يسرقون لي نتائج اعمالي ؛ وكل شيء يحدث كما لو اني كنت
أستطيع دائماً ان استعيد ضرباتي . اني لا ادري ما بوسعي ان ابذل
لكي اقوم بعمل لا يمكن اصلاحه » :

وقال بصوت مرتفع :

— مساء أمس الاول ، رأيت شخصاً كان يريد ان ينضوي في
حركة الميليشيا الاسبانية .

— وبعد ذلك ؟

— ولكن اخذه الخوف : فهو الآن هناك .

— ولماذا تقول لي ذلك ؟

— لا ادري . هكذا .

— وهل رغبت يوماً في الذهاب الى اسبانيا ؟

— نعم . ولكنها لم تكن رغبة ملحة بما فيه الكفاية .

وصمتا . وبعد برهة ، رمى دانيال سيجارته وقال :

— اودّ لو اكون أسنّ بما انا بستة أشهر .
قال ماتيو : — اما انا فلا . فيعيد ستة اشهر سأكون مشابهاً لما انا الآن .
قال دانيال : — وسيكون قد زال ندمك .

ونفض :

— انني ادعوك الى قدح في مقهى كلاريس .
قال ماتيو : — كلا ، فليست بي رغبة لأن أعمل هذا المساء .
فأنا لا ادري ما الذي قد افعله اذا ثملت .
قال دانيال : — لن تفعل شيئاً هاماً . الا تأتي معي اذن ؟
— كلا . وانت ، الا تريد ان تبقى لحظة اخرى ؟
قال دانيال : — يجب ان أشرب . وداعاً .
— مع السلامة .. هل .. هل اراك قريباً ؟
فيدا دانيال مرتبكاً :

— اعتقد ان ذلك سيكون صعباً . لقد قالت لي مارسيل انها لا
تريد ان تتغير شيئاً في حياتي ، ولكني أظنّ انه سيشتقّ عليها ان اراك
ثانية .

فقال ماتيو بخفاف : — آه ؟ حسناً . في هذه الحالة ادعو لك
بالحظ الطيب .

فابتسم دانيال من غير ان يجيب ، واضاف ماتيو فجأة :
— انك حاقدٌ عليّ .
فاقترب منه دانيال وأمرّ يده على كتفه بحركة صغيرة مرتبكة حيية :
— كلا . ليس في هذه اللحظة .

— اما غداً ...

فحنى دانيال رأسه من غير ان يجيب وقال ماتيو :

- مع السلامة :

وخرج دانيال ، فاقرب ماتيو من النافذة ورفع الستائر .
وكان ليلاً رائقاً ، رائقاً وأزرق ؛ وكانت الريح قد كُنست الغيوم ،
وكانت النجوم تُرى فوق السطوح . وارتفق الشرفة وتشاءب طويلاً .
وفي الشارع ، تحته ، كان رجلٌ يسير بخطوة هادئة ؛ وتوقف عند
زاوية شارع هويغنز وشارع فراودفو ، فرفع رأسه ونظر الى السماء .
وكان هو دانيال . وكان نغمٌ موسيقي يأتي دفعات من جادة «مين» ،
وتسرب الى السماء ضوء منارة ابيض ، فتوقف فوق مدخنة ثم تدحرج
خلف السطوح . وكانت سماء حفلة قروية ، متقطعة بالشرائط ، تذكر
بالعُطل وبحفلات الرقص الحقلية . ورأى ماتيو دانيال يخنفي ، وفكر :
« اني ابقى وحيداً . » وحيد ، ولكن ليس اكثر حرية من السابق .
وكان قد قال لنفسه عشية الامس : « ليت ان مارسيل غير موجودة »
ولكن هذه كانت اكدوية . « لم يعترض احد طريق حريتي ، وانما
حياتي هي التي شربتها . » وعاد يغلق النافذة ويدخل الى الغرفة .
وكانت رائحة ايفيش ما تزال تخفق فيها . وتنشق الرائحة واستعاد هذا
اليوم الصاخب . وفكر : « ضجة كثيرة من اجل لا شيء . » من اجل
لا شيء : لقد أُعطي هذه الحياة من اجل لا شيء ، ولم يكن شيئاً ،
ومع ذلك فهو لن يتغير أبداً : لقد كان مصنوعاً . ونزع نعليه وظلّ
جامداً ، وهو جالس على ذراع الاريكة ، ونعلٌ في يده ؛ وكان ما
يزال في جوف حلقه حرارة « الروم » المسكرة . وتشاءب : لقد
انهى يومه ، وقد انتهى من شبابه . وكان ثمة اخلاقيات معاناة
تعرض عليه خدماتها عرضاً خفياً : كان ثمة الابيقورية المتبصرة ،
والرحمة الباسمة ، والاستسلام ؛ وروح الرصانة ، والعزيمة الزينونية ،

وكل ما كان يتبع للمرء ان يتذوق تذوق العارف ، دقيقة فديقة ،
حياة نحابة . ونزع سترته ، واخذ بحل عقدة عنقه . وكان يردد
وهو يتأهب : « هذا صحيح ، هذا صحيح بالرغم من كل شيء :
انني في سن الرشد . »

انتهى الجزء الاول : سن الرشد
ويليه الجزء الثاني : وقف التنفيذ

جَانِ بُؤَلِ تَارِتْر

دُرُوبِ الْبَحْرِيَّةِ - ٢

وقف التنفيذ

نقدًا عن الفنون

الدكتور سيميل دريس

مكتبات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦١

الجمعة ٢٣ ايلول

الساعة السادسة عشرة والنصف في براين ، الخامسة عشرة والنصف ،
في لندن . كان الفندق يشعر بالضجر فوق رابية ، وكان خالياً مزهواً
وفي داخله شيخ . وكانوا يفكرون في انغوليم ، وفي مارسيليا ، وفي
غاند، وفي دوفر: « ماذا تُراه يفعل ؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة ، فلماذا
لا يهبط ؟ » وكان جالساً في الصلاة ذات الشبايك نصف المغاظة ،
وعيناه ثابتتان تحت حاجبيه الكثيفين ، وفمه مفتوحاً بعض الانترار ، كلما
لو انه كان يبتعث ذكرى قديمة جداً . وكان قد كفّ عن القراءة ،
وكانت يده الهزلة المبقعة التي ما تزال تمسك بالاوراق ، تتدلى على
ركبتيه . والتفت نحو هوراس ويلسون وسأل « كم هي الساعة ؟ » فنقل
هوراس ويلسون : « الرابعة والنصف تقريباً . » ورفع الشيخ عينيه
الكبيرتين ، وضحك ضحكة صغيرة محببة وقال : « ان الطقس حار » .
وكان حراً أحمر زافر مليء بنثار مذهّب قد سقط على اوروبا ، فكان
الناس يشعرون به على ايديهم ، وفي اعماق عيونهم ، وفي شعابهم ،
وكانوا ينتظرون مسمثرين من الحرّ والغبار والقلق . وفي باحة الفندق ،
كان الصحفيون ينتظرون ، وفي الساحة الخارجية ، كان ثلاثة سائقين

ينتظرون / جامدين ازاء مقاود مياراتهم ، وعلى الجانب الآخر من
الرين ، كان بروسيون فارعو القامة مرتدون الثياب السود ينتظرون
جامدين في باحة فندق دريسن ، ولم يكن ميلان هلينكا ينتظر بعد .
انه لم يكن ينتظر بعد منذ امس الاول . فقد حل ذلك النهار الطويل
الاسود الذي تحلله يقين ساطع : « لقد تخلوا عنا ! » ثم عاد الزمن
يجري ، لحسن الحظ ، ولم تكن الايام تعيش نفسها لنفسها بعد ، فهي
ليست بعد الا اغداء ، ولن يكون ثمة بعد ابدأ الا اغداء .

وفي الساعة الخامسة عشرة والنصف ، كان ماتيو ما يزال ينتظر ،
على حافة مستقبل مريع ؛ وفي اللحظة نفسها ، الساعة السادسة عشرة
والنصف ، لم يكن لميلان بعد من مستقبل . ونهض الشيخ ، فاجتاز
القاعة متصلب الركبتين ، بخطوة مزهوة واثبة ، وقال « ايها السادة ! »
وابتسم بحفاوة ؛ ووضع الوثيقة على الطاولة وملس أوراقها بقبضته
المضمومة ؛ وكان ميلان قد انزوع امام الطاولة ؛ وكانت الجريدة
المنشورة تغطي مساحة القماش المشتمة كلها . وقرأ ميلان للمرة السابعة :
« لم يستطع رئيس الجمهورية ، ومع الحكومة ، ان يفعل شيئاً غير
ان يقبل عروض الدولتين الكبيرتين ، حول أساس موقف يُتخذ
في المستقبل . ولم يكن باقياً علينا ان نفعل شيئاً آخر ما دمنا قد بقينا
وحدنا . » وكان نفيل هندرسون وهوراس ويلسون قد اقتريا من
الطاولة ، فالتفت الشيخ نحوهما ، وكان يبلو انه وديع مستسلم فقال :
« ايها السادة ، هذا ما بقي علينا ان نفعله . » وكان ميلان يفكر :
« لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل . » وكانت تدخل من النافذة ضئجة
مخططة ، فكان ميلان يفكر : « لقد بقينا وحدنا . »

وارتفع من الشارع صوت "فأري" : « ليعش هتلر ! »

فعاد ميلان الى النافذة وصاح :

« انتظر قليلاً ، ريثما أهبط . »

وحدث فرار مجنون واصطفاق نعال ؛ وفي نهاية الشارع التفت الشقي
وفتس في وزرته ثم أخذ يدبر ذراعه حول رأسه . وانبعث صوت
فقرتين جافتين على الجدار ؛ فقال ميلان :
- انه ليكنشت الصغير يقوم بدورته .

وانحى : كان الشارع خالياً ، كأيام الأحد . وكانت اسرة شونوف
قد طلقت على شرفة بيتها أعلاماً حمراً وبيضاً مع صلبان معقوفة ؛
وكانت جميع مصاريع البيت الأخضر مغلقة . وفكر ميلان : « ليس
لنا مصاريع . » وقال :

- يجب ان تفتح جميع النوافذ .
فسألت انا : - لماذا ؟

- حين تكون النوافذ مغلقة ، فهم يصوبون الى الزجاج ؛
فهزت أنا كنفها وقالت :
- مهما يكن من أمر .

وكانت اغانيهم وصرخاتهم تصل في موجات كبيرة مبهمه . وقال
ميلان :

- انهم ما يزالون في الساحة ؛

وكان قد وضع يديه على قضيب الاستناد ، وهو يفكر : « لقد
انتهى كل شيء . » وبرز في زاوية الشارع رجلٌ ضخم ، كان
يرتدي « روكساکاً » ويعتمد على عصا . وكان يبدو عليه التعب ؛
وكانت تتبعه امرأتان أحنت ظهرهما حزمٌ كبيرة ؛
وقال ميلان من غير ان يلوي :

- لقد عادت أسرة جاغرشميت .

وكان افرادها قد هربوا مساء الاثنين ، ولا بد أنهم اجتازوا
الحدود ليلة الثلاثاء . اما الآن فهم يعودون مرفوعي الرأس . واقرب
جاغرشميت من البيت الأخضر ورتي الدرجات المسطحة . وكان وجهه

رمادياً من الغبار ، وعليه بسمه غريبة . وأخذ يبحث في جيوب سترته حتى أخرج مفاخاً . وكانت المرأتان قد وضعتا حزمهما على الأرض وراحتا تنظران اليه . وصاح به ميلان يقول !

- انك تعود إذ يزول الخطر !

فقالت أنا بحموية : - ميلان !

وكان جاغرشميت قد رفع رأسه ، فرأى ميلان والتمعت عيناه الصافيتان .

- انك تعود إذ يزول الخطر !

فصاح جاغرشميت : - نعم ، أعود . اما انت ، فسوف ترحل ! وأدار المفتاح في القفل ودفع الباب ، فدخلت المرأة على أثره . ووافقت ميلان وقال :

- جنباء قدرون !

قالت أنا : - انك تستيرهم .

قال ميلان : - انهم جنباء ، من عرق الألمان القلر . لقد كانوا منذ عامين يلحسون نعالنا .

- هذا لا يمنع . إن عليك الا تستيرهم .

كفّ الشيخ عن الكلام ؛ وظلّ فيه مشقوقاً كما لو انه كان يتابع في صمت الادلاء بأرائه عن الموقف . وكانت عيناه الكبيرتان المستديرتان قد غامتتا بالدمع ، وكان قد رفع حاجبيه ، وهو ينظر الى هوراس ونفيل في هيئة استفهام . وصمتوا ، وتحرك هوراس حركة مفاجئة ثم أدار رأسه ؛ ومشى نفيل حتى الطاولة ، فتناول الوثيقة وتأملها لحظة ثم دفعها في استياء . وبدأت على الشيخ هيئة التملل ، فباعده ذراعيه علامة العجز والاستسلام . وقال للمرة الخامسة : « لقد وجدنتي بازاء موقف غير متوقع على الاطلاق ؛ وكنت أظنّ اننا سنناقش بهدوء العروض التي كنت أحملها .. » وفكر هوراس : « يا للثعلب القديم ! من

اين تراه يجيء بهذا الصوت ، صوت الجدة العجوز ؟ » وقال : « حسناً
يا سيدي الرئيس : سنكون في فندق دريسن بعد عشر دقائق . »
قالت أنا : - لقد جاءت لرخص . ان زوجها في براغ ، وهي
ليست مطمئنة .

- ليس لها الا ان تنزل عندنا .

فقالت أنا في ضحكة مقتضية :

- أتظن انها ستكون اكثر اطمئناناً .. مع مجنون مثلك يقف على
النافذة ليستم الناس في الشارع ؟
فنظر الى رأسها الصغير الرقيق الهاديء ذي الملامح المشدودة ، والى
كشفيها الضيقين والى بطنها الهائل . وقال :
- اجلسي . لاني لا احب ان اراك واقفة .

فجلست وشبكت يديها على بطنها ؛ وسحب الرجل بعض الصحف
وهو يتعم : « باري - سوار الأخيرة . بقي لديّ نسختان ، فاشترهما . »
وكان قد صاح حتى «بحّ صوته . وأخذ موريس الصحيفة . « وجه
رئيس الوزارة شميرلن الى المستشار هتلر رسالة سيوجب عليها هذا
الأخير ، كما يتوقع في الاوساط البريطانية . وعلى هذا ، فان اللقاء
الذي كان منتظراً ان يتم هذا الصباح قد أجّل الى ساعة اخرى . »
وكانت زيزيت تنظر الى الصحيفة من فوق كتب موريس . وسألت :

- هل من جديد ؟

- لا . لا يزال الوضع كما هو .

وقاب الصفحة فرأيا صورة مظلمة تمثل ما يشبه قصرأ من قصور
الترون الوسطى ، في قمة رابية ، ذا بروج وأجراس ومئات من النوافذ ؛
قال موريس :

- انه غودسبرغ .

فسألت زيزيت : - ان شميرلن إذن هناك ؟

- يبدو أنهم أرسلوا نجدة من رجال الشرطة .
قال ميلان : - نعم . دركيان . وقد أصبحوا الآن ستة . وهم
متمرسون في مخفر الدرك .

وانصبت شحنة من الصراخ في الغرفة . فارتعشت أنا ، ولكن
وجهها ظل هادئاً . وقالت :

- ما رأيك بان نتلفن ؟

- نتلفن ؟

- نعم . نتلفن لبريسكنيس .

فأراها ميلان الجريدة من غير ان يجيب : « تقول برقيسة لو كالة
د. ن. ب. بتاريخ الخميس ان السكان الالمان في مناطق السويد قد
استولوا على الحكم حتى الحدود اللغوية . »

قالت أنا : - ربما كان ذلك غير صحيح . لقد قيل لي ان هذا
لم يقع الا في « ابجر » .

فضرب ميلان الطاولة بقبضته :

- تفه ! يطلبون مزيداً من النجدة !

وبسط يديه ، وكانتا ضخمتين معقدتين ، مع بقع سمراء وندوب :
لقد كان حطاباً قبل ذلك الحادث . وكان ينظر اليهما وهو يباعد
أصابعه . فقال :

- بوسعهم ان يجيشوا . اثنين او ثلاثة . واؤكد لك اننا سنتسلي
خمس دقائق .

قالت أنا : - بل هم سيأتون وعددهم ستمئة .

وخفض ميلان رأسه ؛ كان يحس أنه وحيد . وقالت أنا :

- إسمع !

وأصغى : كانوا يُسمعون بمزيد من الوضوح ، ولا بد أنهم قد
بدأوا المسير . وكان يرتجف من الغضب . وغمضت عليه الامور وأنجله

الصداع . واقترب من الطاولة وأخذ يلهث ، فسألته أنا :
- ماذا تفعل ؟

وكان قد مال على درج الطاولة وهو يلهث . وانحنى أكثر قليلاً
ومهمهم من غير ان يجيب . وقالت له :
- يجب ألا تفعل ذلك .
- ماذا ؟

- يجب الا تفعل . أعطني هذا .
والثفت : كانت أنا قد نهضت ، وكانت تستند الى الكرسي ،
والجدد باد علي وجهها . وفكر في بطنها ؛ ومد لها المسلس وقال :
- كما تريدن . سأتلفن لبريسكنيس .
وهبط الى الطابق الأرضي . وفي باحة المدرسة ، فتح النوافذ ثم تناول
التلفون .

- اعطني المخفر ، في بريسكنيس . آلو ؟
وكانت اذنه اليمنى تسمع خشخشة جافة . وكانت اذنه اليسرى
تسمعهم « هم » . وضحكت اوديت ضحكة غامضة : « لم أعرف علي
الضبط قط اين تقع تشيكرسلوفاكيا . » قالت ذلك وهي تغرز أصابعها
في الرمل . وبعد لحظة حدثت خريشة ، وقال صوت :
- نا ؟

وفكر ميلان : « انني اطلب نجدة ! » وكان يضم السماعه بكل
قواه . وقال .

- هنا برافنيتز ، أنا المعلم . نحن عشرون تشيكياً ، وهناك ثلاثة
ديموقراطيين ألمان يختبئون في جوف كهف ، والباقي في « هنلين » ،
وهم محاطون بمخسبين شخصاً من « الفرقة » الحرة اجتازوا الحدود مساء
أمس وجمعوهم في الساحة . وان المختار معهم .
وساد صمت ، ثم قال الصوت في وقاحة :

- بت ! دوتش سبريشن .
 فصاح ميلان - : شوينكوبف !
 وأعاد السماعه ثم عاد يرقى السلم وهو يعرج . وكانت ساقه تؤلمه .
 ودخل الغرفة فجلس .
 وقال : - أنهم هنا .
 وأقبلت عليه أنا . فوضعت يديها على كتفيه وقالت :
 - حبيبي الغالي !
 قال ميلان - : القذرون ! كانوا يفهمون كل شيء ، وكانوا
 يتضحكون في الطرف الآخر من الخط .
 وجذبها بين ركبتيه . وكان البطن الضخم يلامس بطنه . وقال :
 - ها نحن الآن وحيدان .
 - لا أستطيع ان أصدق ذلك .
 ورفع رأسه على مهل ونظر اليها من تحت الى فوق . كانت جاده
 وقاسية في العمل . ولكن كان فيها من النساء هذا : ينبغي دائماً
 ان تثق بأحد . وقالت أنا :
 - ها هم اولاء !
 وكانت الاصوات تبدو كأنها أقرب : لا بدّ أنهم يسرون في
 عرض في « الغراندروي » . ومن بعيد كانت صيحات الجماهير الفرحه
 تشبه صرخات ذعر .
 - هل الباب محصن ؟
 فقال ميلان : - نعم . ولكن بوسعهم ان يدخلوا من النوافذ او ان
 يتجاوزوا الحديقه .
 قالت أنا : - واذا صعدوا ؟...
 - لا حاجة بك الى الخوف . بوسعهم ان يحطّموا كل شيء من
 غير ان ارفع اصبعاً واحداً .

وأحسّ فجأة شفتي أنا الحارتين على خدّه :

- يا حبيبي الغالي . اعرف انك انما تفعل ذلك من أجلي أنا .

- ليس من أجلك . فأنت انا . وانما من أجل الطفل .

وانفضا : لقد دُقّ الباب . وصاحت أنا :

- لا تذهب الى النافذة .

ونفض ، فتوجّه الى النافذة . كانت اسرة جاغرشميت قد فتحت كل نوافذها . وكان العلم الهتلري متديلاً فوق الباب . وحين انحنى ، رأى طيفاً صغيراً ، فصاح :

- أنا هايط .

واجتاز القاعة وقال : - انها ماريكا .

وهبط السلم ، وراح يفتح الباب . مفرقعات ، صراخ ، موسيقى من فوق السطوح : كان ذلك يوم عيد . ونظر الى الشارع الخالي فانقبض قلبه . وسأل :

- ماذا أتيت تفعلين هنا ؟ هل هو يوم عطلة في المدرسة ؟

قالت ماريكا : - امي هي التي ارسلني .

وكانت تحمل سلة صغيرة فيها تفاح وحلوى .

- ان امك مجنونة . لا بد ان تعودى الى البيت .

- هي تقول بانكم لن تصرفوني .

وبسطت له ورقة مطوية أربع طيات . ففتحها وقرأ : « لقد فقد الاب وجورج رشدما . فأرجوكم ان تحتفظوا بماريكا حتى المساء . »

فسألها ميلان : - اين ابوك ؟

- لقد وقف خلف الباب مع جورج . وهما يحملان فأسين وبنديقتين :

(وأضافت في شيء من الاهتمام) وقد أخرجتني امي من الحديقة ،

وقالت اني سأكون في وضع افضل عندهم ، لانكم متعلقون .

قال ميلان : - نعم . نعم . اني متعل . هيا ، إصعدي .

الساعة السابعة عشرة والنصف في برلين ، السادسة عشرة والنصف

في باريس . انخفاض خفيف في شمال اسكتلندا . وظهر السيد فون دورنبرغ على درج الـ « غران اوتيل » ، فأحاط به الصحفيون ، وسأل يياريل : « أترأه سوف يهبط ؟ » وكان السيد فون دورنبرغ يمسك ورقة في يده اليمنى ؛ ورفع يده اليسرى وقال : « لم يتقرر بعد ما اذا كان السيد شمبلن سيرى الفوهرر في المساء . »

قالت زيزيت : - هنا . كنت ابيع زهوراً هنا ، في عربة صغيرة خضراء .

فقال موريس : - كنت في موضع طيب .
وكان ينظر بوداعة الى الرصيف والطريق ، وكان هذا هو ما جاءوا ينظرون اليه منذ بدأت تتحدث عنه . ولكن ذلك لم يكن يعني له شيئاً . وكانت زيزيت قد تركت ذراعها . وكانت تضحك وحدها ، بلا ضجة ، وهي تنظر الى السيارات تجري . وسأل موريس :

- وهل كان معك كرسي ؟

قالت زيزيت : - احياناً . كرسي يطوى .

- لا بد ان ذلك لم يكن شيئاً طريفاً دائماً .

قالت زيزيت : - كان ذلك طيباً في الربيع .

وكانت تحدته بصوت منخفض ، من غير ان تلتفت اليه ، كما لو لو كان ذلك في غرفة مريض ؛ وكانت منذ لحظة قد أخذت تتحرك حركات متميزة بكفيتها وظهرها ، ولم تكن تبدو طبيعية . وكان موريس متضايقاً ، فقد كان ثمة عشرون شخصاً على الاقل امام واجهة ، فاقرب واخذ ينظر من فوق رؤوسهم . وظلت زيزيت في نشوتها على حافة الرصيف ؛ ولحقت به بعد برهة وأخذت ذراعه من جديد . وكان على صفيحة زجاجية ذات حافة مائلة طرفان من جلد أحمر وحوطها زبد أحمر شبيه بمنفضة للمسحوق . وأخذ موريس يضحك ، فهمت زيزيت :

- انك تضحك ؟

فقال موريس وهو يقهقه : - انها أحذية .
والتفت رأسان او ثلاثة ، فقالت له زيزيت « هس » وسجته
قال موريس :

- ماذا ؟ لا أظن اننا في قداس !
ولكن كان مع ذلك قد خفض صوته : كان الناس يتقدمون وهم
يسترقون الخطى بعضهم خلف بعض ، وكان يبدو عليهم أنهم متعارفون ،
ولكن احداً لم يكن ليتكلم . وهمس :

- لقد مضى خمسة اعوام تقريباً من غير ان أجيء الى هنا :
وأرته زيزيت مطعم « مكسيم » بافتخار ، وقالت له في جوف اذنه :
- إنه « المكسيم »

ونظر موريس الى المكسيم وصرف رأسه بحوية : لقد سبق ان
حدثوه عنه ، وكان عبارة عن قذارة ، فهناك كان البورجوازيون
يعبّون الشبانيا عام ١٩١٤ ، بينما كان العمال يقاتلون . وهمس بين
أسنانه :

- اية نتانة !

ولكنه كان يشعر بالانزعاج ، من غير ان يدري السبب ، وكان
يمشي بخطى صغيرة ، وهو يتهدى ، وكان الناس يبدوون له رخاص
العود ، وكان يخشى ان يصدمهم .
وقالت زيزيت : - هذا ممكن ، غير أنه مع ذلك شارع جميل ،
ألا ترى ذلك ؟

قال موريس : - إنه لا يسحرني ، وهو بحاجة الى هواء .
فهزت زيزيت كتفيها وأخذ موريس يفكر في جادة سانت اوان :
حين كان يغادر الفندق في الصباح ، كان بعض الأشخاص يتجاوزونه
وهم يصفرون وعلى ظهورهم اكياس ، وهم منحنون على مقاود
دراجاتهم . وكان يشعر بالسعادة : كان بعضهم يتوقفون في سانت -

دنيس ، بينما يتابع آخرون طريقهم ، وكان الجميع يتجهون وجهة واحدة ، كانت الطبقة العاملة تسير . وقال ليزيت :

— اما هنا فالمرء موجود بين البورجوازيين .

وخطوا بضع خطوات في رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ثم توقف موريس وطلب المذرة ، فسألته ليزيت :

— ماذا تقول ؟

فقال موريس متزعجاً : — لا شيء . لا اقول شيئاً .

وكان قد اصطدم بشخص آخر ؛ وبالرغم من ان الآخرين كانوا يسرون خافضي النظر ، فقد كانوا يتدبرون امرهم دائماً لتجنب الصدمة في آخر لحظة ؛ ولا بد ان هذه قضية عادة .

— هل تأخذني ؟

ولكنه لم تكن لديه الرغبة بعد في ان يتابع سيره ، فقد كان يخشى ان يحطم شيئاً ما ، ثم ان هذا الطريق لم يكن يؤدي الى اي مكان ، فلم يكن له اتجاه ، وكان ثمة أشخاص يصعدون ثانية نحو الجادات ، بينما يهبط آخرون نحو السين ، ويظل غيرهم ملتصقي الأنوف بالواجهات . لقد كان ذلك يحدث اندفاعات محلية ، ولكنه لم يكن يحدث حركات جماعية ، وكان المرء يحس نفسه وحيداً . ومد يده فوضعها على كتف ليزيت ؛ وكان يضغط بقرة على اللحم الريان عبر القماش . وابتسمت له ليزيت ، وكانت منبسطة النفس ، وكانت تنظر الى كل شيء بنهم من غير ان تفقد هيئتها العارفة ، وكانت تحرك بلطف ألبتيها الصغيرتين . ودغدغ عنقها فصحكت وقالت :

— كفى يا موريس !

وكان يجب كثيراً الالوان القوية التي كانت تضعها على وجهها ، والأبيض الذي كان يشبه السكر ، والأحمر الجميل على الوجنتين . وكانت تنبعث منها عن قرب رائحة العسل . وسألها بصوت منخفض :

— هل انت مسرورة ؟

قالت زيزيت وعيناها تلتصمان :

— النبي اذكر كل ما اراه .

وترك كتفها وعادا يسيران في صمت : لقد عرفت بعض البورجوازيين الذين كانوا يأتون ليشتروا زهورها ، وكانت تبسم لهم ، بل كان فيهم من حاول ان يلامسها . وكان ينظر الى رقبتها البيضاء فيحس انه طريف ، وتأخذه الرغبة في ان يضحك ويغضب .

وصاح صوت : — باري — سوار .

فسألت زيزيت : — هل نشريها ؟

— انها النسخة نفسها التي اطلعنا عليها منذ حين .

وكان الناس يحيطون بالبائع ويتنازعون الصحف في صمت . وخرجت من الجمع امرأة ذات كعبين عاليتين وقبعة منتصبة في أعلى الرأس يتلوى المرء ضحكاً لمرآها . وقد فتحت الجريدة وأخذت تقرأ وهي تنظنط . واسترخت جميع ملامحها وارسلت تنهدة طويلة .

قال موريس : — انظري الى المرأة ...

فنظرت اليها زيزيت وقالت :

— لعل رجُلها سيرحل .

فهز موريس كتفيه : لقد كانت تبدو من الغرابة بحيث توحي بأنها قد تكون حقاً شقية بهذه القبعة وهذا الخداء السمكي . وقال :

— وإذن ؟ إن رجلها ضابط .

قالت زيزيت : — حتى ولو كان ضابطاً ، فقد يفقد جلده

كسائر الرفاق .

ونظر اليها موريس في غضب :

— اذك تضحكيني بضباطك . لا عليك الا ان تتسذكري حرب

١٩١٤ ، وما اذا كانوا قد فقدوا فيها جلودهم .

قالت زيزيت : - تماماً . كنت أحسب ان كثيراً منهم قد ماتوا فيها .
فقال موريس : - انما مات الفلاحون ، ونحن الآخريين .
فالتصقت زيزيت به وقالت :

- اوه ! موريس ، أعتقد حقاً بان الحرب ستشيب ؟
قال موريس : - ما يدري بي انا ؟

في ذلك الصباح بالذات ، كان واثقاً من ذلك ، وكان الرفاق
واثقين مثله . كانوا على شاطيء السين ، وكانوا ينظرون الى صف
الآلات الرافعة ومجارف الرمل ؛ وكان ثمة فتيان بقمصان قصيرة الأكمام ،
وشباب أشداء من جينفيليه كانوا يحفرون خندقاً لسلك كهربائي ، وكان
واضحاً ان الحرب ستنفجر . ومهما يكن من أمر ، فان ذلك لم يكن
ليغير فتيان جينفيليه تغييراً كبيراً : فانهم سيكونون في مكان ما من
الشمال ليحفروا الخنادق تحت الشمس ، تهددهم القنابل والرصاص ، كما
تهددهم اليوم الانهيارات والسقطات وجميع حوادث العمل ؛ وسوف
ينتظرون نهاية الحرب كما كانوا ينتظرون نهاية بؤسهم . وكان ساندر
قد قال : « انا سنخوضها ، ولكن حين نعود ، سنحتفظ بينادقنا . »
اما الآن ، فهو ليس واثقاً من شيء بعد ؛ ففي سانت - أوان
كانت الحرب قائمة بلا انقطاع ، ولكن ليس هنا . كانت السلم قائمة
هنا : فهنا واجهات ، واشياء مترفة معروضة ، وأبقشة ملونة ، ومرايا
ينظر فيها الناس ، وكل الترف والراحة . صحيح أن هيئة الناس كانت
حزينة ، ولكن ذلك قائم منذ ولادتهم . لماذا تراهم يقاتلون ؟ انهم لا ينتظرون
بعد شيئاً ، كانوا يملكون كل شيء . انه لا بد مشؤوم الا يأمل المرء
شيئاً آخر غير ان تستمر الحياة الى ما لا نهاية كما بدأت ! وقال موريس
فجأة موضحاً :

- ان البورجوازية لا تريد الحرب . انها تخشى النصر ، لأنه سيكون
نصر الطبقة العاملة .

ونفض الشيخ ، فصحب نفيل هندرسون وهوراس ويلسون حتى
الباب : ونظر اليهما لحظة بهيئة تأثر ، وكان يشبه جميع الشيوخ ذوي
الوجوه المتهمة الذين كانوا يحيطون بيئع الصحف في شارع رويال ،
وباكشاك الصحف في بال مال ستريت ، والذين لم يكونوا يطلبون شيئاً
آخر غير ان تنتهي حياتهم كما ابتدأت . وكان يفكر بهؤلاء الشيوخ ،
وبأولاد هؤلاء الشيوخ ، وقال :

— وبالإضافة الى ذلك ، أرجو ان تسأل السيد فان رينتروب عما اذا
كان المستشار هتلر يجد مفيداً ان تجري بيننا محادثة أخيرة قبل سفري ،
لافتاً انتباهه الى ان قبولاً مبدئياً يؤدي بالنسبة للسيد هتلر الى ضرورة
إطلاعنا على اقتراحات جديدة . وارجو ان تلح بصورة خاصة على انني
مصمم ان افعل كل ما هو ممكن بشرياً لتسوية النزاع عن طريق
المفاوضات ، لأنه يبدو لي غير معقول ان تغرق شعوب أوروبا التي لا
بريد الحرب في نزاعٍ دام من اجل قضية تحققت الاتفاق بشأنها الى حد
تعيد . حظاً طيباً .

وانحى هوراس ونفيل ، وهبطا السلم ، وكان الصوت الفخم ،
الخائف ، المنكسر ، المتمدن ، ما يزال يرن في مسمعها ، وكان
موريس ينظر الى بشرات الشيوخ العذبة ، المتهمة ، المتمدنة ، والى
بشرات النساء ، ويفكر في اشمزاز بأنه لا بد من فصدها .

لا بد من فصدها ، وسيكون ذلك أبعث على الاشمزاز من سحق
البزاق ، ولكن لا بد من الانتهاء الى ذلك . سوف تصطف الرشاشات
في شارع رويال ، ثم يظل الشارع بضعة ايام متروكاً ، مع زجاج
محطم ، وواجهات مثقوبة بشكل أنجم ، وطاولات مقلوبة عند أرصفة
المقاهي ، بين شظايا الكؤوس ، وستندور طائرات في السماء فوق الجثث ،
ثم يرفع الأموات ، وتوقف الطاولات ، ويستبدل الزجاج ، وتستعيد
الحياة سيرها ، فيعمر الشارع رجال أشداء ذوو رقابٍ حمر وسترات

جلدية وقبعات . ومع ذلك ، فان الأمر كان هكذا في روسيا ، وقد سبق لموريس ان رأى صوراً لجادة نوفسكي ، وكان العمال وقد استولوا على هذه الجادة المترفة ، يتزهون فيها ، ولم تكن القصور والجسور الكبيرة لتدهشهم بعد .

وقال موريس في انفعال : - أطلب المعدرة .

كان قد ارسل ضربة مرفق في ظهر سيدة عجوز نظرت اليه نظرة مغيفة . وأحس بالتعب والانشطاط : فتحت أعمدة الاعلانات الكبيرة ، ونحت الأحرف الذهبية المسودة المعلقة بالشرقة ، وبين دكاكين الحلويات وحوائيت الأحذية ، وأمام أعمدة كنيسة المادلين ، لم يكن من الممكن تصور جمع غير هذا الجمع ، يضم كثيراً من السيدات العجائز المكردحة ، ومن الاولاد في ثيابهم الكحلية . كان النور الحزين المذهب ، ورائحة البخور ، والأبنية الساحقة والأصوات العسلية ، والوجوه المثلثة المستنيرة ، وحفيف النعال الذي لا أمل له بالزفت ، كل ذلك كان يجري معاً ، وكل ذلك كان واقعياً ، اما « الثورة » فلم تكن الا حلماً . وفكر موريس وهو يرسل نظرة حاقدة الى زيزيت : « ما كان ينبغي لي أن أجيء . فليس هذا مكان عامل . »

ولست يد كتفه ، فاحمر وجهه مروراً إذ رأى برونيه . وقال

برونيه وهو يبتسم :

- مرحباً يا صغيري العزيز .

قال موريس : - مرحباً ، رفيق .

وكانت قبضة برونيه شديدة كانه تقبضته ، وكانت تشد بقوة . ونظر موريس الى برونيه وأخذ يضحك في غبطة . كان يستيقظ : كان يحس بالرفاق حوله ، في سانت - اوان ، في ايفري ، في مونثروي ، في باريس نفسها ، في بلغيل ، في مونتروج ، في لافيلات ، يتماكون بالذراع ويهبتون انفسهم للضربة القاسية . وسأله برونيه :

- ماذا تفعل هنا ؟ هل انت عاطل عن العمل ؟
فشرح موريس في شيء من الضيق : - بل هي عطلي بأجرها .
لقد ارادت زيزيت ان تأتي لأنها كانت تعمل هنا في الماضي .
وأضاف موريس : - إنه برونيه . لقد قرأت مقاله هذا الصباح
في « الاومانيتيه » .

فنظرت زيزيت الى برونيه بشجاعة ومدت له يدها . انها لم تكن
تخشى الرجال حتى ولو كانوا بورجوازيين او زعماء الحزب . وقال
برونيه وهو يشير الى موريس :

- لقد عرفته منذ كان صغيراً . وكان في « الفوكون » الحمر ،
في الجوقة ، ولم اعرف احداً قط ناشز الصوت مثله . واخيراً انفقنا
على ان يتظاهر فقط بالغناء في اثناء الاستعراضات .
فضحكوا ، وقالت زيزيت :

- وبعد ؟ هل ستشيب الحرب ؟ لا بد انك تعرف ذلك ، انت ،
فان مركزك بخولاك هذا .

وكان سؤالاً بليداً ، سؤال امرأة ، ولكن موريس حمد لها ان
تطرحة . وكان برونيه قد اصبح جاداً فقال :

- لا ادري ان كانت الحرب مستوم . ولكن ينبغي خصوصاً ألا
نخاف منها : فعلى الطبقة العاملة ان تعرف ان امكان تجنبها لا يكون
بقبول الانازلات .

وكان يتحدث جيداً . وكانت زيزيت قد رفعت نحوه عينين مليتين
بالثقة ، وكانت تبسم بعلوية وهي تصغي اليه . ولكن موريس شعر
بالانزعاج . لقد كان برونيه يتحدث كالجريدة ، ولم يكن يضيف شيئاً
على ما تقرله الجريدة . وسألته زيزيت :

- اعتقد ان هتلر سوف يخاف اذا كشفوا له عن انياهم ؟
وكان برونيه قد تلبس هيئة رسمية ، ولم يكن يبدو عليه انه فهم

ان المطلوب هو رأيه الشخصي ، وقال :
- هذا ممكن جداً . ومهما يكن من أمر ، فان الاتحاد السوفياتي
الى جانبنا .

وفكر موريس : « طبعاً ، فان زعماء الحزب لا يمكن ان يتصرفوا
هكذا ، ببساطة ، للتعبير عن آرائهم امام عامل صغير من عمال سانت-اوان . »
غير انه كان مع ذلك خائباً . وقد نظر الى برونيه فتلاشت فرحته تماماً :
كان لبرونيه يدان فلاحيتان قويتان وفك قاسٍ وعينان تعرفان ما تريدان ؛
ولكنه كان يضع يافته وربطة عنق وبدلة من الفلانيل ، وكان يبدو مرتاحاً
وسط البورجوازيين .

وكانت واجهة مظلمة تعكس صورتهم : وقد رأى موريس امرأة
ذات شعر منفوش ورجلاً قوي البأس ، قبعتة الى خلف ، يكاد يتفجر
في دراعته ، وهما يتحدثان الى سيد . ومع ذلك ، فانه ظل هناك ،
ويداه في جيبيه ، ولم يكن يعزم على ترك برونيه .

وسأله برونيه : - الا تزال في « سانت - مانديه » ؟
فأجاب موريس : - لا ، بل في « سانت - اوان » . اني اشتغل
عند « فلايف » .

- آه ، كنت أحسبك في سانت مانديه . مُحَيِّكَم ؟
- بل ميكانيكي .

قال برونيه : - حسناً . حسناً . وإذن ! الى اللقاء ، يا رفيق .
فقال موريس : - الى اللقاء ، يا رفيق .
وكان مُحَسَّ الضيق ، وخيبة غامضة . وقالت زيزيت وهي تفرح
عن كل أسنانها :
- الى اللقاء يا رفيق .

ونظر إليها برونيه وهما يتعدان . وكان الجمع قد انغلق عليهما من
جديد ، ولكن كفضي موريس الهائلتين كانتا تعومان فوق القبعات . ولا

بد أنه كان يمسك زيزيت من قامتها : فقد كانت قبعتها تلامس شعرها ، وكانا يتهاديان بين المارة ، ورأسه الى رأسها . وفكر برونيه : « انه فتى طيب . ولكني لا احب انفجاراته . » واستعاد سيره ، وكان رصيناً ، وكان يشعر بندم يقف له شعره . وفكر : « ما كان عساي ان أجيبه ؟ » لقد كانوا في سانت - دنيس ، وفي سانت اوان ، وفي سوشو ، وفي كروزو ، مئات الوف ينتظرون وفي حيونهم القلق والثقة نفسها . مئات الوف من الرؤوس الشبيهة بهذا الرأس ، رؤوس طيبة مستديرة قاسية ، مقدودة في غير اتساق ، رؤوس من القطع الكبير ، رؤوس حقيقية لرجال كانوا يتجهون نحو الشرق ، نحو غودسبرغ ، نحو براغ ، نحو موسكو . وهم كان يمكن إجابتهم ؟ كل ما كان ممكناً عمله الآن ، هو ان يُحموا . ان تُحمى فكرتهم البطيئة الصلبة من جميع القذرين الذين كانوا يحاولون ان يضلّوها . فالיום الأم بونينغ ، وغداً دوتين امين سر نقابة المعلمين ، وبعد غد « البيفرتيون » : ذلك كان نصيبه ؛ وهو سينتقل من شخص الى آخر ، وسيحاول ان يسكتهم . سوف تنظر اليه الأم بونينغ نظرة مخمّية ، وستحدثه عن « فظاعة إراقة الدماء » وهي تحرك يديها المثاليين . لقد كانت امرأة ضخمة في حوالي الخمسين من عمرها ، ذات وجه أحمر ، مع زغب ابيض على الوجنتين ، وشعر قصير ، ونظرة ناعمة تشبه نظرة كاهن وراء نظارتيه ؛ وكانت ترتدي سترة رجل مزينة القفا بشريط وسام الشرف . « سأقول لها : لن تبدأ النساء بارتكاب الحماقات ؛ ففي حرب ١٩١٤ ، كنّ يدفعن ذكورهم من اكتافهم الى الحافلات ، بينما كان ينبغي لهن ان يستلقين على خطوط المسكة ليمنعن القطار من الذهاب . واليوم اذ يمكن ان يكون للقتال معنى ، فهأننّ ننظمن جمعيات للسلام ، وتعملن لتخريب معنويات الرجال ! » وظهر وجه موريس مرة اخرى ، فهزّ برونيه كتفيه في

ضيق : « كلمة ، كلمة واحدة تنير لهم الطريق أحياناً ، ولكني لم
 اعرف ان اجدها . » وفكر في ضغينة : « انها غاطة امرأة ، فان
 النساء يملكن فن طرح اسئلة بليدة . » خدأ زيزيت الطحينيان ، وعيناها
 الصغيرتان الفاجرتان ، وعطرها اللثيم ، سوف يذهبن لجمع تواقع
 وتواقع ، ملححات عذبات ، تلك الهامات الراديكاليات الضخات ،
 واليهوديات التروتسكيات ، والمعارضات التابعة لحزب المستقلين ،
 سيدخلن كل مكان .. بوقاحتهن الملعونة ، فيهبطن على فلاحه تحلب
 بقرتها ، ويضعن في يدها الضخمة المبتلة قلم حبر : « وقعي هنا ان
 كنت ضد الحرب . » لا حرب بعد الآن ، بل مفاوضات دائماً ،
 السلام اولاً . وماذا تراها ستفعل ، « زيزيت » هذه ، اذا بسط لها
 قلم حبر بصورة مفاجئة ؟ أتراها قد احتفظت بردود فعل من صفحتها
 هي من السلامة والصفاء بحيث تتيح لها ان تضحك على هاتيك السيدات
 اللطيفات ؟ لقد جرته في الأحياء الجميلة ، وكانت تنظر الى الحوانيت
 في انتعاش ، وهي تلتصق على وجنتيها طرفاً من الحمرة ... مسكين
 انت ايها الفتى الصغير ، لن يكون الأمر حلوأ اذا تعلقت بعقه لتمنعه
 من الذهاب ، انهم ليسوا بحاجة الى هذا ... « مثقف . بورجوازي ! »
 اني لا أستطيع ان اطيعها لأن على وجهها جصاً ، ولأن يديها متأكلتان.
 ومع ذلك ، فلا يستطيع جميع الرفاق ان يكونوا عازبين . وكان يشعر
 بالنعب والثقل ، وفكر فجأة : « اني ألومها ان تضع الأمر ، لأنني لا
 احب الأحمر الرخيص . » « مثقف . بورجوازي . » يحبسون جميعهم
 وجميعهم ، كل واحد وكل واحدة ، من غير تمييز . وفكر :
 « ليس علي حتى ان اريد ان احبهم ، فان ذلك ينبغي ان يتم هكذا ،
 بالضرورة ، كما يتنفس الانسان . » « مثقف . بورجوازي : معزول
 الى الأبد . » فيها عملت ، فلن تكون لنا الذكريات نفسها ابداً ،
 كان جوزيف مرسيه ، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً المصاب

بفسلس وراثي ، استاذ التاريخ الطبيعي في « ليسيه بوفون » وفي كلية
 سيفينيه ، يصعد شارع الرويال وهو يلهث ويلوي فنه بانتظام مع قرعقة
 رطبة ؛ وكان وجهه في جنبه الأيسر ، وكان يشعر بأنه بائس ويفكر
 بين التينة والفينة : « اتراهم سيدفعون راتب الموظفين المجتدين ؟ »
 وكان ينظر الى قدميه حتى لا يرى جميع هذه الوجوه الناسية ، فصدم
 رجلاً طويلاً احمر يرتدي بذلة من الفلانيل الرمادي دفعه فاصطدم
 بواجهة ؛ ورفع جوزيف مرسيه عينيه وفكر : « اية خزانة ! » وكان
 خزانة ، جداراً ، وحشاً من هذه الوحوش الناسية التي لا تحس ،
 يشبه « شاميرليه » معلم الرياضيات الابتدائية الذي كان يهزأ به في
 الصف ، وكان احد اولئك الأشخاص الذين لا يشكون قط في شيء
 ولا في انفسهم ، والذين لم يكونوا يوماً مرضى ، والذين لا عاهات
 لهم ، والذين يتلقون النساء والحياة بملء ايديهم ويمشون باستقامة نحو
 اهدافهم وهم يدفعونك لتصطدم بالواجهات . وكان شارع رويال يسيل
 بعدوية نحو السين ، وكان برونيه يسيل معه ، وكان احدهم قد
 صده ، وقد رأى حشرة ذات أنف متأكل تفر منه ، وهي ترتدي
 طاقية وياقة بورسلانية زائفة ، وكان يفكر في زيزيت وموريس ،
 وكان قد وجد من جديد ضيقه القديم المألوف ، وخجله امام هذه
 الذكريات التي لا تقبل التفكير ، والبيت الأبيض على حافة المارن ،
 ومكتبة الأب ، ويدي الام الطويلتين المعطرتين اللتين كانتا تمزلانه
 عنها الى الأبد .

وكان مساءً جميلاً مذهباً ، ثمرة من ثمرات ايلول . وكان ستيفان
 هارتلي منحنيًا على الشرفة يتمم : « الاندفاعات الواسعة البطيئة للجموع
 المسائية . » جميع هذه القبعات ، هذا البحر من اللباد ، وبضع رؤوس
 عارية كانت تطفو بين الموجات البشرية ، وفكر : « كأنها زَمْجِج
 الماء . » وفكر في انه سيكتب : « كأنها زَمْجِج الماء . » وأسان

اشقران ورأس رمادي ، جمجمة جميلة حمراء ، فوق الرؤوس الأخرى ، ادركها الصلع ؛ وكان ستيفان يفكر : « الجموع الفرنسية » فيتأثر لذلك . جمعٌ صغير من رجال قصار ، بطوليين ومستين . سوف يكتب : « ان الجموع الفرنسية تنتظر الأحداث في هدوء وجدارة . » وفي الصفحة الأولى من « نيويورك هيرالد » بأحرف ضخمة : « لقد استمعت الى الجموع الفرنسية رجال قصار لا يبدو عليهم أنهم مغتسلون جيداً ، قبعات نسائية كبيرة ، جمع صامت ، هاديء ومتسخ ، تذهب ساعة هادئة لمساء باريس بين المادلين والكونكورد ، لدى الغروب . سوف يكتب : « وجه فرنسا » . وسوف يكتب : « وجه فرنسا الخالد » تجمعات منسربة ، وتمتات يُخَيَّل أنها جادة ومندهشة ، سيكون مبالغاً فيه ان يكتب « مندهشة » . فرنسي طويل احمر ، اصلع بعض الشيء ، هاديء كغروب شمس ، بعض انعكاسات شمسية على واجهات السيارات ، وبعض صرخات ، وفكر ستيفان : « التآعات اصوات » ثم فكر : « لقد كتب مقالي . » وقالت سيلفيا من وراء ظهره :

— ستيفان !

فقال ستيفان بجفاء ، ومن غير ان يلتفت :

— اني أعمل .

قالت سيلفيا : — ولكن ينبغي ان تجيبني يا عزيزي . فانه لم يبق على الباخرة « لافاييت » الا اماكن من الدرجة الاولى : قال ستيفان : — خذي في الدرجة الاولى ، خذي غرقاً ممتازة : فقد تكون « لافاييت » آخر باخرة تسافر الى اميركا حتى تاريخ بعيد . وكان بروفيه يسير بهدوء ، وكان يستشق رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ورفع رأسه فنظر الى احرف ذهبية مسودة معلقة بشرقة ؛ وانفجرت الحرب : كانت هنا ، في اعماق هذا الميع المضئيء ،

مسطورة كأنها بديهة على جدران المدينة الجميلة القابلة للكسر ؛ كان ذلك انفجاراً ثابتاً يمزق شارع رويال الى قسمين ؛ وكان الناس يمشون خلاله من غير ان يروه. وكان برونيه يراه . لقد كان موجوداً هنا دائماً . ولكن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك بعد . وكان برونيه قد فكر : « ستسقط السماء على رؤوسنا ، » وقد أخذ كل شيء يسقط ، وكان قد رأى البيوت كما كانت حقاً : سقوطاً موقفاً . كان هذا الحانوت الجميل يحمل أطناناً من الحجارة ، وكان كل حجر ، وهو مشدود الى الاحجار الاخرى ، يسقط في المكان نفسه ، بعناد ، منذ خمسين سنة : بضعة كيلوات اخرى بعد ، ويُستأنف السقوط . وسوف تستدير الاعمدة وهي تصطك فتصاب بكسورٍ مريعة ذات شظايا ؛ وستنفجر الواجهة ، وستنهار حمولات من الحجارة في الكهف وهي تسحق رزم البضائع . إنهم يملكون قنابل زنتها اربعة آلاف كيلو . وانقبض صدر برونيه . منذ لحظات فقط كان على هذه الواجهات المنتظمة بسمه انسانية ، ممزوجة بمنثور المساء الذهبي . وانفجارت : مئة ألف كيلو من الحجارة ؛ وكان رجال يسرون تائبين بين ركامٍ مجتمد . جنود بين الانقراض ، وربما قتل هو . ورأى اثلاماً مسودة على وجنتي زيزيت المجصصتين . جدران مغبرة ، وشقق جدران ذات ثقوب فاغرة ، ومربعات من ورق زرق وصفير ، هنا وهناك ، وصفائح من برص ، بلاطات حمر بين الردوم ، وبلاطات محطمة يتخللها العشب الطفيلي . ثم اكواخ من خشب ومعسكرات . وستبنى بعد ذلك ثكنات كبيرة رتيبة كالتى تقوم على الجادات الخارجية . وانقبض صدر برونيه وفكر في ضيق : « أحب باريس » . وانفجارت البديهة دفعة واحدة ، وتشكلت المدينة من جديد حوله : وتوقف برونيه ، واحس انه مسكر بعذوبة مائعة وفكر : « حبذا لو لم تكن هناك حرب ! حبذا لو أمكن ان لا تكون حرب ! » وكان ينظر بنهم الى ابواب كبيرة ، والى

واجهه « بريسكول » التي تبعث بالشر ، والى بسط معمل « ويدر »
للجنة . وشعر بالجلد بعد برهة ، واستعاد سيره وفكر : « أحب
باريس أكثر مما ينبغي . » مثل بيلنيك ، في موسكو ، الذي كان يحب
الكنايس القديمة أكثر مما ينبغي . ان « الحزب » على حق في ان يحذر
المتقنين . ان الموت مكتوب في الناس ، والدمار مكتوب في الاشياء ،
وسياتي رجال آخرون يبنون باريس من جديد ، يبنون العالم من جديد .
سأقول لها : « تربدين السلم إذن بأي ثمن ؟ » وسأحدثها برقة وانا
انظر اليها بإحداذ وسأقول لها : « يجب على النساء ان يتركنا وشأننا .
فليس هذا الوقت مناسباً لكي يأتين فيزعجن الرجال بمحاقتهن . »
قالت اوديت : - اود لو اكون رجلاً

ونفض ماتيو معتمداً على مرفقه . وكان قد اسمر الآن تماماً .
فسألنا باسماً :

- لكي نمثلي دور الجدي ؟

واحر وجه اوديت وقالت بحموية :

- اوه لا ! وانما أجد من الحماقة ان تكون المرأة امرأة في

هذه الفترة .

فقال موافقاً : - لا بد ان ذلك ليس مناسباً جداً :

وكانت قد اتخذت هيئة البيغاء ، مرة اخرى ، وكانت الكلمات التي
تستعملها ترتد ضدها دائماً . وكان يخيّل اليها مع ذلك ان ماتيو ما
كان يستطيع ان يلومها ، لو انها عرفت كيف تجعل الناس يفهمونها ،
كان ينبغي ان تقول له ان الرجال كانوا يزعجونها حين يتحدثون حين
الحرب امامها ، فانهم لم يكونوا طبيعيين ، وكانوا يبدون من اليقين
أكثر مما ينبغي ، كما لو انهم كانوا يريدون ان يفهموها أن هذه قضية
رجال ، وكان يبدو عليهم مع ذلك انهم كانوا دائماً ينتظرون منها
شيئاً ما : نوعاً من التحكيم لأنها كانت امرأة ولأنها لن تذهب ، ولأنها

فسيق المعترك . وماذا كان يوسعها ان تقول لهم ؟ إيقوا ؟ ارحلوا ؟
ما كان لها ان تقرر ، لأنها لن تذهب حقاً . او انه كان عليها ان
تقول لهم : « افعلوا ما تريدون » . ولكن ، اذا لم يكونوا يريدون
شيئاً ؟ كانت تمحي ، وكانت تنظاهر بأنها لا تسمعهم ، وكانت تقدم
لهم القهوة او المشروب ، تحيط بها رنات أصواتهم العازمة . وتنهدت ،
واخذت حفنة من الرمل في يدها فأسالته ابيض حاراً على ساقها السمراء .
وكان الشاطئ خالياً ؛ وكان البحر يتلأأ ويصخب . وعلى جسر قارب
« بروفسال » الخشبي ؛ كان ثلاث نسوة بلباس البحر يتناولن الشاي .
وأغمضت اوديت عينيها ، وكانت مستلقية على الرمل وسط حرارة لا
تاريخ لها ولا عمر : حرارة طفولتها اذ كانت تغمض عينيها ، وتستلقي
على هذا الرمل نفسه ، وتحاول ان تمثل دور السمندل وسط لهب عظيم
لجمر اللون اصفره . الحرارة نفسها ، وحفنة التبان الرطب نفسها ،
كانت تحسب انها تحسه وهو يتبخر على مهل تحت الشمس ، وحرقة
الرمل نفسها تحت رقبته ، وقد كانت في السنوات الخوالي تمتزج بالسما
والبحر والرمل ، ولم تكن تميز بعد الحاضر من الماضي . وانتصبت واقفة ،
وعيناها مفتوحتان على سعتهما : اليوم ، هناك حاضر حقيقي . كان هناك
ذلك الضيق في جوف معدتها ؛ وكان هناك ماتيو ، اسمر عارياً ،
جالساً على مثره الابيض . وكان ماتيو صامتاً ؛ وما كانت تفضل
شيئاً آخر على ان تصمت هي ايضاً . ولكنها حين لم تكن تجبره على
ان يوجه اليها الحديث مباشرة ، كانت تضعه : كان ينتبه مكرهاً
لفرة يلقي فيها خطاباً قصيراً بصوته الراضح الأبح بمض الشيء ، ثم
يذهب تاركاً جسمه رهينة ، جسماً مصقولاً مروضاً . حبذا لو كان
يتمكن المرء على الأقل ان يتصور بأنه كان مستغرقاً في افكاره اللذيذة :
ولكنه كان في الحق ينظر أمامه باستقامة نظرة تشق القلب ، بينما كانت
يلباه الكيبرتان منهمكين في صنع بناء من الرمل . وكان البناء ينهار ،

وكانت اليدان تعيدان بناءه بلا وهن . ولم يكن ماتيو ينظر قط الى يديه ؛ وكان هذا يثير الاعصاب في آخر المطاف . وقالت اوديت :
- إن الأبنية لا تُصنع بالرمل الجاف . والاطفال الصغار يعرفون ذلك !

فأخذ ماتيو يضحك . وسألته اوديت :

- بم تفكر ؟

فأجاب : - يجب ان اكتب لايفيش . ان هذا يُربكني .
قالت وهي تطلق ضحكة صغيرة : - ما كنت لأصدق ان ذلك يربكك . إنك ترسل لها كتباً .

- صحيح ، ولكن هناك سخفاء قد أخافوها . لقد أخذت تقرأ الصحف ولا تفهم منها شيئاً ، فهي تريدني ان اشرح لها ، وسيكون ذلك يسيراً : فهي تخلط بين التشيكين والالبان ، وهن تظن ان براغ واقعة على شاطئ البحر .

فقالت اوديت بخشونة : - هذه عقلية روسية جداً !
فقط ماتيو شفّته من غير ان يجيب ، وأحست اوديت بأنها كرهية .
وأضاف وهو يتنسم :

- والذي يعقد كل شيء هو أنها غاضبة عليّ .
فسألت : - ولماذا ؟

- لأنني فرنسي . كانت تعيش بهدوء لدى الفرنسيين ، وما هم اولاء يريدون فجأة ان يقاتلوا . فهي تجد ذلك فاضحاً .
قالت اوديت مغتظة : - هذا جميل !
فبدت على ماتيو بساطة لطيفة وقال برقة :

- يجب ان يضع المرء نفسه في وضعها . انها حاقدة علينا لأننا نعرض أنفسنا للقتل او للجرح ! وهي تجد ان الجرحى يعوزهم الذوق والفتنة لأن الناس مجبرون على ان يفكروا بأجسامهم ، وهي تعتبر ذلك

شيئاً فيزيولوجياً ، وتنفر من الفيزيولوجي ، لديها وادى الآخرين .
فتمت اوديت : - يا للحبيبة الصغيرة !

قال ماتيو : - ان هذا أمر صادق . وانها لتبقى اياماً برمتها من
غير ان تتغذى ، لأنها تمشتر من الأكل . واذا أخذها النعاس ليلاً
تناولت القهوة لتستيقظ .

فلم تجب اوديت . وكانت تفكر : « ضربة على الأليتين ، هذا
ما محتاج اليه » . وكان ماتيو يحرك يديه في الرمل بهيئة شاعرية وبليدة :
« انها لا تأكل ابدأ ، ولكني متأكدة من انها تحفي في غرفتها عدة
أوان كبيرة من المربى . ان الرجال حمقى أكثر مما ينبغي ! » وكان
ماتيو قد عاد بيني بيوته ؛ كان قد رحل من جديد الى مكان ولدة لا
يعلمها الا الله . وفكرت في مرارة : « اما انا فلاني آكل لحمًا احمر
وأنام حين يأخذني النعاس » . وعلى جسر « البروفنسال » كان الموسيقيون
يعزفون « السيريناد البرتغالية » . وكانوا ثلاثة ايطاليين . ولم يكن
حزف الكمان رديئاً جداً ، وكان يغمض عينيه اذ يعزفون . وأحسث
اوديت بالتأثر : كانت الموسيقى في الهواء الطلق شيئاً طريفاً جداً ،
ودقيقاً جداً ، وواهماً جداً . ولا سيما في هذه اللحظة : كانت اطنان
من الحر ومن الحرب تثقل على البحر وعلى الرمل ، وكان ثمة تلك
الصرخة النارية التي تصعد باستقامة نحو السماء . والتفتت الى ماتيو ،
وكانت تريد ان تقول له : « أحب كثيراً هذه الموسيقى » .
ولكنها صمتت : فرجما كانت ايفيش تحتقر « السيريناد البرتغالية » .
وتجمدت يدا ماتيو فانهار بناء الرمل ، وقال وهو يرفع رأسه :

- احب كثيراً هذه الموسيقى . ما اسم القطعة ؟

قالت اوديت : - « السيريناد البرتغالية » .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق في غودسبرغ . كان الشيخ ينتظره
وفي انغوليم . ومارسيليا ، وغاند ، ودوفر ، كانوا يفكرون : « ماذا

يفعل ؟ هل هبط ؟ هل يتكلم مع هتلر ؟ ان من الممكن ان يكونا في هذه اللحظة يعملان لتسوية كل شيء ، وكانوا ينتظرون ، وكان الشيخ ينتظر ، هو أيضاً ، في الصلاة ذات الشبايك نصف المغلقة . وكان وحيداً ، وقد استدار واقرب من النافذة . كانت الرابية تنحدر نحو النهر ، خضراء وبيضاء . وكان الرين اسود كله ، وكان يشبه طريقاً معبدة بعد المطر . واستدار الشيخ مرة اخرى ، وكان يشعر بمذاق حامض في فمه . واخذ يدق على الزجاج فيتطاير الذباب حوله مذعوراً . كانت حرارة بيضاء ، مغبرة ، فحمة ، عنيدة ، باطلة ، حرارة ذات طوق ، من عهد فريدريك الثاني ، وفي أعماق هذه الحرارة كان شيخ انكليزي يشعر بالضجر ، شيخ قديم من عهد ادوار السابع ، وسائر اجزاء العالم كانت في عام ١٩٣٨ . وفي جوان - لبيان ، يوم ٢٣ ايلول ١٩٣٨ ، في الساعة السابعة عشرة وعشر دقائق ، جلست امرأة ضخمة ترتدي ثوباً من النسيج الابيض على مقعد يثنى ، ونزعت نظارتها الزرقاوين ، واخذت تقرأ الجريدة . وكانت جريدة « لويبي نيسوا » ، وكانت اوديت ديورم ترى العنوان ذا الحروف الضخمة : « رباطة جأش » وجهدت فاستطاعت ان تقرأ تحت العنوان : « مستر شميرلن يوجه رسالة الى هتلر . » وتساءلت : « أتراني « حقاً » استفزع الحرب ؟ » وفكرت : « لا . لا . لا . ليس حتى النهاية . » فلما استفظعتها حتى النهاية لكانت قد نهضت بقفزة واحدة ، واعدت حتى المحطة ، وصاحت : « لا تذهبوا ! ابقوا في بيوتكم ! » وهي تبسط ذراعيها . وتمثلت نفسها ذات لحظة واقفة مستقيمة ، مصلبة الذراعين تصرخ ، فأخذها الدوار ، ثم احست في عزاء انها كانت غير قابلة لارتكاب مثل هذا الطيش الصفيق . ليس حتى النهاية . امرأة جيدة ، فرنسية ، عاقلة ومتحفظة ، تلتزم ركاباً من الأوامر ، ومنها أمر ألا تفكر بشيء حتى نهايته . وفي لاون ، كانت فتاة صغيرة حاقدة ومذعورة ، في غرفة

مظلمة ، ترفض الحرب بكل قواها ، رفضاً أعمى عنيداً . كانت اوديت تقول : « الحرب امر فظيع ! » ؛ كانت تقول : « افكر طوال الوقت باولئك المساكين الذين يذهبون . » ولكنها لم تكن تفكر بشيء بعد ، كانت تنتظر ، بلا نقاد صبر : كانت تعلم انه سيفال لها عما قريب كل ما ينبغي ان تفكر فيه وان تقوله وان تفعله . حين قُتل ابوها عام ١٩١٨ قيل لها : حسناً جداً ، يجب ان تكوني شجاعة ، وتعلمت بسرعة كيف ترتدي ثياب الحداد بحزن عنيد ، وكيف تزرع في عين الناس نظرة يتيمة حرب . وفي عام ١٩٢٤ ، أُجرح اخوها في مراكش ، فعاد اعرج ، وقيل لأوديت : حسناً جداً ، ينبغي خصوصاً الا تراثوا له ، وقال لها جاك ، بعد بضع سنوات : « عجباً ، كنت احسب « اتيان » اقوى من ذلك ، فهو لم يقبل عاهته قط ، لقد اصبح مريح الغضب . » سيذهب جاك ، وسيذهب ماتيو ، وسيكون الامر حسناً جداً ، انها من ذلك على يقين . اما الآن ، فما تزال الصحف تتردد ، وكان جاك يقول : « ستكون حرباً حمقاء » وكان « كانديده » يقول : « اننا لن نقاتل لمجرد ان ألمان السوديت يريدون ان يلبسوا جوارب بيضاء » ولكن البلاد لن تلبث طويلاً حتى تصبح إقراراً هائلاً ؛ سيقر مجلسا الشيوخ والنواب سياسة الحكومة بالاجماع ، وستحي صحيفة «لوجور» ذكرى ابطالنا ذوي الشعر الغزير . اما جاك فسوف يقول : « إن الأعمال يبحثون على الإعجاب » ؛ وستبادل المارة في الشوارع بسامات تقية وضالمة : ستكون هي الحرب ، وستوافق اوديت ايضاً وهي تحرك قبعات صوفية للرأس والأذنين . لقد كان هناك ، وكان يبدو وكأنه يصغي للموسيقى ، وكان يعلم ما ينبغي التفكير به حقاً ، ولكنه لم يكن ليقوله . كان يكتب لايفيش رسائل ذات عشرين صفحة ليشرح لها الحالة . ولم يكن يشرح لأوديت شيئاً .

— م تفكرين ؟

فانتفضت اوديت :

— اني ... لم اكن افكر في شيء .

قال ماتيو : — انت لست محقّة . فأنا قد أجبنتك .

فحنت رأسها وهي تبتسم ؛ ولكنها لم تكن راغبة في الكلام . وكان يبدو مستيقظاً تماماً الآن ، كان ينظر اليها . وسألته منزعجة .

— ماذا هناك ؟

ولم يجب ، وكان يضحك ضحكة اندهاش . قالت اوديت :

— لقد لاحظت اني كنت موجودة ، فأصابتك من ذلك صدمة ؟

أليس كذلك ؟

وحين كان ماتيو يضحك ، كانت عيناه تتغضنان فيشبه صبياً

صينياً . وسأل :

— أتصورين ان بالامكان ألا يلاحظ الناس وجودك ؟

قالت اوديت : — اني لست كثيرة الحركة .

— أجل . ولا كثيرة الحديث ايضاً . وبالإضافة الى ذلك ، تعملين

ما بوسعك لينسك الناس . ولكنك تحفقيين : فحتى حين تكونين عاقلة

ومحتشمة، وتنظرين الى البحر وانت لا تحدّين من الحركة أكثر مما تحدّته

قارة ، فان المرء يعرف انك موجودة هنا . في المسرح يسمون هذا

حضوراً . فهناك ممثلون ينعمون بمنزل هذا الحضور ، وآخرون لا ينعمون

به . اما انت فتنعمين به .

فحررت وجنتنا اوديت ، وقالت بجوية :

— لقد افسدك الروس . ولا بد ان الحضور مزية سلافية جداً . ولكني

لا احسب ذلك مما يناسبني .

فتأملها ماتيو بجد وسألها :

— وما الذي يناسبك ؟

فأحست اوديت بعينيها تطيشان قليلاً وتحركان في محجرهما ،

وضبطت نظرها وأعادته الى قدميها الدارين بأظافرها المصبوغة . انها لم تكن تحب ان يحدثها الناس عن نفسها .

وقالت بمرح : - اني بورجوازية ، بورجوازية فرنسية لا أهمية كبيرة لها .

ولا بد انها لم تبدُ له مقنعة بما فيه الكفاية ، فأضافت بقوة ، لكي تحتم المناشئة :

- اني اي شخص .

فلم يجب ماتيو . ونظرت اليه من طرف عينيها : كانت يدها قد عادتا تجرفان الرمل. وتساءلت اوديت عن الغلطة التي قد تكون ارتكبتها: مهما يكن من أمر ، فقد كان بوسعه ان يحتج قليلاً ، ولو كان بدافع الأدب .

وبعد برهة سمعت صوته العذب الأبح :

- انه لقاس ان يُحس الانسان بأنه اي شخص ، أليس كذلك ؟
قالت اوديت : - انه يعتاد ذلك .

- هذا ما افترضه . غير اني انا لم اعتد ذلك بعد .

فقالت بحيوية : - ولكنك انت ، لست اي شخص .

وكان ماتيو يتأمل البناء الذي اقامه . وكان هذه المرة بناء جميلاً ينتصب وحده في الهواء . وكنسه بضربة يد . وقال :

- ان كل انسان اي شخص .

وضحك :

- هذا كلام بليد .

قالت اوديت : - كم انت حزين .

- ليس اكثر من الآخرين . انا جميعاً ناثرو الأعصاب قليلاً

بتهديدات الحرب هذه .

ورفعت عينيها وارادت ان تتكلم ، ولكنها التفت بنظره ، نظر جميل

هاديء رقيق . وصحت . اي شخص : رجل وامرأتان يتبادلان النظر على شاطئ ماء . وقد كانت الحرب هنا ، حولها ، وكانت قد هبطت فيها وجعلتها شبيهين بالآخرين ، بجميع الآخرين . انه يحس نفسه اي شخص ، انه ينظر الي ، انه يتسم ، ولكنه لا يتسم لي ، وانما لأي شخص . ولم يكن يسألها شيئاً ، الا ان تصمت وتكون بلا هوية ، كالعادة . وكان يجب ان تصمت : فلو انها قلت له « انت لست اي شخص ، وانما انت جميل ، وانت قوي ، وانت بطل روائي حالم ، وانت لا تشبه أحداً » ولو صدقها ، اذن لكان قد انسرب بين أصابعها ولكان قد مضى مرة أخرى في احلامه ، وربما كان قد جرؤ على ان يحب امرأة أخرى ، مثلاً تلك الروسية التي كانت تشرب القهوة حين تشمر بالنعاس . واخذتها انتفاضة كبرياء ، وأخذت تتكلم . وقالت بسرعة :

— سيكون الأمر مريعاً هذه المرة .

قال ماتيو:— سيكون حياقة بصورة خاصة . سوف يهدمون كل ما يستطيعون باروخ ، باريس ، لندن ، روما . وسيكون شيئاً جميلاً ، بعد ذلك !

باريس ، روما ، لندن . ومقصورة جاك ، البيضاء البورجوازية على شاطئ الماء . وارتعشت اوديت ، ونظرت الى البحر . ولم يكن البحر بعد الا بخاراً متلاًئلاً ، وكان مترلج مائي عارٍ وأسمر ، منحني الى امام ، يتزلق على هذا البخار ، بجرة قارب ذاتي . ولم يكن يوسع اي رجل ان يهدم هذا اللؤلؤ المضيء . وقالت :

— سيقتي هنا على الأقل .

— ماذا ؟

— هنا ، البحر .

وهز ماتيو رأسه وقال :

- حتى ولا هذا !

ف نظرت اليه بدهشة : لم تكن تفهم دائماً فهماً صحيحاً ما يعنيه ،
وفكرت في ان تسأله ، ولكن كان عليها فجأة ان تذهب . فقفزت على
قدميها وليست صندلها وتجلبت بمتزرها . وسألها ماتيو :
- ماذا تفعلين ؟

قالت : - يجب ان اذهب .

- لقد جاءتك الفكرة فجأة ؟

- تذكرت اني وعدت جاك بمرقة مثومة لهذا المساء ، ولن تستطيع
مادلين تدبير امرها وحدها .

فقال ماتيو : - ثم انه ينذر خصوصاً ان تبقي طويلاً في المكان
نفسه . واذن ، فاني سأغسل ثانية في الماء .

ورقيت الدرجات المرملة حتى اذا بلغت للسطيحة التفت فرأت ماتيو
يعلمو نحو البحر ، وفكرت : « انه على حق ، فاني مصابة ببله
التنقل . » الذهب دائماً ، والفرار دائماً . فما ان تشرح قليلاً في
مكان ما حتى تضطرب وتشعر بالذنب . وكانت تنظر الى البحر ،
وفكرت : « انني ابدأ خائفة » وكانت خلفها على بعد مئة متر ،
مقصورة جاك ، ومادلين الضخمة ، والمرقة المثومة التي تنتظر الاهداء ،
والتبريرات ، والطعام . واستعادت سيرها ، صوف تسأل مادلين :
« كيف حال امك ؟ » وستجيب مادلين وهي تضح قليلاً : « على
حالتها » فتقول اوديت : « يجب ان تعدي لها بعض المرق ثم تأتيها
ببياض الدجاج فتقصي منه جناحاً ، وستريين كيف تأكله . » فتجيب
مادلين : « آه يا سيدتي العزيزة ، إنها لن تمسه ابداً » فتقول اوديت
« أعطيني هذه » وتتناول الدجاجة فتقطع بيديها جناحاً ، وتستشعر بأنها
مبررة « حتى ولا هذا » . وألقت نظرة اخيرة على البحر ولقد قال :
حتى ولا هذا ، لقد كان مع ذلك خفيفاً جداً ، حتى ليتمكن القول

لأنه السماء مقلوبة ، فإذا بوسعهم ان يفعلوا ضده ؟ لقد كان عجيباً
أخضر ، بلون القهوة بالحليب ، منبسطاً جداً ، رتيباً جداً ، بحر كل
يوم ، وكانت تنبعث منه رائحة اليورد والعقاير ، بحرهم « هم »
ونسيمهم البحري ، وسيجملونهم يدفعون مئة فرنك في اليوم ؛ ونهض
على مرفقيه ونظر الى الأولاد الذين كانوا يلعبون فوق الرمل الرمادي ،
وكانت الصغيرة سيمون شاسير تعدو وتضحك وهي تجر خلعها ساقها
اليسرى المشدودة في حذاء حديدي ، وكان بالقرب من الدرج طفل لم
يكن يعرفه ، لا بد انه جديد ، فهو هزل هزلاً يبعث على الخوف ، ذو
اذنين هثلين ، وكان قد دس أصبعه في انفه وجعل ينظر الى ثلاث
فتيات صغيرات كن يبنين بيوتاً من الرمل . وكان يقوَس كتفيه
الصغيرتين المترننين ويلوي ركبتيه ، ولكن صدره الضخم كان يظل
على صلابته الحجرية . مشد . انحراف سُلي في العمود الفقري . « ولا
بدّ انه معتزه فوق كل شيء » .

قالت جانين : - تمّ وتمدد جيداً . ذلك انك اليوم مضطرب .
فأطاع ورأى السماء . أربح غيمات صغيرة بيض . وسمع صرير
هجلات عربية على الطريق : « اهم يعودون به باكراً ، فن عساه
يكون ؟ » وقال صوت ضخم :

- مرحباً ، ايها الرأس الصغير .
فرفع كبتا ذراعيه بحميرية ، وأدار المرآة فوق رأسه ، وكانوا قد
صروا ، ولكنه عرف ردف المرضة الضخم : كان داريو . وصاح به :

- متى تقصّها ، لحيتك ؟

فأجاب صوت داريو البعيد :

- حين تقصّ بيضاتك !

وأخذ يضحك مسروراً : كانت جانين تحقر الكلمات البذيئة .

- متى يعودون بي ؟

ورأى يد جانين تبحث في جيب سترتها البيضاء فتخرج منها ساعة .

— بعد زهاء ربع ساعة . هل انت ضجر ؟

— لا .

لم يكن ليضجر قط . ان اواني الزهور لا تضجر . انهم مخرجونها حين تشرق الشمس ، ويدخلونها عند هبوط المساء . وهي لا تسأل قط عن رأيها ، فليس لها ان تقر شيئاً ولا ان تنتظر شيئاً . ان المرء لا يستطيع ان يتصور كم يستغرقه ضخ الهواء والنور من جميع المسام . وأصدمت السماء كأنها صنج ، ورأى خمس نقط رمادية صغيرة بشكل مثلث تلتصق بين غيمتين . فاسترخى وتحركت اصابع رجليه : كان الصوت يأتي في موجات نحاسية كبيرة ، وكان ذلك للذيذ يشبه رائحة المخدر حين يضمعونك على الطاولة الكبيرة . وتنهدت جانين ، فظفر اليها من زاوية عينه : كانت قد رفعت رأسها وبدت قلقة ، وكان ثمة بكل تأكيد ما يدعرها « آه ! صحيح : ستقوم الحرب . » وابتسم ، وقال وهو يدير عنقه قليلاً :

— وإذن فالواقفون يعزمون على القيام بها ، حربهم هذه ؟

فأجابت بجمان : — انت تعلم ما قلته لك . فاذا تكلمت هكذا ، امتنعت عن اجابتك .

وصمت ، كان له الوقت بطوله ، وكانت الطائرة تشخر في أذنيه ، وكان يُحسّ بالرضى ، ان الصمت لا يزعجني انا . انها لم تكن تستطيع ان تقاوم ، فالواقفون هم دائماً ققون ، ويجب ان يتكلموا او يتحركوا ؛ وانتهت الى القول :

— اجل ، اني خائفة : فان الحرب مستشب .

قالت ذلك بهيئتها التي تأخذها في ايام العمليات ، هيئة للطفل المسكين وكبيرة المرضات . حين دخلت في اليوم الأول وقالت له : « يجب

إن ترفع جسمك فإني سأرفع الحوض . ، كانت لها هذه الهيئة نفسها ، وكان يعرق ، وكان يحس رائحته ، رائحة الدباغة الفظيعة ، وكانت واقفة ، بارعة ، مجهولة ، تمدّ نحوه يدين فارهتين ، وكانت لها هذه الهيئة نفسها .

ولحس شفثيه على مهل . وانتصر عليها منذ ذلك الحين . وقال لها :

— يبدو عليك الانفعال الشديد .

— أنظن ذلك ؟

— ماذا يمكن للحرب أن تفعله معك ؟ إنها لا تعنيك .

فأدارت رأسها ، وربّت على طرف آلة التثبيت . ما كان لها أن

تشغل بالحرب . فان مهنتها هي أن تعالج المرضى . وقال :

— اني انا لا اهتم بالحرب .

وقالت له : — لماذا تنظّامر بأنك لثيم ؟ انك لا تحب ان تهزم

فرنسا .

— الأمر لديّ سواء .

— سيد شارل ! إنك تخيفني اذ تكون هكذا .

فضحك قائلاً : — ليس الذنب ذني اذا كنت نازياً .

فقالته خائبة : — نازي ؟ ماذا تراك مستخترع ايضاً ؟ نازي ؟

انهم يقتلون اليهود وجميع الذين لا يشاركونهم الرأي ، وهم يسجنونهم ،

وكذلك الكهنة ، وقد احرقوا الريحشتاخ ، وهم لصوص . هذه اشياء

لا يحق لك قولها . ان شاباً مثلك لا يحق له ان يقول إنه نازي ، حتى

ولو كان يمزح .

وكان يحفظ على شفثيه ببسمة صغيرة مدروسة ليحملها على الكلام .

ولم يكن يكره النازيين . لقد كانوا عنيفين وغامضين ، وكانوا يبدوون

كأنهم يريدون التهام كل شيء ، وسرى الى اي حد يمكن ان يصلوا .

سرى . وجاءته فكرة طريفة :

- اذا قامت الحرب ، اصبحنا جميعاً متوازين .
وقالت جانين : - آه ! إنه مسرور ، فاذا حساه قد وجد ؟
قال : - ان الواقفين قد تعبوا من وقوفهم ، فهم ذاهبون ليناموا
على بطونهم في حفر . انا على ظهري ، وهم على بطونهم : ستكون
جميعاً متوازين .

وكان قد مضى وقت طويل وهم منحنون فوقه ينظفونه ويسدونه
بايديهم الماهرة ، فيظل جامداً امام جميع هذه الايدي فوق جسمه ،
ينظر الى وجوههم ابتداء من الذقن ، وثقوب أنوفهم المتصلبة فوق
رؤوس شياهمم وخط الأهداب الاسود في الافق : فقد جاء دورهم بأن
يتمدّدوا . ولم يبدُ على جانين اي رد فعل : فقد كانت اقل نشاطاً
من المؤلف . ووضعت يدها برقة على كتفه وقالت :

- انت رديء ، رديء ، رديء !

وكانت تلك لحظة المصالحة ، وقال لها :

- ماذا هناك للعشاء هذا المساء ؟

- ثريدة بالأرز وحساء من البطاطا ، ثم انك ستكون مسروراً :

سملك نهري :

- ثم ماذا بعد الطعام ؟ خوخ مجفف ؟

- لا ادري .

قال : - خوخ مجفف ولا بد . فقد أكلنا بالامس مربى

المشمش ؟

أكثر من خمس دقائق ، وتمدد وانتفخ ليصيب مزيداً من المتعة ،
ونظر الى طرف عالمه الصغير في عينه الثالثة . حين مغبرة ثابتة مع بقع
سمراء : كان دائماً يحلل الحركات قليلاً ، وكان هذا مسلياً ، اذ
كانت الحركات تصبح صلبة وآلية مثل افلام ما قبل الحرب . وفي
تلك اللحظة بالذات تنسل فيها امرأة بالسواد ، وهي ممددة على آلة

تثبيت ، تنسلّ وتخفي : كان صبي صغير يدفع العربة . وسأل جانين :

- من هذه ؟

قالت جانين : - لا اعرفها . انها مقيمة في مقصورة « مونريبو » ، البيت الكبير الاحمر على شاطئ البحر .

- اهاك اجري اندريه عملته ؟

- نعم .

وتتنفس بعمق . وكانت شمس رطبة حريرية تسيل في فمه ، وفي منخرينه ، وفي عينيه . وهذا الجندي ، ماذا قدم يفعل هنا ؟ أهو بحاجة الى ان يتنفس هواء المرضى ؟ ومرّ الجندي في المرآة ، صلباً كأنه صورة فانوس سحري ، وكان يبدو مهموماً ، فاستقام شارل على مرفقه وتبعه بعينيه في فضول : انه يسير ، له بحسّ ساقيه وفخذه ، وجميع جسمه يثقل على قدميه . وتوقّف الجندي وأخذ يتحدث الى ممرضة ، وفكر شارل متعزياً : « آه ! انه واحد من هنا . » وكان يتكلم برصانة وهو يهز رأسه ، من غير ان يفقد هيئته الخزية ؛ إنه يغتسل ويرتدي ثيابه وحده ، وهو يذهب حيث يشاء ، ويجب ان يهتم بنفسه طوال الرقت ، وهو يحس نفسه غريباً لأنه واقف : لقد عرفت هذا . سيحدث له شيء ما . ستترجم الحرب غداً وسيحدث لهم جميعاً شيء ما . لهم لا لي . اما انا ، فاني شيء .

قالت جانين : - لقد آن الاوان .

وكانت تنظر اليه بحزن ، وكانت عيناها مليئتين بالدموع . ما

ابشعها . وقال لها :

- إنك تحبينها جيداً ، لعبتك ؟

- اوه طبعاً .

- لا تهزّيني كما حدث في الذهاب .

— كلا .

وتدقت الدموع وتدحرجت على الوجنتين الممتعتين . ونظر اليها في حذر .

— ما بك ؟

فلم تجب ، وكانت قد انحنت فوقه وهي تلهث ، وكانت ترتب غطاء سريره ، وكان يرى ثقبى انفها .

— انك تخنين عني امراً .

فظلت على صمتها ؟

— ماذا تخنين عني ؟ هل تخاصمت مع السيدة « غوفرينه » ؟ هيتاً قولي ، فانا لا أحب ان اُعامل كالأطفال .

وكانت قد استقامت ، وكانت تنظر اليه بحنان يائس . وقالت وهي تبكي :

— انهم سينقلونكم .

فلم يفهم جيداً ما تعني . وقال :

— انا ؟

— جميع مرضى « برك » ، فهذا المكان اقرب الى الحدود مما ينبغي .

فأخذ يرتعش وشرق يد جانين وشدّها اليه :

— ولكي اريد ان ابقى .

فقالت بصوت كئيب :

— لن يدعوا احداً هنا .

وشدّت على اليد بكل قواه وقال :

— لا اريد ، لا اريد !

فخّصت يدها من غير ان تجيب ، ومرّت وراء العربة وأخذت في دفعها . واستقام شارل وجعل يبرّم بين اصابعه زاوية من الغطاء .

- ولكن الى اين سيرسلونا ؟ ومتى نذهب ، وهل تذهب
المرضات معنا ؟ قولي شيئاً ما .

فظلت على صمتها ، وكان يسمعها تترفر فوق رأسه : وترك نفسه
يسقط الى خلف وقال بصوت عاصف :

- وهكذا يكونون قد تغلبوا علي حتى النهاية .

لا اريد ان انظر في الشارع . ووقف ميلان امام النافذة ،
انه ينظر ؛ وهو مقطب . انهم ليسوا هنا بعد ، ولكنهم يجرون
اقدامهم حول مجموعة البيوت . اني اسمعهم . وأنحي على ماريكا
واقول لها :

- اجلسي هناك .

- اين ؟

- بين النوافذ ، لصق الجدار .

وتقول لي :

- لماذا ارسلوني الى بيتك ؟

فلا اجيب ، فتقول :

- من الذي يصرخ ؟

فلا اجيب . الأقدام التي تسحب نفسها . صوتها ينبعث شوشو شوشو او

او شو . واجلس ارضاً بالقرب منها . اني ثقيلة . وآخدها بين

ذراعي . ميلان على النافذة ، بعض اظافره بهيئة فارغة . وأقول له :

- ميلان ؟ تعال بالقرب منّا ؛ ولا تبق على النافذة .

انه يتم ، وينحي فوق المتكأ ، يتحصن ان ينحني ؛ الاقدام

التي تسحب نفسها . سيكونون هنا بعد خمس دقائق . وتقطب ماريكا

حاجبها الصغيرين :

- من الذي يمشي ؟

- الالمان .

فتقول « ها ؟ » ويستعيد وجهها صفاءه . انها تستمع بوقاحة الى الاقدام التي تسحب نفسها ، كما تستمع الى صوتي في الصف او الى المطر او الى الريح في الشجر : لأن ذلك هناك . وانظر اليها فترد لي نظرة صافية . حبذا لو كنت هذه النظرة ، لو لم أكن الا هذه النظرة التي لا تفهم ، ولا تتنبأ . أود لو أكون صماء ، اود لو اسحر نفسي على هاتين العينين ، اود لو اقرأ الضجة في هاتين العينين . ضجة عذبة حارية من المعنى ، كضجة اوراق الشجر . اني انا اعرف ان هذه أقدام تسحب نفسها . انها مائة ، انهم سيأتون بميوعة وسيضربونه حتى يصبح مائماً كله في اطراف أذرعتهم . انه هنا ، قاسٍ شديد ، ينظر من النافذة : سوف يمسكونه بأذرعتهم ، وسوف يصبح رخواً وتبدو على وجهه المسحوق هيئة البلاء ، سوف يضربونه ويقذفونه ارضاً ، وغداً سيشر امامي بالحجل .

وترنح ماريكا بين ذراعي فأسألها :

— هل انت خائفة ؟

فتوميء برأسها تقياً . انها ليست خائفة . انها رصينة كما تبدو ، اذ اكتب على اللوح الاسود فتتابع يدي بعينيها وهي تفغر فاهها . انها تجهد وتجتهد : فقد فهمت الاشجار والماء ثم الحيوانات التي تسير وحدها ، ثم الناس ، ثم الاحرف الهجائية . اما الآن ، فان هناك صمت الاشخاص الكبار وتلك الاقدام التي تسحب نفسها في الشارع ، وهذا ما ينبغي فهمه ، لأننا بلد صغير . سوف يأتيون ، وسيُمرّون دباباتهم عبر حقولنا ، وسيطلقون نارهم على رجالنا . لأننا بلد صغير . يا إلهي ! اقصر بأن يأتي الفرنسيون لنجدتنا ، يا إلهي ، امنعهم من ان يتخلوا عنا .

قال ميلان :

— ها هم اولاء .

لا اريد ان انظر الى وجهه . وانما اريد ان انظر الى وجه ماريكا

فقط لأنها لا تفهم . أنهم يتقدمون في شارعنا ، يجرون اقدامهم في شارعنا ، يصرخون باسمنا ، فاني اسمعهم . اني هنا جالسة ارضاً ، ثقيلة جامدة ، ان مسدس ميلان في جيب وزرتي . انه ينظر الى وجه ماريكا : هي فاعرة الفم . ان عينيها صافيتان ، وهي لا تفهم :

كان يمشي على الخط الحديدي ، وكان ينظر الى الحوائت ويضحك انشراحاً . كان ينظر الى الخطوط ، وكان ينظر الى الحوائت ، ينظر باستقامة الى الشارع الابيض ، وهو يطرف بعينه ويفكر : « انا في مارسييا » . كانت الحوائت مغلقة ، وكانت الستائر الحديدية مسدلة ، وكان الشارع خالياً ، ولكنه كان في مارسييا . وتوقف ووضع محفظته ونزع سترته الجلدية فوضعها على ذراعه ، ثم مسح جبينه ووضع المحفظة على ظهره . وكانت به رغبة لأن يعقد طرفاً من حديث مع احد . وقال : « معي اثنا عشر عقب سيكارا ، وعقب سيكار واحد في مندلي » . وكانت خطوط السكة تلامع ، وكان الشارع الطويل الابيض يبهره ، وقال : « ان في محفظتي نيذاً احمر . » وكان به عطش ، وكان بوسعه ان يشربه ، ولكنه كان يؤثر ان يشرب جرعة في حانة ، لو لم تكن جميع الحانات مغلقة . وقال : « لم أكن اتوآع ذلك » . واخذ يمشي بين الخطوط ، وكان الشارع يعكس الاشكال كالنهر بين بيوت صغيرة سوداء . والى اليسار كان يقوم كثير من الحوائت ولكن لم يكن مستطاعاً ان يعرف المرء ما كانت تبعه ، بالنظر الى ان الستائر الحديدية كانت مسدلة ؛ والى اليمين كانت تقوم بيوت متنوعة في الهواء الطلق وخالية تشبه محطات ، وبين وقت وآخر يظهر جدار من قرميد . ولكنها كانت مارسييا :

وسأل غرو لويس :

— اين يمكن ان يكونوا ؟

وصاح صوت : — عودوا بسرعة :

وكانت في زاوية زقاق حانة مفتوحة . وكان يقف على عتبتها صبي
سمين يصبح : « عردوا بسرعة » .
وخرج فجأة من الارض أشخاص لم يسبق لغرو لويس ان رآهم ،
وأخذوا يركضون نحو الحانة . فأخذ غرو لويس يركض هو ايضاً ،
وكان الصبية الآخرون يدخلون وهم يتدافعون ، وقد اراد ان يدخل
خلفهم ولكن فتي الباب أعطاه ضربة صغيرة جافة على صدره بظاهر
يده ، وقال له :
- « حلّ عني » .

وكان ثمة طفل ذو مريول يحمل بين ذراعيه طاولة صغيرة أكبر منه
وهو يحاول ان يدخلها الى المقهى . وقال غرو لويس :
- « حسناً ، ايها البمين ، اني ذاهب . ولكن أليست لديك جُرعة ؟
- قلت لك ان تحمل !

قال غرو لويس : - اني ذاهب . فلا حاجة بك لأن تخاف .
فلست ذاك الذي يبقي في جماعة لا يرغبون برفقته .
فأولاه الفتى ظهره ، ثم نزع بضربة واحدة مزلاج الباب الخارجي
ودخل المقهى وهو يغلقه خلفه . ونظر غرو لويس الى الباب : كان
باقياً في مكان المقبض ثقب صغير مستدير ذو اطراف بارزة . وحك
رقبته وردد : « اني ذاهب ، وهو ليس بحاجة لأن يخاف » . وقد
اقرب مع ذلك من الزجاج وحاول ان يلقي نظرة في المقهى ، ولكن
أحدهم سحب الستائر في الداخل فلم ير بعد شيئاً . وفكر : « لم أكن
اتوقع ذلك » . وكان يرى الشارع الى اليمين والشمال ممتداً على مدى
النظر ، وكانت الخطوط تلتصق ، وكان على الخطوط حافلة صغيرة
سوداء مهجورة . وقال غرو لويس : « اود لو أدخل الى مكان ما »
وكان يود لو يشرب جرعة في حانة ، ويعقد طرفاً من حديث مع
صاحبها . وأوضح وهو يحكّ صلته : « ليس سبب ذلك اني لم اعته

أن اكون في الخارج ، . ولكن حين يكون في الخارج ، عادة ، يكون الآخرون في الخارج ايضاً ، كان هناك الخراف والرعاة ، وكان في ذلك نوع من الرفقة ، ثم انه حين لا يكون ثمة أحد ، لا يكون ثمة احد ، هذا كل ما في الامر . بينما هو الآن في الخارج وجميع الآخرين في الداخل ، خلف جدرانهم وابوابهم التي ليس لها مقابض . كان وحيداً في الخارج مع الحافلة الصغيرة . ودق على زجاج المقهى وانتظر ، فلم يجب احد . لو لم يرههم بأمر عينه يدخلون لأقسم بأن المقهى كان خالياً . وقال : « اني ذاهب » ، وذهب . وبدأ يشعر باشتداد العطش ، وهو لم يكن يتصور مارسيليا هكذا . وكان يمشي ويفكر بأن الشارع كانت تبعث منه رائحة العفونة . وقال : « اين زاني سأجلس ؟ » وسمع خلفه جلبة ، كما لو انه قطع غم يرمي للكأ . والتفت فرأى في البعد جماعة تحمل الاعلام . وقال : « آه ، حسناً ، سأراهم يمرون » ، واستشعر الرضى للغامر . والواقع انه كان في الجانب المقابل من الخطوط ساحة ما ، مكان لسوق ، مع كوخين صغيرين قديمين يستندان الى جدار كبير ، وقال : « سأجلس هناك لأراهم يمرون » . وكان احد الكوخين حانوتاً ، اذ كانت رائحة المقاتن والبطايا المقلية تبعث حوله . وقد رأى غرولويس شخصاً مستأثراً

ذا مثرر ابيض يحرك مقلاة داخل الحانوت ، فقال له :

— اعطني بطايطا مقلية يا ابتاه .

فالتفت الشيخ وقال :

— طز !

قال غرولويس : — اني املك المال .

— طز في مالك . اني اخلق الحانوت .

وخرج ، وأخذ يدير مقبضاً ، فهبط ستار حديدي في صخب .

وصاح غرولويس لميطني صوته على الصخب .

— لم تبلغ الساعة السابعة .

فلم يجب العجوز . وصاح غرو لويس :

— كنت اظن انك تغلق دكانك لأن الساعة بلغت السابعة .

وكان الستار الحديدي قد أسدل ؟ ونزع العجوز المقبض ، ثم

استقام وبصق :

— ألم ترهم قادمين ايها الأبله ؟ انني لست حريصاً على ان اهب

بطايطي المقلية مجاناً !

قال ذلك ودخل كوخه الصغير .

ونظر غرو لويس الى الباب الأخضر فترة اخرى ، ثم جلس على

الأرض وسط ساحة السوق . واسند ظهره بمحفظته وتدفاً بالشمس . وفكر

بأنه كن يملك كسرة من الخبز ، وزجاجة من النبيذ الأحمر ، واثني

عشر عقباً من السكاير وعقباً واحداً من السيكار ، فقال : « واذن ،

فاني سأكسر الصفرة . » وكان الجمع ، في الجهة المقابلة من الخط

الحديدي ، قد بدأوا يسرون وهم يحركون أعلامهم ويفنون ويصيحون ؛

وكان غرو لويس قد أخرج سكينه من جيبيه وراح ينظر اليهم

يمرون وهو يكسر الصفرة . وكان فيهم من يرفعون قبضاتهم وآخرون

يصيحون به : « تعال معنا ! » فكان هو يضحك ، ويحييهم لدى

مرورهم ، وكان يجب كثيراً الجلبة والحركة ، اذ كان ذلك يحدث

تسلياً صغيرة .

وسمع وقع خطى فالفت . كان زنجي طويل قادماً نحوه ، وكانت

ذراعاه عاريتين ، وكان يرتدي قميصاً ذا لون وردي حائل ؛ وكان

بنظرانه الأزرق يتسع وينبسط لدى ربلات ساقيه الهزيلتين عند كل

خطوة . ولم يكن يبدو مستنجلاً . وتوقف ولوى تبان سباحة بين يديه

السمراوين الورديتين . وكان الماء يقطر على الأنبار فيحدث دوائر صغيرة .

وطوى الزنجي التبان في منشفة ثم نظر الى الجمع بلا اكتراث وهو

يصفر . وصاح به غزو لويس :

- ها !

فنظر اليه الزنجي وايتسم له .

- ماذا يفعلون ؟

فأقبل الزنجي عليه وهو يؤرجح كتفيه ، ولم يكن يبدو مستعجلاً ، وقال :

- إنهم عمال المرفأ :

- هل هم مُضربون ؟

فقال الزنجي :- انتهى الاضراب، ولكن هؤلاء يريدون ان يُستأنف،

قال غرو لويس :- آه ! من أجل هذا !

فنظر اليه الزنجي لحظة من غير ان يقول شيئاً . وكان يبدو عليه

كأنه يبحث عن افكاره . وانتهى الى الجلوس على الأرض ، ووضع

تيانه على ركبتيه وأخذ يلف سيكارة . وكان يصفر . وسأل :

- من اين انت قادم هكذا ؟

قال غرو لويس :- انني قادم من « براد » .

قال الزنجي :- لا أعرف اين تقع .

فقال غرو لويس :- آه ! لا تعرف اين تقع ؟

وضحك كلاهما ثم أوضح غرو لويس :- لم اكن مسروراً فيها ،

قال الزنجي :- وانت قادم تبحث عن عمل ؟

فأوضح غرو لويس :- كنت راحياً ، وكنت ارعى الخراف على

« الكانيغو » ، ولكنني لم اكن مسروراً فيها .

فهز الزنجي رأسه وقال بقسوة :

- لم يبق ثمة من عمل .

قال غرو لويس :- اوه ! سأجد عملاً ولا شك . (وأراه يديه)

بوصعي ان أعمل كل شيء .

فردد الزنجي : - لم يبق من عمل .
وصمتا . وكان غرو لويس ينظر الى الجمع السائر الذي يصبح . كانوا
يصرخون : « الى المشنقة ! سايباني الى المشنقة . » وكان معهم نساء
حمرات مشعثات ، وكن يفغرن افسواهن كما لو انهن يوشكن ان
يلتهمن كل شيء ، ولكن لم يكن يُسمع ما يروينه ، فقد كان الرجال
يصيحون اكثر منهن . وكان غرو لويس مسروراً . فقد كان ينعم
برفاق . وفكر : ان هذا مضحك . ومرت امرأة ضخمة هناك ، مع
الأخريات ، وكان ثدياها يتايلان . وفكر غرو لويس بأنه لن ينزعج
اذا مازحها ساعة من زمن ، فسوف تمتلئ منها يده . وأخذ الزنجي
يضحك . وكان يضحك بشدة حتى انه كاد يخنق بدخان سيكارته .
كان يضحك ويسعل في وقت واحد . وربت غرو لويس على ظهره
وسأله ضاحكاً :

- لماذا تضحك ؟

وكان الزنجي قد استعاد جده فقال :

- هكذا !

قال غرو لويس : - اشرب جرعة .

فتناول الزنجي الزجاجة وشرب من عنقها وشرب غرو لويس ايضاً .
وكان الشارع قد خلا من جديد .

وسأله الزنجي : - اين نمت ؟

فقال غرو لويس : - لا ادري ! في ساحة ملأى بالشاحنات ،
تحت ستارة ، وكانت تنبعث منها رائحة الفحم .

- هل معك مال ؟

فقال غرو لويس : - قد يكون معي .

وفتح باب المقهى فخرج جمع من الرجال . وظلوا برهة في الشارع ،
وكانوا ينظرون الى حيث يسير المضربون ، وهم يحمون عيونهم بأيديهم .

ثم مضى بعضهم بخطى بطيئة وهم يشعلون لفافاتهم ، وبقي الآخرون في الشوارع ، زرافات صغيرة . وكان ثمة شخص أحمر ذو كرش يحرك ذراعيه . وقال بغضب لفتى لم يكن يبدو عليه اليأس :

— إن الحرب في مؤخرتنا وتأتي لتحدثنا عن النقابية ؟
وكان يرشح عرقاً ، ولم يكن يلبس سترة ، وكان قبضه مفتوحاً وعليه بقعتان عريضتان رطبان لدى الإبطين . والتفت غرو لويس نحو الزنجي وسأل :

— الحرب ؟ اية حرب ؟

قال دانيال : — مقعد ! هذا ما نحتاجه .
وكان مقعداً أخضر ، يستند الى جدار المزرعة ، تحت النافذة المفتوحة . ورفع دانيال الحاجز ودخل الى الساحة . وعوى كلب واندفع الى أمام ، وهو يشد على سلسلته ؛ وبدت امرأة عجوز على عتبة البيت ، وكانت تحمل قدراً صغيرة ، وقالت وهي تشهر القدر :

— لا ! لا ! بر ! هل تريد ؟

فهمدر الكلب قليلاً ثم اضطجع على بطنه . وقال دانيال وهو ينزع قبعة :

— هل تسمحين لها بان تجلس على هذا المقعد ؟

فجعدت العجوز عينيها بحذر : ربما كانت لا تعرف الفرنسية .

وردد دانيال بصوت مرتفع :

— ان زوجتي متعبة بعض الشيء .

فانقلت العجوز نحو مارسيل التي كانت قد استندت الى الحاجز ، فذاب

حذرها .

— بكل تأكيد تستطيع زوجتك ان تجلس . فالقاعد انما جعلت لهذا .

وليست هي التي ستلث مقعدنا منذ وجد هنا . هل انما آتيان من

« بيروراد » ؟

فدخلت مارسيل بدورها وأقبلت تجلس وهي تبتسم ، وقالت :

— نعم . لقد كنا نريد ان نمضي حتى مرتفعات الشاطيء ، ولكني

ارى الآن انها بعيدة بعض الشيء بالنسبة لي .

فغمزت العجوز بعينها غمزة ضالعة وقالت :

- طبعاً ! يجب ان تكون حكيمة ، من تكون في وضعك .

فتركت مارسيل نفسها تستند الى الجدار ، وعيناها نصف مغمضتين ، وهي تضحك ضحكة صغيرة سعيدة . وكانت العجوز تنظر الى بطنها نظرة العارفة ، ثم التفتت الى دانيال ، فهزت رأسها وابتسمت له بسمة تقدير . وشنج دانيال يده على عصاه وابتسم كذلك . وكان الجميع يتسمون ، وكان البطن هنا ، واثقاً مطمئناً . وخرج صبي من المزرعة وهو يتعثر ، فتوقف فجأة وحدد في مارسيل نظرة قفقة . ولم يكن يرتدي سروالاً تخانياً ؛ وكانت فخذاه الصغيرتان محمرتين متصلبتي القشرة . وقالت مارسيل بلهجة يقظة :

- كنت اود ان ارى مرتفعات الشاطيء .

فقال العجوز : - ولكن هناك سيارة تاكسي في برهوراد . وهي تخص « لاميلان » الابن ، ومنزله هو آخر منزل على شارع بيداس . قالت مارسيل : - أعرف ذلك .

فالتفت العجوز الى دانيال وهددته باصبعها :

- آه ! يا سيدي ، يجب ان تكون لطيفاً مع السيدة ، وان تحقق لها كل رغباتها .

فابتسمت مارسيل وقالت :

- انه لطيف . ولكني انا التي اردت ان اسير .

ومدت ذراعها فلامست رأس الصبي . وكانت تهتم بالاطفال منذ اسبوعين ، وقد جاءها ذلك فجأة ، كانت تلمسهم وتجسهم كلما كانوا في متناول يدها .

- أهر حفيدك ؟

- انه ابن حفيدتي . وهو في حوالى الرابعة من عمره .

قالت مارسيل : - إنه جميل .
- حين يكون هادئاً . (وخفضت العجوز صوتها) : اتراه
سيكون صيباً ؟

قالت مارسيل : - آه ! اود ذلك كثيراً .
فأخذت العجوز تضحك :

- يجب ان ترددي كل صباح الصلاة للقديسة مرغريت .
وحدث صمت صريح تعممه الملائكة . وكانت جميع العيون قد
اتجهت الى دانيال ، فأنحى على عصاه واسبل جفنيه بهيئة تواضع ورجولة .
وقال بلطف :

- سأعجبك مرة اخرى يا سيدتي . فهل تستطيع ان اطلب منك
كوب حليب لزوجتي ؟ (والفتت الى مارسيل) : هل تأخذين كوب
حليب ؟

قالت العجوز : - سأعطيك إياه .
واخذت في مطبخها . وقالت مارسيل :
- تعال اجلس بالقرب مني .
فجلس ، وأخذت يده وهي تقول :
- كم انت متنبه .

فابتسم . وكانت تنظر اليه بشغف ، وظل يبسم وهو يحنق تناؤبية
مطت شفثيه حتى الاذنين . وكان يفكر : يجب الا يكون مسموحاً
به ان تبدو المرأة حاملاً الى هذا الحد . وكان الهواء لزجاً ، محموماً
بعض الشيء ، وكانت بعض الروائح تحنق فيه كأنها من نبات الأشنة ،
وكان دانيال ينظر الى اهتزاز دغل اخضر وأحمر ، فيما وراء الحاجز ،
وكان منخره وفه قد امتلأت من اوراق الشجر . بعد خمسة عشر يوماً .
خمس عشرة يوماً خضراء مهتزة ، خمسة عشر يوماً في الريف . وكان
يكره الريف . وكان اصبع نخجول ينتزه على يده ، وهو يتردد تردد

غصنٍ تَورججه الريح . واخفض عينيه ونظر الى الاصبع . وكان
ايضاً ، سميناً بعض الشيء ، وكان يحيط به خاتم . وفكر دانيال :
« انها تعبدني » . معبود . وكانت هذه العبادة المتواضعة المتسلسلة تسيل
فيه كأنها روائح الحقول الحية . وأغمض عينيه نصف إغماضة فسالت
عبادة مارسيل مع الأغصان الهامسة ، مع رائحة الزبل والبرجيس :
وسألته مارسيل :

— بم تفكر ؟

فأجاب دانيال : — بالحرب .

وعادت العجوز بكوب من الحليب المزبد . فتناولته مارسيل من
يديها وشربت جرعات كبيرة . وكانت شفتها العليا تبحث عن السائل
بعيداً في الكوب ، فتشرقه بصوت خفيف . وكان الحليب يغني وهو يمر
في حلقها . وقالت متنهدة :

— كم هو منعش !

وكان قد ارتسم على شفتها شارب ايضاً . وكانت العجوز تنظر
اليها نظرة طيبة وقالت :

— حليب طازج : هذا ما تحتاجين اليه ، من اجل الصغير .

وضحكنا كلتاهما ، ونهضت مارسيل وهي تستند الى الجدار ،
وقالت لدانيال :

— أحسنى مرتاحة جداً . وسنذهب متى شئت .

قال دانيال وهو يلمس في يد العجوز ورقة :

— الى اللقاء يا سيدتي . اننا نشكر لك ضيافتك الكريمة .

وقالت مارسيل ببسمة حميمة : — شكراً يا سيدتي .

قالت العجوز : — مع السلامة ، وامشيا على مهل ، في طريق
العودة :

وفتح دانيال الحاجز واعي امام مارسيل : فاصطدمت بحجر كبير

وتعثرت ، فصاحت العجوز من بعيد :

— هيه !

قال دانيال : — خذي ذراعي .

فقالت مارسيل مضطربة : — كم انا قليلة الخدق !

واخذت ذراعه ، فأحس بها لصقه حارّة وغير متناسبة ؛ وفكر :

« لقد وسع ماتيو ان يشتهيها . » وقال :

— احرصي على ان تسيري بخطى صغيرة .

سياجات مظلمة . الصمت . الحقول . خط الصنوبر الاسود في

الافق . وكان رجالٌ يعودون الى المزارع بخطى بطيئة ثقيلة ؛ سوف

يجلسون الى الطاولة الطويلة ، وسوف يلتهمون حساءهم ، من كؤده غير ان

يقولوا كلمة . وعبر الطريقتين قطع من البقر . وخافت احداهما فأخذت

تخبّ وتقفز . والتصقت مارسيل بدانيال ، وقالت وهي تخفض

صوتها :

— تصوّر : اني اخاف البقر .

فشدّ دانيال ذراعها برقعة ونكر : « لنذهب الى الشيطان ! »

وتنفّست بعمق وصمت . ونظر اليها من زاوية عينه ورأى عينها

الغامضتين ، وبسمتها المستنيمة ، وهيتها المغتبطة : ونكر في رضى :

« حسناً . لقد رحلت من جديد ! » وكان ذلك يحدث لها بين الفينة

والفينة ، حين كان الطفل يتحرك في بطنها ، او يعبر بها إحساس

مجهول ؛ وكان لا بدّ تشعر بأنها متعددة غزيرة ، مجردة . ومهما

يكن من امر ، فانها خمس دقائق طويلة من الريح ؛ وفكر : « اني

انتزّه في الريف ، وهناك بقرات تمر ، وهذه المرأة الضخمة هي

امراتي . » وأخذته الرغبة في الضحك ، انه لم ير في حياته هذا العدد

من البقر . لقد اردت ذلك ! اردت ذلك ! كنت تمنى كارثة ، فها

ان امنيتك تتحقق ! كانا يسيران على مول ، كأنها حبيبان ، وذراعها

في ذراعه ، وكان الذباب يطن حولها . وقد نظر اليهما رجل مسن كان يستند الى مقليب ، جامداً على حافة حقله ، فبسم لهما . وأحس دانيال انه محمر بعنف . وفي تلك اللحظة ، خرجت مارسيل من خدرها وسألت فجأة :

- وهل تظن انت انها واقعة ، هذه الحرب ؟

وكانت حركاتها قد فقدت صلابتها الهجومية ، فاستراحت ووهنت ؛ ولكنها كانت قد احتفظت بصوتها الايجابي الوعر . ونظر دانيال الى الحتول : حقول ماذا ؟ لم يكن يميز بين حقل ذرة وحقل شمندر ، وسمع مارسيل تردّد :

- هل تعتقد بأنها ستقع ؟

وفكر : « ليت ان الحرب تقع ! » انها ستصبح أرملة . أرملة مع الطفل ومع ستمئة الف فرنك من العملة النقدية . بصرف النظر عن بعض ذكريات حول زوج لا مثيل له : فما عساها يمكن ان تطلب اكثر من ذلك ؟ وتوقف فجأة وقد حرّكته الرغبة ؛ وشد عصاه بكل قواه ، وفكر : « يا آهبي ! المهم ان تقع الحرب ! » صاعقة وحشية تفجر هذه العذوبة ، تحرث هذه الارياض حرناً فظيماً ، تحفر هذه السهول أقماعاً ، تسوي هذه الاراضي المنبسطة الرتيبة على شكل بحر متنفّض ، الحرب ، مذبحه الرجال ذوي الارادة الصلبة ، ومجزرة الابرياء ؛ هذه الساء الصافية ، سيمزقونها بأيديهم . وكم سيكره بعضهم بعضاً ! وكم سيخافون ! وانا ، كم سأهتز في بحر الكراهية هذا ! وكانت مارسيل تنظر اليه في دهشة . واخذته الرغبة في الضحك ، - لا ، لا اعتقد بذلك .

وكان على الطريق اطفال ، بأصواتهم الثاقبة الودية وضحكاتهم السلم . ان الشمس ترف على السياجات كالأمس ، وكالغد ؛ وظهر برج بيرهوراد عند منعطف الشارع ، لكل شيء في العالم رائحته ،

وظفه المسائي الطويل المتقنع ، ومستقبله الخاص . ومجموع هذه المستقبلات جميعاً هو السلم : فبالإمكان لسه على خشب هذا الحاجز المخور ، وعلى عتق هذا الصني الرطبة ، وبالإمكان قراءته في عينيه النهمين ، وهو يصعد من القرائص الذي يدفئه الهار ، وهو يُسمع في رنة هذه الأجراس . في كل مكان ، تجمع رجالٌ حول أواني الحساء التي يتصاعد منها البخار ، فهم يكسرون الخبز ، ويصبون الخمر في الكؤوس ، ويمسحون سكاكينهم ، وتصنع السلام حركاتهم اليوية . انه هناك ، نسجته جميع هذه المستقبلات ، وهو يملك عناد الطبيعة المتردد ، وهو عودة الشمس الخالدة ، وجمود الأرياف المرتعش ، ومعنى اعمال الرجال . فليس ثمة حركة لا تدعره ولا تحمقه ، وحتى تتأقل مشية مارسيل الى جانبي ، وحتى ضغط أصابعي الرقيق على ذراع مارسيل . ضربات حجارة من النافذة : « اخرجوا من هنا ! اخرجوا من هنا ! » فلم يملك ميلان من الوقت اكثر من ان يرتد الى خلف . وكان صوت ثاقب يصرخ باسمه : « هلينكا ! ميلان هلينكا ، اخرج من هنا » . وغنى احدهم : « ان التشيكين هم كالدراغيث في الفرو الألماني » . وكانت الحجارة قد تلحرجت على الارض ، وكسرت بلاطة مرآة المدخنة . وسقطت بلاطة اخرى على الطاولة فسحقت كوباً مليئاً بالقهوة ؛ وسالت القهوة على القماش المشمع ، واخذت تقطر ببطء على الارض . واستند ميلان الى الجدار ، ونظر الى المرآة والطاولة والارض ، بينما كانوا يصرخون بالالمانية تحت النافذة . وفكر : « لقد دلقوا قهوتي ، وأمسك بكرسي من مسنده ، وكان يرشح عرقاً . ورفع الكرسي فوق رأسه ، فصاحت انا :

— ماذا تفعل ؟

— سأقذف به رؤوسهم .

— ميلان ! لا يحق لك . فلست وحدك .

فوضع الكرسي ونظر الى الجدران في دهشة . انها ليست بعد
غرفته ؛ فهم قد بقروها . وصعدت في عينيه غمامة حمراء ، وغرز يديه
في جيبيه وردد : « لست وحدي ، لست وحدي . » وكان دانيال
يفكر : « اني وحدي » وحيد مع أحلامه الدامية في هذا السلام الممتد
على مدى النظر . فالذبابات والمدافع والطائرات والحفر التي تمزق الحقل ،
كل ذلك لم يكن إلا ضجيجاً في رأسه . ابدأ لن تنشق هذه السماء ؛
كان المستقبل هنا ، قد حطّ على هذه الارياف ؛ وكان دانيال في
داخله ، كدودة في تفاحة . مستقبل واحد . مستقبل جميع الناس :
لقد صنعوه بأيديهم ، على مهل ، منذ اعوام ؛ ولم يدعوا لي فيه أدنى
مكان ، أقل حظّ . وصعدت الى عيني ميلان دموع غضب ، والتفت
دانيال الى مارسيل : زوجتي ، مستقبلي ، المستقبل الوحيد الذي يبقى لي ،
ما دام العالم قد قرر أمره بشأن السلم .

إفعل كالجرد ! وكان قد اُنصب على ساعديه وراح ينظر الى
الحوائت تترى . وقال صوت جانين المبتهل :

— عند الى الاضطجاع ! ثم لا تلتفت طوال الوقت هكذا ، الى
اليمن والى الشمال ؛ إنك تصيبني بالدوار .

— أين تراهم سيرسلونا ؟

— لقد قلت لك اني لا اعرف .

— انت تعرفين انهم سينقلونا . ولا تعرفين أين سيرسلونا ؟ آه !

اني اصدقك كثيراً !

— ولكني أقسم لك انهم لم يقولوا لي . لا تعذبني !

— اولاً ، من قال لك ذلك ؟ انها ليست إشاعة ! فيوسعهم ان

يجعلوك تبلعين كل شيء .

قال جانين على مضض : — انه طيب العيادة .

— ولم يقل اين سذهب ؟

كانت العربة تسير في مسمكة « كوزيه » ، ودخل ، رجلاه أولاً ،
في رائحة قدرة .

— اسرعوا ! انها تشبه رائحة الفتاة الصغيرة التي تهمل نفسها !
— لا .. لا استطيع ان اسرع اكثر من ذلك . ابهل اليك يا لعبتي
الصغيرة ، لا تهيج ، والا ارتفعت حرارتك مجدداً الى ٣٩ (وتهدت
كأنما تخاطب نفسها) ما كان لي ان اقول لك ذلك .
— طبعاً ! ويوم الرحيل كانوا سيخدروني او يروون لي انهم
ياخذوني للترمة .

وتلمد من جديد لأنهم أوشكوا على المرور امام مكتبة « ناتي » .
وكان يكره مكتبة « ناتي » بواجبتها المصفرة القدرة . ثم ان العجوز
كانت دائماً تقف على حتبة الباب فتضم يديها حين تراه ماراً .
— انك تهزيني ! فتنهيني !

كالجرذ ! ان في الجرذان من استطيع ان ينهض ويركض ليختبيء
في الكهف او في المخزن . اما انا ، فرزمة . وليس لهم الا ان يأتوا
فياخذوني .

— أنت التي ستلصقين البطاقات ؟

— أية بطاقات ؟

— بطاقات الانتقال : فوق وتحت ، سريع العطب ، الرجاء نقله
بحذر : متضعين بطاقة على بطني ، وأخرى على مؤخرتي .

قالت :- . رديء ! رديء ! رديء !

— حسناً ! سائقوننا في القطار طبعاً ؟

— نعم . ماذا تريد منهم ان يفعلوا اذن ؟

— في القطار المسحي .

فصاحت جانين : — لا ادري ، لا استطيع ان اخترع . أقول لك

اني لا اعرف .

- لا تصرخي ! فلست أصم .
وتوقفت العربية فجأة ، فسمع انها كانت تتمخط .
- ما بك ؟ انك توقفيني في منتصف الطريق ؟
وأخذت العجلات تندرج على البلاطات غير المستوية . وعاد يقول :
- ومع ذلك ، فقد قلوا لنا مراراً بأن علينا ان نتجنب السفر
بالقطار ..

وحدث شخير ممتلئ فوق رأسه فصمت : كان يخشى ان تأخذ في
البكاء . وكانت الشوارع تغص بالمرضى في تلك الساعة . سيكون جميلاً
ذلك النقي الذي تدفعه ممرضة تبكي . ولكن فكرة جاءته ، فلم يستطع
الامتناع عن ان يدمدم :
- اني اشتهر من المدن الجديدة .

لقد قرروا كل شيء ، وقد ارادوا ان يضطلعوا بكل شيء ،
وكانوا يملكون الصحة والقوة والفراغ ؛ لقد صوتوا ، واختاروا
رؤساءهم ، وكانوا واقفين ، وكانوا يركضون في كل مكان بهيئتهم
المهتمة المشغلة ، وكانوا يدبرون فيما بينهم مصير العالم ، وخاصة مصير
المساكين المرضى الذين هم صبيان كبار . وهذه هي النتيجة : الحرب ،
ان هذا عظيم . لماذا يجب علي ان ادفع ثمن حماقتهم ؟ لقد كنت انا
مريضاً ، فلم يسألني احد رأبي ! اما الآن ، فهم يتذكرون اني
موجود وهم يريدون ان يجروني في أقدارهم . سيأخذونني من ابطي
ومن ابضي وسيقولون لي : « عنوا ، المعذرة ، اننا نخوض الحرب . »
وسيضعونني في مكان يشبه الطين ، حتى لا أحاول ان أزعج لعبة
بجزرتهم . ونفر فجأة الى شفته السؤال الذي كان يُمسكه منذ نصف
ساعة . ستكرن به سعيدة جداً ، ولكن فليكن : فلا بد من ان يخرج
السؤال هذه المرة .

- اسمي .. هل سترافتنا المرضيات ؟

قالت جانين : - نعم بعضهم .

- و .. انت ؟

قالت جانين : - كلا . انا لا .

فأخذ يرتجف ، وقال بصوت أبح :

- انك تركيننا ؟

- لقد عيتوني في مستشفى دنكرك .

قال شارل : - حسناً . جميع المرضيات سواء ، أليس كذلك ؟

فلم تجب جانين ، فاستقام ونظر حوله . وكان رأسه يتهدى من تلقاء نفسه يساراً ويميناً ، ويميناً ويساراً . وكان هذا متعباً جداً ، وكان يحس بدغدغة جافة في اعماق عينيه . وكانت عربة تسير في اتجاههم يدفعها عجوز طويل أنيق . وعلى آلة التثبيت ، كانت امرأة شابة ذات وجه مجوف وشعر ذهبي ، وكان قد ألقى على ساقها معطف رائع من الفرو . ونظرت إليه لحظة ثم ردت رأسها الى الخاف وتمتت بضع كلمات صعدت في وجه العجوز المنحني فوقها . وسأل شارل :

- من هذه ؟ اني أراها منذ وقت طويل .

- لا أدري . اظن انها فنانة مسرح . لقد كسرت ساقاً ، ثم ذراعاً .

- هل تعرف ؟

- ماذا ؟

- أعني ، هل يعرف المرضى انهم سينقلون ؟

- لا احد يعرف ، لقد منع الطبيب ترديد ذلك .

فقال ضاحكاً : - هذا مؤسف . فربما اصبحت اقل كبرياء .

قال بيار قبل ان يصعد الى العجلة :

- ضُخّ هنا ضخّة من المبيد . ففيه رائحة حشرات :

فضخّ العربي بوداعة بعض المبيد على أغصان الأريكة البيضاء وعلى

وسائدها ، وقال : - هكذا .

فقطب بيار حاجبيه :

- هم !

فوضعت مود يدها على فمه وقالت بلهجة ابتهاج :

- هس ، هس ! حسن هكذا .

- فليكن . ولكن اذا أصابتك براغيث ، فلا تأتي لتستغيث بي !

ومد لها يده ليعينها على الصعود ، ثم جلس بالقرب منها . وخلقت

أصابع مود المزملة حرارة حية جافة في جوف راحته : كانت لها

دائماً درجة حرارة . وقال بحفاة :

- سوف تنزها حول الاسوار .

مهما قيل ، فان الفقر يخلف الابتهاج . وقد كانت مود مبتدلة

وكان هو يكره الماسونية التي كانت تشدها الى الخوذيين والجالين والأدلة

وصبيان المقاهي : فقد كانت تعطيهم الحق دائماً ، واذا أخذوا بلذبتهم ،

كانت تتدبر أمرها دائماً لتجد لهم الاعذار :

وساط الخوذي حصانه فتدحرجت المركبة وهي تصر . فقال بيار

ضاحكاً :

- اية عجلة دون ! انني اخشى دائماً ان ينكسر فيها محور !

وكانت مود تطل الى الخارج وتنظر الى كل شيء بعينها الجادتين

المهتمتين .

- انها نزهتنا الاخيرة .

فقال : - اجل ! اجل !

وأحست بأنها شاعرية لأن هذا هو اليوم الأخير واننا سنسقل الباخرة

غداً . وكان ذلك مزعجاً ، ولكنه كان أكثر احتمالاً لصمتها وتأملها

منه لجلتها . ولم تكن جميلة جداً ، وحين كانت تريد ان تظهر دلالة

او حيوية ، فان ذلك كان ينقلب فوراً الى كارثة . وفكر : يكفي

تماماً هكذا . سيكون هناك يوم الغد وايام الرحلة الثلاثة في اجتياز البحر

حتى اذا بلغنا مرسيليا ، مساء الخير ، وكل يمضي في وجهته. وسُرّ لأنه
حجز سريراً في الدرجة الأولى : فان النساء الاربع كن يسافرن بالدرجة
الثالثة ؛ وسوف يدعوها الى غرفته حين يرغب فيها ، ولكنها لنحجلها
لن تجرؤ على الصعود الى الدرجة الاولى اذا لم يأت لمرافقتها . وسأل :
- هل حجزتن امكتكن في الأوتوكار ؟

فبدا على مود بعض الانزعاج :

- قررنا اخيراً الا نستقل الاوتوكار . فسوف يتقلوننا بالسيارة الى

« كازا » .

- من ؟

- احد معارف « روبي » وهو سيد مسن لطيف جداً سينعطف

بنا من طريق « فاس » .

فقال بأدب :- مع الاسف .

وكانت المركبة قد غادرت مراکش ، وكانت تمر في وسط المدينة
الاوربية . وكانت الأرض الشاسعة امامهم تفسد بصفاتها المبقورة
ومعلباتها الفارغة . وكانت المركبة تُسرع بين مكعبات كبيرة بيضاء
ذات زجاج ملتمع ؛ ووضعت مود نظارتها السوداء ، وكان وجه بيار
يكز قليلاً بسبب الشمس . ولم تكن المكعبات المرصوة بهدوء الى
جانب بعضها البعض ، تثقل على الصحراء ؛ فلئن هبت الريح طارت.
وكانت قد علقت على إحداها صفيحة مرشدة : «شارع المارشال ليوتي»
ولكن لم يكن ثمة شارع ؛ وانما ذراع صغيرة من الصحراء مزفتة بين
الأنية . وذن ثلاثة من السكان المحليين ينظرون الى المركبة وهي تمر ،
وكان اصغرهم ذا عين بيضاء . واستوى بيار قليلاً ورماهم بنظرة
حادة . على المرء ان يظهر قوته حتى لا يكون مضطراً لاستعمالها ، عبارة
لم تكن مفيدة للسلطات العسكرية فحسب ، بل كانت تملي على المعمرين ،
بل وحتى الزوار العاديين ، مسلكهم . ولم يكن ضرورياً ان يستعرض

المرء قوته استعراضاً كبيراً : بل حسبه بكل بساطة الا يسترخي ، وان يستقيم في جلسته . واخفى الضيق الذي كان يضغط عليه منذ الصباح . لقد شعر ، تحت العيون البليدة في وجوه هؤلاء العرب ، انه كان يمثل فرنسا . وقالت « مود » فجأة :

— ماذا ترانا سنجد حين نعود ؟

فشدت على قبضتيه دون ان يجيب . المعنوية : لقد ردت له لقلقه دفعة واحدة ، وكانت تلح :

— ربما كانت الحرب قائمة . فلك للرحيل ، ولي البطالة :

وكان يشمتر من سماعها وهي تتحدث عن البطالة بهذه الهمجة الجادة ، كأنها عامل . ومع ذلك ، فقد كانت عازفة الكمان الثانية في جوقة « باييز » النسائية التي كانت تقوم برحلات في البحر المتوسط والشرق الأدنى : وكان بالامكان اعتبار ذلك مهنة فنية . وقال بحركة انزهاج :

— أرجوك يا « مود » ، ليتنا لا نتكلم عن الاحداث ؟ فهل تريدني ، إكراماً لي ؟ إن هذه آخر أمسية لنا في مراکش . فالتصقت به :

— صحيح . هذه آخر أمسية لنا .

ولامس شعرها ؛ ولكنه ظل يحتفظ بهذا المذاق المر في فمه . لم يكن ذلك خوفاً ، كلا ؛ فقد كان ثمة من يعتمد عليه ، وكان واثقاً من انه لن يخاف ابداً . بل كان ذلك ... زوال اوهام :

وكانت المركبة قد بلغت الأسوار . وأرته « مود » باباً أحمر كانت تترى فوقه رؤوس خضراء .

— اوه ! هل تذكر يا بيار ؟

— ماذا ؟

— منذ شهر تماماً . لقد التقينا هنا .

— آه ! نعم ..

- هل تحبني ؟
 وكان لها وجه صغير هزيل ، ناتيء العظام بعض الشيء ، وعينان
 كبيرتان وفمٌ جميل .
 - نعم ، احبك .
 - قل ذلك بطريقة أخرى .
 فانحنى عليها وقبلها .
 وكان الغضب بادياً على العجوز ، وكان ينظر وهو يقطب حاجبيه
 الكثيفين . وقال بصوت حاسم : « مذكرة ! هذه نتيجة التنازلات
 كلها ! » وهزّ هوراس ويلسون رأسه وكان يفكر : « لماذا يمثل
 المهزلة ؟ » ألم يكن شمبلن يعرف انه ستكون ثمة مذكرة ؟ او لم
 يقرر كل شيء مساء أمس ؟ ألم يتفقا على هذا الإخراج كله حين بقيا
 وحيدين وجهاً لوجه مع هذا المنافق المزيّف الدكتور شميت ؟
 - خذها بين ذراعيك ، صغيرتك « مود » ، فانها تشعر بالكآبة
 هذا المساء .
 وأحاطها بذراعيه ، فأخذت تتكلم بصوت طفولي دقيق .
 - انك لا تخشى الحرب ، انت ؟
 فأخسّ برعشة مزعجة لدى رقبته :
 - يا صغيرتي المسكينة ، لا ، لست أخشاهما . ان الرجل لا يخشى
 الحرب .
 قالت : - ولكني اؤكد لك ان لوسيان كان يخشاهما . بل ان هذا
 ما نفّرني منه ؛ فقد كان هلوياً اكثر مما ينبغي .
 وانحنى قبلها في شعرها : وكان يتساءل لماذا اخذته الرغبة فجأة
 في ان يصفعها .
 وتابعت : - اولاً ، كيف يستطيع رجل ان يحمي امرأة ، اذا
 قضى وقته كله وهو خائف ؟

قال بلطف : - انه لم يكن رجلاً . اما انا فاني رجل .
وأخذت وجهه بين يديها وأخذت تتكلم وهي تلامسه :
- نعم ، كنت رجلاً يا سيدي ، نعمم كنت رجلاً : فبشعرك
الأسود ولحيتك السوداء كنت تبدو وكأنك في الثامنة عشرة .

وتخصص ؛ وكان يشعر بأنه رقيق مائع ، وكان غثيان يصعد من
معدته الى حلقة ، ولم يكن يعرف ما الذي يشير اكثر اشتمزازه من هذه
الصحراء الملتصمة وهذه الجدران الطينية الحمراء وهذه المرأة التي كانت
تقبع بين ذراعيه . ذلك أنني مللت مراكش ! كان يود لو يكون في
« تور » ، في بيت اسرته ، ويود لو ان الوقت صباح ، ولو ان امه
تأتي حاملة له فطوره الى السرير . حسناً ، ستهبط الى صالة الصحفيين ،
هكذا قال لتفيل هندرسون ، وستعلن اني نزولاً عند طلب المستشار
هتلر ، سأتوجه الى فندق دريسن حوالي الساعة الثانية عشرة والصف ،
وقال : - ايها الخوذي ! ايها الخوذي ! عد الى المدينة من هذا
الباب .

فسألت « مود » مندهشة : - ماذا دهاك ؟
فقال لها بعنف : - لقد مللت الأسوار ، وقد مللت الصحراء ،
وقد مللت مراكش !

ولكنه ما لبث ان ضبط أعصابه فأخذ ذقنها بين اصبعيه وقال :
- اذا كنت عاقلة هادئة ، فسوف نشري لك بابوياً .
لم تكن الحرب في موسيقي ميدان ترويض الخيل ، ولم تكن في
الحانات الصاخبة القائمة في شارع روششوار . ليس ثمة هبة ريح . كان
موريس يرشح عرقاً ، وكان يُحسّ فخذ نينيت الحار لصق فخذة .
سنلعب لعبة صغيرة بالورق ثم ينتهي الامر . لم تكن في الحقول ، في
اهتزاز الهواء الساخن فوق السياج ، في زعردة العصافير ، في ضحكة

مارسيل ؛ لقد قامت في الصحراء حول جدران مراكش : كانت ربح حارة حمراء قد هبت ، وكانت تلور حول العربة ، وكانت تعدو فوق امواج البحر ، وكانت تصفع ماتيوي على وجهه ؛ وكان ماتيوي يتمفرف على الشاطيء الخالي ، وكان يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت ربح الحرب تهب عليه .

حتى ولا هذا ! كان الطقس بارداً بعض الشيء ، ولكنه لم يكن راغباً في العودة على النو . وكان الناس قد غادروا الشاطيء واحداً بعد الآخر ؛ فقد كانت تلك ساعة العشاء . وحتى البحر كان قد اخلى سكانه ، وكان قابلاً مستقراً ، مقفراً مشمساً ، نوراً كبيراً منهاراً ، وكان المقفز الأسود للترليج المائي يتقه كراس صخرة .

وكان ماتيوي يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت تشتغل الصوف ، وكانت النافذة مفتوحة ، وهي بانتظار رسائل جاك . وهي سترفع أنفها بين وقت وآخر ، بداعبها أمل غامض ؛ وكانت تبحث بنظرها عن بحرهما . بحرهما : عوامة ، مقفز ، وبعض الماء الذي يصطدم بالرمل الحار . حديقة صغيرة هادئة على قد الرجال ، مع بعض الجادات الواسعة والممرات التي لا تمضي ، وفي كل مرة ستأخذ صوفها بالخيبة نفسها : لقد غيروا لها بحرهما ؛ لقد جذبت الضاحية الخلفية المقنفذة بالحراب والمحملة بالمدافع ، جذبت الساحل اليها ؛ وانحسر الماء والرمل وراح كل منهما يتابع على حدة حياة كئيبة . وكانت نمة اسلاك شائكة تثلج الحواجز الحجرية البيضاء بظلالها المنجمة ، ومدافع في المنتزهات ، بين شجار الصنوبر ؛ وحرمن امام المقاصير ؛ وسوف يجتاز ضباط بلاوعي هذه المدينة المائتة الحزينة . وسوف يعود البحر الى وحدته . فالسباحة مستحيلة : وسوف يتخذ الماء ، اذ يحرسه عسكري ، مظهرأ ادارياً عند الشاطيء ؛ ولن يكون المقفز والعوامة بعد على بعد معقول من الأرض ؛ وسوف تمنحي جميع الدروب التي رسمتها اوديت على

الامواج منذ طفولتها . ولكن البحر ، البحر المتلاطم ، اللانساني ، سيكون ضدها معاركه البحرية تقوم على بعد خمسين ميلا من ماله ، وبمناقيدته من البواخر المغرقة بالقرب من بالرمو ، وبأعماقه التي تحرسها أسماك حديدية ، سوف تكتشف في كل مكان من الأمواج حضورها الثلجي . وسيرتفع البحر العالي الى الأفق كجدار بلا أمل . ونهض ماتيو ، كان قد جف ؛ واخذ يفرك تباته بباطن يده ، ففكر : « لا بد ان تكون مزعجة جداً ، هذه الحرب ! » وبعد الحرب ؟ سيكون ثمة ايضاً بحر آخر . بحر المهزومين ؟ بحر الهازمين ؟ بعد خمس سنوات ، او بعد عشر ، ربما كان هنا ، ذات مساء من ايلول ، في الساعة نفسها ، جالساً على هذا الرمل نفسه ، امام هذه الكتلة الضخمة من الجلاتين ، وستمسح هذه الأشعة الحمراء نفسها سطح الماء . ولكن ما عساه سوف يرى ؟

ونهض وتدفرت بمتزره . وكانت اشجار الصنوبر ، على الرصيف ، قد اسودت تجاه السماء . وألقى نظرة أخيرة على البحر ، ان الحرب لم تنفجر بعد ؛ كان الناس يتعشون باطمئنان في مقاصيرهم ؛ ليس ثمة مدفع ، ولا جندي ، ولا اسلاك شائكة ، وكان الاسطول في الميناء ، في بيزرت وطولون ؛ وكان ما يزال مسموحاً بعد برؤية البحر مزدهراً ، بحر أمسية من آخر أماسي السلام . ولكنه ظل جامداً محايداً : فان ساحة كبيرة من الماء المالح تغتم احياناً ، لا تعني شيئاً . وهز كتفيه ورفي الدرجات الحجرية : منذ بضعة ايام كانت الاشياء تتركه واحداً بعد الآخر . والآن جاء دور البحر . « كالجردان التي تترك الباخرة الموشكة على الغرق : » وحين يجيء يوم الرحيل ، سيكون جافاً كله فلا يبقى له شيء يتحسر عليه . وعاد بخطى بطيئة الى المقصورة ، وقفز بيسار خارج العربة وقال :

— تعالي ، سنشترى لك بابوجاً .

ودخلا السوق . وكان الوقت متأخراً ؛ وكان العرب يستعجلون

للوصول الى ساحة جامع الفنا قبل مغيب الشمس . واحس بيار بأنه كان
اوفر فرحاً ، فقد خلف ذهاب الناس وايابهم أثراً مريحاً في نفسه .
وكان ينظر الى النساء المحجبات ، وحين كن يبادلنه نظره ، كان يتذوق
جماله في عيونهن وقال :

- انظري . هذه بوايج :

وكان يوجد كل شيء في العرض ؛ كان دكاناً للأقمشة والعقود
والأحذية المطرزة . وقالت مود :
- ما اجمل ذلك ! لقف هنا :

وغمست يديها في هذا الخليط العجيب . فابتعد بيار قليلا : انه لم
يكن يريد ان يظهر امام العرب بمظهر الاوروبي الذي يستغرقه تأمل
الزينة النسوية . وقال بشرود :

- اختاري ، اختاري ما تشائين :

وكانت تباع على البسطة المجاورة كتب فرنسية ، فتسلى بتقليب
اوراقها . وكان فيها خليط من الروايات البوليسية والقصص السينمائية :
وكان يسمع الى يمينه زقزقة الخواتم والعقود تحت اصابع مود ، فسألها
من فوق كتفها :

- هل تجدين طلبك ؟

- انني ابحث ، انني ابحث . يجب ان افكر .

وعاد الى القراءة . وتحت ركام من «تكساس جاك» و «بيفالوبيل»
اكتشفت كتاباً ذا صرور ، وكان مؤلفاً للكولونيل بيكو عن جرحى
للوجه ، وكانت الصفحات الاولى مفقودة ، بينما كانت الأخرى مطوية .
وأراد ان يضعه بسرعة ، ولكن الاوان كان قد فات : فقد انفتح
الكتاب من تلقاء نفسه ، ورأى بيار رأساً فظيماً لم يكن من الازن حتى
الذقن الا ثقباً بلا شفاه ولا اسنان ؛ وكانت العين اليسرى مفقودة ،
وكانت ندبة عريضة تحيط الخد الأيمن . وكان الوجه المذبذب يحفظ

بمعنى انساني ، هيئة ضاحكة بطريقة لثيمة . وكان ييار يحس حكاكاً
مثلوجاً على جلدة رأسه وكان يتساءل : كيف وصل هذا الكتاب
الى هنا ؟

وقال البائع : - كتاب جميل .. وسوف تتسلى !

وأخذ ييار يقلب الصفحات ، فرأى اشخاصاً بلا انف او بلا عينين
او بلا اجفان مع مُقل جاحظة كما يبدو ذلك في اللوحات التشريحية .
وكان مسحوراً ، وكان ينظر الى الصور واحدة واحدة ، وكان يردد
في نفسه : ولكن كيف وصل الى هنا ؟ وكان افظع ما رأى رأس
بلا فك اسفل ؛ وكان الفك الاعلى قد فقد شفته فكشف عن لثة واربعة
اسنان : وفكر ، انه يعيش . ان هذا الشخص حي . ورفع عينيه ،
فعمست صورته مرآة منقطعة في إطارٍ مذهب : ونظر الى صورته في
وعب .. قالت مود

- ييار ، تعال انظر ، لقد وجدت .

وتردد . كان الكتاب يحرق يديه ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقرر
رميه بين الكتب الأخرى ، والابتعاد عنه ، وابلاءه ظهره . وقال :

- انا قادم :

وأرماً أصبعه الى الكتاب وسأل البائع :

- كم ثمنه ؟

كان الفتي يتتزه كالنمر في المكتب الصغير . وكانت إيرين تضرب
مقالاً هاماً عن مساويء النظام العسكري : وتوقفت ورفعت رأسها :
- انك تصيبي بالدوار :

قال فيليب : - لن اذهب ، لن اذهب قبل ان يستقبل ..

فأخذت تضحك .

- ما اعقدك ! هل تريد ان تراه ؟ حسناً ، انه هناك ، خلف

الباب ؛ فليس لك الا ان تدخل قراه .

قال فيليب : - تماماً .
ونحنا خطوة الى الامام ثم توقف .
- اني : سيكون الامر عديم الحكمة ، وسوف اضايقه . اوه !
ايرين ، اتريدين ان تعودي فأسأليه ؟ مرة اخيرة ، اقسم لك انها
المررة الاخيرة .

قالت :

- كم انت سأم ! لا تهتم بعد بالامر . فان « بيتو » شخص قذر :
اما ان لك ان تفهم ان من حظك انه لا يريد بعد ان يراك ؟ ان ذلك
لن يعود عليك بغير الشر .

قال جهزؤ : - اه ! بغير الشر ! هل بالامكان ان يضرني احد ؟
الحق انك لا تعرفين أهلي : انهم يملكون جميع الفضائل ، وهم لم
يدعوا لي الا جانب « الشر » .

فنظرت ايرين في عينيه :

- وهل تتصور اني لا اعرف ما الذي يريد منك ؟
فاحمر وجه الفتى ولم يجب : فقالت وهي تهز كتفها :
- اوه ، وبعد ...

قال فيليب بصوت مبتهل :

- اذهبي فاسأليه ثانية يا ايرين ، اذهبي فاسأليه ثانية . قولي له اني
اوشك ان اتخذ قراراً حاسماً .
- انه لا يكثر بذلك .
- اذهبي فقولي له مع ذلك .

ودفعت الباب ودخلت من غير ان تدقه . فرفع « بيتو » رأسه
وكرر وجهه وقال بصوت راعد :
- ماذا هناك ؟

ولم يكن يخفيها ، فقالت :

- اسمع ، لا حاجة بك الى الصراخ : انه الصبي ، وقد مللت ان يظل بين ذراعي : فهل يزعجك ان آتيك به دقيقة ؟
قال بيتو : - لقد قلت لا .
- يقول انه سيتخذ قراراً حاسماً .
- وما عسى ذلك ان يعنيني ، انا ؟
فقالت بنفاد صبر : - آه ! تدبّر الامر ، فانا سكرتيرتك ، ولست مرضعته .

قال والشرر يتطاير من عينيه :
- حسناً ، فليدخل ! آه ، سيتخذ قراراً حاسماً ! حسناً ، اما انا فسأقوم بعملية اعدام حاسم !
فضحكت وعادت الى فيليب :
- ادخل .

فهرع الفتى ، ولكنه توقف عند عتبة المكتب بهيئة تقى ، فوجب عليها ان تدفعه ليدخل . وأغلقت الباب خلفه وعادت تجلس الى طاولتها . وسرعان ما انبعث الصراخ من الجهة الاخرى . فأخذت تضرب على الآلة بغير ما اكتراث : كانت تعرف ان فيليب قد خسر القضية : كان يمثل دور المعتقين ، وكان فاغر القم امام بيتو ؛ وقد اراد بيتو ان يفيد من هذا ليستقدمه لمجرد اللؤم : فانه لم يكن حتى لوطياً : وقد اصيب الفتى في آخر لحظة بالرعب . لقد كان كجميع الصبية ، كان يريد ان يحصل على كل شيء من غير ان يعطي شيئاً ، وكان يبتهل الآن الى بيتو ليحفظ بصداقته ، ولكن بيتو أرسله يفرنقع . وقد سمعته يصيح : « حلّ عن ظهري ، انك جبان صغير ، بورجوازي صغير ، فتى ثري يظن نفسه أزعز » ، فأخذت تضحك وضربت بضعة اسطر من المقال : « هل يمكن ان نتصور حيوانات اشأم من الضباط الذين ادانوا دريفوس ؟ » وفكرت بمرح :

ماذا يأخذ عليهم ؟

وانفتح الباب وانغلق بصخب : وكان فيليب امامها : كان قد بكىء
وانحنى على المكتب وهو يشهر سبآبته في صدر ايرين ، وقال بلهجة
وحشية :

- لقد دفعني الى النهاية . ولا يحق لاحد ان يدفع الناس الى النهاية
(وارتد برأسه الى خلف وأخذ يضحك) « ستسمعين حليئاً عني ! »
قالت ايرين وهي تتنهد : - لا تعذب نفسك .

اغلقت المريضة غطاء الصندوق ، اثنان وعشرون زوج حذاء ، ولا
بد انه لم يكن لديه عمل كثير يعطيه للسكاف ، فحين كان زوج
يفسد ، كان يقذفه في الصندوق ويشترى غيره ، واكثر من مئة زوج
من الجوارب المثقوبة لدى الكعب وعند الابهام ، وست بذلات متعبة
في الخزانة ، وبيته قدر ، كوخ عازب حقيقي . وكان بوسعه ان
تركه خمس دقائق ، فتسللت الى المر ، ودخلت بيت الخلاء فرفعت
تنورتها تازكة الباب مفتوحاً على سعته . وقضت حاجتها بسرعة ،
وهي مرهفة الاذن ، متنبهة لأدنى ضجة : ولكن ارمان فيغيه كان
متمدداً بهلوء ، وحيداً في غرفته ، وكانت يدها الصفراوان ترتاحان على
الغطاء ، وكان قد قلب رأسه الهزيل ذا اللحية الرمادية القاسية ، والعينين
الغارقتين ، وكان يبتسم بسمة متحفظة . وكانت ساقاه القصيرتان
تتمددان تحت الغطاء . وكانت قدماه تشكلان بينهما زاوية من ثمانين
درجة ، وكانت اظافره ناتئة ، اظافر اصابعه الرهيبة التي كان يقصنها
بالسكين كل ثلاثة اشهر ، والتي كانت منذ خمسة وعشرين عاماً تثقب
جميع جواربه . وكانت في فخذيه دماطل صلبة ، بالرغم من انه كان
يستريح على عجلة من المطاط عند جانبيه ، ولكن الدماطل كانت قد
كفت عن التزيف : ذلك انه كان ميتاً . وعلى طاولة الليل ، كانت
قد وضعت نظارته ، ووضع طقم اسنانه في كوب ماء :

ميت : وقد كانت حياته هنا ، في كل مكان ، ناجزة لا تُدرك
باللمس ، قاسية ملأى كاليبضة ، حتى ان جميع قوى العالم لن تبلغ ان
تُدخل فيها ذرة واحدة ، وكانت ذات مسام غزيرة حتى ان باريس
والعالم كله كان يمر عبرها ، وكانت منتثرة في اربعة اركان فرنسا ،
متخثرة كلها في كل نقطة من الفضاء ، سوقاً كبيرة جامدة صارخة ،
وكانت الصرخات هنا ، والضحكات ، وصغير المحركات ، وانفجار
قنابل « شرانبل » ، يوم السادس من ايار ١٩١٧ ، وهذا الطين الدامي
في رأسه ، حين يسقط بين الخندقين ، وكانت الضجة هنا مثلجة ،
ولم تكن الممرضة المترصدة لتسمع الا همساً تحت تنورتها . ونهضت ولم
تشد مضخة الماء ، احتراماً للميت ، وعادت تجلس عند رأس ارمان ،
مخرقة تلك الشمس الكبيرة الجامدة التي تضيء الى الابد وجه امرأة في
القارب ، يوم العشرين من تموز ١٩٠٠ ، في « لاغراند جات » .
كان ارمان فيغيه ميتاً ، وكانت حياته تطفو ، وهي تجبس الآم
جامدة ، خطأ كبيراً يمترق شهر مارس ١٩٢٢ ، ألماً في الجنب ،
جواهر صغيرة لا تتلف ، قوس قزح فوق محطة « برسي » ذات مساء
سبت ، لقد أمطرت ، البلاط يزلق ، ويمر راكبا دراجتين وهما
يضحكان ، صوت المطر على الشرفة ، ذات أصيل خانق من شهر
شباط ، لحن غجري يفجر الدمع في عينيهما ، قطرات ندى تلتصق في
العشب ، تطاير حمام في ساحة سانت مارك : وبسطت الجريدة ،
وركزت نظارتها على أنفها واخذت تقرأ : « آخر ساعة : لم يجتمع
المستر شمبلرن ، بعد ظهر اليوم ، مع المستشار هتلر » وفكرت في
حفيدها الذي لا شك في انه سيذهب ، ووضعت الجريدة الى جانبها ،
وتنهدت . كان السلام هنا ، كقوس قزح ، كشمس « لاغراند
جات » ، كالذراع الشقراء التي يجعدها النور : سلام ١٩٣٩ و ١٩٤٠
و ١٩٨٠ ، سلام الناس الأكبر ، وكانت الممرضة تضم شفيتها

وتفكر : « انها الحرب » ، وكانت تنظر الى بعيد ، وعيناها ثابتتان ، وبصرها يمر عبر السلام . وهز شبرلن رأسه وقال : « طبعاً ، سأفعل ما بوسعي ، ولكن ليس لدي أمل كبير . » وأحسن هوراس ويلسون ان رعشة كرهية تسيل في ظهره ، فقال في نفسه : « واذا كان صادقاً ؟ » وفكرت المريضة : « زوجي في حرب ١٩١٥ ، وحفيدي في حرب ١٩٣٩ : وهكذا اكون قد عشت بين حربين . » ولكن ارمان فيغيه يعرف ان السلام قد وُلد ، وسأله شانال ، « لماذا قاتلت ، وانت صاحب تلك الافكار ؟ » فأجاب : « لتكون هذه آخر حرب » . ٢٧ ايار ١٩١٩ . الى الابد . انه يستمع الى بريان الذي يتكلم ، بحسه القصير فوق المنبر ، تحت سماء خفيفة ؛ انه ضائع في جمع الحجاج ، والسلام قد هبط عليهم ، فهم يلمسونه ويرونه ويصرخون « يعيش السلام » الى الابد . انه جالس في اللكسمبورغ ، على كرسي حديدي ، وهو ينظر ابدأ شجر الكستناء المزهرة ، والحرب قد انغrust في الماضي ، وعمد ساقيه القصيرتين ، وينظر الى الاطفال الذين يركضون ، ويفكر بأنهم لن يعرفوا ابدأ قطائع الحرب . ان السنوات المقبلة طريقت ملكي هاديء ، والزمن يتفتح كالمروحة . وينظر الى يديه الهرمتين الساختين بالشمس ، فيبتسم ويفكر : « ذلك بفضلنا . لن تقوم حرب بعد . لا في حياتي ، ولا بعدي . » ٢٢ نوار ١٩٣٨ . الى الابد . كان شارل فيغيه قد مات ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يصوبه او يخطئه . لم يكن ثمة من يستطيع ان يغير مستقبل حياته الميتة ، ذلك المستقبل الذي هو غير قابل للهدم . يوم آخر ، يوم واحد ، وربما كانت جميع آماله قد انهارت ، اذ يكتشف فجأة ان حياته قد انسحقت بين حربين ، كما بين المطرقة والسندان . ولكنه مات يوم ٢٣ ايلول ١٩٣٨ ، في الساعة الرابعة صباحاً ، بعد سبعة ايام من الإغماء . وكان قد حمل السلام معه .

السلام ، السلام كله ، سلام العالم ، الذي لا يعفو ، والذي يتعذر
مأخذه . ودُقَّ جرس المدخل فانتفضت ، ولا بد أنها ابنة عمه
« انجز » ، قريبته الوحيدة ، فقد أبلغت مساء أمس برقياً ،
وفتحت لامرأة قصيرة سوداء كان لها فم فأريّ وشعرٌ في الوجه .

– اني السيدة فرشو .

– آه ! حسناً جداً ، يا سيدتي .

– هل يمكن بعد ان نراه ؟

– نعم . انه هنا .

واقربت السيدة فرشو من السرير ، فنظرت الى الخدين المجوفين ،

والعينين الغارتين وقالت :

– لقد تغير كثيراً .

الساعة العشرون والنصف في جوان لبيان ، الحادية والعشرون

والنصف في براغ .

– لا تركوا السمع ، سيداع بلاغ هام جداً على الفور . لا

تركوا السمع ، سيداع ...

قال ميلان : – انتهى الامر :

وكان واقفاً في فتحة النافذة ، فلم تجب أنا : وانحنت ، وبدأت

تلمّ شظايا الزجاج ، فوضعت اكبرها في مترها وقذفتها من النافذة :

كان المصباح قد انكسر ، وكانت الغرفة مظلمة زرقاء : وقالت :

– اما الآن ، فساُجري ضربة منكسة .

ورددت : ضربة منكسة – وأخذت ترتجف وقالت وهي تبكي :

– سيأخذون منا كل شيء ، سيحطمون كل شيء ، وسيطردوننا .

قال ميلان : – اسكّي . بالله عليك لا تبكي !

ومشى الى جهاز الراديو ، فأدار الازرار ، فأضاءت المصابيح ،

وقال بلهجة راضية :

- لم يُصب بشيء .
وفجأة ملأ الصوت الآلي الثاقب الغرفة :
- لا تتركوا السمع . سيداع بلاغ هام جداً على الفور . لا تتركوا
السمع ، سيداع بلاغ هام .
قال ميلان بصوت متغير :
- اسمعي ، اسمعي !
كان بيار يمشي بخطى واسعة : وكانت مود تركض بجانبه وهي
تشدّ بابوجها تحت ذراعها : كانت سعيدة وقالت له :
- ما أجمله ! ستُجنّ روبي من الغيرة ، لقد اشترت بابوجاً في
فاس لا يضاهاه نصف هذا . ثم إنه مناسب جداً ، فبوسعك ان تلبسه
اذ تقفز من السرير ، وانت لست بحاجة حتى لأن تضع فيه يديك ،
في حين ان « البانطوفل » قصة معقدة جداً . غير ان هناك ما ينبغي
فعله حتى لا يُفقد : يجب تفويس القدمين ، على ما أظن ، وجعل
الأصابع هكذا . سوف أسأل خادمة الفندق ، وهي عربية .
وظل بيار على صمته . فقدفته بنظرة قلقة وأضاف :
- كان عليك ان تشتري بابوجاً لك ايضاً ، انت الذي تركض
دائماً عاري القدمين في غرفتك ، أتعلم ان ذلك يناسب الرجال كما
يناسب النساء ؟
وتوقف بيار في منتصف الشارع ، وقال لها بصوت هائل :
- كفى !
فتوقفت ايضاً مبهوتة :
- ماذا هناك ؟
قال بيار وهو يقلدها :
- هذا يناسب الرجال كما يناسب النساء . كفى ! كفى ! انت
تعرفين جيداً ، ما كنت افكر به بينما انت تثرئين ! وقد كنت

تفكرين به مثلي ؟

أضاف العبارة الاخيرة بقوة ، وأمرّ لسانه على شفثيه وابتسم بسخرية :
وارادت مود ان تتكلم ، ولكنها نظرت وصمتت ، مثلجة . واستطرد :
- ان الناس لا يريدون ان يواجهوا الواقع ، ولا سيما للنساء :
حين يفكرون بشيء ، فيجب ان يتحدثن بسرعة عن شيء آخر ؟
أليس كذلك ؟

قالت مود وقد جن جنونها :

- لقد جنتت يا بيار ؟ اني لا أفهم شيئاً مما تقول . فبمَ تظنني
كنت أفكر ؟ وبمَ تفكر انت ؟
فأخرج بيار كتاباً من جيبه ففتحه ووضعه تحت أنفها وقال :
- بهذا .

وكانت صورة وجه محطم . وكان صاحبها فاقد الانف ، وكان
على عينه عصابة ، فسألته في ذعر :
- لقد .. اشتريته ؟

قال بيار : - نعم ، وماذا في ذلك ؟ اني رجل ، ولست أخاف :
اريد ان اعرف الوجه الذي سيكون لي في العام القادم :
وكان يلوح بالصورة امام عيني مود :
- أتراك تحبيني حين أصبح هكذا ؟
وكانت تخشى ان تفهم ، وكان بودها ان تمنح كل شيء مقابل
ان يصمت .

- أجيبي ! هل تحبيني ؟

قالت : - اسكت ، ابتهل اليك ان تسكت .

قال : - هؤلاء الرجال يعيشون في بيت منعرل في « فال دوغاس »
وهم لا يخرجون إلا ليلاً ، وعلى وجوههم اقنعة .
وارادت ان تأخذ الكتاب من يده ، ولكنه انتزعه منها ووضعه في

جيه . ونظرت اليه مرتعشة الشفتين ، وكانت تخشى ان تنفجر باكياً :
فقالت بلطف :

- اوه ، بيار ، هل انت خائف اذن ؟
فصمت فجأة ، وحدد فيها عينين بلهاوين . وظلا لحظة جامدين ،
ثم قال بصوت ممطوط :

- ان جميع الرجال يخافون ، جميعهم . وليس طبيعياً من لا
يخاف ؛ ان هذا لا علاقة له بالشجاعة ، وانت لا يحق لك ان تدنيني
لأنك لن تذهبي الى القتال .

واستعادا سيرهما في صمت . وكانت تفكر : « إنه جيان ! »
وكانت تنظر الى جبينه الكبير المفلوح ، وانفه الفلورنسي ، وفه الجميل
وتفكر : « انه جيان ، كلوسيان . لا حظ لي . »

كان صدر اوديت ينبعث في النور ، وكان جسمها يغيب في ظلام
غرفة الطعام ، وكانت ترتفتق الشرفة ، وتنظر الى البحر ، وكان
غرولويس يفكر : « اية حرب » . كان يسير ، وكان نور المغيب
الاحمر يرقص على يديه ، وعلى لحيته ، وكانت اوديت تمسُ على
ظهرها الغرفة الطيبة المظلمة ، والمأوى الطيب ، والخوان الابيض الذي
كان يلتصق التاماً خفياً في الظلام ، ولكنها كانت منتصبه في النور ،
وكان النور والمعرفة والحرب تدخل من عينيها ، وكانت تفكر بأنه
سيذهب ، وكان الضوء الكهربائي يتجمد رزماً في ميوعة النهار الغارب .
رزماً من أصفر البيض ، وكانت جانين قد برمت معكس التيار ،
وكانت يدا مارسيل تتحركان في الاصفر تحت المصباح . وطلبت ملحاً .
فشككت يداها ظللاً على الخوان ، وقال دانيال : ان هذا تضليل ،
فيجب ان نصمد ، وسينتهي لعبته . النور القاسي يبشر العيون كورق
الزجاج ، هكذا ، في الجنوب ، حتى آخر دقيقة . انه الظهر ، ثم
يتدحرج الليل فجأة : وكان بيار يهزر ، وكان يريد ان يقنعها بأنه قد

استعداد هدوءه ، ولكنها كانت تمشي الى جانبه في صمت ، وتحدد فيه نظراً في مثل قساوة النور . وحين بلغا الساحة ، خشيت ان يعرض عليها ان تقضي الليل معه ، ولكنه نزع قبعة وقال بجفاف : ما دمنا سننهض باكراً في الصباح ، وما دام عليك بعد ان تُعدّي الحقائق ، فأظن ان من الافضل ان تعودني لتنامي مع رفيقاتك . فأجابت : اعتقد انا ايضاً ان ذلك افضل . قال لها : الى الغد . قالت : الى الغد ، الى الغد ، على الباخرة .

لا تتركوا السمع ، سيداع بلاغ هام جداً ، وكان ممتدداً ، ويدها تحت رقبته ، وكان يشعر بأنه ثمل تقريباً . وقال : هل تحبين كثيراً لعبتك الصغيرة ؟ . وارتعشت ، وقالت : نعم .. - وكانت خائفة ، ككل مساء . اجل ، أحبك كثيراً ! كانت تقبل احياناً ، وكانت تقول « لا » احياناً اخرى ، ولكنها لن تجرؤ هذا المساء . « اذن هل تُداعب اللعبة الصغيرة قليلاً ، مداعبة المساء ؟ » فتنهدت ، وكانت تشعر بالحنج الشديد ، وكان ذلك مسلياً . وقالت : ليس هذا المساء . فلهث قليلاً ، وقال : « مسكينة اللعبة الصغيرة ، انها مهتاجة جداً ، وسيعود ذلك عليها بالخير . ألا تريدين ، لكي تجعلها تنام ؟ لا ، لا تريدين ؟ انت تعلمين ان ذلك يهدئي دائماً .. » وتلبست سحنة كبيرة المرضات ، كما كانت تفعل اذ تضعه على الحوض ، وأصبح رأسها صلباً على كتفيه ، ولم تكن تغمض عينيها ، ولكن ذلك كان كأنما تتدبر أمرها حتى لا ترى شيئاً ، وكانت يداها تفكان ازراه من تحت ، بخفة ، يسدا اختصاصي ، ووجهه الذي كان حزيناً جداً ، كان ذلك مسلياً ، ودخلت اليد ، عذبة ، عجينة من اللوز . وانتفضت اوديت وقالت : لقد أخفني ! هل جاك معك ؟ .. وتنهد شارل ، وقال ماتيوي لا . وقال موريس لا ، لا بد مما ليس منه بد . وكان قد أخذ المفتاح عن اللوحة ، ان رائحة البول والغوط لا تزال . ان ذلك مقرف ،

وقالت زيزيت : انه طفل السيدة سلفادور ، فهي تلقيه خارجاً حين
تستقبل اشخاصاً ، وعند ذلك يغوِّط في كل مكان ليتسلى .
وصعدا السلم : « لا تتركوا السمع ، سيداع ... » وكان ميلان
وأنا منحنيين على الجهاز ، وكانت ضجة انتصار تدلف من النوافذ ،
وقالت أنا : اخفضه قليلا ، فيجب الا تثيرهم ، اليد الرقيقة العذبة ،
العذبة كعجينة من لوز ، وتبرعم شارل وازدهر ، وتفتحت الثمرة
الضخمة ، وكادت القشرة تنفجر ، ثمرة مستقيمة نحو السماء ، ثمرة ذات
عصير ، زبيح برمه ذو عذوبة خانقة ، الصمت ، صرير الشوكات ،
وتمزقات القماش الطويلة في الجهاز ، ومداعبة الريح للثمرة الضخمة المخملية
المزغبة ، وقفزت أنا وشدت ذراع ميلان :
« ايها المواطنين ،

« قررت الحكومة التشيكوسلوفاكية اعلان التعبئة العامة ، فعلى جميع
الذين تقل اعمارهم عن ٤٠ سنة وعلى الاختصاصيين مهما بلغت اعمارهم
ان يلتحقوا فوراً بمراكزهم . وجميع الضباط وصف الضباط وجنود
الاحتياط وفرق الاحتياط الثانية من جميع الدرجات ، وجميع المأذونين
يجب ان يلتحقوا من غير تأخير بمراكز تجهيزهم . وعلى الجميع ان
يرتدوا ثياباً مدنية مستعملة ، وان يحملوا اوراقهم العسكرية ومؤنهم لمدة
يومين . والحد الأقصى لكي يلتحقوا بمراكزهم هو الساعة الرابعة
والنصف صباحاً .

« جميع الشاحنات والسيارات والطائرات مجندة : يبيع البترين مسموح
به بأذن تمنحه السلطة العسكرية .

« ايها المواطنين ! لقد جاءت اللحظة الحاسمة ، والانتصار يتوقف
على كل انسان . فليضع كل منكم جميع قواه في خدمة الوطن . ولتكونوا
امناء شجعاناً . ان كفاحنا هو كفاح من اجل العدالة والحرية ! لنعش
تشيكوسلوفاكيا ! »

ونفض ميلان ، وكان ملتهباً ، ووضع يديه على كففي أنا وقال لها :-
- واخيراً ، لقد انتهى الأمر يا أنا . انتهى الأمر .

وكرر صوت امرأة القرار باللغة السلوفاكية ؛ ولم يكونوا يفهمون
بعد شيئاً ، الا كلمات من هنا وهناك ، ولكن ذلك كان شبيهاً بموسيقى
عسكرية . ورددت أنا : واخيراً ! واخيراً ! - وسالت دموع على
خديها . ثم فهموا من جديد : **Die Regierung hat entschlossen** ،
وكان ذلك بالالمانية ، وبرم ميلان الزر الى آخره . فأخذ الراديو يهدير ،
وكان الصوت يسحق على الجدار اغانيهم الكريهة ، وضجيجهم الاحتفالي ؛
انه سيخرج من النوافذ ، وسيحطم زجاج امرة جاغرشميت ، وسيلحق
بهم الى صالونهم الميونخي في اجتماعهم العائلي الصغير ، وسيُبلع عظامهم .
وكانت رائحة الغوط والحليب المحمض قد انتظرت ، فشمها بعمق ،
ودخلت فيه كضربة مكسنة ، وكانت تطهره من عطور شارع رويال .
النظيفة الشقراء ؛ لقد كانت تلك رائحة البؤس ، كانت رائحته . وانزوع
موريس امام باب غرفته ، بينما كانت زيتيت تضع المفتاح في القفل ،
وكانت اوديت تقول بفرح : الى المائدة ، اذن ! الى المائدة . ستكون
لك مفاجأة يا جاك ! ، وكان يحس نفسه قوياً قاسياً ، وكان قد استعار
عالم الغضب والتمرد ؛ وفي الطابق الثاني ، كان الضحية سيكون لأن والدهم .
قد عاد ثملاً ؛ وفي الغرفة المجاورة ، كان يُسمع وقع خطى ماريا
برانزبي التي كان زوجها بناء السطوح قد سقط في الشهر الماضي من
فوق سطح ، وكانت انضجة والألوان والروائح كلها تبدو حقيقية ؛ وكان
قد استيقظ فاستعاد عالم الحرب .

والتفتت العجوز نحو هتلر ، وكان ينظر الى هذا الوجه الطفولي
الرديء ، هذا الوجه الدبابي ، فيشعر بأنه معتم مغتاط حتى اعماقه ؛
وكان ريبتروب قد دخل ، فقال بضع كلمات بالالمانية . فأرماً هتلر الى
الدكتور شميت ، وقال الدكتور شميت بالانكليزية : « لقد علمنا ان

حكومة السيد بنيش قد اعلنت التعبئة العامة . فبسط هتلر ذراعيه بصمت كرجل يشكو من ان الحوادث يعطيه الحق . وابتسم العجوز بلطف ، واضاء في عينيه شعاع احمر . شعاع حرب . وما كان عليه الا ان يبدأ العبوس ، كالفوهرر ، وما كان عليه الا ان يبسط ذراعيه وكأنه يقول : « واذن ؟ ان الأمر كذلك ! » حتى تنهار على الارض كومة الصحون التي كان يوازنها بين يديه منذ سبعة عشر يوماً . وكان الدكتور شميت ينظر اليه في فضول ، وكان يفكر ان من المغربي فتح الذراعين ، حين يحمل المرء كومة صحون منذ سبعة عشر يوماً ، وكان يفكر : « هذه هي اللحظة التاريخية » ، وكان يفكر بان الأمر قد بلغ ملجأه الاخير ، حرية تاجر عجوز في لندن ، حرية عارية تماماً . وكان الفوهرر والعجوز اذ ذلك يتبادلان النظر في صمت ، فلم يكن ثمة حاجة الى اي مترجم . وقام الدكتور شميت بخطوة الى الوراء .

جلس على مقعد حجري في ساحة « جيلو » ووضع القيثارة بالقرب منه . وكانت السماء مظلمة زرقاء تحت شجر الدلب ، وكان ثمة موسيقى . وكان الوقت مساء ، وكانت صواري قوارب الصيد تخرج من الارض مستقيمة سوداء ، ومن الجهة الاخرى من المرفأ ، كانت النوافذ تلتمع بالمشات . وكان صبي يُجري ماء النبع ؛ وعلى المقعد المجاور ، جاء زنوج آخرون يجلسون ، وحيوه . ولم يكن جائعاً ، ولم يكن عطشاً ، وكان قد استحم خلف الرصيف ، وكان قد التقى شخصاً طويلاً كثيف الشعر يسدو وكأنه سقط من القمر ، وقد عرض عليه ان يشرب كأساً ، وكل ذلك ، كان حسناً . واخرج القيثارة من علبته ، وكانت به رغبة للغناء . لحظة ، لحظة واحدة ، وسعل وتنحنح ، وسوف يغني بعد لحظة ، وكان شميرلين وهتلر وشميت ينتظرون الحرب في صمت ، فهي داخلة بعد لحظة ، وكانت القدم قد ورمّت ، وبعد لحظة سيخرجها من الحذاء ، وكان موريس جالساً على السرير يشد بكل قواه ، وبعد

لحظة سينتهي جاك من شرب حسائه ، ولن تسمع اوديت بعد هذا الهمس الصغير المزعج ، الأسهم النارية ، تحرك القنابل التي توشك ان تنطلق ، وبعد لحظة ستسرب الشموس في دوامة نحو السقف ، ولعبتها ستنبعث منها بعد لحظة رائحة الأفسنتين ، ثم يُغرق صمغٌ غريزٌ حار فخذيه المشلولين ، وسيرتفع الصوت غنياً رقيقاً عبر اوراق الدباب ؛ لحظة ، وكان ماتيو يأكل ، وكانت مارسيل تأكل ، وكان دانيال يأكل ، وكان بوريس يأكل ، وكان برونيه يأكل ، وكانت لهم نفوس آنية تملأها حتى الشفة شهوات متخثرة صغيرة ، لحظة وستدخل ، مصفحة بالفولاذ ، يخشاها بيار ، ويقبلها بوريس ، ويرغب فيها دانيال ، الحرب ، حرب الواقفين الكبرى ، حرب البيض المجنونة . لحظة : كانت قد انفجرت في غرفة ميلان ، وكانت تفر من جميع النوافذ ، وتصب في صخب عند امرة جاغرشميت ، وتطوف بأسوار مراكش ، وتهب على البحر ، وتسحق بنايات شارع رويال ، وتملأ منخري موريس برائحتها ، رائحة الغوط والحليب المتخثر ، وفي السهول والاسطبلات ومساحات المزارع لم تكن موجودة ، وكانوا يتراهنون عليها بين مرأتين ، في صالات فندق دريسن الملبسة . وأمر العجوز يده على جبينه وقال بصوت ابيض : « حسناً ، اذا شتم ناقشنا بنود مذكرتكم بنداً بنداً . » فادرك الدكتور شميت ان عهد المترجمين قد عاد .

واقرب هتلر من الطاولة ، وصعد الصوت الجميل الأجنس في الهواء النقي . وقد سمعته في الطابق الخامس من فندق ماسيليا ، امرأة كانت تستنشق الهواء الطلق على شرفتها ، فقالت : « غوميز ، تعال فاسمع الزنجي ، إنه رقيق الصوت ! » وفكر ميلان بساقه فانطقاً فرحه ، وشد بقوة على كتف أنا وقال : « انهم لا يريدون مني شيئاً ، فانا لست صالحاً لشيء بعد . » وكان الزنجي يغني . كان شارل فيغيه قد مات ، وكانت يدها الصفراوان تتمددان على الغطاء ، وكانت المرأتان تسهران عليه وهما تتكلمان عن

الأحداث ، وكاننا قد تعاطفنا على التو ، وأخذت جانين منشفة اسفنجية
فمسحت يديها ، ثم اخذت تلك له فخلديه ، وكان شميرلين يقول :
« فيما يتعلق بالبند الاول ، لي اعتراضان » وكان الزنجي يعني : بي
مير ، بيست دو شون ، وهذا يعني : انت في نظري اجمل النساء ،
وتوقفت امرأتان ، وكان يعرفهما ، ايننا ودولوريس ، مومسان من
شارع لاكيلدون ، فقالت له ايننا : « انت ، انك تعني ؟ » فلم يجب .
كان يعني ، فابتسمت له المرأتان ، ونادت ساره بنفاد صبر : « غوميز ،
بابلو ، آن لكما ان تأتيا ! فاذا تفعلان ؟ ان هناك زنجياً يعني ،
وانه رقيق الصوت . »

السبت ٢٤ ايلول

في كريفيلي ، حين دقت الساعة السادسة ، دخل الأب كرولار الى مركز الدرك ودق باب المكتب . وكان يفكر : « لقد ايقظوني ، » وكان يفكر في انه سيقول لهم : « لماذا تراهم ايقظوني ؟ » كان هتلر ناناً ، وكان شمبلرن ناناً ، وكان أنفه يُحدث موسيقى ناي صغيرة ، وكان دانيال قد جلس على سريره ، والعرق يسيل منه ، وكان يفكر : « لم يكن ذلك الا كابوساً . » وقال ملازم مركز الدرك : - ادخل ! آه ، أهذا انت ايها الاب كرولار ؟ ...

وأنت ايفيش قليلاً وتقلبت حلّ جنبها : وقال الاب كرولار : - ان الصغير هو الذي ايقظني . (ونظر الى الملازم في ضغينة وقال) لا بد ان الامر هام ...

قال الملازم : - آه ، ايها الاب كرولار ، يجب ان تشحم سوقاءك !

ولم يكن الاب كرولار يجب الملازم ، فقال :

— انني لا اعرف السوقاء ، ولا البس السوقاء ، وانما البس القبقاب .

وردد الملازم : — يجب ان تشحّم سوقاءك ، يجب ان تشحّم سوقاءك : فاذا فعلت كنت رشيقاً كالميزان !

ولولا شاربه لكان يشبه فتاة • وكان يضع نظارات ، وكان مائلاً الى الامام ، مبسوط الذراعين ، وهو يستند الى الطاولة بأطراف أصابعه ، وكان الأب كرولار ينظر اليه ويفكر : « انه هو الذي جعلهم يوقظوني » . وقال الملازم :

— لقد قال لك بأن تأتي بوعاء الصمغ ، اليس كذلك ؟ وكان الاب كرولار يمسك بوعاء الصمغ وراء ظهره ، فأراه اياه في صمت . وسأله الملازم :

— والفرشاة؟ يجب ان تعجّل ! فليس لديك الوقت للعودة الى بيتك . فقال الاب كرولار في رصانة :

— ان الفرشاة في سرتي . لقد ايقظوني بصورة مفاجئة ، ولكن ما كان لي مع ذلك ان انسى الفرشاة . ومدّ له الملازم مُدرج الورق :

— ضع نشرة منها على واجهة دار البلدية ، واثنين في الساحة الكبيرة ، وواحدة على بيت كاتب العدل .

قال الاب كرولار : — بيت المعلم بيلوم ؟ ان لصق الاعلانات هناك ممنوع .

قال الملازم : لا يهمني !

وكان ناثر الاعصاب ، ومرحاً ، وقال :

— انني آخذ ذلك على عهدتي . آخذ كل شيء على عهدتي .

— أهي التعبئة العامة حقاً ؟

قال الملازم : حبذا ! فسوف تقع الاشتباكات ، ايها الاب .

كرولار ، ستقع الاشتباكات !
فقال الاب كرولار : - اوه ! اما انت وانسا ، فأظن انا

سنبقي هنا .

وطرق الباب فنهض الملازم ليفتحه بخنه . وكان رئيس البلدية ،
وكان يلبس القبقاب ، وكان قد وضع وشاحه على سترته ، وقال :
- ماذا طلب مني الصغير ؟

قال الملازم : - ها هي المنشورات .

فوضع رئيس البلدية نظارتيه وفكّ المدرج ، وقرأ بصوت منخفض ،
(تعبئة عامة) ثم وضع المنشورات بسرعة على الطاولة ، كما لو أنه
كان يخشى ان تحرقه . وقال :

- كنت في الحقول ، ومررت لآخذ وشاحي .

ومد الاب كرولار يده ، فلفّ المنشورات ووضع المدرج تحت
سترته ، وقال لرئيس البلدية :

- كنت اقول لنفسى ايضاً : ليس طبيعياً ان يوتظني في تلك
الساعة المبكرة .

قال رئيس البلدية : - لقد مررت لآخذ وشاحي (ونظر الى
الملازم) ليس هناك ذكر للمصادرة ؟

فقال الملازم : - هناك منشور آخر .

قال رئيس البلدية : - تفه ! تفه ! ها نحن عدنا للحرب !

فقال الاب كرولار : - لقد خضت الحرب ، انا . اثنان وخمسون
شهوراً بلا جراح .

وثني عينيه وقد أجدلته الذكرى . وقال رئيس البلدية :

- حسناً ، لقد خضت الحرب الاولى ، فلن نخوض هذه . ثم انك
لا تكترث انت بالمصادرات .

وضرب الملازم على الطاولة في سلطة وقال :

- يجب ان نعمل شيئاً . يجب ان نثبت وجودنا .
وكان رئيس البلدية يبدو شاردأ ؛ وكان قد أدخل يديه في وشاحه
وقوس ظهره وأوضح :
- ان ضارب الطبل مريض .
فقال الاب كرولار : - انني احسن الضرب على الطبل . فبوسعي
ان احلّ محله .
وابتسم : انه منذ عشرة اعوام يحلم بأن يكون ضارب طبل .
قال الملازم : - ضارب الطبل ؟ انك ستضرب لنا السلام
للتوسكاني ! هذا ما سوف تعمله !

كان شميرلن نائماً ، وكان ماتيو نائماً ، ووضع القبائلي السلم على
السيارة الكبيرة ، وحمل الصندوق على كتفه ، وأخذ يصعد من غير ان
يمسك بالقضبان ، وكانت ايفيش نائمة ، وأخرج دانيال ساقيه من
السريير ، وكان جرس يقرع على مداه في رأسه ، وكان بيار ينظر الى
أخص قديمي القبائلي ، المتوردتين السوداوين ، وكان يفكر : « انه
صندوق مود ، ولكن مود لم تكن هناك ، فهي ستذهب عما قليل مع
دوسيت وفرانس وروبي في سيارة عجوز ثري كن واقعاً في حب
روبي ؛ وفي باريس ونانت وماكون ، كان رجال يلصقون على
الجدران مناشير بيضاء ، وكان السلام التوسكاني يضرب في كريفيلي ،
وكان هتلر نائماً ، وكان هتلر طفلاً صغيراً ، وكان في الرابعة من
عمره ، وكانوا قد ألبسوه ثوبه الجديد ، ومر كلب اسود ، فأراد ان
يقبض عليه بشبكته المعدة لصيد الفراشات ؛ وكان السلام التوسكاني
يضرب ، وأفادت السيدة ريبوليه مذعورة وقالت :

- ان شيئاً ما يحترق .

كان هتلر نائماً ، وكان يقطع بنطلون أبيه قديداً صغيرة بمقص
للأظافر ، ودخل ليني فون ريفنستال ، فلم تعدد الفانيلات وقال :

— سأطعمك اياها في السَّلَطة .

وكان السلام للتوسكاني يضرب ، ويضرب ، ويضرب . وقال
موبلان لزوجته :

— أراهن ان المنشرة هي التي احترقت .

وخرج الى الشارع ، فرأته السيدة ريبوليه من وراء مصراعها وهي
بقميصها الوردى ، وأنه يمرّ وينادي الساعي الذي كان يركض ،
وصاح موبلان :

— هيه ! يا أنسلم !

فصاح الساعي : — انها التبعثة .

فسألت السيدة ريبوليه زوجها الذي لحق بها :

— ماذا ؟ ماذا هناك ؟ أليس هناك ما يحترق ؟

ونظر موبلان الى المنشورين وقراها بصوت منخفض ، ثم اسندار
وعاد الى بيته . وكانت زوجته على عتبة الباب فقال لها : « قولي
لبول ان يقرن العربة . » وسمع ضجة فالتفت ، فاذا هو « شابان »
على عربته ، فقال له : « انك تركض ، فلماذا انت مستعجل الى هذا
الحد ؟ » فنظر اليه شابان من غير ان يجيب . ونظر موبلان خلف
العربة : كانت ثمة بقرتان تسيران ببطء ، مربوطتين من الخلف بأرسان .
فقال بصوت منخفض : « يا للحيوانين الجميلين ! » قال شابان بغضب :
« بوسعك ان تقول ذلك ، بوسعك ان تقول انهما حيوانان جميلان . »
وكان السلام للتوسكاني يضرب ، وكان هنار نائماً ، وكان فرينيو الشيخ
يقول لابنه : « اذا أخذوا مني الحصانين واخذوك ، فكيف تراني
سأستغل ؟ » . وكانت فانيت تضرب الباب ، فقلت لها السيدة ريبوليه :
« أهذه انت يا نانيت ؟ استفهمي لنا في الساحة لماذا يضربون السلام
التوسكاني ؟ » فأجابت نانيت : « ولكن ألم تعرف السيدة بعد ؟
انها التبعثة العامة . »

ككل صباح ، كان ماتيو يفكر « ككل صباح » . وكان يبار قد اندفع الى الزجاج . كان ينظر عبر النافذة الى العرب الجالسين ارضاً ، او الى صناديق ملونة كانت تنتظر سيارة « اوارزات » . وكان ماتيو قد فتح عينيه ، عيني طفلٍ وليد ما يزال أعمى ، وكان يفكر : « وما الجدوى ؟ » ككل صباح . صباح إرهاب ، سهم ناري يُطاق على الدار البيضاء ، على مارسيليا ، وكانت السيارة الكبيرة ترج تحت قدميه ، وكان المحرك يدور ، وكان السائق ، وهو شخص طويل يرتدي قبعة من القماش البيج ذات طرف من الجلد ، يُنهى تدخين سيجارته في الخارج . وكان يفكر : ان مود تحقرني . صباح ككل صباح ، آسن فارغ ، حفلة يومية فخمة ذات نحاس وأبواق وشروق شمس عني . لقد كان في الماضي أصباح أخرى : بداءات ، كان المنبه يسدق ، وكان ماتيو ينهض فجأة ، قاسي العينين ، نضراً ، كأنما يستيقظ على نغمة بوق ، ولم يكن ثمة بعد بداءة ، لم يكن ثمة بعد ما يُعمل . ومع ذلك ، فقد كان لا بد من النهوض والمشاركة في الحفلة ، ورسم دروب وممرات في هذا الحر ، والقيام بجميع طقوس العبادة ، ككاهن فقد ايمانه . وأخرج ساقيه من السرير ونهض فتزع منامته : « ما الجدوى ؟ » ثم ترك نفسه يسقط مرة ثانية على ظهره ، عارياً ، ويداه تحت رقبته ، وكان قد بدأ يميز السقف ، عبر غمامة بيضاء . هالك . هالك تماماً ؛ في الماضي ، كنت أحمل الايام على ظهري ، فأنتقلها من ضفة الى ضفة اخرى ؛ اما اليوم ، فهي التي تحملني . وكانت السيارة الكبيرة ترج ، وكانت تخفق ، وكانت تهتز تحت الاقدام ، وكانت الارض الخشبية تحترق ، فيخيّل اليه ان نعليه يتفلحان ، وكان قلب يبار الجبان يرج ، وكان يخفق ، يخفق عند الوسائد الدافئة ، وكان الزجاج محرقاً ، ومع ذلك فقد كان يشعر انه مثلج ، وكان يفكر : « انها تبديء » وسوف تنتهي في حفرة بالقرب من ميدان او فردان ، وهي

الآن مبتدئة . وكانت قد قالت له : « انت اذن جبان » وهي تنظر
اليه نظرة احتقار . وتمثل الوجه الصغير الرصين المحموم ، ذا العينين
المظلمتين ، والشفتين الرقيقتين ، فأحسّ بصدمة في صدره . وأقلعت
السيارة الكبيرة . وكان الجو ما يزال رطباً جداً ، وخرجت لويزون
كورناي ، اخت حارسة الحاجز ، وكانت قد جاءت من ليزبو لتساعد
اختها المريضة في ادارة بيتها ، خرجت الى الطريق لتذهب فترفع
حواجز المر الى مستواها ، وقالت : « كم هو جو قارص ! » وكان
مزاجها صافياً لأنها كانت مخطوبة . لقد مضى عامان وهي مخطوبة ،
ولكن كلما فكرت بذلك صفا مزاجها . وأخذت تدير المفتاح الكبير ،
وفجأة توقفت . كانت متأكدة من ان ثمة احداً في الطريق ، خلف
ظهرها ، ولم تكن قد فكرت بأن تتطلع ، وهي خارجة من البيت ،
ولكنها كانت متأكدة من ذلك . والتفتت فانتطع نفسها : كان ثمة
أكثر من ثمة عربية ومركبة وعجلة مصطفة تنتظر بسكون . وكان
الفتيان جالسين يتصلب على المقاعد ، والاسواط في ايديهم ، والاستياء
باد عليهم . وكان آخرون يمتطون الخيل ، وغيرهم كانوا قد جاءوا
مشياً على الاقدام وهم يجرّون خلفهم بقرة مربوطة بحبل . وكان منظرأ
غريباً جداً ، حتى انها خافت . وامرعت تدير المفتاح وترتدّ الى
جانب الطريق . وساط الفتيان خيلهم ، فأخذت العربات تسير أمامها ،
وكانت السيارة الكبيرة تسير وسط اراض بور حمر ، وكان العرب
يتحركون وراء ظهورهم . وقال بيار : « يا للعرب الملاحين ، انني
لا أكون مطمئناً حين أشعر بهم خلفي ، فانا أنساءل دائماً ماذا يدبّرون ،
وألقى بيار نظرة الى جوف السيارة : كانوا متراكمين في صمت ،
بالوان خضر ورمادية ، مغمضي العيون . وكانت امرأة محجبة قد
استسلمت بين الاكياس والرزم ، وقد انقلبت على قفاها ، وكان
جفناها مسيلين تحت حجابها . وفكر : « مهما يكن ، فهذا شيء

بائس . بعد خمس دقائق سيأخذون في الصباح . ان هؤلاء الاشخاص
 ليس لهم معدة . وكانت لوزون تعرفهم لدى مرورهم ، كانوا
 صبيان كريفيلي ، جميع صبيان كريفيلي ، وكان بوسعها ان تسمي كلا
 منهم باسمه ، ولكنهم لم يكونوا يومذاك يظهرون بوجوههم المألوفة .
 كان النتي السمين الاحمر ابن شابان ، وكان قد سبق لما ان رقصت معه
 في السان مارتان . وصاحت به : « هيه ، مارسيل ! انك لفخور
 جداً ! » فالتفت ونظر اليها نظرة مهيبة . وقالت : « هل انت ذاهب
 الى العرس ؟ » فقال : « انت على حق ، الى العرس » . واجتازت
 العربة الخطوط الحديدية وهي تهتز ، وكانت ثمة بقرتان تتبعانها ،
 حيوانان جميلان . ومرت عربات أخرى ، وكانت تنظر اليها وهي
 تظل حينها بيدها . ورأت موبلان وتورنوس وكوشوا ، ولم يكونوا
 متنبهين لها ، كانوا يمشون وهم جالسون باستقامة فوق مقاعدهم ، حاملين
 سياطهم كأنها صوالمجة ، وكانوا يشبهون ملوكاً اشراراً . وانقبض قلبها
 فصاحت بهم : « أهي الحرب ؟ » ولكن لم يجيبها احد . ومروا وهم
 في عجلاتهم المهتزة المرتجة ، وكانت الابقار تتبعهم في أبتة مضحكة .
 واختفت المركبات واحدة بعد الاخرى ، خلف المنعطف ، فبقيت لحظة ،
 ولا تزال يدها تظلل عينيها ، وهي تنظر في الشمس المشرقة . وكانت
 للسيارة الكبيرة تجري كالرياح ، وتدور وتنعطف وهي تهدر ، وفكرت
 في جان ماترا ، خطيبها ، الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في انغوليم ،
 في فرقة من المهتمدين . وعادت المركبات الى الظهور ، ذباباً على الطريق
 الابيض ، ملتصقة بجانب الراية . ونفذت السيارة الكبيرة بين الصخور
 السمر ، فدارت ودارت ، وكان العرب لدى كل منعطف يندافعون
 ويصيحون « هوش » بصوت مؤثر . ونهضت المرأة المحجبة فجأة ،
 فأطلق فيها الذي لم يكن يرى تحت المسلمين الابيض لعنات مريفة ،
 وشهرت فوق رأسها ذراعين ضخمتين كأنهما فخذان ، وكانت يدها

الخفيفتان السمينتان ترقصان في طرف ذراعها ؛ وانتهى بها الامر الى ان تنزع حجابها وتظل من الباب ، ثم تأخذ في القيثو وهي تنن . وقال ييار في نفسه : « حسناً ، حسناً ، سوف يغوطن علينا . » ولم تكن المركبات تتقدم وانما كانت تبدو مدبقة على الطريق . ونظرت اليها لويزون طويلاً : كانت تتحرك ، كانت تتحرك مع ذلك ، وكانت تبلغ قمة الرابية واحدة بعد اخرى ؛ ثم لم تعد ترى . وتركت لويزون يدها تسقط من جديد ، وطرفت حينها المبهورتان ، ثم دخلت لهنم بأصغار . وكان ييار يفكر في مود ، وكان ماتيو يفكر في اوديت ، وكان قد حلم بها ، وكان كل منهما يمسك بقامة الآخر ، وكانا يغنيان لحن « حكايات هوفان » على ظهر سفينة « بروفنسال » . وكان الآن عازباً يرشح عرقاً فوق سريره ، وكانت اوديت تؤنس وحدته : « اذا كنت لم أمت من الضجر ، فهذا بفضلها » . وكانت رطوبة مبيضة ما تزال ترتجف في عينيه ، وكان طرف من حنان ما يزال يرتعش في قلبه : حنان ابيض ، حنان يقظة حزين صغير ، ذريعة لكي يبقى مضطجماً على ظهره لحظات اخرى . بعد خمس دقائق سيسيل الماء البارد على رقبته وفي عينيه ، وزبد الصابون سيفرقع في أذنيه ، ومنظف الاسنان سيعجن لثتيه ، ولن يكون له بعد أي حنان تجاه احد . ألوان ، أنوار ، روائح ، أصوات ، ثم كلمات ، كلمات ودية ، كلمات رصينة ، كلمات صادقة ، كلمات طريفة ، كلمات حتى المساء : ماتيو ... بفت ! إن ماتيو كان مستقبلاً . ليس ثمة بعد من مستقبل . ليس ثمة بعد من ماتيو الا في الحلم ، بين منتصف الليل والساعة الخامسة صباحاً . وكان شابان يفكر : « حيوانان جميلان الى هذا الحد ! » الحرب : كان لا يكثر بها ، فلا بد من الانتظار لئرى . اما هذان الحيوانان ، فقد كانا يُعنى بهما منذ خمسة أعوام ، وقد خصاهما بنفسه : وكان ذلك يلوي قلبه . وساط حصانه ، ومال به نحو اليسار ؛ واجتازت مركبته

مركبة سيمونون ، وقال سيمونون : « ماذا تعمل ؟ » فقال شابان :
 « لقد مللت ، وبودي لو أصل ! » فقال سيمونون : « ولكنك
 مستعب دابتيك » ، قال شابان : « طز فيهما الآن ! » وكان بوده
 ان يصد مهم جميعاً ، وكان قد نهض ، وهو يقطع لسانه ويصيح :
 « هو ! هو ! » . وألم بمركبة بوبول ، وجاوز مركبة بولاي .
 وسأله بولاي : « هل تقوم بالسباق ؟ » فلم يجب شابان ، وصاح
 بولاي خلفه : « حذار الحيوانان ! انك تتعبهما ! » وفكر شابان :
 « أود لو ماتا » ، وطرق الباب ، وكان شابان قد أصبح مجلياً ،
 وكان الآخرون يتبعونه ويضربون افراسهم بدافع التسابق ، وكان الباب
 يطرق ، وكان ماتيو قد نهض ، وهو يفرك عينيه ، وكان الباب
 يطرق ، وتنحنت السيارة الكبيرة لتتفادى صدم عربي كان يركب دراجة
 ويحمل عليها مسلمة سمينة محجبة ، كان الباب يطرق ، وانفص شامبرلين
 وقال : « هولاً ! ما هذا ؟ من يطرق الباب ؟ » فأجاب صوت :
 « انها الساعة السابعة ، يا صاحب الدولة » . وكان على مدخل الشكنة
 حاجز خشبي . وكان حارس منتصباً امام الحاجز . وشد شابان على
 الأعنة وصاح : « هو ! هو ! باسم الرب ! » فقال الحارس :
 « حسناً ! حسناً ! من اين انت قادم ، هكذا ؟ » فقال شابان وهو
 يشير الى الحاجز : « هيا ، ارفع هذا » . فقال الجندي : « ليست
 لدي أوامر . فمن اين انت قادم ؟ » « اقول لك : ان ارفع هذا » .
 وخرج نائب ضابط من مركز الحرس . وكانت جميع العربات قد
 توقفت ، فأملها لحظة ثم صفر سائلاً : « ماذا أتيم تفعلون هنا ؟ »
 فقال شابان : « اننا معبأون . يبدو انكم لا تريدوننا بعد في هذه
 الساعة ؟ » فسأله نائب الضابط : « هل معك الكراسي ؟ » فأخذ
 شابان يفتش في جيوبه . ونظر نائب الضابط الى جميع هؤلاء الفتيان
 الصامتين العابسين ، الجامدين على مقاعدهم ، الذين كانوا يظهرن

وكأنهم يقدمون السلاح ، فأحسّ بالاعتزاز من غير ان يدري السبب :
وتقدّم خطوة وصاح : « والآخرون ؟ هل يحملون الكراسي ايضاً ؟
اخرجوا دفاتركم . » وكان شابان قد وجد دفتره العسكري ، فتناولوه
نائب الضابط وقلب صفحاته ثم قال : « ان معك الكراسي رقم ٣ ايها
المحمون . فأنت مستعجل اكثر مما ينبغي ، وهذه الكراسي للمرة القادمة »
فقال شابان « قلت لك اني مجتهد . » قال نائب ضابط : « أتراك
تعرف ذلك خيراً مني ؟ » فقال شابان غاضباً : « نعم . لقد قرأت
ذلك في النشرة . » وكان الفتيان قد نفذ صبرهم خلفه ، وكان يولاي
يصرخ : « أم ننته بعد ؟ هل ندخل ؟ » فقال نائب الضابط :
« حسب المنشور . خذ ، هذا هو منشورك . وليس عليك الا ان تنظر
اليه ، ان كنت تعرف القراءة . » ووضع شابان سوطه ، فقفز الى
الارض واقرب من الجدار . وكان ثمة ثلاثة منشورات ، اثنان منها
ملونان : « تجندوا ، تجندوا من جديد في جيش المستعمرات » ،
وثالث ابيض : « دعوة فورية لعدة فئات من الاحتياطيين » . وقرأ على
مهمل ، بصوت منخفض ، وقال وهو يهز رأسه : « ليس هذا هو
الذي وضعوه عندنا . » وكان موبلان وبولاي وفرينيو قد ترجلوا من
المركبات ، وكانوا ينظرون الى المناشير ، وقالوا : « ليس هذا هو
منشورنا . » فسألهم نائب الضابط : « من اين انتم ؟ » فقال يولاي :
« من كريفيلي . » قال نائب الضابط : « اذن لا اعرف ، ولكن
افكر الآن ان في مركز كريفيلي للشرطة حمراً كبيراً ! مها يكن ،
اعطوني دفاتركم واتبعوني الى غرفة الملازم . » وفي ساحة كريفيلي
الكبرى ، أمام الكنيسة ، كانت النساء يحيطات بالسيدة ربوليه التي
كانت تحسن كثيراً للبلدة ، وكان ثمة ماري وستيفاني وامرأة رئيس
المكتب الحكومي للدفع وجان فرينيو . وكانت ماري تبكي على مهمل ،
وكانت السيدة ربوليه ترتدي قبعها الكبيرة السوداء ، وتتكلم وهي

تحرك مظلّتها : « يجب ألاّ تبكي يا ماري ، بل يجب ان تضبّطي
أعصابك . نعم ، نعم ، يجب ان تضبّطي اعصابك . سيعيدونه لك ،
زوجك ، سترين ، مع مداليات وامتيازات . ولعله لن يكون هو أشقى
الجميع ، لو تعلمين ! لأن الجميع هذه المرة مجتدون ، النساء
كالرجال . »

وصوّبت مظلّتها الى الشرق فأحسّت انها تسردّ عشرين سنة من
شبابها . وقالت : « سترين ، سترين ! لعلّ المدنيين هم الذين سيربحون
الحرب . » ولكن ماري كانت قد اتخذت هيئة البلاهة التتة ، وكان
بكاؤها يهزّ كنفها ، وكانت تنظر الى مبنى الاموات ، عبر دموعها ،
وهي تلزم سكوتاً مغيظاً . وقال الملازم : « بأمرك » وكان يشدّ
السماعة على اذنه ويقول : « بأمرك ! » وكان الصوت الرخو الغاضب
يسيل بلا انقطاع : « وتقول انهم ذهبوا ؟ آه ، يا صديقي العزيز ،
لقد عملت عملاً ! ولست اخفيك ، ان هذا عمل جدير ان يطبخ
بك ! » وكان الاب كرولار يجتاز الساحة وهو يحمل دلو الصمغ
وفراشيه ، وتحت ذراعه مدرج أبيض . وصاحت به ماري : « ما
هذا ؟ ما هذا ؟ » فلاحظت السيّنة ربوليه بنفاد صبر ان عينها كانتا
تلتصعان بأمل بليد . وكان الاب كرولار يضحك منشرحاً ، فأشار الى
المدرج الابيض ، وقال : « لا شيء . لقد اخطأ الملازم بالمنشورات ! »
وأعاد الملازم السماعة وجلس ، مرتخياً الساقين . وكان الصوت ما
يزال يصدي في اذنيه : « هذا عمل جدير ان يطبخ بك ! » ونهض
ثانية فاقرب من النافذة المفتوحة : كان المنشور يفتّح على الجدار
المقابل ، طرياً رطباً ما يزال ، ابيض كالثلج : « تعبئة عامة » واخذ
الغضب بخنقه ، وكان يفكر : « لقد طلبت منه ان يزرع هذا اولاً ،
ولكنه سيقصّد ان يزرعه اخيراً » وتجاوز فجأة طرف النافذة ، وركض
الى المنشور وأخذ في تمزيقه . وغمّس الاب كرولار فرشاته في الصمغ :

وكانت السيدة ربوليه تنظر اليه بفعل ذلك وهي آسفة ، وكان الملازم
 يحك ، يحك الجدار ، وكان تحت أظافره كرات من العجين الابيض ؛
 وكان بلومار وكورميه قد بقيا في الثكنة ؛ أما الآخرون فقد عادوا الى
 أفراسهم وهم يتبادلون النظر في غير ما اطمئنان ؛ كانت بهم رغبة
 لأن يضحكوا وان يغضبوا ، وكانوا يُحسّون انهم فارغون كما يحدث
 في اليوم التالي للتبضع . واقترب شابان من بقراته وربت عليهما
 بيده ، وكانت أخطامها وصدورها ملأى باللعب ، وفكر بحزن :
 « لو كنت عرفت ، لما اتعبتها الى هذا الحد . » وسأل بولاي من
 وراء ظهره : « ماذا نفعل ؟ » فقال شابان : « لا نستطيع ان نعود
 فوراً . يجب ان ندع الحيوانات تستريح . » وكان فرينيو ينظر الى
 الثكنة ، فيعيد له ذلك ذكريات ، وقد لكز شابان بمرقه وقال وهو
 يضحك بالخفاء : « قل لي ! ما رأيك في ان نذهب ؟ » فسأله
 شابان : « الى اين تريد ان تذهب يا بني ؟ » فقال فرينيو : « الى
 الماخور ! » فالتف حوله فتيان كريفيلي وأخذوا يوجهون ضربات
 خفيفة الى كتفيه وهم يضحكون : « فرينيو الملعون ! ان له دائماً
 افكاراً جيدة ! » وسرّي عن شابان نفسه فقال : « انا اعرف المكان ،
 ايها الفتيان ؛ وليس لكم الا ان تعودوا الى العربية ، وسوف اقودكم ! »
 الساعة ٨،٣٠ : كان منزلق يطوف حول المقفز ، بجرة قارب
 آلي ، وكان ماتيو يسمع بين لحظة واخرى هدير المحرك ، ثم يتعد
 القارب ، فيصبح المنزلق نقطة سوداء ، ولا يُسمع شيء بعد . وكان
 البحر المنبسط ، القاسي ، الابيض يبدو حلبة تزلج مقفرة . وعمّا قليل
 سيزرق ويخفق ويصبح مائماً وعميقاً ، وسيكون اذ ذاك بحر الناس
 جميعاً ، مليئاً بالصراخ ، منقطاً برؤوس صغيرة سوداء . واجتاز ماتيو
 السطيحة ، وحاذى المنتزه لحظة : وكانت المقاهي ما تزال مغلقة
 ومرّت سيارتان . كان قد خرج على غير هدف محدد : ليشري

الجريسة ، وليشم رائحة الفوقس والاوركالبتوس التي كانت تنتشر في
المرقأ ، ثم ليقتل الوقت . وكانت اوديت ما تزال نائمة ، وكان جاك
يشغل حتى الساعة العاشرة . وانعطف في شارع تجاري كان يصعد نحو
المحطة ، فصادفته فتانان انكليزيتان تضحكان ، وكان اربعة اشخاص
قد تجمعوا حول منشور . فاقرب ماتيو : ان في ذلك لإضاعة لبعض
الوقت . وكان رجل قصير ذو لحية بهز رأسه . وقرأ ماتيو :

« بأمر من وزير الدفاع الوطني والحرب ووزير الطيران ، يُدعى
الضباط ونواب الضباط وأفراد فرق الاحتياط ، حاملو امر التجنيد او
كراسته البيضاء ذات الرقم « ٢ » ، الى السير فوراً ودون ابطاء
ومن غير ان ينتظروا اشعاراً فردياً ، للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجل
على امر التجنيد او الكراسة في الظروف التي توضحها هذه الوثيقة .
السبت ٢٤ ايلول ١٩٣٨ ، الساعة التاسعة . »

« وزارة الدفاع الوطني والحرب والطيران »

وقال الرجل بلهجة تأنيب : « تت ، تت ، تت . » فابتسم له
ماتيو وأعاد قراءة المنشور بانتباه : كان لإحدى تلك الوثائق المضجرة ،
ولكن المفيدة ، التي كانت منذ حين من الزمن تملأ الصحف باسم « تصريح
من وزارة الخارجية البريطانية » او « بلاغ من الكمي دورسيه » وكان
لا بد من قراءتها على دفعتين لإنجازها . وقرأ ماتيو : « للالتحاق
بمركز الاستدعاء المسجل » وفكر : « ولكن معي الكراسة رقم ٢ ،
أنا ! » وفجأة ، أخذ المنشور يصوب اليه نظره ، فكان الأمر كما
لو أن اسمه كان مكتوباً بالطباشير على الجدار ، مع شتائم وانذارات .
مجنّد : كان ذلك على الجدار ، وربما كان كذلك يمكن قراءته على
وجهه . واحمر وجهه ، وابتعد بسرعة « الكراسة ٢ . تلك هي .
انني بسبيل ان أصبح انساناً ذا أهمية » سوف تنظر اليه اوديت بانفعال
هكيبوت ، وسيتخذ جاك هيئة يوم الأحد ويقول له « يا عزيزي ، ليس

عندي ما اقله لك . ، ولكن ماتيو كان يحس بأنه متواضع ، ولم تكن به رغبة لأن يصبح انساناً ذا أهمية . وانعطف الى اليسار في أول شارع برز له ، وحث الخطى : وكان على الرصيف الأيمن جمع صغير معتم يضج امام منشور . في فرنسا كلها . اثنين اثنين . اربعة اربعة ، امام الوب من المناشير . ولا شك انه كان في كل جمع شخص على الأقل يحس محفظته ودفتره العسكري عبر فماش سترته ، ويحس بأنه يصبح شخصاً ذا أهمية . شارع « لابوست » . منشوران . جمعان . كانوا ما يزالون يتحدثون عنه . ودلف الى زقاق طويل مظلم . وكان واثقاً من أن المناشير الملونة قد وفرت هذا الزقاق على الأقل . كان وحيداً ، وكان يستطيع ان يفكر في نفسه . وفكر : « هكذا : » كان كذلك . فهذا النهار المستدير الملآن الذي كان يموت من الشيخوخة ، دون ريب ، هناك على الساحة ، في سلام ، كان يتمدد فجأة كالسهم ، فينقل الى الليل في ضجة ، ويتسلل في الظلام ، في الدخان ، في الارياف المقفرة ، عبر خليط من المحاور ، فينسرب داخلها ، ولن يقف الا في آخر الليل ، في باريس ، على رصيف محطة ليون . وكانت انوار كاذبة تلف النهار : تلك هي الانوار المقبلة للمحطات الليلية . وكان ألم غامض يلف أعماق عينيه : ذلك هو ألم السهد القسام . ولم يكن ذلك ليضجره : فهذا او شيء آخر ... ولم يكن ذلك يسليه ايضاً : « مها يكن من أمر ، فانه من نوع الحكاية والطابع البارز . » وفكر : « يجب ان أسأل عن موعد قطار مرسيليا . » وعاد الزقاق يقوده من جديد على طريق الكورنيشي ، بغير إحساس منه . وأفضى فجأة الى نور كبير فجلس على سطيحة مطعم كان يفتح لساعته . « فنجان قهوة والدليل . » وأقبل سيد ذو شارب فضي يجلس بالقرب منه . وكانت تصحبه امرأة ناضجة . وفتح السيد « كشاف نيس » ، والتفت السيدة الى البحر . ونظر اليها ماتيو لحظة ، وغدا حزينا . وفكر : « ينبغي

أن أنظّم أعماله . استخدام ايفيش الى باريس ، الى منزلي ، واعطاها وكالةً لتستطيع ان تقبض رانبي « وعاد رأس السيد يظهر فوق جريدته وقال : « انها الحرب . » فتهدت السيدة من غير ان تجيب ؛ ونظر ماتيو الى وجنتي السيد الملتعنين المساوين ، وسرته التويدية ، وقيصه ذي الخطوط البنفسجية ، وفكر : « انها الحرب . » X

انها الحرب . وانفصل شيء ما لم يكن يتصل به بعد الا بخيط ، ثم تكوّم وسقط الى خلف . وكانت تلك حياته ؛ كانت ميتة . ميتة . والنفت ونظر اليها . كان فيغيبه ميتاً ، وكان يبسط ذراعيه على الغطاء الأبيض ، وكانت ذبابة تعيش على جبينه ، وكان مستقبله يمتدّ على مدى للنظر ، غير محدود ، خارج الناول ، ثابتاً كمنظره الثابت تحت جفنيه الميتين . مستقبله : السلام ، مستقبل العالم ، مستقبل ماتيو . كان مستقبل ماتيو هنا ، مكشوفاً ، ثابتاً وزجاجياً ، خارج الناول . كان ماتيو جالساً الى طاولة في مقهى ، وكان يشرب ، وكان وراء مستقبله وكان ينظر اليه ويفكر : « السلام » وأرت السيدة فيرشو وجه فيغيبه للممرضة ، وكانت مصابة بتشنج العنق ، وكانت عينها تؤلمها ، وقالت : « كان رجلاً شجاعاً » ثم بحثت عن كلمة ، كلمة أفخم تصفه بها . كانت اقرب اقربائه ، وكان عليها ان تقرر : وجاءت كلمة « هادي » على لسانها ، ولكنها لم تكن حاسمة بما فيه الكفاية . وقالت : « كان رجلاً سلمياً . » ثم صممت . وفكر ماتيو : « لقد كان لي مستقبل سلمياً . » مستقبل سلمياً : لقد احب ، وكره ، وتألّم ، وكان المستقبل هنا ، حوله ، فوق رأسه ، في كل مكان ، كأنه محيط ، وكانت كل سورة من سوراته غضبه ، وكل مصيبة من مصائبه ، وكل ضحكة من ضحكاته تنغذى من هذا المستقبل الحاضر الذي لا يرى . إن البسمة ، مجرد البسمة ، كانت رهناً على سلام الغد ، على سلام السنة القادمة ، على سلام العصر ؛ وإلاّ لما جرّوت قط على الابتسام .

كانت سنوات وسنوات من سلام المستقبل قد حطت سلفاً على الأشياء فأنضجتها وذهبت بها ؛ فأن يأخذ المرء ساعته ، أو مقبض باب ، أو يد امرأة ، فذلك يعني انه يأخذ السلام بين يديه . وفترة ما بعد الحرب كانت بداءة ، بداءة السلم . وكان الناس يعيشونها على غير ما استعجال منهم ، كما يعيشون صباحاً . وكان « الجاز » بداءة ، والسينما التي احببتها كثيراً ، كانت بداءة . والسيرالية . والشيعوية . وكت متردداً ، أنخبر طويلاً ، فقد كانت لي سعة من الوقت . الوقت ، السلام : كانا امرأ واحداً . اما الآن فان هذا المستقبل هنا ، ميت عند قدمي . وكان مستقبلاً زائفاً . خدعة . وكان ينظر الى هذه الاعوام العشرين التي عاشها بطيشة ، مشمسة ، سهلاً بحرياً ، وكان يراها الآن كما كانت : عدداً محدوداً من الأيام المضغوطة بين جدارين عالين بلا أمل ، فترة مفهرسة ، ذات مقدمة وخاتمة ، متذكر في كتب التاريخ تحت عنوان « فترة ما بين الحربين » . عشرون عاماً : ١٩١٨ - ١٩٣٨ . عشرون عاماً فقط ! بالأمس ، كان ذلك يبدو أقصر وأطول في وقت واحد : ومهما يكن ، فما كان لامرئ ان يفكر بالعدو ، ما دام ذلك لم يكن قد انتهى . اما الآن ، فقد انتهى . كان مستقبلاً زائفاً . كل ما عاشه الناس منذ عشرين عاماً ، عاشوه زائفاً . لقد كنا مجدين رصينين ، وقد حاولنا ان نفهم ، وها نحن ذا : كان لتلك الايام الجميلة مستقبل خفي أسود ، لقد كانت تخدعنا ، وكانت حرب اليوم ، « الحرب الجديدة الكبرى » تسرقها من تحتنا . كنا مخدوعين من غير ان نعرف ، كالأزواج المخدوعين . وها هي الحرب هنا الآن ، ان حياتي ميتة ؛ تلك كانت حياتي . يجب ان نبدأ كل شيء من جديد . وبحث عن مستقبل ، اي مستقبل ، ذلك الذي يولد من جديد اولاً ، في تلك الامسية التي قضاه في « بروز » ، جالساً على السطیحة ، يأكل مثلجات بالشمس وينظر بعيداً الى تلة « اسيز » الهادئة ، عبر

الغبار : إذن ، كان ينبغي ان يكتشف الحزب في احمرار الشمس الغاربة ،
لو أنني استطعت ان أتبين في الشعاعات الحمر التي كانت تذهب الطاولة
والافريز ، نذير عاصفة ودم ، لكانت هذه الشعاعات ملكي الآن ،
وكان بإمكانني على الأقل ان انقذ هذا . ولكنني كنت بلا حذر ، وكان
المرطب يذوب على لساني ، وكنت افكر « ذهب قديم ، حب ، مجد »
صوفي ، وقد فقدت كل شيء . كان الخادم يمر بين الطاوات ، فناداه
مانيو ، ودفع ثم نهض من غير ان يعرف تماماً ما كان يفعله . وخلف
حياته وراءه ، لقد تبدلت . واجتاز السطيحة ، وذهب يرتفق الدرايزون ،
مواجهاً البحر .

وكان يُحسّ انه كئيب خفيف : كان عارياً ؛ لقد سرقوا منه كل
شيء . لم يبق لي شيء بعد ، حتى ولا ماضي . ولكنه كان ماضياً
زائفاً ، وانا لست آسفاً عليه . وفكر : لقد حرّروني من حياتي ،
وكانت حياة رديئة فاشلة ، ملرسيل ، ايفيش ، دانيال ، حياة قدرة ،
ولكن الامر لدي الآن سواء ، ما دامت قد ماتت . فنذ هذا الصباح ،
منذ ألصقوا هذه المناشير البيضاء على الجدران ، أصبحت جميع الحيات
فاشلة ، جميع الحيات ميتة . فلو فعلت ما كنت أريد ، لو استطعت
مرة ، مرة واحدة ، ان اكون حرّاً ، لكان هذا مع ذلك ، خديعة
قدرة ، لأنني كنت أكون حرّاً من اجل السلام ، هذا السلام الخادع ، وكنت
اكون الآن هنا ، مع ذلك ، مواجهاً البحر ، مستنداً الى هذا الدرايزون
وخلف ظهري جميع المناشير البيضاء ؛ جميع هذه المناشير التي تتحدث
عني ، على جميع جدران فرنسا ، والتي تقول ان حياتي قد ماتت ،
وانه لم يكن ثمة سلام قط : فما كانت بي حاجة لان أجهد هذا الجهد
كله ، ما كانت بي حاجة لان اشعر بهذا الندم كله . البحر ، الشاطيء ،
الحيات ، الدرايزون : باردة ، ليس فيها دم . كانت قد فقدت مستقبلها
القديم ، ولم تكن قد اعطيت بعد مستقبلاً جديداً ، كانت تطفو في

الحاضر . كان ماتوران يطفو حياً بعد العاصفة ، عارياً فوق شاطئ ،
وسط الاسمال المثلثة بالماء ، وسط الصناديق المبورة ، والأشياء التي
ليس لها استعمال معين والتي لفظها البحر . وخرج شاب أعمر من خيمة ،
وكان يبدو هادئاً فارغاً ، فنظر الى البحر متردداً : حي بعد العاصفة ،
انا جميعاً احياء بعد العاصفة ، وكان الضباط الألمان يتسمون ويسلمون ،
وكان المحرك يدور ، وكانت المروحة تدور ، وحيّاً شمبلان وابتم ، ثم
استدار ووضع قدمه على السلم .

المنفى في بابل ، اللعنة على اسرائيل وحائط المبكي ، لم يكن قد
تغير شيء على الشعب اليهودي منذ كان ابنوه يبرون مقيدين بين
ابراج آشور الحمر ، تحت انظار الفاتحين للقساة ذوي اللحى المجددة ،
وكان شالوم ينطنط وسط هؤلاء الرجال ذوي الشعر الاسود والحلق
القاسي . وكان يفكر بأنه لم يتغير شيء . كان شالوم يفكر بجورج
ليفى . كان يفكر : انا لا نملك بعد حسن التضامن فيما بين اليهود ،
تلك هي اللعنة الالهية الحقيقية ، وكان يشعر انه سريع التأثر من غير
ان يكون ذا مزاج رديء جداً ، لأنه رأى على الجدران هذه المناشير
البيضاء . وكان قد طلب عوناً من جورج ليفى ، ولكن جورج ليفى
كان رجلاً صلباً ، يهودياً ألزاسياً : فهو قد رفض ، لم يرفض تماماً ،
وإنما هو همدل ولوى ذراعيه ، وتحدث عن امه العجوز ، وعن الازمة ،
ولكن الناس جميعاً كانوا يعرفون انه يحترم امه ، وانه لم يكن ثمة
ازمة في مبيع القراء . وقد أخذ شالوم هو ايضاً يهدل ، ورفع ذراعيه
المرتعشتين الى السماء ، وكان قد تحدث عن الهجرة الجديدة وعن اليهود
المساكين المهاجرين الذين تألموا عن جميع الآخرين ، تألموا في اجسامهم ،
وكان ليفى رجلاً صلباً ، غنياً لثيماً ، فاذا هو يهدل اقوى من ذي
قبل ، ويدفع شالوم الى الباب ، بيده الضخمة ، وهو يزفر في أنفه ،
وكان شالوم يهدل وهو يتقهقر ، وذراعاها في الهواء ، وكانت به

رغبةً لأن يتسم، لأنه كان يفكر في المزاح الذي كان العمال يتبادلونه
 ولا شك ، خلف الباب . وعند زاوية شارع « كاتر سبتمبر » كانت
 تقوم ملحمة برّاقة وغنيّة ؛ فتوقف شالوم مسحوراً ، وهو ينظر الى
 الأمصرة المجمّدة ، والى المعجنّات الجافة والى سبحات المقاتن ذات
 اللون النحاسي البراق والى الامعاء المنتفخة المجمّدة بشروجهما الصغيرة
 الموردة ، ويفكر في ملاحم فيينا . وكان يتحاشى ما وسعه ذلك ان
 يأكل لحم الخنزير ، ولكن المهاجرين المساكين مضطرون الى ان يغندروا
 بما يجدون . وحين خرج من الملحمة كان يحمل باصبعه خيطاً وردياً
 مربوطاً بعلبة صغيرة يخيل الى الناظر انها ، لشدة بياضها ودقتها ،
 علبه حلويات. وكان مستاء . كان يفكر : « ان جميع الفرنسيين اغنياء
 لؤلؤاء » أغنى شعب في اوروبا كلها . ودلف شالوم الى شارع « كاتر
 سبتمبر » وهو يستنزل لعنة السماء على الاغنياء اللؤلؤاء ، فرأى بطرف
 عينه ، كما لو ان السماء استجابت لدعوته ، فريقاً من الفرنسيين الجامدين
 اللبكم امام منشور ابيض . فحاذاهم وهو يخفض نظره ويقرص شفّته ،
 لأنه لم يكن مستحباً في هذه اللحظة ان يُفاجأ يهودي مسكين وهو يتسم
 في شوارع باريس . بيرنانشاتز ، جوهرى : كان هنا حانوته . وتردد
 لحظة ، وقبل ان يمرّ بالباب الكبير ، أدخل علبته في محفظته . وكانت
 المحركات تدور ، وتدور ، وتهلر ، وكانت الارض الخشبية تهترّ ،
 وكانت رائحة اثير وبنزين تتصاعد ، وكان الاوتوكار يغرق في
 اللهب ، « اوه ! انك اذن جبار يا بيار ! » وكانت الطائرة تسبح
 في الشمس ، وكان دانيال يربّت على المنشور بطرف عصاه ويقول :
 « اني هاديء جداً ، ولسنا من البلاهة بحيث نذهب للقتال بلا
 طائرات . » وكانت الطائرة تمرّ فوق الاشجار ، فوقها تماماً ، ورفع
 الدكتور شميت رأسه ، وكان المحرك يهدر ، فرأى الطائرة بين الغصون ،
 لهب ميكة في السماء ، وفكر : « رحلة ميمونة ، رحلة ميمونة ! »

وابتسم ؛ وكان العرب مركوبين في قعر السيارة، مهزومين، مستسلمين ،
مزرقين ، وخرج من الكوخ زنجي صغير ، فلوح بيده ونظر طويلاً
الى السيارة الكبيرة الراحلة ، لقد رأيت اليهودي القصير ، فقد اشترى
مني اوقية مقاتق ، لا غير ، وكنت اظن انهم لم يكونوا يأكلون لحم
الخنزير ! وعاد الزنجي الصغير والمترجم فدخلا بخطى بطيئة ، وما يزال
رأسهما ممتلئين بصخب المحركات . وكان ثمة طاولة حديدية مستديرة ،
مطلية باللون الاخضر ، وفي وسطها ثقب ليستقر فيه ساعد المظلة ،
وكانت مبقعة هنا وهناك بلون اسمر ، كالاجاصة ، وكانت الجريدة
على الطاولة « لوبوتي نيسوا » ، ولم تكن مفتوحة . وسعل مانيو ،
وكانت جالسة بالقرب من الطاولة ، وكانت قد تناولت فطور الصباح
في الحديقة ، كيف تراني سأخبرها الخسب ؟ لا مجال للمشاكل على
الاطلاق ، فليتها تستطيع ان تسكت ، كلا ، ان السكوت هو ايضاً
اكثر مما ينبغي ، ليتها تستطيع ان تنهض وتقول : « اذن ، سأعد
لكم سندويشات للسفر . » بكل بساطة . كانت ترتدي مغطف النوم ،
وكانت تقرأ بريدها . وقالت له : « ان جاك لم يهبط . لقد عمل الى
ساعة متأخرة هذه الليلة . » كلما كانا يلتقيان من جديد ، كانت كلماتها
الاولى دائماً عن جاك ، وبعد ذلك يصبح غير وارد اطلاقاً . وابتسم
مانيو وسعل . وقالت : « اجلس ، ان هناك رسالتين لك . » وتناول
الرسالتين ، وسأل :

— هل قرأت الجريدة ؟

— لم اقرأها بعد . لقد حملتها مارييت مع البريد ، ولم اقرر بعد ان
افتحها . انني لم أكن مغرمة قط بقراءة الجرائد ، أما الآن فاني أشتري
منها .

وكان مانيو يبتسم ويهز برأسه موافقاً، ولكن أسنانه ظلت مضغوطة .
وكان قد حلّ بينها ما حلّ في المرة السابقة . كان حسبها ان يربها

إعلاناً على جدار ، ليحلّ بينها ما حلّ في المرة السابقة : لقد عادت فأصبحت امرأة جاك، ولم يكن يجد بعد ما يقوله لها . وفكر : « فخذ خنزير نبيء ، هذا ما احبّه للسفر . »

وقالت اوديت بحموية :

— اقرأ ، اقرأ رسائلك ، ولا تهتمّ بي . والحق ان عليّ ان اصعد

لأرتدي ثيابي .»

وتناول ماتيو الرسالة الاولى التي كانت تحمل طابع بياريتز ، وكان ذلك في الواقع كسباً للحظة قصيرة . حتى اذا نهضت قال لها : « بالمناسبة ، انني ذاهب .. لا ، ان ذلك سيبدو عارياً أكثر مما ينبغي . » انني ذاهب . « هذا أفضل : » انني ذاهب . « وعرف خطأ بوريس وفكر في أسف : « مضى أكثر من شهر من غير ان اكتب له . » وكان المغلف يحتوي بطاقة رسالة . وكان بوريس قد كتب عنوانه الخاص ووضع طابعاً على نصف البطاقة الأيسر . أما على اليمين ، فقد كتب عدة أسطر :

« عزيزي بوريس .

انسي في حالة }
جيدة
سيئة

وهذا هو سبب صمتي : غيظ مشروع ، غير مشروع ، ارادة سيئة ، انقلاب مفاجيء ، جنون ، مرض ، كسل ، مجرد خجل^٢ ، سأكتب لك رسالة طويلة بعد ... ايام .

وتفضّل بقبول اعتذاراتي العميقة والتعبير عن صداقتي المستغفرة ،
التوقيع :

قالت اوديت : — اراك تضحك وحدك ،

١ - لحذف الكلمة التي لا لزوم لها

٢ انظر الهاش السابق .

قال ماتيو : - انه بوريس : هو في ياريتز مع لولا .
وبسط لها الرسالة فأخذت هي ايضاً تضحك ، وقالت :
- إن ذلك الشخص لطيف . هل هو ... هل هو في سن ... ؟
قال ماتيو : - إنه في التاسعة عشرة . ذلك متوقف على مدة
الحرب .

ونظرت اليه اوديت في رقة ، وقالت له :
- إن تلامذتك يأكلون حساءهم على رأسك .
وكان التحدث اليها يصعب شيئاً فشيئاً . وفضّ ماتيو الرسالة الاخرى
وكانت من غوميز ، زوج ساره . ولم يكن ماتيو قد رآه مرة اخرى
منذ ذهابه الى اسبانيا . كان قد أصبح الآن كولونيلاً في الجيش
النظامي .

« عزيزي ماتيو .

« جئت في مهمة الى مارسيليا حيث لقيتني ساره والطفل . وانا مسافر
ثانية يوم الثلاثاء ، ولكني اود ان اراك . انتظرنى في قطار الساعة
الرابعة يوم الاحد واحجز لي غرفة في اي مكان ، وسأتدبر امري
لاقوم بوثة الى « جوان لبيان » . إن لدينا اشياء كثيرة نريد ان نتبادل
الكلام فيها . مع ودّي .

غوميز »

وضع ماتيو الرسالة في جيبه ، وكان يفكر في تملل « غداً السبت
أكون قد ذهبت . » وكانت به رغبة لان يرى غوميز من جديد ؛ إنه
في هذه الفترة الصديق الوحيد الذي يرغب في رؤيته : إن هذا كان
يعرف قليلاً ما عساها تكون الحرب . « ربما استطعت ان ألقاه مرة
اخرى في مارسيليا ، بين قطارين .. » وسحب الرسالة من جيبه وقد
غدت مدعوكه : إن غوميز لم يكن قد ترك فيها عنوانه : وهزّ ماتيو
كفيه في انزعاج ، وألقى بالرسالة على الطاولة ؛ كان غوميز قد ظلّ

شبيهاً لنفسه ، بالرغم من انه أصبح كولونيلا : متغطراً وعاجزاً ،
وكانت اوديت قد قررت ان تفتح الجريدة ، فأمسكت بها في الهواء ،
في طرف ذراعها الجميلتين المتباعدين ، وراحت تجيل فيها نظرها بعناية ،
ثم قالت :

— اوه !

والتفتت الى ماتيو وسألته بلهجة خفيفة :

— ولكن انت ، لا تملك الكراسي ؟

فأحس ماتيو بأن وجهه يحمر ، وطرف بعينه وقال مضطرباً :

— بلى .

وكانت اوديت تنظر اليه في قسوة ، كما لو أنه كان مذنباً . وأضاف

بسرعة :

— ولكي لن اذهب اليوم ، فأنا باقٍ ثمانية واربعين ساعة بعد :

إن هناك صديقاً قادمًا لرؤيتي .

وأحس بالانفراج لهذا القرار المفاجيء : إن ذلك كان يؤجل الامر

الى اليوم التالي تقريباً : « إن بين « جوان ليان » و « ناندي » طريقاً

قصيرة ، فهم لن يحدثوا لي المشاكل بسبب تأخري بضع ساعات : »

ولكن نظر اوديت لم يكن ليرق ، وقد كان هو يتخبط تحت هذا النظر ،

وكان يردد : « سأبقى ثمانية واربعين ساعة بعد ، سأبقى ثمانية واربعين

ساعة . » بينما كانت « ايلا بيرنانشاتز » تعقد ذراعها الهزيلتين السمراوين

حول عنق أبيها . وقالت ايلا بيرنانشاتز :

— كم انت حبّوب يا بابا الصغير !

ونهضت اوديت فجأة وقالت :

— انني اذن أتركك . يجب على اي حال ان ارتدي ثيابي ، وأعتقد

ان جاك لن يلبث طويلاً حتى يهبط فيجتمع اليك .

ومضت وهي تشد معطف النوم على خاصرتيها الدقيقتين ، وفكر

ماتيو : « لقد كانت متحفظة ، أجل ، كانت متحفظة » وأحسّ شعوراً من العرفان يداخله . يا لها من فتاة جميلة ، يا لها من طائشة صغيرة جميلة ، ودفعها وهو يوسع عينيه ، وكان « وايس » واقفاً بالقرب من الباب ، وكانت تبدو عليه بهجة يوم الاحد . وقال السيد بيرنانشاتز وهو يمسح خده :

- انك تلوثيني ، وتركين على وجهي آثار الاحمر . يا لك من وجه مخلوط !

وأخذت تضحك :

- انت تخاف مما قد تفكر به الضاربات على الآلة الكاتبة عندك !

إذن خذ ! خذ ! خذ !

وقبلته في أنفه ، ثم أحسّ شفتيها الحاريتين على جمجمته . فقبض عليها من كنفها وأبعدها على مدى ذراعيه الطويلتين : وكانت تضحك وتتخبط ، وكان يفكر : يا للفتاة الجميلة ، الفتاة الصغيرة الجميلة ، وكانت الام سميئة رخوة ذات عينين واسعتين ومستسلمتين كانتا تشعرانه بالانزعاج ، أما « إيلا » فكانت تنتسب اليه ، وكانت على الاخص لا تنتسب لاحد ، فهي قد صنعت نفسها ، وفي باريس ، إنني اقول لهم دائماً : العرق ، ما هو العرق ؟ هل تظنون « إيلا » يهودية اذا التقيتم بها في الطريق ؟ انها دقيقة كالباريسية ، ذات بشرة حارة كفتيات الجنوب ، ووجه صغير متعقل ومنحتمس ، وجه متوازن ، مريح ، بلا حافة ، ولا عرق ، ولا مصير ، وجه « فرنسي » حقيقي » : وتركها وتناول علبة الجواهر من على المكتب فدّها لها وقال : « خذي » وفيما كانت تنظر الى الجواهر ، أضاف :

- في العام للقادم ستصبح أضخم مرتين ، ولكنها ستكون الاخيرة :

فان العقد سيكون قد انتهى .

ولرادت مرة اخرى ان تعانقه ، ولكنه قال لها : « هيا ! هيا !

سعيد ، عيد سعيد ! اهربي بسرعة ، فسوف تتأخرين عن ساعة
للدرس .

ومضت وهي ترمي ببسمة لـ « وايس » : صبيحة أغلقت الباب
فاجتازت مكتب السكرتيرات ، وذهبت ، بينما فكر شالوم ، وهو
جالس على أطراف فخذه ، وقبعته على ركبتيه : يا للفتاة اليهودية
الجميلة ! كان لها رأس قرد صغير ، يتجمع كله الى الامام ، ويمكن
إمساكه في جوف يد ، وعينان كبيرتان حسرتان ، جميلتان جداً ،
ولا بدّ انها ابنة بيرنانشاتز . وقام شالوم وألقى تحية صغيرة لم يبد عليها
انها لاحظتها . وعاد فجلس وفكر : يبدو عليها انها اذكى مما ينبغي ،
اننا هكذا ، نحن الآخرين ، إن تعابيرنا مطبوعة بالحديد الأحمر على
سحنتنا ، فكأننا نعانيها كعذاب الاستشهاد . وكان السيد بيرنانشاتز يفكر
بالجواهر ويقول لنفسه : « ليس هذا تثيراً سيئاً لها . » كانت تساوي
مئة ورقة ، وفكر بأن « ايلا » كانت قد قبلتها على غير حماس بالغ ،
او لامبالاة : كانت تعرف ثمن الاشياء ، ولكنها كانت تجسد من
الطبيعي ان تملك المال ، وان تتلقى هدايا جميلة ، وان تكون سعيدة .
يا إلهي ، اذا لم أفعل انا غير هذا ، مع المرأة التي عندي ، وخلفي
جميع عجائز كاركوفيا ، اذا لم انجح الا في انجاب هذه الصبية الصغيرة ،
ابنة يهود بولونيين ، لا ترهق نفسها اكثر مما ينبغي ، ولا تتسلى
بأن تعذب نفسها ، صبية وتجد من الطبيعي ان تكون سعيدة ، فأحسب
اني لم أضع وقتي هدرأ . والتفت الى وايس وسأله :

— أتدري اين هي ذاهبة ؟ انني أعطيك الفأ . أهي ذاهبة الى محاضرة
في السوربون ؟ ان ذلك عجيبة من العجائب !

فابتسم وايس بغموض من غير ان يتخلى عن هيئته المستعارة ، وقال :
— لقد جئت اودّعك يا معلم .
فأمله السيد بيرنانشاتز من فوق نظارتيه :

– هل انت ذاهب ؟

فهزّ وايس رأسه بالاجاب ، ونظر اليه السيد بيرنانشاتز بعينين واسعتين :

– كنت على يقين من ذلك ! انت من البلاهة بما فيه الكفاية لتكون
حاصلاً على الكرامة ؟ ، أليس كذلك ؟
فقال وايس مبتسماً : – هذا هو الواقع ، انا من البلاهة بما فيه
الكفاية لأكون كذلك .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يشبك ذراعيه : – انك اذن تضعني في
وضع حرج . فما الذي سأفعله بدونك ؟
وردّد بشرود : « ما الذي سأفعله بدونك ؟ ما الذي سأفعله
بدونك ؟ » وكان يحاول ان يتذكر كم كان عدد أطفال وايس . وكان
وايس يلحظ اليه بهيئة قلقة ، فقال :
– ستجد من يحلّ محلي طبعاً .

– آه لا ! سيكون عليّ ان أدفع لك من غير ان تعمل شيئاً ؛
وانت لا تريدني ان آخذ على عاتقي شخصاً آخر فوق هذا . إن مكانك
ينتظرك ، يا بني .
وكان الانفعال بادياً على وايس ، وكان يفرك أنفه وهو يحول
عينيه ، وكان قبيحاً قبحاً فظيماً . وقال :
– يا معلّم ...

فقاطعه السيد بيرنانشاتز : ان عبارات الشكر أمرٌ فاحش ، ثم انه
لم يكن ليكنّ لو ايس كثيراً من الودّ ، لأنه هو انما كان رجلاً يحمل
مصيره على وجهه ، بعينيه اللماحتين ، وهذه الشفة السفلى الضخمة التي
كانت ترتعش طيبةً ومرارة . وقال :
– حسناً ، حسناً . انك لن تترك المؤسسة ، بل ستمثلها امام
السادة ضباط الأرض . انت ملازم ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : - بل انا نقيب :

ففكر بيرنانشاتز : « نقيب هالك ! » وكانت هيئة السعادة بادية
على وايس ، وكانت اذناه الواسعتان قرمزيين . نقيب هالك - وتلك
هي الحرب ، النظام العسكري المتسلسل . وقال :
- اية حماقة ملعونة ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : - هم !

- أليست هي حماقة ؟

قال وايس : - بكل تأكيد . ولكني كنت أعني انها بالنسبة اليانا ،
ليست حماقة الى هذا الحد .

فسأله السيد بيرنانشاتز في دهشة :

- بالنسبة اليانا ؟ بالنسبة اليانا ؟ من تقصد ؟

فخفض وايس عينيه وقال :

- بالنسبة اليانا ، نحن اليهود . فبعد الذي صنعوه ليهود المانيا ،
نجد مبرراً لنقاتل .

ومشى السيد بيرنانشاتز بضع خطى ، وكان مترهجاً ، فسأله :

- ماذا تعني : نحن اليهود ؟ انا لا اعرف ذلك . اني انا فرنسي ؟

فهل تحس نفسك يهودياً ؟

قال وايس : - ان قريبي من « غراتز » موجود في بيتي منذ
يوم الثلاثاء . وقد أراني ذراعيه . لقد حرقوه بسجائرهم من المرفق
حتى الإبط .

فتوقف السيد بيرنانشاتز مبهوتاً ، وأمسك بمسند كرسي بين يديه
القويتين بينما ألمه غضب غامض حتى أعماق عينيه ، وقال :

- ان الذين فعلوا ذلك ، الذين فعلوا ذلك ...

وكان وايس يبتسم ، فهدأ السيد بيرنانشاتز :

- ليس ذلك لأن قريبي يهودي يا وايس . وانما لأنه انسان .

اني لا اطيق ان يُضطهد انسان . ولكن ، ما هو اليهودي ؟ انه انسان
يعتبره الناس الآخرون يهودياً . خذ « ايلاه » مثلاً . هل تظنها
يهودية ، اذا لم تكن تعرفها ؟
ولم يكن وايس يبدو مقتنعاً ، فتقدم منه السيد بيرنانشاتز ولس
صدره بسبابته الممدودة :

— اسمع يا صغيري وايس ، هذا ما استطيع ان اقوله لك : لقد
تركت بولونيا عام ١٩١٠ ، وقدمت الى فرنسا ، فتقبلوني فيها قبولاً
حسناً ، ووجدتني فيها سعيداً ، فقلت لنفسي : حسناً ، ان فرنسا
هي بلدي الآن . وفي عام ١٩١٤ جاءت الحرب . حسناً : قلت اني
أخوض الحرب لأن هذا بلدي . وانا اعرف ما هي الحرب ، فقد كنت
في طريق « شومان ديدام » . اما الآن فأقول لك : اني فرنسي ، لا
يهودي فرنسي ، بل فرنسي . يهود برلين وفيينا ، يهود معسكرات
الاحتقال ، ارثي لهم ، ويملائي غضباً ان افكر بأن هناك انساناً يُعذبون .
ولكن اصغ إلي جيداً : ان كل ما استطيع ان افعله لأحول دون ان
يُقتل فرنسي ، فرنسي واحد ، من اجلهم ، سوف أفعله ، اني
أحسني أقرب الى اول شخص ألقاه الساعة في الشارع مني الى اخوالي
في « لنز » او احفادي في كاركوفيا . ان قصص اليهود الألمان امر
لا يعيننا .

وكانت هيئة وايس تبدو غامضة وعنيدة ، فقال في بسمة مزرية :
— حتى ولو كان هذا صحيحاً يا معلم ، فانه يحسن بك ألا تقول:
ينبغي على الذين يذهبون للقتال ان يجدوا مبررات لذهابهم .
فأحس السيد بيرنانشاتز باحمرار الاضطراب يصعد الى وجنتيه . وفكر
في أسف : « يا له من مسكين ! » وقال له فجأة :
— انت على حق : اني لست إلا إنساناً سقيماً عاجزاً ، وليس
لدي ما أقوله عن هذه الحرب ما دمت لا اشارك فيها . متى تذهب ؟

قال وايس : - في قطار الساعة السادسة عشرة والنصف .
- قطار اليوم ؟ وإذن ؟ ماذا تراك تفعل هنا ؟ اذهب ، اذهب
بسرعة الى زوجتك . هل انت بحاجة الى مال ؟
- ليس في هذه الفترة ، أشكرك .
- اذهب ، وسوف تُرسل لي امرأتك فأدبر معها كل شيء . هيا ،
هيا . وداعاً .

وفتح الباب ودفعه الى الخارج . وكان وايس يسلم ويتمم بعبارات
شكر غير مفهومة . ولمح السيد بيرنانشاتز ، من فوق كتف وايس ،
رجلاً جالساً في غرفة الانتظار ، وقبعته على كتفيه ، فعرف فيه شالوم
وقطب حاجبيه : انه لم يكن يُحب ان يُدعى الملتصون الى الانتظار .
وقال :

- ادخل . هل مضى وقت طويل وانت تنتظر ؟

فقال شالوم وهو يتسم ابتسامة خضوع :

- نصف ساعة صغيرة . ولكن ما هي نصف الساعة ؟ انك مشغول
جداً . انا انا ، فأملك الوقت كله . فما الذي افعله من الصباح حتى
المساء ؟ اني انتظر . إن الحياة في المفى ليست الا انتظاراً كما تعلم .
قال السيد بيرنانشاتز : - ادخل ، ادخل . كان عليهم ان يخبروني .
فدخل شالوم ، وكان يتسم ويسلم . ودخل السيد بيرنانشاتز خلفه
وأغلق الباب . وكان يعرف شالوم تماماً : « لقد كان ذا شأن في
الحركة النقابية البافارية . » وكان شالوم يزوره بين الفترة والفترة ،
فيستدين منه الفين او ثلاثة آلاف فرنك ويحتفي لبضعة اسابيع .
- خذ سيكراً .

فقال شالوم وهو يقرب قليلاً : « اني لا ادخن » . وأخذ السيد
بيرنانشاتز سيكراً فأداره بين أصابعه ثم أعاده الى اللعبة . وقال :
- إذن ؟ هل الامور عندك كما تروم ؟

وكان شالوم يبحث عن كرسي : فقال له السيد بيرنانشاتز في عجلة :

- اجلس ، اجلس .

لا . لم تكن لدى شالوم رغبة بالجلوس . واقرب من الكرسي فوضع
محفظته على المقعد ليكون في وضع أيسر ، ثم التفت الى السيد بيرنانشاتز
وأرسل أنة طويلة منعمة وقال :

- آه ، إن الامور ليست قط على ما يرام . إنه لا يحسن بالانسان
ان يعيش على أرض الآخرين ، فهم لا يتحملونه الا على كره ،
ويأخذون عليه الخبز الذي يأكله . ويا لذلك الاحتراس الذي يقابلوننا
به ، ذلك الاحتراس الفرنسي . حين اعود الى فيينا ستكون هذه هي
الصورة التي أحفظها من فرنسا : سلّم مظلم يُرقي بمشقة ، وزر
يُضغط ، وباب يُفتح نصف فتحة : « ماذا تريد ؟ » ثم يُغلق .
شرطة الغرف المفروشة ، دار البلدية ، الصنف الطويل في مفوضية الشرطة .
وهذا طبيعي اذا تعمقنا الموضوع ، فنحن في بلدهم . ومع ذلك فكّر
قليلاً : إن بوسعهم ان يشغلونا . فانا شخصياً لا أطلب الا ان اكون
نافعاً لشيء . ولكن من يستطيع ان يجد عملاً محتاج الى بطاقة العمل ،
ولكي يحصل المرء على بطاقة العمل ، فيجب ان يكون مستخدماً في
مكان ما . وهكذا لا يستطيع ان اكسب قوتي ، ولو كنت مسلحاً
بأعمق ارادة في العالم . ولعل هذا هو ما يشقّ عليّ احتمالاً اكثر من أي
شيء آخر : أن اكون عبئاً على الآخرين . ولا سيما حين يُشعرونك
بذلك في مثل هذه القسوة . وكَم من وقت ضائع : كنت بدأت في
كتابة مذكراتي ، وقد كان من شأن ذلك ان يعود عليّ ببعض المال .
ولكن هناك كثيراً من الاعمال التي ينبغي ان تُعمل كل يوم : وهكذا
كان لا بدّ لي من ان اترك كل شيء .

وكان قصيراً ، شديد الحيوية ، وكان قد وضع محفظته على الكرسي ،
بينما كانت يدها المتحررتان تتطايران حول اذنيه الحمراءوين : « ما أشد

ما تبدو عليه هيئة اليهودي ، ذلك الشخص . « واقرب السيد بيرنانشاتز من المرأة على غير اكتراث وألقى عليها نظرة سريعة : متر وثمانون ، انف أفتس ، رأس ملاكم اميركي تحت نظارتين سميكتين ، كلا ، لسنا من جنس واحد . ولكنه لم يكن يجرؤ على ان ينظر الى شالوم ، فقد كان يحس نفسه مشبوهاً . « ليرحل . ليته يرحل على الفور » ولكن كان ينبغي الا يعول على ذلك . فان شالوم انما كان يتميز في نظره عن مجرد الشحاذ بطول زيارته وانتماش حديثه الفكه . وفكر السيد بيرنانشاتز : « يجب ان اتحدث » وكان لشالوم الحق في ذلك . كان له الحق باوراقه المالية الثلاث وبيع ساعة من الحديث . وجلس السيد بيرنانشاتز على حافة مكتبه . وكانت يده اليمنى التي ادخلها في جيب سترته تداعب علبة سكاثره . وقال شالوم بصوت كان يصعد ويتدحرج بلهجة نبوية ، بينما كان شعاع من المرح يرتعش في عينيه الفاتحين :

— إن الفرنسيين ناس قساء . ناس قساء . فالأجنبي هو في نظرهم مشبوه مبدئياً ، إن لم يكن مذنباً .

إنه يحدثني كما لو انني لم اكن فرنسياً . عجباً : انا يهودي ، يهودي من بولونيا ، وصلت الى فرنسا يوم ١٩ تموز ١٩١٠ ، ولا يذكر ذلك أحد هنا ، أما هو ، فلم ينس ذلك . يهودي كان محظوظاً . والتفت الى شالوم فتأمله في غيظ . وكان شالوم يخفض رأسه قليلاً ويقدم له جبينه ، بدافع الاحترام ، ولكنه كان ينظر اليه مواجهة ، من تحت حاجبيه المقوسين . وكان ينظر اليه ، وكانت عيناه الكبيرتان الممتعتان تريانه يهودياً . يهوديان ، في الظل ، ممزولان جيداً في مكتب بشارع « كاتر سبتمبر » . يهوديان ، ضائعان ، وحولهما ، في الشوارع وفي البيوت الاخرى ، ليس ثمة إلا فرنسيون . يهوديان ، السمين منها أصاب النجاح ، والفصير السبيء التغذية لم يكن له حظ . لوريل وهاردي . وقال شالوم :

- أنهم ناس قساة . ناس لا يعرفون الرحمة !
وهز السيد بيرنانشاتز كتفيه فجأة ، وقال بخفاف : « يجب ان
يضع المرء نفسه محلهم - ولم يستطع ان يقول : محلنا - اتدري كم تحوي
فرنسا من الاجانب منذ ١٩٣٤ ؟ »

قال شالوم : - أعرف ، أعرف . وأجد ذلك شرفاً كبيراً لفرنساء
ولكن ما الذي تعمله لتستحقه ؟ انظر : إن شبانها يعبرون الحي اللاتيني ،
فاذا كان ثمة من يشبه يهودياً ، انقضوا عليه بالقبضات .
فقال السيد بيرنانشاتز ملاحظاً :

- ان وزارة بلوم قد أساءت الينا كثيراً .
كان قد قال : الينا ، فأقرت مشاركة هذا الاجنبي القصير . نحن .
نحن اليهود ، ولكن ذلك كان بدافع الإحسان . كانت عينا شالوم
تتأملانه في إلحاح مبيجل . وكان هزيبلاً وقصيراً ، وكانوا قد ضربوه
وطردوه من بافاريا ، وها هو الآن هنا ، ولا بد انه ينام في فندق
قلتر ويقضي نهاره في المقهى ، وقد أحرقوا قريب وايس بسكائهم ؟
وكان السيد بيرنانشاتز ينظر الى شالوم فيحسن بأنه هو شخصياً مديون
ولم يكن ما يشعر به نحوه وداً ، كلا : وانما كان ... كان ...
« كانت تنظر اليه ، وكانت تفكر : « انه رجل قاس . أنهم
موسومون ، والحروب انما تقع بسببهم » ولكنها كانت تشعر بأن حبها
القديم لم يكن ميتاً »

وكان السيد بيرنانشاتز يجسّ محفظته . وقال اخيراً بصوت خفي :
« مها يكن من امر ، فلنأمل الا يهدوم هذا اطول مما ينبغي . »
فغمز شالوم شفتيه ورفع رأسه الصغير بحوية ، ففكر السيد بيرنانشاتز :
« لقد قتت بالحركة قبل اوأها . »

« رجل قاس . يأخذ النساء ويقتل الرجال : يفكر بأنه قوي .
ولكن ذلك غير صحيح . كل ما في الامر انه موسوم . »

وقال شالوم : - ان ذلك يتوقف على الفرنسيين . فاذا استعاد
الفرنسيون حسن رسالتهم التاريخية ...
فسأله السيد بيرنانشاتز ببرودة : - اية رسالة ؟
فالتمعت عينا شالوم بالحقد ، وقال بصوت قاس وثاقب :
- ان المانيا تتحداهم وتهينهم بمختلف الاشكال ، فاذا ينتظرون ؟
أتراهم يعتقدون أن بإمكانهم إطفاء غضب هتلر ؟ ان كل تراجع
جديد من فرنسا يطيل العهد النازي عشرة أعوام . وفي هذه الاثناء
نكون هنا ، نحن الضحايا ، ننتظر ونحن نقضم قبضاتنا . لقد رأيت
اليوم الماشير البيضاء على الجدران ، فداخلي بعض الامل . ولكني
كنت حتى الأمس ما أزال افكر : لم يبق في عروق الفرنسيين دم
بعد ، وسوف أموت في المنفى .

يهوديان في مكتب بشارع « كاتر سبتمبر » . وجهة نظر اليهود في
الاحداث العالمية . سوف تكتب جريدة « جوسوي بارتو » غداً :
« ان اليهود هم الذين يدفعون فرنسا الى الحرب » . ونزع السيد
بيرنانشاتز نظارتيه فمسحها بمنديلته : كان ثملاً من فرط الغضب . وسأل
بلطف :

- واذا وقعت الحرب ، هل تخوضها ؟

فقال شالوم : - سيتطوع كثير من المهاجرين ، وانا من ذلك على
يقين . (وأضاف وهو يشير الى جسمه الصغير الهزيل) ولكن انظر
الي : اي مجلس عسكري يرغب في ؟
فقال السيد بيرنانشاتز بصوت هادر :

- اذن هل ستحل عن ظهرنا ؟ هل ستحل عن ظهرنا ؟ ماذا اتيت
تفعل عندنا ؟ اني انا فرنسي ، ولست يهودياً ألمانياً : طر باليهود
الالمان : اذهب فقم بها في مكان آخر ، حربك هذه !
وتأملته شالوم لحظة في ذعر ، ثم استعاد بسمته المتواضعة ، ومد

يده فتناول محفظته واقرب من الباب وهو يمشي القهقري . وسحب
السيد بيرنانشاتز محفظة نقوده من جيبه وقال :
- انتظر .

وكان شالوم قد ادرك الباب ، فقال له :
- لست بحاجة لشيء . اني اطلب احياناً معونة من اليهود . ولكنك
على حق : انت لست يهودياً ، وقد أخطأتُ العنوان .

وخرج ، فنظر السيد بيرنانشاتز طويلاً الى الباب من غير ان يأتي
بحركة . « انه رجل قاس . ان لهم نجماً ، وهم ينجحون في كل شيء » ،
ولكن الحرب تقع بسببهم . وكذلك الموت والعذاب بسببهم . انهم اللهب
والحريق ، انهم يؤذون ، وقد آذاني ، وانا أحمله كخشية خشية تحت
أظفري ، وكحمة محرقة تحت أظفاني ، وكخبث في قلبي . « هذا
ما تفكره بشأني . ولم تكن به حاجة لأن يذهب فيسألها في ذلك ، لقد
كان يعرفها ، ولو كان بوسعه ان يدخل في هذا الرأس الاسود الفظ ،
فانه واجدٌ في كل لحظة هذه الفكرة النابتة الصلبة ، فانها قاسية ، على
شاكلته ، انها لا تنسى ابداً . وكان ينحني ، وهو في النائمة ، فوق
ساحة « جيلو » ، وكان الطقس ما يزال رطباً ، والسماء زرقاء فاتحة ،
رمادية لدى الاطراف ، وكانت تلك هي الساعة التي يسيل فيها الماء على البلاط
وعلى الوضغ الخشبي لبانعي السمك ، وكان ذلك يشعر بالرحيل والصبح ،
الصبح ، عرض البحر الكبير ، وهناك ، الحياة بلا نسيم ، ودخان
القنابل الخفيف المستدير على ارض كانالونيا المشققة . ولكن خلف
ظهره ، خلف الشباك المفتوح ، في الغرفة الملائى بالنوم والليل ، كانت
ثمة تلك الفكرة الميتة التي ترصده ، التي تدبته ، كان ثمة ندمه :
سوف يرحل غداً ، وسوف يعانقهم على رصيف المحطة ، وسوف
تعود هي الى البيت مع الصغير ، وستهبط الدرج الضخم وهي تقفز ،
وسوف تفكر : لقد رحل مرة اخرى الى اسبانيا : انها لن تغفر له

أهدأ رحيله الى اسبانيا ، لقد كان ذلك جلدأ ميتأ على قلبها . كان ينحني مطلاً على ساحة « جيلو » ليؤخر لحظة العودة الى الغرفة : كان بحاجة الى صُراخ ، والى اغنيات مريرة ، والى آلام عنيفة وقصيرة ، لا الى هذه العذوبة النظيمة . وكان الماء يجري في الساحة . الماء وروائح الصباح المبتلة ، وصيحات الصباح الجبلية . وتحت شجر الدلب، كانت للساحة زلقة ، مائمة ، بيضاء خفيفة كسمكة في البحر . وفي هذا الليل ، كان زنجي قد غسى ، فبدأ الليل ثقيلأ جافأ ، ليلاً اسبانياً . وانغمض غوميز عينيه ، فأحس بشوق اسبانيا والحرب يخرقه عنيفأ قاسياً . انها لا تفهم ذلك . لا الليل ولا الصبح ولا الحرب .

كان بابلو يصرخ بأعلى صوته :

— بان ، بان | بان ، بان ، بان ، بان |

والثقت غوميز ودخل الى الغرفة . وكان بابلو قد وضع قبعة ، وأخذ بندقيته وراح يستعملها كما يستعمل مجموعة من نسلح . وكان يعدو عبر غرفة الفندق وهو يطلق في الفراغ طلقات هائلة كانت تفقده توازنه . وكانت ساره تتبعه بنظرها الميت . وقال غوميز :

— هذه مجزرة .

فأجاب بابلو من غير ان يكف : — انني أقتلهم جميعأ .

— من هم ، جميعأ ؟

كانت ساره جالسة على حافة السرير ، وهي في معطف النوم ، وكانت تلفق جوربأ . قال بابلو :

— جميع الفاشيست :

فارتدى غوميز الى خلف وراح يضحك ، ثم قال :

— اقتلهم ، ولا تدع منهم احداً . وذلك الشخص ، هناك ، لانه

نسيته .

فعاد بابلو في الانجاه الذي اوما اليه غوميز وخطط الهواء بينديته ،

وقال :

- بان ، بان ! بان ، بان ، بان ! ليس من هدنة !
وتوقف والتفت الى غوميز وهو يلهث ، والرصانة والحمامة باديتان
عليه . وقالت ساره :

- اوه ! انت ترى يا غوميز ! كيف استطعت ؟
وكان غوميز قد ابتاع عشية الامس مجموعة اسلحة لابلو . وقال
وهو يداعب رأس الصغير :

- يجب ان يتدرب على القتال ، والا لأصبح جباناً كالفرنسيين .
فرفعت ساره عينيها اليه ، فرأى انه قد جرحها جرحاً عميقاً .
وقالت :

- انني لا افهم كيف يُتهم الناس بالجنون لأنهم غير راغبين في
القتال !

فقال غوميز :

- هناك فترات يجب ان يرغب الناس بها في القتال .
قالت ساره : - ابدأ : في اي حال . ليس ثمة ما يستحق ان اجده
نفسي من اجله ذات يوم على الطريق ، وبيتي مهدم الى جانبي ، وطفلي
مسحوق بين ذراحي .

فلم يجب غوميز . لم يكن ثمة ما يُجاب به . كانت ساره على حق .
من وجهة نظرها ، كانت على حق . ولكن وجهة نظر ساره كانت
من الوجهات التي ينبغي إهمالها مبدئياً ، والا لما وصلنا ابدأ الى شيء
ما . وضحكت ساره ضحكة خفيفة مريرة :

- حين عرفتك يا غوميز ، كنت من دعاة السلام .
- ذلك انه كان ينبغي في تلك الفترة ان اكون من دعاة السلام .
ان الهدف لم يتغير . وانما اختلفت الوسائل لبلوغ ذلك الهدف .
فصمت ساره على اضطراب . وظلّ فيها مفتراً ، وكانت شفقتها

المتدلّية تكشف أسنانها النخرة : وراح بابلو يدير بندقيته حول رأسه وهو يصرخ :

- انتظر قليلاً ، أيها الفرنسي القدر ، أيها الفرنسي الجبان !

قالت ساره : - أترى ؟

فقال غوميز بحماسة : - بابلو، ينبغي ألا تطلق النار على الفرنسيين : ان الفرنسيين ليسوا فاشيست :

فصاح بابلو : - ان الفرنسيين جبّاء .

واخذ يطلق على ستائر النافذة التي تطايرت متناقلة : ولم تقل ساره شيئاً ، ولكن غوميز كان يؤثر او لم ير النظرة التي رمت بها بابلو : لا ، لم تكن نظرة قاسية : وانما كانت بالاحرى نظرة دهشة وتردد ، كما لو انها ترى ابنها للمرة الاولى . وكانت قد وضعت على مقربة الجورب الذي كانت تلفقه ، وكانت تنظر الى هذا الاجني الصغير ، هذا الوحش الصغير السليم الذي كان يطلق على الرؤوس ويشجّ الجاهم ، ولا بدّ انها كانت تفكر مذعورة : « انا الذي صنعته » . وأحسّ غوميز بالحجل ، وفكر : « ثمانية ايام : كانت ثمانية ايام كافية . » وقالت ساره فجأة : - غوميز ، هل تعتقد حقاً بأن الحرب واقعة ؟

فقال غوميز : - ارجو . ارجو ان ينتهي الامر بهتلر الى قسر الفرنسيين على القتال .

قالت ساره : - أتعرف ما الذي ادركته يا غوميز هذه الايام ؟ أدركت ان الرجال أشرار .

فهز غوميز كتفيه :

- انهم ليسوا أشراراً ولا أخياراً . فكل امريء يتبع صالحه :

قالت ساره : - لا ، لا : انهم أشرار :

ولم تكن تنزع بصرها عن بابلو الصغير ، وكان يبدو انها تتنبأ له

بهدره ، وأضافت :

- أشرار ، ومندفعون لا يذء بعضهم .

قل غوميز : - لست شريراً .

فقالت ساره من غير ان تنظر اليه :

- بلى ، انت شرير ، يا عزيزي غوميز ، انت شرير جداً . وليس

لك من عذر : فان الآخرين أشقياء . اما انت ، فشرير وسعيد .

وسادت لحظة صمت طويلة . وكان غوميز ينظر الى تلك الرقبة القصيرة

السمينة ، والى هذا الجسم الذي فقد رونقه والذي امسكت به ذراعه

طوال الليالي ، وكان يفكر : « انها لا تكن لي الودّ ، ولا اللطف .

ولا الاحترام . انها تحبني ، بكل بساطة ، فأينا أشدّ شراً من الآخر؟ »

على ان الندم ما لبث ان استبد به فجأة : لقد وصل ذات مساء

من برشلونة سعيداً ، هذا صحيح ، سعيداً جداً . وكان قد أخذ اذاً

لثمانية ايام ، وكان سيرجع في الغد . وفكر : « لست انساناً طيباً . »

- هل هناك ماء حارّ ؟

فقالت ساره : - ماء فانر . الصنبور الأيسر .

قال غوميز : - حسناً . سأحلق ذفتي .

ودخل غرفة التواليت تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه ، فأجرى

الماء واختار شفرة ، وفكّر : « حين أذهب ، ستنفذ ذخيرة الاسلحة

في وقت قصير . » ولا شك في ان ساره ، بعد ذهابه ، ستخفيها في

خزانة الادوية الكبيرة ، الا اذا وجدت من الأيسر ان تنساها هنا .

وفكّر : « انها لن تعلّمه الا على ألعاب البنات » ترى متى يشاهد

بابلو مرة اخرى ، وماذا تراها تكون قد صنعت به ؟ ان هيئة الصبي

على اي حال ، هيئة مقاومة ! واقرب من المغسلة ، وراهما عبر المرأة :

كان بابلو واقفاً في وسط الغرفة ، لاهثاً ، متورداً ، متباعد الساقين ،

ويدها في جيبيه . اما ساره ، فكانت قد جثت امامه تنظر اليه من غير

ان تنبس بكلمة . وفكر غوميز : « تريد ان تعرف ان كان يشبهني »
وأحسن بالضيق فأغلق الباب من غير ضجة .

« ... لحقت بي مع الصغير : انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم
الأحد واحجز لي ... » وحطت يدها بقوة على كتفه اليسرى ، ويد
اخرى على كتفه اليمنى . ضغطت حارة وودية : هوذا اذن : وأعاد
للرسالة الى جيبه ورفع عينيه .
- مرحباً .

قال جاك وهو يفرق نظره في عيني ماتيو :

- لقد قالت لي اوديت ... يا عزيزي المسكين !

ومن غير ان يتزع عينيه عن أخيه ، جلس في الاريكة التي غادرتها
اوديت منذ لحظة ، وشدت يدها لا تكاد تنتسب اليه بنطلونه ببراءة ،
واشتبكت ساقاه وحدهما : كان يجهل هذه الاحداث المحلية الدقيقة :
فهو لم يكن بعد الا نظرة : قال ماتيو :

- اني لن اذهب اليوم ، كما قد لا تعلم .

- أعرف ذلك . ألا تخشى ان يسبوا لك المتاعب ؟

- اوه .. قضية بضع ساعات ...

وتنفس جاك بعمق :

- ماذا تريد ان أقول لك ؟ في الزمن الماضي ، كان بالامكان ان

يقال لمن يرحل الى القتال : دافع عن اولادك ، دافع عن حريتك او
بيتك ، دافع عن فرنسا . كان بالامكان على اي حال ايجاد اعسار
ليجازف بنفسه . اما اليوم ...

وهز كتفيه . وكان ماتيو قد خفض رأسه وراح ينكت الارض
بكعبه . وقال جاك بصوت نفاذ :

- اراك لا تجيب . انك تؤثر الا تتكلم خشية ان تقول اكثر مما

ينبغي قوله . ولكنني اعرف ما تفكر به : قل :

وكان ماتيو ما يزال يحكّ حذاءه بالأرض . فقال من غير ان يرفع رأسه :

- كلا ، انك لا تعرفه .

ومضت فترة صمت قصيرة ، ثم سمع صوت اخيه المتردد :
- ماذا تعني ؟

- انني لا افكر في شيء على الاطلاق .

فقال جاك في انزعاج لم يكذب بين :

- قد يكون هذا ، انك لا تفكر في شيء ، ولكلك يائس ،
فالأمران سيّان .

وجهد ماتيو في ان يرفع رأسه ويبتسم :

- بل انني لست يائساً كذلك .

قال جاك : - مهما يكن ، فانك لن تقنعني بانك ذاهبٌ وانت

مستسلم ، كالحروف الذي يُساق الى المسلخ ؟ /

قال ماتيو : - الواقع انني ، مع ذلك ، اشبه قليلاً ، هذا الحروف ،

الا ترى ذلك ؟ انا ذاهب لأنني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر . وان

تكون هذه الحرب حادثة او غير حادثة ، بعد ذلك ، فهذا في نظري

أمرٌ ثانوي جداً .

وقلب جاك رأسه الى خلف ليتأمل ماتيو بعينه نصف الغمضتين :

- انك يا ماتيو تدهشني : تدهشني بصورة هائلة ، فانا لم أعرف

أعرفك . كيف ؟ كان لي أخٌ متمرّد ، وقع ، لاذع ، لا يريد

قط ان يكون مخدوعاً ، ولا يستطيع ان يرفع خنصره من غير ان يبحث

لماذا يرفع خنصره ولا يرفع سبابته ، خنصر اليد اليمنى لا يخنصر اليد

اليسرى . وهنا تأتي الحرب ، فيرسلونه في الخط الامامي ، ويذهب

متمرّدي ومحطّم الصحنون الذي اعرفه ، يذهب بكل وداعة ، من غير

ان يتساءل ، وهو يقول : انا ذاهب لأنني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر .

قال ماتيو : - ليس الذنب ذنبي فأنا لم استطع قط ان انجح في تكوين رأي لي حول هذا النوع من المسائل .
فقال جاك : - ولكن المسألة واضحة: اننا أمام سيد - واقصد به بنيش - يتعهد تعهداً جازماً بأن يجعل من تشيكوسلوفاكيا اتحاداً على الطراز السويسري . لقد النزم ذلك ، وهذا ما قرأته في محاضر جلسات مؤتمر السلام ، وانت ترى اني اذكر لك مصادرني . وكان هذا الوعد يعني منح ألمان السوډيت سيادة حقيقية اتنوغرافية . حسناً . ولكن هذا السيد ينسى ، تعهداته تماماً ، فينصب تشيكيين على الألمان يدبرونهم ويحكمونهم ويراقبونهم . والألمان لا يحبون ذلك : وهذا حقهم الصريح . لا سيما واني اعرفهم ، انا ، هؤلاء الموظفين التشيكيين ، فقد كنت في تشيكوسلوفاكيا : كم هم مزعجون ! واذن ، فالمراد هو ان تريق فرنسا ، وهي بلد الحرية كما يقولون ، دمها ليستمرّ الموظفون التشيكيون في ممارسة عنتهم على السكان الألمان ، ومن أجل هذا تراك انت ، استاذ الفلسفة في ليسييه باستور ، ذاهباً لتقضي آخر سنوات شبابك على عمق عشرة اقدم تحت الارض ، بين « بتتش » و « ويسمبورغ » . فاذا اتيت تقول لي بأنك ذاهب في استسلام ، وانه لا يهملك كثيراً ان تكون هذه الحرب عادلة او غير عادلة ، فان ذلك يغيظني قليلاً .
كان ماتيو ينظر الى اخيه في تململ ؛ وكان يفكر : « سيادة اتنوغرافية ، ما كنت لافكر في هذا ابدأ ، ومع ذلك ، فقد قال ، لإراحة لضميره :

- ليست هي السيادة الاتنوغرافية ما يريد السوډيت الآن ، وانما يريدون الارتباط بالمانيا .

فبدت على وجه جاك كزازة ألم :

- ارجوك يا ماتيو ، لا تتكلم كحارس بنايتنا ، ولا تُسمِّهم السوډيت . فالسوډيت هي جبال . وانما قل : ألمان السوډيت اذا اردت ، او الألمان

فقط . ماذا إذن ؟ يريدون الارتباط بالمانيا ؟ ذلك لأنهم قد دفعوا حتى نقد صبرهم . فلو أنهم أعطوا في البدء ما كانوا يطلبون ، لما بلغنا ما نحن فيه الآن . ولكن بنيش قد خدع وتغلب لأن بعض الأعيان الطرايطر عندنا تورطوا فجعلوه يعتقد بأن فرنسا تقف وراءه : وهذه هي النتيجة .

ونظر الى ماتيو في حزن وأضاف :

— قد أحتمل هذا كله : فاني اعرف منذ وقت طويل ما الذي يساويه السياسيون . اما ان تفقد انت الرجل العاقل ، الجامعي ، حسن ردود الفعل البدائية بحيث تنقل الي بكل هدوء بأنك ذاهب الى المسلخ لأنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً آخر ، فاني لا أستطيع ان أحتمل ذلك . فاذا كنتم كثيرين تفكرون على هذا النحو ، فان فرنسا هالكة يا عزيزي المسكين !

فسأله ماتيو : — ولكن ما الذي تريدنا ان نفعله ؟

— ماذا ؟ اننا ما زلنا ، يا ماتيو ، في عهد ديموقراطي . واعتقد انه ما يزال في فرنسا رأي عام .

— وبعد ذلك ؟

— حسناً ! لو أن ملايين من الفرنسيين ، بدلاً من ان يستنفدوا قواهم في منازعات عابثة ، انتصبوا جميعاً ليقولوا لحكامنا : « إن المان السوديت يريدون العودة الى احضان جرمانيا ؟ فليعودوا إليها : فهذا انما يعنيهم وحدهم ! » لما يوجد رجل سياسي واحد يجازف باشعال حرب من أجل هذه التهمة .

ووضع يده على ركة ماتيو وأضاف بلهجة مصالحة :

— انا اعرف انك لا تحب العهد الهتلري . ولكن يمكن للناس مع ذلك الا يقاسموك آراءك المسبقة ضده : فهو عهد قبيح ناشط قدّم دلتته ، وهو يمارس على امم اوروبا الوسطى جاذبية لا جدال فيها .

ثم إن هذه ، على أي حال ، قضيتهم : فليس لنا أن نتدخل فيها ،
وخنق ماتيو تشاوية ، ورد ساقيه تحت كرسيه ، ثم ألقى نظرة
خفية على وجه أخيه المترهل بعض الشيء ، وفكر بأنه كان يشيخ ،
وقال بوداعة :

- ربما ، ربما كنت على حق .

وهبطت أوديت السلم وجلست بالقرب منها في صمت . وكانت على
جمال حيوان وديع وعلى هدوئه : كانت تجلس وتنهض وتعود إلى
الجلوس ، وهي وانفة من أنها لم تكن لترى . والتفت إليها ماتيو في
ضيق : إنه لم يكن يجب أن يراها معاً . فإذ يكون جاك موجوداً ،
لا يتغير وجه أوديت ، بل يبقى أملس هارباً ، كوجه تماشال ذي عينين
بلا حدق . ولكن المرء كان مضطراً إلى أن يتمن فيه بطريقة أخرى .
وقال وهو يتسم :

- إن جاك يرى أنني لست حزينا ، من جراء ذهابي ، بما فيه
الكفاية . وهو يحاول أن يبت الحزن العميق في نفسي بأن يوضح لي
بأنني إنما اذهب للموت من أجل لا شيء .

فبادلت أوديت بسمة . ولم تكن بسمة المجاملة التي كان ينتظرها ،
بل كانت بسمة له وحده ، وفي لحظة : كان البحر هناك من جديد ،
وذئبة البحر الخفيفة والظلال الصينية التي كانت تعدو على الأمواج ،
ودفقة الشمس التي كانت تخفق في البحر ، والنبات الأخضر ، والإبر
الخضر التي كانت تغطي الأرض ، والظل المدبب لشجر الصنوبر ، والحرق
الأيض النافذ ورائحة القطران ، وكل كثافة صبيحة ايلولية في « جوان
ليان » . أوديت ، أيتها العزيزة . متزوجة زواجاً سيئاً ، ومحبوبة حباً
سيئاً ؛ ولكن هل بحق القبول بأنها قد أضاعت حياتها ، حين يكون
بوسعها أن تولد من جديد ، إذ تبسم ، حديقة على ضفة الماء ، وحرارة
الصيف على البحر ؟ ونظر إلى جاك ، فألفاه سميناً متمتع الوجه ، وكانت

يداه ترتجفان ، وكان يصفق بيده الجريئة في حماس ، وفكر ماتيو :
« ممّ تراه يخاف ؟ » في الساعة الحادية عشرة من صباح السبت ٢٤
أيلول ، كان باسكال مونتاستروك ، المولود في نيم يوم ٦ شباط ١٨٩٩
والملقب بـ « لوبورنيو »^١ لأنه زرع سكيناً في عينه اليسرى يوم ٦
آب ١٩٠٧ إذ كان يحاول ان يقطع جبل الأرجوحة التي كان يجلس
فيها رفيقه الصغير - بولو تروفيه ليرى ما عسى يحدث من ذلك - كان
باسكال مونتاستروك يبيع كعاداته كل يوم سبت سوسناً وازراراً ذهبية
على رصيف « باسي » ، قرب محطة المترو؛ وكان له تكنيكه الخاص
إذ كان يأخذ الباقات ، الباقات الجميلة في سلته الخيزرانية الموضوعة على
مقعد قابل للطي ، ويهبط الى الطريق ، والسيارات تجري وهي تطلق
اصواتها ، فيصبح ، « الباقات ، الباقات الجميلة لسيدتك » وهو يشهر
الباقة الصفراء ؛ فتهمج السيارة عليه ، كالثور في الحلبة ، ولا يتحرك
هو ، بل يتراجع بالسلّة ، ويلقي رأسه الى خلف ، ويدع للسيارة ان
تمر إزاءه كحيوان ضخم بليد ويصبح من الباب المفتوح : « الباقات ،
الباقات الجميلة ! » وكان السائقون عادة يقفون ، فيصعد الى الموطيء ،
وتأتي السيارة لتقف بازاء الرصيف ، لأن ذلك كان عطلة نهاية الاسبوع ،
ولأنهم كانوا يحبون ان يعودوا الى مساكنهم الجميلة في شارع « فيبي »
او في شارع « رانولا » وهم يحملون لنسائهم باقات . « الباقات
الجميلة » ، وقفز الى خلف ليتفادى السيارة ، السيارة المثة التي تمر
من غير ان تقف ، « إبتعد إذن ! » لا ادري ما بالهم هذا الصباح ؛
أنهم يسوقون بسرعة وبوحشية ، وهم منحنون على مقادهم ، صم
كأنهم طرشان بالفعل . أنهم لم يكونوا ليدوروا الى هذا الحد في شارع
« شارلز ديكنز » او في جادة « لامبال » ، بل كانوا يدخلون الى
المحطات بأهتة كبيرة ، كما لو أنهم كانوا يريدون المضي حتى « بونتواز » .

١ تمي بالمرية « الأور » .

وإن باسكال لوبورنيو لم يعد يفهم من ذلك شيئاً : « ولكن الى اين هم ذاهبون ؟ الى اين يذهبون ؟ » فأن يمضي هو متأملاً سلبه الملائى بالازهار الصفرة والوردية ، إن ذلك ليثير الشفقة . وقال : - إن ذلك جنون محض . اجمل انتحسار في التاريخ . لماذا ؟ لقد اصيبت فرنسا بمذبحتين مريعتين خلال مئة عام ، الاولى في اثناء حروب «الامبراطورية» والآخرى عام ١٩١٤ . وبالإضافة الى ذلك ، فان نسبة المواليد تتدنى كل يوم . وها هم يختارون هذه الفترة ليشتوا حرباً تكلفنا ثلاثة ملايين رجل او اربعة ؟ وقال وهو يدق كلماته دقاً : ثلاثة ملايين رجل او اربعة لن يكون باه كائنا بعد ان نصنعهم مرة اخرى . وسواء خرجنا منتصرين او مهزومين ، فان البلاد ستنتقل الى صف الدرجة الثانية من الامم : فهذا امر يقيني . ثم إن هناك امراً آخر سأقوله لك : سوف تبتلع تشيكوسلوفاكيا قبل ان يتاح لنا ان نقول « اوف » ليس امامنا الا ان ننظر الى خارطة : انها تشبه قطعة لحم بين شذقي الذئب الالمانى . فاذا شد الذئب قليلاً على أسنانه ...

قالت اوديت : - ولكن ذلك لن يكون الا مؤقتاً ، فان الدولة التشيكوسلوفاكية ستبني من جديد بعد الحرب .
قال جاك وهو يضحك بوقاحة :

- هكذا اذن ؟ آه : انني اصدقك تماماً ! هناك كل المظاهر في الواقع بان الانكليز سيسمحون باعادة بناء اتون الحريق . خمسة عشر مليون نسمة ، تسع جنسيات مختلفة ، إن ذلك تحد للعتل السليم . (وأضاف في قسوة) ينبغي على التشيك الا يخطثوا ، فإن مصلحتهم الحيوية هي ان يتفادوا هذه الحرب بأي ثمن .

« مم هو خائف ؟ » كان ينظر الى السيارات تجري ، وهو يشد في يده بافته الالاجدية ، وكانت الطريق تشبه طريق شانتبي ، ذات امسية من امسيات التبضع ، اذ يكون ثمة من يحمل صناديق و فراشاً وعربات اطفال

وماكينات خياطة على سقوف سياراتهم ؛ والسيارات كلها تكون مملأة بالمحافظ والرزم والسلال حتى لتنفجر . وقال باسكال لبورنيو : «كفى !» كانت السيارات تجري وهي محملة جداً حتى أن الحدائد التي تقى من الوحل كانت تصدم العجلات لدى كل ارتجاجة . وفكر بأنهم يهربون ، أنهم يهربون . وقفز قفزة خفيفة الى الخلف ليتجنب سيارة «سالمسون» ، ولكنه لم يكن يفكر في الصعود الى الرصيف . كانوا يهربون ، اولئك السادة ذوو الوجوه الملوثة بالمساحيق ، المدلّكة ، والاولاد السمان ، والسيدات الجميلات ، كأنما كانت النار في إستمهم ، كانوا يفرّون امام الالمان ، وامام قصف الغارات ، وامام الشيوعية . وكان يفقد هناك كل زبائمه . ولكنه كان يجد ذلك مضحكاً جداً ، هذا الصف من السيارات ، وهذا الهرب المجنون نحو مقاطعة نورماندي ، وكان ذلك يجزته عن أشياء كثيرة ، حتى أنه ظل واقفاً في عرض الطريق ، تلامسه السيارات الفارّة . وهو أخذ في التمهّقة من كل قلبه .

- وكيف نستطيع ، من فضلك ، ان ننجدهم ؟ الواقع انه ينبغي علينا في آخر الأمر ان نهاجم المانيا . ولكن من اين ؟ في الشرق يقوم خط سيغفريد ، وسوف نحطم ابعيه أنفنا . وفي الشمال ، تقوم باجيكا ، فهل ترانا سننتهك حياد بلجيكا ؟ إذن ، قل لي ، قل لي : من اين ؟ ام علينا ان نقوم بالدورة عن طريق تركيا ؟ إن ذلك شيء روائي محض . وكل ما نستطيع ان نفعله هو أن نبقى على سلاحنا ، في انتظار ان تصفي ألمانيا حسابها مع تشيكوسلوفاكيا . وبعد ذلك ، ستأتي لتصفي حسابنا ...

قالت اوديت : - وإذن ، ففي تلك الفترة ...

فأدار اليها جاك نظرة زوج ، وسألها ببرود :

- اذا ؟ (وانحنى على ماتيو) هل حدثتلك عن « لوران » الذي كان رئيساً أهلي في شركة « اير فرانس » والذي بقي مستشار « كوت » .

« غي لاشمبر » ؟ اسمع إذن : انني اقدم لك من غير تعليق ما
قاله لي في نموز الماضي : إن كل ما يملكه الجيش الفرنسي اربعون قاذفة
وسبعون مطاردة . فاذا كان هذا صحيحاً ، فان الالمان سيكونون في
باريس في رأس السنة ! »

قالت اوديت غاضبة : - جاك !

« ممّ هو خائف ؟ » كان باسكال يضحك ويضحك ، وكان قد
قد ترك باقته تسقط ليضحك على كيفه ، وقفز قفزة الى الخلف ، فمرت
عجلة على سوق الباقه . ممّ هو خائف ؟ إنها غاضبة لأن هناك من سمح
لنفسه بان يواجه هزيمة فرنسا . إنها ليست قريبة الى النفس تماماً . فالكلام
يخيفها . إنهم يخافون المناطيد ، وقد رأيتها انا عام ١٩١٦ ، فلم تكن
تذهب بعيداً ، ويعود الامر من جديد ؛ كانت السيارات تمر بأقصى
سرعتها على السوق المطحونة ، وكان باسكال يحسنّ الدمع في عينيه لفرط
ما كان يجد ذلك باعثاً على الضحك . غير ان موريس لم يكن يجد هذا
ممتعاً على الاطلاق . كان قد دفع للرفاق تكاليف الدورة ، وكان راسلاه
ما يزالان يحرقانه من الضربات الكثيرة التي تلقاها . وما هو الآن وحده ؛
وينبغي له عما قيل ان يطلع زيزيت على ذلك . ورأى المنشور الابيض
في أعلى الجدار الرمادي لمصانع « بينهويت » فاقرب ، وكان محتاجاً
الى قراءته وهو وحده ، وفي ببطء :

« بأمر من وزير الدفاع الوطني والحرب ومن وزير الطيران ،
الموت ، ان ذلك لم يكن شيئاً مريباً جداً ، وانما كان حادثاً من حوادث
العمل ، وكانت زيزيت قاسية ، وكانت من الفتوة بحيث تستطيع ان
تستأنف حياتها من جديد ، فان الامر يكون يسيراً جداً دائماً حين لا
يكون ثمة اطفال . اما فيما عدا ذلك ، فهو سيذهب ، ثم يحفظ في
النهاية بيندقيته ، فهذا امر متفق عليه ، ولكن متى تجيء للنهاية ؟ بعد
سنتين ؟ لقد دامت الحرب الاخيرة اثنين وخمسين شهراً . وطوال اثنين

وخمسين شهراً يجب إطاعة الرقباء والمعاونين ، وجميع اولئك الابكار
 الذين طالما كرههم . يجب اطاعتهم على الرأس والعين ، وتحتهم في
 الشارع بينما يكون مضطراً الى ادخال يديه في جيوبه ، اذ يلتقي بأحدهم ،
 حتى يمنع نفسه من الانقضاض عليه ولكمه في وجهه . فاذا كانوا في
 القطاع ، كان عليهم ان يقفوا مرتبكين ، كأنهم يستشعرون في ظهورهم
 رجفة الرصاص ؛ واذا كانوا في الراحة ، وجب عليهم ان يتظاهروا
 بالطيبة والطاعة كما لو كانوا في الثكنة . اوه ! متى يأتي يوم الهجوم
 الاول لأطلق عليه رصاصي ، ذلك المعاون الذي سيمشي امامي ! واستعداد
 مشيته ، وكان يستشعر الحزن والرقّة كما كان يُحسّ في عهد الملاكمة ،
 اذ مر في غرفته يخلع ثيابه ، قبيل الحفلة بربع ساعة . لقد كانت الحرب
 طويلة ، طويلة جداً ، فلا ينبغي التفكير بها اكثر مما ينبغي ، والاّ لانتهى
 الامر بان يجد الانسان انه لم يكن لشيء معنى ، حتى ولا النهاية ، حتى
 ولا العودة وفي يده البندقية . درب طويلة ، طويلة جداً . وربما مات
 وهو في منتصف الطريق ، كما لو لم يكن له هدف آخر غير ان يدعهم
 يثقبون جلده ليدافع عن مصانع شنيدر او عن صندوق السيد « دو واندل » .
 كان يمشي في الغبار الاسود بين جدار مصانع « بينهويت » وجدار
 ورشات « جيرمان » ؛ وكان يرى عن يمينه ، في البعيد ، السقوف
 المائلة لمشاغل عمال السكك الحديدية للشمال ، وابتعد من ذلك ، المدخنة
 الكبيرة الحمراء للمحرقة ، وكان يفكر : « درب طويلة ، طويلة
 جداً » وكان « لوپورنيو » يضحك بين السيارات ، وكان موريس
 يمشي في الخبار ، وكان ماثو جالساً على شاطئ البحر ، يستمع الى
 جاك ، ويقول لنفسه : « لعله على حق » ، وكان يفكر بأنه سيتجرّد
 من ثيابه ، ومن مهنته ، ومن هويته ، ويلهب عارياً ليخوض أسخف
 الحروب ، ليخوض حرباً خاسرة مقدماً ، وكان يُحسّ نفسه يسيل في
 أعماق الغفل ؛ انه لم يكن بعد شيئاً ، لا الاستاذ القديم لبوريس ، ولا

العشيق القديم لمارسيل القديمة ، ولا العاشق الاقدم لايفيش ؛ لا شيء .
الا اسماً غفلاً ، بلا عمر ، سُرق منه المستقبل وأصبحت امامه ايام لا
يمكن التنبؤ بها . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ، توقف الكار في
« سافي » فنزل منه « بيار » ليزيل خدر ساقه . وكان ثمة أكواخ
مسطحة صفراء على حافة الطريق المزفتة : وخلفها كانت « سافي »
تندرج بخفاء نحو البحر . وكان ثمة عرب يطبخون ، وهم مقرفصون
فوق رقعة واسعة من الارض المحمّرة ، وكانت الطائرة تحلق فوق رقعة
رمادية صفراء ، كانت هي فرنسا . وفكر بيار في حسد : « كم يستطيع
هؤلاء ألا يبايأوا ! » ؛ وكان يمشي بين العرب ، وكان يستطيع ان
يلمسهم ، ومع ذلك فهو لم يكن حاضراً بينهم : لقد كانوا يدخنون
« كيفهم » بهدوء ، اما هو فكان ذاهباً ليحطم رأسه في الأتراس ،
وتعثر بمدرة من الارض ، وسقطت الطائرة في جيب هوائي وفكّر
الشيخ : « اني لا احب الطائرة » : وكان هتلر ينحني فوق الطاولة ،
وكان الجنرال يشير الى الخارطة ويقول : « خمس فرق من الدبابات ،
الف طائرة تنطلق من « دريسد » و « تمبلهوف » و « ميونيخ »
وكان شمبلرن يضغط منديله على فمه ويفكر : « هذه هي رحلتي الثانية
في الطائرة . اني لا احب السفر في الطائرة » . انهم لا يستطيعون ان
يساعدوني ؛ فهم مقرفصون ، تحت الشمس ، شبيهين باوعية صغيرة
من الماء المدخن ، وهم مسرورون ، وهم وحدهم على الارض ؛
وفكر في بأس : « آه ! يا إلهي ! يا إلهي ! ليتني استطيع ان
اكون عربياً ! »

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين ، صعد « فرنوا »
هانوكين ، وهو صيدلي من الدرجة الاولى في « سانت - فلور » ،
طوله متر وسبعون ، ذو انف مستقيم وجبين متوسط ، وحوال خفيف ،
ولحية في شكل اكليل ، ورائحة قوية للقم ولشعر الفرج ، والتهاب في

الامعاء استمر حتى السابعة من عمره ، وعقدة اوديب صُفيت حوالى
الثالثة عشرة ، وحائز لل بكالوريا في السابعة عشرة ، واستمنا حتى فترة
الخدمة العسكرية بمعدل مرتين او ثلاثة في الاسبوع ، مشترك في جريدتي
« نان » و « ماتان » . زوج بلا اولاد لـ « اسيرانس ديولافوا » ،
كاثوليكي ممارس لواجبات تناول بمعدل مرتين او ثلاث كل ثلاثة أشهر -
صعد فرانسوا هانوكين الى الطابق الاول فدخل غرفة الزواج حين كانت
امرأته تجرب قبعة وقال : « هذا هو حقاً ما كنت اقوله لك ، انهم
يستدعون حملة الكراسة رقم ٢ » ووضعت امرأته القبعة على طاولة
الزينة ، ونزعت الدبايس من فيها وقالت : « انت ذاهب اذن بعد ظهر
اليوم ؟ » فقال : « نعم ، في قطار الساعة الخامسة » . قالت زوجته :
« اي ارتباك ! اني مضطربة جداً ، ولن يكون لدي الوقت لأعد
كل شيء . ماذا ستأخذ معك ؟ قصان طبعاً وسراويل طويلة ، فانت
تملك منها ما هو قطني وما هو صوفي وما هو من المسلمين ، وأفضلها
الصوفي . اوه ، ثم زناير من الفلانيل ، جبدا لو تأخذ منها خمسة او
سته بعد ان تلفها » . فقال هانوكين : « لا حاجة للزناير ، فهي
أعشاش للقمل » « اية فظاعة ، ولكن لن يدركك القمل ، فأرجوك
ان تأخذها ، إرضاء لي ؛ حتى اذا كنت هناك عرفت ماذا تصنع بها ،
ومن حسن الحظ اني ما زلت احتفظ ببعض المعلبات ، تلك التي اشريتها
عام ١٩٣٦ ، في فترة الاضرابات ، فكنت تسخر مني ، وعندي علبة
كرنب بالخمير الابيض ، ولكنك لن تحب ذلك ... » فقال وهو يفرك
يديه : « ان ذلك يحدث لدي هموضة ، ولكن اذا كان لديك علبة
فاصولياء ... » قالت اسيرانس : « علبة فاصولياء ، ولكن كيف لك
ان تسخنها ؟ » قال هانوكين : « هكذا ! » « كيف هكذا ؟ انها
تسخن في الماء الغالي » « هل عندك اذن فراخ مجمدة ؟ » « نعم
عندي ، بالاضافة الى مورتاديليا بعث بها الاقارب في كليرمون » . وحلم

لحظة وقال : « سأخذ سكينى السويسري » . « نعم ، واين تراني
صاضع زجاجة الترموس لقهوتك ؟ » « آه ، نعم ، قهوة ، يجب ان
يكون هناك شيء حار ليتاسك به بطفي (واطاف وهو يبتسم بكآبة)
هذه هي المرة الاولى التي آكل فيها ، منذ تزوجت ، من غير ان ابدأ
طعامي بالحساء . ضعي لي بعض الخوخ ، وزجاجة كونياك » . « هل
تأخذ الحقيبة الصفراء ؟ » فانتفض : « الحقيبة ؟ على الاطلاق ، ان
هذا غير لائق ، ثم اني لست حريصاً على إضاعتها . ان كل شيء
يسرق هناك . سوف آخذ مزماري ذا القربة » « اي مزمار ؟ »
« المزمار الذي كنت آخذه حين اذهب للصيد ، قبل زواجنا . قاندا
فعلت به ؟ » « ماذا فعلت به ؟ آه ، لا ادري يا عزيزي المسكين ،
لقد أضعت لي رأسي ، اعتقد اني وضعته في العلية » « في العلية ؟
يا إلهي ! مع الفئران ! سيكون ذلك رائعاً ! » « انك تحسن صنماً
إذا أخذت الحقيبة معك ، فهي ليست كبيرة ، وبوسعك ان تراقبها
جهداً . آه ! انا اعرف اين هي : عند ماتيلد . لقد اعرتها اياها للزهوة .
« أعرت ماتيلد مزماري ؟ » « ولكن لا ، انت تحدثني عن المزمار ؟
قلت لك زجاجة الترموس » . فقال هانوكين بحزم : « مهما يكن ،
فانا اريد مزماري » « آه يا عزيزي ! ما الذي تريده أن اقول لك ،
فنظر الى ما لدي من عمل ، فساعدني قليلاً ، وابحث عنه بنفسك ،
مزمارك ، وبوسعك ان تنظر في العلية » وصعد السلم ، فدفح باب
للعلية ، وأحس برائحة الغبار ، ولم يكن يميز شيئاً ، وفرت فأرة بين
ساقيه ففكر : « لعنة الله عليها ! لا بد ان الجرذان قد التهمته ! »
وكان ثمة صناديق ، وتمثال من خيزران ، وخريطة للكرة الارضية ،
وفرن قديم ، واريكة طيب اسنان ، وأرغن ، وكان ينبغي ازاحة هذا
كله . ليتها قد خطر لها ان تضعه في صندوق ، بمنجى من كل شيء .
وفتح الصناديق واحداً بعد الآخر ، وكان يغلقها في غضب . لقد كان

المزمار لطيفاً سهل الاستعمال ، جلدياً ، وله فتحة ، وكان يمكن ان ندخل فيه اشياء كثيرة ، وكان له قطاعان . والحق ان هذه الاشياء هي التي تساعدك على تمضية اللحظات السيئة ، ولا يشك أحد في أهمية ذلك ، وفكر في غضب : « مها يكن من أمر ، فلن اذهب والحقيبة معي ، فانا أفضل الا أحمل شيئاً » .

وجلس على صندوق ، وكانت يده سوداوين من الغبار ، وكان يُحسّ الغبار كصمغ جاف خشن على جسمه كله ، وكان يرفع يديه في الهواء حتى لا يلمس معطفه الاسود ، وكان يخجل اليه انه لن يملك الشجاعة ابداً ليخرج من العلية ، لم يبق لي ميلٌ لشيء ، وهذه الليلة التي سيقضيها من غير ان يتناول حتى حساء يمسك عليه بطنه كانت تشعره بان كل شيء عبث ، وكان يشعر الوحدة والضيق ، وهو هناك ، فوق ، على صندوقه ، مع تلك المحطة الصاخبة المظلمة التي كان تنتظره على مئتي متر تحته ، ولكن صرخة اسبرانس المرتعشة جعلته ينتفض ، وكانت صرخة انتصار : « لقد وجدته ! لقد وجدته ! » ففتح الباب وامرغ الى السلم : « اين هو ؟ » « وجدت زمارك ، كان موجوداً تحت ، في خزانة القبو » . وهبط السلم فتناول المزمار من يدي زوجته ، ففتح قرنته وتأملها ومسح عليها بظاهر كفتّه ، ثم وضعه على السرير وقال : « اسمي يا عزيزتي : كنت أتساءل اذا كنت احسن صنماً بان ابتاع لي زوجاً من الأحذية ؟ »

الى المائدة ! الى المائدة ! وكانوا قد دلفوا الى نفق الظهر المعني للابصار ؛ اما في الخارج ، فكانت السماء بيضاء من الحرارة ، والشوارع الميتة البيضاء ، والارض الحرام ، في الخارج كانت الحرب ؛ وخلف المصاريع المغلقة ، كانوا يطبخون على البخار ، ووضع دأنيال منشفته على ركبتيه ، وعقد هانوكين منشفته على عنقه ، وتناول برونيه منشفته الورق من على الطاولة مدحهما منعه ، ودحبت جبين سارك الى

قاعة الطعام الكبيرة الحالية تقريباً، ذات الزجاج المخطط بالأشعة الطبقورية،
وعلقت له المنشفة على صدره ؛ كانت تلك هي الهدنة : الحرب ، أجل ،
الحرب ، ولكن الحرارة ! الزبدة في الماء ، والمدرّة الضخمة في القاع ،
ذات جوانب فضفاضة زيتية ، والماء الرمادي من فوق ، اطراف الزبدة
الصغيرة الميتة التي تطفو وبطنها في الهواء ، وكان دانيال ينظر الى فقاعات
الزبدة تذوب في صحيفة الفجل ، ومسح برونيه جبينه ، وكان الجبن
يعرق في صحيفته كما يعرق الرجل النشيط في عمله ، وكانت بيرة
موريس فاترة ، فدفع قدحه وقال : « تفه ! لكأنها بول ! » وكانت
قطعة ثلج تسبح في خمر ماتيو ، فشرب ، وأحسّ اولاً بماء بارد في
فه ، ثم ما لبث مستنقع صغير من الخمر الطائش الذي ما يزال حاراً
بعض الشيء ان ذاب ماء ، وأدار شارل رأسه قليلاً وقال : « وايضاً
~~حساء ؟ لا بد انهم مجانين حتى يقدموا لنا الحساء في عز الصيف .~~
ووضعوا صحيفته على صدره ، فكانت تبعث الحرارة في جلده عبر
المنشفة والقميص ، وكان لا يرى اكثر من طرف الخبز المطلي ، فأغرق
ملعقته بعد تقدير سريع ، ثم رفعها عمودياً ، ولكن من يضطجع على
ظهره لا يكون واثقاً قط من الوضع العمودي ، ولذلك سقط بعض الحساء
في الصحن وهو يقرقر ، وأعاد شارل الملعقة بهدوء الى ما فوق شفتيه ،
وأماها من جهة ثم طز ! هكذا يحدث له دائماً ، وسال المائع الساخن
على خده فأغرق ياقة قميصه . الحرب ، آه ، نعم ، الحرب : قالت
زيزيت : لا ، لا ، ليس الراديو ، لا اريد بعد أن افكر فيه : قال
موريس : بلى ، قليل من الموسيقى ، شيرسو ، غورب ، ث شرور ،
يانجي ، اخبار ، اغنية « القبعات والغلالات » ، واغنية « سأنتظر »
يطلب من هوغيت ارنال ، ومن بيار دوكروك وزوجته وابنتيه في
« لاروش كانيلاك » ومن الآنسة اليان في « كالفني » وجان فرنسا
~~روكيت لصغيرته ماري مادلين مع فست من الصناريات على الآلة الكاتبة~~

في تول لاصدقائهن الجنود. سأنتظر الليل والنهار ، خذ مزيداً من السمك المطبوخ ، فقال ماتيو : لا ، شكراً ، لا يمكن للقضية الا ان تسوى ، وكان الراديو يفرقع ، ويدرج فوق الساحات البيضاء الميتة ، ويحطم الواجهات، ويدخل في المدينة الى المخائق المظلمة ، وكانت اوديت تفكر : لا يمكن للقضية الا ان تسوى ، فقد كان هذا يقيناً ، وكان الطقس حاراً جداً . وكانت الآنسة اليان وزيزيت وجان فرنسوا روكيت واسرة دوكروك من بلدة « روش كانيلاك » يفكرون : لا يمكن للقضية الا ان تسوى ، وكان الطقس حاراً جداً . وسأل دانيال : ما تريد ان يفعلوا ، وكان شارل يفكر بانها كانت غارة كاذبة ، وهم سينتكوننا هنا ، ووضعت ايلا بيرنانشاتز شوكتها ، وارتدت برأسها الى خلف ، وقالت : اما انا ، فاني لا اؤمن بالحرب . سأنتظر دائماً عودتك ، وكانت الطائرة تحلق فوق زجاج مغبر ملقى على ظهره ، وعلى طرف الزجاج ، بعيداً جداً ، كان يرى بعض المسك ، وانحنى هنري نحو شميرلن وصاح في اذنه : انها انكلترا ، انكلترا والجمع الذي يتدافع عند حواجز المطار ، منتظراً رجوعه ، يا حبيبي ، دائماً ، وحدث له وهن قصير ، وكان الطقس حاراً جداً ، وكانت به رغبة لان ينسى الفاتح الذي يشبه رأسه رأس الذبابة ، وفندق دريسن والمذكرة ، رغبة لان يصدق ، يا الهي ، يصدق بان القضية يمكن ان تسوى بعد ، وأغمض عينيه ، يا لعبتي الحبيبة ، بناء على طلب السيدة دوراتي وحفيدتها الصغيرة ، من بلدة دوказفيل ، الحرب يا الهي أجل ، الحرب والحرارة والقيولة الحزينة الخاضعة ؛ كازا ، هذه كازا ، وتوقف الاوتوكار في ساحة بيضاء مقفرة ، فكان ييار اول الخارجين ودخلت في عينيه الدموع المحرقة ، وكان ما يزال في الاوتوكار بعض آثار الصباح ، اما في الخارج ، حيث الشمس مشعة ، فقد كان ثمة موت الصباح . انتهى الصباح ، يا لعبتي الحبيبة ، انتهى الشباب ، وانتهت الآمال ، وهذه

كارثة الظهر الكبرى : وكان جان سيرفان قد دفع صحته ، وكان يقرأ
الصفحة الرياضية في « باري - سوار » ، ولم يكن قد بلغه قرار التعيثة
الجزئية ، فقد كان في عمله ، وعاد منه ليتناول الغداء ، وسيعود اليه
حوالي الساعة الثانية ، وكان لوسيان رينيه يكسر جوزاً بين كفيه ،
وكان قد قرأ المناشير البيضاء ، وكان يفكر : ان ذلك خداع ، وكان
فرنسوا ريستوت ، فتي المختبر في معهد « ديريان » ، يمسح صحته
بالخبز ولا يفكر بشيء ، وكانت زوجته لا تفكر بشيء . في الصباح ،
كانت الحرب قطعة ثلج قاطعة في رؤوسهم ثم ذابت فأضحت مستنقماً
صغيراً فاتراً . يا لعبي الحبيبة ، الطعم السميك المظلم للحم البقر البورغونيني ،
ورائحة السمك ، وجلد اللحم بين ضرسين ، وبخار الخمر الاحمر ،
والحرارة ، الحرارة ! مستمعي الاعزاء ، ان فرنسا التي لا تنزعزع ،
على كونها مسألة ، تواجه مصيرها بحزم . X

كان تعباً ، وكان سادراً ، وقد أمرّ يده ثلاث مرات امام عينيه ،
وكان النهار يؤذيه ، وقال داوبورن الذي كان يمسح رأس قلمه لزميله
في « المورننغ بوست » : « لقد اصيب بضربة الخيزران » . ورفع يده
وقال بوهن :

- ان واجبي الاول ، الآن وقد عدت ، هو ان اكتب تقريراً
للحكومتين الفرنسية والانكليزية عن نتائج مهتمتي ، والى ان انجزه ،
يصعب عليّ ان اقول عنه شيئاً .

وكان الظهر يلفه بكفنه الابيض ، وكان داوبورن ينظر اليه ويفكر
في دروب طويلة مقفرة بين صخور رمادية وصدئة تحت نار السماء .
وأضاف العجوز بصوت اكثر وهناً :

- سأكتفي بما يلي : انني على ثقة من ان المعنيين جميعاً سيواصلون
جهودهم ليحلوا مسألة تشيكوسلوفاكيا حلاً سامياً ، لان سلام اوروبا
في عصرنا هذا متوقف على هذا الحل :

كانت تنقر فئات خبز على الخوان نقرأ دقيماً . وهي مترعجة قليلاً ، كما يحدث اذ تكون مصابة بزكام العلف ، وقد قالت لي : ان في معدتي كرة من الهواء ، وذرفت بعض الدمع ، من الذعر : ان ذلك سيعكّر كل عاداتها : فقلت لها : « في الاوقات الاولى : في الاوقات الاولى فقط » . وهي تفكر بأنها شقية ، وهذا البرد الخفيف الغامض في رأسها ، تحسبه شقاء . وهي تقف مستقيمة ، وتفكر بأنه لا يحق لها ان تسترخي ، وان جميع نساء فرنسا شقيات مثلها : انها لائقة ، هادئة ، مهيبة ، وهي تبدو اذ تضع ذراعيها الجميلتين على الخوان ، كأنها جالسة بأبهة على صندوق حانوت كبير . وهي لا تفكر ، ولا تريد ان تفكر بأنها ستصبح أهدأ كثيراً مما هي ، بعد ذهابي . بم تفكر ؟ بأن هناك لطخة صدأ على مقبض سكينها . وتقطّب حاجبيها ، ونحك اللطخة بطرف ظفرها الاحمر . ستكون اهدأ كثيراً : امها ، صديقاتها ، المعمل ، السرير الكبير الخاص بها وحدها ، انها لا تكاد تأكل ، وهي ستقلي البيض فوق ركن من الفرن ، اما الصغيرة فلا يصعب تغذيتها ، فهناك الحساء دائماً ، وكنت اقول لها : ولكن اعطيني اي شيء ، الشيء نفسه دائماً ، ولا تحاولي ان تؤلفي لوائح مختلفة ، فالأ لا اتنبه قط لما آكل ، فكأنت تعاند : لقد كان ذلك واجبها .

- جورج ؟

- هزيتي ؟

- هل تريد بزوراً مغلقة ؟

- لا شكراً .

وشربت بزورها المغلية وهي تنتهد ، وعيناها حراوان . ولكنها لا تنظر اليّ ، وانما تنظر الى الخزانة ، لانها هناك ، تجاهها تماماً . وليس لديها ما تقوله لي ، او انها ستقول لي : حذار من البرد . ولعل الامر يبلغ بها ان تتخيلني هذا المساء في القطار ، شكلاً صغيراً هزياً مركوماً

في جوف القاطرة ، غير ان الامر يتوقف هنا ، اذ انه بعد ذلك أصعب
 مما ينبغي : انها تفكر بحياتها هنا . بأن ذلك سيخلف فراغاً . فراغاً
 صغيراً جداً ، يا اندريه : اني قليلاً ما اترك ضجّة . كنه في اريكة
 ومعى كتاب ، وكانت تشم رائحة الجوارب ، ولم يكن لدينا ما نقوله .
 ستكون الاريكة هنا دائماً - المهم ، هو الاريكة . وستكتب لي . ثلاث
 مرات في الاسبوع . بكل دقة . وستكون رصينة كل الرصانة ،
 وستبحث طويلاً عن الخبر والريشة ونظارتها الشقراوين ، ثم تجلس بهيئة
 مهيبه امام هذه الطاولة غير المريحة التي ورثتها عن جدتها « فاسور » :
 « الصغيرة تنبت اسنانها ، امي تزورنا بمناسبة الميلاد ، ماتت السيدة
 السولان ، اميليان تتزوج في ايلول ، الخطيب ممتاز ، مسن بعض الشيء ،
 يعمل في « التأمينات » . اما اذا اصيبت الصغيرة بالشهاق ، فانها ستخفي
 عني النبأ ، حتى لا تورث لدي القلق . « مسكين جورج ، ليس هو
 بحاجة الى ذلك ، فهو يقلق من أجل لا شيء » وسوف ترسل لي رزمة
 المقانق والسكر وكيس القهوة وكيس التبنك وزوج الجوارب الصوفية ،
 وعلبة السردين ، واقراص الميتا ، والزبدة المملحة . رزمة بين عشرة
 آلاف ، شبيهة بالعشرة الآلاف الاخرى ؛ فاذا اخطأوا واعطوني رزمة
 جاري ، فلن اتنبه الى ذلك ، الرزم والرسائل وحساء جانيت المطبوخ ،
 واللطخات على مقبض السكين . والغبار هلى الخزانة ، ان ذلك كله
 يكفيها ؛ وسوف تقول ، في المساء : انني تعبئة ، ولا استطيع بعد أن
 أصمد . ولن تقرأ الصحف ؛ لن تقرأها اكثر مما تقرأها الآن : فهي
 وكرها لأنها ورق منشور هنا وهناك ولا يمكن استعماله للمطبخ او للمرحاض
 قبل مضي ثمان واربعين ساعة . وستأتي السيدة هيرتو حاملة لها الانباء ،
 لقد احرزنا نصراً كبيراً ، او ان الامور لا تسير على ما يرام ، يا صديقتي
 الصغيرة ، الامور لا تسير . وقد سبق هنري وباسكال ان اتفقا مع
 زوجته على لغة مرقمة لينبئها اين يكونان : وذلك بوضع خطوط تحت

بعض الأحرف ، غير ان الامر مع اندريه لم يكن مجدباً . ومع ذلك فقد حاول ، ليرى النتيجة :

- بوسعي ان ابلغك اين اكون :

فسألته في دهشة : - ولكن اليس ذلك ممنوعاً ؟

- طبعاً ، غير أننا سنتدبر الامر . فانت ستقرأين مثلاً الاحرف الكبيرة ،

كما كان يحدث في حرب ١٩١٤ .

فقالت وهي تنهد : - ان هذا معتقد جداً .

- ولكن لا ، سترين ، انه سهل جداً ،

- نعم ، غير أنهم سيكشفون امرك ، فيضعون رسائلك في السلة ، ويأخذني القلق .

- ان الامر يستحق المخاطرة .

- اوه ! اذا شئت ، ولكنك تعلم يا عزيزي ، أنا والجغرافية ...

سأنظر في خارطة ، فأرى دائرة تحتها اسم ، فاذا مجدبني ذلك ؟

وهكذا . وهذا أفضل ، على نحو ما ، هذا أفضل كثيراً ، فهي

ستقبض راتي ...

- هل اعطيتك النوكيل ؟

- نعم يا حبيبي ، لقد وضعته في الخزانة .

هذا أفضل كثيراً ؛ فلا بدّ انه امرٌ مزعج ان نترك شخصاً شديداً

فناد صبر ، كثير القلق ، ولا بدّ ان نحسّ اننا مخطئون . ورفعت كرسي ،

- اوه ، كلا ، لا حاجة بك يا حبيبي الى ان تطوي منشفتك .

- صحيح .

ولم تسألني الى اين انا ذاهب . انها لا تسألني قط ذلك . وقلت لها :

- اني ذاهب لارى الصغيرة .

- لا توقظها .

لن اوقظها ؛ كنت اذا رغبت في ذلك ، أخفق في احداث ضجة

كافية لإبقائها ، فانا أخفّ مما ينبغي . ودفع الباب . وكان مصراع
قد انفتح ، فدخل منه أصيل طبشوري باهر ؛ وكان نصف الغرفة للآ
يزل في الظل ؛ غير ان النصف الآخر كان يبعث للشرارات تحت نور
مغبر ، وكانت الصغيرة نائمة في مهدها ، فجلس جورج بقربها ،
شعرها الاشقر ، فها الصغير القي ، وهاتان الوجنتان المليتان المتهدلتان
قليلاً ، واللنان بجعلنا شبيهة بقاض انكليزي . لقد بدأت تحبني ،
وكانت الشمس تزداد انتشاراً ، فدفع المهد الى الورا قليلاً . أجل ،
هكذا ! انها لن تكون جميلة ، فهي تشبهي . يا للطفلة المسكينة ، حينذا
لو كانت تشبه أمها . انها ما تزال طرية ، فكأها بلا عظام . ومع
ذلك ، فهي تحمل في نفسها هذا القانون الصارم الذي كان قانوني ؛
ان الخلايا ستتكاثر وفق قانوني ، وستصلب الغضاريف وفق قانوني ،
وستعظم الجمجمة وفق قانوني . طفلة صغيرة هزيلة ذات ملامح فاقدة
المعنى ، وشعر كاب ، وانحراف جانبي في الكف اليمنى ، ونظر حسير ؛
انها ستعيش بلا ضجة ، ومن غير أن تلامس الارض ، متجنباً الناس
والاشياء بحيل عظيمة ، لانها ستكون أخفّ وأضعف من ان تزيحهم عن
امكتهم . يا إلهي ! يا لجميع هذه الاعوام التي ستجئها ، واحداً
بعد الآخر ، من غير هوادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، ولا فائدة ،
لان كل شيء مكتوب هنا ، في لحمها ، وينبغي ان تعيش قدرها دقيقة
دقيقة ، وان تظن انها تخترعه ، وهو في الواقع موجود هنا ، برمته ،
يشير الاشمزاز لسهولة النبؤ به ، لقد أعديتها ، فلماذا ينبغي ان تعيش
قطرة قطرة كل ما سبق لي ان عشته ، ولماذا ينبغي دائماً ان يتكرر
كل شيء ، الى ما لا نهاية ؟ طفلة هزيلة ، روح صغيرة متبصرة
متورعة ، تملك كل ما ينبغي لتتعذب جيداً . اما انا ، فاني ذاهب ،
فانا مدعو لأعمال اخرى ، وسوف تنمو ، هنا ، بعناد ، وبلا حكمة ،
وسوف تمثاني . والشهاق ، وفترات اللقاهة الطويلة ، وذلك الامق المسور

الشقي برفيقاتها الجميلات السمينات ذوات اللحم الوردى والمرابا التي
مستنظر فيها وهي تفكر : هل اكون من القبيح بحيث لا أحب ؟ هذا
كله ، يوماً بعد يوم ، مع الاحساس بسابق الرؤية ، انكون يا الهي
العظيم بحاجة اليه ؟ واستيقظت لحظة ، ونظرت اليه بفضول رزين ،
وقد كانت هذه في نظرها لحظة جديدة تماماً ، وهي تعتقدها جديدة كل
الجدة . واخرجها من المهد وشدّها بين ذراعيه بكل قواه : « يا
صغيرتي ! يا طفلي الصغير ! يا صغيرتي المسكينة ! » ولكنها
خافت ، فبدأت تصرخ .

« جورج ! » قال من خلف الباب صوت مليء بالعتاب . واعاد
للصغيرة بكل هدوء الى مهدها . ونظرت اليه لحظة اخرى ، نظرة قاسية
شرسة ثم انفلقت حينها ، وانفتحتا وهما تطرفان ، ثم انعقا تماماً . لقد
بدأت تحبني . ينبغي ان اكون موجوداً هناك في كل ساعة ، ان اعودها
على حضوري بعمق كبير حتى لا تستطيع بعد ان تراني . فكم يدوم
هذا الفراق ؟ خمسة اعوام ، ستة اعوام ؟ سأجد فناة حقيقية صغيرة
تنظر اليّ مذعورة وتفكر : « أهذا بابا ؟ » وستشعر بالحجل امام
صديقاتها الصغيرات . هذا ايضاً ، قد عشته . حين عاد ابي من الحرب ،
كنت في الثانية عشرة ؛ وكان بعد الظهر قد اكسح الغرمة كلها تقريباً .
بعد الظهر ، الحرب . لا بدّ ان تشبه الحرب بعد ظهر لا نهاية له .
ونفض بلا ضجة ، وفتح النافذة برفق وسحب المصراع البرّاني .

الغرفة ١٩ ، هذه هي . لم تكن تجرؤ على الدخول ، وظلت واقفة
امام الباب ، وحقيبتها في يدها ، وهي تجهد في ائناع نفسها بأنها كانت
تحتفظ ببعض الأمل . ولنفرض انها كانت بالمصادفة غرفة صغيرة جميلة .
مع بساط تحت السرير ، وزهور في قديم ، مثلاً ، على لوحة المغسلة !
ان هذه امور تحدث ، فعالباً ما تلتقي بأشخاص يقولون لك : « في
هذه الباخرة او تلك ، لا حاجة بك الى ان تستأجر درجة ثانية ، فالثالثة

لا تقل فخامة واناقة عن الاولى ، :

وفي تلك اللحظة ، ربما كنت « فرانس » هادئة ، وربما قالت :
« آه ! حسنا ! هذه غرفة ليست كالاخرى . حبذا لو كانت الدرجة
الثالثة هكذا دائما ... » وخيّل الى « مود » انها كانت « فرانس » ،
فرانس مصالحة ، مائعة ، تقول : « اوه ! يمكننا ان نتدبر الامر
هكذا » ولكنها تظل مجلدة ، في اعماق نفسها ، مجلدة وخاضعة ،
وصمعت خطي ، ولم تكن تحب ان تفاجأ وهي تتسكع في الممرات ،
فقد حدثت يوماً سرقة فاستجوبوها بطريقة مزعجة ، حين يكون المرء
فقيراً . فيجب ان يتنبه للأمور الصغيرة ، لأن الناس لا يعرفون الشفقة .
ووجدت نفسها فجأة في وسط الغرفة ، ولم تُصب بالخيبة ، فقد كانت
تتوقع ذلك . ستة أمكنة : ثلاثة أسرة بعضها فوق بعض الى يمينها ،
وثلاثة اخرى الى يسارها : « اجل ... ها نحن ذا ! » ولم يكن ثمة
زهور على المغسلة ، ولا بساط تحت السرير ، فهذا لم تصدقه قط .
ولم يكن ثمة كرسي ، ولا طاولة . وسوف يشعر اربعة اشخاص بالضيق
فيها ، ولكن المغسلة كانت نظيفة . وكانت بها رغبة للبكاء ، ولكن
لم يكن في ذلك فائدة : ما دام الامر متوقفاً . لم تكن فرانس تستطيع
ان تسافر بالدرجة الثالثة ، فذلك هو الواقع الذي ينبغي الانطلاق منه ،
وليس فيه مجال للقاش ، كما انه لا مجال للنقاش بان « روبي » لم
يكن يستطيع السفر بالسكة الحديدية ، وهو يولي ظهره للمحرك . وربما
كان ممكناً ان يميل المرء الى التساؤل لماذا كانت فرانس تصر على قطع
تذاكر في الدرجة الثالثة . ولكن فرانس لم تكن تستحق اي عتاب على
هذه الناحية : كانت تقطع تذاكر في الدرجة الثالثة لانها كانت تملك
حسن التوفير ، ولانها كانت تدير مالية جوقة « باييس » بحكمة ، فنذا
الذي يستطيع اذن يُنحي عليها باللائمة ؟ ووضعت « مود » حقيبتها على
الارض ، وحاولت لحظة ان تثبت جذورها في الغرفة ، وان تتظاهر

بأنها نازلة فيها منذ يومين ، بحيث تبدو لها السرر والنسافة الصغيرة ورؤوس الحلزونات المطية باللون الاصفر والتي تشوك الجدران ، مألوفة حيمة . وتمت في قوة : « انها جيدة جداً ، هذه الغرفة » ثم شعرت بالتعب ، فتناولت حقيبتها وظلت واقفة بين السرر من غير ان تعرف ما يجب ان تفعله ، فاذا بقيت فيجب ان أخرج امتعتي من الحقيبة ، ولكنني لن ابقى بالتأكيد ، واذا رأت فرانس اني بدأت ارتب اقامتي ، وهي تملك روح المناقضة ، فستجد سبباً آخر لتعزم على الذهاب . وكانت تحس نفسها مؤقته في الغرفة ، وفوق هذه الباخرة ، وعلى الارض ، كان الربان طويلاً سمياً ذا شعر ابيض . وارتعشت ، وفكرت : « سنكون مع ذلك في وضع مريح ، نحن الاربعة ، ولكن ليتنا نستطيع ان نظل وحدنا . » غير انها كانت تكفيها نظرة لتفقد هذا الامل : فقد وضع أحدهم امتعته على السرير الايمن : سلة من خيزران مقللة بقضيب صديء وحقيبة من ليف - لا ، بل من ورق مقوى - ذات زوايا مفتحة ، ثم انها سمعت ، زيادة في النحس ، صوتاً خفيفاً ، فرفعت عينيها فرأت امرأة في الثلاثين من عمرها ، ممتعة جداً ، مقروصة المنخرين ، مغمضة العينين ، ممتدة على السرير الاعلى من الجهة اليمنى . اذن ، فقد انتهى الامر . لقد نظر الى ساقها حين كانت تمر على ظهر السفينة ، وكان يدخلن سيكاراً ، وكانت تعرف جيداً هذا النوع من الرجال الذين تنبعث منهم رائحة السيجار وماء الكولونيا : هكذا ، سيأتين غداً ، صاحبات متزينات ، الى سطح الدرجة الثانية ، حين يكون الناس قد أخذوا امكنتهم ، وتعارفوا فيما بينهم واختاروا كراسيهم الطويلة القابلة للطي ، وسيسير روبي باستقامة ، رافعاً رأسه الضاحك الحسير النظر ، يتهادى مؤخره ، بينما تقول دوسيت بصوت ثاقب : « ولكن لا ، تعال يا ذئبي ، ما دام الربان هو الذي يريد ذلك » وسيتابعها بالنظر السادة المحترمون الجالسون على السطح ، وعلى ركبهم اغطية ، سيتابعونها

بمنظر بارد ، وستطوق النساء افكاراً خبيثة لدى مرورهما ، وفي المساء ،
سيلتقيان في الممرات ببعض السادة المفرطين في الود الذين لهم في كل
مكان يد . فاذا بقينا يا إلهي هنا ، بين هذه السرر المصفحة الاربعة
المطوية باللون الاصفر ، كما في وضع طيب ، يا الهي ، وأصبحنا
فيما بيننا .

ودفعت فرانس الباب ، ودخل روببي خلفها : وسألت فرانس
بأقوى صوتها : « ألم يُتزلوا الامتعة ؟ »

فأرأت لها مود بأن تصمت ، وهي تشير الى المريضة . ورفعت
فرانس عينها الكبيرتين الصافيتين للتين لا جفون لها نحو السرير الاعلى ،
وظل وجهها متصلفاً لا تعبير فيه ، على مألوف عاداتها ، ولكن مود
سهمت ان القضية كانت خاسرة . وقالت مود في حماسة :

— لن نكون هنا في وضع سيء جداً ، فالفرقة قائمة في الوسط
بقربياً : والاحساس بالهابل والاهتزاز ادنى من امكنة اخرى .

لم يجب روببي الا بهز كتفيه ، وسألت فرانس بصوت متجرد :

— وكيف تنقسم السرر ؟

— كما تشائين . (وازافت مود) هل تريدن ان آخذ السرير

بالتحتاني ؟

ولم تكن فرانس تستطيع ان تنام اذا كانت تحس شخصاً فوقها ،
فقالت :

— سنرى ، سنرى ...

وكان للريان عيان صافيتان مثلجتان في وجه أحر . وفتح الباب ،
فبرزت سيدة ترندي ثوباً اسود . فتمتت بوضع كلمات وذهبت تجلس
على سريرها ، بين الحقيبة والسلة . وكانت تبدو في الخمسين من عمرها ،
وهي ترندي ثياباً فقيرة جداً فوق جلد مصفر متشقق ، وكانت عيناها
تقبذوان وكأهما خارجتان من رأسها . ونظرت اليها مود وفكرت ..

« انتهى الامر . » وأخرجت أصبع أحمر من محفظتها فأخذت تعيد صبغ شفيتها . ولكن فرانس نظرت اليها من زاوية العين نظرة رضى شديد حتى ان مود احست بالانزعاج فتركت اصبع الاحمر يسقط في محفظتها . وساد صمت طريل لم يكن غريباً على مود : فقد سبق له ان ساد في غرفة شبيهة كل الشبه ، حين كانت في الباخرة « سان جورج » الى طنجه ، وقبل ذلك بعام ، على ظهر « تيوفيل غوتيه » حين ذهب يمثلن على مسرح « البوليتون » في « كورانتيا » . وتعكر الصمت فجأة من جراء خنثى خفيفة غريبة : كانت المرأة ذات الثوب الاسود قد سحبت منديلها ونشرته ثم وضعت على وجهها : كانت تبكي بغير عنف ، ولكن بغير احتراس ايضاً ، كمن يستسلم لأزمة قادمة تدوم طويلاً . وبعد فترة ، فتحت سلتها واخرجت منها قطعة خبز مزبدة ، وقطعة لحم مشوي وزجاجة ترموس ملفوفة بمنشفة . وأخذت تأكل وهي تبكي ، وفتحت الزجاجة فسكبت منها قهوة حارة في الغطاء ، وفيها سمليء ، ودموع كبيرة ملتزمة تسيل على خديها . ونظرت مود الى الغرفة بعينين جديدتين : انها قاعة انتظار ، لا اكثر من قاعة انتظار في محطة صغيرة حزينه من محطات الريف . المهم الا يكون داعراً . ونشقت وارتدت برأسها الى خلف بسبب « الرتل » ، وكانت فرانس تنظر اليها ، من جانب ، برود . وقالت فرانس بصوت مرتفع :

— هذه الغرفة أصغر مما ينبغي ، فلن نرتاح فيها ابداً . كانوا قد وعدوني في كزابلانكا بان نكون وحدنا في غرفة لسته امكة .

كانت المشكلة تبتدىء ، وكان في الجو شيء ينذر بالشؤم ، وقالت مود بصوت منخفض :

— بوسعنا ان ندفع على للتذاكر مبلغاً إضافياً ، فلم نجب فرانس . وكانت قد جلست على السرير الايسر وبدأت بوكأها تفكر . وبعد لحظة ، أشرق وجهها وقالت بمرح :

— اذا اقترحنا على الربان ان نقدم حفلة مجانية في قاعات الدرجة الاولى ، فربما وافق على نقل امتعتنا الى غرفة افضل ؟
فلم يجب مود : كان على روبي ان يجيب . وقد روبي بحموية :
— فكرة ممتازة .

فارتعشت مود فجأة ، وشعرت بالاشمزاز من نفسها . والتفتت الى فرانس وقالت بصوت مبتهل :
— هيا يا فرانس ! انت رئيسة فرقنا ، وعليك انت ان تذهبي لرؤية الربان .

فقالت فرانس في دعابة :

— كلا يا عزيزتي .. فاذا تأملين من امرأة مسنة مثلي اذا ذهبت لترى الربان ؟ سيكون او فر لطفاً مع غندورة صغيرة في مثل عمرك .
رجل طويل أحر الوجه ذو شعر ابيض وهينين رماديتين . ولا بد انه نظيف الى حد بعيد من الدقة ، فقد كان يبدو كذلك دائماً .
ومدت فرانس ذراعها وضغطت على زر الجرس وقالت :

— الافضل ان ننهي المسألة على الفور .

وكانت المرأة ذات الثوب الاسود ما تزال تبكي . ورفعت رأسها فجأة وبدت كأنها تلاحظ وجودهم ، ثم سألت في قلق :
— أتراكم متغيرون غرفتكم ؟

فنظرت اليها فرانس نظرة مثلجة : وأجابت مود بحموية :

— ان معنا أمتعة كثيرة يا سيدتي . فسوف يضيق بنا المكان وسوف نزعجك .

قالت السيدة : — انكم لا تزعجونني : فانا احب الرقعة .

وطرق الباب فدخل الخادم ، وفكرت مود «انتهى الامر» وأخرجت اصبع الاحمر وعلبة الابيض ، فاقتربت من المرأة وأخذت تتزين باهتمام

وقالت فرانس :

— هل لك ان تسأل الربان اذا كانت لديه دقيقة ليستقبل الآسة
مود اسيني من جوقة « بايس » .
فقال — كلا ، كلا . اراهنك ان لا .

أرائك الخيزران ، ظل شجر الدلب . كان دانيال يستحم في
ذكريات قديمة ضجرة ؛ في فيشي ، عام ١٩٢٠ ، كان غافياً في اريكة
من خيزران ، تحت اشجار الحديقة الكبيرة ، وكانت على شفثيه بسمة
المجاملة نفسها ، وكانت امه تسرد بالقرب منه ، وكانت مارسيل تسرد
بالقرب منه جوارب للصغير ، وكانت تحمل احلاماً حول الحرب : فكان
نظرها غائماً شاردأ . الطنين الابدئي للذبابة الضخمة ، كم انقضى مع
الوقت منذ ايام فيشي وهذه الذبابة ما تنفك تطن، وتنبعث رائحة النعنع ،
وخلفهم ، كان في صالون الفندق من يوقع على البيانو ، منذ عشرين
عاماً ، منذ مئة عام . بعض اشعة الشمس على الاصابع ، تجعد زغب
السلاميات ، وكانت بعض اشعة الشمس تسخن ، في قعر الفنجان
الفارغ ، مستنقع قهوة وصخرة سكر سمراء دقيقة ذات الف رأس
ملتمع . ومسحق دانيال قطعة السكر ، بدافع من رغبة شرسة لانه يحس
تحت ملعقته هذا الانهيار للرمل وهو يصير . وكانت الحديقة تتداعى
للانحدار برفق نحو النهر ، والماء فاتر بطيء ، ورائحة النبات مسخنة ،
ومجلة « لاريفو دي دوموند » قد تركها السيد دولسيتراغ ، الكولونيل
المتقاعد ، على طاولة تقوم في الناحية الاخرى من الدرج . الموت ،
الخلود ، لن نفلت منه ، الخلود العذب الناعم ، الاوراق الخضرة الدبقة ،
فوق الرؤوس ؛ النلة الصغيرة الخالدة للاوراق الاولى الميتة . وكان اميل ،
الحي الوحيد ، يقلب الارض تحت شجر الكستناء . كان ابن اصحاب
الملك ، وكان قد رمى بالقرب منه ، على حافة الحفرة ، كيساً من
الكتان الرمادي . وكان في الكيس « زيزي » الكلبة الميتة : كان اميل

مخفر لها قبرها ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من القش ، وكان العرق
يلتصق على ظهره العاري . كان في صغراً متوحشاً ذا وجه فظ ، هو
صخرة مع شقين افقيين مزبدين بسدلاً من العينين ، وكان في السابعة
هشرة . وكان قد بدأ يرفع تنانير الفتيات ، وكان بطلاً محلياً في لعبة
البليار ، وكان يدخن السيكار : ولكنه كان يملك هذا الجسم اللذيذ
الذي لا يستحقه .

قالت مارسيل :

— آه ، ليني اجرو على تصديتك ..

طبعاً . طبعاً لم تكن تجرو على ان تصدقه . ومع ذلك ، فما عسى
ان يؤثر فيها ، تلك ، ان تقع الحرب ؟ انها تزد سماً في ثقب ما
من الريف . أنراها لن تهرب ؟ وسوف نفوت ساعة الفيلواة . كن
بضمط قدمه على القلب ويثقل بكل قواه . ما اشهى ان ترضع اليدان
بعذوبة على الجنين ، وان تصعدا . وهما تضغطان قليلاً ، كما ينهل
المدلل ، فيما هو يقلب الارض ، وان تلامسا العضلات الظهرية في
الذهاب والاياب ، وان تغمسا أطراف الاصابع في ظل الإبطين الرطب .
ان عرقه يشبه رائحة الصعتر . وشرب جرعة من عصير الفاكهة .

قالت مارسيل :

— مستمع أشياء جميلة جداً : وها هي النعثة في باديء الأمر .

— ولكن كيف يمكن لك يا عزيزتي مارسيل ، ان تنخدعي بذلك ؟
ان « الهوم فليت » ستقوم برحلتها الصغيرة في بحر الشمال ، وسيجند
متتا الف رجل في فرنسا ، وسيحشد هتلر اربع فرق مصفحة على
الحدود التشيكية ، وبعد ذلك تقرأ عيون هؤلاء السادة ، ويسمعهم ان
يتحدثوا بهدوء حول طاولة .

أجساد النساء ، يمكن الإمساك بها . مطاط ، لحم متزوع عظمه ،
تمتليء منه يداك باكثر مما تود . اما ذلك الجسم ، فقد كان ينادي

أصابع نحات تلامسه ، وبينغي اتخاذه نموذجاً للنحت . واستقام دانيال
فجأة في اريكته ، وأدار نحو مارسيل عينين ملتصعين . هذا لا يُعمل ،
فذلك دعارة ، وأنا لم اباغ بعد منها . اني أشرب قلدح عصير ،
واتحدث بجد عن الحرب الآتية ، وفي هذه الاثناء يلامس النظر ، في
غير ما اكتراث ، ظهراً فتياً عارياً ، ردفاً مشربياً بعض الشيء ،
ويتطفل على جميع الحظوظ التي يمنحها أصيل يوم صيفي . فلتأت
الحرب ، لتأت إذن ، كي تقهر عيني وتغرقها في محجريها ، لتكشف
لهم اخيراً عن اجسام ملطخة ، دامية ، مقطعة ، لتزعني من الابدني ،
من الشهوات الابدية الصغيرة المائعة ، من البسات ، من ظلال الاوراق ،
من طنين الذباب ، نبع من نار يصعد الى السماء ، لهب يحرق الوجه
والعينين ، حتى ليحسب المرء ان خديه يُتزعان ، لتأت اخيراً اللحظة
التي ليس لها من اسم ولا تذكر بشيء .

وقلت مارسيل في تسامح لطيف ، ولم تكن تقدر قط كفاءتها
السياسية :

- ولكن لنفكر : ان المانيا لا تستطيع ان تراجع ، أليس كذلك؟
وقد وصلنا نحن الى حد التنازلات ، فاذا بعد ؟

فقال دانيال بمرارة : - لا تخافي ، سنقدم على جميع التنازلات
الواجبة ، فليس هناك من حد . ثم ان المانيا يمكنها ان تسمح لنفسها
بترف التراجع ، فن ذا الذي يجرؤ على ان يسمي ذلك تراجعاً ؟ سيقال
انه كرم وتسامح .

كان اميل قد نهض ، وكان يمسح جبينه بظاهر يده ، وكان إبطه
يلتهب تحت الشمس وكان ينظر الى السماء باسماء ، كأنه رب رب فتي !
وجرح دانيال ذراع اريكته بظفره : كم مرة ، يا الهي ، كم مرة يا
إلهي قال : رب فتي ، وهو يتأمل مراهقاً في الشمس . كلمات تكتمها
عمة عجوز في صدرها ، اني لوطني ، كان يقولها ، وكانت ما تزال

كلمات ، فلم تكن لتمسه ، وفكر فجأة : ماذا تستطيع الحرب ان تغير في ذلك ؟ سيكون هنا ، جالساً على حافة منحدر ، في فترة هدأة موقنة ، وسينظر في شروذ الى ظهر عار لجندي يقلب الارض او يبحث عن قلبه ، فتمتم شفناه من تلقاء نفسها ، وهما ممطوطان : رب فني ؟ ان الجميع يثورون في كل مكان .

وقال فجأة : - ثم اننا قاثمون هنا نقلق انفسنا . وحين تبدأ الحرب ؟ أتصور أننا ينبغي ان نعيش كل اسبوع باسبوعه آنذاك .

قالت مارسيل وقد بدا عليها مثل الذعر :

- اوه ! دانيال ... كيف يمكنك ان تقول ذلك ؟ سيكون الوضع ... مريعاً .
كلمات . دائماً . كلمات .

وقال دانيال وهو يبتسم : - إن ما هو مريع ، أن ليس هناك قط ما هو مريع حقاً . ليس ثمة درجات قصوى .

ونظرت اليه مارسيل في شيء من الدهشة ، وكانت عيناها كاييتين متوردتين : كان النعاس يستولي عليها ، هذا ما فكر به دانيال في رضى ، - لو قلت لي ان هذه آلام نفسية ، لفهمت . ولكن هناك الاماً جسدية يا دانيال ..

قال دانيال وهو يهددها باصبعه :

- آه ! لقد بدأت منذ الان تفكرين بالامك القادمة : حسناً ، سترين ! سترين ! انا اتصور ان هذا ايضاً مغالى به جداً .

فابتسمت له مارسيل وهي تخنق تناؤبه . وقال دانيال وهو ينهض :
- هيا ، المهم الا تعذبني نفسك يا مارسيل : انظري ، ها انت ، من اجل لا شيء ، تفوتين عليك ساعة القيلولة : انك لا تنامين نوماً كافياً ؛ وعلى من كان في وضعك ان ينام كثيراً .

فقالت مارسيل وهي تتأعب وتضحك معاً :

— أنا لا انا نوماً كافياً ؟ على العكس ، اني خجلة لاني لا اقرأ
بعد شيئاً ، وانما اقضي النهار فوق سريري .
ففكر دانيال : « من حسن الحظ » وهو يقبل طرف اصابعها وقال :
— أراهن أنك لم تكتبني للسيدة امك .
قالت :

— هذا صحيح . اني ابنة رديئة (وتشاءت وأضافت) سأفعل
ذلك قبل ان انام .

فقال دانيال بحموية :

— لا ، لا . استريحني على الفور ، فانا الذي سأرسل لها كلمة .
قالت مارسيل متأثرة مفتونة :

— اوه ! يا دانيال : كلمة من صهرها ، كم ستكون فخورا !
ورقبت الدرج وهي تنهادي ، فعاد يجلس في اريكته . وتشاءت ،
وسال الزمن ، ثم لاحظ انه كان يستمع الى البيانو . ونظر الى ساعته :
كانت الساعة الثالثة والخامسة والعشرين ، وسوف تهبط مارسيل في
الساعة السادسة لتقوم بنزعتها المشهية للاكل . وقال لنفسه في شيء
من الخوف المبهم : ان امامي ساعتين ونصفاً . فيما مضى كانت وحدته
كالهواء الذي يتنفسه الانسان ، وكان ينعم بها من غير ان يراها .
اما الآن ، فإنه يُعطاهما اطرافاً صغيرة لاهنة ، ولا يعرف بعد ما عساه
يفعل بها . غير ان اعجب ما في الامر ، ان ضجري يخف بالاحرى
حين تكون مارسيل حاضرة . وقال في نفسه : لقد اردت ذلك ،
لقد اردته ! وكان ما يزال في كأسه بعض شراب العصير فشربه .
حين قرر ذلك المساء من حزيران ان يتزوجها ، كان يخفق من الضيق ،
وكان يحسب انه يغرق في الهول . حدث ذلك كله لينتهي الى ما انتهى
اليه هنا ، في اريكة الخيزران ، الى مذاق العصير يفسد رويداً رويداً
في فمه ، والى هذا الظهر العاري ، وسيكون الشأن في الحرب شبيهاً ،

ان الهول مرصود دائماً لليوم التالي . انا المتزوج ، انا الجندي : اني
 لا اجد سواي . حتى ولا انا : وانما سلسلة من الجري العجيب ، من
 الحركات الصغيرة المبعدة عن المركز ولا مركز . ومع ذلك فهناك
 مركز : هو انا ، انا - والهول هو للوسط . ورفع رأسه ، وكانت
 الذبابة تظن على مستوى عينيه ، فطردها . فرار آخر . حركة صغيرة
 من يده ، لا شيء تقريباً ، ومع ذلك كن يفر ، ماذا تهمني هذه الذبابة ؟
 ليتني اكون من حجر ، جامداً ، لا احس ، بلا حركة ، ولا ضجة ،
 أعمى اصم ، والذباب وابو المقص والدعوق تصعد على جسمي وتهبط ، ثملاً
 فطاً ذا عينين بيضاوين ، بلا هدف ولا هم ، فربما نجحت في ان انطبق
 مع نفسي . ليس ذلك من اجل ان اقبل نفسي ، كلا ، وانما من اجل
 ان اكون اخيراً موضوع كرمي بالذات . وحدث تمزق ، اربع انغام
 من احدى معزوفات البولونيز ، وبرق هذا الظهر ، هناك ، وتمثل
 في ريلة الالهام ، ثم اشبه نفسه من جديد . ليتني اكون ما انا ، اكون
 لوطياً ، شريراً ، جباناً ، اكون اخيراً هذا القدر الذي لا يبلغ حتى
 ان يوجد . وقرب ما بين ركبتيه ، ووضع باطن يديه على فخذه ،
 واخذته الرغبة في ان يضحك : لا بد ان هيئي هيئة عاقلة ، وهز
 كتفه : ابله ! ليتني أكف عن الاهتمام بهيئي ، وعن النظر الى نفسي
 خصوصاً ، فأنا اذن حين انظر الى نفسي . ليتني اوجد . في الظلام
 اتفاقاً . وأكون لوطياً ، كما تكون السنديانة سنديانة . وانظفيء . وأظفيء
 للنظر الداخلي . وفكر « أظفيء » ، وانفجرت الكلمة كالرعد وانتشرت
 اصداؤها في قاعات فارغة هائلة . ليت بالامكان طرد الكلمات ، فهي
 تفرخ طائفة من وقف التنفيذ ، وكان كل منها يعطيه موعداً في نهاية
 نفسه ... وحدث تمزق جديد ، فوجد دانيال نفسه وسنان ضجرأ ،
 شخصاً ليس امامه الا ساعتان ، وهو يتلوى كما يطيق . ليتني اكون كما
 يروني ، كما يراني ماتيو - ورالف برأسه الصغير القدر ، واطرد

الكلمات كما اطردها الرغش . واخذ يعد في ذهنه : واحد ، اثنان ، وجاءته كلمات : تسلية مصطاف . ولكنه عد بأسرع من ذي قبل ، وقرب حنقات السلسلة فمعجزت الكلمات عن المرور . خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية . الاعماق البحرية ، كانت هناك صورة متلبدة ، قبيحة ، تألفها تلك الاعماق السفلى ، عنكبوت بحري ، وكانت تفتح ، اثنان وعشرون ثلاثة وعشرون ، ولاحظ دانيال انه كان يحبس نفسه ، فحرره ، سبعة وعشرون ، ثمانية وعشرون ، وكان ذلك ما يزال يقلب الارض ، هناك على صفحة الماء : الصورة كانت جرحاً مفتوحاً ، فما مرأ ، وكانت تنزف ، انها انا ، انا الشفتان المفترتان ، والسدم الذي يقرقر بين الشفتين ، ثلاثة وثلاثون ، وكانت الصورة مألوفة لديه ، ومع ذلك فهو يكوها للمرة الاولى . لا بد من طرد الصور ايضاً ، كان مأخوذاً بخوف خفيف غريب . ليتني استطعت ان انسرب ، ان أنداعى للانسرب كما يحدث حين بود المرء ان ينام . ولكي سأنام ! ونقض نفسه ، وهام على السطح . اي سكوت في الخارج ، هذا السكوت الساحق ، نصف الميت ، الذي كان يبحث عنه عتياً في نفسه ، كان هناك في الخارج ، وكان يبعث على الخوف . وكانت الشمس المتناثرة تغطي الارض بدوائر متحركة صفراء ، الكلبة الميتة ، ضجة النهر هذه على رؤوس الشجر ، الظهر العاري ، القريب جداً ، البعيد جداً ، وكان يشعر انه غريب عن نفسه غرابة مربعة حتى انه ترك نفسه يمضي من جديد ، ويسيل الى خلف ، وما هوذا الان يرى الحديقة من تحت ، كغاطس يرفع رأسه وينظر الى السماء عبر الماء . لا ضجة ، لا صوت ، أي صمت حوله ، فوقه ، تحته ، وهو وحده ثقب صغير ثرثار وسط هذا الصمت . واحد ، اثنان ثلاثة ، لا بد من طرد الكلمة ، وليعبر صمت الحديقة . ولينضم وليتوحد بحري ، حتى يساوي نفسه . وليسحق كل عمود هوائي رويداً وبعثق ، الكلمات التي تحاول ان تولد ، يسحقها على غرار المكبس ، ليتني

اكون كالشجرة ، كالظهر العاري ، كالدوائر الهلالية المرتعشة فوق
 الارض الوردية . حبذا لو اغمض عيني : فن العيون تنفذ الى ابعد مما
 ينبغي ، خارج اللحظة ، خارج نفسي ، فتحط هناك على الورق ، على
 هذا الظهر : ان النظر المطارد ، الهارب ، المنسرب ، المنتهي في نهاية
 نفسه ابدأ ، يجس من بعيد . ولكنه لم يجرؤ على اغماض جفنيه : فلا
 بد ان اميل كان ينظر اليه من تحت ، بين الفينة والفينة ، فاذا فعل ،
 فسوف يظهر بهيئة سيد مسن اخذه النعاس الهضمي ، فالافضل ان يركز
 نفسه على شيء ، وان يعطي عجيته للنظر ، فيضبطه ويغذيه وينسرب
 في داخله ذاته ، متحرراً من العيون ، في لبلي الكثيف ، وحدق في
 حاشية الحديقة ، الى الشمال ، فاذا هي حركة كبيرة خضراء مسمرة :
 موجة مجمدة في اللحظة التي تنتثر فيها ، والنظر الشارد ، المرتد بلا
 انقطاع من ورقة الى اخرى . كان يذيب نفسه في هذه البرقشة النباتية ،
 واحد « شهيق » اثنان « زفير » ثلاثة « شهيق » اربعة « زفير » .
 وكان يهبط وهو يستدير ، والتقى في الطريق برغبة ناغلة بالضحك ،
 اني اقوم بدور الدرويش ، شريطة الا ابتلع لساني ، وكان قد اصبح
 فوقه ، وكان يتوغل فيلتقي بكلمات في اسمال : خوف ، تحد ، كانت
 تصعد من جديد الى السطح . تحد نحو السماء الصافية ، يفكر فيه من
 غير صورة ، ولا كلام . وهو يأتي منفتحاً كقم ميزاب . وتحت الشفق ،
 طلب مر ، ابتهاج غير مجد . ايلي ، ايلي ، لاما ساباشستاني ، تلك
 كانت آخر الكلمات التي التقى بها ، وكانت تصعد كفقاعات خفيفة ،
 وكانت تلاوين حاشية الحديقة الخضراء هناك ، غير مرئية ولا مسماة ،
 امتلاء حضور ازاء عينيه ، يجيء ويستمر في المجيء . وشقه ذلك كالمنجل
 وكان عجبياً ، موثسا ، لذيذاً . مفتوح ، مفتوح ، القشرة تنفجر ،
 مفتوح ، مفتوح ، ممثلي ، انا نفسي للابد ، لوطني ، شرير ، جبان .
 انهم يرونني ، لا، حتى هذا لا : وانما ذلك يراني . كان موضوع نظر .

نظر كان يعيِّث فيه حتى الاعماق ، ينفذ اليه كضربات سكين ، ولم يكن نظره . نظر كثيف ، هو الليل بذاته ، ينتظره هناك ، في اعماق نفسه ويحكم عليه بأن يكون هو نفسه ، جباناً ، منافقاً ، لوطياً الى الأبد. هو نفسه ، خافقاً تحت هذا النظر ومتحدياً هذا النظر . النظر . الليل . كما لو ان الليل كان نظراً . انني مرثي . شفاف ، شفاف ، مخترق . ولكن من قبل من ؟ قال دانيال بصوت مرتفع : لست وحدي . فاستبام اميل . وسأل :

— ماذا هناك ، ياسيد سيرينو ؟

فقال دانيال — كنت اسألك عما اذا اوشكت ان تنتهي .

فقال اميل — اكاد انتهي : بعد دقيقتين .

ولم يكن يتعجل العودة الى قلب الارض ، بل كان ينظر الى دانيال في فضول وقح . ولكن ذلك كان نظراً انسانياً . نظراً كان من الممكن النظر اليه . ونهض دانيال ، وكان يرتعش خوفاً :

X — الا يرهقك ان تعمل في وضوح الشمس ؟
فقال اميل — لقد اعتدت .

وكان له صدر جذاب ، ممتلىء بعض الشيء ، ذو نقطتين صغيرتين وورديتين ، وكان يستند على مقلبه بهيئة اثاره ، في ثلاث خطوات ... ولكن كان ثمة ذلك التلذذ الغريب الذي كان أعنف من جميع الشهوات ، كان هناك ذلك النظر . وقال دانيال :

— إن الحر اثقل من ان اطيقه . واظن اني صاعد لارتاح لحظة . وحنى رأسه قليلاً ورتي الدرج . كان فمه جافاً ، ولكنه كان مصمماً : ففي غرفته ، بعد اسدال الستائر ، واغلاق المصاريع ، سيعيد التجربة .

الساعة ١٧،١٥ في سان فلور ، كانت السيدة هانوكين تصطحب زوجها الى المحطة ، وكانا قد سلكا الطريق الشديدة الوعورة . وكان

السيد هانوكين يرتدي بذلته الرياضية ويحمل مزماره على جنبه ، وقد
انتعل حذاء جديداً كانت فرجة تجرحه . وفي منتصف الطريق ، التقيا
بالسيدة كالفيه التي كانت واقفة بالقرب من بيت كاتب العدل لتلهث
قليلاً . وقالت حين لمحتهما :

— آه ! يا للساقين المسكيتين ! انني اصبح امرأة عجوزاً .
قالت السيدة هانوكين : — بل انت انصر من اي وقت آخر ؟
انني لا اعرف كثيرين يسلكون الطريق الوعرة من غير ان يستردوا
انفاسهم .

وسألت السيدة كالفيه : — والى اين تراكما تركضان هكذا ؟
قالت السيدة هانوكين : — آه يا عزيزتي جان : انني اصحب زوجي ،
فهو ذاهب : لقد استدعاه الجيش .

فقالت السيدة كالفيه — غير ممكن . انني لم اكن اعرف هذا ! إذن
اذن (وخيل الى السيد هانوكين انها كانت تنظر اليه باهتمام خاص)
لا بد أن يكون امرأ قاسياً ان تذهب في مثل هذا اليوم الجميل ،
قال السيد هانوكين : — من يدري ! لا بأس !

وقالت السيدة هانوكين : — انه شجاع جداً .
قالت السيدة كالفيه وهي تبتسم للسيدة هانوكين :
— من حسن الحظ ، هذا ما كنت اقوله امس لزوجي : سيذهب
الفرنسيون جميعاً بشجاعة .

واستشعر السيد هانوكين الفتوة والشجاعة ، وقال :
— اعذرينا ، لقد آن لنا ان نذهب .

فقالت السيدة كالفيه : — اذن الى اللقاء القريب .
قالت السيدة هانوكين وهي تهز رأسها : — آه الى اللقاء القريب .
فقال السيد هانوكين بقوة : — بلى الى اللقاء القريب ! الى اللقاء
القريب !

واستعدادا سيرهما ، وكان السيد هانوكين يمشي بخطوة حية ،
فقلت له السيدة هانوكين : - مهلاً يا فرانسوا ، فأني لا أستطيع
ان أتبعك ، بسبب قلبي .
والتقيا الماري التي كان ابنها يؤدي الخدمة للعسكرية : فصاح بها السيد
هانوكين :

- اليس لديك ما تريدان ان تقويه لابنك ، ايها الماري ؟ فرمعا
التفتت به ، انني اعود جندياً :

فبدت الماري مبهوتة ، وقالت وهي تضم يديها :
- يا يسوع !

فبعث لها السيد هانوكين باشارة خفيفة ودخلا المحطة :

وكان شارلو هو الذي يتقب التذاكر ، فسأل :

- واذن ياسيد هانوكين ، انه اليوم بوم الكبير ، هذه المرة ؟

فأجابه السيد هانوكين وهو يبسط له التذكرة :

- بل هو الزيمبادابوم ، ورومبا الحب .

وكان كاتب العدل ، السيد بينو ، على المحطة ، فصاح بهما :

من بعيد :

- اذن انت ذاهب للقصف في باريس ؟

فقال السيد هانوكين - نعم ! او لألقي القنابل في نانسي (واضاف -

باقتضاب) : لقد استدعيت .

قال كاتب العدل : - هكذا اذن ! هكذا اذن ! ولكن قل لي :

هل لديك الكراسي رقم ٢ ؟

-اجل

قال : - هيا ، مستعود الينا عما قريب ، فهذا كله شيء مصطنع .

فاجاب السيد هانوكين بحفاء :

- لا اعتقد هذا . فعندك في الدبلوماسية ، كما تعلم ، من تلك

وصمتا . وكان يبسم لها ، وكانت تنظر اليه وهي تبسم وتبكي قليلاً ، ولم يبق لديها شيء يقولانه . وكان السيد هانوكين يتمنى لو ينطلق القطار بأسرع ما يمكن .

الساعة السابعة عشرة والدقيقة الثانية والخمسون في « نيور » . عقرب الساعة الكبير يتحرك في رعشات كل دقيقة وينوس قليلاً ثم يقف . القطار اسود ، المحطة سوداء : السناج . لقد حرصت على المجيء . بدافع الواجب . وقد قلت لها : « لا حاجة بك الى المجيء ، فنظرت اليّ نظرة مدهوشة : « ولكن كيف يا جورج ؟ ان هذا غير معقول » فقلت لها : « لا تبقي اطول مما ينبغي . انك لا تستطيعين ان تركي الصغيرة وحدها . » قالت : « سأطلب من الأم كورنو ان تسهر عليها : ساضعك في القطار ، ثم اعود . » وهي الآن هنا ، أنحنى عند نافذة حافتي وانظر اليها . ان بني رغبة للتدخين ، ولكني لا اجروء ، وافكر بأن ذلك لن يكون محتشماً . وهي تنظر الى نهاية الرصيف ، حامية بيدها عينيها ، بسبب الشمس ، ثم تذكر بين الفينة والفينة أنني هنا ، وأن عليها ان تنظر اليّ . وترفع رأسها وتضع عينيها عليّ ، وتبسم لي ، وليس لديها ما تقوله لي . والحق اني كنت قد ذهبت :
- وسائل ، أغطية ، برتقال ، عصير ، سندويش :

- جورج ؟

- حبيبي ؟

- هل تريد برتقالاً ؟

ان قربة مزماري مليئة حتى لتنفجر . ولكنها راغبة في أن تعطيني شيئاً . لأنني ذاهب . فاذا رفضت ، انتابها الندم . انني لا احب البرتقال :

- لا ، شكراً

- اوه ، لا ؟

— حقاً لا . انت لطيفة جداً .

بسمه ممتعة . لقد قبلت منذ لحظة هاتين الوجنتين الباردتين الريانتين ،
وزاوية هذه البسمة . وقد قبلتني ، فشعرت من ذلك ببعض الججل :
لم هذه القصص كلها ؟ الأنني ذاهب يا إلهي ؟ هناك كثيرون ذاهبون ،
صحيح ان هناك من يقبلهم أيضاً . فما أكثر النساء الجميلات الواقفات
هكذا ، عند الشمس الغاربة ، في الدخان والسناج ، رافعات بسمة
مصبوغة نحو رجلٍ منحني عند نافذة حافله ! ثم ماذا ؟ لنسأ نحن ،
لا بد ان نبدو مضحكين بعض الشيء : فهي جميلة أكثر مما ينبغي ،
باردة أكثر مما ينبغي ، وانا قبيح أكثر مما ينبغي .

وقالت ، وكانت قد قالتها ، ولكن لا بد من ملء الوقت :
« اكتب لي ، ما استطعت الى ذلك . لا حاجة الى ان تكون الرسائل
طويلة جداً .. »

لن تكون طويلة . فلن يكون عندي ما أقوله ، ولن يحدث لي شيء ،
ذلك أنه لا يحدث لي شيء قط . ثم اني سبق ان رأيتها تقرأ الرسائل ،
بهبتها الجادة ، المهتمة ، المضجرة ؛ انها تضع نظارتها على طرف
أنفها ، وتقرأ بصوت منخفض ، لنفسها ، وتجد وسيلة لتقفز بعض
الأسطر .

— اذن سأقول لك يا حبيبي المسكين الى اللقاء . حاول ان تنام
قليلاً ، هذه الليلة .

أجل ، يجب ان يُقال شيء ما . ولكنها تعلم اني لا انام ابداً في
القطار . وهي سوف تردّد ذلك بعد حين للأم كورنو : « لقد ذهب .
كان القطار غاصاً . يا لجورج المسكين ، ارجو مع ذلك ان يستطيع
النوم » .

انها تنظر حولها ، نظرة شقية ؛ وقبعتها القشبية الكبيرة تتحرك على
رأسها . وتوقف بالقرب منها شاب وامرأة شابة .

- يجب ان اذهب ، من اجل الصغيرة (تقول هذا بصوت مرتفع بعض الشيء ، بسببها . انها مهيبان لأنها جميلان ، ولكنها لا يتبهان لها) .

- طبعاً يا عزيزتي . الى اللقاء . عودي بسرعة . سأكتب فور تمكثي من ذلك .

دمعة صغيرة ، مع ذلك . لماذا ، يا إلهي ، لماذا ؟ انها تتردد . ولنفرض انها فجأة تمدّ لي ذراعها ، وتقول لي : « ان هذا كله ليس الا سوء تفاهم . اني احبك ، احبك ! »

- حذار من البرد .

- نعم . نعم . الى اللقاء .

ومضت . ايامة يسيرة من يدها ، وها هي تمضي ، رويداً ، وهي تؤرجح قليلاً ردفها الجميل الصلب ، الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة والخمسون . ليس لدي بعد رغبة في التدخين . وظل الشاب والشابة على رصيف المحطة . اني انظر اليها ، انه يحمل مزماراً بقربة ، وقد تحدثنا عن نانسي : فهو ايضاً من المجندين . انها لا يقولان بعد شيئاً ، وانما يتبادلان النظر . وانا انظر الى يديها ، يديها الجميلتين اللتين لا تحملان خاتماً . المرأة ممتعة ، فارعة دقيقة ، ذات شعر أسود متشعث ؛ اما هو فطويل أشقر ، ذو بشرة مذهبة ، وذراعاها العاريتان تخرجان من قبص حريري ازرق . واصطفقت الابواب وهما لا يسمعاها ؛ بل لقد كفتا عن تبادل النظر ، لم تبق لهما حاجة الى تبادل النظر ، انها معاً من الداخل .

- الى السيارة نحو باريس ؟

وترتعث من غير ان تقول شيئاً : ولا يقبلها هو ، وإنما يحبس في يديه الذراعين الجميلتين العاريتين ، على مستوى الكتفين ؛ ثم يهبط بيديه رويداً على طولها ويقف لدى المعصمين ؛ معصمان هزيلان واهنان . ويبدو

انه يشدهما بكل قواه . وتداعه هي يفعل ، وذراعاها متدلّيتان بسكون ،
ووجهها مستنيم .

- الى السيارة :-

وينطلق القطار ، فيقفز الى العتبة ، ويظلّ هنا مشتبهاً بقضبان النحاس .
وتلفتت هي اليه ، فتبيّض الشمس وجهها ، وتغمز بعينيها وتبتسم .
انها بسمة عريضة حارة ، واثقة جداً ، هادئة جداً ، رقيقة جداً :
حتى انه لا يمكن لرجل مها بلغ من الجلال والقوة ان يحمل نفسه وحده
بسمة مثل هذه . انها لا تراني ، وهي لا ترى غيره ، وتطرف بعينيها ،
وتقاتل الشمس لتراه لحظة اخرى . وانا ابتسم لها ، ابادها بسمتها .
الساعة الثامنة عشرة . غادر القطار المحطة ، وهو داخل في الشمس ،
فجميع واجهاته تلتع . وقد ظلت على المحطة ، صغيرة غامضة . هناك
مناديل يُلوّح بها حولها . وهي لا تتحرك ولا تلوّح بمنديل ، وتندلى
ذراعاها على طول جسمها ، ولكنها تبتسم ، وكأنها تستنفذ نفسها
بالابتسام . وهي ما نفي الآن تبتسم ، من غير شك ، ولكن بسمتها لا
ترى بعد . وانما هي التي تُرى . انها هنا من اجله ، من أجل جميع
الذين يذهبون ، من أجلي انا . ان زوجتي في بيتنا الهاديء ، جالسة
بالقرب من الصغيرة ، والصمت والسلام يتشكلان حولها من جديد . اما
انا ، جورج المسكين ، فذاهب ، لقد ذهب ، وارجو ان يستطيع
النوم . انني اذهب ، اهرب من الشمس وابتسم بكل قواي لشكل صغير
مظلم ظلّ على رصيف المحطة .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق . كان « بيتو » يذرع الطريق في
شارع « كاسيت » ، فقد كان لديه موعد في الثامنة عشرة ، ونظر
الى ساعة يده ، الساعة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة ، سأصعد بعد
خمس دقائق . وعلى بعد خمسمئة وثمانين كيلومتراً جنوب غرب باريس ،
كان جورج مرتفعاً قضيب الاستناد ؛ يدلّف بين المراعي ، وينظر الى

اعمدة التلغراف ، ويعرق ويبتسم ، وكان بيتو يقول لنفسه : « اية
 حماقة يمكن لهذا المزعج ان يكون قد ارتكبها بعد ؟ » وانتابته رغبة
 عنيفة بأن يصعد ويدق ويصيح : « ما الذي فعله بعد ؟ انا لا دخل
 لي في الأمر » : ولكنه قسر نفسه على ان يستدير ، سأذهب حتى ذلك
 المصباح ، هناك ، ومشى ، المهمّ ألا يبدو بمظهر المستعجل ، بل كان
 يأخذ على نفسه مبدءاً المجيء . وكان عليه ان يجيب ، على ورق معنون ،
 اذا كنت ترغبين يا سيدتي في التحدث اليّ ، فانا في مكثبي كل يوم
 من العاشرة حتى الظهر : وأولى المصباح ظهره ، وحثّ خطاه ، بالرغم
 منه : باريس : خمسمئة وعشرة كيلومترات ، ومسح جورج جيبينه ،
 وكان ينحدر نحو باريس ، كالسرطان ، وكان « بيتو » يفكر : انها
 قضية قدرة ، وكان يعلو تقريباً ، وخلفه القطار ، واستدار في شارع
 « رين » ودخل البناية رقم واحد وسبعين وصعد الى الطابق الثالث
 ودق الجرس ، وعلى بعد ستمئة وثمانية وثلاثين كيلومتراً في باريس ،
 كان هانوكين ينظر الى ساقى جارته ، وكانتا ساقين كبيرتين بارزتي
 الربلات في جوربين حريريين مزغبرين بعض الشيء ؛ وكان بيتو قد
 دق الجرس ، وكان ينتظر على الدرج وهو يمسح جيبينه ، وكان جورج
 يمسح جيبينه ، في ضجيج الشاحنات ، اية حماقة عساه قد ارتكب ،
 فتلك حكاية قدرة ، وكان بيتو يشقّ عليه ان يلتهم ، وكانت معدته
 خصوصاً مبهمة مفرقة ، ولكنه كان يقف باستقامة ، ورأسه مرفوع
 بصلاية ، وهو يتفخ منخريه قليلاً ، وكان يمسح شفتيه ذلك المطّ
 المريع ، وانفتح الباب ، ودلف قطار هانوكين الى نفق ، ودلف بيتو
 الى ظلام رطب كانت تنبعث منه رائحة الغبار ، وقالت له الخادمة :
 « تفضّل بالدخول » فاذا بامرأة بضّة معطرة ، ذراعها عاريتان
 رخوتان ، رخاوة البشرات الاربعينية اللذيذة النضرة ، ووسط شعرها
 الاسود خصلة بيضاء ، تهرع اليه فيشتم رائحتها الناضجة :

– اين هو ؟

وانحنى ، كانت قد بكت . وفكّت جارة هانوكين ساقها المشابكتين ،
فرأى طرفاً من فخذها فوق ربطة الساق ، ومطّ شفتيه مطّتها
المريعة وقال :

– عمّن تتحدثين يا سيدتي ؟

قالت :

– اين فيليب ؟

وأحس بحنان شديد ، فلعنتها ستبكي امامه ، وهي تلوي ذراعيها
الجميلتين ، ولا بد ان امرأة من وسطها تخلق شعر إيطيها .

وانبعث صوت رجل فجعله ينتفض ، وكان صادراً من غرفة الانتظار .
« انسا يا صديقتي العزيزة نصيغ وقتنا . فاذا شاء السيد بيتو ان
يدخل مكنتي ، أطلعناه على الأمر » .

سقط في الشرك ! ودخل ، وهو يرتجف من الغضب ، وغرق
في الحرارة البيضاء ، وكان القطار يخرج من النفق ، ودخل سهم من
للدخان الابيض الى الحافلة . وجلسوا وقد اولوا النهار ظهورهم بالطبع ،
وانا في وضح النور . وكانا اثنين :

وقال الرجل السمين المرتدي الثياب العسكرية : « انا الجنرال لاكاز »
وأشار الى جاره ، وهو عملاق كتيب ، وأضاف :

– هوذا السيد جاردي ، طيب عقلي ، تفضّل بفحص فيليب
والاعتناء به قليلا ، في هذه الفترة الاخيرة .

وعاد جورج الى قاطرته وجلس ، وكان رجل قصير أسمر ينحني
الى الأمام ، ويتحدث ، وكانت له هيئة الاسبان : « ان معلمك
يساعدك ، هذا جميل جداً ، وهذا حسن بالنسبة للموظفين . اما انا ،
فليس لي راتب ثابت ، اني خادم مقهى ، وكل ما اصبه تبرعات
الزبائن . تقول لي ان هذا لن يدوم ، وإنما القصد منه إخافتهم ، اريد

كثيراً ان اصدقك ، ولكن اعترف بان ذلك يدوم منذ شهرين ، فكيف
يتأني لها ان تأكل ، زوجتي ؟
قال الجنرال :

- ان فيلب ، ابن زوجتي ، ترك البيت ، في ساعات الصباح
الاولى من غير ان يعلمنا ، وحوالى العاشرة وجدت امه هذه الرسالة
على طاولة غرفة الطعام (ومدّها له من فوق المكتب وهو يضيف بلهجة
متسلطة) اطلع عليها ، ارجوك .

وتناول بيتو الرسالة في اشمزاز ، ذلك الخط القدر ، المنقّط ،
غير المنتظم ، المليء بالشطب واللطخ . كان قادمًا ، وكان ينتظر ساعات
برمتها ، وكنت اسمعه يدرع الطريق جيئة وذهاباً ، ثم يذهب تاركاً
قصاصات مدعوكة من الورق ، مليئة باحرفه الذبائية ، في كل مكان ،
على الارض ، وعلى الكرسي ، وتحت الباب ، وكان بيتو ينظر الى
الخط من غير ان يقرأه ، شبيهاً بسلسلة من الرسوم العجيبة الذائعة التي
تثير قرفة ، كم اودّ لو اني لم ألتق به قط .

« امي الصغيرة . هوذا زمن القتلة . اما انا ، فأختار الاستشهاد ،
ربما أصبت ببعض الهموم الشاقة : وهذا ما اتناه لنفسي . فيليب » .
ووضع الرسالة على المكتب وابتسم ، وقال :

- زمن القتله . ان تأثير رامبو قد احدث خسائر مريعة .
فنظر اليه الجنرال وقال :

- سنعود عما قليل الى قضية التأثيرات . هل تعرف ابن ابن

زوجتي ؟

- وكيف تريدني ان أعرف ذلك ؟

- متى رأيت له للمرة الاخيرة ؟

وفكر بيتو : « هكذا اذن ! انهم يستجوبونني » والتفت الى السيد

لاكاز وقال في لهجة تتسم بعدم الكلفة :

— لم اعد اذكر . ربما منذ ثمانية ايام .

وكان صوت الجنرال يأتيه الآن مجاناً :

— هل اطالعك على نيته ؟

فقال بيتو وهو يتسهم للام :

— كلا، انت تعرفين فيليب ، فهو يتصرف تصرفات مفاجئة : وانا

مقتنع بأنه لم يكن يعرف مساء امس ما سيفعله هذا الصباح .

واضاف الجنرال : — ومنذ ذلك الحين ، هل كتب او

اتصل بك ؟

وتردد بيتو ، ولكن اليد كانت قد انطلقت ، يداً ودعماً ، خاضعة ،

غرقت في جيب الثوب الداخلي ، وتبعها القرار ، فمدت اليد قصاصة

الورق . وخطفَت السيدة لو كاز الورقة بشراهة ، اني لا استطيع بعد

ان احكم على يدي . كان ما يزال يستطيع ان على يحكم وجهه ، فمط

شفتيه تلك المطة المريعة ، وهو يرفع حاجباً :

— تلقيت هذا صباح اليوم .

فقرأت السيدة لو كاز بجهد : — « ليتوس اي ايراباندوس » : من

اجل السلام .

كان القطار يجري ، وكانت الباخرة تهتز ، وكانت معدة بيتو تغني ،

فنهض في مشقة وقال موضعاً في تأدب :

— ان هذا يعني : فرح ومتسكح . انه عنوان قصيدة لفيرلين ؟

فرماه الطبيب النفسي بنظرة :

— قصيدة خاصة بعض الشيء ،

وسألت السيدة لا كاز :

— هذا كل شيء ؟

وكانت تقلب الورقة بين يديها ،

— مع الاسف ، نعم ياسيدتي العزيزة ، هذا كل شيء :

وسمع صوت الجنرال القاطع :

— ماذا ترديدن أكثر من ذلك يا صديقتي العزيزة ؟ انني أجد هذه الرسالة واضحة كل الوضوح، ويدهشني ان يدعي السيد بيتو عدم معرفة لويبا فيليب .

والفتت بيتو فجأة اليه ، ونظر الى الثوب العسكري — لا الى وجهه بل الى الثوب العسكري — وصعد الدم الى رأسه . وقال :

— اسمع يا سيدي ، لقد كان فيليب يكتب لي مثل هذه الاوراق الازرقثة ثلاث مرات او اربعاً في الاسبوع ، فانهى بي الامر الى عدم الاهتمام بها ، وتعذرني اذا قلت لك عندي شواغل اخرى .
قال الجنرال :

— لقد كنت يا سيد بيتو تدير منذ ١٩٣٧ مجلة عنوانها «لوباسيفيست»^١ اتخذت فيها موقفاً محدداً ، ليس ضد الحرب فقط ، بل ضد الجيش الفرنسي ايضاً . وقد تعرفت الى ابن زوجتي في تشرين الاول ٣٧ في ظروف اجعلها فأقنعته بأرائك . ولقد تبني تحت تأثيرك سلكاً غير مقبول تجاهي ، لأنني ضابط ، وتجاه امه لانها تزوجتني ، وقد ظهر امام الجمهور بمظاهر واضحة العداء للترزة العسكرية . وهو اليوم يهجر بيتنا في اخرج ساعات التوتر العالمي ، وهو يخبرنا ، بواسطة الكلمة التي قرأتها ، انه يريد ان يكون شهيد السلام ، انت في الثلاثين من عمرك يا سيد بيتو ، وفيليب لم يبلغ العشرين ، ولن ادهشك اذا قلت لك انني اعتبرك شخصياً مسؤولاً عن كل ما يحدث لابن زوجتي على اثر فراره .

قال هانوكين لجارته :

« اسمعي ، سأقول لك: انا مجند . فقالت : آه ، يا الهي . وكان جورج ينظر الى خادم المقهى ، فيجده لطيفاً ، وكانت به رغبة لأن

يقول له : وانا كذلك مجند ، ولكنه لم يكن يجرؤ ، وذلك بدافع من الحشمة ، وكان القطار يهزه هزاً مريعاً ، وفكر : انني جالس فوق العجلات .

قال بيتو بصوت حاسم : - انني ارفض كل مسؤولية . انا افهم مصابك، ولكني لا استطيع مع ذلك ان اقبل ان اكون بالنسبة اليك كبش المحرقة. لقد جاء فيليب غريزيني الى مقر المجلة في تشرين الاول ٣٧ ، وهذا واقع لا افكر في افكاره . وقد اعطانا قصيدة بدت لنا مليحة بالوعود ، فنشرناها في عدد كانون الاول . وعاد بعد ذلك مراراً ، فاستعملنا كل شيء لثنيه : فقد كان متحمساً لنا اكثر مما ينبغي ، واصارحك القول اننا لم نكن نعرف ما نفعل به . (كان يجلس على طرف فخذه ، ويحدّد في « بيتو » نظره الازرق المزعج . وينظر اليه يشرب ويدخن ، وينظر الى شفثيه تتحركان ، ولم يكن يدخن ، ولم يكن يشرب ، وكان يضع بين الفينة والفينة ، اصبعاً في أنفه او ظفراً بين اسنانه من غير ان يكف عن النظر اليه)

وصاحت السيدة لاكاز فجأة :

- ولكن اين يمكن ان يكون ؟ اين يمكن ان يكون ؟ وماذا يفعل ؟ انك تتحدث عنه كما لو انه مات ؟

وصمتوا ؛ وكانت قد انحنت الى الامام بوجه قلق يملأه الاحتقار ؛ وكان بيتو يرى منبت صدرها من فتحة القميص ؛ وكان الجنرال متصلباً في اريكته ، وكان ينظر . وكان يمنح بضع دقائق من الصمت لألم أم مشروع . ونظر للطبيب النفسي الى السيدة لاكاز في هيئة ود متنبه . كما لو انها كانت احدى مريضاته . ثم هز رأسه للكبير الكتيب، والتفت الى بيتو وعاد الى الهجوم :

- انني اقرّك يا سيد بيتو ، ان فيليب لم يكن قد فهم جميع افكارك ؛ غير ان هذا لا ينفي انه كان قتي شديداً القابلية للتأثر، وكان

يكن لك اعجاباً هائلاً .

— اهذه غلطتي ؟

— ربما لم تكن غلطتك . ولكنك كنت تستغل تأثيرك استغلالاً سيئاً ،
قال بيتو : — عجيب ! ولكن ما دمت قد فحصت فيليب ، فانت
تعلم انه كان مريضاً .

فقال الطبيب وهو يتسم :

— ليس تماماً . لا شك في ان وراثته كانت ثقيلة ، من جهة ابيه
(اضافها وهو يرمي الجنرال بنظرة) ولكنه لم يكن تماماً مريضاً نفسياً
كان فتي متوحداً ، غير متأقلم ، كسولاً وانانياً . كان ذا عادات
مضحكة طبعاً ، ومخاوف جنونية ، مع طغيان الافكار الجنسية . وقد جاء
يراني عدة مرات ، في هذه الفترة الاخيرة ، وقد ثرثرنا ، فاعترف
لي بأنه ... كيف يمكنني القول ؟ (وتوجه الى السيدة لاكاز) اعذري
خشونة الاطباء . بالاختصار : استمنا منتظم . انا اعرف ان كثيراً من
زملائي لا يرون في هذا الا نتيجة . اما انا فأمرل مع الدكتور اسكبرول الى
اعتباره سيئاً . لقد كان — بكلمة واحدة — يجتاز بمشقة ما يسميه السيد
ماندرس ، ازمة اصالة المراهقين : كان بحاجة الى مرشد . وقد كنت
راعياً رديئاً يا سيد بيتو ، كنت راعياً رديئاً .

وكان يبدو على نظر السيدة لاكاز انه مستقر على بيتو بالانفاق ،
ولكنه كان غير قابل للتحمل . وقد آثر بيتو ان يلتفت بصراحة الى
الطبيب النفسي وقال :

— اعتذر عما سأقول امام السيدة لاكاز ، ولكن ما دمت تلجثني الى
ذلك ، فاصارحك بكل وضوح اني كنت وما ازال اعتبر فيليب
نموذجاً كاملاً للمتحلل . فلئن كان بحاجة الى مرشد ، فلماذا لم تهتم به ؟
كان ذلك واجبك .

فابتسم الطبيب النفسي بكآبة وامتنص شفثيه وهو يتنهده . كانت تبسم

وكانت مستندة الى باب الغرفة ، وقد قف شعرها ، وكانت تبسم بسمه فاتنة ، وقال لها الربان :

— ينبغي يا صغيرتي ان تعودى الىّ في الساعة التاسعة ، فاقول لك ما امكنى أن افعله لك ولصديقانك (وكانت له عينان فارغتان صافيتان وقد لامس صدرها وعنقها واطاف) لا تنسى ، موعدنا ، هنا ، الساعة التاسعة مساء .

— شاء الجنرال لاكاز ان يعطيني بضع صفحات من مذكرات فيليب فظننت ان من واجبي ان اطلع عليها . اسمع يا سيد بيتو : ينتج من قراءة هذه المذكرات انك كنت تمارس نوعاً من « الشانتاج » على هذا الفتى المسكين . كان يبدو انك ، بعد وثوقك من مدى حرصه على تقديرك ، كنت تستغل ذلك لتطلب منه بعض الخدمات التي لا يوضحها في مذكراته . وقد اتجه له في الفترة الاخيرة ان يتمرد ، فظهرت له له احتقاراً ساحقاً كان من نتيجته انه افضى به الى اليأس .

ماذا تراهم يعرفون ؟ ولكن الغضب كان اقوى ، فابتسم بدوره وكانت مود تبسم وتسلم ، كانت مؤخرتها قد اصبحت في الخارج ، في الهواء الطلق ، بينما كانت قامتها تنحني وتغطس في هواء الغرفة المعطر الحار :

— ولكن طبعاً ، يا كابتن . الى الساعة التاسعة اذن ، الساعة التاسعة ، هذا مفهوم .

— افضى به الى اليأس ، ولكن من كان يذله كل يوم ؟ أنا الذي صفعته يوم السبت الماضي والجميع على المائدة ؟ أنا الذي كنت اتظاهر باعتباره مريضاً وارسله الى طبيب نفسي ، واضطره الى الاجابة على امثلة مذلة .

وسأل خادم المقهى : — أنت ايضا مجند ؟
فابتسم له جورج ابتسامة مسكنة ، ولكن كان عليه ان يتكلم ،

ان يجيب على امثلة المرأتين الشابتين ، فقال :

- لا ، انا ذاهب الى باريس لشؤوني .

وانتفض لصوت السيدة لاكاز الثاقب :

- اتراكما لن تصمنا ؟ الا تستطيعان أن تسكنا ؟ ما اشد ما تحقرانه !

ففى في العشرين قد نزعها ثيابه ولطحها ، أفلا تحترمانى أنا ؟ ربما

يكون قد القى نفسه فى السين وانما هنا تبادلان تحمل المسؤوليات .

اننا جميعاً مذنبون : لقد كان يقول : لا يحق لكم ان تدفعونى

الى النهاية .

كان الجنرال محمر الوجه كل الاحمرار ، وكانت مود محمرة الوجه

كل الاحمرار ، وقالت :

- حسناً ، سنأتى لناخذ امتعتنا ، وسننام هذه الليلة فى الدرجة الثانية ،

قالت فرانسى - اترين يا عزيزتي ، لقد عقدت الامور ، وهى لم

تكن من الصعوبة كما كنت تتخيلين .

قال من غير ان يرفع صوته ، وهو يتحدث فيها عينيه الخشبيتين :

« روز ! » فارتعشت ، ونظرت اليه فاغرة الفم ، وقالت :

- هذا قدر ... انى خجلة !

ومد يده القوية واطبقها على ذراع زوجته وردد : « روز ! »

بصوت لا لحن له . وتجمع جسم السيدة لاكاز ، واطبقت فمها ، وهزت

رأسها وبدأت تستيقظ ، فنظرت الى الجنرال وبسم لما الجنرال ، وكان

كل شيء قد عاد الى نصابه . وقال :

- انى لا اشاطر زوجتي قنقها ، ان ابن زوجتي قد ذهب بعد ان

مرق عشرة آلاف فرنك من خزائنه امه . فيصعب على اذن ان اصدق

انه يريد ان يضع حداً لايامه .

وساد صمت . كانت الباخرة قد بدأت ترقص قليلاً ، واحس بيتو

بأنه دبى ، وكان قد انزوع بالقرب من سريره وفتح حقيبته التى انبعث منها

رائحة من عطر الخزامى ومعجون الاسنان وتبخ أشقر شعر لها بالدوار ،
وفكر : - لقد قال لنا الخادم إن سفرتنا ستكون سيئة ! كان الجنرال
يتأمل ، وكان يبدو على زوجته مظهر الصبي العاقل ، وكان بيتو لا
يفهم ، وغرّدت معدته ، وكان رأسه يؤله ، وكان لا يفهم . كان
يحس الصعود ، هوب ، ثم يشعر بالسكر ، وكانت الارض الخشبية
تهتز تحت قدميه ، كان الهواء حاراً ودبقاً ، وكان ينظر الى الجنرال ،
فلا يحس بعد القوة على كرهه . وقال الجنرال ، كما لو انه ينهي
هذا الحديث :

- ارى يا سيد بيتو ان بوسعك ومن واجبك ان تساعدنا للعثور
على ابن زوجتي . لقد اكتفيت حتى الآن باعلام مراكز الشرطة ، ولكن
اذا لم نجد فيليب بعد ثمان واربعين ساعة ، فان في نيتي ان اضع القضية
بين يدي صديقي المدعي العام ديترن ، وان اطلب اليه بالمناصفة نفسها اذا
كان لا يحسن بالعدالة ان تحقق قليلا في المورد المادي لجريدة « الباسيفيت » .
قال : - اني ... طبعاً سأساعدك . وبوسع الجميع ان يحشروا
أنفهم في حسابات « الباسيفيت » ، ونحن نستطيع ان نشرها في وضح
النهار :

وغطست الباخرة ، وكانت هي الجبال الروسية ، وأضاف وهو
يدفع صوته عبر حنجرتة المنقبضة :
- ولكن ... ولكني لا ارفض ان اساعدكم . بدافع انساني محض ،
يا جنرالي .

وحنى الجنرال رأسه وقال :

- هكذا افهم القضية :

كانت تصعد رويداً ، رويداً ، بالخفية ، ثم تهبط كذلك ، ولم
يكن ثمة من يستطيع ان يمتنع عن النظر الى السرر او المغسلة ليميز
شيئاً يرتفع او يهبط ، ولكن لم يكن يرى شيء ، باستثناء موجة زرقاء

مظلمة تلامس بين الفترة والفترة ، طرف النافذة السفلي ، وما تلبث ان تختفي . لقد كانت حركة صغيرة حية حية ، خفقة قلب ، وكان قلب بيار يخفق منسجماً ؛ ولن تكف طوال ساعات وساعات عن ان تصعد وتهبط ؛ وكان لسان بيار ثمرة كبيرة ذات عصير في فمه : وكان يسمع ، لدى كل ابتلاع ، طقطقة غضروفية في مكان ما من اذنيه ، ثم انه كان ثمة ذلك الاكليل الحديدي الذي كان يشد صدغيه ، وتلك الرغبة في الثاؤب . ولكنه كان هادئاً جداً : لن يصاب بدوار البحر الا من يريد . وما كان له الا ان ينهض ، وان يخرج من غرفته ، وان يقوم بنزهة صغيرة على السطح ، حتى يجد نفسه من جديد ، ويذهب هذا الاشمزاز الخفيف . وقال : « سأرى مود » وترك الحقيبة ونهض صلباً جامداً على حافة السرير ، وكان هذا يشبه اليقظة . وكانت الباخرة الآن تصعد وتهبط تحت قدميه ، ولكن المعدة والرأس كانا متحررين ؛ وعادت عينا مود المستهينتان فظهرتا من جديد - والخوف والعار . سأقول لها اني كنت مريضاً ، ضربة شمس يسيرة ، شربت اكثر مما ينبغي . يجب ان اوضح الامر ، سوف يتكلم ، وسوف تحرقه بنظرها القاسي ، وكم أن ذلك متعب ! وابتلع رضابه على مشقة ، فانسرب الى اعماق حنجرته في حسيس حريري فظيع ، وكان ماء تفه قد بدأ يسبح في فمه ، متعباً ، متعباً ، وفرت افكاره فلم يجد بعد الا عنوبة كبيرة مهجورة ، رغبة في الصعود والهبوط بانتظام ، وفي التقير المتسهل الطويل ، وفي ان يستلقي على الوسادة ، هويس ، هويس ؛ بلا أفكار : محمولاً في اهتزاز العالم الكبير ؛ وسوف يستدرك نفسه قبل فوات الاوان : فلن يصاب بدوار البحر الا من يريد . ووجد نفسه برمته ، صلباً وجافاً ، جباناً ، عاشقاً محترقاً ، ميتاً مقبلاً من اموات الحرب ، وجد كل خوفه المتبصر الثلج . واخذ الحقيبة الثانية من فوق السرير الاعلى ، فوضعها على السرير الاسفل وياشر فتحها . وقد ظل

«مستقيماً» ، من غير ان ينحني ، بل من غير ان ينظر الى الحقيقة ،
وكانت أصابعه المخدرة تتلمس القفل على غير هدى . هل القضية تستحق ؟
هل تستحق الصراع ؟ انه لن يكون بعد إلا عدوثة واسعة ، ولن يفكر
بعد في شيء ، ولن يشعر بعد بالخوف ، كان حسبه ان يستسلم .
«يجب ان اذهب لأرى مود» ورفع يداً فجال بها في الهواء بعدوثة
مهتزة احتفالية بعض الشيء . حركات عذبة ، خفقات عذبة لجفوني ،
ومذاق عذب في جوف في ، ورائحة عذبة للخزامى ولمعجون الاسنان ،
والباخرة ترتفع بعدوثة ، وتهبط بعدوثة ، وتثاءب فأبطأ الزمن ، واصبح
سكرياً حوله ، كان حسبه ان يتصلب وان يخطو ثلاث خطوات خارج
«الغرفة» ، في الهواء الطلق ، ولكن ما الغاية من ذلك ؟ أمن اجل ان
يجد الخوف مرة اخرى ؟ وكنس الحقيقة بظاهر يده وتداعى للسقوط على
«السريير» . شراب سكري ، انه لا يشعر بعد بالخوف ، ولا يشعر بعد
ب«الحجل» ، ولم هو لذيذ ان يشعر بدوار البحر .

جلس على حافة الرصيف ، وكانت ساقاه تتدليان فوق الماء : كان
تعباً ، وقال : «لن تكون مارسيلا رديثة لو لم يكن فيها هذه البيوت
الكثيرة .» وكانت القوارب تتحرك تحته قليلا ، لا كثيراً ، وكانت
قوارب صغيرة ، كثيرة العدد ، وعليها زهور او ستائر جميلة حمراء
او تماثيل عارية .

كان يرى القوارب ، وكان فيها قوارب تقفز كالماعز واخرى لا
تتحرك ، وكان يرى الماء شديد الزرقة ، ويرى في البعيد جسراً حديدياً
كبيراً ؛ وما هو بعيد يجد المرء لذة في النظر اليه ؛ فهو يريح العينين .
وكانت هيئته تؤلمه : كان يتنام تحت قاطرته وكان رجال قد أتوا
يحملون المصابيح ، فالفوا عليه الضوء وطرده بكلمات جارحة ؛ وبعد
ذلك وجد تلة من الرمل ، ولكن النوم لم يرجع . وسأل : «اين تراني
مسأمان هذه الليلة ؟» وكان ثمة بالتأكيد أمكنة جيدة ، مع قليل مني

العشب . ولكن كان ينبغي معرفتها : وقد كان عليه ان يسأل الزنجي .
كان جائعاً ، وقد وقف ، فأحس ركبتيه متصلبتين ، وقد فرقعتا ،
وقال موضحاً : « لا أملك بغد ما آكله ، فيجب ان اذهب الى المطعم . »
واستعاد سيره ، وكان قد مشى طوال النهار ، وكان يدخل ويسأل :
« هل عندكم عمل ؟ » ثم كان يمضي ؛ كان الزنجي قد قال : « ليس
هناك من عمل » والسير في المدن متعب ، بسبب البلاط . وقد اجتاز
الرصيف ، موارباً ، بهدوء ، وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار ،
ليتنجب الترام ، فحين كان يسمع جرسه ، كان ذلك يرعبه . وكان
ثمة ناس كثيرون ، رقعاء يمشون بسرعة وهم ينظرون اقدامهم ، كما
لو انهم كانوا يبحثون عن شيء ما ، وكانوا يصطدمون به اذ يجاذونه .
فيعتذرون له ، حتى من غير ان يرفعوا اليه عيونهم ؛ وقد كان يود
لو يوجه اليهم الكلام ، ولكنهم كانوا يبدون من رخصة العود بحيث
انهم كانوا ينجحون من ذلك . وصعد الى الرصيف فرأى مقاهي ذات
أسطح جميلة ، ثم رأى ، مطاعم ، ولكنه لم يدخل : كان على الطاولات
خواتم ، والخواتم معرضة للتلطيح . ودلف الى زقاق مظلم كانت
تنبعث منه رائحة الفوط ، وسأل : « ولكن اين تراني سأكل في هذه
الحالة كلها ؟ » وفي تلك اللحظة بالذات وجد ما كان يناسبه : فقد
رأى ، امام بيت صغير منخفض ، عشر طاولات خشبية تقريباً ، وكان
قد وُضع على كل طاولة صحنان او اربعة ، ومصباح صغير مستدير
لا بد انه لا يضيء كثيراً ، ولم يكن ثمة خواتم . وكان على احدى
الطاولات رجل قد بدأ يأكل مع سيدة كان يبدو عليها انها شريفة جداً ،
فاقترب غرولويس منها وجلس على الطاولة المجاورة وابتمس لها . فنظرت
اليه السيدة برصانة وأرجعت كرسيتها قليلاً : ونادى غرولويس الخادمة ،
وكانت امرأة قصيرة جميلة هزيلة بعض الشيء ولكن لها مؤخرة صلبة
نشيطه .

— ماذا تقدمون هنا من طعام ، يا جميلتي ؟
كان حلوة ، وكانت رائحتها طيبة ، ولكنها لم تكن تبدو مسرورة
ببرؤيته . ونظرت اليه مترددة ، وقالت وهي توميء الى ورقة على الطاولة:
— ان لائحة الطعام امامك .

قال غرولويس : — آه ، حسناً ،
واخذ اللائحة وتظاهر بأنه ينظر اليها ، ولكنه كان يخشى ان يمسكها
بالمقلوب .

وكانت الخادمة قد ابتعدت، وراحت تتحدث الى سيد كان قد انزع
على عتبة الباب . وكان السيد يستمع اليها وهو يهز رأسه فيما هو ينظر
الى غرولويس . واخيراً تركها واقترب من غرولويس بهيئة حزينة فسأله:

— ماذا تريد يا صديقي ؟
فقال غرولويس مندهشاً : — ولكنني اريد ان آكل : لا شك ان
تلكم حساء وقطعة من شحم الخنزير .
فهز السيد رأسه في حزن وقال :
— لا ، ليس لدينا حساء .

قال غرولويس : — ان معي مالا . فانا لا اطلب ديناً .
قال السيد : — انا متأكد من ذلك . ولكن لا بد انك قد اخطأت ،
«فأنت لن تكون هنا على كيفك ، وسوف تزعجنا .

فنظر اليه غرولويس وسأله :
— ولكن اليس هذا مطعماً ؟

قال المعلم : — بلى ، بلى ، ولكن لنا نوعاً معيناً من الزبائن ..
وانت نحن صنماً بان تذهب الى الناحية الاخرى من « الكانوبيير » ،
فستجد هناك عدداً من المطاعم الصغيرة التي تناسبك تماماً .

وكان غرولويس قد نهض ، فحك رأسه بارتباك وقال :
— ان معي مالا . واستطيع ان اريك اياه ،

قال السيد بحيوية :

– ولكن لا ، لا ، فانا اصدق كلامك .

وأخذه بلطف من ذراعه وخطا معه بضع خطوات في الطريق وقال :
– اذهب من هنا ، فستجد الرصيف وتتبعه الى اليمين ، ولا يمكن

ان تضلّ .

قال له غرولويس وهو يلامس بشرته ، ويحس بالارتباك :

– انت رجل شريف .

ووجد نفسه ثانية على الرصيف ، وسط رجال قصار سود كانوا
يركضون بين قدميه ؛ وكان يسير ببطء شديد ، خشية ان يصدم
أحدهم ، وكان حزينا ، وفي تلك الساعة كان يهبط من « كانيغو »
الى « فيلفرانش » ، وكان القطيع يقفز امامه ، فيشعر بالرفقة ، وكان
غالباً ما يلتقي السيد باردو صاعداً الى مزرعة « الفتيل » والذي لم يكن
يمر من غير ان يقدم له سيكاراً وضربتين لطيفتين في جنبه ،
وكان الجبل احمر صامتاً ، وفي جوف الوادي كان يرى دخان
« فيلفرانش » . لقد كان ضائماً ، فجميع هؤلاء الاشخاص كانوا يسرون
بسرعة مفرطة ، ولم يكن يرى الا أعلى رؤوسهم او قلائسهم ، وكانوا
من الجنس القزم . وفرّ صبي بين ساقه ، فنظر اليه ضاحكاً وقال
لرفيقه :

– أنظر الى هذا ، الا تظن انه يضجر وحده ، هناك في الاعالي؟
ورأهما غرولويس يركضان ، فشعر بالارتباك ؛ لقد كان ينجل من
ان يكون طويلاً الى ذلك الحد . وقال : « ان لهم عاداتهم » واستند
الى الجدار . كان حزينا ورفيقاً ، لا يقل حزناً عن اليوم الذي كان
فيه مريضاً . وفكر بالزنجي الذي كان لطيفاً ومرحاً الى ذلك الحد ،
صديقه الوحيد ، وقال : « كان عليّ الا أدعه يذهب » ثم اخترقت
رأسه فجأة فكرة صغيرة مرحة بعض الشيء : ان الزنجي يمكن ان يرى

من بعيد ، فليس العثور عليه بالأمر الصعب ؛ ثم استعاد سيره ، وهو يحس انه اقل وحدة مما كان ، وكان يبحث عنه بعينه ويفكر : « سوف ادعوه الى قدح » .

كن جميعاً على الساحة وقد توردت وجوههن بالشمس الغاربة . كانت هناك جان واورسول والشقيقات كلابو والماري وجميع الاخريات . وكن قد بدأن بالانتظار في بيوتهن ، واذ لاحظن ان الوقت يمر ، عدن الى الساحة ، الواحدة تلو الاخرى ، ورحن ينتظرن ، وقد رأين ، عبر المرآة التي ذهب التباعها ، المصاييح الاولى تضيء في مقهى الارملة « ترامبلان » فتحدث ثلاث لطخات مُضببة في اعلى الواجهة . رأين هذه اللطخات فشعرن بالحزن : كانت الام ترامبلان قد اضاءت مصاييحها في مقهاها المقفر ، وجلست على طاولة من المرمر ، ووضعت على المرمر سلتها وراحت تلتق جواربها القطنية من غير قلق ، لانها كانت ارملة . اما هن ، فكن يبقين خارجاً في انتظار رجالهن ، وكن يشعرن خلفهن ببيوتهن الفارغة ومطابخهن التي كان الظلام يغمرها رويداً رويداً ، وكان امامهن تلك الدرب الطويلة الخطرة ، وفي نهاية « كان » ، ونظرت الماري الى الساعة في برج الكنيسة فقالت لاورسول : « متبلغ الساعة التاسعة ، فرما احتفظوا بهم » وكان رئيس البلدية قد قال ان ذلك كان مستحيلاً ، ولكن ما ادراه ، فهو لم يكن يعرف خيراً منهن عادات المدن . فلماذا تراهن قد صرفوا شيئاً اشداء اتوا يعرضون أنفسهم؟ ربما قيل لهم : « آه حسناً ! ما دتم هناك ... » ثم احتفظوا بهم ، ووصلت روز الصغيرة وهي تركض ، وكانت تلهث وتصيح « ها هم اولاء ! ها هم اولاء ! » فأخذت جميع النساء يركضن ايضاً ، ولقد ركضن حتى مزرعة « داربوا » ، حيث كان يطل درب طويل ، فرأينهم على الطريق البيضاء ، بين البراري ، وكانوا على عرباتهم يسرون في صف طويل ، كما في الذهاب ؛ وكانوا عائدين على مهل ،

يغنون : وكان على رأسهم شابان ، وكان منهاراً على مقعده ، ويداه
ممسكتان بالاعنة في استرخاء ، وكان ينام ، بينما الحصان يمشي بدافع العادة ،
ورأت الماري ان عيناً من عينيه كانت تحيط بها هالة سوداء . ففكرت
بأنه تنازع مرة اخرى مع احدهم . وكان واقفاً خلفه ، على عربة ،
رونار الابن يغني بأعلى صوته ، ولكن لم يكن المرح بادياً عليه . وكان
الآخرون يعقبونه ، فقد اصبحوا اشباحاً سوداء في السماء الصافية :
والنفنت ماري نحو الام كلايو وقالت لها :

« لقد ثملوا ، وكانوا بحاجة الى هذا ، وكانت عربة شابان تنهادى
على مهل وهي تصرّ ، فأفسحت لها النساء المكان لتمرّ . ومرّت فأطلقت
لويز شابان صرخة ثابتة : « يا إلهي ، انه لا يعود الا بحيوان واحد ،
فماذا فعل بالآخر ، لقد باعه ليشرب » وكان رونار الابن يغني بأعلى
صوته ، وكان يذبذب عربته بين حفرة واخرى ، وكان وراءه آخرون
يغنون وقوفاً في عرباتهم ، والسوط في ايديهم . ورأت الماري رجلاً ،
ولم يكن يبدو عليه انه سكران ، ولكن حين رأت عن كعب وجهه
المقطب ، ادركت انه شرب وانه سيضرب . وفكرت منقبضة القلب :
« انه أسوأ من حيوان » ولكنها كانت مع ذلك مسرورة انه قد عاد ،
فقد كان في المزرعة عمل كثير ، وقد كان من الافضل ان يضرب بين
وقت وآخر ، ايام السبت ، وان يكون موجوداً للعمل الكبير : كان
قد تداعى للسقوط على كرسي ، على سطيحة حانة ، فطلب قدحاً ،
وقدموا له خمرأ أبيض في كأس صغيرة جداً ، وكانت ساقاه تؤلمانه ،
فدّهما تحت الطاولة وحرك اصابعه في حذائه وقال : « هذا طريف » ،
وشرب وقال : « هذا طريف » لقد بحثت عنه طويلاً مع ذلك »
لو جاء لأجلسه قبائه ، ولنظر الى وجهه الطيب الأسود ، وكان حسيبه
ان يراه حتى يضحك ، ويضحك الزنجبي ايضاً ، وكانت تبدو عليه
هيئة الاطمئنان والركة كالبيهمة : « سوف اعطيه تبقاً يدخنه وخمرأ

يشربه .

وكان جاره ينظر اليه : إنه يجدني غريباً لأنني اتكلم وحدي ؛ وكان شاباً في العشرين من عمره ، سيء النمو ، هزيلاً ، ذا بشرة بناتية ، وكان جالساً مع شاب أسمر جميل ، أفضس الألف ، في اذنيه زغب وعلى ساعده الأيسر سرطان موشوم . وادرك غرولويس أنهما كانا يتحدثان هنا ببلغتها المحلية ، فبسم لها ونادى الخادم :

— قدح آخر من الخمر نفسه يا صغيري . واذا كان لديك اقتراح اكبر ، فلا تردّد .

ولم يكن الخادم ليتحرك ، ولم يكن ليقول شيئاً ، ولكن كان ينظر إليه بهيئة من له هبشان . وأخرج غرولويس محفظة نقوده ووضعها على الطاولة .

— ما بك يا صغيري ؟ اتظن اني لا أستطيع ان ادفع ؟ خذ !
وأخرج الاوراق الثلاث ذات الألف وأمرّها تحت أنفه .
— ماذا أقول لك ؟ هيا ، اعطني قدحاً من خمرك القدر .
وأعاد محفظته الى جيبيه ولاحظ ان الفتى القصير المجمعّد كان يبسم له بأدب . وسأله :

— كيف الحال ؟
— ماذا ؟
— كيف الحال ؟
قال غرولويس : — لا بأس . اني ابحت عن أسودي .
— ألسنت من هنا ؟
قال غرولويس وهو يضحك : — لا . لست من هنا . اتريد ان تشرب قدحاً ؟ انا الذي أدعو .
فقال المجمعّد : — ان هذا لا يُرفض . ولكن هل أستطيع ان أصحب رفيقي ؟

وقال بضع كلمات لرفيقه ، بلغتها المحلية . وابتسم الرفيق ونهض في صمت ، وأقبلا يجلسان تجاه غرولويس . وكانت تنبعث من القصير رائحة عطر . وقال غرولويس :

— أشمّ منك رائحة عطر .

— كنت عند الحلاق .

— آه ! هذا هو السبب . ما هو اسمك ؟

فقال القصير : — اسمي ماريو ، والرفيق ايطالي ، واسمه ستاراس .

اننا بحريان .

وضحك ستاراس وسلم من غير ان ينبس بكلمة . وقال ماريو :

— انه لا يعرف الفرنسية ، ولكنه ظريف . هل تعرف الايطالية ؟

قال غرولويس : — لا .

— لا بأس . سترى : انه على كل حال ظريف .

وتحدثا فيما بينهما بالايطالية . كانت لغة جميلة ، وكانا يبدوان

وكأنهما يفتيان . وكان غرولويس مسروراً بعض الشيء ان يكون معها ،

لأن ذلك كان يحقق له رفقةً ، ولكنه ظل يشعر ، في أعماقه ،

بأنه وحيد .

— ماذا تشربان ؟

قال ماريو : — أنيسون .

فقال غرولويس : — ثلاثة أنيسون . ما هذا ، أهو خمر ؟

— لا ، لا ، أفضل من هذا . وسترى .

وملأ الخادم ثلاثة أقداح من مشروب ، وسكب ماريو ماءً في الأقداح ،

يتحوّل المائع الى غيمة بيضاء أخذت تدور . قال ماريو :

— على صحتك .

وشرب بصخب ، ثم مسح فمه بكمته . وشرب غرولويس ايضاً :

لم يكن ذلك رديئاً جداً ، وكان فيه مذاق الأنيسون . وقال ماريو :

— انظر الى ستاراس ، فهو سوف يسليتك .
وكان ستاراس قد بدأ يُحوّل عينيه ، وكان في الوقت نفسه يقطب
أنفه ، ويمطّ شفّتيه ويحرك أذنيه كالأرنب . وضحك غرولويس ،
ولكنه شعر بأنه مصدوم ومستاء : وفكّر بأنه لم يكن يجب ستاراس ،
وكان ماريو يضحك حتى لتسيل دموعه ، وكان يقول وهو ما يفتأ
يضحك :

— لقد انبأناك : انه ظريف ، هذا الأخ . وهو الآن سيقدم لك
فصل الصحن .

ووضع ستاراس قدحه على الطاولة ، وقبض على صحنه في كفه
العريضة ، ثم أمر ثلاث مرات متواليات يده اليسرى مبسوطة على يده
اليمنى . وبعد المرة الثالثة ، كان الصحن قد اختفى ، وانتهز ستاراس
دهشة غرولويس ، فأدخل يده بين ساقيه ، وأحسّ غرولويس بان
شيئاً صلباً كان يلامس ساقه ، ثم ظهرت اليد ، وهي تحمل الصحن .
وضحك غرولويس باعتدال ، بالرغم من ان ماريو ضرب على فخذه
وهو يبكي من الفرح :

وكان ماريو يقول بين شهقتين : — آه ! ايها القدر ! أقول لك ؟
ألن تنتهي من المزاح معنا ؟

وهذا تدريجياً ، وحين استردّ رصانته ، سقط على الرجال الثلاثة
صمت ثقيل . وكان غرولويس يجدهما متعيبين ، وكان راغباً بعض
الرغبة في ان يذهبا ، ولكنه فكر بان الليل يوشك ان يهبط ، وان عليه
ان يستعيد مشيه على غير ما هدى في الشوارع الطويلة الغارقة في الظلام ،
وان يبحث بحثاً لا ينتهي عن مكان يأكل فيه وعن آخر ينام فيه ،
فانقبض قلبه وطلب دورة اخرى من الأنيسون . وانحنى ماريو اليه ،
فشمّ غرولويس رائحته : وسأله ماريو :

— هكذا إذن ، انت لست مع هنا ؟

قال غرولويس : - لست من هنا ولا أعرف أحداً . والشخص
الوحيد الذي اعرفه لا يستطيع ان اعثر عليه (ثم فكر وقال) الا اذا
كننا تعرفانه . إنه الأسود .

فهزّ ماريو رأسه هزة غامضة :

وانحنى فجأة نحو غرولويس وهو يغمض عينيه ، وقال :

- مارسيليا هي البلد التي يهزل فيها الناس ويضحكون : فاذا لم
تعرف مارسيليا ، لم تضحك في حياتك قط .

فلم يجب غرولويس . فقد هزل كثيراً في فيلفرانش ، ثم في مواخير
« بربينيان » حين أدّى خدمته العسكرية : ولقد انتهى ذلك . ولكنه
لم يكن ليتصور أن يوسع المرء ان يهزل في مارسيليا . وسأل ماريو :

- اراك غير راغب في الهزل ... ألسنت تحمل احياناً باللعب الجميلة ؟
قال غرولويس : - ليس الأمر كذلك ؛ ولكني افضل الآن ان

أكل . فاذا كنت تعرف مطعماً فاني ادعوكما الى الطعام بسرور .

حين هبط الليل ، كانت الأجرام قد تبخرت ، فلم يبق إلا كتل
غازية غامضة ، سحائب مظلمة ؛ كانت تمشي بسرعة ، خافضة الرأس ،
مخسوفة الكتفين ؛ وكانت خائفة من الاصطدام فجأة بالجبال ، وكانت
تسير بحذاء الحاجز ؛ تودّ لو يتأكلها الليل ، ولا تكون إلا بخاراً
معلقاً في هذا البخار المائل وان تتمزق شيئاً فشيئاً بالأطراف . ولكنها
كانت تعلم جيداً ان ثوبها الأبيض كان فانوساً . كانت تعبر سطح الدرجة
الثانية ، فلا تسمع ضجة ، باستثناء شكوى البحر السرمدية ؛ ولكن كان
في كل مكان رجال جامدون صامتون ينفذون فوق ظل البحر المنبسط ،
وكانت لهم عيون : وبين الفترة والفترة كانت نارٌ مدببة تثقب الليل ،
فيحمرّ منها وجه ، وتلتصع عينان ، تنظران اليها ، ثم تغيبان . لقد
ودت لو انها تموت ؛

كان لا بد من هبوط درج ، وعبور سطح الدرجة الثالثة ، وارتقاء

درج آخر ، وهي صلبة كأنها سلّم ، شديدة البياض ؛ اذا رأني أحد ، فلن يكون ثمة مجال للشك ، إن عرفته فوق ، وحيدة ؛ ولدى هذا الرجل عمل ، فلا يمكن ان يحتفظ بي طوال الليل . وكانت تخشى ان يجد في ذلك لذة ، فيرسل في كل مساء خادماً يبحث عنها في الصالون ، كالربان اليوناني ، ولكن لا ، فانا مفرطة الهزال بالنسبة لرجل سمين مسنّ مثله ، فهو سيصاب بالخيبة ، اذ لن يجد الا عظماً . ولم تكن بها حاجة للطرق ، فقد كان الباب مشقوقاً ، وكان ينتظرها في الظلام ،
وقل :

— ادخلي ، يا جميلي .

فترددت لحظة ، وهي منقبضة الحلق ؛ فجذبتها الى الغرفة يد ، وانغلق الباب . و"ألصقت" فجأة ببطن كبير ، وانسحق على فيها فمّ مسنّ تبعث منه رائحة الفلين . واستسلمت وكانت تفكر في خضوع متكبر : « تلك هي المهنة ، وهذا جزء من مهنتي » . وضغط الربان على الزرّ فخرج رأسه من الظلام ، وكان بياض عينيه مائعاً مزرقاً ، مع نقطة حمراء في العين اليسرى . وتخلّصت وهي تبسم ؛ كان كل شيء قد أصبح أصعب جداً منذ أن أضيئت المصابيح ؛ كانت حتى ذلك حين تتصوّره بكتل كبيرة ، اما الآن ، فقد أخذ يوجد حتى في ادقّ التفاصيل ، إنها متضاجع كائناً فريداً في العالم ، كجميع الكائنات ، وستكون هذه الليلة ليلة فريدة ، كجميع الليالي ، ليلة حب فريد غير قابل للتعويض ، ضائع ضياعاً لا يعوّض . وكانت مود تبسم وتقول :

— مهلاً يا كابتن : مهلاً ، فانت كثير الاستعجال : يجب ان نتعارف ، ما هذا ؟ واستقام على مرفق ، مرتاباً : كانت الباخرة تلمو جامدة ؛ وأخذته ثلاثة تقيّوات او اربعة كان أحدهما قوياً جداً فخرج من أنفه ، وكان مُحسّ بأنّه فارغ ولكنه صافي الذهن . وفكر : ما هذا ؟ ووجد نفسه فجأة جالساً على سريره ، ودائرة حديدية تحيط رأسه ، وذلك

الضيق الذي كان يألفه أشدّ الألفة بعض قلبه . وكان الزمن قد عاد يجري ، وكان آلية متصلة متقطعة ، وكانت كل لحظة تمرّقه كأنها من منشار ، وكانت كل لحظة تقرّبّه من مارسيليا ومن الارض الرمادية التي سيموت فيها . ومن جديد ، كان العالم هنا ، حول غرفته ، عالم محطات فظيع ، عالم دخان واثواب عسكرية وأرياف مكتسحة ، عالم لم يكن يستطيع ان يعيش فيه ، ولم يكن يستطيع ان يتركه ، وفيه ذلك الثقب الموحد الذي كان ينتظره في « فلاندر » . جبان ، ابن ضابط يخشى خوض الحرب : كان يشمئز من نفسه ، وكان مع ذلك يتشبث بالحياة تشبثاً يائساً . وهذا أشد سوءاً : لا اريد ان اعيش لما انا عليه من قيمة ؛ بل ... من اجل لا شيء ، من أجل لا شيء ، لأنني أعيش ، وكان يحس نفسه قادراً على كل شيء ، لينقله جلده ، على الفرار ، وعلى طلب الإعفاء ، وعلى الخيانة ، ومع ذلك فانه لم يكن حريصاً الى هذا الحد على جلده . ونهض : ماذا سأقول له ؟ أني كنت مصاباً بضربة شمس ، او بنوبة ملاريا ، او اني لم اكن في حالي الطبيعية ؟ واقترب من المرأة وهو يتهاوى ، فرأى انه كان ممتقماً كالليمونة . اكتمل الأمر : لا أستطيع ان أعول بعد حتى على وجهي . ولا بد ان رائحة القيء تنبعث مني ، فوق كل ذلك . ورش ماء الكولونيا على وجهه وتغرغر بماء « بوتو » . وفكر في غيظ : ما اكثر المشاكل ! هذه هي المرة الاولى التي أهتم فيها بما يمكن لامرأة ان تفكر به عني . نصف بنفي ، عازقة كان في فرقة مبتدلة ؛ ولقد عرفت نساء متزوجات ، وريبات أسر . وفكر وهو يرتدي معطفه : أما هذه ، فانها تمتلكني ، وهي تعرف ذلك .

وفتح الباب وخرج ، كان الربان عارياً تماماً ، وكانت له بشرة شمعية لمساء ، بلا شعر ، ما عدا خمس او ست بيضاء ، على الثديين ، ولا بد ان الشعر الباقي قد سقط بسبب السخى ، وكان يضحك ، وكان يشبه صبياً سميناً عفريتاً ، ولا مست مود بطرف أصابعها فخذيه الكبيرتين

المساوين فتلوى وهو يقول :

- انك تدغدغيني !

وكان يعرف رقم الغرفة : ٢٧ ؛ وسلك ممراً الى اليمين ، ثم آخر الى اليسار . وكان يسمع ضربات كبيرة منتظمة على الحاجز ؛ هذه هي الغرفة ٢٧ . كانت ثمة امرأة شابة ممتددة على ظهرها ، صفراء كالميتة ؛ وكانت سيّدة عجوز جالسة على السرير محمرة العينين متورمتها ، تأكل خبزاً وجبناً .

وقالت : - اوه ! السيدات الثلاث هنا ؟ لقد كنّ لطيفات جداً ، وقد ذهبن اذ نقلوهن الى الدرجة الثانية ؛ سوف اشتاق لهن .

وكان ينظر اليها في دهشة ، ووضع يده على عظمتها الحرقفية :

- كنت تكوينن ملتفة التكوين ، مع هذا الوجه الجميل ، ولكنك

في الواقع هزيلة .

وضحكت ؛ حين كان احد يلمس عظمتها الحرقفية ، كان ذلك

يضحكها :

- الا تحب الهزيلات يا كابتن ؟

فسارع بجيب : - آه ! انا لا اكرههن على الاطلاق :

وصعد الدرج وهو يركض ؛ كان يجب ان يرى مود . وهذا هو

الآن ممر الدرجة الثانية ، ممر جميل ذو سجادة ، وكانت الابواب والحواجز

ملمعة بالازرق الرمادي . وكان محظوظاً : فقد ظهر روبي فجأة ،

يتبعه خادمٌ يحمل حقائبه . قال بيار :

- مرحباً ، انت في الدرجة الثانية ؟

قال روبي - نعم ! ان فرانس تخشى ان تكون مريضة . وقد

اتفقنا جميعاً على ذلك : فحين تكون الصحة معرضة ، فيجب ان

نتحمل التضحيات .

- اين هي مود ؟

كانت مود مضطجة على جنبها ، وكان الربان يرتب على فخذها بلطف وشرود ؛ وكانت تحس نفسها مهانة عميق الإهانة : « لو لم اكن الشخص الذي يناسبه ، لما كان مضطراً الى مثل ذلك » . وأمّرت يدها على خاصرتيه لتبادله ملاطفته : كانت بشرته مرهلة . وقال يبار بصوت ناقب :

— مود ؟ من يعرف اين هي ؟ انكم تعرفونها : لقد أخذتها الرغبة بأن تمضي لمغازلة البحارة ، الا ان تكون المغازلة للربان ! انها تعشق السفر بالبحر ، وهي لا تفك تعدو في الباخرة من طرف الى طرف .
قال الربان : — ايتها الفضولية الصغيرة !
وضحك وقبض على معصمها وقال :
— اريد ان اطوف بك طوفة الملاك .

والتمعت عيناه للمرة الاولى . فاستسلمت مود ، وهي متأثرة ، بسبب تغير غرفتهن ، فيجب على اية حال ان يعوّض عن ذلك ، وكانت آسفة اشدّ الأسف لكونها مفرطة الهزال ، فهي تشعر كما لو انها خدعته ؛ وكان للربان يتسم ، وهو يخفض عينيه ، وكانت هيئته بريئة وداخلية ، فيما هو يشد معصم مود ويقودها من يدها في رقة صلبة . وكانت مود مسرورة وهي تفكر : « من اللئيم جداً ان أرفض شيئاً يرغب فيه ، بعد الإزعاج الذي سببناه له ، لا سيما وانه لا يجب الهزيلات » .

— شكراً ! شكراً جداً !

أخفض رأسه واستعاد ركضه . كان يجب العثور على مود ؛ ستكون على سطح الباخرة . ورفي سطح الدرجة الثانية في الظلام ، وكان شبه مستحيل ان يُعرف الاشخاص ، الا ان ينظر لليهم المرء عن كتب . اني بليد ، فاعلي الا ان انتظرها هنا : فن حيث أنت ، لا بد ان تسلك هذا السلم . وكان الربان قد اغمض عينيه تماماً ، وكان يبدو في

هيئة هادئة دينية راقية كثيراً لمود ، وكانت تحس بمعصمها متعباً ، ولكنها كانت مسرورة ان ترضيه ، ثم انها كانت تحس نفسها وحيدة ، كما كان يحدث وهي صغيرة اذ يأخذها الجلد « تيغينور » على ركبتيه ، وينام فجأة وهو يترنح برأسه . كان بيار ينظر الى البحر ويفكر : « اني جبان » X وكان هواء رطب يسيل على خديه ويصفق خصلة شعره ، وكان ينظر الى البحر يهبط ويرتفع ، وينظر الى نفسه في دهشة ويفكر : « جبان . لم اكن لأصدق ذلك قط » . جبان الى حد يدعو الى البكاء . كان حسبه يوماً واحداً حتى يكتشف كينونته الحقيقية ، ولولا اخطار الحرب هذه ، لما عرف شيئاً ابداً . لو كنت في عام ١٨٦٠ مثلاً ، لكان انطلق ينتزه في الحياة بيقين هاديء ، ولكان انقذ بقسوة جين الآخرين ، ولما كان لشيء على الاطلاق ان يكشف له طبيعته الحقيقية . لا حظ . يوم ، يوم واحد : اما الآن فقد كان يعرف ، وكان وحده . كانت السيارات والقطارات والقوارب تحرف هذا الليل اللصافي الرنآن ، وتتجه جميعاً نحو باريس ، وهي حاملة شباباً مثله لم يكونوا ينامون ، وهم يُطلون من فوق المترسة ، او ياصقون الأنف بالزجاج المظلم . وفكر : ليس هذا بالعدل . ان هناك الوفاً من الناس ، وربما ملايين ، عاشوا في عصور سعيدة ولم يعرفوا قط حدودهم : لقد ترك لهم ربح الشك : ربما كان الفريد دوفيني جباناً . وموسيه ؟ وسانت بوف ؟ وبودلير ؟ لقد كانوا محظوظين . وتمم وهو يضرب بقدمه : « اما انا ! ما كان لها قط ان تعرف ، وقد كانت تمضي في ان تنظر الي نظرة العبادة ، وما كانت لتبقى اكثر من الأخرى ، وكنت سأهجرها بعد ثلاثة أشهر . ولكنها الآن تعلم . انها تعلم . القحبة » وهي تمسكني .

وكان الظلام سائداً في الخارج ، ولكن في الحانة كان النور غزيراً جداً حتى ان غرولويس كان مبهوراً به . وكان ذلك أدهى الى الضحك ،

اذ ان الناس لم يكونوا يرون مصابيح : وانما كان ثمة انبوب طوبل
أحمر يتلوى حول السقف ، ثم انبوب آخر ، ابيض ، وكان الضوء
صادراً من هناك ، وكانوا قد ألقوا مرايا في كل مكان ، وفي المرأة
المواجهة ، كان غرولويس يرى رأسه برمته ، وجمجمة ستاراس ،
ولم يكن يرى ماريو ولا ديزي الذين كانا قصيرين جداً . وكان قد
دفع ثمن الطعام وثمان اربع دورات لأقداح الأيسون ، وطلب عرفاً ،
إذ هم جالسون في جوف الحانة ، تجاه المشرب ، وكان ذلك لذيذاً ،
يحيط بهم صخب قطفي مهدهد . وكان غرولويس يتفتح ، وكانت به
رغبة لأن يصعد على الطاولة ويغني ، ولكنه لم يكن يعرف الغناء . وكان
في احيان اخرى يغمض عينيه ، فيسقط في ثقب ويشعر بأنه مرهق كما
لو أن شيئاً فظيماً قد حدث له ، فيفتح عينيه ثانية ، ويحاول ان يتذكر
ما وقع ، ولكنه يتأكد آخر الأمر انه لم يحدث له شيء قط . ومهما يكن
من أمر ، فقد كان راضياً على الأغلب ، وكان متوتراً بعض الشيء
بكل بساطة ، ولكنه مرتاح ، وكان يجهد في ان يُبقي عينيه مفتوحين .
وكان قد مدّ ساقيه الطويلتين تحت الطاولة ، احدهما بين ساق ماريو ،
والأخرى بين ساق ستاراس . وكان يتطلع في المرأة فيضحك ، وحاول
ان يقلّد ستاراس ، ولكن لم يكن يستطيع ان يُحوّل عينيه ولا ان يحرك
اذنيه . وتحت المرأة ، كان ثمة سيدة صغيرة رصينة تدخن بتفكير ،
ولا بد انها ظنته بوجه اليها حركات وجهه ، لأنها مدت له لسانها ،
ثم حبست قبضتها اليمنى في يدها اليسرى ، وأغلقت القبضة اليمنى ثم
أخذت تُديرها وهي تفهقه . وصرف غرولويس عينيه مبهوناً ، وقد
أخذته الخوف من ان يكون قد جرحها .

وكانت ديزي جالسة بلسقه ، صغيرة ، صلبة ، حارة . ولكنها لم
تكن تشغل به . كانت رائحتها طيبة ، وكانت مزينة كما ينبغي ،
ولكن غرولويس كان يجدها أرسن مما يجب ، فهو يحب المغندرات

«الصغيرات الضاحكات اللواتي يقمن ببعض المضايقات ، كأن ينفخن في أذنك ، او يهمنن بكلام بذيء لا تفهمه على الفور . كانت ديزي منتعشة وجادة ، وكانت تتحدث عن الحرب مع ماريو بلهجة جدية ، وكانت تقول :

— سنخوضها هذه الحرب . فان وجب ان نخوضها ، خضناها . وكان ستاراس جالساً باستقامة على الكرسي ، تجاه ديزي ، وكان يبدو حفيظاً ، ولكن لاشك في ان ذلك كان بدافع المجاملة ، اذ لم يكن يفهم شيئاً . وكان غرولويس قد بدأ يميل اليه لالتزامه الهدوء وعدم غضبه . وكان ماريو ينظر الى ديزي نظرة خبث ، وكان يهز رأسه ويقول :

— انا لا اقول لا ، لا اقول لا .

ولكن لم يكن يبدو عليه انه مقتنع . وقالت ديزي :

— انا افضل الحرب على الإضراب ، الا تفضل انت الحرب على الإضراب ؟ ما عليك الا ان ترى إضراب عمال أحواض السفن ، كم كلف الجميع ، نحن والآخريين .

قال ماريو : — انا لا اقول لا .

وكانت ديزي تتكلم باجتهاد ولهجة شقية ؛ وكانت تهز رأسها وهي تتكلم ، وقالت بقسوة : ففي الحرب تنتهي الإضرابات . الجميع يعملون . آه ! آه ! ليتك رأيت البواخر عام ١٩١٧ ، كنت آنذاك طفلاً . وانا ايضاً كنت طفلة ، ولكني لا زلت اذكرها ، كما ترى . كانت هي «النوبة» اذ كنت ترى النيران حتى «الاستاك» ، وتلك الرؤوس التي كانت تُرى في الشوارع ؟ لقد كنت تحسب نفسك لا ادري اين ، فتشعر بالاعتزاز ، والصفوف للطويلة في شارع بوتاريل ، كان هناك انكليز واميركان واطليان وألمان وحتى هندوس ... آه ! وكما كانت امي تجمع من المال !!

قال ماريو : - ولكن لم يكن هناك ألمان ، فقد كنا في حرب معهم .
قالت ديزي : - اقول انه كان هناك ألمان ، في ثياب عسكرية-
ايضاً ، وعلى قبعاتهم شيء ما . الا تظن اني رأيتهم ؟
قال ماريو : - كنا في حرب معهم .

فهزت ديزي كتفها :

- هذا صحيح ، ولكن هناك ، في الشمال ، اما هؤلاء فلم يكونوا
بأتون من الفنادق ، وانما يصلون من البحر ، ليتاجروا .

ومرت بغبي "طويلة ، سمينة شقراء كالزبدة ، ولكن هيئتها كانت
أرخص مما ينبغي هي ايضاً . وفكر غرولويس : « انما تأتيهم هذه الهيئة
من السكنى في المدينة » وانحنت نحو ديزي ، وهي تبدو غاضبة :

- اما انا ، فلا احب الحرب ، هل تفهمين ؟ لأن أُستي مليئة
بالحرب ، واخي قد خاض حرب ١٤ ، فعلك تريدين ان يعود اليها ؟
ومزرعة خالي ، ألم تحترق ؟ الا يعني هذا شيئاً في نظرك ؟

وبدت ديزي مبهوتة لحظةً ما ، ولكنها ما لبثت ان استعادت رباطتها ،
وسألتها :

- انت اذن تفضلين الإضرابات ؟ قولها اذن ؟

ونظر ماريو الى الشقراء الطويلة ، فضمت من غير ان تلوي ، وهي
تهز رأسها . وجلست غير بعيدة عنهم ، وأخذت تتحدث بحماسة الى رجل
قصير حزين كان يمضغ قشّة . وكانت توميء الى ديزي وتتحدث بسرعة
مدهشة . ولم يكن الرجل القصير ليحجب ، وكان يمضغ قشّته من
غير ان يرفع بصره ، بل كان لا يبدو انه يسمعها . وقال ماريو
موضحاً :

- انها من « سيدان » .

فسألت ديزي : - اين هي ؟

- في الشمال .

فهزت كفيها :

- إذن لماذا تراها تهذي غاضبة ؟ أنهم معتادون في الشمال ،
وتشاءب غرولويس بكل قواه ، وتدحرجت دموع على خديه ، كان
خضجراً ، ولكنه كان مسروراً لانه كان يحب كثيراً ان يتشاءب . ورماه
مارو بنظرة سريعة . وأخذ ستاراس يتشاءب ايضاً .

وقال ماريو وهو يشير الى غرولويس :

- ان الرفيق متزعج ، فكوني لطيفة معه يا ديزي .

والفتت ديزي الى غرولويس ووضعت ذراعها حول عنقه . ولم تكن
بعد قط على هيئتها الرصينة :

- صحيح يا حبيبي انك ضجر ، والى جانبك فتاة جميلة ؟

وكان غرولويس يهم باجابتها حين لمح الزنجي . كان واقفاً امام
المشرب ، وكان يشرب مائماً أصفر في قدح كبير . وكان يرتدي ثوباً
أخضر وقبعة من قش ذات شريط متعدد الالوان . وقال غرولويس :
« آه ! حسناً » وكان ينظر الى الزنجي فيشعر بالسعادة . وسألته ديزي
مندهشة :

- ما بك ؟

فأدار رأسه نحوها ونحو ستاراس ونظر اليها في ذهول . كان خجلاً
من وجوده معهم . ونفض كتفيه ، ليُسقط ذراع ديزي ، ونهض
مقرباً من الزنجي يسرق الخطى . وكان الزنجي يشرب ، وكان غرولويس
يضحك من فرط السرور . وكانت ديزي تقول خلفه بلهجة مرة :
« ما الذي دهاه ، هذا المثقوب ؟ لقد ألمني » ولكن غرولويس لم يكن
ليكثر بها : لقد تحرر من ماريو وستاراس . ورفع يده اليمنى فوق
الزنجي وأرسل له ضربة كبيرة بين الراسلين . فاشك الزنجي ان يمتنع ؛
وقد سعل وبصق ثم استدار الى غرولويس بهيئة غاضبة . وقال غرولويس :

- هذا انا »

فقال الزنجي بصوت ثاقب : - أأنت مجنوناً يا ترى ؟
فردد غرولويس : - أنت ترى ان هذا انا .
قال الزنجي : - انا لا اعرفك .
فنظر غرولويس الى الزنجي في حزن :
- الا تذكر ؟ لقد التقينا امس ، وكنت قد سبحت في البحر ؟
وسعل الزنجي وبصق . وكان ستاراس وماريو قد نهضا ، ووقفوا
الى جانبي غرولويس .
وفكر غرولويس في غضب : « اتراهما لن يحلا عن ظهري ؟ »
وشده ماريو برفق من كفه وقال :
- هيا ، تعال . انت ترى جيداً انه غير راغب فيك ؟
فقال غرولويس بلهجة تهديد :
- بل هو الزنجي الذي ابحت عنه .
قال الزنجي :
- خذاه . ففي اية ساعة تتودانه الى النوم ؟
وكان غرولويس ينظر الى الزنجي وهو يُحس بأنه شقي : لقد كان
هو نفسه ، وكان جميلاً جداً ومرحاً جداً بتلك القبة القشية الجميلة ،
فما الذي يدعوه الى ان ينسى وان يكون عاقاً ؟ وقال :
- لقد سقيناك جرعة خمر .
وردد ماريو : - هيا ، تعال . ليس هو زنجيك : لانهم جميعاً
متشابهون .
وشد غرولويس على قبضتيه وألقت الى ماريو :
- « حلّ عن ظهري ، اقول لك . هذا لا يعينك .
فراجع ماريو خطوة ، وقال بلهجة قنقة :
- ان جميع الزنوج متشابهون .
وصاحت ديزي : - دعه يا ماريو . إنه وحش . وتعال الى هنا .

وكان غرولويس بهمّ بان يضرب، حين مُتّح الباب وظهر زنجي آخر يشبه الاول كل الشبه ، وهو يضع قبعة من قش ويرتدي ثوباً وردياً . ونظر الى غرولويس في غير اكتراث ، واجتاز الحانة بخطوة راقصة وذهب يرتفق المشرب . وفرك غرولويس عينيه ، ثم راح يجبل نظره بين الزنجيين ، وأخذ يضحك . وقال :

- لكأنه هو نفسه مرتين :

وعاد ماريو يقترب :

- اترى إذن ؟

وكان غرولويس مرتبكاً . ولم يكن يجب كثيراً ستاراس ولا ماريو ، ولكنه كان يشعر انه مذنب نحوهما . فأخذهما من ذراعيهما وقال موضحاً :

- كنت أحسب انه الزنجي الذي ابحت عنه .

وكان الزنجي قد اولاه ظهره وعاد الى الشرب . ونظر ماريو الى ستاراس ، ثم الفتا كلاهما الى ديزي . وكانت ديزي واقفة ، ويداها على خاصرتيها ، وكانت تنتظرهما . ولم يكن يبدو عليها انها مطمئنة ، قال ماريو :

- همّ !

فقال ستاراس : - همّ !

واستدارا على عقبيهما ، فأمسك كل منهما باحدى ذراعي غرولويس وسحياه . وقال ماريو :

- سوف نبحت عن زنجيك .

كان الشارع ضيقاً مقفراً ، وكانت تنبعث منه رائحة الملفوف ، وفوق السطوح كانت النجوم تلمع : وفكر غرولويس بحزن : « انهم جميعاً متشابهون » . وسأل :

- هل هناك كثير منهم في مارسيليا ؟

- كثيرٌ ممّن يا صديقي ؟

– كثير من الزوج ؟

فقال ماريو وهو يهز رأسه : – لا بأس بعددهم .
وفكر غرولويس : انني اسود تماماً ، وقال الربان : سوف اساعدك ،
وسأكون وصيفك . وكان ماريو قد امسك غرولويس من قامته ، وكان
الربان قد امسك التقيص من حملته ، ولم تستطع مود ان تمتنع عن
الضحك : « ولكنك تمسك به على المقلوب ! » وكان ماريو ينحني الى
أمام ، وكان يشد بقوة قامة غرولويس ويفرك رأسه بمعدته ويقول :
« انت صديقي ، اليس كذلك يا ستاراس ؟ انه صديقي الصغير ،
وأحدنا يحب الآخر » وكان ستاراس يضحك في صمت ، وكان رأسه
يلور ويدور ، وكانت اسنانه تلمع ، كان ذلك كابوساً ، وكان
رأسه يضحج بالصراخ وبالاضواء ، وكان يمضي نحو صراخ آخر واضواء
اخرى ، وهما لن يتركاه طوال الليل ، ضحكة ستاراس ، ووجهه
الأسمر الذي كان يصعد ويهبط ، وفم ماريو الصغير الذي كان يشبه
فم نمس ، لقد كانت به رغبة في التقيؤ ، وكان البحر يصعد ويهبط
في معدة بيار ، كان يعرف جيداً انه لن يعثر بعد ابدأ على زنجية ،
وكان ماريو يدفعه ، وكان ستاراس يجذبه ، كان الزنجي ملاكاً ، وانا
في الحميم : وقال :

– كان الزنجي ملاكاً :

وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه ، وكان ماريو يدفعه ،
وستاراس يجذبه ، وانعطفا الى زاوية الشارع ، وانغمض بيار حينه ،
ولم يكن ثمة بعد الا اشعة المصباح للغامزة على البلاط وخرير المياه المزهد
عند صدر السفينة .

المصابيح مغلقة ، والنوافذ مغلقة ، وكانت تنبعث رائحة البق
والفرمول ، وكان منحنيماً فوق الجواز ، وكانت الشمعة تضيء شعره
الرمادي المجمعّد ، ولكنها كانت تعكس ظل رأسه على الطاولة برمتها ،

« لماذا تراه لا يضيء الكهرباء ، فهو سوف ينتزع عينيه . » وتجنح فيليب : كان يحس نفسه غارقاً في الصمت والنسيان ، انا هناك موجود ، موجود أخيراً ، انني صلب ، افرض نفسي . انها لم تستطع ان تبلع لقمة واحدة ، ففي حلقومها كتلة دمع ، وهو مشدوه ، فاليد التي رفعها علي تتجفف ، وهو لم يكن ليتصورني قادراً على ذلك ، انا هناك قد ولدت ، ومع ذلك فانا هنا ، تجاه هذا النصير ذي الشارب الرمادي الذي نسبني تماماً . هنا ، هنا ! هنا حضوري الرتيب وسط العمى والاصم ، اذوب ظلاً ، وهناك ، تحت نيران الشمعدان ، بين الكرسي والاريقة ، انا موجود ، ولي شأن . وضرب بقدمه ، فرجع الشيخ عينيه ، عينيه الحسرتين ، القاسيتين ، الدامعتين والمتعبتين .

— هل كنت في اسبانيا ؟

قال فيليب : — نعم . منذ ثلاث سنوات .

— ان الجراز غير صالح بعد . وقد كان ينبغي تجديده .

قال فيليب بنفاد صبر : أعرف ذلك .

— انا ، الامر هندي سواء . هل تتكلم الاسبانية ؟

— كالفرنسية .

— اذا ظنوك اسبانياً ، كنت محظوظاً ، بشعرك الكتاني .

— هناك اسبان سُقر .

فهز للشيخ كتفيه :

— انا ، اقول لك ، لا يهمني ...

وكان يتلب صفحات الجوز بشرود . « اني انا هنا عند مزور . »

ولم يكن يبدو ذلك صحيحاً . منذ هذا الصباح ، لم يكن يبدو على شيء أنه صحيح . لم يكن المزور يشبه مزوراً ، وانما كان يشبه دركياً .

— انك تشبه دركياً .

فلم يُجب الشيخ ، وأحس فيليب بالانزعاج . اللامعني . لقد عاد

الى هنا مرة اخرى ، اللامعنى للشفاف والعشبة البارحة ، حين كنت
أمرّ عبر نظراتهم ، حين كنت زجاجاً متمايلاً على ظهر زجاج وكنت
أمرّ عبر الشمس . اني الآن ، هناك ، كثيف كالميت ، وتساءلت :
« اين هو ؟ ماذا يفعل ؟ اتراه مع ذلك يفكر بي ؟ » ولكن لم يكن
يبدو على الشيخ انه يعرف ان ثمة على الارض مكاناً اكون فيه جوهرة
ثمينة . قال فيليب :

— واذن ؟

فوضع الشيخ عليه نظره المتعب :

— ايكون بيتو هو الذي ارسلك ؟

— هذه هي المرة الثالثة التي تسألني فيها هذا . (وأضاف فيليب

في إندام) أجل ، ان بيتو هو الذي أرسلني .

قال الشيخ : — حسناً . في العادة أقوم بذلك مجاناً . اما انت ،

فهو يكلفك ثلاثة الاف فرنك .

فقط فيليب شفته على شاكلة بيتو :

— ارجو ذلك . فلم تكن لدي ثبة بان اطلب منك خدمة مجانية .

وتهقه للشيخ . وفكر فيليب في غيظ : ان رنة صوتي مزيفة . لست

أملك بعد الوقاحة الطيمية . لا سيما تجاه الشيوخ . فييني وبينهم حساب قديم

جداً من الصفعات التي لم يوف ثمنها . ويجب ان اردھا كلها قبل ان

استطيع التحدث اليهم نداءً لند .

وفكر في فورة : « ولكن الصفعة الاخيرة ، الاخيرة في الزمن ،

قد أُحيت . » وقال :

— تفضّل .

وسحب محفظته بجيوبية ووضع ثلاثة اوراق على الطاولة . فقال الشيخ :

— يا لك من ابله صغير ! اني الآن سأقبضها وأرفض ان اقوم

بعملك .

فنظر اليه فيليب في قان ، وتحرك ليسترد الاوراق : فنفجر الشيخ ضاحكاً . وقال فيليب :
- كنت احسب ...

وكان الشيخ ما ينفك يضحك ، وسحب فيليب يده في ما يشبه الغضب وأخذ يتسم وقال :

- انني اعرف الناس : اعرف انك ما كنت لتفعل ذلك .
وكيف الشيخ عن الضحك . وكان يبدو عليه المرح والاستياء :
- انه يعرف الناس . يا للممحوين المسكين ! انك تأتي الي ، ولم يسبق لك ان رأيتني من قبل ، وتخرج فلوسك فتضعها على الطاولة ، وهذا عمل يفضي بك الى الهلاك . هيا ، هيا ، دعني اعمل . انني آخذ منك الف فرنك على الفور ، فقد يخطر لك ان تغير رأيك . وستحمل لي الباقي حين تأتي لتأخذ اوراقك .

صفعة اخرى ، وسأردّها كلها . وجاءته الدموع في عينيه . وكان على حق بان يغضب ، ولكن ما كان يشعر به انما هو الدهول . كيف تراهم يفعلون جميعاً ليكونوا قساة الى هذا الحد ، انهم لا يلقون السلاح قط ، فهم ابدأ مترصدون ، وعند ادنى غلطة ينقضون عليك ويؤذونك . ماذا فعلت له ؟ ولهم هم ، هناك ، في الصالون الازرق ، ماذا فعلت لهم ؟ سأتعلم قواعد اللعب ، وسأكون قاسياً ، وسوف اجعلهم يرتجفون .

- متى يكون جاهزاً ؟

- غداً صباحاً .

- كنت اظن ... لم اكن اظن ان ذلك يقتضيك هذا الزمن الطويل ، قال الشيخ : - نعم ؟ والاختام ، انتظن انني اخترعها ؟ هيا ، اذهب ، وعد صباح الغد ، فليس الليل اطول مما ينبغي للقيام بعملك . وفي الخارج كان الليل ، الليل المغني الفاتر بكل شياطينه ؛ والخطى

التي ترن طويلاً خلفك ، من غير ان تجرؤ على ان تدبر رأسك ،
ليلاً في سانت اوان ، ان الحلي غير مأمون .

وسأل فيليب بصوت ابيض :

— في اية ساعة أستطيع ان أجيء ؟

— في الساعة التي تريد ، ابتداء من السادسة .

— هل هناك ... هل هناك فنادق قريبة ؟

— جادة سانت اوان ، وما عليك الا ان تختار . هيا ، اذهب .

قال فيليب في حزم: — سأعود في الساعة السادسة . X

وأخذ صندوقه الصغير ، فأغلق الباب وهبط الدرج . وانبثقت دموعه
هند سطيحة الطابق الثالث ، وكدن قد نسي ان يأخذ منديلاً ، فسح
هنيهة بكفه ، وتنشق مرتين او ثلاثاً ، اني لست جباناً . كان اللثيم
فوق يظنه جباناً ، وكان احتقاره يتبعه كأنه نظر . انهم ينظرون الي .
وسارع فيليب يهبط الدرجات الاخيرة . « الباب من فضلك » وتشاءب
الباب ، فغطس فيليب . اني لست جباناً وليس ثمة من يفكر بهذا
الا ذلك الشيخ القذر . والحق انه لا يفكر به بعد ، هكذا قال مقررآ .
انه لا يفكر بي بعد ، فقد بدأ العمل . وانطقاً النظر ، وحث فيليب
خطوه . « ماذا ، فيليب ؟ هل انت مذعور ؟ » « لست مذعوراً ،
لا أستطيع . » « الا تستطيع يا فيليب ؟ الا تستطيع ؟ » وكان قد
انزوى ثانية لدى الجدار . كن بيتو يلامس جنبيه وصدوره ، ويمس
حلمة ثدييه عبر التميمص ، ثم ارسل له ضربة على فمه باصبعين من
يده اليمنى « وداهأ يا فيليب ، اذهب ، فاني لا احب المذعورين . »
وكان الشارع قد عمر بالناثيل الليلية ، هؤلاء الرجال المستندين الى
الجدران لا يقولون شيئاً ، ولا يدخنون ، وينظرون اليك تمر ، بلا
حركة ، بعيونهم الملأى بالليل . كان يعدو تقريباً ، وكان قلبه يخفق
خفقاً امرع ، « ان من يراك يعرف انك جبان ، اذهب ، اذهب »

صبرون ، صبرون جميعاً ، صباتها كالأخرين ، صبقراً اسمي ، وسبقول :
« عجباً ! بالنسبة لولد من أسرة غنية ، بالنسبة لشاب صغير ، ليس
الامر شيئاً الى هذا الحد . »

الى يمينه فندق مضيء . وكان الخادم واقفاً على العتبة ، وكان يُحَوِّل
عينيه ، اتراه ينظر اليّ ؟ وابطأ فيليب في مشيته ، ولكنه خطا خطوة
اخرى فعبّر الباب ، ولا بد ان الخادم يُحَوِّل الآن في ظهره ، وكانت
الحشمة تقتضيه الا يعود أدراجه . الساقى يُحَوِّل او مبارزة العالقة ذوي
العين الواحدة . او هذا ايضاً : حكاية قدرة للعملاق ذي العين الواحدة ،
انه ينظر الى نفسه في المرآة ، ذات يوم ، لأنه كان يشعر بتأكل فوق
الخدّين : ان عيناً اخرى قد نبتت له بجانب الاولى ! اي يأس ! من
المستحيل ان ندعوهم الى التّعام بمناورات جماعية ، وبالطبع ، ظلت
العين الاولى وحدها اطول مما ينبغي ، كانت حصابة وحدها . وكان على
الرصيف المقابل فندق آخر ، فندق « كوتكارنو » ، بناء صغير في
طابق واحد . هل اذهب اليه ؟ وفكر : واذا سألوني عن اوراني ؟
ولم يجرؤ على العبور ، فاستعاد سيره على الرصيف نفسه . لا بد من
الجرأة ، ولكني هنا المساء لا املك منها ذرة ، فقد افرغني الشيخ ،
ونظر الى لافتة « قهوة ، خمر ، مشروبات » وفكر : او ربما كان
انفي مصاباً بضربة . ودفع الباب .

كان مقهى صغيراً فيه طاولتان فحسب ، وكانت نشارة الخشب تعلق
بالنعل . ونظر اليه صاحب المقهى بحدّر ، وفكر فيليب في غيظ : « ان
ثيابي آتق مما يجب » . وقل وهو يقترب من المشرب : « قلدح خمر »
فتناول صاحب المقهى زجاجة كانت سداتها مزودة بصنبور من النّلك ،
فسكب الخمر ، وكن فيليب قد وضع صندوقه الصغير وراح ينظر
اليه مسروراً : كان خيط من الخمر يسيل من صنبور النّلك ، وكان
كأنه يسقي خضاراً . وشرب فيليب جرعة وفكر : « لا بسد انه خمر
وديء » ، ولم يكن يشرب منه قط ، فقد كان له مذاق خمر مشيط ،

وقد حرق له حنجرته . وسارع يضع القدح : وكان صاحب المقهى ينظر اليه . أكان في عينيه المادنتين سخرية ؟ واخذ فيليب القدح ثانية وحمله الى شفّته بحركة مهمة : كان حلقومه يلهب ، وكانت عيناه تتبللان ، وشرب القدح جرعة واحدة : وحين وضعه ، أحسّ انه غير مكترث ، وجذل بعض الشيء . وفكر : « هذه فرصة للمراقبة » ، وكان قد اكتشف منذ خمسة عشر يوماً ، انه لم يكن يحسن المراقبة ، فانا شاعر ، وانا لا احل . ومنذ ذلك الحين كان يقسر نفسه على رسم البيانات والجردات ، حيث كان يستطيع ، فكان يقوم مثلاً بعدّ الاشياء المعروضة في واجهة . ورسم نظرة دائرية ، سابدأ بآخر صف من الزجاجات ، فوق ، خلف المشرب .. اربع زجاجات « بير » ، زجاجة « غودرون » ، زجاجتا « نوالي » ، كوز « روم » .

وكان شخص قد دخل ، عامل ذو قبعة . وفكر فيليب : « انه بروليتاري » . ولم تتح له الفرصة من قبل ان يلتقي بكثيرين ، ولكنه كان يفكر كثيراً بهم . كان رجلاً في حوالي اللاتين ، ذا عضلات ، ولكن بنيته غير منتظمة ، ذراعه أطول مما ينبغي وساقاه ملتويتان ، ولا شك في ان العمل اليدوي هو الذي شوهه ، وكان له تحت أنفه زغب صلب أصفر ، وكان يضع على قبعته شارة مثلثة الالوان ويبدو مستاءً ومضطرباً . وقال :

— قدح من الخمر الابيض ، بسرعة يا معلم :

فقال صاحب المقهى : — سنُعَلن :

فسأله العامل :

— لن ترفض تقديم قدح ايض لمجنّد !

وكان يتكلم بمشقة ، وبصوت أبحّ ، كما لو انه قضى نهاره وهو

يصبح . وقال موضحاً وهو يغمز بعينه اليمنى :

— انني ذاهب صباح الغد .

وتناول صاحب المقهى قدحاً وزجاجة ، وسأله وهو يضع القدح
على المشرب .

- واين انت ذاهب ؟

فقال الرجل : - الى سواسون . فانا تابع للدبابات .
ورفع القدح حتى فمه ، وكانت يده ترتعش ، وسال خمر على
الارض . وقال :

- سوف ننفذ الى لجومهم .

فقال صاحب المقهى : - هيه !

قال الرجل - نعم ، هكذا .

وضرب ضربتين بظاهر يده اليمنى على قبضته اليسرى . وقال
صاحب المقهى .

- يجب ان تحسن ذلك . فالخنازير اقوياء .

- اقول لك هكذا .

وشرب ، وطقطق بلسانه ، وغنى . وكان يبدو مهتاجاً ، متعباً ،
وكانت ملامحه تنفرج كل لحظة ، وعيناه تغمضان ، وشفاه تتدليان :
واكن سرعان ما كانت ترفع جفنيه قوة شديدة لا هواة فيها، وتشد الى
الاعلى شفثيه ، فكان يبدو فريسة منهكة لمرح لم يكن يريد بعد ان
يتهي . والفت الى فيليب :

- وهل انت مجتد ؟

فقال فيليب وهو يتراجع - بعد ...

- وماذا تنتظر ؟ يجب ان ننفذ الى لجومهم .

كان بروليتارياً : وابتم له فيليب ، وجهد في ان يخطو نحو
خطوة . وقال البروليتاري ..

- اني اقدم لك جرعة خمر أبيض . قدحان يا معلم : واحد لك ،

واحد له : انها دورتي .

فقال صاحب المقهى بقسوة : - لست عطشاً . ثم انها ساعة الاغلاق ،
لانا نهض في الرابعة .

ومع ذلك ، فقد دفع امام فيليب قدحاً ، وقال البروليتاري :
- سوف ندق اقداحنا .

ورفع فيليب قدحه . كان منذ لحظة في غرفة مزور ، وها هو يشرب
مع حامل . لو كانوا يروني ! وقال :
- نخبك !

فقال البروليتاري : - نخب النصر !
فنظر اليه فيليب في دهشة : كان يريد بلا شك ان يزح ، فالعمال
عن انصار السلام .
وقال الرجل :

- قل مثلي ه قل : نخب النصر !
وكان يبدو عليه الجذ والاستياء ، وقال فيليب :
- لا اريد ان اقول ذلك .

قال الرجل : - لماذا ؟
وكان يحرق الأرم . وقطعت جشأة كلامه . فيبيض عينيه ، وأرخی
شكته وتمايل رأسه لحظة بميوعة . وقال صاحب المقهى :
- قل مثله !

وكان البروليتاري قد تماسك ، فجاء يكلمه عن كذب ، وكانت راتحة
الخمير تنبعث منه . لن اقول : نخب النصر .
- الا تريد ان تقول : نخب النصر ؟ وتفعل هذا لي انا ؟ انا
المجنّد ؟ انا عسكري ال ٣٨ ؟

وقبض عليه البروليتاري من ربطة عنقه ودنعه الى المشرب :
- أنفعل ذلك معي : الا تريد ان تدق قدحك بقدحي ؟
ما عساه كان يفعل ، بيتو ؟ ما عساه كان يفعل ، لو كان مكاني ؟

وقال صاحب المقهى بصوت قاسٍ :
- هيا ، افعل ما يقوله لك : فانا لا اريد مشاكل . ثم ارجوكما
ان تخليا المكان ، فانا أنهض في الساعة الرابعة .
وأخذ فيليب قلدحه وتتم :
- نخب النصر :

وشرب ؛ ولكن حنجرتة كانت منقبضة ، وحسب انه لن يستطيع
ان يتلع . وكان الرجل قد تركه وهو يقهقه بهيئة مكفية ، ماسحاً
شاربه بظاهر يده . وقال موضعاً لصاحب المقهى :
- لم يكن يريد ان يقول : نخب النصر . وأمسكتك من ربطة
العنق : أتفعل ذلك معي ، ايها الفرنسي الرديء ؟ مع مجتد ، مع
عسكري الـ ١٤ ؟

ورمى فيليب قطعة من اربعين فلساً على الطاولة ، وتناول صندوقه ،
وعجل بالخروج . كان ذلك رجلاً حريداً ، وكان لا بد من الاستسلام ،
وقد كان بيتو يستلم : اني لست جباناً .
- هيه ! اسمع ، ايها الشاب الصغير !

وكان الرجل قد خرج في أعقابه ، وسمع فيليب صاحب المقهى
يغلق الباب ويدير المفتاح . فأحس بأنه مثلج : كان يخيل اليه انها
كانا يُجسسان معاً . وقال الرجل :
- لا تهرب هكذا : قلت لك ان علينا ان ننفذ الى لحومهم . وهذا
يستحق الاحتفال .

واقرب من فيليب ولف عنقه بلذاعه ، وكان ماربو قد أخذ ذراع
غرولويس وراح يشده بحنان ، كان ذلك هو الجحيم ، وكانوا يمشون
في الأزقة المظلمة ، ولم يكونوا ليقفوا قط ، فان غرولويس كان
متضيقاً جداً ، وكانت به رغبة في التقيؤ ، وكانت اذناه تطنان :
قال فيليب :

- الواقع اني مستعجل بعض الشيء .

وسأل غرولويس : - اين نذهب ؟

- سنبحث عن زنجيتك .

- انك لني تخدعني . فحين ادفع للشرب ، فيجب ان تشرب .

مفهوم ؟

ونظر غرولويس الى ماريو فأخذه الخوف . كان ماريو يقول :
« واذن يا صديقي ، يا صديقي الصغير ، انت متعب يا صديقي ! »
ولكن وجهه كان قد تغير . وكان ستاراس قد أخذ ذراعه اليسرى ، كان ذلك هو الجحيم . وحاول ان يحرر ذراعه اليمنى ، ولكنه أحسّ الماء شديداً في مرفقه ، فقال :

- ولكن اسمع انت ، انك تحطم لي ذراعي :

وغطس فيليب فجأة وأخذ يعدو . انه عرييد ، ولا بأس من الفرار امام عرييد . وترك ستاراس ذراعه فجأة وتراجع خطوة . واراد غرولويس ان يلتفت ليري ما كان يدبره ، ولكن ماريو كان منشئاً بذراعه ، وكان فيليب يسمع خلفه نفساً قصيراً : « عكروك صغير ، قدر ، انا لا اخاف ، وسوف اؤدبك ، انا ! » « ماذا دهاك ، يا صديقي الصغير ، ماذا دهاك ؟ ألسنا بعد اصدقاء ؟ » وفكر غرولويس : سوف يقتلاني ، وكان الخوف يثلجه حتى العظام ، فقبض على ماريو من عنقه بيده الفارغة ورفعته عن الارض ، ولكن في اللحظة نفسها ، انشقت رأسه حتى ذقنه ، فترك ماريو وسقط على ركبتيه ، وكان دمه يسيل على حاجبيه . وحاول ان يتناسك بان يتعلق بمعطف ماريو ، ولكن ماريو قام بقفزة الى الخلف ، ولم يره غرولويس بعد ذلك . كان يري الزنجي الذي يتزلق على الارض ولكن من غير ان يمسه ، ولم يكن يشبه قط سائر الزنوج ، وكان قادماً نحوه ، مفتوح الذراعين ، ضاحكاً ، فقد غرولويس يديه ، وكان في رأسه ذلك الألم النحاسي الهائل ، وصاح :

به : الى النجدة ، فتلقي ضربة اخرى على أم رأسه وسقط وانفه في
الساقية ، وكان فيليب ما يزال يركض ؛ فندق كندا ، وتوقف ،
واستعاد نفسه ونظر خلفه ، فاذا هو قد نخلص منه . وشدّ ربطة
حرقه ، ثم دخل الى الفندق بخطى موزونة .

تمايل ، ارتجاج ، تمايل ، ارتجاج . كانت اهتزازات الباخرة تصعد
طولياً في ربلاته وفخذيته وتنتهي ميتة في أسفل بطنه وقد اصبحت ارتعاشات
كثيفة . ولكن رأسه ظلّ حراً ، وكل ما حدث تقيؤاً او تقيؤان
حازمان بعض الشيء . وكان يشدّ بقوة على دريزون المترسة بين يديه .
الساعة الحادية عشرة ، كانت السماء تنغل بالنجوم ، وكانت ناراً حمراء
ترقص بعيداً فوق البحر ، ربما كانت هذه هي للصورة الاخيرة التي
تعود الى عيني ، وتثبت فيها الى الأبد ، حين أكون في حفرتي مقلوباً ،
وفكّي متزعّج ، تحت سماء متواترة اللمع . هذه الصورة الصافية السوداء ،
مع هذا الخفيف من النخيل ، وهذا الحضور للناس ، البعيد جداً خلف
فاره الحمراء ، في الظلام . لقد رأهم ، في الثياب العسكرية ، متلاصقين
كالسردين خلف مناراتهم ، منسربين بصمت نحو الموت . وكانوا ينظرون
اليه من غير ان ينبسوا ، وكانت النار الحمراء تنسرب على الماء ، كانوا
ينسربون ، وكانوا يمشون صفّاً امام بيار وهم ينظرون اليه . لانه يكرههم
جميعاً ، وهو يحسّ نفسه وحيداً مصدوماً تحت اعين الليل المزدرية ؛
وقد صاح بهم : انا المحقّ ، انا المحقّ ، اني على حق بان أخاف ،
فقد صنعت لأعيش ، لأعيش ، لأعيش ! لا لأموت : فلا شيء
هناك يستحق ان أموت من أجله . انها لا تجيء ، فأين حساها تكون ؟
وانحنى فوق الجسر المقفر . ايتها القدرة ! ستدفعين لي ثمن هذا الانتظار .
لنمّد عرف عارضات وفتيات رائعات الجسم ، ولكن هذه المزيانة الصغيرة
الأقرب الى التشوّه ، كانت اول امرأة يشتهيها بهذا العنف . انه يعبد
ان يلامس رقبتها ، عند منبت الشعر الأسود ، وأن يصعد اغتلام

البطن الى الرأس بهدوء، وان يعكّر أفكاره الصغيرة الواضحة، سأضاجعك ،
سأضاجعك ، وسأدخل في احتقارك فأنتبه كأنه قفاعة ، وحين تمتلئين .
مني وتصرخين « يا حبيبي بيار » وانت تديرين عينين بيضاوين .
فسرى ماذا يحلّ بنظرك المحتقِر ، سرى اذا كنت ستسمّيني جباناً .
« الى اللقاه ايتها العزيزة ، ايتها الصديقة العزيزة ، الى اللقاء ،
هودي ، عودي ! »

كان ذلك همساً نثره الهواء . وأدار بيار رأسه ، فذلف الهواء الى
اذنه . هناك ، فوق الجسر الامامي ، كان ثمة مصباح صغير معلق فوق
غرفة الربان يضيء ثوباً ابيض قد نفخه الهواء . وهبطت ذات الثوب
الايض الدرج بهدوء ، وهي تمسك بالحاجز ، بسبب الهواء والارتجاج .
وكان ثوبها المتفخ تارة والملتصق تارة اخرى بفخلها يشبه جسماً يذق .
واخضت فجأة ، ولا بد انها تعبر ما بين الجسرين ، وسقطت الباخرة
في ثقب ، وكان البحر فوقها ، ابيض اسود ، ثم صعدت بمشقة ، فبدت
رأس المرأة وهي ترقى سلم الدرجة الثانية . لهذا السبب اذن غيروا
لهنّ الغرفة . كانت عريقة ديقة ، مبعثرة الشعر قليلاً ، وألّت ببيار
من غير أن تراه ، بهبتها الشريفة الرصينة .

وتتم بيار : « فحبة ! » وأحسن نفسه غارقاً في ضجر شديد .
ولم تكن له فيها رغبة بعد ، ولم تكن له رغبة بعد في ان يعيش .
وكانت الباخرة تسقط وتسقط في جوف البحر ، وكان بيار يسقط خفيفاً
كالقطن رخواً ، وتردد لحظة ، ثم ترك لقمه ان يتمليء بالصفراء ،
فانحنى على الماء الأسود وقاه من فوق الجسر .

قال الخادم : « القسيمة الصغيرة ، الآن »
ووضع فيليب صندوقه ، وأخذ الريشة فغطها في الجبر . وكان الخادم
ينظر اليه ، ويدها متشابكتان خلف ظهره : أكان يحنق تناوياً ام ضحكة ؟
وفكر فيليب في غضب : لأنني انيق اللباس . إن جميع الناس يقفون عند

«الملبس ، اما الباقي فلا يرونه . وكتب بيد ثابتة :

ايزيدور دو كاس .

رحالة تجارة .

وقال للخادم وهو ينظر في عينيه : « لصحبي » .

فتناول الخادم عن اللوحة مفتاحاً كبيراً وصعدا ، أحدهما خلف الآخر . وكان الدرج مظلماً ، فقد كانت المصابيح الزرق تضيئه من بعيد لبعيد ؛ وكان حذاء الخادم يخفق على الدرجات الحجرية . وخلف أحد الابواب ، كان طفل يبكي ؛ وكانت رائحة المراحيض منبعثة . وفكر فيليب « انه بيت مؤثث » . بيت مؤثث ، تلك كانت عبارة حزينة غالباً ما قرأها في روايات طبيعية ، فكان دائماً ينفر منها . وقال الخادم وهو يضع المفتاح في قفل : /

- هذه هي .

وكانت غرفة واسعة ذات أرض مربعة ؛ وكانت الجدران مطلية بالمغرة حتى منتصفها ، وبعد ذلك بالأصفر الكاوي حتى السقف . كرسي واحدة ، وطاولة واحدة : وكانتا تبدوان ضائعتين في وسط الغرفة ؛ نافذتان ومغسلة تشبه بلوعة مطبخ ، وسرير كبير عند الجدار . وفكر فيليب : « لقد وضعوا سرير العرس في المطبخ » .

ولم يكن الخادم ليذهب . وقال في بسمة : X

- الاجرة عشرة فرنكات . وسأطلب اليك ان تدفع فوراً .

فد له فيليب عشرين فرنكاً وقال :

- احتفظ بها كلها ، وأيقظني عند الساعة الخامسة والاصف .

فلم يبد على الخادم انه متأثر ، وقال وهو يتضي :

- مساء الخير يا سيدي . ليلة سعيدة .

وارهف فيليب اذنه لحظة ، وحين كف عن سماع رنين الحذاء على السلدركات ، ادار المفتاح مرتين في القفل ، ووضع المزلاج وحمل الطاولة

فأسبدها الى الباب ، ثم وضع الصندوق على الطاولة ونظر اليه مرتخي الذراعين . وانظماً شمعدان الصالون ، وانطفأت شمعة المزور ، وأكل الظلام كل شيء . ظلام مغفل . وهذه الغرفة الطويلة العارية ، كانت وحدها تلمع في الظلام ، فاقدة الشخصية كالليل . وكان فيليب ينظر الى الطاولة مخدراً لا عمل له . وتناوب . ولم يكن مع ذلك ناعساً : كان فارغاً . ذبابة منسبة تستيقظ في بدء الشتاء ، اذ يكون جميع الذباب الآخر ميتاً ، ولا تملك بعد القدرة على الطيران . كان ينظر الى الصندوق للصغير ويقول لنفسه : يجب ان افتحسه ، فينبغي ان آخذ منامتي . ولكن الرغاب كانت تتخدر في رأسه ، فلا يتأني له حتى ان يرفع ذراعه . كان ينظر الى الصندوق الصغير . وكان ينظر الى الجدار ويفكر : ما الفائدة ؟ ما جدوى الامتناع عن الموت ما دام هذا الجدار موجوداً هنا ، قبالي ، بألوانه الفدرة المزدهوة ؟ ولم يكن حتى خانفاً بعد .

وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ! لم يكن خائفاً بعد ، كان الطست يصعد ويهبط ، مليئاً بالزبد ، وكان هو يصعد ويهبط ، متمدداً على ظهره ، ولم يكن خائفاً بعد . وسوف يغضب الخادم حين يدخل لأني قُتت على الارض ، ولكن طز فيه . كان كل شيء عذباً جداً ، الماء في فمه ، ورائحة القيء ، وهذه الكرة في صدره ، لم يكن جسمه الا عدوية ، ثم هذه العجلة التي كانت تدور وتدور وتدور وهي تسحق جبينه ، كان يراها وكان يتسلى بان يراها ، كانت عجلة سيارة تاكسي مع دولاب رمادي مستعمل . كانت العجلة تدور ، وكانت الافكار المألوفة تدور وتدور ، ولكنه لم يكن يكثرث بها ، فهو يستطيع اخيراً ان لا يكثرث بها ، فبعد ثمانية ايام سيطلقون علي النار في « آرغون » ولكن لا يهمني ، إنها تحتقرني ، وتفكر بأني جبان ، ولكن طز ، ما عسى ذلك ان يهمني اليوم ، ما عساه يهمني ؟ طز ، طز ، اني

لا افكر بشيء ، ولا أخاف شيئاً ، ولا آخذ على نفسي شيئاً .
وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ، ما ألدّ ان لا يكثر
الانسان بشيء !

الساعة الحادية عشرة ، احدى عشرة ضربة في السكون . ومدّ يده
ففتح الصندوق الصغير، وكان خدّه الأيمن يحرقه كالمشعل ، الساعة الحادية
عشرة ، وأضاء الشمعدان في الليل ، كانت جالسة في الاريكة ، مكتومة
ممتلئة ، بذراعيها الجميلتين العاريتين ، وكان خده يحرقه ، وكان العذاب
يعود من جديد ، وكانت اليد ترتفع ، والحد يحرق ، لست جباناً ،
لست جباناً ، ونشر منامته ، الساعة الحادية عشرة ، ليلة سعيدة يا ماما ،
كنت أقبّل محظية الجنرال على وجنتيها المعطرتين ، وانظر الى ذراعيها ،
وانحني امامه ، ليلة سعيدة يا ابي ، ليلة سعيدة يا فيليب ، ليلة سعيدة
يا فيليب . هذا بالأمس . هذا بالأمس فقط . وكان يفكر في ذهول :
كان هذا بالأمس . ولكن ما الذي فعلته ؟ ما الذي حصل منذ ذلك
الحين ؟ لقد وضعت منامي في صندوق الصغير ، وخرجت كما أخرج
كل يوم ، فاذا بكل شيء يتغير : لقد سقطت صخرة خلفي على الطريق
فحفرتها ، فليس في مكنتي بعد أن اعود ادراجي . ولكن متى ، متى
حدث هذا ؟ لقد أخذت صندوق الصغير وفتحت الباب جهوداً، وهبطت
الدرج ... كان ذلك بالأمس . انها جالسة على الاريكة ، وهو واقف
امام المدفأة ، أمس . الجو للبد ورائق في الصالون ، انا فيليب غرازيني ،
ابن زوجة الجنرال لاكاز ، ليسانس ادب ، شاعر المستقبل ، أمس ،
أمس ، أمس الى الأبد . كان قد نزع ثيابه ، فارتدى منامته : وفي
الغرفة المؤنثة ، كانت حركاته حركات جديدة مترددة ، وكان ينبغي
تعلمها . كان الـ « رامبو » في الصندوق الصغير ، فركه فيه ، ولم
تكن له رغبة في القراءة ، مرة واحدة ، لو صدقتني مرة واحدة ،
ولو وضعت ذراعيها الجميلتين حول عنقي ، ولو قالت لي ، اني واثقة ،

فالت شجاع ، وستكون قوياً ، لما ذهبت . انها محظية ، كانت تحمل
 الى غرفتي كلمات الجنرال ، كلمات متحجرة ، وكانت تلقبها ، فهي
 أنقل من ان تتحملها ، وتدحرجت الكلمات تحت السرير ، ولقد تركتها
 تتكدس طوال خمسة اعوام ، يكفي ازاحة السرير للعثور عليها جميعاً ،
 وطن ، شرف ، فضيلة ، اسرة ، في الغبار ، وانا لم اسمي استعمال
 اي منها لمصلحتي . وكان قد ظل عاري القدي على البلاط ، فعضس ،
 سأخذ برداً ، وكان الزر بالقرب من الباب ، فأطفأه وتوجه الى السرير
 مثلماً ، وكان يخشى ان يسير على حشرات ، من مثل العنكبوت
 الكبير الذي له ارجل كأصابع الانسان والذي يشبه يداً مقطوعة ، او
 رتيلاء ، ماذا لو كانت هنا واحدة ، ماذا لو كانت هنا واحدة ؟
 واندس تحت الغطاء ، فصرّ السرير . كان خده يحترق ، مشعل في
 الليل ، لب احمر ، فأسنده على الوسادة ، انهم ينامون ، وقد ارتدت
 هي قبصها الوردية ذا التخاريم : تصور ذلك ، هذا المساء ، هو أقل
 مشقة والمأ ، انه لن يستطيع هذا المساء ان يمسه ، فيشعر بالحجل ،
 وهي ، المحظية ، لن تنداعى لذلك مها كان ، بينما يكون انها يتصور
 برداً وجوعاً في الطرقات ، انها تفكر في ، وهي تتظاهر بالنوم ،
 انها تراني ممتعاً صلباً ، متشنج الشفتين ، جاف العينين ، تراني امشي
 في الليل ، تحت النجوم . انه ليس جباناً ، ليس صغيري جباناً ،
 صغيري ، ولدي ، حبيبي : ليتني هناك ، ليتني استطيع ان اكون
 هناك ، من اجلها وحدها ، فأشرب هذه الدموع التي تندحرج على
 خديها والامس تينك اللدراعين الجميلتين الرقيقتين ، ماما ، يا امي
 الصغيرة . وقال صوت غريب في اذنيه : ان الجنرال مستشار : وانفك
 مثلث أخضر ، واخذ يدور ، الجنرال مستشار :
 كان المثلث يدور ، انه رامبو ، وكبر كالفطر ، وأصبح جافاً
 متصلب القشرة ، التهاباً في الخد ، في النصر ، في النصر ، وخب

النصر . لست جباناً ، صاح فيليب ، وقد استيقظ منتفضاً : كان
جالساً على السرير ، والعرق يسيل منه ، وعينه ثابتتان ، وكان ينبعث
من الغطاء رائحة الكبريت ، بأي حق هم شهودي ؟ الغلاظ . انهم
يحكمونني وفق قواعدهم ، وانا لا اقبل الا قواعدي . إن لي اعيادي
للزاهية ! ولي كبريائي ! فأنا من جنس السادة . وفكر في غضب :
آه ! فيما بعد ! يجب الانتظار ! فيما بعد سيضعون لوحة مرمرية على
جدار هذا الفندق : هنا قضى فيليب غرازيني ليلة ٢٤ - ٢٥ ايلول
١٩٣٨ . ولكني سأكون ميتاً . وتسرب من تحت الباب همس غامض
عذب . وفجأة مات الليل . وكان ينظر اليه من اعماق المستقبل ،
بعيون هؤلاء الرجال اللابسين المعطف الاسود والذين كانوا يخاطبون تحت
اللوحة المرمرية . كانت كل دقيقة تتسرب في الظلام ، ثمينة مقدسة
منصرمة . وذات يوم ، ستكون هذه الليلة قد انصرمت ، مجيدة منصرمة
كليالي مالدرور ، كليالي رامبو . ليلي . وقال صوت رجل :
« زبزيت » فتهافت الكبرياء ، وتمزق الماضي . وكان الحاضر . ودار
المفتاح في القفل ، فقفز قلبه الى صدره . لا ، هذا في الباب المجاور .
وسمع باب الغرفة المجاورة يصر ، وفكر : « انها على الاقل اثنان ،
رجل وامرأة »

كانا يتكلمان . ولم يكن فيليب يسمع كل ما يقولانه . ولكنه فهم
ان الرجل كان يدعى موريس ، فطمأنه ذلك قليلاً . وعاد الى النوم ،
فمد ساقيه ، وابتعد عن ذقنه الغطاء خشية ان يلتقط بثوراً . وارتفعت
اغنية صغيرة على الناي ، اغنية صغيرة غريبة .
قال الرجل بلطف : - لا تبكي ، لا تبكي ، فهذا لا يفيد
شيئاً ..

وكان له صوت حار قاس يتناول الكلمات بجفاء ودفع ، فتخرج
من جوف حلقه مسرعة تارة بطيئة تارة ، خشنة حامية ، ولكنها كانت

تمتد كلها في تموج غامض عذب . وانقطع الناي بعد خرقة او خرتين .
وانحنى عليها ، فأخذها من كتفها . وكان فيليب يحس يدين قويتين
على كتفيه ، وكان وجهه ينحني فوقه ، وجه هزيل اسمر ، اسود تقريباً ، ذو خدين
مزرقتين ، واذن يشبه انف ملاكم ، وفم جميل مَر ، فم زنجي .
وردد الصوت :

- لا تبكي يا صغيرتي ، لا تبكي ، هدئي نفسك .

وهذا فيليب تماماً . وكان يسمعها يروحان ويجيشان ، وكأنها في
غرفتي . وسحب شيئاً ثقيلاً على الارض ، ربما كان السرير او صندوقاً ،
ثم خلع الرجل حذاءه .

قالت زيزيت : - الاحد القادم ،

وكان لها صوت اكثر ابتداءً ولكنه اكثر غناءً . وكان يراها
رؤية اسوأ : ربما كانت شقراء ذات وجه ممتنع جداً ، كسونيا في
« الجريمة والعقاب »

- واذن ؟

- اوه ! موريس ، لقد نسيت ! كنا متفقين على ان نذهب الى
« كورباي » ، لدى جان .
- ستذهبن بدوني .

قالت : - لن تكررن لدي الرغبة في الذهاب اليها .
وخفضا صوتهما ، فلم يكن فيليب يفهم ما كانا يقولان ، ولكنه
كان يستشعر السعادة لأنهما كانا حزينين . كانا من البروليتاريا
بيروليتاريين حقيقيين . اما ذلك فقد كان عربيداً فقط .

وسألت زيزيت : - هل كنت في نانسي ؟

- في الماضي نعم .

- وكيف هي ؟

- لا بأس .

— ارسل لي رزقه من البطاقات البريدية . اريد ان اتصور حيث تكون .

— ولكنهم لن يتركونا فيها ، لو تعلمين ،
بروليتاري حقيقي . إنه لم يكن راغباً في خوض الحرب ، ولم يكن
يفكر في النصر : كان ذاهباً ، في حزن عميق ، لأنه لم يكن يستطيع
ان يفعل شيئاً آخر . قالت زيزيت :

— يا حبيبي الكبير .

وصمتا . وكان فيايب يفكر : « انها حزيناان » : وبللت عينيه
دموع عذبة . ملاكان حزيناان رقيقان . سأدخل وامد لهما يدي ، واقول
لها : « انا ايضاً حزين ، بسبيكما ، مع اجلكما . ومن اجلكما تركت
بيت اهلي : من اجلكما ومن اجل جميع الذين يذهبون الى الحرب : »
منقف انا وموريس الى جانبيها ، وسأقول لها : « اني شهيد السلام »
واغض عينيه وقد هدأ : انه لم يكن بعد وحده ، فقد كان هناك
ملاكان حزيناان يحرسان نومه : الشهيد ، نائما على ظهره ، كصريع
من حجر ، وملاكان حزيناان عند سريره ، ومعهما غصون النخيل :
كانا يتمتان ، يا حبيبي الكبير ، يا حبيبي الكبير ، لا تركني ، احبك
وكلمة اخرى عذبة وثمينة ، لا يذكرها بعد ، ولكنها كانت ارق
الكلمات الرقيقة ، كلمة دارت واشتعلت كإكليل من نار ، وحملها فيليب
في نومه .

قال غرولويس « هكذا اذن ، هكذا اذن ا » وكان قد جلس
على الرصيف ، ولم يكن ليتصور قط ان بإمكانه ان يعاني مثل هذا
الالم في مجتمه ، كان كل وجع يوقظ فيه خلواً جديداً : وقال :
« اوه ! اما ذلك ، آه طز اذن ا » وحمل يده الى خده . فأحس
بالزوجة وكان ذلك يدغدغه ، ولا بد انه دم . وقال : « إذن سأضمد
نفسي برباط . اين تراهما قد وضعا كيسا ؟ » وتلمس في ما حوله ،

فالتقت يده شيئاً قاسياً ، واذا هي محفظة ، وتساءل : « اتراهما قد
فقدنا محفظتهما ؟ » فأخذها وفتحها ، فاذا هي فارغة . وبحث في جيبه
فأخذ عود ثقب وحكته بالزفت : وكانت المحفظة محفظته : وقال
ملاحظاً : « إذن حسناً ، ليس الامر رديئاً الان » وكان دنتره العسكري
قد بقي في جيب صدرته ولكن المحفظة كانت خالية . « ما الذي
سأعمله ؟ » وكان ما يزال يفتش الأرض بيديه ، وقال : « لن اذهب
الى رجال الشرطة ، فهذا ما لا يُعمل » وانغض عينيه لحظة واخذ ينفخ :
كان رأسه يؤله جداً حتى انه كان يتساءل عما اذا لم يكن في داخله /
ثقب ، ولمس رأسه في حيلة ، فلم يكن يبدو عليه انه مشقوق ،
ولكن الشعر كان قد تجمد في طاقات لزجة ، ثم انه كان يكفيه ان
يشد قليلاً حتى يحس كما لو انه كان يُطرق بمطرقة . وقال : « لا
يروق لي ان اذهب الى الشرطة ، ولكن ما الذي سأفعله ؟ » وكانت
عيناه تألفان الظلام ، فميز كتلة غامضة ، على بعد امتار منه ، على
الطريق . انه كيس . ومشى على اربع ، لانه لم يكن يستطيع ان
يتسك على ساقيه : « ما هذا ؟ » كان قد وضع يده في مستقع ،
وفكر بقلب متفرض : « لقد كسروا زجاجتي » . وأخذ الكيس فإذا
التماش مبلل والزجاجة شظايا . وقال غرولويس : « اوه ! لقد بالنا
كثيراً ! » وترك الكيس ، وجلس في جدول الخمر ، وسط الشارع
واخذ يبكي ، وكانت الغصبات تمر من انفه وتهزه ، وكان لديه
إحساس بأن رأسه ينفجر : انه لم يبك مثل هذا البكاء منذ موت
العجز ، كان شارل عارياً تماماً ، وساقاه في الهواء ، امام ست ممرضات
خدمت اشد من خضرة جناحيها وحركت فكها ، وكان هذا يعني :
صالح للخدمة ، وتضامل ماتيو واستدار ، وكانت مارسيل تنتظره ،
منفرجة الساقين ، وكانت مارسيل لعبة كبيرة الفم ، وحين اصبح

ماتيو كومة كله ، قذفه جاك ، فسقط في ثقب الصواريخ الاسود ، سقط
 في الحرب ، وكانت الحرب مستعرة ، وحطمت قبلة الزجاج وتدرجت
 هند اسفل السرير ، وانتصبت ايفيش ، فتفتحت القبلة ، فاذا هي
 باقة زهر ، خرج منها اوفانباخ ، وقالت ايفيش : « لا ترحل ، لا
 تذهب الى الحرب ، وإلا فما هو مصيري ؟ » نصر ، وكان فيليب
 يشك الحربة بالمدفع ، ويهتف بالنصر ، النصر نخب النصر ، فهرب
 القياصرة الاثنا عشر ، وكانت القيصرة محررة ، وحل قيوده ، وكانت
 حارية ، قصيرة وسمينة ، وكانت تحول نظرها ، وكانت المتفجرات
 والمتفرقات تعدو نحو الربان بكل قوة اوتيتها قدماها ، وكان بيسار
 يقبض عليها من ظهورها ويضعها في حزمته ، التي كانت المستودع ،
 ولكن الرابعة ارادت ان تطير ، فقبض عليها من اغمادها ، وهي ضاحكة
 ضاحكة ، فانفجر ضاحكاً واخذ ينتف ريشها ، وكانت المفرقات قد
 اكلت خديته ولثتيه ، ولكن بقيت عيناه ، عيناه الكبيرتان المليتان
 بالاحتقار ، وفرّ بيار مطلقاً لساقيه العنان ، كان يهرب من الجنديّة ،
 ويهرب ، ويعدو في الصحراء ، وسألته مود : « هل استطيع ان ارفع
 ادوات المائدة ؟ » وكان فيغيه ميتاً ، وكان يشعر ، ونزع دانيال
 بنظلولونه ، وكان يفكر : هناك نظر ، وكان ينتصب امام نظر ، جبان
 لوطي ، لثيم ؛ كأنه تحد : انه يراني ، يراني كما انا . ولم يكن
 هانوكين يستطيع النوم ، كان يفكر : اني مجند ، وكان ذلك يبدو
 له غريباً ، وكان رأس جارته يثقل على كفه ، وكانت رائحته شعراً
 وزيتاً ملمعاً ، وكان يترك ذراعه تسقط وتلامس فخذها ، وكان ذلك
 للذيلاً ، ولكنه متعب بعض الشيء . كان قد سقط على بطنه ، ولم يبق
 له بعد ساقون . وصاحت : « حبيبي » وقال الصوت النائم : « ماذا
 تروين ؟ » قالت اوديت : « كنت أحلم ، ثم يا حبيبي ، ثم »
 واستيقظ فيليب متنفصاً : لم تكن تلك صبيحة الديك ، وانما كان انين

امراً رقيقاً ، هاه ، هاه ، هاه ، وظن اولاً انها كانت تبكي ،
ولكن لا ، فقد كان يعرف جيداً تلك الشكاوى ، وقد استمع اليها
غالباً ، اذ كان يلصق اذنه بالباب ، وهو ممتنع من الغضب والبرد ،
ولكن ذلك لم يكن يثير اشتوازه هذه المرة . كان شيئاً جديداً ورقيقاً ،
موسيقى الملائكة .

قلت زيزيت بصوت أبح : - هاه ، كم أجبك ، اوه ، اوه ،
اووهو هاها !

وساد صمت : كان يثقل عليها بكل جسمه الصلب ، الملاك الجميل
ذو الشعر الاسود والشم المر . فكانت مسحوقة ريباً . واستقام فيليب
فجأة وجلس ، وفي فمه مرارة ، والحسد يفري قلبه . ومع ذلك فقد
كان يحب كثيراً زيزيت :
(ها أه)

وتنفس : كانت صرخة قاطعة ونهائية : لقد انتهيا . وبعد لحظة ،
سمع صفقاً مبللاً : كانت اقدام عارية تركض على البلاط ، وغنى
للصنبور ، عصفور في الاغصان ، وأجريت جميع مجاري الماء بفرقات
مربعة . وكانت زيزيت قد عادت الى موريس ، فصرخة كل النضارة ،
باردة الساقين ، وصرخة السرير ، واستلقت بالقرب منه ، في السرير
المحرق الرطب ، وشدت جسدها الى جسده ، وكانت تشم رائحة
هرقه الحمراء .

- اذا مت ، فلن يبقى لي الا ان انتحر .

- لا تقولي هذا .

- لن يبقى لي الا ان انتحر يا مومو .

- سيكون هذا مؤسفاً ، فانت رشيقة وانت عاملة ، تحبين ان تأكلي

جيداً ، وتحبين ان تضاجعي جيداً : فانظري كل ما سوف تفقدينه .
قالت زيزيت بهوس :

- انت ، احب ان اضاجعك انت . ولكنك انت لا تهتم بذلك ،
فانت ترحل ، وأنت مسرور .

قال موريس : - لا ، لست مسروراً ، ويغطني ان اذهب .
سوف يذهب ، سيرحل وسيستقل القطار الى نانسى ، ولن أراها
ابداً ، لن ارى وجهه ، ولن يعرف ابداً من انا . وخشت قدماه
للغطاء : اريد ان اراها .

- ليتك لا تذهب ، ليتك تستطيع الا تذهب ...
وقال لها موريس بلطف :

- لا تبكي ...

اريد ان اراها . وقفز من السرير ، وكانت الرتيلاء ترصده ،
قابهة تحت السرير ، ولكنه ركض باسرع منها ، وضغط على الزر ،
فتلاشت في النور . اريد ان اراها .

وليس بنظونه ، ووضع قدميه العاريتين في حذائه وخرج . وكان
مصباحان ازرقان يضيئان المر . وعلى الباب التاسع عشر ، كانت ورقة
رمادية قد علقت بمسار : « موريس غونو » واستند فيليب الى الجدار
وكان قلبه يثب في صدره ، وكان يلهث كما لو انه عدا . ماذا يستطيع
ان افعل ؟ ومد يده ولمس الباب لمساً خفيفاً : كانا هناك ، وراء الجدار ،
انني لا اطلب شيئاً ، الا ان اراها . وانحنى وألصق عينه على ثقب
القفل . فتلقى لائحة باردة على قرنيته ، وخفق جفنيه ولم ير شيئاً على
الاطلاق ، لقد اطفأ النور . وطرق الباب وهو يفكر : « اريد ان
اراهما ، فلم يجيبا . وانقبض حلقه وطرق طرقاتاً اشد . وقالك الصوت :
« من هناك ؟ » وكان صوتاً مفاجئاً قاسياً ، ولكنه سيتغير . سيفتح
الباب وسيتغير الصوت . وطرق فيليب : إنه لم يكن يستطيع ان يتكلم .
فقال الصوت نافذ الصبر :

- ماذا ؟ من هناك ؟

فكفّ فيليب عن الطرق ، وكان يكاد يختنق ، فأخذ نفساً طويلاً
ودفع صوته عبر حلقومه المنقبض قائلاً :
- أودّ ان اتحدث اليك .

وساد صمت طويل . وكان فيليب يفكر في ان يذهب ، حين سمع وقع
خطى ، ونفساً ازاء الباب ، وطقّة . انه يشعل النور . وابتعدت الخطى ،
انه يرتدي بنطلونه . وتراجع فيليب واستند الى الجدار ، وكان خائفاً .
ودار المفتاح في القفل ، ثم انفتح الباب فرأى رأساً أحمر منفوشاً ذا
وجنتين عريضتين وبشرة مجمّدة . وكان للرجل عينان فائحتان بلا جفون ،
وكان ينظر الى فيليب في دهشة هزلية ، وقال :
- لقد اخطأت الباب .

كان ذلك صوته ، ولكنه اذ يمر في فمه ، يصبح متغيراً : وقال
فيليب :

- كلا ، لم اخطيء ؟

- واذن ، فاذا تريد مني ؟

كان فيليب ينظر الى موريس ويفكر : « ان الامر لا يستحق
بعد ، ولكن كان قد فات الاوان وقال :
- اريد ان احديثك .

كان موريس متردداً ، ورأى فيليب في عينيه انه موشك على ان
يغلق الباب ، فاستند بقوة الى المصراع وردّد :
- اريد ان احديثك .

قال موريس : - انا لا اعرفك .

وكانت عيناه الصفراوان قاسيتين خبيثتين . وكان يشبه المرصص
الذي كان قد جاء يصلح الحوض . وقال صوت زيزيت القلقى :
- ماذا يا موريس ؟ ماذا يريد ؟

وكان الصوت حقيقياً ، وكذلك كان الوجه الرقيق الذي لا يُرى .

وسحنة موريس المضخمة هي التي كانت حلماً : كابوساً . وانطفاً الوجه
للرقيق ، وخرج رأس موريس من الظلام ، قاسياً كثيفاً ، حقيقياً .
وقال موريس :

— انه شخص لا اعرفه ، ولا ادري ما الذي يريد مني ؟

فتمتم فيليب : — يمكنني ان اكون نافعا لك ؟

وكان موريس يجسه بعينه في حذر . وفكر فيليب : انه يرى
بنظروني الفلانييل ، ويرى حذائي المصنوع من جلد العجل ، ويرى
صدارة منامتي السوداء ذات الياقة الروسية . وقال وهو يتقوس عند الباب :
— كنت ... كنت في الغرفة المجاورة . واني ... اقسم لك ان

بامكاني ان اكون نافعا لك .

وصاحت زيزيت :

— عد واتركه يا موريس ، اتركه ؟

وكان موريس ما يزال ينظر الى فيليب : وفكر لحظة ، ثم اشرق
وجهه المكفهر قليلا ، فسأله وهو يخفض صوته بعض الشيء :

— ايكون اميل هو الذي ارسلك ؟

فصرف فيليب عينيه وقال :

— نعم ، انه اميل .

— وماذا يريد ؟

فارتعش فيليب :

— لا استطيع ان اتكلم هنا .

فاستلى موريس متردداً :

— وكيف حدث انك تعرف اميل ؟

فقال فيليب مبتهلاً : — دعني ادخل ، فاذا يضربك ان تدعني

ادخل ؟ ثم انني لا استطيع ان اقول شيئاً في هذا المرء ؟

وفتح موريس الباب وقال :

- ادخل . ولكن لا لأكثر من خمس دقائق . اني اريد ان انام .
فدخل فيليب : وكانت الغرفة شبيهة كل الشبه بغرفته ، ولكن كان
على الكراسي ثياب وجوارب وسروال صغير وحذاء امرأة على البلاط
الاحمر ، بالقرب من السرير ، وعلى الطاولة موقد غاز وقدر . وكانت
تنبعث رائحة شحم قد برد . وكانت زيزيت جالسة في السرير ، وهي
تشد غلالة من صوف بنفسجي حول كفيها . وكانت قبيحة ذات عينين
غارقتين متحركتين : وكانت تنظر الى فيليب نظرة عدا . وأغلق الباب
فارتعش .

- نعم ، ماذا يريد مني اميل ؟
فنظر فيليب الى موريس بضيق : لم يكن يستطيع بعد ان يتكلم ،
وقالت زيزيت بصوت غاضب :
- هيا ، عجل . انه ذاهب صباح الغد ، وليس هذا وقتاً مناسباً
لإزعاجنا .

وفتح فيليب فمه وبدل جهداً كبيراً ، ولكن لم يخرج منه اي صوت .
وكان يرى نفسه بعيونها ، فيجد ذلك شيئاً لا يطاق . وسألت زيزيت :
- اني اتحدث اليك بالفرنسية ، اليس كذلك ؟ اقول لك انه ذاهب
صباح الغد :

والتفت فيليب الى موريس فقال بصوت مختنق :

- يجب الا تذهب .

- اذهب الى اين ؟

- الى الحرب

وكان موريس يبدو بهيئة مشدوهة ، وقالت زيزيت بصوت ثاقب :
- هذا شرطي .

وكان فيليب ينظر الى البلاط الاحمر ، وذراعه متدلّيتان ، فيحس
نفسه مخدراً كل التخدير ، حتى ليشعر من ذلك بما يشبه اللذة . وأخذ

موريس من كتفيه يهزه :

- هل تعرف انت اميل ؟

فلم يجب فيليب ، فعاد موريس يهزه هزاً أشد :

- اترك ستجيب ؟ اسألك ان كنت تعرف اميل ؟

فرفع فيليب على موريس عينين يائستين ، وقال بصوت خافت وسريع :

- اعرف شيخاً يزور الاوراق .

فتركة موريس فجأة ، وخفض فيليب رأسه وأضاف :

- ويمكنه ان يزور اوراقك :

وساد صمت طويل ، ثم سمع فيليب صوت زيزيت المتصر :

- ما الذي كنت اقله لك ؟ انه مخبر .

فجرو على رفع عينيه ، وكان موريس ينظر اليه نظرة مريعة ،

وقد مدّ يده الكبيرة المشعرة ، فراجع فيليب واثباً الى خلف ، وقال

وهو يرفع مرفقه :

- ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ، فأنا لست شرطياً .

- ماذا جئت تفعل هنا إذن ؟

فقال فيليب وهو يوشك ان يبكي :

- انني مسالم .

فردد موريس في ذهول :

- مسالم ! لم يكن ينقصنا غير هذا .

وحك رأسه لحظة ثم انفجر ضاحكاً وقال :

- مسالم ! اتسمعين يا زيزيت ؟

فاخذ فيليب يرتجف ، وقال بصوت منخفض :

- امنعك من الضحك .

وعض على شفتيه ليمنع نفسه من البكاء ، ثم اضاف بمسقة :

« فحتى لو لم تكن مسالماً ، فعليك ان تحترمني ،

فردد موريس : - احترمك ، احترمك ؟

قال فيليب بهدوء رصين :

- اني فراري . واذا عرضت عليك اوراقاً مزورة ، فلأني حصلت على مثلها . وبعد ، غد سأكون في سويسرا .

وتطلع الى موريس مواجهة : كان موريس قد قرَّب مسأ بين حاجبيه ، فتشكل على جبينه ثلم بشكل λ ، وكان يبدو وكأنه يفكر . وقال فيليب :

- تعال معي ، فانا أملك مالا لشخصين .

ونظر اليه موريس في اشمزاز ، وقال :

- قدرٌ صغير ! أ رأيت يا زيزيت كم هو ربحو؟ ان الحرب بالتأكيد تثير ربعك ، وانت لا تريد بالطبع ان تحارب الفاشيست ، بل انت اميل الى معانقتهم ، أليس كذلك ؟ انهم هم الذين يحمون فلوسك ، يا غلام الاغنياء !

قال فيليب : - لست فاشستياً .

فقال موريس : - لا ، بل انا . هيا ، حلّ عن ظهري ايها

القدر ! والا ارتكبت جريمة .

وكان ساقا فيليب هما اللتين تريدان ان تهريا . ساقاه وقدماه . انه له يهرب . وجر ساقيه الى الامام ، واقترَب من موريس ، وانخفض قسراً هذا المرفق اللطفولي الذي كان يرتفع من تلقاء نفسه . ونظر الى ذقن موريس ، ولم يكن يتوصل الى رفع نظره حتى العينين الصفراوين اللذيين لا اجفان لها . وقال :

- لن اذهب .

وظلا لحظة وجهاً لوجه ، ثم انفجر فيليب :

- ما اقساكم جميعاً ! جميعاً . لقد كنت هنا ، اسمعكما تتحدثان ، فاقول .. ولكنك كالأخرين ، انت جدار : تدينون دائماً ، من غير

ان تحاولوا الفهم ؛ هل تعرف من اكون ؟ انما من اجلكم ، قد
مهربت ، وقد كان بوسعي ان ابقى في بيتي ، حيث آكل حين أجوع
، وحيث أعيش في وسط دائيء ، بين اثاث جميل وتحت امرتي الخدم ،
ولكني تركت كل شيء من اجلكم . وانتم ، يرسلونكم الى المسلخ ،
فتجدون ذلك جيداً ، ولا ترفعون اصبعكم ، ويضعون بندقية بين ايديكم
فتفكرون بأنكم ابطال ، واذا حاول أحد ان يتصرف تصرفاً آخر ،
وصفتموه بانه غلام الاغنياء ، وبأنه فاشستي ، وبأنه جبان ، لأنه لا
يفعل كما يفعل جميع الناس . انا لست جباناً ، فانت تكذب ، ولست
فاشستيا ، وليس الذنب ذنبي اذا كنت غلام اغنياء . ان هذا لو تعلم
أسهل ، اسهل جداً من ان اكون غلام فقراء .

قال موريس في صوت أبيض :

— انصحك بان تذهب ، لأنني لا احب الخليط كثيراً ، وقد أغضب .

فقال فيليب وهو يضرب الارض بقدمه :

— لن اذهب . لقد كفاني ، أخيراً ! حسبي من جميع هؤلاء

الاشخاص الذين يتظاهرون بأنهم لا يرونني ، او الذين ينظرون الي من
حل ، وبأي حق ؟ بأي حق ؟ انني انا موجود ، وانا أساويكم في
القيمة . ولن اذهب ، سأبقى طوال الليل ، اذا لزم الامر ، اريد ان
اشرح وجهة نظري مرة والى الابد .

قل موريس : — انك لن تذهب ! لن تذهب اذن !

وامسك به من كتفيه ، ودفعه نحو الباب ؛ واراد فيليب ان يصمد
ولكن ذلك كان مؤثماً : لقد كان موريس قوياً كالجاموس . وصاح
فيليب :

— دعني ، دعني . واذا اخرجتني ، بقيت امام بابك ، وأحدثت
ضجة ، انا لست جباناً ، واريد ان تستمعوا الي . (وأصاف وهو
يرفسه بقدمه) دعني ، دعني ايها الوحش .

ورأى يد موريس المرفوعة ، فكف قلبه عن الخفقان ، وقال :

— لا ! لا !

وصفحه موريس مرتين بقبضته . وقالت زيزيت :

— مهلا ، مهلاً ، انه طفل :

وترك موريس فيليب ، ونظر اليه في شيء من الالدهاش : وتتم

فيليب :

— اني ... اني اكرهك .

وقال موريس بلهجة مترددة :

— اسمع ، يا بني ...

قال فيليب : — سترون ، سترون جميعاً ، وسوف نخجلون .

وخرج وهو يركض ، فعاد الى غرفته وأغلق الباب المفتوح . وكان
القطار يمضي ، وكانت الباخرة تصعد وتهبط ، وكان هتلر نائماً ،
وكانت ايفيش نائمة ، وكان شميرلن نائماً ، وارتمى فيليب على سريره
وأخذ يبكي ، وكان غرولويس يترنح ، بيوت وايضاً بيوت ، كان
رأسه مشتعلًا ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقف ، وكان ينبغي له ان
يمشي في الليل على حذر ، في الليل المربع الهامس ، وكان فيليب يبكي ،
وكان بلا قوة ، يبكي ويسمع همسها عبر الجدار ، وكان لا يتوصل
حتى الى بغضهما ، كان يبكي منياً في الليل البارد الذي يرثى له ،
في ليل الطرقات الرمادي ، وكان ماتيو قد استيقظ ، فنهض ووقف
ازاء النافذة ، وكان يستمع الى همسات البحر ، وابتسم لليل الجميل
الرائق .

الأحد ٢٥ ايلول

يوم عار ، يوم راحة ، يوم خوف ، يوم الرب ، كانت الشمس تشرق على يوم احد . المنارة ، الفانوس ، الصليب ، الخلد : ان الرب يحمل صليبه في الكنائس ، وأنا احمل خدي في الشوارع المزينة بزينة يوم الأحد ، عجباً ، انت مصاب بورم ، ولكن لا : الواقع انهم جلدوني على خدي ، يا للشخص الصغير الدنيء الذي يحمل ألبته على وجهه ، والرأس المشقوق ، المضمد ، القرعة ، اليقطينة ، لقد ضربوا من الخلف ، واجدة اثنتان ، كان يمشي في رأسه ، وكان النعل ينحرق في رأسه ، اليوم أخذ ، فأين بحث عن العمل ، كانت الابواب مغلقة ، الابواب الحديدية الكبيرة ، مسمرة ، صدئة ، مغلقة على ظلام ، على فراغ ذي رائحة نشارة ، وزيت مسود وحديد قديم ، على سطح الأرض المزروع نحاتة صدئة ، كانت مغلقة الابواب الخشبية الصغيرة المربعة ، مغلقة على امتلاء ، على غرف ملاءى حتى الانفجار بالاثاث ، والذكريات ، والاولاد ، والاحقاد ، مع تلك الرائحة الكثيفة لبصل عفن ، والباقة المستعارة اللامعة على السرير والنساء المتأملات خلف النوافذ ، كان يمشي بين النوافذ ، بين الانظار ، وقد حجرته الانظار

وصلته . كان غرولويس يمشي بين الجدران القرميدية والابواب الحديدية ، كان يمشي بلا فلس ولا شيء يأكله ، ورأسه يخفق كأنه قلب ، كان يمشي ونعلاه يضربان في رأسه ، فليك فلاك ، يمشيان ، وقد عرقا ، في الشوارع التي اغتالها الاحد ، وكان خذه يضيء الجادة امامه وهو يفكر : « اصبحت شوارع حرب إذن ؟ » كان يفكر : « كيف لي ان آكل ؟ » وكانوا يفكرون : « أليس ثمة من يساعدني ؟ » ولكن للرجال الصغار السمر ، والعمال الكبار ذوي الوجوه المثلمة كانوا يحلقون ذقونهم وهو يفكرون في الحرب ، يفكرون بأن امامهم يوماً بطوله يفكرون فيه بالحرب ، يوماً فارغاً بطوله يجرون فيه قلقهم عبر الشوارع المغتالة . الحرب : الحوانيت المغلقة ، الشوارع المقفرة ، ثلاثمائة وخمسة وستون احداً في العام : كان فيليب يُدعى « بيدرو كازاريس » وكان يحمل اسمه على صدره . كان بيدرو كازاريس ، بيدرو كازاريس ، بيدرو كازاريس ، بيدرو كازاريس راحلا في المساء نفسه الى سويسرا ، وكان يحمل الى سويسرا خدأ كبيراً مزدهرا موسوماً بخمسة أصابع ؛ وكانت النساء ينظرن اليه من نوافذهن .

وكان الرب ينظر الى دانيال .

أدعوه الرب ؟ كلمة واحدة ويتغير كل شيء . كان مستنداً الى المصراعين الرماديين اللذين يغلقان حانوت السراج ، وكان الناس يسرعون نحو الكنيسة سوداً على الطريق الوردية ، سرمدين ، كل شيء كان سرمدياً ، ومررت امرأة شابة ، شقراء رشيقة ، شعرها مجنون بدقة ، وكانت تسكن في الفندق ، وكان زوجها يأتي ليراها يومين كل خمسة عشر يوماً ، وهو صناعي من « بو » ؛ وكانت قد ألفت على وجهها قناع النعاس لأن اليوم يوم أحد ، وكانت قدماها الصغيرتان تكدحان نحو الكنيسة ، وكانت روحها بحيرة من فضة : الكنيسة : ثقب ؛ وكانت الواجهة ذات طراز روماني ، وكان ثمة تمثال من حجر للمشاهدة ، في

المعبد الثاني ، الى اليمين وانت داخل . وابتسم لزوجته العقاد وابنها الصغير . أَدعوه الرب ؟ لم يكن مندهشاً ، وكان يفكر : لا بد ان يحدث هذا . عاجلاً او آجلاً . كنت أحسُّ جيداً انه كان ثمة شيء . كل شيء ، لقد فعلت دائماً كل شيء كشاهد . فنحن نتبخَّر ، ولا شاهد .

قالت نادين بيشون : - صباح الخير ، سيد سبرينو . انت ذاهب الى القُداس ؟
فقل دانيال : - انا مسرع لذلك .

وتبعها بعينه ، وكانت تعرج أكثر من المعتاد ، ولحقت بها فتانان صغيرتان وهما تركضان ودرتا حولها بفرح . ونظر اليها . اني ارشقيها بنظري المنظور ! ان نظري مجوّف ، فنظر الرب يتخرقه من الطرفين . وفكر فجأة : « اني انشيء أدباً » . ولم يكن الرب بعدُ هنا . كان ثمة حضوره هذه الليلة ، في عرق الغشاء ، وكان دانيال قد أحسَّ نفسه قايين : هأنذا ، هأنذا كما خلقتني ، جبان ، أجوف ، لوطي . وبعد ذلك ؟ كان النظر هنا ، في كل مكان ، أحمر ، شفافاً مليئاً بالأسرار . وكان دانيال قد انتهى الى الوم ، ولدى اليقظة ، كان وحده . ذكرى نظر . كان الجمع يتدفق من جميع الابواب الفارغة ، قفازات سوداء ، وياقات من خزف ، وجاود ارانب ، وكتب قدّاس العائلة في اطراف الأصابع . وقال دانيال في نفسه : آه ، لا بد من مخطّط . لقد تعبت من ان اكون هذا التبخّر الذي لا انقطاع له نحو السماء الفارغة : فانا اريد سقفاً . ولامسه الجزّار في مروره ، وكان رجلاً سميناً قمرزي الوجه يلبس النظارات ، يوم الأحد ، ليتميّز بطابع خاص . وكانت يده المشعرة تقبض على كتاب قدّاس . وفكر دانيال : سيجتلب اليه النظر ، فيقع عليه من الوافد الزجاجية ؛ انهم جميعاً سيجتلبون اليهم النظر ؛ ان نصف البشر يعيشون تحت النظر .

أترأه يُحسّ بالنظر عليه حين يضرب بالسكين على اللحم الذي يفتح
تحت الضربات /، فيكشف العظمة المستديرة المزرقة ؟ انه بُرى ، تُرى
قسوته كما ارى يديه ، ويُرى بُخله كما ارى شعره النادر ، وهذا الطرف
من الشفة الذي يلتصق تحت البخل كما تلتصق الصلعة تحت الشعر ؛ انه
يعرف ذلك ، وسوف يقلب الصفحات المقرّنة في كتاب القديس ، وسوف
يثنّ ، مولاي ، مولاي ، اني بخيل . وسيسقط نظر ميدوز من فوق
محجراً . فضائل من حجر ، عيوب من حجر : أية راحة ! ان هؤلاء
الناس اساليب معاناة، هكذا قال دانيال في نفسه غاضباً ، وهو ينظر الى
الظهور السوداء التي كانت تنغمر في ظلمات الكنيسة . وكانت ثلاث نساء
تكرّح معاً في اشراق الصباح الأحمر . ثلاث نساء حزينات مستغرقات ،
مسكرّات . لقد أشعلن النار ، وكسّسن الارض ، وسكبن الحليب في
القهوة ، ولم يكن شيئاً بعد ، الا ذراعاً في طرف المكسة ، والا يداً
منغلقة على اذن ابريق الشاي . والا هذه الشبكة من الضباب التي تندفع
على الاشياء عبر الجدران ، من الحقول والغابات . وهنّ الآن يذهبن
الى هناك ، في الظلّ ، وسيكنّ ماهنّ . وتبعهنّ من بعيد ، ماذا لو
ذهبت الى حيث يقصدن ؟ قصة للضحك : هأنذا ، هأنذا كما صنعتني ،
حزين ، جبان ، لا يُرجى بُرثي . انك تنظر اليّ فيفرّ كلّ أمل :
لقد تعبت من فرط الفرار من نفسي ، ولكي أعلم تحت نظرك اني لا
استطيع بعد ان افرّ من نفسي . سوف ادخل ، وسوف انتصب وانقأ ،
وسط هاتيك النسوة الراكعات ، كبناء من الظلم والطميان . سوف اقول :
« انا قايين ، واذن ؟ انت الذي صنعتني ، قاحلني ، نظر مارسيل ،
نظر ماتيو ، نظر بوبي ، نظر قططي ، كلّها كانت تمحط دائماً على
جلدي . اني لوطي يا ماتيو . اني ، اني ، اني لوطي ، يا لآهبي .
كانت الدمعة في عين العجوز ذي الوجه المجدّد ، وكان يمضغ شاربته
المحمرّ بالتبغ ، بهيئة شريرة . ودخل الكنيسة منهوكم ، عاجزاً ،

مغلقة ، فدخل دانيال خلفه ، وكانت تلك هي الساعة التي يأتي فيها ريبادو الى الملعب وهو يصفّر ، فكان الفتيان يقولون له : « واذن ، يا ريبادو ، هل انت اليوم على ما يرام » . كان ريبادو يفكر في هذا وهو يلفّ سيكارة ، وكان يُحسّ يديه خاويتين ، وكان ينظر بكآبة الى القاطرات والى صفوف البراميل ، فكان يشعر بأن شيئاً ما كان يعوز يديه ، وزن كرة مسمّرة تستقرّ في راحته ؛ كان ينظر الى البراميل ويفكر : « يوم أحد ، يا للحسرة ! » كان ماريوس وكلوديو وريمي قد ذهبوا كلٌّ بدوره ، وكانوا يلعبون لعبة الجندي الصغير ؛ وكان جول وشارلو يعملان ما يستطيعان ، فيدحرجان براميل على الخطوط الحديدية ، ويتعاونان لرفعها ويؤرجحانها في القاطرات ؛ كانا قوين ولكنها شيخان ، وكان ريبادو يسمعها يلهثان والعرق يسيل على ظهرهما العاري ؛ وهما لن ينتهيا من ذلك ابداً . وكان ثمة شخص طويل مضمّد الرأس يندرع المستودع منذ ربع ساعة جيئة وذهاباً ؛ وقد انتهى بالاقتراب من جول ورأى ريبادو شفثيه تتحركان ؛ وكان جول يستمع اليه بهيئته المخدّرة ثم نهض نصف نهضة وأطبق راحتيه على خاصرتيه واوماً الى ريبادو بحنية من رأسه : وسأل ريبادو :

— ما هذا ؟

فاقترب الرجل على تردد ، وكان يمشي كالبطة ، قدماه الى الخارج ، لص حقيقي . ولمس ضماده بمثابة تحية ، وسأل :

— هل لديكم عمل ؟

فردد ريبادو : — عمل ؟

وكان ينظر الى الرجل : لص حقيقي ، كان ضماده مسوداً ، وكان يبدو عليه انه قوي ، ولكن وجهه كان ممتنعاً حتى ليثير الحسوف ؛ وقال ريبادو :

— عمل ؟

وكان احدهما يتفرض في وجه الآخر بتردد ، وكان ريبادو يتساءل

عما اذا كان الرجل لن يسقط مغمى عليه ؟ وقال وهو يحك رأسه :
 - عمل ؟ ليس هذا ما ينقصنا .
 فظرف الرجل بعينه : لم تكن هيئته عن قرب رديئة جداً . وقال :
 - اريد ان أعمل .
 فقال ريبادو : - لا يبدو عليك انك سليم .
 قال الرجل : - من اي شيء ؟
 - اقول انك تبدو مريضاً .
 فنظر اليه الرجل في دهشة وقال :
 - لست مريضاً .
 - انك مصفر جداً . ثم ما هذا الضماد ؟
 فأوضح الرجل قائلاً : - لقد ضربوني على رأسي . وليس هذا
 يذني بال :
 - ومن الذي ضربك على رأسك ؟ الشرطة ؟
 - كلا . رفاق . استطيع ان اعمل فوراً .
 قال ريبادو : - سوف نرى .
 فأنحى الرجل ، وتناول برميلا فرفعه بذراعه . ثم قال وهو يعيده
 الى الارض :
 - استطيع ان اعمل ؟
 قال ريبادو في اعجاب :
 - يا ابن القحبة ! (واضاف) ما هو اسمك ؟
 - اسمي غرولويس .
 - هل معك اوراقك ؟
 قال غرولويس - معي دفترتي العسكري .
 - ارني اياه .
 وفتش غرولويس في جيب صدرته الداخلي وسحب دفتره بحمطة

- ومده الى ريبادو . ففتح ريبادو واخذ يصفر وقال :
- ولكن ما هذا ! ولكن ما هذا !
- قال غرولويس بلهجة قلقة :
- انها اوراق قانونية .
- قانونية ؟ هل تعرف القراءة ؟
- فنظر اليه غرولويس نظرة خبيثة :
- لا حاجة لمعرفة القراءة من اجل حمل البراميل :
- ومد له ريبادو دفتره :
- ان معك الكراسية رقم ٢ يا بني . انهم ينتظرونك في مونبليه ،
في الثكنة . وانصحك بأن تدبر امرك ، والا اعتبروك متمرداً .
- فقال غرولويس مشدوهاً : — في مونبليه ، ليس لدي ما افعله في
مونبليه .
- فغضب ريبادو وصاح به :
- اقول لك انك مجتهد فعك الكراسية ٢ = انت مجتهد .
- واعاد غرولويس دفتره الى جيبه وسأله :
- انك اذن لا تستخدمني ؟
- لا اريد ان استخدم فرارياً .
- وانحنى ريباردو ورفع برميلا ، فقال ريبادو بحوية :
- حسناً ، حسناً ، انت قوي من غير شك ، ولكن لن يجديني
شيء على الاطلاق اذا اوقفوك بعد ثمن واربعين ساعة .
- وكان غرولويس قد وضع البرميل على كتفه ، وكان يتحدث في
ريبادو وهو يقطب حاجبيه الكبيرين . وهز ريبادو كتفيه وقال :
- آسف .
- ولم يكن ثمة ما يُقال بعد . وابتعد ، وفكر : « انا لا اريد
بتمرداً ، وقال :

— ايه شارلو !

فقال شارلو : — ماذا ؟

— انظر الى الرجل هناك ، انه متمرّد .

قال شارلو : — مؤسف . كان بإمكانه ان يساعدنا قليلاً .

فقال ريبادو : — لا أستطيع ان اوظّف متمرّداً .

قال شارلو : — طبعاً لا .

والفتا معاً : كان الرجل الطويل قد وضع البرميل على الارض ، وكان يقلب بهيئة شقية دفتره العسكري بين اصابعه .

كان الجمع يحيط بهم ، يحملهم ، يطوف حولهم ويكثف وهو يطوف ، ولم يكن رنيه يعلم بعد اذا كان جامداً او اذا كان يدور مع لجمع . كان ينظر الى الاعلام الفرنسية التي ترفرف فوق مدخل « غار دوليست » ، كانت الحرب هناك ، في نهاية الخطوط الحديدية ، ولم تكن لتزعج ، وكان يستشعر تهديداً بكارثة اشدّ قرباً : ان الجموع شيء رخص ، فهناك دائماً مصيبة تطفو فوقها . « دفن غالياني ، إنه يزحف ، يجر ثوبه الصغير الابيض بين جلودور الجموع السوداء ، تحت فظاعة الشمس ، وينهار البناء ، ولا ينظر ، لقد اخذوا المرأة ، الصلبة ، وقدمٌ مخزّمة حمراء تخرج من حداثها المنفجر » كان الجمع يحيط به ، تحت السماء اللصافية الخالية ، اني اكره الجموع ، وكان يشعر عبوناً في كل مكان ، شموساً تفتّح زهوراً في ظهره ، وعلى بطنه ، وتشعل أنفه الطويل الأصفر ، الرحيل الى الضاحية في الآحاد الاولى من نوار ، وفي اليوم التالي تكتب الصحف : « الأحد الاحمر » ويبقى منها دائماً بعض الاعداد على البلاط . كنت ايرين نحويه بجسمها الصغير الملنّف « لا تنظر ، انها تجرني من يدي ، انها تشدني والمرأة تمر خلفي ، تنزلق على الجمع ، كما ينزلق ميت على نهر الغانج » . كان ينظر في توبيخ الى القبضات المرتفعة ، في البعيد ، تحت الرايات المثلثة الالوان ، فوق

القبعات . وقالت :

- الاغبياء !

وتظاهر رينه بعدم السماع ، ولكن اخته تابعت ببطء مقتنع :

- الاغبياء : يرسلونهم الى المسلخ ويكونون مسرورين .

وكانت فاضحة . ففي الاوتوبيس وفي السينما وفي المترو ، كانت فاضحة ، اذا كانت تقول دائماً ما لا ينبغي ان يقال ، كان صوتها الصريخ يلقي كلمات فاضحة . والتي نظرة خلفه ، فكان ذلك الرجل يشبه وجهه وجه النمس بعينين ثابتتين وانف متآكل ، كان يستمع اليها ووضعت ايرين يدها على كتفه ، وكانت تبدو وهي تفكر . لقد تذكرت انها كانت اخته الكبرى ، وفكر بأنها ستعطيه نصائح مضجرة ، ولكن مها يكن من أمر فقد أزعجت نفسها لتصحبه الى المحطة ، وها هي الآن وحدها وسط هؤلاء الرجال الذين لا تصحبهم نساء ، كما كان يحدث اذ كان يصحبها لمشاهدة مباراة في الملاكمة في « بوتو » ، فينبغي ألا أؤذيها . كانت تقرأ ، ممتدة على ديوانها ، وهي تدخن كثيراً ، وكانت تكون آراءها بنفسها ، كما تصنع قبعاتها . وقالت له :

استمع الي جيداً يا رينه ، انك لن تفعل كهؤلاء الاغبياء :

قال رينه بصوت منخفض : - لا ، لا ، لا .

وأضافت : - استمع الي جيداً ، انك لن تتحمسى :

وكان صوتها ، اذ تكون مقتنعة ، يُسمع بعيداً . وقالت :

- ما الذي يجديك ذلك ؟ اذهب ، ما دمت لا تستطيع تجنب

الأمر . ولكن لا تدعهم يلاحظونك اذ تكون هناك ، لا خيراً ولا شراً :

فالامر سيان . واحم نفسك كلما كان في وسعك ان تحمي نفسك .

قال : - نعم ، نعم .

كان يمسكها بقوة من كتفها ؛ وكانت تنظر اليه بتمعن ، ولكن من

غير شغف ؛ كانت تتابع فكرته .

— لأنني أعرفك يا رينه ، فانت مغرور صغير ، تعمل كل شيء ليتحدث الناس عنك . ولكن أهدرك منذ الآن : اذا عدت ومعك وسام استحقاق ، فلن اكلمك بعد ذلك ابداً . ان ذلك أغبي مما ينبغي . واذا عدت بساق أقصر من الاخرى ، او بثقب في الوجه ، فلا تعتمد علي لأرثي لك ، ولا تأت لتروي لي ان ذلك حدث بالاتفاق : فهذه امور يمكن تفاديها بسهولة ، وبقليل من الحكمة .

قال : — نعم ، نعم .

وكان يفكر بأنها على حق ، ولكن ذلك شيء لا يُقال ، ولا يفكر به . وانما هو يفعل تلقائياً ، وهدوء ، من غير كلام ، وبقوة الاشياء ، بحيث لا يكون ثمة بعد ما يؤاخذ به المرء نفسه . قبعات ، بحر من القبعات ، قبعات صباح الاثنين ، قبعات ايام العمل ، قبعات اللورش ، اجتماعات السبت ، كان موريس على رضى ، وهو بين الجمهور الكثيف . وكان المسد يتقاذف القبعات المرفوعة ، ويحملها بهدوء ، مع وقفات مفاجئة ، وترددات ، وانطلاقات جديدة ، نحو الاعلام الثلاثة الألوان « ايها الرفاق ، ايها الرفاق ، قبضات أيار ، القبضات المزدهرة تسيل نحو « غارش » . نحو الساحات الحمراء في سهول « غارش » ، اسمي زيزيت والصقور تغني ، تغني جمال شهر أيار ، العالم الذي يولد . وكانت تنبثق رائحة المخمل والخمر ، كان موريس في كل مكان ، كان يتكاثر ، وتنبعث منه رائحة المخمل ، ورائحة الخمر ، وكان يحك كعته بقماشه معطف خشنة ، وكان شاب قصير مجعد يدفع له مزماره في جنبيه ، وكان وطء آلاف الاقدام يتسلل من ساقيه الى بطنه ، وكان ثمة شخير في السماء ، فوق رأسه ، ورفع أفه فنظر الى الطائرة ، ثم اطرقت عيناه ورأى تحته وجوهاً مقلوبة ، انعكاسات لوجهه ، فبسم لها ٥ بحيرتان صافيتان في جلد مدبوغ ، شعر ققط ، ندبة ، وابتسم . وابتسم لصاحب النظارات الذي كان يبدو عليه الاجتهاد ،

X وابتم لصاحب اللحية الهزبل المنقع الذي كان يقرص شفثيه ولا يتسم: كان ذلك بصرخ في اذنيه، ويضحك ويضحك ، بلا مزاح يا جوجو، هذا انت ، أجب ان تقوم الحرب حتى نلتقي ؟ كان اليوم يوم أحد. حين تغلق المصانع ، وحين يجتمع الناس ويبتظرون ، فارغي الايدي ، والاكياس على ظهورهم ، في المحطات ، تحت قَدَرٍ حديدي ، يكون لليوم يوم أحد ، وليس من اهمية كبيرة ان يكونوا ذاهبين الى الحرب . او الى غابة فرونتبلو . كان داليل واقفاً امام مرشح يشم رائحة كهفية. وبخورية هادئة ، وينظر الى هذه الرؤوس العارية تحت نور بنفسجي ، واقفاً وحده وسط هؤلاء الرجال الراكمين ، يحيط به رجال واقفون ، رجال بلا نساء في رائحة الخمر المحمومة ، ورائحة الفحم والتبغ ، ناظراً الى القبعات تحت نور الصباح ، وهو يفكر : هذا يوم الاحد ، كان بيار قائماً ، وضغط ماتيو على انبوب، فخرج معجون وردى وهو يسهس ، ثم التوى وسقط على شعر الفرشاة . ودفع صبي صغير موريس وهو يضحك : « هيه سيمون ! سيمون ! » فالتفت سيمون ، وكان خداه أحمرين وكان يضحك ، فقال : « اسمع ! يمكننا ان نقول إنه احد مظلّم » وأخذ موريس يضحك ، وردد « احدٌ مظلّم » ، فبادلته بسمته شاب جميل كانت بجانبه امرأة ليست ساذجة أكثر مما ينبغي ، وهي انيقة الملبس ، وكانت تشبث بذراعه وتنظر اليه نظرة ابتهاج ، ولكنه لم يكن ينظر اليها ، ولو قد نظر اليها لانغاق احدهما على الآخر واصبحا شخصاً واحداً . زوج وحده . كان يضحك ، وكان ينظر الى موريس ، وكانت المرأة غير موجودة في نظره ، وزيزت غير موجودة « انها تلهث ، ورائحتها عتيقة ، وهي رخوة جداً تحي ، حبيبي ، حبيبي ، أدخل في » وكان ما يزال ثمة بعض الابل ، كأنه نضح ، بين جسمه وقبيصه ، بعض سناج ، بعض فاق تفيه ورقبق ، ولكنه كان يضحك في حرية ، وكانت النساء فائضات عن الزوم و

كانت الحرب هنا ، الحرب ، الثورة ، النصر . سنحتفظ ببنادقنا .
جميع هؤلاء : المجمعّد وصاحب اللحية وصاحب النظارات ، والشاب
الطويل ، سيعودون ببنادقهم وهم ينشدون « الانترناسيونال » وسيكون
يوم أحد . احداً الى الابد . ورفع قبضته .

— انه يرفع قبضته . هذا ذكي ، /

والفت مورييس ، وقبضته في الهواء ، فسأل :

— ماذا ؟ ماذا ؟

كان هو صاحب اللحية الذي سأله :

— اتريد ان تموت من اجل السوديت ؟

قال مورييس : — اخرس .

فنظر اليه صاحب اللحية نظرة استياء وتردد ، فكأنه كان يحاول

ان يتذكر شيئاً ما :

وصاح فجأة :

— تسقط الحرب !

فراجع مورييس الى خلف ، واصطدم مزماره بأحد الظهور ، فقال :

— هل ستغلقه ؟ هل ستغلقه بوزك الكبير ؟

فصاح صاحب اللحية : — تسقط الحرب ! تسقط الحرب !

وكانت يده قد بدأنا ترتجفان وعيناه تقلبان ، فلم يكن يستطيع ان

يكنف بعد عن الصراخ . وكان مورييس ينظر اليه في ذمول حزين ،

من غير غضب ، وقد فكر لحظة ان يرسل له قبضته في وجهه ، ليحمله

فقط على الصمت ، كما يُضرب الاولاد اذ يصابون بالقواق ، ولكنه

كان ما يزال يُحسّ لحماً طرياً بين أصابعه ، فلم يكن فخوراً : لقد

ضرب فتى صغيراً ، ولن يعيد ذلك . وأدخل يديه في جيبه ، واكفئ

بالقول :

— حلّ ضئي ، ايها القدر !

فظل صاحب اللحية يصرخ بصوت متعب ومصالح - صوت ثري ،
وشعر موريس فجأة شعوراً مزعجاً بأن المشهد كان مزوراً . ونظر فيما
حوله فاختمى فرحه . كانت تلك غلظة الآخرين ، فانهم لم يكونوا
يعملون ما كان عليهم ان يعملوه . في الاجتماعات ، حين يأخذ احدهم
بينهق حماقات ، يرتد عليه الجمع فيمحوه ، وترى ذراعه في الهواء
لحظة ، ثم لا شيء على الاطلاق . وبدلاً من هذا ، كان الرفاق قد
تراجعوا ، وخلتوا المكان حول صاحب اللحية ، وكانت المرأة الشابة
تنظر اليه في فضول ، وقد تركت ذراع رجلها ، وكان الفتية ينصرفون
ولم تكن هيبتهم صريحة ، بل كانوا يتظاهرون بانهم لا يسمعون .

وصاح صاحب اللحية :

- لتسقط الحرب !

وكان استياء غريب قد سقط على ظهر موريس . كان ثمة تلك
الشمس ، وذلك الشخص الذي كان يصبح وحده ، وجميع هؤلاء الرجال
الصامتين الذين يخنضون رؤوسهم ... وأصبح استياؤه ضيقاً ، فأبعد
الجمع بضربات من كتفه ، وتوجه الى مدخل المحطة ، نحو الرفاق الحقيقيين
الذين كانوا يرفعون قبضاتهم تحت الاعلام . وكان شارع مونبارناس
مقفرأ . الاحد . وعلى سطيحة « الكوبول » كان ثمة خمسة اشخاص او
سته يشربون او يأكلون ، وكانت بائعة ربطات العنق واقفة على عتبة
بابها ، وفي الطابق الاول من البناية ذات الرقم ٩٩ ، فوق « كوسموس »
ظهر رجل في قبص قصير هلى النافذة وارتفق الدرايزون . واطلق موبير
وتيريز صبيحة فرح ، كان هناك منشور . هناك ، هناك ، هناك ، على
الجدار ، بين « الكوبول » والصيدلية ، كان هناك منشور كبير أصفر
مؤطر بالاحمر « ايها الفرنسيون » ، وما يزال رطباً . ودلف موبير وقد
دخل عنقه في كتفيه وبرز رأسه ، وتبعته تيريز ، وكانت فرحة
كعجونة صغيرة : كانا قد مزقا ستة منشور ، تحت انظار البورجوازيين

الطيبين ، كان رائعاً ان يكون للمرء معلم شاب ورياضي طويل القامة يعرف ما يريد .

قال موبير : - قدارة !

ونظر حوله : وكانت فتاة صغيرة قد توقفت ، يمكن ان تكون في العاشرة ، وكانت تنظر اليها وهي لداعب خصلاتها ، وردد موبير بصوت مرتفع :

- قدارة !

وقالت تيريز بصوت قوي خلف ظهر موبير :

- كيف تسمح الحكومة بلمصق هذه القدارات ؟

ولم تجب بائعة ربطات العنق : كانت امرأة سمينة ناعسة ، وكانت

بسمة مبهمه تتأهب بين خديها . X

داها الفرنسيون

ان المطالب الالمانية غير مقبولة . لقد فعلنا كل شيء للمحافظة على السلام ، ولكن لا يستطيع أحد ان يطلب من فرنسا ان تنكر تمهداتها وتقبل بأن تصبح امة من الدرجة الثانية : فاذا تركنا اليوم التشيكيين ، فإن هتلر سينطلب منا الالزام غداً ...

وأمسك موبير المنشور من طرف ، ونزع منه شريطاً من الورق الأصفر ، شبيهاً بشريحة من لحم البط . واخذت تيريز المنشور من زاويته اليمنى ، ونزعته ، فاستقرت منه في يدها قطعة كبيرة :

فرنسا ان

وتقبل بان

امة من

فاذا ترك

سيط

وكان باقياً على الجدار نجمة صفراء غير منتظمة ، وتراجع موبير

لحظة لينظر الى صنيعة : نجمة صفراء ، نجمة صفراء تماماً ، مع
كلمات محطمة غير مؤذية . وابتسمت تيريز ونظرت الى يديها بقفازيهما ؛
«فكان عليها اثر من المنشور ، ورقة رقيقة ملتصقة بتقازها اليمين :
« جمهو ... » ففركت اهامها بسابقتها فالتفت الجلدة الصغيرة الصفراء
في كريمة ، وجفت وهي تلتف ، واصبحت قاسية كراس دبوس ،
«وفرجت تيريز ما بين اصابعها ، فسقطت الكريمة ، واحسنت بشعور
مسكر من القدرة .

— اني اطلب قطعة بفتاك صغيرة ، يا سيد ديزيريه ، قطعة بفتاك
صغيرة بثلاثمئة غرام ، شيء جميل ، ولكن اقطعها لي كما ينبغي :
«أمس ، أعطاني وكيلك لحمي ، فلم اكن مسرورة ، كنت ملأى
بالاعصاب . ولكن قل لي ، ماذا هناك ، قبالتنا ؟ إذن ، بعد اربع
وعشرين ساعة ، تكون الستائر سوداء . هل مات أحد ؟ » /

فقل للحام : « لست ادري . بعد اربع وعشرين ساعة ، لا يكون
الذي زبائن ، فهم يشترون بضاعتهم من محل « برتيه » . انظري هذه
ان كانت تعجبك : انها وردية ، طرية ، وهي تزيد كالمشمبانيا ، ثم
ليس فيها عصب ، حتى اني لا آكلها نيئة . » قالت السيدة ليوتيه :
« بعد اربع وعشرين ساعة ، انا اعرف ، انه السيد فيغييه ؟ لا اعرفه ،
«ايكون مستأجراً جديداً ؟ » « اوه ، كلا ، انه السيد القصير ، ولا
تعرف غيره ، الذي كان يعطي تيريز ملبساً . » / « اوه ، ذلك الذي
كن لانقا جديداً ؟ يا للخسارة ! سأحزن عليه انا ، السيد فيغييه ، هل
هذا ممكن ! » « ولكن اسمع : فقد كان عجوزاً بما فيه الكفاية ،
حتى يموت » قالت السيدة ليوتيه : « اوه ، لقد قلت لروجي ، لو
كنت تعلم ، انه مات في وقت مناسب ، هذا العجوز القصير ، إن
لديه حاسة شم جيدة ، فربما ندهنا نحن الاخرين ، بعد ستة اشهر ،
«لأننا لم نكن في مكانه . اتدري انهم صنعوا اختراعاً ؟ » « اوه ! من

هم ؟ ، هم ، الالمان . اختراع بقتل الاشخاص كالذباب ، وفي
 آلام فظيعة . « ايكون هذا ممكناً يا إلهي ؟ يا لقطاع الطرق !
 ولكن ما هو ؟ ما هو ؟ » آه ، هو نوع من الغاز ، او من
 الأشعة اذا شئت ، هكذا شرحوا لي . « فقال اللحم وهو يهز رأسه :
 « انها إذن أشعة الموت ! » نعم ، شيء من هذا القبيل ، أليس من
 الأفضل ان نكزن تحت الارض ؟ » وانت على حق تماماً . هذا ما
 أقوله دائماً ، فليس نمت بيت بعد ، ولا هم . هكذا اود لو اموت :
 انام مساء ، فلا استيقظ في الصباح . « ويبدو انه مات هكذا . »
 « من ؟ » « العجوز القصير » هناك اشخاص محظوظون ، اما نحن
 فيجب ان نعاني كل شيء ، بالرغم من اننا نساء . لقد رأيت كيف
 كانت الامور تجري في اسبانيا . كلا . اريد ضلعاً . ثم اليس هنك
 معالين لقطي ؟ حين امكر : وهذه حرب اخرى ! لقد اشترك زوجي
 في حرب ١٤ ، وقد اتى الان دور ابني ، اؤكد لك ان الرجال مجانين ،
 ايكون التفاهم صعباً الى هذا الحد ؟ « ولكن هتلر لا يريد ان
 يتفاهم الناس ، يا سيدة بونوتان ؟ » « ماذا ، هتلر ؟ انه يريد السوديت
 للذين يخصصونه ، ذلك الرجل ؟ اما انا ، فأعطيه اياهم ! ولكني لا
 ادري ان كانوا بشراً ام جبلاً ، وابني سيذهب ليحطم رأسه من اجل
 ذلك . نعم ، اعطيه اياهم ! اعطيه اياهم ! اتريدهم ؟ ها هم !
 وهنا يتمع في الشرك . وازافت بجد : ولكن قل لي ، اليوم هو موعد
 الدفن ؟ الا تعرف في اية ساعة ؟ لانني سأقف على النافذة لأراهم
 يمرون . « ماذا يريدون جميعاً مني ، بحربهم هذه ؟ كان يمساك الدفتر
 وكان يشده بكل قواه ، ولم يكن يستطيع تقرير إعادته الى جيبيه :
 كان هذا كل ما يملكه في الدنيا . وفتحته من غير ان يكن عن السير
 ورأى صورته فاستشعر بعض الاطمشان ، هذه الرسوم الصغيرة السوداء
 التي تتحدث عنه ، ما دام ينظر اليها ، كانت اقل اثاره للقلق ، ولم

تكن تبدو رديئة الى حد بعيد . وقال : « مهما يكن ! مهما يكن ! »
أهي مصيبة الا يعرف المرء القراءة ؟ ، فراري ، الشاب الصغير المرحق
الذي كان يصعد جادة كليشي وهو يجر صورته من مرآة الى مرآة ،
هذا الشاب الصغير الذي لا حقد له ، كان رجلاً عاصياً ، فرارياً ،
حازماً كبيراً ومربحاً ، ذا رأس حليق ، يعيش في برشلونه ، في الباريو
ستينو ، تخفيه فتاة تحبه . ولكن كيف يمكن للانسان ان يكون فرارياً ؟
بأية عينين ينبغي ان يرى نفسه ؟

كان واقعاً في صحن الكنيسة ، وكان الكاهن يغني له ، وفكر :
« الراحة ، الهدوء ، الهدوء ، الراحة ، كما يغيره الخلود اخيراً في ذاته ،
لقد خلقتني كما انا ، وغاياتك لا تدرك ، اني اوفر افكارك عاراً ،
انت تراني وانا اخدمك ، انتصب ضدك ، اشمك ، واذا اشمك ،
اخدمك ، اني مخلوقك ، وانت تحب ذاتك في ، وتحملني انت الذي
خلقت المسوخ والغيلان . ورن جوس صغير ، فأحني المؤمنون رؤوسهم
ولكن دانيال بقي مستقيماً ، حملاق النظر . انت تراني ، وتحبني ؟
وكان يحس نفسه هادئاً ومقدماً .

— توقفت مركبة الموتى امام باب البناية رقم ٢٤ . وقالت السيدة
بونوتان « ها هم اولاء ، ها هم اولاء » وقالت البوابة : « الطابق
الثالث » وعرفت موظف موكب الدفن فقالت له : « صباح الخير ،
يا سيد رينه ، كيف الحال ؟ » فقال رينه : « صباح الخير ، ان
من يريد ان يُدفن يوم أحد لا يفكر كم سيزعج الآخريين ! » قالت
البوابة « ذلك انه كان يؤمن ببحرية التدفين . » كان جاك ينظر الى
ماتيو ، وضرب على الطاولة وقال : « مع ذلك ، فاذا ربحناها ، هذه
الحرب ، اتدري من يفيد منها ؟ ستالين . » فقال ماتيو بهدوء :
« واذا لم نتحرك ذهبت الفائدة لهتلر . » « وبعد ذلك ؟ هتلر ،
ستالين ، الامر سواء . ولكن التفاهم مع هتلر يوقر علينا مليوني رجل

وبجني الثورة . ه هكذا اذن : ونهض ماتيو وذهب يلقي نظرة من
 النافذة : لم يكن حتى مغتاضاً ، كان يفكر : « ما جدوى هذا كله ؟ »
 لقد فر ، وكانت السماء تحتفظ بمظهر ايام الاحد الطيب ، وكانت
 تنبعث من الشوارع رائحة الطبخ اللذيذ ، اللوز المربد ، الدجاج ،
 الاسرة . ومر رجل وامرأة ، وكان الرجل يحمل حلوى مغطاة بورق
 لامع ، وكان يحملها بحيط وردي لف طرفه هلى خنصره : كجميع
 الآحاد : « هذه ترهات ، ولا قيمة لذلك ، انظر كيف يسود الهدوء
 كل شيء ، ليس من حركة ، انه الموت الصغير الخاص بيوم الاحد ،
 فليس عليك الا ان تسترد عملك ، السماء موجودة ، وحانوت التغذية
 موجود ، والحلوى موجودة ، اما الفراريون فلا يوجدون : » الاحد
 الاخذ ، الذنب الاول امام مبوله ساحة كليشي ، وحرارة النهار الاولى ،
 انه يدخل المصعد الذي هبط منذ لحظة ، ويشم في القفص المظلم رائحة
 شقراء الطابق الثالث ، ويضغط على الزر الابيض ، الاهتزاز اليسير ،
 الانزلاق ، العذاب ، ويضع المفتاح في القفل ، ككل ايام الاحد ،
 ويعلق قبعته على المشجب الثالث ، ويسوي ربطة عنقه امام مرآة المدخل
 ويدفع باب الصالون وهو يصرخ : « هأنذا ! » فاذا تراها ستفعل ؟
 اتراها لن تأتي اليه ، ككل ايام الاحد ، وهي تتمتم : « يا حبيبي
 الجميل ؟ » كم كان ذلك متوقماً ، وكم كان خائفاً من فرط التوقع ،
 ومع ذلك ، فقد فقد ذلك كله الى الابد . ليتني استطيع فقط ان
 اغضب ! وفكر : لقد صفعني ، لقد صفعني . وتوقف ، وكان
 يشعر بوجع في الخاصرة ، فاستند الى شجرة ، ولم يكن غاضباً ،
 وفكر في بأس : « آه ! لماذا يجب الا اكون بعد صبياً ؟ » وعاد
 ماتيو يجلس قبالة جاك : كان جاك يتكلم ، وكان ماتيو ينظر اليه ،
 وكان كل شيء شديد الإضجار ، المكتب في الظل ، والموسيقى الخفيفة
 المنبعثة من الجهة الاخرى من شجرات الصنوبر ، وقطع الزبدة في صحن

الفجّل ، والاقذاح الفارغة على الصينية : سرمدية لا اهمية لها .
وأخذته الرغبة في ان يتكلم بدوره . من أجل لا شيء ، لكي لا
يقول شيئاً ، ليحطّم هذا الصمت السرمدى الذي لا ينجح صوت اخيه
في خرقه . وقال له :

— لا تدوخ رأسك : الحرب او السلم سيّان .
قال جاك مندهشاً : — سيّان ؟ اذهب فقل هذا اذن لملايين
للرجال اللذين يتهبأون لمواجهة الموت .

قال ماتيو في طيبة ساذجة :— وماذا اذن ؟ انهم يحملون موتهم في
نفوسهم منذ مولدهم . وحين ينتهي ذبحهم عن آخرهم ، ستظل
الانسانية ممثلة كأمثلاثها في السابق : بلا فجوة ولا نقص .
قال جاك : — باستثناء اثني عشر الى خمسة عشر مليوناً من
الرجال .

قال ماتيو :— ليست القضية قضية عدد، انها ليست ممثلة الا بنفسها،
فليس ثمة من ينتقصها، وهي لا تنتظر أحداً. ستظل ماضية الى لا مكان،
وسيطرح الرجل انفسهم الاسئلة نفسها على نواتهم ، ويفوتون عليهم
الحيات نفسها :

كان جاك ينظر اليه ويتسم ، ليظهر انه لم يكن مخدوعاً :

— والى اين تريد ان تنتهي ؟

قال ماتيو :— الى لا شيء ، بالضبط .

وصاحت السيدة بونوتان منتعشة جداً : « ها هم اولاء ، ها هم
اولاء ! سيضعون النعش في مركبة الموتى . » ليست الحرب شيئاً، كان
القطار ينطلق ، مقنفاً بالقبضات المرتفعة ، وكان موريس قد التقى
بالرفاق : وكان دوباش ولوران يسحقانه على النافذة ، وكان يغني ،
« سيكون نشيد الانترناسيونال هو الجنس البشرى . » فقال له دوباش
« انك تغني كأستي » فقال موريس : « حبذا ! » وكان يشعر بالحر

وكان صدغاه يؤلمانه ، وكان ذلك إجمال أيام حياته . كان يشعر بالبرد وكان بطنه يؤلمه ، وقد دق الجرس للمرة الثالثة ، وكان يسمع وقع اقدام مستعجاة في الممر ، وكانت ابواب تصطقق ، ولكن لم يكن احد ليأتي : « ماذا تراهن يعملان ؟ سيتركني ابول في لباسي » وركض احدهم بتثاقل ، ومر امام الغرفة فصاح به شارل :

- هي هو !

فاستمر الركض وانطلقاً الوقع ، ولكنهم جعلوا يدقون دقائق كبيرة فوق رأسه . ليذهبن فيولجُ بهن ، فلو كانت « دورليساك » الصغيرة التي تمد لمن خمس اوراق كل شهر ، على سبيل الهبة فقط ، لتضاربن من اجل الدخول الى غرفتها . وارتعش ، لا بد ان ثمة نوافذ مفتوحة ، فقد كان تيار هوائي مثلج يغلي تحت الباب ، انهن يهوين ، نحن لم نذهب بعد ، وها هن يهوين ، الضجة والهواء البارد والصراخ . كان يدخل كما يدخل في مطحنة ، انني في ساحة عامة . انه لم يعرف مثل هذا القلق ، منذ اخذت له الصورة التخطيطية الاولى للقلب . وصاح :

- هي هو ! هي هو !

الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق ، لم تكن جاكلين قد جاءت ، وقد تركوه وحيداً طوال الليل . أتراهم لن ينتهوا قريباً ، فسوق ؟ كانت ضربات المطرقة تصلي في جوف عينيه ، فكأنهم كانوا يسمرون نعشي . وكان يشعر بعينيه جافتين مؤلمتين ، وكان قد استيقظ متفضأ ، في الساعة الثالثة صباحاً ، بعد حلم مزعج ، او ما يشبه الحلم على اي حال : كان باقياً في « بيرك » ، الشاطيء ، المستشفيات ، كل شيء كان خالياً : ليس من مرضى بعد ، ولا ممرضات ، وانما نوافذ سوداء وقاعات مقفلة ، والرمل الرمادي العاري على مدى النظر ، ولكن ذلك الفراغ لم يكن مجرد فراغ ، فإن هنا لا يرى الا في الاحلام . كان الحلم مستمراً ، كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، وكان الحلم مع

ذلك مستمراً : لقد كان فوق محمله في وسط غرفته ، ومع ذلك فان
غرفته كانت خالية ، لم يكن لها بعد أسفل ولا أعلى ، ولا يمين ولا
شمال . كان باقياً بين اربعة حواجز ، اربعة حواجز تتصادم على زاوية
مستقيمة ، وشيء من الريح البحرية بين اربعة جدران . كن يسبح
في المر شيئاً ثقبلاً خشناً ، لا شك في انه صندوق كبير لرجل غني ،
وصباح :

- هي هو ! هي هو !

وفتح الباب ، فدخلت السيدة لويز ، وقال :

- اخيراً !

قالت السيدة لويز :

- آه ! دقيقة ! ان عندنا مئة مريض يجب إلباسهم . فلكل دوره :

- اين جاكلين ؟

- أتظن ان لديها الوقت للانشغال بك ؟ انها تلبس فتيات « بوتييه »

الصغيرات .

قال شارل : - اطيني المبولة بسرعة ! بسرعة !

- ماذا يحدث لك ؟ ليست هذه ساعتك !

قال شارل : - اشعر بضيق ، لا بد ان هذا هو السبب .

- صحيح ، ولكن عليّ قبل ذلك ان اهيئك ، على الجميع ان

يكونوا مستعدين عند الساعة الحادية عشرة ، مها يكن من امر ، لا بد
من ان تعجل .

وحلت رباط منامته ، وشدت على بنظلوله ، ثم رفعته من جنبيه

ودست المبولة تحته . كان الخبز بارداً وقاسياً ، وفكر شارل في ضجر :

« ان معي اسهالا »

- ما الذي سافعله اذا جاءني الإسهال في القطار ؟

- لا تهتم لذلك : لقد احتطنا لكل شيء .

كانت تنظر إليه وهي تداعب سلسلة مفاتيحها ، وقالت له :

— سيكرن الطقس جميلاً لدهابكم .

فأخذت شفتا شارل ترتجفان وقال :

— لم اكن اود ان اذهب .

قالت السيدة لويز : — عجباً ! عجباً ! هيا ! هل انتهيت !

وبذل شارل جهداً اخيراً .

— انتهى .

وفتشت في جيب مريولها فأخرجت منه غطاء من ورق ومقصاً ،

وقصت الورق الى ثماني قطع ، وقالت :

— انهض قليلاً .

وسمع صوت دعك الورق ، واحس بحك الورق ، وقال :

— اوف !

قالت : — حسناً ! استلق على بطنك ، بينما انا اضع المبولة ، سأنتهي

عن مسحك .

فاستلقى على بطنه ، وسمعها تمشي في الغرفة ، ثم احس بعلامسة

اصابعها الصناع . وكانت تلك هي اللحظة التي يفضلها . شيء . شيء

مسيكين صتير مهجور ، واصلب فرجه تحته فلامس به الغطاء الرطب :

وقلبته السيدة لويز كأنه علبة ، ونظرت الى بطنه فأخذت تضحك :

— آه ! يا لك من مزاح ! هيا ! استحسّر عليك يا سيد شارل ،

لقد كنت ناشرأ حقيقياً للمرح والفرح .

وردت الغطاء ونزعت منامته ، وقالت له وهي تدلكه :

— بعض ماء الكولونيا على الوجه . ستكون التواليت اليوم مقتضبة ،

ارفع ذراعيك ، حسناً ، القميص . السروال الآن . لا تتلو هكذا ،

فلن نستطيع ان البسك جوروك .

وتراجعت لتحكم على صنيعها ، وقالت في رضى :

- ما أنت ذا نظيف كالفلس ؟
 ومأل شارل بصوت معتكر :
 - أنكون الرحلة طويلة ؟
 فقالت له وهي تلبسه معطفه :
 - على الأرجح :
 - واين نذهب ؟
 - لا ادري . اعتقد انكم ستتوقفون اولاً في ديجون ؟
 ونظرت حولها ، وقالت :
 - انظر لأرى اذا نسيت شيئاً . آه ! طبعاً ، وفنجانك ، فنجانك
 الأزرق ! انك حريص عليه كل الحرص .
 وتناولته من دلى الرف وانحنت فوق الحقيبة . كان فنجاناً من الخزف
 الأزرق ذا اطراف بيضاء . وكان جميلاً جداً .
 - سأضعه بين الفصان حتى لا ينكسر ؟
 قل شارل : - إعطيني اياه .
 ونظرت اليه بدهشة ومدت له الفئجان . فأخذه ، واستقام على مرفقه
 ثم قذفه على الجدار . فصاحت السيدة لويز غاضبة :
 - مخرب ! كان يجب ان تعطيني اياه اذا كنت لا تريد ان تأخذه .
 قال شارل : - لم ارد ان اعطيه ولا ان آخذه .
 فهزت كتفها ، وانجهدت الى الباب ففتحه دلى مصراعيه : وسألها :
 - اذن ، سنذهب ؟
 قالت : - نعم ؟ انت لا تريد ان تفوت التظار ؟
 قال شارل : - بهذه السرعة ؟ بهذه السرعة ؟
 وكانت قد عادت تقف خلفه ، ودفعت المرحل ؛ ومد يده ليامس
 الطاولة في طريقه ، ورأى لحظة النافذة وطرفاً من الجدار عبر المرأة
 المثبتة فوق رأسه ، ثم لم ير بعد شيئاً ، كان في الممر ، خلف حوالى

اربعين عربة مصطفة على طول الجدار ، ونجل اليه ان قلبه كان يلوى ،
وبدا موكب المذبح يمشي . وقالت السيدة بونوتان : « ها هم اولاء
يذهبون . ولكن عجباً ! ليس هناك كثيرون يصحبونه الى مقبره الاخير »
كانوا يتقدمون ببطء ، ووقفه بعد كل دورة عجلة ، وكانت الحفرة
المظلمة في النهاية ، وكن يدفعن اليها المحامل اثنين اثنين ، ولكن لم
يكن ثمة الا مصعد واحد ، وكان هذا يقتضي وقتاً . وقال شارل ،
- ما اطول الزمن !

قالت السيدة لوز : - لن يذهبوا بدونك .

كانت مركبة الموتى تمر تحت النافذة ، السيدة القصيرة المرتدية السواد ،
لا بد انها الأسرة ، وكانت البوابة قد اغلقت غرفتها بالفتاح ، وكانت
تتبع الممرضة ، الى جانب امرأة قوية ترتدي ثوباً رمادياً مع قبعة زرقاء ،
وارتفق السيد بونوتان الشرفة بلقرب من زوجته وقال : « الاب فيغييه ،
كان أحاً ثلاث نقاط » . « وما يدريك ؟ » فقال بلهجة مزهوة :
« ها ! ها ! » ثم أضاف بعد لحظة : « كان يرسم لي مثلثات على
باطن كفي ، بلهامة ، حين كان يشد على يدي » . وصعدت الى
صدغي السيدة بونوتان موجة من الغضب ، لأن زوجها كان يتحدث
بمثل هذا الاستخفاف عن ميت . وتابعت الدفن بنظرها وفكرت : « يا
للرجل المسكين ! » كان متمدداً هناك ، بطوله ، على ظهره ، وكانوا
يحملونه نحو الحفرة ، وقدماه امامه . يا للرجل المسكين ، ان من المحزن
ان لا يكون للانسان امرة . ورسمت اشارة الصليب . بطوله كانوا
يدفعونه نحو الحفرة المظلمة ، سيشر بالمصعد يفر من تحته . وسأل :

- من يصحبنا ؟

فقالت السيدة لوز : - لا احد من عندنا . لقد عينوا الممرضات
الثلاث التابعات للمقصورة النورماندية ، بالاضافة الى جورجيت فوكيه ،
السمرات الطويلة التي تعرفها بكل تأكيد ، وهي تعمل في عيادة الدكتور

روبرتال :

قال شارل ، بينما كانت تدفعه بهدوء نحو الحفرة :
- آه ، لقد تذكرتها . سمراء ذات ساقين جميلتين . انها لا تبدو
دمثة الاخلاق .

وكان قد لاحظها غالباً على الشاطئ وهي تراقب جماعة من الكسحي
للصغار وتوزع الصفقات بالعدل ؛ وكان لها ساقان عاريتان ، وكانت
تنتعل حذاء مطاطاً . ساقان جميلتان عصبيتان مُشعرتان ، وكان قد
حدث نفسه بأنه يود لو تعني هي بصحته . سينزلونه في الحفرة بالحبال ،
ولن ينحني احد فوقه ، الا هذه المرأة القصيرة التي لا تبدو بمظهر
مناسب ، فما أحزن ان يموت الانسان هكذا ؛ ودفعته السيدة لويز الى
القمص ، وكان قد مُصف فيه حمل ، في الظل ، لصق الجدار . وسأل
شارل وهو يغمز بعينه :

- من هناك ؟

فقال صوت : - انا بتروس .

قال شارل : - آه ، انها الامست العجوز ! اننا اذن نتنقل ؟
فلم يجب بتروس ؛ وحدثت صدمة صغيرة ، فخيل لشارل انه كان
يعوم على ارتفاع بضعة سنتمترات فوق محمله ؛ كانوا ينغمرون في الحفرة ،
وكانت ارض الطابق الثالث قد اصبحت فوق رأسه ، فكان يترك حياته
من تحت ، من ثقب بلوعة . وقال في نشيج مقتضب :

- ولكن اين هي ؟ اين جاكلين ؟

فلم يبد على السيدة لويز انها تسمع ، وابتلع شارل دموحه بسبب
بتروس . وكان فيليب يمشي . ولم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فاذا
كف عن السير ، أغمى عليه ؛ وكان غرولويس يمشي ، وكان قد جرح
بزجله اليسرى . ومر سيد في الشارع المقفر ، رجل سمين قصير ذو
شارب وقبعة من قش ، فمد غرولويس يده وقال له :

— قل لي ، هل تعرف القراءة ؟

فوثب السيد وثبة جانبية صغيرة وحث خطاه . فقال غرولويس :

— لا تهرب . فلن آكلك .

ووسّع السيد خطوته ، فأخذ غرولويس يعرج خلفه ، وهو يمد له الدفتر العسكري ، وانتهى الامر بالسيد الى ان يركض وهو يطلق صرخة حيوان مفزع . وتوقف غرولويس ونظر اليه يبتعد وهو يحك رأسه فوق ضياده : وكان السيد قد اصبح صغيراً جداً ومستديراً كالكرة ، وقد قدحرج حتى منعطف شارع ، ثم نط مرة اخرى ، واستدار واختفى . وقال غرولويس :

— آه ! لا ! آه ! لا ! لا !

قالت السيدة لويز : — يجب الا تبكي .

وكفكفت عينيه بمندبليها ، اني لم اكن اتصور اني ابكي . واستشعر شيئاً من الحنان ، كان لذيذاً ان يبكي المرء على نفسه :

— كنت كثير السعادة هنا .

قالت السيدة لويز : — ما كنت تبدو كذلك . بل كنت دائم الغضب من هذا او ذاك .

وثنت حاجز المصعد ودفعته الى الخارج . وتعامل شارل على مرفقيه ، فحراى توتور والطفلة غافالدا . كانت غافالدا ممتعة كالخرقة ، وكان توتور قد اندس تحت غطاءه وهو يغمض عينيه . وكان رجال ذوو قبعات يمسكون بالعربات لدى خروجها من المصعد ويجتازون بها عتبة العيادة ويختفون معها في الحديقة . واقرب رجل من شارل .

وقالت السيدة لويز : « هيا ، وداعاً وسفراً سعيداً » ارسل لنا بطاقة صغيرة لدى وصولك . ولا تنس : ان الحقيبة الصغيرة مع ائمة التواليت هي عند قدميك ، تحت الغطاء .

وكان الرجل ينحني فوق شارل ، فصاح شارل :

— ها ! انتبه جيداً : من السهل ان يكون المرء شرساً اذا لم يكن متعوداً .

قال الرجل :

— كفى ، ليس من البراعة ان تم قصتك . لم افعل في حياتي شيئاً غير ان اذفع الشياطين الى محطة دانكرك ، والقاطرات الى لنز ، والعربات الى انزان .

وصمت شارل ، كان خائفاً : ان القتي الذي كان يدفع محمل الطفلة غالباً انعطف به على عجالتين اثنتين فصده بالجدار . قالت جاكلين :

— انتظر ! انتظر ! انا التي سوف اقوده الى المحطة :

وكانت تهبط السلم وهي تعدو ، وكانت نلهث ، فقالت :

— السيد شارل .

وكانت تنظر اليه في نشوة حزينة ، وكان صدرها يرتفع بقوة ، وتظاهرت بأنها تسوي غطاءه حتى تستطيع لمسه ، كان ما يزال يملك شيئاً على الارض ؛ فحيث يكون سيملك بعد هذا : هذا القلب الكبير الحفي المقدر الذي سيظل يخفق من اجله ، في برك ، في عيادة مقفرة . قال :

— لقد تحليت عني !

— اوه ! يا سيد شارل ، كان الوقت ينقضي ، ولم استطع ، ولا بد ان السيدة لويز قد اخبرتك .

وكانت تدور حول المحمل ، حزينة منهمكة ، مستقرة على ساقيها ، وكان هو يرتجف من الحقد . كانت « واقفة » من الواقفات ، وكانت لها ذكريات عمودية ، وهو لن يبقى زمناً طويلاً بمنجى ، في هذا القلب . وقال بجفاء

— هيا ، هيا . لنعجل قوديني :

قال صوت ضعيف - ادخلي .

فدفعت مود الباب ، فانقلبت حنجرتها لرائحة قبيحة تنبعث . كان بيار ممتدداً بطوله فوق السرير ، وكان ممقماً ، وكانت عيناه تأكلان له وجهه ، ولكنه كان يبدو هادئاً . وتحركت حركة تراجع ، ولكنها جهدت في الدخول الى الغرفة . وعلى كرسي ، عند رأس بيار ، كان ثمة طست مليء بماء مزبد عكر . وقل بيار بصوت طبيعي :

- اني لا أتيء بعد الا البلغم . فقد اخرجت كل ما في معدتي منذ وقت طويل . أبعدني الطست واجلسي :

وحملت مود الطست وهي تمسك انفاسها ووضعته بالقرب من المغسلة وجلست . وكانت قد تركت الباب مفتوحاً لتهوئ الغرفة . وساد صمت . وكان بيار ينظر اليها في فضول مزعج وقالت :

- لم اكن اعلم انك مريض ، والا لجلت قبل الان ، فتحامل بيار على مرفقه وقال :

- اني الآن افضل قليلاً ، ولكني ما زلت واهناً جداً . وانا لم انقطع عن الهذيان والالنين منذ أمس . وربما كان من الافضل ان آكل شيئاً عند الظهر ، فما رأيك ؟ كنت افكر في طلب جناح دجاجة . فقالت مود متضايقة :- لا ادري على الاطلاق . فانت نفسك تشعر جيداً ان كنت جائعاً .

وكان بيار يحرق بالنظاء في هيئة قلقه ، وقال :

- طبعاً ، ان هذا يثقل معدتي ، ولكن يمكنه ايضاً ان يشبثها ، ومن جهة اخرى ، اذا اخذني الغثيان من جديد ، فيجب ان يكون لدي ما أقيته .

فنظرت اليه مود في ذهول ، كانت تفكر : « كم نحتاج الى وقت لمعرفة انسان . »

- سأقول للخادم اذن ان يأتيك بحساء من الخضار واطعمة بيضاء .

عن الدجاجة :

وضحكت ضحكة مغتصبة وأضافت :

— اذا فكرت في ان تأكل ، فهذا يعني انك لست مريضاً .
وساد صمت . وكان بيار قد رفع عينيه وراح يراقبها بمزيج مزعج
عن الاهتمام واللامبالاة .

— احكي لي إذن : انكني الآن في الدرجة الثانية ؟

فسأته مود مستاءة : — من قال لك هذا ؟

— روبي . لقد لقيته أمس في الممرات .

قالت مود : — أجل . نعم ، نحن في الدرجة الثانية .

— كيف تدبرتن الامر ؟

— لقد اقترحنا ان نقدم حفلة موسيقية .

قال بيار : — آه ! هكذا إذن !

ولم يكن يكف عن النظر اليها ، ومد يديه على الغطاء وقال باسترخاء :

— ثم انك نمت مع الربان ؟

قال مود : — ماذا تزعم ؟

قال بيار : — لقد رأيتك خارجة من غرفته ، فليس هناك مجال

للاستخفاف .

كانت مود منزعجة . لم يكن لديها ، على نحو ما ، حساب تؤديه

الله : ولكن كان مناسباً ، من جهة اخرى ، ان تجربه . وأخفضت

عينها وسعلت ، وكانت تشعر بأنها مذنية ، وهذا ما كان يرد لها بعض

الحنان تجاه بيار . وقالت :

— اسمع ، لو رفضت ، لما فهمت فرانس .

فقال صوت بيار الهاديء : — ولكن ما دخل فرانس في الامر ؟

فرفعت رأسها فجأة : كان يتسهم ، وكان قد احتفظ بهيئة الفضول

المسترخي . وأحسّت بأنها مهانة ، وكانت تفضل ان يصرخ . وقالت

بجفاف :

- اذا حرصت على ان تعرف ، فاعرف اني حين اكون على ظهر
باخرة ، انام مع الربان ، لتستطيع جوقه بايبس ان تقوم بالرحلة في الدرجة
الثانية . هكذا .

وانتظرت لحظة ان يمتحج ، ولكنه لم ينبس بكلمة : وانحنت فوقه
وأضافت بقوة :

- انا لست قحبة .

- ومن الذي قال إنك كنت قحبة ؟ انك تفعلين ما تريدن او ما
تطيقين . وانا لا اجد ذلك سيئاً .

قالت : - آه ! انك لا تجد ذلك سيئاً ! انك لا تجد ذلك سيئاً ؟
- كلا :

فقالت في اضطراب : - انت على خطأ . انت على خطأ اكبر :

فسألها بيار بلهجة مرح : - أهذا إذن رديء ؟

- آه ! لا تحاول ان تخلط على الامور . كلا ، ليس هذا رديئاً :

ولم يكون رديئاً ؟ من الذين يطالبني بأن امتنع ؟ ليسوا هم الاشخاص
الذين يدورون حولي ، طبعاً ، ولا رفاقي الذين يفيسلون مني ، ولا
امي التي لا تكسب بعد شيئاً والتي ارسل لها فلوساً . ولكنك انت تجد
ذلك رديئاً لأنك عشيقتي :

وكان بيار قد شبك يديه فوق غطاءه ، وكانت هيته هيئة مريض

خفية هاربة ، وقال بهدوء :

- لا تصرخي . ان بي صداعاً .

فما لكت نفسها ونظرت اليه ببرودة ، وقالت بصوت منخفض :

- لا تخف ، فلن أصرخ بعد . ولكنني احب مع ذلك ان اقول

لك ان الامور قد انتهت فيما بيننا ، نحن الاثنين . لأنه بشر اشمترازي

ان انام مع هذا المعجوز المليء بالحساء ، ولو كنت قد وبختني او رثيت

لي ، لحسبت انك متعلق بي بعض الشيء ، ولكن ذلك قد عزاني قليلا . ولكن اذا كان برسمي ان انام مع من اريد ، من غير ان يؤثر ذلك على احد ، حتى ولا عليك انت ، فهذا يعني اني كلبة جرباء ، واني بغبي ؟ حسناً يا عزيزي ، ولكن البغايا يركضن وراء الماحين المستترين ، ولا حاجة من الى ان يعانقهن اجراس من نوعك . فلم يجب ببار : كان قد اغمض عينيه ، فدفعت كرسيها بقدمها وخرجت وهي تصفق الباب .

كان ينسرب ، متحاملا على مرقته ، بين مقاصير وعيادات ونزل : كان كل شيء فارغاً . وكانت المنة والائتتن والعشرون نفذة في فندق «بران» مفتوحة ؛ وفي ممر مقصورة «مين ديزير» وفي حديقة مقصورة «اوازيس» ، كان ثمة مرضى ينتظرون ، وهم مستقلقون في تنوايتهم ، رافمي الرؤوس ؛ وكاتوا ينظرون في صمت صف المحامل ؛ جمهور برسته من المحامل كان يجري نحو المحطة . ولم يكن ثمة من يتكلم ، ولم يكن يسمع الا انين المحاور واصوات العجلات الصماء وهي تهبط من الرصيف الى الطريق . كانت جاكلين تسير بسرعة ؛ وتجاوزت المحال عربة قديمة ضخمة يدنعها عجوز قصير كان يبكي ، وتجاوزت زوزو الذي كنت امه تقوده الى المحطة ، وعرجاء مقصورة المحتاجين .
وصاح شارل :

— هي ، هو !

فانتفض زوزو ، وحامل قليلا فنظر الى شارل بعينه الفاتحين الفارغتين ووقل وهو ينتهد :

— لسنا محظوظين !

وتداعى شارل للسقوط على ظهره ؛ وكان يحس الى يمينه والى يساره هؤلاء الحاضرين الافقين ، عشرة آلاف عملية دفن صغيرة ؛ وفتح عينيه ثانية فرأى قطعة من السماء ، ثم مئات من الناس ، مطلين من نوافذ «الفراندو» وهم يلوحون بمناديلهم . قذرون ! القذرون !

ليس هذا عيد ١٤ تموز ! ودوم رف من زمج الماء فوق رأسه وهو يتصايح ، وتمخّطت جاكلين خلفه . كانت تبكي تحت غلانتها الحريرية وكانت المريضة تحدق في الاكليل الوحيد الذي كان يرتج خلف مركبة الموتى ، ولكنها كانت تسمعها تبكي ، ولا بد انها لم تكن متحسرة عليه كثيراً ، فقد انقضى عشرة اعوام دون ان تراه ، ولكنها كانت تحفظ دائماً ، في ناحية ما من اعماقها ، بحزن خجول غير مرتو ينتظر بتواضع دفن شخص ما ، او مناولة ، او زواجاً ، لتحصل اخيراً على الدموع التي لم تجرؤ قط على المطالبة بها ، وفكرت المريضة باها الكسيحة ، وبالغرب ، وبابن اختها الذي سيرحل ، وبوضع المريضة التماسي ، فأخذت تبكي ايضاً ، كانت مسرورة ، وكنت المرأة التصيرة تبكي ، وخلفها كانت البوابة قد بدأت تبكي ، يا للعجوز المسكين ، قليلون جداً هم الذين يصحبونه ، فليظهروا على الاقل بمظهر الحزن ، كانت جاكلين تبكي وهي تدفع المحمل ، وكان فيليب يمشي ، سوف يغمى علي ، وكان غرولويس يمشي ، الحرب ، المرض ، الموت ، الرحيل ، البؤس ، كان اليوم يوم احد ، وكان موريس يغني امام نافذة حافله ، ودخلت مارسيل الى حانوت الحلويات لتشتري حلوى بالزبدة ، قالت جاكلين : - انك لا تتكلم قط . كنت اظن انك ستجد بعض المشقة في تركي .

وكانا قد سلكا طريق المحطة ، فسألها شارل :
 - الا تجدين اني لست متضامياً بما فيه الكفاية في وضعي هذا ؟
 انهم يرزمونني ويحملونني لا ادري الى ابن من غير ان يسألوني رأبي ، وتريدون فوق هذا ان انحسر عليك ؟
 - انت لا قلب لك .

فقال في جفاء : - كفى . اود لو كنت مكاني ، اذن لرأينا ما الذي تفعلينه بقلبك .

فلم تجب ، ورأى سقفاً مظلماً فوق رأسه ، فقالت جاكلين :
- لقد وصلنا .

بمن استنجد ؟ من الذي ابتهل اليه حتى لا يأخذني ؟ انني افعل
كل ما يريدون شريطة ان يتركوني هنا ، فتعطني بي وتترهني ، وفي
المساء تعمل لي مداعبتي الصغيرة ... وقال لها :
- آه ! أحس اني سأموت في اثناء هذه الرحلة .
فقالت جاكلين وقد استطار لبتها :

- ولكنك مجنون . انت مجنون تماماً ، فكيف تستطيع ان تنطق بمثل
هذه الاشياء ؟

وطافت حول المحمل ثم مالت عليه ، وكان يحس نفسه الحاراً ،
وقال وهو يضحك لها :

- هيا ! هيا ! بلا مظاهرات . فلست أنت التي ستصابين بالمضايقات ،
اذا مت . وانما هي السمراء الجميلة ، تعرفينها ، ممرضة الدكتور روبرتال ،
فاستقامت جاكلين فجأة ، وقالت :

- انها جميلة . وانت لا تستطيع ان تتصور جميع القصص التي
صنعتها مع لوسيان . (واضافت متممة بين اسنانها المنقبضة) آه !
سترى حالك معها ، ولا حاجة بك الى ان تدبل لها عينيك ، فهي اقل
بلاهة مني .

واستقام شارل ونظر حوله في قلق . كان ثمة اكثر من مثني محمل
مصفوفة في الباحة ، وكان الحمالون يدفعونها الى المحطة ، واحداً بعد
الآخر ، وتتم بين أسنانه :
- لا اريد ان اذهب .

ونظرت اليه جاكلين نظرة شاردة ، وقالت له فجأة :
- وداعاً . وداعاً يا لعبتي ، يا لعبتي العزيزة :
واراد ان يجيب ، ولكن المحمل كان قد اندفع ، واثابته رعشة

من قدميه الى رقبته ، فارتد برأسه الى خلف ، فرأى وجهاً حمراً
منحنياً فوق رأسه ، وصاحت جاكلين :

- اكتب لي ، اكتب لي :

وكان قد اصبح على المحطة ، في خليط من صرخات الوداع
وظلقات الصفارة .

وسأل في ضيق :

- اليس ... اليس هذا القطار ؟

فقال الموظف في سخرية :

- كلا ؟ وما الذي تحتاجه اذن ؟ قطار الشرق السريع ؟

- ولكن هذه حافلات لنقل البضائع ؟

فبصق الموظف بين قدميه ، وقال موضحاً :

- انكم لن تهاكوا جيداً في قطار للمسافرين . فيجب نزع المقاعد،

انت تفهم الوضع ؟

كان الجمالون يأخذون المحامل من اطرافها ، فيفصلونها عن عرباتها
ويحملونها الى الحافلات . وفي الحافلات ، كان موظفون ذوو قبعات
يلتقطون المحامل كما يطيقون ويحملونها في الظلام : ومرّ صموئيل الجميل ،
دون جوان « برك » ، الذي كان يملك ثمانتي عشرة بذلة ، مرّ بالقرب
من شارل ، بين ذراعي حمالين ، واختفى في العجلة ، وساقاه
في الهواء .

قال شارل في غيظ :

- هناك ، على كل حال ، قطارات صحية .

- آه ! انني أصدقك ! كأنهم ، ونحن في عشية الحرب ، سيرسلون

قطارات صحية الى « برك » لنلمّ المشلولين ،

واراد شارل ان يجيب ، ولكن محمله تأرجح فجأة ، وسُحِل في الهواء ،

ورأسه في الأسفل وصاح :

— احمولني كما يجب ! احمولني كما يجب !
فأخذ الجمالون يضحكون ، واقترَب الثقب الفارغ ، وكبُر ، ومدوا
في الحبل ، فسقط التابوت على الارض الرطبة بضجة مائعة . وانحنت
المرضة والبوابة فوق حافة الحفرة ، واخذتا نيكيان بلا تحفظ .
قال بوريس : — انت ترين ، انت ترين : انهم يقصون بعضهم
بعضاً .

كانا جالسين في باحة الفندق ، بالقرب من رجل يحمل الارسمة
ويقرأ في الجريدة . وانزل الجمال حقيبتين من جلد الخنزير ووضعهما
قرب المدخل ، بالقرب من الحقائق الاخرى . وقال بصوت محايد :
— خمسة رحلوا هذا الصباح .

قال بوريس : — انظري الى هذه الحقائق ، انها من جلد الخنزير .
(واضاف بقسوة) وهؤلاء الناس لا يستحقونها .

— ولماذا يا جميلي ؟

— كان يجب ان تكون مغطاة بالبطاقات .

قالت لولا : — واذن ؟ اننا لن نرى بعد جلد الخنزير .

— تماماً . يجب على المترَف الحقيقي ان يخفي نفسه ، ثم انهم
صيعملونها كمفارش . ولو كان لدي انا احداها ، لما كنت هنا .

— اين كنت تكون؟

— في اي مكان. في المكسيك او الصين (واضاف : معك)

واجتازت الباحة امرأة طويلة ترندي قبعة سوداء ، وكانت تصرخ

ياحتداد :

— مارييت ! مارييت !

قالت لولا : — انها السيدة دولاريف . وهي راحلة بعد ظهر اليوم .

قال بوريس : — سنبقى وحدنا في الفندق ، وسيكرن هذا طريفاً :

فسنغير غرفتنا كل مساء .

قالت لولا : - امس في الكازينو ، كانوا عشرة فقط يستمعون اليّ ؛ ثم اني لم اعد أنفلق . وقد طلبت ان يجمعوهم معاً ، على طاولات الوسط ، وانا امس لهم أغانيّ في آذانهم .
ونض بوريس لينظر الى الحنايب عن كئيب . وجسّها بالخفية ثم عاد بالقرب من لولا وسألها فيما هو يجلس :

- لماذا هم ذاهبون ؟ انهم هنا سيكونون في وضع آمن كذلك ؛
وقد يحدث ان تقصف منازلهم في اليوم التالي من عودتهم .
قلت لولا :

- هذا صحيح ، ولكن ذلك منزلهم ؛ الا تفهم ذلك ؟
لا .

قلت : - هكذا : ان الناس اذا بلغوا سنّاً معينة ، أخذوا ينتظرون المضايقات في بيوتهم ؛
فأخذ بوريس يضحك ، واستقامت لولا في قلق ؛ وكانت قد احتفظت بذلك منذ القديم : كان اذا ضحك ظنت دائماً انه يهزأ بها .
- لماذا تضحك ؟

- لأنني اجلك شجاعة . انت تشرحين لي ما يشعر به الناس اذا بلغوا سنّاً معينة . ولكنك لا تفهمين من ذلك شيئاً يا عزيزتي لولا : فانت لم تسكني منزلاً قط .

قالت لولا بحزن : - هذا صحيح ؛
فتناول بوريس يدها وقبّل باطن كفها ، فاحمرت لولا .
- كم انت لطيف معي ! اؤكد لك انك لست بعد بوريس الذي اعرفه .

- إشتكي اذن !
فشدت لولا يده في قوة .

- انا لا اشتكي ، ولكني اود ان اعرف لماذا انت لطيف الى هذا الحد .

قال - ذلك اني اتقدم في السن :

وكانت قد تركت يده ، وكانت تبتسم وهي مستلقية في الارصفة ، وكان مسروراً ان يجدها سعيدة ، فقد كان يريد ان يترك لها ذكرى طيبة . ولامس يدها وفكر : عام ، وليس امامي بعد الا عام واحد أفضيه معها ؛ واستشعر الحنان . لقد بدأت قصتها تحمل سحر الماضي . كان من قبل يعاملها بقسوة ، ولكن ذلك كان يُعزى الى انها كانا على تعاقد غير محدود . وكان ذلك يزعجه ، فهو يحب كثيراً التعهدات ذات المدة المحدودة . عام . وسيمنحها كل السعادة التي كانت تستحقها ، وسيصلح كل اخطائه ، ثم يتركها ، ولكن لا بصورة غادرة ، وليس من اجل امرأة اخرى ، او لأنه شبع منها . ان ذلك سيتدبر من تلقاء نفسه ، بقوة الاشياء ، لأنه سيكون بالغاً، وسيرسلونه الى الجبهة . ونظر إليها من زاوية عينيه . كانت تبدو شابة ، وكان صدرها الجميل يرتفع من النشوة ؛ وفكر في كآبة . « وهكذا سأكون رجل امرأة واحدة » . مجند في عام ٤٠ ، مقتول عام ٤١ ، لا ، بل ٤٢ ، لأنه كان ينبغي ان يتاح له الوقت لينهي دراسته ، وهكذا سيرف امرأة واحدة في اثنين وعشرين عاماً . منذ ثلاثة اشهر ، كان ما يزال يحلم بان يضاجع نساء من الطبقة الراقية ، ذلك اني كنت طفلاً ، بهذا فكر من غير ما تسامح : سوف يموت من غير ان يكون قد عرف اللذات ، ولكنه لن يتحسر على شيء . فسوف يمكنه ، على نحو ما ، في الاشهر القادمة ، ان يجمع ثروات طيبة ، ولكنه لم يكن حريصاً على ذلك اكثر مما ينبغي . فاني سأتوزع بهذا الشكل . ان من ليس امامه الا همامان يعيشها ، خير له ان يتركز برصانة . لقد سبق لجسول رونار ان قال لابنه : « لا تدرس الا امرأة واحدة ، ولكن ادرسها جيداً ، تعرف المرأة » . كان

ينبغي ان يدرس لولا بعناية ، في المطعم ، وفي الشارع ، وفي السرير ،
وأمر لإصبعه على معصم لولا وفكر : انني لا اعرفها بعد كما ينبغي ،
كان في جسمها زوايا يجهلها ولم يكن يعرف ما كان يمر في رأسها ،
ولكن كان امامه عام ، وسوف يبدأ في التعرف عليها حالا . وادار
رأسه نحوها وتأملها بانتباه ، فسأته لولا :

- لماذا تنظر الي ؟

قال بوريس : - انني ادرسك :

- لا احب ان تنظر الي اكثر مما ينبغي ، فانا اخشى دائماً ان
تجدني هجوراً .

فبسم لها بوريس : - انها تظل حلرة ، وهي لم تكن تألف سعادتها ،
وقال لها .

- لا نخشي شيئاً ،

وحيتها ارملة بجناء وتداعت للسقوط على اريكة بالقرب من حامل
اللاوسمة .

وقال لها الرجل :

- اسمعي يا سيدتي العزيزة . ان هتلر سيلقي خطاباً .

فسألت الارملة : - اوه ، متى ؟

- سيخطب غداً مساء ، في ساحة الرياضة .

قالت وهي ترتعش :

- برررر . اذن سأوي الي فراشي باكراً ، وسأضع رأسي تحت
الغطاء ، فانا لا اريد ان اسمعه . اتصور انه ليس لديه شيء لطيف
يقوله لنا .

قال الرجل : - هذا ما اخشاه جداً .

وساد صمت ، ثم استطرد :

- اسمعي : لقد ارتكبنا غلطتنا الكبيرة عام ٣٦ ، في فترة تنظيم

المنطقة اللبنانية تنظيمًا عسكرياً. كان ينبغي ان نرسل عشر فرق الى هناك. فلو كشفنا عن نواجذنا ، لنفذ الضباط الالمان امر التراجع الذي كان في جيوبهم . ولكن « سارو » كان ينتظر رضى « الجبهة الشعبية » ، وكانت « الجبهة الشعبية » تفضل ان تعطي سلاحنا للشيوخين الاسبان . فقالت الارملة ملاحظة :

— ولكن انكثرا ما كانت لتحذو حدونا .

فردد الرجل ، فاقد الصبر :

— ما كانت لتحذو حدونا ! ما كانت لتحذو حدونا ! حسناً ، اني اريد ان اطرح عليك سؤالاً يا سيدتي . أتعلمين ما كان سيفعله هتلر ، لو لجأ « سارو » الى النجبة ؟
قالت الارملة — لا ادري .

— كان مين — — — بحر ، يا سيدتي . اني اعرف ذلك من مصدر موثوق . فانا اعرف ضابطاً من المكتب الثاني ، منذ عشرين عاماً .

وهزت الارملة رأسها بحزن وقالت :

— كم من فرص ضائعة !

— ومن هو المسؤول ، يا سيدتي ؟

قالت : — آه !

قال الرجل : — أجل ! أجل ! هذه هي نتيجة التصويت الاحمر . ان الفرنسي غير قابل للإصلاح . ان الحرب حلى ابوابه ، وهو يطالب بعطل مدفوعة الأجرة .

ورفعت الارملة انفها : كان يبدو عليها مظهر قلق حقيقي .

— انت تعتمد اذن ان الحرب واقعة ؟

وقال الرجل مشدوهاً :

— الحرب ! آه ، لا نتعجل الامور . لا ، ان دلاديه ليس

طفلاً . فهو سيقوم حتماً بالتنازلات الضرورية . ولكننا سنجابه اصعب
المصاعب .

قلت لولا بين اسنانها : - قدرون !

فابتسم لها بوريس في ود . كانت قضية تشيكوسلوفاكيا في نظرها
بسيطة جداً . بلدٌ صغيرٌ قد هوجم ، فعلى فرنسا ان تدافع عنه . كانت
تخبط بعض الشيء ، في السياسة ، ولكنها كانت كريمة . وقالت :

- تعال لتغدى . انهما يشيران اعصابي .

ونهضت ، فظفر الى خاصرتيها الجميلتين القويتين ، وفكر في « المرأة » ،
كانت « المرأة » ، « المرأة كلها » هي التي سبمتاكيها الديلة . وأحس
بأن شهوة طغية تخرج اذنيه .

خلف ظهره ، المحطة - وغوميز ، في القطار ، قدماه على المقعد
الطويل . كان قد فاجأ الآلهة . « اني لا احب العناق والقبيل على
المحطة » . وكانت تهبط الدرج العظيم ، وكان القطار لا يزال في
المحطة ، وكان غوميز يقرأ وهو يدخن ، وقدماه على المقعد الطويل ،
وكان ينتعل حذاءً جميلاً جديداً من جلد البقر . وقد رأت الحذاء على
قماش المقعد الرمادي ، كان في الدرجة الاولى ، فالحرب تُثري ،
وفكرت . اني اكرهه . كانت جافة وفارغة . ورأت فترة اخرى
للبحر المشرق والمرفاً والبواخر ، ثم لا شيء بعد . فنادق مظلمة ،
سقوف وقطارات .

- لا تنزل بهذه السرعة يا بابو ، فسوف تسقط !

فظل الصغير على الدرجة . وقدمه في الهواء . سيرى ماتيو . كان
بامكانه ان يبقى يوماً آخر معي ، ولكنه فضل علي ماتيو . كانت يداها
محرقتين ، ما دام هنا ، فانه العذاب . اما وقد ذهب الان ، فلست ادري
اين ذهب بعد . وسأل :

- هل ذهب بابا ؟

كان ثمة ساعة ، قبالتها ، تشير الى الواحدة والخامسة والثلاثين ،
كان القطار قد سار منذ سبع دقائق . قالت ساره :

- نعم ، لقد ذهب .

قال بابلو ، وعيناه ملتصقان :

- هل سيقا تل ؟

فقالت ساره : - لا ، وانما ذهب يرى صديقاً له :

- نعم ، وبعد ذلك ، هل يقا تل ؟

قالت ساره : - بعد ذلك ، سيذهب لقتال الآخرين .

وكان بابلو قد وقف على الدرجة قبل الاخيرة ، فثنى ركبتيه وقفز
مضموم القدين الى الرصيف ، ثم التفت ينظر الى امه وهو يبسم لها في
زهو . وفكرت : « مهرج » ، والتفتت من غير ان تبسم له واجالت
لظرها في الدرج العظيم . كانت القطارات تجري وتقف ثم تنطلق من
فوق رأسها . وكان قطار غوميز يتجه نحو الشرق ، بين كئسبان
طبشورية ، او ربما بين بيوت . وكانت المحطة مقفرة ، فوق رأسها ،
فقاعة رمادية كبيرة ، مملأى بالشمس والدخان ، رائحة خمر وسناج ،
وكانت الخطوط الحديدية تلتصع . وخفضت رأسها ، ولم يكن يروق لها
ان تفكر بهذه المحطة المهجورة فوق ، في حرارة الاصيل البيضاء ..
ففي نيسان ٣٣ ، كان قد سافر ، في هذا القطار نفسه ، وكان يرتدي
بلانة من التوند الرمادي ، وكانت الانسة سمسون تنتظره في « كان » ،
وكان قد امضى خمسة عشر يوماً في « سان روميو » . وفكرت :
انني ما زلت افضل ذلك العهد . ولاست يدها قبضة صغيرة ملتصقة ،
ففتحت يدها وجست فيها معصم بابلو . وخفضت عينيها ونظرت اليه ،
كان يرتدي قميصاً ذا ياقة بحرية وقبعة من القماش . وسألها بابلو :

- لماذا نظرين لي هكذا ؟

وادارت ساره رأسها ونظرت الى الطريق : كانت مذعورة بأن تحس

قاسية الى هذا الحد . وفكرت : ليس هو الا صبياً . أجل ،
ليس هو الا صبياً . ونظرت اليه من جديد وهي تحاول ان تبتم له
ولكنها لم تنجح في ذلك ، كان فكاًها منقبضين ، وكان فيها من
خشب . واخذت شفتا الصغير ترتجفان ، فادركت انه يوشك ان يبكي ،
فجذبتة فجأة واخذت تمشي بخطى كبيرة ، ونسي الصغير دموعه ، في
دهشة ، فكان يكردح الى قربها .

— اين نذهب يا ماما ؟

قالت ساره : — لا ادري .

وسلكت الشارع الاول الى يمينها ، وكان شارعاً مقفراً ، وكانت
جميع الجوانيت مقفلة ، وحثت خطاها وانعطفت في شارع الى اليسار ،
بين بيوت مرتفعة ، مظلمة وقذرة . وظلت الشوارع مقفرة . وقال
بابلو :

— انك تجعليني اركض .

وشدت ساره يده من غير ان تجيب وجرتة ، فسلكا شارعاً طويلاً
مستقيماً ، شارعاً يمشي فيه الترام . ولم يكن يرى فيه سيارات ولا ترام ،
لا شيء الا سائر حديدية مسدلة ، ثم الخطوط الحديدية التي كانت
تنسرب نحو المرفأ . وفكرت بان اليوم كان يوم احد ، فانقبض قلبها .
وضغظت بعنف على معصم بابلو . وان بابلو :

— ماما ! اوه ، يا ماما !

وكان قد اخذ يعدو للحاق بها ، ولم يكن يبكي ، ولكن كان
ايضاً ممتعاً ، وتحت عينيه هالات كابية ، وكان يرفع نحرها وجهاً
مندهشاً متحدياً . وتوقفت ساره في الطريق ، وقد بللت الدموع وجنتيها
فقالت :

— يا للطفل المسكين ! يا للصغير المسكين البريء !

وأقمت بالقرب منه . ماذا يهمها ما عساه يكون فيما بعد ؟ لقد كان

الآن هنا ، بشعاً غير مؤذ مع ظل صغير عند قدميه ، وكان يبدو
وحيداً في العالم ، وكان في عينيه هذا الاندهاش كله ، ومهما يكن من
أمر ، فليس هو الذي طلب ان يولد .

وسأل بابلو : - لماذا تبكين ؟ لأن البابا قد ذهب ؟

فانقطعت دموع ساره على التو واخذتها الرغبة في الضحك . ولكن
بابلو كان ينظر اليها مهموماً . ونهضت فقالت وهي تدبر رأسها :

- نعم ، نعم ، لأن البابا قد ذهب .

وسأل : - هل نعود بعد قليل الى البيت ؟

فقالت : - هل تعبت ؟ اننا ما نزال بعيدين عن البيت ، تعال ،

تعال ، سنمشي على مهل .

ومشياً بضع خطوات ثم توقف بابلو ، ومد اصبعه ، وقال في

نشوة تكاد تكون مؤلمة :

- اوه ! انظري !

كان ذلك اعلاناً ملصقاً على باب دار للسينا زرقاء ، فاقتربا .

وكانت رائحة فرمول تنبعث من القاعة المظلمة الرطبة : وكان على

الإعلان بعض رعاة البقر يلاحقون فارساً مقنماً وهم يطلقون رصاصي

مسدساتهم . طلقات نارية ايضاً ، ومسدسات ايضاً ! كان ينظر لاهتاً ،

سيضع عما قليل قبعتة ، وسيأخذ بندقيته ويعود في الغرفة ، وهو يمثل

دور اللص المقتنع . ولم تؤاها الجرأة في ان تسجبه ، واكتفت بأن

ادارت رأسها . وكانت قاطعة التذاكر تروح في غرفتها الزجاجية ،

وكانت امرأة سمينة سمراء ، ذات لون ممتنع ، وعينين من نار . وكان

على الطاولة ، خلف الزجاج ، زهور في آنية ، وكانت قد تثبتت على

الجدار ، بمسامير صغيرة ، صورة لروبرت تايلر . وخرج من القاعة

رجل بين الشباب والكهولة ، فاقرب من الصندوق وسأل عبر النافذة :

- كم ؟

قال : - الدخول ثلاثة وخسون :
- هذا ما حسبه وامس سبعة وستون : فيلم جميل كهذا ، مع
مطاردات !

قالت قاطعة التذاكر وهي تهز كتفيها :
- الناس يبقون في بيوتهم .

وكان رجل آخر قد وقف بالقرب من بابلو ، وكان ينظر الى
الاعلان وهو يلهث ، ولكن لم يكن يبدو عليه انه يراه . وكان شخصاً
طويلاً شاحباً ذا ثياب ممزقة ، وحول رأسه ضهاد ملطخ بالدم ووحل
جاف على خده ويديه . ولا بد انه كان قادماً من بعيد : واخذت
ساره بابلو من يده وقالت :
- تعال .

وجهدت في ان تسير ببطء شديد ، بسبب الصغير ، ولكن كانت
لديها رغبة للركض ، اذ كان يخيل اليها ان احداً ينظر اليها من
خلف . وامامها كانت الخطوط الحديدية تلمع ، وكان القطران يذوب
تحت الشمس على مهل ، وكان الهواء يرتعش قليلاً ، حول فانوس ،
ليس هو بعد الاحد نفسه . « الناس يبقون في بيوتهم » : كانت ما
تزال منذ لحظة تتخيل خلف صفوف البيوت جادات فرحة غاصّة بالناس
الذين تنبعث منهم رائحة مسحوق الرز والتبخ الاشقر ، كانت تمشي في
شارع هادىء من شوارع الضاحية ، يرافقها جمع كبير ، قريب وغير
مرئي : وكانت كلمة واحدة كافية لتقف للطرقت : انهم الآن يجرون
نحو المرفأ ، بيضاً مقفرين ، وكان الهواء يرتعش بين الجدران العمياء .
قال بابلو :

- ماما : ان الرجل يتبعنا .

قالت ساره - لا . انه يتنزه مثلنا .

وانعطفت الى اليسار ، فاذا هو الطريق نفسه الذي لا ينتهي ، ولم يكن

ثمة بعد الا طريق يتيه عبر مارسيليا . وكانت ساره في هذا الطريق ،
خارجاً مع صبي ، وكان جميع المارسييليين في الداخل . ثلاثة وخمسون
مدخلاً . كانت تفكر في غوميز ، في ضحكة غوميز ، بالطبع ،
جميع الفرنسيين جبنا . ولماذا ؟ انهم يبقون في بيوتهم ، هذا طبيعي .
انهم يخافون الحرب ، وهم على حق في ذلك . لكنها كانت مع ذلك
مستاءة . ولاحظت انها قد حثت خطاها ، فارادت ان تبطئ سيرها ،
بسبب بابلو . ولكن الصغير جذبها الى الامام ، وقال بصوت مخنق :

— اسرعي ، اسرعي ، اوه ! يا امه .

قالت بجفاء : — ماذا هناك ؟

— انه ما يزال خلفنا ..

وادارت ساره رأسها قليلاً فرأت المتشرد ، كان يتبعهما ، بدون
رب ، واخذ قلبها يخفق في صدرها ، وقال بابلو :

— لركض !

وفكرت بالضهاد الدامي فاستدارت فجأة على عقبها . وتوقف
الشخص تماماً وراهما قادمين بعينه المضبطين . كانت ساره خائفة ، وكان
الصغير قد تشبث بها بكلتا يديه وهو يجرها الى خلف بكل قواه .
« الناس يبقون في بيوتهم » فمهما حاولت ان تنادي او تصرخ طلباً
للمنجدة ، فلن يأتي احد ، ونظرت الى المتشرد في عينيه وسأته :

— هل انت بحاجة الى شيء ؟

فبسم بسمة تثير الشفقة ، وتلاشى خوف ساره . فسأل :

— هل تعرفين القراءة ؟

ومد لها دفترأ قديماً ممزقاً ، فأخذته ، وكان دفترأ عسكرياً . وكان
بابلو يحيط ساقها بذراعيه ، وكانت تحس جسمه الصغير الحار .

وقالت :

— ماذا تريد ان تعرف ؟

قال الرجل وهو يشير باصبعه الى ورقة :
- اريد ان اعرف ما هو مكتوب هنا .
كان يبدو عليه الطيبة ، بالرغم من عينه البنفسجية المنغلقة نصف
انغلاق . ونظرت اليه ساره لحظة ، ثم نظرت الى الورقة . وتمتم
الرجل بتأثر :
- كم هي مصيبة ، كم هي مصيبة الا يحسن الانسان القراءة .
قالت ساره : - ان معك ورقة بيضاء ، فيجب ان تذهب الى
مونبليه .

ومدت له الدفتر ، ولكنه لم يأخذه على التو ، بل سأل :
- صحيح ان الحرب ستقع ؟
قالت ساره : - لا ادري .
وفكرت ، سوف يذهب . ثم فكرت في غوميز . وسألت :
- من الذي عمل لك الضهاد ؟
فقال الرجل : - انا نفسي .
وفتشت ساره في حقيبتها ، وكان معها دبائيس ومنديلان نظيفان .
وقالت له بلهجة تسلط :
- اجلس على الرصيف .
فجلس الرجل بمشقة ، وقال في ضحكة واعتذار :
- ان ساقى مخدرتان .

ومزقت ساره المنديلين . وكان غوميز يقرأ « الاومانيتيه » في
الدرجة الاولى ، وقدماه على المقعد الطويل . سوف يرى ماتيو ثم
يذهب الى تولوز ليستقل الطائرة الى برشلونه . وحلت الضهاد الدامي
ونزعته بشدات قصيرة . وان الرجل قليلا . وكان ثمة قشرة سوداء
لزجة تمتد وسط رأسه . وبسطت ساره منديلا لبابلو :
- اذهب فبلله من ماء النبع .

فركض الصغير وهو سعيد بالابتعاد . ورفع الرجل عينيه الى ساره
سوقال لها :

- انني غير راغب في القتال .
فوضعت ساره يدها بلطف على كتفه . وكان يودها لو تطلب منه
الصفح . وقال .

- انا راع .

- وماذا تفعل في مرسيليا ؟

فهز رأسه ، وردد :

- لست راغباً في للقتال .

وكان بابلو قد عاد ، فغسلت ساره الجرح كما اطاعت ثم لفت الضهاد
بخفة ، وقالت :

- انهض .

فنهض ، وكان ينظر اليها بعينه المبهمتين .

- يجب اذن ان اذهب الى مونبليه ؟

فبحثت في محفظتها وأخرجت منها ورقتين من ذوات المثة فرنك ،
سوقالت :

- هذا من اجل رحلتك .

ولم يأخذها الرجل على اللو : كان ينظر اليها في اجتهاد . وقالت
ساره بصوت منخفض سريع :

- خذ ، خذ ، ولا تقا تل ان كان بوسعك ان تتجنب ذلك .

فأخذ الورقتين ، وشدت ساره بقوة على يده ، ورددت :

- لا تقا تل ، افعل ما بدا لك ، عد الى بيتك ، إختبئ ، فكل

شيء خير من القتال .

وكان ينظر اليها من غير ان يفهم ؛ وتناولت يد بابلو ، واستدارت

ثم استعادا سيرهما . وبعد لحظة ، التفتت : كان ينظر الى الضهاد

والمندبل المبلل الذي كانت ساره قد ألفتها على الطريق . وانتهى بان
المنحنى ، فلمتبا متلمساً ، ثم دستها في جيبه .

كانت قطرات العرق تتدحرج على جبينه حتى صدغيه ، وتسيل على
خديه من منخريه حتى اذنيه . وكان قد حسب اولا انها هوام ، فصفع
وجهه ، فاذا يده تسحق دموعاً دافئة . وقال رفيقه الجالس الى يساره:

— اوف ! ما أشد هذا الحر ،

وعرف صوته ، انه بلانشار ، الوحش السمين . قال شارل :

— انهم يفعلون ذلك عمداً . فهم يتركون الحافلات في الشمس

طوال ساعات .

وساد صمت ثم سأل بلانشار :

— أهذا انت ، يا شارل ؟

قال شارل : — هذا انا .

وكان بأسف لأنه تكلم . كان شارل يحب المزاح كثيراً ، وكان

يرش الناس بمسدس مائي ، او كان يتدحرج عليهم او يعلق رثيلاء من

الورق المقوى على اغطيبتهم . وقال بلانشار :

— ما اكثر ما نلتقي !

— نعم .

— العالم صغير .

وتلقى شارل دفعة ماء في وجهه ، فسح جبينه وبصق ؛ وكان

بلانشار يقهقه .

وقال شارل :

— اي فرج انت !

وسحب مندبله ومسح عنقه وهو يجهد في ان يضحك :

— انه مسدسك المائي !

قال بلانشار وهو يضحك :

- عظيم ! لقد أصبتك ، اليس كذلك ؟ في وسط وجهك ! لا تغضب . إن جيوبتي مملأى بالحبل الصغيرة : وسوف نضحك كثيراً في اثناء هذه الرحلة .

قال شارل في ضحكة سعيدة :

- اي فرج ! اي فرج ! اي أزرع انت !

كان بلانشار يخفيه : ان المحامل تتلامس ، فاذا اراد ان يقرصني او يلقي شعراً يشوك تحت غطائي ، فليس له الا ان يمد يده . وفكر: لا حظ لي . يجب ان ابقى على حذر طوال الرحلة . وتنهى ولاحظ انه كان ينظر الى السقف ، كان جداراً كبيراً مظلماً ، مقفلاً بالمسامير المثانة . وكان قد ادار مرآته نحو الخلف ، فكانت المرأة سوداء كصفحة من الزجاج المدخن . وتحامل شارل قليلاً ، والقى حوله نظرة . كانوا قد تركوا باب الممرات مفتوحاً على مصراعيه ، وكان نور ابيض يزيد في القاطرة ؛ راكضاً على الاجسام المتمددة ، مجمداً الأغصان ، مصفراً الوجوه . ولكن المنطقة المضاءة كانت محددة تماماً باطار الباب ؛ اما الى اليمين واليسار ، فكان الظلام شبه تام . يا للأردياء ! لا بد انهم رشوا الحمالين ، وسوف يستمتعون بالهواء كله ، وبالضياء كله ؛ واذا تحاملوا على مرافقهم بين الفينة والفينة ، رأوا شجرة تمر . واسترخى ، مجهداً ، وكان قيصه مبللاً . ليت بالامكان ان نذهب على الاقل ؛ ولكن القطار كان باقياً هناك ، مهجوراً ، تكتنفه الشمس من كل جانب ؛ وكانت رائحة غريبة - قش عفن وعطر هوبيغان - تأسن على الأرض ، وقد اظال عنقه ليتجنبها ، لأنها كانت تعطيه للرغبة في التقيؤ ، ولكن العرق أغرقه ، فاستسلم للأمر ، وعاد مستنقع الرائحة يتشكل فوق انفه ، وفي الخارج ، كان ثمة خطوط حديدية ، والشمس ، وحافلات فارغة على طرق للمرائب ودوامات من الغبار بيضاء : الصحراء . ثم ابعث من ذلك : كان الأحد : أحد في « برك » : أطفال يلعبون على الشاطئ ،

- وعائلات تتناول القهوة بالحليب في المقاهي : وفكر : هذا طريف ،
هذا طريف . وارتفع صوت من طرف الحافلة الآخر :
- دنيس ! هو ، دنيس !
فلم يجب احد .
- موريس ، هل انت هنا ؟
وساد صمت ، ثم ختم الصوت قائلاً .
- القدرون !
- قطع الصمت : وأن أحدهم بالقرب من شارل :
- ما اشد الحر !
- فأجاب صوت ممتنع مخن ، صوت مريض كبير :
- سيتحسن الوضع عما قليل ، حين ينطلق التطار :
- وكانوا يتحادثون على غير بصيرة ، من غير ان يعرف بعضهم بعضاً . وقال احدهم بضحكة صغيرة :
- على هذا النحو ، يسافر الجنود .
- ثم سقط الصمت من جديد . الحر ، الصمت ، الضيق : ورأى
شارل فجأة ساقين جميلتين في جوربين من الخيط الابيض ، وصعد
نظره الى قميص ابيض : كانت هي الممرضة الجميلة . لقد صعدت لتوها
الى الحافلة ، وكانت تمسك حقيبة في يد ، وكرسياً يُطوى في الاخرى ،
وكانت تجيل حولها نظرة مفيضة ، وقالت :
- ان هذا جنون ، هذا جنون محض !
- فقال صوت خشن كان يصلر عن الخارج : ماذا ؟ ماذا ؟
- لو كنتم قد فكرتم دقيقة واحدة ، فربما أدركتم انه ينبغي الا
يوضع الرجال مع النساء .
- لقد وضعناهم كما حملوهم الينا .
- وكيف تريدون ان اهتني بهم ، وبعضهم امام البعض ؟
- كان ينبغي ان تكوني هنا ساعة صعدوا بهم :

- لا استطيع ان اكون في كل مكان في آن واحد . كنت منهمكة
بتسجيل الامتعة .

قال الرجل : - اية فوضى !

- بوسعك ان تقول ذلك :

وساد صمت ثم استطردت :

- ارجو ان تفضل بدعوة رفاقك ، فسوف ننقل الرجال الى
حافلات الذئب :

- تستطيعين ان تضربي نفسك ! هل انت التي ستدفعين اجرة
العمل الاضافي .

قالت المريضة بجفاف : - ارفع شكوى .

قال : - حسناً . ارفعي شكوى يا جيميلتي . اني انا ابعصك ،

أتفهمين ؟

فهمزت المريضة رأسها واستدارت ؛ سارت بحذر بين الاجسام ثم
اقبلت تجلس على كرسيها ، غير بعيدة عن شارل ، على حافة المستطيل
المضيء . وقال بلانشار :

- هو ، شارل !

فقال شارل مرتعشاً : - ماذا ؟

- توجد هنا اناث ؛

فلم يجب شارل ؛ وقال بلانشار بصوت مرتفع :

- كيف تراني افعل اذا اردت ان أخراً ؟

فاحمر شارل غضباً وخجلاً ، ولكنه فكر في الشعر الذي يشوك ،
واطلق ضحكة صغيرة مشاركة :

ونذت حركة على الارض ، انهم بلا شك اشخاص يلون رؤوسهم
ليروا اذا كانت لهم جارات ؛ ولكن كان لون من الانزعاج يثقل إجمالاً
على الحافلة . وتمددت الهمسات وانطقت ... «ماذا تراني أفعل اذا اردت

«ان أخرأ ؟» كان شارل "يُحس" نفسه قدراً ، في داخله ، رزمة من الامعاء اللزقة المبتلة : اي عار اذا كان ينبغي ان نطلب المبولة امام الفتيات . وأغلق على نفسه ، وفكر : « سأقاوم حتى النهاية » وكان بلانشار يتنفس بقوة ، وكان صوته يحدث موسيقى صغيرة بريئة ، يا إلهي ، ليته يستطيع ان ينام . وأخذت شارل لحظة أمل ، فأخرج سيكارة من جيبه واشعل هوداً ، وسألت المريضة :
- ما هذا ؟

وكانت قد وضعت نسيجاً على ركبتيها ، وكان شارل يزي وجهها الغاضب ، عالياً جداً وبعيداً جداً فوقه ، في ظل ازرق . وقال :
- انني اشعل سيكارة .
وبدا له صوته غريباً ومبتدلاً ، فقالت :
- اوه لا ، لا ، ان للتدخين هنا ممنوع .

ونفخ شارل على العود وتلمس فيما حوله بأطراف أصابعه : فالتقى بين غطائين بلوحة رطبة وخشنة حكها بظفره قبل ان يضع عليها العود الخشبي الذي احترق نصفه ؛ وفجأة اذعره هذا التماس ، فردّ يديه الى صدره وفكر : انني على سطح الارض ، على سطح الارض تحت الطااولات والكراسي . تحت اكواب المرضيات والحالين ، مسحوقاً ، مختلطاً نصف اختلاط بالوحل والقش ، تستطيع جميع الهوام التي تركض في مشقوق الارض الخشبية ان تتسلق بطنه . وحرك ساقيه ، وسحب كعبيه على المحمل . يهدوء ، حتى لا يوقظ بلانشار . كان العرق يسيل على صدره ، وأعاد ركبتيه تحت الغطاء . ان هذه التتملات القلقة في الفخذين والساقين ، وهذه التمردات العنيفة المبهمة لجسده كله كانت قد علبته بلا انقطاع ، في اول عهده بيبرك : ثم هدأت : كان قد نسي ساقيه ، ووجد من الطبيعي ان يُدفع ويدحرج ويحمل ، كان قد اصبح شيئاً .
وفكر في ضيق : « ان ذلك لي يعود . يا إلهي ، اترى ذلك سيعود ؟ »

ومد ساقيه واغمض عينيه . كان ينبغي ان يفكر : لست الا حجراً ،
لست قط الا حجراً . وانفرجت يدها المتشنجتان ، واحس جسمه يتحجر
رويداً رويداً تحت الغطاء . حجر بين الاحجار .

وانتصب منتفضاً ، وعيناه مفتوحان ، وعنقه متصلب : لقد حدثت
رجة وضجة وتدحرج رتيب ، مهدّيء كالمطر ، : لقد تحرك القطار ،
وكان يمر محاذياً شيئاً ما ؛ وكان في الخارج اشياء صلبة مثقلة بالشمس
تتسرب ازاء الحافلات : كانت ظلال غير متميزة ، بطيئة اولاً ثم
متسارعة شيئاً فشيئاً ، تركض على الجدار المضيء في مواجهة الباب
المفتوح ، فكأنها شاشة سينا ، واصفر الضوء على الجدار قليلاً ثم ارمد
وحدث بعد ذلك انفجار : « خرج القطار من المحطة » . وكان شارل
يحس بألم في رقبته ، ولكنه كان يستشعر بعض الهدوء ؛ فعاد الى
الاضطجاع ، ورفع ذراعيه وادار مرآته تسعين درجة : وكان يرى اذ
ذاك ، في زاوية المرأة اليسرى ، قطعة من المستطيل المضيء . وكان
ذلك يكفيه : كانت تلك المساحة الملتعة تعيش ، وكانت منظرأ برمته ؛
كان الضوء يرتجف تارة ويصفر ، كما لو انه سيتلاشى ، وكان تارة
اخرى يقسو فيستمر ويتخذ هيئة طلاء طيني احمر ، ثم انه كان يرتعش
برمته بين وقت وآخر اذ تلم به تموجات مائلة كأنما الريح تجعدها . وقد
نظر اليه شارل طويلاً : فأحس بعد فترة انه قد تحمر ، كما لو انه
جلس على درجة الحافلة ، فدل ساقيه وراح ينظر الى الاشجار والحقول
والبحر تترى : وتتم :

— بلانشار :

لا جواب . وانتظر لحظة وهمس :

— هل تنام ؟

فلم يجب بلانشار . وارسل شارل تنهيدة رضى صغيرة ثم تبسط
وتمدد تماماً ، من غير ان ينزع بصره عن المرأة : انه ينام ، انه ينام ،

وحين دخل ، لم يكن يتأسك في وقوفه ، وقد تداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، ولكن عينيه كانتا قاسيتين ، وكانتا تقولان : لن تتغلبوا علينا . وقد طلب قهوته بلهجة سيئة جداً ، ان هناك من يأخذ الخدم هكذا كالأعداء ، شبان صغار : يظنون ان الحياة صراع ، لقد قرأنا ذلك في الكتب ، فهم لذلك يصارعون في المقاهي ، فيطلبون كأساً من شراب الرمان وهم يمدجونك بنظرة جديرة بان ترعشك .
قال فليكس : - مقلوب واحد ، واثنان صيني للسطيحة .

فضغطت على الزر وادارت المحرك . وغمزها فليكس واوماً الى الشاب القصير الذي كان نائماً . ليس هو صراعاً ، وانما هو مستنقع ، فما ان يفعل المرء حركة ، حتى يغرق ، ولكنهم لا يعرفونه على الفور . فهم يضطربون كثيراً في السنوات الاولى ، وهذا هو السبب في انهم يهبطون هبوطاً اسرع ، وقد حدث لي ذلك ، حدث لي ذلك ، اما واني الآن عجوز فاني ابقى هادئة ، وذراعي ملتصقتان بجسمي ، فانا لا اتحرك ، ان من يبلغ عمري لا يغرق بعد ابداً . كان قائماً ، فاغر القم ، وكان فكه يتدلى على صدره ، ولم يكن بعد جميلاً على الاطلاق ، وكانت جفونه المتورمة الحمراء وانفه الاحمر تجعله شبيهاً بخروف . اما انا ، فقد حذرت فوراً حين رأيت داخل القاعة الفارغة ، كأنه اعمى ، والشمس في الخارج ، وجميع هؤلاء الزبائن على السطيحة ، فقلت في نفسي : ان عنده رسالة يريد ان يكتبها ، او انه ينتظر امرأة ، او ان هناك شيئاً ما محطماً . ورفع يده الطويلة الصفراء ، فطرد الذباب من غير ان يفتح عينيه . لم يكن ثمة ذباب . انه مهموم حتى في نومه ، ان الهموم تلاحقك في كل مكان ، كنت جالسة على المقعد ، وكنت انظر الى الخطوط الحديدية والى النفق ، وكان عصفور يغني ، وكنت انا ملأى ، حبل ، مطرودة ، ولم تكن لدي بعد عيون حتى ابكي ، ولا مال في حقيبي ، تذكرتي فحسب ، وقد

نمت ، وحلمت بأنهم يقتلونني ، وأنهم كانوا يشدون لي شعري ويصفونني
بالفاجرة ، ثم جاء القطار فصعدت اليه . اقول تارة انه سيحصل علي
منحته ، فهو عامل مسن عاجز ، ولا يمكن ان تمنع عنه هذه المنحة ،
واقول تارة اخرى انهم سيتديرون أمرهم كي لا يعطوه إياها ، فهم
قساة ؛ اني هنا ، وانا عجوز ، لا أتحرك بعد ، ولكنني افكر : انه
يلبس ثياباً تشبه ثياب الشباب ، ولا شك في ان له أمأً تغني بشؤونه ،
ولكن حذاه ابيض من الغبار ، فاذا تراه قد فعل ؟ وماذا جرّ ؟ ان
الدم يشتغل لدى الشبان ، ولو انه قد قال لي اضربي ، لقتلت ابي
وامي ، فكم يمكن للمرء ان يكون عنيداً ، واذا قتل عجوزاً ، امرأة
في سني ، فسوف يعتقلونه ، انه غير قوي ، وربما جاؤوا بحشرونه
هنا ، وسوف تنشر «الماتان» صورته ، فيرى الناس وجهاً صغيراً
قلبراً لأليف مواخير لا يشبهه ابداً ، وسيكون ثمة من يقول ان له
وجهاً جديراً بان يفعل هذا : حسناً ، اما انا فأقول لكي ندينهم ،
فيجب الا نكون قد نظرنا اليهم عن كثب ، لأننا حين ننظر اليهم
يغرقون كل يوم اكثر فاكثراً ، نفكر بأنه ليس ثمة من يستطيع شيئاً ،
وانه سيان بعد ذلك ان يأخذ الانسان قهوة بالحليب على سطيحة مقهى
او ان يقتصد ليشتري بيتاً او ليقتل امه : وكان التلفون يدق ، فانتفضت
وقالت :

— آلو ؟

— اريد ان اتحدث الى السيدة كوزان :

قالت : — انا هي . ماذا ؟

قال جولو : — لقد رفضوا اعطائي المنحة :

قالت — ماذا ؟ ماذا ؟

— لقد رفضوا اعطائي المنحة .

— ولكن هذا غير ممكن .

— لقد رفضوها .

— ولكن رجل عاجز ، عامل قديم ، ماذا قالوا لك ؟

— قالوا ان ليس لي جق بها .

قالت : — اوه ! اوه !

قال جولو : — الى هذا المساء .

واعادت السّاعة : لقد رفضوا منحه اياها : رجل عاجز ، عامل مسن ، وقالوا له انه لا حق له فيها ، وفكرت : اراني الآن سأغضب ؟ كان الشاب يشخر ، وكانت هيئته هيئة بلهاء متكلفّة وخرج فليكن حاملا القدحين الصينيين والشراب الاسود ، ودفع الباب فدخلت الشمس وشعت المرأة فوق للنائم ، ثم انغلق الباب ، وانطفأت المرأة ، وبقيا وحدهما معاً . ماذا فعل ؟ اين تراه قد ذهب ؟ ماذا يحمل في حقيبتة ؟ سوف يدفع الآن : طوال عشرين سنة ، طوال ثلاثين سنة ، الا ان يقتل في الحرب ، يا للشباب المسكين ، لقد بلغ سن الذهب . انه ينام ويشخر ، وانه لمهموم ، وعلى السطيحة يتحدث الناس عن الحرب ولن يعطى زوجي منحة . وقال : آه ! الشفقة والرحمة ، الرحمة لنا نحن الناس المساكين !

وصاح الشاب : — بيتو !

كان قد استيقظ منتفضاً ، ونظر اليه لحظة ، وعيناه وردبان ، وفمه فاغر ، ثم صفق فكيه ، وقرص شفتيه ، وكان يبدو عليه الذكاء والرداءة .

— غارسون !

ولم يكن فيليب يسمع ، كانت تراه ، على السطيحة ، وكان يروح ويفقد ، ويأخذ الطلبات . وفقد الشاب اطمئنانه ، فضرب الطاولة وهو يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار كأنه مطارد : واشفقت عليه ، فقالت له :

- عشرون فلساً ، من فوق الصندوق .
ورماها بنظرة حقد ، وألقى قطعة من خمسة فرنكات على الطاولة ،
وتناول حتميته ومضى وهو يعرج . والنمعت المرأة ، فدخلت القاعة
موجة من الصراخ والحرق : دخلت الوحيدة . ونظرت الى الطارلات
والمرايا والباب . جميع هذه الاشياء المفرطة الالفة التي لم تكن تستطيع
بعد ان تمسك أفكارها . وقالت في نفسها : « سيبدأ الامر ، وسوف
يثور غضبي » .

لَطَّخَ بالزور . كان ثمة من يصبو عليه ، من جانب ، مصباح
جيب ، فأدار رأسه وهمهم . وكان المصباح يطفو على سطح الأرض ،
فأخذ يطرف بعينه . كان وراء هذه الشمس عين هادئة حاقدة تنظر
اليه ، وكان هذا غير مقبول . فقال :
- ما هذا !

قال صوت مغني : - انه هو :
امرأة . ان الرزمة المتطاولة ، الى يميني ، هي امرأة . وشعرت لحظة
بالرضى ، ثم فكر في غضب بأنها قد أضاعته كأه شيء ، لقد أمرت
ضوءها علي كما لو كنت جداراً . وقال بجفاء :
- انني لا اعرفك .

قالت : - لقد التقينا مراراً .
وانظفاً المصباح . وظل مبهوراً ، ودوائر بنفسجية تدور في عينيه .
- لا استطيع ان اراك .

قالت - اما أنا ، فأراك : حتى بلا المصباح ، أراك .
كان الصوت فتياً وجميلاً ، ولكنه كان هو على حذر . وردد
- انني لا اراك ، فقد بهرتني .

قلت بزهو - انني ارى في الليل :
- هل انت مُغربة ؟

فأخذت تضحك :

- مغربة ؟ ان عيني ليستا حراوين ولا شعري ابيض ، ان كان هذا ما تقصده .

وكانت لها لهجة واضحة تضيفي على جميع عباراتها جرساً استهزامياً ،
- من انت ؟

قالت : - آه ، إحزر : ليس الأمر صعباً جداً : لقد التقيت بي
أمس الاول فقط ، فرميتني بنظرة حقد .

- حقد ؟ اني لا أحقد على أحد .

قالت : - اوه ، بلي ! بل انا اظن انك تحقد على جميع الناس ،
- انتظري ! الم يكن على كتفيك فرو ؟

وكانت ما تزال تضحك ، فقالت :

- مُدّ يدك : إلمس .

ومدّ ذراعه ، فلمس كتلة ضخمة لا شكل لها : وكان ذلك فرواً ،
وكان تحت الفرو بالتأكيد أغطية ورزم من الثياب ، ثم الجسم الابيض
الرخو ، بزآقة في صدفتها . لا بد انها كانت تشعر بالحر الشديد !
ولامس الفرو قليلاً ، فانبعث منه عطر فاتر ثقيل : هذا اذن هو
الذي كان يُشْمُ منذ لحظة : وكان يلامس الفرو على عكس الرغبة ،
وكان مسروراً . وقال بلهجة المنتصر :

- انت شقراء . انك تلبسين أقرطاً من ذهب .

فضحكت واضاءت المصباح من جديد . ولكنها كانت قد ادارته هذه
المرّة الى وجهها بالذات ، وكان ارتجاج القطار يهز المصباح في يدها ،
وكان الضوء يصعد من الصدر حتى الجبين ، ويلامس شفتين مصبوغتين
ويذهب زغباً خفيفاً اشقر ، عند زاوية الشفتين ، ويكسب المنخرين
بعض الاحمرار ، وكانت الجفون الملوية المسوّدة تنتصب كأرجل صغيرة
فوق الاجفان المقبّبة ، فكأنها حشرتان مقلوبتان على ظهرهما ، كانت
شقراء ، وكان شعرها يزيد في سحابة خفيفة حول رأسها ، وأحس

بضربة في قلبه . وفكر : انها جميلة ، وسحب يده فجأة .
- لقد عرفتك . كان ثمة دائماً رجل مسن يدفعك ، وكنت تمرين
من غير ان تنظري الى احد .
- كنت انظر اليك جيداً ، من خلال جفوني .
ورفعت رأسها قليلاً ، فعرفها تماماً ، وقال :
- لم اكن لأظن قط أنه كان بوسعك ان تنظري الي . كان
يبدو عليك الغنى الشديد ، وكنت تبدين فوقنا بدرجات ، وكنت احببك
نازلة في نزل « بوكير » .

قالت : - كلا ، بل كنت في « مونشاليه »

- لم اكن اتوقع ان اجدك في قاطرة للدواب .

وانظفا الضوء وقالت :

- اني فقيرة جداً .

ومد يده وضغط بلطف على القرو :

- وهذا ؟

فضحكت :

- هذا كل ما يبقى لي :

وكانت قد دخلت في الظلام من جديد ، رزمة ضخمة ، مظلمة
وبلا شكل . ولكنه كان ما يزال يحفظ بصورتها في عينيه . ورد
يديه كتيهما الى بطنه وأخذ ينظر الى السقف . كان بلانشار يشخر بهدوء
وكان المرضى قد اخذوا يتحدثون فيما بينهم ، كل اثنين ، او كل
ثلاثة ، وكان القطار يجري وهو يثن . كنت فقيرة ومريضة ، وكانت
ممددة في حاملة للدواب ، وكانوا يلبسونها ثيابها ويتزعون ثيابها كاللعبه ،
كانت جميلة ، جميلة كنجمة سينائية . بالقرب منه كل هذا الجمال
المهان ، هذا الجسم النقي الملتخ . كانت جميلة . كانت تنفي على
المسرح ، وكانت قد نظرت اليه من بين جفونها ، ورغبت في التعرف

اليه . كان الامر كما لو انهم اوقفوه من جديد ، على قدميه الاثنتين .
وسألها فجأة :

- هل كنت مغنية ؟

- مغنية ؟ كلا . بل أحسن العزف على البيانو .

- كنت احسبك مغنية .

قالت : - انني نمساوية . وكل مالي هناك ، بين ايدي الالمان .

لقد تركت النمسا بعد الانشولوس .

- وهل كنت مريضة آنذاك ؟

- كنت فوق لوحة . وقد صحبني اهلي في القطار . في يوم شبيه

بهذا اليوم ، ولكن الجو كان مشرقاً . وكنت ممددة على مقعد في

الدرجة الاولى . وكان فوقنا طائرات المانية ، وكنا نظن دئماً انها ستلقي

قنابل . كانت امي تبكي ، وكنت انا مرفوعة الرأس وكنت اشعر

بالسوء تنقل علي عبر السقف . انه آخر قطار تركوه يمر .

- وبعد ذلك ؟

- جئت الى هنا . امي موجودة في انكلترا ، فيجب ان تكسب

لنا القوت .

- وذلك السيد المسن الذي كان يدفعك ؟

فقالت بقسوة : - انه ابله عجوز .

- انت اذن وحدك ؟

- وحدي .

وردد :

- وحدك في العالم .

وشعر بأنه قوي وقاس كشجرة سنديان .

- ومتى عرفت اني أنا ؟

- حين حككت عود نقابك .

ولم يكن يريد ان يستسلم لفرحه . لقد كانت هناك في الحفظ ،
موازنة وغير مميزة ، شبه متروكة ، كانت هي التي تضيف على صوته
هذا الاهتزاز الحامز ، ولكنه كان يحفظها لليل ، وكان يريد ان يستمتع
بها وحده .

- هل رأيت النور على الجدار ؟
قالت : — نعم ، لقد نظرت اليه طوال ساعة .
— انظري ، انظري ، هذه شجرة تمر .
— او عمود تلغراف .
— القطار لا يسير بسرعة .
قالت : — نعم . هل انت مستعجل ؟
— لا ، فلسنا ندرى اين نحن ذاهبون .
قالت مجذولاً : — طبعاً لا .
وكان صوتها يرتجف ايضاً : وقال :
— في الحقيقة ، لسنا هنا في وضع سيء جداً .
قالت : — هناك نسيم . ثم ان هذه الظلال التي تمر تُسلي .
— هل تذكرين اسطورة الغار ؟
— لا ، ما هي اسطورة الغار ؟
— انهم عبيد موثقون في جوف غار ، وهم يرون ظلالاً على جدار .
— ولماذا اوثقوهم هناك ؟
— لا أدري . ان افلاطون هو الذي كتب ذلك .
قالت بلهجة مبهمه : — آه ! نعم ! افلاطون .
وفكر في سُكر : « سأعلمها من هو افلاطون » وكان يُحس
ببعض الألم في بطنه ، ولكنه كان يتمنى الا تنتهي الرحلة .
هز جورج مقبض الباب . وكان يرى عبر الزجاج رجلاً طويلاً
«ذا شارب ، وامرأة شابة ذات غلالة معقودة حول رأسها كانت تغسل

الصحون والاقطداح خلف مشرب خشبي . وكان ثمة جندي يأخذه .
النعاس امام طاولة ، وشد جورج بعنف على المقبض فاهتز الزجاج هـ
ولكن الباب لم يفتح . ولم يكن يبدو على المرأة والرجل انهما يسمعان هـ
- لن يفتحوا .

والتفت : كان ثمة رجل سمين ناضج ينظر اليه مبتسماً . وكان
يرتدي معطفاً أسود فوق بنطلون عسكري ، وطماقات ، وقبعة طرية
وياقة مكسورة . فأراه جورج اللوحة : « المحل يفتح الساعة الخامسة »
وقال :

- انها الساعة الخامسة وعشر دقائق .

فهز الآخر كتفه . وكان مزمار ضخم ذو قربة يثقل على جنبه
الايسر ، وقناع « واق » على جنبه الايمن ، وكان يباعد ما بين
ذراعيه ويرفع مرفقيه في الهواء .
- يفتحون حين يشاءون .

كانت ساحة النكنة غاصّة بالرجال الذين تراوح أعمارهم بين
الشباب والكهولة والذين كانوا يبدون ضجرين . وكان ثمة كثيرون
منهم يتزهون وحدهم ، وهم ينظرون الى الارض . وكان بعضهم
يرتدون معطفاً عسكرياً ، وبعضهم بنطلوناً كاكياً ، بينما كان البعض
الآخر في ثياب مدنية واحذية جديدة تصفق ارض الساحة المعبّدة هـ
وكان ثمة رجل طويل كان من حظه انه حصل على بذلة كاملة ، يسير
بتفكّر ، ويداه في جيوب معطفه العسكري، وقبعته على اذنه : وشق
ملازم هذه الجموع ، واتجه بسرعة نحو الحانوت . وسأل السمين القصير
وهو يشد على سيور مزماره ليدفعه خلف ظهره :

- الم تذهب لتحصل على ثياب ؟

- انهم لا يملكون بعد شيئاً .

وبصق الرجل بين قدميه :

— اما انا فقد أعطوني هذا ، واني لأختق في داخله ، والانسان
بيكاد يموت في هذه الشمس . اية فوضى !
وأشار جورج الى الضابط :

— هل نسلم عليه ؟

— بم نسلم عليه ؟ انني لا استطيع على اي حال ان ارفع له
قبعتي .

وألمّ بهما الضابط من غير ان ينظر اليهما . فتابع جورج بعينه ظهره
الهزيل ، فأحس نفسه منهكاً . كان الحر شديداً ، وكان زجاج الابنية
المعكزية مطلياً بالازرق ، وكان خلف الجدران البيضاء طرق بيضاء ،
وساحات للطيران ، خضراء على مدى النظر تحت الشمس ، وكانت
جدران الشكنة ترسم في وسط الحقول ساحة صغيرة جرداء مغبرة يدور
فيها رجال متمبون كما لو انهم يدورون في شوارع مدينة . كانت تلك
هي الساعة التي تشق فيها امرأته النوافذ ، فتدخل الشمس الى قاعة
الاطعام ، كانت الشمس في كل مكان ، في البيوت والشكات والارياض ،
وقال في نفسه : « الامور دنيا متشابهة . » ولكنه لم يكن يعرف على
الضبط ما هو متشابه . وفكر في الحرب فلاحظ انه لم يكن يخشى ان
يموت . وصفر قطار في البعيد ، فأحس كما لو ان هناك من كان يبسم
له ، وقال :

— اسمع .

— ما هذا ؟

— القطار .

فنظر اليه السمين القصير من غير ان يفهم ، ثم سحب منديلاً من
جيبه وبدأ يمسح جبينه . وصفر القطار ثانية . كان يجري مليئاً بالمدينين
سواء بالنساء الجميلات وبالاولاد ، وكانت الأرياف تنسرب وديعة ، عبر
الزجاج . وصفر القطار وأبطأ ، فقال شارل :

— سوف يقف .

وصرّحت المحاور فتوقف القطار ، وسالت الحركة من شارل ، فظلّ جافاً وفارغاً كما لو انه فقد دمه ، فكان ذلك موتاً صغيراً . وقال :
— لا احب ان تقف النظارات .

وكان جورج يفكر في قطارات المسافرين التي تتجه الى الجنوب ، نحو البحر ، وفي البحر ، وفي مقصورات بيضاء على شاطئ البحر ، وكان شارل يحس العشب الاخضر الذي كان ينمو تحت الخشب ، بين الخطوط الحديدية ، كان يشعر من خلال الصفائح الحديدية ، وكان يرى فوق المستطيل المضيء الذي يرتسم على الحاجز حقولاً خضراء على مدى النظر ، وكان المرج قد اخلد القطار ، كما تأخذ كثافة الجليد باخرة ، وكان الريف يحترق القطار الجامد من طرفيه . وكان القطار الذي سقط في الشرك يصفر ، يصفر بنواح ، وكان الصغير البعيد يمتد بشاعرية ، وكان القطار يجري على مهل ، وكان رأس جبار موريس يهتز في ياقته الباجية ، وهو رجل سمين تنبعث منه رائحة الثوم ، وكان قد غنى « الانترناسيونال » منذ بدء الرحلة وشرب لترين من الخمر . وانتهى به الأمر الى الاستسلام على كف موريس وهو يهدل . وكان موريس يشعر بالحر الشديد . ولكنه لم يكن يجرؤ على التحرك ، فقد كان قلبه على شفثيه بسبب هذا الحر والحمر الابيض والشمس البيضاء التي كانت تعميه عبر الزجاج المغبر ، وكان يفكر : « اود لو اكون قد وصلت » . ودغدغه عيناه ، واصبحتا كبيرتين قاسيتين ، فأغمض جفونه ، وكان يسمع دمه يضجّ في اذنيه ، وكانت الشمس تحرق جفنيه ، وكان يشعر بقدم نوم ابيض برشح عرفاً ويعمي النظر ، وكان شعر الرفيق يدغدغ عنقه وذقنه ، كان ذلك بهد ظهر احدٍ لا امل فيه . واخرج الرجل السمين صورة من محفظه وقال .
— هذه امرأتي :

وكانت امرأة بلا سن ، كهاتيك اللواتي نراهن في الصور ، ولم يكن ثمة ما يُقال عنها .

فقال جورج :

- ان صحتها جيدة .

قال الرجل : - انها تأكل كأربعة .

وكانا جالسين احدهما مقابل الآخر ، مترددين . ولم يكن جورج يشعر بالود لهذا الرجل الضخم المحمر الذي كان يلهث وهو يتكلم ، ولكن كانت لديه رغبة بان يريه صورة ابنته .

- متزوج ؟

- نعم .

- اولاد ؟

فنظر اليه جورج مع غير ان يجيب ، وهو يقهقه قليلاً : ثم وضع يده فجأة في جيبه ، وأخرج محفظته فتناول منها صورة مدّما له وهو يخفض عينيه :

- هذه ابنتي :

قال الرجل وهو يأخذ الصورة :

- ان لديك حذاء عالياً جميلاً : وسوف يخدمك طويلاً :

قال جورج في مدلّة :

- ان قدمي مصابتان بالكتّيب : اتعتقد انهم سيتركون لي الحذاء ؟

- سيكونون مسرورين اكثر مما ينبغي ، فربما لم يكن لديهم احذية

للجميع .

ونظر لحظة اخرى الى حذاء جورج ، ثم انصرف عنه على مضض ، ورمى بصره على الصورة ، وشعر جورج انه كان يحمرّ : وقال الرجل :

- ما اجمل هذه الطفلة ! كم وزنها ؟

قال جورج - لا ادري .

وكان يتأمل في ذهول هذا الرجل الضخم الذي كان يمسك بالصورة بين أصابعه ويُسقط عليها نظره الذي يُحيل الألوان : وقال :

- حين اعود ، فلن تعرفني .

قال الرجل : - هذا ممكن : الا اذا ...

قال جورج : - نعم ، الا اذا ...

سأل سارو : - واذن ؟ هل اذهب ؟

كان يقلب الورقة بين أصابعه . وكان دلاديه قد برى عود ثقاب بسكينه ودسه بين سنتين . وكان متراكماً فوق كرسيه ، مثنياً ، لا يجيب . وردد سارو :

- هل اذهب ؟

قال بونيه على مهل : - انها الحرب . والحرب الخاسرة .

فارتعش دلاديه وألقى على بونيه نظراً ثقيلاً ، فاحتمله بونيه في براءة بعينه الفاتحين اللتين لا اعماق لهما . وكان شامبوتيه دوريس ورينو واقفين في الخلف ، صامتين وغير موافقين . واسترخى دلاديه تماماً ، وتمم بحركة مائعة :

- اذهب .

فنهض سارو وخرج من القاعة ، وهبط السلم وهو يفكر انه كان مصاباً بالصداع . كانوا جميعاً هناك ، فصمتوا لرؤيته وانخلوا هبتهم المهنية . وفكر سارو : اية عصابة من البلهاء ! ، وقال :

- سأقرأ عليكم البلاغ .

فحدثت ضجة ، وانتهزها ليمسح نظارتيه ، ثم قرأ :

- استمع مجلس الوزراء الى تقارير السيد رئيس الوزارة ، والسيد جورج بونيه عن المذكرة التي سلمها مستشار الريخ الى السيد تشمبرلين ، وقد وافق بالاجماع على التصريحات التي ينوي السيدان ادوار دلاديه وجورج بونيه حملها الى الحكومة الانكليزية في لندن .

فكر شارل : « اريد ان أغوّط » وحدث ذلك فجأة : لقد
امتلاً بطنه حتى ليفيض .

قال : - نعم ، نعم . اني من رأيك . نعم .
كان الصوتان يرتفعان متوازيين ، هادئين . وقد ود لو يلتجئ برمته
الى صوته ، فلا يكون الا صوتاً ثقيلاً بالتقرب من الصمت الجليل ،
المنغني ، الاشقر . ولكنه كان اولاً ذلك الحر ، وذلك القلق الخافق ،
وتلك الرزمة من المواد المبللة التي كانت تفرقر في امعائه . وساد صمت ؛
كانت تحلم بالتقرب منه ، ناضرة ثلجية ؛ ورفع يده في حيلة وأمرها
هلي جبينه اللزج ، وأنَّ فجأة « هان ! »
- ماذا هناك ؟

فقال : - لا شيء . انه جاري الذي يشخر ؛
وكان شيء قد أخذه من بطنه كضحكة مجنونة ، هذه الرغبة المبهمة
العنيفة في ان يفتتح ، وان يُمطر من تحت ؛ وكانت فراشة مهووسة
تخفق جناحها بين أليتيه . وشد أليتيه فسال العرق على جبينه ، وجرى
نحو اذنيه وهو يدغدغ خديه . وفكر مدعوراً : « سأفلك كل شيء »
وقال الصوت الاشقر : - اراك لا تقول شيئاً بعد .

فقال : - اني .. كنت اتساءل .. لماذا انت راغبة في التعرف اليّ ؟
قلت : - ان لك عينين جميلتين متعجرفتين . ثم اني كنت اريد
ان اعرف لماذا كنت تكرهني ؟

وحرك جبينه قليلاً ليخدع حاجته ، وقال :
- كنت اكره جميع الناس لأنني كنت فقيراً . ان لي مسلكاً لئيماً .
وكان الامر قد افلت منه تحت تأثير رغبته ؛ لقد انفتح من فوق ؛
من فوق او من تحت ، كان لا بد له من ان يفتتح . وردد وهو يلهث :
- مسلك لئيم . فانا حسود .

ولم يكن قد قال مثل ذلك قط ، لأي انسان . ولا مست يده بطرف

أصابعها .

— لا تكرهني : فانا أيضاً فقيرة ،

فجالت دغدغة في قضيبي . ولم يكن ذلك بسبب الاصابع الهزيلة
الحرارة على ظاهر يده ، وإنما كان ذلك صادراً من مكان أبعد ، من
الغرفة الكبيرة العاربة ، على شاطئ البحر . كان يدق الجرس ، فنصل
جانين ، وتبعد الغطاء ، وتدس الطست تحت جنبه وتنظر اليه يتمتع ،
وتأخذ أحياناً مستر جاك بين السبابة والإبهام ، وكان يحب ذلك كثيراً ،
وما هو الآن قد روض لحمه جيداً ، فاكتسبت العادة . كانت جميع
رغباته في التغرير مسممة باسترخاء حامز ، برغبة جذلة بان يفتح تحت
نظر . بان يفتح تحت عيون متهنة . وفكر : « هذا انا » وانتسابه
الخوف . كان يشتمز من نفسه ، ونفض رأسه فأحرق العرق عينيه .
« ترى ، ألن يسير القطار » . لو عادت الحافلة الى السير ، لحيّل
اليه انه كان يُتنزع من نفسه ، ولكان يُخسف في مكانه رغبته المشبهة
الأليمة ، ولكن يتأسك فترة اخرى . وختق أنة جديدة : كان يتألم ،
وكان يوشك ان يتمزق كتطعة من قماش ، وأغلق في صمت يده على
اليد الرقيقة الهزيلة . « يدان من معجون اللوز تأخذان مستر جاك في
براعة ، فيبتهج مستر جاك مسترخياً ، ورأسه مائل قليلاً ، فتاة تعمل
في حانوت لبيع اللحوم تأخذ بين أصابعها مصراً موضوعاً على سرير
مرآه المجدد . عارياً ، مشقوقاً ، مرثياً . قشرة منفجرة . إنه الربيع .
فظاعة ؟ كان يكره جانين .

وقل الصوت : — ما أشد الحرارة في يديك .

— اني محموم .

وأن أحدهم بلطف تحت الشمس ، مريض من المرضي ممدد باقرب
من الباب . ونهضت الممرضة فاتجهت نحوه وهي تتجاوز الأجسام . ورفع
شارل ذراعه اليسرى وحرك مرآته بسرعة ، فالتقطت المرآة الممرضة

فجأة ، وهي منحنية على مراهق ضخم ذي خدين احمرين واذنين متباعدين ، وكان يبدو أمراً مستعجلاً . ونهضت ثانية وعادت الى مكانها ، فرآها شارل تبحث في حقيبتها ، وواجهتهم وهي تمسك مبولة بين أصابعها . وسألت بصوت مرتفع :

- أليس هناك من راغب ؟ اذا كان هناك من يرغب ، فالأفضل أن يقول في اثناء التوقف لأن ذلك أنسب . والمهم الا تتأسكوا ، ولا ينجل بعضهم امام البعض الآخر . فليس هنا رجال ولا نساء ، ليس هنا الا مرضى .

وأجالت فيهم نظرها القاسي ، ولكن لم يجب احد . وتناول القبي للضخم المبولة في شراة واخفاها تحت غطائه . وكان شارل يشد بقوة على يد صديقته . وكان حسبه ان يرفع صوته ، ان يقول : « انا ، انا ، راغب » . وانحنى الممرضة ، فتناولت المبولة ورفعتها . وكانت تلمع في الشمس ، وهي ملأى بماء جميل أصفر ومزبد . واقتربت الممرضة من الباب ، واطلّت الى الخارج ؛ ورأى شارل ظلّها على الحاجز ، وقد رفعت ذراعها ، فبرز على المستطيل المضيء . وكانت متميل المبولة ، فيسّلت منها ظلّ مائع ذو شرر . وقال صوت ضعيف :
- يا سيدتي .

قالت : - آه ، لقد قررتم ؟ هاأنذا قد جئت .
سيستسلمون الواحد بعد الآخر ؛ سوف تتأسك النساء اطول مما يتأسك الرجال . انهم سينتون جاراتهم ؛ فهل يجرؤون بعد ذلك على محادثتهم ؟
وفكر : « القذرون أ » وحدثت حركة على الارض ، نداءات مهموسة ، نججلة ، كانت ترتفع من جميع الزوايا . وعرف شارل بعض اصوات النساء . وقالت الممرضة :

- انتظروا . لكل دوره .

« ليس هنا الا مرضى » ، انهم يحسبون كل شيء مسموحاً به لأنهم

مرضى : لا رجال ولا نساء : وانما مرضى : كان يتألم ، ولكنه كان فخوراً بان يتألم : لن استسلم ؛ اني انا ، رجل . وكانت المريضة تنتقل بينهم ، وكان يُسمع صوت حذائها يطق على الخشب ، وبين لحظة واخرى ، دَعَكَ ورق . وكانت رائحة تفتة حارة تملأ القاطرة ، وفكر وهو يتلوّى من العذاب : « لن استسلم » .

قال الصوت الاشقر - يا سيدتي .

وحسب انه لم يسمع جيداً ، ولكن الصوت ردد النداء ، وهو خجولٌ يفتي :

- ياسيدتي ! يا سيدتي ! هنا .

قالت المريضة - هانذا :

والتوت اليد الدقيقة الحارة في يد شارل ثم افلتت منه . وسمع طقة حذاء . كانت المريضة فوقها ، هائلة قاسية ، ملاكاً . وقال للصوت المبتهل :

- أدر وجهك :

ثم همست مرة اخرى . « ادر وجهك » . فادار رأسه ، وود لو يسد اذنيه وأنفه . وغطست المريضة ، في رفيف هائل لطبور سوداء ، فاظلمت منها مرآته . ولم ير بعد شيئاً . وفكر . « هذه مريضة » : ولا بد انها كانت قد أَلت عنها فروها . فقد غطت لحظة عطر كل شيء ، ثم نفذت شيئاً فشيئاً رائحة زنخة قوية افغمت منخريه . هذه مريضة ، هذه مريضة ؛ كانت البشرة الجميلة للمساء مشدودة على اعصاب مائعة ، على امعاء متقيحة . وتردد ، متوزعاً بين الاشمزاز وبين رغبة قدرة . ثم اقبل على نفسه ، دفعةً واحدة ، فانغلت احشاؤه كالقبضة ، ولم يشعر بعد بجسمه . هذه مريضة . كانت جميع الرغبات والشهوات قد امحت ، وكان يحسُّ نفسه نظيفاً جافاً ، فكأنما قد استعاد صحته كلها . مريضة ، وفكر في حب : « لقد قاومت ما وسعها » واندعكت

الورقة ، ونهضت الممرضة ، وكانت بضعة اصوات تنادىها من الجهة الاخرى من الحافلة . اما هو ، فلن ينادىها ابداً ؛ كان يطفو على بعد بضعة بوصات من الارض ، فوقهم . انه لم يكن شيئاً من الاشياء ، لم يكن طفلاً رضيعاً . وفكر في دقة شديدة جداً حتى ان الدموع تفرقت في عينيه : « لم تستطع ان تقاوم » وكانت قد كفتت عن الكلام ، ولم تكن تجرؤ بعد على ان توجه اليه الحديث ؛ انها خجلة . وفكر في حب : « سأميها » . وقوفاً ، وقوفاً ، منحنيًا فوقها ، متأملًا وجهها الشارد العذب . وكنت تلهث قليلا ، في الضل . ومد يده وأمرها في تلمس على الفرو . وتشتج الجسم الفتي ، ولكن شارل القى يداً فأمسك بها . وقاومت اليد ، فجذبها الى قربه ، وكان يضغط عليها بكل قواه . مريضة . وكان هو هناك ، جافاً وقاسياً ، متحرراً ، سوف يحميها . وسألها :

— ما هو اسمك ؟

قل شميرلن نافد الصبر : — ولكن ، اقرأ :
 فأخذ لورد هاليفاكس رسالة مازاريك وأشأ يقرأ ؛ وفكر شميرلن :
 « لا حاجة به الى قراءتها بلهجتها » وقرأ هاليفاكس :
 « لقد درست حكوتي الآن الوثيقة والخارطة . انه انذار « علي »
 كالانذار الذي يوجه عادة الى دولة مهزومة ، وليس هو عرضاً على دولة ذات سيادة اظهرت كل الاستعدادات الممكنة للقيام بضحايا من اجل تهينة اوروبا . ولكن السيد هتلر لم يظهر بعد ادنى اثر لمثل هذا الاستعداد للتضحية . وان حكومتي تعجب من محتوى المذكرة .
 فالاقترحات تتجاوز ما اقررناه فيما سمي بالمشروع الانكلو فرنسي . وهي تهرمنا من جميع ضمانات المحافظة على وجودنا القومي . فعلياً ان ننازل عن قواعد واسعة من تحصيناتنا المعدة بدنة ، وان نترك للجوش الالمانية ان تدخل الى اماكن عميقة من ارضنا ، قبل ان نكون قد تمكنا من

تنظيمها على اساس جديد، او استطعنا ان نقوم بأل التجهيزات الدفاعية، وان استقلالنا الوطني والاقتصادي سيزول آلياً مع تبني مشروع السيد هتلر . وخطة نقل السكان ستتحول الى ازمة قوية بالنسبة لجميع الذين لن يقبلوا النظام النازي الالمانى . فعليهم ان يتركوا منازلهم حتى من غير ان يكون لهم الحق بهقل ممتلكاتهم الخاصة ، حتى ولا ابقارهم ، اذا كانوا من الفلاحين .

• وان حكومتى تتبنى ان اعلن بكل صراحة ان مطالب السيد هتلر بشكلها الحالى لا يمكن قط ان تكون مقبولة ، ونحنى حكومتى بانها تجاه هذه المطالب الجديدة الطاغية سنتلزم مقاومة عظمى ، وسوف نفعل ذلك بمعونة من الله . ان امة النديس وانسللاس وجان هوس وتوماس مازاريك لن تكون امة عبيد. ونحنى نعول على الدوليين الديمقراطيين الغربيين الكبريين الذين تبعنا مشيئتها ضد اجتهادنا الخاصى لكوننا الى جانبنا في ساعة محتما .

وسأل شميرلن : - هذا كل شيء ؟

- هذا كل شيء .

قال : - ها نحنى ذا اذن امام مصاعب جديدة :

ولم يكن الاورد هاليفاكس يوجب ، وكن وانفاً بامتنامة كأنه ندم ، متحفظاً محترماً . وقال شميرلن بجفاء :

- ان الوزراء الفرنسيين قادهون بعد ساعة . وانا اجد هذه الوثيقة على اقل تقدير ... في غير أوانها .

فسأل هاليفاكس في لجة تهكم :

- اتعتقد ان من شأنها ان تؤثر على مقرراتهم ؟

فلم يجب الشيخ ، واخذ الورقة بيديه وجعل يقرأ وهو يهمهم. وصرخ فجأة مغتاظاً :

- الابقار ! ما شأن الابقار هنا ؟ ان هذا اخرق الى خلد بعيد ،

قال اللورد هاليفاكس : - لا اجد ذلك اخرق الى هذا الحد . بل لقد تأثرت شخصياً .

قال الشيخ في ضحكة قصيرة .

- تأثرت ؟ اننا يا عزيزي نعالج قضية . والذين سيتأثرون سيخسرون

اللعبة .

أفشة حمراء ووردية وبنفسجية ، أثواب بنفسجية ، اثواب بيضاء ، صدور عارية ، نهود جميلة تحت المناديل ، بقع من الشمس على الطاولات ، أيد ، سوائل لزجة ومذهبة ، أيد أخرى ، افخاذ نابعة من السراويل القصيرة ، اصوات مرحة ، اثواب حمراء ووردية بيضاء ، اصوات مرحة تدور في الهواء ، افخاذ ، فالس « الارملة الطروب » ، رائحة الصنوبر ، رمل خار ، رائحة البحر المعطرة ، جميع جزر العالم غير المرئية والحاضرة في الشمس ، الجزيرة تحت الريح ، جزيرة الفصح ، جزائر سانديويش ، حوانيت فارمة على طول الشاطئ ، مشمع السيدة ذو الثلاثة آلاف فرنك ، الدبايش ، الزهور الحمراء والوردية البيضاء ، الايدي ، الافخاذ ، الموسيقى صادرة من هنا ، ، الاصوات المرحة التي تدور في الهواء ، سوزان ونظامك ؟ آه ، طز ، ولو لمرة . الاشرعة فوق البحر والمتزلجون الذين يقفزون واذرعتهم ممدودة ، من موجة الى موجة ، رائحة الصنوبر في نفحات ، السلام : السلام في جوان لبيان . كان باقياً هناك ، مسترخياً ، منسياً ، يحمز طعمه . وكان الناس يتداعون فيه للاسترخاء ، وكانت اشواك من الالوان وغابات من الموسيقى تخفي عنهم قلقهم الصغير المرتبك ؛ وكان ماتيو يمشي بهينة على ارضفة المقاهي ، وارصفة الحوانيت ، والبحر الى شماله . ولم يكن قطار غوميز ليصل الا في الثامنة عشرة وسبع عشرة دقيقة ؛ وكان ينظر الى النساء ، على مألوف عاداته ، والى افخاذهن المسالمة ، والى نهودهن المسالمة . ولكنه كان على خطأ : انه منذ الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة على خطأ :

خفي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة انطلق قطار الى مرسيليا .
انني لست هنا بعد ، فانا في مرسيليا ، في مقهى من مقاهي جادة
« لاغار » انتظر قطار باريس ، انني في قطار باريس . انني في باريس
ذات صباح مشمس ، انا في ثكنة ، ادور وادور في باحة الثكنة ، في
« ايسي لينانسي » . وفي ايسي لينانسي كف جورج عن الكلام ، لانه
كان مضطراً الى رفع صوته جداً ، ورفعوا رؤوسهم ، وكانت الطائرة
تلامس السطوح في هدير راعد ، وتابع جورج الطائرة ، فوق الجدران ،
فوق السطوح ، فوق نانسي ، في « نيورت » ، كان في نيورت ، في
غرفته مع الصورة ، وفي فمه ذلك المذاق من الغبار . ما عساه يقول لي ؟
مينبثق من القطار ، نشيطاً اسمر كمصطفي جوان لبيان ، انني الآن في
مثل سمرة ، ولكن ليس لدي ما اقله له . كنت في طليطلة ، وفي
غواد الاجارا ، وماذا كنت تفعل ؟ كنت اعيش .. كنت في مالاغا ،
وقد تركت المدينة مع آخر من تركها ، وماذا فعلت ؟ لقد عشت .
وفكر في انزعاج ، آه ، انه صديق ، هذا الذي انتظره ، وليس هو
قاصياً على اي حال . كان شارل يضحك ، ولم تكن تقول شيئاً ،
كانت ما تزال خجلة بعض الشيء ، وكان يمسك بيدها ويضحك ،
وقل لها في رقة . « ان كاترين اسم جميل » . هو محظوظ ، في آخر
المطاف ، فلقد خاض الحرب في اسبانيا ، استطاع ان يشارك فيها ، بلا
اسلحة ، بل هناك قنابل ودبنايميت ضد الدبابات ، اعشاش نسور «سيارا» ،
الحب في فنادق مدريد المقفرة ، الدخان الشخصي اليسير في السهل ،
المعارك الفردية ، ان اسبانيا لم تخسر رائحتها ؛ اما انا ، فتتظرنني
حرب حزينة ، حرب احتفالية ضجرة ؛ فصد الدبابات المدافعة ، تقوم
حرب جاعية وتكنيكية ، وباء . وكانت اسبانيا هنا ، خطأ يعدو بعيداً
على صفحة الماء الزرقاء . وكانت مود مرتفعة المترسة تنظر الى اسبانيا .
انهم يقاثلون هناك . وكانت البساحرة تنزلن في محاذاة الشاطيء ؛

انهم هناك يسمعون المدفع ، وكان هدير الموج يُسمع ، وتفتتت سمكة
 طائرة خارج الماء . كان ماتيو يسير باتجاه اسبانيا ، البحر الى يساره ،
 وفرنسا الى يمينه . وكانت مود تتزاق في محاذاة الشاطئ ، الجزائر الى
 يسارها ، وهي محمولة نحو اليمين ، نحو فرنسا . وكانت اسبانيا ذلك
 النفس الملتوي وذلك الضباب . كانت مود وماتيو يفكران في الحرب
 الاسبانية ، وهذا ما كان يربحها من الحرب الاخرى ، الحرب الجزائرية
 التي تُعدّ الى يمينها . كان ينبغي الانزلاق نحو جدار الخرائب ، والطواف
 به ثم العودة ، واذ ذاك تُنجز المهمة : كان المراكشي يزحف بين
 الاحجار المسودة ، وكلنت الارض حارة ، وكان ثمة رملٌ تحت أظافر
 يديه وقدميه ، وكان خائفاً يفكر في طنجه ، ففي اعلى طنجه كان ثمة
 بيت اصفر بطابق واحد يُرى منه النعاج البحر السرمدي . وكان يسكنه
 زنجي ذو لحية بيضاء ، كان يضع في فمه حبات ليسي الانكليز . كان
 ينبغي التفكير بهذا البيت الاصفر . كان ماتيو يفكر باسبانيا ، وكانت
 مود تفكر باسبانيا ، وكان المراكشي يزحف على ارض اسبانيا المشققة ،
 كان يفكر بطنجه ويحس نفسه وحيداً . وانعطف ماتيو في طريق مغمية ،
 وتهاوت اسبانيا واشتعلت ، فلم تكن بعد الا بخار نار غير متميز ، الى
 يساره : نيس الى اليمين ، وفيما وراء نيس ، ثقب ، هو ايطاليا .
 المحطة قبالة ، قبالة فرنسا والحرب ، الحرب الحقيقية ، نانسي . كان
 في نانسي ، كان ، فيما وراء المحطة ، يسير نحو نانسي . ولم يكن به
 عطش ، ولم يكن يشعر بالحر ، ولم يكن تعباً . كان جسمه تحت ،
 غفلاً وقطناً ؛ الالوان والاصوات ، اشراقات الشمس ، كانت الروائح
 تأتي لتدفن نفسها في جسمه ؛ وهذا كله لم يكن يعنيه بعد . وفكر :
 هكذا يحس المرء حين يداومه المرض . ونقل فيليب صندوقه الصغير الى
 يده اليسرى ، كان مرهقاً ، ولكن كان عليه ان يقاوم حتى المساء :
 سانام في القطار . وكانت سطيحة « تور دارجان » تطن كاخلية ،

اثواب حمراء ووردية وبنفسجية ، جوارب من الحرير الصناعي ، حدود
مهمرة ، سواحل مسكرة ، حشد مائع لزج ، وكان قلبه ينبض بالشفقة :
سوف ينتزعون من المقاهي ومن غرفهم ، ومعهم منقوم الحرب . كان
مشفقاً عليهم ، وكان مشفقاً على نفسه ؛ كانوا يتألمون في النور وهم
لرجون مكتظون ، يائسون . واخذ فيليب فجأة دوار من التعب والكبرياء :
انني ضميرهم .

مقهى آخر . كان ماتيو ينظر الى هؤلاء الرجال السمر الممتلئين الاثمين ،
فكان يشعر بأنه منفصل . كان الكازينو الى يمينهم ، والى يسارهم البريد ،
وخلفهم البحر ؛ هذا كل شيء . ففرنسا واسبانيا وإيطاليا مصايح لا
تضيق لهم ابداً . انهم هنا مركومون جميعاً ، والحرب شبح ، وفكر : انني
شبح ، سوف يكونون ملازمين ورؤساء ، وسينامون في السرر ، وسيحلقون
ذقونهم كل يوم ، ثم ان كثيرين منهم سيرفون كيف يتعدون عن خط
النار . ولم يكن ليأخذ عليهم ذلك . فما الذي كان يمكن ان يمنعهم من
ذلك ؟ أهو التضامن مع الذين يذهبون الى الحرب ؟ ولكني انا ذاهب
الى الحرب . ولا اطلب اي تضامن . وفكر فجأة . ولكن لماذا اذهب
اليها ؟ صاح فيليب وقد دفعه احدهم « انتبه ! » ، وانحنى ليلم
صندوقه ، ولم يتنازل الشخص الطويل ذو الحذاء البالي الى الالنفات ،
فتمتم فيليب : « وحش ! » وواجه المقهى ، ونظر الى الناس بعينين
مريعتين . ولكن لم يكن ثمة من لاحظ الحادث . وكان ثمة طفل يبكي ،
وكانت امه تمسح له عينيه بمندبل . وعلى الطاولة المجاورة ، كان ثلاثة
رجال جالسين امام اقداح من عصير الليمون ، والارهاق باد عليهم .
وفكر وهو يجبل نظره الناقد في الحشد . انهم ليسوا ابرياء الى هذا الحد .
لماذا يذهبون ؟ ليس عليهم الا ان يقولوا لا . وكانت السيارة تجري .
وكان دلاديه غارقاً في الوسائد يمض سيجارة مطفأة وهو ينظر الى
المرآة .

وكان يغيظه ان يذهب الى لندن ، سوف يأكل كالتخزير ، وكانت
امرأة متطابرة الشعر تضحك فاغرة الفم ، وفكر : « انهم لا يدركون »
وهز رأسه ، وفكر فيليب : « يأخذونهم الى المسلخ ولا يدركون .
انهم يتقبلون الحرب كما يتقبلون المرض . الحرب ليست مرضاً . لأنها
شر لا يحتمل لانه يصدر عن الناس ويتجه الى الناس . » ودفع ماتيوي
الباب الصغير ، وقال للموظف : « اني في انتظار صديق . » وكانت
المحطة ضاحكة وصامتة كالمقبرة . لماذا تراني اذهب اليها ؟ وجلس على
مقعد أخضر . هناك من يرفض الذهاب . ولكن ليس هذا من شأني :
يرفضون او يشبكون أذرعهم او يهربون الى سويسرا . لماذا ؟ اني لا
افهم ذلك وهذا ليس من شأني . وحرب اسبانيا نفسها لم تكن من شأني
ولا الحزب الشيوعي . وتساءل في نوع من القلق : فما هو من شأني
إذن ؟ كانت الخطوط الحديدية تلتصق ، سوف يأتي القطار من الشمال .
والى الشمال ، في البعيد ، تلك البحيرة اللامعة ، حيث تلتقي الخطوط ،
كانت تولون ومارسيليا وبوربو واسبانيا . حرب لا معقولة ، وغير
مبررة ، ويقول جاك انها خاسرة سلفاً . وفكر : الحرب مرض .
وشأني ان احتملها كالمريض . من أجل لا شيء . بدافع من النظافة .
سأكون مريضاً شجاعاً ، هذا كل ما في الامر . لماذا اخوضها ؟ اني
لا اقرها . ولماذا لا اخوضها ؟ ان جلدي لا يستحق حتى ان يُنقذ .
وفكر : هكذا ، هكذا : اني مسوق ! موظف . والذي كانوا
يتكلمون له ، انما هو صمود الموظفين الحزين ، اولئك الذين يحتملون
كل شيء ، الفقر والمرض والحرب ، احتراماً منهم لأنفسهم . وابتسم ،
وقال في نفسه : « حتى هذا لا : اني لا احترم نفسي ، » وفكر
فيليب : « شهيد ، انهم بحاجة الى شهيد . » كان عاثماً ، وكان
يسبح في التعب ، ولم يكن ذلك غير لذيذ ، ولكن كان ينبغي الاستغراق
فيه ، كل ما هنالك انه لم يكن يرى بعد بتبصر ، فقد كان الى يمينه

والى يساره مصراعان يسدان عليه للطريق . كان الجمع يحاصره ، وكان الناس يخرجون من كل مكان ، وكان أولاد يعدون بين ساقيه ، وكانت سحن تطرف عيونها من الشمس تنزلق فوق رأسه ، تحت رأسه ، السحنة نفسها دائماً ، مهتزة ، متهادية من امام الى وراء ، نعم - نعم - نعم . نعم ، سوف نقبل هذه الرواتب المجوعة ، نعم ، سنذهب الى الحرب نعم ، سندع ازواجنا يذهبون ، نعم سنقف في الصف امام المخابز واولادنا بين اذرعنا . الجمع ، كان الجمع ، هذا القبول الهائل الصامت . وفكر فيليب ، وخده ملتهب : واذا شرحت لهم حطّموا رأسك ، وركلوك باقدامهم في غضب ، وهم يصرخون : نعم . كان ينظر الى هذه الوجوه الميتة ، وقيس عجزه : لا يمكن ان نقول لهم شيئاً ، فانماهم بحاجة الى شهيد . الى من ينتصب دفعة واحدة على أطراف أصابعه . ويصرخ : « لا » فيرتمون عليه ويمزقونه . ولكن هذا الدم المراق من اجلهم ، وعلى ايديهم ، سيمنحهم قوة جديدة ، فتعمر نفوسهم روح الشهيد ، وسيرفعون رؤوسهم ، من غير ان تطرف عيونهم ، ويتدحرج هدير رفض من طرف الجمع الى طرفه الآخر ، كالرعد . وفكر : وانا هو هذا الشهيد . وغمرته فرحة معدّب ، فرحة أشد من ان يُحتمل ، فانحنى رأسه ، وترك الصندوق ، وسقط على ركبتيه ، وقد ابتلعتة الموافقة العامة .

وصاح ماتيو : - مرحبا .

وكان غوميز يركض اليه ، عاري الرأس ، ما يزال على جباله ؛ وكانت على عينيه غمامة تجعله يخفض جفونه ، اين انا ؟ وكانت أصوات تقول فوّه : « ما به ؟ انه مصاب بدوار ، ما هو عنوانك ؟ » وكان رأس ينحني فوّه ، رأس امرأة عجوز ، أتراها ستعصني ؟ عنوانك ! كان ماتيو وغوميز يتبادلان النظر وهما يضحكان من فرط الجذل ، عنوانك ، عنوانك ، وبذل جهداً عنيفاً ونهض . كان يتسم ، وقال :-

- ولكن ليس ثمة شيء يا سيدني ، وانما هو الحر . اني اسكن
تقريباً جداً ، وسأعود الى البيت .
وقال احدهم خلفه ..

- يجب ان يرافق ، فهو لا يستطيع ان يعود وحده (وضاع الصوت
بقي هسيس اوراق) : نعم ، نعم ، نعم ، يجب ان يرافق ، يجب
ان يرافق .

وصاح : - دعوني ، دعوني لا تمسوني . كلا ! كلا ! كلا !
كلا ! (ونظر اليهم مواجهة ، نظر الى عيونهم المتعبه ، المندمسة ،
موصاح :) « كلا ، كلا للحرب ، كلا للجنرال ، كلا للأهات
المدنبات ، كلا لزيزيت وموريس ، كلا ، دعوني وشأني . وابتعدوا ،
فأخذ يركض بجذاء من رصاص . كان يركض ويركض ، فوضع احدهم
يده على كتفه ، فحسب انه سينفجر باكياً . كان شاباً نصرأ ذا شارب
صغير ، مد له صندوقه الصغير ، وقال وهو يضحك :
- لقد نسيت صندوقك .

وتوقف المراكشي : كانت حية ظنها غصناً ميتاً . حية صغيرة ،
تحتاج الى حجر لسحق رأسها . ولكن الحية التوت فجأة ، وثلمت
الارض بومضة سمراء ثم اختفت في الحفرة . وكان ذلك بشيراً ، لم يكن
ثمة شيء يتحرك خلف الجدار . وفكر : مستهدأ نفسي .

وأمسك ماتيو بكفي غوميز قاتلاً :

- مرحباً ، مرحباً كولونيل !

فبسم غوميز بسمة متكبرة غامضة ، وقال :

- بل جنرال .

فترك ماتيو يديه تسقطان :

- جنرال ؟ هكذا اذن ، انكم تتقدمون هناك بسرعة .

فقال غوميز من غير ان يكف عن الابتسام :

— ان الملاكات ناقصة . ما أشد سمرتك يا ماتيو !

فقال ماتيو متزعجاً :

— انها سمرة الرفاهية، يكسبها الانسان على الشواطئ ، حين لا يفعل شيئاً .

وكان يبحث على يدي غوميز ووجهه آثار تجاربه ومعنه ؛ وكان مستعداً لجميع ألوان الندم . ولكن غوميز لم يكن يسلم نفسه بهذه السرعة وهو في حيويته ودقته وبدلته الفلانيل وجسمه الصغير المركوم : فقد كان يشبه في تلك اللحظة مصطافاً .

وسأل : — اين نذهب ؟

قال ماتيو : — سنبحث عن مطعم صغير هاديء . انني اسكن في منزل أخي وزوجته ، ولكني لا ادعوك الى تناول العشاء عندهما : فليسا هما طرفين ؟

قال غوميز :

— اريد مكاناً فيه موسيقى ونساء (ونظر الى ماتيو في غير احتراس وأضاف) لقد قضيت ثمانية ايام مع الاسرة .

قال ماتيو : — آه ، حسنا . سنذهب اذن الى « البروفنسال » . وكان الخادم ينظر اليها قادمين من غير قسوة ، في هيئة مهنية . وكان واقفاً بجمود ، مقوس الظهر قليلا ، بين موزعتي القسائم الآليتين ، وكانت الشمس تحمر بندقيته وقبعته . فناداها لدى مرورهما .

— الى اين ؟

قال موريس :

— « ايسى لينانسي »

— تخرج فتأخذ الترام الى يسارك وتهبط الى آخر الخط .
وخرجا . وكانت ساحة كثيبة كالتي ترى امام المحطات ، وفيها مقاه وفنادق ، وكان في السماء دخان . وقال دورنيه وهو يتنهد :

- من الضروري تحريك السافين ،
 ورفع موريس رأسه وابتسم وهو يطرف بعينه . قال بيبر :
 - ليس هناك من الترامات اكثر مما هناك من الزبدة في الامت !
 ونظرت اليها امرأة في ود :
 - انه لم يصل بعد ! الى اين انما ذاهبان ؟
 قال موريس : - الى ايسى لينايسى .
 - لا بد ان تنتظر ربع ساعة طويلة . فهو يمر كل عشرين دقيقة ،
 قال دورنيه لموريس : - امامنا وقت لشرب قدهح :
 كان الجو رطباً ، وكان القطار يجري ، وكان الهواء أحمر ، وأخذته
 رعشة سعادة فشد غطاءه . وقال « كاترين ! » فلم تجب . ولكن
 شيئاً ما لامس صدره ، عصفوراً ، وصعد على مهل الى عنقه ، ثم
 طار العصفور وحط فجأة على جبينه . كانت يدها ، يدها الرقيقة
 المعطرة ، وقد انسربت على انف شارل ، ولامست الاصابع الخفيفة
 الشفتين . وكان ذلك يدغدغه . وتناول اليد وشدها الى فمه . كانت
 دائنة ، وامسك المعصم بأصابعه فاحس خفق النبض . وكان مغمضاً
 عينيه ، يقبل هذه اليد الذقيقة والنبض يخفق تحت أصابعه كقلب عصفور ،
 وضحكت « كما لو اننا كنا من العميان : التعرف يحدث بالأصابع . »
 ومد ذراعه بدوره ، وكان يخشى ان يؤذيها ، ولمس قضيب المرأة
 الحديدي ثم لمس شعراً متديلاً على الغطاء ، أشقر في اطراف اصابعه ،
 ثم صدغاً ووجنة ، رقيقة ربا كجسم امرأة برمته ، ثم نشق أصابعه فم
 حار ، وعضتها اسنان ، بينما كان ألف عقرب تنمله من خاصرتيه حتى
 رقبته ، وقال : « كاترين ! » . وفكر : « اننا نتضاجع » وتركت
 يده وتنهدت ، ونفخ موريس على قدحه فاطار الزبد الى الارض وشرب
 وقالت : « ما هي تلك القوارب التي ينام فيها الناس جنباً الى جنب ؟ »
 وشرق موريس شفته العليا فلحسها وقال : « انها منعشة ! » قال شارل :

« لا ادري ، لعلها قوارب الغندول ؟ » « لا ، ليس الغندول ، على كل حال ، لا بأس ، سنكون في احد هذه القوارب . » فأخذ يدها ، ودلفا جنباً الى جنب ، فوق الماء ، وكانت عشيقته ، النجمة ذات الشعر الذهبي الاصفر ، وكان رجلاً آخر ، وكان يحميها . وقال لها : « أود لو ان القطار لا يصل ابدأ » . كان دانيال يعرض ريشته ، وطرق الباب ، فأمسك نفسه ، وكان ينظر الى الورقة البيضاء على القرطاس من غير ان يراها . وقال صوت مارسيل : « دانيال ! هل انت هنا ؟ » فلم يجب ، وابتعدت خطى مارسيل الثقيلة ، كانت تهبط السلم ، وكانت الدرجات تطق واحدة واحدة ، وابتسم ، وغط ريشته في الحبر وكتب : « عزيزي ماتيو » يد مشدودة في الظل ، هسيس ريشة ، وجه فيليب يخرج من الظل ويأتي للقائه ، أصفر في ظلمات المرأة ، حركة اهتزاز صغيرة ، البيرة الثلجة تفرقر في حنجرتة وتقطع صفرتة : السيارة القاطرة تجتاز ثلاثة وثلاثين متراً بين باريس وروان ، لحظة انسان ، وثلاثة على الالف من لحظة الساعة العشرين من الرابع والعشرين من ايلول ١٩٣٨ : لحظة ضائعة ، متدحرجة خلف شارل وكاترين في الريف الحار ، بين الخطوط ، خلفها مورييس في نشارة القهوة المظلمة الرطبة ، سابحة في النلم الذي تركه قارب شركة « باكبه » مأخوذة في بحيرات الحبر الرطب ، لامعة ومتجففة بين ساقى حرف M في اسم ماتيو . فيما تحك الريشة الورق وتمزقه ، بينما يمص دالاديه ، وهو غارق في الوسائد ، سيكارة مطفأة وهو ينظر الى المسارة . كان يزوجه ان يكون في لندن ، وكان يدير بعناد عينيه نحو الباب حتى لا يرى وجه بونيه القدر ، والوجه المغلق لهذا الانكليزي الحمار ، كان يفكر « انهم لا يدركون ! » ورأى امرأة مبعثرة الشعر تضحك فاعرة الفم : وكانوا جميعاً ينظرون الى السيارة بهيئة لا معبرة ، وكان بينهم اثنان او ثلاثة يصيحون « هوراا ! » ولكنهم لم يكونوا بالتأكيد

يدركون ان السيارة السوداء التي كانت تجري في طريق لندن وهي
 محرّمة ، انما كانت تحمل الحرب والسلام الى داوتنغ ستريت ، الحرب أو
 السلم ، وجه الفلاس او قفاه . كان دانيال يكتب . وكان الربان قد
 وقف امام باب صالة الدرجة الاولى ليقرأ « هذا المساء في الساعة
 التاسعة ، تقدم جوقة بايبس النسائية حفلة سمفونية في الدرجة الاولى .
 جميع المسافرين ، بلا تمييز في الدرجة ، مدعوون الى حضورها بترحاب .
 ونشق نفساً من غليونه وفكر : « انها اهزل مما ينبغي » وفي تلك اللحظة
 بالذات شم عطراً دافئاً ، وسمع خفق أجنحة صغيراً ، وكانت هي مود ،
 فالتفتت ، وفي مدريد كانت الشمس الغاربة تذهب الواجهة الخربة
 « للمدينة الجامعية » ، وكانت مود تنظر اليه ، فخطا خطوة ، وكان
 المراكشي يدلف الى الخرائب ، وصوب اليه البلجيكي ، وكانت مود
 والربان يتبادلان النظر . ورفع المراكشي رأسه فرأى البلجيكي ، فبادلا
 النظر ، ثم فجأة بسمت مود بسمة جافة وأدارت رأسها ، وضغط
 البلجيكي على الزناد ، فمات المراكشي ، وخطا الربان خطوة نحو مود
 ثم فكر : « انها اهزل مما ينبغي » وتوقف . قال البلجيكي « ايها
 القدر الملعون ! » وكان ينظر الى المراكشي الميت ويقول « ايها القدر
 للمعون ! »

قال غوميز : - اذن ، ومارسيل ؟ لقد قالت لي ساره ان الأمر
 قد انتهى ؟

قال ماتيسو : - نعم ، لقد انتهى ، وتزوجت دانيال ،

قال غوميز : - دانيال سيرينو ؟ انها فكرة عجيبة . على كل حال ،
 لقد تحرّرت .

قال ماتيسو : - تحرّرت ، تحرّرتُ ممّ ؟

قال غوميز : - لم تكن مارسيل تناسبك .

قال ماتيسو : - ربما ! يعني !

وكانت الطائرات المغطاة بالحيوانات البيضاء تحيط في شكل نصف دائرة حلبة رملية مزروعة بالصنوبر . وكان مقهى « البروفنسال » مقفراً ، وكان ثمة رجلٌ واحد يأكل جناح دجاجة وهو يشرب ماء فيشي .
 وعصده الموسيقيون باسترخاء الى النصبة ، وجلسوا في صخب للكراسي كبير ، وأخذوا يهمسون فيما بينهم ، بينما هم يوترون الآلهم ، وكان البحر ما يزال يُرى اسود عبر شجر الصنوبر . ومد ماتيو ساقه تحت الطاولة وشرب جرعة بورتو . للمرة الأولى منذ ثمانية ايام ، كان يشعر أنه في بيته ، وكان قد تجمع دفعة واحدة ، فأقام برمته في هذا المكان الغريب الذي كان نصفه صالة خاصة والنصف الآخر من الخشب المقدس . وكان شجر الصنوبر يبدو مقتطعاً في ورق مقوى ، وكانت المصابيح الوردية للصغيرة ، في وسط الليل الطبيعي الرقيق ، تسيل على الخوان ضوء بهو نسائي أنيق ، وأضاء بين الاشجار مطلقاً للأشعة ، فبيض الحلبة فجأة فبدت من الاسمنت . ولكن كانت فوق رؤوسهم تلك الغيبة ، وفي السماء النجوم التي تشبه حيوانات صغيرة مجهدة ، وكانت ثمة تلك الرائحة الصمغية ، ثم ربح البحر تلك متحركة قلقة ، كأنها روح مرهقة ، تنطير لها الحيوانات وترسل دفعة واحدة خطمها البارد في عمقك .

قال ماتيو : - لتحدث عنك.

فبدا غوميز مندهشاً ، وسأل :

- ألم يحدث لك شيء آخر ؟

قال ماتيو : - لا

- منذ عامين ؟

- لا . ستجدني كما تركتني .

فضحك غوميز وقال : - بالفرنسي الملعون ! انكم جميعاً خالدون ،

وكان عازف الساكسفون يضحك : كان عازف الكمان يهمس في

أذنه ، وانحنت روبي نحو مود التي كانت توتر كأنها ، وقالت :

- انظري الى العجوز ؛ في الصف الثاني :
فانفجرت مود ضاحكة : كان العجوز اصلع كالبيضة ، وجال
بصرها في المستمعين ، فكانوا يزيدون عن الخمسة . ورأت بيار
واقفاً بالقرب من الباب فكفت عن الضحك ، ونظر غوميز الى عازف
الكمان بهيئة غامضة ثم القى نظرة على الكراسي الفارغة ، وقال بصوت
مستسلم :

- اظن اننا لن نجد زاوية صغيرة هادئة افضل من هذه .

قال ماتيو : - وهناك موسيقى .

قال غوميز : - ارى ذلك . اراه جيداً ،

وكان ينظر الى الموسيقين نظرة توبيخ . وكانت مود تقرأ التوبيخ
في جميع هذه العيون ، وكانت وجنتاها ملتهبتين ، كشأنها كل مرة ،
وكانت تفكر : « اوه ! يا إلهي ! ما جدوى ذلك ؟ ما جدوى
ذلك ؟ » اما فرانس فكانت واقفة مزبدة ملونة ، تعطي جميع علامات
السعادة ؛ وكانت تبسم وتعطي اشارة القيادة سافاً وكانت تمسك قوسها
مرفوعة الخنصر ، كما لو كان شوكة . قال غوميز :

- لقد وعدتني بالنساء .

فقال ماتيو آسفاً : - اي نعم ؟ لا ادري ماذا هناك : في الاسبوع
الماضي ، في مثل هذه الساعة ، كانت جميع الطاولات مأخوذة . وأما
النساء ، فاقسم لك انهن كن كثيرات .

قال غوميز بصوته الرقيق : - انها الاحداث .

- بلا شك .

الاحداث ، ان ذلك صحيح : فبالنسبة اليهم ايضاً ، هناك ، كانت
« الاحداث » موجودة : انهم يقاتلون ، مستندين الى جبال البيرينييه ،
وعيونهم ملتهبة الى فالانس ، والى مدريد ، والى تاراغون ، لكنهم
يقرأون الصحف ويفكرون بهذه الحركة الضاجة للرجال والسلاح ،

خلف ظهورهم ، وان لهم آراءهم عن فرنسا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا ،
وتتملقل قليلاً فوق كرسية : كانت سمكة قد اقتربت من زجاج حوض
الاسماك . واخذت تنظر اليه بعينيهما المستديرتين . ومنح غوميز ضحكة
صغيرة مشاركة وقال بصوت غير مطمئن :
- ذلك ان الناس بدأوا يفهمون .

قال غوميز : - بل هم لا يفهمون شيئاً على الاطلاق . يمكن
للأسباني ان يفهم وللتشيكي أيضاً ، وربما للألماني ، لأنهم مشتركون
في العملية . اما الفرنسيون فليسوا في العملية ، انهم لا يفهمون شيئاً :
ولذلك فهم خائفون .

وأحس ماتيو بأنه مجروح ، فقال بحموية :
- لا نستطيع ان نلومهم على ذلك . أنا مثلاً ليس لي ما أخسره ،
ولا يزعجني كثيراً ان اذهب ، ان ذلك لا يغيرني . ولكن اذا كان
المرء يحرص بشدة على شيء ، فاعتقد انه ليس من اليسير ان ينتقل من
السلم الى الحرب .

قال غوميز : - فعلت ذلك في ساعة واحدة . أتظن أنني لم أكن
حريصاً على رسمي ؟
قال ماتيو : - الامر عندك مختلف .
فهز غوميز كتفيه وقال :
- انك تتكلم كساره .

وصمنا . ولم يكن ماتيو يحترم غوميز الى حد بعيد ، كان يحترمه
أقل مما يحترم برونيه ودانيال . ولكنه كان يشعر بأنه مذنب أمامه ،
لانه كان اسبانياً . وارتعش . سمكة عند زجاج الحوض : وقد كان
فرنسياً تحت هذا النظر ، فرنسياً حتى العظم . مذنب . مذنب وفرنسي ،
وكانت به رغبة لان يقول له : « ولكني كنت من دعاة التدخل ! »
غير ان هذه لم تكن هي القضية . إن ما كان يتمناه شخصياً لا اهمية له .

لقد كان فرنسياً ، وما كان يجديه شيئاً ان يفصل عن سائر الفرنسيين .
لقد قررت عدم التدخل في اسبانيا ، ولم ارسل اسلحة ، واغلقت الحدود
دون المتطوعين . كان ينبغي ان ادافع عن نفسي مع الجميع ، او ادين
نفسي مع الجميع ، مع خادم المقهى ، والسيد المتخوم الذي كان يشرب
ماء فيشي ، وقال :

— اني احق ، فقد تصورت انك ستأتي بالثوب العسكري ؟

فابتسم غوميز :

— بالثوب العسكري ؟ اتريد ان تراني بالثوب العسكري ؟

وأخرج رزمة الصور من محفظته فدها لماتيو واحدة بعد الاخرى :

— هوذا الرجل .

— كان ضابطاً قاسي الملامح ، واقفاً على درجات كنيسة :

— ان هيتك غير لطيفة .

قل غوميز : — يجب ذلك :

ونظر اليه ماتيو وأخذ يضحك ؛ وقال غوميز :

— نعم ، انها نكتة .

قال ماتيو : — لم اكن اظن ذلك ، وانما كنت أتساءل عما اذا

كانت هيتي مستكون متوحشة كهيتك لو لبست الثوب العسكري .

وسأل غوميز في اهتمام :

— هل انت ضابط ؟

— بل عسكري عادي .

فندت عن غوميز حركة انزعاج :

— ان جميع الفرنسيين عساكر عاديون :

فقال ماتيو بحموية :

— وجميع الاسبان جنرالية .

فضحك غوميز من كل قلبه ، وقال وهو يمد له صورة :

— انظر الى هذه :

كانت فتاة صغيرة سمراء ، جميلة جداً . وكان غوميز ممسكاً بقامتها وهو يتنسم تلك الابتسامة الراضية التي يطلقها دائماً في الصور . وقال :

— مارس وفينوس .

قال ماتيو : — اني هنا اجدك على حقيقتك . ولكن قل لي :
انك تأخذهن صغيرات .

— في الخامسة عشرة ، ولكن الحرب تنضجهن . وهأنذا في القتال ؟
ورأى ماتيو رجلاً صغيراً قابلاً تحت شق جدار متهدم .
— اين هذا ؟

— في مدريد . المدينة الجامعة . ما زال القتال دائراً فيها .
لقد قاتل . لقد استلقي حقاً خلف هذا الجدار ، وكانوا يطلقون عليه النار . وكان آنذاك في رتبة نقيب ، وربما كان يفتقر الى طلاقات فيفكر : « يا للفرنسين القذرين ! » وكان غوميز قد انقلب على كرميه ، ينوي شرب قدحه ، وتناول علبة النقيب بحركة هادئة فأشعل سيجارته ، وانبثقت ملامحه المزهوة الهزلية من الظل ثم انطلقت . لقد قاتل ؛ ولم يبق من ذلك شيء في عينيه . كان الليل يهبط فيلفه بالعدوبة ، وكان يزرق فوق المصباح الوردى ، وكانت الجوقة تعزف « نوتي كياردو ماس » ، وكان الهواء يحرك الخوان بهدوء ، ودخلت امرأة غنية ووحيدة ، فجلست بالقرب منها ، وطفأ عطرها حتى أنفيها ، وشتمه غوميز بنهم وهو يمدد منخريره ، وقسا وجهه ، وأدار رأسه بهيئة بحث ، فقال ماتيو :

— الى اليمين .

وحدد فيها غوميز نظرة ذئبية ، وكان قد اصبح جاداً ، فقل :

— فتاة جميلة .

قل ماتيو : — انها ممثلة . ولديها اثنا عشر تياناً للبحر ، وهناك

صناعي من ليون ينفق عليها .

قال غوميز : - هم !

وبادلته نظرتة ثم ادارت عينيها وهي تبسم نصف بسمة . وقال ماتيو :

- انك لن تضيع أمسيك :

فلم يجب . وكان قد وضع مرفقه على الخوان ، وكان ماتيو ينظر الى يده المشعرة ذات الخاتم التي كانت تورّد ضوء المصباح . انه هنا ، ازرق كل الزرقة ، بيديه الورديتين ، وهو يتنشق رائحة الشقراء هذه ، ويناديا بالنظر . لقد قاتل . وان خلفه مدناً محمرة ، ودوامات من الغبار الاحمر ، وقشرات مبشورة ، وانفجارات صواريخ لا تلمع حتى في اذنيه . لقد قاتل ؛ وسيعود الى القتال ، وها هو هنا يرى هذه الخوانات البيضاء التي اراها . وحاول ان ينظر الى شجر الصنوبر والحلبة والمرأة بعيني غوميز ، هاتين العيين اللتين أحرقها لهيب الحرب ؛ ونجح في ذلك لحظة ، ثم تلاشت الحشونة الفلقة الزاهية التي كانت قد اخترقته ، لقد قاتل ، وهو ... كم هو حالم ! وفكر ماتيو : اما انا ، فلست حالماً . قالت اوديت : « كلا ، صحنان فقط : ان السيد ماتيو لن يعود لتناول العشاء . » واقتربت من النافذة المفتوحة ، وكانت تسمع موسيقى « البروفنسال » وكان موسيقى تانغو : كانوا يستمعون الى الموسيقى : وكان ماتيو يفكر « انه يمر مروراً عابراً : » وقدم لها الخادم الحساء ، فقال غوميز « لا ، لا حساء . » كن يعزفن « تانغو القطة » ؛ وكان كان فرانس يقفز في النور ويغطس فجأة في الظل كسمكة طائفة . كانت فرانس تبسم ، وهي مغمضة الجفنين نصف إغماض ، وكانت تغطس خلف كإنها وكان القوس يحتك ، والكمان يموء ، وكنت مود تستمع الى الكمان يموء عند اذنها ، وتستمع الى السيد الاصلع يسعل ، وكان بيار ينظر اليها ، وأخذ غوميز يضحك ، ولم تكن هيته راضية ، فقال :
- تانغو ، تانغو ! لو كان فرنسيون يفكرون بان يعزفوا تانغو

كهنذا ، في مقهى بمدريد ..

فسأله ماتيو :

- لرموهم بتفاح مطبوخ ؟

فقال غوميز : - بل بالحجارة !

وسأله ماتيو : - الا يحبوننا كثيراً هناك ؟

فقال غوميز : - بل !

دفع الباب : كان « البار الباسكي » خالياً . وقد دخله بوريس

يوماً بسبب اسمه « البار الباسكي » ، وكان ذلك يذكر بكلمة « بارباك »

وهي كلمة لا يستطيع ان يلفظها من غير ان يضحك . ثم حدث ان البار

كان عظيماً تماماً ، فأضحى بوريس يتردد اليه كل مساء ، بينما تكون لولا في

عملها . ومن النوافذ المفتوحة ، كانت تُسمع موسيقى الكازينو البعيدة ،

بل لقد حسب مرة انه يسمع صوت لولا ، ولكن ذلك لم يحدث مرة

اخرى . وقال صاحب الخانة :

- مرحباً ، يا سيد بوريس .

قال بوريس : - مرحباً يا معلم . اعطني من فضلك قلدح روم ابيض

وكان يحس نفسه تقياً ، وكان يفكر بان يشرب قلدحين من الروم

الايض وهو يدخن غليونه ، وحوالي الساعة الحادية عشرة ، يمنح نفسه

سندويشاً بالمقائق . وقرابة منتصف الليل ، سيذهب ليصحب لولا ،

وانحى المعلم عليه وملاً قلدحه ، فسأله بوريس :

- أليس المارسيلى هنا ؟

قال المعلم : - لا . لديه وليمة مهنية .

- اوه ! عفواً !

كان المارسيلى وكيلاً للبيع ، وكان هناك ايضاً شخص يدعى شارليه ،

وهو عامل مطبعة . وكان بوريس يلعب معها احياناً بالورق ، وحياناً

اخرى يتحدثون بالسياسة والرياضة او يقون جالسين من غير ان يقولوا

شيئاً ، بعضهم عند المشرب ، والبعض الآخر على الطاولات الداخلية ،
وبين الفينة والفينة . كان شارليه يقطع الصمت ليقول : « نعم ، نعم ،
نعم ، الأمر هكذا » وهو يهز رأسه ، وكان الوقت يمر بمرح ، وقل
بوريس :

— الزبائن قليلون اليوم .

فهز المعلم كتفيه ، وقال وهو يعود الى المشرب :
— أنهم جميعاً يفرنقون . وأنا عادة أبقى فائماً حتى عيد جميع
القديسين . ولكن اذا استمر الحال هكذا ، اغلقت الحانة في تشرين الاول
وعدت الى ارضي .

فانقطع بوريس عن الشرب وظل مأخوذاً ، فان عقد لولا ينتهي
اجله في اول تشرين ، وسيكونان آنذاك قد ذهباً . ولكنه لم يكن يحب
ان يفكر بان « البار الباسكي » سيغلق ابوابه خلف ظهرهما . والكازينو
ايضاً سيغلق ، وجميع الفنادق ، وتظل بيارينتز مقفلة . وكان ذلك يشبه
التفكير بالموت : فلو انك واثق بان رجالاً آخرين سيشربون بعدك اقتداح
روم ، وسيأخذون حمامات شمس ، وسيسمعون ألحان جاز ، اذن لأحسست
بالعزاء ، ولكن اذا وجب ان تفكر بان الجميع سيموتون في الوقت
نفسه ، وان الانسانية بعدك ستغلق ابوابها ، فلن يكون في ذلك اي شيء
مفرح . وسأل ليطمئن :

— ومتى تعود الى الفتح ؟

قال المعلم : — اذا وقعت الحرب ، فلن اعود الى الفتح ابداً .
وعدت بوريس على أصابعه : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، سأعود
الى هنا خمس مرات اخرى ، ثم ينتهي كل شيء ، فلا ارى بعد البار
الباسكي ابداً : كان ذلك مضحكاً . خمس مرات . سيشرب الروم
الابيض خمس مرات اخرى على هذه الطاولة ، ثم تقع الحرب ، ويغلق
البار الباسكي ، وفي تشرين الاول ٣٩ ، سيكون بوريس مجتهداً . وكانت

مصاييح بشكل الشمع مزروعة على تعليقات من خشب السنديان تلقي على الطاوات ضوءاً جميلاً احمر . وفكر بوريس : لن ارى بعد ابدأ هذا الضوء ، هذا الضوء بالذات : احمر على أسود . سيرى طبعاً اضواء كثيرة اخرى ، فالصواريخ الليلية فوق ساحات القتال ليست شيئاً رديئاً . ولكن هذا الضوء بالذات سينظفني اول تشرين ، ولن يراه بوريس بعد ابدأ . وتأمل في هيبة بقعة ضياء كانت تمتد على الطاولة ، وفكر بأنه كان مذنباً . كان يعامل الاشياء دائماً على طريقة الملاعق والشوكات ، كما لو انها كانت دائماً قابلة للتجديد : وكان ذلك خطأ فاضحاً . ان هناك عدداً محدوداً من الحانات ودور السينما والبيوت والمدن والقرى ، ولم يكن فرد معين يستطيع ان يذهب الى اي منها الا عدداً محدوداً من المرات .

وسأل المعلم : - هل تريد ان ادير الراديو ؟ ان ذلك يذهب هنا الملل .

قال بوريس . - لا ، شكراً . هكذا لا بأس .

في لحظة موته ، عام ٤٢ ، سيكون قد تغذى ٣٦٥ × ٢٢ مرة تساوي ٨٠٣٠ ، اذا حسب وقعاته ايضاً كرضيع . واذا أقررنا بأنه قد أكل عجة بالبيض مرة على كل عشر مرات ؛ يكون قد أكل ٨٠٣ عججات . وقال في نفسه مندهشاً : ٨٠٣ عججات فقط ؟ آه كلا ! هنك ايضاً العشاء ، مما يجعل الوقعات ١٦٠٦٠ و ١٦٠٦٠ عججات . مها يكن من امر ، فليس ذلك بالشيء العظيم ، بالنسبة لهار . وتابع : والمقاهي ؟ بوسعي ان اعد المرات التي اقصد فيها المقاهي بعد . فلنفرض اني اقصدها مرتين كل يوم ، واني سأجند بعد عام ، فتكون ٧٣٠ مرة . ٧٣٠ مرة ! كم هو قليل ! ولقد احسن من ذلك بصدمة ، ولكنه لم يكن مندهشاً بصورة استثنائية . لقد كان يعرف دائماً بأنه سيموت شاباً . وقد حدث نفسه غالباً بأنه سينتهي مسلولاً او مقتولاً بيد لولا . ولكنه

لم يكن يشك في اعماق نفسه لحظة بأنه لن يموت في الحرب. كان يعمل
ويُعدّ شهادة البكالوريا او الليسانس ، ولكن ذلك كان غالباً بدافع تمضية
الوقت ، كالفتيات اللواتي يحضرن دروساً في السوربون بانتظار ان يتزوجن .
وقل في نفسه : هذا طريف . لقد جاءت جهود كان الشبان يُعدّون فيها
شهادة الحقوق او الاغريغاسيون بالفلسفة وهم يفكرون بأنهم سيكون لهم
مكتب كاتب عدل في الاربعين ، او تقاعد استاذ في الستين . وان المرء
ليتساءل عما عساه يمكن ان يدور في رؤوسهم . اشخاص ستكون امامهم
١٠ر٠٠٠ او ١٥ر٠٠٠ أمسية في المقهى ، و ٤٠٠٠٠ عجة ، و ٢٠٠٠٠ ليلة
غرام ! واذا كانوا يتركون مكاناً يروق لهم ، فان بوسعهم ان يقولوا
لانفسهم بالتأكيد : سنعود اليه في السنة القادمة ، او بعد عشر سنوات .
اننا لا نستطيع ان نقود حياتنا على بعد اربعين عاماً . وقال مقررأ في قسوة :
لا بد انهم يرتكبون حماقات ! اما هو ، فقد كان اكثر تواضعاً . كانت
لديه مشاريع لعامين ، وبعد ذلك ، سينتهي كل شيء . يجب ان يكون
الانسان متواضعاً . ومرّت سفينة شراعية فوق « النهر الازرق » فحزن
بوريس فجأة . انه لن يذهب ابداً الى الهند او الصين او المكسيك ،
حتى ولا الى برلين ، وان حياته لأشدّ تواضعاً مما يتمنى . بضعة اشهر
في انكلترا ، في لاون ، في بياريتز ، في باريس - وهناك من طافوا
حول العالم : امرأة واحدة . لقد كانت حياة صغيرة جداً ، وهي تبدو
الآن وكأنها قد انتهت بالفعل ، لأننا نعرف سلفاً كل ما لن نحوي عليه ،
يجب ان يكون المرء متواضعاً : ونهض ، فشرب جرعة روم وفكر :
هذا افضل ، ان المرء لا يتعرض للتبذير .

- قدح روم آخر ؛ يا معلم .

رفع رأسه ، وتأمل المصابيح الكهربائية في تدقيق . ودقت الساعة
نجاهه ، فوق المرأة ، وكان يرى وجهه في المرأة . وفكر : انها التاسعة
والخامسة والاربعون . وفكر : « عند الساعة العاشرة » ونادى الخادمة :

- واحد آخر .

فذهبت الخادمة وعادت بزجاجة الخمر مع صحن . وسكبت الخمر في قلدح فيليب ، ووضعت الصحن على الاقداح الثلاثة الاخرى . وكانت على شفيتها بسمة ساخرة ، ولكن فيليب نظر اليها محمداً في عينها بتبصر ، وتناول القلدح بحزم ورفع من غير ان ينثر منه قطرة ؛ وشرب جرعة ثم وضع القلدح من غير ان يغادر بعينه عيني الخادمة :

- كم ؟

فسأته : - اتريد ان تدفع ؟

- اريد ان ادفع فوراً .

- اذن ، اثنا عشر فرنكاً .

واعطاهما خمسة عشر فرنكاً وطردها بيده . وفكر : لست مديناً لأحد بشيء بعد . وضحك قليلاً ، خلف يده . وفكر . لست مديناً لأحد ابداً ! ورأى نفسه يضحك عبر المرأة ، فأضحكه ذلك . حين تنتهي آخر دقة من الدقات العشر ، سينهض ، ويتنزح مع المرأة صورته ، ويبدأ الاستشهاد . اما الآن ، فهو يشعر أنه يميل الى المرح ، وكان يتأمل الموقف كهوار . كان المقهى حفيماً ، وكان المدينة كابو ، وكان المقعد طرياً كعراش من ريش ، وكان غارقاً فيه ، وموسيقى ناعمة تأتيه من خلف المشرب ، وكذلك ضجة صحن نذكره باجراس البقر في ساليبورغ : كان يرى نفسه في المرأة ، وقد كان بوسعه ان يظل جالساً ينظر الى نفسه ويستمع الى هذه الموسيقى الى الأبد . عند الساعة العاشرة سينهض ويأخذ صورته بين يديه ، فينتزعها من المرأة كجلد ميت ، كقذى في عين . « مرايا الشلال ... »

شلالات النهار .

في مرايا الشلال .

او :

غار النهار شلالاً في مرآة الشلال .

او :

نياغارا النهار شلالاً في مرآة الشلال .

وسقطت الكلمات رماداً ، وتشبّث بالمرمر البارد . إن الريح تحملني ،
وكان في حلقه ذلك الطعم الحمري اللزج . الشهيد . ونظر الى نفسه
في المرآة ، وفكر بأنه كان ينظر الى الشهيد ؛ وبسم لنفسه وحيّاً نفسه .
الساعة العاشرة إلا عشر دقائق . وفكر في رضى : ها ! اني اجسد
الوقت طويلاً . خمس دقائق قد مضت ، وكأنها أبد . يبقى بعد أبدان ،
بلا حركة ، ولا تفكير ، وهو يتأمل وجه الشهيد الجميل الضامر ،
ثم يغور الزمن هادراً في سيارة ، في القطار ، حتى جنيف .

طمأينة الروح .

نياغارا الزمن .

نياغارا النهار .

في مرايا الشلال .

انا ذاهب في سيارة .

الى كوبروج ، الى بيراكت .

ومنها أكت ، ومنها أكت .

ومنها كاتاراكت^١

وضحك ، وكفّ عن الضحك ، ونظر فيما حوله ، وكان المقهى
يبعث رائحة المحطة ، والقطار والمستشفى ؛ وكانت به رغبة الى طلب
النجدة . سبع دقائق . وفكر : ما الذي سيكون أكثر ثورية؟ الذهاب
ام عدم الذهاب ؟ اذا ذهبت ، قُبت بالثورة ضد الآخرين ، واذا لم

(١) الكلمة الأخيرة تعني « الشلال » ، وواضح ان هنا تلاعباً على الالفاظ بالأصل الفرنسي

بمقصد السجع . (المترجم)

أذهب قت بها ضد نفسي ، وهذا اقوى . أكرن قد أعددت كل شيء .
سرت ، وحملت على تزوير الاوراق ، وقطعت جميع الصلات ، ثم
في آخر لحظة : مساء الخير ، اني غير ذاهب ! الحرية في درجتها
الثانية ؛ الحرية التي تنكر الحرية . وعند الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ،
قرر أن يُخضع ذهابه للعبة وجه الفللس او قفاه . وكان يرى بوضوح
ساعة محطة « دورساي » وهي مقفرة تسيل نوراً ، والسلم الذي يغور
تحت الأرض ، في دخان المحركات ، وكان في فمه مذاق دخان ؛
وتناول قطعة الاربعين فلساً . القفا أذهب ؛ وقذفها في الهواء ، قفا ،
أذهب ! قفا ، أذهب ! فسقطت قفا . وقال لصورته : اني اذن
أذهب ! لا لأني أكره الحرب ، ولا لأني أكره أسرتي ، ولا
لأنني قررت ان اذهب : وإنما بدافع الصدفة المحض ؛ لأن قطعة
نقود سقطت على وجه دون الوجه الآخر . وفكر : رائع ؛ إنني في
ذورة الحرية القصوى . الشهيد المجاني ؛ جبدا لورأتني أرمي الفللس
في الهواء ! دقيقة بعد . ضربة زهر ، دنغ ، أبدأ ؛ دنغ ، دنغ ،
ضربة ، دنغ ، زهر ، دنغ ، لا ، دنغ ، دنغ ، دنغ ، دنغ ، دنغ ،
دنغ ، الصدفة . دنغ ! ونهض ، وكان يمشي باستقامة ، وكان يضع
قدميه إحداهما وراء الأخرى ، وعلى حز من الارض الخشبية ، وكان
يشعر بنظر الخادمة على ظهره ، ولكنه لن يسمح لها بالضحك . ونادته:

— يا سيد !

فاستدار مرتجفاً ،

— صندوقك .

خراء ! واجتاز القاعة وهو يعدو ، فتناول صندوقه ، وأخذ يترنح .
وبلغ الباب على مشقة وسط الضحك ، وخرج فنادى سيارة تاكسي .
وكان يمسك صندوقه بيده اليسرى ، وكان يشد بيده اليمنى على قطعة
الاربعين فلساً . وتوقفت السيارة أمامه .

- الى أين ؟

وكان للسائق شارب ، وعلى خده تؤلؤل . وقال فيليب :

- شارع بيغال . الى « الكابان كوبيين » .

قال غوميز : - لقد خسرنا الحرب .

كان ماتيو يعرف ذلك ، ولكن كان يفكر بأن غوميز لم يكن يعرفه بعد . وكانت الجوقة تعزف « اني ابحت عن سالي » وكانت الصحنون تلمع تحت المصباح وضوء المكبرات يسقط على الحلبة كضوء قمر ممسوخ ، ضوء قمر - اعلاني من اجل هونولولو . وكان غوميز جالساً هنا ، وكان ضوء القمر يرقد الى يمينه ، والى يساره امرأة تبسم له نصف بسمة ، كان موشكاً على العودة الى اسبانيا ، وكان يعلم أن الجمهوريين خسروا الحرب . وقال ماتيو :

- انكم لا تستطيعون أن تكونوا واثقين من ذلك . لا يستطيع أحد أن يكون واثقاً .

قال غوميز : - بلى ، انا نحن واثقون من ذلك .

ولم يكن يبدو حزيناً : كل ما في الأمر أنه كان يُبدي ملاحظة .

وكان ينظر الى ماتيو نظرة هادئة متحررة وقال :

- ان جميع جنودي واثقون من أننا خسرنا الحرب .

فسأله ماتيو : - وهم مع ذلك يقاتلون ؟

- وماذا تريد ان يفعلوا ؟

وهزّ ماتيو كتفيه :

- طبعاً .

لاني آخذ قدحي ، وأشرب جرعتين من « شاتو مارغو » ويُقال لي : انهم يقاتلون حتى آخرهم ، فليس لهم بعد شيء آخر يفعلونه ، وأشرب جرعة من شاتو مارغو ، وأهزّ كتفي ، وأقول : طبعاً قلروا وسأل غوميز : - ما هذا ؟

قال الخادم : - انهما شريحتا رومبيني .
قال غوميز : - آه ، نعم ، هاتهما .
وتناول منه الصحن ووضع على الطاولة وقال :
- لا بأس ، لا بأس .

الشريحتان على الطاولة ، واحدة له والأخرى لي ، وله الحق في ان يتذوق قطعه ، وله الحق في ان يمزقها بأسنانه البيضاء الجميلة ، وله الحق بأن ينظر الى الفتاة الجميلة الى يساره وان يفكر : الشيطانة الجميلة !
أما أنا ، فلا : فاذا أكلت قفز الى حلقى مئة اسباني . اني لم ادفع .
قال غوميز : - اشرب . اشرب .
وتناول الزجاجاة فلأ قدح ماتيو . وقال ماتيو وهو يطلق ضحكة صغيرة :

- أنت الذي تدعوني الى ذلك راجياً :
وأخذ القدح فأفرغه . فاذا بالشريحة فجأة في صحنه . واخذ شوكة وسكيناً ، وتتم :

- فلو كانت اسبانيا هي التي تدعوني ...
فلم يبد على غوميز انه يسمعه . وكان قد سكب لنفسه قدحاً من « شانو مارغو » فشرب وابتسم ، وقال :
- اليوم شريحة ، وغداً حمص . انها الأمسية الأخيرة التي اقصيها في فرنسا : وهذا هو العشاء الوحيد اللذيذ الذي تناولته فيها ،
قال ماتيو : - كيف ، وفي مرصيليا ؟
قال غوميز : - ان ساره نباتية :

وكان ينظر باستقامة امامه ، وكان مظهره يُشعر بالود . وقال :
- حين ذهبت في مأذونيتي ، كان قد مضى على برشلونة ثلاثة اسابيع وهي بلا تبغ . فما رأيك بمدينة برمتها لا تدخن ؟
وأدار عينيه الى ماتيو ، وبدا فجأة وكأنه يراه ، واستعاد نظره

ملاءمة مزعجة ، وقال :

— ستعرف هذا كله .

قال ماتيو : — ليس ذلك أكيداً . لا يزال من الممكن تجنب الحرب ،

قال غوميز : — اوه ! طبعاً . من الممكن دائماً تجنب الحرب .

وضحك ضحكة قصيرة وأضاف :

— يكفي ان تتخلوا عن التشيكيين .

وفكر ماتيو : « كلا يا عزيزي ، كلا يا عزيزي ! ان بوسع الاسبان

ان يعطوني درساً بالنسبة لاسبانيا ، فهذا فرعهم . أما بالنسبة للروس

النشيكوسلوفاكية ، فاني اطلب تشيكياً . »

وسأل : — بصراحة ، يا غوميز ، هل يجب ان نساعدهم ؟ انه لم

يمض وقت طويل على مطالبة الشيوعيين بمنح ألمان السويد استقلالهم .

فسأل غوميز مقلداً ماتيو :

— هل يجب ان نساعدهم ؟ هل كان يجب ان تساعدونا ؟ هل

كان يجب ان تساعدوا النمساويين ؟ وأنتم ، من الذي سيساعدكم حين

يأتي دوركم ؟

قال ماتيو : — نحن غير واردين .

فقال غوميز : — بل انتم واردون . من هم الواردون ؟

وقال ماتيو : — كل شريحتك يا غوميز . انني افهم جيداً ماذا

تحتقروننا . ولكن هذه آخر أمسية من مأذونيتك ، واللحم يبرد في

صحنك ، هناك امرأة تبسم لك ، ثم انني بعد كل حساب كنت من

دعاة التدخل .

قال غوميز مبتسماً : — أعرف ، أعرف جيداً .

وقال ماتيو : — ثم اسمع : كان الوضع في اسبانيا واضحاً . ولكن

حين تحدثني عن تشيكوسلوفاكيا فاني لا أتابعك ، لأن الوضع هنا أشد .

غرضاً . هناك مسألة حقوقية لا اتوصل الى اللب فيها : فاذا يكون

الامر إذا لم يرد ألمان السويد ان يكونوا تشيكين ؟

قال غوميز وهو يهز كتفيه :

— دع المسائل الحقوقية . هل تبحثون عن سبب لخوضكم القتال ؟
ليس هناك الا سبب واحد : اذا لم تقاتلوا كنتم هالكين . ان ما يريد
هنر ليس هو براغ ولا فينا ولا دانتزيغ : وانما يريد اوروبا .
نظر دالاديه الى شميرلن ، ونظر الى هاليفاكس ، ثم صرف عينيه
لينظر الى ساعة مذهبة موضوعة على منضدة بهو ، وكان العقربان يشيران
الى العاشرة وخمس وثلاثين ؛ وتوقفت السيارة امام الكابان كوبين ،
وانقلب جورج على ظهره وأن قليلاً ، وكان شخير جاره يمنعه
من النوم .

قال دالاديه : — لا يسعني الا ان اكرر ما سبق ان صرحت به :
لقد أخذت الحكومة الفرنسية التزامات تجاه تشيكوسلوفاكيا : فاذا ظلت
حكومة براغ على رفضها للعروض الألمانية ، واذا اصبحت ، بنتيجة
هذا الرفض ، ضحية هجوم ، فان الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة
الى القيام بالتزاماتها .

وسعل ، ونظر الى شميرلن ، وانتظر .

قال شميرلن : — نعم . نعم : طبعاً :

وبدا مستعداً لاضافة بضع كلمات ، ولكن الكلمات لم تأت ، وكان
دالاديه ينتظر وهو يخط بطرف قدمه دوائر على السجادة . وانتهى به
الامر الى ان يرفع رأسه ويسأل بصوت متعب :

— ما عساه يكون موقف الحكومة البريطانية في هذه الحالة ؟

نهضت فرانس ومود ودوسيت ودوبي ، والقيين النحية . وحدث في
الصفوف الأولى تصفيق مائع ، ثم انسرب الجميع وسط ضجة كبيرة
للكراسي . وبحثت مود بنظرها عن بيار ، ولكنه كان قد اختفى ،
وانتفتت فرانس نحوها ، وكان خداهما ملتئمين ، فيما كانت تبتمس .

وقالت : - كانت أمسية ناجحة . أمسية ناجحة حقاً .
كانت الحرب هنا ، على الحلبة البيضاء ، كانت الاشراق الميت
لضوء القمر الاصطناعي ، والحموضة المزيفة للبوق المسدود ، وهذا
البرد على الخوان ، في رائحة الخمر الاحمر ، وهذه الشيخوخة الخفية في
ملامح غوميز . الحرب ، الموت ، الهزيمة . كان دالاديه ينظر الى
شمبرلن ، وكان يقرأ الحرب في عينيه ، وكان هاليفاكس ينظر الى
بونيه ، وكان بونيه ينظر الى دالاديه ، كانوا صامتين ، وكان ماتيو
ينظر الى الحرب في صحنه ، وفي مرقة الشريحة السوداء المعطحة .

- واذا خسرنا نحن ايضاً الحرب ؟

قال غوميز في خفة : - ستصبح اوروبا فاشية اذن . وليس هذا
اعداداً رديئاً للشيوعية .

- وما يكون مصيرك يا غوميز ؟

- أعتقد ان انصارهم سيقتلونني في كوخ ، أو أنسي اهرب الى
اميركا . فماذا في ذلك ؟ أكون قد عشت .

ونظر ماتيو الى غوميز في فضول ، وسأله :

- ولن تتحسر على شيء ؟

- اطلاقاً .

- حتى ولا على الرسم ؟

- حتى ولا على الرسم .

وهز ماتيو رأسه في حزن ، كان يجب لوحات غوميز ، وقال :

- كنت ترسم لوحات جميلة .

- لن أستطيع أبداً ان ارسم .

- لماذا ؟

- لا أدري . القضية جسيمة . لقد فقدت الصبر ، وسيدلو لي

ذلك مضجراً .

- ولكن الحرب تقتضي الصبر ايضاً :

- ليس هو الصبر نفسه ،

وصمتا . وأنى الخادم باقراص المعجنات على آنية من قصدير ، فرشها بالروم والخمر ثم أدنى من الآنية عوداً مشتعلًا . وتراجع طيف من لهب ذات لحظة في الهواء :

وقال ماتيو فجأة : - غوميز ! انك ، انت ، قوي ، وانت تعرف لماذا تقاتل .

- أنعني انك لن تعرف ذلك انت ؟

- بلى . اعتقد اني سأعرفه . ولكني لم اكن اقصد نفسي . ان هناك اشخاصاً لا يملكون إلا حياتهم يا غوميز . وليس ثمة من يفعل شيئاً من اجلهم . ليس هناك اي شخص ، ولا اية حكومة ، ولا أي نظام . فاذا حلت الفاشية هنا محل الجمهورية فلن يلاحظوا ذلك . خذ راعياً من منطقة « سيفين » . اعتقد انه سيعرف لماذا هو يقاتل ؟

قال غوميز : - ان الرعاة عندنا أشد المقاتلين حماسة :

- لماذا يقاتلون ؟

- هذا يتوقف . لقد عرفت منهم من يقاتل لتعلم القراءة .

قال ماتيو : - أما في فرنسا ، فالجميع يعرفون القراءة . فاذا البقيت في فرقي راعياً من « سيفين » ورأيتة يموت الى جانبي ليحافظ على جمهوريتي وعلى حرياتني ، فاقسم لك بأني لن أكون فخوراً . اوه يا غوميز ، ألا تشعر احياناً بالحجل : جميع هؤلاء الذين ماتوا في سبيلك ؟ قال غوميز : - ان هذا لا يزعجني . فأنا أعرض حياتي مثلهم :

- ان الجنرالية يموتون في سرهم .

- لم اكن دائماً جنرالاً .

قال ماتيو : - مهما يكن من أمر ، فليست القضية متشابهة .

وقال غوميز : - انني لا أرثي لهم . ولا تأخذني عليهم الشفقة :

ومدّ يده فوق الخوان وقبض على معصم ماتيو ، وقال بصوت
منخفض بطيء :

- إن الحرب شيء جميل يا ماتيو ؟

وكان وجهه يشتعل : وحاول ماتيو ان يتخلّص ، ولكن غوميز شدّ
ذراعه بقوة وأضاف :

- احب الحرب ؟

ولم يكن ثمة بعد ما يُقال . وضحك ماتيو ضحكة قصيرة متزعجة
فترك غوميز يده . وقال ماتيو :

- لقد تركت تأثيراً قوياً على جارتنا .

والقى غوميز نظره الى يساره ، من بين جفونه الجميلة : وقال :

- أجل . يجب ضرب الحديد حامياً . أتكون هذه الحلبة للرقص ؟
- طبعاً :

ونهض غوميز وهو يزرر سترته : وتوجه الى المثلة ، فرآه ماتيو
ينحني فوقها . وارتدت برأسها الى الخلف ، ونظرت في ضحكة
مدروسة ، ثم ابتعدا واخذا يرقصان ، كانا يرقصان ؛ ولم تكن تشبه
الزنجيات قط ، ولا بد انها كانت من المارتينيك . كان فيليب يفكر :
« مارتينيكية » وكانت كلمة « مالابارية » هي التي طفرت على شفثيه
وتمتم :

- يا مالاباريّتي الجميلة .

فأجابت :

- انك ترقص جيداً .

وكان في صوتها موسيقى ناي صغيرة ، ولم يكن يخلو ذلك من
حذوبة . وقال :

- انت تتكلمين الفرنسية جيداً .

فتظرت اليه في غضب :

– لقد وُلدت في فرنسا .

قال : – لا بأس . انت مع ذلك تتكلمين الفرنسية جيداً .
وفكر : « انني سكران » ثم ضحك : وقالت له ، بلا غضب :
– انك سكران تماماً .

قال – نعم .

ولم يكن يشعر بعد بتعبه ، كان مستعداً للرقص حتى الصباح، ولكنه كان قد قرر ان ينام مع الزنجية ، وكان ذلك أرصن . ان ما هو ممتع حقاً في السكر ، هو هذه القدرة التي كان يمنحها على الاشياء ، فأنت لست بحاجة الى لمسها ، نظرة واحدة ، فاذا انت تمتلكها ، كان يملك ذلك الجبين ، وذلك الشعر الاسود ، وكان يداعب عينيه على هذا الوجه الاملس . اما أبعد من ذلك ، فقد كانت الرؤية مائعة ، كان ثمة ذلك السيد الضخم الذي كان يشرب الشمبانيا ، واشخاص آخرون يميل بعضهم على بعض فلا يميزهم جيداً . وكان الرقص قد انتهى ، فعادا الى الجلوس . وقالت :

– ما أبرعك في الرقص ! ولا بد انك ، وانت على هذا الجمال ،
قد عرفت نساء كثيرات !

قل فيليب : – بل انا بكر .

– كذاب !

ورفع يده :

– اقسم لك اني بكر . اقسم برأس امي !

قالت خائبة : – آه ؟ هذا يعني ان النساء لا يثرن اهتمامك .

قال : – لا ادري . يجب ان نجرب .

ونظر اليها ؛ فامتلكها بعينه ، وكثر وجهه وقال :

– انني اعتمد عليك .

فنفث دخان سيجارتها في وجهه :

- ستزين ما اعرف أن اعمله :
 وامسكها من شعرها فجذبها اليه ، وكانت تنبعث منها عن قرب
 بعض رائحة الشحم :
 وقبلها قبلة خفيفة في شفيتها : وقالت :
 - بكر ! سأربح الجائزة الكبرى :
 قال : - تريحين ؟ ان الانسان يخسر دائماً .
 ولم يكن يشتهبها على الاطلاق . ولكنه كان مسروراً لأنها كانت
 جميلة ولم تكن تخيفه .
 واستشر الرضى النام وفكر : « اني احسن محادثة النساء وتركها ،
 فلانصبت واقفة ، وسقط صندوق فيليب على الأرض ، فقال :
 - حذار ! انت سكرانة !
 فلمت الصندوق :
 - ماذا في داخله ؟
 - هس ! لا تلمسيه : انها حقيبة دبلوماسية :
 قالت وهي تقلد الأولاد : - اريد ان اعرف ما في داخله : يا
 حبيبي ، قل لي ما في داخله .
 واراد ان يتترع منها الصندوق ، ولكنها كانت قد فتحة . ورأت
 اللنامة وفرشاة الاسنان ، وحين اكتشفت ال « رامبو » قالت :
 - كتاب ؟ ما هذا ؟
 قال : - هذا ؟ انه شخص قد ذهب .
 - الى اين ؟
 قال : - ماذا يهمك من ذلك ؟ لقد ذهب :
 واستعاد الكتاب من يديها وأرجعه الى الصندوق ، وقال في سخرية :
 - انه شاعر . اترك فهمت الآن فهماً افضل ؟
 قالت : - طبعاً . كان ينبغي ان تقول ذلك من البدء .

وأغلق الصندوق ، وفكر : « لم أذهب » وسقط سُكره . « لماذا ؟
لماذا لم اذهب ؟ » وكان قد أصبح الآن يميّز جيداً للسيد الضخم ،
قبالته : لم يكن ضخماً الى الحدّ الذي تخيّلَه ، وكانت له عينان
خفيفتان . وانفردت العناقيد البشرية من تلقاء نفسها : كان ثمة نساء ،
سوداوات وبيضاوات ، ورجال ايضاً . وخيل اليه انهم كانوا ينظرون
اليه ملياً ، « لماذا انا هنا ؟ كيف تراني قد دخلت ؟ ولماذا لم اذهب ؟
كان في ذكرياته ثقب : كان قد رمى الفلّس في الهواء ، ونادى سيارة
تاكسي وها هوذا الآن : إنه جالس الى هذه الطاولة ، امام قده شبانياً ،
مع هذه الزنجية التي تنبعث منها رائحة صمغ السمك . كان ينظر الى
هذا الفيليب الذي كان يقذف الفلّس في الهواء ، وكان يحاول ان يسبر
غوره ، ويفكر : « انا واحد آخر » ، كان يفكر : « انني لا
اعرفني » وأدار رأسه نحو الزنجية .

وسألته : - لماذا تنظر الي ؟

- هكذا .

- هل تجدني جميلة ؟

- بين بين .

فلعلت ربقها واشتملت عيناها : ورفعت مؤخرتها بضعة بوصات فوق
المقعد فيما ضغطت بيديها الخوان :

- ان كنت تجدني قبيحة ، فيمكنني ان اذهب : فلسنا متزوجين :

وبحث في جيوبه فأخرج ثلاث اوراق مدعوكة من فئة الالف فرنك

وقال :

- خذي . خذيها واطي .

فأخذت الاوراق وفتحتها وملتستها ثم جلست وهي تضحك . وقالت :

- انك صبيّ وسخ . صبي صغير وسخ .

وكنّت قد انفجرت امامه هوة من الحجل : وما كان عليه الا ان

يتداعى للسقوط فيها ، انه مصفوع ، مضروب ، مطرود، ولم يذهب .
وكان ينحني فوق الثقب فيأخذه الدوار . كان العار ينتظره في القعر ،
وما كان عليه الا ان يختار ان يشعر بالعار. التعب ، العار ، الموت ،
اختيار الشعور بالعار . لماذا لم اذهب ؟ لماذا اخترت الا اذهب ؟ وخيل
اليه انه كان يحمل العالم علي كتفيه . وقالت له :

- لست اراك ثرثاراً .

فوضع اصبعه تحت ذقنها :

- ما اسمك ؟

- فلوسّي .

- ليس هو اسماً مالابارياً .

قالت في غيظ : - قلت لك اني ولدت في فرنسا .

- اسمعي يا فلوسّي : لقد اعطيتك ثلاث اوراق ، افلا تريدن ان
اتحدث اليك فوق ذلك ؟ فهزت كتفها وأدارت رأسها . وكان الثقب
الأسود ما يزال هناك ، وفي قعره العار . وكان ينظر اليه وينحني
فوقه ، ثم اذا به فجأة يفهم ، فيلوي القلق قلبه : ان هذا شرك ،
فاذا وقعت فيه ، كففت عن احتمال نفسي . الى الابد . ونهض ، وفكر
في قوة : « انما عدلت عن الذهاب لأنني كنت ثملاً » ثم انغلقت
الهاوية : لقد اختار : « انما عدلت عن الذهاب لأنني كنت ثملاً » .
لقد لامس العار عن كذب ، ولقد شعر بخوف مفرط : اما الآن فقد
اختار الا يحس بالعار ، الى الابد .

- تصوري انه كان علي ان استقل القطار . ولكنني كنت ثملاً جداً .

فقالت بلهجة طفولية : - مستنقله غداً .

فانتفض :

- لماذا تقولين لي ذلك ؟

فقالت مندحشة :

- ان من هفوت قطاراً ، يأخذ التالي .

قال وهو يقطب حاجبيه :

- اني لن اذهب . فقد غيرت رأيي . أتعرفين ما هي العلامة ؟
فرددت : - العلامة ؟

- ان العالم مليء بالعلامات . فكل شيء علامة . وينبغي ان نعرف

فكّ ألغازها . يكون عليك ان تذهبي ، فتشملين ولا تذهبين بعد :
لماذا لم تذهبي ؟ ذلك انه وجب عليك الا تذهبي . تلك علامة : إن
عندك هنا عملاً أفضل تقومين به :
وهزت رأسها وقالت :

- هذا صحيح . صحيح جداً ما تقوله .

عمل أفضل . جمع الباستيل ، ينبغي القيام بالدليل أمامه . في مكانه .
ينبغي ان أمزق نفسي حيث انا . اورفيه . « لتسقط الحرب ! » من
ذا الذي يستطيع ان يقول اني جبان ؟ سأريق دمي من اجلهم جميعاً ،
من اجل موريس وزيزيت ، من اجل بيتو ، ومن اجل الجنرال ، ومن
اجل جميع الناس الذين ستمزقني أظفارهم : والتفت الى الزنجية فنظر
اليها بحنان : ليلة ، ليلة واحدة . ليأتي الغرامية الاولى . ليأتي الاخيرة .
- انك جميلة يا فاوستي .
فبسمت له :

- تستطيع ان تكون لطيفاً حين تشاء .

قال لها : - تعالي لرقص . سأكون لطيفاً حتى صباح الديك :
كانا يرقصان . كان ماتيو ينظر الى غوميز ، وكان يفكر : « ليته
الاخيرة » ثم يبتسم ، كانت الزنجية تحب الرقص ، وكانت تغمض
عينها نصف اغماضة ؛ وكان فيليب يرقص ، ويفكر : « ليأتي الاخيرة »
ليأتي الغرامية الاولى . « ولم يكن يشعر بعد بالعار ؛ كان تعباً ، وكان
الحر شديداً ، غداً سأريق دمي من اجل السلام . ولكن الفجر كان ملء

يزال بعيداً . كان يرقص ، وكان يستشعر الرضى والتبرير ، ووجد نفسه خيالياً . انزلت الاضواء على طول الجدار ، وكان الفطار يتمهل ، صرير ، هزات ، وتوقف ، ولطخ النور الحافلة ، فطرف شارل بعينه بوترك يد كاترين ، وصاحت المريضة :

— لاروش ميجين . لقد وصلنا :

قال شارل : — لاروش ميجين ؟ ولكننا لم نمر بياريس ؟

قالت كاترين : — لقد ضللونا :

وصاحت المريضة : — اجمعوا حوائجكم . سوف يتزلونكم :

وكان بلائشار قد استيقظ متفضأ ، فقال :

— ماذا ، ماذا ؟ اين نحن ؟

فلم يجب أحد ، وأوضحت المريضة :

— سنستقل القطار مرة اخرى غداً . سنقضي الليل هنا .

قالت كاترين وهي تضحك :

— ان عيني تؤلانني . بسبب هذا النور .

فأدار رأسه نحوها ، وكانت تضحك وهي تغمي عينيها بيدها :

وكانت المريضة تصرخ :

— اجمعوا حوائجكم ، اجمعوا حوائجكم .

وانحنت على رجل أصلع كانت جمجمته تلمع :

— هل انتهيت ؟

قال الرجل : — دقيقة ! يا للشيطان !

قالت : — عجل . سوف يصل الجمالون .

قال : — هيا ، هيا ، تستطيعين ان تأخذيها ، لقد قطعت لي

اللقابلية !

فنهضت ، وكانت تحمل الطست على مدى ذراعيها ، وتخطت اجساماً

مفانجهت نحو الباب .

قال شارل : - انا هنا هادئون . ربما كانوا دزينة من الرجال ،
وهنا عشرون حافلة ينبغي إفراغها . فحتى يصلوا الينا ...
- الا اذا بدأوا بالذكَب .

ووضع شارل معصمه امام عينيه :

- اين تراهم سيضعوننا ؟ في قاعات الانتظار ؟

- اتصور ذلك .

- يزعجني قليلا ان اترك هذه الحافلة . لقد اقيمت فيها ركني . وانت ؟

فقال لها : - يكفيني انا ان اكون معك ...

وصاح بلانشار : - ها هم اولاء .

ودخل رجال الى الحافلة . وبدوا سوداً لانهم كانوا يولون النور
ظهرهم ، وقد ارتسمت ظلالهم على الجدار ، فكأنا كانوا يدخلون من
الجهتين في وقت واحد . وساد الصمت ، فقالت كاترين بصوت منخفض :

- قلت لك انهم سيبدأون بنا .

فلم يجب شارل . ورأى رجلين ينحنيان فوق مريض ، فانقبض قلبه ،
كان جاك نائماً ، وكان أنفه يغني . ولم تكن تستطيع النوم ، انها لن
تنام قبل ان يعود ، ورأى شارل امام قدميه تماماً ظلاً ضخماً ينحني ، انهم
ينقلون الرفيق الأمامي ، وبعد ذلك يأتي دوري ، والليل ، والدخان ،
والبرد ، والاهتزاز ، والمحطات المقفرة ، كان خائفاً . وكان تحت
الباب شعاع من نور ، وسمعت ضجة في الطابق الارضي . ها هوذا
وعرفت مشيته في السلم ، فهبط السلام في اعماقها : انه هنا ، تحت
سقفنا ، اني املكه . ليلة اخرى . الاخيرة . وفتح ماتيو الباب ، ثم
اغلقه ، وفتح النافذة فأغلق المصاريع ، وسمعت الماء يجري . سوف ينام ،
في الطرف المقابل لهذا الجدار ، تحت سقفنا .

قال شارل : - هذا دوري . قولي لهم ان يتفكروا فوراً بعدي .
وشد بقرة على يدها ، بينما كان الرجلان ينحنيان عليه فينتقي في

موجهه نفساً خرباً .

قال الرجل : - هان ! خلفه .

وأخذه الخوف فجأة فحرك مرآته بينما كانا يحملانه ، وكان يريد ان يرى اذا كانت تتبعه . ولكنه لم يلحظ الا كسفي الحمال ورأسه الشبيه برأس طير الليل .

وصرخ : - كاترين .

فلم يلق اي جواب . وكان يتأرجح فوق العتبة ، وكان الرجل يصدر «الوامر خلفه ، وانخفض ساقاه فحسب انه يسقط ، وقال :

- على مهل ، على مهل .

ولكنه كان قد بدأ يرى للنجوم في السماء السوداء ، وكان الطقس بارداً .

وسأل : - هل هي تتبعني ؟

فسأله الرجل ذو الرأس العصفوري :

- من هي ؟

- جارتني . انها صديقة .

قال الرجل : - سنهت بالنساء فيما بعد . ولن نضعكم في مكان واحد .

فأخذ شارل يرتجف ، وقال :

- ولكنني كنت أظن ...

- ولكنكم لا تريدون على اي حال ان يبئس امامكم ؟

قال شارل : - كنت اظن .. كنت أظن ...

وأمرته يده على جبينه وجعل فجأة يهدر :

- كاترين ! كاترين ! كاترين !

وكان يتأرجح على اذرعتهما ، وكان يرى النجوم ، وكان مصباح

ينبثق في عينيه ، ثم للنجوم ، ثم مصباح ، وكان يصيح :

- كاترين ! كاترين !

قال الحمّال الخلفي : - ان هذا مجنون ! هل تراك ستخرس ؟

فقال شارل بصوت تخنقه الدموع :

- ولكني لا اعرف حتى اسمها . سوف أفقدها الى الابد .

ووضعاها على الارض ، ثم فتحا باباً ، وحلاه من جديد ، فرأى
سقفاً أصفر كثيباً ، وسمع الباب ينغلق ، ووقع في الشرك . وقال بينما
كانوا يضعونه ارضاً :

- قدرون ! قدرون !

فقال الرجل صاحب الرأس العصفوري :

- ولكن ، اسمع انت !

قال الآخر : - دعّه . فانت ترى انه يشتغل من قبعتة .

وسمع خطاهما تتلاشى ، وانفتح الباب ثم انغلق . وقال صوت

بلائشار :

- عجباً ، كيف نلتقي من جديد .

وفي اللحظة نفسها ، تلتقى شارل دفقةً من ماء في وجهه ، ولكنه
حمت ، وظلّ جامداً ، كالميت ، ينظر الى السقف ، وعيناه مفتوحتان
على سعتها ، بينما كان الماء يسيل في اذنيه وعلى عنقه . لم تكن تريد
ان تنام ، وظلت جامدة على ظهرها ، في الغرفة المظلمة ؛ انه ينام ،
ولن يلبث طويلاً حتى يستغرق في النوم ، فأحرسه أنا . انه قوي ،
انه نقي ، وقد علم هذا الصباح انه ذاهب الى الحرب ، فلم يرتعش
حتى جفناه . اما الآن ، فهو منزوع السلاح ؛ سوف ينام ، وهذه
هي الليلة الاخيرة . وفكرت : آه ، كم هو خيالي .

كانت غرفة معطرة دافئة ، ذات اضواء اطلسية وازهار في كل
مكان . قالت :

- ادخل .

فدخل غوميز ، ونظر فيما حوله ، فرأى دميةً على ديوان وفكر في

« توريول » . لقد سبق له ان نام في غرفة شبيهة كل الشبه ، ذات مصابيح ودمى وازهار ، ولكن بلا عطر ولا سقف . وكان في وسط الارض الخشبية ثقب »

— لماذا تبسم ؟

فقال : — هذا مكان لطيف .

واقربت منه :

— اذا كانت الغرفة تعجبك ، فبإمكانك ان تعود اليها متى شئت »

قال غوميز : — اني ذاهب غداً .

قالت : — غداً ؟ واين انت ذاهب ؟

وكانت تنظر اليه بعينيها الجميلتين اللتين لا تعبر فيهما :

— الى اسبانيا ..

— الى اسبانيا ؟ انك اذن ...

قال : — نعم ، انا جندي في مأذونية »

وسألته : — ومع ايّ جانب انت ؟

— مع ايّ جانب تريد ان اكون ؟

— مع جانب فرانكو ؟

— طبعاً !

فأحاطت عنقه بذراعيها :

— يا جنديّ الجميل !

وكان لها نَفَسٌ لذيذٌ ، فقبّلها ، وقالت :

— ليلة واحدة : ليس هذا بالكبير . التقيت اخيراً برجل يروق لي !

قال : — سوف اعود ، حين يكون فرانكو قد ربح الحرب ...

وقبّله مرة اخرى ثم تخلّصت بلطف :

— انتظرني . ان على الطاولة زجاجتي « جن » وويسكي »

وفتحت باب غرفة التواليت واختفت » وذهب غوميز الى الطاولة

فلاً قدحاً من الجن : كانت الشاحنات تجري ، وكان الزجاج يهتز ، وافاقت ساره منتفضة ، فجلست على السرير ، وهي تتساءل : « ولكن كم يبلغ عددها ، انها لا تكاد تنتهي » . شاحنات ثقيلة ، سبق ان طليت للتضليل ، وعلى ظهرها أغطية رمادية وخطوط خضراء وسمرراء ، ولا بدّ انها ملأى بالجنود والاسلحة : وفكرت : « انها الحرب » وأخذت تبكي . « كاترين ! كاترين ! » لقد بقيت عامين ، وهي جافة العينين ، وحين صعد غوميز الى القطار ، لم تجد دمة واحدة . اما الآن ، فان الدمع يسيل . « كاترين ! » كانت الغصّات تهزها ، فارتمت على الوسادة ، وكانت تبكي وهي تعضها حتى لا توقظ الصغير ، وشرب غوميز جرعة جن فوجده لذيداً . وخطا بضع خطوات في الغرفة ثم جلس على الديوان . وكان يمسك قدحه بيد ، وباليد الاخرى قبض على الدمية من رقبته وأجلسها على ركبته : وكان يسمع ماء صنوبر يجري في غرفة التواليت ، فكانت عذوبة معهودة تصعد في خاصرته ، كيديين ملساوين . كان سعيداً ، وشرب ، وفكر : « اني قوي » . وكانت الشاحنات تجري ، والزجاج يهتز ، وماء الصنوبر يجري ، وغوميز يفكر : « اني قوي ، وانا احب الحياة ، واخاطر بحياتي ، وانتظر الموت غداً ، وفي هذه الساعة ، ولا أخشاه ، احب الترف ، وسوف اجده اليأس والجوع : اعرف ما اريد ، اعرف لماذا اقاتل ، أمر فأطاع ، زهدت في كل شيء ، في الرسم والمجد ، وانني لسعيد » . وفكر في ماتيو وقال في نفسه : « اني لا اودّ ان اكون في جلده » . وفتحت الباب ، وكانت حارية في ثوبها الوردي وقالت :

— مانذي .

قالت : — هكذا إذن ! آه ! خراء إذن !
وكانت قد قفبت نصف ساعة في غرفة التواليت وهي تغتسل وتعطر ، لأن البيض لم يكونوا يحبون رائحتها دائماً ، واقتربت منه مبتسمة مفتوحة .

الذراعين ، وكان يتام عارياً في السرير ، ورأسه غارق في الوسادة .
فأخذته من كتفه وهزته بغضب ، وقالت بصوت مصفّر :
- أتريد ان تستيقظ ، ايها الوسخ الصغير ، اتريد ان تستيقظ ؟
وفتح اجفانه ونظر اليها بعينه المبهتين . وضع القدح على الرف ،
والدمية على الديوان . فنهض على غير عجل وأخذها بين ذراعيه . وكان
سعيداً .

سأل غرولويس : - هل تستطيع ان تقرأ هذا ؟
فدفعه العامل : - هذه هي المرة الثالثة التي تطرح عليّ فيها السؤال .
قلت لك انك ذاهب الى مونبلييه .
- وأين هو قطار مونبلييه ؟
- انه يتحرك في الساعة الرابعة صباحاً ، وهو لم يصل .
فنظر اليه غرولويس في قلق :
- ما الذي ينبغي ان عمله إذن ؟
- التصق بقاعة الانتظار ، وخذ لك غرفة حتى الساعة الرابعة . هل
مهلك تذكرتك ؟

قال غرولويس : - لا .
- اذهب اذن فاقطعها : لا ، ليس من هنا ! آه ! ايّ حمار
صغير : بل عند النافذة يا مجنون .
فأجبه غرولويس الى النافذة : وكان ثمة موظف ذو نظارات يغفو
خلف الزجاج . قال غرولويس :
- هيه !

فانتفض الموظف : وقال غرولويس :
- اني ذاهب الى مونبلييه .
وكان يبدو الاندهاش على الموظف ، ولا ريب في انه لم يكن قد
أفاق تماماً . ومع ذلك ، فقد انتاب روح غرولويس شك جديد :

- هل هي مونبلييه المكتوبة هنا ؟
وأراه دفتره العسكري . فقال الموظف :
— مونبلييه . ربع محل . خمسة عشر فرنكاً .
غداً غرولويس المئة فرنك التي أعطته لإياها المرأة ، وقال :
— والآن ، ما الذي ينبغي ان عمله ؟
— اذهب الى قاعة الانتظار .
— في اية ساعة يسير القطار ؟
— في الساعة الرابعة . الا تعرف القراءة ؟
قال غرولويس : — لا .
وتردد في الذهاب وسأل :
— أصحيح ان الحرب مستقع ؟
فهزّ الموظف كتفيه :

— ما الذي يدريني ؟ ان هذا غير مكتوب في الدليل ، أليس كذلك ؟
ونفض وانجه نحو داخل الغرفة ، وكان يتظاهر بأنه يراجع اوراقاً ،
ولكنه لم يلبث بعد لحظة ان جلس ، ووضع رأسه بين يديه وعاد الى
غفوته . ونظر غرولويس فيما حوله ، وكان يودّ لو يجد شخصاً يدلي
له بالمعلومات عن قصص الحرب هذه ، ولكن الساحة كانت مقفرة ،
فقال : « إذن سأذهب الى قاعة الانتظار ، وعبر الساحة وهو يجرّ
قدميه : كان ناعساً ، وكانت أليته تؤلمانه .
وأنّ فيليب : — دعيني انام .
قالت فلوسمي : — فيما بعد . بكر ! يجب ان تنتهي منها ، وسوف
يسعدني ذلك .

ودفع الباب فدخل القاعة ، وكانت ملأى بالناس الذين ينامون على
المقاعد وبالحنائب والرزم ملقاة على الارض . وكان النور حزيناً ، وكان
الباب الزجاجي ينفث في الداخل على ظلام . واقرب من مقعد فجلس

بين امرأتين . وكانت احدهما تعرق وتنام فاغرة الفم ، وكان العرق يسيل على وجنتيها ، فيخلف آثاراً وردية . اما الاخرى فقد فتحت عينيها ونظرت اليه ، فقال غرولويس شارحاً :

— لقد دُعيت الى الجنديّة ، ويجب ان اذهب الى مونبلييه .
فابتعدت المرأة بحموية ، ورمته بنظرة مليئة بالتوبيخ . وكرر غرولويس بانها لم تكن تحب الجنود ، ولكنه سألها مع ذلك :
— ترى هل ستقع الحرب ؟

فلم تجب : وكانت قد قلبت رأسها الى الوراء ، وعادت الى النوم ، وكان غرولويس يخشى ان ينام . وقال : « اذا نمت ، فلن استيقظ ابداً » . ومدّ ساقيه ، وكان يودّ لو يأكل شيئاً ما صغيراً ، خبزاً او مقانق مثلاً ؛ كان ما يزال معه مال ، ولكن الوقت كان ليلاً ، وجميع الحوانيت كانت مغلقة . وقال : « ولكن نحن في حرب مع من ؟ » لا ريب في ان ذلك كان مع الألمان . وربما كان هذا بسبب الأكراس واللورين . وكان ثمة جريدة ملقاة على الأرض ، عند قدميه ؛ فلمّا ثم فكر بالمرأة الطيبة التي ضمدت له رأسه وقال : كان ينبغي ألاّ أذهب . وقال : حسناً ، ولكن ابن كنت سأكون ، فليس معي مال بعد . وقال : اما في الثكنة فانهم يطعمونني . ولكنه لم يكن يجب الثكنات . ولا قاعات الانتظار . واحسّ دفعة واحدة انه كان حزيناً ومُفرغاً . لقد اسكروه وضربوه ، وها هم الآن يرسلونه الى مونبلييه ، وقال : يا ربي ! اني لا افهم شيئاً من ذلك . وقال : ذلك لأنني لا اعرف القراءة : وجميع هؤلاء الذين ينامون كانوا يعرفونها خيراً منه ؛ كانوا قد قرأوا الجريدة ، وكانوا يعرفون لماذا ستقع الحرب ، اما هو ، فقد كان وحيداً في الليل ، وحيداً وصغيراً ، لم يكن يعرف شيئاً ، ولم يكن يفهم شيئاً ، فكأنه كان قادماً على الموت . ثم انه أحسّ بالجريدة تحت أصابعه : كان ذلك مكتوباً هنا . لقد كتبوا كل

شيء : الحرب ، الطقس خدأ ، أسعار الحاجيات ، ساعات القطارات،
وفتح الجريدة ونظر ، فرأى الوفاً من اللطخات السوداء ، وكانت تشبه
ملفات الاراغن البربرية ، مع هذه الثقوب في الورق التي تحدث اصواتاً
حين يُدار المحرّك . ان من ينظر اليها طويلاً يصاب بالدوار . وكان
ثمة صورة ايضاً : رجل نظيف مسرّح الشعر يضحك . وترك الجريدة
تسقط ، وأخذ يبكي .

الاثنين ٢٦ ايلول

الساعة ١٦ر٣٠ . الجميع ينظرون الى السماء ، وانا انظر الى السماء ، وقال دومور : « انهم لم يتأخروا » . وقد اخرج آله التصويرية ، وهو ينظر الى السماء ، فيكز وجهه ، بسبب الشمس . وكانت الطائرة تارة سوداء ، وتارة ملتمعة ، وقد تضخمت ولكن هديرها ظل هو نفسه ، هدير جميل مليء يروق سماعه . وقلت : « لا تدفوني » . وكانوا جميعاً هنا ، يتدافعون خلفي . والفت : انهم يقبلون رؤوسهم الى الوراء ، فتكز وجوههم ، ويبدون خضراً تحت الشمس ، وتحرك اجسامهم حركات مبهمة كحركات الضفادع المقطعة الاوصال . وقال دومور : « سيأتي يوم نكون فيه هكذا مرفوعي الأنف في الهواء ، ونحن في معسكر ، غير اننا سنكون مرتدين الثوب الكاكي ، وستكون الطائرة من طراز مسرشميت » . فقلت : « لن يكون هذا غداً ، اذا تذكرنا جميع هذه البيضات الرخوة » ورسمت الطائرة دوائر في السماء ، وهبطت وهبطت واصطدمت بالارض ، وصعدت واصطدمت مرة اخرى ، ودرجت على العشب وهي تقفز ، وتوقفت . وركضنا نحو الطائرة ، ونحن خمسون ، وركض سارو امامنا منظوياً الى اثنين ، وهناك زهاء عشرة من السادة بطاياتهم يعدون على العشب وهم يلوون أقدامهم ، ويتجمد الجميع ، وتفقد الطائرة الروح ، فنظر اليها صامتين ، وباب

المقاعد ما يزال مقللاً ، فكأنهم جميعهم قد ماتوا في الداخل . وحل شخص في ثوب أزرق سلماً فأسنده الى الطائرة ، وانفتح الباب ، فنزل شخص على السلم ثم آخر ثم دلاديه . وبخفق قلبي في رأسي ، ويرفع دلاديه الكتفين ويخفض الرأس ؛ ويقرب منه سارو ، فأسمعه يقول :

— ماذا جرى ؟

فأخرج دلاديه يداً من جيبه وقام بحركة غامضة ، ويدلف وهو خافض الرأس فيرتمي عليه القطيع ويغطيه . ولا أنحرك ، فانا اعرف انه لن يقول شيئاً . ويقفز الجنرال غاملان من الطائرة . انه نشيط ، وهو ينتعل حذاء جميلاً ويحمل رأساً شبيهاً برأس كلب الحرامسة . وينظر امامه نظرة فتيحة قارصة .

وسأل سارو : — واذن ، ماذا يا جنرالي ؟ هل هي الحرب ؟

قال الجنرال : — إيه ، يا لآهبي .

وجفت فمي ؛ سأمت في ذلك ! وصرخت الى دومور : « انني أفرقع . اخذ صورك وحدك » . وعدوت الى باب الخروج ، وعدوت في الشارع وناديت سيارة تاكسي وقلت : « الى الاومانيتيه » فابتسم السائق ، وابتسمت له ، فقال :

— واذن ، ايها الرفيق ؟

فاجبته :

— انتهى الأمر ، انها في استهم هذه المرة ؛ ولم يستطيعوا ان

يتراجعوا .

وجرى التاكسي بأقصى سرعته ، وجعلت انظر الى البيوت والبساتين ان الناس لا يعرفون شيئاً ، وهم لا يتنبهون للتاكسي ، والتاكسي يجري بينهم بأقصى سرعة حاملاً شخصاً يعرف . وأضع رأسي على الباب ، وتأخذني الرغبة في ان أصبح بهم ان الأمر قد انتهى . واقفز

خارج التاكسي ، فأدفع وأرقي الدرج بسرعة شديدة . انهم كلهم هنا :
دوبريه ، شارفيل ، رونار وشابو . وهم بالقمصان ذات الأكمام القصيرة ،
رونار يدخن ، وشارفيل يكتب ، ودوبريه ينظر من النافذة . وينظرون
اليّ في دهشة . فأقول لهم :

— تعالوا ايها الرفاق ، انزلوا ، انها نوبتي .
ولا يكفون عن النظر اليّ ، ويرفع شارفيل رأسه فينظر اليّ ،
وأقول :

— انتهى الأمر ، انتهى الأمر ، انها الحرب ، انزلوا ، انها نوبتي ،
فانا ادفع ثمن الشراب .

قالت صاحبة الفندق : — ان لديك قبعة جميلة :

فقلت فلوسي : — أليس كذلك .

ونظرت في مرآة المدخل وقالت برضى :

— ان لها ريشاً .

قالت صاحبة الفندق : — اوه ، نعم (واضافت) ان لديك شخصاً ،

ولم تستطع ماديين ان تنظف الغرفة .

قالت فلوسي : — اعرف ذلك ، ولا بأس : سأنظفها انا نفسي .

ورقيت السلم فدفعت باب غرفتها . كانت المصاريع مغلقة ، وكانت

الغرفة تبعث رائحة الليل . وشدت فلوسي الباب على مهل وذهبت تدق

على الرقم ١٥ .

وقال صوت « زو » الأبح : — من هناك ؟

— انا فلوسي .

وانت زو تفتح وهي في سروالها القصير :

— ادخلي بسرعة .

فدخلت فلوسي : ورمت زو شعرها الى الراء ، وانزعت في وسط

للغرفة ، وشرعت تراكم نهدبها الضخمين في رافعة . وفكرت فلوسي بأن

- عليها ان تلحن إبطيها . وسألت :
- الآن فقط تنهضين ؟
- قالت زو : - لقد نمت في الساعة السادسة . فاذا هناك !
- قالت فلوسي : - تعالي لتري صاحبي العظيم .
- ماذا تحكين ايها الزنجية ؟
- تعالي لتري صاحبي العظيم .
- فارتدت زو معطفاً وتبعثها في المرر . وأدخلتها فلوسي الى الغرفة وهي تضع إصبعاً على شفيتها . وقالت زو :
- اني لا ارى شيئاً .
- فدفعتها فلوسي نحو السرير وهمست :
- انظري .
- وانحنتا كلتاهما ، وأخذت زو تضحك بصمت ، وقالت :
- طز ! طز ! انه طفل .
- اسمه فيليب .
- كم هو جميل !
- وكان فيليب نائماً على ظهره ، وكان يبدو كأنه ملاك . وكانت فلوسي تنظر اليه في مزيج من الافتتان والحقد . وقالت زو :
- انه اشد شقرة مني .
- قالت فلوسي : - هو بكر .
- فنظرت اليها زو وهي تضحك بدقة :
- كان .
- ماذا ؟
- تقولين : هو بكر . فأقول لك : كان بكرأ .
- آه ! آه ! نعم ، ولكن ، اظن انه بقي كذلك .
- بلا مزاح !

قالت فلوسي بجفاء : - انه ينام هكذا منذ الساعة الثانية صباحاً ،
وفتح فيليب عينيه ، فنظر الى المرأتين اللتين كانتا منحنيين فوقه ،
وقال : « هو ! » ثم انقلب على بطنه . وقالت فلوسي .
- انظري .

ونزعت الغطاء ، فبدا الجسم ابيض حارياً . وأدارت زو عينها في
محجرتها وقالت :

- ميام ! ميام ! غطيه ، والا ارتكبتُ الحماقات الجنونية .
وأمرت فلوسي يداً خفيفة على خاصرتي الصغير الضيقتين ، وعلى
إلتيه الفتيتين الدقيقتين ، ثم ردت الغطاء وهي تتهدد .

قال السيد بيرنانشاتز : - اعطني واحد « نوايبي - كامبي »
وتداعي للسقوط على المقعد وهو يمسح جبهته . وكان يستطيع ان يراقب
عبر مرايا الباب مدخل مكتبه . وسأل « نو » :
- ماذا تأخذ ؟

فقال « نو » : - الشيء نفسه :

وكان الخادم يبتعد ، فناداه « نو » :

- اجلب لي « الافورماسيون » :

وتبادلا النظر في صمت ، ثم رفع نو ذراعه فجأة في الهواء وقال :

- اي ! اي ! اي ! اي ! يا عزيزي بيرنانشاتز !

قال السيد بيرنانشاتز : - نعم .

وملاً الخادم قدحها ومدّ الجريدة الى نو . ونظر الى بيان أسعار

اليوم ، فكزّ وجهه ووضع الجريدة على الطاولة قتلاً :

- سيء .

- طبعاً . ماذا تريد ان يصنعوا ؟ انهم ينتظرون خطاب هتلر ؟

واجال السيد بيرنانشاتز نظرة شرمة على الجدران والمرايا . وكان

في المادة يجب هذا المقهى الصغير الناعم ؛ اما اليوم ، فقد كان يغيظه

الا يكون فيه على رضى . واستطرد قائلاً :

— ليس ثمة بعد الا الانتظار . لقد فعل دلاديه ما في استطاعته .
وفعل شميرلن ما في استطاعته ، وليس ثمة بعد الا الانتظار الآن .
سوف نتعشى بلا قابلية ، ومنذ الساعة الثامنة والنصف ، سندير مفتاح
الراديو لنسمع هذا الخطاب (واضاف فجأة وهو يضرب الطاولة) .
نتنظر ماذا ؟ أهواء رجل واحد . رجل واحد . ان الاعمال في كساد ،
والبورصة هابطة ، ووكلائي مقاوبدو الرؤوس ، وقد جُنْدَمَ « سي »
المسكين : كل ذلك بسبب رجل واحد ، فالحرب والسلم هما بين يديه .
ان ذلك يجعلني أخجل من أجل الانسانية .

نهض برونيه ، فنظرت اليه السيدة سامبوليه ، وكان يروقها قليلاً :
فلا بدّ انه يضاجع جيداً ، بهدوء وصمم ، وبطاء قروي ، وسألته :
— ألا تبقى ؟ سوف تتعشى معي .

واشارت الى جهاز الراديو وأضافت :

— سأقدم لك كمهضمّ خطاب هتلر .

قال برونيه : — ان لديّ موعداً في الساعة السابعة . ثم بكل صراحة :

طرز بخطاب هتلر .

فنظرت اليه السيدة سامبوليه من غير ان تفهم . قال برونيه :

— اذا ارادت المانيا الرأسمالية ان تعيش ، فهي بحاجة الى جميع

الاسواق الاوروبية . فيجب اذن ان تزيل بالقوة جميع منافسها الصناعيين .

(واضاف بحزم) ان على المانيا ان تخوض الحرب ، وعليها ان تخسرها .

فلو قتل هتلر عام ١٩١٤ لكننا تماماً حيث نحن الآن .

قالت السيدة سامبوليه وحلقها منقبض :

— هذه القضية التشيكية ليست اذن خدعة ؟

قال برونيه : — ربما كانت خدعة في رأس هتلر . ولكن ما في

رأس هتلر لا اهمية له على الإطلاق .

وأكد بيرنانشاتز : - انه ما يزال يستطيع ان يمنعها . اذا اراد ،
استطاع منعها . فجميع الوسائل في يده : ان انكثرا لا تريد الحرب ،
وامر كما أبعد مما ينبغي ، وبولونيا تمشي معها ؛ فلو اراد ، أصبح
غداً سيد العالم ومن غير ان يطلق طلقة مدفع واحدة. لقد قبل النشيكيون
المشروع الفرنسي - الانكليزي ، فليس له الا ان يقبله هو ايضاً، فإذا
أعطى دليل الاعتدال هذا ...

قال برونيه : - انه لا يستطيع بعد ان يتراجع . والمانيا كلها من
ورائه تدفعه .

قالت السيدة سامبوليه : - ولكننا نستطيع نحن ان نتراجع .
فنظر اليها برونيه وأخذ يضحك ، ثم قال :
- آه ، صحيح ، نسيت انك مسألة .
وقلب نو العلية فسقطت قطع الدومينو على الطاولة ، وقال :
- اي ! اي ! اني اخاف اعتدال هتلر . هل تتصور النفوذ الذي
سيكسبه إتيه ذلك ؟

وكان قد انحنى على السيد بيرنانشاتز واخذ يهمس في اذنه . فابتعد
السيد بيرنانشاتز في انزعاج : ان نو لم يكن يستطيع ان يقول ثلاث
كلمات من غير ان يهمس بهيئة متأمر ، بينما تكون يدها تطيران في الجو .
- اذا قبل المشروع الفرنسي - الانكليزي ، فان دوريو سيتسلم
الحكم بعد ثلاثة أشهر .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يهز كتفيه : - دوريو ...

- دوريو او سواه .

- وبعد ذلك ؟

قال نو وهو يخفض صوته : - ونحن ؟

فنظر السيد بيرنانشاتز الى فم الأليم الضخم وأحس بان الغضب كان
يجر اذنيه ، فقال بجفاء :

— كل شيء خيرٌ من الحرب .

— اعطني الرسالة ، فان الصغيرة ستضعها في البريد .

فوضع الظرف على الطاولة بين آنية ووهاء من القصدير : الآنسة ايفيش سرخين ، ١٢ شارع الميجيسيري ، لاون . وألقت اوديت نظرة على العنوان ، ولكنها لم تعلق اي تعليق ، وكانت تنتهي من عقد خيط حول رزمة كبيرة .

قالت : — نا ! نا ! نا ! سأنتهي ، فلا تفقد صبرك .

كان المطبخ ابيض نظيفاً ، دار تمريرى . وكانت تنبعث منه رائحة الصمغ والبحر .

قالت اوديت : — لقد وضعت جناحي دجاجة ، وبعض الجليليه ، لأنك تحبه ، ثم بعض قطع من الخبز وسندويش الخبزير الئى . وفي زجاجة الترموس خمر . وليس عليك الا ان تحتفظ بها ، فهي سوف تنفعك هناك .

وبحث عن نظرها، ولكنها أخفضت عينها على الرزمة وبدأت منهمكة . وركضت الى الخزانة ، فقطعت طرفاً طويلاً من خيط وعادت الى رزمتها . وهي تعدو .

قال ماتيو : — انها مربوطة جيداً :

وأخذت الخادمة الصغيرة تضحك ، ولكن اوديت لم تجب . ووضعت الخيط في فمها ، فأمسكته وهي تقرص شفيتها ، وقلبت الرزمة بحفة على ظهرها . وملاأت رائحة الصمغ فجأة منخري ماتيو ، ونجبل اليه للمرة الاولى منذ امسى الاول ان شيئاً ما كان حوله وسوف يسعه ان يتحسّر عليه . كان سلام هذا الأصيل في المطبخ ، وهذه الاعمال المنزلية الهادئة ، وهذه الشمس التي تصفح الستارة والتي تسقط فتاتاً على البلاط ، وراء هذا كله ربما كانت طفولته ، ولوناً من الحياة الهادئة الناشطة رفضه مرقة والى الأبد .

قالت اوديت : - ضع اصبعك هنا .
فاقترب وانحنى فوق رقبتها ، وضغط اصبعه على الخيط . وود ان
يقول لها بعض كلمات رقيقة ، ولكن صوت اوديت لم يكن يدعو الى
الرقة . ورفعت عينيها عليه :

- هل تريد بيضاً مسلوفاً ؟ بوسعك ان تضعه في جيبك .
وكانت تشبه فتاة صبية . انه لن يتحسّر عليها . ربما لأنها كانت
زوجة جاك . وفكر في انه سينسى سريعاً هذا الوجه المتواضع الى ذلك
الحد . ولكنه كان يود لو ان ذهابه يحدث لديها بعض الأسف . وقال :
- لا ، اشكرك . لا اريد بيضاً مسلوفاً .
فوضعت له الرزمة تحت ذراعه وقالت :

- هكذا . رزمة جميلة .

وقال لها :

- إصحبيني الى المحطة .

فهزّت رأسها نفيّاً :

- كلا . ان جاك هو الذي يصحبك . واهتمد انه يفضل ان يبقى
بوحده معك ، للدقائق الاخيرة .

قال : - اذن وداعاً . هل ستكتبين لي ؟

- ان ذلك سيخجلني . فانا اكتب رسائل فتاة صغيرة ، ملأى
ببلاخطاء الإملائية . كلا ، بل سأبعث لك برزم .

قال : - اود لو تكتبين لي .

- اذن ، بين الفترة والفترة ، ستجد كلمة صغيره بين حلبة السردين
ورزمة الصابون .

ومد لها يده فصافحته بسرعة . وكانت لها يد ملتصقة جافة . وكان
يفكر بغموض : « ان هذا مؤسف » لقد سالت الأصابع الطويلة بين
أصابعه كرمل حار . وابتسم وخرج من المطبخ . وكان جاك راكماً

في الصالون امام آلة الراديو يحرك ازرارها ؛ واذ كان يقرب من غرفته ، سمع خلفه ضجة خفيفة فالتفت : فاذا هي اوديت . كانت واقفة على آخر درجة ، وكانت تنظر اليه وهي منمقعة ، وقال :
- اوديت .

فلم تجب ، وظلت تنظر اليه نظرة قاسية . وأحس بالضيق ، فنقل الرزمة الى ذراعه اليسرى ليتهالك نفسه وردد :
- اوديت .

فاقربت منه ، فرأى لها وجهاً نبويًا واضحاً لم يكن يعرفه . وقالت :
- وداعاً .

وكانت قريبة منه كل القرب . وأغمضت عينيها ، ثم وضعت شفتيها فجأة على شفتيه . وتحرك ليأخذها بين ذراعيه ولكنها افلتت منه ، وسرعان ما استعادت هيئتها المتواضعة ، فهبطت السلم من غير ان تلوي عليه .

ودخل غرفته فوضع الرزمة في حقيبتيه . وكانت ملأى حتى انه اضطر الى الركوع على قفلها ليغلقها .

قال فيليب : - ما هذا ؟

كان قد استنقاصاً منتفضاً ، وهو ينظر الى فلوسي في رعب ، فقال :
- هذه انا ، يا طفلي الصغير .

فتداعى للسقوط الى خلف وهو يرفع يده الى جبينه . وأن قائلاً :
- ان بي صداعاً .

ففتحت درج طاولة الليل وأخرجت انبوب اسبرين ؛ وفتح درج الطاولة ، فأخرج منها قديماً وزجاجة « برنو » ووضعها على المكتب الرئيسي واسترخى في أريكته . وكان محرك الطائرة ما زال يدور في رأسه ؛ وكان لديه ربع ساعة ، ربع ساعة بالضبط ، ليسترد هدوءه ؛ وسكب برنو في القديح وتناول ابريق ماء على الطاولة فقلبه فوق القديح .

وكان السائل يتحرك ويتخذ لوناً فضياً في موجات متلاحقة : ونزع عقب
سيجارتته عن شفته السفلى ورماها في سلة الاوراق . لقد فعلت كل ما
في استطاعتي . وكان يستشعر الفراغ . وفكر : « فرنسا ... فرنسا ... »
وشرب جرعة من البرنو . لقد فعلت كل ما في استطاعتي ؛ والكلمة
الآن لهتلر . وشرب جرعة من البرنو وطقطق لسانه ، وفكر : « ان
وضع فرنسا محدد بوضوح » . وفكر : « وليس لي الآن الا ان
انتظر » . وكان مجهداً ، ومدّ ساقيه تحت المكتب وفكر في نوع من
الرضى : « ليس امامي الا ان انتظر » كجميع الناس . لقد لعبت
اللعبة . وكان قد قال : « اذا انتهكت الحدود التشيكية ، فان فرنسا
ستقوم بالتزاماتها » . وكان شميرلن قد اجاب : « اذا كان من نتيجة
هذه الالتزامات ان تجد للقوات الفرنسية نفسها منخرطة تماماً في العمليات
الحربية ضد المانيا ، فسوف نشعر بواجب مساعدتها » .

وتقدم السير نيفل هندرسون ، وكان السير هوراس ويلسون واقفاً
خلفه باستقامة ، ومدّ السير نيفل هندرسون الرسالة الى مستشار الريخ ؛
فتناول مستشار الريخ الرسالة من يديه وأخذ يقرأها ؛ وحين انتهى
مستشار الريخ سأل السير نيفل هندرسون :

— أهذه هي رسالة السيد تشمبرلن ؟

وشرب دلاديه جرعة برنو ، وتنهّد ، واجاب السير نيفل هندرسون

بحزم :

— نعم ، هذه هي رسالة السيد تشمبرلن .

ونفض دلاديه وذهب يضع زجاجة البرنو في درج الطاولة ؛ وقال
مستشار الريخ بصوته الأبح :

— تستطيع ان تعتبر خطابي هذا المساء جواباً على رسالة السيد

شميرلن ؟

وكان دلاديه يفكر : « اي فرج ! اي فرج ! ما الذي سيقوله ؟ »

وكان مسكر خفيف يصعد الى صدغيه وهو يفكر : ان الاحداث تفلت مني . وكان ذلك كراحة كبرى . وفكر : لقد فعلت كل شيء من اجل تجنب الحرب ، وليست الحرب والسلم الآن بين يدي ؛ لم يكن ثمة شيء بعد يُقرَّر ، لم يكن ثمة الا الانتظار ، كجميع الناس . كذلك الفحام في الزاوية . وابتسم ، لقد كان فحّام الزاوية ، وكانوا قد جرّدوه من مسؤولياته ؛ ان موقف فرنسا محدد بوضوح ... كان ذلك راحة كبرى . وكان يحدث في زهور السجادة المعتمة ، ويشعر بالدوار يصعد فيه . السلم ، الحرب ، لقد بذلت كل شيء للحفاظ على السلم ، ولكنه كان يتساءل الآن عما اذا كان لم يكن راغباً في ان يحمله هذا الشلال الدافق كذرة من القش ، كان يتساءل عما اذا لم يكن راغباً فجأة بهذه العطلة الهائلة : الحرب .

نظر حوله في ذهول وصاح :

- اني لم اذهب .

وكانت قد ذهبت تفتح المصاريع ، وعادت بالقرب من السرير فانحنت فوقه . وكانت تشكو الحر ، وقد شم رائحتها السمكية .
- ما الذي ترويه ايها الداعر الصغير ، ما الذي ترويه ؟

وكانت قد وضعت احدى يديها القويتين السوداوين على صدره . وكانت الشمس قد خلفت لطحخة زيت على خدها الأيسر . ونظر اليها فيليب فأحس انه ذليل أعمق المدلة : كان لها تجعدات حول عينيها وعند زاويتي فيها . وفكر : « انها جميلة جداً في وضوح النهار » وكانت تنفخ في وجهه وتدع لسانها الوردي يسيل في شفثيه . وفكر : اني لم اذهب . وقال لها :

- انك لست صبية بعد .

فكزت وجهها وأغلقت فيها . وقالت له :

- لست اصبي منك يا داعر .

واراد ان يخرج من صريزه ، ولكنها كانت تمسكه بصلاية ؛ كان
هارباً فاقد السلاح ؛ وكان يحس نفسه بائساً . وقالت :

— ايها الداعر الصغير ، ايها الداعر الصغير .

وهبطت الديدان السوداء وان متمهلتين على خاصرتيه . وفكر : مها يكن
من أمر ، فانه لم يعط للجميع ان يفقدوا بكرتهم مع زنجية . تداعى
للسقوط الى خلف ، فرأى تناير سوداء ورمادية تدور على بضع بوصات
من وجهه . وكان الشخص يزعم خلفه بصوت اضعف ، وكان ذلك
أقرب الى الحشرة ، نوعاً من القرقرة . وارتفع حذاء فوق رأسه ،
فرأى نملاً مدتباً ، وكانت قطعة من الوحل عانقة بالكعب ؛ وحط
للعمل وهو يطن بالقرب من محمله ؛ كان حذاء ضخماً أسود ذا ازرار .
ورفع عينيه فرأى جبة ، وفرقها في العالي ؛ منخرين مشعربن فوق
صدره . وهمس بلانشار في اذنه :

— لا بد ان يكون الرفيق في حالة سيئة جداً لكي يأنوه بالكاهن ؛
فسأل شارل : — ما به ؟

— لا ادري ، ولكن بيارو يقول انه سينتهي .

وفكر شارل : لماذا لا أكون انا ؟ كان يرى حياته وكان يفكر :
لماذا لا اكون انا ؟ ومرت عاملان بالقرب منه ، فعرف قماش سرواليهما ؛
وكان يسمع خلفه صوت الكاهن العذب الهاديء ؛ وكان المريض قد
كف عن الأنين ، ففكر : « ربما مات » . ومرت المريضة وكانت
تحمل طستاً بين يديها ، فقال بنجل :

— يا سيدتي ! الا تستطيعين ان تذهبي اليها الآن ؟

فخفضت نظرها عليه وهي تحمر من الغضب :

— أهلدا أنت ايضاً ؟ ماذا تريد ؟

— الا تستطيعين ان ترسلي احداً الى النساء ؟ انها تدعى كاترين ؛
فأجابت : — آه ! حل عن ظهري ! انها المرة الرابعة التي تطلب

فيها مني ذلك :

- كل ما اطلبه ان اعرف منها اسم عائلتها واعطيها اسم عائلي ، ولن يزعجك هذا كثيراً .

فقلت بجفاء : - ان هنا شخصاً يختصر . فانت ترى كيف أمك الوقت لأهمّ بسخافتك .

ومضت فعاد الشخص الى ابيه ، وكان ذلك شاق الاحتمال . وحرّك شارل مرآته ، فرأى جمعاً من الاجسام المتمددة جنباً الى جنب ، وفي الداخل ، ردف الكاهن الضخم راکماً بالقرب من المريض . وكانت فوقهم مدخنة ذات مرآة ووظرة . ونهض الكاهن ، فانحنى الجالون على الجسم وحملوه . وسأل بلانشار :

- هل مات ؟

ولم يكن لمحمل بلانشار مرآة دوارة . وقال شارل :

- لا ادري .

ومر الموكب امامهم وهو يثير موجة من الغبار . فأخذ شارل يسعل ، ثم رأى ظهر الجالين المنحني وهم منجهون نحو الباب . واستدار ثوب بالقرب منه ثم تجمّد فجأة . وسمع صوت المرضة :

- اننا هنا منقطعون عن كل شيء ، فنحن لا نعرف بعد الاخبار؛

كيف الحال يا سيدي الكاهن ؟

قال الكاهن : - ان الحال رديئة تماماً . رديئة تماماً . سيتكلم هتلر هذا المساء ، ولست ادري ما سوف يقوله ، ولكنني اعتقد انها الحرب . وكان الصوت يسقط موجات على وجه شارل . وأخذ شارل يضحك .

فسأله بلانشار :

- ما الذي يضحكك ؟

- اضحك لأن الكاهن يقول بان الحرب ستقع ؛

قال بلانشار : - انني لا اجد ذلك مضحكاً .

قال شارل : - اما انا فأراه مضحكاً .

« متكون لهم ، حربهم ، متكون لهم في أستهم » . كان ما يزال يضحك : فعلى ارتفاع متر وسبعين كانت الحرب فوق رأسه ، كانت الحرب ، والشرف المهان ، والواجب الوطني ، اما على سطح الارض ، فلم يكن ثمة حرب ولا سلم ، لا شيء الا بؤس الرجال الدون وعارهم ، الفاسدين ، المتمددين . لم يكن بونيه يريدتها ، وكان شامبوتيه دوريبسي يريدتها ؛ وكان دلاديه ينظر الى السجادة ، وكان ذلك كابوساً ، ولم يكن يستطيع ان يتحرر من هذا الدوار الذي امسكه خلف اذنيه : لتنفجر ! لتنفجر ! ليعلنها ، هذا المساء ، ذئب برلين الشرير الكبير ! وضرب حذاه بقوة على الارض الخشبية ، وعلى الارض الخشبية ، كان شارل يحس الدوار يصعد من بطنه الى رأسه : العار ، العار العذب ، العذب ، المريح ، انه لم يكن باقياً له غير هذا . وكانت الممرضة قد وصلت قرب الباب ، فتخطت جسماً وابتعد الكاهن ليدعها تمر . وصاح شارل :

- يا سيدتي ! يا سيدتي !

فالتفتت ، كبيرة قوية ، بوجه جميل ذي شارب وعينين غاضبتين . وقال شارل بصوت واضح أصدى في القاعة كلها :

- يا سيدتي ! يا سيدتي ! بسرعة ، بسرعة ! اعطيني الطست ،

فاني مستعجل .

هوذا ! هوذا ! كانوا يدفعونهم من الخلف ، ودفعوا الشرطي الذي تراجع خطوة وهو يبسط ذراعيه ، وصاحوا : « هوراه ، هوذا ! » وكان يمشي بخطى صلبة هادئة ، وكان يتأبط ذراع زوجته ، وكان فريد متأثراً ، امي وابي ، يوم الأحد ، في غرينووش ، وصاح : « هوراه » كم هو رائع ان نراها هنا ، هادتين مطمئتين ، فنذا يجرؤ على ان يخاف ، حين يراها يقومان بتزيتها الصغيرة بعد الظهر ، كزوجين

قديمين متحدين كل الاتحاد ؟ وشد بقوة على صندوقه ، ورفع فوق رأسه وصاح : « ليعش السلام ، هوراه ! » فالتفت كلاهما اليه ، وابتسم السيد شميرلن له شخصياً ، واحس فريد ان الهدوء والسلام كانا يهبطان حتى اعماق فؤاده ، لقد كان محمياً ، مقوداً ، متعشاً ، وكان شميرلن المعجوز ما يزال يجد الوسيلة ليتتره بهدوء عبر الطرقات ، كأبي انسان ، وليوجه له بسمة شخصية . وكان الجميع يصرخون « هوراه » حوله ، وكان فريد ينظر الى ظهر السيد شميرلن الهزيل وهو يتبعد بخطوته الكهنوتية ، وفكر : انها انكلترا ، وصعدت الدموع الى عينيه ، انحنى سادي الصغيرة وأخذت صورة من تحت ذراع الشرطي .

- في الصف ، يا سيدتي ، في الصف كجميع الناس .

- هل يجب ان اقف في الصف لأحصل على نسخة من « باري

سوار » ؟

- طبعاً ! وحتى في هذا الوضع ، سيدهشني ان تستطيعي الحصول

على نسخة .

ولم تكن تصدق اذنيها .

- إذن ، طز ! اني لن اقف في الصف من اجل « باري سوار » ،

فانه لم يحدث لي قط ان وقفت في الصف من اجل جريدة !

واولتهم ظهرها ، وكان راكب الدراجة قادماً ومعه رزمة الاوراق :

فوضعتها على الطاولة ، بالقرب من الكشك ، واخذوا يعيدونها .

- ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وحدث اضطراب في الحشد . وقالت البائعة :

- وبعد ! هل ستركوني اعداها ؟

قالت السيدة الانيقة : - لا تدفعوني ! اقول لكم لا تدفعوني !

فقال القصير السمين : - اني لا ادفع ، بل هم يدفعوني ، وليس

الامر ان سواء .

وقال الهزليل : - وانا ارجوك ان تكون مؤدباً مع زوجتي .
فانفتحت السيدة المرتدية الثوب الأسود نحو اميلي :
- إنه التنازع الثالث الذي اشهده منذ هذا الصباح .
قالت اميلي : - آه ! ذلك ان اللاس في هذه الفترة تائرو الأعصاب ؛
وكانت الطائرة تقرب من الجبال ؛ ونظر اليها غوميز ، ثم نظر ،
فيما تحته ، الى الانهار والحقول ، وكان الى يساره مدينة مستديرة برمتها ،
وكان كل شيء صغيراً يدعو الى الضحك ؛ انها فرنسا ، خضراء وصفراء ،
بسجادها العشي وانهارها المادئة ؛ « وداعاً ! وداعاً ! » سيدلف بين
الجبال ، فرداعاً يا شرائح روسيني ، ويا نساء جميلات ، سوف يهبط
وهو يحلق نحو الارض العارية الحمراء ، نحو الدم . وداعاً ! وداعاً :
لقد كان جميع الفرنسيين هنا ، تحته ، في المدينة المستديرة ، في الحقول ،
على شاطئ الماء : الساعة ١٨٣٥ ، انهم يضطربون كالنمل ، انهم
ينتظرون خطاب هتلر ؛ على الف متر تحتي ، ينتظرون خطاب هتلر ؛
اما انا ، فلا انتظر شيئاً . بعد ربع ساعة ، يكف عن رؤية هذه
البراري العذبة ، وستفصله كتلٌ حجرية ضخمة عن ارض الخوف
والبهل هذه . بعد ربع ساعة ، سيهبط نحو الرجال الهزليين ذوي الحركات
الحية ، والعيون القاسية ، نحو « رجاله » هو . كان سعيداً ، وفي
حلقة كتلة من القاق ؛ وكانت الجبال تتقارب وقد اوضحت الآن سمراء ،
وفكر : كيف تراني سألقى برشلونة ؟

قالت زيزيت : - ادخلي .

وكانت سيدة جميلة جداً ومملئة بهض الشيء ، تضع على رأسها
قبعة من القش وترتدي « نايوراً » من قماش « برانس دوغال » ؛
ونظرت فيما حولها وهي تمدد منخريها ، وما لبثت ان ابتسمت بلطف :
- السيدة سوزان نايور ؟

قالت زيزيت بفضول : - انا هي .

وكانت قد نهضت . وفكرت بان عينها كانتا محمّرتين واستندت
الى الافةة . ونظرت اليها السيدة وهي تطرف بعينها . إن من يعين
النظر فيها تبدو له اكبر سناً . وكانت تظهر وكأنها مرهقة .

— انني لا أزعجك ، على الاقل .

قالت زيزيت : — طبعاً لا . اجلسي .

وانحنت السيدة فوق الكرسي فنظرت اليها ، ثم جلست . وكانت
تجاس مستقيمة من غير ان يمس ظهرها المسند .

— لقد صعدت هذا الصباح زهاء اربعين طابقاً . وقلنا يفكر الناصم
في ان يقدموا لك كرسيّاً .

ولاحظت زيزيت انها ما تزل تحتفظ بكشيتانها في اصبعها . فزصته
وأقمته في عابة الحياطة . وفي تلك اللحظة بدأ اليفتاك يططق في الموقد
فاحمرت وركضت الى الفرن وأطفأت الغاز . ولكن الرائحة لم تتلاش .

— يجب الا امنعك من الأكل .

قالت زيزيت : — اوه ، ان امامي متسعاً من الوقت .

وكانت تنظر الى السيدة ونحس نفسها موزعة بين الضيق والرغبة
في الضحك .

— هل زوجك مجنّد ؟

— لقد ذهب صباح امس .

قالت للسيدة : — انهم جميعاً يذهبون . هذا مريع . لا بد ان
تكرني في وضع مادي ... سيء ...

قالت زيزيت : — اعتقد اني سأعود الى مهنتي القديمة . كنت
بائعة زهور .

فهزت السيدة رأسها : — هذا مريع ! هذا مريع !

وكانت حزينة جداً حتى ان زيزيت احست لها بالود .

— وهل ذهب زوجك ايضاً ؟

- لست متزوجة : (ونظرت الى زيزيت واضافت بحموية) ولكن
لي أخوين يمكن ان يذهبا .
وسألت زيزيت بصوت جاف : - ماذا تريدان ؟
قالت الأنسة : - نعم ، هذا (وابتسمت لها) انني لا اعرف
افكارك ، وما سوف اطلبه منك خارج عن كل سيلة . هل تدخينين ؟
هل تريدان سيكارة ؟
وترددت زيزيت ثم قالت :
- لا باس .

وكانت واقفة بازاء فرن الغاز ، ويداها تضغطان على طرف الطاولة ،
مخف ظهرها . وكانت رائحة البيفتناك وعطر الزائرة قد اختلطا . ومدت
لها الأنسة علبتها ، فخطت زيزيت خطوة الى الامام . وكانت اصابع
الآنسة دقيقة بيضاء ذات أظافر مصبوغة . واخذت زيزيت سيكارة بين
اصابعها الحمراء ، وكانت تنظر الى اصابعها والى اصابع الأنسة ،
وهي تتمنى ان تذهب بأسرع وقت ممكن . واشعلتا سيكارتيهما وسألت
الآنسة :

- الا تظنين ان من الضروري منع هذه الحرب بأي ثمن ؟
فراجعت زيزيت حتى الفرن ونظرت اليها في حذر . وكانت قلقة .
ولاحظت على الطاولة زوجاً من المطاط وسروالاً : وقالت الأنسة :
- الا تعتقدان اننا اذا نحن وحدنا قوانا ...

وعبرت زيزيت الغرفة بهيئة مهملة : وحين وصلت الى الطاولة
سألت :

- من تقصدين بـ « نحن » ؟
قالت الأنسة في قوة : - نحن النساء .
فرددت زيزيت : نحن النساء .
ثم فتحت الدرج بسرعة وألقت فيه زوج المطاط والسروال ، ثم

عادت الى الآنسة ، هادئة .

— نحن النساء ؟ ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟
كانت الآنسة تدخن كأنها رجل ، وهي تنفث الدخان من أنفها ؛
وكانت زيزيت تنظر الى تايورها والى عقدها اليشمي ، فتجد غريباً ان
تقول لها : « نحن » وقالت الآنسة في طيبة :

— اذا كنت وحدك ، لم تستطعي شيئاً . ولكنك لست وحدك : ففي
هذه اللحظة خمسة ملايين امرأة يخشين على حياة كائن عزيز لديهن .
في الطابق التحتي ، تقيم السيدة بانويه التي ذهب اخوها وزوجها والتي
لها ستة اولاد . وعلى الرصيف المقابل حانوت الحبازة ، وفي « باسي »
توجد الدوقة دو شوليه .

فتمتت زيزيت : — اوه ! الدوقة دو شوليه . . .

— ما بها ؟

— ليس متشابهاً .

— ما هو الذي متشابهاً ؟ أنقصدين أن هناك من يركب السيارة ،
بينما تقوم الآخريات بأعمال المنزل بأنفسهن ؟ آه ! يا سيدتي ، اني في
طليلة من يطالبون بتنظيم اجتماعي أفضل . ولكن انتظين ان الحرب هي
التي ستعطينا هذا التنظيم ؟ ان قضية الطبقات لا اهمية لها بازاء الخطر
الذي يتهددنا . اننا اولاً نساء يا سيدتي ، نساء يصيبونهن بأعز ما
يملكن . افرضي اننا تكاتفنا جميعاً وصحنا جميعاً معاً : « لا نريد هذا ! »
لأسمعي : الا تحبين ان تريه عائداً !

فهزت زيزيت رأسها : كانت تبدو لها نكة ان تدعوها هذه الآنسة
سيدتي . وقالت :

— لا يمكن منع الحرب .

فاحمرت الآسة بعض الاحمرار ، وسألت :

— ولماذا ؟

فهزت زيزيت كفتيها . كانت هذه تريد منع الحرب . وكان آخرون ،
كموريس ، يريدون القضاء على البؤس ، وينتهي الامر بالألا يستطيع
احد ان يمنع شيئاً . وقالت :
- هكذا . لا يمكن منعها .
فقال الزائرة في عتاب :

- ولكن ينبغي الا نفكر على هذا النحو . ان من يفكر هكذا هم
الذين يتعجلون مجيء الحرب ، ثم ينبغي التفكير قليلا بالآخرين . فهما
فعلتم ، تظنون متضامين معنا ؟

فلم تجب زيزيت ؟ كانت تشد في قبضتها سيجارتها المطفأة : وكان
لديها شعور بأنها في المدرسة الادارية . وقالت الآنسة :

- انك لا تستطيعين ان ترفضى توقيع اسمك . ليس كذلك يا
سيدتي : انك لا تستطيعين ان ترفضى توقيعاً ؟

وكانت قد سحبت من محفظتها ورقة ، فوضعتها تحت أنف زيزيت ،
فسألته زيزيت :

- ما هذه ؟

قالت الآنسة : - عريضة ضد الحرب . ونحن نلتقى التواقيع بالالوف ؟
وقرأت زيزيت بصوت منخفض :

« ان نساء فرنسا الموقعات على هذه العريضة يصرحن بأنهن يضعن
ثقتهم بحكومة الجمهورية للمحافظة على السلام بجميع الوسائل . ويؤكدن
اعتقادهم المطلق بان الحرب ، ايا كانت الظروف التي مستشب فيها ،
هي دائماً جريمة . المفاوضات وتبادل وجهات النظر امرٌ مطلوب دائماً ،
اما اللجوء الى العنف ، فأمر منكر . وهذا اليوم ، ٢٢ ايلول ١٩٣٨
هو من أجل السلام العالمي ، ضد الحرب بمختلف اشكالها : جامعة
الامهات والزوجات الفرنسيات » .

وقلبت الصفحة ، فكان قفاها مغطى بالتواقيع الملصق بعضها ببعض ،

افقياً او عمودياً او صعوداً او هبوطاً . بالحبر الاسود او البنفسجي او الازرق . وكان بعض التواقيع يمتد عربضاً ، بحروف كبيرة ذات زوايا ، بينما كان البعض الآخر دقيقاً مدبباً يتزوي بنحجل في زاوية صغيرة. وكان الى قرب كل توقيع عنوان : السيدة جان بليمو ، ٦ شارع دو بينياك ؛ السيدة سولانج بريس ، ١٤٢ جادة سانت اوان . واستعرضت زيزيت بنظرها اسماء جميع هاتيك السيدات . لقد انحنن جميعاً على هذه الورقة . كان فيهن من كان قطع الاولاد عندها يصرخ في الغرفة المجاورة ، وقد وقعت اخريات في اليهو الاثيق ، بقلم حبر ذهبي . امك الآن ، فان اسماءهن كانت جنباً الى جنب ، وهي جميعها متشابهة : السيدة سوزان تايور : ما كان عليها الا ان تطلب قلماً من الآسة ، فتصبح ، هي ايضاً ، سيده ، وينبسط اسمها هاماً وقاسياً تحت الاسماء الاخرى : وسألت :

— ماذا ستفعلن بهذا كله ؟

— حين نحصل على عدد كافٍ من التواقيع ، سنرسل وفداً من النساء يحملها الى رئاسة الوزارة :

للسيده سوزان تايور . كانت السيده سوزان تايور : كان موريس يردد لها دائماً ان المرء متضامن مع طبقته . وها هي الآن ذات واجبات مشتركة مع الدوقة دو شوليه . وفكرت : « توقيع . لا استطيع ان ارفض تقديم توقيع لمن » :

ارتفعت فلوسي الوسادة ونظرت الى فيليب :

— نعم ، ايها الداعر ، ما رأيك في ذلك ؟

قال فيليب : — لا بأس . لا بد ان يتحسن الوضع حين يكف الصداع .

قالت فلوسي : — يجب ان انهض . سوف آكل ، ثم اذهب الى المرقص . هل تأتي معي ؟

قال فيليب : - انني متعب اكثر مما ينبغي . اذهبي من دوني .
- ستنتظرنني هنا ، أليس كذلك ؟ انقسم لي بأنك ستنتظرنني ؟
قال فيليب وهو يقطب حاجبيه : - طبعاً . اذهبي بسرعة ، اذهبي
بسرعة . سأنتظرك ؟

قالت الآنسة : - هل توقعين اذن ؟

قالت زيزيت : - ليس لدي قلم .

فدّت الآنسة لها قلم حبر ، فتناولته زيزيت ووقعت في اسفل الصفحة .
مخطّبت اسمها وعنوانها الى جانب التوقيع ، ثم رفعت رأسها ونظرت
الى الآنسة : كان يخيّل اليها ان شيئاً ما سيحدث .
ولم يحدث شيء قط . ونهضت الآنسة ، فأخذت الورقة ونظرت اليها
بدقة ، وقالت :

- هذا ممتاز . حسناً ، لقد انتهى نهاري .

وفتحت زيزيت فيها : كان يخيّل اليها ان لديها طائفة من الاسئلة
ينبغي طرحها : ولكن الاسئلة لم تأت . واكتفت بالقول :
- واذن ، فستحملن هذا الى دلاديه ؟

قالت الآنسة : - طبعاً ، طبعاً .

وحركت الورقة لحظة ، ثم طوتها واخفتها في محفظتها . واحسّت
زيزيت بانقباض في قلبها حين انغلقت تلك المحفظة . ورفعت الآنسة
رأسها ونظرت في عينيها وقالت :

- شكراً . شكراً من اجله . شكراً من اجلنا جميعاً . انك امرأة

طيبة ، يا سيدة تايور .

ومدت لها يدها قائلة :

- هيا ، يجب ان اذهب .

فشدت زيزيت يدها بعد ان مسحت يدها بمزبوحها . وكانت تستعمر

خيبة مريرة ، فسألت :

— أهدنا ... كل شيء ؟
فأخذت الآنسة تضحك : وكانت لها اسنان كاللؤلؤ : وردت زيزيت لنفسها : « انا متضامنون » ولكن الكلمات كانت قد فقدت معناها .

— نعم ، هذا كل شيء ، الآن .
واتجهت الى الباب بخطوة نشيطة ، وفنحته ، وادارت للمرة الاخيرة وجهاً مبتسماً لزيزيت ثم اختفت . وكان عطرها ما يزال يخفق في الغرفة . وسمعت زيزيت خطاها تتلاشى ، فشرقت بأنفها مرتين او ثلاثاً . كان يخيل اليها ان شيئاً ما قد سُرق منها . وقصدت النافذة . ففتحتها وأطلت الى الخارج . كان ثمة سيارة ازاء الرصيف . وخرجت الآنسة من الفندق ، ففتحت الباب وصعدت الى السيارة التي أقلعت . وفكرت زيزيت : « لقد ارتكبت حماقة » وانعظفت السيارة في جادة سانت اوان واختفت ، حاملةً الى الابد توقيعها والمرأة الجميلة المعطرة ، وتنهدت زيزيت ، فأغلقت النافذة وأضاءت الغاز . وأخذ الشحم يقطق ، وطفنت رائحة اللحم الحار على العطر ، وفكرت زيزيت : « اذا عرف موريس ذلك يوماً ، فلا ادري ماذا يحدث » .

— ماما ، اني جائع .
وسألت الأم ماتيو : — كم هي الساعة ؟
انها مارسيلية جميلة ممثلة وعلى شفرتها ظلّ شارب : وألقى ماتيو نظرة الى ساعة يده :

— انها الثامنة وعشرون دقيقة .
فأخذت المرأة من بين ساقيها سلّة مغلقة بقضيب حديدي :
— افرحي ايها المزرعة الصغيرة ، سوف تأكلين :
وادارت رأسها نحو ماتيو :
— انها جديرة بان تعذب قديساً .

فوجه اليها ماتيو بسمة غامضة خفية . وفكر « الساعة الثامنة والدقيقة العشرون . بعد عشر دقائق يتكلم هتلر . انهما في الصالون ، وقد مضى أكثر من ربع ساعة وجاك يحرك مفاتيح الراديو » .
كانت المرأة قد وضعت السلّة على المقعد ، وفتحتها ، وصرخ جاك :
- لقد التقطتها ! التقطتها ! هذه شتوتغارت .

وكانت اوديت واقفة بالقرب منه ، وكانت قد وضعت يدها على كتفه . وسمعت ضجيجاً ، فخيّل اليها أن نفحة قاعة طويلة مقببة كانت تصفعها على وجهها . وأزاح ماتيو نفسه قليلاً ليُفسح للسلّة : لم يكن قد غادر جوان لبيان . كان بالقرب من اوديت ، ملتصقاً باوديت ، ولكنه أعمى أصمّ ، فقد كان القطار يحمل اذنيه وعينه نحو مرسيليا . لم يكن يمكن لها حباً ، وانما شيئاً آخر : لقد نظرت اليه كما لو انه لم يبعث تماماً . وشاء ان يعطي وجهاً لهذا الحنان الناقص الصورة الذي كان يثقل عليه ، ويبحث عن وجه اوديت ، ولكنه كان يفرّ ، وقد ظهر لوجه جاك مرتين بدلاً منه ، وانتهى الامر بماتيو الى ملح شكل جامد في اريكة ، مع طرف من رقبة منحنية وهيئة تنبه على وجه لا يفهم له ولا أنف . قال جاك وهو يلتفت اليها :
- لقد آن الاوان . انه لم يبدأ الكلام .

« عيناى هنا » . كان يرى السلّة : وكانت منشفة جميلة بيضاء ذات خطوط حمراء وسوداء تغطي محتواها . وتأمل ماتيو لحظة اخرى الرقبة السمراء ثم تركها : كان ذلك قليلاً جداً بالنسبة لهذا الحنان الثقيل . وغرقت في الظلّ ، وأخذت المشفة تنطلب تطلباً شديداً ، فأقامت في عينيه ، طاردة الصور والافكار اشثاناً . « عيناى هنا » وانتفض لساع جرس مخنوق .

قالت المارسيلىة : - كوكوت ، أسرعي ، أسرعي .
واستدارت نحو ماتيو بضحكة اغتدار :

— انه المنبه . فانا اربطه دائماً على الساعة الثامنة والنصف .
وفتحت الصغيرة بسرعة صندوقاً صغيراً فأدخلت فيه يديها ، وسرعان
ما توقفت جرس المنبه . الساعة الثامنة والنصف . سيدخل قصر الرياضة .
انا في جوان لبيان ، انا في برلين ، ولكن « عيني هنا » . وفي مكان
ما توقفت سيارة طويلة سوداء امام باب ، فنزل منها رجال يرتدون
القمصان السمراء . وفي مكان ما من الشمال الشرقي ، الى يمينه وخلفه :
ولكن كان هنا هذا الخوان الذي يسند عليه النظر . وسحبته من الزوايا
اصابع ريا ذات خواتم ، فاخفت ، ورأى ماتيو زجاجة ترموس ملقاة
على جانبها وركاماً من معجنات الحلوى : فأخذه الجوع . اني في جوان
ليبيان ، اني في برلين ، اني في باريس ، ليست لي من حياة بعد ،
ولا من مصير . غير اني هنا جائع ، هنا بالقرب من هذه السمراء
الضخمة وهذه الفتاة الصغيرة . ونهض ، فمد يده الى حقيبته في الشبكة
ففتحها وتلمس فيها رزمة اوديت . وجلس فأخذ سكينه وقطع الحيط ،
وكان يتعجل الأكل ، كما لو انه كان لا بد ان ينتهي على حجل ليسمع
خطاب هتلر . دخل ؛ هدير عظيم جعل الزجاج يرتجف ، وهذا الهدير ،
ومد يده .

وفي مكان ما ، كان ثمة عشرة آلاف رجل مسلحين ، استقامت
رؤوسهم وارتفعت اذرعهم : في مكان ما ، في ظهره ، كانت اوديت
منحنية على جهاز راديو ، وتكلم ، فقال : « يا مواطني » وكان
صوته قد كف عن ان يكون له ، واصبح عالياً . كان يُسمع في
برست — ليتوسك ، في براغ ، في اوسلو ، في طنجه ، في كان ،
في مورلي ، على الباخرة الكبيرة البيضاء التابعة لشركة « باكيه » التي
تسير بين كازابلانكا ومرسيليا .

سألت اوديت : — هل انت متأكد من انك التقطت شتوتغارت ؟ انا
لا نسمع شيئاً .

قال جاك : - هس ، هس ، نعم انا متأكد من ذلك .

توقفت لولا امام مدخل الكازينو ، فقالت له :

- اذن الى اللقاء بعد حين .

قال بوريس : - غني جيداً .

- نعم ، اين انت ذاهب يا حبيبي ؟

قال بوريس : - انا ذاهب الى « البار الباسكي » . هناك رفاق

لا يعرفون الالمانية طلبوا مني ان اترجم لهم خطاب هتلر .

قالت لولا وهي ترتعش : - برررر ، انك اذن لن تتسلى ؟

قال بوريس : - احب كثيراً ان اترجم .

انه يخطب ! وبذل ماتيو جهداً عنيماً ليسمعه ، ثم احس بأنه اجوف

فترك كل شيء وكان يأكل ؛ وقبائه ، كانت الفتاة الصغيرة تعض

فطيرة مربى ؛ ولم يكن يسمع الا لهات الشموع الهاديء ، وكانت

امسية من عسل ، كل شيء مغلق . وادار ماتيو عينه فنظر الى البحر

عبر الزجاج . كان المساء الوردي المستدير يتغلق فوقها . ومع ذلك فقد

كان صوت "يخرق" هذه الليضة من السكر . انه في كل مكان ، القطار

يقتمحه ، وهو في القطار ، تحت اقدام الطفلة ، في شعر سيدة ، في

جيبتي ، ولو كان معي جهاز راديو لفتحته في الشبكة او تحت المقعد ،

انه هنا ، ضخم ، يغطي ضجة القطار ، ويجعل الزجاج يرتج - ولا

اسمعه . كان متعباً ، ولمح في البعيد شراعاً فوق الماء ، ولم يفكر بعد

الا به : قال جاك منتصراً :

- اسمعي ، اسمعي .

وخرج هدير عظيم من الجهاز فجأة . فتراجعت اوديت خطوة ،

كان ذلك شيئاً لا يُطاق . وفكرت : « ما اكثر عددهم ، وكم هم

معجبون به ! ، هناك ، على بعد آلاف الكيلومترات ، عشرات الألوف

من المعذبين : وكانت اصواتهم تملأ صالون العائلة الهاديء - وكان

مصبرها نفسه هو الذي يتقرر هناك . قال جاك :

— ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وكانت العاصفة تهدأ رويداً رويداً ؛ وكانت تُسمع اصوات انفية وقاسية ، ثم ساد الصمت ، فأدركت اوديت انه سيتكلم . ودفع بوريس باب الحانة ، فأشار له المعلم ان يعجل ، وقال :

— استعدوا ، سوف يبدأ .

وكانوا ثلاثة قد ارتفقوا المشرب : كان هناك المارسيي ، وشارلييه ، وعامل المطبعة الرواني ، ثم شخص كبير ضخم ذو بنية فظيمة كان يبيع آلات خياطة ويدعى شومي .

قال بوريس بصوت منخفض : — مرحباً .

فحيوه بسرعة ، واقرب من الجهاز : وكان يقدرهم لانهم لم يكونوا يخافون ان يقصروا عشاءهم ليأتوا فيتبادلوا فيما بينهم كلاماً غير مستحب ، كانوا اشخاصاً قساة يواجهون الاشياء على حقيقتها .

كان قد استند على الطاولة بيديه الاثنتين ، وكان ينظر الى البحر الهائل ، ويسمع هدير البحر . ورفع يده فهدأ البحر . وقال :

— مواطني الاعزاء .

« ان هناك حلاً لا يمكن الاستسلام بعده ، لان ذلك يصبح ضعفاً مضرأ . كان يوجد عشرة آلاف الماني خارج الريخ فوق ارضين كبيرتين ، وهم الالمان الذين يريدون العودة الى الريخ . ولن يكون لي الحق بان أظهر امام تاريخ المانيا اذا شئت ان اتركهم بلا اكرات ؟ ولن يكون لي كذلك الحق معنوياً بان اكون فوهرر هذا الشعب . ولقد قبلت حتى الآن توضحيات كافية ، وتنازلات . وهنا يقوم الحد الذي لم اكن استطيع ان اتجاوزه : وقد اثبت الاستفتاء في النمسا مشروعياً هنا الاحساس . لقد قُدمت آنذاك شهادة حية لم يكن يأملها سائر العالم . ولكن سبق لنا ان رأينا ان الاستفتاء في نظر الديمقراطيات يصبح لا

جدوى منه بل يصبح مشؤوماً بمجرد انه لا ينتج النتيجة التي يأملونها .
ومع ذلك ، فان هذه المسألة قد أُحِلَّت لسعادة الشعب الالماني
الكبير كله .

« واما الآن المسألة الاخيرة التي ينبغي ان تُحل ، وسوف تُحل »
وانقرط البحر تحت قدميه ، وبقي لحظة من غير ان يتكلم وهو ينظر
الى هذه الامواج الهائلة . وضغطت اوديت يدها على صدرها ، كان ذلك
المدير يجعل قلبها يقفز كل مرة . وانحنت فوق اذن جاك الذي ظل
حاجباه مقطبين ، وهو مستغرق في هيئة تنبه متطرفة ، بالرغم من ان
هتلر قد انقطع عن الكلام منذ لحظات . وسألته ، من غير امل كبير :
- ماذا يقول ؟

وكان جاك يزعم انه يفهم الالمانية لانه قد سبق له ان قضى ثلاثة
شهر في هانوفر ، وهو لا يكف منذ عشرة اعوام عن الاستماع بانتظام
الى جميع خطباء برلين في الراديو ، بل هو قد اشترك في جريدة
« قرانكفورتر زايتونغ » بسبب مقالاتها المالية . ولكن المعلومات التي
كان يعطيها عما قرأ او سمع كانت تظل مبهمة دائماً . ورفع كفيه :
- الشيء نفسه دائماً . تكلم عن تضحيات الشعب الالماني وسعادته .
فسألت اوديت بحوية : - هل يوافق على بذل التضحيات ؟ أهذا
يعني انه سيقوم بتنازلات ؟

- نعم ، لا ... ان ذلك قد بقي في الهواء .
مد يده ، فكف كارل عن الصراخ : كان ذلك امراً . والنفت
يميناً وشمالاً وهو يتمتم : « اسمعوا ! اسمعوا ! » وكان يخيل اليه ان
امر هتلر الابكم يخترقه من الجانبين ويتجسد في فمه . وقال : « اسمعوا !
اسمعوا ! » لم يكن بعيد الا اداة طيعة ، ناقل صدى : وقد جعلته
للنشوة يرتعش من رأسه الى قدميه . وصمت الجميع ، وغرقت القاعة
كلها في السكوت والليل ، وكان هس وغورنغ وغوبلز قد اختفوا ،

ولم يبق ثمة احد في الدنيا الا كارل وفوهرره . كان الفوهرر يتحدث امام العلم الكبير الاحمر ذي الصليب المعكوف ، كان يتكلم من اجل كارل ، من اجله وحده : صوت ، صوت واحد في العالم . انه يتحدث من اجلي ، ويفكر من اجلي ، ويقرر من اجلي . يا فوهرري .

« ان هذا هو المطلب الاخير المتعلق بالارض الذي اطالب به في اوروبا ، ولكنه مطلب لن اترزح عنه وسوف احققه بمشيئة الله » .

وتوقف لحظة . ففهم كارل انه قد أعطي الإذن بالصراخ ، فصرخ بكل قواه . واخذ الجميع يصرخون ، وتضخم صوت كارل ، وصعد حتى الاقواس فارتج منه الزجاج . كان يحترق فرحاً ، وكان له عشرة آلاف فم ، وكان يحس انه تاريخي .

وصاح ميميل في الجهاز : « احرص ! احرص ! » والتفت الى روبر فقال له : « أتري ايه عصابة من الفروج ! ان هؤلاء الاشخاص لا يكونون مسرورين الا حين يستطيعون ان يصيحوا معاً . فيبدو ان تسلياتهم هي هي نفسها . ان لهم قاعات كبيرة في برلين تستطيع ان تستوعب عشرين الف شخص . فيجتمعون هناك يوم الاحد ، يأخذون في الغناء المشترك وهم يشربون البيرة » .

وكان الجهاز ما يزال يهدر . قال روبر :

— اوه ! ما قولك في ان « نفر كشه » ؟

وادار المفتاح ، فانطلقت الاصوات ، وخيل اليها فجأة ان الغرفة كانت تخرج من الظل ، وكانت هناك ، حولها ، صغيرة هادئة ، وكان الخمر في متناول ايديهما ، لم يكن عليهما الا ان يديرا مفتاحاً فاذا بجميع صرخات هؤلاء المعذبين تعود الى عليتها ، واذا بمساء جميل متزن يدخل من النافذة ، مساء فرنسي ، واذا هما بين الفرنسيين .

« هذه الدولة التشيكية بدأت بكذبة كبيرة . وكان مؤلف هذه الكذبة يدعى بنيش » .

صواعق في الجهاز ،
« لقد مثل السيد بنيش هذا في فرساي واكد اولاً انه كان ثمة امة
تشيكوسلوفاكية »

فهذه في الجهاز . واذف الصوت ، بشراسة :
« لقد كان مضطراً الى اختراع هذه الكذبة ليضفي على العدد الهزبل
من جنوده المواطنين اهمية اكبر قليلاً وبالتالي اكثر تبريراً . ورجال الدولة
الانكلوساكسون الذين لم يأنفوا بما فيه الكفاية القضايا البشرية والجغرافية ،
لم يجدوا ضرورياً آنذاك ان يحققوا في تأكيدات السيد بنيش .
« ولما لم تبد هذه الدولة قابلة للحياة ، فقد اخذوا بكل بساطة ثلاثة
ملايين ونصف المليون من الالمان ، منتهكين حقهم بتقرير مصيرهم
بانفسهم تقريراً حراً » .

وصاح الجهاز : « في ! في ! في ! » وصاح السيد بيرنانشانز :
« كذاب ! لقد جلبوا هؤلاء الالمان من المانيا ! » وكانت إيلا تنظر
الى ابيها محمراً من شدة الغضب ، وهو يدخن سيجاراً في اريكته ،
وكانت تنظر الى امها والى اختها ابقي فتشعر لهم بما يشبه الكراهية :
« كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ »
« ولما لم يكن ذلك كافياً ، وجب اضافة مليون من « الماغيار »
ثم من الزوس الكارباتيين ، واخيراً بضعة مئات من الالوف من
البولونيين .

« هذه هي الدولة التي سمت نفسها فيما بعد تشيكوسلوفاكيا ، منتهكة
حق الشعوب في تقرير مصيرها بحرية ، ورغبة الامم المغتصبة وارادتها
التي عبرت عنها بوضوح : واني اذا اتحدث اليكم ، فاني اعطف طبعاً
على مصير جميع هؤلاء المضطهدين : اعطف على مصير السلوفاكيين
والبولونيين والمهنغاريين والاوكرانيين ، ولكني لا اتكلم طبعاً الا عن
مصير الالمان التابعين لي » .

وملاً القاعة هتاف عظيم ، كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ م
ان هذه الـ « يعيش ! يعيش ! » تلوي لها قلبها . وفكرت في غيظ :
مهما يكن من أمر ، فنحن يهود ، وليس لنا ان نسمع جلاذنا . قد
احتمله هو ، فلقد سمعته دائماً يقول ان اليهود غير موجودين ؛ ونظرت
الى امها وفكرت : أما هي ، فهي تعلم انها يهودية ، انها تشعر بذلك ،
وتبقى مع هذا هنا . وكانت السيدة بيرنانشاتز ، التي تحب الثبوتات ،
قد قال مساء الليلة البارحة فقط : « انها الحرب يا اولادي ، واذا
كانت الحرب خاسرة ، فليس على الشعب اليهودي بعد الا ان يأخذ
خُرجه » . اما الآن فهي تغفو وسط المتأفات ، وتغمض بين الفينة
والفينة عينيها المطليتين ، وينوس رأسها الضخم المعتم ذو الشعر الملون ،
واستأنف الصوت كلامه وهو يضبط العاصفة :

« والآن تبدأ الرقاحة . ان هذه الدولة التي لا تحكمها الا أقلية ،
تجبر وطنيها على سلوك سياسة ستضطرهم يوماً الى اطلاق النار على
لأخوتهم » .

ونهدت ايلا . هذه الكلمات الخشنة التي كانت تُنتزع بمشقة من
حنجرة مستعدة دائماً للسعال ، انما كانت طعنات سكين . لقد عذب
يهوداً : وفيما هو يتكلم ، ثمة الوف يتنازعون في معسكرات الاعتقال ،
ومع ذلك يتركون صوته يلعلع عندنا ، في هذا الصالون الذي استقبلنا
فيه امس فقط قربينا داشوير باجفانه المحترقة .

« ان بنيش يطلب هذا من الالمان : اذا قتُ بالحرب ضد المانيا ،
فيجب ان تطلقوا ناركم على الالمان ، واذا رفضتم كنتم خونة ، وسوف
أعدسكم بالرصاص » . ويطلب الشيء نفسه من الهنغاريين والبولونيين .
كان الصوت هنا ، فظيماً ، صوت الحقد ؛ لقد كان الرجل بازاء
ايلا . وكان سهل المانيا الكبير وجبال فرنسا قد انهارت ، فاذا هو
بازائها تماماً ، من غير مسافة ، وكان يتحرك في علبته ، ينظر الي ،

يراني : والتفتت ايلان نحو امها ، نحو ايفي : ولكنها كانتا قد قفزتا الى خلف ، وكان بوسع ايلان ان تراهما بعد ، ولكن لا ان تلمسهما ، وكانت باريس ايضاً قد تراجعت حتى اصبحت لا تُترك ، وكان النور الذي يدخل من النوافذ يسقط ميتاً على السجادة . لقد حدثت فتنة لا يُلاحظ بين الناس والاشياء ، وكانت هي وحيدة في العالم مع هذا الصوت .

« في ٢٠ شباط من هذا العام ، صرخت في الريخستاغ ان من الضروري ان يحدث تغيير في حياة الملايين العشرة من الالمان الذين يعيشون خارج حدودنا . وقد تصرف السيد بنيش غير هذا التصرف ، فقد أقام عهداً من الاضطهاد تاماً .. »

كان يحدثها وحدها ، عيناه في عينيها ، بغيظ ينمو وينمو مع رغبة في ان يخيفها وان يؤذيها . وقد ظلت مسحورة ، ولم تكن عينها تغادران الصفيحة اللامعة . ولم تكن تسمع ما يقول ، ولكن صوته كان يسلخها .

« وارهاباً اكبر ، وفترة من الفساد .. »

وانفتلت فجأة فغادرت الغرفة . ولحقها الصوت الى المر ، مسحوقاً ، غير متميز ، ما يزال ينضح بالسم . ودلفت الى غرفتها وأغلقت بابها بالفتاح . وهناك ، في الصالون ، كان ما يزال يتوعد . ولكنها لم تسمع بعد الا نمتة مختلطة : وتداعت للسقوط على كرسى : أليس ثمة احد ، ليس من ام ليهودي معذب . ولا من زوجة لشيوعي مغتال ، يتناول مسدساً ويذهب لقتله ؟ كانت تحرق الأرم ، وتفكر في انها لو كانت المانية لارتيبت الشجاعة لقتله .

نهض ماتيو ، واخذ من مشعنه سيجاراً مما اعطاه جاك ودفع باب الخافلة .

قالت المارسيالية : - اذا كنت خارجاً اكراماً لي ، فلا تُزعج

نفسك ، ان زوجي يدخن الغليون : فانا معتادة :
قال ماتيو : - اني اشكرك ، ولكني راغب في تحريك سائقي
لازبل خدرهما .

وكان راغباً خصوصاً في الأ^ا يراها بعد ، ولا يرى الصغيرة ، ولا
السلة . وخطا بضع خطوات في المر وتوقف واشعل سيجارة . وكان
البحر ازرق هادئاً ، وكان يتسلل بمحاذاة البحر ، ويفكر : « ماذا
يحدث لي ؟ » ، « وهمكنا كان جواب هذا الرجل اكثر من اي يوم :
« لنعدم ، ولنعتقل ، ولنسجن » وكان هذا الجواب موجهاً لجميع
الذين لا يناسبونه لسبب او لآخر ، كان يريد ان يجتهد ويفهم . لم
يحدث له شيء قبل الآن لم يفهمه . وكانت تلك قوته الوحيدة ، ودفاعه
الوحيد ، وكبريائه الاخيرة . كان ينظر الى البحر ويفكر : « اني
لا افهم - وعند ذلك جاء مطلبي في نورمبرغ ، وكان هذا المطلب
واضحاً تماماً : من اجل الإذ - وقال في نفسه : الذي يحدث لي هو
اني ذاهب الى الحرب . ولم يكن ذلك يبدو خبيثاً ، ومع ذلك فهو لم
يكن واضحاً على الإطلاق . اما ما يخصه شخصياً ، فقد كان كل شيء
بسيطاً وواضحاً : لقد لعب وخسر ، وكانت حياته خلفه ، قد فسدت ،
اني لا اترك شيئاً ، ولست آسفاً على شيء ، حتى ولا على اوديت ،
ولا على ايفيش ، اني لست احداً . يبقى الحادث نفسه - أصرح
الآن بان حق تقرير المصير ينبغي اخيراً ، بعد عشرين سنة من تصريحات
الرئيس ويلسون ، ان يدخل في حيز التطبيق بالنسبة لهذه الملايين الثلاثة
والنصف - وكل ما كان اصابه حتى الآن كان على سويته كرجل ،
الإزعاجات الصغيرة والكوارث ، لقد رأها مقبلة ، فنظر اليها مواجهة :
حين ذهب يأخذ المال من غرفة لولا ، رأى الاوراق المالية ولمسها ،
وشم العطر الذي كان يطفو في الغرفة ، وحين تخلى عن مارسيل ، كان
ينظر اليها في عينيها فيما كان يتحدث اليها ، ولم تكن مصاعبه قط الا

مع نفسه ، كان بوسعها ان يقول لنفسه : لقد اصبت ، ولقد اخطأت ،
كان يستطيع ان يحكم على نفسه ، اما الآن فقد اصبح الامر مستحيلاً -
ومن جديد اعطى السيد بنيش جوابه : موتى جدد ، وشهداء جدد -
وفكر : اني ذاهب الى الحرب ، ولم يكن ذلك يعني شيئاً . لقد حدث
له شيء ما كان يتجاوزه . كانت الحرب تتجاوزه . ليست القضية حقاً
هي في انها تتجاوزه ، وانما هي في انها لم تكن موجودة هنا . فأين
هي ؟ في كل مكان : انها تولد من كل مكان ، القطار يَلِجُ الحرب ،
وغوميز يهبط الى الحرب ، وهؤلاء المصطافون بشياهم البيضاء يتزهون
في الحرب ، فليس ثمة خفمة قلب لا تغذيها ، وليس ثمة وعي لم
تحترقه . ومع ذلك ، فهي كصوت هتلر الذي يملأ هذا القطار والذي
لا يستطيع ان اسمعه : - لقد صارت السيد شميرلن بما نعتبره الآن
الامكانية الوحيدة للحل ؛ - ينخيل الينا بين الفينة والفينة اننا سنلمسها ،
هلي اي شيء ، في مرق شريحة ، فنمد يدنا ، فاذا هي تختفي :
ولا يبقى الا قطعة لحم في مرق . وفكر : آه ! ينبغي ان يكون المرء
في كل مكان معاً .

يا فوهري ، انك تخطب فأنحوّل الى حجر ، وأكف عن التفكير ،
ولا اريد بعد شيئاً ، فليست الا صوتك ، سأنتظره لدى الخروج ،
وسأصوب اليه في قلبه ، ولكني في الدرجة الاولى لسان حال الالمان ،
ومن اجل هؤلاء الالمان خطبت ، مؤكداً اني لست مستعداً بعد ان ابقي
متفرجاً صامتاً هادئاً بينما يحسب معنوه براغ هذا انه قادر ، سأكون هذا
للشهيد ، اني لم اذهب الى سويسرا ، ولا يستطيع الآن ان اعلم
شيئاً الا ان اعاني هذا الاستشهاد ، واقسم بان اكون هذا الشهيد ،
اقسم ، اقسم ، اقسم ، هس ، قال غوميز ، اننا نستمع الى خطاب
البهلران .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : منقل اليكم بعد لحظة

الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر ،
قال جرمن شابو : - آه ! أترى ! لم يكن الامر يستحق ان نهبط
ونركض ساعتين بحثاً عن جريدة « الانترانسيجان » . لقد قلت لك :
انهم يفعلون ذلك دائماً .

ووضعت السيدة شابو نسيجها في السلة وقربت اريكها ، وقالت :
- سنعرف ما الذي قاله . انني لا احب هذا . فهو يحدث لي
مثل الحفرة في معدتي . الا يحدث لك ذلك انت ؟
قال جرمن شابو : - بلى .

وكان الجهاز يشخر ، ثم نددت عنه ثلاث كركرات او اربع ،
فأمسك شابو بندراع زوجته وقال لها :
- اسمعي .

فانحنيا قليلا ، مرهفين اذنيهما ، واخذ احدهما يغني « الكوكوراشا »
فسألت السيدة شابو :

- هل انت متأكد انك تأخذ راديو باريس ؟
- متأكد .

- ان هذا اذن ليطلبوا منا الصبر .
وغنى الصوت ثلاثة مقاطع ، ثم توقفت الاسطوانة ، فقال شابو :
- ها نحن ذا .

وحدثت خربشة خفيفة ، ثم اخذت جوقه هوايانية تعزف ،
« هوني مون »

يجب ان يكون المرء في كل مكان . وتأمل في حزن طرف سيجارة .
في كل مكان ، والا كان مخدوعاً ، انني مخدوع . انا جندي ذاهب
الى الحرب ، وما ينبغي ان اراه : الحرب والجندي ، طرف سيجار ،
مقاصير بيضاء على شاطئ الماء ، انسراب الحافلات الرتيب على الخطوط
الحديدية ، وهذا الرحالة المألوف جداً ، فاس ، مراكشي ، ملرديد ،

بيروز ، سيان ، روما ، براغ ، لندن ، الذي يدخن للمرة الألف في
ممر حافة من الدرجة الثالثة . لا حرب ؛ ولا جندي : يجب ان يكون
المرء في كل مكان ، يجب ان ارى نفسي من كل مكان ، من برلين
كواحد على ثلاثة ملايين من الجيش الفرنسي ، وفي عيني غوميز كواحد
من هؤلاء الفرنسيين الكلاب الذين يُركلون ركلا نحو المعركة ، في
عيني اوديت . يجب ان ارى نفسي بعيون الحرب : ولكن اين هي
عيون الحرب ؟ اني هنا ، تنسرب امام عيني مساحات كبيرة مشرفة ،
اني متبصر ، ارى - ومع ذلك فاني اتجه بالتمس ، وبتحسس الأعمى ،
وكل حركة من حركاتي تشعل مصباحاً او تُطلق جرساً في عالم لا أراه ،
كانت زيزيت قد اغلقت المضاريع ، ولكن النهار المنتهي كان ما يزل
يتسرب من الشقوق ، وكانت تحسُّ نفسها متعبة وميتة ، وقذفت قيصها
الداخلي على كرسي ثم اندست عارية في السرير ، اني انام دائماً براحة
حين احس الأسي ؛ ولكنها حين استقرت تحت الغطاء ، كان مومو
في هذا السرير قد داعبها ليلة امس الاول ، وكانت ما تكاد تستلم
حتى يقتحمها فيسحقها ، فاذا ما فتحت عينيها من جديد ، لم يكن
هناك بعد ، كان ينام بعيداً في ثكنته ، ثم انه كان ثمة هذا الراديو
اللعين الذي يزعق باللغة الاجنبية ، وكان هو جهاز اسرة هاينمن ،
اللاجئين الالمان في الطابق الاول ، صوت خشن إنعوي يدق اعصابك
دقاً ، اتراه لن ينتهي ! اتراه لن ينتهي ؟ وحسد ماتيو غوميز ثم قال
في نفسه : ان غوميز لا يرى من ذلك اكثر مما ارى ، انه يتخبط
ضد اشياء غير مرئية - وكف عن حسده اياه . ماذا يرى : جدراناً ،
جهاز تلفون على مكتبه ، وجه ضابطه الأمر . انه يخوض الحرب ،
ولكنه لا يراها . فاذا كانت القضية قضية خوض حرب ، فاننا نخوضها
جميعاً ، اني ارفع يدي ، وأسحب نفساً من هذا السيجار ، فأخوض الحرب ،
ان ساره تلعن جنون الرجال ، وتضم بابلو بين ذراعيها ، فتخوض

الحرب . واوديت نخوض الحرب حين تلف بالورق سندويشات من لحم الخنزير . ان الحرب تأخذ كل شيء ، تلم كل شيء ، ولا تترك شيئاً يضيع ، حتى ولا فكرة ، ولا حركة ، ولا يستطيع احد ان يراها ، حتى ولا هتلر . لا أحد . وردد : لا أحد - ثم فجأة ، لمحها . كانت جسماً غريباً ، لا يمكن تصوُّره .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : سنقل اليكم بعد لحظة الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر » . ولم يتحركا . وان احدهما يحدج الآخر بطرف عينه ، وحين اخذت رينا كيتي تعني : « سأنتظر » تبادلا بسمة . ولكن في نهاية المقطع الاول ، انفجرت السيدة شابو ضاحكة ، وقالت :

- سأنتظر ! هذا مناسب تماماً ... انهم يهزأون بنا . جسم ضخيم ، كوكب ، في فضاء ذي مئة مليون بعد ، حتى ان الكائنات ذات الثلاثة الأبعاد لم تكن تستطيع ان تتصوره . ومع ذلك ، فان كل بعد كان وعياً مستقلاً . فاذا كان المرء يحاول ان ينظر الى الكوكب مواجهة ، انهار متفتناً ، ولم يبق بعد الا الوعي . مئة مليون وعي حر كان كل منها يرى جدراناً ، وطرف سيجار محمراً ، ووجوهاً مألوفة . ويبنى مصيره تحت مسؤوليته الخاصة . ومع ذلك فاذا كان المرء وعياً منها ادرك بتلمسات غير محسوسة ، وبتغيرات طفيفة ، انه كان متضامناً مع حظيرة ضخمة غير مرئية للحيوانات الشبيهة بالنبات . الحرب : ان كل انسان حر ، ومع ذلك فان الالعب قد لعبت . انها هنا ، هي في كل مكان ، وهي مجموعة افكاري كلتها ، وكلمات هتلر كلتها ، وافعال غوميز كلها : ولكن ليس ثمة احد ليجري الجمع . انها غير موجودة الا بالنسبة لله ، ولكن الله غير موجود . ومع ذلك فان الحرب موجودة .

- ولم ادع اي شك حول فكرة ان للصبر الالمانى بعد الآن حداً .

لم ادع اي شك حول فكرة أن من خصائص العقلية الالمانية دون ريب
التمسك بالصبر الطويل ، ولكن حين يحين الاوان ، فيجب ان ينتهي
هذا الصبر .

سأل شومي : - ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟

فشرح بورينى : - يقول ان للصبر الالمانى حدوداً .

قال شارليه : - وكذلك لصبرنا .

واخذ الجميع يزعمون في الجهاز ، ودخل هيريرا ، الى القاعة ،

فقال حين رأى غوميز :

- آه ! مرحباً ! قل لي ، هل قضيت مأذونية طيبة ؟

قال غوميز : - بين بين .

- الا يزال الفرنسيون حكياء ؟

- ها ! انك لا تتصور حالتهم . اعتقد انها ستصيبهم في استهم !

(وأشار الى جهاز الراديو) ان بهلوان برلين ثائر !

- بلا مزاح ؟ (واشتعلت عينا هيريرا) ولكن قل لي : ان هذا

سيغير اشياء كثيرة !

قال غوميز : - اعتقد ذلك .

ونظر احدهما الى الآخر لحظة وهما يتسلمان ، وعاد اليها تيلكان الذي

سكان على النافذة :

- اخفضوا صوت الجهاز ، فاني اسمع شيئاً .

فأدار غوميز المفتاح ، فضعفت الضججة .

- تسمع ؟ ماذا تسمع ؟

وأرشف غوميز أذنه ، فسمع هديرأ أصم . وقال هيريرا :

- هكذا ! انها صفارة الانذار . الرابعة منذ هذا الصباح .

قال غوميز : - الرابعة .

قال هيريرا : - نعم . آه ! سوف تجدون تغيراً .

وكان هتلر قد استأنف كلامه ، فأنحنوا على الجهاز . وكان غوميز يستمع الى الخطاب بأذن ، ويتابع بالآخرى هدير الطائرات . وحدث انفجار أصم في البعيد .

- ماذا يصنع ؟ انه لم يتنازل عن الارض ، وها هو الآن يطرد الالمان ! ان السيد بنيش ما كاد يتكلم حتى عادت تدابير الاضطهاد العسكرية متفاقمة . ونحن نلاحظ هذه الارقام المربعة : ففي يوم واحد عشرة آلاف شخص يهربون ، وفي اليوم التالي عشرون ألفاً ، وخف الهدير ثم ازداد فجأة ، وحصل انفجاران طويلان . وهمس تيلكان :

- انه المرفأ يشتعل ...

- .. وفي اليوم التالي سبعة وثلاثون ألفاً ، وبعد يومين واحد واربعون ، ثم اثنان وستون ، ثم ثمانية وسبعون ألفاً ، والآن تسعون ألفاً ، مئة وسبعة آلاف ، مئة وسبعة وثلاثون ألفاً . واليوم مئتان واربعة عشر ألفاً . ان مناطق برمتها قد خلت من سكانها ، واحياء قد أحرقت ، وهم يحاولون طرد الالمان بالقنابل والغاز . اما السيد بنيش فهو يقيم في براغ ، وهو يقول لنفسه : « لا يمكن ان يحدث شيء ، فان وراثي نهائياً انكلترا وفرنسا » :

وقرص هيريرا ذراع غوميز وقال :

- انتبه ! انتبه ! سوف يهاجمها !

وكان وجهه قد تلون ، وكان ينظر الى الجهاز في ود : وانبتق .

الصوت صاعقاً ، قاسياً :

- والآن ، يا مواطني ، لقد آن الوقت كما اعتقد لقول الاشياء

بصورة صريحة .

وغطت سبحة من الانفجارات المتوالية ضجة التصفيق . ولكن غوميز لم يكذب ينتبه اليها : فقد كان محمداً نظره في الجهاز ، يستمع الى هذا

«الصوت المتوعد ، فيحس بانبعث شعورٍ كان مكتناً لديه منذ وقت
طويل ، شعور كان يشبه الأمل .

« انت الذي تمر من غير ان تراني

« بل من غير ان تقول لي مساء الخير

« إعطني بعض الأمل

« فهمومي هذا المساء كثيرة » .

قال جرمن شابو : - لقد فهمت . لقد فهمت هذه المرة .

فقلت زوجته : - ماذا ؟

- اسمعي ، هذا اتفاق مع صحف المساء ، فهم لا يريدون اذاعة

«الترجمة قبل ان تنشرها الصحف .

ونفض فتناول قبعته وقال :

- أهاهـابط . وسوف اجد نسخة من « الانتران » على جادة

باريس .

آن الاوان . واخرج ساقيه من السرير ، وفكر : « آن الاوان »

سوف تجد العصفور قد طار واستجد ورقة من ألف فرنك مشكوكه

بالغطاء ، واذا اتسع لي الوقت أضفت اليها قصيدة وداع . وكان رأسه

ثقيلاً ، ولكن لم يكن به صداع . وأمر يديه على وجهه ثم أخفضها

ياشمزاز : كانت تنبعث منها رائحة الزنجية . وعلى الطاولة الزجاجية ،

فوق المغسلة ، كان ثمة صابونة وردية ، الى جانب رشاشة واسفنجة

من المطاط . وأخذ الاسفنجة . ولكن غثياناً صعد مرة اخرى الى فمه ،

فذهب يأخذ من الصندوق الصغير قفازه وصابونته . واغتسل من الرأس

الى القدمين ، وكان الماء يجري على الارض ، ولكن لم تكن لذلك اية

اهمية . وتسرع واخرج من الصندوق قيصاً نظيفاً فارتداه . قيص

الشهيد . وكان حزيناً وحازماً ، وكان على الحاجز فرشاة ، فنظف سترته

بعناية . ونساءل : « ولكن اين عساني قد دسست بطالي ؟ » ونظر

تحت السرير وحتى بين الاغطية : ليس هناك من بنطال . وقال لنفسه :
« أنراني ثملاً ؟ » وفتح الخزانة ذات المرأة ، فبدأ ينتابه القلق : أن
البنطال لم يكن فيها . ومكث لحظة في وسط الغرفة ، وهو في قبضه ،
يحك رأسه فيما ينظر حوله ، ثم اخذه الغضب لانه كان وضماً مضحكاً
تماماً بالنسبة لشهيد قادم ان يبقى هكذا مزروعاً بجواربه في غرفة نوم
مومس وأطراف قبضه تخفق ركبتيه . وفي تلك اللحظة لمح الى يمينه
خزانة مخفورة في الحائط ، فهرع اليها ولكن المفتاح لم يكن في القفل ،
وحاول ان يفتحه بأظفاره ثم بمقص وجده على الطاولة ، ولكنه لم ينجح
في ذلك . فقذف بالمقص وجعل يضرب بقدمه وهو يتم بصوت
غاضب : « يا للقبحة اللعينة ! يا للفاجرة ! لقد اقلت على بنطالي
لتمنعني من الخروج » .

— وهنا ، لا يسعني الآن الا ان اقول شيئاً واحداً : رجلان يقفان
وجهاً لوجه : فهناك السيد بنيش ، وهنا ، انا !
واخذ الجميع كله يهدر . وكنت انا تنظر الى ميلان في قلق . وكان
قد اقترب من الجهاز يتأمله ويدهاه في جيبه . وكان وجهه قد اسود ،
وكان ثمة شيء يتحرك في خده .

قالت انا : — ميلان !

— ونحن رجلان من نوع مختلف . فحين كان السيد بنيش في عهد
صراع الشعوب الكبير بروح ويجيء في العالم ، مبتعداً عن الاخطار ،
أنجزت انا واجبي كجندي الماني شريف . وهأنذا واقف اليوم قبالة هذا
الرجل كجندي لشعبي .

فصفقوا من جديد . ونهضت انا فوضعت يدها على ذراع ميلان :
كانت عضلته متشنجة وكان جسمه كله من حجر . وفكرت : « سوف
يسقط » وقال متأنناً :

— يا للقدر !

فشلت على ذراعه بكل قواها ، ولكنه دفعها : وكان في عينه دم .
ونتم :
- بنيش وأنا ! بنيش وأنا ! لان وراءك خمسة وسبعين مليون
نسمة .

وخطا خطوة الى امام ، وفكرت : « ماذا يريد ان يفعل ؟ »
واندفع ، ولكنه كان قد بصق مرتين على الجهاز .
وكان الصوت يتابع :

« ليس لدي الا القليل من الامور اصرح به : اني اعترف بالجميل
للسيد شميرلج على جميع جهوده . وقد اكدت له ان الشعب الالماني لا
يريد شيئاً آخر غير السلام : ولكني صرحت له ايضاً بأنني لا استطيع أن
أبعد حدود صبرنا . واكدت له كذلك ، وانا اردد هذا هنا ، بأنه لن
يكون لالمانيا ، حين تحمل هذه المسألة ، اية قضية في اوروبا تتعلق
بالارض : كما اكدت له اني ، بعد ان تحمل تشيكوسلوفاكيا هذه المسائل ،
اي بعد ان يتفاهم التشيكيون مع باقي الاقليات ، لا بالضغط ، بل
بالسلم ، لن اهتم بعد بالتشيكيين على الاطلاق . واني اضمن له ذلك !
ليس لنا لدى التشيكيين اي مطمع . ولكني اريد الآن ان اصرح امام
الشعب الالماني بأن صبري ، فيما يتعلق بمسألة السوديت ، اوشك ان
ينفد : لقد قدمت للسيد بنيش عرضاً ليس هو شيئاً آخر غير تحقيق ما
اكده هو نفسه : وهو الآن يملك التقرير : سلم ام حرب : فاما ان
يقبل هذه الاقتراحات فيعطي الالمان الآن الحرية ، واما ان نذهب
لنأخذها بأنفسنا . »

رفع هيريرا رأسه وقال متهللاً :

- يا الهي ! يا الهي ! هل سمعتم هذا ؟ انها الحرب ؟
قال غوميز : - نعم : ان بنيش رجل صلب ، وهو لن يخضع :
وانها الحرب :

قال تيلكان : - يا الآهني ! ليت هذا يحدث ! ليت هذا يحدث !
سأل شميرلن : - ما هذا ؟
قال وودهاوز : - التهمة .
فأخذ شميرلن الاوراق وجعل يقرأ : وكان وودهاوز يرقب وجهه
في قلق ، وبعد لحظة ، رفع رئيس الوزارة رأسه وبسم له بتودد وقال :
- حسناً ، لا شيء جديداً .

فنظر الى وودهاوز بدهشة ، وقال ملاحظاً :
- ولكن المستشار هتلر عبر عن آرائه بعنف كثير .
قال شميرلن : - يعني ، يعني . كان مضطراً لذلك .

- انني اليوم أسير امام شعبي كجنديته الأول ، وليعلم العالم الآن
ان شعباً يمشي الآن ورائي ، شعباً يختلف عن شعب ١٩١٨ . فني هذه
الساعة سيتحد الشعب الالماني كله معي . وسيشعر بارادتي كارادته ،
وكذلك اعتبر مستقبله ومصيره كمحرك لعملي ! ونحن نريد ان نعزز
هذه الارادة المشتركة ، كما كانت في عهد النضال ، يوم ذهبت كجندي
بسيط مجهول لأحصل على « ريش » غير مرتاب قط بالنجاح والنصر
النهائي . لقد تكاتف حولي فريق من الرجال الشجعان والنساء الشجاعات ،
ثم ساروا معي : والآن اطلب منك يا شعبي الالماني هذا : « سر ورائي
رجلا بعد رجل ، وامرأة بعد امرأة : فنحن نريد في هذه الساعة ان
تكون لنا جميعاً ارادة مشتركة . وينبغي ان تكون هذه الارادة أقوى
من أية محنة ومن اي خطر ، واذا كانت هذه الارادة اقوى من المحنة
والخطر ، فسوف تقهر المحنة والخطر ، ونحن مصممون ، فعلى السيد
بنيش الآن ان يختار !

والتفت بوريسي الى الآخرين وقال لهم :

- انتهى .

ولم تكن ردود فعلهم سريعة : كانوا يدخلون بهيئة متنبهة ، وبعد

لحظة ، سأل صاحب المقهى :

— هل تلوي رقبتك اذن ؟

— تستطيع ان تفعل .

فانحنى صاحب المقهى فوق الزجاج وأدار المفتاح ، واحس بوريس بالانزعاج لحفظ : لقد نتج عن ذلك ما يشبه فراغاً كبيراً . وكانت نفحة ریح ولیل تدخل من الباب المفتوح .

وسأل المارسيلى : — اذن فاذا قال ؟

— قال في النهاية : ان شعبي كله وراثي : وانا مستعد للحرب .
فعلى السيد بنيش ان يختار .

قال المارسيلى : — مآثم ! انها الحرب اذن ؟

فهز بوريس كتفيه . وقال المارسيلى :

— لقد انقضت علي ستة أشهر لم ار فيها زوجتي ولا ابنتي ، فسوف اعود الى مرسيليا ومساء الخير : تحية صغيرة من اليد وأذهب الى ثكنة .

قال شومي : — اما انا فربما لم أجد الوقت لرؤية امي (وأوضح) انني من الشمال .

قال المارسيلى وهو يهز رأسه : — هكذا !

وسكتوا . وأفرغ شارلييه غليونه عند كعب حذائه . وقال صاحب المقهى :

— هل تأخذون شيئاً ؟ ما دامت هي الحرب ، فاني اقدم لكم النوبة .
— هات نوبة .

وكان الهواء الخارج رطباً أسود ، وكانت تُسمع موسيقى الكازينو من بعيد : ربما كانت لولا هي التي تغني . وقال الشمالي :

— لقد كنت انا في تشيكوسلوفاكيا . وانا مسرور اني كنت فيها :
فكذلك يعرف المرء لماذا يقاتل .

فسأله بوريس : - هل مكثت فيها طويلاً ؟
- ستة اشهر . في عملية قطع غابات : كنت اتفاهم جيداً مع
التشيكيين : انهم نشيطون .
قال صاحب الحانة : - فيما يخص النشاط ، الالمان ايضاً نشيطون ،
- نعم ولكنهم يُخرِّثون العالم . بينما التشيكيون هادئون .
قال شارلييه : - نخبكم .
- نخبكم .
ودقوا اقداحهم فيما بينهم ، وقال المارسييلي :
- لقد بدأ الطقس يبرد .
نهض ماتيو متنفصاً ، فسأل وهو يفرك عينيه :
- ما هذا ؟
- انها مارسيليا ، محطة سان - شارل ، الجميع ينزلون .
قال ماتيو : - حسناً ، حسناً .
واخذ مشتمعه وتناول حقييته من الشبكة : وكان يحس نفسه مبهماً ؛
وفكر في عزاء : لا بد ان هتلر قد انهى خطابه ؛
وقال الشمالي : - لقد رأيتهم يذهبون ؛ شبان ١٤ . وكنت في
العاشرة . كان شيئاً مختلفاً عما هو الآن .
- هل كانوا يريدون الحرب ؟
- ها ! وكم ! كانوا يتوهجون ، كانوا يغنون ، كانوا يملأون
الدنيا حركة !
قال المارسييلي : - يجب القول بأنهم لم يكونوا يدركون .
- طبعاً لا .
قال بوريس : - اما الآن ، فنحن ندرك ؛
وساد صمت . وكان الشمالي ينظر امامه باستقامة . وقال :
- لقد رأيتهم عن كثب ، الالمان . لقد احتلونا أربعة أعوام . فإذا

استفدنا ! لقد مُسّمت القرية ، وكان الناس يختبئون اسابيع برمتها في
المقالم . تفهمون اذن رأيي حين أفكر : يجب ان يُوجَل ذلك ...
(وأضاف) ان هذا لا يعني اني لن أفعل كالأخرين ؟

قال صاحب الحانة : - اما انا ، فاني مصابٌ بذعر الموت ، منذ
كنت صغيراً . ولكني كوَّنت لي فكرة ، في هذه الايام الاخيرة . قلت
لنفسي : ان يموت الانسان ، فهذا قبيح جداً . ولكن ليكن بالحمى
الاسبانية او بشظية قنبلة ...

وكان بوريس يضحك مفتوناً : كان يجدهم ظرفاء ، وفكر :
« انني افضل الرجال على النساء » .

ولقد كان من مزايا الحرب انها تقوم بين الرجال ، فهو لن يرى
طوال ثلاثة اعوام او خمسة الا رجالا ، وسوف اتنازل عن مأذونيني
لآباء العائلات .

قال شومي : - المهم ان نستطيع القول باننا قد عشنا ، اني الا
في السادسة والثلاثين ، ولم استمتع دائماً بالحياة . ان هناك قمماً وسفوحاً
ولكنني عشت . فبوسعهم ان يقطعوني لرباً ، فهم لن يمنعوا ذلك ،
(والتفت الى بوريس) اما بالنسبة لفتى مثلك ، فلا بد ان الأمر
أشقى .

قال بوريس بحسوية : - آه ، صحيح ، منذ اللحظة التي بدأوا
يرددون لي فيها ان الحرب ستقع .

واحمر قليلاً وأضاف : « ولكن من يجدها شاقة رديئة ، انما هو
المتزوج » .

قال المارسيلي وهو يتنهد : - نعم : ان زوجتي شجاعة ، ثم ان
لها مهنة : فهي حلاقة ، والامر يزعجني بالاحرى بسبب الصغيرتين ،
غير ان من الافضل ان يكون ثمة أب ، اليس كذلك ؟ وليس من
الضروري ان يموت الانسان لمجرد ان يذهب الى الحرب .

قال بوريس : - هذا صحيح .
وكانت الموسيقى قد انطفأت . ودخل الى الحانة رجل وامرأة :
كانت المرأة حمراء الشعر ترتدي ثوباً أخضر طويلاً وعارياً . وجلسا على
طاولة في الداخل . قال شارلييه :
- مها يكن ، فان الحرب غبية . اني لا أعرف ما هو أغبي منها .
وقال صاحب الحانة : - ولا أنا .
قال شومي : - ولا أنا .

قال المارسيي : - كم انا مدين لك ؟ ان علي تكاليف نوبة ؟
قال بوريس : - وعلي ايضاً تكاليف نوبة .
ودفعا . وخرجا شومي والمارسيي وأحدهما يتأبط ذراع الآخر .
وتردد شارلييه لحظة ، واستدار على عقبه وذهب يجلس وهو يحمل
قدحه . وكان بوريس قد بقي امام المشرب ، وفكر : كم هم ظرفاء ،
وغمره الفرح ، سيجد مثلهم في الخنادق ، آفاقاً وآفاقاً ، في مثل
ظرفهم . وسوف يعيش بوريس معهم فلا يتركهم ليلاً ولا نهاراً ،
سيكون لديه ما يعمله . وفكر : اني محظوظ ، حين كان يقارن نفسه
بالاشخاص المساكين الذين سُحقوا او ماتوا بالكوليرا وهم في مثل سنه ،
كان مضطراً الى الاقرار بأنه كان محظوظاً ، وهو لم يعتبر خائناً ، فليست
القضية قضية حرب من هذه الحروب التي تقلب من غير اعداد ، حياة
الانسان ، كأنها حدث بسيط : فان هذه الحرب كانت تبشر بنفسها منذ
صتة اعوام او سبعة مقديماً ، وقد اتيح للناس ان يروها قادمة . ولم
يشك بوريس شخصياً انها لا بد ان تنفجر ، لقد انتظرنا كولي عهد
يعرف منذ طفولته انه ولد ليحكم . ولقد وضعوه في الدنيا من اجل هذه
الحرب ، وربوه من اجلها ، فأرسلوه الى الليسيه والى السوربون ومنحوه
ثقافة . كانوا يقولون انهم يفعلون ذلك لكي يصبح استاذاً ، ولكنه كان
دائماً يشك في ذلك ، كان يعلم الآن انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منه

ضابط احتياط ، وهم لم يوفروا شيئاً لكي يتيحوا له مينةً جميلةً وجديدةً
وسليمةً . وفكر : وأظرف ما في الأمر اني لم اولد في فرنسا ، وانما
استوطنتها، غير ان ذلك لم يكن ذا اهمية في نهاية المطاف ، فلو انه بقي
في روسيا ، او لو لجأ ذووه الى برلين او بودابست ، لما تغير الوضع :
فليست القضية قضية جنسية ، وانما هي قضية من . لقد كان الشبان
الالمان والشبان الهنغار يون والشبان الانكليز ، والشبان اليونان مرصودين
للحرب نفسها ، للمصير نفسه . وفي روسيا ، قام اولاً جيل الثورة
ثم جيل مشروع السنوات الخمس ، والآن جيل الصراع العالمي : فلكل
جيل نصيبه . والمرء يولد في آخر المطاف إما من اجل الحرب او من
اجل السلم ، كما يولد عاملاً او بورجوازيًا ، فليس له في الأمر حيلة ،
ولم يوهب جميع الناس حظاً ان يكونوا سويسريين . وفكر : ان
الشخص الذي يملك حق الاحتجاج انما هو ماتيو : فهو بلا شك قد
ولد للسلام ؛ لقد وثق كل الثقة انه سيموت مينة الشيخوخة ، فاكسب
عادته كلها ، ومن كان في عمره لا يغير عاداته . اما انا ، فهذه هي
حربي . هي التي صنعتني ، وانا الذي سأخوضها ، فنحن لا نفترق ؛
بل اني لا استطيع ان انخل ما عساني أكون اذا لم تنفجر . وفكر في
حياته فلم تبد له بعد أنها كانت أنصر مما ينبغي : إن الحياة ليست
قصيرة ولا طويلة ، وانما هي حياة ، هذا كل ما في الأمر . والحرب
في نهايتها . واستشعر فجأة ان جداره جديدة تنابسه ؛ لأنه كان ذا
رسالة في المجتمع ، ولأنه كذلك سيهلك في مينة حنيفة ، وشعر بانزعاج
في تواضعه . لا ريب في ان الساعة كانت قد أزفت ليذهب الى اصطحاب
لوليا . وبسم لصاحب الحانة وخرج مسرعاً .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، ولكن كانت تترى هنا وهناك نجوم ،
وكانت الريح تعصف من البحر . وذات لحظة ، كان في رأس بوريس
سحاب ، ثم فكر : « حربي » واخذته الدهشة لانه لم يألف التفكير

مدة طويلة في الامور نفسها . وقال في نفسه : « كم سيملكني الخوف !
 آه ! لا ، لا ! » واخذ يضحك عجباً ورضى لصورة هذا الرعب
 الشديد . ولكنه كف عن الضحك بعد بضع خطوات تحت تأثير قلق
 مفاجيء : ذلك انه لا ينبغي ان يخف المرء خوفاً مفرطاً . صحيح انه لن
 يشيخ ، ولكن ذلك لم يكن سبباً ليهوّن عليه حياته ويسمح لنفسه بأي
 شيء . لقد رصدوه منذ ولادته ، ولكنهم تركوا له كل حظه ،
 فكانت حربه رسالةً اكثر منها قدراً . كان يوسع طبعاً ان يتمنى رسالة
 اخرى : رسالة فيلسوف كبير مثلاً ، او رسالة دون جوان او رسالة
 مالي عظيم . ولكن المرء لا يختار رسالته : فاما ان ينجح فيها او يخسر ،
 هذا كل ما في الامر ، وأغبي ما في رسالته ، انه لم يكن مسموحاً ان
 يُستدرك فيها شيء . كان ثمة حيواتٌ تشبه البكاوريا : على الطالب
 ان يقدم عدة مسابقات ، فاذا قصر في مسابقة الفيزياء ، كان بإمكانه
 ان يستدرك نفسه في مسابقة العلوم الطبيعية ، او الفلسفة . اما حياته
 هو ، فهي تذكّر بشهادة الفلسفة العامة حيث يحكم عليك من مسابقة
 واحدة ، وقد كان ذلك يثير الخوف الشديد . ولكن مهما كان من أمر ،
 فقد كان عليه ان ينجح في هذه المسابقة ، لا في سواها - وسيكون
 عليه ان يعمل . ينبغي ان يتصرف تصرفاً نظيفاً بالطبع ، ولكن ذلك
 لم يكن كافياً . فينبغي خصوصاً ان يقيم في الحرب ، وان يحفر فيها
 زاويته ويحاول ان يفيد من كل شيء . وينبغي ان يقول لنفسه : ان
 كل شيء يستحق شيئاً ، على نحو ما : فهجومٌ في الارغون يستحق
 نزهة في الخندول ، والعصير الذي يُشرب في الخنادق صباحاً ، يستحق
 قهوة صباحية في المحطات الاسبانية . وهاك بعد ذلك الرفاق ، والحياة
 في الهواء الطلق ، والرزم ولا سيما المشاهد ، فالتصيف بالقنابل ليس
 مشهداً قدراً . المهم ان لا يخاف الانسان . فاذا خفت ، حرّضت حياتي
 للسرقة . انني الشرغوف ؛ وقرّر : لن أخاف .

وايقظته انوار الكازينو من حلمه ؛ وكانت لفحات من الموسيقى
تتسرّب من النوافذ المفتوحة ، وأقبلت سيارة سوداء تقف بصمت امام
الحاجز . وفكر في ضيق : لا يزال هناك عام اجرجره .
كان الوقت قد تجاوز نصف الليل ، وكان قصر الرياضة مظلماً مقفراً ،
للكراسي مقلوبة ، وأطراف السيكرات مسحوقة ، وكان السيد شميرلن
يحدث في الراديو ، وكان ماتيو يتيه على رصيف « فيو - بور »
وهو يفكر : « انه مرضى ، مرض ليس الا ، وقد سقط عليّ اتفاقاً ،
فهو لا يعنيني ، ويجب ان أعالجه بالشدة وبالصبر كالنقرس او وجع
الاسنان » : وقال السيد شميرلن :
« ارجو ان لا يطرح المستشار هذا العرض الذي صيغ بروح الصداقة
نفسها التي قوبلت بها في المانيا والذي اذا قبل ارضى للرغبة الالمانية في
اتحاد السويد مع الريخ ، من غير اراقة نقطة دم في اي جزء من
لوروبا » .
وأشار بيده اشارة يدل بها على انه انتهى وابتعد عن المكبر . وكانت
زيزيت ، التي لم تكن تستطيع النوم ، قد وقفت امام للنافذة تنظر الى
النجوم فوق السطوح ، وكان جبرمان شالو ينزع بنطاله في غرفة
التواليت . وكان بوريس ينتظر لولا في ساحة الكازينو ، وكانت زهرة
كلحة تحاول ، في كل مكان من الاجواء ، ان تتفتح ، وهي تكاد
لا تسمع : « اذا أصبح القمر أخضر » تعزفها فرقة الجاز في فندق
اسعوريا وتقلها دافانيري .

الثلاثاء ٢٧ ايلول

الساعة ٢٢٣٠ . قالت البوابة : « السيد دولارو ! انها لمفاجأة !
فانا لم اكن انتظر وصولك الا بعد ثمانية ايام » .
فابتسم لها ماتيسو . كان يؤثر لو انه دخل من غير ان تلاحظه :
ولكن كان لا بد له من طلب المفاتيح .
- انك غير مجتهد ، على الاقل ؟
قال ماتيو : - انا ، نعم ، لست مجتهداً .
قالت : - آه ! هذا أفضل ! أفضل ! فهذا يأتي دائماً قبل الاوان .
ولكن ، قل لي ، ما هذه الاحداث ؟ لقد وقعت اشياء واشياء منذ
ذهابك ؟ وهل تظن انها الحرب ؟
قال ماتيو : - لا ادري ، ابتها السيدة غاربييه . (واضاف بحموية)
هل هناك بريد لي ؟
قالت السيدة غاربييه : - الواقع اني ارسلت لك كل شيء . وأمس
فقط ، حوّلت لك مطبوعاً الى جوان لبيان : فليتلك كنت اخبرتني عن
هودتك . ثم وصلك هذا ، هذا الصباح .
ومدت له ظرفاً طويلاً رمادياً ، فعرف ماتيو خط دانيال . وأخذ
الرسالة فوضعها في جيبه من غير ان يفضها . قالت البوابة :
- أتريد المفاتيح ؟ آه ! من المزعج انك لم تستطع ان تخبرني :

فلو فعلت لكان امامي وقت للتنظيف . اما الآن ... فحتى المصاريع لم تفتح :

قال ماتيو وهو يأخذ المفاتيح :

- لا بأس على الاطلاق ، على الاطلاق : مساء الخير يا سيده

غارينيه :

وكان البيت مقفراً . وكان ماتيو قد شاهد من الخارج جميع المصاريع مغلقة . وكانت سجادة الدرج قد نُزعت بسبب الصيف . ومر متمهلاً امام شقة الطابق الاول ، كان أطفال في الماضي يصرخون فيها ، فيتلمل ماتيو في فراشه وقد نُخرقت اذناه ببيكاء المولود الجديد . اما الآن ، فقد كانت الغرف سوداء خالية خلف المصاريع المغلقة . العطلة . ولكنه كان يفكر في اعماق نفسه : الحرب . لقد كانت هي الحرب ، هذه العطلة المخدرة التي قُصرت للبعض ، ومُمدت للبعض الآخر . وفي الطابق الثاني كانت تسكن امرأة ينفق عليها رجل : كان عطرها غالباً ما يتسرب من تحت الباب ويتشر حتى سطيحة السلم . لا بد انها في ياريتز ، في فندق كبير ترهقه الحرارة وخمود الاعمال . وبلغ الطابق الثالث وأدار المفتاح في القفل : كان تحته وفوقه حجارة ، والليل والصمت : ودخل في الظلام ، ووضع في الظلام حقيبته ومشمعه : وكانت رائحة الغبار تنبعث من المدخل . وبقي جامداً وذراعاها ملتصقتان بجسمه ، مجلبياً بالظلام ، ثم أدار المفتاح الكهربائي فجأة وعبر غرف بيته واحده بعد الاخرى ، تاركاً جميع الأبواب مفتوحة ؛ وأضاء النور في المكتب ، وفي المطبخ ، وفي المراض ، وفي غرفته . كانت جميع المصابيح تلمع ، وكان تيار من النور المنصل يسري بين الغرف : وتوقف عند حافة سريره .

كان ثمة من نام هناك . فالغطاء كان ملتويًا ، وكان خشاء الوسادة متسخاً ومدعوكاً ، وكان فتات من الخبز منتثراً على الفراش . أحدهم :

أنا . كان يفكر : انا الذي نمت هنا . يوم ١٥ تموز ، للمرة الاخيرة .
ولكنه كان ينظر الى السرير في اشمزاز : كان نومه القديم قد برد في
الاعطية ، اما الآن ، فهو نوم شخص آخر . لن انام هنا .
واستدار ودلف الى المكتب : واستمر اشمزازه . قدح قدر على
المدخنة . وعلى الطاولة ، بالقرب من العنبر البرونزي ، سيكارة .
مكسورة : وكانت وفرة من السبائب خارجة منها . متى كسرت هذه
السيجارة ؟ وضغط على بطنها فأحس تحت أصابعه هسيس لاوراق مينة .
الكتب . مؤلف لأروليه ، وآخر لمارتينو ، ولامبال ، ولوسيان لون ،
وذكريات الأنا . هناك من فكر بكتابة مقال عن ستاندال . كانت الكتب
باقية هناك ، اما المقال المحجّر فقد اصبح شيئاً . ايار ٣٨ : لم يكن
غير مجد بعد كتابة مقال عن ستاندال . شيء . شيء . كأعطيتها الرمادية ،
كالغبار الذي حط على ظهورها . شيء كثيف ، جامد ، حضور لا
لا يُنفذ اليه . مشروعى .

مشروعه للشرب ، الذي حطّ صفائح كايية على شفافية القدح ،
مشروعه للتدخين ، مشروعه للكتابة ، كان الرجل قد علق مشاريعه في
كل مكان . كان ثمة تلك الأريكة الجلدية الخضراء حيث كان الرجل
يجلس مساء . كان ذلك في المساء : نظر ماتيو الى الأريكة وجلس على
طرف كرسي . « ان أرائكك مفسدة » كان صوت قد قال ، هنا
بالذات : ان أرائكك مفسدة . وعلى الديوان ، كانت فتاة شقراء قد
نفضت خصلاتها في غضب . في ذلك الوقت كان الرجل يكاد لا يرى
الخصلات ، ولا يسمع الاصوات : كان يرى ويسمع مستقبه من جهة
الى جهة . اما الآن ، فان الرجل كان قد رحل ، حاملاً مستقبه القديم
الكاذب ؛ كانت اشكال الحضور قد بردت ، فظلت هناك ، قشرة من
شحم مجمدة على الاناث ، وكانت الاصوات تطفو على مستوى العين :
كانت قد صعدت حتى السقف ، ثم سقطت ، وكانت طاوية . واحس .

ماتيو بأنه مبدول ، فاتجه الى النافذة ورفع المصاريح : وكان ما يزال
في المساء بعض النهار ، اشراق غفل : وتنفس .

رسالة دانيال . مد يده ليأخذها ، ثم ترك يده تسقط على عمود
الاستناد . كان دانيال قد ذهب من هذه الطريق ، ذات مساء من
حزيران ، وكان قد مر تحت هذا القانوس : وكان الرجل قد وقف
على النافذة يتابعه بعينيه . لهذا الرجل كتب دانيال . ولم تكن لدى ماتيو
رغبة بقراءة رسالته . واستدار فجأة . فأجال نظره في مكتبه ، بفرح
جاف . كانوا جميعاً هنا ، محبوسين ، امواتاً ، مارسيل ، ايفيش ،
برونيه ، بوريس ، دانيال . كانوا قد جاءوا ، فأخذوا ، فبقوا ،
سورات غضب ايفيش ، ومواعظ برونيه ، كان ماتيو يتذكرها كما
يتذكر موت لويس السادس عشر ، بالتجرد نفسه . كانت تنتمي الى
ماضي العالم ، لا الى ماضيه : فانه لم يكن له ماض بعد .

وعاد يعلق المصاريح ، ثم عبر الغرفة ، وتردد ، وبعد تفكير ،
ترك الصباح مضاءً . صباح الغد ، سأعود لأخذ حقايمي . وعاد يعلق
الياب الخارجي عليهم جميعاً ، وهبط الدرج ، خفيفاً . فارغاً وخفيفاً .
وخلفه ، فوق ، كانت المصاريح الكهربائية تضيء طوال الليل حياته
الميتة .

سألت لولا : - بم تفكر ؟

فقال بوريس : - بلا شيء :

وكانا جالسين على الشاطيء . ولم تكن لولا لتعني ذلك المساء ، بسبب
حفلة خاصة تقام في الكازينو . وكان قد مر امامها رجل وامرأة ، ثم
جندي . وكان بوريس يفكر في الجندي . وقالت لولا بصوت ملح :

- كن لطيفاً وقل لي بم تفكر ؟

وهز بوريس كتفيه :

- كنت افكر بالجندي الذي مر .

قالت لولا مندهشة : - آه ! وبأي موضوع حوله كنت تفكر ؟
 - بم تريد ان يفكر المرء حول جندي ؟
 فهمت لولا : - بوريس ، ما بك ؟ كنت رقيقاً جداً ولطيفاً .
 وها ان كل شيء يعود كالسابق . انك لم تحدثني طوال النهار تقريباً ،
 فلم يجيب بوريس ، كان يفكر بالجندى . كان يفكر : « انه
 محظوظ : اما انا ، فان امامي سنة اخرى اجرجرها ، سنة : سيعود
 الى باريس ، وسيتمه على جادة مونبارناس ، وعلى جادة سان ميشال
 التي يعرفها عن ظهر قلب ، ويذهب الى الدوم والى الكوبول ، وينام
 في بيت لولا كل يوم . ليتني استطيع ان ارى ماتيو ، اذن لسارت
 الامور سيراً رائعاً ، ولكن ماتيو سيكون مجنناً . وفكر فجأة :
 ودبلوماسي ! فانه سيكون ثمة ، فوق ذلك كله ، هذه النكتة السميحة :
 دبلوم الدراسات العليا . سوف يطلب منه ابوه بالتاكيد ان يتقدم الى
 امتحانه ، وسيكون بوريس مضطراً الى تقديم اطروحة عن « الذاكرة
 عند رنوفيه » او عن « العادة عند مين دويران » . وفكر في غيظ :
 لماذا تراهم جميعاً يمثلون ؟ كانوا قد ربّوه للحرب ، وكان هذا حقهم ،
 ولكنهم الآن يريدون ان يفسروه على التقدم لامتحان دبلومه ، كما لو
 كانت امامه حياة سلام برمتها . سيكون الوضع مرحاً : سيردّد طوال
 عام الى المكتبات ، وسيتظاهر بأنه يقرأ جميع آثار مين دويران في
 طبعة تيسران ، وسيتظاهر بأنه يسجل ملاحظات ، وسيتظاهر بأنه يعد
 امتحانه ، ولن ينقطع عن التفكير بالتجربة الحقيقية التي تنتظره ، ولن
 يكف عن التساؤل عما اذا كان سيخاف ام يصمد . وفكر وهو يلقي
 نظرة انزعاج على لولا : « لو لم تكن هذه موجودة لتطوعت على الفور ،
 وتكون هذه حكاية جميلة أعملها معهم » .
 وصاحت لولا مدعورة - : بوريس ! لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ اترك
 لا تحبني ؟

فقال بوريس منقبض الاسنان : - على العكس . لا تستطيعين ان
تقدركي كم أحبك . بل انت لا تقدرين مدى ذلك .
كانت ايفيش قد اضاءت مصباحها الليلي وتمددت على سريرها ،
عارية تماماً . وكانت قد تركت الباب مفتوحاً وهي تراقب المر .
وكان في السقف دائرة مضيئة ، وباقي الغرفة كلها أزرق . وكانت
سحابة زرقاء تطفو فوق الطاولة ، تنبعث منها رائحة الليمون والشاي
والسيجارة .
وسمعت حفيفاً في المر ، ثم مرت كتلة هائلة امام الباب صامتة :
فصاحت :

- هيب !

وأدار ابوها رأسه فنظر اليها نظرة توبيخ :
- ايفيش ! لقد رجوتك قبل الآن : اما ان تغلطي الباب او
تترتدي ثيابك .

وكان قد احمر قليلا ، وكان صوته اكثر غناء من المألوف .
- بسبب الخادمة .

قالت ايفيش من غير ان تتأثر :

- لقد اوت الخادمة الى فراشها (وأضافت) كنت اترصدك . فانت
تتحدث ضجة يسيرة جداً حين تمر . وقد كنت اخشى ان تفوتني . ارجع .
فرح السيد سرغين ، ونهضت فوضعت معطفها . وكان ابوها يقف
مستقيماً ، مولياً ظهره ، في فتحة الباب . ونظرت الى رقبته ،
والى كتفيه العنليتين واخذت تضحك بلا ضجة .

- تستطيع ان تنظر .

وادار وجهه ، ونشق مرتين او ثلاثاً ثم قال :

- انك تفرطين في التدخين .

تأملت : - بسبب ثورة اعصابي .

وصمت . وكان المصباح يضيء وجهه الكبير المخدّد . ووجدته ايفيش
جميلاً . جميلاً كالجبل ، كشلالات نياغارا . وانتهى الى القول :
- سأوي الى النوم .

فقال ايفيش مبتهلة : - كلا ، كلا ، يا بابا : اريد ان اسمع
الى الراديو .

وصاح السيد سرغين : - ماذا ؟ في هذه الساعة ؟
ولم تستسلم ايفيش لهذا الغضب : كانت تعلم انه كان يخرج ثانية
من غرفته كل مساء حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب فيسمع الى
الاخبار في مكتبه ، بصوت منخفض ، وكان خفياً وخفياً كأنه جني ،
بالرغم من كيلوغراماته التسعين .

قال : - اذهبي فاستمعي وحدك . اما انا ، فاني انهض باكراً غداً .
قالت ايفيش بلهجة تدعو الى الاشفاق :

- ولكنك تعرف يا بابا اني لا أعرف إدارة الراديو .
فأخذ السيد سرغين يضحك وقال :

- ها ! ها ! ها ! ها !

وسألها وهو يستعيد جده :

- هل تربدين سماع الموسيقى ؟ ولكن امك المسكينة تام ؟
قالت ايفيش غاضبة : - كلا يا بابا . لا اريد سماع الموسيقى ،

وانما اريد ان اعرف اين صاروا في حربهم .
- اذن ، تعالي .

فتبعته الى المكتب ، وقدها عاريتان ، وانحنى على الجهاز . وكانت
يداه الطويلتان القويتان تحركان المفاتيح بلطف شديد ، حتى ان قلب
ايفيش قد خفق وتأسف على حميميتها السابقة . حين كانت في الخامسة
عشرة ، كانا دائماً معاً ، وكانت السيدة سرغين تغار . وحين كان
السيد سرغين يصطحب ايفيش الى المطعم ، كان يجلسها قبالة ، على

المقعد ، وكانت هي تختار وجبتها بنفسها ، وكان الخدم ينادونها « مدام » فتضحك مرحاً ويستشعر هو الفخر ، وكان يبدو في مجبوحة من العيش : وسمعت آخر انغام نشيد عسكري ، ثم أخذ الماني يتكلم بصوت مغتاض : وقالت في عتاب :

- بابا ، اني لا اعرف الألمانية .

فنظر اليها نظرة ساذجة ، وفكرت : « لقد تقصد ذلك . »

- انها ، في هذه الساعة ، افضل الاخبار .

وأصفت ايفيش بتنبه ل ترى اذا كانت ستسمع في هذه الاثناء كلمة « كريغ » التي كانت تعرف معناها : وصمت الالماني ، ثم بدأت الجوقة نشيداً عسكرياً آخر تجرحت منه أذنا ايفيش ، ولكن السيد مرغين استمع حتى النهاية : انه لم يكن يحقتر الموسيقى العسكرية .

وسألت ايفيش ، في ضيق :

- ماذا هناك ؟

فصرح السيد مرغين : - الامور سيئة جداً .

ولكنه لم يكن يبدو متأثراً اكثر مما ينبغي : وقالت ، وحلقها جاف :

- آه ! دائماً بسبب هؤلاء النشيكين ؟

- نعم .

قالت بحماسة : - ما اشد ما اكرههم ! (وأضافت بعد لحظة) ولكن اذا كان ثمة بلد يرفض الحرب ، فلن يكون بالامكان إجباره عليها ؟

قال السيد مرغين بقسوة :

- ايفيش ، انك حقاً طفلة :

قالت ايفيش : - آه ؟ آه نعم ، طبعاً :

كانت تتهم أباهما بأنه لم يكن يعرف الموضوع خيراً منها :

- اهذه كل الاخبار ؟

فتردد السيد سرغين :

- بابا !

إنه غاضب لانني جئت ، فانا أفسد عليه حفلة الصغيرة ، كان السيد سرغين يحب الأمرار ، وكان لديه ست حقائب مقلدة ، وصندوقان محكما الاغلاق ، وكان يفتحها احيانا اذ يكون وحده . وتأملته ايفيش في حنان ، كان لطيفاً جداً حتى انها اوشكت ان تطلعه على قلبها . وقال علي مضض :

- بعد لحظة ، منسمع الفرنسيين .

وخفض نحوها عينيه المتمعنين ، فاحست بأنه لم يكن يستطيع ان يعينها في شيء .

واكتفت بالسؤال :

- كيف تكون الامور ، اذا وقعت الحرب ؟

- سيهزم الفرنسيون .

- هكذا ! وهل يدخل الألمان الى فرنسا ؟

- طبعاً .

- ويأتون الى لاون ؟

- أفترض ذلك . أفترض ان يتزلوا الى باريس .

وفكرت ايفيش : « انه لا يعرف من الامر شيئاً ، انه مهرج . »

ولكن قلبها كان يقفز في صدرها .

- سيأخذون باريس ، ولكنهم لن يهدموها ؟

وندمت لإلقائها السؤال : فند ان احرق البولشفيك قصور أبيها ،

اكتسب حس الكوارث : وهز رأسه وهو يغمض عينيه نصف

إغماض ، وقال :

- هيه ! هيه ! هيه !

الساعة ٢٣,٣٠ . كان شارعاً ميتاً يغرقة الظلام : مصباح من بعيد

لبيد . شارع من لا مكان تحفّ به أضرحة مغلقة . جميع المصاريع مغلقة ، وليس من شق للضوء . « كان ذلك شارع دولامبر . » وكان ماتيو قد اجتاز شارع « سيل » ، وشارع « فروادفو » وتابع جادة دوين وحتى شارع لاغيتيه : كانت كلها متشابهة ، فهي ما تزال دافئة ، يكاد المرء لا يعرفها ، إذ هي قد أصبحت شوارع حرب .
ودلف ماتيو الى الدوم لان الدوم كان قائماً هناك . وأسرع اليه خادماً وهو يتسم بلطف : كان فتي قصيراً ذا نظارات ، ضعيف الصحة ، بنميص بروح الرضى . انه خادم جديد : فقد كان القدامى يتركون زبائنهم ينتظرون طوال ساعة ، ثم يقبلون في غير اكتراث ويأخذون الطلب من غير ان يتسموا .

— اين هنري ؟

فسأل الخادم : — هنري ؟

— اسمر طويل ذو عينين تجحظان من رأسه .

— آه ! لقد جُنّد .

— وجان ؟

— الاشقر ؟ لقد جُنّد ايضاً . فانا أحلّ محله .

قال ماتيو — : اعطني قدح خمر .

فضى الخادم وهو يعدو : وطرف ماتيو بعينه ، ثم تأمل القاعة في دهشة . في تموز ، لم يكن للدوم حدود دقيقة ، كان يسيل في الليل ، عبر واجهاته وبابه ، وكان يثر على الطريق ، وكان المارة يسبحون في ذلك الحليب الثقيل الذي ما يزال يرتجف على ايدي السواقين الواقفين في وسط جادة مونبارناس . وخطوة الى الامام ، فاذا هم يسبحون في الاحمر ، لأن الجانب الايمن من وجوه السواقين أحمر : كان هناك مقهى للروتوند ، اما الآن ، فقد كانت ظلمات الخارج تندفع على الواجهات فاذا الدوم مقصر على نفسه : مجموعة من الطاولات والمقاعد والزجاج

الجفاف المقبض ، المحروم من هذا الإشراق المنتشر الذي كان ظللها الليلي . لقد اختفوا ، المهاجرون الالمان ، وعازف البيانو الهنغاري ، والاميركية المعجوز المدمنة على الكحول . ذهبوا ، جميع اولئك الازواج اللطفاء الذين كانوا يتأسكون بالايدي تحت الطاولة ، ويتحدثون عن الحب حتى الصباح ، وعيونهم متوردة من النعاس . وكان الى يساره رئيس عسكري يتناول العشاء مع زوجته ؛ وقبلته كانت مومس صغيرة أنامية تحلم امام فنجان قهوة بالحليب ، وعلى الطاولة المجاورة نقيب يأكل الكرنب المهرم . والى اليمين ، كان فتى في الثياب العسكرية يضم اليه امرأة ، وكان مانيو يعرفه بالوجه ، فقد كان طالباً من طببة البوزار ، طويلاً ، ممتقماً ، بَرَمياً ؛ وكان الثوب العسكري يكسبه هيئة متوحشة ؛ ورفع النقيب رأسه فاخترق نظره الجدار ؛ ونابح مانيو هذا النظر : في البعيد كانت ثمة محطة وأنوار وانعكاسات على خطوط حديدية ، ورجال ذوو وجوه موحلة وقد اتسعت عيونهم من فرط الارق ، وهم جالسون يتصلب في القاطرات ، وايديهم على ركبهم . في تموز كنا جالسين تحت المصابيح في حلقة ، لا يترك احدنا الاخر بنظره ، ولم يكن نظر احدنا ليضيق . اما الان ، فهمم يضيئون بعضهم بعضاً ، يعضون نحو ويسمورغ ونحو مونتميدي ، وبين الاشخاص كثير من الفراغ وكثير من السواد . لقد جندوا الدوم . وجعلوا منه آية ذات اهمية اولية : مقصفاً .

ونكر في فرح : « آه ! انني انكر هذا كله ، ولا أتحسر على شيء ، ولا أخلف شيئاً ورائي . »

وابتسمت له الفتاة الهندصينية . كانت رقيقة دقيقة ذات يدين صغيرتين جداً ؛ وكان قد مضى على مانيو امان وهو يعد نفسه بأن يقضي ليلة معها . وإنما لفرصة مناسبة . سوف أمر في علي بشرتها الباردة ، وسوف انتشق رائحتها الحشرية الصندوقية ، وسأكون عارياً ومطلقاً

شخص تحت اصابها المتهنة ؛ وإن في بعض التفاهات التي سمتوت
على يديها . وكان حسبه ان يبادلها بسمتها .

- غارسون :

فهرج الخادم :

- عشرة فرنكات :

ودفع ماتيو وخرج . اني ما زلت اعرفها اكثر مما ينبغي .
وكان الظلام هابطاً . ليلة حرب اولى . كلا ، ليس تماماً ، كان
ما يزال هناك كثير من الانوار المعلقة على جنبات البيوت . وبعد شهر ،
بعد خمسة عشر يوماً ، مستطفتها الغارة الاولى ، اما الان ، فليس الأمر
إلا تمريناً عاماً غير ان باريس كانت مع ذلك قد فقدت سقفها القطبي
المورد . وللمرة الاولى ، كان ماتيو يرى بخاراً كثيفاً معتماً معلقاً فوق
المدينة : السماء . سماء جوان لبيان ، وتولوز ، وديجون ، واميان ،
سماء واحدة للريف والمدينة ، لفرنسا كلها . وتوقف ماتيو فرجع رأسه
ونظر اليها . سماء لمطلق مكان ، من غير امتيازات . وانا تحت هذه
المعادلة الكبيرة : مطلق شخصي ، مطلق شخص في مطلق مكان : انها
الحرب . كان يحدد عينيه في مستنقع نور ، وكرّر مرة اخرى ،
ليرى : « باريس ، جادة راسباي . » ولكنهم كانوا قد جندوها
ايضاً ، هذه الاسماء المترفة ، كانت تبدو وكأنها تخرج من خارطة
اركان حرب او من بلاغ . لم يكن باقياً شيء من جادة راسباي .
طرق ، ليس غير طرق ، تمتد من الجنوب الى الشمال ، ومن الغرب
الى الشرق ، طرق مرقمة . وبين فينة وفينة ، كانوا يلبطونها لمسافة
كيلومتر او اثنين ، وكانت ارضه وبيوت تنبع من الارض ، وكان
ذلك يسمى طريقاً وشارحاً وجادة . ولكنها لم تكن قط الا طرفاً من
درب ؛ كان ماتيو يتسیر ، ووجهه ملتفت نحو الحدود البلجيكية ، على
قطعة من درب متفرع مسن الطريق الوطنية ١٤ . واستدار في طريقه

المركبات المستقيمة التي كانت تعطيل الطرق الحديدية لشركة الغرب التي كانت في الماضي شارع « رين ». وجلبه لب " قذف خارج للظل " فانوساً ثم انطلقاً : مرت سيارة تاكسي ، جارية نحو محطات الشاطئ الأيمن . وتبعتهما سيارة سوداء تفص " بالضبباط ، ثم سقط كل شيء مرة أخرى في الصمت . وعلى طرف الطريق ، تحت هذه السماء غير المميّزة ، كانت البيوت قد تقلّصت الى اخشن ما في رسالتها : مساكن الإيجار : مخادع - مطاعم للمرشّحين للتجنيد ، ولأسر المجندين . وان المرء ليستشعر منذ الآن مصيرها الأبعد : أنها ستصبح « نقطاً استراتيجية » ، وفي النهاية أهدافاً ومرامى . وبعد ذلك ، يمكن بيسر هدم باريس : فهي قد سبق وماتت . وكان عالم جديد بسبيل ان يولد ، عالم الاواني العملي القاسي .

كانت اشعة من ضوء تنسلل بين ستائر مقهى « دوماغو » : وجلس ماتيو على السطیحة . وكان خلفه اشخاص يهمسون في الظلام : الزبائن الآخرون . وكان الطقس قد بدأ يرطب . قال ماتيو :

- قدح بيرة .

قال الخادم : - سيدق منتصف الليل . فلا خدمة بعد على السطیحة :

- قدح بيرة واحد .

- إذن بسرعة .

وفي ظهره ، اخذت امرأة تضحك : وكانت تلك هي الضحكة الأولى الذي يسمعا منذ عودته : ولهذا أحس بصدمة منها . غير انه لم يكن يشعر انه حزين ، ولكن لم تكن به رغبة للضحك . وفي السماء تمزقت غيمة وبرزت نجمتان . وفكر ماتيو : « انها الحرب » .

- هل تريد ان تدفع لي فوراً : وبعد ذلك اتركك وشأنك .

ودفع ماتيو ، فعاد الخادم الى الداخل . ونهض زوج من الظلال ، فتسلل بين الطاولات ثم مضى . وكان ماتيو وحيداً الآن على السطیحة .

ورفع رأسه فرأى ، من الجهة الأخرى للساحة ، كنيسة جميلة جديدة كل الجدة ، بيضاء في السماء السوداء . كنيسة قرية . كان يرتفع في مكانها امس بناء باريسي ، كنيسة سان جرمان ديبيره ، بناء تاريخي ، كان ماتيو غالباً ما يواعد ايفيش على اللقاء عند مدخله المسقوف . لعله لن يبقئ غداً ، تجاه مقهى « دوماغو » ، إلا آنية محطمة متصرّثة مدفوع على اطلاق نارها عليها . اما اليوم . . . اليوم كانت ايفيش في لاون ، وكانت بارييس مينة ، وكان السلام قد دفن ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد . لم يكن ثمة إلا شكل كبير ابيض موضوع في ساحة ، هو قشرة الليل البيضاء . كنيسة قرية . كانت جديدة ، وكانت جميلة ؛ ولم تكن ترفع شيئاً . وهبت ربح خفيفة ؛ ومرت سيارة مظفأة النور ، ثم راكب دراجة ، ثم شاحنتان ارتجت لهما الأرض . وتعكرت الصورة الحجرية لحظة . ، ثم سكنت الربح ، وساد الصمت ، وتشكلت من جديد بيضاء غير مجدية ، لا انسانية ، ناصبةً وسط كل شيء ، هذه الآلات العمودية ، على طرف طريق الشرق ، مستقبل الصخرة العاري العادم الاحساس . سرمدية . كان حسبها نقطة صغيرة سوداء ليفجرها رماداً ، وقد كانت مع ذلك سرمدية . رجل وحيد ، منسيّ يأكله الظلام تجاه هذه السرمدية القابلة للضاء . وارتعش وفكر : اني ايضاً سرمدية خالد .

ولقد تم ذلك من غير ألم . كان ثمة رجل رقيق معتدل يحب بارييس ويتنزّه فيها . وقد مات الرجل . مات مثل « والدك - دوسو » و « تورو دانجان » ؛ وكان قد استغرق في ماضي العالم ، مع السلام ، وكانت حياته قد سُكبت في دقائق « الجمهورية الثالثة » . وسوف تغذي فقائه اليومية الاحصائيات المتعلقة بمستوى حياة الطبقات الوسطى بعد عام ١٩١٨ ، وستصلح رسائله ووثق لتاريخ البورجوازية لفترة ما بين الحربين ، وستكون حيراته وتردداته ونقائمه ونذمه ثمينه جداً لدراسة

الأخلاق الفرنسية بعد سقوط الامبراطورية الدنية . كان هذا الرجل قد شق لنفسه مستقبلاً على قدمه ، مسوداً ، مدخناً ، خاضعاً ، مثقلاً بالعلامات والمراعيذ والمشاريع . مستقبل صغير تاريخي وقابل للموت : وكانت الحرب قد سقطت عليه بكل ثقلها فسحقته . ومع ذلك ، وحتى هذه اللحظة ، كان ما يزال ثمة شيء يمكن ان يسمى ماتيو : شيء كان يتشبه به بكل قواه . ولن يعرف ان يقول ما هو . فربما كان بعض عادة قديمة ، او ربما كان طريقة ما لاختيار افكاره على صورته ، لاختيار نفسه يوماً فيوماً على صورة افكاره ، لاختيار ما كله وملابسه والاشجار والبيوت التي كان يراها . وفتح يديه واستسلم ؛ كان ذلك يتم بعيداً جداً في اعماق نفسه ، في منطقة ليس للكلمات فيها من معنى بعد . استسلم ، ولم يبق بعد الا نظراً . نظراً جديداً كل الجدة ، من غير حماسة ، مجرد شفافية . وفكر في فرح : « لقد فقدت روحي . » وعبرت امرأة هذه الشفافية . وكانت على عجل ، وكان كعباها يطفقان على الرصيف . وانسلت في النظر الجامد ، مهمومة ، ميتة ، زمنية ، يفرسها ألف مشروع صغير ، وامرت يدها على جبينها ، فيما هي تمشي ، لتلقي خصلة الى الورا . كنت مثلها ، خلية مشاريع . ان حياتها حيائي ؛ فتحت هذا النظر ، تحت السماء اللامبالية ، كانت جميع الحيوانات تتعادل ؛ واخذها الظلام ، وكان كعباها يطفقان في شارع بونابرت ؛ وذابت جميع الحيوانات البشرية في الظلام ، وانطفأت الطقطة :

نظري . كان ينظر الى بياض برج الجرس المخنوق . كل شيء ميت . نظري وهذه الاحجار . خالد ومعدني ، مثلها . كان ثمة ، في مستقبلي القديم ، رجال ونساء ينتظرونني يوم ٢٠ حزيران ١٩٤٠ ، ويوم ١٦ ايلول ١٩٤٢ ، ويوم ٨ شباط ١٩٤٤ ، وكانوا يومثون لي ، اما الآن ، فإن نظري وحده هو الذي ينتظر نفسه في المستقبل ، على مدى النظر ، كما تنتظر هذه الاحجار نفسها ، تنتظر نفسها احجاراً ،

غداً ، وبعد غد ، والى الأبد . وفرحة هائلة كالبحر ، كان ذلك
 هيداً . ووضع يديه على ركبتيه ، وكان يودّ ان يكون هادئاً : منذ
 الذي يثبت لي اني لن أعود غداً ما كنته بالأمس ؟ ولكنه لم يكن
 خائفاً ، يمكن للكنيسة ان تنهار ، ويمكن لي ان اسقط في حفرة قنبلة ،
 واسقط مرة اخرى في حياتي : فلا شيء يستطيع ان يتزع مني هذه
 اللحظة الخالدة . لا شيء : فان هذا الإشراق الجاف الذي يلهب أحجاراً
 نحتت سماء سوداء ، سيكون قد وُجد الى الأبد ؛ المطلق ، الى الابد ،
 المطلق ، بلا سبب ، ولا حجة ، ولا هدف ، ولا ماضٍ آخر ،
 ولا مستقبل آخر غير الذبوعمة ؛ مجانية ، اتفاقية ، رائحة . وقال لنفسه
 فجأة : « انني حر » وسرعان ما تحول فرحه الى قلقٍ ساحق .
 كانت ايرين ضجرة . ولم يكن يحدث شيء ، الا ان الجوقة كانت
 تعزف . وان مارك كان ينظر اليها بعيني فُقمّة .
 والواقع انه لم يكن يحدث شيء ، قط ، واذا اتفق ان شيئاً
 ما كان يحدث ، فانه لم يكن يُلاحظ على التوّ . كانت تتابع بنظرها
 امرأة اسكندينية ، شقراء طويلة كانت ترقص منذ أكثر من ساعة ،
 حتى من غير ان تجلس بين الرقصات ، وفكرت في تجرّد : ان هذه
 المرأة أنيقة الملبس . وكذلك فان مارك أتق الملبس ؛ الجميع كانوا
 انقي الملبس ، باستثناء ايرين التي كانت تُحسّ نفسها قدرة في ثوبها
 للعقيقي ، وكانت لا تكترث بذلك . فأنا اعرف جيداً أنه لم يكن لي
 ميلٌ للاهتمام بزيتي ، ثم من اين عساي آخذ المال لاجدد ملابسي ،
 فجرد التردد على الاغنياء يقتضي إيجاد الوسيلة حتى لا يلاحظ الناس
 ذلك ، وكان ثمة نصف دزينة قد اصبحوا ينظرون اليها : ثوب رخيص
 ملتمع بعض الشيء ، كان يثير قابليتهم ، فيشعرون انهم أقل خوفاً وهيباً .
 كان مارك مرتاحاً راضياً ، لانه كان غنياً ، وكان يحب ان يصحبها
 الى بيوت الاغنياء ، لان ذلك كان يضعها في موضع التدنّي ، فتخفّ

مقاومتها كما كان يظن ؟

وسأل : - لماذا لا تريدين ؟

فانفضت ايرين :

- ما الذي لا أريده ؟ آه ، نعم ...

وابتسمت من غير ان تجيب .

- بم كنت تفكرين ؟

- كنت أفكر بأن قدحي كان فارغاً . فاطلب لي قدحاً آخر من

« الشيري غوبلر » .

فطلب مارك قدح شيري غوبلر آخر : وكان طريفاً بعض الطرافة ان تحمله على الدفع ، لأنه كان يسجل نفقاته كل يوم بيومه على دفتر . سوف يكتب هذا المساء : خروج مع ايرين ، قدح جن فز ، قدحا شيري غوبلر : مئة وخمسة وسبعون فرنكاً . ولاحظت انه كان يلامس ذراعها بطرف سبابته ، ولا بد انه كان يتسلّى بذلك منذ حين .

- قولي ، ايرين ، قولي ، لماذا ؟

قالت وهي تتشاءب : - هكذا . لا أدري .

- اذن ، من اجل هذا بالذات : اذا كنت حقاً لا تدريين ...

- آه ، كلا ! انما هو العكس : فحين أنام مع احد ، اريد ان

اعرف لماذا . يكون ذلك من اجل عينيه ، او من اجل عبارة قائلها ،
او لأنه جميل .

قال مارك بصوت منخفض : - انا جميل .

فأخذت ايرين تضحك ، واحمرّ وجهه . ثم قال بحموية :

- مهما يكن ، فأنت تفهمين ما أقصده .

قالت : - افهمه جيداً ، جيداً جداً .

فامسك بمعصمها :

- ايرين ، بربك ، ما الذي ينبغي ان افعله ؟

وانحنى عليها في ذل مكشتر ، وكان الانفعال يعكر نفسه ، وفكرت
« كم انا ضجرة : »
- لا شيء . لا فائدة من شيء :
قال : - هكذا !

وتركها وارتدّ برأسه الى الخلف ، وهو يكشف عن اسنانه . وكانت
ترى نفسها في المرآة انسانة متسخة ذات عينين جميلتين ، وكانت تفكر :
« يا إلهي ! كم من مشاكل من أجل هذا ! » كانت نخجلة من اجله
ومن أجلها ، وكان كل شيء تفهأ مضجراً ؛ انها لم تكن لفهم بعده
لماذا كانت تتمتع : انني احدث كثيراً من الارتباك ؛ كان افضل ان
تقول له : « اتريد ذلك ؟ حسناً ، هيا بنا : نصف ساعة في غرفة
فندق : ماذا ! رذالة صغيرة بين خطائين ، ثم نعود بعد ذلك لننهى
امسيتنا ، وتدعني وشأني . ولكن كان ينبغي ان تؤمن بأنها كانت
ما تزال تعلق اهمية مفرطة على جسدها المسكين : كانت تشعر جيداً
بأنها لن تستسلم .»

وقال : - انني اجدك غريبة :
وكان يدبر في محجريه عينين كبيرتين جميلتين خبيثتين : انه سيحاول
ان يؤذيني ، وهذا مألوف ، ثم يستميحني العذر . وقال في سخرية :
- ما أشدّ ما تدافعين عن نفسك ! لو لم اكن اعرفك منذ اربعة
اهوام ، لكان باستطاعتي ان اظن انك تمثلين الفضيلة !
ونظرت اليه باهتمام مفاجيء واخذت تفكر . حين كانت تفكر ،
يخفّ ضجرها . وقالت :

- انت على حق ، هذا غريب جداً : انني سهلة ، وهذا واقع ،
ومع ذلك افضل ان أقطع على ان انام معك : فهل تستطيع ان تشرح
لي ذلك ؟ ! (وتفحصته بتجرد وأضاف) بل اني لا استطيع حتى
ان اقول اني اشمئز منك حقاً .»

قال : - بصوت منخفض . تكلمي بلهجة أخفت (وانصاف
بمقد) ان لك صوتاً صغيراً ناقباً يُسمع بعيداً .
وصمتا . وكان الناس يرقصون ، والحوقة تغزف « كارافان » .
وكان مارك يُدير قدحه على الخوان ، فتصادم في داخله قطع الثلج
الصغيرة . وسقطت ايرين مرة اخرى في ضجرتها .

وقال فجأة : - الواقع اني اظهرت لك اكثر مما ينبغي اني اشتبهك .
وكان قد وضع يديه على الطاولة يملسها بهدوء ، كان يحاول ان
يسترد عزته البشرية ، ولم تكن لذلك اهمية ، فانه سيفقدها مرة اخرى بعد
بعد خمس دقائق . وقد بسمت له مع ذلك ، لأنه كان يتيح لها الفرصة
لكي تتساءل عن نفسها . وقالت :

- صحيح ، في هذا شيء من الحق . لا بد ان في ذلك شيئاً من
الصحة :

كان مارك يبدو لها عبر محابة . محابة دهشة صغيرة هادئة صعدت
من قلبها الى عينيها . وكانت تحب كثيراً ان تُحس نفسها مندهشة
على هذا النحو ، مع جميع الأسئلة التي يطرحها الانسان على نفسه والتي
ليس لها من جواب . وشرحت له :

- لاني اعجب كثيراً حين اجد أحداً راغباً في رغبة مفرطة . اسمع
يا مارك اني اجدني مضحكة : ربما يكون هتلر قد هاجمنا غداً ، بينما
انت هنا تتأمل لاني لا اريد ان انام معك . لا بد ان تكون حقاً
شخصاً مسكيناً حتى تضع نفسك في حالات مثل هذه بصدد امرأة مثلي أنا .
فقال بصوت غاضب : - إن هذا يعنيني .

- وهذا يعنيني انا ايضاً : فأنا أكره ان يقدرني الناس اكثر مما
أستحق :

وساد صمت . اننا حيوانات . نضع الكلمات على غريزة . ونظرت اليه
من زاوية عينيها : حسناً سوف تزول ثقته . كانت ملامحه تنبسط ،

- «وكانت اشق لحظة على وشك ان تجيء ؛ لقد حدث مرة في مقهى
 « الميلوديز » ان بكى . وفتح فيه ، فقالت له بحوية :
 - اسكت يامارك . ارجوك : فانك ستقول حماقة او قذارة ؛
 فلم يسمعها ؛ كان يحرك رأسه من اليمين الى الشمال ، وكان يبدو
 بهيئة شؤم ، وقال بصوت منخفض :
 - ايرين ، سوف اذهب .
 - تذهب ؟ الى اين ؟
 - لا تتباهي . لقد فهمتني .
 - يعني ؟
 - أظن ان ذلك يؤثر لديك على كل حال .
 فلم تجب : كانت تنظر اليه بإحدااد . وبعد لحظة ، استطرد وهو
 يدير رأسه :
 - في سنة ١٤ ، استسلمت نساء كثيرات لرجال كانوا يحبونهن ،
 للمجرد انهم كانوا ذاهبين الى الحرب .
 وصمتت ؛ وأخذت يدا مارك تهتزان .
 - إن هذا يا ايرين أمر لا اهمية كبيرة له عندك ، اما بالنسبة لي ،
 فان له اهمية كبيرة ، ولا سيما في هذه الفترة ...
 قالت ايرين : - لا فائدة .
 فالتفت اليها بعنف وقال :
 - وأخيرا ، يا الله ! انما من اجلك سأقاتل !
 قالت ايرين : - قدر !
 ومرعان ما تراخى ، واحمرت عيناه .
 - لا استطيع ان احتمل التفكير بأني سأموت من غير ان اكون قد
 «امتلكتك» .
 ونهضت ايرين :
 - تعال لرقص .

ونَهَض بوداعة فرقصا . وكان ملتصقا بها ، وقد استدار بها بخطى واسعة حول للقاعة ، وفجأة انقطع نَفْسها ، فسألها :

- ما بك ؟

- لا شيء على الإطلاق .

كانت قد رأت فيليب جالسا مهدوء قرب امرأة جميلة ، ولكنها بدأت تشيخ . « كان هنا ! كان هنا ، بينما كانوا يفتشون عنه في كل مكان ! » ووجدته ممتعاً ، وتحت عينيه دوائر كالحلقة . ودفعت مارك الى وسط الجمع : يجب خصوصاً الا يراها فيليب . وكفّت الموسيقى ، فعادا الى طاولتهما . وتداعى مارك للسقوط على المقعد . وكانت ايرين توشك ان تجلس حين رأت رجلا ينحني امام الزنجية . قال مارك : - اجلسي . لا احب اراك واقفة :

قالت بنفاد صبر : - دقيقة !

ونَهَضت الزنجية في كسل ، فضمّت الرجل . ونظر فيليب اليها لحظة بهيئة مذعورة ، فأحسّت ايرين بقلبها يقفز في صدرها . وفجأة نهض وتسلّل الى الخارج .

قالت ايرين : - اعذرني لحظة .

- اين انت ذاهبة ؟

- الى المراحيض : هل انت مسرور الآن ؟

- سنتظاهرين بانك ذاهبة اليه ، ثم تفرقعين :

فأشارت الى محفظتها على الطاولة .

- لقد بقيت محفظتي في مكاني .

وهمهم مارك من غير ان يجيب ؛ واجتازت الحلبة وهي تزيع الراقصين بضربات من كتفيها .

قالت امرأة : - ان هذه مجنونة !

وكان مارك قد نهض خلفها ، فسمعه يصيح :

— ايرين ا

ولكنها كانت قد اصبحت خارجاً : مها يكن من امر ، فهو محتاج الى خمس دقائق ليدفع ثمن المشروب . كان الشارع مظلاً ، وفكرت : « شيء مزعج . لقد أضعته . » ولكن حين ألقت عينها الظلام ، رأته يسرع في أنجاه « الرنيتيه » محاذياً الجدران . وأخذت تعدو : « لنذهب حتمينى ، فاني سأخسر فيها علبه المسحوق ، ومئة فرنك ورسالتى مكسبم : » ولم تكن « نحس » بعد بالضجر قط ، واجتازا على هذا النحو زهاء مئة متر وهما يركضان ، ثم توقفت فيليب فجأة حتى « ان ايرين حسبت انها تصدمه . وجنحت جنوباً سريعاً . فتخطته ، واقربت من باب بناية فقرعت جرسه مرتين . وانفتح الباب اذ كان فيليب قد ادركها . وتلبثت لحظة ثم صفقت المصراع بعنف ، كما لو انها دخلت البيت . وكان فيليب يسير الان ببطء ، فكان اللحاق به لعبة . وبين الفينة والفينة ، كان الظلام يتلعه ، ثم كان بعد ذلك بقليل ينبتق من الليل تحت مطر فانوس مضيء . وفكرت : « ما اشد ما أنسلتى ! » كانت مغرمة بملاحقة الناس ، وكانت تستطيع ان تمشي ساعات خلف اشخاص لم تكن حتى لتعرفهم .

وكان ما يزال على الجادات كثير من الناس ، وكان الجو اكثر إشراقاً بسبب المقاهي والواجهات . وتوقفت فيليب للمرة الثالثة ، ولكن ايرين لم تدع نفسها تؤخذ على حين غرة ، فظلت متخفية خلفه ، في زاوية مظلمة ، وانتظرت . « لعله على موعد . » والفت اليها ، وكان متحمساً ، وأخذ فجأة يتكلم ، فحسبت انه قد عرفها ، غير انها كانت واثقة من انه لم يكن يستطيع ان يراها . وتراجع بخطوة ، ودمدم بيكبات ، وكان يبدو مدعوراً ، وفكرت : « لقد أصبح مجنوناً . » ومرت امرأتان . شابة وعجوز ، تضعان قبعتين ريفيتين . فاقرب منها . وكان له رأس استعراضي ، فقال :

— لتسقط الحرب !

فحسب المرأتان خطاهما : لا بسد انهما لم تفهما . وكان ضابطان يتقدمان خلفها ؛ وصمت فيليب وتركها يمسران . وكانت تتبعها عن كذب بغى معطرة صدمت رائحتها ايرين في أنفها . وانزوع فيليب امامها بهيئة شرسة ، وكانت قد بدأت تبسم له ، ولكنه قال لها بصوت مخنوق :

— لتسقط الحرب ! ليستقط دالاديه ! ليحي السلم !

وقالت المرأة : — اي منفوخ مغرور !

ومرت ، وهز فيليب رأسه ، ونظر ذات اليمين وذات اليسار . بهيئة غاضبة ، ثم اندس فجأة في ظلمات شارع ريشليو . وكانت ايرين تضحك بشدة حتى انها اوشكت ان تفضح نفسها .

— دقيقتان بعد .

كان برعش المفتاح ، فينبثق نغم جاز ، واربعة الحان ساكسوفون ، ونجمة ملدنة .

قالت ايفيش : — اوه ، دعه ، هذا جميل .

وأدار السيد صرغين المفتاح ، فحل محل شكوى الساكسوفون نغم ممتد معتقد ، ثم تأمل ايفيش في قسوة :

— كيف تستطيعين ان تحبتي موسيقى المتوحشين هذه ؟

كان يحتقر الزوج . وكان قد احتفظ من حياته كطالب في ميونخ بذكريات ساطعة ، وشغف بواغتر : ورداد :

— لقد آن الاوان .

وارتج الجهاز بصوت ، صوت فرنسي حقيقي رزين ، ودي ، يجهد في ان يعبر بثنيات منغمة عن جميع ذبذبات الخطاب ، صوت نافذ حقيق لأخ كبير . انني احتقر الاصوات المرنسية . وابتسمت لأبيها وقالت بجن ، لتستعيد قليلا من مشاركتها القديمة :

— انني احتقر الأصوات الفرنسية .

وكان الصوت يقول : « استقبل المستشار هتلر اليوم ، للمرة الثانية مبعوث رئيس الوزارة البريطانية ، فأعلمه انه اذا لم يتلق قبيل الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر الغد جواباً مرضياً من براغ بشأن وعد اخلاء منطقة السودان ، فانه يحتفظ بحق اتخاذ التدابير الضرورية . »
« ويُقدر بصورة عامة ان المستشار هتلر قد اراد ان يشير الى التعبئة العامة التي كان الأمر بها منتظراً ليوم الاثنين ، والذي لم يؤخر بلا شك الا بسبب رسالة رئيس الوزارة البريطانية : »
وصمت الصوت . ورفعت ايفيش ، وقد جفت حنجرتها ، عينيها الى أبيها : وكان قد شرب هذا الكلام في غبطة بليدة كل البلادة . وسألت في تجرد :

— ماذا تعني التعبئة تماماً ؟

— انها تعني الحرب .

— هل تعني ذلك بالضرورة ؟

— يعني ! يعني !

قالت بعنف : — اننا لن نقاتل ، لا نستطيع ان نقاتل بسبب التشيكيين :

فابتسم السيد سرخين في عذوبة وقال :

— تعرفين انه حين يعلنون التعبئة ...

— ولكن ما دمنا لا نريد الحرب :

— لو كنا لا نريد الحرب لما أعلننا التعبئة :

فنظرت اليه في ذهول :

— هل أعلننا التعبئة ، نحن ايضاً ؟

قال وهو يحمر : — لا ، اعني الألمان :

قالت ايفيش في جفاف :

— آه ؟ انا كنت اتحدث عن الفرنسيين :

وعاد الصوت يقول ، مهدتاً وديعاً :

« وفي اوساط برلين الاجتماعية ، يرون بصورة عامة ... »
قال السيد سرغين : « هس » . ثم عاد الى الجلوس ، وقد أدار وجهه الى الجهاز ، وفكرت ايفيش : « اني يتيمة » : وغادرت الغرفة على رؤوس أصابعها ، فعبرت الممر ، وأغلقت على نفسها باب غرفتها وكانت اسنانها تصطك : سيمرون في لاون ، وسيحرقون باريس ، وشارع السين ، وشارع لاغيتيه ، وشارع لاروزيه ، ومرفص جبل سانت جنيفاف : اذا احترقت باريس ، قتلت نفسي ، وفكرت وهي تتداعى للسقوط على سريرها : « اوه ! ومتحف غريفين ؟ » انها لم تقصده قط ، وكان ماتيو قد وعداها بان يصحبها اليه في تشرين الاول ، وهم سيحيلونه بقنابلهم الى رماد . واذا حدث ذلك هذه الليلة ؟ كان قلبها يقفز في صدرها ، وكانت تشعر بالبرد في ساعديها وكفئها ، ما الذي يمنعهم من ذلك ؟ ربما كانت باريس في هذه الساعة بالذات قد تحولت الى رماد ، وانهم يخفون ذلك حتى لا يربعوا السكان . الا اذا كان هذا ممنوعاً باتفاقات دولية ؟ كيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ وفكرت في غضب : « اوه ، اني متأكدة ان هناك من يعرف ، وانا لا افهم من الامر شيئاً ، فلقد تركوني في الجهل ، كانوا يقسروني على تعلم اللاتينية ، ولم يقل لي أحد شيئاً ، وهذا هو الوضع الآن ! (وفكرت في سرور) ولكن لي الحق بان احيا . لقد ولدت لكي احيا ، ان لي الحق بذلك » : وكانت تُحس بانها مجردة تجرماً عميقاً حتى انها ارتمت على وسادتها تهزها خمس غصات ، أو ست . وتمت : « ان هذا ظلم لا يحتمل ، فاذا افترضنا احسن الفروض ، فان الحرب ستستغرق ستة اعوام ، عشرة ، وسوف تلبس النساء جميعاً مثل ثياب المرضات ، حتى اذا انتهت الحرب : اصبحت عجوزاً . ولكن دموعها لم تنحدر ، وكان في قلبها قطعة ثلج صغيرة : وانتصبت فجأة : « من ؟ من الذي يريد الحرب ؟ » إننا لو اخذنا الناس واحداً

واحداً لم نجدهم يحبون الحرب ، انهم لا يفكرون الا بأن يأكلوا ،
وان يربحوا المال . وأن ينجبوا الاطفال . حتى الالمان . ومع ذلك ،
فان الحرب كانت هنا ، وكان هتلر قد اعلن التعبئة . وفكرت :
« غير انه مع ذلك لا يستطيع ان يقرر هذا وحده . » ومرت عبارة
في رأسها ، اين تراها قد قرأتها ؟ لا بد انها قرأتها في جريدة ، الا
ان تكون قد سمعتها عند الغداء ينطق بها زيون لأبيها : من تراه يكون
خلفه ؟ ورددت بصوت منخفض وهي تقطب حاجبيها وتنظر الى اطراف
حداتها : « من تراه يكون خلفه ؟ » وكانت تأمل قليلا ان يتجلى
كل شيء ، واستعرضت اسماء جميع تلك القوى الكبيرة التي تقود
للعلم ، الماسونية ، اليسوعيين ، المثني امرة ، تجار المدافع ، اسيا
للذهب ، جدار الفضة ، شركات الحصر الاميركية ، الانترناسيونال
الشيوعي ، الكوكلوكلان ، لا بد ان ثمة بعضاً من هذه كلها ، وربما
كان هناك شيء آخر ايضاً ، جمعية سرية تماماً وقوية جداً يجمل الناس
حتى اسمها . وتساءلت فيما كانت دمعتان من الغضب تسيلان على خديها :
« ولكن ما عساهم يريدون ؟ » وحاولت لحظة ان تحزر حججهم ،
ولكنها كانت تشعر بأنها فارغة ، وان دثرة من معدن كانت تدور تحت
جمعيتها . « ليتني فقط أعرف اين هي تشيكوسلوفاكيا ! » وكانت قد ثبتت
على الجدار ، بمسامير صغيرة ، لوحة مائية كبيرة زرقاء مذهبة : تلك هي
اوروبا ، وكانت قد تساءت برسمها ، في الشناء الماضي ، نقلاً عن
خارطة ، وهي تصحح قليلاً زواياها ، وكانت قد رسمت أنهاراً في
كل مكان ، وقعت الشيطان المسطحة اكثر مما ينبغي ، وحاذرت
خصوصاً ان يكتب اي اسم على الخارطة : فذلك كان أوحى بالعلم
والادراك ؛ ولم يكن ثمة حدود ايضاً : فقد كانت تكره خطوط النقط .
واقتربت : كانت تشيكوساوفاكيا هنا ، في مكان ما ، في أكثف
الاراضي . هنا ، مثلاً ، الا أن تكون هذه روسيا . والمانيا ، اين هي ؟

كانت تنظر الى الشكل الكبير الأملس الاصفر ، المؤطر بالازرق ، وهي تفكر : « هذه الارض كلها ! » ثم تشعر بأنها ضائعة . وانفلتت ، وتركت ثوبها يسقط وترأت عارية في المرآة ، وكان ذلك في العادة يُعزبها كلما احسّت بالهموم . ولكنها رأت نفسها فجأة صغيره جداً ، تُرثمة ، ذات بشرة جلطية ، لأن شعرها كان قد قف ، وحلمتي نهديها قد انتصبتا ، وكانت تحقر جسمها ، جسم مستشفى حقيقياً ، يقال انهم سيغتصبون جميع النساء ، وهم يستطيعون ان يقطعوا لي ساقاً . لئن دخلوا غرفتها ، ووجدوها عارية تماماً تحت غطائها : امامك خمس دقائق لترتدي ثيابك ، ثم انهم سيدبرون ظهورهم ، كما حدث للاري انطوانيت ، ولكنهم سيسمعون كل شيء ، حفيف القدمين الناعم على السرير ، وهسهسة القماش على البشرة . وتناولت بنظاها وجوريها غارتدتها بسرعة ، فعلياً ان انتظر المصيبة وانا واقفة لابسة ثيابي . وحين ارتدت تنورتها وقبصها ، احسّت انها محمية بعض الشيء . ولكنها سمعت وهي تتعل حذاءها صوتاً منخفضاً يدمدم بالالمانية ، في المرآة .

« إيش هات اينان كاميراد ... »

فهرعت ايفيش الى الباب وفتحته ، فاذا هي وجهاً لوجه مع أبيها ، وكان يبدو مزهواً مرحاً . وقالت غاضبة :

— ماذا تغني ؟ ما الذي تسمح لفسك أن تغنيه ؟

فنظر اليها ببسمة موافقة وقال :

— انتظري ، انتظري قليلاً يا ضفدعتي الصغيرة : فسوف نراها مرة اخرى ، روسيتنا القديسة .

ودخلت غرفتها وهي تصفق الباب : « إنني أهزأ بروسيا القديسة ، وانا لا اريد ان يهدموا باريس ، واذا استباحوا اي شيء ، فسرى كيف تنطلق الطائرات الفرنسية لإلقاء قنابلها على ميونيخك ! »

وخفّ صوت القدمين في المر ، وسقط كل شيء مرة اخرى في
السكون . وكانت ايفيش واقفة متصلبة وسط الغرفة ، وهي تتجنب
ان تنظر الى نفسها في المرآة : وفجأة انطلقت ثلاث صفارات آمرة ،
وكانت صادرة من الشارع ، فارتعشت من رأسها الى قدميها . في
الخارج ، في الشارع : كل شيء كان يجري في الشارع : لقد كانت
غرفتها سجنًا : كانوا يقررون حياتها في كل مكان ، في الشمال ، في
الشرق ، في الجنوب ، في كل مكان في هذه الليلة المسممة ، المثقوبة
بالبرق ، الملامى بالهمس والمشاورة ، في كل مكان إلا هنا حيث كانت
مسجونة ، وحيث لم يكن ثمة ما يحدث قط . واخذت يداها وساقها
ترتجف ، فتناولت محفظتها ، وامرت مشطها على شعرها ، وفتحت
الباب بلا ضجة ، وانسلت الى الخارج .

في الخارج . كل شيء في الخارج : الشجر على رصيف المحطة ،
بيتا الجسر اللذان يوردان الليل ، عدو حصان هنري الرابع الجامد فوق
رأسي : كل ما يثقل في الداخل ، لا شيء ، حتى ولا دخان ،
ليس ثمة من داخل ، ليس ثمة شيء . انا : لا شيء . وقال في نفسه
وفه جاف : اني حر .

وفي وسط جسر « بونيف » ، توقف وأخذ يضحك : هذه الحرية ،
بمحت عندها بعيداً جداً ، وكانت من القرب بحيث لم اكن استطيع
رؤيتها ، ولم استطع لمسها ، وهي لم تكن الاي ، اني حريتي : وكان
قد أمل ان يفيض ذات يوم فرحاً ، وان تخترقه الصاعقة من جانب الى
جانب : ولكن لم يكن ثمة صاعقة ولا فرح : وانما كان هناك هذا
العوز ، هذا الفراغ المأخوذ بالدوار أمام نفسه : هذا الضيق الذي كانت
شفافيته بالذات تمنعه من ان يرى نفسه الى الأبد . ومد يديه وأمرهما
متمهلاً على حجر الدرايزون ، وكان خشناً ، متصدعاً ، اسفنجية
متحجرة ، حارة ما تزال من شمس الأصيل . كان هنا ضحماً ،

كثيفاً ، حابساً في نفسه السكون السحيق والظلمات المضغوطة التي هي قلب الاشياء . كان هنا : امتلاء . وقد كان يوّد لو يتعلق بهذا الحجر ، ويمتزج به ، ويمتليء من كثافته ، ومن راحته : ولكن الحجر لم يكن يستطيع ان ينجده بشيء : كان في الخارج الى الأبد . ومع ذلك ، فقد كانت هناك يدها ، على الدرايزون الابيض : إذا ما نظر اليهما ، حسبها من البرونز . ولكنها لم تكونا يديه ، لأنه انما كان يستطيع ان يراها . كانتا يدي رجل آخر ، في الخارج ، كالأشجار ، وكالاشعاعات التي كانت ترتعش في السنين ، يدين مقطوعتين . وأغمض عينيه ، فاذا هما من جديد يدها : ولم يبق من الحجر الحار الا مذاق حامض مألوف ، مذاق نملة تافه . يداي : المسافة الزهيدة التي تكشف لي الاشياء وتفصلني عنها الى الأبد . اني لست شيئاً ، وليس عندي شيء . اني شديد الالتصاق بالعالم ، كالنور ، ومع ذلك ، منفي عنه كالنور ، منزلق على سطح الحجارة والماء دون ان يربطني او يرمطني شيء . في الخارج ، في الخارج . خارج العالم ، خارج الماضي ، خارج نفسي : ان الحرية هي المنفى ، وانا محكوم عليّ بان اكون حراً .

وخطا بضع خطوات ، وتوقف من جديد ، فجلس على الدرايزون ونظر الى الماء يجري . وماذا تراني سأصنع بكل هذه الحرية ؟ ماذا تراني سأصنع بنفسني ؟ لقد طبعوا مستقبله بطوابع دقيقة : المحطة ، القطار الى نانسي ، الثكنة ، استعمال السلاح ، ولكن هذا المستقبل وتلك الطوابع لم تكن لتخصه بعد . لم يكن ثمة بعد ما يخصه : كانت الحرب تحرث الارض ، ولكنها لم تكن حرّيه . كان وحيداً على هذا الجسر ، وحيداً في العالم ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يصدر اليه امراً . وفكر في ضجر : « اني حر من أجل لا شيء » ، لا علامة في السماء ولا على الارض ، ان حربهم قد استغرقت أشياء العالم اكثر مما ينبغي ، فكانت تدبير رؤوسها المتعددة الى الشرق ، وكان ماتيو يركض على

سطح الأشياء ، فلا نحس به : منسي : منسي من الجسر الذي كان يحمله من غير اكترات ، ومن هذه الدروب التي كانت تنساب نحو الحدود ، ومن هذه المدينة التي كانت تتحامل قليلا على نفسها لتنظر في الافق حريقاً لم يكن يعنيه . منسي ، مجهول ، وحيد : متأخر ، كان جميع المجندين قد رحلوا منذ أمس الاول ، ولم يكن له هنا ما يفعله بعد . أسنقل القطار ؟ لا أهمية لذلك اطلاقاً . الأرحل ، ام أبقى ، ام أفر ، لم تكن هذه هي الاعمال التي تضع حريته في خطر : ومع ذلك فقد كان ينبغي ان يحاظر بها : وتثبيت بالحجر ، بكلتا يديه ، وانحنى فوق الماء . كان حسبه غطسة واحدة ، فيلثمهم الماء ، وتصبح حريته ماء . الراحة . ولم لا ؟ ان هذا الانتحار الغامض سيكون ايضاً مطلقاً : قانوناً برمته ، اختياراً برمته ، أخلاقاً برمته . عملاً فريداً لا مثيل له بضوء ، لمدة لحظة ، الجسر والسبن ، حسبه ان ينحني أكثر قليلا ، فيكون قد اختار نفسه للخلود : وانحنى ، ولكن يديه لم تكونا لتترك الحجر ، وكانتا تحملان نقل جسمه كله : لم لا ؟ لم يكن لديه سبب خاص ليتداعى الى الفرق ، ولكن لم يكن لديه كذلك سبب ليعتنع عن ذلك : وقد كان العمل هنا ، أمامه ، فوق الماء الأسود ، وكان يرسم له مستقبه : كانت جميع الجبال قد قطعت ، وما كان لشيء في الدنيا ان يمسكه : وكان ذلك هو الفطيع ، الحرية الفطيمة ، كان يشعر بقلبه المستطار يخفق في أعماق نفسه ، حركة واحدة ، يدان تنفتحان ، فأكون ماتيو . وارتفع الدوار ببطء على النهر ، وانهارت السماء والجسر : فلم يبق بعد الا هو والماء ، وكان الماء يصعد اليه ، ويلمس قدميه المتدليتين . الماء ، مستقبه . هذا صحيح الآن ، سوف أقتل نفسي : وفجأة ، قرر ألا يفعل ذلك : وقرر : لن تكون هذه الا تجربة . وألقى نفسه واقفاً ، ماشياً ، منسرباً على قشرة كوكب ميت ، سيكون ذلك للمرة القادمة .

كانت تركض في الشارع الكبير ، وسمعت مرة اخرى صهريتين او
 ثلاثا ، ثم لا شيء ، وها ان الشارع الكبير يصبح هو ايضا سجنًا :
 لم يكن يحدث فيه شيء ، وكانت واجهات البيوت عمياء مسطحة ،
 وجميع المصاريع مغلقة ، كانت الحرب في مكان آخر ، واستندت
 لحظة الى حاجز عين ، وكانت قلقة وخائبة ، ولكنها لم تكن تعرف
 ما امسّته : ربما كان انواراً ، او مخازن مفتوحة ، او اناساً يعلقون على
 الاحداث . لم يكن ثمة شيء على الاطلاق : كانت الانوار تضيء السفارات
 والقصور ، في المدن السياسية الكبيرة ، اما هي ، فكانت محبوسة في
 ليل يومي . وقالت لنفسها وهي تضرب بقدمها الارض : « كل شيء
 يحدث دائماً في مكان آخر » . وسمعت حفيفاً : فكأنه كان ثمة من
 ينسل وراءها : وحسبت نفسها وتسمعت طويلاً ، ولكن الضججة لم
 تحدث مرة اخرى . كانت تحس بالبرد ، وكان الخوف يقبض حلقتها :
 وتساءلت عما اذا كانت لا تحسن صنفاً بالعودة الى البيت . ولكنها لم تكن
 تستطيع ان تعود ، ان غرفتها كانت فظيعة ، فهنا على الاقل ، كانت
 تمشي تحت سماء جميع الناس ، وكانت على اتصال بباريس وبرلين ،
 عبر السماء . وسمعت خربشة متطاولة خلفها ، فجزوت هذه المرة على
 الالفاف : ولم تكن الا قطة : ولقد رأت عينها تلتمعان ، بينما كانت
 تجتاز الطريق من اليمين الى اليسار ، وكانت تلك علامة سيئة . واستعادت
 ركضها ، فانعطفت الى شارع « تير » وتوقفت ، يكاد نفسها ينقطع ،
 « الطائرات » : كانت تهدر هديرأ أصم ، فلا بد أنها ما تزال بعده
 بعيدة جداً . وأرهفت أذنها : لم يكن الصوت قادماً من السماء . فكأن ..
 وفكرت جزعة : « نعم ، انه انسان يشخر » وكان هو « ليسكا » ،
 كاتب العدل ، فقد رأت الاعلام فوق رأسها : كان يشخر ، والنوافذ
 مفتوحة ، ولم تنالك نفسها من الضحك ، ثم تسمرت ضحكها فجأة :
 انهم ينامون جميعاً . اني وحيدة في الشارع ، يحيط بي أشخاص

ينامون ، وليس ثمة من يكثر بي .
انهم جميعاً في الارض ينامون او يهثون حربهم في المكاتب ، وليس
اسمي في رأس واحد منهم : وفكرت مندهشة : ولكني هنا ! انا
هنا أرى وأحس ، وأوجد كما يوجد هتلر !

واستعادت سيرها بعد لحظة فبلغت الساحة ، وكان السهل ، تحت
لاون ، يمتد ، كايلاً . وكانوا قد زرعوا فيه أنواراً ، من بعيد لبعيد ،
ولكنها لم تكن توفر الطمأنينة ؛ كانت ايفيش تعرف جيداً ما كانت
تريه : خطوطاً حديدية وعوارض خشبية وحصى وقاطرات مهجورة
على سكك للمرائب . وكانت باريس قائمة في آخر السهل . وتنفست :
لو كانت تحترق ، لرؤي في الافق ضياء . وكانت الريح تصفق ثوبها
على ركبتيها ، ولكنها لم تكن تتحرك : « ان باريس هناك ، ما تزال
تقطر نوراً ، وربما كانت هذه آخر ليلة لها » . وفي هذه اللحظة نفسها ،
كان اشخاص يصعدون ويهبطون على جادة سان ميشال ، وآخرون في
« الدوم » ربما كانوا يعرفونها وهم يتحدثون فيما بينهم . « آخر ليلة
وانا هنا ، في هذا الماء الأسود ، وحين أصبح حرة ، لن أجد بعد
الا ركاماً من الانقراض وخيماً بين الحجارة . وقالت : يا إلهي ، يا
إلهي ! دعني أراها للمرة الاخيرة . وكانت المحطة هنا ، نحتها تماماً .
انها ذلك الاحمرار في أسفل الدرج ؛ وكان قطار الليل يسير في الساعة
الثالثة وعشرين دقيقة . وفكرت بانتصار : « ان معي مئة فرنك ، مئة
فرنك في محفظتي » .

وكانت قد هبطت درج الطريق الوعرة وهي تركض ، وكان فيليب
يهبط شارع مونمارتر وهو يركض ، جبان ، جبان قدر . آه ! أنا
جبان ؟ حسناً ، سوف يرون . وأفضى الى ساحة . وكان فم « كبير »
مظلم طناً ينفتح من جهة الطريق المقابلة ، وتنبعث منه رائحة الملقوف
واللحم النيء . وتوقف امام حاجز محطة مترو ، وكان على طرف

برصيف سلال فارغة ، ورأى عند قدميه فتات قش وورق خضار
ملوثة بالوحل ، والى اليمين كانت أطيان تروح وتغدو في ضوء مقهى
أبيض . اقتربت ايفيش من نافذة التذاكر .

- تذكرة درجة ثالثة الى باريس .

فسألها الموظف : - ذهاباً واياباً ؟

فأجابت بحزم : - ذهاباً .

تنحج فيليب وصاح بأعلى صوته :

- لتسقط الحرب .

ولم يحدث شيء ، واستمر ذهاب الاشباح واياهم امام المقهى .

وكور يديه امامه :

- لتسقط الحرب .

وبدا له صوته رعداً . وتوقفت بعض الاشباح ورأى رجالاً مقبلين

عليه . وكان عددهم كبيراً ، وكان معظمهم يرتدي قبعات : كانوا

يقربون بلا مبالاة وينظرون اليه باهتمام . وصاح بهم :

- لتسقط الحرب .

وكانوا يحاذونه تماماً ، وكان بينهم امرأتان وشاب أسمر جميل الهيئة .

ونظر اليه في ودّ وأخذ يصرخ ، من غير ان يتزع عنه عينيه :

- ليسقط دالاديه ، ليسقط شمبلن ، ليحيى السلام .

وكانوا قد أصبحوا محيطين به ، فشرع بالرضى ، للمرة الاولى منذ

ثمان واربعين ساعة . كانوا ينظرون اليه وهم يرفعون حواجبهم ولا

يقولون شيئاً . واراد ان يشرح لهم أنهم كانوا ضحايا الاستثمار الرأسمالي ،

ولكن صوته لم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فكان يصيح : « لتسقط

الحرب ! » وكان ذلك نشيد نصر . وتلقى ضربة عنيفة على أذنه فظل

يصرخ ، ثم ضربة على فمه ، وضربة على عينه اليمنى : فسقط على

ركبتيه وكف عن الصراخ . وكانت امرأة قد وقفت امامه ، فكان

يرى ساقبها وحذاءها ذا الكعب المسطح ، وكانت تتخبط وهي تقول :
- قدرون ! قدرون ! إنه طفلٌ فلا تمسّوه .

وسمع ماتيو صوتاً ثاقباً يصرخ : « قدرون ! قدرون ! انه طفل
فلا تمسّوه » وكان ثمة من يتخبط وسط زهاء عشرة أشخاص ذوي
قبّعات ؛ انها امرأة قصيرة كانت ذراعها في الهواء وشعرها يملأ
وجهها . وكان شاب اسمر ذو نُذب تحت اذنه يهزها بعنف وهي تصرخ :
- انه على حق ، وانتم جميعاً قدرون ؛ كان ينبغي ان تكونوا في
ساحة الكونكوردي لتتظاهروا ضد الحرب ، ولكنكم تفضلون ضرب
طفل لأن هذا اقل خطراً .

وكانت أمام ماتيو قوادة ضخمة تنظر الى الحادث بعينين ملتعتين ،
فقالت :

- اقصفوا عمرها !

والثفت ماتيو في انزعاج : لا بدّ ان حوادث كثيرة كهذه تقع
لدى كل منعطف عشية الحرب ، عشية حمل السلاح : إن هذا شيء
بارز ، لم يكن ليعنيه . وفجأة ، فكر بان ذلك كان يعنيه ، فأبعد
القوادة بدفعة من يده ، ودخل الى الدائرة ، فوضع يده على كتف
الشاب الأسمر ، وقال :

- شرطة . ماذا هناك ؟

فنظر اليه الشاب في حذر :

- ان الصبي سقط على الارض ، لقد صاح : « لتسقط الحرب ! »
فقال ماتيو بقسوة : - فهجمت عليه تضربه ؟ ألم تكن تستطيع ان
تنادي شرطياً ؟

قالت القوادة : - ليس هناك من شرطي ، يا سيدي المفتش ؟
قال ماتيو : - انت يا حضرة الكارمن ، تتكلمين حين أوجه

لك الكلام .

وكان الضيق يبدو على الاسمر ، فقال وهو يلحس أصابعه المجروحة :-
- اننا لم نؤذه ، وانما ارسلنا له صفة لتسجيل الاحتجاج .
فسأله ماتيو : - من الذي ارسل له صفة ؟
فنظر ذو النذب الى يديه وهو يتنهد وقال :
- انا .

وكان الاجرون قد تقهقروا خطوة ، فاستدار اليهم ماتيو :
- هل تريدون ان تسجلوا كشهود ؟
فازدادوا تقهقراً دون ان يجيبوا . وكانت القوادة قد اخفت .
فقال ماتيو :

- انفضوا والا أخذت اسماءكم . اما انت ، فابق ..

قال الشاب :

- اذن يُرسل الفرنسيون الى السجن في هذه الساعة اذا ضربوا احد
الدعاة الالمان الذين يقومون بالاثارة والتحدي ؟
- لا تهتم بذلك . سوف نحقق في الامر .
كان الطفيليون قد تفرقوا . وكان اثنان او ثلاثة منهم واقفين على
عتبة مقهى ينظرون : وانحنى ماتيو على الفتى : كانوا قد ضربوه ضرباً
قاسياً . إن الدم يسيل من فمه ، وإن عينه اليسرى مقفلة . وكان
ينظر الى ماتيو بعينه اليمنى في إحداث : وقال باعتزاز :
- لقد صرخت .

قال ماتيو : - ليس هذا أفضل ما صنعت . هل تستطيع ان تنهض ؟
فنهض الفتى على مشقة ؛ وكان قد سقط في الخضار ، فعلقت ورقة
خس في مؤخرته ، وتشبث بعض القش الموصل بسترته . ونفضت
المرأة الصغيرة ثيابه بظاهر يدها ، فسألها ماتيو :
- هل تعرفينه ؟

فترددت : - للا ...

فأخذ الفتى يضحك :

- طبعاً تعرفني . انها ايرين مسكرتيرة بيتو :

ونظرت ايرين الى مانيو نظرة غامضة .

- انك لن تقبض عليه من اجل ذلك ؟

- سوف يزعجني ذلك !!

وشده ذو اللدب من كتمه : ولم يكن يبدو فخوراً ، فقال :

- انني اكسب حياتي ، ياسيدي المفتش ، انا اعمل . فاذا صحبتك

اتالى دائرة الشرطة ، فقدت ليلتي .

- هويتك :

فأخرج الرجل جواز سفر ، وكان يدعى كانارو . فأخذ مانيو

يضحك ، وقال :

- مولود في القسطنطينية ! ولكن اسمع : أينبغي ان نحب فرنسا

الكي تهدم هكذا اول شخص يهاجمها ؟

فقال الرجل بوقار :

- انها وطني الثاني .

- اظن انك ستتطوع ؟

فلم يجب الرجل ، وسجل مانيو اسمه وعنوانه على دفتر صغير ،

وقال له :

- حلّ عن ظهري . سوف تُستدعى . اما انتما ، فتعالا .

ودلفوا ثلاثتهم الى شارع مونمارتر ومشوا بضع خطى . وكان مانيو

يمسك بالفتى للذي كان يترنح على ساقيه . وسألت ايرين :

- قل لي ، هل ستطلق صراحه ؟

فلم يجب مانيو : انهم لم يكونوا بعد قد ابتعدوا عن «المال» بما

فيه الكفاية . ومشوا بضع خطى اخرى ، وحين وصلوا الى فانوس ،
انزعت ايرين امام ماتيو ونظرت اليه في حقد ، وقالت :

- تحري قلر !

فأخذ ماتيو يضحك : كانت خصلة من شعرها قد سقطت على
وجهها ، وكانت تحول عينيها لتنظر اليه عبر الخصلات التي كانت
تتدلى امام عينيها : وقال :

- لست تحرياً .

- بلا مزاح !

وكانت تنفض رأسها لتتخلص من شعرها ، وانتهى بها الامر الى ان
قبضت على خصلاتها بغضب ورددتها الى خلف : وبدا وجهها كامداً مع
عينين كبيرتين . كانت جميلة جداً ، ولم يكن يبدو انها مندهشة جداً
وقالت ملاحظة :

- اذا لم تكن تحرياً ، فقد انتصرت عليهم .

فلم يجب ماتيو . ان هذه الحكاية لم تكن لتسليه بعد . وجاءته رغبة
مفاجئة في ان ينتزه في شارع مونتورغاي . وقال :

- اسمعا : سوف اضعكما في سيارة تاكسي :

وكان ثمة سيارتان او ثلاث واقفة في وسط الشارع ، فاقرب ماتيو
من احدها وهو يجر الفتى خلفه . وتبعتهما ايرين . وكانت تمسك
شعرها بيدها اليمنى ، فوق رأسها :

- ادخلا هنا .

فاحمررت :

- يجب ان اقول لك : لقد فقدت محفظتي :

وكان ماتيو يدفع الفتى الى السيارة ، وكان قد انصق احدى يديه
بين راسليه ، بينما كان يفتح الباب بالثانية ، وقال :

- فتشني في جيب سرتي ، الجيب الايمن :

- وبعد لحظة اخرجت ايرين يدها من الجيب :
- وجدت مئة فرنك ودرهم .
 - احتفظي بالمئة فرنك .
- ودفع الفتى دفعة اخيرة فاسترخى على المقعد . وصعدت ايرين وراءه وسألت :
- ما هو عنوانك ؟
- قال ماتيو : - ليس لي بعد من عنوان . الى اللقاء .
- صاحت ايرين : - هيه ؟
- ولكنه كان قد أدار عقيقه : كان يريد ان يرى مرة أخرى شارع مونتورغاي . كان يريد ان يراه على التو . ومشى مدة دقيقة ، ثم أقبلت سيارة تقف بجانب الرصيف ، على مستواه تماماً ، وفتح الباب ، فأطلت امرأة ، وكانت ايرين ، فقالت :
- إصعد ، بسرعة .
 - فصعد ماتيو الى السيارة .
 - اجلس على هذا الكرسي .
 - فجلس .
- ماذا تريدان ؟
- إن الفتى قد فقد رشده . فهو يقول إنه سيستسلم حتى يسجن ، وهو يعالج الباب طوال الوقت ويريد ان يرمي نفسه خارجاً . وأنا لست من القوة بحيث أستطيع ان امسكه .
- وكان الفتى متزويماً فوق المقعد ، وكانت ركبتاه أعلى من رأسه .
- وأوضحت ايرين :
- انه مصاب بحس الاستشهاد .
 - ما هو عمره ؟
 - لا ادري : تسع عشرة سنة .

وكان ماتيو يتأمل ساقى الفتى الطويلتين : كان في عمر أقدم
تلامذته . وقال :

— اذا كان راغباً في سجن نفسه ، فليس لك الحق في ان تمنع
من ذلك .

قالت ايرين مغتاظة : — انك عجيب حقاً . ولا تقدر ما يعرض
نفسه له .

— هل ضرب أحداً ؟

— كلا .

— ماذا فعل إذن ؟

قالت بهيئة كزة : — انها حكاية طويلة .

ولاحظ انها كانت قد عقدت جدليتها فوق رأسها ، وكان ذلك
يكسبها هيئة هزلية معاندة ، بالرغم من انها الجميل المتعب . قال ماتيو :
— مها يكن من أمر ، فهذا يعنيه . إنه حرّ .

قالت : — حرّ ! ما دمت اقول لك إنه قد فقد رشده .

ولدى كلمة « حرّ » فتح الفتى عينه الواحدة وتمم شيئاً لم يفهمه
ماتيو ، ثم ، من غير ان ينبه أحداً ، ارتدى على مقبض الباب وحاول
ان يفتحه . وفي اللحظة نفسها كانت سيارة اخرى تكاد تلامس السيارة
الواقفة . وأسند ماتيو يده على صدر الفتى وألقاه مرة اخرى على المقعد
وأضاف وهو يلتفت الى ايرين :

— اذا كانت لديّ الرغبة في دخول السجن ، فاني لا احب ان
أمنع من ذلك .

وصاح الفتى : — لتسقط الحرب !

قال ماتيو : — نعم ، نعم . انت على حق . (وكان ما يزال
يشده الى المقعد ، ثم التفت نحو ايرين) أعتقد انه بالفعل قد فقد رشده .
وفتح السائق للزجاج :

- هل نسبر ؟

قالت ايرين بلهجة انتصار :

- ١٥ ، جادة بارك مونسوري .

وخش الفتي يد ماتيو ، ولكنه حين اقلعت السيارة ، اعترم ان يلتزم الهدوء . وظلوا صامتين برهة ، وكانت السيارة تجري في شوارع سوداء لم يكن ماتيو يعرفها . وبين الفينة والفينة كان وجه ايرين يخرج من الظل وما يلبث ان يغرق فيه مرة اخرى . وسأها ماتيو :

- هل انت من بريتاني ؟

- انا من متر . لماذا تسألني ذلك ؟

- بسبب جديلتك .

- إنها بشعة ، أليس كذلك ؟ ان صديقة هي التي تريد ان اسرح

شعري على هذا النحو ؟

وصمتت لحظة ثم سألت :

- انني لا افهم كيف لا يكون لك عنوان ؟

- انني انتقل من منزلي .

- نعم ، نعم ... فانت مجنّد ، أليس كذلك ؟

- طبعاً ، كجميع الرجال .

- هل يروقك ان تخوض الحرب ؟

- لا ادري شيئاً من ذلك : فانا لم اخضها بعد .

قالت ايرين : - انا ضد الحرب .

- لاحظت ذلك .

وانحنت نحوه في حركة مشاركة :

- قل لي : هل فقدت احداً ؟

قال ماتيو : - ان لك هيئة غريبة : انتبه ! انتبه !

كان الفتي قد مد يده خفيةً يحاول ان يفتح البسّاب ، فالتقاء

ماتيو في مقعده قائلاً :

— انريد ان نظل هادئاً ؟ (والثفت الى ايرين) اية حقنة !

— انه ابن الجنرال .

— آه ؟ إذن ، لا بد انه غير فخور بأبيه ؟

وكانت السيارة قد توقفت . فكانت ايرين اول النازلين ، ثم وجب إخراج الفتى . وكان يتشبث بالمساند ويركل بقدميه . وأخذت ايرين تضحك :

— كم هو مشاكس : إنه الآن لا يريد ان يخرج .

وتمكن ماتيو في آخر الأمر من حمله تحت ذراعه ووضعها على الرصيف — اوف !

قالت ايرين : — انتظر لحظة . كان المفتاح في محفظتي ، فيجب ان ادخل من النافذة :

واقربت من بيت صغير ذي طابق واحد كانت احدى نوافذه مفتوحة : وكان ماتيو يمسك الفتى بيد ، ويفتش باليد الاخرى في جيبه ثم مد المال الى السائق :

— احتفظ بالمبلغ كله :

وسأل السائق جذلاً : — ما باله ، الاخ ؟

قال ماتيو : — لقد نال نصيبه :

واقلمت السيارة : وانفتح خلف ماتيو باب ، فبدت ايرين في مستطيل من الضوء وقالت :

— ادخل :

فدخل ماتيو وهو يدفع الفتى الذي كف عن قول شيء : وأغلقت ايرين الباب خلفه :

قالت : — الى اليسار . ان المفتاح الكهربائي على يدك اليمنى :

فبحث ماتيو بالنمسي عن المفتاح ، وانبثق النور . فرأى غرفة مغبرة ،

فيها مرير مؤطر ، ودلو ماء وطست على الطاولة : وكانت دراجة بلا
عجلات معلقة في السقف بخيوط .

— اهذه غرفتك ؟

قالت ايرين : — لا ، بل هي غرفة الأصدقاء .

فنظر اليها وأخذ يضحك :

— جواربك ،

كانت مبيضة من الغبار ، وممزقة لدى الركبتين . ووضحت في

غير اكتراث :

— حدث ذلك وأنا أصعد من النافذة .

وكان الفتي قد انزوع في وسط الغرفة ، وهو يترنح بصورة مقلقة
وينظر الى كل شيء بعينه الواحدة . وعادت اليه ايرين وهي تحمل طستاً
وقطناً ، وقالت :

— لا ، لا ! هيا يا فيليب ، كن عاقلاً !

وكانت قد انحنت فوقه وأخذت تمر بارتباك قطعة قطن على حاجبيه.

وأخذ الفتي يئن ، فقالت بصوت رؤوم :

— نعم ، هذا يقرص ، ولكنه يعود بالخير عليك .

وذابت تضع الطست على الطاولة . ونهض ماتيو قائلاً :

— حسناً ، إنني انسحب .

قالت بحبوية : — اوه ، كلا (وازافت بصوت منخفض) اذا

كان يريد ان يذهب ثانية ، فلست قوية بما فيه الكفاية لأمنعه من ذلك.

— انت لا تعتقدين مع ذلك اني سأسهر عليه طوال الليل ؟

قالت في غيظ :

— ما أقل ميلك للإحسان !

وأضافت بعد لحظة بلهجة مصالحة :

— انتظر على الأقل حتى ينام ، ولن يتأخر ذلك .

وكان الفتى يتلملل في السرير وهو يتمم بكلمات مختلفة : وسألت إيرين :

- اين تراه كان يجرجر نفسه حتى وقع في مثل هذه الحالة ؟
كانت ممتلئة وقصيرة بعض الشيء ، ذات بشرة جامدة ، رقيقة
أكثر مما ينبغي ، لزجة بعض الشيء ، ولم تكن تبدو نظيفة تماماً ،
فكأنها كانت ناهضة من النوم لتوها . ولكن الوجه كان رائعاً : فم
صغير جداً ذو زاويتين متعبتين ، وعينان كبيرتان واذنان صغيرتان
ورديتان .

قال ماتيو : - حسناً ، لقد نام .

- أنظري ذلك ؟

وانفضا : كان الفتى قد استقام ، وقال بصوت قوي :

- فلومي ! بتطلوني !

قال ماتيو : - خراء !

فابتسمت إيرين :

- انت هنا حتى للصباح .

ولكن ذلك كان هذياناً تمهيدياً للنوم : فان فيليب تداعى للسقوط
الى خلف ، وتمم بضع لحظات ، وما لبث أن بدأ يشخر .

قالت إيرين بصوت منخفض :

- تعال .

وتبعها الى غرفة كبيرة مفروشة بنسيج وردي . وكانت قد علقت
على الجدار غيتاراً .

- انها غرفتي . سأترك الباب مفتوحاً لأسمع الفتى :

ورأى ماتيو سريراً كبيراً ، غير مرتب ، ذا مظلة ، ومقعداً محشواً ،
وغرامافوناً واسطوانات على طاولة من طراز هنري الثاني ، وكانت قد
ألقيت على أريكة ذات أرجوحة جوارب مستعملة ومباذل نسائية .

وتابعت ايرين نظره :

- لقد أتت بيتي من « متحف البراغيث »

قال ماتيو : - لا بأس به ، لا بأس به على الاطلاق .

- اجلس .

فسأل ماتيو : - اين ؟

- انتظر .

كان على المقعد المحشو سفينة داخل زجاجة ، فأخذتها ووضعتها على الارض ، ثم حررت الاريكة ذات الأرجوحة من الاغطية التي عليها والتي حملتها الى المقعد المحشو .

- هنا ، اما انا ، فسأجلس على السرير .

وجلس ماتيو وأخذ يتأرجح .

- كانت آخر مرة جلست فيها على اريكة ذات أرجوحة ، في ليم ،

في باحة فندق « أرين » . وكنت في الخامسة عشرة .

فلم نجب ايرين . واستعاد ماتيو صورة الباحة الكبرى المعنمة بيابها الزجاجي المشع تحت نور الشمس : كانت تلك الذكرى ما تزال تخصه ، وكانت ثمة ذكريات أخرى ، صميمية وغير متميزة ، ترتعش حولها : انني لم أفقد طفولتي . كانت السن الناضجة ، سن الرشد ، قد انهارت ، ولكن كانت الطفولة باقية ، حارة كل الحرارة : وهو لم يكن يوماً اقرب اليها مما هو الآن ، وفكر في الطفل الصغير المضطجع على رمل البحر في « اركاشون » والذي كان يطلب ان يكون حراً : وكان ماتيو ، امام هذا الصبي العنيد ، قد كف عن ان يشعر بالعار . ونهض ،

قالت ايرين : - انت ذاهب ؟

قال : - سوف أنتزه .

- الا تريد ان تبقى قليلا ؟

فتردد ، ثم قال : - بكل صراحة ، كانت لديّ بالاحرى رغبة

بان اكون وحدي .

فوضعت يدها على ذراعه :

- سوف نرى . سيكون الامر معي كما لو كنت وحدك :

ونظر اليها : كانت لديها طريقة غريبة في الكلام ، رخوة وساذجة في رصانتها بعض الشيء ، كانت لا تكاد تفتح فمها الصغير وتهمز قليلا رأسها لتساقط منه الكلمات . وقال :

- سأبقى .

فلم تبد اي فرح . وكان وجهها في الحلق يبدو قليل التعبير. وخطا مانيو بضع خطوات في الغرفة ، واقترب من الطاولة ، فأخذ بعض الاسطوانات . وكانت مسعملة جداً ، وكان بعضها مشعوراً ، وكان معظمها قد فقد غلافه . كان ثمة بعض الحان الجاز ، واغنية مهترنة لموريس شفالييه ، والكونسرتو لليد اليسرى ، ورباعية دوبومبي، وسيريناد تومبيلي ونشيد الانترناسيونال تغنيه جوقة روسية . وسألها :

- انت شيوعية ؟

قالت : - لا ، ليس لي من رأي . وأظن اني كنت أكون شيوعية لو لم يكن للناس اشراراً أرياء (وفكرت قليلا وقالت) اني من دعاة السلام .

قال مانيو : - انك ظريفة ، فاذا كان للناس اشراراً فينبغي ان يستوي لديك ان يموتوا في الحرب او بطريقة اخرى .

فهزت رأسها برصانة عنيدة وقالت :

- بل من أجل هذا بالذات . فما داموا اشراراً ، فان نخوض الحرب مع ذلك أشد اثاراً للاشتمزاز .

وساد صمت. ونظر مانيو الى نسيج عنكبوت في السقف وأخذ يصفره، قالت ايرين :

- لا أستطيع ان اقدم لك شيئاً للشرب ، الا اذا كنت تحب عصير

- اللوز : فلا يزال في الزجاجية بقية منه .
قال ماتيو :- هم .
- أجل ، كنت أتوقع ذلك . آه ، هناك على المدخنة سيجار ،
فخذها إذا شئت .
ونهض فأخذ السيجار ، وكان جافاً ومكسوراً .
- هل أستطيع ان أحشو به غليوني ؟
- افعل به ما يروق لك .
وعاد الى الجلوس وهو يفتت السيجار بين أصابعه ، وكان يحس
نظر ايرين عليه . وقالت :
- خذ راحتك . فاذا لم تكن راغباً في الكلام ، فلا تتكلم .
قال ماتيو : - حسناً .
وبعد برهة ، سألت :
- ألا تريد ان تنام ؟
- اوه ! كلا .
وكان يخيّل اليه أنه لن يرغب بعد ابدأ في النوم .
- اين تراك كنت تكون ، في هذه اللحظة ، لو لم تلتق بي ؟
- في شارع مونتورغاي .
- وما الذي كنت ستفعله فيه ؟
- أنتزه .
- لا بد ان يبدو لك غريباً ان تكون هنا .
- لا .
قالت في عتاب مبهم : - صحيح ، فانك قلما تكون هنا .
فلم يجب : كان يفكر بأنها كانت على حق . هذه الجدران الاربعة ،
وهذه المرأة على السرير : كان ذلك حادثاً عارضاً لا أهمية له ، وجهاً
من وجوه الليل المائعة . كان ماتيو في كل مكان يمتد فيه الليل من

حذود الشمال الى الكوت دازور ؛ لم يكن والليل الا شيئاً واحداً ، وكان ينظر الى ايرين بعيون الليل كلها : فهي لم تكن الا نوراً ضئيلاً ، في الظلام ، وندت صرخة نافذة جعلته ينتفض .

- اي سم ! سأرى ما به .

وخرجت على أطراف أصابعها ، وأشعل ماتيو غليونه . ولم تكن به رغبة بعد لأن يقصد شارع مونتورغاي : فقد كان شارع مونتورغاي هنا ، وكان يخرق الغرفة ، كانت جميع طرق فرنسا تمر بها ، وكانت جميع الاعشاب تنبت فيها . وكانت قد وضعت اربعة حواجز خشبية حينما اتفق . وكان ماتيو في حينها اتفق : وعادت ايرين تجلس : وكانت مطلق شخص : ولم تكن لتشبه امرأة من بريتاني : بل كانت اشبه بأناميت ، صغيرة مقهى « الدوم » . كانت تملك منها البشرة الزعفرانية ، والوجه اللامعبر والجمال اللواهن .

قالت : - لا شيء : انه يحس الكوايس :

وسحب ماتيو بهدوء أنفاس غليونه :

- لا بد انه عاني كوايس شديدة ، هذا الطفل .

فهزت ايرين كتفها ، وتغير وجهها فجأة فقالت :

- أشدك في ذلك !

قال ماتيو : - أراك فجأة تصبحين قاسية :

- آه ! ذلك انه يزعجني ان يرثي لفتى من جنسه ، فهذه كلها

حكايات طفل اغنياء .

- إن ذلك قد لا يمنع ان يكون شقياً .

- انت تجعلني أضحك . لقد طودني ابي حين كنت في السابعة

عشرة : اريد ان اقول لك اني لم أكن على وفاق معه . ولكني لن

اقول اني كنت شقية :

ولم ماتيو ، ذات لحظة ، على وجهها المترف ، سحنة قاسية واهية

لامرأة قد عانت . وكان صوتها يسيل ، بطيئاً ضخماً ، مع شيء من
الرتابة في الغيظ ، وقالت :
- ان الانسان يكون شتياً ، حين يشكو البرد او المرض او الجوع .
وكل ما عدا ذلك أجرة .

فأخذ يضحك : كانت تقطب أنفها بعناية وتفتح فيها الصغير بقوة
لشيء الكلمات . وكان لا يكاد يضحى اليها : كان يراها . نظر . نظر
هائل ، سماء فارغة : كانت تتخبط في هذا النظر كحشرة في ضوء
منارة .

وقالت : - لا ، اريد طبعاً ان أؤبه وأعنى به وأمنه من ارتكاب
الحماقات ، ولكني لا اريد ان يُرثى له . لاني انا ، عرفت ما هو البؤس !
وحين يزعم البورجوازيون أنهم أشقياء ...
ونظرت اليه بتنه وهي تسترد نفسها :
- صحيح انك انت ، بورجوازي .

قال ماتيو : - نعم ، انا بورجوازي .
انها تراني ؟ وخيل اليه أنه كان يقسو ويصغر بسرعة تامة .
كان وراء عينيه سماء بلا نجوم ، وكان كذلك نظر ، انها تراني كما
ترى الطاولة والغيثار . وانا في رأيا جزء صغير مهلق في نظر ، بورجوازي .
صحيح اني بورجوازي . ومع ذلك ، فانه لم يكن ينجح في الإحساس
بذلك . وكانت ما تزال تنظر اليه .

- ما الذي تفعله في الحياة ؟ لا ، دعني أحزر . طيب ؟

- لا .

- محام ؟

- لا .

قالت : - عجباً ؟ ربما كنت نشالا .

قال مانهو : - اني استاذ .

قالت وهي خائبة بعض الشيء : - هذا غريب (ولكنها اضافت
بحيوية) لا أهمية لذلك .
انها تنظر الي ، ونهض فأخذ ذراعها ، فيما تحت مرفقها بقليل ،
وكان اللحم الرقيق الدافئ ينغمس قليلاً تحت الأصابع . وسألته :
- ماذا دهاك ؟
- كانت بي رغبه الى لمسك ، وذلك لسبب واحد : هو انك
تنظرين الي .

وداعت مقربة منه ، وتغشى النظر ، وقالت :

- انك تروق لي .

- وانت تروقين لي ايضاً .

- هل لك امرأة ؟

- ليس لي أحد .

وجلس بالقرب منها ، على السرير :

- وانت ، هل من أحد في حياتك ؟

- في حياتي ... آحاد : (وأشارت اشارة أسف وقالت) اني سهلة .

وكان النظر قد اختفى ، وكان باقياً لعبة صينية صغيرة تنبعث منها

رائحة البلاذر .

قال ماتيو : - سهلة ؟ وبعد ذلك ؟

فلم تجب : وكانت قد وضعت رأسها بين يديها وراحت تنظر الى

الفراغ في رصانة . وقال ماتيو في نفسه : « إنها امرأة تميل الى التفكير » .

وقالت بعد لحظة :

- حين تكون امرأة لابسة ثياباً رديئة ، فلا بد ان تكون سهلة .

والتفتت الى ماتيو في قلق :

- اني لست مخيفة ، اليس كذلك ؟

قال ماتيو أسفاً : - كلا ، هذا نستطيع ان نؤكد .

ولكنها بدت من شدة الأسى بحيث انه اخذها بين ذراعيه ؟
كان المقهى مقفراً . وسألت ايفيش الخادم :
- انها الساعة الثانية صباحاً ، أليس كذلك ؟
فسح عينيه بظاهر يده والقي نظرة على الساعة المعلقة : كانت تشير
الى الثامنة والنصف :
وتتم : - ربما .

وترأى ايفيش بوداعة في زاوية وهي تردّ تنورتها على ركبتيها ،
سأكون يتيمة تلحق بعمتها في ضاحية باريس . وفكرت بأن عينيها
كانتا تلتصقان أكثر مما ينبغي ، فأسدلت شعرها على وجهها . ولكن
قلبا كان ينبض بهيجان يكاد يكون قريحاً : ساعة انتظار ، وشارع
يُعبّر ، ثم تقفز الى القطار ، وسأكون حوالي الساعة السادسة في غاردنور ،
فأقصد اولاً « الدوم » وأكل برتقالتين ، ومن هناك الى بيت ريناتا
لأبْلِصها بمخسمة فرنك . وكانت بها رغبة لأن تطلب قرح خمر ، ولكن
اليتيمة لا تشرب الكحول .

وسألت بصوت دقيق : - أتريد ان تعطيني فنجان زيزفون ؟
فاستدار الخادم على عقبه ، وكان فظيماً ، ولكن كان ينبغي اغراؤه ،
وحين حمل الزيزفون رفعت اليه نظراً رقيقاً مجفلاً ، وتنهدت قائلة :
- شكراً .

فانزوع أمامها ونشق في تبرم :
- الى أين انت ذاهبة هكذا ؟
قالت : - الى باريس ، لدى عمي ؟
- ألسنت ابنة السيد سرخين ، ذاك الذي يملك المنشرة ، فوق ؟
البيد !

قالت : - اوه ، كلا ! لقد مات أبي عام ١٩١٨ ، وأنا
ربيبة الدولة :

فهز رأسه عدة مرات وابتعد : لقد كان فلاحاً فظاً كالفلاحين الروس .
أما في باريس فان لخدم المقاهي نظرات غميلة وهم يصدّقون ما يقال .
لهم . سأرى باريس من جديد . وسوف تعرف ما ان تبلغ « غاردونور » :
فقد كانوا ينتظرونها : كانت الطرق تنتظرها ، والواجهات ، وأشجار
مقبرة مونبارناس و . . . الاشخاص . بعض الاشخاص الذين لا يكونون
قد رحلوا - مثل ريناتا - او يكونون قد عادوا . سوف اجد نفسي
من جديد . هناك فقط كانت ايفيش ، بين جادة « مين » والأرصفة ،
وسوف يُروني تشيكوسلوفاكيا على خارطة . وفكرت في هوس : اوه !
ليقصنوا اذا شاءوا بالقنابل ، فسنموت معاً ، ولا يبقى إلا بوريس
ليتحسّر علينا .
- أظفيء .

فأطاع ، وذابت الغرفة في ليل الحرب الكبير ، وامتزج النظران في
الليل ، ولم يكن باقياً إلا خيط من نور ، بين مدخل الباب ومصراعه
المشقوق ، عين مستطيلة كانت تبدو وكأنها تراهما . واتجه ماتيو متزعجاً
الى الباب ، فقال الصوت في ظهره :
- لا ، دعه مفتوحاً : بسبب الفقى ؛ فاني اريد ان اسمعه .
فعاد أدراجه في صمت ، ونزع حذاءه وينطاله ، واحداث الحذاء
الأيمن صوتاً وهو يرتطم بالأرض الخشبية .
- ضع ثيابك على الأريكة :

فوضع بنطاله وسترته ثم قبضه على الأريكة ذات الأرجوحة ، فتأرجحت
وهي تصرّ . وظل عارياً كتفه ، ذراعه متدلّيتان ، وأصابع رجله
مشنّجة ، في وسط الغرفة . وكان راغباً في ان يضحك .
- تعال .

فتمدّد على السرير لصق جسده حارّ وعارٍ . وكانت قد استلقت
على ظهرها ، ولم تأت بحركة ، وكانت ذراعاها ملتصقتين على جنبها .

حولكنه حين قبل صدرها ، تحت عنقها بقليل ، أحسّ بخفق قلبها ،
خفقات مطرقة كبيرة كانت تزعزعه من رأسه الى قدميه . وظلّ فترة
من غير ان يتحرك ، وقد شمله هذا الجمود الخافق : وكان قد نسي
وجه إيرين ؛ ومدّ يده ، وأمرّ اصابعه على لحم أعمى . مجرد انسائه .
ومرّ اشخاص بالقرب منهما ، وسمع ماتيوا احذيتهم تطلق : كانوا
يتكلمون بصوت مرتفع ويتضحكون فيما بينهم .

قالت امرأة : - قل ، يا مارسيل : لو كنت هتلر ، أترأك تستطيع
إن تنام هذه الليلة ؟

وضحكوا ، وابتعدت خطاهم ، وظلّ ماتيوا وحيداً .
وقال صوت ناعس :

- اذا كان ينبغي لي ان آخذ احتياطات ، فالأفضل ان تقول
ذلك فوراً .

قال ماتيوا : - لا حاجة بك الى اتخاذ احتياطات ، فأنا لست قدراً .
فلم تجب . وسمع نغسها القوي المنتظم . مرج ، مرج في الليل ، كانت
تتنفس كالأعشاب ، كالاشجار ؛ وتساءل عما اذا لم تكن قد نامت .
ولكن يداً مرتبكة ومنغلقة نصف انغلاق لامست بسرعة خاصرته وأليتيه :
كان يمكن اعتبار ذلك على الاكثر مداعبة . وتحامل قليلاً وانزلت عليها .
انسحب بوريس فجأة ، وردّ الغطاء وتداعى للسقوط الى جانب ،
ولم تكن لولا قد تحركت ، وظلت متمددة على ظهرها ، مغمضة العينين .
وتوقع بوريس ليتجنب ما وسعه ملامسة الغطاء لجسمه العرّيق . وقالت
لولا من غير ان تفتح عينيها :

- بدأت او من بأنك تحبني .

فلم يجب . هذه الليلة ، كان قد احب جميع النساء من خلالها ،
الدوقات والاخريات . ويداه اللتان كانت حشمة لا تقهر قد امسكتهما
حتى ذلك الحين على كتفي لولا ونهديها ، نزههما في كل مكان ؛

ونزّه شفّيته في كل مكان ، والتمس في جنون الاغماء النصفي الذي كان يسقط فيه عادة وهو في ابان لذته ، والذي كان يثير اشمئزازه : كانت ثمة افكار يريد ان يهرب منها . وكان يشعر بنفسه الآن لرجاً ملطخاً ، وكان قلبه يخفق حتى لينفطر ؛ لم يكن ذلك غير لذيذ : ففي تلك اللحظة ينبغي التفكير أقل ما يمكن . كانت ايفيش تقول له دائماً : انك تفكر اكثر مما ينبغي - وكانت على حق . ورأى فجأة بعض قطرات تنبثق عند زاويتي عيني لولا المغمضتين ، فتشكل بحيرتين صغيرتين كان مستواهما يصعد رويداً على جانبي الأنف : وتساءل : « ماذا هناك ايضاً؟ » كان يعيش منذ اربع وعشرين ساعة مع قلق جاف في جوف معدته ، فلم يكن ذا ميل الى الرقة والتعطّف .

وقالت لولا : - اعطني منديلي ، انه تحت الوسادة .

ومسحت عينيها ثم فتحتها . وكانت تنظر اليه نظرة حذرة قاسية : « ماذا تراني قد فعلت ايضاً ؟ » ولكن لم يكن الأمر كما يظن ، فقد قالت بصوت مخنوق :

- سوف تذهب .

- الى اين ؟ اه ! نعم ... ولكن ليس على الفور ، وانما بعد عام .

- وما هو العام ؟

كالت تنظر اليه في الحاح ، وأخرج يداً من تحت الغطاء ورد خصلته على عينيّه ، وقال في حكمة :

- ربما تكون الحرب بعد عام قد انتهت .

- انتهت ؟ آه ! اصدقك تماماً : اننا نعرف متى تبدأ الحرب ، ولكننا لا نعرف أبداً متى تنتهي .

وانبثقت ذراعها البيضاء من تحت الغطاء ، فأخذت تجمس وجه بوريس . كما لو كانت عمياء : وملّست صدغه ووجنتيه ، وتابعت استدارة اذنيه ، ولا مست انفه بطرف اصابعها : وكان يحس نفسه مضحكاً : وقال في

حمرارة :

- ان للعام وقت طويل ، فلدينا مجال للتفكير في ذلك :
- واضح جداً أنك طفل . ليتك تدري كم ينقضي العام بسرعة بالنسبة لمن كان في سني .
- قال بوريس في عناد : - اما انا ، فأجده طويلاً .
- هل انت راغب اذن في القتال ؟
- ليس الأمر كذلك .
- وأصبح أشد احتمالاً للحرب ، فانقلب على ظهره ومد ساقه فالتفتنا طرفاً من قماش في جوف السرير ، بنطال منامته . وقال موضحاً ، ونظره في السقف :
- مهما يكن من أمر ، فما دام عليّ ان أخوضها ، هذه الحرب ، فليكن ذلك على التو ، ولنكنف عن الحديث عنها .
- وصاحت لولا : - ها ا وأنا ؟ (وأضافت بصوت لاهث) انك لا تبالي بأن تتركني ، ايها الوحش الصغير ؟
- ولكن ما دمت سأتركك على أي حال ؟
- قالت بهوس : - آه ، في ابعد وقت ممكن . سأموت من ذلك .
- لا سيما وانك ، كما اعرفك الآن ، ستظل ثلاثة ايام من غير ان تكتب لي ، بداعي الكسل ؛ وسوف اظنك انا ميتاً . انك لا تقدر ذلك .
- قال بوريس : - وانت ايضاً لا تقدرينه . انتظري ريثما يحدث قبل ان تحطمي رأسك تفكيراً .
- وساد صمت ، ثم قالت بصوت خشن متقطع كان يعرفه جيداً :
- مهما يكن من أمر ، فانه لا يبدو صعباً جداً ان يهجر انسان ماء
- ذات العجوز تعرف من الناس اكثر مما تعتقد .
- وانقلب بحموية على جنبه ونظر اليها مغضباً .
- لولا ، اذا ما فعلت ذلك ...

- ماذا يحدث ؟
- فلن أراك في حياتي بعد ابداً .
وكانت قد هدأت ، فقالت له بيسمة غريبة :
- كنت احسب ان الحرب تثير نفورك ؟ لقد كررت لي كثيراً
انك كنت مناهضاً للعسكرية .

- وما زلت .

- وإذن ؟

- ليس الأمر متشابهاً .

وكانت من جديد قد اغمضت عينيها ، وكانت تلتزم الهدوء ، ولكن
وجهها كان قد تغير : فلقد بدت على زاويتي شفيتها تجعدتا التعب والضيق
القديمتان . وبذل بوريس جهداً ، فقال بلهجة مصالحة :
- انني مناهض للعسكرية لأنني لا استطيع ان أطيق الضباط . اما
الجنود العاديون فأحبهم كثيراً .

- ولكنك ستصبح ضابطاً . سيجبرونك على ذلك :

فلم يجب بوريس : كان الامر أعقد مما ينبغي ، حتى انه كان هو
نفسه يضحك فيه . صحيح انه كان يحقر الضباط ، ولكن لما كانت
الحرب حربه ، من جهة اخرى ، وكان هو مرصوداً لحياة عسكرية
قصيرة ، فلا بد ان يصبح معاون ملازم . وفكّر : « أه ! ليتني استطيع
ان اكون هناك وأتبع الفرقة ، بقوة الاشياء ، وأنتهي من كل هذه
المزعجات . »

وقال فجأة :

- اتساءل عما اذا كنت سأخاف .

- تخاف ؟

- ان ذلك يرعدني :

وكان يفكر بأنها لن تفهم : كان الافضل ان يتحدث في ذلك الى

ماتيو ، او حتى ايفيش ولكن ما دامت موجودة هنا ...
- طوال العام ، سنقرأ في الصحف : الفرنسيون يتقدمون تحت
طوفان من الحديد والنار ، او نقرأ شيئاً من هذا القبيل ، فهمت ما
اقصد . وسوف اتساءل كل مرة : هل تراني سأصمد ؟ او اني
سأسأل مأذونين : أياكون الامر قاسياً ؟ وسوف يجيبونني : قاس جداً
فأحسني طريفاً . أن ذلك سيبعث على الفرح .

فأخذت تضحك وقلدته من غير جدل :
- انتظر حتى تمر بها قبل ان تحطم رأسك تفكيراً ، حتى ولو
كنت خائفاً ، اياها الساذج الصغير !
وفكر : « لا حاجة الى ان اشرح لها : فهي لا تفهم شيئاً . »
وتثاب و سأل :

- هل نطفيء ؟ اني ناعس .
قالت لولا : - اذا شئت : قبلي .
فقبلها وأطفأ . وكان يكرهها ، وفكر : « انها لا تحبني من أجل
نفسي ، والا لفهمت . »

كانوا جميعاً متشابهين ، وكانوا يتظاهرون بأنهم عمي : لقد جعلوا
مني ديك قتال ، ثوراً للصراع ، وها هم الآن يسدون أعينهم ، ابي
يريد ان أتقدم لدبلوماسي ، وهذه تريد ان تجعلني أقع في كمين لأنها
ضاجعت في الماضي كولونيلا . وبعد لحظة احس جسماً ملتهباً عارياً
يسقط على ظهره . وفكر : « دائماً هذا الجسد الملتصق بجسدي طوال
عام آخر . انها تستمرني . » واستشعر القسوة والانغلاق . واندفع
بقرب الجدار : فسألته لولا :

- الى اين تذهب ؟ الى اين تذهب ؟ ستسقط على الارض ؟
- ان حرارتك تحرقني .
فابتعدت وهي تدمدم . عام ستسألني فيه ان كنت جباناً ،

وطوال عام سأخاف من ان اكون خائفاً . وسمع تنفس لولا المنتظم ، كانت تنام ؛ ثم تدرج الجسم عليه من جديد ؛ ولم يكن اللذب ذنبها ، فقد كان في وسط الفراش فجوة ؛ ولكن بوريس أحس برعشة غضب ويأس : ستسحقني حتى صباح الغد . وفكر : اوه ! اعيش مع الرجال ، ولكل سريره . وفجأة ، أخذه نوع من الدوار ، وكانت عيناه مفتوحتين ثابتتين في الظلام ، وسرت في ظهره العرق رعدة مثلجة : لقد ادرك انه قرر التطوع في اليوم التالي .

انفتح الباب وابتد السيدة بيرنانشاتز في قبض الليل وعلى رأسها وشاح ، فقالت وهي تصيح لتغطي صوت جهاز الراديو :
- غوستاف ، ارجوك ، تعال فم .

قال السيد بيرنانشاتز : - نامي ، نامي ، ولا تهتمي بي .
- ولكني لا استطيع ان انام اذا لم تأو الى فراشك .
فقال بحركة ضيق : - آه ! ترين جيداً اني انتظر شيئاً ما .
قالت : - ما هو ؟ لماذا تحرك طوال الوقت هذا الراديو اللعين ؟
سبنتهي الأمر بالجيران الى رفع شكوى . فماذا تنتظر ؟

فالتفت السيد بيرنانشاتز اليها وقبض على ذراعها بقوة قائلاً :
- اراهن ان هذه خدعة : اراهنك ان بلاغ تكذيب سيصدر ليلاً .
فسألته مستطارة اللب : - ولكن ماذا ؟ عم تتكلم ؟
فأشار اليها ان تصمت : واخذ صوت هاديء رصين يتكلم :
« تكذب الاوساط المأذون لها في برلين جميع الانباء التي ظهرت في الخارج ، فيما يخص انذاراً قيل ان المانيا أرسلته الى تشيكوسلوفاكيا وحددت فيه الساعة الرابعة عشرة بعد ظهر اليوم كآخر موعد ، وفيما يخص تعبئة عامة مزعومة ستعلن بعد انتهاء هذا الاجل : »
وصاح بيرنانشاتز :
- اسمعي ، اسمعي :

« وتعتبر هذه الانباء وسيلة لبث الذعر وخلق جو من التشوش

الحربي »

« ويكذبون كذلك تصریحاً زعم ان الوزير غوبلز ادلى به الى جريدة اجنبية حول مدة هذا الانذار ، ويؤكدون ان الدكتور غوبلز لم ير ولم يستقبل منذ اسابيع اي صحفي اجنبي . »

واستمع السيد بيرنانشاتز لحظة أخرى ، ولكن الصوت كان قد صمت ، فنهض يرقص مع السيدة بيرنانشاتز رقصة فالس وهو يصرخ :
- لقد قلت لك ، لقد قلت لك ، انه التراجع ، إنه التراجع
الاصفر ، لن تقع الحرب يا كاترين ، لن تقع الحرب ، وقد بعص
النازيون !

النور : وانتصبت الجدران الاربعة فجأة بين ماتيو والليل . فتحامل على يديه ونظر الى وجه ايرين الهاديء : كان عري هذا الجسد الانثوي قد تقلص حتى الوجه ، وكان الجسم قد استرد كما تسترد الطبيعة الحداثق المهجورة ؛ ولم يكن ماتيو ليستطيع بعد ان يعزله عن الكنفين المستديرتين ، والنهدين الصغيرين المقرنين ، إنه لم يكن الا زهرة من لحم ، آمنة وغامضة . وسألت :

- هل كان الامر باعناً على الملل ؟

- الملل ؟

- هناك من يجذني ممة ، لأنني لست نشيطة جداً . وقد حدث مرة ان شعر أحدهم معي بانزعاج شديد ، حتى انه ذهب في الصباح ولم يعد بعد ذلك قط .

قال ماتيو : - انني لم انزعج ؟

وأمرت إصبعاً خفيفاً على عنقه :

- ولكن يجب الا تظن اني باردة •

قال ماتيو : - أعرف : اصمتي .

وأخذ رأسها بين يديه وانحنى على عينيها . كانتا بحيرتين من جليد ، شفافتين وبلا اعماق . انها تنظرني ، وكان الجسم والوجه ، نطف هذا الظر ، قد اختفيا ، وفي اعماق هاتين العينين ، كان الليل : الليل البكر . لقد ادخلتني في عينيها ، فأنا موجود في هذا الليل : رجلاً عارياً . سأغادرها بعد ساعات ، ومع ذلك ، فسأبقي فيها الى الابد . فيها ، في هذا الليل المغفل : وفكّر : « وهي لا تعرف حتى اسمي : » وفجأة ، أحس بأنه متعلّق بها تعلقاً عميقاً حتى شعر بالحاجة الى مصارحتها بذلك ، ولكنه صمت : كانت الكلمات مستكذب ، فهو انما كان متعلقاً بهذه الغرفة مثل تعلقه بها ، بالغيثار على الجدار ، وبالفتى الذي كان ينام في السرير المقفص ، بهذه اللحظة ، بهذا الليل كله .

وابتسمت له :

- انك تنظر اليّ ولكنك لا تراني .

- بل أراك .

وتشاءبت :

- اود ان انام برهة .

قال ماتيو : - نامي ، ولكن اربطي منبهك على الساعة السادسة ، فيجب ان اعود الى بيتي قبل ان اقصد المحطة .

- انت ذاهب هذا الصباح ؟

- هذا الصباح في الساعة الثامنة :

- هل استطيع ان اصحبك الى المحطة ؟

- اذا شئت .

قالت :

- انتظر . يجب ان أخرج من السرير لأربط المنبه وأطفئ النور .

ولكن لا تنظر ، فانا أخرجك من مؤخرتي لضخامتها وانخفاضها
المفرطين ٥
فصرف وجهه وسمعها تروح وتغدو في الغرفة ، ثم اطلقت وقالت
له وهي تعود الى النوم :
- يتفق لي أحياناً ان أنهض وأنا نائمة ، وان انتزه في الغرفة ، فإ
عليك الا ان تصفعي ٥

الاربعاء ٢٨ ايلول

الساعة السادسة صباحاً ...

كانت معترةً جداً ، فهي لم تغمض عينها طوال الليل ، ومع ذلك غانها لم تكن وسنى . كل ما هناك "حرق" جاف في جوف المحجرين ، وتأكل في العيين اليسرى ، وذلك الرفيف في الاجفان ، وبين الفينة والفينة ارتعاشات من التعب تسري في ظهرها ، من الصلب حتى الرقبة . كانت قد سافرت في قطار مقفر بصورة فظيعة ، وكان آخر مخلوق حي رآته رئيس المحطة في سواسون وهو يلوح بقلمه الاحمر . ثم رأت دفعة واحدة الجمهور الحاشد في باحة «غاردوليست» وكان حشداً قبيحاً جداً ، محشواً بالعجائز والجنود ؛ ولكن كانت له عيون كثيرة وأنظار كثيرة ، ثم ان إيفيش كانت تحب هذا النموذج السرمدي الصغير وهذه اللكزات من المرافق والظهور والاكشاف ، وتأرجح الرؤوس بعضها وراء البعض بعناد ؛ ولم كان لذيذاً ان لا تشعر بنفسها وحيدة بعد في تحمل نقل الحرب . وتوقفت عند حتبة احد ابواب الخروج الكبرى ، وتأملت بتدئين جادة ستراسبورغ ؛ كان ينبغي ان تملأ منها عينيها وتسلم في ذاكرتها الاشجار ، والحوانيت المغلقة ، والسيارات للكبيرة ، وخطوط التراموي ، والمقاهي التي كانت قد بدأت تفتح ، وهواء الصباح المدخن . حتى ولو القوا قنابلهم بعد خمس دقائق ، بعد

ثلاثين ثانية ، فانهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا مني ذلك . وتأكدت من أنها لم تكن ترك شيئاً يفلت منها ، حتى ولا الاعلان الكبير ديبون - ديبون - ديبونيه ، الى اليسار ، ثم فجأة أخذها سحر صغير . يجب ان تدخل المدينة قبل ان يصلوا . ودفعت امرأتين من بريتاني كانتا تحملان أفضاص عصفير ، واجتازت العتبة ، فوضعت قدمها على رصيف حقيقي لباريس . وخيّل اليها أنها كانت داخلة الى أتون ، وكان ذلك يثير النشوة والشؤم : « سيحترق كل شيء : النساء والأطفال والعجّز ، وسوف أهلك في اللهب » . ولم تكن خائفة : فعلى أي حال كنت سأستفزع أن أشيخ ، غير ان التعمجل كان يجفف حلقها ، فليست ثمّة دقيقة للإضاعة : ان هناك اشياء كثيرة ينبغي ان تُرى مرة اخرى ، متحف « البراغيث » ، المقابر ، منيلمونتان وأشياء اخرى لم تكن تعرفها بعد ، كمتحف غريفان ، فاذا تركوني ثمانية ايام ، اذا لم يأتوا قبل يوم الثلاثاء القادم ، سيكون لدي متسع من الوقت لأزور كل شيء : وفكرت في هوس : ثمانية أيام تعاش ، اريد ان أنسلي اكثر مما أنسلي في عام برمته ، اريد ان اموت وانا أنسلي . واقتربت من سيارة تاكسي :

- ١٢ شارع هويغتر .

- لصعدي .

- ارجو ان تمر في جادة سان ميشال ، وشارع اوغست كومت ، وشارع فافين ، وشارع دولير ، ثم شارع « لاغيتيه » وجادة مين ، قال السائق : - هذا يطيل الطريق .

- لا بأس .

ودخلت السيارة وأغلقت الباب : كانت قد خلّقت لاون وراءها ، الى الأبد : سنموت هنا . وفكرت : « ما أجمل الطقس ! ما أجمل الطقس ! بعد ظهر هذا اليوم سنذهب الى شارع ديروزيه وجزيرة سان لويس » .

صاحت ايرين : - عجل ، عجل ، تعال :
كان ماتيو في قبضه الفصير ، يسرّح شعره امام المرأة : ووضع
المشط على الطاولة وأخذ سترته تحت ذراعه ودخل « غرفة الاصدقاء »
- ماذا هناك ؟

فأرتته ايرين السرير بحركة مؤثرة :
- لقد فركها !

قال ماتيو : - بلا مزاح ، بلا مزاح !
وتأمل السرير المدعوك لحظة ، وهو يحكّ رأسه ، ثم انفجر ضاحكاً .
ونظرت اليه ايرين نظرة رصينة دهشة ، ولكن ما لبث الضحك أن
أعدها . وقال ماتيو :
- لقد قهرنا تماماً !

وارتدى سترته . وكانت ايرين ما تزال تضحك :
- الموعد في « الدوم » الساعة السابعة .
قالت : - الساعة السابعة .
وانحنى عليها وقبلها قبله خفيفة .

صعدت ايفيشي السلم وهي تركض ، وتوقفت على سطيحة الطابق
الثالث وهي تلهث . وكان الباب مشقوقاً . فأخذت ترتجف . « الا
ان تكون البوابة هنا ؟ » ودخات : كانت جميع الابواب مفتوحة ،
وجميع المصابيح مضاءة : وفي المدخل ، رأت حقيبة كبيرة : انه هنا
- ماتيو !

فلم يجب أحد : وكان المطبخ خالياً ، ولكن في غرفة النوم كان
السرير غير مرتب . « لقد قضى الليل هنا » . ودلفت الى المكتب ،
فتفتحت النوافذ والمصاريع . وفكرت في رقة : « ليس ذلك قبيحاً الى
حد بعيد ، لقد كنت غير عادلة » . ستعيش هنا ، وستكتب له اربع
مرات في الاسبوع ، لا ، بل خمساً . ثم يقرأ ذات يوم في الصحف :

« قصف باريس بالقنابل ، ولا يتلقى بعد ذلك رسائل على الاطلاق :
ودارت حول المكتب ، ولمست المكتب ، وضاعطة الورق التي تشبه
العقرب . وكان ثمة سيجارة مكسورة بالقرب من كتاب لمارتينو عن
صنندال ، فأخذتها ووضعها في محفظتها مع البقايا : ثم جلست بهدوء
على الديوان : وبعد لحظة سمعت أقداماً على السلم فوثب قلبها .
كان هو . وتأخر لحظة في المدخل ، ثم دخل حاملاً حقيبته ،
وفتحت ايفيش يديها فسقطت محفظتها على الارض .

— ايفيش !

ولم تكن الدهشة باديةً عليه . ووضع حقيبته ، فلمّ المحفظة وأعادها
ليها .

— انت هنا منذ وقت طويل ؟

فلم تجب ، كانت عاتبةً قليلاً ، لأنها تركت محفظتها تسقط . وأقبل
يجلس بالقرب منها . ولم تكن تراه . كانت ترى السجادة وطرف حذائها .
وقال بفرح :

— اني محظوظ . فلو تأخرت ساعة لما كنت ادركني : سأستقل
قطار نانسي في الساعة الثامنة .

— ولكن كيف ؟ هل تذهب على الفور ؟

وصممت مستاءةً من نفسها، كارهةً لصوتها بالذات . ان امامها وقتاً
قصيراً جداً ، وكم ودّت لو تكون بسيطة ، ولكن ذلك كان اقوى
منها : حين تكون قد بقيت وقتاً طويلاً من غير ان ترى الناس ، فلن
يكون باستطاعتها ان تلتفهم ببساطة . وكانت قد تركت لحدرد قطي
يشبه الجهامة ان يغمرها . وكانت تخفي عنه وجهها بعناية ، ولكنها
كانت تظهر له اضطرابها ، وكانت تشعر بأنها أقل حشمة مما لو نظرت
اليه في عينيه . وامتدت يداها نحو الحقيبة ففتحتها وتناولت منها منبهاً
فربطناه . ونهض ماتيو ليذهب فيضع المنبه على الطاولة ، ورفعت ايفيش عينها

خليلاً فرأته أسود كله في الظل : وعاد الى الجلوس : وكان مستمراً في
صمته ، ولكن ايفيش استعادت بعض الشجاعة . كان ينظر اليها ، وكانت
تعلم انه كان ينظر اليها . لم يسبق لأحد منذ ثلاثة اعوام أن نظر اليها
على هذا النحو ، وكانت تحس نفسها ثمينة ورخيصة : تمثلاً صغيراً
أبكم ، كان ذلك للبدأ ، ومزعجاً ، وأليماً بعض الشيء . وفجأة سمعت
تكنكة المنبه ، وفكرت في انه سيذهب . لا أريد ان اكون رخصة ،
لا أريد ان اكون تمثالاً . وبدلت جهداً عنيفاً ، فتمكنت من ان
تلفتت اليه . ولم يكن له النظر الذي كانت تتوقفه :

- ها أنت ذي يا ايفيش ، ها أنت ذي .

ولم يكن يبدو أنه ينكر بما كان يقوله . ومع ذلك ، فقد بسمت
له ، ولكنها كانت مثلوجة من الرأس حتى القدمين . ولم يبادلها بسمتها ،
بل قال بهدوء :

- هذه انت ...

وكان يتأملها في دهشة ، وأضاف بلهجة أكثر انتعاشاً :

- كيف تراك قد أتيت ؟

- بالقطار .

وكانت قد طابقت راحتها فيما بينها وأخذت تشدهما بقوة لتجعل

أصابعها تطلقن .

- كنت أقصد ان اقول : هل يعرف أهلك ذلك ؟

- لا .

- وهل هربت ؟

- تقريباً .

قال : - نعم ، نعم ، حسناً : سوف تسكين هنا ، (واضف

باهتمام) أكنت متزعجة في لاون ؟

فلم تجب : كان الصوت يسقط على رقبتها ، بارداً مطمئناً ، كساطور .

- يا لايفيش المسكينة !

وبدأت تشد شعرها خصلاً . واستطرد :

- بوريس في بيارينز ؟

- نعم .

كان بوريس قد نهض متحسباً . فلبس بنطاله ومسترته وهو يرتعش ، وألقى نظرة على لولا التي كانت نائمة فاغرة الفم ، وفتح الباب بلا ضجة ، وخرج الى الممشى ، وحذاؤه في يده . وألقت ايفيش نظرة الى المنبه ، فرأت ان الساعة قد أصبحت السادسة وعشرين دقيقة :

فسألت بصوت شاك :

- كم الساعة ؟

قال : - السادسة وعشرون دقيقة . انتظري : سأضع بعض الحوائج في قرني ، وسأنعل ذلك بسرعة ، وبعد ذلك اكون حراً تماماً . وركع بالقرب من الحقيبة . وكانت تنظر اليه جامدة . ولم تكن تحس بعد جسمها ، ولكن تككة الساعة كانت تحطم أذنيها . وبعد برهة نهض :

- كل شيء جاهز .

وظل واقفاً بالقرب منها، ورأت بنطاله وقد تهرأ قليلاً لدى الركبتين،

وقال في لطف :

- إسمعي جيداً يا ايفيش : سوف نتحدث في أمور جدية : إن البيت هو لك ، المفتاح معلق بالمسار ، قرب الباب ، فاسكني هنا حتى نهاية الحرب . ولقد تدبرت الامر من أجل راتي : لقد أعطيت وكالة لجك ، وسوف يقبض الراتب ويرسله لك كل شهر . ستكون هناك بعض الحسابات التي لا بد من تصفيتها بين الفينة والفينة : اجرة البيت مثلاً ، ثم الضرائب ، الا اذا أعفي الجنود منها - ثم ترساين لي احياناً

رزمة صغيرة. وما يتبقى فهو لك . واعتقد أنك تستطيعين ان تعيشي .
وكانت تستمع في ذهول الى هذا الصوت المتساوي الرتيب الذي كان
يشبه صوت مذبذب الراديو . كيف تراه يجرؤ على ان يكون مملاً الى
هذا الحد ؟ انها لم تكن تفهم تماماً ما كان يقوله ، ولكنها كانت تتمثل
بوضوح الهيئة التي كان يبدو عليها : نصف مبتسم ، وأجفانه ثقيلة ،
وسمة غيطة رصينة على وجهه . ونظرت اليه لتتمكن من الحقد عليه .
حقداً اكبر ، ولكن - قدما تهاوى : انه لم يكن يبدو على الهيئة التي كان
يوحي بها صوته . أترأه يتألم ؟ ولكن لا ، انه لا يبدو شقيماً . كل
ما في الامر ان وجهه كان وجهاً لم تكن تعهده قط . وسأل
وهو يبتسم :

- هل تسمعينني يا ايفيش ؟

قالت : - بالتأكيد . (ونهضت) ماتيو ، أريد ان تُريني تشيكوسلوفاكيا .

على خارطة :

فقال : - ولكن ليست لدي خارطات . بلى ، لا بد ان عندي .

أطلساً قديماً .

وذهب يبحث عن مجموعة مجلدة في مكتبته ، فأتى بها ووضعها على
الطاولة وفتحها وقلب اوراقها : « اوروبا الوسطى » . وكنت الالوان
مزعجة : ليس الا اللونان البيج والبنفسجي . لا لون ازرق : فلا بحر
ولا اوقيانوس . ونظرت ايفيش بتنه الى الخارطة ، فلم تكتشف
تشيكوسلوفاكيا .

قال ماتيو : - ان تاريخ هذه الخارطة يعود الى ما قبل ١٤ .

- وقبل ١٩١٤ ، لم يكن ثمة من تشيكوسلوفاكيا ؟

- كلا :

وتناول قلمه الحبر ورسم في وسط الخارطة خطاً مغنقاً وغير منتظم .

وقال :

— انها هكذا تقريباً .

ونظرت ايفيش الى هذه المساحة العريضة من الارض الحالية من الماء ،
صذات الالوان الخزينة ، وهذا الخط من الخبر الاسود ، غير المستقر ،
البيشع بالقرب من حروف المطبعة ، فقرأت كلمة « بوهيميا » في داخل
الخط وقالت :

— آه ، هكذا ! هذه هي تشيكوسلوفاكيا ...

وبدا لها كل شيء عبثاً ، فأخذت تنشج .

قال مانيو : — ايفيش !

والفت نفسها فجأة نصف ممددة على الديوان ، وكان مانيو يأخذها
بين ذراعيه ، وقد تصلبت اول الامر : انني لست بحاجة الى شفقتك ،
انني مضحكة ، ولكنها بعد لحظة تداعت للاسترخاء ، فلم يكن ثمة بعد
الا حرب ، ولا تشيكوسلوفاكيا ، ولا مانيو ، وانما هذه الضغطة العذبة
والحارة حول كتفيها . وسأل :

— أتراك قد نمت هذه الليلة ؟

فقال بين غصتين : — كلا .

— يا لصغيرتي المسكينة ايفيش ! انتظري .

ونهض فخرج ، وكانت تسمعه يروح ويحيء في الغرفة المجاورة ،
«وحين عاد ، كان قد استرد بعض تلك الهيئة الساذجة المغتبطة التي كانت
يحجبها . وقال وهو يجلس الى قربها :

— لقد وضعت أغطية نظيفة ، والسريز مرتب ، فبوسعك ان تنامي ،

عجبرد ذهابي .

فنظرت اليه :

— ألا .. ألا اصحبك الى المحطة ؟

— كنت احسب انك تكرهين الوداع على المحطات .

فقالت بلهجة مصالحة : — اوه ، في مثل هذه المناسبة الفخمة ...

ولكنه هز رأسه : - انني افضل ان اذهب وحيداً . ثم ان عليك ان تنامي :

قالت : - آه ، آه ، حسناً !

وفكرت : - « كم كنت بليدة ! » واحست نفسها فجأة باردة مغلقة : وهزت رأسها بقوة ، فسحت عينيها وابتسمت :

- انت على حق ، فأنا نائرة الأعصاب أكثر مما ينبغي . انه التعب : وسأرتاح .

وأخذها من يدها فأنهضها :

- يجب ان اطوف بك البيت .

وفي غرفته ، توقف امام خزانة :

- ستجدين هنا ستة ازواج من الأغذية ورؤوس وسائد وملاحف ، وهناك لحاف في مكان ما ، ولكنني لا أدري اين وضعته ، وسترشدك البوابة .

وكان قد فتح الخزانة وهو ينظر الى ركام الأقمشة البيضاء : وأخذ يضحك ، ولم تكن هيئته راضية . فسألته ايفيش بأدب :

- ما بك ؟

- كل هذا كان لي ، ان ذلك مضحك .

والتفت اليها :

- سأريك ايضاً خزانة الطعام : تعالي .

ودخلا المطبخ ، فأراها خزانة :

- هنا . يبقى زيت وملح وفلفل ، ثم هذه معلبات (وكان يرفع

العلب الاسطوانية الواحدة بعد الأخرى على مستوى نظره ويُديرها تحت

المصباح) هذا سمك سليمان ، وهذا مزيج خضار ، وهذه ثلاث علب

من الكرنب : تضعينها في الموقد ...

وتوقف . وعاودته ضحكته السيئة . ولكنه لم يصف شيئاً ، ونظروا

- على حلبة من البازلاء بعينه الميتين ثم أعادها الى الخزانة .
- انتبهى للغز يا ايفيش . يجب ان تخفضي يد الدداد قبل ان تنامي .
وكانا قد عادا الى المكتب . وقال :
- بالمناسبة ، سأناغ البوابة وانا هابط اني أترك لك البيت . وسترسل
لك غداً للسيدة بالين . وهي منظفة البيت ، وليست رديئة .
- قالت ايفيش : — بالين ، أي اسم غريب !
وأخذت تضحك ، فابتسم ماتيو . وقال :
- ان جاك لن يعود قبل مطلع تشرين الأول : فيجب ان اعطيك
بعض المال لأنجح لك ان تنتظره .
- وكن في محفظة الف فرنك وورقتان من فئة المئة فرنك ، فأخذ
ورقة الالف واعطاها اياها . قالت ايفيش :
- اشكرك جداً .
- وتناولت الورقة واحتفظت بها في يدها المنقبضة .
- اذا حدث اي شيء ، فنادي جاك . سأكتب له اني اعهده
اليه فيك .
- فرددت ايفيش : — شكراً ، شكراً ، شكراً .
- هل تعرفين عنوانه ؟
- نعم . نعم . شكراً .
- الى اللقاء (واقرب منها) الى اللقاء يا عزيزتي ايفيش : سأكتب
لك بمجرد ان احصل على عنوان .
- وأخذها من كنفها وجذبها اليه .
- يا صغيرتي العزيزة ايفيش .
- فدلت له بوداعة جبينها فقبله . ثم شد على يدها وخرج : وسمعت
يصفق باب غرفة الدخول ؛ عند ذلك بسطت ورقة الالف فرنك ونظرت
- (١) تعني كلمة « بالين » بالفرنسية : الحوت (المترجم)

الى نقشها الصغير ، ثم مزقتها الى ثماني قطع القتها على السجادة .
 كن معتر عجوز ذو لحية شقراء واضعاً احدى يديه على كتف شاب
 حديث التجنيد ، يشير له باليد الأخرى الى الشاطئ الأفريقي . « عودوا
 الى التطوع في الفرقة الاجنبية » . وكان المجتد الحديث ذا هيئة بليدة
 تماماً . لا بد بالأكيد من المرور بهذه المرحلة : فطول ستة اشهر سيبدو
 بوريس في هيئة الأبله . لنقل طول ثلاثة اشهر : فإن اعوام الحرب
 تعدّ مضاعفة . وفكر وهو يركز على اسنانه : « سيقصون لي غرتي :
 المتوحشون ! » ولم يسبق له ان شعر بمناهضته للعسكرية بمثل هذا الشعور
 العنيف . وألم بحارس منتصب بجمود في محرسه ، فرماه بوريس بنظرة
 خفية فشعر فجأة بالخوف . وفكر : « خراء ! » ولكنه كان مصمماً ،
 وكان يحس نفسه شريراً من الرأس حتى القدمين : ودخل الثكنة وساقاه
 رخوتان . وكانت السماء تلمع ، وكانت ريح خفيفة جداً تحمل رائحة
 البحر حتى هذه الاحياء البعيدة ؛ وفكر بوريس : « وأسفاه . وأسفاه
 ان يكون الطقس رائعاً هذه الروعة . » وكان شرطي يرود الطريق عند
 باب المفوضية . وكان فيليب ينظر اليه . ويشعر انه متروك تماماً ، وكان
 يحس بالبرد ، وكان خده وشفته العليا يؤلمانه . سيكون استشهاده بلا مجد .
 بلا مجد ولا فرح : السجن ، ثم ذات صباح ، نهاية المطاف في حُصْر
 برج « فانسين » ؛ ولن يعرف احد ذلك ، فلقد رفضوه جميعاً .
 وسأل :

— مفوض الشرطة ؟

فنظر اليه الشرطي :

— في الطابق الأول .

سأكون شاهدي بالذات ، ولست مديناً بعد بحساب لسواي .

— مكتب التطوع ؟

وتبادل الجنديان نظرة ، فأحس بوريس خديّه يلتهبان وفكر :

« إن صحتي جيدة : »

- البناء في داخل الباحة ، الباب الاول الى اليسار .
فلسم بوريس سلاماً سريعاً باصبعيه واجتاز الباحة بقدم ثابتة ، ولكنه
كان يفكر : « انني أبدو ابله » وتأثر لذلك تأثراً شاقاً ، وفكر :
« لا بد ان يتسلوا . رجل يأتي من تلقاء نفسه ، من غير ان يكون
مجبوراً ، لا بد ان يجدوا ذلك مزاحاً . » كان فيليب واقفاً ، في وضع
النور ، وكان ينظر في صيني رجل قصير يحمل أوسمة ، ذي فك مربع ،
ويفكر في رسكولنيكوف .

- هل انت المفوض ؟

قال الرجل : - انا سكرتيره .

كان فيليب يتكلم بصعوبة بسبب شفته المتورمة ، ولكن صوته كان
واضحاً . وتقدم خطوة وقال بحزم :
- أنا فراري ، واني استعمل هوية مزورة .
فحدجه السكرتير بانتباه ، وقال بأدب :
- اجلس .

كانت السيارة تجري نحو محطة « غار دوليست » ، وسألت ايريني :
- سوف تتأخر .

قال ماتيو : - لا ، ولكني سأصل على الوقت تماماً . (وأضاف
على سبيل الإيضاح) كانت لدى فتاة .
- فتاة ؟

- كانت قادمة من لاون لتراني .

- هل تحبك ؟

- كلا .

- وأنت ، هل تحبها ؟

- لا : وانما اعطيها بيبي .

- هل هي فتاة جيدة ؟
- قال ماتيو : - ليست هي فتاة جيدة ، ولكنها ليست سيئة كذلك ،
وصمتا . وكانت السيارة تجتاز سوق « المال » ، وقالت ايرين فجأة :
- هنا ، هنا ، كان الامر هنا :
- نعم .
- كان ذلك امس ، يا إلهي ، إنه بعيد . . .
- وارتمت في جوف السيارة لتتنظر عبر الزجاج ، وقالت وهي تستوي
في مقعدها :
- انتهى .
- فلم يُجب ماتيو : كان يفكر في نانسي : إنه لم يزرها من قبل قط ؟
وقالت ايرين :
- انك لا تتحدث كثيراً ، ولكني لا اضجر معك :
- فقال في ضحكة مقتضبة :
- لقد تحدثت في الماضي اكثر مما ينبغي ،
والتفت اليها :
- ماذا ستعملين اليوم ؟
- قالت ايرين : - لا شيء فانا لا أعمل قط شيئاً : ان صاحبي
يتفق علي .
- وتوقف التاكسي ، فترجلا ودفع ماتيو . قالت ايرين :
- إنني لا أحب المحطات . فهي توحى بالشؤم .
ودست يدها فجأة تحت ذراعه . وكانت تمشي بجانبه ، صامتة
أليفة : وكان يخيل اليه انه كان يعرفها منذ عشر سنين .
- يجب ان اقطع تذكرتي .
واخترقا الجمع : وكان جمعاً مدنياً ، بطيئاً صامتاً ، مع بعض الجنود ،
- هل تعرف نانسي ؟

قال ماتييو : - لا .
 - انا اعرفها : قل لي ، الى اين انت ذاهب ؟
 - الى ثكنة طيران « ايسي لينانسي » .
 قلت : - اعرفها . اعرفها .
 وكان ثمة رجال يحملون القرب ويصطفتون امام نافذة التذاكر :
 - اتريد ان اذهب فأتيك بجريدة بينما انت تنتظر في الصف ؟
 قل لها وهو يضغط ذراعها :
 - لا ، ابقني بالقرب مني .
 وابتسمت له بهيئة سرور . وتقدّما ، خطوة خطوة :
 - ايسي لينانسي .
 ومدّ دفتره العسكري فأعطاه الموظف تذكرة . واستدار اليها :
 - لصحبيني حتى البساب . ولكنني افضل الا تأتي الى رصيف
 المحطة :

وتقدما بضع خطوات وتوقفا . قالت :
 - اذن ، وداعاً .
 قال ماتييو : - وداعاً .
 - ان ذلك لم يدم الا ليلة .
 - ليلة . أجل ، ولكنك ستكرنين ذكراي الوحيدة في باريس .
 وقبلها . فسألته :
 - هل ستكتب لي ؟
 قال ماتييو : - لا أدري .
 ونظر اليها برهة من غير ان يتكلم ، ثم ابتعد . قلت له :
 - هيه !
 فالنفت . كانت تبسم ، ولكن شفيتها كانتا ترتعشان قليلا :
 - ولكنني لا اعرف حتى اسمك .

- اسمي ماتيو دولارو :

- ادخلي .

كان جالساً في سريره ، وهو في منامته ، مسرّحاً جيداً على مألوف عاداته ، جميلاً على مألوف عاداته ، وتساءلت عما اذا كان لا يضع على رأسه شبكة الليل . وكان ينبعث من غرفته عطر الكولونيا . ونظر اليها بهيئة مندهشة ، وتناول على عجل نظارتيه من على طاولة الليل فوضعها على أنفه :

- ايفيش !

فقال في طيبة : - اي نعم .

وجلست على طرف السرير وابتسمت له . وكان قطار نانسي يغادر محطة « غار دوليست » ، وفي برلين ، ربما كانت القاذفات قد طارت ، « اريد ان أتسلى ! اريد ان أتسلى ! » ونظرت فيما حولها : كنت غرفة فندق ، قبيحة وفخمة . مستخترق القبلة سقف السادس وأرضه : وهنا سوف أموت . وقال في رصانة :

- لم اكن اعتقد اني سأراك ثانية .

- لماذا ؟ لانك تصرفت كما يتصرف القدير !

- كنا قد شربنا :

- كنت قد شربت لأنني علمت اني قد سقطت في شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات . اما انت ، فلم تكن قد شربت : كنت تريد ان تأخذني الى غرفتك ؛ كنت ترصدني .

وكان شاردأ ضائعاً تماماً . وقالت :

- حسناً ، هأندي في غرفتك . فاذا تريد ؟

فأصبح لونه قرمزيّاً :

- ايفيش !

وضحكت في وجهه :

- إن هيثك لا تبدو مخيفة جداً .
وساد صمت طويل ، ثم لامست قامتها يد مرتبكة . كانت القاذفات
قد عبرت الحدود . كانت تضحك حتى الدموع : مهما يكن من أمر ،
فلن أموت وأنا عذراء .
- هذا المكان شاعر ؟

فقال العجوز الضخم : - هون !
ووضع ماتيو قُربته في الشبكة وجلس . وكانت الحافلة ملأى ،
وحاول ماتيو ان ينظر الى رفاقه في السفر ، ولكن الجو كان ما يزال
معتماً . وظل جامداً لحظة ، ثم حدثت هزة مفاجئة وانطلق القطار .
وانتفض ماتيو انتفاضة فرح ، لقد انتهى الأمر . فغداً ، نانسي ، الحرب ،
الخوف ، وربما الموت ، الحرية . وقال : سزى : سزى : ووضع
يده على جيبه ليأخذ غليونه ، فاندعك ظرف تحت أصابعه : كانت
رسالة دانيال : وكانت به رغبة لإعادتها الى جيبه ، ولكن نوعاً من
الحشمة منعه من ذلك : كان ينبغي على اي حال قراءتها . وحشا غليونه ،
واشعله ، وفض الظرف فأخرج منها سبع اوراق تغطيها كتابة مستوية
ملتصقة ، من غير شطب ، وفكر في ضمير : « لقد كتب مسودة ،
ما أطولها ! » ومن حسن الحظ ان القطار كان قد خرج من المحطة ،
نحيث كانت الرؤية أوضح : وقرأ :

« عزيزي ماتيو :
« لأنني أتصور ذهولك أكثر مما ينبغي بحيث لا يمكنني الا أن أشعر
شعوراً عميقاً بمجيء هذه الرسالة في غير أوانها : وألحق اني لا ادري
انا نفسي تماماً لماذا اتوجه اليك : يجب ان نفترض ان طريق المساراة ،
هي كالجريرة ، منحدر زلق . وحين كشفت لك ، في حزيران الماضي ،
مظهراً بارزاً من مظاهر طبيعتي ، فربما جعلت منك ، على غير علم
مني ، شاهداً ممتازاً . وسأكون من ذلك على أسف ، لأنني اذا كان

صحيحاً أنه كان عليّ أن أطيع بخاتمتك جميع أحداث حياتي ، كنت مجبراً عليّ أن أكنّ لك كراهية فعّالة ، مما سيجعل الأمر متعباً لي ، وضاراً لك . انك تفكر جيداً بأنني اكتب هذا وأنا أضحك . فند بضعة أيام ، أعرف خنة رصاصية - اذا كان هذا النعت لا يخيفك - وقد أعطاني « الضحك » نعمة إضافية . ولكن لندع ذلك ، ما دام الذي سأرسمه لك ليس هو العادي من حياتي ، واما هو مغامرة عجيبة . وهي لن تبدو لي واقعية تماماً من غير شك الا اذا وجدت ايضاً بالنسبة لآخرين . وليس مرد ذلك الى اني أعوّل كثيراً على ايمانك ، حتى ولا ربما على حسن ظنك . فان العقلانية التي هي حرفتك منذ اكثر من عشرة أعوام ، اذا طلبت منك ان تضعها جانبا لفترة من الزمن لكي تتبغني ، فاني اشك بان توافق على التخلي عنها . ولكن من اجل هذا ربما اخترت ان انقل هذه التجربة الغريبة الى واحد من اصدقائي هو اقلهم استعداداً لساعه ، ربما وجدت في ذلك حجة مضادة . ولست اقصد ان اطالب منك جواباً : فانه يسوءني ان تعتقد انك مجبر عليّ ان تكذب لي هذه النصائح بالعودة الى العقل التي لم أن اوجهها لفسفي بصوت مرتفع - وارجو ان تشرفني بتصديق ذلك . بل ينبغي ان اعترف لك : انما يهبط عليّ من الضحك حين افكر غالباً بالعقل السليم والعلوم الوضعية . والحق اني اعتقد بأن مارسيل ستكون مغنومة اذا وجدت في يريدي رسالة منك : فهي ستظن انها تكتشف مراسلة مريبة ، وربما تصورت ، وهي تعرفك كما تعرفك ، انك تضع نفسك ببذل في خدمتي ، لتقرّد خطواتي الاولى في حياتي الزوجية . ولكن اسمع لماذا يمكن لصمتك ان يخدمني كحجة مضادة : اذا كان بإمكانني ان اتصور « بسمتك الكريمة » من غير ان أضطرب ، وأن أخجل السخرية الخفية التي ستواجه بها « حالي » من غير ان اترك الدرب الاستثنائي الذي اخترته ، فسأربح اليقين بأنني في الطريق المستقيم . وأضيف ، تفادياً لكل

سوء تفاهم ، وشاكراً عالم النفس الدقيق لمساعدته الحميدة ، اني هذه المرة انما اتوجه للفيلسوف ، لأن من المناسب ان اموضع الحكاية التي ارسلها لك على الصعيد الميتافيزيقي . سوف نحكم بلا شك أن هذا من قبيل الادعاء المغرور لاني لم أقرأ هيغل ولا شوبنهاور ، ولكن لا تستأ من ذلك : فاني لن أكون قادراً بالتأكيد على ان اثبت بالتصورات الذهنية الحركات الحالية لفكري ، وأدع لك أمر العناية بذلك ، ما دامت هذه مهنتك ، وسأكتفي بأن أعيش بالتأمُّس ما تتصورونه انتم المتبصرين . غير اني لا اظن انك تستسلم بهذه السهولة : فهذا الضحك ، وهذه الألوان من الضيق والقلق والحسد الخفي ، من الارجح مع الاسف ان تجد نفسك مضطراً الى تصنيفها بين « الحالات » البسيكولوجية وان تفسرها على ضوء شخصيتي وأخلاقي ، مستغلاً الاسرار التي تركت نفسي افضي بها اليك . ان هذا لا يعني : فما قبل يبقى مقولاً ، فأنت اذن حر في ان تستخدمه على هواك ، حتى ولو كان من أجل ان ترتكب بحقي اخطاء رئيسية . بل اني اصارحك بأني مستعد بكل سرور ان اعطيك جميع المعلومات الضرورية من أجل إعادة تشكيل الحقيقة ، فيما انا مدرك انك ستستعملها لتستغرق عن تصحيح في خطاك .

« لنأت الى الوقائع : ان الضحك هنا يسقط القلم من يدي : دموع من فرط الضحك ! ان ما لا أبشره الا وانا ارتجف ، ما لم أحدث به نفسي قط ، بدافع من حشمة واحترام ، سوف اصرفه في كلمات عامة ، وهذه الكلمات انما اوجهها لك انت ، فهي باقية على هذه الاوراق الزرقاء ، وسيكون بوسعك ان تقرأها بعد عشرة اعوام التماساً للمرح . ويخيل الي اني ارتكبت خطأ تدنيس ضد نفسي ، وهذا اشد ما لا يغفر ، ولكنني تنبأت بذلك ايضاً ، واني اعطيك اياه كما اعطيك الباقي : ان التدنيس يضحك . ان اشد ما احبه لن يكون عزيزاً علي تماماً اذا لم أضحك منه مرة على الاقل : حسناً ، سوف أجعلك تضحك من

معتقدي الجديد ، فانا أحمل في نفسي يقيناً ذليلاً سيتجاوزك بكل امتداده ،
وسيكون مع ذلك بين يديك بكلتيه ؛ ان ما بسحتني هنا سيكون مصغراً
هناك بمقدار فظاظك . اعلم اذن ، اذا سررت بقراءة هذه الرسالة ،
اني قد سبقتك : اني أضحك ، يا ماتيو ، أضحك ، ان الرب يصبح
انساناً متجاوزاً جميعاً الناس ، ومستهنزاً به من الجميع ، معلقاً على
الصليب ، فاغر الفم ، مخضراً ، أشد بكماً من شبوط نحت السخريات ،
فأي شيء أجدر بالضحك ، هيا ، هيا ، فهيا فعلت ، فان اعذب
دمعات الضحك لن تسيل على خديك .

ولنر اذن ما يمكن للكلام ان يفعله . أتراك ستفهمني اولا اذا قلت
لك اني لم أعرف قط ما انا ؟ ان أنفي فوق عيوبي وفوق نضائي ،
فلا استطيع ان أراها ، ولا ان آخذ قدراً من التراجع كافياً ليجعلني
أنال نفسي كمجموع . ثم اني احس بأنني مادة رخوة متحركة تدوم
فيها الكلمات ، وما كدت أجرب ان أسمي نفسي حتى كان الذي ممّي
قد اختلط بالذي يُسمي ، وعاد كل شيء من جديد ووضع جدال ،
لقد تمتيت غالباً ان اكره نفسي ، وانت تعلم انه كان لدي اسباب
وجيهة لذلك . ولكن كنت ما اكاد اجرب هذه الكراهية على نفسي
حتى تفرق في ميعي ، فلا تكون بعد الا ذكرى . ولم يكن باستطاعتي
كذلك ان احب نفسي - وانا على يقين من هذا ، بالرغم من اني لم
اجربه قط . ولكن كان ينبغي ابدأ ان اكون انا نفسي ، كنت حيني
بالمئات . ولم يكن عبثاً ثقيلاً بما فيه الكفاية ، يا ماتيو ، لم يكن قطعه
كذلك . وقد حسيتني ذات لحظة ، في هذا المساء من حزيران الذي
راق لي فيه ان اعترف لك ، حسيتني ألس نفسي في عينيك الذاهلين ،
كنت تراني ، وفي عينيك كنت صلباً قابلاً للترقع ، ولم تكن اعالمي ولا
حالاني النفسية الا نتائج جوهر ثابت . وهذا الجوهر انما حرفته انت
بواسطتي ، وقد وصفته لك بكلماتي ، وكنت قد كشفت لك عن وقائع

كنت تجهلها وهي التي اتاحت لك ان تتعرف عليه . ومع ذلك قامت
الذي كنت ترى هذا الجوهر ، وكل ما هو شأني اني كنت أراك تراه .
وذاث لحظة ، كنت الوسيط بيني وبين نفسي ، أؤمن وسيط في الدنيا
في نظري ، ما دام هذا الكائن الصليب الكثيف الذي كنته ، والذي
كنت أريد ان أكونه ، انما كنت تدركه بمثل البساطة والمشاركة اللتين
كنت أدركك بهما ، لأنني ، في آخر المطاف ، موجود ، فانا كائن
حتى ولو لم أحسني موجوداً ، وانه لتعذيب نادر ان يجد المرء في ذاته
مثل هذا اليقين من غير ادنى اساس ، ومثل هذا الفخر من غير مادة .
ولقد فهمت آنذاك ان المرء لا يستطيع ان يبلغ ذاته الا بحكم من الآخرة
وربما يجب من الآخر ، ولكن ليست القضية هنا هي هذه . فلقد
أكنت لك من هذا الاكتشاف عرفاناً معتدلاً . ولست ادري ما هو الاسم
الذي تطلقه اليوم على علاقتنا ، فليست هي الصداقة ، ولا الحقد تماماً .
لنقل ان بيننا جثة . جثتي .

و كنت ما ازال في هذه الاوضاع النفسية حين سافرت الى «سوفتير»
مع مارسيل . كنت تارة اريد ان الحق بك ، وتارة أحلم بأن أقتلك ،
ولكني ذات يوم جمبل خطرت بذهني صفة التبادل في علاقتنا . فإذا
هناك كنت تكون بدوني ، الا هذا النوع من المبيع الذي هو انا بالنسبة
لي بالذات ؟ فانما بتدخلي تستطيع ان تحزر نفسك احياناً كما انت -
في شيء من الغيظ - : عقلاني "تصبر النظر قليلاً" ، مطمئن جداً في
الظاهر ، اما في الحقيقة فغير واثق ابداً ، ممليء بالرضى عن كل ما
هو بطبيعته متصل بعقلك ، أعمى وكاذب في كل ما دون ذلك . انك
محايك بدافع الحذر ، عاطفي بالتذوق ، ضعيف الحس الشهواني ،
وبالاجمال مثقف متزن ، معتدل ، ثمرة حذبة لطبقتنا الوسطى . واذا
كان صحيحاً اني لا استطيع ان ابليغ نفسي الا بوساطتك ، فان وساطتي
ظروية لك اذا اردت ان تعرف نفسك . لقد رأيتنا آنذاك ندم

هدمينا أحدنا بالآخر ، وللمرة الاولى ضحكت تلك الضحكة العميقة التي
تحرق كل شيء ، ثم سقطت ثانية في نوع من اللامبالاة اسود ، لا
سما وان التضحية التي قت بها في شهر حزيران ذاك، والتي كانت تبدو
لي ساعتئذ بمثابة تكفير مؤلم، قد تكشفت على مدى الزمن قابلة للاحتمال
بصورة فظيعة . ولكن ينبغي هنا أن أصمت : فانا لا أستطيع ان اتحدث
عن مارسيل من غير ان اضحك ، وانا لا اريد ان أهرأ بها معك ،
وذلك بدافع من الاحتشام لا بد من ان تقدره . في تلك الفترة وقع لي
الحظ الذي هو اوفر الحظوظ جنوناً وعدم احتمال . ان الله يراني يا
ماتيو ، وانا احسه واعرفه . هأنذا قد قلت كل شيء دفعة واحدة ،
فأود لو اكون بالقرب منك واستمد يقيناً اقوى ، اذا امكن ذلك ،
عن مشهد الضحك الكئيف الذي سيهزك لفترة طويلة :

« والآن ، حسي ذلك . لقد ضحك أحدنا من الآخر بما فيه
الكفاية ، واني استأنف حكايتي . لا شك في انك عانيت ، وانت في
المرو ، او في باحة مسرح ، او في قاطرة ، احساسا مفاجئا وغير
محتمل بأن ثمة خلفك من يترصدك . وتلفتت ، ولكن الفضولي يكون
قد غطس أنفه في كتابه ، فلا تستطيع ان تتوصل الى معرفة مندا الذي
كان يراقبك : وتعود الى وضعك الاول ، ولكن تعلم ان المجهول
يكون قد رفع عينيه ثانية ، وتمسه عبر تنسل خفيف في ظهرك ،
شبيه بانقباض عنيف وسريع لجميع أنسجتك أجل هذا هو الذي شعرت
به للمرة الاولى يوم ٢٦ ايلول ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، في باحة
الفندق . ولم يكن ثمة أحد ، أسمع يا ماتيو ، لم يكن ثمة أحد. ولكن
النظر كان هناك . افهمني جيداً : انني لم النقطة ، كما نلتقط وجهها
جانبيا ، او جبيننا او عينين ، لأن ميزته الذاتية هي عدم قابليته للانقاط .
كل ما هنالك اني انقبضت ، وتراكت ، فكنت في وقت واحداً غرقاً
وكئيفا ، كنت موجوداً في حضور نظر . ومنذ ذلك الحين ، لم أكف

عن ان اكون امام شاهد . امام شاهد ، حتى في خرفتي المغلقة ،
 واحيانا ، كان الاحساس بان هذا النصل يخترقني ، وبأني انام امام
 شاهد ، يوقظني منتفضا . وبالاختصار ، فقدت النوم تماما . آه ! يا
 ماتيو ، اي اكتشاف : كان ثمة من يراني ، وكنت اضرب لأعرف
 نفسي ، وكنت أحسني أنسال من جميع الأطراف ، وكنت أطلب
 بوساطتك الحفية ، وفي هذه الاثناء ، كان ثمة من يراني ، وكان النظر
 هنا ، غير معتكر ، فولاذاً لا يرى . وانت ايضا ؛ ايها الضاحك
 الجاحد ، انك ترى . ولكنك لا تعرف ذلك . سيكون يسيراً علي ان
 اقول لك ما هو النظر : لأنه لا شيء . انه غيبة ، خذ مثلاً : تصور
 ليلاً شديد الظلام . ان الليل هو الذي ينظر اليك ، ولكنه ليل باهر ،
 الليل في وضوح النور ، الليل السري للنهار . اني اقطر نوراً أسود ،
 وهو يسيل على يدي وعيني ، وفي قلبي ، ولا اراه . صدقتي ان هذا
 الانتهاك الابدئي كان باديء ذي بدء كرهها جداً لي : فأنت تعلم أن
 اقدم احلامي هي ان اكون غير مرئي ، وقد تمتيت مئة مرة الا اترك
 اي أثر ، لا على الارض ولا في القلوب ، فأني ضيق في ان اكتشف
 فجأة هذا النظر كبؤرة كونية لا استطيع ان افر منها . ولكن اية راحة
 ايضاً . اني أعرف اخيراً اني موجود . اني أحوّل لصالحي ، وعلى
 غيظ شديد منك ، كلمة نبيك البليدة المجرمة ، عبارة « انا افكر
 فانا موجود » التي عذبتني طويلاً - لأنني كلما أمعنت في التفكير ، ضعف
 احساسي بوجودي - واقول : اني ارى ، فانا موجود . انه ليس لي
 بعد ان اتحمل مسؤولية انسيالي الدبق : للذي يراني ويوجدني ، اني
 كما يراني . وأدير نحو الليل وجهي المظلم الخالد ، وانتصب كتحد ،
 وأقول لله : هأنذا . هأنذا كما تراني ، كما انا . فماذا استطيع : انك
 تعرفني وانا لا أعرف نفسي . فماذا عساني أفعال الا ان أحتمل نفسي ؟
 وانا الذي يهرب مني نظرك ابدأ ، احتملي . اي فرحة ، يا ماتيو ،

واي هذاب! لقد تغيرت اخيراً فأصبحت نفسي : يكرهونني ، يحتقرونني ،
يحتملونني ، ولكن حضوراً يدعمني في ان اكون ما انا الى الابد . اني
لا محدود وانا مذنب الى ما لا حد ، ولكنني موجود ، يا ماتيو ،
موجود . امام الله ، وامام الناس موجود :

« لقد ذهبت ارى كاهن « سوفير » : انه فلاح مثقف ذاهية ،
ذو وجه متخرك متعب يشبه وجوه المثلثين المسنين . وهو لا يعجني
قط ، ولكن لم يكن مزعجاً لي ان يتم اتصالي الاول بالكنيسة عن طريقه .
وقد استقبلني في مكتب مزين بمجموعة من الكتب لم يقرأها كلها بالتأكيد .
وقد اعطيته اولاً الف فريك برسم فقرائه ، ورأيت انه يعتبرني مجرماً
ثانياً . وشعرت اني اكاد أضحك ، فكن علي ان اواجه كل ما كان
في وضعي من طابع مأساوي حتى احتفظ برصاتي .

« وقلت له : سيدي الكاهن ، اني لا اتنى الا معرفة شيء واحد :
هل يعلم دينكم ان الله يرانا ؟ »

« فاجابني مندهشاً : انه يرانا . ويقرأ في قلوبنا »

« فسألته : ولكن ماذا يرى فيها ؟ هل يرى هذا الزبد الذي منه
تصنع افكاري اليومية ، ام ان نظره يدرك جوهرنا الابدني ؟ »
« فقدّم لي الخبيث للعجوز هذا الجواب الذي وجدت فيه حكمة
سرمدية :

« يا سيدي ، ان الله يرى كل شيء » :

« ففهمت ان ... »

ودعك ماتيو الاوراق وقد نفذ صبره . وفكر : « يا لها من افكار
مبتدلة ! » وكان الزجاج قد أخفض ، فالف للرسالة في كتلة وتذف
بها من النافذة من غير ان يمضي في القراءة :
قال المفوض : - لا ، لا ، خذ الجهاز : فانا لا احب ان اتحدث
الى هؤلاء الضباط العالين ، فهم يتخذونك خادماً لهم .

فقال السكرتير : - اظن ان هذا سيكون اوفر لطفاً . ثم اتنا في
تسوية الأمر نعيد له ابنه ، وهو بالاجمال على خطأ : فما كان عليه الا
ان يحسن مراقبته . . .

قال المفوض : - سترى ، سترى ، فسيتدبر امره ليكون مزعجاً .
ولا سيما في الظروف الحالية : ففي عشية حرب ، تستطيع دائماً ان
تحاول حمل جنرال على الاعتراف بخطأه .
وتناول السكرتير التلفون وركب الرقم . واشعل المفوض سيجارة ،
وقال :

- كن لبقاً يا ميران ، لا تتخل عن اللهجة المهنية ولا تتكلم اكثر
منما ينبغي ؟

قال السكرتير : - آلو ؟ آلو ؟ الجنرال لا كاز ؟

فقال صوت خشن : - نعم . ماذا تريد مني ؟

- انني سكرتير مفوضية شرطة شارع دولامبر :

فبدأ الصوت ينم عن اهتمام اكثر :

- نعم . ماذا تريد ؟

فقال السكرتير بصوت محايد مائع :

- حضر شاب الى مكنتي في الساعة الثامنة من هذا الصباح . وهو

يُدعي انه فراري وحامل هوية مزورة . والواقع اننا وجدنا معه جوازاً

اسبانياً مزوراً . وقد رفض ان يعترف بهويته الحقيقية ، ولكن المحافظة

قد اعطتنا صوراً لابن زوجتك فعرفناه على الفور .

وساد صمت ، ثم اضاف السكرتير بلهجة حائرة :

- بالطبع ، ليس هناك ، يا جنرالي ، اي دليل لإدانة ضده :

هو ليس فرارياً ما دام لم يدع لخدمة العلم ، صحيح انه يحمل جوازاً

مزوراً ، ولكن هذا لا يشكل جنحة ، لأنه لم يتح له ان يستعمله :

هو لقد احتفظنا به ليكون تحت تصرفك ، ويمكنك ان تأتي لاصطحابه

متى شئت ؟

وسأل الصوت الجاف :

- وهل ضربتموه ؟

فانتفض السكرتير ، فسأله المفوض :

- ماذا يقول ؟

فغطى السكرتير الجهاز بيده :

- يسأل عما اذا كنا قد ضربناه .

فرفع المفوض ذراعيه الى السماء ، بينما كان السكرتير يجيب :

- لا ، يا جنرالي ، بالطبع ، لا .

قال الجنرال : - شيء مؤسف .

فسمح السكرتير لنفسه بضحكة مهذبة . وسأل المفوض :

- ماذا يقول ؟

ولكن السكرتير اولاه ظهره نافذ الصبر ، وانحنى على الآلة :

- سأ تي هذا المساء او غداً . فحتى ذلك الحين ، احتفظوا به في

المركز . وسيكون ذلك درساً له .

- حسناً ، يا جنرالي :

وعلق الجنرال السهامة . فسأل المفوض :

- ماذا كان يقول ؟

- كان يريد ان يضرب القتي :

وسحق المفوض سيجارته في المنفضة ، وقال في سخرية :

- أعتقد ذلك !

الساعة ١٨ر٣٠ : الشمس على البحر ، وهي لا تكف عن الهبوط ،

ولا تكف الدبابير عن الطنين ، ولا الحرب عن الاقتراب ، وطرده

دبوراً لم يكن ليكف ، وكان جاك خلفها لا يكف عن شرب كأسه من

الويسكي جرعات صغيرة . وفكرت : « ان الحياة لا تنتهي ، كان

الاب والأم والاخوة والاعمام والمعمات، قد اجتمعوا طوال خمس عشرة سنة متتالية ، في هذا الصالون ، في اصائل ايلول الجميلة ، قساةً "بكمًا" كصور أسرة ، كانت قد انتظرت العشاء كل مساء ، اولا تحت الطاولات ، ثم فوق كرسي صغيرة ، وهي تتساءل ما جدوى الحياة . لقد كن جميعاً هنا ، بعد ظهر كل يوم ضائع ، في الذهب الاحمر لهذه الساعة اللامجدية . كان الاب هنا ، خلعها ، يقرأ « الثان » . ما جدوى العيش ؟ ما جدوى العيش ؟ وكانت ذبابة تنسلق في ارتباك على الزجاج ، فتندرج ثم تصعد من جديد ، وكانت اوديت تتابعها بعينها ، وكانت بها رغبة في البكاء .

قال جاك : - تعالي اجلسي ، سوف يخطب دلاديه .

والفتت اليه : كان قد أرق في نومه ، وكان جالساً في الاريكة الجلدية ، وهو في تلك الهيئة الطفولية التي كان يأخذها حين يكون خائفاً . وجلست على ذراع الاريكة . ستكون جميع الايام متشابهة . جميع الايام . ونظرت الى الخارج وفكرت : « كان على حق ، فقد تغير البحر » .

- ما الذي سيقوله ؟

فهز جاك كتفيه وقال :

- سيخبرنا ان الحرب قد أعلنت :

واهتزت اهتزازة صغيرة ، لا غير . خمس عشرة ليلة . طوال خمس عشرة ليلة قلق كانت قد ابتهلت في الفراغ ، كانت مستعدة لأن تعطي كل شيء ، بيتها ، صحتها ، عشرة اعوام من حياتها لتنقذ السلام . ولكن لتنفجر ، يا إلهي ! لتنفجر الحرب الآن . ليحدث اخيراً شيء ما : ليدق جرس العشاء ، لتسقط الصاعقة على البحر ، وليعلن صوت معتم : لقد دخل الالمان الى تشيكوسلوفاكيا . ذبابة . ذبابة غارقة في حفر فنجان ، ستداعى للفرق في هذا الأصيل الهاديء ذي الكارثة ،

وكانت تنظر الى شعر زوجها الذي وخطه الشيب ، ولم تكن تفهم بعد جيداً لماذا كان الامر يستحق وقاية الناس من الموت وبيوتهم من الدمار .
ووضع جاك قدحه على الطاولة وقال بحزن :

- أنها النهاية .

- نهاية ماذا ؟

- نهاية كل شيء . انني لا اعلم بعد ما الذي ينبغي ان نتمناه من النصر او الهزيمة .

قالت باسترخاء : - اوه !

- اذا هزمننا ، فسوف « يجرمنوننا » ، ولكنني اقسم لك ان الالمان سيعرفون كيف يفرضون النظام . ولن يبقى على الشيوعيين واليهود والماسونيين الا ان يجزموا حقائبهم . اما اذا انتصرنا ، فسوف يبلشفوننا ، وسيكون ذلك انتصار الفوضى وربما أسوأ (وأضاف بلهجة شاكية)
آه ! يجب الا تعلن هذه الحرب ، يجب الا تعلن !

ولم تكن تسمع كثيراً ما كان يقوله لها . كانت تفكر : « انه خائف ، وهو شرير ، وهو وحيد » . وانحنت فوقه وداعبت شعره .
« يا لصغيري المسكين جاك ! »

- عزيزي الصغير بوريس .

كانت تبسم له ، وكانت تبدو في هيئة كريهة ، واحس بوريس ان الندم يخرق قلبه ، يجب على ان حال ان اخبرها بالأمر .
واستطردت لولا :

- انني نائبة الأعصاب ، وهذا مزعج . وانا راغبة في معرفة ما سوف يرويه لنا ، ولكن ذلك ليس كما لو انك ذاهب على الفور .
ونظر بوريس الى قدميه وأخذ يصفر . كان الافضل التظاهر بأنه لم يسمع ، وألا لانهمته بالنفاق ، بالاضافة الى كل شيء . وكان الوضع يزداد صعوبة بين دقيقة واخرى . سوف تتخذ هيئتها المسكينة الشاردة ،

ومستقول له : « لقد فعلت هذا ! فعلت هذا ولم تقل لي كلمة عنه ؟ »
(وانتهى الى القول) انني لا اراني مرتاحاً.

قالت لولا : - اعطني قلدح مارتيني ؟ وانت ، ماذا تأخذ ؟
- الشيء نفسه .

وعاد يصفر : ربما اتاحت هناك فرصة ، بعد خطاب دلاديه :
مستعلم ان الحرب قد اعلنت ، وسوف يدوخها ذلك قليلا دون ريب :
واذا ذاك بهجم بوريس فيقول لها : « لقد تطوحت ! » من غير ان
يدع لها مجال استعادة نفْسها . كانت ثمة حالات تحدث فيها المصيبة
البالغة ارجاعاً غير منتظرة : كالضحك مثلا ، سيكون الامر طريفاً اذا
اخذت تضحك . وقال في تجرد : « سيكون مع ذلك متزعجاً بعض
الشيء » . وكان جميع زبائن الفندق قد تجمعوا في الباحة ، بما فيهم
الكااهنسان . وكانوا غارقين في ارائكهم يتخذون هيئات راضية لانهم
كانوا يحسون انفسهم مراقبين ، ولكنهم لم يكونوا يمشون طويلا في
ذلك ، وقد فاجأ بوريس اكثر من واحد منهم ينظر خفية الى الساعة ،
حسناً ! حسناً ! ان عليكم ان تنتظروا نصف ساعة اخرى . كان بوريس
مستاءً ، انه لم يكن يحب دلاديه ، وكان ينفره ان يفكر بأنه كان
في جميع انحاء فرنسا مئات الألوف من الأزواج ، ومن الأسر الكثيرة
العدد ومن الكهنة ، وهم على استعداد لتلقي كلام هذا الرجل - الذي
نسف « الجبهة الشعبية » - على انه من « من السماء . وفكر : « ان ذلك
يمنحه اهمية لا يستحقها » : والنفت الى جهاز الراديو ، وتنادب علانية ،
كان الجو حاراً ويدعو الى العطش ، وكان ثمة ثلاثة ينامون : الاثنان
للقربيان من المر ، والمعجوز القصير الذي كان يبلو وكأنه يصلي وهو
مضموم اليدين . وكان الاربعة الآخرون قد بسطوا مندبلا على ركبهم
يلعبون الورق : كانوا في سن الشباب ، ولم يكونوا بشعبين اكثر مما
ينبغي ، وكانوا قد علقوا بالشباك ستراتيم التي كانت تتأرجح خلف

وقابهم وتناثر شعرهم أحياناً : وبين فترة وفترة ، كان ماتيو ينظر من زاوية عينه الى ساعدي جاره الاسمرين المجعدين ، وهو قصير اشقر كانت يدها بأظافر العريضة السوداء تتلاعبان بالورق في مهارة ، كان حامل مطبعة ، اما الشخص الذي كان الى جانبه ، فهو صانع أفعال ، واما الآخران الجالسان قبالة ، فقد كان احدهما ، وهو الأقرب الى ماتيو ، وكيل شركة ، وكان الآخر هازف كيان في مقهى في «بواكولومب» ، وكانت تنبعث من الحافلة رائحة الرجال والتبغ والخمر ، وكان العرق يسيل على وجوههم القاسية ، فيصفرها ويجعلها تلتصق . وكان هذا العرق على ذقن العجوز القصير المترنح ، بين عروق خديه الصلبة البيضاء ، يبدو اوفر زيتاً وحموضة : افرازاً من الوجه : وكان فيما وراء النافذة ، سهل رمادي منبسط يتمطى تحت شمس غائمة :

ولم يكن حامل المطبعة محظوظاً ، كان يخسر ، وكان ينحني فوق الورق وهو يقوِّس حاجبيه في هيئة مندهشة مصدومة ، وكان يقول :

- آه ! صجيب !

ولمّ الوكيل الورق بخفة وخلطه : وكان حامل المطبعة يتبعه بنظرة حين كان ينقله من يد الى اخرى : وقال في حقد :

- لا حظ لي !

ولعبوا في صمت : وبعد لحظة ، جمع حامل المطبعة كل ما كان امامهم قائلاً في لهجة انتصار :

- « أتو ، آه ، سيتغير الوضع قليلاً ، ايها الاولاد ! وقد قلور أعصابي قليلاً ،

ولكنّ الوكيل بسط اوراقه : « أتو ، اتو ، وراتانو : لا مشاكل بعد : الملكة الأم لا تريد المشاكل » :

فدفع حامل المطبعة اوراقه قائلاً :

- اني لني ألعب بعد : فانا أخسر أكثر مما ينبغي :

قال صانع الأقفال : - انت على حق ، ثم ان المرء يتزعج اكثر مما ينبغي .

وطوى الوكيل المنديل ووضع في جيبه : وكان رجلاً طويلاً سمياً ذا سحة ممتعة ، ورأس ضفدعي رخو ، وفكين عريضين ، وجبين ضيق . كان الثلاثة الآخرون يتحدثونه بلهجة الاحترام لأنه كان متعلماً وكان رقيباً في الجيش . ولكنه كان هو يتحدثهم بلا كلفة . وقد ألقى نظرة استياء الى ماتيو ونهض وهو يترنح :

- اريد ان اشرب جرعة .

- هذه فكرة طيبة .

وأخرج صانع الاقفال وعامل المطبعة زجاجات من قريبتها ، فخرج صانع الاقفال من زجاجته كرعاً ومدما الى عازف الكمان :

- جرعة خمر ؟

- ليس الآن .

- انت لا تعرف ما هو جيد .

وصمتوا ، مرهقين بالحر . ونفخ صانع الاقفال خديبه وتنهّد على مهل ، واشعل الوكيل سيجارة هاي لايف . وكان ماتيو يفكر : « انهم لا يحبونني ، فهم يجدونني متكبراً » . ومع ذلك ، فقد احس نفسه مجذوباً نحوهم ، حتى نحو النائمين ، وحتى نحو الوكيل : كانوا يثاءبون ، وينامون ، ويلعبون الورق ، وكان الارتياج بمايل رؤوسهم الفارغة ، ولكن كان لهم قدر ، كالمملوك وكالأموات . قدر ساحق كان يمتزج مع الحر والتعب وطنين الذباب : كانت الحافاة المقلدة كالمخنق ، والمحاصرة بالشمس والسرعة ، تحملهم وهي تترجّح الى المغامرة نفسها . وكان التماح من ضوء يطرز اذن عامل المطبعة للرمزية ، فكانت شحمتها تشبه حبة فريز دهوية ، ومكر ماتيو : « بتل هذا تصنع الحروب » . وكانت قد بدت له حتى ذلك الحين خليطاً متشابكاً من القولاذ الملتوي ،

والاعمدة المحطمة ، والصلب والحجارة . اما الآن فقد كان الدم يرتجف
في أشعة الشمس ، وكان لإشراق أحمر قد غمر القاطرة : ان الحرب
كانت قدراً من دم ، انها ستصنع بدم هؤلاء الرجال الستة ، بالدم
الذي كان يأسن في شحات آذانهم ، بالدم الذي كان يجري أزرق تحت
جلودهم ، بدم شفاههم . إنهم سوف يُشَقُّون كالقِرَب ، فثب جميع
القنارات الى الخارج ، وأمعاء صانع الاطفال الماجنة والتي كنت تفرقر
وترك أحياناً ضرطه صمماء ، سوف ترتمي في الغبار ، فاجعة كأمعاء
حصانٍ بُقِرَ في الحلبة .

قال عامل المطبعة كأنما يحدث نفسه : - اني سأتمشي قليلا لأزبل
نخدر ساقى .

ونظ الى ماتيو وهو ينهض ويخرج الى الممر : لقد أصبحت هذه
المبارة تاريخية منذ تلك اللحظة . فلقد نطق بها ميت بصوت منخفض ،
في يوم صيف ، اذ كان حياً . ميت او ما يؤدي الى النتيجة نفسها
حي بين الاموات . اموات - اموات انتهوا . من اجل هذا ، لا
أجد ما أقوله لهم . كان ينظر اليهم في نوع من الدوار ، وقد كان
يود لو يكون منخرطاً في المغامرة التاريخية الكبيرة ، ولكنه كان منغياً
عنها ، كان يُننِن في حرارتهم ، وسينزف دماً على الدروب نفسها ،
وهو مع ذلك لم يكن معهم ، انه لم يكن الا هالةً ممتمعة وخالدة :
انه لم يكن له قدر .

والتفت عامل المطبعة اليهم فجأة ، وكان يدخن في الممر :

- هناك طائرات .

- آه ؟

وانحنى الوكيل . وكان صدره يلامس ساقيه الضخمتين ، وكان
مرفع رأسه وحاجبيه .

- اين ذلك ؟

- هناك ، هناك ! خراء !
قال صانع الاقفال : - انني آه ! ولكن ، عجيباً !
وسأل عازف الكمان وهو يرفع نحو عامل المطبعة عينيه الجميلتين
الشاردين :

- أهي طائرات فرنسية ؟
- انها مرتفعة اكثر مما ينبغي ، فهي لا تُرى ؟
قال صانع الاقفال : - لا شك في انها فرنسية ، ماذا تريدان ان
تكون ؟ ان الحرب لم تعلن ؟
ومال عامل المطبعة عليهم وهو يستند بكلتا يديه على إطار الباب ؟
- ما يدريك ؟ لقد انقضت احدى عشرة ساعة وانت في القطار ؟
ربما كنت تظن انهم ينتظرون وصولك حتى يعلنوها ؟
فبدا صانع الاقفال مرتبكاً ، وقال :

- خراء ! انك على حق ، ايها الحصان الصغير ! ما رأي الاخوان :
ربما كنا في حرب منذ هذا الصباح :

والتفتوا الى الوكيل :

- ما رأيك انت ؟ أتظن اننا في حرب ؟
وكان للوكيل في هيئة مطمئنة : وقد هز كتفيه بروعة وقال :

- ماذا تراكم تتخيلون ؟ انهم سيقاتلون من اجل تشيكوسلوفاكيا ؟
هل نظرتم الى تشيكوسلوفاكيا على خارطة ؟ كلا ، اما انا ، فقد
نظرت اليها : واكثر من مرة : ان هذا خراء : وهو كبير كمنديل
جيب . ربما كان هناك مليوناً رجل مسكين لا يتكلمون حتى اللغة
نفسها : اتمتقدون ان هتلر تهمة تشيكوسلوفاكيا ؟ ودلايه ؟ ان دلايه
ليس هو قبل كل شيء دلايه : بل هو المثلثا أسرة : والمثلثا أسرة
تمسح مؤخراتها بتشيكوسلوفاكيا :

واجال نظره في مستغيبه وانتهى قائلاً :

- الحقيقة ان الامر كان يتحرك عندنا و عندهم منذ عام ٣٦ . فاذا فعل أمثال شميرلن وهتلر ودلاديه ؟ لقد قالوا لانفسهم : سنغلق عليهم ، هؤلاء الناس ، ووقعوا معاهدة صغيرة خفية . وكانت عملية هتلر الكبرى هي ان يحشر العمال تحت العلم اذا احتجوا ، وبذلك تخاط افواههم . هل تحتاج ؟ اذن ساعتنا تمرين . ما تزال تحتاج ؟ خذ ست ساعات اذن . وبعد ذلك ، يكون الفتية راكعين على ركبهم ، ولا يفكرون بعد الا بأن يطيعوا . حسناً ، اما باقي الوزراء فقالوا في انفسهم : سنعمل مثله . فالامر هو : ليس هناك من حرب ، اكثر مما هناك من زيادة على المؤخرات . لا من اجل تشيكوسلوفاكيا ، ولا من اجل التركي الكبير . غير أننا نحن قد جئنا ، وسوف نجرجر انفسنا ثلاثة اعوام او اربعة ، وفي هذه الاثناء ، سوف يحطمون في الحلف اضلاع البروليناريا .

كانوا ينظرون اليه نظرة غير يقينية ، انهم لم يكونوا مقتنعين ، او ربما كانوا لم يفهموا . وقال صانع الاقتال بلهجة مبهمه :
- ان ما هو مؤكد هو ان الكبار هم الذين يحطمون الاقداح ، وان الصغار هم الذين يدفعون ثمنها .

وهز عازف الكمان رأسه إعماة الموافقة ، ثم سقطوا في الصمت من جديد ، وانفتل حامل المطبعة فألصق جبينه على احدى مرايا المرر الكبرى . وقال ماتيو في نفسه : « طبعاً ، ليسوا هم متحمسين جداً للقتال » . وكان يفكر برجال ال ١٤ بأفواههم الفاغرة وبنادقهم المزدهرة . وبعد ذلك ؟ ان هؤلاء هم على حق . انهم يتكلمون بالامثال ولكن الكلام يخونهم ، ففي رؤوسهم اشياء لا يمكن التعبير عنها بالكلام . لقد قام آباؤهم بمدبحة لا معقولة ، وها قد مرت عشرون عاماً وهناك من يشرح لهم ان الحرب لا تفيد . فهل يراد بهم ، بعد هذا ، ان يصرخوا : الى برلين ! الواقع ان كل ما كانوا يقولونه ، وكل ما كانوا يفكرون به لا اهمية له : انها النماعات صغيرة خفيفة على هامش قدرهم . سوف

يقال عما قريب : جنود الـ ٣٨ - كما كان يقال ؟ جنود العام II ،
وجنود الـ ١٤ : متوف محفرون حفرهم كالأخرين ، لا احسن ولا
أسوأ ، ثم ينامون فيها ، لأن ذلك كان نصيبهم . وفكر فجأة : «وانت؟
أنت الذي تجعل نفسك شاهدهم ، من غير ان يطلب اليك احد ذلك ،
من انت ؟ وماذا ستفعل ؟ واذا نجوت من ذلك ، فمن عساك تكون ؟
ودقّ عامل المطبعة على الزجاج :

- انها ما تزال هنا .

فسأله عازف الكمان منتفضاً :

- من هي ؟

- الطائرات : انها تطوف حول المطار :

- تطوف ؟

- انني اراها .

قال صانع الاقفال : - عجب ! عجب !

وكان العجوز القصير قد افاق ، فسأل وهو يكرّر يده على اذنه :

- ماذا هناك ؟

- طائرات :

- آه ! طائرات !

فابتسم للملائكة وعاد الى النوم . وقال عامل المطبعة :

- تعالوا ! تعالوا ! ربما كانت ثلاثين طائرة . انني لم ار مثل

عددها منذ « فيلاكوبلي » .

وكان صانع الاقفال والوكيل قد نهضا ، فتبعهما ماتيوا الى المر :

ورأى زهاء عشرين حشرة شفافة ، سمكت في ماء السماء . وكانت

تبدو وكأنها توجد بالتقطع : فقد كانت تمحي حين لا تكون في

الشمس .

- واذا كانت ألمانية ؟

- لا تتحدث عن المصائب ، اذن سنكون في وضع لطيف ، فانت
تتحدث عن مرمى :
وكان عدد الاشخاص الذين تجمعوا في المرقد اصبح زهاء عشرين ،
وانوفهم في الهواء :
وقال الوكيل :

- يبدو لي ان الامر جد .
وكان يبدو انهم ناثرو الأعصاب : وكان ثمة شخص يطبل على
الزجاج ، وكان ثمة آخر يضرب بقدمه في إيقاع . وانعطف مرب
الطائرات واختفى فوق القطار .
وقال صوت : - اوف ا

قال عامل المطبعة : - انتظروا ، انتظروا ! لقد سبق ان فعلت
ذلك ، واؤكد لكم انها تطوف حول القطار ،
- ها هي ذي ! ها هي ذي !
وكان رجل طويل ذو شارب قد اخفض زجاجاً وانحنى بالمقلوب ،
عبر الباب . كانت الطائرات قد ظهرت مرة اخرى ، وكانت احداها
ترك خلفها خطاً ابيض .

قال صاحب الشارب وهو يستقيم :
- انها طائرات المانية .
وانتصب عازف الكمان فجأة خلف ماتيو ، وأخذ يهز النائمين ،
ففتح احدهما عينين ورديتين وسأل باسترخاء :
- ماذا هناك ؟

قال عازف الكمان : - لقد أعلنت الحرب . وستنفجر الامور : ان
فوق القطار طائرات المانية .
شدت لولا بعصية على معصم بوريس وقالت :
- اسمع ، اسمع !

كان جاك قد امتنع وقال :

- اسمعي ، سوف يتكلم :

وكان صوتاً بطيئاً ، منخفضاً ، أصمّ ، يخنّ قليلاً :

« كنت قد اعلنت اني سأصدر هذا المساء بلاغاً للسكان عن الوضع العالمي ، ولكنني فوجئت بعد ظهر هذا اليوم بدعوة من الحكومة الالمانية للاجتماع غداً في ميونيخ مع المستشار هتلر والسيدتين موسوليني وشمبرلين . وقد قبلت هذه الدعوة .

« وانكم لتدركون ، في عشية مفاوضات هامة كهذه ، لماذا يجب عليّ ان ارجيء الايضاحات التي كنت اود ان أعطيكم اياها : ولكن قبل مغربي ، أحرص على ان اقدم لشعب فرنسا شكري لموقفه المليء بالشجاعة والكرامة .

« واحرص خصوصاً على شكر الفرنسيين الذين دعوا لخدمة العلم على رباطة الجأش والتصميم اللذين دلتا عليها من جديد :

« ان مهمتي قاسية . ومنذ بدء المصاعب التي نجتازها ، لم اكفّ من العمل بكل قواي من أجل الحفاظ على السلام وعلى مصالح فرنسا الحيوية . وسأتابع غداً هذا الجهد وانا واثق بانني متفق تمام الانساق مع الامة .

قالت لولا : - بوريس ! بوريس !

فلم يجب ، فقالت له :

- افق يا حبيبي ، فاذا دهاك ؟ انه للسلام : سيعقد مؤتمر عالمي :

وكانت تستدير نحوه محمّرة مهتاجة : فتمتم على مهل بين اسنانه :

- دين ملعون ! دين ملعون في ماخور خراء !

فسقط فرح لولا :

- ولكن ما بك يا حبيبي : انك مخضرّ :

قال بوريس : - لقد تطوّعت لمدة ثلاثة اعوام :

كان للقطار يسير ، والطائرات تدور . وصرخ رجل :
- ان السائق مجنون . فاذا ينتظر ليتوقف ؟ انهم إذا اخلدوا يرمون
هنا بلهم ، متنا كالحيوانات .
وكان حامل المطبعة ممتعاً هادئاً ، وكان يحتفظ برأسه مرفوعاً ولا
يكف عن ترصد الطائرات . وقال بين أسنانه :
- يجب ان نفقز .

قال للوكيل : - خراء خراء ! نفقز بهذه السرعة ، اني لا اجروء .
(وأخرج مندبله فمسح جبينه) الأفضل ان نشد على اشارة الخطرة .
وتبادل حامل المطبعة وصانع الاقفال النظر ، فقال حامل المطبعة :
- افعل ذلك ، انت .

- ولكن اسمع : اذا كانت طائرات فرنسية ، فاذا يحدث لنا ؟
وتلقى ماتيو صدمة في ظهره : كان رجل ضخم يعدو نحوهم وهو
يصرخ :

- إن القطار يبطيء : الجميع على الابواب ا
والفتت حامل المطبعة الى الوكيل ، وكان يأتي بحركات غريبة مرتبكة ،
ويهم بسمة صغيرة تكشف عن اسنانه : وقال وهو يقلد الوكيل :
- انت ترى ، ان القطار يبطيء في سيره : فهي طائرات المانية .
ان هذا لا فائدة منه ، هذا لا فائدة منه ا

فقال الآخر برخاوة : - اني لم اقل هذا ، بل قلت ...
فأولاه حامل المطبعة ظهره واتجه الى مقدمة القطار . وكان الناس
يخرجون من جميع الحافلات ويتزاحون في الممرات ليكولوا اول من
يقفز الى الحقل . ولامس احدهم ذراع ماتيو ، وكان هو العجوز
القصير ، وكان يرفع رأسه نحوه ويتأمله في قلق .

- ماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟

قال ماتيو مترجعاً : - لا شيء . أعدت الى النوم .

واطل من النافذة . وكان شخصان قد هبطا على ذرجة القاطرة ،
ووثب احدهما وهو يصرخ ، فلامس الارض ، وقام بخطوتين جانبيتين ،
وهو مأخوذ بسرعة ، فصدم بكفه عموداً تليفرافياً ، وتدحرج على
الاكمة ، ورأسه الى الامام ، وكان القطار قد تجاوزه . وأدار ماتيو
رأسه ، فرآه ينهض من جديد ، فيبدو صغيراً ، ويرفع ذراعيه في
الهواء ويعدو عبر الحقول . اما الآخر ، فكان متردداً وهو منحني الى
أمام ، وكان يماسك بيد عند الفضيبي النحاسي .

وقال صوت مخنوق : - بربكم لا تدفعوا ! انا نختنق .

واستمر القطار في تمهله ، وكان ثمة رؤوس مطلّة من جميع
الأوافذ ، وحول الدرجات ، كان ثمة رجال يتأهبون للتفزع . وعند الممطف ،
ظهرت محطة ، وكانت على بعد ثلاثمئة متر . ولمح ماتيو مدينة صغيرة
في البعيد . وقفز رجلان آخران فتجاوزا طريقاً هناك . وكان القطار قد
دخل المحطة ، وفكر ماتيو : « بمثل هؤلاء ، سيصنعون ابطالا » .
وكان ضجيج عظيم يصدر عن المحطة ، وكانت اثواب مشرقة تلالأ
في الشمس ، وترتفع ايد ترتدي قفازات من الخبوط البيضاء ، وكان
ثمة فتيات فارعات ذوات قبعات من قش يلوحن بمناديلهن ، واولاد
يركضون ضاحكين صائحين على طول المحطة . ودفع عازف الكمان ماتيو
بعنف وانحنى من النافذة حتى البطن . ثم وضع يديه بشكل يوق حول
فه وصاح في الجمع :

- توقفوا ! توقفوا ! الطائرات !

وكان رجال المحطة ينظرون اليه من غير ان يفهموا . ورفع ذراعه
فوق رأسه وأوماً باصبعه الى السماء . فأجابه صراخ عظيم ، ولم يسمع
ماتيو باديء الأمر شيئاً ، ثم فهم فجأة :

- السلام ! انه السلام ! ايها الناس !

ورعد القطار برمته :

- الطائرات ! الطائرات !

فكانت الفتيات يصرخن :

- هوراه ! هوراه !

وانتهى الامر بهن الى رفع ابصارهن نحو السماء ، واخذن يلوحن
بمناديلهن تحية للطائرات . وكان الوكيل يفرض اظافره بأعصاب ثائرة
ويتمتم :

- اني لا افهم ، اني لا افهم !

وبعد طقتين او ثلاث ، توقف القطار تماماً : وصعد موظف في
المحطة على مقعد ، ونحت ذراعه علم احمر ، فصاح :

- السلام ! مؤتمر في ميونيخ . دلاديه يسافر هذا المساء .

ويظل القطار صامناً ، جامداً ، غير متفهم . ثم اخذ فجأة يهدر :

- هوراه ! ليعش دلاديه ! ليعش السلام !

واخفت اثواب النفا الزرقاء والوردية في مدّ من السترات السمراء
والسوداء ، واضطرب الجمع وضجّ ، كاوراق شجر كثيفة ، وكانت
اشراقات من الشمس تلالاً في كل مكان ، وكانت القبعات القشية تدور
وتدور ، فكأها في رقصة فالس . وراقص جاك اوديت رقصة فالس
في وسط الصالون ، وكانت السيدة بيرنانشاتز تضم ايلا الى صدرها
وتثن قئلة :

- اني سعيدة يا ايلا ، يا صغيرتي ، يا ابنتي ، اني سعيدة .

ونحت اللافذة وثب فتى احمر الوجه ، بضحك كأنه مجنون ، على
فلاحة فقباها من وجنتها . وكانت هي ايضاً تضحك ، مبهثرة الشعر ،
وقد ارتدت قبعتها الى خلف ، وكانت تصرخ : « هوراه ! » نحت
القبلات . وقبل جاك اوديت في اذنها ، وكان منتشياً :

- السلام . ونأكدي انهم لن يكتفوا بتسوية قضية السوديت . الحلف
الرباعي . كان ينبغي البدء من هنا .

وشقت الخادم الباب :

- هل استطيع يا سيدتي ان اقدم للطعام ؟
قال جاك : - طبعاً ، قدميه ، قدميه ا ثم اهبطي الى القبو
مخاطبي زجاجة شمبانيا وزجاجة شمبرتان .

وكان عجوز طويل ذو نظارات سوداء قد جلس على مقعد ، وهو
يرفع باحدى يديه زجاجة خمر ، وبالاخرى قدحاً .

- قدح خمر ايها الاخوان ، قدح خمر ، نخب السلام ؟
فصاح صانع الاقفال : - هنا ، هنا ا ليعش السلام ا
- آه ا يا سيدتي الأب ا انني أقبتك ا

وتراجع الكاهن ، ولكن العجوز ادركته بسرعة ، وفعلت كما
تخالت ، وغمس غريسيه المعروفة في اناء الحساء : « آه ا يا اولادي ا
يا اولادي . انها نهاية كابوس » : وفتحت زيزيت الباب : « هذا
صحيح اذن ، يا مدام ايزيلور ؟ » « نعم يا صغيرتي ، صحيح ،
لقد سمعته ، وأذاعه الراديو ، ان حبيبك مومو سيعود ، وقد سبق ان قلت لك ان
الرب الرحيم لا يريد ذلك » . كان يرقص في محله ، فقد غروره ،
فقد غروره ، لقد فقد هتلر غروره ، بل انا اعتقد اننا نحن الذين فقدنا
غرورنا ، ولكن كم انا انا رجح منذ علمت ان القتال لن يقع ، ولكن
لا ، ولكن لا ، لقد تنبّهت ، فاشترت كل شيء في الساعة الثانية ،
وكلفني ذلك مئتي ورقة مالية ، اسمعني جيداً يا صديقي ، ان هذه
مناسبة استثنائية - نائية ، فللمرة الاولى ، تستبعد ارادة اربعة رؤساء
حول حرباً كانت تبدو لا مفر منها ، فتتجاوز أهمية قرارهم الساعة
للراهنه : ان الحرب هي الآن غير ممكنة اطلاقاً ، وميونخ هي اول
تصريح للسلم ، يا إلهي ، يا إلهي ، لقد صليت وصليت ، فقلت :
« يا إلهي ، خذ قلبي ، خذ حياتي » . وقد استجبت دعائي يا إلهي ،
طانت الأكبر ، وأنت الأحكم ، وأنت الأرق . وتخلص الأب ، ولكني

قلت لك ذلك دائماً يا سيدتي : ان الله رائع : وطز في التشيكين ،
ليتدبروا أمرهم وحسدهم ، كانت زيزيت تمشي في الشارع ، كانت
زيزيت تغني ، جميع العصافير في قايي ، كان للناس رؤوس طيبة
باسمة ، وكانوا يقولون فيما بينهم « مرحباً » من زاوية العين ، وحتى
ولو كانوا لا يعرف بعضهم بعضاً . كانوا يعرفون ، كانت تعرف ،
كانوا يعرفون أنها كانت تعرف ، وكان الجميع يفكرون بالشيء نفسه ،
وكان الجميع سعداء ، فلم يكن ثمة مناص من ان تفعل كما يفعل الجميع ،
يا للمساء الجميل . وتلك المرأة التي كانت تمر ، اني اقرأ حتى اعماق
فؤادها ، وهذا السرير الطيب القديم في قلبي ، منفتحة كل الانفتاح
للجميع ، فالجميع ليسوا الا واحداً ، وانخذت تبكي ، كان الجميع
متحابين ، وكان الجميع سعداء ، وكان الجميع كالجميع ، ولا بد
ان مومو هناك مسرور بالرغم من كل شيء ، كانت تبكي ، وكان
الجميع ينظرون اليها ، وكان هذا يبعث الحرارة في ظهرها ، وفي
صدرها ، جميع هذه الانظار ، وكانت تزداد بكاءً ما ازدادوا نظراً
اليها ، وكانت تستشعر الاعتزاز والشهرة كأم ترضع طفلها .

قال جاك : - ولكنك تشرينه صرفاً !

وكانت اوديت تضحك وحيدة . وقالت :

- اظن انهم سوف يسرحون الآن الاحتياطين ؟

قال جاك : - من الآن حتى خمسة عشر يوماً ، أو شهر ؟

وضحكت ايضاً وشربت جرعة خمر . ثم طفر الدم فجأة الى

خديها ، فسألها جاك :

- ما بك ؟ لقد احمر وجهك تماماً .

قالت : - لا شيء . كل ما في الامر اني شربت اكثر قليلاً

ما ينبغي ،

لم اكن لأقبله قط لو كنت أعرف انه سيعود بهذه السرعة .

— اصعدوا ! اصعدوا !

وكان القطار يتحرك ببطء ، واخذ الناس يركضون وهم يصرخون «ويضحكون ، وكانوا يتعلقون عنقيداً بالدرجات . وظهر على النافذة وجه صانع الاقفال يقطر عرقاً ، وكان متشبهاً بالحاجز بكلتا يديه ، وقال :

— يا إلهي ، ساعدوني بسرعة ، سوف اقلت .
فرفعه ماتيو ، فتجاوز النافذة ووثب في الممر : وقال وهو يمسح جبينه :

— اوف ، حسبت اني سأترك ساقى تحت ا
وظهر عازف الكمان بدوره .
— حسناً ، لقد اكتمل العدد .
— هل نلعب الورق ؟
— أحبه ذلك .

ودخلوا الى الحافلة ، وكان ماتيو ينظر اليهم عبر الزجاج . وبدأوا يتبادلون شرب جرعات صغيرة ، ثم اخراج الوكيل منديله ، فبسطه على ركبهم :
— انت تعطي :

فصرط صانع الاقفال وقال :
— اوه ! يا للزرقاء الجميلة (وأشار الى صاروخ وهمي في السقف)
فقال عامل المطبعة بفرح : — يا للممحمون !

وفكر ماتيو : « ماذا يفعلون هنا ؟ وانا ماذا أصنع ؟ » كان قد رهم قد تلاشى ، وكان الزمن قد عاد يجري على هيئة ، من غير هدف ، كان القطار يسير بلا هدف ، بدافع العادة ، وبمحاذاة القطار كانت ثمة طريق عائمة جامدة : انها الآن لا تنفضي الى اي مكان ، وهي ليست بعد الا ارضاً معبدة . وكانت الطائرات قد اختفت . سماء صفراء

كان السلام يستيقظ فيها مع المساء على مهل ، ريفٌ غُدْرٌ ، لاعبو ورق ، نائمون ، زجاجة مكسورة في المر ، اعقاب سجاير في مستنقع من الخمر ، رائحة بول قوية ، جميع هذه البقايا التي لا مبرر لها . وفكر ماتيو : « لكأنا في اعقاب عيد ، وكان منقبض القلب .

كانت دوس ومود وروبي يصعدن الى « الكانوبير » وكانت دوس متمشة جداً : فقد كانت تميل دائماً الى السياسة . وأوضحت :

— يبدو أنه كان ثمة سوء تفاهم . كان هتلر يظن ان شميرلن ودلاديه يريدان به شراً ، وفي هذه الاثناء ، كان شميرلن ودلاديه يظنان انه كان ينوي مهاجمتهما . فذهب موسوايني اليهما ، وافهمهما انهما على خطأ . وقد سُوي الآن كل شيء : انهم غداً يتناولون الغداء معاً .

وتنهدت روبي : — يا له من غداء لذيله !

وكانت « الكانوبير » تبدو في حالة عيد ، كان الناس يسرون بحظي صغيرة ، وكان فيهم من يضحك وحده . وكانت مود متشائمة . صحيح انها كانت مسرورة ان يُسوي كل شيء ، ولكنها كانت تُسرّ خصوصاً من اجل الآخرين . ومهما يكن من أمر ، فعليها ان تقضي بعد ليلة في غرفها المنتهة في فندق « جنيافر » ، ثم تأتي بعد ذلك المحطات والمطارات وباريس والبطالة والمطاعم الحفيرة واوجاع المعدة : ان مؤتمر ميونيخ ، مهما كانت نتيجته ، لن يغيّر في الامر شيئاً . كانت تستشعر الوحدة . واذ مرت امام مقهى « ريش » ، انتفضت ، فسألتها روبي :

— ما بك ؟

فأجابت مود : — هذا بيار . لا تنظري : انه امام الطاولة الثالثة ، الى الشمال . هنا ، انتهى الامر : لقد رأنا .

ونفض ، وكان يشع في بذلته الكتّانية ، وكان في مظهره الأرجل والاعنى . وفكرت : « طبعاً ، الآن ليس من خطر بعد » . وحاولت ،

فيها هو مقبل عليها ، ان تذكر وجهه الأخضر في تلك الغرفة التي كانت تنبعث منها في الباخرة رائحة القوي . ولكن الرائحة والوجه كانا قد اُكسبا بريح البحر . وحياها ، وكان يبدو وانقأ من نفسه كل الثقة ، وكانت تريد ان توليه ظهرها ، ولكن ساقها المترنحين حملتها اليه بالرغم منها . وقال لها باسمًا .

— اذن ، هكذا نفرق ، حتى من غير ان نأخذ شيئاً ؟
ونظر اليها مواجهة ، فقالت في نفسها : انه جبان . ولكن ذلك لم يكن ليُرى . كانت ترى شفتين ساخرتين جسورين ، وخدين رجولين . وتلك الحنجرة البارزة .

وتتمم : — تعالي . ان ذلك كله حكاية قديمة .
وفكرت في غرفتها بالفندق التي كانت تنبعث منها رائحة الامونياك ،
فقالت :

— يجب ان تدعو دوس وروبي .
فتقدم نحوها وابتم لها ، وكانت روبي تحبه كثيراً لانه كان متميزاً .
وجلست ثلاث زهرات حول طاولة على سطيحة مقهى « ريش » . كانت حديقة زهور ، زهور ، ووجوه مشمسة ضاحجة ، واعلام ، ونوافير ماء ، وشموس . ونخفضت جفنيها وتنفست بعمق : بين هذه العينين ، كانت شمس تدور ، ليس لنا الحق بأن ندين رجلاً يُحس بدوار البحر ، من اجلها ايضاً ، كان ذلك السلام .

« لماذا لا يحبونني ؟ » كان وحده في القاعة الرمادية ، وكان منحنيًا الى امام ، ومرفقاه على فخذه ، ممسكاً رأسه الثقيل بين يديه . وكان قد وضع بالقرب منه ، على المقعد ، النطاير وركوة للقهوة التي كان الشرطي قد جاءه بها ظهراً . ما جدوى الأكل ؟ لقد انتهى امره .
يودون ان يجندوه بالإكراه ، وسوف يرفض ، وستكون ثمة المشقة ، او على الأقل ، عشرون عاماً في الزنزانة ، كانت حياته تقف هنا .

كان ينظر إليها في دهشة عميقة : كانت مشروعاً فاشلاً من أوها الى آخرها . وكانت افكاره تسيل ذات اليمين وذات الشمال ، مائة غير ذات لون ، بيد ان فكرة واحدة كانت تظل ثابتة ، سؤالاً لا يحتمل جواباً : لماذا لا يجيئني ؟ وحدثت في القاعة المجاورة انفجارات ضحك كبيرة ، لقد كان رجال الشرطة في جذل . وصاح صوت عريض :
- هذا جدير بان يشرب نخبه !

ربما كان هناك شرطة يتحابون فيما بينهم ، ثم الناس ، في الخارج ، في الشوارع والبيوت ، كانوا يتبادلون البسات ، ويعاون بعضهم بعضاً ، ويتحادثون في اعتبار ومجاملة ، وكان بينهم من يتبادلون الحب بكل قواهم ، ككريزيت وموريس . ربما كان ذلك لاهم كانوا اكبر سناً : فقد اتيح لهم ان يتألفوا فيما بينهم . اما الشاب ، فهو مسافر يدخل ليلا الى حاملة نصف ممثلة : ان الناس يحترقونه ويتأمرون لحمه على الاعتقاد بأنه ليس ثمة بعد من مكان مع ذلك ، فان مكاني كان مسجلاً ، ما دمت قد ولدت . وإلا فاني قد تعفنت . وعاد الشرطة يضحكون ، خلف الباب ، ولفظ احدهم كلمة « ميونيخ » . الشوارع والبيوت والقاطرات ومفوضية الشرطة : عالم غاص الى حد الانفجار ، عالم الناس ، ان فيليب لم يكن يستطيع ان يدخله . سوف يبقى طوال حياته في زنزانة كهذه ، الحُجر الذي يحفظه الناس لمن لا يريدونهم ، ورأى امرأة صغيرة سمينة ضاحكة ، ذات ذراعين ملساوين ، البغي . وفكر : « مها يكن من امر ، فسوف تحسد علي » . وفتح الباب ، ودخل الجيرال . وتراجع فيليب على المقعد حتى الزاوية المظلمة ، وصاح :

- دعني ، اريد ان انال عقابي ، ولست بحاجة الى حمايتك .
فانفجر الجيرال ضاحكاً : وعبر القاعة بخطوته الجافة السريعة وجاء يتزوع امام فيليب :

- تنال عقابك ؟ من تظن نفسك ايها الأبله الصغير ؟

المرفق : نهض المرفق بالرغم من فيليب ، ووقف امام خده ، مستعداً لتفادي الصفعات . ولكن فيليب اخنضه وقال بصوت حازم :
- اني فراري .

- فراري ! ان هتلر ودلاديه سيوقعان غداً اتفاقاً ، يا صديقي العزيز : فلن تكون ثمة حرب ، ولم تكن قط فرارياً .
وكان يتأمل فيليب في سخرية مهينة .

- ان على المرء ان يكون رجلاً يا فيليب ، حتى من اجل ان يفعل الشر ، يجب عليه ان يتحلى بالارادة والتبعات : وانت لست الا صبياً عصبياً وسيء التربية ، انك لم تحترمني على الإطلاق ، واغرقت امك في قلق عنيف : هذا كل ما استطعت ان تفعله .

وكان رجال شرطة ضاحكون بمدون رؤوسهم من فتحة الباب :
ووثب فيليب على قدميه : ولكن الجنرال امسكه من كتفه وقسره على الجلوس .

- ما هذا ؟ سوف تستمع الي حتى النهاية . إن تصرفك المنحرف الاحمر يدل على انك يجب ان تربي من جديد . وقد اقرت امك هذه اللحظة انها كانت مفرطة الضعف تجاهك . اما الآن ، فانا الذي سأتولى امرك .

وكان قد زاد قرباً من فيليب . ورفع فيليب مرفقه وصرخ :
- اذا لمستني قتلت نفسي .

قال الجنرال : - هذا ما سوف نراه .

واخفض له مرفقه بيده اليسرى ، وباليمينى صفعه مرتين : فانهار فيليب على المقعد وانخرط في البكاء .

كانت في المر حركة صغيرة مرحة، وكانت ثمة امرأة تغني «اذهب اليها الضعيف» . كان يكرههن جميعاً . انهن يحطمن رأسي . ودخلت للمرضى ، حاملة العشاء على صينية ، فقال :

- لست جائعاً :

- آه ! يجب ان تأكل يا سيد شارل ! والا زدت ضعفاً ، ثم ها هي ابناء طيبة تمنحك القابلية : لقد تجنبنا الحرب . ان شميرلن ودلاديه سيقابلان هتلر .

فنظر اليها في ذهول : هذا صحيح ، ان قصتهم المتعلقة بالسوديت ما تزال تجرجر نفسها ، وكانت محمرة بعض الشيء وعيناها تلتمعان :
- واذن : ألسن مسروراً ؟

لقد جرّوني خارج بيتي ، وحلوني كرزمة ، وارهبوني ، وهم مع ذلك لا يتقاتلون. ولكنه لم يكن بعد قد غضب : فان ذلك كله أصبح بعيداً جداً . وقال :

- ماذا تريدان ان يحدث لي ذلك ؟

ليلة ٢٩ الى ٣٠ ايلول

الساعة ١٣٠ ر١ :

كان السيدان هوبرت مازاريك و ماستني ، عضوا الوفد التشيكيوسلوفاكسي ، ينتظران في غرفة السر هوراس ويلسون بصحبة السيد اشتون - غواتكني ، كان ماستني ممتعاً ، وكان يرشح عرقاً ، وكانت تحت عينيه حالة سوداء . اما هوبرت مازاريك فكان يلذع الغرفة جيئة وذهاباً ، وكان السيد اشتون - غواتكني جالساً على السرير ، وكانت ايفيش قد انزوت في جوف السرير ، ولم تكن تحس به ، ولكنها كانت تحس بحرارته وتسمع نفسه ، لم تكن تستطيع ان تنام ، وكانت تعلم انه هو ايضاً له ينام . وكانت شحنات كهربائية تسري في ساقيها وفخذها ، وكانت تموت رغبة في ان تنقلب على ظهرها ، ولكن اذا تحركت لمسته ، فما دام يظن انها كانت نائمة ، فسيدها وشأنها - والتفت ماستني نحو اشتون - غواتكني وقال :

- لقد طال الامر .

فاتي السيد اشتون - غواتكني بحركة اعتذار ولا مبالاة : وصعد الدم الى وجه مازاريك ، فقال بصوت اصم :
- ان المتهمين ينتظرون الحكم .
فلم يبد على السيد اشتون - غواتكني انه سمع ، وفكرت ايفيش :

« ترى ، الا ينقضي الليل ؟ ، وأحسنت فجأة بلحم طريّ يلامس
بخاصرتها ، كان يتتهز نومها ليحتك بها ، فيجب الا تتحرك ، والا
لاحظ اني مستيقظة . واندس اللحم بهدوء الى جانبها ، وكان محرقاً
طرياً ، إنه ساق . وعضت بعنف على شفتها السفلى ، وتابع مازاريك :

– ولكي يكون الشبه كاملاً ، وضعوا في استقبالنا رجال الشرطة :

قال السيد اشتون – غواتكن وهو يتخذ مظهر اللدهشة :

– ولكن كيف ؟

فأوضح مايتني :

– لقد أخذنا الى فندق « ريجينا » في سيارة للشرطة .

فقال السيد اشتون – غواتكن في توبيخ : « تس ، تس ، تس ! »

واصبحت الآن يداً ، وكانت تهبط على طول خاصرتيها ، خفيفة

شبه شاردة ، ولامست الأصابع بطنها ، وفكرت : « ليس هذا شيئاً ،

إنها حشرة . وانا انام ، انام . أحلم ، ولن التحرك . » وتناول

مازاريك الحارطة التي كان السير هوراس ويلسون قد سلمه اياها .

وكانت الاراضي التي ينبغي ان يحتلها الجيش الألماني فوراً مخططة

بالأزرق . فنظر اليها لحظة ، ثم رماها على الطاولة في غضب ، وقال

وهو ينظر الى السيد اشتون – غواتكن في عينيه :

– اني ... اني ما زلت غير فاهم : أترانا ما زلنا امة ذات سيادة ؟

لهز السيد اشتون – غواتكن كتفيه ، وكان يبدو وكأنه يريد ان

يقول انه لم يكن له دخل في القضية ، ولكن مازاريك فكر بأنه كان

أشد انفعالا مما شاء ان يظهر . وقال ملاحظاً : – ان هذه المفاوضات

مع هتلر صعبة جداً ، فخذنا ذلك بعين الاعتبار .

فأجاب مازاريك بعنف :

– ان كل شيء يتوقف على حزم الدول الكبرى :

واحرر الانكليزي قليلاً ، فاستقام وقال بلهجة فخمة :

- اذا لم تقبلوا هذا الاتفاق ، فيجب ان تدبروا الامر وحدكم مع
المانيا (وتنحج وأضاف بلهجة ألطف) وربما قل لكم الفرنسيون ذلك
في مزيد من اللياقة : ولكن صدقتي أنهم من رأينا . ففي حال
الرفض ، سيكفون عن الاهتمام بكم .

فضحك مازاريك ضحكة استياء ، وصمتوا : وهمس صوت :

- هل تامين ؟

فلم تجب ، ولكن سرعان ما احست فلأ لدى اذنها ، ثم جسماً
هرمته يثقل بلسق جسمها . وتتم :

- ايفيش ! ايفيش !

كان ينبغي الا تصرخ ولا تنخبط ، فانا لست فتاة تُغتصب ، وانقلبت
على ظهرها وقلت بصوت واضح :

- لا ، لا انام : وبعد ؟

قال : - أحبك :

قنبلة ! قنبلة مستنظ من حلو خمسة آلاف متر فتقناهم على الفور !
وُفتح باب فدخل السير دوراس وباسون ، وكانت عيناه خائفين ؛
إنه منذ وصولها يخفض عينيه ، وكان يمدتها وهو مطرق الى الارض
وكان لا بد ان يشعر بذلك ، بين الفينة والفينة : ويرفع رأسه فجأة ،
ويغرق في عيونها نظراً فارغاً .

- ايها السادة ، اننا في انتظاركم :

فتبعه الرجال الثلاثة ، واجتازوا ممرات طويلة متفجرة : وكان خادم
ينام على كرسي ، وكان الفندق يبدو ميتاً ؛ كان جسمه محرقاً ،
واطبق صدره على نهدي ايفيش ، فسمعت صوتاً طرياً يشبه صوت
المحجم ، وكانت غارقة في عرقها . وقالت :

- اذا كنت تحبني فابتعد عني : اني اشعر بحرق لا يطاق :

قال السير هوراس وبلسون وهو يتنحى : « هنا » : ولم يكن ليبتعد ، بل نزع الغطاء بيد ، وكان يمسك باليد الاخرى كتفها بقوة ، وما لبث ان نام عليها وكان يعجن كتفيها وذراعيها بيديه المنيفتين ، يدي الفريسة ، فيما كان صوته الطفولي المبتهل يتمم :

- احبك يا ايفيش ، حبيبي ، احبك :

كانت قاعة صغيرة مضاعة بطريقة حية . وكان السادة همبرن ودالدييه وليجيه واقفين خلف طاولة محملة بالاوراق . وكانت المنافض ملاءى بأعصاب السكاير ، ولكن الجميع كانوا قد كفوا عن التدخين : ووضع شمبرن كلتا يديه على الطاولة ، وكان يبدو متعباً . وقال في بسمة ودية :

- ايها السادة :

فانحنى مازاريك ومانستي من غير ان يتكلما ، وابتعد اشتون - غوانكن عنها بسرعة ، كما لو انه لم يكن يستطيع بعد ان يحتمل صحبتها ، وذهب يقف خلف السيد شمبرن مع السير هوراس وبلسون . وكان امام الرجلين التشيكيين الآن خمسة رجال في الجهة المقابلة من الطاولة ، ومخلفها كان الباب وممرات الفندق المقفرة . وحلت لحظة صمت ثقيلة . ولكن ليجيه كان يضع الوثائق في محفظة . وقال السيد شمبرن :

- تفضلوا ايها السادة بالجلوس :

وجلس الفرنسيون والتشيكيون ، ولكن السيد شمبرن ظل واقفاً ، وكانت عيناه ورديتين من النعاس : وقد تأمل يديه في هيئة مترددة ثم استقام فجأة وقال :

- حسناً ... لقد وقعت فرنسا وبريطانيا العظمى اتفاقاً يتعلق بالمطالب الالمانية في موضوع السوديت . ويمكن اعتبار هذا الاتفاق ، بفضل الية الحسنة لدى الجميع ، تقدماً محسوساً على مذكرة غودسبرغ . وسعل وصمت : وكان مازاريك جالساً في اريكته جلسة صلبة :

كان يتطرق : وبدأ على شمبرلن انه يريد الاستمرار ، ولكنه هدل ومدّ
الماستني ورقة :

- هل تريد ان تطلع على هذا الاتفاق ؟ ربما كان الافضل ان
تقرأه بصوت مرتفع .

فتناول ماستني الورقة ؛ ومر شخص ما في المر بخطى خفيفة ،
ثم ابتعد صوت القديمين . وبدأ ماستني يقرأ ، وكان له جرسٌ مخنٌ
رئيب ؛ كان يقرأ ببطء ، كما لو انه كان يفكر بعد كل عبارة ،
وكانت الورقة ترتعش في يديه :

« ان الدول الكبرى : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا قد
اتفقت ، بعد ان اخذت بعين الاعتبار التسوية التي تمت مبدئياً بشأن
اللتنازل لألمانيا عن اراضي المان السويدية ، على الترتيبات والشروط
التالية التي تنظم هذا التنازل والتدابير التي يحتملها . وتتعهد كل دولة،
في هذا الاتفاق ، بتحقيق الطلبات الضرورية لتأمين تنفيذه :

« ١ : يبدأ الجلاء في اول تشرين الأول ؛

« ٢ : اتفقت المملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا على ضرورة انجاز

الجلاء عن الاراضي المذكورة في ١٠ تشرين الاول ، من غير ان
تهدم اية انشاءات قائمة فيها . وتحمل الحكومة التشيكوسلوفاكية مسؤولية
اتمام هذا الجلاء من غير ان يلحق بهذه الانشاءات اي ضرر ؛

« ٣ : تحدّد شروط هذا الجلاء في تفاصيلها من قبل لجنة دولية

مؤلفة من ممثلين عن المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا
وتشيكوسلوفاكيا .

« ٤ : تبدأ فرق الرخي بالاحتلال التدريجي للاراضي ذات الاغلبية

الألمانية في اول تشرين الاول . والمناطق الاربع المشار اليها على الخارطة
المرفقة تحتلها القوات الألمانية كما يلي :

« المنطقة الاولى ، يومي ١ و ٢ تشرين الاول .

« المنطقة الثانية ، يومي ٢ ، ٣ تشرين الاول :

• المنطقة الثالثة ، أيام ٣ و ٤ و ٥ تشرين الاول .
• المنطقة الرابعة ، يومي ٦ و ٧ تشرين الاول .

• اما سائر المناطق ذات الاغلبية الالمانية فستحدددها اللجنة الدولية
وتحتلها القوات الالمانية من الآن حتى العاشر من تشرين الاول ،

• كان الصوت الرتيب يرتفع في الضمت ، وسط المدينة للثامنة . وكان
يصطدم ويقف ثم ينطق من غير هواة غنناً بعض الشيء ، وكان
ملايين من الالمان ينامون على مدى النظر حوله ، فيما كان يعرض بدقة
الطرق المختلفة لعملية اغتيال سياسي . وكان الصوت المبتهل الهامس ،
حبيبي ، شهوتي ، احب نهديك ، احب رائحتك ، هل تحبيني ،
يرتفع في الليل ، وكانت البدان ، تحت جسمها المحرق ، تغنلان .

قال مازاريك : - اريد ان اطرح سؤالاً . ما الذي يفهم من
عبارة : ارض ذات اغلبيه المائيه ؟

• وكان يوجه سؤاله لشمبرلن ، ولكن شمبرلن تأمله من غير ان
يجيب - بهيئة مذهولة بعض الشيء . وكان واضحاً انه لم يستمع الى
القراءة . واخذ ليجه الحديث ، في ظهر مازاريك . وسجل
مازاريك حركة استدارة في اريكته فرأى ليجيه من زاوية جانبية .
قال ليجيه :

- المقصود اغلبيه معدودة وفق اقتراحات قبلتموها ،
وسحب ماستني مندبله فسح جيينه ، ثم تابع القراءة :

• ه : تحدد اللجنة الدولية المنصوص عنها في المادة ٣ الاراضي
التي ينبغي ان يجري فيها الاستفتاء .

• وهذه الاراضي ستحتلها فرق دولية حتى انتهاء الاستفتاء ...

وقطع قراءته وسأل :

- هذه الفرق ، أنكون حتماً دولية ، ام انها لن تضم الا لياتوه
انكليزية ؟

وتنأب السيد شميرلن خلف يده ، وتدخرجت دمة على خده :
ثم سحب يده :

— هذه القضية لم توضح بعد تمام التوضيح : فإن اشراك الجنود
البلجيكين والطلبان امرٌ وارد .

وتابع ماستني : « كما ان هذه اللجنة ستحدد الشروط التي يجري
فيها الاستفتاء انطلاقاً من شروط استفتاء السار . وستضرب بالاضافة الى
ذلك موعداً لبدء الاستفتاء لا يمكن ان يتجاوز آخر تشرين الثاني : »
وتوقف مرة اخرى وسأل شميرلن في عدوبة ساخرة :

— هل سيتمتع العضو التشيكوسلوفاكي في هذه اللجنة بحق الاقتراع
نفسه للذي يتمتع به الاعضاء الآخرون ؟

فقال السيد شميرلن في لهجة حسنة : — طبعاً .

وكانت لزوجته كدرة كأنها الدم تلتخ فخلذي ايفيش وبطنها ،
وانزلت في دمها، لست فتاةً تُغتصب ، وانفتحت ، وتركت نفسها تُطعن ،
ولكن بينما كانت رعشات من ثلج و نار تصعد حتى صدرها ، كان
رأسها يظلّ بارداً وكانت تصرخ فيه ، في رأسه : لأنني اكرهك !
٦ : نحدد اللجنة الدولية التخطيط النهائي للحدود . وستكون لهذه

اللجنة كذلك صلاحية ايضاء الدول الاربع : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا
وايطاليا ، في حالات استثنائية ، باجراء تعديلات ذات مدى محصور
بتحديد المناطق القابلة للانتقال من غير استفتاء تحديداً اتنولوجيا محضاً .
وسأل مازاريك : — هل نستطيع ان نعتبر هذه المادة بنداً يضمن

حماية مصالحنا الحيوية ؟

وكان قد استدار الى دالاديه ينظر اليه في إلحاح : ولكن دالاديه
لم يجب ، كانت تبدو عليه هيئة الشيخوخة والارهاق . ولاحظ مازاريك
انه كان قد احتفظ ، في زاوية فمه ، بعقب سيكارة مطلقاً . وقال
مازاريك بقوة :

- لقد وعدنا بهذا البند :

قال ليجيه : - يمكن لهذه المادة ، من نحو ما ، ان تعتبر بمثابة البند الذي نتحدث عنه . ولكن يجب ان يكون المرء متواضعاً ، في بدء الامر ، ان قضية ضمان حدودكم هي من صلاحية اللجنة الدولية . فضحك مازاريك ضحكة مقتضبة وشبك ذراعيه ، وقال وهو يهز رأسه :

- حتى ولا ضمانات :

وقرأ ماستني : « ٧ : سيكون هناك حق اختيار يتيح للناس ان يُندرجوا في الاراضي المنقولة ، او ان يُبعدوا عنها . وسيجري هذا الاختيار في مهلة ستة أشهر ابتداء من تاريخ هذا الاتفاق . »
« ٨ : - تحرر الحكومة التشيكوسلوفاكية ، في مهلة اربعة اسابيع ابتداء من انجاز هذا الاتفاق ، جميع الالمان السوديت الذين يريدون ، من التشكيلات العسكرية او من الشرطة التي يتمون اليها . »
« وفي المهلة نفسها ، تطلق الحكومة التشيكوسلوفاكية الاسرى من الالمان للسوديت الذين سجنوا لأسباب سياسية . »
ميونيخ ، في ٢٩ ايلول ١٩٣٨ .

قال : - هكذا : انتهينا .

كان ينظر الى الورقة ، كما لو انه لم ينته من قراءتها . وتساءب السيد شميرلن طويلاً ، ثم اخذ يربّت على الطاولة . وقال ماستني ثانية - هكذا ، انتهى .

كان الامر قد انتهى ، فان تشيكوسلوفاكيا ١٩١٨ قد كفت عن الوجود . وتابع مازاريك بعينيه الورقة البيضاء التي كان ماستني يوشك ان يضعها على الطاولة : ثم التفت الى دالاديه وليجيه وحدد فيهما بصره ، وكان دالاديه مسترخياً في أريكته ، وذقته على صدره : وسحب سيجارة من جيبه ، فتأملها لحظة ، ثم اعادها الى علبتها . وكان ليجيه

حجراً بعض الشيء ، وكان يبدو نافذ الصبر : وقال مازاريك لدالاديه :

- هل تنتظرون تصريحاً او جواباً من حكومتي ؟

فلم يجب دالاديه . وخفض ليجيه بصره وقال بسرعة :

- ان السيد موسوليني مضطر للعودة الى ايطاليا هذا الصباح ، فنحن

لا نملك وقتاً طويلاً .

وكان مازاريك ما يزال ينظر الى دالاديه . وقال : « حتى ولا

جواب ؟ هل ينبغي ان أفهم اننا مجبرون على القبول ؟ »

فأثنى دالاديه بحركة متعبة واجاب ليجيه من ورائه :

- ماذا تستطيعون ان تفعلوا غير ذلك ؟

كانت تبكي ، ووجهها متجه الى الجدار ، كانت تبكي في صمت ،

وكانت الشهقات تهز كفيها .

وسأل بصوت غير رائق : - لماذا تضحكين ؟

فأجابت : - لأنني اكرهك ؟

ونفض مازاريك ، ونفض ماستني ايضاً . وكان السيد شميرلين

يتشاءم حتى ليكاد يتزع فكه :

الجمعة ٣٠ ايلول

أقبل الجندي القصير على غرولويس وهو يلوح بجريدة ، وقال :
- إنه السلام .

فوضع غرولويس دلوه :

- ماذا تقول يا صاحبي ؟

- أقول لك إنه السلام .

فنظر إليه غرولويس بارتياح :

- لا يمكن ان يكون هذا هو السلام ما دمنا لم نخض الحرب .

- لقد وقعوا يا عزيزي . وليس لك الا ان تنظر الجريدة :

ومدها له ، ولكن غرولويس دفعها بيده :

- لا اعرف القراءة .

فقال الرجل القصير في شفقة :

- آه ، يا للمعتوه ! طيب ، انظر الصورة .

فأخذ غرولويس الجريدة في نفور ، واقرب من نافذة الاسطبل ونظر

الى الصورة . فعرف دلاديه وهتلر وموسوليني الذين كانوا يتسمون :

وكان يبدو انهم اصدقاء قدامى .

وقال : - طيب ! طيب !

ونظر الى الرجل القصير وهو يقطب حاجبيه ، ثم أخذه الجدل فجأه

وقال ضاحكاً :

- ما هم قد تصالحوا الآن! ولم اكن اعرف حتى لماذا كانوا متخاصمين ،
فاخذ الهندي يضحك ، وضحك غرولويس ايضاً . وقال الهندي :
- الى اللقاء يا عزيزى !
وابتعد ، واقرب غرولويس من الفرس السوداء واخذ يلامس مؤخرتها ،
وقال :

- لا ! لا ! يا جميلتي !

وكان يحس نفسه غائماً ، وقال :

- طيب ، ماذا افعل الآن ؟ ماذا افعل ؟

كان السيد بيرنانشاتز يخبىء وراء جريدته ، وكان يرى دخان
قليل مستقيم صاعداً فوق اوراق منشورة . وكانت السيدة بيرنانشاتز تتململ
في أريكتها .

- يجب ان أرى « روز » من أجل حكاية آلة التنظيف .

وكانت هي المرة الثالثة التي تتحدث فيها عن آلة التنظيف ، ولكنها
لم تكن لنذهب . وكانت ايلا تتأملها في غير ما ود . كانت تريد ان تبقى
مع ابوها . والتفت السيدة بيرنانشاتز الى ابنتها وسألت :

- أنظنين انهم سيأخذونها مني ؟

- تسألينني عن ذلك طوال الوقت ، ولكني لا ادري ، يا ماما .

وكانت السيدة بيرنانشاتز قد بكت امس من فرط السعادة ، وهي
تضم ابنتها وحفيداتها الى صدرها . اما اليوم فهي لا تدري ما عساها
تفعل بفرحها ، كان فرحاً ضخماً رخواً مثلها ، لن يلبث طويلاً حتى
يتحول الى النبوءة ، الا اذا نجحت في مشاركة سواها به .

والفتت نحو زوجها وتمتمت :

- غوستاف !

فلم يجب السيد بيرنانشاتز :

- أراك لا تحدث اليوم اية ضجة .

فقال السيد بيرنا نشاتز : - صحيح .

ومع ذلك فقد اخفض جريدته ونظر اليها من فوق نظارتيه ، وكان يبدو شائخاً متعباً : واحست ايلا بانقباض في قلبها ؛ وكانت بها رغبة لتقبيله ، ولكن كان من الأفضل الا تبدأ بالتعبير العاطفي امام السيدة بيرنا نشاتز التي كانت مفرطة الميل الى ذلك . وسألت السيدة بيرنا نشاتز :

- هل انت مسرور على الأقل ؟

فسأل في جفاء : - مسرور م ؟

فقالت وهي تثن : - ولكن اسمع . لقد قلت لي مئة مرة انك لم تكن تريدنا ، هذه الحرب ، وانها ستكون كارثة ، وان من الضروري التعاقد مع الألمان ، وكنت احسب انك ستكون مسروراً .

فهز السيد بيرنا نشاتز كتفيه واخذ جريدته من جديد . وحددت السيدة بيرنا نشاتز نظرها الممتلئ دهشة وعتاباً على هذا المتراس من الورق ؛ وكانت شفرتها السفلى ترتجف ، ثم تنهدت ونهضت في مشقة وتوجهت نحو الباب . وقالت وهي تخرج :

- اني لا افهم بعد لا زوجي ولا ابنتي :

واقربت ايلا من ابيها وقبلته بلطف في رأسه :

- ما بك يا بابا ؟

فوضع السيد بيرنا نشاتز نظارتيه ، ورفع رأسه اليها :

- ليس لي ما اقله . هذه الحرب ، لست في سن تسمح لي بعد

في خوضها ، اليس كذلك ؟ اذن فلاصمت .

وطوى جريدته بدقة ، وكان يدمدم كأنما يحدث نفسه :

- كنت من مؤيدي السلام ...

- واذن ؟

- اذن ؟ ...

وحنأ رأسه الى اليمين ورفع كتفه اليمنى بحركة طفولية غريبة ، وقال بصوت معتم :

- انني اشعر بالعار :

افرخ غرولويس دلوته في الاقدار ، واستخرج بعناية كل ماء الاسفنجية ، ثم وضع الاسفنجية في الدلو وحملها الى الاسطبل . واغلق باب الاسطبل ، فاجتاز الساحة ودخل في المبنى « ب » . كانت الحجرة خالية . وقال غرولويس : « انهم لا يتعجلون الذهاب قط ، فكأن الإقامة هنا تروق لهم » وسحب من تحت السرير بنطاله وسترته المدلين وقال وهو يبدأ في نزع ثيابه : « اما انا فلا تروق لي : » ولم يكن يجرؤ بعد على الابتهاج ، وقال : « هذه ثمانية ايام وهم يبعصونني . » وارتدى بنطاله وصف بعناية على سريره حاجاته العسكرية ولم يكن يعرف اذا كان المعلم مستعدا لاخذه ثانية . « ومن الذي يحرس غنمه الآن؟ » واخذ قربته وخرج . وكان امام المغسل اربعة اشخاصي نظروا اليه وقهقهوا . فحياهم غرولويس بيده وعبر الباحة : ولم يكن معه بعد درهم واحد ، ولكنه سيعود مشياً على الاقدام : « سأعينهم قليلا في المزارع فيعطونني ما اكسر به الصفرة . » وفجأة رأى السماء ثانية ، مزرقه صفراء فوق اعشاب الكانيغو ، ورأى اليات الخرفان المرتجة فأدرك انه كان حرأ :

- انت ، هناك ، الى اين انت ذاهب؟

فالتفت غرولويس فاذا هو المعاون الضخم بولتييه قد هرع اليه وهو

يلهث ، وقال وهو يعلو :

- عجباً ! هكنا اذن !

وتوقف على خطوتين من غرولويس ، وقد احمر من فرط الغضب

واللهات ، وردد :

- الى انت ذاهب ؟

قال غرولويس : - اني راحل ؟
فقال المعاون وهو يشبك ذراعيه : - انت راحل ! انت راحل !
(واطاف بغيظ يائس) ولكن الى اين انت راحل ؟
قال غرولويس : - الى بلدي ؟

قال المعاون : - الى بلده ! انه راحل الى بلده ! لا ريب في ان
لائحة الطعام لا تعجبه ، او ان سريره يصرف : (واستعار لهجه رصينة
وقال) تفضل وارجع ، وبسرعة ! وسوف أعني انا بك ، يا صاحبي !
وفكر غرولويس : « انه لا يعرف انهم قد تصالحوا » وقال :
- ولكنهم قد وقعوا على السلام ، يا سيدي المعاون .
فبدأ على المعاون انه لا يصدق ما سمع :

- هل تتظاهر بالحرارة . ام انك تريد ان تخدعني ؟
ولم يكن غرولويس يريد ان يغضب ، فاستدار وتاب سيره : ولكن
الرجل الضخم لحق به فشدته من كفه ، واقبل يقف امامه ، فلمسه
بكرشه وصاح :

- اذا لم تطع فوزاً ، فستحال على المجلس الحربي ؟
وتوقف غرولويس وحك رأسه : وفكر في مارسيليا فأخذه الصداق ،
وقال في رقة :

- انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني ؟
وكان المعاون يهزه من صدرته ويهدر :
- ماذا تقول ؟

فصاح غرولويس بصوت راعد :
- انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني ؟
وقبض على كتف المعاون واخذ يصفعه على وجهه : وبعد برهة
اضطر ان يُمرّ ذراعه تحت إبطه ليُسندَه ، واستمر يضربه ، واحس بأنه

محاط من الخلف ، ثم قبض على ذراعيه ولوثنا : فترك المعاون بولتيه
الذي سقط على الأرض دون ما نسبة ، واخذ ينفذ عنه جميع اولئك
الأشخاص المشبهين به ، ولكن احدهم شغزبه فوق على الأرض .
وبدأوا يضربونه ، وكان يدير رأسه يمينا وشمالا ليتجنب للضربات ،
وكان يقول وهو يلهث : « دعوني اذهب يا اخوان ، دعوني اذهب ،
ما دمت اقول لكم انه السلام . »

حك غوميز جوف جيبه بأظافره فأخرج منه بضع قشآت من التبغ
المزوج بالغبار وبأطراف الخيطان : ووضع ذلك كله في غليونه فأشعله .
وكان للدخان مذاق حامز خاقي : وسأل غارسان :

— هل انتهت مؤونة التبغ ؟

قال غوميز : — منذ مساء أمس : لو كنت اعلم بلحبت معي
كمية اكبر .

ودخل لوبيز ، وكان يحمل صحفاً : ونظر اليه غوميز ثم اخفض
عينيه على غليونه : كان قد فهم . ورأى كلمة ميونيخ بأحرف كبيرة
على الصفحة الأولى من الجريدة . وسأل غارسان :

— ماذا هناك ؟

وكان يُسمع في البعيد صوت اطلاق المدافع : فقال لوبيز :
— لقد بُعصنا .

وضغط غوميز بأسنانه على انبوب غليونه : كان يسمع المدفع ويفكر
في ليل جوان لبيان الهاديء ، وفي موسيقى الحاز على شاطيء الماء :
سيكون ماتيو بعد كثير من هذه الأمسيات .
وتتم : — القدرون !

ظل ماتيو لحظة عند باب المستودع العسكري ، ثم خرج الى الساحة
واغلق الباب ، كان ما يزال يرتدي ثيابه المدنية : فانه لم يكن باقياً
اية ستره عسكرية في مخزن الثياب : وكان الجنود يتزهون زرافات

صغيرة ، وكان يبدو عليهم الدهر والقلق . وأخذ رجلان كانا متجهين
إليه يتساءبان في الوقت نفسه ، فقال لهم ماتيو :

- اراكما تضحكان وتمزحان !

فأغلق اصغرها سناً فه وقال في لهجة اعتذار :

- اننا لا نعلم ما ينبغي ان نفعل .

وقال صوت خلف ماتيو : - مرحباً .

فالتفت ، فاذا هو بذلك الذي يُدعى جورج ، جاره في السرير ،

الذي كان ذا رأس قريّ جميل كثيب . وكان يتسم له . قال ماتيو :

- وإذن ؟ كيف الحال ؟

قال الآخر : - لا بأس ، لا بأس !

قال ماتيو : - لا تشك . فما كان ينبغي ان تكون هنا ، هذه

الساعة ، بل كان ينبغي ان تكون في اليوم - يوم .

قال الآخر : - صحيح (وهز كتفيه) سواء أكنّا هناك او في

مكان آخر .

قال ماتيو : - نعم .

وقال : - انني مسرور لأنني سأرى طفلي : ولا . فسأعود الى

المكتب ، انني غير متفاهم تماماً مع زوجتي . سنقرأ الصحف ،

وسنقلق بسبب دانتزيغ : فيعود الأمر كما كان في السنة الماضية (وتثاءب

وأضاف) ان الحياة متشابهة في كل مكان ، أليس كذلك ؟

- متشابهة في كل مكان .

وتبادلا بسمه رخوة . ولم يكن لديهما بعد ما يقولانه :

قال جورج : - الى اللقاء .

- الى اللقاء .

وكان ثمة من يعزف على الاكورديون في الجهة المقابلة للحاجز ،

في الجهة المقابلة ، كانت ثمة نانسي ، وباريس ، واربع عشرة محاضرة

في الاسبوع . وايڤيش ، وبوريس ، وربما ايرين ، ان الحياة متشابهة
في كل مكان . متشابهة دائماً . وتوجه بخطى بطيئة نحو الحاجز .
- اخطأت !

وأشار له بعض الجنود بأن يتعد : كانوا قد رسموا خطأ على الأرض
وكانوا يلعبون بالدراهم ، في غير حاسة كبيرة . وتوقف ماتيو لحظة :
فرأى دراهم تتدحرج ، ثم دراهم اخرى ، ثم سواها : وبين فترة
واخرى ، كان درهم يدور على نفسه كالبلبل ثم يتعثر على درهم آخر
فيغطي نصفه . واذ ذاك كانوا يتصبون ويطلقون الصيحات : واستعاد
ماتيو سيره .

كثير من القطارات والشاحنات التي تخذد فرنسا ، وكثير من الهم ،
وكثير من المال ، وكثير من الدموع ، وكثير من الصباح في جميع
اذاعات العالم ، وكثير من التهديدات والتحديات بجميع اللغات ، وكثير
من المؤتمرات تنتهي بالدوران في ساحة او بقذف الدراهم في الغبار ،
كان جميع هؤلاء الناس قد مارسوا العنف فيما بينهم ليذهبوا وحيوتهم
جافة ، وكانوا جميعاً قد رأوا الموت فجأة في وجههم ، وكانوا جميعاً
بعد كثير من الارتباك او التواضع ، قد صموا على ان يموتوا . اما
الآن ، فقد ظلوا مذهولين ، ايديهم متدلّية ، واقدامهم مشربكة بهلله
الحياة التي ارتدت عليهم ، والتي تترك لهم لفترة اخرى ، فترة صغيرة ،
والتي لا يعلمون بعد ماذا هم صانعون بها . وفكر : ان هذا هو نهار
المخدوعين . وقبض بكلتا يديه على قضبان الحاجز ونظر الى الخارج :
الشمس على الشارع الخالي . منذ اربع وعشرين ساعة ، كان السلام هو
الذي حل في شوارع المدن التجارية . ولكن كان باقياً حول الشكنات
والقلاع ضباب حرب غامض يتزع الى الثلاثي . وكان الاكورديون
الذي لا يُرى يعزف « المادلون » ، وتهبّ ربح خفيفة فاترة فتشير على
الطريق زوبعة من الغبار . « وحياتي انا ، ماذا عساني اصنع بها ؟ »

كان الامر يسيراً جداً : ففي شارع هويغتر ، بباريس ، كان ثمة بيت ينتظره ، ذو غرفتين ، وتدفئة مركزية ، وماء ، وغاز ، وكهرباء وازائك خضراء وعقرب برونزي على الطاولة . سيعود الى بيته ، وسيضع المفتاح في القفل : وسيستعيد كرسيه في ليسيه بوفون : ولا يكون قد حدث شيء ، لا شيء على الاطلاق . كانت حياته تنتظره ، مألوفة ، وكان قد تركها في مكتبه ، في غرفة نومه ، سينسرب اليها من غير مشاكل - لن يفعل احد مشاكل ، ولن يشير احد الى اجتماع ميونيخ ، وبعد شهر سينسى كل شيء - ولن يبقى بعد الا ندب صغير لا يُرى في دوام حياته ، كسر صغير : ذكرى ليلة حسب فيها انه ذاهب الى الحرب .

وفكر وهو يشد على القضبان بكل قواه : « لا اريد ا لا اريد ا
لن يكون هذا ا »

وانفعل فجأة ، ونظر وهو يبتسم الى النوافذ المتألثة بالشمس . كان يحس نفسه قوياً ، وكان في اعماقه قلق صغير كان قد بدأ يعرفه ، قلق صغير كان يمنحه الثقة . مطلق انسان ، في مطلق مكان ، انه لم يكن يملك بعد شيئاً ، ولم يكن بعد شيئاً . ان ليلة أمس الاول المظلمة لن تذهب سدى : ولن يذهب ذلك الهياج والاضطراب سدى تماماً . فليغمدوا سيوفهم اذا شاوروا ، ليخوضوا حربهم او ليمنتعوا عن خوضها ، فانا اهزأ بذلك ، اني غير مخدوع ، وكان الاكورديون قد صمت ، واستعاد مانيو سيره حول الساحة ، وفكر : « سأظل حراً » . كانت الطائرة ترسم دوائر عريضة فوق بورجيه ، وكان قطران اسود متموج يغطي نصف ارض الهبوط . وانحنى ليجيه نحو دالاديه وصاح وهو يشير باصبعه :

- أي حشد ا

فمنظر دالاديه بدوره ، وتكلم للمرة الاولى منذ ذهابهم الى ميونيخ .

- لقد عادوا ليحطموا رأسي ؟
 فلم يحتج ليجيه : وهز دالاديه كتفيه :
 - انني افهمهم .
 فقال ليجيه متنهداً : - كل شيء يتوقف على رجال الشرطة ؟
 دخل الغرفة ، وكان يحمل صحفاً ، وكانت ايفيش جالسة على
 السرير ، مطرقة الرأس .
 - انتهى الامر ؛ لقد وقعوا هذه الليلة .
 فرفعت عينها ، وكان يبدو سعيداً ولكنه صمت ، وقد أزعجه فجأة
 النسر مني كانت تحدجه به . وسألته :
 - أعني انه لن يكون هناك حرب ؟
 - طبعاً .
 لا حرب ، لا طائرات فوق باريس ، ولن تنفجر السقوف تحت
 القنابل : فينبغي اذن ان اعيش : وقالت وهي تنسج :
 - لا حرب ، لا حرب ، وتبدو انت مسروراً !
 اقترب ميلان من أذا ، كان يرتسح ، وكانت عيناه ورديتين ،
 ولس بطنها وقال :
 - وهذا واحد لن يكون له حظ .
 - ماذا ؟
 - الطفل : اقول انه لن يكون له حظ .
 وبلغ الطاولة وهو يعرج ، فصب لنفسه قدحاً . وكان القدح الخامس
 منذ الصباح .
 وقال : - اتذكرين حين تعثر على الدرج ؟ لقد ظننت انك
 ستجهضين .
 قالت بحفاء : - وماذا تقصد ؟
 وكان قد استدار إليها ، والقدح في يده ، وكان يبدو وكأنه يحمل

نخباً : وقال وهو يقهقه :

- كان ذلك أفضل !

ف نظرت اليه : كان يرفع القمد الى فمه بيدح ترتجف قليلا :

قالت : - ربما : ربما كان ذلك أفضل.

كانت الطائرة قد حطت ، وخرج دالاديه في مشقة من بين المقاعد ، ووضع قدمه على السلم ؛ كان ممتعاً . وحدث ضجيج هادر ، وأخذ الناس يركضون ، خارقين صف رجال الشرطة ، مقتلعين الحواجز ، وشرب ميلان وقال ضاحكاً :

- نخب فرنسا ! نخب انكلترا ! نخب حلفائنا الامجاد !

ثم قذف القمد بكل قواه الى الجدار ، كانوا يصرخون :

- لتعش فرنسا ! لتعش انكلترا ! ليعش السلام !

وكانوا يحملون أعلاماً وياقات : وكان دالاديه قد توقف عند الدرجة الاولى : وكان ينظر اليهم في ذهول : والتفت الى ليجيه ، وقال بين اسنانه :

- يا للفروج الحمير !

جَان بُول سَارتر

دروب اكرتية - ٣

اكرزن اعميق

نقدًا عن الفنتية
الدكتور سيبيل اديش

مشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

٤٦

القسم الأول

نيويورك ، الساعة ٩ ق . ظ . السبت ١٥ حزيران ١٩٤٠

أخطبوط ؟ تناول سكينه ، وفتح عينيه ، كان ذلك حلماً . لا ،
فان الاخطبوط كان هنا ، يجتذبه بأفواهه : الحر . كان يرشح عرقاً .
وكان قد نام حوالي الساعة الواحدة ؛ وعند الساعة الثانية ، أيقظه
الحر ، فقذف نفسه في مغطس بارد ، ثم عاد الى النوم من غير ان
يمسح جسمه ؛ وبعد ذلك مباشرة ، عاد الكور يزفر تحت جلده ، وعاد
هو يرشح عرقاً . وعند الفجر أخذته النوم ، فحلم بحريق ؛ والآن ،
كانت الشمس بالتأكيد مرتفعة في السماء ، وكان غوميز ما يزال يرشح :
كان يرشح بلا انقطاع منذ ثمان واربعين ساعة . وتنهّد قائلاً : « يا
إلهي ! » وهو يمسح يده الرطبة على صدره المبتل . لم يكن ذلك حرّاً ،
وانما كان مرضاً في المناخ : كان الهواء مصاباً بالحمى ، وكان الهواء
يرشح عرقاً ، وكان هو يرشح عرقاً في العرق . كان عليه ان ينهض ،
وان يرشح وهو في قيصه . وانتصب : « اي حظ ! ليس لدي بعد
من قيص . » كان قد بلل آخر قيص ، الأزرق ، لأنه كان مضطراً
الى تغيير ثيابه مرتين في اليوم . اما الآن ، فقد انتهى : سيلبس هذه
الخرقة الرطبة المنتنة ، الى ان تعاد الثياب من الغسل . ونهض واقفاً في
حيطة ، ولكن من غير ان يستطيع تجنب فيض العرق ؛ كانت القطرات
تركض على جانبيه كالقمل ، وكان ذلك يدغدغه . القميص مدعوك ،

مكسّر في ألف ثنية ، على مسند الأريكة . وجسّه : لا شيء يحفّ
في هذا البلد القحبة . وكان قلبه يحفق ، وكان فمه متخشّباً من شدة الجفاف ،
حتى كأنه قد ثمل في الليلة البارحة .

وارتدى بنطاله ، واقترب من النافذة فسحب الستائر : في الشارع
كان النور ابيض كأنه الكارثة ؛ ثلاث عشرة ساعة اخرى من النور .
ونظر الى الطريق في ضيق وغضب . الكارثة «نفسها» : هناك ، على
الأرض الطينية السوداء ، تحت الدخان ، كان ثمة دم وصراخ ؛ وهنا ،
بين البيوت الصغيرة ذات القزميد الأحمر ، كان ثمة نور ، نوراً فقط .
وعرق . ولكنها كانت الكارثة «نفسها» . ومرّ زنجيتان وهما يضحكان ،
ودخلت امرأة الى الصيدلية . وتنهّد : «يا إلهي ! يا إلهي !» كان
ينظر الى هذه الألوان جميعاً وهي تصرخ : حتى ولو كان لدي الوقت ،
حتى ولو كان ذهني صافياً ، فكيف تريدوني ان «ارسم» في هذا
النور ! وقال : «يا إلهي ! يا إلهي !» .

ودق جرس الباب ، فقام غوميز يفتح ، وقال ريتشي وهو يدخل :
— هذه عملية قتل .

فانتفض غوميز :

— ماذا ؟

— هذا الحرّ : إنه عملية قتل . (وأضاف في عتاب) كيف ؟

أم ترتد ثيابك ؟ إن رامون ينتظرنا في الساعة العاشرة .

فهزّ غوميز كتفيه :

— لقد نمت متأخراً .

فنظر اليه ريتشي وهو يتسم ، فأضاف غوميز بحموية

— إن الحرّ لا يطاق ، ولا يستطيع ان أنام .

فقال ريتشي بلهجة حليلة :

— الأمر كذلك ، في الاوقات الاولى . وسوف تعتاده . (ونظر

اليه في تنبهه) هل تأخذ أقراص ملح ؟
- طبعاً ، ولكن ذلك لا يحدث عندي أثراً .
فهز ريتشي رأسه ، وتلوتت ملاطفته ببعض القسوة : « فلا بد »
للأقراص من منع العرق . فإذا لم تكن تؤثر على غوميز ، فلأن غوميز
« لم يكن » كسائر الناس . وقال ريتشي فجأة وهو يقطب حاجبيه :
- ولكن عجباً ! كان ينبغي ان تكون معتاداً : فالطقس حار
كذلك في اسبانيا .

وفكر غوميز في أصبح مديرد الجافة الفاجعة ، وفي ذلك النور
الرائع الذي كان كذلك أملاً ، فوق « الألكالا » ؛ وهز رأسه :
- ليس هو الحر نفسه .

قال ريتشي في لهجة اعتزاز :

- انه اقل رطوبة ، أليس كذلك ؟

- نعم . واكثر انسانية .

وكان ريتشي يحمل جريدة ، فمد غوميز يده ليتناولها منه ، ولكنه
لم يجرؤ ، وسقطت اليد ، وقال ريتشي بمرح :

- إنه يوم عظيم : عيد « ديلاوار » ؛ انا من هناك ، كما تعلم .

وفتح الجريدة على الصفحة الثالثة عشرة ، فرأى غوميز صورة :

كان « لاغوارديا » يصافح يد رجل ضخم ، وكان كلاهما يضحك في
استسلام . وقال ريتشي :

- هذا الشخص الى اليسار ، هو حاكم « ديلاوار » ، وقد استقبله

لاغوارديا أمس في « وورلد هول » . وكان استقبالا عظيماً .

وكان غوميز يرغب في انتزاع الجريدة منه وفي النظر الى الصفحة

الاولى . ولكنه فكر : « خراء ! » ودخل غرفة الحمام ، فأجرى في

المغتسل ماءً بارداً وحلق ذقنه بسرعة . واذا كان يدخل الى المغتسل ،

صاح به ريتشي :

– اين أصبحت ؟
– لقد أفلست تماماً . فليس لديّ بعدُ اي قيص ، وقد بقي معي ثمانية عشر دولاراً . ثم ان مانويل عائد يوم الاثنين ، فيجب ان أعيد له شقته .

ولكنه كان يفكر في الجريدة : كان ريتشي يقرأ وهو ينتظره ؛ وقد سمعه غوميز يقلب الصفحات . وتجفّف بعناية ؛ ولكن عبثاً : فقد كان الماء يفور في المشفة . وارتدى وهو يرتعش قيصه الرطب وعاد الى غرفة النوم .

– مباراة عمالقة .

فنظر غوميز الى ريتشي من غير ان يفهم .

– مباراة البيسبول امس . لقد ربح « العمالقة » .

– آه ، نعم ، البيسبول ...

وانحنى ليعقد سير حذائه . وكان يجهد ، من تحت ، لقراءة عناوين الصفحة الاولى . وانتهى الى السؤال :

– وباريس ؟

– ألم تسمع الراديو ؟

– ليس لديّ راديو .

قال ريتشي بهدوء : – انتهت ، صفتيت . لقد دخلوها هذه الليلة . واتجه غوميز نحو النافذة ، فألصق جبينه بالزجاج المحرق ، ونظر الى الشارع ، هذه الشمس اللامجدية ، هذا النهار اللامجدي . لن يكون ثمة بعد الانهارات لامجدية . وانفتل ، وتداعى للسقوط على سريره . وقال ريتشي :

– عجلّ ، إن رامون لا يحبّ الانتظار .

ونفض غوميز ثانيته . وكان قيصه قد أصبح للعصر ، وذهب يعقد ربطة عنقه امام المرأة :

- هل هو موافق ؟
- مبدئياً ، نعم . ستون دولاراً في الاسبوع على ان تقدم صفحة للمعارض . ولكنه يريد ان يراك .
- قال غوميز : – سيراني ، سيراني .
والفتت فجأة :
- اني بحاجة الى سلفة . أتعتقد أنه سيوافق ؟
- فهز ريتشي كتفيه ، وقال بعد لحظة :
- قلت له إنك قادم من اسبانيا ، وهو يميل الى الاعتقاد بأنك لا تحب فرانكو ؛ ولكني لم احده عن ... اجادك . فلا تذهب لتروي له انك كنت جنرالاً : فلا ندري ما الذي يفكر به حقاً .
- جنرال ! ونظر غوميز الى بنطاله المتهرتيء والى اللطخات الكالحة التي كان العرق يخلفها على قيصه . وقال بمرارة :
- لا تخف ، فليست لدي الرغبة في التباهي بها . اني أعرف كم يكلفني هنا ان اكون قد حاربت في اسبانيا : فأنا منذ ستة أشهر بلا عمل .
- فبدا ريتشي مصدوماً ، وأوضح في جفاء :
- إن الاميركيين لا يحبون الحرب .
ووضع غوميز سترته على ذراعه :
- هياً بنا .
- فطوى ريتشي جريدته على مهل ونهض . وعلى الدرج ، سأله :
- زوجتك وابنتك في باريس ؟
- فقال غوميز بحيوية :
- أتمنى الا يكونا هناك . ارجو كثيراً ان تكون ساره من الذكاء بحيث تكون قد هربت الى مونبلييه .
- وأضاف : – ان اخبارها منقطعة عني منذ اول حزيران .

قال ريتشي : - اذا حصلت على الراتب ، امكثك استقدا مهما -
قال غوميز : - نعم ، نعم . سزى .
الشارع ، بهرة النوافذ ، الشمس على الشكنات الطويلة المسطحة التي
لا سقف لها ، ذات القرميد المسود . وامام كل باب ، درجات من
الحجر الأبيض ؛ ضباب حرّ من جانب « الايست ريفر » ؛ كانته
المدينة تبسو داسية . ليس ثمة ظلّ : وان المرء ، في اي شارع من
شوارع العالم ، لا يحسّ انه في الخارج ، بمثل الفضاءة التي يحسّ بها
ذلك هنا . إن أبراً محمّرة بالنار تثقب عينيه ؛ ورفع يده ليحتمي
بها ، فالتصق قيصه بجلده . وارتعش :

- إنه لقتل !

قال ريتشي : - بالأمس ، سقط عجوز مسنّ امامي : ضربة شمس ،
(واضاف) بررر . اني لا احب رؤية الأموات .

وفكر غوميز : « اذهب الى اوروبا تجد ما يعجبك ! »
واضاف ريتشي :

- انه على بعد اربعين اشارة . يجب ان نأخذ الباص .
وتوقفا امام عمود أصفر . وكانت امرأة شابة تنتظر . ونظرت اليه
بعين متفحصة شرسة ثم اولتها ظهرها . وقال ريتشي بلهجة مدرسية :
- فتاة جميلة .

قال غوميز في ضغينة :

- ان عليها مظهر البغي .

وكان قد أحسّ ، تحت ذلك النظر ، بأنه قدر يرشح عرفاً . ولم
تكن هي ترشح . وكذلك ريتشي : فقد كان متورداً نضراً في قيصه
الجميل الابيض ، وكان انفه الأخنس لا يكاد يلمع . يا لغوميز الجميل
الجنرال الجميل غوميز . وكان الجنرال قد انحنى على عينين زرقوليين ،
خضراوين ، سوداوين ، يغشيهما خفق أجفان ؛ إن البغي لم تكن قد

«رأت إلا رجلاً جنوبياً قصيراً يتقاضى خمسين دولاراً في الاسبوع ويرشح
عرقاً في ثوبه المبتذل . « لقد حسبتي من جزيرة داغو » ومع ذلك ،
فقد نظر الى الساقين الجميلتين الطويلتين ، ومسح عرقه . « اربعة أشهر
لم أضع فيها » . من قبل ، كانت الشهوة شمساً جافة في بطنه . اما
الآن ، فان للجنرال الجميل غوميز رغبات خجالة ومداورة .

وعرض عليه ريتشي :

— سيجارة ؟

— لا . إن حلقي يحترق . أفضل ان أشرب .

— ليس لدينا الوقت .

وربت على كتفه بهيئة انزعاج ، وقال له :

— حاول ان تبسم .

— ماذا ؟

— حاول ان تبسم . فاذا رأى رامون هيتك هذه ، فلا شك

انه سيخاف .

وأشار غوميز إشارة لامبالاة ، فقال ريتشي بحوية :

— اني لا أطلب منك ان تكون مفرطاً في المجاملة ، بل ان تضع

على شفتيك ، وانت داخل ، بسمه غير شخصية تماماً ، وتنساها

عليها ؛ وفي هذه الاثناء تستطيع ان تفكر بما تشاء .

قال غوميز : — سأبتسم .

فنظر اليه ريتشي في ملاطفة :

— لمن أجل طفلك انت مهموم ؟

— لا .

فبذل ريتشي جهداً مؤلماً للتفكير :

— أمن اجل باريس إذن ؟

قال غوميز بعنف : — طز بباريس !

– من الأفضل ان يكونوا قد اخذوها بلا قتال ، أليس كذلك ؟
فأجاب غوميز بصوت محايد :
– كان بوسع الفرنسيين ان يدافعوا عنها .
– أشكّ في ذلك ! مدينة فوق ارض مسطحة .
– كان بوسعهم ان يدافعوا عنها . لقد قاومت مدريد عامين
ونصف العام ...

فردد ريتشي بحركة مبهمة :

– مدريد ... ولكن ما جدوى الدفاع عن باريس ؟ إن هذا في غاية
البلادة . كانوا سيهدمون اللوفر والاوربا ونوتردام . كلما قلت الأضرار ،
كان الأمر أفضل . (وأضاف في رضى) والآن ستنتهي الحرب بسرعة .
فقال غوميز في سخرية :

وكيف ! اذا استمر العمل بهذه السرعة ، فستعقد السلم النازية بعد
ثلاثة اشهر .

قال ريتشي : – إن السلم ليست ديمقراطية ولا نازية : انها السلم
وحسب . انت تعرف جيداً اني لا احب المحتلرين . ولكنهم بشر
كالآخرين . فحين ينتهي احتلالهم لاوروبا ، تبدأ المصاعب امامهم ،
وعليهم ان يعتدلوا ويرقوا . واذا كانوا عاقبين ، تركوا كل بلد
يحكم نفسه داخل اتحاد اوروبي . شيء قريب من ولاياتنا المتحدة .
وكان يتحدث متمهلاً وفي جهد . وأضاف :

– اذا كان هذا سيمنعكم من القيام بالحرب كل عشرين عاماً ،
فسيفقى هذا هو الكسب .

ونظر اليه غوميز في غيظ : كان في عينيه الرماديتين صدق واخلاص
كبيران . كان مرحاً ، وكان يحب الانسانية ، والاولاد والعصافير
والفن التجريدي ؛ وكان يفكر بان درهمين من العقل كافيان لحل
جميع المنازعات . ولم يكن يكن كثيراً من الود للمهاجرين ذوي العرق

اللاتيني ، بل كان اكثر تفاهما مع الألمان . « احتلال باريس ، ماذا يمثل ذلك في نظره ؟ » ولفت غوميز رأسه ينظر الى بسطة بائع الجرائد الملونة : كان ريتشي يبدو له فجأة شديد القسوة ؛ وقال ريتشي :

— انتم الاوروبيين تتشبهون دائماً بالرموز . لقد انقضت ثمانية ايام والناس يعرفون ان فرنسا قد هزمت . صحيح : لقد عشتَ فيها ، وخلقتَ فيها ذكريات ، وانا أفهم ان يحزنك ذلك . ولكن الاستيلاء على باريس ، ما عسى ذلك ان يحدث لديك ، ما دامت المدينة سليمة لم تمس ؟ اننا سنعود اليها في نهاية الحرب . وأحس غوميز نفسه محمولاً بفرح عظيم غاضب ، فسأل في صوت مرتجف :

— ما يحدث ذلك لدي ؟ إن ذلك يسرني ! حين دخل فرانكو الى برشلونة ، كانوا يهزّون رؤوسهم لامبالين ، وكانوا يقولون ان ذلك مؤسف ، ولكن لم يكن ثمة من رفع إصبعه الصغير . حسناً ! انه الآن دورهم ، فليتذوقوا ! (وصاح في صخب الباص الذي وقف ازاء الرصيف) إن ذلك يسرني ! إن ذلك يسرني !

— وصعدا وراء المرأة الشابة ، وتدبّر غوميز امره ليرى ساقبها في هذه الاثناء ؛ وظلاً واقفين في المؤخرة . وسارع رجل ضخم ذو نظارتين ذهبيتين بالابتعاد عنها ، ففكر غوميز « لا بد ان رائحتي كريهة » وفي الصف الأخير من المقاعد ، كان رجل قد فتح جريدة . فقرأ غوميز من فوق كتفه : « الهتاف لتوسكانيني في ريو حيث يعزف للمرة الاولى منذ اربعة وخمسين عاماً . » وتحت ذلك : « العرض الاول في نيويورك : راي ميلاند ولوريتا يونغ في فيلم « الدكتور يتزوج » . وكانت جرائد اخرى ، هنا وهناك ، تبسط اجنحتها : لاغوارديا يستقبل حاكم ديلاوار ، لوريتا يونغ ؛ حريق في الايلينوا ، راي ميلاند ؛ احبني زوجي منذ اليوم الذي استعملت فيه مزبل

الروائح « بيتش » ؛ اشترى شريسارغيل ، ملين شهر العسل ؛ رجل في منامته يتسم لزوجته الشابة ؛ لاغوارديا يتسم لحاكم ديلاوار ؛ بادي سميث يصرّح : « لا حلويات « كيك » للقاصرين ، » كانوا يقرأون ؛ وكانت الصفحات العريضة البيضاء والسوداء تحدثهم عن أنفسهم ، عن همومهم وعن مسراتهم ؛ كانوا يعرفون من هو بادي سميث ، ولم يكن غوميز يعرفه ؛ وكانوا يقلبون نحو الأرض ، ونحو ظهر السائق ، أحرف الصفحة الأولى الكبيرة : « سقوط باريس » او « مونتهاتن تحترق » . كانوا يقرأون وكانت الصحف تصرخ بين ايديهم ، فلا يسمعونها . وأحس غوميز بالشيخوخة والوهن . كانت باريس بعيدة ؛ وكان وحده الذي يهتم بها ، وسط مئة وخمسين مليون نسمة ؛ انها لم تكن بعد الا هماً شخصياً صغيراً ، لا يكاد يجاوز في أهميته ذلك العطش الذي كان يحرق حلقه . وقال لريتشي :

— أعطني الجريدة .

« الالمان يحتلون باريس . ضغط نحو الجنوب . سقوط الهافر .

هجوم من خط ماجينو »

كانت الحروف تصرخ ، ولكن الزوج الثلاثة الذين كانوا يتحدثون

خلفه استمروا يضحكون مع غير ان يسمعوا .

« الجيش الفرنسي سليم لم يمس ، اسبانيا تستولي على طنجة . »

وبحث الرجل ذو النظارات الذهبية في محفظته بانتظام فاخرج منها

مفتاح « يال » تأمله في رضى . وأحس غوميز بالحجل ، وكانت

به رغبة لأن يطوي الجريدة ، كما لو انها كانت تتحدث على غير

حذر عن أشد أسراره صميمية . إن هذه الصيحات الهائلة التي كانت

تُترعش يديه ، هذه النداءات التي تطلب النجدة ، هذه الحشرات ،

انما كانت مجنوناً فاحشاً قليل التهذيب ، كعرقه عرق الغريب ،

وكرائحته تلك القوية اكثر مما ينبغي . « الشك في وعود هتلر ؛

الرئيس روزفلت لا يصدق ... الولايات المتحدة ستفعل ما في استطاعتها من أجل الحلفاء » ؛ حكومة جلالته ستفعل ما في استطاعتها من أجل التشيك ؛ الفرنسيون سيفعلون ما في استطاعتهم من أجل جمهوري اسبانيا . ضادات ، عقاقير ، علب حايب . يا للبؤس ! « مظاهرات طلاب في مدريد للمطالبة بعودة جبل طارق الى الاسبان . » ورأى كلمة مدريد ، فلم يستطع المضي في القراءة . « حسناً فعلوا ، قدرون ! قدرون ! فليشعلوا النار بأربعة اركان باريس ، وليحيلوها الى رماد . » « تور (من مراسلنا الخاص ارشامبو) : المعركة مستمرة ، الفرنسيون يصرحون بان ضغط العدو يتناقص : خسائر نازية فادحة ، الضغط طبعاً يتناقص ، وسوف يتناقص حتى آخر يوم وحتى آخر صحيفة فرنسية ، خسائر فادحة ، كلمات مسكينة ، آخر كلمات أمل لا تخدع أحداً ؛ خسائر فاشستية فادحة حول تاراغون ؛ الضغط يتناقص ؛ ستقاوم برشلونة ... وفي اليوم التالي ، كان الفرار الجنوني . »

« برلين (من مراسلنا الخاص بروك بترز) : خسرت فرنسا كل صناعتها ، سقطت مونتميدي ؛ هجوم اكتساحي من خط ماجينو ؛ العدو يتهزم » نشيد مجد ؛ نشيد نحاسي ، شمس : انهم يغنون في برلين ، في مدريد ، بأثوابهم العسكرية ؛ برشلونة ، مدريد ، فالانيس ، فارصوفيا ، باريس ؛ وغداً لندن . وفي تور ، كان رجال بساتر سود يركضون في ممرات الفنادق . لقد أحسنوا صنغاً ! لقد أحسنوا صنغاً ، فليأخذوا كل شيء ، فرنسا ، انكلترا ، ولينزلوا في نيويورك ، لقد أحسنوا صنغاً !

كان الرجل ذو النظارات الذهبية ينظر اليه ، وأحس غوميز بالهجل كما لو انه صاح . وكان الزوج يتسمون ، وكانت المرأة الشابة تبتسم ، وكان قاطع التذاكر يتسم .

قال ريتشي وهو يبتسم : - لنهبط هنا .
كانت اميركا ، على الاعلانات وعلى غلاف المجلات ، تبتسم ..
وفكر غوميز في رامون ، واخذ يبتسم . وقال ريتشي :
- انها الساعة العاشرة ، فلن نتأخر اكثر من خمس دقائق .
الساعة العاشرة ، الساعة الثالثة في فرنسا . كان أصيل يوم يخبني ..
ممتعاً ، بلا أمل ، في قعر هذا الصباح الاستعماري .

الساعة الثالثة في فرنسا .
قال الرجل - ها نحن في أزمة !
وظل متحجراً في مقعده ، وكانت سارة ترى العرق يسيل على
رقبته ، وكانت تسمع ضجيج الزمامير .
- لقد نفذ الوقود !
وفتح الباب ، فقفز الى الطريق وانزوع امام سيارته . وكان يتأملها
برقة ، وقال وهو يركز أسنانه :
- تفه ! تفه !

وكان يمر يده على ظهرها المحرق : وكانت سارة تراه ، عبر
الزجاج ، واقفاً تحت السماء المشعة ، وسط هذا الصخب الهائل ؛ وكانت
السيارات التي كانوا يتبعونها منذ الصباح تبتعد في غيمة من غبار -
وخلفهم كانت أصوات الزمامير والصفارات والمنبهات : صدادح لطبور
من حديد ، وأغنية كراهية وحقد .

وسأل بابلو : - لماذا هم غاضبون ؟
- لأننا نسد عليهم الطريق .
وكانت تود لو تقفز خارج السيارة ، ولكن اليأس كان يسحقها على
المقعد . ورفع الرجل رأسه ، وقال في غيظ :
- ولكن انزلا ! الا تسمعناهم ؟ ساعداني في دفعها .

فنزلا . وقال الرجل لساره :

- اذهبي الى الخلف ، وادفعي بشدة .

وقال بابلو : - اريد ان أدفع ايضاً .

وانحنت ساره بازاء السيارة ودفعت بكل قواها ، وعيناها مغمضتان . كأنها في كابوس . وكان العرق يبلل قميصها : وعبر جفونها المغضمة . كانت الشمس تفتحاً عينيهما . وفتحتهما : كان الرجل امامها يدفع بيده اليسرى الملتصقة بالباب ؛ وباليد اليمنى ، كان يحرك المقود ؛ وكان بابلو قد قفز الى واقية الصدم الخلفية وتشبث بها وهو يطلق صيحات متوحشة . وقالت ساره :

- حذار من الانزلاق !

ودرجت السيارة على هيئة فوق طرف الطريق ، فقال الرجل :

- كفى ! كفى ! حسناً ، كفى يا إلهي !

وصمت الزمامير ؛ وعاد النهر يجري . وكانت تحاذي السيارة الواقفة ، وعلى زجاجها تلتصق وجوه ؛ وأحست ساره بالاحمرار تحت الانظار ، فاحتمت بالسيارة ، وأطل نحوها رجل طويل هزيل ، من خلف مقود شفروليه وصاح :

- يا للقروج القذرة !

سيارات شحن ، عربات وطيفة ، سيارات فخمة ، سيارات تاكسي ذات أعلام سوداء ، مركبات . وكانت ساره ، كلما ألبت بهم سيارة ، تفقد بعض رباطتها ، وكانت « جيان » تزداد بعداً . ثم جاء صف العربات ، وكانت « جيان » ما تفتأ تتقهقر ، وهي تصر ؛ واخيراً على قار المشاة الاسود الطريق . باكملها ، ولجأت ساره الى جانب الحفرة : كانت الحشود تحيقها . كانوا يسرون بيضاء ومشقة ، وكان العذاب يكسبهم هيئة عائلية : وكان بد لمن يدخل في صفوفهم ان يشبههم ويبدأ رويداً . لا اريد . لا اريد ان أصبح مثلهم . ولم يكونوا لينظروا اليها . وكانوا يحيدون عن السيارة من غير ان ينظروا اليها : فانهم لم تكن

لهم بعدئ عيون . وحاذى السيارة عملاق يرتدي قبعة ، حاملاً حقيبة في كل ذراع ، فاصطدم على غير هدى بالقضيب الواقى من الوحل ، فاستدار على نفسه ، ثم استعاد سيره المترنح . وكان ممتعاً . وكانت على احدى الحقيقتين طوابع متعددة الالوان : اشبيلية ، القاهرة ، ساراجيفوا ، ستريزا .

وصرخت ساره : - انه يموت من فرط التعب . وسوف يسقط . ولكنه لم يسقط . وتابعت بعينيها القبعة ذات الشريط الاحمر التي كانت تتأرجح بمرح فوق بحر القبعات .
- خذي حقيبتك وتابعي السير دوني .
فارتعشت ساره من غير ان تجيب : كانت تنظر الى الحشود بنفور مذعور .

- الا تسمعين ما اقله لك ؟
فالتفتت اليه :

- اليس مع الممكن انتظار سيارة وطلب صفيحة وقود منها ؟ فلا بد ان تأتي سيارات بعد المشاة .
فابتسم الرجل بسمة خبيثة :
- أنصحك ان تجرب بي .
- ولم لا ؟ لماذا لا تجرب ؟
فبصق باحتقار ، وظل لحظة من غير ان يجيب . وقال اخيراً :
- ألم تريهم اذن ؟ انهم يتدافعون بالمؤخرات : فكيف تريد ان يقفوا ؟

- ولكن اذا وجدت وقوداً ؟
- أقول لك انك لن تجدي . أتظنين انهم سيفقدون صنفهم من أجلك ؟ (وأشار اليها باصبعه وهو يقهقه) لو كنت صبية جميلة ما تزالين في العشرين من عمرك ، لما قلت لا .

- فتظاهرت ساره بأنها لم تسمع ، وألحت :
- ولكن افرض مع ذلك اني وجدت لك وقوداً ؟
فهز رأسه بهيئة مصدومة :
- لا فائدة . فانا لن اذهب أبعد من هذا . حتى ولو وجدت لي
عشرين ليترأ ، بل حتى لو وجدت مئة ليتر . لقد فهمت .
وشبك ذراعيه وأضاف :
- هل تدريكين ما افعل ؟ اني اقف ، واقلع ، وامشي كل عشرين
متراً . أغير السرعة مئة مرة في الساعة : هذا ما يناسب السيارات تماماً !
وكانت على الزجاج لطخات سمراء . فاخرج منديله ومسحها
في ملاطفة .
- ما كان ينبغي لي ان استسلم للخروج .
قالت ساره : - لم يكن عليك الا ان تأخذ وقوداً كافياً .
فهز رأسه من غير ان يجيب ؛ وكانت بها رغبة لأن تخمسه ،
ولكنها تماسكت وقالت بصوت هاديء :
- وإذن ، فاذا تفعل ؟
- أبقى هنا وانتظر .
- تنتظر ماذا ؟
فلم يجب ، فتناولت معصمه وشدت عليها بكل قواها :
- اتدري ماذا يحدث لك اذا بقيت هنا ؟ إن الألمان سينفون جميع
الرجال الأصحاء .
- بالتأكيد ! وسيقطعون يدي صبيك ، ويقفزون عليك اذا جرؤوا!
إن هذا كله خلط : فليسوا هم بالتأكيد على ربع ما يقال عنهم
من الشر .
- وكان حلق ساره جافاً وشفتاها ترتجفان . وقالت بصوت ابيض :
- حسناً . اين نحن الآن ؟

— على بعد اربعة وعشرين كيلومتراً من «جيان» .
« اربعة وعشرون كيلومتراً ! اني مع ذلك لن ابكي امام
«هذا الوحش» .
ودخلت الى السيارة فتناولت حقيبتها وخرجت ثم أخذت بابلو
من يده :

— تعال يا بابلو .

— الى اين ؟

— الى جيان .

— هل هي بعيدة ؟

— بعض الشيء . ولكني سأحملك حين تتعب (وازدافت بتحد)
ثم اننا سنجد بالتأكيد رجلاً طيبين يساعدوننا .

وانزع الرجل امامهما فسد عليهما الطريق . وكان يقطب حاجبيه
ويحك رأسه بهيئة حائرة . وسألته ساره بجفاء :
— ماذا تريد ؟

ولم يكن يدري ما يريد . وكان ينقل نظره بين ساره وبابلو ، كأنما
كان يبحث عن شيء . وقال في ثقة :

— وإذن ؟ انما ذاهبان ؟ هكذا ، حتى بلا كلمة شكر ؟

قالت ساره على عجل : — شكراً ، شكراً .

وكان الرجل قد وجد ما كان يبحث عنه : الغضب . فغضب
واحمر وجهه :

— والمتا فرنك ، اين هي ؟

قالت ساره : — لست مدينة لك بشيء .

— ألم تعدي بمثي فرنك ؟ هذا الصباح بالذات ؟ في مولين ؟

في مرابي ؟

— نعم ، اذا كنت ستقودني الى جيان : ولكنك تتركني مع صبي

بقي منتصف الطريق .

— لست انا الذي اتركك ؛ وانما هي السيارة .
ونفض رأسه فانفخت عروق صدغيه . وكانت عيناه تلتصمان ويبدو
مسروراً ، ولم تكن ساره خائفة منه :

— اريد المئتي فرنك .

وفتشت في محفظتها :

— هذه مئة فرنك . انني لست مدينة لك بها ، وانت لا شك أغنى
مني ، وانما اعطيك اياها تفادياً للنزاع .

فتناول الورقة المالية ووضعها في جيبه ؛ ثم مدّ يده مرة اخرى .
وكان شديد الاحمرار بفمه الفاغر وعينييه المتأملتين :

— يبقى لي معك مئة فرنك اخرى .

— لن تحصل على درهم واحد بعد . دعني امر .

ولم يكن يتحرك ، كأنما هو فريسة نفسه . إنه لا يريد لها حقاً ،
المئة فرنك هذه . انه لا يعرف ماذا يريد : ربما كان يريد ان يعانقه
الصغير قبل ان يذهب ، إنه يترجم هذا بلغته . واقترب منها ،
فحزرت بأنه يريد ان يأخذ الحقيبة .

— لا تلمسني .

— اريد المئة فرنك ، والا أخذت الحقيبة .

وكان احدهما ينظر في عيني الآخر . لم تكن به رغبة على الإطلاق
لأخذ الحقيبة ، كان هذا امراً واضحاً ؛ وكانت ساره تعباً جداً حتى
انها كانت مستعدة بكل رضى ان تتركها له . ولكن كان لا بد الآن
من شئ الفصل حتى النهاية . وترددا ، كما لو انهما لم يكونا يتذكرا ان
دوريهما ؛ ثم قالت ساره :

— حاول اذن ان تأخذها ! حاول !

فتناول الحقيبة من حاملتها واخذ يشدّ ، وكان يوسعه ان ينتزعها

منها بجذبة واحدة ، ولكنه كان يكتفي بالشدّ وهو يصرف رأسه ؛
وجذبت ساره من جهتها ؛ فأخذ بابلو يبكي . وكان قطع المشاة قد
ابتعد ؛ وكان صف السيارات قد عاد الى الظهور . وأحست ساره بأنها
في وضع مضحك ، فجدبت الحقيبة بعنف ؛ وجذب هو جذباً اقوى
فانتزعا منها . ونظر الى ساره والى الحقيبة في دهشة ، لعله لم يرد.
قط ان يأخذها ، ولكن هذا اصبح الآن واقعاً : كانت الحقيبة في يده .
قالت ساره : - اعد لي هذه الحقيبة .

ولم يكن يجيب ، وكان يبدو في هيئة بلاهة وعناد . واستخفّ
الغضب بساره وقذفها باتجاه السيارات فصاحت :
- السارق !

وكانت سيارة بويك طويلة سوداء تمرّ امامهم . وقال الرجل :
- هيا ، بلا مشاكل !
وقبض على كتفها ، ولكنها تخلّصت ؛ وكانت الكلمات والحركات
تخرج منها في يسر ودقة . وقفزت على مصعد البويك فتشبثت
بمقبض الباب :

- السارق ! السارق !
وانبثقت من السيارة ذراع دفعتها :
- انزلي ، ستقتلين نفسك .
وكانت تحسّ انها تجنّ : وكان ذلك لذيذاً . وصاحت :
- قف ! السارق ! النجدة !
- ولكن آن لك ان تنزلي ! كيف تريدان ان اقف ؟ اذا وقفت
تعرقل السير .

فانحسر غضب ساره ، وقفزت الى الأرض فتعثرت . ولكن صاحب
المرأب تلقاها وأوقفها . وكان بابلو يصرخ ويبكي . كانت الحفلة قد
انتهت : وكانت ساره راغبة في الموت . وبحثت في محفظتها فأخرجت

مئة فرنك :

- خذ ! ستشعر بالرجل عما قليل !
- واخذ الرجل الورقة المالية من غير ان يرفع عينيه وترك الحقيبة .
- والآن ، دعنا نمرّ .
- فابتعد ؛ وكان بابلو ما يزال يبكي . وقالت ، في غير ما رقة :
- لا تبك يا بابلو . هيا ، لقد انتهينا ، ونحن ذاهبان .
- وابتعدا . وتمم الرجل خلفهما :
- من الذي كان سيدفع لي ثمن الوقود ؟
- وكان النمل الطويل المعتم يغطي الطريق كلها ؛ وحاولت ساره لحظة ان تمشي بينها ، ولكن زعيق الزمامير عاد يلقي بها في الحفرة .
- إمش ورائي .
- ولوت قدمها ، فتوقفت .
- لإجلس .

وجلسا في العشب . وكانت الحشرات تزحف امامهما ، هائلة ، بطيئة ، عجيبة ؛ وكان هو يوليها ظهره ، وهو ما يزال يضغط بيده على المئة الفرنك اللامجدية ؛ وكانت السيارات تصرّ كأنها سرطان البحر ، وتغني كأنها صراصير . لقد بدّل البشر حشرات . وكانت خائفة .

قال بابلو : - انه شرير ، شرير ، شرير !

قالت ساره بحماسة : - ليس ثمة من هو شرير .

- لماذا أخذ الحقيبة اذن ؟

قالت : - كان خائفاً .

وسأل بابلو : - ماذا ننتظر ؟

- ان تمرّ السيارات لنستطيع ان نسير على الطريق .

اربعة وعشرون كيلومتراً . إن الصغير يستطيع ان يمشي من هنا وهناك .

على الأكثر . وفجأة رقيت التلة ولوحت بيدها . وكانت السيارات تمر أمامها ، فكانت تحس نفسها « مرثية » بعيون محتبئة ، بعيون ذباب وتمل غريبة .

— ماذا تفعلين يا ماما ؟

فقالت ساره بمرارة : — لا شيء . حماقات .

وعادت فهبطت إلى الحفرة ، فأخذت يد بابلو وراحا ينظران إلى الطريق في صمت . الطريق والظهور السلحفائية التي تجرجر نفسها فوقها . جيان ، اربعة وعشرون كيلومتراً . بعد جيان ، نيفر ، ليموج ، بوردو ، هنداي ، في هنداي القنصليات والمساعي والانتظارات المذلة في المكاتب . ستكون محظوظة جداً اذا وجدت قطاراً إلى لشبونة . وستكون معجزة اذا وجدت في لشبونة باخرة إلى نيويورك . وفي نيويورك ؟ إن غوميز لا يملك فلساً ؛ وربما كان يعيش مع امرأة ؛ سيكون ذلك مصيبة وعاراً حتى النهاية . سيفض البرقية ويقول : « تفه ! » ويلتفت نحو شقراء سمينة ذات شفتين وحشيتين تدخن سيكارة فيقول لها : « إن زوجتي عاتاة ، فاقساها ضربة ! » إنه على المحطة ، والآخرون يلوحون بمناديلهم ؛ اما هو فلا يلوّح بمنديله ،

وا١٠٠٠ نلرة استياء .

ها ! لو كنت وحدي لما سمعت من اخباري

ان أعيش لأربي الطفل الذي أولدتني اياه .

تمت ، فظلت الطريق خالية . وفي الطرف

قول صفراء وتلال . ومرّ رجل يركب

قاً ؛ وكان يحرك رجليه في وحشية .

من غير ان يقف :

قة .

ولكن كان قد لحق بسلسلة السيارات ، ورأته يتعلق بمؤخرة سيارة رينو . باريس تشتعل . ما جدوى العيش ؟ ولماذا تراني أحمي حياة هذا الصغير ؟ ألكي يتيه من بلد الى بلد ، مذعوراً يائساً ؟ ألكي يمضغ طوال نصف قرن اللعنة التي تثقل على بني جنسه ؟ ألكي يموت وهو في العشرين على طريق مقصوفة بالرشاشات ، وهو يمسك امعاه يديه ؟ بأبيك ستكون معتزلاً ، شهوانياً وشريراً . اما بي ، فستكون يهودياً . وتناولت يده :

— هيا ، تعال ، لقد آن الاوان .

واكتسح الحشد الطريق والحقول ، كثيفاً ، عنيداً ، لا تمكن تهدئته : لأنه طوفان . ليس من ضجّة سوى احتكاك النعال الهامسة بالأرض . وغمرت ساره لحظة ضيق ، فارادت ان تهرب الى الحقول ، ولكنها تماكنت نفسها ، واخذت بابلو تجره مستسلمة . الرائحة . رائحة الرجال حارة ، آسنة ، مكبرته ، حامزة ، معطرة . رائحة غير طبيعية لحيوانات تفكر . وبين رقتين حمراوين كانتا تحتميان بطاقتين ، رأّت السيارات الأخيرة تنسل في البعيد ، الآمال الأخيرة . واخذ بابلو يضحك ، فانفضت ساره ، وقالت وهي تحس الحجل :

— هس . يجب الا تضحك .

وكان ما يزال يضحك ، من غير ان يحدث صوتاً .

— لماذا تضحك ؟

فاجاب موضحاً : — إن ذلك يشبه الدفن .

وكانت ساره تحبس بوجوه وعيون ، الى يمينها والى يسارها ؛ ولكنها لم تكن تجرؤ على النظر اليها . كانوا يسرون ؛ كانوا يصرون على السير كما كانت تصر هي على العيش : وكانت جلدان من غبار ترتفع وتهوي عليهم ؛ وكانوا يسرون ابدأ . وكانت ساره مستقيمة مرفوعة الرأس ، تحدد نظرها بعيداً ، بين الرقاب ، وتردد

لنفسها : « لن أصبح مثلهم ! » ولكن بعد لحظة ، اخترقها هذا السير الجماعي ، وصعد من ساقها الى بطنها . وأخذ يخفق فيها كقلب كبير مقسور ، قلب « الجميع » .

وسأل بابلو فجأة : - هل يقتلنا النازيون اذا أخذونا ؟

قالت ساره : - هس ! لا ادري .

- سيقتلون جميع الناس الموجودين هنا ؟

- ولكن اسكت ؛ اقول لك لاني لا ادري .

- يجب إذن ان نركض .

وشدت ساره على يده .

- لا تركض ، إبقى هنا . إنهم لن يقتلونا .

والى يسارها ، كان ثمة نفّس خشن . كانت تسمعه منذ خمس دقائق ، من غير ان تنتبه اليه . وقد انسلّ فيها ، وأقام في رثيها ، وأصبح « نفّسها » هي . وأدارت رأسها فرأت امرأة عجوزاً ذات خصلات رمادية كان العرق يذبقتها . وكانت عجوزاً من المدن ، ذات خدين ابيضين وجيوب مائية تحت العينين ؛ وكانت تزفر . ولا بد انها قد عاشت ستين عاماً في باحة بـ « مونتروج » ، في بيت تابع لدكان بـ « كليشي » ؛ اما الآن ، فقد تركوها في الطرق ، وكانت تشدّ على خصرتها حزمة مستطيلة الشكل ؛ وكانت كل خطوة تخطوها سقوطاً : كانت تسقط بقدم على الأخرى ، ورأسها يسقط في الوقت نفسه : « من الذي نصحها ان ترحل ، وهي في تلك السن ؟ أليس يكفي الناس ما يعانونه من شقاء حتى يذهبوا الى اختراع المزيد منه؟ » كانت الطيبة تصعد في ثديها كأنها الحليب : سوف اساعدها ، سأأخذ منها حزمته ، وتعبها ، وهمومها . وسألت في رقة :

- هل انت وحيدة ، يا سيدتي ؟

فلم تُدر العجوز حتى رأسها . فقالت ساره بصوت أعلى :

- يا سيدتي ! هل انت وحدك ؟
 فنظرت اليها العجوز نظرة مغلقة . وقالت ساره :
 — تستطيع ان احمل حزمته .
 وانتظرت لحظة ، وكانت تنظر الى الحزمة في شهوة . وازافت
 بصوت ملح :
 — أعطيني اياها ، ارجوك : فسأحملها ما دام الصغير يستطيع المشي .
 قالت العجوز : — اني لا أعطي حزمتي .
 — ولكنك مرهقة ، ولن تستطيعي المضي حتى النهاية .
 فقذفها العجوز بنظرة حاقدة ، وحادت خطوة وأجابت :
 — اني لا اعطي احداً حزمتي .
 فتهتت ساره وصمتت . وكانت طيبتها التي لم تنفقا تملأها كأنها
 غاز . انهم لا يريدون ان نجهم . وكانت بضعة رؤوس استدارت
 اليها ، فاحمرت خجلا . انهم لا يريدون ان نجهم ، فهم لم يألفوا ذلك .
 — الا يزال المكان بعيداً ، يا ماما ؟
 فاجابت ساره منزعجة : — مثل ما كان تقريباً منذ حين .
 — إحمليني يا ماما .
 فهزت ساره كتفيها : « انه يمثل .. لقد غار لاني اردت ان احمل
 حزمة العجوز . »
 — جرب ان تمشي قليلا بعد .
 — لا يستطيع بعد ، يا ماما . إحمليني .
 فتركت يده في غضب ، سوف يأخذ مني كل قواي ، ولن
 أستطيع بعد ان أساعد أحداً . سوف تحمل الصغير ، كما تحمل
 العجوز حزمته ، وستصبح شبيهة بهم .
 وقال يفحص برجله الارض :
 — إحمليني . إحمليني .

فهمست بقسوة : - اذك لم تتعب بعد ، يا بابلو . فقد خرجت الساعة من السيارة .

فأخذ الصغير ينطنط ؛ وكانت سارة تمشي رافعة الرأس ، جاهدة ألا تفكر به بعد ، وبعد لحظة ، رمته بنظرة مواربة فرأت انه كان يبكي . كان يبكي بهدوء ، في غير ما صوت ، لنفسه وحدها ، وكان بين الفينة والفينة يرفع أصابعه الصغيرة ليسحق الدموع على وجنتيه . واستشعرت الحجل ، وفكرت : « اني مفرطة القسوة . طيبة مع الجميع بدافع الفخر ، قاسية معه لانه لي . » كانت تعطي نفسها للجميع وتنسى نفسها ، تنسى انها كانت يهودية ، وانها كانت هي نفسها معذبة ، وكانت تهرب الى احسان عظيم غير ذاتي ، وفي تلك اللحظات ، كانت تحتقر بابلو لانه كان لحم لحمها وكان يعكس لها جنسها . ووضعت يدها الكبيرة على رأس الصغير ، وفكرت : « ليس الذنب ذنبك ان كان لك وجه ابيك وجنس امك . » وكانت حشرجة العجوز الصافرة تدخل رثتها . « ليس لي الحق بان اكون كريمة الاحسان » ونقلت حقيبتها الى يدها اليسرى وجثت وهي تقول :
بحرح :

- ضع ذراعيك حول عنقي . وخفف جسمك . هوب ؟ انني أرفعك .

وكان ثقيلًا ، وكان يضحك بملء فمه ، وكانت الشمس تجفف دموعه ، لقد أصبحت شبيهة بالآخرين ، واحداً من القطيع ، وكانت السنة من نار تلحس رثتها لدى كل زفرة ؛ كان ألم حاد ينشر كنفها ، وكان تعب ليس هو بالسخي ولا بالمراد يخفق في صدرها كالطبل . تعب امرأة وتعب يهودية ، « تعبها » ، « قدرها » واحمى الأمل . انها لن تصل ابداً الى « جيان » . لا هي ولا احد . لم يكن لأحد أمل ، لا العجوز ، ولا الرقبان ذواتا القبعين ، ولا الزوجان اللذان كانا

يدفعان دراجة منفجرة العجلتين . ولكننا مأخوذون في الجمع ، والجمع
يمشي ونحن نمشي . اننا لسنا بعد الا ارجل هذا القمل الذي لا ينفد .
فما جدوى السير اذ يكون الامل ميتاً ؟ ما جدوى الحياة ؟

وحين بدأوا يصرخون ، لم تكد تدهش ؛ وتوقفت بينا كانوا
يتبددون ويقفزون على التلال وينبطحون في الحفر . وتركت محفظتها
تسقط ، وظلت في وسط الطريق ، مستقيمة ، وحيدة ، معتزة ؛
وكانت تسمع هدير السماء ، وكانت تنظر عند قدميها الى ظلها الذي
أصبح طويلاً ، وكانت تشدّ بابلو الى صدرها ، وامتألت اذناها
صخباً وضجيجاً ، وكانت ، للحظة ، كائناً ميتاً . ولكن الهدير
تناقص ، ورأت شراغيف تجري في ماء السماء ، وخرج الناس من
الحفر ، وكان لا بد من العودة الى الحياة ، والى السير .

قال ريتشي : - إنه بالاجمال لم يكن لثيماً : فقد دعانا للغداء
وأعطاك مئة دولار مسبقاً .

فقال غوميز : - نعم ! صحيح ..

وكانا في الطابق الارضي من « متحف الفن الحديث » ، في قاعة
« المعروضات الموقته » . وكان غوميز يولي ريتشي واللوحات ظهره ،
مسنداً جبينه الى الزجاج ، ينظر في الخارج الى الزفت والى عشب
الجنينة الدقيق . وقال من غير ان يلتفت :

- ربما كان في استطاعتي الآن ان افكر بشيء آخر غير طعامي .

فقال ريتشي في طيبة :

- لا بد انك مسرور تماماً .

وكانت تلك دعوة خفية : لقد وجدت عملاً ، فكل شيء على
خير ما يرام ، في خير العوالم ؛ ويحسن بك ان تظهر حماسة بناءة .

ورمى غوميز من فوق كتفه نظرة معتمة لريتشي : مسرور ؟ انك انت المسرور ، لأنك لن تحملني بعد على ظهرك .

وكان يحس أنه عاق الى ابعد الحدود الممكنة . وقال :

— مسرور ؟ سوف نرى .

فقسا وجه ريتشي قليلاً :

— ألسن مسروراً؟

فردد غوميز وهو يقهقه :

— سوف نرى .

وترك جبينه يتداعى ثانية على الزجاج ، ونظر الى العشب في مزيج من الطمع والنفور . كانت الألوان قد تركته حتى ذلك الحين هادئاً ، والله الحمد : كان قد دفن ذكريات ذلك الزمن الذي كان يتيه فيه عبر شوارع باريس ، موسوساً مأخوذاً ، مسعور الكبرياء امام قدره ، ومردداً مئة مرة في اليوم : اني رسام . ولكن رامون كان قد أعطى المال ، وكان غوميز قد شرب خمره « شيلي هوايت » وتحدث عن بيكاسو للمرة الاولى منذ ثلاثة أعوام . وكان رامون قد قال : « بعد بيكاسو ، لا ادري ما يمكن لرسام ان يفعل » فابتسم غوميز ، وقال : « اما انا ، فأدري . » وكانت شعله جافة قد انتعشت في قلبه . واذ خرج من المطعم : أحسن كما لو انه قد اجريت له عملية السادة ١ : فان جميع الألوان كانت قد أضاعت في الوقت نفسه تدعوه للعيد ، كما في عام ٢٩ ، كان مهرجان «رودوت» الراقص ، والكارنفال ، والفانتازيا ؛ وكان الناس والاشياء قد احتقت الوانهم ، فكان بنفسج ثوب ما يحول الى العقيق ، وباب دكان احمر عميل الى القرمز ، وكانت الألوان تخفق خففاً شديداً في الأشياء ، كأنها نبضات مجنونة ؛ كانت انطلاقات واهتزازات تتضخم حتى

(١) الماء الازرق في العين

لتنفجر ؛ وكانت الاشياء على وشك ان تتحطم او تسقط هامدة ،
وكان ذلك كله يصيح ويشتم ، فكأنها السوق الحافلة . وكان غوميز
قد رفع كتفيه : ان الالوان تعاد اليه وقد كفّ عن الايمان بقدره ؛
إن ما ينبغي ان يعمل ، أعرفه جيداً ، ولكن سيقوم به شخص آخر .
وكان قد تعلق بذراع ريتشي ، وحث خطاه ، محدد البصر ، ولكن
الالوان كانت ترهقه من الجانب ، وكانت تنفجر في عينيه ككرات
من دم وصفراء . وكان ريتشي قد دفعه في المتحف ، وها هو الآن
هنا ، وهناك تلك الخضرة ، من الجانب الآخر من الزجاج ، هذه
الخضرة الطبيعية المبهمة التي لم تكتمل ، كأنها افراز عضوي شبيه
بالعسل ، واللبن السميك . كان ثمة تلك الخضرة التي ينبغي ان تؤخذ:
سوف اجتنبها وأحيلها الى حالة التأرجح بالبياض ... وما عساني أفعل
بها : لقد كفت عن الرسم . وتنهى : إن الناقد الفني لا يؤجر على
عمله ليهم بالعشب الطاغي ، وانما هو يفكر في افكار الآخرين .
وخلفه كانت الوان الآخرين تتمدد على اللوحات : مقتطفات ،
وجواهر ، وافكاراً . لقد حظيت تلك الالوان بأن تصل ؛ فقد نُفخت
وُدفعت الى اقصى حدود نفسها وقد حققت قدرها ، فليس ثمة بعد
إلا ان تحفظ في المتاحف . الوان الآخرين ، إنها الآن نصيبه . وقال :

— اسمع ، يجب ان اكسبها ، المئة دولار .

والثفت : كان ثمة خمسون لوحة « لمودريان » على جدران هذه
العيادة البيضاء : رسم معقم في قاعة مكيفة ؛ ليس ثمة ما هو مريب ؛
لك المرء بمنجى من الميكروبات والعواطف المهووسة . واقرب من لوحة
فتأملها مطولاً . وكان ريتشي يرقب وجه غوميز ويتسم مقدماً .
وتتم غوميز :

— انها لا توحى لي بشيء .

فكفّ ريتشي عن الابتسام ، ولكنه بدا متفهماً جداً ، فقال

في لباقة :

— طبعاً ؛ ليس من الممكن ان تستعيد حسك الفني على الفور ، بل ينبغي ان تمارسه من جديد .
فردد غوميز مغتاضاً :

— أمارسه من جديد ؟ لا بصدد «هذه» .
وأدار ريتشي رأسه نحو اللوحة . كان خط عمودي أسود يقطعه
خطان افقيان ، يرتفع على أرضية رمادية ؛ وكان الطرف الأيسر
للخط الاعلى تكلمه اسطوانة زرقاء .

— كنت أحسب انك تحبّ مودريان .
قال غوميز : — وانا ايضاً كنت احسب ذلك .
وتوقفنا أمام لوحة اخرى ؛ وكان غوميز ينظر اليها محاولاً ان
« يتذكر » وسأله ريتشي في قلق :

— أمن الضروري حقاً ان تكتب عنها ؟
— ليس ذلك ضرورياً . ولكن رامون يريد ان اكرّس له مقالي
الاول . واعتقد انه يجد ان ذلك يوحى بالجدّ .

قال ريتشي : — كن حكيماً ، ولا تبدأ بنقد شديد .
فسأل غوميز منتفضاً : — ولم لا ؟
وابتسم ريتشي في سخريه هادئة :

— واضح انك لا تعرف الجمهور الاميركي ، انه لا يريد خصوصاً
ان يُذعر . ابدأ بتحقيق شهرة لنفسك : قل اشياء بسيطة ومعقولة ،
وقلها بطريقة لذيدة . واذا أصرت على مهاجمة احد ، فلا تختر على
كل حال مودريان : انه لآلهنا .

قال غوميز : — عجباً . انه لا يثير قضية .
فهزّ ريتشي رأسه وطقطق بلسانه مرّات ، علامة المعارضة وقال :
— بل هو يثير قضايا كثيرة .

– نعم ، ولكنها ليست قضايا مزعجة .
قال ريتشي : – آه ، تعني قضايا حول الجنسية او معنى الحياة
او الفقر ؟ صحيح انك تلقيت دروسك في المانيا .
وأضاف وهو يربت على كتفه :
– « الغروندليشكايت » ؟ أليس كذلك ؟ الا ترى ان زمن ذلك
قد تولى ؟

فلم يجب غوميز .
وقال ريتشي : – رأبي هو ان الفن لم يجعل لي طرح قضايا مزعجة ،
افرض أن أحداً جاء يسألني ان كنت قد اشتهيت أمي : انني اسارع
بطرده ، إلا ان يكون محققاً علمياً . ففي هذه الظروف ، لا أفهم
لماذا يسمح للرسامين ان يسألوني علناً عن عُقدي . (وأضاف بلهجة
مصالحة) انني كسائر البشر ، ولي مشكلتي ، غير انها اذا ارهقتني
فلا اقصد المتحف ، بل أتصل بعالم نفسي . فلعل مهنته : ان العالم
النفسي يوحى لي بالثقة لانه قد سبق له ان درس نفسيته بالذات . وما لم يفعل
الرسامون مثل ذلك ، فسيظلون يتحدثون عن كل شيء خبط عشواء ،
ولن اطلب منهم ان يضعوني تجاه نفسي .
وسأله غوميز في شرود :
– وماذا تطلب منهم ؟

وكان يرقب اللوحة في عناد شرس ، ويفكر : « انه ماء رائق . »
وقال ريتشي :

– إنني اطلب منهم البراءة . فهذه اللوحة ...

– ما بها ؟

فقال في نشوة : – انها ساروفيمية . اننا ، نحن الاميركيين ،
نريد رسماً للبشر السعداء او الذين يحاولون ان يكونوا سعداء .

قال غوميز : – انا لست سعيداً ، وسأكون قذراً جباناً إن حاولت .
ان اكونه حين يكون جميع رفاقي في السجن او اعدموا رمية بالرصاص .
وطقطق لسان ريتشي من جديد وقال :

— انني يا عزيزي افهم جيداً همومك كإنسان . الفاشية ، هزيمة الحلفاء ، اسبانيا ، زوجتك ، طفلك : بكل تأكيد ! ولكن يحسن أحياناً الارتفاع فوق هذا .

قال غوميز : — لن افعل ذلك لحظة واحدة ! لحظة واحدة !

فاحمر ريتشي بعض الشيء ، وسأله :

— ما الذي كنت ترسم إذن ؟ اضرابات ؟ مجازر ؟ رأسماليين يرددون قبيحتهم ؟ جنوداً يطلقون النار على الشعب ؟ فابتسم غوميز .

— انت تعلم انني لم اؤمن قط ايماناً كبيراً بالفن الثوري . والآن ، كففت عن الايمان به تماماً .

قال ريتشي : — وإذن ؟ نحن على اتفاق .

— ربما . ولكني في الوقت نفسه أتساءل عما إذا لم اكف عن الايمان بالفن اطلاقاً .

فسأله ريتشي : — وبالثورة اطلاقاً ؟

فلم يجب غوميز ، واستعاد ريتشي بسمته :

— انتم المثقفين الاوروبيين ، تسأونني : إنكم تشعرون بعقدة نقص تجاه «العمل» .

فالتفت غوميز فجأة وامسك بذراع ريتشي :

— تعال ! لقد رأيتهم بما فيه الكفاية . انني اعرف مودريان عن

ظهر قلب ، فبوسعي ان اخربش مقالاً . فلنصعد .

— الى اين ؟

— الى الطابق الاول . اريد ان أرى الآخرين .

— أيّ آخرين ؟

وكانا يجتازان قاعات العرض الثلاث . وكان غوميز يدفع ريتشي

أمامه من غير ان ينظر الى شيء . وردّد ريتشي في انزعاج :

— أيّ آخرين ؟

– جميع الآخرين . كلي ، روو ، بيكاسو : اولئك الذين يطرحون قضايا مزعجة .

وكانا عند اسفل السلم . وتوقف غوميز . فنظر الى ريتشي في تامل . وقال بما يشبه الخجل :

– انها اللوحات الاولى التي اراها منذ عام ٣٦ .

فردد ريتشي مشدوهاً : – منذ ٣٦ ؟

– انما سافرت الى اسبانيا في تلك السنة بالذات . وكنت في تلك الفترة أنقش الصور على النحاس . وهناك صور لم يتح لي ان أنجزها « وهي باقية على طاولتي .

– منذ ٣٦ ؟ ولكن في مدريد ؟ لوحات « البرادو » ؟

– لقد نهبت وأخفيت وبعثت .

فهز ريتشي رأسه :

– لا بد أنك تأملت كثيراً .

فضحك غوميز ضحكاً خشناً وقال : – كلا .

فتلونت دهشة ريتشي بالعتاب :

– انا شخصياً لم ألمس قط فرشاة ، ولكن « يجب » ان اذهب

الى جميع المعارض : فهذه حاجة . فكيف يستطيع رسّام ان يبقى

اربعة اعوام من غير ان يرى رسماً ؟

قال غوميز : – انتظر ، انتظر قليلاً ! فسأعرف بعد دقيقة ان

كنت ما ازال رساماً .

ورقيا السلم فدلنا الى القاعة . وكانت على الجدار الايسر لوحة

لروو ، حمراء وزرقاء . وانزوع غوميز امامها ، فقال ريتشي :

– انه ملك مرزبان !

فلم يجب غوميز ، وقال ريتشي :

– انا شخصياً لا أتذوق كثيراً روو . اما انت ، فلا بد ان ذلك

بيروق لك .

– ولكن اسكت لحظة !

ونظر فترة اخرى ، ثم خفض رأسه وقال :

– هيا بنا .

قال ريتشي : – ان كنت تحب لوحات روو ، ففي الداخل لوحة أجدها اجمل كثيراً .

قال غوميز : – لا حاجة الى ذلك . فقد أصبحت أعمى .

فنظر اليه ريتشي فاغر الفم وصمت . وهزّ غوميز كتفيه قائلاً :

– كان ينبغي ألا اطلق النار على الناس .

وهبط السلم ، وكان ريتشي متصلباً جداً ، متكلف الوقار . وفكر غوميز : « انه يجذني مشبوهاً » . اما ريتشي ، فقد كان ملاكاً ، بالطبع ؛ وكان بالامكان ان يقرأ الانسان في عينيه عناد الملائكة ؛ وقد سبق لأجداده ، الذين كانوا ملائكة كذلك ، ان أحرقوا بعض السحرة في ساحات بوسطن . « اني أعرق ، وانا مسكين . ولي افكار مشبوهة . افكار من اوروبا ؛ وسيتهي الأمر بملائكة اميركا الى احراقى . » هناك كانت المعسكرات ، أما هنا ، فالمحرقة : ولم يكن له الا حيرة الاختيار .

وكانا قد بلغا قاعة البيع ، بالقرب من المدخل . فقلّب غوميز في شروء مجموعة من صور اللوحات المنسوخة . إن الفن متفائل .

وقال ريتشي :

– اننا ننجح في صنع صور رائعة . انظر هذه الألوان : انها اللوحة نفسها .

جندي ميت ، وامرأة تصيح : انعكاسات على قلب هاديء . إن الفن متفائل ؛ والآلام مبررة ما دامت تصلح لخلق الجمال . اني « لست » هادئاً ، ولا « اريد » ان أبرر الآلام التي رأيت . باريس .
والتفت فجأة الى ريتشي :

– اذا لم يكن الرسم « كل شيء » كان مزاحاً .

— ماذا تقول ؟

فأغلق غوميز المجموعة بعنف وقال :

— ليس بالامكان رسم « الشر » .

وكان الحذر قد تأجج نظر ريتشي ، فكان يتأمل غوميز بطريقة
بلدية . وضحك فجأة في طلاقة ، ودسّ إصبعه بين جنبيه :

— انني افهمك يا عزيزي ! اربعة اعوام من الحرب : انك بحاجة
الى تربية جديدة كاملة .

فقال غوميز : — لا حاجة بي الى ذلك . فانا على وشك ان
اصبح ناقداً .

وساد صمت ، ثم قال ريتشي على عجل :

— هل تعلم ان في الطابق الارضي قاعة سينما ؟

— انني لم اضع قدمي هنا قط .

— وهم يعرضون افلاماً كلاسيكية وافلام وثائق .

— أراغب إنت في الذهاب اليها ؟

قال ريتشي : — ينبغي ان ابقى في هذه الانحاء ، فعندي موعد في
الساعة الخامسة ، على بعد سبع محطات .

واقتربا من عمود خشبي فقرأ البرنامج ؛ وقال ريتشي :

— « القافلة نحو الغرب » : رأيتها ثلاث مرات . ولكن استخراج
الآليء من « الترانسفال » يمكن ان يكون مسلياً (وأضاف برخاوة)
هل تأتي ؟

فقال غوميز : — لا أحب الآليء .

فبدأ على ريتشي العزاء . وبسم له بسمة عريضة برزت معها شفاته
بروزاً ظاهراً ، وربت على كتفه ، وقال له بالانكليزية ، كما لو أنه
يسترد في وقت واحد لغته الام وحرите :
الى اللقاء .

ففكر غوميز : « لقد آن الاوان لشكره » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة ، فشدّ على يده في صمت .

وفي الخارج ، كان الاخطبوط ؛ وجذبه الف فم ، وكان المساء يلتمع من مسامه ، فبلل قبيصه دفعة واحدة ، وكانت تمر امام عينيه شفرة محمّرة . لا بأس ! لا بأس ! كان فرحاً لأنه غادر المتحف : كان الحر بلاء عظيماً ، ولكنه كان حقيقياً . وكانت حقيقة تلك السماء الهندية التي كانت رؤوس ناطحات السحاب تدفعها فتعليها على جميع سماوات اوروبا ؛ وكان غوميز يمشي بين بيوت قرميديّة حقيقية هي من فرط البشاعة بحيث لا يفكر احد بدهنها ، وتلك البناية العالية البعيدة التي كانت تشبه ضربة فرشاة خفيفة على قماشة ، كسفن كلود لورين ، كانت حقيقية ، ولم تكن سفن كلود لورين حقيقية : فاللوحات هي احلام . وفكر في تلك القرية من مقاطعة « سيارامادر » حيث جرى قتال دام من الصباح حتى المساء : لقد كان على الطريق حمرة حقيقية . وصمم في سرور مرير : لن ارسم بعد الآن ابدأ . من هذه الناحية من المرأة ، « هنا » بالذات ، « هنا » ، مسحوقاً في كثافة هذا الأتون ، على « هذا » الرصيف المحرق ؛ كانت « الحقيقة » تنصب حوله جدرانها العنقالية ، فتسد جميع منافذ الأفق ؛ لم يكن ثمة شيء آخر في العالم ، غير هذا الحر وهذه الحجارة ، لولا الأحلام . وانعطف في الجادة السابعة ، ودحرجت الجموع مدّها عليه ، وكانت الامواج تحمل في قممها باقات من عيون ملتزمة وميتة ، وكان الرصيف يرتجف ، وكانت الألوان المحررة تلتطخه ، وكانت الجموع ترسل بخاراً شبيهاً بالذي يرسله قماش رطب تحت حرارة الشمس ؛ بسبات وعيون ، إثمٌ ألاّ تبسم ، عيون غائمة او واضحة ، عجلة او بطيئة ، كلها ميتة . وحاول ان يتابع المهزلة : ناس حقيقيون ، ولكن لا :

مستحيل ! واصطفق كل شيء في يديه ، وانطفأت فرحته ؛ كانت لهم
عيون كتلك التي في الصور . اترامهم يعلمون ان باريس قد سقطت ؟
اترامهم يفكرون في ذلك ؟ كانوا جميعاً يمشون مشية مستعجلة ،
وكان زيد انظارهم الابيض يلامسه لدى المرور . وفكر : ليسوا هم
الحقيقيين ، وانما هم الأشباه . فاين هم الحقيقيون ؟ انهم في اي مكان ،
ولكنهم ليسوا هنا . ليس ثمة من هو هنا حقاً ، وانا والآخرون في
ذلك سواء . كان شبه غوميز قد استقل الاوتوبيس ، وقرأ الجريدة
وبسم لرامون ، وتحدث عن بيكاسو ، ونظر الى لوحات مودريان .
كنت أجتاز باريس ، شارع رويال خال ، وساحة الكونكوردي خالية ،
وعلم ألماني يرفرف على مجلس النواب ، وفرقة من الجستابو تمر تحت
قوس النصر ، والسما منقطة بالطائرات ، وانهارت جدران القرميد ،
ودلفت الجموع تحت الارض ، وكان غوميز يمشي وحيداً في باريس .
في باريس ، في الحقيقة ، « الحقيقة » الوحيدة ؛ في الدم ، وفي
الحقد ، في الهزيمة وفي الموت ، وتتم وهو يحرق الأرم : « يسا
للفرنسيين القذرين ! انهم لم يستطيعوا المقاومة ، بل فروا كالأرانب .
كنت أعرف ذلك ، كنت أعرف انهم هالكون » . وانعطفت الى اليمين
وسلك الشارع ٥٦ ، وتوقف امام حانة - مطعم فرنسية : « الأبيتيت
كوكيت » ونظر الى الواجهة الحمراء والخضراء ، وتردد لحظة ، ثم
دفع الباب : كان يريد ان يرى الهيئة التي يسدو عليها الفرنسيون .
وفي الداخل ، كان الجو معتماً ورطباً تقريباً ؛ وكانت الستائر
مسدلة ، والمصابيح مضاءة .

وسرّ غوميز للعودة الى النور الاصطناعي . وكانت القاعة الداخلية
الغارقة في الظلام والصمت هي المطعم . وكان شاب قوى البنية مقصوص
الشعر جالساً الى المشرب ، وعيناه ثابتتان خلف نظارته ؛ وكان رأسه
يسقط الى الامام بين الفينة والفينة ، ولكن سرعان ما يرفعه في كثير

من الوقار . وجلس غوميز على مقعد مرتفع امام المشرب ، وكان يعرف الساقى بعض المعرفة ، فقال بالفرنسية :
- زجاجة ويسكي سكوتش مزدوجة . وهل لديك صحيفة من صحف اليوم ؟

فأخرج الساقى جريدة « النيويورك تايمس » من درج وأعطاه اياها . وكان فتى اشقر ذا هيئة حزينة ودقيقة ؛ ولو لم تكن لهجته بورجيته ، لكان مُحسب من سكان « ليل » . وتظاهر غوميز بانه يقرأ التايمس ثم رفع رأسه فجأة . كان الساقى ينظر اليه نظرة متعبة .

قال غوميز : - الأخبار ، ليست سارة اليس كذلك ؟
فهزّ الساقى رأسه ، وقال غوميز :

- لقد سقطت باريس .

فأرسل الساقى صفرة كتيبة ، وملاً قدحاً صغيراً بالويسكي ثم أفرغ محتواه في قدح كبير ؛ وأعاد العملية ، ثم دفع القدح أمام غوميز . وأدار الاميركي ذو النظارة عينين زجاجيتين اليهما لمدة لحظة ، ثم انحنى رأسه بارتخاء ، كما لو انه كان يحيينهما .

- سودا ؟

- نعم .

وأضاف غوميز من غير ان تثبط عزيمته :

- اعتقد ان فرنسا قد ضاعت .

فتنهذ الساقى من غير ان يجيب ، وفكر غوميز في فرحة قاسية ، انه كان اشقى من ان يستطيع التكلم . فألحّ بما يشبه الحنان :

- ألا تظن ذلك ؟

وكان الساقى يسكب ماء غازياً في قدح غوميز . ولم يكن غوميز يغادر بعينه هذه السحنة القمرية التي تنزع الى البكاء . سيقول له في اللحظة المناسبة : « ماذا فعلتم من اجل اسبانيا ؟ حسناً ! لقد جاء

دوركم في الرقص . »
ورفع الساقى عينيه واصبعه ؛ وتكلم فجأة بصوت هادىء ، يخن
بعض الشيء ، في لهجة « بورجية » فقال :
- إن لكل شيء ثمناً .
فقهقه غوميز وقال :
- أجل ، إن لكل شيء ثمناً .
واجال الساقى اصبعه في الهواء فوق رأس غوميز : نجم مذنب يعلن
تهاية العالم . ولم يكن يبدو عليه انه شقي على الاطلاق ، وقال :
- ستعرف فرنسا ما يكلفها ان تتخلى عن حلفائها الطبيعيين .
ففكر غوميز مندهشاً : « ما الذي يقول ؟ » ان النصر الوقح
الحاقد الذي كان ينوي تفجيريه على وجهه ، انما يفاجئه الآن في عيني
الساقى . وبدأ يقول في حذر ، محاولاً جسده :
- إن تشيكوسلوفاكيا حين ...
فهزّ الساقى كتفيه وقاطعه قائلاً في ازدراء :
- تشيكوسلوفاكيا !
فقال غوميز : - ماذا ؟ لقد تخليتم عنها !
وكان الساقى يبتسم ، وقال :
- اسمع يا سيدي .. إن فرنسا حين كانت تحت سلطة « لويس »
المحبوب ، لم يكن قد بقي لها غلظة لم ترتكيبها .
قال غوميز : - آه انت كندي ؟
فقال الساقى : - اني من مونتريال .
- كان ينبغي ان تخبرني .
ووضع غوميز الجريدة على المشرب . وسأل بعد لحظة :
- الا يأتي الى هنا فرنسيون على الاطلاق ؟
فأوماً الساقى بسبابته الى نقطة تقع خلف ظهر غوميز ، فالتفت

غوميز ، فاذا هو بعجوز جالس الى طاولة يغطيها خوان ابيض ، وهو يحلم امام صحيفة . فرنسي « حقيقي » ذو سحنة كثيفة ، مشققة ، محروثة ، وعينين براقتين قاسيتين ، وشارب رمادي . وكانت وجنتاه بالنسبة لوجنتي الاميركي الجميلتين ، تبدوان مقدودتين من مادة مسكينة على الأقل . فرنسي « حقيقي » ، في قلبه يأس حقيقي . وقال :

— عجباً : انني لم اتنبه لوجوده .

قال الساقى : — هذا السيد هو من «روان» . انه زبون .
وشرب غوميز قدحه جرعة واحدة وقفز الى الارض الخشبية ..
« ماذا فعلتم من أجل اسبانيا ؟ » ورآه العجوز قادماً من غير ان يظهر دهشة . وانزوع غوميز امام الطاولة وتأمل هذا الوجه المسن في شراهة :

— انت فرنسي ؟

قال العجوز : — نعم .
فقال غوميز : — انني ادعوك الى تناول قدح .

— شكراً ليس هذا يوماً مناسباً .
فسأله وهو يضع اصبعه على عنوان الجريدة :

— بسبب هذا ؟

— بسبب هذا .

قال غوميز : — انما ادعوك الى قدح ، بسبب هذا بالذات . لقد سكنت فرنسا عشر سنوات ، وما زالت زوجتي وابني فيها . ويسكي ؟

— ما دام الأمر كذلك ، فيلا سودا .

فطلب غوميز : — سكوتش بلا سودا ، وسكوتش بسودا .
وصمته ، وكان الاميركي ذو النظارة قد استدار فوق كرسيه وأخذ ينظر اليهما صامتاً .

وفجأة سأل العجوز :

— اتراك لست ايطالياً ؟

هابتسم غوميز وقال :

— لا . لست ايطالياً .

فقال العجوز :

— إن الطليان قدرون .

« والفرنسيون ؟ » واستعاد غوميز صوته الرقيق ليسأل :

— هل لك هناك من احد ؟

— في باريس ، لا . ولكن احفادي في « مولين » .

ونظر الى غوميز في تنبه :

— انني ألاحظ انك لست هنا منذ وقت طويل .

فسأله غوميز : — وانت ؟

— انني مقيم هنا منذ ٩٧ . لقد أصبح ديناً ثقيلاً .

واضاف :

— انني لا احبهم .

— ولماذا انت باق هنا ؟

فهزّ العجوز كتفيه وقال :

— انني اكسب المال .

— هل انت تاجر ؟

— بل حلاق . وحنوتي على بعد محطتين . وقد كنت اقضي شهرين

في فرنسا ، كل ثلاثة اعوام . وكان المفروض ان اذهب اليها هذا

العام ، ولكن ها نحن ذا .

قال غوميز : — أجل ، ها نحن ذا .

واستطرد العجوز :

— منذ هذا الصباح ، قصد حانوتي اربعون زبوناً . يحدث هذا في

بعض الأيام . وقد كانوا يريدون كل شيء : حلاقة الذقن ، وقص

الشعر ، وشامبوانغ ، وتديك بالكهرباء . ربما ظننت أنهم كانوا

يحدثوني عن بلدي ؟ على الاطلاق ! لقد كانوا يقرأون جرائدهم من غير ان ينسوا بكلمة ، وكنت ارى العناوين بينما كنت أحلق ذقونهم . وكان بينهم زبائن في العشرين ، ولم يقولوا شيئاً . ولقد كان من حظهم اني لم اجرحهم ، كانت يدي ترتجف . واخيراً تركت عملي وجئت الى هنا .

قال غوميز : - انهم لا يبالون .

- ليست القضية انهم الى هذا الحد لا يبالون ، ولكنهم لا يجدون الكلمة التي ترضي . ان بارييس كلمة تعني شيئاً في نظرهم . فهم لن يتحدثوا عنها : لأن ذلك يمسه بالذات هكذا ، هم .

وكان غوميز يتذكر جموع « الجادة السابعة » ، وقال :

- جميع هؤلاء الاشخاص في الشارع ، أتظن انهم يفكرون بباريس؟
- نعم ، على نحو ما . ولكنهم لو تعلم لا يفكرون كما تفكر نحن .
فاذا اراد الاميركي ان يفكر في شيء يزعجه ، بذل كل ما في وسعه كيلا يفكر فيه .

وجاء الساقى بالقدهين ، فأخذ العجوز قدحه ونهض قائلاً :

- طيب ! نخبك .

قال غوميز : - نخبك !

وابتسم العجوز بحزن :

- اننا لا نعرف تماماً ما الذي ينبغي ان يتمناه احدنا للآخر ،

أليس كذلك ؟

واستدرك ، بعد لحظة تفكير ، قائلاً :

- بلى : اني اشرب نخب فرنسا ، نخب فرنسا ، رغم كل شيء .

ولم يكن غوميز يريد ان يشرب نخب فرنسا .

- نخب دخول الولايات المتحدة الحرب .

فضحك العجوز ضحكة قصيرة وقال :

- من اجل هذا ، تستطيع ايضاً ان تشرب .
وافرغ غوميز قدحه ، والتفت الى الساقى :
- قدحان آخران .

كانت به حاجة الى الشرب . كان منذ لحظة يحسب نفسه وحيداً
للاهتام بفرنسا ، وكان سقوط باريس « قضيته » : مصيبة بالنسبة
لاسبانيا ، وفي الوقت نفسه عقاباً بالنسبة للفرنسيين . ولكنه يعلم الآن
انها كانت تطوف حول المشرب ، وانها تدور وتدور بشكل مبهم
ومجرد عبر ستة ملايين روح . وكان ذلك امراً لا يحتمل تقريباً : فقد
قطعت صلته الشخصية بباريس ، فليس هو بعيداً الا مهاجراً حديث
العهد يستولي عليه ، ككثير غيره ، وسواس جماعي .

قال العجوز : - لا ادري ان كنت ستفهمني ، ولكن ها قد مر
عليّ اكثر من اربعين عاماً وانا اعيش هنا ، ولكن منذ هذا الصباح
فحسب وانا احسب نفسي في بلد اجنبي حقاً ، اني اعرفهم ولا اقع
من ذلك في الاوهام ، اقسم لك . ولكني كنت اظنّ مع ذلك اني لا
بدء ان اجد شخصاً بمدّ لي يده او يقول كلمة .

واخذت شفتاه ترتعشان ؛ وردّد :

- زبائن في العشرين من العمر .

كان غوميز يقول في نفسه : « هذا فرنسي . واحد من الذين
كانوا ينادوننا : **Frente Crapular** » ولكنه لم يكن ينجح في ان
يبتهج ؛ وقرر اخيراً انه « عجوز اكثر مما ينبغي » وكان العجوز
ينظر في الحلاء ، وقال من غير ان يؤمن كثيراً بما يقول :

- لاحظ : ربما كان ذلك بدافع التحفظ .

فهمهم غوميز . وقال العجوز :

- هذا ممكن . هذا ممكن جداً . ان كل شيء ممكن معهم .

واضاف بالهجة نفسها :

— كان لي بيت في « روان » ، وكنت انوي ان اركن اليه . اما
الآن ، فانا اقول في نفسي بأني سأموت هنا : وهذا يغيّر وجهة النظر .
ففكر غوميز : « طبعاً ، طبعاً ، ستموت هنا . » ولوى رأسه ،
وكانت به رغبة في الذهاب ، ولكنه استدرك نفسه ، واحمر فجأة ،
فزرع نظره في عيني العجوز وسأل بصوت صافر :

— هل كنت من مؤيدي التدخل في اسبانيا ؟

فسأل العجوز مذعوراً : — ايّ تدخل ؟

وتأمل غوميز في اهتمام :

— هل انت اسباني ؟

— نعم .

— لقد لحق بكم انتم ايضاً كثير من المصائب .

فقال غوميز بصوت محايد :

— إن الفرنسيين لم يساعدونا كثيراً .

— أجل ، انظر الآن : إن الاميركيين لا يساعدوننا . إن البشر

والبلاد متشابهون : كلّ لمصلحته .

قال غوميز : — نعم ، كل لمصلحته .

لأنه لم يرفع اصبعه ليدافع عن برشاونة ؛ وها قد سقطت الآن

برشلونة ؛ وسقطت باريس ، ونحن كلانا في المنفى ، كلانا متشابهان ،

ووضع الخادم القديح على الطاولة ، فأخذاها في وقت واحد ، من

غير ان يغادر احدهما الآخر بنظره .

وقال العجوز : — انني اشرب نخب اسبانيا .

فتردد غوميز ثم قال بين اسنانه :

— انني اشرب نخب تحرير فرنسا .

وصمّتا . كان ذلك يدعو الى الرثاء : دميّتان عجوزان مكسورتان ،

داخل حانة نيويوركية ، يشربان نخب فرنسا واسبانيا . مصيبة ! وطوى

العجوز جريدته بعناية ثم نهض :
 - يجب ان اعود الى الحانوت . ان الدورة الاخيرة على نفقتي .
 قال غوميز : - كلا ، كلا ، كلا . ايها الساقى . الدورتان
 على نفقتي .
 - اشكرك ، اذن .
 وقصد العجوز الباب . ولاحظ غوميز انه كان يعرج ، ففكر :
 « يا للعجوز المسكين ! » وقال للساقى :
 - قدح آخر .
 ونزل الاميركي عن كرسيه العالي وتوجه اليه وهو يتهدى ، فقال :
 - اني سكران .
 قال غوميز : - هكذا ؟
 - ألم تلاحظ ؟
 - كلا .
 فسأله : - وهل تعلم لماذا انا سكران ؟
 قال غوميز : - طز في ذلك !
 فأطلق الاميركي تبحشوة مرنة وتداعى ساقطاً على الكرسي الذي كان
 قد غادره العجوز .
 - لأن الألمان قد اخذوا باريس .
 واظلم وجهه واطاف :
 - انه اسوأ نبأ منذ عام ١٩٢٧ .
 - وفي عام ١٩٢٧ ، اي نبأ سيء كان هناك ؟
 فوضع إصبعاً على فمه وقال :
 - هس ! أمر شخصي .
 ووضع رأسه على الطاولة ، وبدا انه يغرق في النوم . وغادر الساقى
 المشرب مقرباً من غوميز وقال :

– احتفظ لي به دقيقتين . فهذه ساعته : فيجب ان اذهب فآتي له بالتاكسي .
فسأله غوميز :
– ما هذا الزبون ؟
– انه يعمل في وول ستريت .
– أصحيح انه سكر لأن باريس قد سقطت ؟
– اذا قال ذلك ، فلا بدّ انه صحيح . غير انه سكر في الاسبوع الماضي بسبب حوادث الارجتين ، وفي الاسبوع السذي سبقه بسبب كارثة « سالت ليك ستي » . انه يسكر كل يوم سبت ، ولكن لا بدون سبب .

قال غوميز : – إنه مفرط الحساسية .
وخرج الساقى على عجل . فوضع غوميز رأسه بين يديه وراح ينظر الى الجدار ؛ وكان يرى مرة اخرى ، بوضوح ، النقش الذي تركه على الطاولة . كانت تنقصه كتلة داكنة الى اليسار لاقامة التوازن . رماه دغل . أجل دغل . واستعاد صورة النقش والطاولة ، والنافذة الكبيرة ، وأخذ يبيكي .

الأحد ١٦ حزيران

– هناك .. هناك .. فوق الاشجار تماما .
كان ماتيو نائما ، وكانت الحرب قد خسرت . كانت قد خسرت حتى اعماق نومه ، وايقظه الصوت منتفضاً : كان مستلقياً على ظهره ، مغمض العينين ، وذراعاها لاصقتان بجسمه ، وكان قد خسر الحرب ، ولم يذكر جيداً ايان كان ، ولكن كان يعلم انه قد خسر الحرب .
قال شارلو بحوية :

– الى اليمير ، قلت لك هناك فوق الاشجار تماماً . ترى ، اليس .
لك عينان في ثقبك ؟ .

وسمع ماتيو صوت نيبير الهادىء . وقال نيبير :

– آه .. آه .. هكذا .. هكذا ! .

اين نحن ؟ في العشب . ثمانية مدنيين في الحقول ، ثمانية مدنيين .
باللباس العسكري تغطى كل اثنين منهم اغطية الجيش ، وكلهم
نائمون على شراع خيمة وسط حديقة فاكهة ، لقد خسرنا الحرب ،
استودعونا اياها فخسرناها . لقد تسالت من بين اصابعهم ، وانطلقت
تخسر نفسها في ضجيج ، في مكان ما من الشمال .

– آه .. هكذا .. هكذا ..

وفتح ماتيو عينيه فرأى السماء ، وكانت رمادية متألثة من غير
سحاب ، ولا عمق ، لا شيء الا الغياب . وكان صباح يتشكل فيها
بهدوء ، قطرة نور تكاد تسقط على الأرض وتغمرها بالذهب . ان
الألمان في باريس ، وقد خسرنا الحرب . بداءة ، صباح . صباح
العالم الأول ، كجميع الاصبحة : كل شيء للصنع ، والمستقبل كله
كان في السماء . واخرج يداً من تحت الغطاء فحك اذنه : انه مستقبل
الآخرين . في باريس ، كان الالمان يرفعون عيونهم نحو هذه السماء ،
فيقرأون فيها نصرهم ونتائجه . اما انا ، فليس لي بعد من مستقبل .
وكان حرير الصبح يلامس وجهه ، ولكنه كان يشعر بازاء جنبه
الايمن حرارة نيبير ، وبازاء فخذه اليسرى حرارة شارلو . سنوات
اخرى للعيش : سنوات للقتل . هذا النهار المنتصر الذي يبزغ ريح
صبح شقراء في شجر الحور ، وشمس ظهر على سنابل القمح ، وعطر
ارض ساخنة في المساء ، يجب قتله تفصيلاً ، دقيقة بعد الاخرى ، فعندما
يهبط الليل ، سوف يأسرنا الالمان . وتضخم صوت الازيز ، ورأى
الطائرة في الشمس المشرقة ، وقال شارلو :

.. انها ايطالية .

واطلقت اصوات نائمة شتائم نحو السماء ، كانوا قد الفوا قافلة الطائرات الالمانية اللامبالية ، وحربا وقحة ثرثرة غير مؤذية : تلك كانت (حربهم) . اما الطليان فلم يكونوا يلعبون اللعبة : كانوا يلقون قنابل . وقال لوبرون :

.. ايطالية ؟ آه .. اني اصدقك تماما .. فانت لا تسمع المحرك كيف يدور بانتظام . هذه طائرة مستر شميدت ، نعم ، طراز ٣٧ . فحدث انفراج تحت الاغطية وابتسمت الوجوه المقلوبة للطائرة الالمانية . وسمع ماتيوي بضعة انفجارات مخنوقة ، وتشكيات في السماء اربع غيوم مستديرة .

قال شارلو :

.. يا للحمقى ! . ها هم الآن يطلقون النار على الالمان ..

وقال لونجان مغتاظا :

.. ان هذا عمل يقودنا الى المذبحة .

واضاف شوارتز في ازدياء :

.. حمقى لم يفهموا بعد .

وحدث انفجاران آخران ، وظهرت غيمتان قطنيتان مظلمتان فوق

شجر الحور .

وردد شارلو :

.. يا للحمقى . يا للحمقى .

وكان بينيت قد انتصب مستندا الى مرفقه . وكان وجهه الباريسي

الصغير الجميل مورداً نضراً ، وكان ينظر الى رفاقه في صلف ، وقال

في جناء :

.. انهم يقومون بمهنتهم .

وهز شوارتز كتفيه :

— وما جدوى هذا ، الآن ؟
وكانت المدفعية المضادة للطائرات قد صمتت : وكانت الغيوم تتبدد ،
ولم يكن يُسمع بعد الا ازيز منتصر ومنتظم . وقال نيبير :
— انني لا اراهم بعد .

— بلى ، بلى : هناك ، باتجاه طرف اصبعي .
وخرج عود ابيض من الارض مصوباً نحو الطائرة : كان شارلو
ينام عارياً تحت الغطاء ، وقال الرقيب بيارنيه بصوت قاق :
— الزم الهدوء ، فسوف تهديهم الينا .
— اي كلام .. انه في هذه الساعة يظننا قرنيطاً ..

ومع ذلك فقد ادخل ذراعه ، وحين مرت الطائرة فوق رأسه ،
تابع الرفاق بعيونهم باسمين قطعة الشمس الصغيرة هذه ، خراء لامعة :
كانت تلك تسلية الصباح ، الحادثة الاولى ذلك النهار . وقال لوبيرون :
— انها تقوم بنزهتها الصغيرة المشهية .

كانوا ثمانية قد فقدوا الحرب ، خمسة امناء سر ، ومراقبين ،
واخصائياً بالاحوال الجوية ، مضطجعين جنباً الى جنب وسط الكرات
والجزر ، لقد خسروا الحرب كما يخسر المرء وقته : من غير ان يشعر
بذلك . ثمانية : شوارتز المرصص ، ونيبير موظف البنك ، لوتجان قاطع
التذاكر ، ولوبيرون السمسار ، وشارلو روكلو بائع المظلات ، وبينيت
المراقب في المترو ، والاستاذان : ماتيو وبيارنيه . وكانوا قد قضوا
تسعة اشهر في ضجر ، تارة بين الصنوبر ، وطوراً في كروم العنب ،
وذات يوم ، ابلغهم صوت من بورديو هزيمتهم ، ففهموا انهم كانوا
ملذنين . ولامنت يد مرتبكة خد ماتيو ، قالت الى شارلو :

— ماذا تريد ، ايها العنيد ؟
وكان شارلو قد اضطجع على جنبه ، بحيث كان ماتيو يرى خديه
الاحمرين وفمه الكبير ، وقال شارلو بصوت منخفض :

— اود ان اعرف . ترى ؟ هل نسافر اليوم ؟
وكان مظهر قلقى يدور على وجهه الفرح من غير ان ينجح بالاستقرار
في مكان ما .
— اليوم ؟ لا ادري .

وكانوا قد غادروا مورسبرون يوم ١٢ ، وكان قد حدث ذلك
السباق المضطرب ، ثم هذا التوقف المفاجيء .
— ماذا نفعل هنا ؟ . اتستطيع ان تخبرني ؟ .
— يقولون اننا ننتظر جيش المشاة .
— اذا لم يكن بوسع المشاة ان ينسحبوا ، فليس ذلك سبباً يكفي
لان ننتن معهم .

واضاف في تواضع :

— انني يهودي كما تعلم . ولي اسم بولوني .
قال ماتيو بحزن : — اعرف ذلك .
قال شوارتز : — اسكتوا .. اسمعوا ..
وكان ذلك هديرأً مخنوقاً متصللاً . وكان قد استمر امس الاول
وامس ، من الفجر حتى الليل ، ولم يكن احد يعرف من الذي يطلق
وعلام يطلق .

وقال بينيت : — لا بد ان الساعة تقارب السادسة . فبالامس ،
بدأوا في الخامسة وخمس واربعين دقيقة .

ورفع ماتيو معصمه فوق عينيه وقلبه ليستشير ساعته .
— انها السادسة وخمس دقائق . سيكون عجبياً ان نذهب اليوم
(وتثاءب وقال) هيا . . ما يزال امامنا يوم تقضيه في هذا البلد .
وتثاءب الرقيب بيارنيه ايضاً وقال :
— حسناً .. لقد آن ان ننهض .
فلم يتحرك احد . وألمت بهم قطة باقصى سرعتها في خط متعرج

ثم كمنت فجأة ، وبدت مستعدة للوثوب ، ثم نسيت مشروعها فابتعدت
بغير اكتراث وكان ماتيو قد نهض على مرفقه يتابعها بنظره . ورأى
فجأة ساقين مقوستين في عصابتها الجلدية الكاكية ، فرفع رأسه :
كان الملازم الاول اولمان قد انزاع امامهم مشبك الذراعين ، وهو
يتأملهم مقطب الحاجبين ، ولاحظ ماتيو انه لم يكن حالقاً ذقنه : .
— ماذا تفعلون هنا ؟ ماذا تفعلون هنا ، اتكونون مجانين تماماً ؟
ولكن قولوا لي ماذا تفعلون هنا ؟
وانتظر ماتيو بضع لحظات ، واذا لم يجب احد ، قال من غير ان
ينهض :

— لقد فضلنا ان ننام في الهواء الطلق ، يا سيدي الملازم .
— اسمعوا هذا .. مع الطائرات العدو التي تحلق فوق المنطقة ؟ ان
تفضيلكم يوشك ان يكلفنا غالباً : فجديز بهذا ان يسبب قصف الفرقه.
قال ماتيو بصبر :
— ان الالمان يعرفون جيداً اننا هنا ، ما دمنا قد قمنا بجميع
تنقلاتنا في وضح النهار .

فلم يبد على الملازم انه سمع ، وقال :
— لقد سبق ان منعتكم من ذلك ، منعتكم من مغادرة العنبر . ثم
ما هذه الطرق في ان تظلوا مضطجعين بحضرة رئيس لكم ؟
فحدثت حركة صغيرة متثاقلة على سطح الارض ، وجلس الرجال
الثمانية على الاغطية ، ما تزال عيونهم تطرف من النعاس . ووضع
شارلو ، الذي كان عارياً ، منديلا على عورته . وكان الطقس رطباً .
وارتعش ماتيو فبحث عن سترته فيما حوله ليلقيها على كتفيه .
— وانت هنا ايضاً ، يا بيارنيه ؟ الا تشعر بالعار ، وانت صاحب
درجة ؟ ينبغي ان تعطي الامثلة .
فقرص بيارنيه شفتيه من غير ان يجيب .
وقال الملازم :

— هذا لا يُصدّق ... ولكن، هل تشرحون لي لماذا غادرت العنبر؟
كان يتكلم من غير اقتناع ، وبصوت عنيف ضجر ، وكان تحت
عينيه دوائر مزرقّة ، وكان لونه النضر مغتلاًماً .
— كنا نشعر بحرّ لا تطاق ، يا سيدي الملازم ، فلم نكن نستطيع
النوم .

— حرّ لا يطاق ؟ إلامَ تحتاجون ؟ الى غرفة نوم مكيفة ؟ سأرسلكم
هذه الليلة لتناموا في التسريب . مع الآخرين . اتراكم لا تعرفون
اننا في حالة حرب ؟

فأشار لونجان اشارة بيده، وقال بيسمة غريبة :

— لقد انتهت الحرب ، يا سيدي الملازم .
— انها لم تنته ، ويجب ان تشعر بالعار ، اذ تقول انها انتهت ،
حين يكون هناك شبان صغار يعرضون انفسهم للموت على بعد ثلاثين
كيلو متراً من هنا ليعطونا .
— يا للمساكين .. انهم يؤمرون بان يواجهوا الموت ويُقتلوا ، بينما
يُوقّع علي الهدنة .

فاحمرّ الملازم احمراراً شديداً.

— على كل حال ، انتم ما تزالون جنوداً. فما لم تعادوا الى بيوتكم
تظلون جنوداً وتطيعون رؤساءكم .

فسأل شوارتز : — وحتى في معسكرات الاعتقال ؟

فلم يجب الملازم . كان ينظر الى الجنود في خجل محقّر ، وكان
الرجال يبادلونه نظرة في غير ما انزعاج ولا نفاد صبر : انهم يكادون
يتمتعون باللذة الجديدة ان يحسوا انفسهم مخيفين . وبعد لحظة ، هز
الملازم كتفيه واستدار على عقبيه ، وقال من فوق كتفه :
— تفضلوا بالنهوض سريعاً .

وابتعد مستقيماً ، بخطوة راقصة . وفكر ماتيو : « رقصته الاخيرة »
بعد ساعات يطردها الرعاة الالمان جميعاً نحو الشرق ، في هوشة من

غير تمييز للرتبة . «
وتشاءب شوارتز وبكى ، واشعل لونجان سيجاراً ، وكان شارلو
ينزع العشب ركاما من حوله . كانوا جميعاً يخافون ان ينهضوا . وقال
لوبيرون :

– هل رأيتم ؟ لقد قال : سوف ارسلكم لتناموا في التدريب .
هذا يعني اننا لن نذهب .

قال شارلو : – لقد قال ذلك هكذا . فهو ليس ادرى منا بالامر .
وانفجر الرقيب بيارنيه فجأة ، متسائلا :

– من الذي يدري اذن ؟ من الذي يدري ؟
فلم يجب احد ، وبعد لحظة ، قفز بينيت على قدميه ، وسأل :
– هل نغتسل ؟

فقال شارلو متاثبا : – اني شخصياً موافق .
ونهض ، وكذلك نهض ماتيو والرقيب بيارنيه . وصاح لونجان :
– الطفل كادوم ..

كان شارلو عارياً متورداً لا شعر في جسمه ، ذا خدين ازهرين ،
تداعب بطنه الصغير البارز اشعة الصباح الشقراء فيشبه اجمل اطفال
فرنسا . وجاء شوارتز خلفه بخطى خفية ، على عادته كل صباح ،
وقال له وهو يدغدغه :

– انت مقشعر ، انت مقشعر ، ايها الطفل ..
فضحك شارلو وصاح وهو يتلوى ، كعادته ، ولكن بمرح اقل ،
والتفت بينيت الى لونجان الذي كان يدخن بعناد :

– الا تأتي ؟
– لماذا ؟
– لتغتسل .

قال لونجان : – طز .. اغتسل؟ ولمن؟ للامان ؟ سوف يأخذونني كما انا .

قال لونيجان : - هيا ... هيا .. كفى !
قال بينيت : - يمكننا ان نفلت منهم .
- اترالك تؤمن ببابا نويل ؟
- حتى ولو كانوا سيأخذونك ، فليس ذلك سبباً يكفي لكي تبقى
قدراً متسخاً .

- لا اريد ان اغتسل من اجلهم .

قال بينيت : - ان ما تقوله سخيف ، سخيف جداً ..
ففقها لونيجان من غير ان يجيب ، وظل مسترخياً فوق الغطاء بهيئة
تعال . ولم يكن لويرون قد تحرك هو ايضاً : كان يتظاهر بالزوم .
واخذ ماتيو قربته واقترّب من الحوض ، وكان الماء يسيل من انبوين
حديدين في الجرن الحجري ، وكان بارداً عارياً كانه بشره . وكان
ماتيو قد سمع طوال الليل همسه المليء ، بالامل ، وتساؤله الطفولي ؛
وغطس رأسه في الحوض ، فاصبحت الاغنية البدائية تلك الطراوة
البكاء النضرة في اذنيه ومنخره ، وهذه الباقية من الورد المبتلة ،
والزهور المائية في قلبه : الحمامات في نهر « اللوار » ، والخيزران ،
والجزيرة الصغيرة الخضراء ، والطفولة . وحين نهض ، كان بينيت
يغسل عنقه بالصابون في غضب ، فابتسم له ماتيو . كان يحب بينيت
كثيراً . وقال بينيت :

- ان لونيجان سخيف حقاً ، اذا جاء الالمان ، فيجب ان نكون
نظيفين .

وادخل اصبعاً في اذنه فاداره بقوة . وصاح به لونيجان من مكانه :

- اذا كنت تحب النظافة الى هذا الحد ، فاغسل ايضاً قدميك .

فرماه بينيت بنظرة شفقة وقال :

- ان الاقدام لا تُتري .

وأخذ ماتيو يخلق ذقنه . وكانت الشفرة مستعملة ، فكانت تحرق

بشرفته : « في الاسر ، سأترك لحيتي تنبت . » وكانت الشمس تنهض ، وكانت اشعتها الطويلة المائلة تحصد العشب ؛ وكان العشب تحت الشجر طرياً نضراً ، فجوة نعاس في جنبي الصباح . وكانت الارض والسماء ممتلئتين بالعلامات ، علامات الامل . وبين اوراق الحور أخذ رف من العصافير يغني ملء حناجره ، مستجيباً لداع غير مرئي ، فكان ذلك أشبه بهبة طلقات نحاسية عنيفة جداً ، ثم صمت فجأة ، بصورة عجيبة . وكان القاق يطوف بالعشب والخضار الكثيفة كما كان يطوف على وجه شارلو ، من غير ان يحط في مكان . ومسح ماتيو شفرته بعناية وأعادها الى قربته . وكانت أعماق قلبه ضالعة مع الفجر والندى والظل ؛ وفي اعماق قلبه كان ينتظر عيداً . لقد نهض باكراً واغتسل كما يفعل يوم العيد . عيد في حديقة ، بمناسبة التناول الاول او بمناسبة عرس ، تدور فيه أثواب جمياء بين العرائش ، عند طاولة قائمة فوق العشب ، يتصاعد حولها طنين الزنابير الثملة بالسكّر . ونهض لوبرون وذهب يبول عند السياج ؛ ودخل لونجان الى العنبر ، وتحت ذراعيه الاغطية ؛ وحين خرج اقرب من الحوض على غير اكرام خفط إصبعه في الماء بهيئة لامبالاة وبطالة . ولم يكن ماتيو بحاجة الى ان ينظر طويلا الى وجهه الممتقع ليحس بأنه لن يكون ثمة عيد ، الآن ، ولا في المستقبل ابداً .

وكان المزارع الشيخ قد خرج من بيته ، وكان ينظر اليهم وهو يمدخن غليونونه ، فقال شارلو :

ـ مرحباً يا بابا !

فقال المزارع وهو يهز رأسه : ـ مرحباً ! نعم ! مرحباً !

وخطا بضع خطوات ثم انزوع أمامهم :

ـ اراكم لم تذهبوا بعد ؟

فقال بينيت بجفاف : ـ كما ترى .

وقهقهه الشيخ ، ولم تكن تبدو عليه الطيبة .
- لقد سبق ان قلت لكم انكم لن ترجعوا .
- هذا ممكن .

وبصق بين قدميه ومسح شاربه :
- والألمان ؟ اتراهم يأتون اليوم ؟
فأخذوا يضحكون ، وقال لوبيرون :
- ربما أتوا وربما لم يأتوا . فنحن مثلك ننتظرهم ؛ ونحن نتجمل
لنستقبلهم .

وكان الشيخ ينظر اليهم بهيئة غريبة ، وقال :
- ولكنكم انتم لستم مثلي . فانكم ستعودون من الأسر .
وسحب نفساً من غليونه وأضاف :
- اما انا ، فاني الزاسي .
قال شوارتز : - نعرف هذا يا بابا . فغير الاسطوانة .
فهزّ الشيخ رأسه وقال :
- ما أعجب هذه الحرب ! ان المدنيين هم الذين يقتلون الآن ،
بينما الجنود ينجون .

- كفى ، كفى ! انت تعلم جيداً انهم لن يقتلوك .
- اقول لك اني الزاسي .
قال شوارتز : - وانا ايضاً الزاسي .
فقال الشيخ - هذا ممكن ؛ ولكني حين تركت انا الالزاس ،
كانت ما تزال لهم .

قال شوارتز : - انهم لن يؤذوك . فهم بشر مثلنا .
قال الشيخ في غيظ مفاجيء :
- مثلنا ؟ خراء ! هل تستطيع انت ان تقطع يدي طفل ؟
فانفجر شوارتز ضاحكاً ، وقال وهو يغمز ماتيوي :
- انه يروي لنا خزعبلات الحرب الماضية .

وأخذ منشفته فمسح بها ذراعيه الضخمتين البارزتي العضلات وقال
موضحاً ، وهو يلتفت الى العجوز :

انهم ليسوا مجانين . سوف يعطونك سجائر ، وشوكولا ، نعم
وهذا ما يسمى بالدعاية ، وليس لك الا ان تأخذها ، فهي لا تُلزمك
بشيء .

واضاف وهو ما يزال يضحك :

— اؤكد لك يا بابا انه من الافضل في يومنا هذا ان تكون من
مواليد ستراسبورغ على ان تكون من مواليد باريس .

فقال المزارع : — لا اريد ان أصبح ألمانياً وانا في هذه السق !
طز ! انني أفضل ان يقذفوني برصاص بنادقهم .

فصفق شوارتز مؤخرته بيده ، وقال مقلداً اياه :

— أسمعونه ؟ طز ! اما انا ، فافضل ان اكون المانياً حياً على

على ان اكون فرنسياً ميتاً :

ورفع ماتيو رأسه باهتمام ونظر اليه ؛ وكان بينيت وشارلو ينظران
اليه ايضاً . وكف شوارتز عن الضحك ثم احمر وهز كتفيه . وصرف
ماتيو عنه عينيه ؛ ولم يكن لديه ميل ليمثل دور القضاة ، ثم انه كان
يحب هذا الشخص الكبير السمين ، الهاديء ، الذي يقاوم الشقاء ؛ ولم
يكن يريد ان يزيده اضطراباً بأي ثمن . ولم يكن احد ينبس بكلمة ؛
وهز الشيخ رأسه وأجال فيما حوله نظراً حقوداً . ثم قال :

— آه ! كان ينبغي ألا تخسر هذه الحرب . كان ينبغي الا تخسر .

وصموا ! وسعل بينيت ، واقترب من الحوض فأخذ يجس البصنوبر
جساً بليداً . وأفرغ الشيخ غليونه على الحصى ، ونكث الارض بعقبه
ليدفن الرماد ، ثم أولاهم ظهره وعاد بخطى بطيئة الى منزله . وساد
صمت طويل ؛ كان شوارتز واقفاً بصلاية ، متباعد الذراعين . وبعد
لحظة بدا انه يستيقظ ، فضحك بمشقة :

— لقد قلت ذلك سخريةً به .

لا جواب : كان الجميع ينظرون اليه . ثم فجأة ، ومن غير ان يتغير شيء في الظاهر ، تطامن شيء ما ، فحدث انفراج ، نوعٌ من التبعض الجامد ؛ فانهارت الجماعة الصغيرة الغاضبة التي كانت قد تشكلت حوله ؛ لقد اخذ لونجان ينظف اسنانه بمديته ، وتنحنح لوبيرون ، وأخذ شارلو يدمدم بنظرة بريئة : انهم لم يكونوا ينجحون في الاستمرار على غضب ، الا اذا كانت القضية قضية استئذان او طعام . وتنسم ماتيو فجأة عطر نعناع وافستين : كانت الاعشاب والزهور تستيقظ ، بعد العصافير ، فتلقي عطورها كما ألقت تلك غناءها ؛ وفكر ماتيو : « هذا صحيح ، هنا ايضاً الروائح . » روائح خضراء مرحة ، ما تزال نافذة وحامزة : انها ستصبح مسكرةً اكثر فأكثر ، وستزداد ثراءً وانوثةً ، ما ازرقّت السماء واقربت المركبات الالمانية . ونشق شوارتز بقوة، ونظر الى المقعد الخشبي الطويل الذي سبق لهم ان جروه في الليلة السابقة وأسندوه الى جدار البيت وقال :

— حسناً ، حسناً ، حسناً .

وذهب يجلس على المقعد . وترك يديه تتدليان بين ركبتيه ، وقوس كتفيه ، ولكنه كان يحتفظ بارتفاع رأسه وينظر امامه باستقامة نظرة قاسية . وتردد ماتيو لحظةً ، ثم لحق به وجلس الى جانبه . وبعد حين ، انفصل شارلو عن الجمع وانزع امامهما . ورفع شوارتز رأسه ونظر الى شارلو في جدّ ، وقال :

— يجب ان اغسل ثيابي .

وساد صمت ، وكان شوارتز ما يزال ينظر الى شارلو .

— لست انا الذي خسرها ، هذه الحرب ...

وكان يبدو الانزعاج على شارلو ، واخذ يضحك . ولكن شوارتز

كان يتابع فكرته :

– لو ان الجميع عملوا مثلي ، فلربما كنا ربناها . فليس لي ما
اؤاخذ به نفسي .
وحكّ خده بهيئة اندهاش وقال :
– إن هذا لطريف !

وفكر ماتيو : هذا طريف ، أجل ، طريف . انه ينظر في الفراغ
ويفكر : « انا فرنسي » فيجد ذلك طريفاً للمرة الاولى في حياته .
« هذا طريف » اننا لم نر « فرنسا » قط : وانما كنا في داخلها ،
لقد كانت ضغطة الهواء ، وجاذبية الارض ، والفضاء ، والرؤية
واليقين الهاديء بأن العالم قد مُخلق للانسان ؛ وقد كان طبيعياً جداً ان
يكون فرنسياً ، فتلك هي ابسط الوسائل واوفرها ليُحسّ نفسه عالمياً .
لم يكن ثمة شيء للشرح : فقد كان على الآخرين ، على الالمان ،
والانكليز ، والبلجيكين ان يشرحوا سوء حظهم او غلطتهم بأن لا
يكونوا رجالاً تماماً . لقد انقلبت فرنسا الآن على قفاها، ونحن نراها ،
نرى آلةً كبيرة معطلة ونفكر : هذا ما كان . « هذا » : حادث
ارضي ، حادث تاريخي . اننا ما نزال فرنسين ، ولكن هذا ليس
طبيعياً بعد . فقد كان حادث واحد كافياً ليجعلنا نفهم اننا كنا عارضين .
ان شوارتز يفكر بأنه عارض ، وهو لا يفهم نفسه بعد ، وهو مرتبك
مع نفسه ؛ انه يفكر : كيف يمكن ان نكون فرنسين ؟ هو يفكر :
« لو كان لي بعض الحظ لُولدت المانياً . » واذ ذاك يتخذ هيئة
القسوة ويرهف اذنه لسمع وطنه البديل يتدحرج نحوه ؛ انه ينتظر
الجيش اللامعة التي ستقيم له العيد ، ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان
يستبدل بهزيمتنا نصرهم ، اللحظة التي يبدو له فيها « طبيعياً » ان يكون
منتصراً ومانياً .

ونفض شوارتز وهو يتشاءب ، وقال :
– هيا ، سوف اغسل ثيابي .

فاستدار شارلو ولحق بلونجان الذي كان يتحدث مع بينيت . وظل
ماتيو وحيداً على مقعده .

وتثاءب لويرون بدوره في صخب ، ثم قال :

— ما أشد ما ينزعج المرء هنا .

وتثاءب شارلو ولونجان . ونظر اليهما لويرون يتثاءبان ، فتثاءب من

جديد ، وقال :

— إن ما ينقصنا هو ماخور .

فسأله شارلو في غيظ :

— هل تستطيع ان تضاجع في الساعة السادسة صباحاً ؟

— انا ؟ في اية ساعة أستطيع .

— اما انا ، فلا . ليست رغبتني في المضاجعة أشدّ منها في تلقي

الركلات في المؤخرة .

وقهقه لويرون :

— لو كنت متزوجاً لتعلمت ان تفعل ذلك بلا رغبة ! والأمر

الحسن حين تضاجع هو انك لا تفكر بشيء .

وصمتوا . وكانت شجرات الحور ترتعش ، وكانت شمس قديمة

ترتجف بين أوراقها ؛ وفي البعيد كان يسمع هدير القصف الطيب ،

ذلك الهدير الذي كان يوماً قوياً جيداً ومطمئناً جداً حي ليُظنّ أنه ضجّة

للطبيعة . وانقلب شيء ما في الهواء ، فسقط بينهم زنبور سقطة طويلة

مطاطة . وقال لويرون :

— اسمعوا !

— ماذا ؟

كان قد ساد حولهم نوعٌ من الفراغ ، هدوء غريب . كانت

العصافير تغرد ، وكان ديكٌ يصيح في القنّ ؛ وفي البعيد ، كان ثمة

من يضرب ضربات منتظمة على قطعة من حديد ، ومع ذلك ، فقد

كان هذا السكون : كان القصف قد انقطع .

قال شارلو :

— هيه ! هيه ! ولكن اسمعوا !

— نعم .

وكانوا مرهفين آذانهم من غير ان يكفّوا عن تبادل النظر . وقال

بيارنيه في لهجة محايدة :

— سيبدأ الأمر هكذا . وذات لحظة يشمل الصمت كل الجبهة .

— اية جبهة ؟ ليس هناك من جبهة .

— أقصد كل مكان .

ونخا شوارتز في نخجل خطوة نحوهم وقال :

— اظن انه لا بدّ اولاً من اطلاق صوت بوق .

قال نيبير : — طز ! ليس ثمة من اتصالات بعد : ربما يكونون قد

وقّعوا الهدنة منذ اربع وعشرين ساعة ، بينما نحن لا نزال ننتظرها هنا !

فقال شارلو وهو يضحك املاً :

— لعل الحرب قد انتهت منذ منتصف الليل . إن « وقف اطلاق

النار » يكون دائماً في منتصف الليل .

— او عند الظهر .

— ولكن لا ، ايها العنيد ، بل في منتصف الليل : في الساعة

الصفير ، أنفهم ؟

قال بيارنيه : — ولكن اصمتوا قليلاً .

فضمّمتوا . وكان بيارنيه يرهف سمعه وعلى وجهه علامات عصبية ؛

وظل شارلو فاغر القم ؛ كانوا يستمعون الى « السلام » ، عبر السكون

الصّاج . سلام بلا مجد ولا قرع أجراس ، بلا طبول ولا أبواق ،

سلام يشبه الموت .

قال لوبرون : — خراء !

وكان الهدير قد عاد : ولكنه كان يبدو أقرب وأكثر تهديداً .
وشبك لونجان يديه الطويلتين وفرقع أصابعه . وقال في مرارة :
— ولكن ، يا إلهي ، ماذا ينتظرون . ؟ اتراهم يجدون اننا لم نقاتل
بما فيه الكفاية ؟ ولم نفقد من الرجال عدداً كافياً ؟ أينبغي ان تهلك
فرنسا هلاكاً كاملاً حتى يصمتوا على وقف المذبحة ؟

كانوا موهونين وأعصابهم ثائرة ، مغتاظين في الضعف ، ذوي لون
رصاصي هو الذي يخلّفه سوء الهضم . كان حسبهم ان يسمعوا هدير
طبل في الأفق لتسقط عليهم من جديد موجة الحرب الكبيرة . والتفت
بينيت فجأة الى لونجان ، فأذا عيناه تقدحان العاصفة ، واذا يده متشنجة
على حافة الحوض :

— أية « مذبحه » ، أليس كذلك ؟ أية مذبحه ؟ أيان كانوا ،
القتلى والجرحى ؟ اذا كنت قد رأيتهم ، فذلك لأنك محظوظ . اما
انا ، فأني لم أر إلا ضراً طين مثلك يركضون في الطرق وهم يرتعشون
ذعراً .

وسأل لونجان في تعطف مسموم :

— ولكن ما بك ايها العنيد ؟ هل تشكو شيئاً ؟

ورمى نحو الآخرين بنظرة ضالعة :

— لقد كان صاحبنا بينيت فتى صغيراً طيباً ، وكنا نحبه لأنه كان
مثلنا في المؤخرة ، ولم يكن هو الذي يتقدم الصف حين كانوا يطلبون
متطوعاً . فالمؤسف ان يبدأ بقدّ المراحل عند انتهاء الحرب .

وتطاير الشرر من عيني بينيت وقال :

— انني لا أقدّ المراحل ، ايها الفرّج الأحمق !

— بلي ، تقدّ المراحل ! تريد ان تمثل دور الجندي الصغير .

— هذا أفضل من أن أخراً مثلك في لباسي .

— انتم تسمعونه : انني اخراً في لباسي لأنني اقول بأن الجيش الفرنسي

- قد اسلم ساقيه للريح .
- فسأله بينيت وهو يتمم من الغضب :
- هل انت واثق من ان الجيش الفرنسي أسلم ساقيه للريح ؟ ايكون ويغان قد كشف لك أسراره ؟
- فابتسم لونجان بسمه وقحة متعبة :
- لا حاجة الى اسرار ويغان : إن نصف القوات في حالة هزيمة ، والنصف الآخر محاصر في مكانه : ألا يكفيك هذا ؟
- فكنس بينيت الهواء بحركة قاطعة :
- سوف نتجمع ثانية على ضفاف اللوار ، فلتلقي بجيوش الشمال في « سومور » .
- أتعقد بذلك انت ، ايها النابغة ؟
- بل قاله لي الكابتن . فليس لك الا ان تستخبر في « فونتينا » .
- اذا كان الامر كذلك ، فعلى جيوش الشمال ان تتدبر امرها ، لأن الالمان في مؤخرتها كما تعلم . اما فيما يخصنا ، فانه يدهشني ان نصل في الموعد المحدد .
- وكان بينيت ينظر الى لونجان من تحت ، منخفض الجبين ، وهو يصفر ويضرب الارض بقدمه . وهز كتفيه بعنف كما لو انه يريد ان يتخلص من حشد ثقيل . وانتهى به الامر الى القول ، وهو غاضب مدعور :
- حتى ولو تراجعنا حتى مارسيليا ، حتى ولو اجتزنا فرنسا كلها ، فتبقى امامنا افريقيا الشمالية .
- وشبك لونجان ذراعيه وابتسم في ازدراء :
- ولماذا لا تقول جزيرة « سان – بيار – ايمكيلون » ايها الغبي ؟
- قال بينيت وهو متجه اليه :
- أتخسب نفسك قوياً ؟ قل ، أتخسب نفسك قوياً ؟

فارتقى شارلو بينها يقول :

- كفى ! كفى ! أظنكم لنا تتنازعا ؟ إن الجميع متفقون على ان الحرب لا تجدي شيئاً وانه يجب الانقطاع عن القتال (وأضاف بلهجة اقتناع حارة) يجب الانقطاع عن القتال الى الابد .

وكانوا جميعاً ينظرون اليه نظرة عميقة فيما كان يرتجف من الحماسة ، حماسه ان يوفق بين كل شيء : بين بينيت ولونجان ، وبين الالمان والفرنسيين . وما لبث ان اضاف بصوت يكاد يكون مبتهلاً :

- مهما يكن ، فينبغي ان نستطيع التفاهم معهم ، فهم على كل حال لا يريدون ان يلتهمونا .

فحوّل بينيت اليه غضبه قائلاً :

- لئن خسرنا الحرب ، فلأن امثالك مسؤولون عنها .

وكان لونجان يقهقه :

- هذا شخص آخر لم يفهم ، ذلك كل ما في الامر .

وساد صمت ، ثم التفتت الرؤوس جميعاً الى ماتيو على مهل . وكان يتوقع ذلك : فقد كانوا، اثر كل نقاش، يطلبونه للتحكيم لأنه كان ذا ثقافة . وسأله بينيت :

- ما رأيك في الامر ؟

فخفض ماتيو رأسه ولم يجب .

- هل انت أصم ؟ اننا نسألك رأيك ؟

قال ماتيو : - ليس لي من رأي .

واجتاز لونجان الممر وانزوع امامه :

- غير ممكن ! فالاستاذ شخص يفكر طوال الوقت .

- ولكنك ترى : ليس طوال الوقت .

- مهما يكن من امر ، فلست غيبياً : انك تعلم جيداً ان المقاومة

مستحيلة .

– كيف لي ان اعرف ذلك ؟
واقرب بينيت بدوره . فكانا يقفان الى جانبي ماتيو كملكه
وشيطانه . وقال بينيت :

– انت لست انهزامياً يائساً ، ولا يمكن ان ترغب بأن يضع
الفرنسيون السلاح قبل ان يقاتلوا حتى النهاية !
فهز ماتيو كتفيه :

– لو كنت « انا » الذي يقاتل ، لأمكن ان يكون لي رأي . ولكن
الواقع ان الآخرين هم الذين يتساقطون ، وسوف يقاتلون على اللوار :
فليس بوسعي ان اقرر بدلاً منهم .

قال لونجان وهو يتأمل بينيت بهيئة هازئة :

– اسمع جيداً : ان الانسان لا يقرر الحرب بدلاً من الآخرين .
وكان ماتيو ينظر اليهما في قلق :

– اني لم أقل هذا .

– كيف لم تقل ذلك ؟ لقد قلته منذ لحظة .

قال ماتيو : – اذا كان ثمة حظ ما ، ولو كان حظاً صغيراً جداً ...
– وإذن ؟

فهز ماتيو رأسه :

– ولكن انى لنا ان نعرف ؟

فسأل بينيت : – ولكن ماذا يعني هذا ؟

فقال شارلو موضحاً :

– هذا يعني انه لن يبقى لنا الآن إلا أن ننتظر ، وألاً نقلق بعد

أكثر مما ينبغي :

فصاح ماتيو : – كلا ! كلا !

ونفض فجأة وهو يحرق الأرم :

– اني انتظر منذ طفولتي .

وكانا ينظران اليه من غير ان يفهما ؛ ونجح في ان يهدى نفسه ،
وقال لهما :

— ماذا يجدينا ان نقررّ او لا نقررّ ؟ فنذا الذي يطلب رأينا ؟
اتراكما مدركين وضعنا ؟

فراجعوا مدعورين ، وقال بينيت :

— كفى ، كفى ، اننا نعرفه .

— قال لونيان : — انت على حق ، فالعسكري البسيط لا رأي له .

فاستفزع ماتيو بسمته الباردة الدبقة ، وأجاب بجفاف :

— وأسوأ من ذلك وضع الأسير .

« كل شيء » يطلب منا رأينا . « كل شيء » واستفهام كبير
يحصرننا : إن هذه دعاية . انهم يطرحون علينا السؤال كما يطرحونه
على رجال ؛ انهم يريدون ان يقنعونا بأننا ما زلنا رجالاً . ولكن لا ،
لا ، لا ! أية دعاية ، ظلُّ هذا السؤال يطرحه ظلُّ حرب ، على
مظاهر رجال .

— ماذا يجديك ان يكون لك رأي ؟ فلست انت الذي ستقررّ .

وصمت . وفكر فجأة : لا بدّ من العيش ، لا بد من ان يعيش
وان يقطف يوماً فيوماً ثمار الهزيمة المتعفّنة ، وان يُحوّل هذا الاختيار
الكلي الذي يرفضه اليوم الى هزائم بالتفصيل . ولكني يا إلهي ، لم
اكن اريدها انا ، هذه الحرب ، ولا هذه الهزيمة ، فبأي تزوير
يقسروني على ان اتحملها ؟ وشعر بغضب حيوان وقع في الشباك يملأ
نفسه ، واذ رفع رأسه ، رأى هذا الغضب نفسه يلتمع في عيونهما .
ليتهم يصرخون في وجه السماء جميعاً : « لا شأن لنا قط بهذه الحكايات
كلها ! اننا ابرياء ! » وتلاشى اندفاعه : كانت البراءة تشع بكل تأكيد
في الشمس الصباحية ، وقد كان بالامكان لمسها على اوراق العشب
ولكنها كانت تكذب : فالبراءة الحقيقية هي هذه الغلطة المشتركة التي

لا يمكن لمسها ، « غلطتنا » . شبح حرب ، شبح هزيمة ، وشبح إثم . ونظر الى بينيت ولونجان وهو يفتح يديه : لم يكن يعرف اذا كان يريد ان يساعدهما ام يطلب منها المساعدة . ونظرا اليه ايضاً ثم لفتا رأسيهما وابتعدا . وكان بينيت ينظر الى قدميه ؛ وكان لونجان يبتسم لنفسه بسمة مرتبكة صلبة ؛ وكان شوارتز في ركن مع نيبير يتحدثان بالالزاسية ، ويكتسبان هيئة المشاركين الضالعين ؛ اما بيارنيه فكان يفتح يده اليمنى ويغلقها بحركة تشنجية . وفكر ماتيو : « هذا هو ما صرنا اليه وأصبحناه . »

مارسيليا ، الساعة ١٤

طبعاً ، كان يشجب الحزن « بقسوة » ، ولكن من يسقط فيه بحاجة الى الشيطان ليخرجه منه . وفكر « لا بد ان لي طبعاً شقيماً . » كان له كثير من المبررات لكي يبتهج : وكان بوسعه خاصة ان يهنيء نفسه بأنه قضى على الصفاق وشفي منه . ولكن بدلاً من ذلك كان يفكر : « ما زلت حياً » ويأخذه الاسباب . اذا ما كان الانسان حزينا ، فان اسباب الابتهاج هي التي تصبح حزينة ، فاذا هو يبتهج بحزن . وفكر : والواقع اني ميت . اذا كان الامر متعلقاً به ، فهو قد مات في « سيدان » في شهر ايار . والمصيبة هي كل هذه السنوات التي تبقى له ليعيشها . وتنهى من جديد ، وتابع بنظره ذبابة كبيرة خضراء كانت تمشي على السقف وانتهى الى التقرير : اني انسان قليل الذكاء . وكانت هذه الفكرة تزعجه بعمق . وكان بوريس حتى ذلك الحين قد اختط لنفسه ألا يتساءل قط عن ذاته ، وكان من ذلك في حالة رضى تام ؛ ومن جهة اخرى ، فما دامت القضية تقتصر على ان يعرض نفسه للقتل ، فإنه ليس ذا أهمية كبيرة ان يكون قليل الذكاء ،

بل على العكس ، إن ما يؤسف عليه كان أقل . اما الآن فقد تغير كل شيء : انه مرصود للحياة ، وقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لم يكن يملك غاية ولا موهبة ولا مالا . وبالاجمال ، لم يكن يملك اي مزية مطلوبة ، ما عدا الصحة طبعاً . وفكر : ما أشد ما سأضجر ! واستشعر الحيبة . وطارت الذبابة وهي تطن ، وأمر بورييس يده تحت قميصه ولامس الجرح الذي كان يسطر بطنه ، على مستوى الاربية ؛ وكان يجب ان يحس تحت أصابعه بذلك المجرى اللحمي . وكان ينظر الى السقف ، ويلامس جرحه ، فيحس قلبه ثقيلاً . ودخل «فرانسيون» الى القاعة ، فاتجه الى بورييس على غير عجل ، بين الأسرة الفارغة ، ثم توقف فجأة ، متظاهراً بالدهشة ، وقال :

- كنت ابحث عنك في الباحة .

فلم يجب بورييس ؛ وشبك فرانسيون ذراعيه في غيظ :
- انها الساعة الثانية بعد الظهر ، ولا تزال في السرير !
فقال بورييس :

- هل انت مهموم ؟
- لست مهموماً :

فقال فرانسيون : - لا تحزن ، لا بد ان يزول ذلك .
وجلس على سرير بورييس واخذ يلف سيجارة . وكان لفرانسيون عينان كبيرتان جاحظتان وأنف شبيه بمنقار نسر ؛ وكان يبدو مريعاً .
غير أن بورييس كان يحبه كثيراً ، وكان حسبه احياناً ان يراه حتى يضحك ضحكاً جنونياً . وقال فرانسيون :

- بقي لنا قليل .

- كم ؟

- اربعة .

فعد بورييس على أصابعه :

- اي يوم ١٨ .
 فهمهم فرانسويون علامة الاقرار ، ولخص الورقة المصمغة واشعل
 السيكاره ، ثم انحنى على بوريس يساره :
 - أليس ثمة احد هنا ؟
 كانت جميع الأسرة خالية : فقد كان الأشخاص في الباحة او في
 المدينة . قال بوريس :
 - انت ترى .. الا ان يكون هناك جواسيس تحت الأسرة .
 فازداد فرانسويون انحاءً وأوضح قائلاً :
 - في ليلة ١٨ ، يكون دور « بلين » في الخدمة . وستكون الطائرة
 على المدرج مستعدةً للاقلاع ، وهو يدخلنا عند منتصف الليل لنقلع في
 الساعة الثانية . وفي الساعة السابعة نكون في لندن . ما رأيك في ذلك !
 ولم يكن بوريس ليقول شيئاً . كان يجسّ جرحه ويفكّر . انهم
 محظوظون . ثم يشعر بمزيد من الحزن . سوف يسألني عما صممت عليه .
 - ماذا ؟ ماذا ؟ ما رأيك في ذلك ؟
 قال بوريس : - رأيي انكم محظوظون .
 - كيف ، محظوظون ؟ ما عليك إلا أن تأتي معنا . ولن تقول
 اننا لم نطلب منك ذلك .
 قال بوريس : - لا ، لن اقول هذا .
 - طيب ، فاذا قررت ؟
 فقال في أسى : - لم أقرر شيئاً .
 - انك لن تبقى مع ذلك في فرنسا ؟
 - لا ادري .
 فقال فرانسويون بلهجة مصدومة :
 - إن الحرب لم تنته ، والذين يقولون انها انتهت جبناء كذابون .
 يجب ان تكون حيث يجري القتال ، ولا يحق لك ان تبقى في فرنسا .

قال بوريس بمرارة : - تقول هذا لي انا !
 - واذن ؟
 - إذن ، لا شيء . انني انتظر رفيقة ، كما اخبرتك . وسأقرر
 بعد ان أراها .
 - ليس ثمة من رفيقة هنا : فهذه قضية رجال .
 قال بوريس بجفاف : - الامر كما ذكرت لك .
 فبدأ الخوف على فرانسويون وصمت . لعله سيظن انني خائف؟ وتأمله
 بوريس في عينيه ليتحقق ، ولكن فرانسويون وجه له بسمة واثقة اعادت
 له اطمئنانه .
 وسأل بوريس : - تصلون في الساعة السابعة ؟
 - في الساعة السابعة .
 - لا بد انها رائجة ، شواطيء انكلترا عند الصباح . ان هناك
 جروفاً كبيرة بيضاء من جانب « الدوفر » .
 قال فرانسويون : - آه !
 قال بوريس : - لم يسبق لي قط ان ركبت الطائرة .
 وحب يده من تحت قميصه وأضاف :
 - هل يتفق لك انت ان تحكّ جرحك ؟
 - لا .
 - انني أحكته طوال الوقت : وهذا يزعجني .
 قال فرانسويون : - بالنظر الى موضع الجرح عندي ، فمن الصعب
 ان أحكته امام الناس .
 وساد صمت ، ثم استطرد فرانسويون :
 - متى تأتي رفيقتك ؟
 - لا ادري ، كان المفروض ان تأتي من باريس ، فتأمل !
 قال فرانسويون : - يجب ان تحرك مؤخرتها ، لأننا نحن الآخرين

لا نستطيع الانتظار .

فتنهـد بوريس وانقلب على بطنه . وتابع فرانسـيون بلهجة مجردة :
- اما رفيقتي ، فلا أُطلعها على شيء ، ومع ذلك أراها كل يوم . وفي المساء الذي نـسافر فيه ، سأترك لها كلمة ، وحين تتسلمها ، نكون قد اصبحنا في لندن .

فهزت بوريس رأسه من غير ان يجيب . وقال فرانسـيون :

- انك لتدهشني ! يا سرغين ، انك تدهشني !

قال بوريس : - انك لا تستطيع ان تفهم .

فصمت فرانسـيون ومدت يده فتناول كتاباً . سيمرون فوق جروف
الدوفر عند الصباح . ولم يكن ينبغي التفكير في ذلك : ان بوريس لم
يكن يؤمن ببابا نويل ، فهو واثق من ان لولا ستقول لا . وقرأ
فرانسـيون :

- « الحرب والسلم » . ما هذا ؟

- رواية عن الحرب .

- حرب ١٤ ؟

- كلا . حرب اخرى . ولكن الامور متشابهة .

قال فرانسـيون ضاحكاً : - نعم الامور متشابهة .

وكان قد فتح الكتاب على صفحة واخذ يقرأ مقتطباتاً حاجبيه في هيئة
اهتمام مؤلم .

وتداعى بوريس للسقوط على سريره . كان يفكر : اني لا أستطيع
ان « افعل » لها ذلك ، لا أستطيع ان اذهب للمرة الثانية من غير ان
اسألها رأيا . وفكر : واذا كنت ابقى من أجلها ، فسيكون هذا دليل
حب وفكر : آه ! كفى ! كفى ! دليل عجيب للحب . ولكن
هل كان يحق للمرء البقاء من أجل امرأة ؟ لو سئل فرانسـيون وغايل
لأجابا نقياً ، ولكنها كانا صغيري السن اكثر مما ينبغي ، ولم يكونا

يعرفان ما عساه يكون الحب . وفكر بوريس : إن ما كنت اودّ ان
يقال لي ، ليس ما عساه يكون الحب : فأتما يُدفع لي لأعرفه، ولكن
كنت اود ان أعلم قيمة ذلك . هل يحق للمرء ان يبقى لكي يُسعد
امرأة ؟ اذا عرضت القضية على هذا النحو ، كان جوابي نفياً . ولكن
أبحث لنا ان نذهب ، اذا كان ذلك يشقي كائناتنا آخر ؟ وكان يتذكر
عبارة لماتيو : « انني لست جباناً بما فيه الكفاية حتى أخشى ان أعذب
اذا لزم الأمر . » نعم ، بكل تأكيد : ولكن ماتيو كان دائماً يفعل
عكس ما كان يقول ؛ انه لم يكن يملك الجرأة قط على ابداء
الناس . وتوقف بوريس ، وقد انقطع نفّسه : واذا لم يكن الامر إلا
ضرباً من العناد ؟ اذا كانت رغبتني في الذهاب قد أملت انانية الصرف
والخوف من الانزعاج في الحياة المدنية ؟ ربما كنت شخصاً مغامراً ،
وربما كان من الاسهل ان يعرض الإنسان نفسه للقتل من ان يحيا ،
وماذا لو كنت أبقي بدافع من طلب الراحة ، او من الخوف ، او
من الرغبة في ان تكون امرأة تحت يدي ؟ والثفت : كان فرانسويون
ينحني فوق الكتاب في اجتهاد مليء بالتحدي ، كما لو انه أخذ على
عاتقه ان يكشف أكاذيب المؤلف . اذا استطعت ان اقول له : انني
ذاهب معكم ، اذا امكن للكلمة ان تخرج من في ، لقلتها . وتفتح
وفتح شفّته وانتظر . ولكن الكلمة لم تأت ؛ انني لا استطيع ان اسبب
لها هذا الشقاء . وفهم بوريس انه لم يكن يريد ان يذهب من غير ان
يستشير لولا . ستقول بكل تأكيد لا وينتهي الأمر . وفكر مأخوذاً :
واذا لم تصل في الموعد المحدد ؟ اذا لم تصل قبل ١٨ ؟ هل ينبغي
ان يقرر وحده ؟ لنفرض انني بقيت ، وانها وصلت يوم ٢٠ وانها
قالت لي : كنت سأدعك تذهب . ستكون لي آنذاك سحنة لطيفة .
اقراض آخر : اذهب ، فتصل هي يوم ١٩ ، وتقتل نفسها . اوه
خراء ! والثالث كل شيء في ذهنه ، فأغض عينيه وتداعى للاستغراق

في النوم .

وصاح بـرجيه من وراء الباب :

— سرغين ، هناك انى تنتظرك في الباحة .

فانتفض بوريس ورفع فرانسىون رأسه :

— انها رفيقتك .

واخرج بوريس ساقيه من السرير وحكّ جلدة رأسه . وقال وهو

يتثائب :

— سيكون هذا اروع مما انتظر . كلا : بل هو يوم زيارة اخي .

فردّد فرانسىون بهيئة بليدة :

— آه ، انه يوم زيارة اختك ؟ انها الصبية اللى كانت معك ، في

ذلك اليوم ؟

— نعم .

فقال فرانسىون من غير حماسة :

— لا بأس بها .

ولفّ بوريس طاقاته وارتندى سترته ، ثم حيا فرانسىون بأصبعين

من يده واجتاز القاعة فهبط السلم وهو يصفر . وفي منتصف الدرج

توقف واخذ يضحك ، وفكّر : إن هذا لطريف ! لطريف كم انا

حزين . ولم يكن يسليه قط ان يرى ايفيش ؛ وفكر : « حين يكون

المرء حزينا ، فهي لا تُساعده ، بل تُرهقه . »

وكانت تنتظره في باحة المستشفى : كان ثمة جنود يطوفون المكان

وهم يتطلعون اليها ، ولكنها لم تكن متنبهة لهم . وبسمت له من بعيد :

— مرحباً ، ايها الاخ الصغير .

وحين رأى الجنود بوريس قادماً ضحكوا وصاحوا : كانوا يحبونه

كثيراً . وحياتهم بوريس بيده ، ولكنه لاحظ بغير سرور ان احداً لم

يقبل له « ايها المحظوظ » او « افضل ان تكون في سريري على ان

يكون الرعد . » والواقع ان ايفيش كانت قد شاخت كثيراً وقبُحت منذ لجهاضها . وبالطبع كان بوريس ما يزال فخوراً بها ، ولكن على نحو آخر . وقال وهو يلامس عنق ايفيش بأطراف أصابعه :

— مرحباً ايته العفريته الصغيرة .

وكانت رائحة حمى وعطر كولونيا تخفق حولها الآن بصورة دائمة . وتأملها في تجرد ثم قال لها :

— انك سيئة المنظر .

— اعرف ذلك . فانا قبيحة .

— انك لا تضعين بعد الأحمر على شفثيك ابدأ .

قالت بقسوة : — نعم .

وصمتا . وكانت ترتدي قبيصاً احمر ذا ياقة مرتفعة ، من طراز روسي جداً ، يجعلها تبدو اكثر اصفراراً . ليتهها على الأقل وافقت على ان تكشف قليلاً من كتفيها او صدرها : فقد كانت لها كتفان جميلتان جداً ! ولكنها كانت قد صممت على ارتداء القمصان المرتفعة والتنانير المفرطة في الطول : فكأنما كانت تخجل من جسمها . وسألته :

— هل نبقى هنا ؟

— استطيع ان اخرج ، ويحق لي ذلك .

قالت ايفيش : — إن السيارة تنتظرنا .

فسألها بوريس مذعوراً : — أليس هو هنا ؟

— من ؟

— العم .

— كلا .

وابتازا الباحة وخرجوا من البوابة ، وحين رأى بوريس سيارة البويك الخضراء الضخمة التي تخص السيد « ستوريل » أحس بالانزعاج ، فقال :

– في المرة القادمة ، لجعلها تنتظر في زاوية الشارع .
وصعدا الى السيارة ، وكانت واسعة سعةً مضحكة بحيث كان المرء
يضيع فيها .

وقال بوريس بين أسنانه :

– يمكن ان نلعب فيها لعبة « التخفي » .

والتفت السائق فبسم لبوريس ، وكان رجلاً ضخماً مفرط المجاملة

ذا شاربين رماديين . وسأل :

– الى اين امضي بالسيدة ؟

فسألها بوريس : – ما هو مشروعك ؟

ففكرت ايفيش :

– اريد ان ارى بشراً .

– اذن ، جادة الكانوبير ؟

– الكانوبير ، اوه كلا ! نعم ، نعم ، اذا شئت .

قال بوريس : – الى المرفأ عند زاوية الكانوبير .

– طيب ، يا سيد سرغين .

وفكر بوريس : « تنبل ! » واقلعت السيارة فأخذ بوريس ينظر

عبر الزجاج : ولم تكن له رغبة في الكلام ، لأن السائق كان يمكن

ان يسمعها . وسألته ايفيش :

– ولولا ، ما اخبارها ؟

فالتفت اليها : كانت تبدو في وضع مطمئن كل الاطمئنان ؛

فوضع اصبعاً على فمه ، ولكنها رددت بصوت ممثليء قوي ، كما لو

ان السائق لم يكن في نظرها اكثر من قطعة لفت مطبوخة :

– هل لديك اخبار عن لولا ؟

فهز كتفيه من غير ان يجيب . فقالت :

– ماذا ؟

قال : ليس لديّ اخبار .

حين كان بوريس يتداوى في « تور » ، جاءت لولا فأقامت بالقرب منه . وفي مطلع حزيران نُقل الى مرسيليا ، فمرت هي في باريس ، تنبؤاً بالاسوأ ، لتسحب مالاّ من المصرف قبل ان تلحق به . وفي تلك الاثناء ، وقعت « الاحداث » وبات لا يعرف عنها شيئاً . ودفعته رجّة الى لصق ايفيش ؛ وكانا يحتلان مكاناً صغيراً جداً في مقعد البويك حتى ان ذلك ذكره يوم هبطا باريس : كانا يتسلبان باعتبار نفسيهما يتيمين ضائعين في العاصمة ، وغالباً ما كان احدهما يلتصق هكذا بالآخر ، على مقعد من مقاعد « الدوم » او « الكوبول » . ورفع رأسه ليحدث ايفيش في هذا ، ولكنه رأى مظهرها المظلم فاجتزأ بالقول :

— لقد سقطت باريس ، أرايت ؟

قالت ايفيش بلامبالاة :

— نعم ، رأيت .

— وزوجك ؟

— لا انباء عنه كذلك .

وانحنت نحوه وقالت بصوت سريع منخفض :

— اودّ لو انه يموت .

فألقي بوريس نظرة الى السائق ورأى انه كان ينظر اليها في المرأة العاكسة ، فلكرز ايفيش في مرفقها فصمت ، ولكنها ظلت محتفظة على شفيتها ببسمة خبيثة جادة . وتوقفت السيارة في اسفل جادة الكانويبير ، فقفزت ايفيش الى الرصيف وقالت للسائق في سهولة أمره :

— عدّ لتأخذني من مقهى « ريش » في الساعة الخامسة .

فقال السائق بصوت رقيق :

— الى اللقاء ، يا سيد سرخين .

قال بوريس منزعجاً : - مع السلامة .
وفكر : سأعود في الترام . وتناول ذراع ايفيش وعادا يصعدان
الكانوبير . ومر ضباط ، فلم يحيتهم بوريس ولم يسد عليهم الاهتمام
بذلك . وكان بوريس منزعجاً للفتات النساء اليه لدى مروره .
وسألته ايفيش :

- الاتحي الضباط ؟

- ولماذا ؟

فقالت : - إن النساء ينظرن اليك .

فلم يجب بوريس ، وبسمت له سمراء ، فالتفت ايفيشن باهتمام
وقالت موجهة اليها الكلام :

- نعم ، نعم ، انه جميل .

فقال بوريس مبتهلاً :

- ايفيش ، لا تجذبي الينا الانظار .

كانت تلك هي اللازمة الجديدة . فقد حدث ان قال له احدهم
ذات صباح انه كان جميلاً ، ومنذ ذلك الحين والناس يرددون له
ذلك ، وكان فرانسويون وغابيل يدعوانه « وجه الحب » . وبالطبع ،
لم يكن بوريس ليغتر ، ولكن ذلك كان مزعجاً ، لأن الجمال ليس
ميزة في الرجال . وقد كان يؤثر لو ان جميع هاتيك الاناث ينشغلن
بمؤخراتهن . ويؤثر لو ان الذكور يعمدون في الطريق الى بعض المغازلة
لايفيش بقدر كاف لإشعارها بأنها جميلة .

وعلى سطيحة مقهى « ريش » كانت جميع الطاولات مشغولة
تقريباً ، فجلسا وسط نساء سمراوات وضباط وجنود اتيقين ورجال
مسنين ذوي ايد سمينة ؛ جمع وديع هادىء ، أشخاص يستحقون
القتل ولكن من غير ائذاء . وكانت ايفيش قد بدأت تشد على
خصلات شعرها فسألها بوريس :

– هل تشكين شيئاً ؟
فهزت كتفيها . ومدت بوريس ساقيه فلاحظ انه كان منزعجاً .
وسألها :

– ماذا تريدان ان تشربي ؟

– هل قهوتهم جيدة ؟

– هكذا .

– انني اموت شوقاً الى شرب قهوة جيدة . لانهم هناك يصنعون قهوة
متننة .

قال بوريس للخادم :

– فنجانا قهوة (والتفت الى ايفيش فسألها) كيف الحال مع عمك .

وامرأة عمك ؟

فانظفأت الحماسه على وجه ايفيش وقالت :

– لا بأس . انني أصبح شبيهة بها (وازافت بضحكة صغيرة)

ان امرأة عمي تقول انني اشبهها .

– وماذا تفعلن طوال النهار ؟

– اوه ، بالأمس مثلاً ، نهضت في العاشرة ، فقممت بزيتي بأبطاً

ما أستطيع ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة والنصف ؛ وقرأت

الصحف ...

فقال بوريس بقسوة : – انك لا تحسنين قراءة الصحف .

– نعم ، لا احسن ذلك . وعند الغداء ، تحدثنا عن الحرب ،

وذرفت الام ستوريل دمعة وهي تفكر بابنها العزيز ؛ وحين تبكي

ترتفع شفتاها حتى لأظن دائماً بأنها موشكة على الضحك . وبعد ذلك

اشتغلنا بالصوف ، فأطلعتني على بعض أسرارها : لقد كان جورج ذا

صحة رقيقة حين كان صغيراً ، فتصورني انه اصيب بالتهاب الامعاء

في الثامنة من عمره ؛ فاذا كان لا بد لها من الاختيار بين ابنها وزوجها

فسيكون ذلك فظيلاً ، ولكنها تؤثر ان يموت زوجها لأنها كانت امراً

أكثر منها زوجة . ثم حدثني عن أمراضها ، عن الرحم والامعاء والمثانة ، ويبدو ان الامور عندها سيئة جداً .

وكانت على شفتي بوريس « دعابة » عظيمة ، جاءته بسرعة كبيرة حتى شكّ في ان لا يكون قد قرأها في صحيفة ما . ولكن لا . « إن النساء يتحدثن فيما بينهن عن داخل بيوتهن او عن داخل اجسامهن . » وكانت العبارة لا تخلو من التصنع والحذقة ، وتشبه مثلاً من امثال لاروشفوكو . وتساءل عما اذا كان سيطلع ايفيش عليها ، ولكن ايفيش كانت تزداد عدم فهم للدعابات . واكتفى بالقول :

— نعم . وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، عدت الى الغرفة ومكثت فيها حتى العشاء .

— وماذا فعلت فيها ؟

— لا شيء . وبعد العشاء استمعنا الى اخبار الراديو وعلّقنا عليها . يبدو اننا لم نخسر شيئاً ، وان علينا ان نحفظ برباطة جأشنا ، وان فرنسا شاهدت ما هو اسوأ من ذلك . وبعد ذلك عدت الى غرفتي ثانية فأعددت فنجان شاي على موقدي الكهربائي الذي أخفيه ، لأنه يعطل الكهرباء مرةً على كل ثلاث مرات أستعمله فيها . وقد جلست في اريكة وانتظرت حتى يناموا .

— وبعد ذلك ؟

— تنفّست .

قال بوريس : — بحسن بك ان تأخذي اشتراكاً للمطالعة .

قالت : — حين اقرأ تراقص الأحرف امام عيني ، فأفكر طوال الوقت في جورج . اني لا أستطيع الامتناع عن التأميل بأن نتلقى نبأ موته .

ولم يكن بوريس يحب زوج اخته ، وهو لم يكن يفهم قط ماذا حدا بأيفيش في ايلول ٣٨ الى الفرار من البيت لترتمي على رأس تلك

الهلينة . ولكن كان يلذّه الاقرار بأنه لم يكن الحصان الرديء ؛ حتى ان جورج حين علم بأنها حامل ، سلك سلوكاً طيباً : فهو الذي ألح على ان يتزوجها . ولكن كان ذلك بعد فوات الاوان : كانت ايفيش تكرهه لأنه جعلها تحمل . كانت تقول بأنها تستفزع نفسها ، وقد اختبأت في القرية ولم تشأ حتى ان ترى أخاها مرة اخرى . ولا ريب في انها كانت تقتل نفسها لو لم تكن تخاف خوفاً شديداً من ان تموت .

— اية قدارة !

فانتفض بورييس :

— ماذا ؟

فقلت وهي توميء الى فنجان القهوة :

— هذا .

وذاق بورييس القهوة وقال بهدوء :

— صحيح انها ليست عظيمة (وفكر لحظة ثم أضاف) ولكنها

ستزداد سوءاً مع الايام ، كما أتصور .

قالت ايفيش :

— يا لبلاد المهزومين !

ونظر بورييس في حذرٍ فيما حوله . ولكن لم يكن ثمة من يتنبه

لها : كان الناس يتحدثون عن الحرب في احترام وندم . فكأنهم كانوا

عائدين من دفن عزيز . ومرّ الخادم وهو حاملٌ وعاءً فارغاً ، فأدارت

له ايفيش عينين جريبتين وقذفته بقولها :

— انها منتنة !

فنظر اليها الخادم في دهشة . وكان له شارب رمادي ؛ وقد كان

يمكن لايفيش ان تكون في سن ابنته . وقالت ايفيش :

— هذه القهوة منتنة ، وتستطيع أن تأخذها .

وكان الخادم يحدهما في فضول : لقد كانت اصغر سنّاً من ان

يستطيع إخافتها . وحين ادرك من يكونان ، راودته بسمة قاسية :
- كنت تنتظرين قهوة يمنية ؟ لعلاك لا تعرفين اننا في حرب ؟
فأجابت بحوية :

- ربما كنت لا أعرف ذلك ، ولكن اخي الذي جرح يعرفها
خيراً منك بالتأكيد .

وصرف بوريس عينيه وقد احمر من فرط الاضطراب . لقد اصبحت
أشدّ نباهة ولم تكن تفتقر الى سرعة البداهة ، ولكنه كان يتأسف على
العهد الذي كانت تمضغ فيه غضبها بصمت، وشعرها متثر في وجهها :
لقد كانت أقلّ مشاكل .
وتمم الخادم مغتاضاً :

- لن ارسل الشكوى من اجل فنجان قهوة ، في اليوم الذي يدخل
فيه الالمان باريس !

ومضى ، فضربت ايفيش بقدمها الارض :
- ليس في فهم الا الحرب ، انهم لا يكفون عن دعوى القتال
وكأنهم فخورون بذلك . فليخسروها، حربهم ، ليخسروها مرة والى
الابد ، ولنكف عن الكلام فيها .

وختق بوريس ثناؤبه : إن انفجارات ايفيش لا تسليه بعد . حين
كانت فتاة ، كان يروقه ان يراها تشدّ شعرها وهي تجبّط وتحوّل
عينيهما ، وقد كان هذا يجعلك مرحاً طوال النهار . اما الآن ، فإن
عينيهما تظلان كتيبتين ، فكأنها تركزن الى الهدوء ، فتشبه امهما في تلك
الحالات . وفكر مندهشاً : « انها امرأة متزوجة ، امرأة متزوجة لها
عم وامرأة عم ، وزوج في الجبهة وسيارة عائلية . » ونظر اليها في
تبرم ، ثم صرف عينيه لأنه كان يشعر بأنها سترعبه . « سوف
أذهب ! » وانصب فجأة : إن قراره قد اتُخذ . « سأذهب . سأذهب
معهم . اني لا استطيع ان ابقى بعد في فرنسا . » وكانت ايفيش

تتكلم . فسألها :

— ماذا ؟

— الوالدان .

— ماذا تقصدين ؟

— أقول أنهما كان عليهما ان يبقيا في روسيا ؛ يبدو انك لا تسمعي .

— لو بقيا فيها ، لدخلا السجن .

— على اي حال ، ما كان ينبغي لها ان يجنسانا بالجنسية الفرنسية ،

بوالا لكان بوسعنا ان نعود الى بلادنا .

قال بورييس : — بلادنا هي فرنسا .

— كلا ، بل هي روسيا .

— هي فرنسا ، ما دامنا قد جنسانا .

قالت ايفيش : — تماماً ، من أجل هذا ما كان ينبغي لها ان

يفعل ذلك .

— نعم ، ولكنها فعلاه .

— الامر عندي سواء . ما دام ان عليهما الا يفعل ذلك ، فكأنهما

لم يفعل شيئاً على الاطلاق .

قال بورييس : — لو كنت في روسيا ، لبصقت عليها .

— سيكون الأمر عندي سواء ، لأنها بلاد عظيمة لا بد ان أشعر

فيها بالاعتزاز . اما هنا ، فاني أقضي وقتي وانا أشعر بالعار .

وصمتت لحظة ، وكان يبدو انها مترددة . وكان بورييس ينظر اليها

في حنان ؛ ولم تكن لديه أية رغبة في معاكستها ، وفكرت في تهاؤل :

« ستضطر حتماً الى التوقف . فأنا لا أدري ما عسى تستطيع ان تضيفه »

ولكن ايفيش كانت تتمتع بالاختراع ؛ فقد رفعت يداً في الهواء، ورممت

بها غطسة صغيرة ، كما لو أنها كانت تقذف نفسها في الماء ، وقالت :

— اني أحقر الفرنسيين ..

ورفع رجل رأسه عن صحيفة كان يقرأها الى جانبها وتأملها بهيئة
حاملة . ونظر اليه بوريس مواجهة في عينيه ؛ ولكن ما لبث الرجل
ان نهض ليستقبل امرأة كانت متجهة نحوه ، فانحنى لها وجلس ، ويدها
في يده وهما يتسلمان . واطمان بوريس فعاد الى ايفيش . وبدأ النزاع
الكبير : كانت تدمدم بين أسنانها :

- احتقرهم ، احتقرهم !

- تحتقرينهم لأنهم يصنعون قهوة رديئة ؟

- أحتقرهم لكل شيء .

وكان بوريس قد أمّل ان تهدأ العاصفة من تلقاء نفسها ؛ ولكنه
يدرك الآن انه كان مخطئاً ، وانه لا بدّ من مواجهتها بشجاعة . وقال :
- اما انا ، فأحبهم كثيراً . إن الجميع سيسقطون فوقهم ، الآن
وقد خسروا الحرب ؛ ولكني رأيتهم في الخط الاول ، وأؤكد لك أنهم
فعلوا كل ما في طاقتهم .

قالت ايفيش :

- أترى ؟ أترى ؟

- ماذا أرى ؟

- لماذا تقول : « انهم » فعلوا كل ما في طاقتهم ؟ لو كنت تشعر
بأنك فرنسي لقلت « نحن » .

وانما لم يقل بوريس « نحن » بدافع التواضع . وهز رأسه وقطب
حاجبيه وقال :

- انا لا أحسّي فرنسياً ولا روسياً . ولكن حين كنت هناك ، مع

سائر العساكر ، كان ذلك بلدّي .

قالت : - انهم أرايب .

فتظاهر بوريس بأنه أخطأ فقال وكأنه يستدرك :

- نعم ، ارايب مدهشة .

– كلا ، كلا ، بل ارانب تهرب . هكذا (وأر كضت يدها على الطاولة) .

قال بوريس : – انك كجميع النساء . فأنت لا تقدّرين الا البطولة العسكرية .

– ليس الأمر كذلك . ولكن ما داموا يريدون ان يخوضوا هذه الحرب ، فما كان عليهم الا ان يخوضوها حتى النهاية .

فرفع بوريس يده بحركة موهونة . « ما داموا يريدون ان يخوضوها ، فما كان عليهم إلا ان يخوضوها حتى النهاية . » بكل تأكيد . هذا ما كان يردّده أمس مع غابيل وفرانسيون . ولكن ... وسقطت يده باسترخاء : إن الشخص الذي لا يفكر مثلك ، عسيرٌ ومتعبٌ ان تبرهن له أنه على خطأ . غير انه حين يكون من رأيك ، ثم يترتب عليك ان تشرح له انه مخطيء ، فانك تضيع . قال :

– دعيني !

قالت ايفيش وهي تبسم من فرط الغضب :

– ارانب !

قال بوريس : – ان الذين كانوا معي لم يكونوا ارانب . بل كان فيهم شجعان الى حد بعيد .

– لقد قلت لي انهم كانوا يخافون الموت .

– انت ؟ الا تخافين الموت ؟

– انا ، اني امرأة .

قال بوريس : – حسناً ، انهم هم يخافون الموت ، وهم مع ذلك رجال . وهذا ما يسمى بالشجاعة . كانوا يعرفون ما يعرضون له أنفسهم .

فتظرت اليه ايفيش نظرة ارتياب :

– لن تزعم لي انك « انت » كنت خائفاً ؟

– لم أكن أخشى الموت لأنني كنت مؤمناً بأنني انما كنت هناك لهذه الغاية .

ونظر الى اظافره وأضاف بلهجة متجردة :

– الطريف في الأمر اني مع ذلك غوّطت في ثيابي .
فارتعدت ايفيش :

– ولكن لأي سبب ؟

– لا ادري . ربما كان بسبب الضجة .

والواقع ان ذلك لم يدم اكثر من عشر دقائق – ربما عشرين ،
في بدء الهجوم تماماً . ولكنه لم يغضب ان تعبره ايفيش خافاً^١ : فقد
كان ذلك يدعم رأيه . وكانت تنظر اليه نظرة مترددة ، مذعورة من ان
يشعر بالخوف من كان روسياً ، ان يشعر به سرغين ، أخوها بالذات .
وأحسّ أخيراً بالحجل فسارع بضييف :
– الحقيقة انني لم أخف طوال الوقت .

فابتسمت له وقد شعرت بالعزاء ، وفكر بحزن : « لسنا بعد متفقين
على شيء . » وساد صمت : وشرب بوريس جرعة من قهوة فكاد
يلفظها : كانت كما لو انهم وضعوا له حزنه كله في فمه . ولكنه فكر
بأنه سيذهب ، فاستشعر بعض العزاء . وسألته ايفيش :

– ماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

قال بوريس : – أعتقد انهم سيسرحونني . والواقع اننا قد شفينا
جميعاً تقريباً ، ولكنهم يحتفظون بنا هنا لأنهم لا يدرون ما يفعلون بنا .
– وبعد ذلك ؟

– سوف ... أطلب وظيفة استاذ .

– ولكنك لست « اغريجييه » ؟

– صحيح . غير أنني أستطيع ان اكون استاذاً في كلية .

– وهل يلذك ان تلقي محاضرات ؟

١ الخاف هو الشديد الخوف .

فقال باندفاع : - آه ، كلا (واحمر وجهه فأضاف) ابني لم أخلق لهذا .

- ولأي شيء خلقت ، يا اخي الصغير ؟
- هذا ما أتساءل عنه .
والتمعت عينا ايفيش :

- أتريد ان أقول لك لأي شيء خلقتنا ؟ خلقتنا لتكون اغنياء .
فقال متزعجاً : - ليس الامر كذلك .

ونظر اليها لحظة وهو يردد : « ليس الامر كذلك ! » فيما كان يضغط فنجانه بين أصابعه .
- كيف هو اذن ؟

فقال : - كنت منفوخاً حتى الانفجار ، ثم سرقوا مني موتي .
انني لا اعرف شيئاً ، ولست موهوباً لشيء ، وليس لي بعد رغبة في شيء .

وتنهت وصمت ، مستشعراً الحجل ان يكون قد تحدث عن نفسه :
ان القضية هي اني لا أستطيع ان اعزم على ان اعيش عيشة وسطاً .
وهذا في حقيقته هو ما قالته تقريباً .

وكانت ايفيش تتابع فكرتها ، فسألته :
- ولولا ، ألا تملك مالاً ؟

فقفز بوريس وضرب الطاولة : لقد اوتيت موهبة ان تقرأ فكرته
وترجمها بعبارات غير مقبولة :
- انني لا اريد مال لولا .

- لماذا ؟ كانت تعطيك منه ، قبل الحرب .
- لم تعد تعطيني منه .

فقال في حرارة : - اذن ، لننتحر كلانا .
وتنهت ، وفكر : ها هي ذي تعود سيرتها . إن هذا لا يناسب

سنتها بعد . وكانت ايفيش تنظر اليه وهي تبسم :

– لنستأجر غرفة في الميناء القديم ولنفتح انبوب الغاز .

فاكتفى بوريس بأن يحرك سبابة يده اليمنى علامة الرفض . ولم تلتح ايفيش : بل خفضت رأسها وأخذت تشد على خصلاتها : وفهم بوريس أنه كان لديها ما تطالبه منه . وقالت بعد لحظة ، من غير ان تنتظر اليه :

– كنت قد ظننت ...

– ماذا ؟

– كنت ظننت انك ستأخذني معك ونعيش نحن الثلاثة على مال لولا .

واستطاع بوريس ان يبلع ريقه من غير ان يفتح ، وقال :

– آه ! لقد فكرت بذلك .

وقالت ايفيش في حماسة مفاجئة :

– اسمع يا بوريس . ليس باستطاعتي بعد ان أعيش مع هؤلاء

الناس .

– هل يسيئون معاملتك ؟

– على العكس : فهم يعيشونني في الحرير : زوجة ابنهم ، لو

تعلم ! ولكني أحتقرهم ، أحتقر جورج ، أحتقر أخدمهم ...

فقال بوريس : – لاحظني انك تحتقرين لولا ايضاً .

– لولا ، ليس الامر متشابهاً .

– ليس الامر متشابهاً لأنها بعيدة وانك لم تريها منذ عامين .

– إن لولا تغني ، ثم هي تشرب ، ثم انها جميلة ... يا بوريس !

« وصاحت » اما هم ، فقيحون ؛ فاذا تركتني بين ايديهم ، قتلت

نفسي ، كلا ، لن اقتل نفسي بل سيكون الامر أسوأ من ذلك .

ليتك تعسرف كم أحسني عجوزاً وشريرة بعض الاحيان .

« طق ! » فكر بوريس .. وشرب بعض القهوة ليزلق لعابه في

حلقومه ؛ وكان يفكر : لا يستطيع المرء ان يسيء الى شخصين .
وكانت ايفيش قد كفتت عن الشد على شعرها ، وكانت سحنتها
العريضة الممتعة قد تلوّنت ، وكانت تنظر اليه نظرة ثابتة قلقة ، فتشبه
قليلاً ايفيش الماضية . لربما تستعيد شبابها ؟ وربما تستعيد جمالها ؟
وقال :

— شرط ان تطبخي لنا ، ايتها العفريته الصغيرة .
فأخذت يده وشدتها بكل قواها :

— هل توافق اذن ؟ اوه ، بوريس ! أتوافق إذن ؟
سأكون استاذاً في « غيريه » . كلا ، ليس في غيريه ، فهناك
ليسيه . بل في كاستلنوداري . وسأتزوج اولاً : فان استاذاً في كلية لا
يستطيع ان يعيش مع خلية ؛ وسأبدأ منذ الغد في اعداد محاضراتي .
وأمرّ يده خلال شعره ، وشدّ برفق على خصلة ليتحقق من متانتها ،
ثم فكر : سأكون أصلع ؛ إن هذا مؤكد الآن : سيسقط شعري قبل
ان اموت .

— طبعاً ، اوافق .
وكان يرى طائرة تدور عند الصباح الباكر ، وكان يردد : الجروف ،
الجروف الجميلة البيضاء ، جروف دوفر .

الساعة الثالثة في بادو

كان ماتيو جالساً فوق العشب ؛ وكان يتابع بعينيه الدوامات السود
فوق البحر . وبين الفينة والفينة كان قلب من نار يصعد في الدخان
فيصبغه بدمه . وينفجر : واذ ذلك تثب شرارات في السماء كأنها البراغيث .
قال شارلو : — سوف يشعلون النار .

وكانت فراشات من السناج تتطاير حولهم ؛ فالتقط بينيت احدها؛

وسحقها بين يديه بتفكر وقال وهو يبرز ابهامه المسود :
- هذا كل ما يبقى من خسارة اذا احيلت الى جزء من عشرة
آلاف .

ورفع لونيان الباب ذا الشقوق ودخل الحديقة : وكان يبكي . وقال
شارلو :

- إن لونيان يبكي !

فسح لونيان عينيه .

- الحيوانات ! لقد حسبت انهم سيسلخون جلدي .

وتداعى للسقوط على العشب ؛ وكان يحمل كتاباً ذا غلاف ممزق .

- كان عليّ ان أؤرث النار بواسطة منفخ بينما كانوا يقذفون اوراقهم
فيها . وكنت اتلقى الدخان كله في في .

- وهل انتهوا ؟

- لا يهتمنى . لقد اخلونا لأنهم سيحرقون الوثائق السرية . يتحدثون

عن الاسرار : الاوامر التي ضربتها بنفسى على الآلة الكاتبة .

قال شارلو : - هناك رائحة رديئة .

- رائحة شواء .

- كلا ، انى اقول : اذا أحرقوا الوثائق ، انبعثت رائحة رديئة .

- نعم ، رائحة رديئة ، رائحة شواء . هذا ما أقوله .

وضحكوا ، وأشار ماتيو الى الكتاب وسأل :

- أين وجدته ؟

فقال لونيان بغموض : - هناك .

- اين ، هناك ؟ المدرسة ؟

قال : - نعم .

وشدّ الكتاب اليه في حذر ، وسأله ماتيو :

- هل هناك سواه ؟

- كانت هناك كتب اخرى ، ولكن رجال «الوكالة» استعملوها .
- وما هو هذا الكتاب ؟
- كتاب تاريخ .
- ولكن ما هو ؟
- لا أعرف عنوانه .
- وألقى نظرة على الغلاف ، ثم اضاف في استياء :
- « تاريخ عودة الملكيتين » .
- وسأل شارلو : - ومن المؤلف ؟
- فتهجأ لونجان : - فو-لا-بيل .
- فولابيل ، من هذا ؟
- وما يدريني ؟
- وسأله ماتيو : - هل تعبرني إياه ؟
- بعد ان اقرأه .
- وتسلل شارلو في العشب فأخذ الكتاب من يديه :
- ولكن اسمع . انه الجزء الثالث .
- فانتزعه منه لونجان :
- وماذا يهم ؟ المقصود ان اركز انتباهي .
- وفتح الكتاب بالاتفاق وتظاهر بأنه يقرأ ليزيد استملاكه إياه . وبعد
- ان أنهى المهمة ، رفع رأسه وقال :
- لقد أحرق الكابيتين رسائل زوجته .
- وكان ينظر اليهم مرفوع الحاجبين ، بسيط الهيئة ، مقلداً سلفاً ،
- بعينه وشفثيه ، الدهشة التي كان يتوقع لإثارتها فيهم . وخرج بينيت
- من حلمه العابس والتفت اليه باهتمام :
- صحيح ؟
- نعم ، وقد احرق أيضاً صورها ، فرأيتها في اللهب . انها

جميلة :

- صحيح ؟
- أوكد لك ذلك .
- وماذا كان يقول ؟
- لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينظر اليها تحرق .
- والآخرون ؟
- لم يكونوا يقولون شيئاً كذلك . سوى ان اولريش اخرج رسائل من محفظة تقوده والقها في النار .
- فتمم ماتيو : - فكرة عجيبة .
- والتفت اليه بينيت يسأله :
- أترك لن تحرق صور امرأتك ؟
- ليس لي من امرأة .
- آه ! من أجل هذا .
- فسأله ماتيو : - وهل أحرقت انت صور امرأتك ؟
- أنتظر حتى يظهر الالمان .
- وصمتوا . وكان لونجان قد اخذ يقرأ في جد ، فرمى اليه ماتيو بنظرة جسد ونهض . ووضع شارلو يده على كتف بينيت .
- هل نلعب التار ؟
- اذا شئت .
- فسألها ماتيو : - وجم تلعبان ؟
- لعبة « المورييون » .
- وهل يمكن ان يلعبها ثلاثة ؟
- لا .
- وجلس بينيت وشارلو منفرجي الساق على المقعد الخشبي ، فأفسح لها الرقيب بيارنيه الذي كان يكتب على ركبته .

– هل تكتب مذكراتك ؟

قال بيارنيه : – كلا ، وإنما أحلّ عملية فيزيائية .

وأخذوا يلعبان . وكان نيبير نائماً وهو مستلقٍ على ظهره ، متصالب الذراعين . وكان هواء السماء يُفرغ في فمه الفاعر بقرقرة تشبّه خرير البلوعة . وكان شوارتز منتحياً ركناً آخر يحلم . لم يكن ثمة من يتكلم ، لقد ماتت فرنسا . وتشاءب ماتيو ، ونظر الى الوثائق السرية تتلاشى دخاناً في السماء ، ونظر الى الارض الكثيفة السوداء بين الخضار ، ففرغ رأسه : لقد كان ميتاً ، وهذا الاصيل الابيض الميت ، كان قبراً . ودخل لوبيرون الى الحديقة . وكان يأكل ، وجفونه تحفّق تحت عينيه الكبيرتين المغربتين ، وكانت اذناه تتحركان على حركة فكّيه . وسأله شارلو :

– ماذا تأكل ؟

– كسرة خبز .

– ومن اين اتيت بها ؟

فأوماً الى الخارج من غير ان يجيب ، واستمر يمضغ . وصمت شارلو فجأة وتأمله في شيء من الذعر : وكان الرقيب بيارنيه يتأمله هو ايضاً ، مقلوب الرأس ، مرتفع القلم . وظل لوبيرون يمضغ ، في غير ما عجلة : ولاحظ ماتيو هيئته الجادة ، فأدرك انه كان يحمل انباء ؛ واذا ذاك أحسّ بالخوف كالآخرين ، وتراجع خطوة الى الوراء . وانتهى لوبيرون من المضغ في هدوء ، ومسح يديه بثوبه، ففكر ماتيو : « لم يكن ما يأكله خبزاً . » واقترب شوارتز وجعلوا ينتظرون صامتين .

وقال لوبيرون : – ماذا ؟ انتهى الامر ؟

فسأل بيارنيه بقسوة : – ماذا ؟ ماذا ؟ ما الذي انتهى ؟

– انتهى الامر .

— ال ...

— نعم .

برق نحاسي ، ثم ساد الصمت ؛ وكان لحم هذا النهار الأزرق الطري قد تلقى الخلود كضربة منجل . لم يكن ثمة ضجة ، ولا نفخة هواء ، كان الزمن قد تجمّد ، وانسحبت الحرب : وقد كانوا منذ لحظة فيها ، بمنجى ، وكان بوسعهم بعد أن يؤمنوا بالمعجزات ، بفرنسا الخالدة ، بالمساعدة الأميركية ، بالدفاع المطّاط ، بدخول روسيا الحرب ؛ أما الآن فقد كانت الحرب وراءهم ، منغلقة ، ناجزة ، خاسرة . وأصبحت آمال ماتيو الأخيرة ذكريات أمل .

وكان لونيجان أول من استردّ وعيه ، فقدّ يديه الطويلتين كما لو أنه يريد أن يجسّ النبأ بحذر ، وسأل في خجل :

— وإذن ... هل وقع ؟

— منذ هذا الصباح .

وكان ييارنيه قد تمنى الصلح طوال تسعة أشهر . الصلح بأي ثمن . وها هو الآن هنا ، ممتقع يسيل منه العرق . وكان الانفعال المفاجيء قد اثار جنونه ، فصاح :

— وكيف عرفت ذلك ؟

— لقد أخبرني به غيكيولي .

— وكيف عرف هو ؟

— من الراديو . لقد التقطوا الساعة هذا النبأ .

وكان يتكلم بلهجة مذبذب صابرة محايدة ؛ وكان يتسلّى بالتظاهر بمظهر القسوة .

— ولكن صوت المدافع ؟

— إن وقف اطلاق النار سيتم في منتصف الليل .

وكان شارلو محمّر الوجه ايضاً ، ولكن عينيه كانتا تلتمعنان :

- هذا مزاح !
 ونهض بيارنيه وسأل :
 - هل من تفاصيل ؟
 قال لوبيرون : - لا .
 وتنحنح شارلو :
 - ونحن ؟
 - ماذا ، نحن ؟
 - متى نعود الى بيوتنا ؟
 - أقول لك ان ليس هناك من تفاصيل .
 وصمتوا . وضرب بينيت بقدمه حصاة تدرجت وسط الجزر ،
 وقال هادراً في غضب :
 - الهدنة ! الهدنة !
 فهزّ بيارنيه رأسه ؛ وكان جفنه الأيسر قد أخذ يخفق في وجهه
 الرمادي كمصراع في يوم عاصف . وقال في فقهة راضية :
 - ستكون الشروط قاسية .
 فأخذوا جميعاً يقهقهون .
 وكان شوارتز يقهقه ايضاً ، فالتفت اليه شارلو وتطلع اليه في
 دهشة . وكفّ شوارتز عن الضحك واحمرّ وجهه بعنف . وظل شارلو
 ينظر اليه : فكأنه يراه للمرة الاولى . وقال له بهدوء :
 - ها انت ذا الماني ، في هذه الساعة .
 فأتى شوارتز بحركة عنيفة غامضة ، واستدار على عقبه فغادر
 الحديقة : وأحسّ ماتيو نفسه مسحوقاً بالتعب . فتداعى للسقوط على
 المقعد الخشبي ، وهو يقول :
 - ما أشد الحرّ !
 « انهم ينظرون لنا » . وكان الجمهور الذي يتزايد رويداً رويداً

ينظر اليهم وهم يتعاون هذا القرص التاريخي ، وكان يشيخ ويتراجع القهقري وهو يهمس : « مهزومو ٤٠ » ، جنود الهزيمة ، انما نحن في القيود - بسببهم . » وكانوا باقين هناك ، لا يتغيرون تحت تلك الانظار المتغيرة ، محكوماً عليهم ، معيَّرين ، مبرَّرين ، متهمين ، معذورين ، مُدائنين ، مسجونين في هذا النهار الذي لا يمتحي ، مكتمنين في هدير الذباب والمدفع ، في رائحة الحضرة الدافئة ، في الهواء الذي كان يرتعش فوق الجزر ، مذنبين الى ما لا نهاية في عيون اولادهم واحفادهم وأحفاد أحفادهم، مهزومي ٤٠ الى الابد. وتثائب ، وآه ملايين الناس يتثائب : « انه ، يتثائب ، وهذا جميل ، احد مهزومي ٤٠ يجرؤ على الثأوب ! » وقطع ماتيو هذه الثأوبة التي لا تنتهي ، وفكر : لسنا وحدنا .

ونظر الى رفاقه ، فالتقى نظره عليهم بنظر التاريخ الخالد المحجَّر : للمرة الاولى كانت العظمة قد هبطت على رؤوسهم ؛ « كانوا » الجنود الاسطوريين لحرب خاسرة . لقد حُجِّروا ! يا إلهي ، لقد قرأت وتثابت ، وكنت احرك جرس مشكلاتي ، ولم أكن اعزم على الاختيار ، ولكني كنت قد اخترت حقاً ، كنت قد اخترت هذه الحرب ، وهذه الهزيمة ، وكنتُ منتظراً في قلب هذا النهار . ان كل شيء ينبغي عمله مرة اخرى ، وليس بعد ما يُعمل : وتداخلت الفكرتان وانهدمتا معاً ؛ وبقي سطح « العدم » الهاديء .

ونفض شارلو الكتفين والرأس ؛ واخذ يضحك ، وعاد الزمن الى جريه . كان شارلو يضحك ، كان يضحك في وجه التاريخ ، وكان يدافع عن نفسه بالضحك في وجه التحجر ؛ وكان ينظر اليهم في خبث ويقول :

- إن لنا وجهاً مشرقاً ، يا جماعة . نعم ، إن وجهنا مشرق ؟
والتفتوا اليه مشدوهين ، ثم انحاز لوبيرون الى الضحك . وكان

يغضن أنفه في مشقة ، فتخرج الضحكة من منخريه :
 - تستطيع ان تقول ذلك ! كيف انهم تغلبوا علينا !
 وقال شارلو في لهجة سكرى :
 - إن هذا هو العقاب ، هو الضرب ، هو الفلق !
 فضحك لونجان بدوره وقال :
 - جنود ٤٠ او ملوك الركض !
 - عمالقة الطريق !
 - الابطال الاولمبيون للركض على القدمين !
 قال لوبيرون :
 - لا تخزنوا : فسوف يحسنون استقبالنا لدى عودتنا ، وسيزفون
 لنا التهاني !
 فصرخ لونجان صرخة سعيدة :
 - بل سيأتون لاستقبالنا على المحطة مع الموسيقى والجمعيات الرياضية.
 وقال شارلو وهو يضحك حتى كاد يسيل دمه :
 - وانا اليهودي ، ما رأيكم ؟ هل تتصورون الأشخاص المناهضين
 للسامية في الحي الذي أسكنه !
 واستسلم ماتيو لعدوى هذا الضحك المزيج ، وحدثت لحظة شديدة
 القسوة . فلقد رموه وهو يرتجف من الحمى على فراشٍ مثلج ، ثم
 تحطم خلوده الصنمي ، فتطاير شعاعاً من الضحك . كانوا يضحكون ،
 وكانوا يرفضون واجبات العظمة باسم الرعاع ؛ لا حاجة لأن نخزن ما
 دمننا نتمتع بالصحة والشراب والطعام ، انني أخراً على نصف الدنيا
 . وأشخ على النصف الآخر ، كانوا يرفضون تعزيات العطاء بدافع من
 التبصّر الزاهد ، بل انهم يرفضون لأنفسهم حتى الألم ؛ نحن « فاجعيون »
 حتى ولا هذا ، « تاريخيون » حتى ولا هذا ، بل نحن ممثلون هزليون
 من طراز رخيص ، لا نساوي دمه ؛ نحن « مرصودون » مسبقاً :

حتى ولا هذا ، فالعالم هو مصادفة واتفاق . كانوا يضحكون ، وكانوا يصطدمون بجدران « العيب » و « القدر » اللذين كانا يتداولانهم فيما بينهما ؛ كانوا يضحكون ليعاقبوا أنفسهم ، ليتطهروا ، ليثأروا : أنهم لا بشر مفروطون في البشرية ، مقدوفون فيما وراء اليأس : أنهم بشر .
وفرة اخرى ، فتحت الافواه نحو الأفق شكوى جروحها السود ؛ كان نيبير ما يزال يشخر ، وكان فيه الفاجر هو ايضاً شكوى . ثم ثقُل الضحك وجرجر نفسه وتوقف بعسد بضع انتفاضات : كانت الحفلة منتهية ، والمدنة مكرّسة ؛ لقد كانوا رسمياً « البعد » . وكان الزمن يجري على مهل ، ماءً صحياً مغلياً بالشمس : كان لا بد من العودة الى الحياة ثانية .

قال شارلو : - هكذا !

فقال ماتيو : - هكذا !

وأخرج لوبيرون ، على خفية ، يده من جيبيه ، فأطبقها على شفتيه وأخذ يمضغ ؛ وكان فيه يثب تحت عينيه الأرنبيتين . وقال :

- هكذا ! هكذا ! ها نحن ذا !

واتخذ بيارنيه هيئة التنطّس والانتصار :

- ما الذي قلته لكم ؟

- ما الذي قلته لنا ؟

- لا تنظّاهروا بالبلاهة . اذكروا يا دولارو ما قلته بعد عملية فنلندا ؟ وبعد نارفيك ، هل تذكر ؟ كنت تنعتني بطير الشؤم ، ولما كنت ابرع مني ، فقد كنت دائماً تُربكني .

وكان قد تورّد : كانت عيناه خلف نظارتيه تلتمعان بالحقد والمجد .

- ما كان ينبغي خوضها ، هذه الحرب ؛ لقد قلت دائماً اننا ينبغي ألا نخوضها ؛ ولو حدث هذا لما كنا قد بلغنا هذا المبلغ .
قال بينيت : - لو لم نخضها لكان الوضع اسوأ .

— لا يمكن ان يكون الوضع اسوأ من هذا : ليس اسوأ من الحرب .
وكان يفرك يديه بعدوبة ، ووجهه يلتمع براءة : كان يفرك يديه ،
كان يغسل يديه من هذه الحرب ، فهو لم يخضها ، بل هو لم يعشها ؛
كان قد عبس عشرة أشهر ، رافضاً ان يري ، وان يتكلم ، وان
يشعر ، محتججاً على جميع الاوامر بالحجاسة الموساء التي كان ينفذها
بها ، وهو شارد ، نائر الأعصاب ، غائب الروح . وها هو الآن
يجازى على ما عانى . كانت يدها نظيفتين ، وقد تحققت تنبؤاته :
كان المهزومون هم « الآخرين » ، امثال بينيت ، ولوبيرون ، ودولارو ،
والآخرين . وليس هو . وأخذت شفتا بينيت ترتجفان . وسأل في
صوت متقطع :

— واذن ، كل شيء على ما يرام ؟ هل انت مسرور ؟
— مسرور ؟

— هل حصلت عليها ، هزيمتك ؟
— « هزيمتي » ؟ ولكنها لك بالمقدار نفسه .
— كنت تتمناها : فهي لك . واما نحن الذين لم نكن نتمناها ، فلا
نريد ان نحرمك منها .

وبسم بيارنيه بسمه من يعتقد انه لم يُفهم . وسأله في صبر :
— من قال لك اني كنت أتمناها ؟
— انت بالذات ، منذ لحظة غير بعيدة .
— قلت اني كنت أتمنىها . فالتنبؤ بها وتمنيها ، شيثان ، أليس
كذلك ؟

وكان بينيت ينظر اليه من غير ان يجيب ، ووجهه قد تلكد برأته ،
وشفتاه قد برزتا كأنهما خطم ؛ وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين
مهانتين . وتابع بيارنيه :
— ولماذا تراني كنت أتمناها ؟ أتشرح لي ذلك ؟ ربما كنت من

الطابور الخامس ؟

فأجاب بينيت في مشقة :

- انك من دعاة السلام .

- وما معنى ذلك ؟

- الامران سواء .

فهزّ بيارنيه كتفيه وهو يباعد يديه في إرهاق . وهرع شارلو الى بينيت ووضع ذراعه حول عنقه ، وقال في طيبة :

- ارجوكما ، لا تختصما ، فما جدوى الخصام ؟ لقد خسرنا ،

وليست هذه غلظة احد ، وليس لأحد ما يؤاخذ به نفسه عليه . كل ما في الامر اننا وقعنا في مصيبة .

فبسم لونجان بسمه سياسية :

- أهذه مصيبة ؟

فقال شارلو بصوتٍ مصالح :

- أجل ، يجب ان نكون منصفين : انها مصيبة ، بل مصيبة

كبيرة . ولكن ما حيلتنا ؟ انني اقول : لكل دوره . لقد ربحنا

في المرة الماضية ، اما هذه المعركة ، فلهم ، والمعركة القادمة لنا .

قال لونجان : - لن يكون ثمة معركة قادمة .

ورفع اصبعه ، واضاف بلهجة متناقضة :

- لقد قمنا بآخر حرب لآخر محاربين ، تلك هي الحقيقة . فالوضع

سواء ، أكنا منتصرين ام مهزومين : لقد نجح فتية ٤٠ الصغار بما

اخفق به آباؤهم انتهت الامم ، وانتهت الحرب . نحن اليوم راكمون ؛

وغداً يأتي دور الانكليز : فالالمان يأخذون كل شيء وينظّمون في

كل مكان ، والى الامام من اجل تكوين ولايات اوروبا المتحدة .

قال بينيت :

- ولايات إستي المتحدة . سنكون خدام هتلر .

فسأل لونيغان بروعة :

— هتلر ؟ ما هذا ، هتلر ؟ بالطبع كان لا بد من واحد . فكيف تريد ان تتفاهم البلاد اذا تركتها حرة ؟ انهم كالبشر : كلٌ يجذب من ناحيته . ولكن منذ الذي سيتحدث عن هتلر بعد مئة عام ؟ سيكون ميتاً ، والنازية معه .

فصاح بينيت :

— ايّ فرج أحمق انت؟ ولكن منذ الذي سيعيشها، هذه الاعوام المئة ؟ فبدت على لونيغان الدهشة الاستنكارية :

— ينبغي ألا تفكر على هذا النحو ، ايها الرأس الصغير : بل يجب ان ترى الى ابعد من انفك قليلاً ؛ يجب ان تفكر بأوروبا ما بعد الغد .

— وهل تكون اوروبا ما بعد الغد هي التي تقدم لي طعامي ؟

فرفع لونيغان يداً مسالمة وأرجحها في الشمس وقال :

— يعني ! يعني ! إن الاذكياء يستطيعون ان يتدبروا امرهم دائماً . فانخفضت اليد الاسقفية ، ولامست شعر شارلو المجدد .

— أليس هذا هو رأيك ؟

قال شارلو : — ان رأيي لا يخرج عما يلي : ما دام علينا ان

نوقعها ، هذه الهدنة ، فالخير ان توقع على الفور : فيكون عدد الموتى اقل ، ولا يتاح للألمان ان يغضبوا .

وكان ماتيو ينظر اليه في ذهول . كلهم ! كلهم ! كانوا يفترون :

شوارتز يغير جلده ، ونيبير يتشبث بالنوم ، وبينيت غاضب ، وبيارنيه بريء . اما لوبيرون ، فقد اختبأ في اللحظة ، يأكل ويسد كل منافذه

بالطعام . وكان لونيغان قد ترك العصر . كان كل منهم قد كوّن

لنفسه ، بسرعة ، الوضع الذي يمكنه من ان يعيش . وانتصب ماتيو فجأة وقال بصوت قوي :

— انكم تثيرون اشمترازي .

فتأملوه بلا دهشة ، وبابتسامات مسكينة : وكان هو اكثر دهشة منهم ؛ وكانت العبارة ما تزال تصدي في اذنه ، وتساءل كيف تأتي له ان ينطق بها . وتردد لحظة بين التأثر والغضب ، ثم انحاز الى الغضب : فأولاهم ظهره ودفع الباب الصغير واجتاز الطريق . وكانت باهرة خالية ؛ وقفز ماتيو في العوسج الذي خدش طاقاته وهبط منجدر الغاب الصغير حتى بلغ الساقية ، وقال بصوت مرتفع : « خراء ! » . ونظر الى الساقية وردد : « خراء ! خراء ! » من غير ان يعرف لماذا . وعلى بعد مئة متر منه ، كان جندي عارٍ حتى النطاق ، تحطه أشعة الشمس ، يغسل ثيابه ؛ انه هناك يصفّر ، ويعجن ذلك الطحين الرطب ، لقد خسر الحرب وهو لا يدري ذلك . وجلس ماتيو ؛ وكان يشعر بالحجل : من الذي اعطاني الحق بأن أكون قاسياً الى هذا الحد؟ لقد علموا انهم قد خسروا ، فهم يتدبرون امرهم كما يطيقون لأنهم لم يعتادوا ذلك . اما انا فقد اعتدت ، ولكن هذا لا يجعلني افضل منهم . ثم اني بعد هذا كله قد اخترت الفرار ، انا ايضاً . والغضب . وسمع طقطقة خفيفة ، واقبل بينيت يجلس على حافة الماء . وبسم لماتيو ، فبسم له ماتيو ، وظلا لحظة طويلة من غير ان يتكلما .

وقال بينيت : - انظر الفتى هناك ، انه يجهل الحقيقة .

وكان الجندي منحنيماً فوق الماء يغسل ثيابه بعناد غير مألوف ؛ وكانت طائرة ضالّة تهدر فوقهم . ورفع الجندي رأسه الى السماء عبر الأغصان في كراهية اثارت ضحكهما : فقد كان هذا المشهد كله يحمل طابع تجديد الوقائع التاريخية .

- هل نخبره ؟

قال ماتيو : - اوه ! كفى ! دعه يشخ !

وصمنا . وغطس ماتيو يده في الماء وحرك أصابعه . كانت يده ممتمعة ملتزمة وحولها هالة زرقاء . وصعدت فقائيع الى السطح . وأنت

قشّة حملتها دوامة محلّية فالتصقت بمعصمه وهي تدور ثم قفزت واصطدمت
مرة اخرى . وسحب ماتيو يده وقال :

– الطقس حارّ .

قال بينيت :

– نعم ، وهو يغري بالنوم .

– هل انت راغب في النوم ؟

– لا . ولكنني مع ذلك سأحاول .

وتمدّد على ظهره ، عاقداً يديه خلف رقبته ، وأغضض عينيه .
وغطّس ماتيو غصناً مينا في الماء وحرّكه . وبعد لحظة ، فتح بينيت

عينيه :

– خراء !

وانتصب وأخذ يخلّل أصابعه في شعره .

– لا أستطيع ان انام .

– لماذا ؟

– انني ثائر الأعصاب .

قال ماتيو : – لا بأس في هذا ، فهو صحيّ .

قال بينيت : – حين اكون كذلك ، فلا بدّ لي من ان أضرب؛

والاّ اختنقت .

ونظر الى ماتيو في فضول :

– الا يثور غضبك اذت ؟

– بلى .

وانحنى بينيت على حذائه وأخذ يفكّه ، وقال في مرارة :

– لو كنت اعرف هذا ، لما أطلقت رصاصة واحدة .

ونزع جوربيه ، وكانت له قدمان صغيرتان ناعمتان كقدمي طفل ،

تخططها خطوط من الوسخ .

- سأخذ حمام أقدم .
وبلّل قدمه اليمنى في الماء ، ثم أخذها بيده وانشأ يدلّكها ؛ وكان
الوسخ يسقط عنها في كريات . وفجأة نظر الى ماتيو من تحت :
– سوف يجمعوننا ، أليس كذلك ؟
فأوماً ماتيو برأسه .
– وسينقلوننا الى بلادهم ؟
– على الأرجح .
وفرك بينيت قدمه في غضب :
– لولا هذه الهدنة ، ما كانوا ليقبضوا عليّ بهذه السهولة .
– وماذا كنت ستعمل ؟
– كنت سأقاوم .
قال ماتيو : – يا لك من ثور صغير!
وتبادلا البسمة ، ولكن وجه بينيت ما لبث ان أظلم وبدا في عينيه
التحدي :
– لقد قلت اننا نثير اشمزازك .
– لم اقصدك انت .
– لقد قلتها للجميع .
وكان ماتيو ما يزال يبتسم .
– اتريد ان تضربني أنا ؟
فخفض بينيت رأسه من غير ان يجيب .
وقال ماتيو : – اضرب . وسوف أضرب انا ايضاً ، فربما
هدّأنا ذلك .
فقال بينيت : – لا اجرؤ على ان أوذيك .
– خسارة !
وكانت قدم بينيت اليسرى تقطر ماءً وشمساً . فنظر اليها كلاهما

- وحرّك بينيت اصابعه ، فقال ماتيو :
- إن قدميك طريفتان !
- انهما صغيرتان جداً ، اليس كذلك ؟ انني أستطيع ان آخذ علبة ثقب وأفتحها .
- بأصابع قدميك .
- نعم .
- وكان يبتسم ، ولكن الغضب نفذه فجأة ، فقبض على كعب قدميه في وحشية :
- بل لم اكن لأقتل ألمانيا ! انهم قادمون ، ولن يكون عليهم إلا ان يقطفوني !
- قال ماتيو : – هذا صحيح .
- إن هذا غير عادل .
- ليس هو عادلاً ولا غير عادل . وانما هو هكذا .
- ليس هذا عادلاً : اننا ندفع عن الآخرين ، عن جنود جيش كوراب وعن غاملان .
- لو كنا في جيش كوراب لفعلنا كما فعل الرفاق .
- تحدّث عن نفسك .
- وفتح ذراعيه وتنشّق بقوة ، وشدّ قبضتيه وهو ينفخ صدره ، ونظر الى ماتيو في تعجرف :
- هل املك وجهاً يلوذ بالفرار امام العدو ؟
- فابتسم له ماتيو :
- لا .
- وابرز بينيت العضلات الطويلة لذراعيه الشقراوين ، وتمتّع لحظة ، لنفسه ، بشبابه ، وبقوته ، وبشجاعته . كان يبتسم ، ولكن عينييه ظلتا عاصفتين وحاجبيه منخفضين :

— بل كنت أظلم في مكاني حتى أُقتل .

— إن المرء يقول ذلك .

فابتسم بينيت ومات : كأن رصاصة تحترق صدره . والتفت الى ماتيو ، ميتاً ومنتصراً . وردّد تمثال بينيت ، الذي مات من اجل الوطن :

— كنت أظلم في مكاني حتى أُقتل .

ثم عاد الغضب والحياة ينعشان هذا الجسم المحجّر .

— لست مذنباً . لقد فعلت كل ما طلب مني ان افعل . وليست هي

غلطتي اذا لم يُحسنوا استعالي .

وكان ماتيو ينظر اليه نظرة حنان ؛ وكان بينيت شفافاً في الشمس ، وكانت الحياة تصعد وتهبط وتدور بسرعة شديدة في شجرة عروقه الزرقاء ، وكان يشعر ولا بد بأنه هزيل جداً ، وسليم جداً ، وخفيف جداً : فكيف كان له ان يصدق ذلك المرض غير المؤلم الذي كان قد بدأ يتأكله ، والذي سيُحني جسمه الشاب الجديد فوق حقول البطاطا في سيليزيا او على شوارع بوميرانيا، والذي سيملاؤه وهنا وحزناً وثقلاً .
إن الهزيمة شيء يُتعلم .
قال بينيت :

— لم اكن اطلب من احد شيئاً ، وانما كنت اقوم بعلمي في هدوء .

الامان : لم اكن ضدّهم ، فانه لم يسبق لي ان رأيت قفصاً أحدٍ منهم . النازية ، الفاشستية ، اني لا اعرف حتى ما هما . ودانزيغ :

المرّة الاولى التي رأيت فيها هذا البلد الصغير على خارطة ، كنت قد جُندت : طيب : وهنا نجد انفسنا امام دالادييه الذي يعلن الحرب وغاملان الذي يخسرها . فما هو شأنني انا في هذا ؟ اين هي غلطتي ؟

ألعلك تظن انهم استشاروني ؟

فهزّ ماتيو كتفيه :

- ها قد مضت خمس عشرة سنة ونحن نراها قادمة . فقد كان
 ينبغي مواجهتها في حينها . إما لتفاديها او لربحها .
 - انني لست نائباً .
 - ولكنك كنت تصوت .
 فقال بينيت من غير ثقة :
 - طبعاً .
 - لمن ؟
 فظلّ بينيت صامتاً . وقال ماتيو :
 - انت ترى اذن .
 فقال بينيت في ضجر : - كان لا بدّ من ان اقوم بالخدمة
 العسكرية . وبعد ذلك كنت مريضاً : فلم يكن بإمكانني ان اصوت
 أكثر من مرة واحدة .
 - وهل صوتت في تلك المرة ؟
 فلم يجب بينيت ، وابتسم ماتيو ، وقال على مهل :
 - وانا ايضاً لم أكن أصوت .
 وكان الجندي يعصر قمصانه ويضعها في منشفة حمراء ، ثم صعد الى
 الطريق وهو يصفر :
 - أتعرف اللحن الذي يصفره ؟
 فقال ماتيو : - لا .
 - « سوف نجفّف غسيلنا علي خط سيغفريد . »
 وضحكا . وبدا على بينيت بعض الانفراج ، وقال :
 - لقد عملت بقسوة ، ولم آكل دائماً حتى الشبع . ثم وجدت
 ذلك العمل في السكك الحديدية وتزوجت امرأتي : وكان ينبغي أن
 أطعمها ، أليس كذلك ؟ انها من عائلة طيبة ، لو تعلم . بالرغم من
 ان الامور لم تكن علي ما يرام فيما بيننا باديء ذي بدء . (واضاف

بحيوية) ولكن الحال مشى فيما بعد : اقول ذلك لأفهمك اننا لا يمكن ان نهتم بكل شيء في الوقت نفسه .
قال ماتيو : - طبعاً .

- وما كان عساي ان افعل غير ذلك؟

- لا شيء .

- لم يكن لدي الوقت لأهتمّ بالسياسة . كنت أعود الى بيتي مرهقاً ، ثم كانت تحدث المنازعات ، ولكن اذا كنت قد تزوجت فلكي تضاجع زوجتك كل مساء ، أليس كذلك ؟

- أفترض .

- وإذن ؟

- اذن لا شيء . هكذا تُخسر الحروب .

فأصيب بينيت بوثة غضب جديدة .

- انك تضجرتني تماماً ! حتى ولو اهتمت بالسياسة ، حتى ولو لم أهتمّ الا بالسياسة ، فاذا كان ذلك سيغيّر ؟
- كان بإمكانك ان تفعل ما في وسعك .

- وهل فعلته انت ؟

- كلا .

- حتى ولو كنت قد فعلته ، تستطيع ان تقول لنفسك انك لست انت الذي خسرت الحرب ؟

- نعم .

- إذن ؟

فلم يجب ماتيو ، وسمع طنين بعوضة راعشاً فحرك يده على مستوى جبهته ، فكفّ الطنين . هذه الحرب ، كنت انا ايضاً اعتقد اول الأمر أنها كانت مرضاً . فأية بلاهة ! انها انا ، وهي بينيت ، وهي لونجان . انها بالنسبة لكل منّا ذاته ؛ انها مصنوعة على صورتنا ،

ونحن نصاب بالحرب التي نستحقها . ونشق بينيت طويلاً من غير ان يغادر ماتيو بنظره ؛ ووجد ماتيو هيته بليدة ، فامتلاً فه وعيناه بمدّ من الغضب : كفى ! كفى ! حسبي ان اكون الشخص الذي يرى بتبصر ! وكانت البعوضة ترتعش حول جبينه ، كأنها تاج مجد مضحك . لو انني حاربت ، لو ضغطت على الزناد ، لسقط رجل مكان ما ... ورفع يده فجأة وصفع صدغه صفعاً شديدة ؛ وأخفض أصابعه فرأى على سبابته تطريزاً دمويّاً دقيقاً ، انساناً ينزف حياته على الحصى ، صفعاً على الصدغ ، ضغطة سبابه على الزناد ، وستوقف زجاجات صندوق الدنيا الملونة ، ويطريز الدم عشب الساقية ، كفاني ، كفاني ! ليتني أغرق في عمل مجهول كأنه الغابة . عمل . عمل ملزم لا يفهم قط تماماً . وقال بهوس :

— لو كان ثمة « ما » يُعمل ...

فنظر اليه بينيت باهتمام :

— ماذا ؟

فهزّ ماتيو كتفيه وقال :

— لا شيء . لا شيء لهذه اللحظة .

وكان بينيت يلبس جوربيه ؛ وكان حاجباه الممتعان يقطبّان في

أعلى جبينه . وسأل فجأة :

— هل أريتك صورة امرأتي ؟

قال ماتيو : — لا .

فنهض بينيت وفتش في جيب سترته وأخرج صورة من محفظة .

ورأى ماتيو امرأة جميلة ذات هيئة قاسية ، مع ظلّ من زغب في

زوايتي فيها . وكانت قد كتبت على ظهرها : « من دنيز الى لعبتها ،

١٢ كانون الثاني ١٩٣٩ . » وتورد خد بينيت :

— هكذا تسميني ، ولا استطيع ان أغيّر لها هذه العادة .

- لا بدّ لها من ان تسمّيك باسم .
- قال بينيت بجدارة : - ذلك لأنها تكبرني بخمسة أعوام .
- وأعاد له ماتيو الصورة :
- انها جميلة .
- قالت بينيت : - انها ، في السرير ، هائلة . بل انك لا تكاد تتصوّر .
- وكان قد زاد احمراراً . وأضاف بلهجة برمة :
- هي من عائلة طيبة .
- لقد سبق ان قلت لي ذلك .
- فقال بينيت مندهشاً : - آه ، هل قلتها لك ؟ هل قلت لك ان اباه كان استاذاً للرسم ؟
- نعم .
- وأعاد بينيت الصورة الى المحفظة بعناية .
- إن الأمر يبعصني .
- ما الذي يبعصك ؟
- ان اعود هكذا .
- وكان قد شبك كفيه على ركبتيه . وقال ماتيو :
- يعني .
- قال بينيت : - إن اباه بطل من ابطال ١٤ ، ثلاثة أوسمة ، صتايب الحرب . وهو يتحدث بذلك طوال الوقت .
- واذن ؟
- سوف يبعصه ان نعود هكذا .
- قال ماتيو : - يا لك من رأس مسكين ! إنك لن تعود باكرأ كما تظن .
- وكان غضب بينيت قد انحسر ، فهزّ رأسه بحزن وقال :

- انني افضل ذلك . فليست لديّ رغبة في العودة .
 فردّد ماتيو : - يا لك من رأس مسكين !
 قال بينيت : - انها تحبني ، ولكن اخلاقها صعبة . وهي تعتزّ
 بذلك . وهناك امها ايضاً ، وهي تُدفع من ياقتها دفعاً . المرأة ،
 يجب ان تحترمك ، أليس كذلك ؟ وإلا حلّ الشيطان في بيتك .
 ونهض فجأة وقال :
 - ضجرت من هذا المكان . هل تأتي ؟
 فقال ماتيو : - الى اين ؟
 - لا ادري . الى حيث الآخرون .
 فقال ماتيو بلا حماسة : - اذا شئت .
 ونهض بدوره ، فصعدا الى الطريق ، وقال بينيت :
 - عجباً ! هذا غيكيولي .
 وكان غيكيولي واقفاً ، مباعداً ما بين ساقيه ، حامياً حاجبيه بيده ،
 وهو ينظر اليهما مقهقهاً . وقال :
 - كانت لطيفة !
 - ما هي ؟
 - كانت لطيفة . لقد انطقت عايكم كالطبول .
 - ولكن ماذا ؟
 قال غيكيولي وهو ما يزال يضحك :
 - الهدنة .
 فأشرق وجه بينيت :
 - وهل كانت دعاية ؟
 قال غيكيولي : - قليلاً . لقد اتى « ليكيه » بضايقتنا بطايه
 الانباء ، فأعطيناه إياها !
 فقال بينيت في اندفاع :

- إذن ، ليس هناك هدنة ؟
- ليس هناك من هدنة ، أكثر مما هناك من زبدة بين الفخزين .
- ونظر ماتيو الى بينيت من زاوية العين :
- وماذا يغيّر هذا ؟
- قال بينيت : — هذا يغيّر كل شيء . سترى ! سترى كم سيتغير الوضع .

الساعة الرابعة

لا أحد في جادة سان جرمان ؛ ولا أحد في شارع دانتون . حتى الستائر الحديدية لم تكن مسدلة ، وكانت الواجحات تلتمع : كُنْ ما في الأمر أنهم قد نزعوا مزلاج الباب حين ذهبوا . كان اليوم يوم أحد . منذ ثلاثة ايام كان اليوم يوم أحد تماماً ، ايّ أحد ، أصلب قليلاً من المألوف ، وأكثر كيمائية ، مفرط في الصمت ، ممتليء بالانتانات الخفية . واقترب دانيال من حانوت كبير لبيع الأصواف والأقشة ؛ وكانت اللقائف المتعددة الألوان المصفوفة بشكل أهرام قد بدأت تصفر وتبعث رائحة القدم ؛ وفي الحوانيت المجاورة ، كانت الأقطعة والقمصان تدبل ، وكان غبار طحيني يترام فوق الرفوف ، وكانت خطوط طويلة بيضاء توسّع الزجاج . وفكر دانيال : « إن الزجاج يبكي » . وخلف الزجاج ، كان العيسد قائماً : كان الذباب يطنّ بالملايين . يوم أحد . حين يعود الباريسيون ، سيجدون أحداً عفنًا مسترخياً فوق مدينتهم الميتة .. اذا عادوا ! وأطلق دانيال العنان لتلك الرغبة الهائلة في الضحك التي كان ينزّهها عبر الشوارع منذ الصباح ، اذا عادوا !

وكانت ساحة سانت - اندريه - ديزار الصغيرة تستسلم جامدة

للشمس ؛ كان الجو اسود قائماً في وضوح النور . كانت الشمس شيئاً صناعياً : برق مانيزيوم يخفي الليل ، وسوف ينطفئ بعد جزء عدلي عشرين من الثانية ، وهو مع ذلك لا ينطفئ ، وألصق جبينه بوجهة « البراسوري الزاسيين » ، لقد تناولت فيها الغداء مع ماتيو : وكان ذلك في شباط ، اثناء مأذونيته ، وكانت ملأى بالابطال والملائكة . وميّر في الظلّ لطخات مترددة تشبه فطّر الأقبية : وكانت خوانات من ورق . اين هم الأبطال ؟ وكانت كرسيان حديدتان متروكيتين على السطیحة ، فتناول دانيال احدهما من مسندها ، وحملها الى حافة الرصيف وجلس كصاحب الدخّل الوفير تحت السماء العسكرية ، في ذلك الحرّ الأبيض الذي كان يغلي بذكريات الطفولة . وكان يستشعر في ظهره ضغط الصمت الممغنط ، وينظر الى الجسر الحالي ، وعلب الأرضفة المقلّاة ، والساعة التي لا عقرب لها . وفكّر : « لا بدّ أنهم ضربوا هذا كله بعض الضرب . بضع قنابل ، ليجعلونا نرى . » وانسرب شبح ازاء مفوضية الشرطة ، في الجهة المقابلة من السين ، كأنما يحمله رصيف متدحرج . إن باريس لم تكن خالية بكل معنى الكلمة : فقد كانت مسكونة بصوى صغيرة كانت تنبع في جميع الاتجاهات وما تلبث ان تتلاشى تحت هذا النور السرمدي . وفكر دانيال : « المدينة جوفاء » وكان يُحسّ تحت قدميه ممرات المترو ، ويحسّ خلفه وامامه وفوقه جروفاً مثقوبة : فبين السماء والأرض كانت آلاف الصالونات من طراز لويس فيليب ، وغرف الطعام من طراز « امير » وزوايا الدواوين تنقصف تحت الهجر ، فتثير الضحك حتى الموت . والتفت فجأة : لقد طرق احدهم على الزجاج . ونظر دانيال فترة طويلة الى الواجهة الكبيرة ، ولكنه لم ير انعكاس صورته بالذات . ونهض ، وحلقه منقبض بضيق غريب ، ولكنه لم يكن مستاءً جداً : كان طريفاً ان يشعر بمخاوف ليلية في وضوح النهار . واقترّب من

نيع سان ميشال ونظر الى التينين المخضرتين . وكان يفكر : كل شيء مباح . كان بوسعه ان ينزل بنطاله تحت نظر هذه النوافذ السوداء ، وان ينزع بلاطة ويقذف بها في اتجاه واجهة المطعم ، وكان بوسعه ان يصرخ : « لتعش المانيا » فلا يحدث شيء . على الأكثر ستلتصق سحنة مذعورة بزجاج احدى النوافذ ، في طابق سادس من بناية ، ولكن لن تكون لذلك عاقبة : انهم لا يملكون بعد الطاقة على ان يفتنوا : سيلتفت رجل الحبر ، هناك في الطابق الأعلى ، الى زوجته ليقول لها بلهجة متجردة جداً : « إن في الساحة رجلاً قد نزع لباسه التحتي » فتجيبه من جوف غرفتها : « لا تقف اذن على النافذة ، فاننا لا ندرى ما يمكن ان يحدث . » وتثاءب دانيال . هل يكسر الزجاج ؟ عجباً ! ستتضح الامور كثيراً حين يبدأون النهب . وفكر : « ارجو كثيراً ان نخرّبوا ويسلبوا كل شيء . . » وتثاءب مرة اخرى : كان يحس في نفسه حرية هائلة وبلا جدوى . وكان فرحه احياناً يفري قلبه .

واذ كان يبتعد ، أطلت قافلة من شارع « لاهوشيت » . « انهم الآن يتنقلون في قوافل » . وكانت هي القافلة العاشرة التي يلتقيها منذ الصباح . وأحصى دانيال تسعة أشخاص : عجوزين تحملان سلالا وطفلتين وثلاثة رجال أشداء جدد ذوي شوارب ؛ وكانت خلفهم امرأتان صبيتان ، اولاهما جميلة وممتعة ، والاخرى حامل تطوف على شفتيها بسمة . وكانوا يسرون على مهل ، من غير ان يتكلموا . وسعل دانيال ، فالتفتوا اليه جميعاً : ولم يكن في عيونهم ود ولا توبيخ ، لم يكن الا دهشة غير مصدقة . ومالت احدى الطفلتين على الاخرى من غير ان تنقطع عن النظر الى دانيال ، فتمتمت بضع كلمات وضحكت كلتاهما ضحكة اعجاب وافتتان : وكان دانيال يحس انه ليس أقل غرابية من شمواة تحدّد في المتساقين على الجبال نظراًها.

تلهاديء البكر . ومرّوا خياليين ، اسطوريين ، غارقين في وحدتهم ،
واجتاز دانيال الطريق ليذهب فيرتفق الحاجز الحجري المدخل جسر
سان ميشال . وكان السين يلتصق ؛ وفي البعيد البعيد ، باتجاه الشمال
الغربي ، كان الدخان يرتفع فوق البيوت . وفجأة بدا له المشهد شيئاً
لا يطاق ، فانفتل وعاد على عقبيه وأخذ يصعد الجادة مرة أخرى .

وكانت القافلة قد تلاشت ، وحل الصمت والفراغ على مدى النظر
هاوية افقية . وكان دانيال متعباً : ان الشوارع لم تكن تفضي الى
اي مكان ؛ وكانت لفراغها من الناس متشابهة ، فاذا بجادة سان ميشال
التي كانت بالامس دفقة طويلة من الذهب نحو الجنوب ، تصبح هذا
الحوط الميت ، المنتثر البطاط في الهواء . وخفق دانيال خطواته على
هذا البطن الاجوف المنتفخ ، وجهد في ان يرتعش من السرور ، وقال
بصوت مرتفع : « كنت احتقر باريس . » عبثاً : لم يكن ثمة ما هو
حي إلا الخضرة ، إلا اذرعة شجر الكستناء الكبيرة الخضراء ؛ وكان
يحس احساساً مائعاً بأنه يمشي في نبت الحراج . وكان جناح الملل
القدر قد بدأ يلامسه حين لاحظ لحسن الحظ اعلاناً ابيض وأحمر
مملصوقاً على حباك ، فاقرب وقرأ : « سننتصر لأننا الاقوى . »
ففتح ذراعيه وابتسم في تلذذ ، متحرراً : انهم يركضون ويركضون
حولا ينفكون يركضون . وكان قد رفع رأسه وأدار بسمته نحو السماء
وهو يتنفس بقوة : دعوى قائمة منذ عشرين سنة ، جواسيس حتى
الى ما تحت سريره ؛ إن كل مار كان شاهد اثبات او قاضياً او
الاثنين ؛ وكل ما كان يقوله كان يمكن ان يدينه . ثم فجأة
يأتي التشتت . انهم يركضون ، الشهود والقضاة ورجال الخير ،
يركضون تحت الشمس ، فيبيض الافق طائرات فوق رؤوسهم .
وكانت اسوار باريس ما تزال تتحدث عن كبرياتهم ومزايهم : اننا
الاقوى ، والاوfer فضيلة ، اننا صليبيو الديمقراطية ، المدافعون عن

بولونيا ، وعن الجدارة الانسانية ، وعن الفوارق الجنسية ، وستظل طريق الحديد مسدودة ، وسوف نجفف ثيابنا على خط سيغريد . وكانت الاعلانات في شوارع باريس ما تزال ترسل انشودة صغيرة للمجد أصابها البرد والوهن ، «هم» ، فقد كانوا يركضون ، وقد جُننوا من الخوف ، وكانوا يتمددون في الحفر ، ويطلبون الصنح . بشرف ، طبعاً ، لقد فقد كل شيء ما عدا الشرف ، خذوا كل شيء في الشرف : هذا قفاي ، فاركلوه في الشرف ، وسوف أحس قفاكم اذا تركتم لي الحياة . انهم يركضون ، يزحفون . وانا، المذنب أحكم مدينتهم .

كان يمشي خافض العينين ، متلذذاً ، وكان يسمع السيارات تنسل يقربه في الشارع ويفكر : « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس : ولا بد ان يكون ماتيو أسيراً ، والأرجح ان يكون برونيه قد قتل ، فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا ؛ لقد استعدت نفسي .. » وقال في نفسه فجأة : « اية سيارات ؟ » ورفع رأسه ، فأخذ قلبه يحقق حتى يبلغ خفقه صدغيه ، ثم « رأهم » . كانوا واقفين بصفاء ورصانة ، كل خمسة عشر او عشرين ، في سيارات طويلة مطيئة للتضليل تسير ببطء نحو السين ، كانوا ينسلون محمولين ، واقفين ، منسيين ، كانوا يلامسونه بنظرهم الذي لا يعبر عن شيء ، وكان آخرون يأتون في أعقابهم ، ملائكة اخرى متشابهة تنظر اليه نظرة واحدة . وسمع دانيال في البعيد موسيقى عسكرية ، وكان يخيل اليه ان السماء تمتليء بالاعلام ، فكان عليه ان يستند الى شجرة كستناء . كان « وحيداً » في هذه الجادة الطويلة ، الفرنسي الوحيد ، المدني الوحيد ، والجيش العدو برمته ينظر اليه . ولم يكن خائفاً ، بل كان يستسلم بثقة الى الوف العيون هذه ، ويفكر : « قاهرونا » فتغمره اللذة . وبادلهم نظرهم بشجاعة ، وتملى من هذا الشعر الأشقر ، ومن

هذه الوجوه المفلوحة التي تشبه فيها العيون بحيرات الجليد ، ومن هذه القامات الضيقة ، وهذه الافخاذ التي لا يصدق طولها واكتنازها بالعضلات . وتمتم : « ما اجملهم ! » ولم يكن يلمس الارض بعد . كانوا قد رفعوه الى أذرعتهم ، وكانوا يضمونه الى صدورهم وبطونهم المسطحة . وتدحرج شيء من السماء : إنه القانون القديم ، لقد انهار مجتمع القضاة ، وامحى الحكم ، وكان الجنود الصغار لابسو الكاكي وابطال حقوق الأنسان والمواطن ، مهزومين . وفكر : « اية حرية » وكانت عينياه مبللتين . كان الحي الوحيد الذي خلفته الكارثة ، « الانسان » الوحيد تجاه ملائكة الحقد والغضب هؤلاء ، هؤلاء الملائكة المبيدين الذين كانت نظراتهم ترد له طفولته ، وفكر : « ها هم القضاة الجدد ، وهذا هو القانون الجديد ! » وكم كانت تبدو هزيلة مضحكة فوق رؤوسهم عجائب السماء العذبة ، وبراءة الغيوم الصغيرة : كان ذلك انتصار الاحتقار والعنف والنية السيئة ، كان انتصار «الارض» . ومرت دبابة ، متعجرفة بطيئة ، تغطيها الاغصان ، ولا يكاد صوتها يُسمع وكان واقفاً في مؤخرتها شاب نضر قد القى سترته على كتفيه ورفع كمي قميصه الى ما فوق المرفقين ، وشبك ذراعيه الجميلتين العاريتين . وابتسم له دانيال ، فنظر اليه الشاب طويلا ، بهيئة قاسية ، ملتصع العينين ، ثم أخذ فجأة يبتسم ، فيما كانت الدبابة تتعد . وفتش سريعا في جيب بنطاله ثم رمى شيئا صغيرا التقطه دانيال من الهواء : كان علبة من السكاير الانكليزية . وكان دانيال يشد العلبة شداً قويا حتى انه كان يحس السكاير تنفجر تحت أصابعه . وكان ما يزال يبتسم . وصعد اغتلام للذيد لا يطاق من فخذه الى صدغيه . ولم يكن يرى بعد بوضوح ، وكان يردد وهو يلهث قليلا : « كما في زبدة - أنهم يدخلون في باريس ، كما يدخلون في زبدة . » ومرت وجوه اخرى امام نظره الغائم ، واخرى غيرها ، وهي كلها جميلة ؛ سوف

يحدثون لنا « شراً » . إن هذا هو « عهد الشر » الذي يبدأ ، يا للعدوبة ! كان يود لو كان امرأة حتى يرميهم بالزهور .

طيران صارخ ، خراء ، خراء ، عجلوا في السير ، وخطا الشارع فلهذه ضجيج آنية على مستوى الحوافي ، وحرث السماء لمع فولاذ ، انها تمر بين البيوت ، وصاح شارلو بماتيو ، في ظلال العنبر ، وكان ملتصقاً به : انها تطير وهي تكاد تلامس الارض . ودارت القبرات النهمة المتشاقلة قليلا فوق القرية ، باحثة عن قوتها ، ثم مضت وهي تجر خلفها آنيتها التي كانت تقفز من سقف الى سقف ، وبدت رؤوس حذرة ، وخرج أشخاص من العنبر والبيوت ، وقفز آخرون من النوافذ ، فكأنها السوق الصاخبة . صمت . كانوا جميعاً هناك الصمت ، زهاء مئة ، هندسة ، راديو ، محطة سبرالغور ، عمال تلفون ، امناء سر ، جميعاً ، ما عدا السائقين الذين كانوا منذ العشية ينتظرون وراء مقاديرهم ؛ وأخذوا اماكنهم لمشاهدة « اي » حفلة ؟ وجلسوا وسط الشارع ، لأن الطريق كان خالياً ولأن السيارات كفت عن المرور ، جلسوا على حافة الرصيف ، وعلى خشب النوافذ ، بينما ظل آخرون وقوفاً ، مستنديين الى واجهات البيوت . وكان ماتيو قد جلس على مقعد صغير ، امام حانوت البقالة، ولحق به شارلو وبيارنيه ، ولم يكن ثمة من يتكلم ، لقد كانوا هناك ليكونوا معاً ولينظر بعضهم الى بعض ، وكانوا يرون أنفسهم على حقيقتهم ، السوق الكبيرة ، الجمهور المفرط في الهدوء ذو المثة وجه رمادي ؛ وكان الشارع يتكلس تحت الشمس ، ويتلوى تحت السماء المبقورة ومحرق الاقدام والافخاذ ، وكانوا يستسلمون للحرق ؛ وكان الجنرال يسكن في بيت الطبيب : النافذة الثالثة في الطابق الاول ، وكانت تلك عينه ، ولكنهم كانوا يستخفون بالجنرال : كانوا ينظرون بعضهم الى بعضهم ، فيخيف بعضهم بعضاً . كانوا يعانون من رحيل مكبوت لا يتحدث عنه احد ، ولكنه

كان يضرب في صدورهم ضرباً كبيراً ؛ وكانوا يحسونه في أذرعهم وأفخاذهم ، مؤلماً كأنه تشنج ؛ لقد كان خذروفاً يدور في القلوب . وتنفس شخص كما يتنفس كلب يحلم . وقال في الحلم : « ان في « الادارة » علماً للقروء . » وفكر ماتيو : « نعم ، ولكنهم وضعوا الدرك على الباب للحراسة » وأجاب غيكيولي : « اسمع ايها الاحمق ، لقد وضعوا الدرك على الباب للحراسة . » وحلم شخص - بدوره - بصوت ابيض مستنيم : « ان ذلك كالحجاز ، عنده خبز ، اؤكد لك ، فلقد رأيت الأرغفة ، ولكنه سد حانوته بحواجز . » وتابع ماتيو الحلم ، ولكن من غير ان يتكلم ، ورأى شريحة لحم ، فامتلاً فسه باللعب ، وتحامل غريمو قليلاً مشيراً الى المصاريع المغلقة وقال : « مسا بالهم في هذا البلد ؟ كانوا بالأمس يحدثوننا ، وهم اليوم يخثيثون ! » كانت البيوت بالأمس تتشاءب كالمحار ، اما الآن ، فقد انغلقت على نفسها ؛ وفي داخلها كان رجال ونساء يظهرون بمظهر الموتى ويعرقون في الظلام ؛ وقال نيبير : « انما نحن موبوءون لأننا مهزومون » وغنت معدة شارلو ، فقال ماتيو : « ان معدتك تغني » فأجاب شارلو : « انها لا تغني ، بل تصرخ » وسقطت في وسطهم كرة من المطاط ، فالتقطها لاتيكس ، وبرزت فتاة صغيرة في الخامسة او السادسة ونظرت اليه في خجل وسألها لاتيكس : « اهي كرتك ؟ تعالي خذها . » وكان الجميع ينظرون اليها . وكانت لدى ماتيو رغبة بأن يأخذها على ركبتيه ؛ وكان لاتيكس يحاول ان يرقق صوته الخشن : « هيا ! تعالي ! تعالي ! تعالي الى ركبتي . » وانطلقت همسات كل مكان ! تعالي ! تعالي ! تعالي ! ولم تكن الصغيرة تتحرك ؛ تعالي ، فرختي ، تعالي ، تعالي يا دجاجتي ، تعالي ! وقال لاتيكس : « يا إلهي ! اننا في هذه الساعة نحيف الاطفال » وكان الآخرون يضحكون ، وقالوا له : « انت الذي تحيفها بسحنتك

هذه ! » وكان ماتيو يضحك ، ولاتيكس يردد بصوت مغن :
« تعالي يا طيبي ! » ثم أخذه الغضب فجأة فصاح : « اذا لم تأتي
أحتفظ بها ! » ورفع الكرة فوق رأسه ليربها اياها ، وتظاهر بأنه
يضعها في جيبه ، فصرخت الصغيرة ، ونهض الجميع ، وأخذوا
يصرخون : « أعددها لها ، إنك تُبكي طفلة ، ايها القدر ، لا ، لا ،
ضعها في جيبك ، اقدفها على السطح . » وكان ماتيو يحرك ذراعيه
وهو واقف ، فابعده غيكيولي وعيناه تبرقان غضباً ، وراح ينزوع
امام لاتيكس : « أعددها لها ، بالله عليك ، اننا لسنا متوحشين ! »
وضرب ماتيو بقدمه وقد أثمته الغضب ، وكان لاتيكس اول الهادئين
قخفض عينيه وقال : « لا تغضبوا ، فستعاد اليها . » وقذف الكرة
يارتباك ، فصدمت جداراً ، وقفزت ، فارتمت الطفلة فوقها ولاذت
بالفرار . الهدوء . وعاد الجميع الى الجلوس ، وعاد ماتيو الى الجلوس
حزيناً ساكناً ، وكان يفكر : « اننا لسنا موبوئين . » لا شيء غير
ذلك ، لا شيء غير افكار الجميع . لم يكن احياناً الا فراغاً قلقاً ،
وكان يصبح احياناً اخرى جميع الناس ، فكان ضيقه يهدأ ، وتضج
افكار الجميع نقاطاً ثقيلة في رأسه وتندحرج خارج فمه ، لسنا موبوئين .
ومد لاتيكس يديه وتأملها بحزن . « ان لي ستة ، انا الذي
احدثكم ، وكبيرهم في السابعة ولم أرفع يدي عليهم قط . »

وكانوا قد عادوا للجلوس موبوئين ، جاثعين ، كمدنين تحت السماء المسكونة ،
ازاء هذه البيوت الكبيرة العمياء التي كانت ترشح حقداً . كانوا
صامتين : ولم يكن لها الا ان تصمت ، تلك الهوام الكريهة التي كانت
تلتطخ هذا اليوم الجميل من ايام حزيران . صبراً ! إن المبيدات ،
وسنجنات جميع الطرق الى فليتوكس . وأشار لونجان الى المصاريع
وقال : « انهم ينتظرون ان يأتي الالمان ليخلصوهم منا » وقال نيير :
« تستطيع ان تراهن انهم سيكونون مع الالمان اوفر لطفاً . » وقال

غيكولي : « انهم يفضلون ان يشغلوا مع المنتصرين ؛ هذا أشد مرحاً ،
ثم ان التجارة سائرة . اما نحن ، فنحمل النحاس . » وقال لاتيكس :
« ستة اولاد ، كبيرهم في السابعة . ولم أخف احداً منهم قط . »
وقال غريمو : « اننا محتقرون . »

وارتفعت جميع الرؤوس لصوت أقدام ، ولكنها ما لبثت ان انخفضت ،
واجتاز القائد «برات» الشارع بين الرؤوس ، فلم يُحِيه أحد ؛ وتوقف امام
بيت الطبيب ، فعادت الرؤوس الى الانتصاب وحدثت الانظار بكتفيه
المحشوتين فيما كان يرفع مطرقة الباب الحديدية ويترك ثلاث طرقات .
وانشق الباب فانسل من الفتحة الصغيرة الى البيت . ومن الساعة الخامسة
والخامسة والاربعين الى الخامسة والسادسة والخمسين ، مرت جميع ضباط
اركان الحرب ، منزعجين متصلبين ، بين الجنود الصامتين : وكانت
الرؤوس تضطجع لدى مرورهم ، ثم ترتفع بعد ذلك مباشرة . وقال
باين : « إن عند الجنرال عيداً . » فالتفت شارلو الى ماتيو وقال :
« ما عساهم يفكرون ؟ » فأجاب ماتيو : « بوزك ! » فنظر اليه
شارلو وصمت . ومنذ مرت الضباط ، زاد الناس رمادية وكمداً وثناقلاً ؛
وكان بيارنيه ينظر الى ماتيو في مفاجأة قلقة : انما هو يلقي على خدي
امتقاعه هو بالذات .

وسمع صوت غناء ، فانتفض ماتيو ، واقترب الغناء :

ما دام في الوعاء خراء

فالجو متن في الغرفة

وانعطف في زاوية الشارع زهاء ثلاثين فتى ، سكارى ، بلا بنادق
ولا سترة ولا قبعات . وكانوا يجتازون الشارع بخطى واسعة وهم يغنون
ويبدو عليهم الغيظ والفرح ، وكانت وجوههم حمراء من الشمس والخمر .
وحين لمحووا هذه الدودة الرمادية التي كانت تتحرك على مهل فوق
سطح الارض وترسل نحوهم رؤوسها المتعددة ، توقفوا فجأة وكفوا

عن الغناء . وخطا ملتج ضخم خطوة الى الامام ؛ وكان عارياً حتى
النطاق وأسود ذا عضلات مستديرة وسلسلة ذهبية حول عنقه . وسأل :
- هل هذا يعني انكم أموات ؟
فلم يجب أحد ؛ فصرف رأسه وبصق ؛ وكان يجد مشقة في الاحتفاظ
بتوازنه .

ونظر اليهم شارلو نظرة حسيرة وهو يطرف بعينه . وسأل :
- ألسن من عندنا ؟
فسأله الملتحي وهو يربت على فرجه :
- وهذا ، هل هو من عندكم ؟ لا يا سيدي . لسن من عندكم ،
واو كنت من عندكم لكان هذا يؤذيني .

- من اين انت قادم ؟
فقام بحركة مبهمه :
- من فوق .
- وهل حدثت معارك ، فوق ؟
- خراء ! كلا ، لم تحدث معارك ، الا ان قائدنا انسحب حين
بدأت الرائحة الكريهة تتصاعد ، وفعلنا نحن مثله ، ولكن لا من الجهة
نفسها ، حتى لا نلتقي به .

فضحك الافراد خلف الملتحي، واخذ شابان طويلان يغنيان في تحد :

جرجر بيضاتك على الارض

ونخذ عضوك في يدك ايها الرفيق

فنحن ذاهبون الى الحرب

الى صيد القحبات .

والتفتت جميع الرؤوس نحو عين الجنرال ؛ وحرك شارلو يده
بهيئة مذعورة :
- اسكتوا .

فسكت المغنون ، وظلّوا فاغري الافواه ، متهادين ؛ وبدا عليهم
الارهاق فجأة .

وقال شارلو موضعاً ، وهو يشير الى البيت :
- إن ضباطنا هناك .

فقال صاحب اللحية بصوت قوي :

- انني أشخّ على ضباطكم .

وكانت سلسلته الذهبية تلتصق في الشمس ؛ وخفض بصره نحو الافراد
الجالسين في الشارع واطاف :

- واذا كان الفتيان يزعجونكم ، فليس لكم الأ ان تأتوا معنا ،
وهكذا يكفون عن ازعاجكم .

فكان الآخرون يقولون خلفه مرددين :

- معنا ! معنا ! معنا ! معنا !

وساد صمت . وكان نظر الملتهي قد توقّف عند ماتيو . وصرف
ماتيو عينيه :

- وإذن ؟ من يأتي ؟ مرة ، مرتين ، ثلاث مرات .

فلم يتحرك أحد ، فأنتهى الملتهي الى القول بلهجة ازدراء :

- ان هؤلاء ليسوا رجالاً ، وانما هم ضراطون . تعالوا يا رفاقي ،

فاني لا اريد ان اعفن هنا : سوف يجعلونني أغضب .

واستعادوا سيرهم ، وكان الأفراد يبتعدون ليدعوهم يمرون ، وأدخل
ماتيو قدميه تحت المقعد .

جرجر بيضاتك على الأرض

كان الافراد ينظرون الى عين الجنرال : كانت وجوه قد التصقت
بالزجاج ، ولكن الضباط لم يظهروا .

فنحن ذاهبون الى الحرب ...

واختفوا : ولم ينبس أحد بكلمة ، وتلاشت الاغنية آخر الأمر .

واذ ذاك فقط ، تنفّس ماتيو . وقال نيبير من غير ان ينظر الى رفاقه :

— اولاً ، ليس هناك دليل على اننا لن نرحل .

قال لونجان : — بلى ، هناك دليل .

— وما هو ؟

— لقد نفذ الوقود .

فقال غيكيولي :

— يبقى دائماً للضباط وقود . إن المستودعات ملاءى .

— ولكن شاحناتنا تفتقده .

فضحك غيكيولي ضحكة جافة :

— طبعاً .

وصاح لونجان وهو يضحّم صوته الدقيق :

— اقول لك انهم قد خانونا . خانونا ، وسلمونا للألمان !

قال مينار في لهجة ضجر :

— دعنا !

فردد ماتيو : — دعنا ! دعنا !

وقال احد عمال التلفون : — ثم خراء ! لا تتحدثوا طوال الوقت

عن الرحيل ، فسرى . إن هذا يبعض في آخر الأمر .

وكان ماتيو يتصورهم ، سائرين منشدين على الطريق، وربما يقطفون

الزهور . كان يستشعر الحجل ، ولكنه كان الحجل الكبير المشترك .

ولم يكن يجد ذلك رديئاً الى حد بعيد .

قال لاتيكس : — ضرّاطون ! لقد وصفنا بالضراطين ، ذلك

الصبي . نحن آباء العائلات . وهل رأيت السلسلة التي يحملها في عنقه؟

يا له من لوطي !

قال شارلو : — اسمعوا ! اسمعوا !

وسمّع هدير ، فتمّم صوت متعب :

- اختبئوا ايها الرفاق . انهم يؤجّلون ذلك .
- قال نيبير : - انها المرة العاشرة منذ هذا الصباح .
- هل عددت ؟ اما انا ، فقد كففت حتى عن العدّ .
- ونهبوا على غير عجل ، فركنوا الى الابواب ، ولاذوا بالممرات .
- ولامست طائرة السطوح ، ثم خفت الضجّة ، فخرجوا وهم يرقبون السماء ، وعادوا الى الجلوس .
- قال ماتيو : - انها مطاردة .
- فقال لوبرون : - طز ! طز !
- وسُمع في البعيد صوت رشاش .
- مدفعية مضادة للطائرات ؟
- مدفعية مضادة للطائرات في قفاي ! ان الطائرة هي التي تطلق نارها !
- وتبادلوا النظر . وقال غريمو :
- لا يحسن التنزه في الطرقات اليوم :
- فلم يجيبوا ، ولكن العيون كانت ت برق ، وبسمة صغيرة تجول على الافواه . وبعد لحظة ، اكتفى لونجان بالقول :
- ذلك دليل على انهم غير بعيدين .
- ونفض غيكيولي واضعاً يديه في جيبيه ، وطوى ركبتيه ثلاث مرات ليزيل خدرهما ؛ ثم رفع الى السماء وجهاً فارغاً مع ثنية استياء حول فمه .
- الى اين انت ذاهب ؟
- اقوم بدورة صغيرة .
- اين ؟
- هناك . اريد ان أرى ما حدث لهم .
- إحذر الطليان .
- لا تخف .

وابتعد في كسل . وكان الجميع راغبين في مرافقته ، ولكن ماتيو لم يجرؤ على النهوض ، وساد صمت طويل ؛ وكانت الوجوه قد استردت بعض ألوانها واخذت تلتفت بعضها الى بعض في انتعاش .

— ما اجمل ان نستطيع القيام بنزهاتنا الصغيرة على الطرق ، كما في زمن السلم .

— ماذا كانوا يحسبون ؟ انهم سيصلون حتى بانام ؟ ان هناك اشخاصاً لا يشكّون في شيء .

— لو ان ذلك قابل للتطبيق ، لما انتظرناهم حتى يقوموا به . وصمتوا متوترين ، ثائري الأعصاب ؛ كانوا ينتظرون ؛ وكان ثمة شخص طويل هزيل ، مستند الى ستار حانوت البقالة الحديدي ، ويداه ترتجفان . وعاد غيكيولي بعد لحظة، وهو ما يزال يمشي مشية اللامبالاة .
وصاح ماتيو :

— ماذا إذن ؟

فهز غيكيولي كتفيه : وكان الافراد قد تحاملوا على مرافقتهم يدبرون نحوه عيوناً بارقة .

قال : — لقد تلاشوا .

— جميعاً ؟

— كيف تزيدني ان اعرف ؟ اني لم أعد .

وكان ممتعاً ، وكانت تجشّوات صامته تنفخ شفثيه .

— واين كانوا ؟ على الطريق ؟

— خراء ! اذا كنت فضولياً الى هذا الحد ، فليس لك إلا ان

تذهب لترى .

وعاد الى الجاوس ؛ وأخذت سلسلة ذهبية صغيرة تلمع في عنقه ؛ فحمل اليها يده ، وبرمها بين اصابعه ، ثم تركها فجأة . وقال ، كأنما يتحدث على مضض :

— لقد اخبرت ناقلي الجرحى .

يا للمساكين ! وكانت السلسلة تلتمع وتبهر . ترى ، ايكون هناك من يقول : « يا للمساكين ! » ؟ كانت العبارة على جميع الأفواه ؛ ولكن هل ثمة من يراني فيقول : يا للمساكين ! ايكون ذلك رياءً حقاً ؟ كانت السلسلة الذهبية تلتمع على العنق الاسمر ؛ الوحشية ، الفظاعة ، الشفقة ، الحقد ، كل ذلك كان يطوف هناك ، وكان ذلك قاسياً ومرحاً ، اننا نُحلم الهوام ، ان افكارنا تتكاثر ، فتصبح أقلّ بشرية ؛ افكارٌ ذات شعر وارجل تركض في كل مكان ، وتقفز من رأس الى آخر : ان الهوام على وشك ان تستيقظ .

— دولارو ؟ هل انت أصم ؟

دولارو ، هو انا . والتفت فجأة . كان بينيت يبسم له من بعيد : « انه يرى دولارو » .

— هيه !

— تعال .

فارتعش ، وقد أحسّ فجأة انه وحيد وعارٍ ، انه رجل . « انا » . وقام بحركة ليطرد بينيت ، ولكن الجمع كان قد تشكل ثانية ضده ، وكانت عيونهم الهوامية تنفيه ، وكانوا ينظرون اليه برصانة مندهشة ، كما لو انهم لم يروه من قبل قط ، كما لو انهم كانوا يرونه عبر اعماق آنية . اني لا اسوى اكثر منهم ، ولا يحق لي ان اخونهم .
— تعال .

ونهض دولارو ، دولارو الهائل ، دولارو الرقيق ، الاستاذ دولارو ذهب بخطى بطيئة للقاء بينيت . وكان خلفه المستنقع ، الحيوان ذو المثني رجل . خلفه ، مثنا عين : وكان خائفاً في ظهره . وجاء الضيق من جديد . بدأ على حذر ، كأنه تربيتة ، ثم اقام متواضعاً مألوفاً ، في جوف معدته . ولم يكن هو شيئاً : لم يكن اكثر من خواء . خواء في

نفسه ، وحوها . وكان يتنزّه في غازٍ مخفّف . ورفع الجندي الشجاع
دولارو قبعته ، وأمرّ الجندي الشجاع دولارو يده في شعره ، وادار
الجندي الشجاع دولارو الى بينيت بسمه متعبه ، فسأله :

— ماذا هناك ايها العنيد ؟

— هل انت مسرور معهم ؟

— كلا .

— فلماذا انت باقى معهم ؟

قال ماتيو : — أننا متشابهون .

— مَنْ ، المتشابهون ؟

— هم ونحن .

— وإذن ؟

— إذن ، الأفضل ان نبقى معاً .

فاشتعلت عيننا بينيت ، وقال وهو يرتدّ برأسه الى الخلف :

— اما انا فلست متشابهاً معهم .

وصمت ماتيو . قال بينيت :

— تعال .

— الى أين ؟

— الى البريد .

— الى البريد ؟ وهل هناك بريد ؟

— نعم . هناك فرع في اسفل القرية .

— وماذا تريد ان تفعل في البريد ؟

— لا تهتمّ بذلك .

— انه مغاق بكل تأكيد .

قال بينيت : — سيكون مفتوحاً بالنسبة لي .

وأمرّ ذراعه تحت ذراع ماتيو وجرّه وهو يضيف :

- لقد وجدت اثني .
 وكانت عيناه تلتمعان بمرح محموم ، وكان يبتسم بسمة متعالية :
 — اريد ان أعرفك عليها .
 — ولماذا ؟
 فنظر اليه بينيت بقسوة :
 — انك صديقي ، اليس كذلك ؟
 قال ماتيو : — بكل تأكيد (وسأله) أهى موظفة البريد ؟
 — نعم ، انها آنسة البريد .
 — كنت أظن انك لم تكن راغباً في قصص النساء ؟
 فضحك بينيت ضحكة مغتصبة :
 — ما دمنا لا نقاتل ، فيجب ان نقضي الوقت .
 والتفت اليه ماتيو فوجد هيئته مزهوة ، وقال :
 — انك لم تعد تشبه نفسك ، يا رفيقي الصغير . ايكون الحب هو
 الذي غيرك ؟
 قال بينيت : — هيه ! هيه ! كان بالا مكان ان اسقط اسوأ من
 هذه السقطة . سوف ترى نهديها : يأخذان العقل . وهى مثقفة : انها
 فى الجغرافية او الحساب تضاهيك .
 وسأله ماتيو : — وامراتك ؟
 فبدل بينيت سحنته ، وقال بقسوة :
 — على قفاي !
 وكانا قد وصلا الى بيت صغير بطابق واحد ، وكانت المصاريع
 مغلقة ، وكان مزلاج الباب مرفوعاً . وطرق بينيت ثلاث طرقات وصاح :
 — هذا انا .
 والتفت الى ماتيو وهو يبتسم :
 — انها تخشى ان يغتصبوها .

وسمع ماتيو صوت مفتاح ، وقال صوت امرأة :
- ادخل بسرعة .

وغطسا في رائحة حبر وصمغ وورق . وكان مقعد طويل يعلوه ،
حاجز يقسم الحجرة الى قسمين . ولح ماتيو في الداخل باباً مفتوحاً .
وتراجعت المرأة حتى ذلك الباب ، واغلقتة دونها ، وسمعت وهي تدير
المفتاح في القفل ، وظلالاً لحظات في الممر الضيق المخصص للجمهور ،
ثم بدت عاملة البريد مرة اخرى وراء نافذتها . وانحنى بينيت فأسنده
جبينه الى الحاجز :

- انك تضعيننا في القصاص ؟ هذا غير لطيف .
قالت : - آه ! يجب ان يكون الانسان عاقلاً .

وكان لها صوت جميل ، حار ومعتم . ورأى ماتيو عينيها
السوداوين تبرقان .

وقال بينيت : - إنك إذن خائفة منا ؟
فضحكت :

- لست خائفة ، ولكني لست واثقة كذلك .

- ايكون هذا بسبب صديقي ؟ ولكنه في الواقع مثلك : فهو
موظف : وهذا قاسم مشترك للتعارف ، وينبغي لذلك ان يطمئنك .

وكان يتكلم بصوت انيق وهو يبتسم بدمائة ، وقال :

- هيا ، أخرجني على الأقل . اصبعاً من خلال الحاجز ، اصبعاً
واحداً فقط .

فأخرجت اصبعاً طويلاً هزيلاً من خلال الحاجز ، فوضع بينيت
على ظفره قبلة . وقالت :

- كف عن هذا ، وإلا سحبتة .

قال : - لن يكون ذلك مؤدباً . يجب ان يشد صديقي
على اصبعك .

والتفت الى ماتيو :

— اسمح لي ان اقدم لك الآنسة التي — لا — تريد — ان — تقول
اسمها . انها فرنسية صغيرة شجاعة : كان بوسعها ان تطلب نقلها ،
ولكنها لم ترد ان تترك وظيفتها ، فرمما كانوا بحاجة اليها .
وكان هزّ كنفهه ويبتسم ، كان لا ينفك يبتسم . وكان صوته
مائماً ومغنياً ، ذا لكنه انكليزية خفيفة .
قال ماتيو : — مرحباً ايها الآنسة .

فحركت اصبعها عبر الحاجز . فشد عليه بين أصابعه . وسألته :
— انت موظف ؟

— اني استاذ .

— وانا عاملة بريد .

— ارى ذلك .

وكان يشكو الحرّ والضمجر ؛ كان يفكر بالوجوه الرمادية البطيئة
التي خلفها وراءه .

قال بينيت : — ان الآنسة هي المسؤولة عن جميع رسائل القرية
الغرامية .

قالت بلهجة متواضعة : — اوه ! تعرف ان الرسائل الغرامية هنا...

قال بينيت : — لو كنت اسكن هذا البلد ، لكنت ارسل رسائل
غرامية لجميع الفتيات هنا حتى تمرّ بين يديك . وبذلك تكونين
« ساعية الغرام » .

وكان يضحك في شيء من الشرود :

— ساعية الغرام ! ساعية الغرام !

قالت : — سيكون هذا عظيماً ، لأنه يضاعف عملي !

وساد صمت طويل ، وكان بينيت قد احتفظ ببسمته اللامبالية ،
ولكنه كان متوتر المزاج ، وكان نظره يبحث في كل مكان . وكانت

- حاملة ريشة معلقة الى الحاجز بخيط ، فتناولها بينيت ، وغطها بالحرير ،
 ووسطر بضع كلمات على بطاقة بريدية مدّها لها وهو يقول :
- ها هي ذي .
 فسألته من غير ان تأخذها :
- ولكن خذها ! انت موظفة بريد : فقومي بمهنتك .
 وأخذتها آخر الأمر وقرأت :
- ادفعوا الف قبلة الى الآنسة « بلا اسم » ... (وقالت وهي
 متوزعة بين الغضب والضحك الشديد) ها أنه قد عطل لي بطاقة بريدية.
 وبلغ الضجر من ماتيرو منتهاه فقال :
- حسناً . انني اترككما .
 فبدا على بينيت الامتعاض :
- ألا تبقى ؟
 — يجب ان ارجع الى هناك .
 قال بينيت على عجل :
- اني ارافقك .
 والتفت الى موظفة البريد :
- سأعود بعد خمس دقائق : فهل تفتحين لي الباب ثانية ؟
 فقالت في انين :
- اوه ! كم هو مزعج ! انه يقضي وقته كله في الدخول والخروج :
 لقد آن لك ان تقرر !
 قال : حسناً ، حسناً . انني باق . ولكنك ستتذكرين : فانت
 التي طلبت مني ان أبقى .
 — لم اطلب شيئاً علي الاطلاق .
 — بلى !
 — لا !

وتتم ماتيو بين اسنانه :

— اوه ! خراء !

والتفت الى الصغرة وقال :

— وداعاً ، يا آنسة .

فقال موظفة البريد في برودة :

— وداعاً .

وخرج ماتيو ومشى فارغ الرأس . وكان الليل يهبط ، وكان الجنود ما يزالون جالسين كما تركهم . ومرّ في وسطهم فارتفعت من الأرض أصوات :

— ما هي الاخبار ؟

قال ماتيو : — ليس ثمة من اخبار .

وعاد الى مقعده وجلس بين شارلو وبيارنيه وسأل :

— الا يزال الضباط عند الجنرال ؟

— لا يزالون .

وتثأب ؛ كان ينظر بأسى الى الافراد الغارقين في الظل ؛ وتتم « نحن » . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً بعد : لقد كان وحيداً . وقلب رأسه الى الوراء ونظر الى النجوم الاولى . كانت السماء رقيقة كامرأة ؛ وكان حب الارض كله قد صعد ثانية الى السماء . وطرف ماتيو بعينيه :

— نجم مذئب ، يا جماعة . تمنّوا شيئاً .

فصرط لوبيرون وقال :

— هذه هي اميتي !

وتثأب ماتيو من جديد ، وقال :

— حسناً ، اني ذاهب لأنام . هل تأتي يا شارلو ؟

— أشكّ : فقد نرحل هذه الليلة ، وأفضل ان اكون مستعداً .

فضحك ماتيو ضحكة خشنة وقال :

– يا لك من رأس فرج !

قال شارلو بسرعة :

– كفى ، كفى . انني آت معك .

ودخل ماتيو الى العنبر فارتدى في الثبن مرتدياً كل ثيابه . وكان يموت من شدة النعاس : كان دائماً يُحسّ بالنعاس حين يكون شقيماً . وأخذت كرة حمراء تدور ، واطلت وجوه نسائية من الشرفة وأخذت تدور هي ايضاً ، وكان ماتيو يحلم بأنه السماء ؛ وكان يطلُّ من الشرفة وينظر الى الأرض . وكانت الأرض خضراء ذات بطن أبيض ، وكانت تقفز قفز البراغيث . وفكر ماتيو : يجب ألا تمسني ، ولكنها رفعت خمسة اصابع هائلة وقبضت على ماتيو من كتفيه .

– أنهض ! بسرعة !

فسأل ماتيو : – كم هي الساعة ؟

وكان يُحسّ نفساً حاراً على وجهه ، فقال صوت غيكيولي :

– الساعة العاشرة والثلاث . أنهض على مهل ، وتوجه الى الباب ،

ثم انظر من غير ان تثرى .

فجلس ماتيو وتناوب :

– ماذا هناك ؟

– إن سيارات الضباط تنتظر في الطريق ، على بعد مئة متر من هنا .

– واذن ؟

– افعل ما أقوله لك وسترى .

واختفى غيكيولي ؛ وفرك ماتيو عينيه ، ونادى بصوت منخفض :

– شارلو ! شارلو ! لونجان ! لونجان !

ليس من جواب . فنهض ومشى متهادياً من النعاس حتى الباب .

وكان مفتوحاً على سعته . وكان رجل محتبئاً في الظل .

– من هنا ؟

- قال بينيت : - انا .
 - كنت احسبك تضاجع .
 - انها تداور وتماطل ، ولن أحصل عليها قبل الغد (وتنهّد
 واضاف) يا لاهي ! إن شفتي" تؤلماني من فرط ما ابتسمت .
 - اين بيارنيه ؟
 فأشار بينيت الى ركن مظلم ، في الزاوية الاخرى من الشارع :
 - هناك ، مع شارلو ولونجان .
 - وماذا يفعلون هناك ؟
 - لا ادري .

وانتظرا في صمت . وكان الليل بارداً ومشرقاً تحت ضوء القمر .
 وكانت حزمة من ظلال تتحرك تجاهها ، تحت المدخل . وادار ماتيو
 رأسه نحو بيت الطبيب : كانت عين الجنرال مغلقة ، ولكن ضوءاً
 أصفر كان يتسلل من تحت الباب . انني « انا » هنا . وانهار « الزمن » ،
 مع مستقبل - فزاعة كبير . ولم يبق غير مدة محلية ، صغيرة نائسة .
 لم يكن ثمة سلم ولا حرب ، ولا المانيا ولا فرنسا : لم يكن الا هذا
 الشعاع المتقطع تحت باب زبما كان على وشك ان يفتح . فهل تراه
 يفتح ؟ لم يكن ثمة ما هو هام غير هذا ، ولم يكن لماتيو بعد غير
 هذا المستقبل الصغير . أينفتح الباب ؟ وأضاء قلبه الذابل فرح شبيهه
 بفرح المغامرات . أينفتح الباب ؟ كان ذلك هاماً : كان يخيل اليه ان
 الباب اذ يفتح يقدم . أخيراً جواباً على جميع الاسئلة التي طرحها على
 نفسه طوال حيساته . وأحس ماتيو بأن رعشة فرح ستولد في جوف
 كليته ، وشعر بالخجل ، وقال لنفسه في جهد : لقد خسرنا الحرب .
 وفي تلك اللحظة ، رُدد له « الزمن » وذابت لؤلؤة المستقبل الصغيرة
 في مستقبل ضخم مشؤوم . الماضي ، المستقبل على مدى النظر ، منذ
 القراعنة حتى ولايات اوروبا المتحدة . وانطفأ فرحه ، وانطفأ النور

تحت الباب ، وصرّ الباب ، ودار على مهل ، وانفتح على ظلام ؛
وخفق الظلّ تحت المدخل ، وطقطق الشارع كأنه غابة ، ثم سقط في
الصمت . لقد فات الاوان : فليس ثمة من مغامرة .

وبعد لحظة ، برزت اشباح على الدربزين ؛ وهبط الضباط الدرج
واحداً اثر الآخر ؛ وتوقف أول الهابطين في وسط الطريق بانتظار
الآخرين ، فتبدلت الطريق : ١٩١٢ ، طريق حامية تحت الثلج ، والوقت
متأخر ، وكانت حفلة الليل لدى الجنرال قد انتهت ؛ وكان الملازمان
سوتان وكادين متشابكي الذراعين ، جميلين كصورتين ؛ وكان القائد
برات قد وضع يده على كتف الكابتن مورون ، وكانوا ينحنون
ويتسمون ويقفون تحت مانيزيوم القمر ، صورة اخرى ، الأخيرة ،
انني اصوّر الفريق كله ، انتهى . واستدار القائد برات على عقبيه ،
فنظر الى السماء ورفع اصبعين في الهواء ، كما ليبارك القرية . وخرج
الجنرال بدوره ، فأغلق الكولونيل الباب خلفه بهدوء : كان اركان
حرب الفرقة بكامل عدده ، عشرين ضابطاً ، في امسية مثلوجة ،
ذات سماء صافية ، وكانوا قد رقصوا حتى منتصف الليل ، أجمل
ذكرى للحامية . وأخذ الجمع الصغير يسير بخطى ذبئية ؛ وكانت نافذة
في الطابق الاول قد انفتحت بغير ضجعة ؛ وكان شكل ابيض يطل منها
وينظر اليهم ذاهبين .

وتتم بينيت :

- اي مزاح !

كانوا يسرون بهدوء ، في كبرياء رقيقة ؛ وكان على وجوههم
الصنمية التي تقطر بنور القمر وحدة وصمت شديداً ، حتى ان النظر اليها
كان قد نيساً . وكان ماتيو يستشعر الذنب والتطهر :

- اي مزاح ! اي مزاح !

وتردد الكابيتين مورون . أليكون قد سمع ؟ وناس جسمه الكبير

الرائع والتفت نحو العنبر ؛ وكان ماتيو يرى عينيه تلتمعان . وهمسدر بينيت وقام بحركة ليقتذف بنفسه الى الخارج . ولكن ماتيو قبض على معصمه وأمسكه بقوة . وبحث الكابتن بنظره في اعماق الظلمات فترة اخرى ثم استدار وتشاءب بغير اكرات وهو يربت على شفثيه بأطراف اصابعه اللابسة القفاز . ومرّ الجنرال ، ولم يكن قد سبق لماتيو ان رآه على هذا القرب . وكان رجلاً ضخماً يفرض شخصيته ، ذا وجه منضد ، وكان يستند بتثاقل الى ذراع الكولونيل ؛ وكانت تتبعهما حاشية تحمل الحقايب ؛ وكان فريق هامس ضاحك من الملازمين يُنهى الموكب .

وقال بينيت بصوت مرتفع تقريباً :

— ضباط !

ففكر ماتيو : « الاحرى انهم آلهة . آلهة يعودون الى جبال الالوب بعد مكوث قصير على الارض » . وغرق الموكب الالوبي في الليل ؛ ورسم مصباح كهربائي دائرة راقصة على الطريق وانطفأ . والتفت بينيت الى ماتيو ؛ وكان القمر يضيء وجهه الجميل الياثس .

— ضباط ؟

— اي نعم .

واخذت شفتا بينيت ترتجفان ؛ وكان ماتيو يخشى ان ينفجر باكياً .

فقال :

— كفى ! كفى ! هياً ايها العنيد الصغير ، استعد رباطتك .

قال بينيت : — يجب ان نراه حتى نصدقه . انه العالم مقلوباً .

واخذ يد ماتيو يشدها ويتشبث بها ، كما لو كان يحتفظ بأمل

اخير :

— لعل السائقين يرفضون الرحيل ؟

فهزّ ماتيو كتفيه : كانت المحركات قد بدأت تهدر، فيؤلّف ذلك

أنشودة زيزان عذبة ، بعيداً ، في اعماق الليل . وبعد لحظة ، اقلعت
السيارات وضاع صوت المحركات . وشبك بينيت ذراعيه :
- ضباط ! بدأت الآن اصدق ان فرنسا قد هابت .

والتفت ماتيو : كانت ثمة اشباح تنفصل عن الجدار عناقيد عناقيد ،
وكان جنودٌ يخرجون في صمت من الأزقة والبوابات والعنابر . جنود
حقيقيون من الصف الثاني ، ذوو اجسام ضعيفة وثياب رثة ، ينسلون
ازاء بياض الواجهات المعتم ؛ وفي لحظة ، امتلأ الشارع . وكانت لهم
وجوه حزينة جداً انقبض لها قاب ماتيو ، فقال لبينيت :
- تعال .

- الى اين ؟

- الى الخارج مع الرفاق .

قال بينيت : - اوه ! خراء ! اني ناعس ، ولا رغبة لي في
التحدث .

وتردد ماتيو : كان يشعر بالنعاس ، وكانت اوجاع عنقه تنقب
له رأسه ؛ وكان يود لو ينام ولا يفكر في شيء بعد . ولكن هيبتهم
كانت حزينة ، وكان يرى ظهورهم تلتمع تحت القمر فيشعر بأنه
أحدهم . وقال :

- اما انا ، فاني راغب في التحدث . مساء الخير .

واجتاز الشارع وضاع في الجمع . وكان ضوء القمر الطيشوري ينير
سحنات متحجرة ، ولم يكن ثمة من يتكلم . وفجأة ، سمع صوت
المحركات واضجاً . فقال شارلو .

- لقد عادوا ، لقد عادوا !

- ولكن لا ، ايها الابله ! لقد سلكوا طريق المقاطعات .

ومع ذلك ، فقد ارهفوا آذانهم ، بداخلهم امل غامض . وخف
الهدير وتلاشى . وتهد لاتيكس :

- انتهى الأمر :

قال غريمو : - ها نحن اخيراً وحدنا .

فلم يضحك أحد . وسأل أحدهم بصوت منخفض قاتق :

- وماذا سيكون من أمرنا ؟

فلم يكن ثمة جواب ؛ كان الافراد لا يأبهون لما سيصيرون اليه .

فقد كان لديهم هم آخر، هم غامض ، كانوا يائسين من التعبير عنه .

وتشاءب لوبيرون ، وقال بعد صمت طويل :

- لا نجدنا شيئاً ان نسهر . الى النوم ، يا جماعة ، الى النوم .

فقام شارلو بحركة يأس كبيرة ، وقال :

- طيب ، انا ذاهب لأنام ، ولكن على مضض .

وكان الافراد يتبادلون نظرات قلقة ، فلم تكن لديهم اية رغبة في

الافتراق ، ولا اي مبرر للبقاء معاً . وفجأة ارتفع صوت ،

صوت مرير .

- انهم لم يحبونا قط .

وكان هذا يتكلم عن الجميع ، وأخذ الجميع يتكلمون :

- نعم ! نعم ! نعم ! بوسعك ان تقول هذا ، انت على حق .

وما تقوله صحيح . انهم لم يحبونا قط ، ابدأ ، ابدأ ، ابدأ . ولم

يكن الألمان اعداءهم ، بل كنا نحن ؛ لقد قنا بالحرب كلها معاً .

ومع ذلك فقد تخلوا عنا .

وكان ماتيو يردد مع الآخرين :

- انهم لم يحبونا قط .

قال شارلو : - حين رأيتهم يمرون ، كنت من شدة الحيرة

اوشكت ان اسقط ميتاً .

وغطى صوته ضجيج حائر : لم يكن هذا بعد ما ينبغي ان يقوله

تماماً . كان ينبغي الآن فقء الدم ، ولم يكن ثمة سبيل للتوقف بعد ،

كان ينبغي القول : ليس هناك من يحبنا . لا احد يحبنا : إن المدنيين يأخذون علينا اننا لم نحسن الدفاع عنهم ، ونساؤنا غير فخورات بنا ، وضباطنا تخلوا عنا ، والقرويون يحقدون علينا والألمان يتقدمون في الليل ، كان ينبغي القول : اننا كبش المحرقة ، اننا المهزومون ، الجبناء ، الهوام ، حنالة الأرض ، لقد خسرنا الحرب ، اننا بشعون ، مذنبون ، وليس هناك احد يحبنا ، لا أحد في الدنيا ، لا أحد . ولم يجرؤ ماتيو ، ولكن لاتيكس قال خلفه ، بلهجة متجردة :

— اننا مبنوذون !

وصممت الأصوات . وكان ماتيو ينظر الى لونيجان ، بلا سبب معين ، هكذا ، لأنه كان تجاهه ، وكان لونيجان ينظر اليه . وكان شارلو ولاتيكس يتبادلان النظر ؛ كان الجميع يتبادلون النظر ، وكان الجميع وكأنهم ينتظرون ، كما لو كان باقياً شيء ما يُقال . ولم يكن ثمة بعد ما يقال ، ولكن فجأة ابتسم لونيجان لماتيو ، فسادله ماتيو بسمته ؛ وابتسم شارلو ، وابتسم لاتيكس ؛ وعلى جميع الأفواه ، فتح القمر زهوراً صفراء .

الاثنين ، ١٧ حزيران .

قال بينيت : — تعال ، هيا ، تعال .

— كلا .

— هيا ، هيا ، تعال .

وكان ينظر الى ماتيو بهيئة رجاء واغراء . وقال ماتيو :

— "حل" عن ظهري .

وكانا معاً تحت الأشجار ، وسط الساحة ، والكنيسة تجاههما ، ودار البلدية الى اليمين . وكان شارلو يحلم امام دار البلدية ، جالس

على الدرجة الاولى من السلم . وكان على ركبتيه كتاب . وكان جنود
يتنزهون بخطى بطيئة ، زرافات ووحداً : وكانوا لا يدرون ما
يفعلون بحريتهم ، وكان رأس ماتيو ثقيلاً موجعاً كما لو انه قد شرب .
وقال بينيت :

— تبدو عليك السامة .

قال ماتيو : — أجل ، اني في سأم .

كانت قد حدث ذلك السكر المضني للصدقة : كان الافراد ملتهبين
تحت القمر ، وكان هذا يستحق جهد ان يحيا الانسان . ثم ان
المصابيح كانت قد اطفئت ، فذهبوا ينامون ، لأنه لم يكن لديهم
شيء آخر يفعلونه ، ولأنهم لم يكتسبوا بعد عادة تبادل المحبة ، ان
الوقت الآن يشبه اليوم التالي لعيد ، فان المرء يحس الرغبة في الانتحار .
وسأل بينيت : — كم الساعة ؟

— الخامسة وعشر دقائق .

— خراء ! لقد تأخرت .

— إذن ، عجل بالذهاب .

— لا اريد ان اذهب وحدي .

— أتخاف بأن تلتهمك ؟

قال بينيت : — ليس الامر كذلك ، ليس الامر كذلك .

والمّ بهما نيبير من غير ان يراها ، وهو مستغرق ، وعيناه في
داخله .

قال ماتيو : — اصحب نيبير .

— نيبير ؟ هل انت مجنون ؟

وتابعا بعينيها نيبير ؛ مندهشين بهيئته العمياء وخطوته الراتصة .

وسأل بينيت — علام تراهن بأنه داخل الى الكنيسة ؟

وانتظر لحظة ثم صفع بيده قفاه :

— انه يدخل اليها ، يدخل اليها ! لقد رحبت .
وكان نيبير قد اختفى ؛ والثفت بينيت الى ماتيو فتأمله بهيئة برمة :
— يبدو أنهم اكثر من خمسين في الداخل ، منذ هذا الصباح .
وبين الفينة والفينة يخرج احدهم ليبول ثم يعود على الفور . فإذا نظن
أنهم يفركون ؟

فلم يجب ماتيو . وحك بينيت رأسه :
— لدي رغبة بان القي نظرة عليهم .
قال ماتيو : — ولكنك متأخر عن موعدك .
قال بينيت : — طز في الموعد !

وابتعد بلا اكرات ؛ واقترب ماتيو من شجرة كستناء . حزمة
ضخمة متروكة على الطريق : هذا ما خلفه اركان حرب الفرقة ؛
وكان ثمة مثلها في جميع القرى ؛ سوف يلتقيها الالمان لدى مرورهم .
« ما عساهم ينتظرون ، يا آلهي ؟ ماذا ينتظرون ؟ » كانت الهزيمة
قد أصبحت يومية : كانت هي الشمس والشجر وهيئة الزمن وهذه
الرغبة الخفية بان يموت ؛ ولكن العشية كانت قد خلقت في فمه مذاق
أخوة قد برد . وكان ضابط البريد يقترب ، وحوله الطباخان ؛
ونظر اليهم ماتيو : لقد سبق لهذه الافواه ان بسمت له في الليل ،
تحت ضوء القمر . اما الآن ، فلم يبق شيء ، وكانت وجوههم
القاسية المخلقة تنادى بانه ينبغي الحذر من ضربات القمر ومن نشوات
منتصف الليل : كل لنفسه والله للجميع ، لسنا على الارض لنزرع ،
لقد كانوا هم ايضاً في يوم تال لعيد . وسحب ماتيو مديته من جيبه
وشرع يقص لحاء شجرة الكستناء . كان راغباً ان يحفر اسمه في مكان
ما من العالم .

— انك تكتب اسمك ؟

— نعم .

— ها ! ها !

وضحكوا ومضوا . وكان جنود آخرون يتبعونهم عن كثب :
افراد لم يسبق لماتيو ان رأهم قط . كانت ذقونهم طويلة وعيونهم
لامعة وهيئتهم غريبة ؛ وكان بينهم شخص يعرج . وقد اجتازوا
الساحة ليذهبوا فيقتعدوا الرصيف ، امام القرن المغلق . ثم جاء آخرون
وآخرون لم يكن يعرفهم ماتيو كذلك ، بلا بنادق ولا طباقات ، ذوو
وجوه رمادية ووحل جاف على أحذيتهم . هؤلاء كان بالامكان ان
يحجبهم المرء . وحين لحق بينيت بماتيو ، حدجهم بنظرة استياء ،
فسأله ماتيو :

— ماذا رأيت ؟

— الكنيسة ملاي . (وأضاف بلهجة خائفة) انهم ينشدون .

وأخذ ماتيو مديته ، فسأله بينيت :

— انك تكتب اسمك ؟

فأجاب ماتيو وهو يضع مديته في جيبه :

— كنت اريد ، ولكن ذلك يستغرق وقتاً اطول مما ينبغي .

وتوقف بالقرب منها شاب طويل ذو وجه متعب ضائع الملامح ،

فكأنه ضباب فوق ياقته المفتوحة . وقال من غير ان يبتسم :

— مرحباً بالرفاق .

فتأمله بينيت ، وقال ماتيو :

— مرحباً .

— هل في هذه الانحاء ضباط ؟

فأخذ بينيت يضحك ، وسأل ماتيو :

— أتسمعه ؟ (والتفت الى الرجل فأضاف) لا ، يا عزيزي ، لا

ليس من ضباط هنا ، فنحن في جمهورية .

قال الرجل : — ارى ذلك .

- من اية فرقة أنت ؟
- من الثانية والاربعين .
- فدمدم بينيت : – الثانية والاربعين ؟ لم اسمع بها قط . واين انتم ؟
- في « الابينال » ؟
- وماذا تفعل هنا ؟
- فهزّ الجندي كتفيه ، وسأل بينيت فجأة ، بلهجة قلقة :
- اتراما ستأتي الى هنا ، فرقتك ؟ مع جميع الضباط وباقي الماخور ؟
- فضحك الجندي بدوره ، واومأ الى اربعة افراد جالسين على الرصيف ، قائلاً :
- هذه هي الفرقة .
- فالتمعت عينا بينيت :
- هل الوضع شديد في الابييال ؟
- كان شديداً . اما الآن ، فلا بد انه هاديء جداً .
- وأدار عقبيه ومضى الى رفاقه . وكان بينيت يتابعه بعينيه :
- الثانية والاربعون ، تأمل ! هل تعرفها انت ، الثانية والاربعين ؟
- انني لم اسمع بها حتى الآن .
- قال ماتيو : – لم يكن ذلك سبباً كافياً لتهاجمه !
- فهزّ بينيت كتفيه وقال في ازدياء :
- لا يكاد ينقطع سيل الافراد الذين يأتون لا تدري حتى من اين .
- فانت تشعر انك لست بعد في بيتك .
- فلم يجب ماتيو : كان ينظر الى الجروح في جذع شجرة الكستناء .
- وقال بينيت :
- هيا ! تعال ! سنذهب الى الحقول ، نحن الثلاثة ؛ ولن نرى بعد احداً ، وسنكون مرتاحين .
- ولكن ماذا تريد ان افعل بينك وبين صاحبتك ؟ إنك لست

بحاجة اليّ لتفعل ما تريد ان تفعله .

قال بينيت بلهجة مسكينة :

— ولكننا لن نفعله على التو ، فيجب ان نتحدث .

وقطع كلامه فجأة :

— انظر هناك ! انظر هناك ! أجنبيّ آخر !

وكان جندي قصير سمين متجهاً اليها باستقامة . وكان ضهاد ملطخ
بالبدم يخفي عينه اليمنى . وقال بينيت بصوت مرتعش بالأمل :

— لعلنا في قلب معركة كبيرة . ولعلّ القتال سينشب .

فلم يجب ماتيو . ونادى بينيت الجندي ذا الضهاد .

— اسمع !

فتوقف الرجل ونظر اليه بعينه الوحيدة .

— هل حدثت هناك معارك ؟

وكان الرجل ينظر اليه من غير ان يجيب . واثفت الى ماتيو :

— لا يمكن للمرء ان يسحب منهم شيئاً .

واستعاد الرجل سيره . ولكنه توقف بعد بضعة أمتار ، فأسند

ظهره الى شجرة كستناء وتداعى للسقوط على الأرض ، فاذا هو جالس

بوركبته عند ذقنه . قال بينيت :

— لعله يشكو شيئاً .

قال ماتيو : — تعال .

واقتربا . فسأله بينيت :

— أبك شيء ؟

فلم يجب الجندي .

— هيه ! أبك شيء ؟

وقال ماتيو للجندي : — سوف نساعدك .

وانحنى بينيت ليأخذه من ابطيه ، ولكنه ما لبث ان استقام .

— لا فائدة .

وكان الرجل ما يزال جالساً ، مفتوح العين ، فاغر الفم . وكانت هيبته رقيقة باسمه .

— لا فائدة .

— أجل ! انظر اليه .

فانحنى ماتيو ووضع رأسه على صدر الجندي ، ثم قال :

— انت علي حق .

قال بينيت : — يجب ان نغلق له عينيه .

وفعل ذلك بطرف أصابعه ، وقد غرق رأسه في عنقه وتدلّت شفته السفلي . وكان ماتيو ينظر اليه ، ولا ينظر الى الميت : إن الميت ليس بعد ذا أهمية . وقال :

— لكأنك ألفت ذلك طوال حياتك .

قال بينيت : — اما اني رأيت امواتاً ، فقد رأيت . ولكن هذا هو الاول منذ دخلنا الحرب .

وكان الميت يتسم لأفكاره ، مغمض العين . وكان يبدو سهلاً ان يموت المرء ، سهلاً ومرحاً تقريباً . « ولكن ، لماذا العيش ؟ » واخذ كل شيء يخفق في السماء . الأحياء والاموات والكنيسة والشجرة . وانتفض ماتيو . كانت يد قد لامست كتفه ، وكان هو ذلك الشاب الطويل ذا الوجه الضبابي ؛ وكان ينظر الى الميت بعينيه الحائلتين .

— ماذا هناك ؟

— لقد مات .

فأوضح قائلاً : — انه غارين .

والتفت الى الشرق .

— هيه ، يا جماعة ، عجلوا بالمجيء !

فنهض الجنود الأربعة وأخذوا يركضون ؛ وصاح بهم :

— لقد مات غارين .

— خراء !

وكانوا يحيطون بالميت وينظرون اليه في حذر :

— عجيب الا يكون قد سقط على الأرض .

— هذا يحدث احياناً . هناك من يبقى واقفاً .

— هل أنت متأكد من انه مات ؟

— هما اللذان يقولان ذلك .

فانحنوا جميعهم معاً على الميت . وكان احدهم يمسك بمعصمه ،
وأخر يستمع الى قلبه ، وأخرج الثالث مرآة جيب فألصقها بضمه ، كما
يحدث في الروايات البوليسية . ثم نهضوا مسرورين ؛ وقال الرجل
«الطويل وهو يهز رأسه :

— يا لذلك الأحمق !

وهزوا رؤوسهم الأربعة ورددوا معاً :

— يا لذلك الأحمق !

والتفت قصير سمين الى ماتيو يقول :

— لقد مشى عشرين كيلو متراً . ولو بقي ساكناً . لظلّ حياً .

قال ماتيو وكأنه يعتذر عنه : — انه لم يكن يريد ان يأخذه

الألمان .

— وبعد ذلك ؟ إن عند الالمان سيارات اسعاف . وقد حدثته انا

في الطريق . كان دمه يسيل كالحنزير ، ولكنك لم تكن تستطيع ان

تقول له شيئاً . فحضرته لم يكن يفعل الا ما في رأسه . كان يقول

«انه يريد ان يعود الى بيته !

— في كاهور . إنه خباز هناك .

فهز بينيت كتفيه :

— على كل حال ، ليس هذا هو الطريق .

- نعم .
- وصمتوا ونظروا الى الميت في ارتباك :
- ماذا نفعل به ؟ هل ندفنه ؟
- لا نستطيع ان نفعل غير هذا .
- وحملوه من إبطيه وركبتيه ؛ وكان ما يزال يبسم لهم ، ولكنه كان يبدو اكثر موتاً بين القينة والفينة .
- سوف نساعدكم .
- لا حاجة الى ذلك .
- قال بينيت بحوية : — بلى ، بلى . فليس لدينا ما نعمله ، وهذا ما يلهينا .
- فنظر اليه الجندي الطويل بجدّ وقال :
- كلا ، يجب ان يبقى ذلك فيما بيننا . انه من بلدنا ، فعلينا نحن ان ندفنه .
- واين ستضعونه ؟
- فأشار القصير السمين برأسه الى الشمال .
- هناك .
- وأخذوا يمشون حاملين الجثة : وكانوا يبدوون موتى اكثر منه .
- وسأل بينيت : — ربما كان له دين ، هذا الرفيق ؟
- فنظروا اليه في ذهول . واوماً بينيت الى الكنيسة :
- انها ملامى بالحوارنة الصغار .
- فرفع الجندي الطويل يده بصورة استعلاء وقسوة .
- لا . لا . لا . يجب ان يظل ذلك فيما بيننا .
- واستدار على عقبه وتبع الآخرين ، فعبروا الساحة واختفوا .
- وصاح شارلو :
- ما كان به ، يا جماعة!

فالتفت ماتيو : كان شارلو قد رفع رأسه ووضع كتابه الى مقربة منه ، على الدرجة .

— كان به أنه كان ميتاً !

قال شارلو : — هذه بلاهة ، انني لم افكر في ان أنظر ، وانما رأيت حين كانوا يحملونه . انه ليس ميتاً ، على الأقل ؟

— كلا .

قال — آه حسناً .

واقربوا . ومن نوافذ دار البلدية ، كانت تخرج اناشيد وصيحات لا إنسانية ، فسأل ماتيو :

— ماذا يحدث في الداخل ؟

فابتسم شارلو : — انه الماخور .

— وتستطيع ان تقرأ ؟

فقال شارلو في ذل : — لم اكن اقرأ تماماً .

— وما هو الكتاب ؟

— انه الـ « فولابيل » .

— كنت احسب ان لونيجان هو الذي كان يقرأه .

قال شارلو في سخرية :

— لونيجان ! هكذا ! إن لونيجان ليس بعد في حالة تسمح له بالقراءة .

وأشار بابهامه الى البناء ، من فوق كتفه :

— إنه هناك في الداخل ، محشو كأنه خنزير .

— لونيجان ؟ انه لا يشرب غير الماء .

— إذهب لترى إن لم يكن محشواً .

وسأل بينيت : — كم الساعة ؟

— الساعة الخامسة وخمس وثلاثون .

والتفت بينيت الى ماتيو :

- الا تأتي ؟
- لن آتي .
- فوجه الى شارلو عينيه الجميلتين الحسرتين :
- كم يبعصني هذا .
- ما الذي يبعصك ، ايها العنيد الصغير ؟
- قال ماتيو : — لقد وجد سمكة .
- اذا كانت تبعضك ، فما عليك إلا ان تحولها لي .
- قال بينيت : — لا أستطيع . إنها تعبدني .
- اذن ، تدبر أمرك .
- فقام بينيت بحركة تستنزل عليها اللعنة ، وأولاهما ظهره ومضى .
- وتبعه شارلو بعينيه وهو يبتسم :
- انه يروق للنساء .
- قال ماتيو : — صحيح .
- فقال شارلو : — انا لا أحسده .. فيكفي مجرد التفكير بان اقفز ،
- في هذه اللحظة ، علي امرأة ..
- ونظر ماتيو في فضول :
- يقال بان الخوف يوتر .
- يعني :
- ان هذا ليس حالي : فهو قد التوى .
- وهل انت خائف ؟
- خائف ، كلا . ولكن شيئاً يثقل علي معدتي :
- فهمت .
- وأمسك شارلو فجأة بكمّ ماتيو . وقال له بصوت منخفض :
- أجلس . عندي ما اقوله لك .
- فجلس ماتيو ؛ وقال شارلو بصوت منخفض :

- هنالك من يروى حقايات ضخمة مثلهم .
- اية حقايات ؟
- قال شارلو منزعجاً :
- لو تعلم ، انها « حقاً » حقايات .
- تكلم لئرى .
- اسمع إذن : إن الكابورال كابيل يقول إن الالمان سيخصوننا .
- وضحك من غير ان يغادر ماتيو بنظره . وقال ماتيو :
- نعم ، انها حقايات .
- وكان شارلو ما يزال يضحك :
- ولكن لاحظ : اني لا أصدق ذلك . فان هذا يعطيهم عملاً مجهداً .
- وصمنا . وكان ماتيو قد تناول كتاب « الفولابيل » ؛ وكان يأمل بغموض ان يدع له شارلو ان يأخذه . وقال شارلو باهمال :
- وهل يخصصون اليهود عندهم ؟
- كلا .
- فقال شارلو باللهجة نفسها :
- لقد حدثوني عن ذلك .
- وفجأة أخذ ماتيو من كتفيه ، فلم يستطع ماتيو ان يحتمل رؤية هذا الوجه المذعور ، وخفض نظره على ركبتيه . وسأل شارلو :
- ما عساهم يفعلون بي ؟
- لن يفعلوا غير ما يفعلونه بالآخرين .
- وساد صمت ، ثم أضاف ماتيو :
- مزق دفترك العسكري واقذف صفيحتك في الهواء .
- لقد فعلت هذا منذ زمن طويل .
- وإذن ؟

قال شارلو : - انظر اليّ .
ولم يكن ماتيو يستطيع ان يضمّم على ان يرفع عينيه :
- اقول لك ان تنظر إليّ !
قال ماتيو : - انني انظر اليك ، فاذا ؟
- هل يبدو عليّ اني يهودي ؟
قال ماتيو : - كلا ، ليست عليك هيئة اليهود .
فتنهد شارلو ؛ وخرج جنديّ من دار البلدية وهو يتهاوى ، فتزل
ثلاث درجات ، ولكنه اخطأ الرابعة فتدحرج بين ماتيو وشارلو ليمضي
فينسحق في وسط الشارع .
قال ماتيو : - انه شديد البأس !
ونفض الرجل على مرفقيه وتقيّاً ، ثم سقط رأسه من جديد وكفّ
عن الحراك .
وقال شارلو موضعاً :
- لقد غاوا خسرأ في « الادارة » . ليتك رأيتهم يمرون وهم
يحملون أباريق لا ادري اين وجدوها وقدراً كبيرة مليئة بالخمير ! كان
ذلك يشير الاشمزاز .
وظهر لونجان على احدى نوافذ الطابق السفلي وتجشأ . وكانت عيناه
حراوين وأحد خديّه أسود برمته . فصاح به شارلو بقسوة :
- لقد تدبّرت امرك جيداً !
فنظر اليها لونجان وهو يطرف بعينيه ؛ وحين عرفها ، رفع يديه
في الهواء بصورة مأساوية وصاح :
- دولارو ؟
- ماذا ؟
- انني أضيع اعتباري .
- ليس عليك إلا ان تذهب .

— لا أستطيع ان اذهب وحدي .

قال ماتيو : — انني قادم معك .

ونفض وهو يضم كتاب الفولابيل الى صدره . وقال شارلو :

— انك طيب في الحقيقة .

— يجب ان نمضي الوقت .

وصعد درجتين ، فصاح شارلو من خافه :

— هيه ! أعد لي كتابي .

فقال ماتيو مغتاضاً : — طيب ، لا تصرخ هكذا .

وقذف له بالكتاب . ثم دفع الباب ، فولج ممراً ذا جدران بيضاء

وتوقف وقد شعر بضيق : كان صوت مرتفع متناوم ينشد انشودة

« مدفعي متز » . وذكره ذلك بمصحح روان ، عام ٢٤ ، حين كان

يذهب ليرى عمته الأرملة التي جئت من الحزن ، فيسمع بعض المجانين

يغنون وراء النوافذ . وعلى الجدار الأيسر ، كان قد علق إعلان تحت

حاجز . فاقرب وقرأ : « تعبئة عامة . » وفكر : لقد كنت مدنياً .

وكان الصوت يغفو احياناً ، فيسقط على نفسه ويفرغ وهو يحشرج ، ثم

يستيقظ في صيحة . لقد كنت مدنياً ، وهذا بعيد العهد . وكان ينظر

في الاعلان ، الى العلمين الصغيرين المتصالبين ، ويتمثل نفسه مرتدياً

سترة ألبكة وياقة منشاة . وكان لم يسبق له ان ارتدى الاولى ولا الثانية ،

ولكنه كان يتمثل المدنيين هكذا . وفكر : « سيكون فظيلاً ان اعود

مدنياً . والحق ان هذا جنس يتلاشى . » وسمع لونجان يصيح « دولارو »

ورأى باباً مفتوحاً الى يساره فوجه . وكانت الشمس قد انخفضت ،

وكانت أشعتها الطويلة المغبرة تقسم الحجره قسمين من غير ان تيرها ،

وأخذت بخناق ماتيو رائحة خمر قوية ، فطرف بعينيه ولم يميز اولاً

سوى خارطة جدارية كانت تبدو لطحه في بياض الحائط ، ثم رأى

مينار جالساً ، متدلي الساقين ، فوق خزانة صغيرة ، يحرك حذائيه

في ارجوان الشمس الغاربة . وكان هو الذي يغني ، وكانت عيناه المرحتان حتى الجنون تدوران فوق فمه النافر ، وكان صوته ينسحب منه من تلقاء نفسه ، فيعيش منه كنبته طفيلية ضخمة تمتص امعاءه ودمه لتحويلها الى اغنيات ؛ وكان جامداً متدلّي الذراعين ينظر في ذهول الى هذه الهامة التي تخرج من فمه . لم يكن ثمة من أثاث : فلا بد أنهم قد استولوا على الطاولات والكراسي . وصعدت صيحة ترحيب في القاعة .

— دولارو ! مرحباً ، دولارو !

فخفض ماتيو عينيه ورأى رجلاً . وكان ثمة رجلٌ قد استرخى في قهقهته ، وكان آخر يشخر ، ممتدداً على طوله ؛ وكان ثالث مستنداً الى الجدار ، فاغر الفم كما كان مينار ، ولكنه لم يكن يغني : وكانت له لحية رمادية تمتد من اذنه الى اذنه الاخرى ، وكانت عيناه مغمضتين خلف نظارتيه :

— مرحباً ، دولارو ، دولارو ، مرحباً !

والى يمينه ، كان ثمة اشخاص آخرون ذوو اوضاع ارضن . كان غيكيولي جالساً على الارض ، وبين ساقيه المنفرجتين قصعة مليئة بالعرق . وكان لاتيكس وغريمو مقرفصين على الطريقة التركية : وكان غريمو يمسك قده من عروته ويضربه بالأرض لينغمم اغاني مينار ؛ اما لاتيكس ، فقد كانت يده محتفية حتى المعصم في فتحة بنطاله . وقال غيكيولي بضع كلمات غطّاها صوت المغني ، فسأله ماتيو وهو يكوّر يده حول اذنه :

— ماذا تقول ؟

فرفع غيكيولي عينين غاضبتين الى مينار :

— ولكن اخرس لحظة ، بالله عليك ! انك تمطم آذاننا . فكف مينار عن الغناء ، وقال وهو يكاد ينتحب :

- لا استطيع التوقف .
وما لبث ان بدأ اغنية « فتيات الكاماريه » وكأنه ضحية صوته .
وقال غيكيولي :

- اصبحنا في وضع جميل !
ولم يكن شديد الاستياء ؛ ونظر الى ماتيو في اعتزاز وقال :
- الواقع انه جذلان . اننا كلنا هنا جذالى : فنحن سوقة فاقدو
الاعتبار ؛ عصابة محطمي الصحون !
ووافق غريمو برأسه وضحك . وقال في جهد ، كما لو انه كان
يتكلم لغة اجنبية :

- اننا لا نصاهر الكآبة .
قال ماتيو : - ارى ذلك .
وسأل غيكيولي : - أتريد ان تشرب قدحاً ؟
وفي وسط القاعة ، كانت تقوم قدرٌ نحاسية مليئة بخمر احمر من
خمر « الادارة » وكانت تعوم فيها اشياء .
قال ماتيو : - انها قدرٌ للمربيات . فنن اين اخذتموها ؟
فقال غيكيولي : - لا تهتمّ بذلك . فهل تشرب ، نعم ام خراء؟
وكان يتكلم بمشقة ، وكان يجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين ، ولكنه
كان يحافظ على لهجة الهجوم . قال ماتيو :
- لا ، فأنا قادم لأصحب لونجان .
- تصحبه الى اين ؟

- نشمّ الهواء .
فأخذ غيكيولي قصعته بكلتا يديه وشرب ثم قال :
- لن امنعك من اخذه ، فهو لا ينفك يتحدث عن اخيه ، فيزعج
الجميع . تذكر ان هذه هي هنا عصابة المزارعين : فمن كان خيره
حزيباً ، فنحن لا نريده بيننا .

واخذ ماتيو بذراع لونجان :

— هيا ، تعال !

فتخلّص لونجان بغيظ :

— دقيقة ! دع لي وقتاً لأتعود !

قال ماتيو : — ان امامك الوقت كله .

وأدار عقبيه ليذهب فيلقي نظرة على الخزانة . ومن خلال الزجاج رأى مجلدات ضخمة يغطيها قماش . شيء للقراءة . انه مستعد لقراءة اي شيء : وحتى القانون المدني . وكانت الخزانة مقللة بالفتاح ، وحاول عبثاً ان يفتحها . وقال غيكيولي :

— اكسر الزجاج .

فقال ماتيو متزعجاً : — كلا .

— لماذا لا تكسره ؟ انتظر لحظة لترى اذا كان الالمان سينزعجون

لكسره .

والتفت الى الآخرين :

— إن الالمان سيحرقون كل شيء ، ودولارو لا يريد ان يكسر

الخزانة .

فأخذ الافراد يضحكون ويمزحون ، وقال غريمو في احتقار :

— بورجوازي !

وكان لاتيكس يشدّ ماتيو من سترته :

— هيه ! تعال دولارو فانظر !

فالتفت ماتيو :

— انظر ماذا ؟

فأخرج لاتيكس عضوه من فتحة بنطاله وقال :

— انظر ، وارفع قبعتك : لقد صنعت به ستة .

— ستة ماذا ؟

- ستة اولاد . وهم جميلون لو تعلم ، وكان كل منهم يزن في كل ضربة عشرين ليبرة تقريباً ؛ ولا ادري من الذي سيطعمهم الآن ، ولكنك (وانحنى بحنان على عضوه) ستصنع لنا آخرين بالدزينة ، ايها الفاجر !

وصرف ماتيو عينيه ، فصاح لاتيكس في غضب :

- ارفع قبعتك ، ايها التلميذ !

قال ماتيو : - ليس لي قبعة .

فرمى لاتيكس نظرة دائرية :

- ستة في ثمانية اعوام . من يفعل افضل ؟

وعاد ماتيو الى لونجان :

- واذن ، هل تأتي ؟

فنظر اليه لونجان نظرة غائمة :

- لا احب ان اُباغت .

- انني لا اباغتك ، فأنت الذي ناداني .

فوضع لونجان اصبعه تحت انفه :

- انني لا احبك كثيراً ، يا دولارو ، ولم يسبق لي ان احببتك

كثيراً .

قال ماتيو : - هذا متبادل .

فقال لونجان مسروراً : - حسناً ، من الممكن هكذا ان نتفاهم

(وسأل ماتيو وهو ينظر اليه في حذر) لماذا اولاً لا اشرب ؟ اية

فائدة لي في ألا اشرب ؟

فقال غيكيولي : - ان خمرك حزين .

- اذا لم اشرب ، كان ذلك اسوأ .

وغنى مينار :

اذا مت . فأريد ان يدفنوني

في القبو الذي فيه خمر

ونظر ماتيو الى لونجان وقال له :

– بوسعك ان تشرب ما تشاء .

فدمدم لونجان خائباً : – ماذا ؟

فصاح ماتيو : – اقول إن بوسعك ان تشرب ما تشاء . فأنا أهزأ

بذلك .

وكان يفكر : « لم يبق لي إلا ان اذهب . » ولكنه لم يكن يستطيع التصميم على ذلك . كان ينحني فوقهم ، وكان يشم رائحة سكرهم الغنية المسكرة ورائحة شقائهم ؛ كان يفكر : « واين اذهب ؟ » ثم يشعر بالدوار . انهم لم يكسونوا يشرون اشمزازه ، هؤلاء المهزومون الذين كانوا يشربون الهزيمة حتى الثمالة ، ولئن كان يشمثر من أحد ، فمن ذاته هو . وانحني لونجان ليتناول قدحه ، فسقط على ركبتيه .

– خراء !

وزحف حتى القدر ، وغطّس ذراعه في الخمر حتى المرفق، وأخرج القدح الذي كان يقطر، ثم انحني ليشرب . ومن زاويتي فه المرتعش ، كان السائل يقطر في القدر .

وقال : – لست في حالة جيدة .

فنصحه غيكيولي : – تقياً .

فسأله لونجان ، وكان ممتعاً وهو يتنفس بمشقة :

– وكيف تفعل ؟

فأدخل غيكيولي اصبعين في فمه ، ومال الى جانب ، فحشرج قليلاً وتقياً بعض البلاغم . وقال وهو يمسح فمه بظاهر يده :

– هكذا .

وكان لونجان ما يزال على ركبتيه ، فنقل قدحه الى يسده اليسرى وأدخل اليمنى في حلقه ، فصاح لاتيكس :

– ايه ! انك ستقيء في الخمر !
وصاح غيكيولي : – ادفعه يا دولارو ، ادفعه بسرعة .
فدفع ماتيو لونجان الذي سقط جالساً من غير ان يخرج يده من فمه .
وكان الجميع ينظرون اليه نظرة تشجيع . وسحب لونجان يده وتجشأ .
وقال غيكيولي :

– لا تغير يدك . إن القيء يجيء .
فسعل لونجان وأصبح قرمزي اللون ، فقال محتجاً :
– إنه لا يجيء ابدأ .
فصاح غيكيولي غاضباً :
– ذلك انك ضراط . إن من لا يعرف ان يقيء ، لا يشرب .
وبحث لونجان في جيبه ، وعاد يركع على ركبتيه ؛ ثم قرفص بالقرب
من القدر ، فصاح غريمو :
– ماذا تفعل ؟

قال لونجان وهو يُخرج من القدر منديله الذي يقطر خمرأ :
– انني أصنع لنفسي رفاة رطبة .
وألصقها على جبينه وقال بصوت طفولي :
– دولارو ، ارجوك ، هل تستطيع ان تعقدها لي من الخلف ؟
فأخذ ماتيو طرفي المنديل وعقدهما على رقبة لونجان ، فقال لونجان :
– آه ، لقد تحسّن الحال .

وكان المنديل يخفي عينه اليسرى ؛ وكانت خطوط من الخمر الأحمر
تسيل على وجنتيه وعنقه .. وقال غيكيولي وهو يضحك :
– انك تشبه المسيح !

قال لونجان : – معك حق ، فأنا شخص من نوع المسيح ..
ومدّ قدحه الى ماتيو ليملاه له ، فقال ماتيو :
– آه ! كلا ، كفى ما شربته حتى الآن .

فصاح لونجان : - افعل ما أقوله لك ، افعل ما أقوله لك ، بالله عليك (وأضاف بصوت شاك) ان السويداء تملكني .
قال غيكيولي : - بالله عليك ، أعطه ليشرب بسرعة ، وإلا عاد يحدثنا عن أخيه .

فنظر اليه لونجان بتعال :
- ولماذا لا أتكلم عن أخي اذا كنت راغباً في ذلك ؟ أتكون انت الذي يمنعني ؟

قال غيكيولي : - اوه ! دعنا منك .
فالتفت لونجان الى ماتيو وقال موضحاً :
- إن أخي في « هوسغور » .
- هو إذن ايس جندياً ؟

- كلا : إنه معتوق . وهو يتنزّه في الصنوبر مع امرأته الصغيرة ، ويقولان بينهما : يا لبول المسكين ، انه غير محظوظ ، ثم يحتكآن فيما بينهما وهما يفكران بي . ولكنها في الحقيقة لا يكثران ببول المسكين .. وصمت لحظة متأملاً ، ثم انتهى الى القول :

- انني لا احب أخي .
وكان غريمو يضحك حتى تسيل دموعه . فسأله لونجان مغتاضاً :
- ما الذي يجعلك تضحك ؟
فسأله غيكيولي في غضب :

- لعلك ستمنعه من الضحك ؟ (وقال لغريمو بلهجة أبوية) استمر يا صغيري ، إضحك وقهقهه ما حلا لك ، فنحن هنا لتسلّى .
قال غريمو : - انني اضحك بسبب زوجتي .
قال لونجان : - لا تهمني امرأتك .
- انت تتكلم عن اخيك ، فأستطيع ان أتكلم عن زوجتي .
- وما بالها زوجتك ؟

فوضع غريمو إصبعاً على شفتيه وقال :
- هس ! (وانحنى على غيكيولي وقال في مساراة) إن لي امرأة
قبيحة كالقفا .

واراد غيكيولي ان يتكلم ، فقال غريمو بتسلط :
- ولا كلمة . كالقفا ، ولا مجال للمناقشة . (واطاف وهو
بتحامل قايلاً ويمرّ يده اليسرى على مؤخرته ليبلغ جيب مسدسه)
انتظر ، سأريك اياها ، وسوف تضحك !
وبعد جهود غير مثمرة ، تداعى للسقوط .
- مهما يكن ، فهي قبيحة كالقفا . صدقني . وانا لا اكذب
عليك في هذا ، فليست لي مصلحة .

فبدا لونجان مهتماً ، وسأله :

- أهى « حقاً » قبيحة ؟

- أقول لك : كالقفا .

- ولكن ما هو القبيح فيها ؟

- كل شيء . ان ثدييها يبلغان ركبتيها ، ومؤخرتها تبلغ كعبيها ،
وإذا رأيت ساقها ، جنازة ! وهي تبول بين هلالين .
فقال لونجان ضاحكاً :

- يجب اذن ان تحوّلها لي ، فهي امرأة تناسبني . اني لم أتمتع
قط الا بالبشعات . اما الجميلات ، فمن نصيب اخي .
فطرف غريمو بعينه في خيث :

- اوه ، كلا ، لن احوّلها لك يا صديقي ، لأنسي اذا حولتها
ثلك ، فليس مضموناً ان اجد غيرها ، نظراً الى اني لست جميلاً
أيضاً (وانهى كلامه متنهداً) أنها الحياة ، ويجب ان نكتفي بما نملك
وغنتى مينار :

- « وهكذا ، الحياة الحياة »

« التي يعيشها الرهبان الطيبون »

قال لونيان : - انها الحياة ! انها الحياة ! نحن اموات يتذكرونه حياتهم . واقسم انها لم تكن حياة جميلة !
فقدفه غيكويولي بقصعته ، فلامست خدّه وسقطت في القدر . وقال غيكويولي في غضب :

- غير الاسطوانة . ان لي أنا ايضاً همومي ، ولكني لا أُحزني الناس بها . اننا هنا للمزاح ، أتفهم ؟
فأدار لونيان الى ماتيو عيينين يائستين ، وقال بصوت منخفض :
- خذني من هنا ، خذني من هنا !
فانحنى ماتيو ليلتقطه من إبطيه ، فتلوّى لونيان كالخنش وافلت منه . وفقد ماتيو صبره فقال :

- لقد ضجرت منك . فهل تأتي ام لا ؟
وكان لونيان قد اضطجع على ظهره ينظر اليه بمكر :
- أتريد حقاً ان آتي ؟ أتريد حقاً ؟
- لا يهمني . كل ما اريده ان تصمّم في هذا الاتجاه او ذاك .
قال لونيان :

- حسناً ! اشرب جرعة . إن لديك الوقت لشرب جرعة ، بيننا انا افكر .

فلم يجب ماتيو ، ومدّ له غريمو قدحه :
- خذ !

فرفضه ماتيو بحركة وقال : - شكراً .

فسأله غيكويولي مندهشاً :

- لماذا لا تشرب ؟ إن هناك خمرآ للجميع : فلا تنزعج !
- لست عطشاً .

فأخذ غيكويولي يضحك وقال :

— يقول انه ليس عطشاً ! ألا تعلم اذن ايها الشقي اننا عصابة الشارين
— بلا — عطش ؟

— لا رغبة لي في الشرب .

فقطب غيكيولي حاجبيه :

— لماذا لا تكون لك الرغبة كالآخرين ؟ لماذا ؟

«ونظر الى ماتيو بقسوة :

— كنت أحسبك قد تهذبت . انك تخيب ظني يا دولارو .

وانتصب لونيجان على مرفقيه :

— الا ترى أنه يحقرنا ؟

وساد صمت . ورفع غيكيولي على ماتيو عينين مستفهمتين ، ثم استرخى
فجأة وانغلق جفناه . وابتسم بطريقة بائسة ، وقال وهو يحتفظ بعينيه
مغلقتين :

— إن هؤلاء الذين يحقرونا ، ليس لهم الا ان يذهبوا . فنحن لا
نمسك أحداً ، ونحن فيما بيننا .

قال ماتيو : — انا لا أحقر أحداً .

وتوقف : « انهم سكارى ، وانا لم أشرب » وكان ذلك يضمني
عليه بالرغم منه تفوقاً كان يخجله . كان خجلاً من الصوت الصاير
«الذي كان مضطراً الى اتخاذه معهم . « لقد ثملوا لأنهم لا يطيقون بعد
وضعهم ! » ولكن لم يكن ثمة من يستطيع ان يشاطرهم بؤسهم ،
إلا ان يكون ثملاً مثلهم . وفكر : « ما كان ينبغي لي ان آتي قط . »
وردد لونيجان في غضب لمفاوي :

— انه يحقرنا . فهو هنا كأنه في السينما ، ويزعجه ان يرى أشخاصاً
سكارى يفلتون .

قال لاتيكس : — تحدث عن نفسك ، فأنا لا افلت .

قال غيكيولي في ضجر :

— اوه ، دعنا من هذا .

وكان غريمو ينظر بتفكير الى ماتيو :

— اذا كان يحقرنا ، فأني أشخ على رأسه .

فأخذ غيكيولي يضحك ، ويردد :

— انهم يشخون على رأسك . انهم يشخون على رأسك .

وكان مينار قد كفت عن الغناء ؛ وتداعى للتراخي ازاء الخزانة ،

ونظر حوله نظرة رعب ، ثم بدأ يسترد اطمئنانه ، وارسل زفرة تحرر

ثم سقط على الارض مغمى عليه . ولم يتنبه له احد : كانوا ينظرون

امامهم باستقامة ، وكانوا بين الفينة والفينة يلقون على ماتيو نظرة

استياء ؛ ولم يكن ماتيو ليعرف بعد ما يصنع بنفسه : كان قد دخل

من غير ان يفكر بالأذى ، لينجد لونجان . ولكن كان عليه ان يتنبأ

بأن العار والفضيحة سيدخلان معه . ولقد وعى هؤلاء الافراد انفسهم

بسببه ؛ انه لم يكن يتحدث بعد بلغتهم ، ومع ذلك فقد اصبح على

غير ارادة منه قاضيهم وشاهدتهم . وكان يشمئز من هذه القدر المليئة

بالخمر والأقدار ، وفي الوقت نفسه يستنكر هذا الاشمزاز : « من اكون

حتى ارفض الشرب حين يكون رفاقي سكارى ؟ »

وكان لاتيكس يربت بتفكير على اسفل بطنه . وفجأة ، التفت نحو

ماتيو ، وفي عينيه بريق تحد ؛ ثم جذب قصعته الى ما بين ساقيه ،

وجعل يغطس عضوه في الخمر وهو يقول :

— اني اعلم له حرماً ، لأن ذلك منعش .

فخفق غيكيولي ضحكة ؛ وأدار ماتيو رأسه فالتقى بنظر غريمو

الساخر ، فقال غريمو :

— انك تتساءل اين وقعت ؟ آه ، انت لا تعرفنا ، يا صديقي

الصغير : فمعنا ، يجب ان تتوقع كل شيء .

وانحنى الى امام وصاح وهو يغمز غمزة مشاركة :

— ايه ؟ اتحدّاك يا لاتيكس ان تشرب خمرك ؟

فردّ له لاتيكس غمزته :

— لن انزعج أبداً .

ورفع القصعة وشرب بصخب وهو يراقب ماتيو . وكان لونجسان يقهقه ، والجميع يتسمون . كل ذلك بسبي . ووضع لاتيكس قصعته وطقطن لسانه :

— ان له مذاقاً طيباً .

قال غيكيولي : — وإذن ، ما رأيك ؟ ألسنا مزاجين ؟ ألسنا

ماجنين صغاراً ؟

وقال غريمو : — ولم تر شيئاً بعد . لم تر شيئاً بعد .

وأخذ يفكّ يديه المرتجفتين ازرار فتحة بنطاله . وانحنى ماتيو على غيكيولي ؛ وقال على مهل :

— أعطني قصعتك . اريد ان اشارككم المزاح .

فقال غيكيولي : — لقد سقطت في القدر . وليس عليك الا ان

تخرجها .

فغطّس ماتيو يده في القدر ، وحرّك اصابعه في الخمر ، متلمّساً

القعر ، ثم اخرج القصعة ملامى . وتجمّدت يدا غريمو ؛ فنظر اليهما ، ثم اعادهما الى جيبه ونظر الى ماتيو . وقال لاتيكس وقد رقت لهجته :

— آه ! كنت واثقاً من انك لن تستطيع ان تمنع نفسك .

وشرب ماتيو . وكان في الخمر كرات من مادة رخوة لا لون لها ،

فلفظها وملاً القصعة من جديد . وكان غريمو يضحك بعطية وقال :

— إن من يرانا يُسقط في يده : فيجب ان يشرب ، آه ! إننا

نثير رغبته .

فقال غيكيولي مقهقهاً :

— الافضل ان نثير الرغبة لا الشفقة .

وتريت ماتيو حتى ينقذ ذبابة كانت تتخبط في الخمر ، ثم شرب .
وكان لا تيكس ينظر اليه نظرة معرفة وقال :
- ليس هذا سُكراً ، وانما هو انتحار .
وكانت القصعة فارغة ، وقال ماتيو :
- اني اعاني مشقة كبيرة حتى اسكر .
وملأ القصعة مرة ثالثة . وكان الخمر ثقيلًا ، ذا طعم مسكر
غريب . وسأل ماتيو وقد خامره شك :
- أترام قد بلتُم فيه ؟
فسأله غيكيولي غاضبًا :
- أكون لثيمًا ؟ أظنّ اننا نريد ان نفسد الخمر ؟
قال ماتيو :
- اوه ! لا يهمني !
وجرع القصعة كلها ثم صفر ، فسأله غيكيولي باهتمام :
- ماذا ؟ هل تحسّ نفسك في حالة أفضل ؟
فهزّ ماتيو رأسه :
- لم اباغ هذا بعد .
وأخذ القصعة ، وكان منحنيًا فوق القدر ، منقبض الاسنان ، حين
سمع خلف ظهره صوت لونجان المقهقه :
- يريد ان يثبت لنا انه يقاوم الحمرة خيرًا منا .
فالتفت ماتيو :
- هذا غير صحيح ! فأنا أشرب لأستطيع المزاح .
وكان لونجان قد عاد للجلوس متصلبًا . وكانت العصابة قد سقطت
على انفه ، وكان ماتيو يرى فوق العصابة عينيه الثابتين المستديرتين
اللتين تشبهان عيني دجاجة عجوز . وقال لونجان :
- اني لا احبك كثيرًا ، يا دولارو !

– لقد سبق ان قلتها .
قال لونجان : – والرفاق ايضاً لا يحبونك كثيراً . انك ترهبهم
لأن لك ثقافة ، ولكن لا يجب ان تظن انهم يحبونك .
وسأل ماتيو بين اسنانه :
– وعلام تريدهم ان يحبوني ؟
فتابع لونجان : – انك لا تفعل اي شيء كالجميع . حتى حين
تسكر ؛ فانك لا تسكر مثلنا .
فنظر ماتيو الى لونجان في تبرم ، ثم التفت ورمى قصعته على زجاج
الخرزاة ، وقال بصوت قوي :
– انني لا استطيع ان اسكر . لا استطيع . ترون جيداً اني لا
استطيع .

فلم ينس احد بكلمة ؛ ووضع غيكيولي على الارض الخشبية شظية
زجاج كبيرة سقطت على ركبتيه . واقرب ماتيو من لونجان ، فأخذه
بقوة من ذراعه ، وانفضه على قدميه . فصاح لونجان :
– ما هذا ؟ ما دخلي في الموضوع ؟ إهّم بمؤخرتك ، ايها
الارستقراطي !

قال ماتيو : – لقد جئت لأصحبك ، وسأذهب معك .
وكان لونجان يتخبط في غضب :
– حلّ عن ظهري ، اقول لك ، حلّ عن ظهري ، وإلا
آذيتك .

وشرع ماتيو يعمل لإخراجه من القاعة . ورفع لونجان يده محاولاً
ان يدخل اصابعه في عينيه . فقال ماتيو :
– ايها القدر !

وترك لونجان ، وارسل له ضربتين غير قويتين تحت ذقنه . فأصبح
لونجان خرعاً واستدار على نفسه ، فأدركه ماتيو وحمله على كتفيه

كالكييس ، وقال :

— انتم ترون ، فأنا ايضاً استطيع ان أمزح وأمجح، حين اريد ذلك.
كان يحقد عليهم . وخرج فهبط درجات السلم مع عبته . وانفجر
شارلو ضاحكاً حين ألمّ به :

— ما أشدّ تماسك الأخ !

وعبر ماتيو الطريق فأسند لونجان الى جذع شجرة كستناء . وفتح
لنونجان احدى عينيه ، واراد ان يتكلم ، فتقيماً . فسأله ماتيو :

— هل ارتحت قليلاً ؟

فتقيماً لونجان من جديد ، وقال بين شهقتين :

— إنّ هذا يريح .

قال ماتيو : — انني اتركك . حتى اذا انتهيت ، حاول ان تنام
نومة طيبة .

وكان يلهث حين وصل الى مكتب البريد . فطرق ، وفتح له
بينيت ، وتأمله بهيئة مسحورة قائلاً :

— آه ! لقد قررت أخيراً !

قال ماتيو : — أخيراً ، نعم .

وبدت موظفة البريد في الظلام ، خلف بينيت . وقال بينيت :

— ليست الآنسة خائفة اليوم . وستقوم بنزهة صغيرة عبر الحقول .

فرمته الصغيرة بنظرة غامضة . وابتسم لها ماتيو ، وكان يفكر :

« انها لا تطيقني » ولكنه كان لا يهتم بذلك إطلاقاً . وقال بينيت :

— إن رائحة الخمر تنبعث منك .

فضحك ماتيو من غير ان يجيب . وارتدت عاملة البريد قفازيها

الاسودين وأقفلت الباب بالمفتاح ، ثم اخذوا يسرون . وكانت قد

وضعت يدها على ذراع بينيت ، وكان بينيت يعطي ذراعه لماتيو .

وحياهم جنود ألّوا بهم في الطريق ، فصاح بهم بينيت :

— اننا نقوم بنزهة يوم الأحد .

فقالوا :

— آه ، إن كل الايام يوم أحد ، ما دام الضباط غائبين ؟

صمت قري تحت الشمس ؛ تماثيل ضخمة من الجبس ، مصفوفة في دائرة بالصحراء ، « سوف تذكر الانواع القادمة ، بما كان عليه الجنس البشري » . وكانت خرائب طويلة بيضاء تبكي رشحها الأسود جداول جداول . في الشمال الغربي ، قوس نصر ، وفي الشمال معبد روماني ؛ وفي الجنوب جسر يفضي الى معبد آخر ؛ وماء يأسن في حوض ، ومدينة من حجر تنفذ نحو السماء . حجر ، حجر مربب في سُكَّر التاريخ ؛ روما ، مصر ، العصر الحجري : ذلك ما كان باقياً من ساحة شهيرة . وردد : « كل ما كان باقياً » ، ولكن اللذة كانت قد ضعفت قليلا ، ليس ثمة ما هو رتيب كالكارثة ؛ وكان قد بدأ يألفها . واستند الى الحاجز ، ما يزال سعيداً ، ولكنه متعب ، وفي جوفه مذاق صيف محموم : كان قد تنزه طوال النهار ؛ وكانت ساقاه الآن تعانيان في حمله ، ومع ذلك ، فلم يكن بد من السير . لا بد من السير ، في مدينة ميتة . وقال في نفسه : « اني استحق حظاً صغيراً غير متوقع . » اي شيء ، شيء ما يزدهر له وحده في زاوية شارع . ولكن لم يكن ثمة شيء . كانت الصحراء في كل مكان : وكانت تقفز فيها شظايا قصور ، بيضاء وسوداء ، هام وطيور لا تاريخ لها وقد أصبحت حجارة من فرط ما تغذت بالتأثيل . وكانت العلامة الوحيدة المرحة بعض الشيء في هذا المنظر المعدني ، العلم النازي على فندق « كريون » .

« اوه ! يا لرؤية اللحم تنزف على حرير البحار والزهور القطبية . »

وفي وسط خرقه الدم ، كانت الدائرة بيضاء ، كدائرة الفوانيس
السحرية على اغطية طفولتي ، وفي وسط الدائرة ، عقدة الافاعي
السود ؛ « رمز الشر » ، رمزي . ونقطة حمراء تتشكل كل لحظة في
ثنايا العلم ، ثم تنفصل وتسقط على الأرض : « الفضيلة » تنزف .
وتتم : « الفضيلة تنزف ! » ولكن ذلك لم يكن يسليه بعد كما كان
يسليه عشية أمس . وطوال ثلاثة ايام ، لم يكن قد وجه الحديث
الى احد ، وكان فرحه قد قسا ؛ وذات لحظة غشى التعب نظره ،
فتساءل عما اذا كان لن يعود . كلا . لم يكن يستطيع العودة : إن
حضورى مطلوب « في كل مكان » فيجب ان امشي . وتلقى في
عزاء تمزق السماء المصدي : كانت الطائرة تلمع تحت الشمس ؛ وذلك
كان هو التبديل ، فقد كان للمدينة الميتة شاهد آخر ، وكانت ترفع
نحو عيون اخرى رؤوسها الالف الميتة . وكان دانيال يتسم : انما
كانت الطائرة تبحث بين القبور عنه ، هو بالذات . انما هي هناك من
أجلي أنا وحدي . وكانت به رغبة لأن يقذف بنفسه في وسط الساحة
ويلوح بمنديله . ليتها تلقي قنابلها ! سيكون ذلك بعثاً ، وستصدي
المدينة بضجيج الحديد ، كما انها لو كانت تعمل ، وستلتصق
بالواجهات ازهار طفيلية جميلة . ومرت الطائرة ؛ فعاد صمت كوني
يتشكل حول دانيال . يجب ان يسير ، ان يسير بلا انقطاع على سطح
هذا الكوكب الذي برّد .

واستعاد مشيه وهو يجرجر قدميه ؛ وكان الغبار يبيّض حذاءه .
وانتفض : كان ثمة جنرال عاطل ومنتصر ، ملصقاً بجبينه بزجاج ما ،
ويده خلف ظهره ، يراقب هذا الضائع في متحف الاثریات الباريسية .
وأصبحت جميع النوافذ عيوناً ألمانية ؛ وانتصب وعساود سيره في
مرونة ، وهو يتهادى قليلاً ، على سبيل المرح : انني جارس المقبرة .
التويلري ، رصيف التويلري ؛ وقبل ان يجتاز الطريق ، أدار رأسه

الى اليسار واليمين ، بداعي العادة ، ولكن من غير ان يرى الا نفقاً طويلاً من اوراق الشجر . وكان علي وشك ان يباغ جسر سولفرينو حين توقف خافق القلب : ذلك هو الحظ غير المتوقع . وسرت في جسمه رعشة من ساقيه حتى رقبتة ؛ وبردت يداه ورجلاه ، فتجمد وأمسك نفسه . وكمنت حياته كلها في عينيه : كان يأكل بعينيه الفتى الدقيق الذي كان يوليه ظهره ببراءة ، منحنيماً فوق الماء . « يا للقاء الرائع ! » وما كان دانيال ليكون أشد تأثراً وانفعلاً لو أن ريح المساء تحولت صوتاً لتناديه ، او لو ان الغيوم قد كتبت اسمه في السماء البنفسجية ، فقد كان واضحاً جداً ان هذا الفتى قد وضع هناك من أجله هو ، وأن يديه الطويلتين العريضتين ، في نهاية اكمام الحرير ، كانتا كلاماً من لغته السرية : لقد وهبته ، وكان الفتى طويلاً رقيقاً ، ذا شعر أشعث وكفين مستديرتين ؛ تكادان تكونان نسويتين ؛ وخاصرتين ضيقتين ، وردفين صلبين ، واذنين صغيرتين لذيذتين ؛ وكان في حوالي التاسعة عشرة او العشرين . وكان دانيال ينظر الى اذنيه ويفكر : « يا للقاء الرائع ! » وكان ينتابه ما يشبه الخوف . وكان جسمه كله « يتكلف الموت » كالحشرات التي يتهددها خطر ؛ إن شرّ الاخطار بالنسبة لي ، هو الجمال . وكانت يداه تزدادان برودة ، وكانت أصابع من حديد تغرز في عنقه . كان الجمال ، أخفى الاشرار ، يتقدم ببسمة مشاركة ويسر ، يوميء اليه ، ويبدو وكأنه ينتظره . اية كذبة : إن تلك الرقبة المبدولة لم تكن تنتظر شيئاً ولا أحداً ؛ كانت تداعب ياقة تلك السترة وتمتع بنفسها ، وكاننا تتمتعان بنفسهما وبحرارتهما ، تانك الفخذان الحارتان الشقراوان المختبئتان في الفلانيل الرمادي . انه يعيش وينظر الى النهر ، ويفكر ، وحيداً ، غير قابل للفهم ، كأنه نخلة ؛ إنه لي ، وهو يجهلني . وأحسن دانيال بغثيان ضيق ، واهتز كل شيء للحظة واحدة : كان الفتى الدقيق ، البعيد ، يناديه من جوف

الهاوية ؛ كان الجمال يناديه ؛ « الجمال » ، قدّري ؛ وفكر : سيبدأ كل شيء من جديد . كل شيء : الأمل ، الشقاء ، العار ، الحماقات . ثم تذكر فجأة بان فرنسا كانت مهزومة : « إن كل شيء مباح ! » فشعت الحرارة مع بطنه الى اطراف أصابعه ، واحمى تعبته ، وتدفق الدم الى صدغيه : « اننا كلينا الممثلان الوحيدان المرثيان للجنس البشري ، الحيان الوحيدان الباقيان من امة قد زالت ، فلا مفر لنا من ان نتبادل الحديث : أهنالك ما هو اشد طبعية من ذلك ؟ » وخطا خطوة الى الامام باتجاه الذي كان قد عمّده بأنه « المعجزة » ، وكان يحس نفسه شاباً وطيباً ، مثقلاً بالرسالة الممجدة التي كان يحملها له . وما لبث ان توقف : فقد لاحظ ان « المعجزة » كان يرتجف بجميع أعضائه ؛ وكانت حركة تشنجية تقذف بجسمه الى الورا تارة ، وطوراً تلتصق بطنه بالدربزين وهي تلوي له رقبته فوق الماء . وفكر دانيال مغتاضاً « يا للأبله الصغير ! » إن الفتى لم يكن جديراً بهذه الدقيقة المدهشة ، لم يكن حاضراً تماماً في الموعد المحدد ، بل كانت هموم طفولية تشرّد هذه النفس التي كان ينبغي ان تظل على استعداد لتلقي النبأ الطيب . « يا للأبله الصغير ! » وفجأة ، رفع المعجزة رجله اليمنى بحركة غريبة مقتسرة ، كما لو انه كان يريد ان يجتاز الحاجز . وكان دانيال يتهيأ للقفز حين التفت الفتى قلقاً ، وساقه في الهواء ، ولمح دانيال ، فرأى دانيال عينين عاصفتين في وجه طبشوري ؛ وتردد الفتى لحظة ، وسقطت قدمه وهي تصدم الحجر ، ثم شرع يمشي بلا اكتراث ، وهو يجر جر يده على حافة الحاجز . انت ، تريد ان تقتل نفسك !

وتحوّل افتتاحان دانيال فجأة الى جليد ، إنه لم يكن الا كذلك : صيباً قدراً مستطار اللب ، غير جدير بأن يتحمل عواقب حماقاته . ونفخت عضوه دفقة شهوة ؛ فأخذ يسير خلف الفتى بفرحة الصياد

المثلوجة . كان يبتهج على البارد ؛ وكان يحس نفسه متحرراً ، نظيفاً ،
خبيثاً الى أبعد حد ممكن . وكان في أعماقه يؤثر ذلك ، ولكنه كان
يتسلى بأن يحفظ ضغينة الفتى : أتريد ان تقتل نفسك ايها الأبله الصغير ؟
لعلك تظن ان هذا يسير ! إن من كانوا ادهى منك أخفقوا في ذلك .
وكان الفتى يستشعر حضوراً في ظهره ؛ فكان الآن يخطو خطوات
واسعة تشبه خطوات حصان مفرطة الارتفاع والصلابة . وفي وسط
الجسر ، أحسن فجأة بوجود يده اليمنى التي كانت تلامس الحاجز :
وارتفعت يده في طرف ذراعه ، متصلبة ، قدرية ؛ فأخفضها قسراً
ودسها في جيبه ، وواصل سيره وهو يدخل عنقه في كتفيه ؛ وفكر
دانيال : انه ذو هيئة « مريبة » ، هكذا أحبهم . وحث الفتى
خطاه ، فحذا دانيال حذوه . وكانت ضحكة قاسية تصعد الى شفثيه :
انه يتألم ، وهو مستعجل لينتهي من ذلك ، ولكن لا يستطيع لأنني
خلفه . هيا ، هيا ، فاني أتركك . وفي نهاية الجسر ، تردد الفتى ،
ثم سلك رصيف « دورسيه » وبلغ سلباً يفضي الى الضفة ، فتوقف
والتفت الى دانيال في نقاد صبر ، وجعل ينتظر . ورأى دانيال في
لمحة خاطفة وجهاً ساحراً ممتعاً ذا أنف قصير وفم صغير مسترخ ،
وعينين فخورين . فأسبل جفنيه في تقى زائف ، واقترب على مهل ،
فتجاوز الفتى من غير ان ينظر اليه ، ثم ألقى بعد بضع خطوات نظرة
سريعة من فوق كتفه : فاذا الفتى قد اختفى . وانحنى دانيال من غير
عجل فوق الحاجز فلمحه على الضفة ، مطرقاً ، غارقاً في تأمل حلقة
قلس كان يركلها بقدمه في تفكر ؛ كان يجب ان يهبط بأقصى سرعة
ومن غير ان يدعه يتنبه اليه . ومن الحظ انه كان ثمة على بعد عشرين
متراً سلم آخر ، درج ضيق من الحديد كان يخفيه نوء من جدار
وهبط دانيال على مهل ، ومن غير ضجة : كان يجد تسلية عظيمة في
ذلك . واذا بلغ أسفل الدرج ، التصق بالجدار ، وكان الفتى ، عند

طرف الضفة الاقصى ، ينظر الى الماء . وكان « السين » مخضوضراً
ذا إشعاعات كبريتية يجحف بمجراه أشياء غريبة رخوة ومعتمة ؛ ولم
يكن مغرباً جداً ان يغطس المرء في هذا النهر المريض . وانحنى الفتى
فالتقط حصاة وألقى بها في الماء ، ثم عاد الى تأمله المهووس ، هيباً ،
هيباً ، لن يتم ذلك اليوم ؛ بعد خمس دقائق ، سيصاب بالخوف .
فهل ينبغي ان أدع له الفرصة لذلك ؟ هل يجب ان أظلّ مخبئاً . وانظر
حتى يتملي جيداً من حقارته . وحين يبتعد ، أطلق ضحكة كبيرة !
ان هذا لا يخلو من مخاطرة : فربما دفعني ذلك الى احتقار نفسي الى
الابد . فاذا ارتميت عليه فوراً ، كما لو اني اريد ان أمنعه من الغرق ،
فسيكون مسروراً ان اكون قد حسبته جديراً بذلك ، حتى ولو احتج
على الشكل ، وان أجنبه لقاء فردياً مع نفسه . وأمرّ دانيال لسانه
على شفثيه ، وتنفس نفساً عميقاً ، وخرج من مخبأه . فالتفت الفتى مذعوراً
وكان يوشك ان يقع لو لم يمسك به دانيال من ذراعه ، وقال :

— اني ...

ولكنه عرف دانيال فبدا وكأنما عاوده اطمئنانه ، فحلّ الغضب في
عينيه محل الذعر . انما كان يخشى « شخصاً آخر » . وسأل في تعال :

— ما هذا ؟

ولم يستطع دانيال ان يجيبه على الفور : فقد كانت الشهوة تقطع
نفسه . وقال بمشقة :

— ايها الفتى النرجسي ! ايها الفتى النرجسي !
وأضاف بعد لحظة :

— لقد بالغ نرجس في الانحاء ، ايها الفتى ، فسقط .
قال الفتى : — لست بنرجس . ولديّ حسن التوازن ، وأستطيع
ان استغني عن خدماتك .
وفكر دانيال : انه طالب . وسأله بقسوة :

— كنت تريد ان تنتحر ؟

— هل انت مجنون ؟

فأخذ دانيال يضحك ، واحمرّ الفتي ، وقال بلهجة كثيبة :

— حلّ عني !

فقال دانيال وهو يشد ضمته :

— حين يحلو لي ذلك !

فخفض الفتي عينيه الجميلتين ، وأتبع لدانيال الوقت الكافي للارتداد إلى خلف حتى يتفادى ضربة من كعبه . وفكر دانيال وهو يستعيد توازنه : ركلات ! ركلات كيفما جاءت ، حتى من غير ان ينظر إليّ . كان مفتوناً . ولهاذا في صمت : كان الفتي مطرق الرأس ما يزال ، وكان بوسع دانيال ان يتأمل شعره الرقيق رقة مدهشة .

— وإذن ؟ أراك ترسل ركلات بقرية ، كأنك امرأة !

فحرك الفتي رأسه من اليمين إلى اليسار ، كما لو انه كان يحاول عبثاً رفعه . وبعد لحظة ، قال بفضاضة جاهدة :

— إذهب فانبعض !

وكان في صوته عناد أكثر مما كان فيه ثقة ، ولكنه كان قد رفع رأسه ينظر إلى دانيال مواجهة في جرأة مذعورة من نفسها . واخيراً ، انزلت عيناه إلى جانب ، فتمكن دانيال من ان يتأمل علي هواه هذا الرأس الكتيب الذي كان كأنه مبدول . وفكر « فخر وضعف ، ونية سيئة . بورجوازي صغير يزرع الاضطراب فيه شرود مجرد ، ملامح فاتنة ، ولكن بلا سباح . » وفي تلك اللحظة ، تلقى ركلة في ساقه ، فلم يستطع ان يخفي كرازة ألم في وجهه .

— ايها الابله الصغير اللعين ! انني لا ادري ماذا بمسكني عن ان

أدفيء لك مؤخرتك بجلدة طيبة .

فبرقت عينا الفتي وقال :

- حاول !

فأخذ دانيال هزته :

- وإذا حاولت ؟ إذا أخذتني الرغبة في ان انزع سروالك على الفور ، أتظن انك انت الذي ستمنعني من ذلك ؟
فاحمرّ الفتى بعنف وأخذ يضحك .

- انك لا تخيفني .

قال دانيال :- عجباً !

وقبض عليه من رقبته وحاول ان يثنيه الى امام ، فصاح الفتى بصوت يائس :

- لا ! لا ! لا !

- هل تحاول مرة اخرى ان تركلني ؟

- لا ، ولكن دعني .

فتركه دانيال يستقيم . وظل الفتى فاغر الفم - ، وكان يبدو وكأنه مطارّد . « لقد سبق لك ، ايها الحصان الصغير ، أن عرفت الشكيمة ؛ وقد ادّعى لي احدهم خدمة ان ابدأ الترويض . أب ؟ عم ؟ عشيق ؟ كلا ، ليس عشيقاً : فيها بعد ، سنعيد هذا ، اما الآن فنحن ابيكار »
وقال من غير ان يتركه :

- وإذن ، كنت تريد ان تنتحر ، فلماذا ؟

وكان الفتى يلزم صمتاً عنيداً . وقال دانيال :

- اصمت ما حلا لك ، فإذا يهمني في ذلك : لقد فشلت على كل

حال في تحقيق غايتك .

فوجه الفتى لنفسه بسمة لإقرار صفراء . وفكر دانيال منزعجاً :

« اننا غارقان في الرمل . يجب ان نخرج من الطريق المسدود . »

وعاد هزته :

- لماذا تبتمس ؟ اتريد ان تقول لي السبب ؟

فنظر اليه الفتى في عينيه :

– لا بد ان ينتهي بك الامر الى تركي وشأني .

قال دانيال : – هذا صحيح . بل اني سأتركك على التو .

وحلّ ضمته ووضع يديه في جيبه ، وسأله :

– وبعد ذلك ؟

فلم يتحرك الفتى ؛ وكان ما يزال يبتسم . « انه يسخر مني » .

– اسمع جيداً . انني سبّاح ماهر . وقد سبق لي ان انقذت

شخصين ، أحدهما في بحر عاصف .

فضحك الفتى ضحكة فتاة هازئة :

– هذا هوى مهووس !

قال دانيال : – ربما كان ذلك . ربما كان هوى مهووساً .

(وأضاف وهو يباعد ما بين ذراعيه) اغطس ! اغطس اذا شئت .

فسأدعك تشرب كمية من الماء ، وسترى ما أعذب ذلك . ثم أنزع

ثيابي واقفز الى الماء ، فأضربك على أمّ رأسك واعود بك نصف ميت .

واخذ يضحك .

– لا بد انك تعرف ان من النادر ان يكرر المرء عملية انتحار

فاشلة ! فحين اكون قد أعدت لك حواسك ، فلن تفكر في ذلك

بعد ابدأ .

وخطا الفتى خطوة نحوه كما لو انه سيضربه :

– ما الذي يمنحك الحق بان تحدثني بهذه اللهجة ؟ ما الذي يمنحك

الحق في ذلك ؟

وكان دانيال ما يزال يضحك :

– ها ! ها ! ما الذي يمنحني الحق ؟ ابحث ، ابحث جيداً !

وشدّ على معصمه فجأة :

– ما دمت هنا ، فلن تستطيع ان تقتل نفسك ، حتى ولو كنت

تموت رغبة في ذلك . انني سيد حياتك وموتك .

فقال الفتى بهيئة غريبة :

— لن تكون هنا دائماً .

قال دانيال : — هذا ما يجعلك تخطيء . سأكون « دائماً » هنا .

وارتعش لذة : فقد فاجأ في العينين الجميلتين اللوزيتين بريق فضول .

— حتى ولو كان صحيحاً اني اريد ان أقتل نفسي ، فاذا يعنيك

من ذلك ؟ انك لا تعرفني حتى اية معرفة .

فأجاب دانيال بمرح :

— لقد قلتها : هذا هوس . اني مهووس بمنع الناس من ان

يفعلوا ما يريدون .

ونظر اليه في طيبة :

— ايكون الامر خطيراً الى هذا الحد ؟

فلم يجب الفتى . وكان يبذل كل ما في وسعه حتى لا يبكي .

وكان من فرط تأثر دانيال ان أحسّ الدموع تظفر في عينيه .. ومن

حسن الحظ ان الفتى كان من شدة الاستغراق بحيث لم يلاحظ ذلك .

وتمكن دانيال ، في لحظات اخرى ، من ان يتألك رغبته في ملامسة

شعره ؛ ثم تركت يده اليمنى جيبه من تلقاء نفسها وأقبلت تحط بحركة

متلمسة عمياء على رأسه الأشقر . وسرعان ما سحبها كما لو انه احترق :

« قبل الاوان ! هذه غلظة ... » ونفض الفتى رأسه بعنف ، وخطا

بضع خطوات على الضفة : وكان دانيال ينتظر وهو يمسك أنفاسه :

« قبل الاوان ، ايها الاحق ، كان ذلك مبكراً جداً . » وانتهى الى

القول في غضب ، ليعاقب نفسه : « اذا ذهب ، فسأتركه يذهب من

غير ان آتي حركة » ولكنه ما كاد يسمع الشهقات الاولى حتى هرع

اليه واحاطه بذراعيه . فاستسلم الفتى الى صدره . وقال دانيال مضطرباً :

— يا للفتى المسكين ! يا للفتى المسكين !

وكان مستعداً لمنح يده اليمى ليستطيع ان يواسيه او يبكي معه .
وبعد لحظة ، رفع الفتى رأسه ، وقد كفّ عن البكاء ، ولكن
دمعتين كانتا تتدحرجان على وجهه اللذيد ؛ وقد ودّ دانيال لو يلتقطهما
بضربتين من لسانه ويشربهما ليحس في جوف حلقه بمذاق هذا الألم
المالح . وكان الفتى ينظر اليه في تحدّ :

— وكيف حدث انك كنت موجوداً هناك ؟

قال دانيال : — كنت ماراً .

— ألسنت اذن نجدياً ؟

سمع دانيال السؤال بغير رضى :

— ان حربهم لا تهمني .

وسارع يضيف :

— سأقدم لك اقتراحاً ، الا تزال مصمماً على الانتحار ؟

فلم يجب الفتى ، ولكنه بدا بمظهر معتم عازم . وقال دانيال :

— حسناً جداً . اسمع إذن . لقد تسليت في إخافتك ، ولكني

لست ضد الانتحار اذا فكر فيه المرء بنضج ، ولا ارى في موتك الا

حظاً سيئاً ما دمت لا اعرفك . ولهذا لا افهم لماذا امنعك من الانتحار ،

اذا كانت لك اسباب وجيهة .

ورأى في فرح خدي الفتى يمتنعان ، وفكر : «كنت تحسب انك

سويت الأمر » وتابع وهو يريه فص خاتمه :

— انظر . إن في داخله سمّاً صاعقاً . وانا ألبس دائماً هذا الخاتم ،

حتى في الليل ، حتى اذا ألفتني في وضع لا تستطيع كبريائي احتماله...

وكفّ عن الكلام وفتح الفص . فنظر الفتى الى القرصين الأسمرين

في حذر مليء بالنفور .

— ستشرح لي قضيتك . فاذا حكمت بوجهة دوافعك ، فسيكون

احد هذين القرصين لك . وهو على كل حال ألدّ من حمام بارد .

وسأله ، كما لو انه غير رأيه فجأة :
- أتريده علي التو ؟
فأمرّ الفتي لسانه علي شفتيه من غير ان يجيب .
- هل تريده ؟ انني اعطيك إياه ، وسوف تبتلعه تحت انظاري ،
ولن أتركك .

واخذ يده وقال :

- سأمسك بيدك ، وسأغمض عينيك .
فنفض الفتي رأسه ، وسأل في مشقة :
- وما الذي يثبت لي أن هذا سم ؟
فانفجر دانيال بضحكة خفيفة نضرة :
- أتخشى ان يكون مسهلاً ؟ ابتلعه ، وسترى جيداً .
فلم يجب الفتي : وكان خداه ما يزالان ممتعنين وحدقتاه متمدنتين ،
ولكنه بسم بسمة خفية مدللة وهو يرمق دانيال .
- إنك اذن لا تريده ؟

- ليس علي التو .

فأغلق دانيال فمّ خاتمته ، وقال ببرودة :

- كما تشاء . ما هو اسمك ؟

- أمن الضروري ان اقول لك اسمي ؟

- اسمك الاول ، نعم .

- طيب ، اذا كان ضرورياً ... فيليب .

قال دانيال وهو يمرّ ذراعه تحت ذراع الفتي :

- اسمع يا فيليب ، ما دمت حريصاً علي ان توضح موقفك ،

فلنصعد الي بيتي .

ودفعه الي السلم وجعله يصعد الدرجات بحفة ؛ ثم حاذيا الأرصفة ،
متشابكي الذراعين . وكان فيليب يخفض رأسه بعناد ، وقد عاودته

الرجفة ، ولكنه كان مستسلماً لدانيال يلامسه بخاصرته في كل خطوة .
حذاء بيكاري جميل يكاد يكون جديداً ولا يرجع عهده الى اكثر من
عام ، وبذلة من الفلانيل جميلة التفصيل ، وربطة عنق بيضاء ، فوق
قيص من الحرير الازرق . وكان ذلك شائعاً عام ٣٨ في مونبارناس .
وتسريحة شعر مهملة بعناية : ولم يكن في هذا كله نصيب قليل من
الترجسية . ترى ، لماذا لم يكن جندياً ؟ لا شك في انه اصغر سنأ من
ان يكون كذلك ؛ ولكن كان ممكناً ان يكون اكبر سنأ مما يبدو ؛
إن الحدائة تطول لدى الصبية المضطهدين . ومهما يكن من أمر ، فامس
البؤس هو الذي يدفعه للانتحار . وسأله فجأة اذ ألما بجسر هنري
الرابع :

— أ بسبب الألمان كنت تريد ان تُغرق نفسك !

فبدت على فيليب الدهشة ، ولوى رأسه . كان جميلاً كمالك .
وفكر دانيال في حماسة : سأساعدك ، سأساعدك . كان يريد ان ينقذ
فيليب ، ويجعل منه رجلاً ، سوف أعطيك كل ما أملك ، وستعرف
كل ما أعرف . وكانت سوق « الهال » خالية وسوداء ، ولم تكن
تنبعث منها الروائح بعد . ولكن المدينة كانت قد تغيرت مظهرأ .
فقبل ساعة ، كانت نهاية العالم ، وكان دانيال يُحس انه تاريخي .
اما الآن ، فقد كانت الشوارع تعود ببطء الى نفسها ، وكان دانيال
يتنزه في جوف أحد من آحاد ما قبل الحرب ، في تلك الساعة الدائرة
التي يبزغ فيها يوم اثنين جميل جديد ، في احتضار الاسبوع والشمس .
كان شيء ما سيبدأ : اسبوع جديد ، قصة حب جديدة . ورفع رأسه
وابتسم : كان زجاج واجهة مشعة يعكس له المغرب كله ، وكانت
تلك علامة ؛ وافغمت منخرية فجأة رائحة لذيذة لفريز مسحوق ،
وكانت تلك علامة اخرى ؛ وفي البعيد عبر شارع مونبارس شبح يعدو ،
علامة ثالثة . كلما كان الحظ يضع في طريقه الجمال المشع لفتى - لآله ،

كانت السماء والأرض ترسلان له غمزات خبيثة . وكان يخور من الشهوة ، وكان نفسه ينقطع لدى كل خطوة ، ولكنه كان من فرط الألفة للمشي الصامت بالقرب من الحيوانات الفتية التي لا تثير الريب بحيث انه أصبح يحب الصبر اللواطي الطويل لذاته . اني ارصدك ، فانت عار في جوف نظري ، وانا امتلكك على البعد ، من غير ان اعطي شيئاً من نفسي ، بالشم والنظر ؛ وقد أصبحت اعرف خاصرتيه الجوافوين ، والامسهما بيدي الجامدتين ، وأدخل فيك فلا تشعر بذلك ولو شعوراً . وانحنى ليشم عطر هذه الرقبة المحنية ، فأدركته فجأة رائحة نفتلين قوية . وسرعان ما عاد الى استقامته ، وقد برد حسه وشعر بالتسالية : وكان مغرماً بهذه التنقلات بين الاغتمام والجفاف ، وكان يعبد ثورة الأعصاب . وقال في نفسه بمرح : لنر اذا كنت رجل تحر ناجحاً . هوذا شاعر شاب يريد ان يلقي بنفسه في الماء ، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس ؛ لماذا؟ دلالة فريدة ، ولكنها رئيسية : ان رائحة النفثلين تنبعث من بذلته ، وهذا يعني انه لم يكن يرتديها بعد . لماذا تراه يغير ثوبه يوم انتحاره ؟ لانه لم يكن يستطيع بعد ان يرتدي ما كان يرتديه أمس فقط .. انه اذن جندي ، ولكن ماذا يفعل هنا ؟ فلو كان مجنداً في فندق كونتinentال او في خدمات وزارة الطيران ، لكان قد فر منذ وقت طويل الى « تور » مع الآخرين . واذن ، فالامر واضح تماماً . وتوقف ليشير الى البوابة :

— هنا :

فقال فيليب فجأة — : لا اريد .

— ماذا ؟

— لا اريد الصعود .

— أتفضل ان يلتقطك الألمان ؟

فردد فيليب وهو ينظر الى قدميه :

— لا اريد . ليس لدي ما اقوله لك ، ولست أعرفك .
قال دانيال : — هكذا اذن . هكذا اذن !
وأخذ له رأسه بكلتا يديه فرفعه قسراً ، وقال له :
— انت لا تعرفني ، ولكني أعرفك . واستطيع ان ارويها
لك ، حكايتك .

واستطرد وهو يُغرق نظره في عيني فيليب :
— كنت في جيش الشمال ، ووقع الذعر في الصفوف فهربت .
وبعد ذلك ، لم تجد وسيلة للعودة الى فرقتك ، على ما افترض .
فعدت الى بيتك ، وكانت اسرتك قد اختبأت ، وليست انت الثياب
المدنية ، وذهبت تواءم لتلقي بنفسك في السين . وليس مرد ذلك انك
وطني بصورة استثنائية ، ولكنك لا تستطيع ان تحتمل التفكير بأنك
جبان . أتراني قد اخطأت ؟

ولم يكن الفتى ليتحرك ، ولكن عينيه كانتا قد زادت اتساعاً ؛
وكان دانيال جافّ الفم ، وكان يشعر بالضيق يصعد في داخله كالماء ،
فردد بصوت اميل الى العنف منه الى الوثوق :
— أتراني قد اخطأت ؟

فأرسل فيليب همدة خفيفة واسترخى جسمه ؛ وتراجع الضيق ،
وقطع الفرح نفس دانيال ، وجنّ قلبه وخفق في صدره كالأصم ، فتمتم :
— اصعد . إنني اعرف العلاج .

— علاج أي شيء ؟
— علاج هذا كله . عندي أشياء كثيرة أعلمك إياها .
وكان يبدو على فيليب التعب والتأسي ؛ ودفعه دانيال تحت المظلة .
ولم يكن قد جرؤ بعد قط على ان يأتي الى بيته بالصبيتين الجميلتين اللتين
كان يصطادهم في مونمارتر او مونبارناس . ولكن البوابة ومعظم
المستأجرين كانوا اليوم يركضون في الطرق ، بين مونمارجي وجيان ،

فأليوم كان يوم عيد . وصعدا في صمت . ووضع دانيال المفتاح في القفل من غير ان يترك ذراع فيليب . وفتح الباب واحمى :
- ادخل .

فدخل فيليب بخطوة ناعسة .

- الباب المواجه : هناك الصالون .

وأولاه ظهره ، فأقفل الباب بالمفتاح ، ووضع المفتاح في جيبه .
وحين عاد الى فيليب ، كان هذا قد انزوع امام الرفوف ينظر الى التماثيل الصغيرة نظرة متعشة .
- انها عظيمة .

قال دانيال : - لا بأس بها ، لا بأس بها . وهي خصوصاً
« حقيقية » . لقد اشتريتها بنفسى من الهنود .
وسأل فيليب : - وهذه ؟

- هذه صورة صبي ميت . ففي المكسيك ، حين يموت شخص
ما ، يستقدمون رسام الموتى ، فيقيم هناك ويرسم الجنة تحت ملامح
رجل حي . فينتج مثل هذا .

فسأل فيليب في شيء من الاعتبار :

- وهل سبق ان كنت في المكسيك ؟

- بقيت فيها عامين .

وكان فيليب ينظر في نشوة الى صورة هذا الصبي الجميل الكابي
الذي كان يرد له نظره عن صدر الموت برصانة ممتهن عارف واكتفائه .
وفكر دانيال : انهما متشابهان . كلاهما أشقر ، وكلاهما شامخ ممتقع ،
أحدهما من هذا الجانب من اللوحة ، والآخر من الجانب الآخر ، الصبي
الذي اراد ان يموت ، والصبي الذي مات حقاً : كانا يتبادلان النظر ،
وكان الموت هو ما يفصل بينهما : لا شيء ، سطح القماش المنبسط :
وردد فيليب :

- عظيم .
 وفجأة سحق دانيال تعب هائل . فتنفس وتداعى للسقوط في اريكة .
 وقفزت ملفينا على ركبتيه ، فقال وهو يداعبها :
 - لا لا ! كوني عاقلة : يا ملفينا ، كوني جميلة .
 والتفت الى فيليب وقال بصوت ضعيف :
 - وهناك ويسكي في خزانة المشروب : كلا ، الى اليمين ، الخزانة
 الصينية الصغيرة ؛ هناك . وتجدي ايضاً اقداحاً ، فتقدمها لنا ، وتقوم
 بدور فتاة المنزل .
 وملاً فيليب قدحين فناول دانيال أحدهما وبقي واتفأ امامه . وكرع
 دانيال قدحه بجرعة واحدة فاستشعر النشاط ، وقال له فجأة بلهجة
 احترام :
 - لو كنت شاعراً ، لشعرت بما في لقائنا من شيء خارق للعادة .
 فضحك الفتي ضحكة صغيرة مثيرة :
 - ومن قال لك اني لست شاعراً ؟
 وكان ينظر الى دانيال مواجهة : فنذ دخل البيت ، تغير مظهراً
 وحركات . وفكر دانيال منزعجاً : إن ارباب العائلة هم الذين
 يخيفونه : وهو ليس خائفاً مني بعد ، لأنه ادرك اني لست منهم .
 وتظاهر بالتردد ، وقال بتفكير :
 - انني أتساءل عما اذا كنت ستثير اهتمامي .
 فقال فيليب : - كان خيراً لك أن تتساءل عن ذلك قبل هذا
 بقليل .
 وابتسم دانيال :
 - لم يفت الاوان . فاذا اضجرتني ، أخرجتك .
 قال فيليب : - لا تتحمل هذا الهم .
 وكان يتجه نحو الباب . فقال دانيال :

- إبقى . انت تعلم انك بحاجة إليّ
- فابتسم فيليب بهدوء وعاد يجلس على كرسي . وكانت بوبيه تمرّ بقربه ، فقبض عليها ووضعها على ركبتيه من غير ان تحتج . وكان يداعبها برقة ، وشهوة ، فقال دانيال مندهشاً :
- نقطة طيبة لك . فهذه هي المرة الاولى التي تستسلم فيها لأحد . فبسم فيليب بسمة طويّاة متعرجة مزهوة ، وسأله خافض العينين :
- كم قطة عندك ؟
- ثلاث .
- نقطة طيبة لك .
- وكان يحك رأس بوبيه التي أخذت تههم . وفكر دانيال : هذا العفريت ، يبدو أكثر سروراً مني ، فهو يعرف انه يروق لي . وسأله فجأة ، ليشوشه :
- وإذن ؟ كيف حدث ذلك ؟
- فترك فيليب بوبيه وهو يباعد ما بين ركبتيه ، فقفزت القطة الى الارض وفرت .
- وقال : – حدث كما تصوّرتة . وليس لديّ ما أضيفه .
- واين كنت ؟
- في الشمال . بلدة صغيرة تدعى « باني » .
- وماذا حدث ؟
- لا شيء . كان قد مضى على مقاومتنا يومان حين جاءت الدبابات والطائرات .
- معاً ؟
- نعم .
- وهل خفت ؟
- حتى هذا لا : الا ان يكون الخوف شيئاً آخر غير ما نفكر به . وكان وجهه قد قسا وشاخ . كان ينظر في الفراغ نظرة متعبة :

- وكان الافراد يركضون ، فركضت معهم .
- وبعد ذلك ؟
- مشيت ، ثم وجدت شاحنة ، ثم مشيت من جديد ، فوصلت الى هنا امس الاول .
- وبمّ كنت تفكر وانت تسير ؟
- لم اكن افكر .
- ولماذا انتظرت حتى اليوم لتقتل نفسك ؟
- قال فيليب : - كنت اريد ان ارى امي ثانية .
- ألم تكن هنا ؟
- كلا . لم تكن هنا .
- ورفع رأسه وتأمل دانيال بعينين تبرقان ، وقال بصوت واضح قاطع :

- ستكون على خطأ اذا اعتبرتني جباناً .
- صحيح ؟ اذن لماذا فررت ؟
- ركضت لان الآخرين كانوا يركضون .
- ومع ذلك ، فقد كنت تريد ان تنتحر ؟
- صحيح كنت افكر بذلك .
- لماذا ؟
- يحتاج شرح ذلك الى وقت اطول مما ينبغي .
- قال دانيال :- وهل ثمة ما يدعوك الى العجلة ؟ 'خذ فصب لك قدح ويسكي .
- وصب فيليب لنفسه وكان خداه قد توردا . وضحك ضحكة صغيرة ، وقال :

- لو لم يكن هناك سواي ، لكان سواء عندي ان اكون جباناً او لا اكون . اني من دعاة السلام . فما هي الفضيلة العسكرية ؟ انها قصور في الخيال . لقد كان الافراد الشجعان هناك فلاحين ، وحوشاً

حقيقتين . كل ما هناك ان المصيبة قد ارادت ان اولد في اسرة أبطال .
قال دانيال : - فهمت . إن اباك ضابط .

فقال فيليب : - ضابط احتياط . ولكنه مات عام ٢٧ من نتائج الحرب : لقد اختنق بالغاز ؛ قبل الهدنة بشهر واحد . وهذه الميثة المجيدة جعلت امي تستدوق : فتزوجت مرة اخرى عام ١٩٣٣ بجنرال .
قال دانيال : - سوف تصاب بخيبة . ان الجنراليسة يموتون في أسرهم .

فقال فيليب بكراهية : - ليس هذا شأنه ، فهو من اسرة بايار :
انه يضاجع ويقتل ويصلي وهو لا يفكر .
- وهل هو في الجبهة ؟

- واين تريده ان يكون ؟ لا بد انه هو نفسه وراء رشاش او انه يزحف نحو العدو على رأس فرقة ، فبوسعك ان تعتمد عليه ليضمحي برجاله حتى آخرهم .

- أتصوره اسود ذا شعر كثيف وشاربين .

قال فيليب : - تماماً . إن النساء يعبدنه لان له رائحة التيس .

وضحكا وهما ينظران فيما بينهما . وقال دانيال :

- لا يبدو عليك انك تحبه كثيراً .

قال فيليب : - انني أحتره .

وتورد ، ونظر الى دانيال باحداد ، وقال :

- اني اعاني عقدة اوديب . الحالة النموذجية .

فسأله دانيال بعدم تصديق .

- أنت عاشق امك ؟

فلم يجب فيليب : كان يبدو بمظهر جدي وقدري : وانحنى

دانيال الى امام ، وسأله في رقة :

- الست بالأحرى عاشق زوج امك !

فانتفض فيليب واصبح قرمزي اللون ، ثم انفجر ضاحكاً وهو
ينظر الى دانيال في عينيه وقال :

— ما اوسع خيالك !

فقال دانيال وهو يضحك كذلك :

— اسمع إذن ! فانما بسببه هو كنت تريد ان تنتحر !

وكان فيليب ما يزال يضحك :

— ولكن على الاطلاق ! اطلاقاً !

— بسبب من اذن ؟ انك تركض الى السين لأنك جيتت ، وتعلن

مع ذلك انك تحتقر الشجاعة . انك تخاف ان تحتقر .

قال فيليب : — بل أخاف ان تحتقرني امي .

— امك ؟ انني متأكد انها تتحلى بكل الرحمات .

فعض فيليب على شفتيه من غير ان يجيب . وقال دانيال :

— حين وضعت يدي على كتفك ، أصبت بالذعر . كنت

تظن انه هو ، اليس كذلك ؟

فنهض فيليب ، وعيناه تبرقان :

— لقد .. لقد رفع يده عليّ .

— متى ؟

— منذ اقل من عامين . ومنذ ذلك الحين ، وانا أحسن به وراثي .

— ألم تحلم قط بأنك عارٍ بين ذراعيه ؟

فقال فيليب وقد أخذه غيظ صادق :

— انت مجنون .

— على كل حال ، ان ما هو مؤكد ، هو أنه يمتلكك . انت تمشي

على أربع ، فيركب الجنرال على ظهره ، ويجعلك تنطنط كالفرس .

لست ابدأ انت نفسك : فتارة تفكر مثله ، وتارة ضده . دعوة

السلام ، يعلم الله انك لا تكترث لها ، بل لم تكن لتفكر بها لو لم

- يكن زوج امك جندياً .
 ونهض فأخذ فيليب من كتفيه :
 - اتريد ان احرقك ؟
 فتخلص منه فيليب ، وقد عاوده الحذر :
 - وكيف تستطيع ذلك ؟
 - قلت لك ان عندي اشياء كثيرة أعلمك اياها .
 - أنت طيب نفساني ؟
 - شيء من هذا القبيل .
 فهزّ فيليب رأسه وسأل :
 - اذا افترضنا هذا صحيحاً ، فلأيّ سبب تهتمّ بي ؟
 فقال دانيال مبتسماً :
 - اني هاوي ارواح . (واضاف بانفعال) ولا بد ان روحك
 لذيدة ، بمجرد ان تحرّر من كل ما يزعجها .
 فلم يجب فيليب ، ولكنه بدا مفتوناً ؛ وخطا دانيال بضع خطوات
 وهو يفرك يديه ، وقال في استنارة فرحة :
 - ينبغي البدء بتصفية جميع القيم . انت طالب ؟
 قال فيايب : - كنت طالباً .
 - حقوق ؟
 - ادب .
 - حسناً . انك اذن تفهم ما اعني : الشك المنهجي ، نعم ؟
 اختلال رامبو النظامي . اننا نهدم كل شيء . ولكن لا بالكلمات : بل
 بالاعمال . إن كل ما استعرتّه سيتلاشى دخاناً . وما يبقى ، هو
 انت . انفقنا ؟
 وكان فيليب ينظر اليه في فضول . واستطرد دانيال :
 - همّ عساک تخاطر ، وقد بلغت النقطة التي انت فيها الآن ؟

فهز فيليب كتفيه :

- بلا شيء .

قال دانيال - عظيم ، انني أتبتألك . ونحن نبدأ على التو المهبوط الى الجحيم (واصاف وهو يقذفه بنظرة حادة) ولكن على الأخص ، لا تقم بـ « تحويل » علي .

قال فيليب وهو يبادلُه نظرتَه : - لست احمق الى هذا الحد .

فقال دانيال من غير ان ينزع عنه بصره :

- سوف تشفى حين تطرحني كقشرة عفنة .

قال فيليب : - لا تخف .

فقال دانيال ضاحكاً : - كقشرة عفنة .

فردد فيليب : - كقشرة عفنة .

وكانا يضحكان كلاهما ؛ وملاً دانيال كأس فيليب .

قالت الفتاة فجأة : - لنجلس هنا .

- لماذا هنا ؟

- انه مكان أعذب .

قال بينيت : - انظر الى هذا . انهن يحببن ما هو عذب ، آتسات

البريد هؤلاء !

ونزع سترته وألقى بها الى الأرض ، وقال :

- تفضلي . ضعي عذوبتك على سترتي .

وتداعوا للسقوط على العشب عند حافة سهل القمح . وأغلق بينيت

قبضته اليسرى ، وهو يراقب الفتاة بطرف عينه ، ثم ادخل ابهامه في

فه وتظاهر بأنه ينفخ : فبرزت عضلته ، كما لو ان منفاخاً نفخها .

وضحكت الفتاة قليلاً .

- تستطيعين ان تلمسيها .

فوضعت إصبعاً حياً على ذراع بينيت : وفي اللحظة نفسها اختفت العضلة وقلد بينيت صوت كرة تنفس . وصرخت الفتاة :
- اوه !

والتفت بينيت الى ماتيو :
- هل تتصور هذا ؟ ان « مورون » اذا رأني بلا سترتي ، جالساً على حافة الطريق ، فكم تراه سيسعل !
قال ماتيو : - إن مورون ما يزال يركض .
- انه يركض بسرعة شديدة ، كما لو اني أبعصه !
وانحنى نحو موظفة البريد وقال موضحاً :
- إن مورون هو الكابيتن . انه في الطبيعة .
فرددت : - في الطبيعة ؟

- هو يظن ان ذلك أفضل لصحته (وقهقهه) اننا أسباد أنفسنا ؛
فليس ثمة بعد من يأمر ، وبوسعنا ان نفعل ما نشاء ؛ فاذا شئت ؛
صعدنا الى المدرسة ونمنا في سرير الكابيتن ؛ إن القرية لنا .
قال ماتيو : - لا لفترة طويلة .
- سبب إضافي للافادة من الوقت .
قالت الفتاة : - أفضل ان ابقى هنا .
- ولكن لماذا ؟ أقول لك ان ليس هناك من يستطيع ان يقول شيئاً .
- ما زال في القرية بعض الافراد .
فرمقها بينيت باغراء وقال :

- صحيح ، انت موظفة . فيجب الا ترتكبي خطأ ، بالنسبة
للادارة . اما نحن (والتفت الى ماتيو ضاحكاً بهيئة مشاركة) فليس
لنا من نراعيه . اننا بلا مكان ولا زمان . بلا ايمان ولا قانون . اننا
عابرون : اما انتم فباقون ، ونحن نمضي ، نحن طيور عابرة ، نور .
أليس كذلك ؟ اننا ذئاب ، حيوانات قتال ، اننا ذئاب كبيرة

خبيثة ، ها !

وكان قد انتزع قشة عشب وراح يدغدغ بها ذقن الفتاة ؛ وغنى ، وهو ينظر اليها بعمق ، ومن غير ان يتسم :

— « من الذي يخشى الذئب الكبير الخبيث ؟ » .

فاحمرَّ وجه الفتاة وابتسمت وغنَّت :

— « لسنا نحن ، لسنا نحن » .

فقال بينيت مبتهجاً :

— ها ؟ يا لعبة (وتابع بشرود) ها يا لعبة صغيرة ، يا لعبة

صغيرة ، يا آنسة لعبة !

وصمت فجأة . كانت السماء حمراء ؛ وعلى الارض ، كان الجو رطباً أزرق . وكان ماتيو يُحس حياة العشب المتشابك ، تحت يديه وتحت فخذيته ؛ حياة الحشرات والارض ، كأنها شعر كثيف خشن ومبتل . مليء بالقمل ؛ وكان ضيقاً عارياً لصق راحتيه . محاصرون ! ملايين الرجال محاصرون ، ملايين الرجال محاصرون ، بين جبال الفوج ونهر الرين . محاصرون باستحالة ان يكونوا رجالا : وتلك الغابة المسطحة ستعيش بعدهم ، كما لو اننا لا يمكن ان نبقى في العالم ، إلا ان نكون منظرأ طبيعياً او مرجأ او اي حضور كلي غير شخصي . وتحت الايدي ، كان العشب مغرباً كالانتحار ؛ العشب والليل الذي يسحقه على الارض ، والافكار الاسيرة التي كانت تعدو على الارض في هذا الليل ، وهذا العنكبوت الذي كان يتأرجح بالقرب من حذائه ، والذي تشرم فجأة من جميع أرجله الهائلة واختفى . وتنهَّدت الفتاة ، فسألها بينيت :

— ما بك يا صغيرتي !

فلم تجب . كان لها وجه صغير محتشم ومحموم ذو أنف طويل وفم دقيق تبرز شفته السفلى قليلا الى الأمام .

— ما بك ؟ ماذا هناك ؟ قولي لي ما بك ؟

فُظِلَّت على صمتها . وعلى مئة متر منهم ، بين الشمس والحقل ،
كان اربعة جنود يَمرون معتمين في بخار مذهب . وتوقف أحدهم
والتفت نحو الشرق ، ممحواً بالنور ، غير اسود ، بل هو بنفسجي
بالنسبة لاهمرازات المغرب ؛ وكان عاري الرأس . وأقبل التالي يصطدم
به ويدفعه فيمتسلل شبحاهما فوق القمح كأنهما سفينتان ؛ وانزلق ثالث
خلفهما ، مرفوع الذراعين ؛ وكان الرابع المتخلف يصفع السنابل بعضا
رقيقة .

قال بينيت : - ايضاً !

وكان قد أخذ الفتاة من ذقنها ينظر اليها : كانت عيناها مليئين
بالدمع .

- ولكن ما هذا ؟ انك غير لطيفة .

وكان يجهد في ان يحدثها بقسوة عسكرية ، ولكن كانت تعوزه
الثقة : فلقد كانت الكلمات ، اذ تمر بضمه الطفولي ؛ تمتليء ضجراً .
وقالت :

- ان هذا اقوى مني .

فجذبها اليه .

- يجب الا تبكي . (وأضاف ضاحكاً) هل تبكي نحن الآخرين ؟

فتركت رأسها يميل على كتف بينيت ، ولامست شعره ؛ وكان
يبدو فخوراً .

قالت : - سوف يأخذونكم .

- ما هذا الكلام !

فرددت وهي تبكي : - سوف يأخذونكم .

فقست ملامح بينيت :

- لا حاجة بي الى ان يرثي لي .

- لا أريد ان يأخذوكم .
- من قال لك انهم سيأخذوننا ؟ سترين كيف يقاتل الفرنسيون ؛ وسوف تكونين في وضع طيب .
- فرفعت نحوه عينيها الكبيرتين وقد اتسعتا ؛ كانت شدة الخوف بحيث انها كفت عن البكاء .
- يجب ألا تقاتلوا .
- تا ، تا ، تا .
- يجب الا تقاتلوا ؛ فقد انتهت الحرب .
- فتأملها بوجه ماتع ، وقال :
- ها ! ها ! ها !
- والتفت ماتيو ؛ كان راغباً في الذهاب . وعادت الصغيرة تقول :
- تعارفنا منذ الأمس فقط .
- وكانت شفتها السفلى ترتجف ، وكانت تميل بوجهها الطويل ، فتبدو نبيلة المظهر ، جافلة حزينة ، كالحصان .
- وقالت : — غداً ...
- قال بينيت : — اوه ؛ من الآن حتى الغد ..
- من الآن حتى الغد ليس ثمة الا ليلة واحدة .
- قال وهو يغمز بعينه :
- تماماً : ليلة ، كافية لتسلى قليلا .
- لا رغبة عندي في التسلية .
- لا رغبة عندك في التسلية ؟ أصبح انك غير راغبة في التسلية ؟
- كانت تنظر اليه من غير ان تجيب . قال :
- هل انت مهمومة ؟
- فظلت تنظر اليه ، فاغرة الفم . وسألها :
- من أجلي ؟

ومال عليها في حنو لا يخلو من شرود ، ولكنه سرعان ما استقام
وهو يلوي شفثيه ، وكان سيء المظهر ، فقال :
- هيسا ! يجب ألا تهتمي بذلك ، يا صغيرتي : فسوف يأتي
آخرون . . يفقد واحد ، فيوجد عشرة .

- إن الآخرين لا يهتموني .

- لن تقولي ذلك بعد ان تريهم . انهم فتيان طريفون ، لو تعلمين ،
وأشدهاء ! اكتاف هكذا ، وأجناب هكذا !

- من تعني ؟

- الألمان طبعاً !

- انهم ليسوا رجالا .

- إلى من تحتاجين ؟

- انهم في نظري وحوش .

فبسم بينيت بسمه متجردة وقال بهدوء :

- انت مخبطة . انهم فتيان جميلون ، وجنود اقوياء . صحيح انهم

لا يساوون الفرنسيين ، ولكنهم جنود اقوياء .

فردت : - انهم في نظري وحوش .

قال لها : - لا ترددي ذلك ، لأنك ستنزعين جداً لانك قلتها

اذ تغيرين رأيك . انهم منتصرون ، فافهمي ذلك . انك لا تستطيعين

ان تقاومي انساناً شديداً قد ربح الحرب ، فيجب ان تنحني امامه ،

وسوف تشعرين هناك بالتأكل . اذهبي فأسألي الباريسيات ! لانهن

يتسائين الآن كثيراً ، الباريسيات ! لانهن يقمن بتمرينات للسيقان في الهواء.

فتخلصت الفتاة فجأة وقالت :

- انك تبعث لدي الاشمزاز .

فسأل بينيت : - ماذا دهالك ، ايتها الصغيرة ؟

قالت الفتاة : - اني فرنسية .

- الباريسيات ايضاً فرنسيات : هذا لا يمنع .
 قالت - دعني ؛ اريد ان اذهب .
 فاصفر بينيت وأخذ يقهقه . وقال ماتيو :
 - لا تغضبي . لقد قال ذلك ليشارك .
 قالت : - انه يبالغ ! فن تراه يعتبرني ؟
 فقال ماتيو على مهل :
 - ليس سهلاً ان يكون المرء مهزوماً . انه محتاج الى الوقت ليتعود
 ذلك : انت لا تعرفين كم هو لطيف عادة . انه حمل .
 قال بينيت : - ها ! ها ! ها !
 قال ماتيو : - انه يغار .
 فسألت الصغيرة وقد عادت اليها رقتها :
 - يغار عليّ ؟
 - بكل تأكيد . فهو يفكر بجميع الافراد الذين سيحاولون ان
 يغازلوك فيما هو يكسر الحصى .
 وقال بينيت الذي كان ما يزال يقهقه :
 - او فيما هو يأكل الهندباء البرية من جذورها .
 وصاحت : - انني امنعكم من ان تعرضوا انفسكم للقتل !
 فابتسم وقال :
 - تتحدثين كامرأة . كفتاة صغيرة (واطاف وهو يدغدغها)
 كفتاة صغيرة جداً .
 فقالت وهي تتلوى تحت دغدغاته :
 - خبيث ! خبيث ! خبيث !
 فقال ماتيو متزعجاً :
 - لا تهتمي بأمره كثيراً . سينجلي عنه هذا بكل بساطة ، ثم اننا
 لا نملك ذخيرة :

فالتفتا اليه في وقت واحد ، وقذفاه بالنظرة الحاقدة المستيقظة نفسها ،
كما لو انه قد منعها من ان يناما معاً للمضاجعة . ونظر ماتيو الى
بينيت في قسوة ؛ وبعد لحظة ، خفض بينيت رأسه ونزع ضمة عشب
من بين ركبته ، ووجهه متجههم . وعلى الطريق ، كان ثمة جنود
يتسكحون . وكان بينهم واحد يحمل بندقية ؛ وكان يمسك بها كأنها
شمعة طويلة ، وهو يضحك .

وقال رجل قصير أسمر ، سمين وأقعد :

– هيا !

فأخذ الجندي البندقية بكلتا يديه من انبوعها ، وأرجعها كعصا
الغولف ، ثم ضرب بعقبها حصاة قفزت عشرين خطوة . وكان بينيت
ينظر اليهما مقطب الحاجبين فقال :

– هناك من يسيء استعمالها على التو .

فلم يجب ماتيو . وكانت الفتاة قد أخذت يد بينيت على ركبتيها
تداعبها ، وقالت :

– ارى معك خاتماً .

فسألها وهو يقبض يده قليلا : – ألم تريه قبل الآن ؟

– بلى ، رأيت ، هل انت متزوج ؟

– ما دام معي خاتم .

قالت بأسى : – نعم .

– انظري ما افعل بخاتمي .

وشد على اصبعه بكزازة ، فنزع خاتمه ورماه في القمح ، فقالت

الفتاة مندهشة :

– اوه ! مع ذلك ...

« أخذ السكين من على الطاولة ، وكانت ايفيش تنزف ، فطعن

بها راحته .. » حركات ، حركات ، تهديمت صغيرة ، ماذا يجديك

ذلك ، أخذت هذا من أجل الحرية ، وثناءب ،

- كان من ذهب ؟

- نعم .

فتحاملت وقبلته في شفثيه قبله خفيفة . واستقام ماتيو ثم جلس قائلاً :

- انني انسحب .

فنظر اليه بينيت في قلتي :

- لابق بعد قليلاً .

- لست بحاجة ليلي .

قال بينيت : - بل لابق ، من اجل ما ستعمله ...

فابتسم ماتيو واوماً الى الفتاة :

- ليست لها رغبة كبيرة بأن أبقى .

- هي ؟ بلي بكل تأكيد ، فهي تحبك كثيراً (وانحني عليها

وقال بصوت ملح) انه صديق . اليس صحيحاً أنك تحببته كثيراً ؟

قالت الصنيرة : - بلي .

وفكر ماتيو : انها تحترني ؛ ولكنه بقي ، ولم يكن الوقت ليتقدم :

لقد كان يرتجف ، مسترخياً على هذا الحقل الأحمر . حركة مفاجئة

وسبحسه ماتيو من جديد في عظمه ، كوجع روماتيزم قديم العهد .

وتعمد على ظهره . السماء ، السماء وردية ومعدومة ؛ ليت يوسع الانسان

ان يسقط في السماء ! ولكن عبثاً ، اننا مخلوقات تنتمي الى تحت ،

والشر كله صادر من هناك .

وكان الجنود الاربعة الذين راهم ينسلون بين القمح قد استداروا

حول الحقل ليبلغوا الطريق ، وافضوا الى المرج ، في صف هندي .

وكانوا من قسم الهندسة لا يعرفهم ماتيو ؛ كان العريف الذي

على رأسهم يشبه بينيت ، وكان يرتدي قبصاً قصير الأكام ، مثله ،

وكان قد فتح قبصه على صدره المشعر ؛ وكان الثاني ، وهو اسمر

ملفوح ، قد ألقى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، وكان يمسك في يده اليسرى سنبله ، ويتلقى بيده اليمنى حباتها ؛ وقلب يده ، فحملها الى فمه ، واخرج لسانه فولغ في هذه الحبات المذمبة وهو يحرك رأسه . اما الثالث ، وهو اطولهم قامه واكبرهم سناً ، فهو يسرح شعره الأشقر بأصابعه . كانوا يمشون على مهل ، حالمين ، في مرفقة المدنيين . وخفض الأشقر يديه اللتين كانتا تتخللان شعره ، فأمرهما بعدوبة على كتفيه وعنقه ، كما لو انه يود ان يستمتع بزوايا هذا الجسم الذي انبثق اخيراً تحت الشمس ، خارج الغلاف العسكري الذي لا شكل له ، وتوقفوا الواحد خلف الآخر ، في وقت واحد تقريباً ، ونظروا الى ماتيو . وتحت هذه العيون المنتمئة الى عصر آخر ، احس ماتيو نفسه يذوب حشيشاً ، فكان مرجأً تنظر اليه الدواب . وقال الأسمر :

— لقد فقدت حمالي .

ولم يزعج الصوت هذا العالم اللانساني الرقيق : فانه لم يكن كلمة وانما كان واحداً من هذا الهمس الذي يسهم في خلق الصمت . ومن شفتي الأشقر ، أفلت همس مشابه :

— لا تحزن ، فلا بد ان الألمان قد أخذوه .

ووصل الرابع بلا ضجة : فتوقف ورفع انفه ، فمكس وجهه خلاء السماء . وقال :

— هيه !

وجلس القرفصاء ، فقطف زهرة منشور ، ووضعها في فمه . وحين نهض ، رأي بينيت وهو يضم الفتاة الى صدره ، فأخذ يضحك :

— الامور صعبة .

فأقره بينيت : — صعبة كفاية .

— ولكن الطقس يترطب ، اليس كذلك ؟

— لكأنه .

— هذا ما لا يؤسف له .

فاهتزت الرؤوس الأربعة في هيئة ذكاء ذات طابع فرنسي ؛
وامحى الذكاء ، فلم يبق الا فراغ هائل ، واستمرت الرؤوس في
اهتزازها . وفكر ماتيو : « انهم للمرة الاولى في حياتهم يرتاحون . »
كانوا يرتاحون من السير القسري ، ومن استعراضات الثياب ،
ومن التمرين ، ومن المأذونيات ، ومن انتظاراتهم ، ومن آمالهم ؛
كانوا يرتاحون من الحرب ومن تعب أقدم عهداً : من السلام . وفي
وسط القمح ، وعلى نخوم الغابة ، وعند مخرج القرية ، كان ثمة
آخرون في زرافات صغيرة يرتاحون كذلك : كانت قوافل من
الناقهين تعبر الريف . وصاح العريف :

— هو بيرار .

فالتفت ماتيو . كان بيرار ، مرافق الكابتن مورون ، قد توقف
عند حافة الطريق ليبول : لقد كان فلاحاً من مقاطعة بريتانى ،
متوحشاً وأبرص . وقد نظر اليه ماتيو في اندهاش : كان المغيب يحمر
سحنته الموحلة ، وكانت عيناه قد اتسعتا ، وفقد هيئته المتحدية الماكرة ؛
كان ينظر ، ربما للمرة الاولى ، العلامات المرسومة في السماء ورقم
الشمس السري . وكان دفق فاتح ينبع من يديه اللتين كانتا تبدوان
وكأنهما نُسيتا عند فتحة بنطاله .

— هو بيرار !

فانتفض بيرار . وسأله الكابورال :

— ماذا تفعل ؟

فقال بيرار : — انني أشم الهواء العليل .

— بل أنت تبول ايها الخنزير ! إن هناك أوانس .

فخفض بيرار عينيه على يديه ، وبدا مندھشاً ، فسارع يزرر
بنطاله ، وقال :

— فعلت ذلك من غير تفكير .
قالت الفتاة : — ليس في ذلك اذى .
وقبعت ملتصقةً بصدر بينيت وابتسمت للكابورال . وكان ثوبها قد
انحسر ، فلم تفكر في رده : كانت تعيش في البراءة . ونظروا الى
فخذها ، ولكن بلطف ، وبافتتان حزين . لقد كانوا ملائكة ، وكانت
لهم نظرات مسطحة .

وقال الأسمر : — حسناً . تحية . اننا نتابعها ، نزهتنا .
فقال الأشقر الطويل ضاحكاً :
— النزهة المشهية .

قال ماتيو : — شهية طيبة .
وضحكوا : كان الجميع يعلمون أنه لم يكن ثمة ما يؤكل بعدُ
في القرية ؛ وكانت جميع محفوظات « الادارة » قد سُهِبت في
الساعات الاولى من الصباح .

— ليست الشهية هي التي تنقصنا .
ولم يكونوا يتحركون ؛ وكفوا عن الضحك ، وبان بعض الضيق
في عيني العريف ؛ فكأنهم كانوا يخشون ان يذهبوا . وكاد ماتيو
يدعوهم الى الجلوس . وقال العريف بصوت مفرط في الهدوء :
— هيا بنا !

فاستعادوا سيرهم في اتجاه الطريق ؛ وأحدث ذهابهم شقاً سريعاً في
رطوبة المساء ؛ وقد سال بعض الوقت من خلال التصدع ، فقام الألمان
بقفزة الى الأمام ، وتشنجت خمس أصابع من حديد على قلب ماتيو :
ثم كف النزف ، وتجمد الزمن من جديد ، فلم يكن ثمة الا مرج
يتنزه فيه ملائكة . وفكر ماتيو : « ما أهول هذا الفراغ ! » وكان
شخص هائل قد انسحب فجأة ، تاركاً « الطبيعة » في حراسة جنود
من الصف الثاني . « صوت يعدو تحت شمس قديمة : لقد مات «بان»

فاستشعروا الغياب نفسه . ه فن الذي مات ، هذه المرة ؟ فرنسا ؟
المسيحية ؟ الأمل ؟ لقد كانت الارض والحقول تعود على مهل الى
لاجدواها الاولى ؛ وكان هؤلاء الرجال يصبحون مجانين ، وسط
هذه الحقول التي لم يكونوا يستطيعون حرثها ولا حمايتها . كان كل
شيء يبدو جديداً ، ومع ذلك فقد كان المساء مطرراً بنجوم الليل
الاسود القادم ؛ وفي وسط هذا الليل ، سترتمى على الارض نجمة
مدنية . اتراهم سيقصفون ؟ كانت الحفلة منتظرة عما قليل . اتراه
كان يوم العالم الاول ام يومه الاخير ؟ كان القمح والمنتور اللذان يسودان
تحت العين يبدوان وكأنهما يولدان ويموتان في الوقت نفسه . واجتاز
ماتيو بنظره هذا الالتباس الهاديء وفكر : تلك هي جنة اليأس .

قال بينيت : - ان شفتيك باردتان .

وكان قد انحنى على الفتاة يقبلها . وسألها :

- هل تحسن البرد ا

- لا .

- أتخبين إن أقبلك ؟

- نعم . كثيراً .

- لماذا إذن شفتاك باردتان ؟

فسألت : - أصبح انهم يغتصبون النساء ؟

- انت مجنونة .

فقالته جهوس : - قبّاني . لا اريد ان افكر بعد بشيء .

وأخذت رأسه بين يديها وجذبتة اليها وهي تنقاب . وقال :

- يا صغيرتي ، يا لعبتي !

وتأم عليها ، ولم ير ماتيو بعد الا شعراً في العشب . ولكن

سرعان ما ارتفع الرأس ، وقد سقط عنه القناع المنهجم الراضع ؛
وكانت العينان ، في عري رقيق أملس ، تنظران الى ماتيو من غير

ان تراه ؛ وكائنا تطفحان بالوحدة .

وتنهدت الفتاة : - يا حبيبي ، تعال ، تعال .

ولكن الرأس كان صلباً ، ابيض ، اعشى ، لا ينحني . وفكر ماتيو وهو ينظر الى هاتين العينين المظلمتين : انه يفعل مهنته كرجل . وكان بينيت قد أضحج هذه المرأة تحته ، وكان يسحقها في الارض ، كان يذبيها بالارض ، وبالعشب المتردد . كان يمسك المرجة مستلقية تحت بطنه ، وكانت تناديه ، وسوف يوصل فيها جذوره بالطن ، وكانت هي ماءً ، امرأة ، امرأة ؛ فكانت تعكس على كل سطحها البطل البكر للمعارك القادمة ، الذكور ، الجندي المجيد المنتصر ، كانت « الطبيعة » لاهثة مقلوبة ، تبرئه من جميع الهزائم ، وتتمم : يا حبيبي ، تعال . ولكنه كان يريد ان يمثل دور الرجل حتى النهاية ، فكان يستند براحتيه على الأرض ، فتبدو ذراعه المتقلصتان طرفي جناح ، وكان ينصب رأسه فوق هذه الوداعة المتلبدة ، فقد كان يريد ان يكون موضع اعجاب ، وان يكون مشتهى من تحت ، في الظل ، على غير علم منه ، وان يهمل هذا المجد الذي كان ينتقل من الأرض الى جسده ، كأنه حرارة بشرية ، وان يطفو في الفراغ ، في الضيق والقلق ، ليفكر : « وماذا بعد ؟ » وعقدت الفتاة ذراعها حول عنقه وشدت على رقبتة . وغرق الرأس في المجد والحب ، وانغلق المرح . ونهض ماتيو بلا ضجة فضى ، واجتاز الحقل ، فأصبح احد اولئك الملائكة الذين كانوا ينسكعون في الطريق المضيئة ، بين ظلال الحور . وكانا هما قد اختفيا في العشب الاسود ، ومر جنود يحماون الباقات ؛ ورفع احدهم ، فيما هو سائر ، باقته نحو وجهه ، فأغرق انفه في الزهور ، وتشمم وسط الزهور بطالته وهمه ومجانيته التي لا مبرر لها . وكان الليل يتأكل اوراق الشجر والوجوه : فكان الجميع متشابهين ؛ وفكر ماتيو : اني اشبههم . ومشى بعد قليلا ، ورأى نجماً يضيء

ولامس متنزهاً غامضاً كان يصفر . والتفت المتنزه ، فرأى ماتيو عينيه ؛
وتبادلا بسمه من بسمة عشية الأمس ، بسمه صداقة .

قال الرجل : - الطقس رطب .

قال ماتيو : - نعم ، بدأ الطقس يبرد .

ولم يكن لديهما شيء آخر يقولانه ، ومضى المتنزه ، فتبعه ماتيو
بنظرة ؛ اينبغي ان يكون الناس قد فقدوا كل شيء ، وحتى الأمل ،
لنقرأ في عيونهم ان بوسع الانسان ان يربح ؟ كان بينيت يضاجع ،
وكان غيكيولي ولاتيكس قد تدحرجا ثملين حتى الموت على ارض
البلدية ؛ وكان ملائكة متوحدون ينزهون في الدروب ضيقهم : لا
حاجة لأحد بي . وتداعى للسقوط على الأرض ، على حافة الطريق ،
لأنه لم يكن يعرف بعد الى اين يذهب . ودخل الليل في رأسه من فمه ،
وعينيه ، ومنخرية ، واذنيه : فلم يكن بعد احداً ، ولا شيئاً . لا
شيء الا الشقاء والليل . وفكر : شارلو ! ثم قفز على قدميه : كان
يفكر بشارلو ، وحيداً مع خوفه ، وكان يشعر بالعار ؛ لقد تصرف
تصرفاً سيئاً مع هؤلاء الخنازير السكارى ، وفي تلك الفترة ، كان هو
وحده ، وكان خائفاً ، بتواضع ، وكان بوسعي ان اساعده .

وكان شارلو جالساً في المكان نفسه ؛ وكان منحنيماً فوق كتابه ،
فاقترب ماتيو وأمرّ يده في شعره :

- انك ستقتلع عينيك .

قال شارلو : - اني لا اقرأ . بل افكر .

وكان قد رفع رأسه ، وكانت شفتاه الغليظتان ترسمان بسمه .

- يمّ تفكر ؟

- بحانوتي ، اتساءل عما اذا كانوا قد نهبوه .

قال ماتيو : - هذا غير مرجح .

واشار الى نوافذ دار البلدية :

— ماذا يفعلون في الداخل ؟
قال شارلو : — لا ادري . مضت فترة من غير ان اسمع شيئاً .
فجلس ماتيو على درجة :
— الامور ليست على ما يرام ، أليس كذلك ؟
فابتسم شارلو بحزن ، وسأله :
— أتكون قد عدت من اجلي ؟
— انني ضجر . وقد فكرت بانك ربما كنت في حاجة الى رفيق .
وهذا بالأحرى في صالحني .
فهز شارلو رأسه من غير ان يجيب . وسأله ماتيو :
— اتريد ان اذهب ؟
قال شارلو : — لا ، فانك لا تزعجني . ولكنك لا تستطيع ان
تساعدني . ما عساک تقول لي : ان الألمان ليسوا متوحشين ؟ ان علينا
ان نكون شجعاناً ؟ انني اعرف هذا كله .
وتنهذ ووضع الكتاب الى جانبه ، في حيطه ، وقال :
— يجب ان تكون يهودياً ، وإلا لم تستطع ان تفهم .
ووضع يده على ركبة ماتيو وقال له بلهجة اعتذار :
' — لست انا الخائف ، وانما هو جنسي في داخلي . ولا حياة لأحد
في ذلك .
وصمت ماتيو ، وظلا جنباً الى جنب ، صامتين ، احدهما ممزق ،
والآخر لا جلوى منه على الاطلاق ، منتظرين ان يلفهما الظلام .

كانت تلك هي الساعة التي تفيض فيها الاشياء عن نطاقها وتذوب
في ضباب المساء القطني ؛ كانت النوافذ تنزلت في ظل حركة طويلة
جامدة ، وكانت الغرفة زورقاً شراعياً تائهاً ؛ اما زجاجة الويسكي

فكانت لهما ازتيكياً ؛ وكان فيليب تلك النبتة الرمادية الطويلة التي لا تخيف ؛ والحب ، كان اكثر كثيراً من الحب ، ولم تكن الصداقة هي الصداقة تماماً . وكان دانيال يتحدث ، مخبئاً ، عن الحب ، فلم يكن بعد الا صوتاً هادئاً حاراً . واسترد نفسه ، فانتزها فيليب فرصة ليقول :

— ما أشدّ الظلام هنا ! الا تظنّ أن بوسعنا ان نضيء النور ؟
قال دانيال بجفاف : — اذا لم تكن الكهرباء مقطوعة .
ونهض على مضض : كانت اللحظة قد آنت لتقبل امتحان الضوء .
وفتح النافذة ، وأطلّ فوق الفراغ وشمّ رائحة بنفسج الصمت : كم من مرة ، في هذا المكان نفسه ، اردت ان أهرب ، وكنت اسمع صوت خطي يتنامى ؛ كانوا يمشون على افكاري . كان الليل عذباً ووحشياً ، وكان لحم الليل الذي تمزّق مرات قد التأمّت جراحه . ليلة ريتاً وعذراء ، ليلة جميلة بلا رجال ، برتقالة حمراء بلا بزور .
وأغلق المصاريع على مضض ، فأدار المفتاح ، فارتمت الغرفة خارج الظل ودخلت الاشياء في نفسها من جديد . واندفع وجه فيليب بازاء عيني دانيال ، وكان دانيال يُحسّ هذا الرأس الكبير الدقيق يتحرك في نظره ، وهو حديث عهد بقصّ الشعر ، مرتدّ الى خلف ، بتينك العينين الطافحتين بالدهول واللّتين كانتا تسحرانه كما لو انها تريانه للمرة الاولى . « يجب ان أتصرف بدقة وحكمة . » ورفع يده ، منزعجاً ، ليضع حداً لتمثيلية الأشباح ، فقرص ظاهر سترته بين اصابعه ، وابتسم ؛ كان خائفاً من ان يُكتشف .
— ما بالك تنظر إليّ ؟ هل تجدني جميلاً ؟

فقال فيليب بصوت محايد :

— جميلاً جداً .

وانفتل دانيال فوجد في المرأة ، من غير استياء ، وجهه الجميل

الغامض . وكان فيليب قد أسبل جفنيه ؛ وختق ضحكة وراء يده .

— انت تضحك كطالبة داخلية .

فكفّ فيليب عن الضحك . وألح دانيال :

— لماذا تضحك ؟

— هكذا .

وكان نصف ثمل ، من الخمر ، وعدم الثقة ، والتعب . وفكر

دانيال : إنه في الحالة المناسبة . شريطة ان يفعل كل شيء «بالضحك»

كمزاح مدرسي ؛ فسيدع الفتى نفسه ينقلب على الديوان ، ويلامس ، ويقبل

وراء الاذن : ولن يدافع عن نفسه إلا بالضحكة المجنونة . وأولاه

دانيال ظهره فجأة ، وخطا بضع خطوات في الغرفة : إن هذا مبكر

جداً ، مبكر أكثر مما ينبغي ، فحذار من الحماقات ! سوف يذهب

غداً فينتحر ، او انني سأقتله . وقبل ان يعود باتجاه فيليب ، زرر

سترته وشدها على فخذه ليخفي بداهة اضطرابه .

وقال : — واخيراً هكذا !

قال فيليب : — هكذا !

— انظر لبي .

وغطس نظره في عينيه وهزّ رأسه في رضى ؛ وقال على مهل :

— لست بالجبان . وقد كنت متأكداً من ذلك .

ومدّ سبابته وضرب صدره :

— انت تهرب خوفاً ؟ كفى ، كفى ! إن هذا لا يناسبك : كل

ما هنالك انك ذهبت ؛ تركت هذه القضية تسوّى بدوناك . ولماذا

تُترك تقتل نفسك من أجل فرنسا ؟ لماذا ؟ ان فرنسا لا تهلك ،

ليس كذلك ؟ انها لا تهلك ، ايها المكار الصغير !

فأوما فيليب برأسه ، واستعاد دانيال مشيته عبر الغرفة ، وقال في

انفعال مليء بالمرح :

- لقد انتهى هذا كله . انتهى وُصفتي . إن لك حظاً لم يكن لي في عمرك . لا ، لا (قالها في حيوية بحركة من يده) لا ، لا ، لا أقصد بذلك لقاءنا . إن حظك هو الاتفاق « التاريخي » : أتريد ان تهدم الاخلاقية البورجوازية ؟ حسناً : إن الألمان هنا لمساعدتك . ها ! ستري ضربة المكنسة هذه ؛ ستري آباء الأسر يزحفون ، ستراهم يلحسون الأحذية ، ويمدون أقفيتهم الضخمة لركلات الأرجل ؛ ستري زوج امك مقلوباً على بطنه ؛ إنه هو المهزوم الأكبر في هذه الحرب ، وكم ستستطيع ان تحتقره !
وضحك حتى سالت دموعه : « اية ضربة مكنسة ! » ثم التفت فجأة نحو فيليب :

- يجب ان تحبهم .

فسأله فيليب مذعوراً : - من ؟

- الألمان ، انهم حلفاؤنا .

فردد فيليب : - أن احبّ الألمان ؟ ولكني ... لا اعرفهم .

- لا تخف ، فسنعرف بعضهم : ستعشى لدى قادة المقاطعات ، ولدى الفيلدمرشالات : وسوف يأخذوننا للتنزه معهم في سياراتهم المرسيديس السوداء الضخمة ، بينما يتنزه الباريسيون على اقدامهم .

وخفق فيليب ثناؤبة ، فهزّه دانيال من كتفيه وقال له بلهجة كثيفة :

- يجب ان تحب الألمان . ستكون تلك تجربتك الروحية الاولى .

فلم يبد على الفتى انفعال خاص ؛ فتركه دانيال ، وفتح ذراعيه على سعتهما وقال :

- ها هو زمن القتلة يجيء .

وتثأب فيليب للمرة الثانية : فرأى دانيال لسانه المروّس . وقال

فيليب بلهجة اعتذار :

— انني ناعس . ها هما ليلتان لم اغمض فيهما عيني .
فبدا لدانيال ان يغضب ، ولكنه كان مرهقاً ، هو ايضاً ، كما
محدث له على اثر كل لقاء جديد . ولفرط ما اشتهى فيايب ، فقد
أحسّ بنهك ثقيل في أربيته . وأحسّ فجأة بتعجيل ليجسد نفسه
وحيداً ، فقال :

— حسناً ، انني اتركك . وستجد منامة في درج الخزانة .
فقال الفتى برخاوة : — لا حاجة بي الى ذلك ، فيجب ان اعود
الى البيت .

فنظر اليه دانيال باسمياً :

— ستفعل ما تشاء ؛ ولكنك توشك ان تقع على دورية ، والله
وحده يعلم ما سيصنعون بك : انت جميل كفتاة ، والألمان جميعاً
لوطيون . وحتى لو فرضنا انك بلغت منزلك ، فانك ستجد فيه ما
تريد ان تهرب منه . إن على الجدران صوراً لزوج امك ، اليس
كذلك ؟ وعطر امك يطفو في غرفتها ؟
فلم يبد على فيليب انه كان يسمعه . وبذل جهداً لينهض ، ولكنه
تداعى على الديوان وقال بصوت نائم :

— هاهه ...

ونظر الى دانيال فبسم له بهيئة حائرة :

— اظن ان من الأفضل لي ان ابقى هنا .

— إذن ، تصبح على خير .

فقال فيليب متثائباً : — تصبح على خير .

واجتاز دانيال القاعة ؛ وإذ ألمّ بالمدخنة ، كبس على مربع ناتبيء ،
فاستدار رفّ من المكتبة على نفسه ، كاشفاً صفاً من الكتب ذات
الغلاف الاصفر . وقال :

— هذا هو «الجحيم» . ستقرأ هذا كله فيما بعد : فهو يتحدث عنك .

فردد فيليب من غير ان يفهم :

- عني ؟

- نعم ، اقصد عن حالتك .

ودفع الرف الى مكانه ثم فتح الباب . وكان المفتاح قد بقي في الخارج ، فأخذه دانيال ورمى به الى فيليب وهو يقول ساخراً :
- اذا خفت من الأشباح او من اللصوص ، فبوسعك ان تقفل على نفسك .

واغلق الباب عليه ، ودلف في الظلام الى جوف الغرفة ، فأضاء المصباح وجلس على سريره . ها انا وحدي اخيراً ! ست ساعات من المشي ، وطوال اربع ساعات ، هذا الدور أمثله مرتدياً مشد امير الشر : اني مرهق . وتنهذ ، رغبة منه في ان يحس وحدته ؛ ورغبة في الا يُسمع ، أن بنعومة : « إن بيضتي تؤلمانني كثيراً . » ورغبة منه في ألا يرى ، حرك وجهه حركة بكائية ، ثم ابتسم وتداعى للسقوط الى خلف كما لو انه في حمام دافئ : وكان قد تعود هذه الرغبات التجريدية ، وهذه التورمات الحفية اللاجمدية ؛ وكانت التجربة قد علمته ان ألمه يخف اذا ظل متمدداً . وكان المصباح يعكس دائرة نور عسلي السقف ، وكانت الوسائد رطبة ، كان دانيال يرتاح ، ساكناً ، ميتاً ، مبتسماً . « هاديء ، هاديء : لقد اقلت باب الدخول بالمفتاح ، والمفتاح في جيبي ، والواقع انه من جهة اخرى ، سوف ينهار تعباً ، وسينام حتى الظهر ، من دعاة السلام : فتأمل ! بالاجمال ، لم تسر الأمور جيئداً . ولا شك في انه كان ثمة خيوط للشدة ، ولكنني لم اعرف ان اعثر عليها . » كان دانيال يجعل من أمثال « ناتاناييل » و « رامبو » قضيته ؛ ولكن الجليل الجديد كان يحيرُه : « اي مزيج غريب : نرجسية ، وافكار اشتراكية . إن هذا لا يجاري المعقول . » ومع ذلك ، فان الامور بالاجمال لم تسر سيراً

برديتاً : كان الفتى هنا ، مقفلاً عليه . ففي حالة الشك ، لن يكون شيئاً ان يلعب المرء ورقة الاختلال النظامي . فلقد كان ذلك ينجح دائماً بعض الشيء . كان يثير الغرور . وفكر : « سأحصل عليك ، وسأغسل مبادئك ، يا ملاكي . افكار اشتراكية ! سترى ما سوف تنتهي اليه ! » وكانت هذه الحمياً التي بردت تثقل علي معدته ، وكان بحاجة الى كمية طيبة من الوقاحة ليكنسها : « اذا استطعت ان احتفظ به وقتاً طويلاً ، كانت مسألة طيبة : فانا بحاجة الى التخفيف ، وافتقر الى شخص في البيت . » حفلات الكرميس ، غراف وتوتو ، العمّة دونفلور ، ماريوس ، « الحسن » الممنوع : كل ذلك قد انتهى . وانتهت الانتظارات عند حواشي محطة « غارديست » وابتدال المأذونين الذين تبعث من اقدمهم الروائح الكريهة : انني اصالح سيرتي . (انتهى الارهاب !) وجلس على السرير وبدأ ينزع ثيابه ، وصمم : ستكون علاقة جديدة رصينة . وكان يحس النعاس ، وكان هادئاً ، ونهض ليأخذ حوائجه ، فلاحظ انه كان هادئاً ، وفكر : عجيب ألا اكون في ضيق وقلق . وفي تلك اللحظة ، كان خلف ظهره احد ، فالتفت ، فلم ير احداً ، فشقه الضيق شقين . « مرة اخرى بعد ! مرة اخرى بعد ! » وكان كل شيء يبدأ من جديد ، وكان يعرف كل شيء ، وكان بوسع ان يتنبأ بكل شيء ، كان يستطيع ان يروي دقيقة فدقيقة سنوات الشقاء التي ستلي ، السنوات الطويلة ، الطويلة ، اليومية ، المملة التي لا أمل فيها ، ثم النهاية القذرة الأليمة : كل شيء كان هنا . ونظر الى الباب المغلق ، وكان يلهث ، وكان يفكر : « هذه المرة ، سأموث بذلك » وكان في فمه مرارة الآلام القادمة .

قال عجوز : - انها تحترق جيداً .
وكان الجميع في الطريق ، جنوداً وعجائز وفتيات . وكان المدرس
يصوب عصاه نحو الأفق ؛ وفي أقصى العصا ، كانت شمس زائفة
تدور ، كرة من نار تخفي فجراً ممتعاً : كانت تلك « روبرفيل »
التي تحترق .

- انها تحترق جيداً .

- اجل ! اجل !

وكان المستون يتراقصون قليلاً ، وايديهم خلف ظهورهم ، وكانوا
يقولون : اجل ! اجل ! باصواتهم العميقة الهادئة وترك شارلو ذراع
ماتيو ، وقال :

- إن هذه مصيبة !

فأجابه عجوز :

- انه قدّر الفلاح . فحين لا تكون الحرب ، يكون الثلج او
الجليد : فليس ثمة سلام على الأرض ، بالنسبة للفلاح .
وكانت ايدي الجنود تجس الفتيات في الظلام فتثير الضحكات ؛
وكان ماتيو يسمع خلف ظهره صرخات الصبية الذين كانوا يلعبون في
ازقة القرية المهجورة . وتقدمت امرأة ، وكانت تحمل صبياً بين
ذراعيها ، فسألت :

- ايكون انفرنسيون هم الذين اشعلوا النار ؟

فقال لوبيرون : - هل انت مجنونة ، ايتها الأم الصغيرة ؟ انهم

الألمان ، نعم .

فهز عجوز رأسه وقال غير مصدق :

- لقد سبق للألمان ان جاءوا ، في الحرب الماضية ، ولم يفعلوا

شراً كبيراً : انهم لم يكونوا رجالاً مؤذنين .

فسأل لوبيرون مغتاضاً :

- ولماذا ترانا نشعل نحن النار ؟ اننا لسنا متوحشين .
- ولماذا تراهم يشعلونها ، هم ؟ أين سيقيمون ؟
- ورفع جندي ملتج يده فقال :
- لا بد ان بعض اللؤماء عندنا ارادوا ان يتخابثوا : فأطلقوا النار . فاذا سقط قتيل واحد من الألمان ، أحرقوا القرية .
- فالتفتت اليه المرأة قلقة ، وسألت :
- وانتم ؟
- ماذا ، نحن ؟
- ألن تفعلوا حماقات ؟
- فأخذ الجنود يضحكون ، وقال أحدهم في أقتناع :
- آه ! تستطيعين ان تنامي قريرة العين، معنا . اننا نعرف الحياة.
- وكانوا يتبادلون النظر ويضحكون بهيئة مشاركة :
- نعرف الحياة ، نعرف الحياة .
- اتظنين ، اننا سنختلق اسباب الخصام مع الألمان ، عشية توقيع السلام ؟

- وكانت المرأة تداعب رأس صغيرها ؛ وسألت بصوت متردد :
- أهو السلام ؟
- فقال المدرّس في قوة :
- نعم ، هو السلام . هو السلام . هذا ما ينبغي ان نقوله :
- فحدثت رعشة في الجمع ، وسمع ماتيو خلف ظهره نسمة صغيرة من كلام فرح :
- انه السلام ، انه السلام .

كانوا ينظرون الى روبرفيل تحترق ويرددون فيما بينهم : لقد انتهت الحرب ، انه السلام ؛ وكان ماتيو ينظر الى الطريق : كانت تفلت من الليل ، على بعد مئتي متر ، وتسيل بياضاً متردداً حتى قلبيته

ثم تمضي خلفه فتغسل البيوت ذوات المصاريع المغلقة . طريق جميلة تغري بالمغامرة والموت ، طريق جميلة ذات اتجاه واحد . كانت قد وجدت وحشية الأنهار القديمة : وهي ستحمل غداً حتى المدينة سفناً محملة بالقتلة . وتنهّد شارلو ، فشدّت ماتيو على ذراعه من غير ان يقول شيئاً .

وقال صوت : - ما هم اولاء !

- ماذا ؟

- الامان ، اقول لك : ما هم اولاء !

وكان الظلام قد تحرك ، وكان جنود في وضع استكشاف ، يخرجون واحداً اثر واحد من ماء الليل الأسود، وبنادقهم تحت اذرعهم . كانوا يتقدمون على مهل ، وحذر ، مستعدين للإطلاق .

- ما هم اولاء ! ما هم اولاء !

وُصدم ماتيو وُدفع : كان اهتزاز واسع مبهم ينفض الجمع حوله . وصاح لوبيرون :

- لنهرب ايها الرفاق !

- هل انت مجنون ؟ لقد رأونا ، فلم يبق الا ان نتظرهم .

- نتظرهم ؟ سوف يطلقون النار علينا ، نعم .

وأطلق الجمع زفرة هائلة مرهقة ؛ وثقب الليل صوت المدرس الحاد :

- النساء الى الورا . والرجال : اتركوا بنادقكم اذا كان لديكم

بنادق ، وارفعوا ايديكم في الهواء .

وصاح ماتيو مجروحاً :

- يا لكم من فروج حمقى ! انكم ترون جيداً انهم فرنسيون .

- فرنسيون ...

وسادت لحظة توقّف ، ووطئ مراوح ، ثم قال واحد بلهجة

تحدّ :

- فرنسيون ؟ ومن أين يخرجون ؟

كانوا فرنسيين ، زهاء خمسة عشر رجلاً يقودهم ملازم : وكانت لهم وجوه قاسية سوداء . واصطف أهالي القرية على حافتي الطريق ينظرون اليهم قادمين ، بلا صداقة . فرنسيون ، أجل ، ولكنهم كانوا قادمين من مقاطعة اجنبية وخطرة . ومعهم بنادق . عند الليل الهابط . فرنسيون يخرجون من الظلام والحرب ، ويعودون بالحرب الى هذه القرية التي سبق للسلام ان قام فيها . فرنسيون . بارييون ، ربما ، او من سكان بوردو ؛ ليسوا ألماناً تماماً ؛ ومرّوا بين سياجين من العداء الرخو ، من غير ان ينظروا الى أحد ؛ وكان يبدو عليهم الفخر . وأطلق الملازم امرأ فتوقفوا .

وسأل : - أية فرقة هنا ؟

ولم يكن يوجه كلامه الى احد معين . وساد صمت ، فكرر سؤاله ،

فقال رجل بلهجة مستاءة :

- الواحدة والستون .

- واين هم رؤساؤكم ؟

- مشطوبون .

- ماذا ؟

فكرر الجندي في اعتزاز واضح :

- مشطوبون .

ولوى الملازم حنكه ولم يجب .

- اين دار البلدية ؟

فتقدم شارلو وقال بملاطفة :

- الى اليسار ، في آخر الطريق . امامك مئة متر تمشيها .

فانفتل الضابط فجأة على نفسه ورمقه قائلاً :

- ما هذه الطريقة في التحدث الى رئيس ؟ الا يمكنك ان تقوم

للوضع ؟ وهل يخنقك ان تقول لي : يا سيدي الملازم ؟

ومرّت لحظات صمت . وكان الضابط ينظر الى شارلو في عينيه ،
وحول ماتيو ، كان الافراد ينظرون الى الضابط . وأدى شارلو التحية
العسكرية .

– سمعاً وطاعة ، يا سيدي الملازم .

– حسناً .

والقى الضابط نظرة احتقار دائرية ، وقام بحركة ، فعاود الفريق
سيره . وتطلع اليهم الافراد ينغمسون في الليل دون ان ينسبوا بكلمة .
وسأل لويرون بمشقة :

– ألم ننته من الضباط بعد ؟

فردد صوت عصبي بمرارة :

– الضباط ؟ انك لا تعرفهم . سيظلون يبعصوننا حتى النهاية .
وصاحت امرأة فجأة :

– انهم لن يقاتلوا هنا ، على الاقل ؟

فندت ضحكات من الجمع ، وقال شارلو بصوت مفرط الحلم :

– لا تخافي يا ماما ، فليسوا مجانين .

وعاد الصمت من جديد . وكانت جميع الرؤوس قد التفتت نحو
الشمال . كانت روبرفيل المعزولة التي أصبحت خارج نطاق الادراك ،
وباتت اسطورية ، تحترق من نكد الطالع في بلد أجنبي ، من الجهة
الاخرى من الحدود. ان الصدام والقتال والحريق أمور تناسب روبرفيل ،
وليست اموراً يمكن ان تحدث لنا نحن . وعلى مهل ، وبلا اكتراث ،
أنفصل افراد عن الجمع وتوجهوا نحو القرية . كانوا عائلدين ليناموا
نومتهم القصيرة ، حتى يكونوا على استعداد ، حين يصل الألمان عند
الفجر . وفكر ماتيو : « اية قذارة ! » .

قال شارلو : – اني إذن انسحب .

— انت ذاهب للنوم ؟

— يقولون .

— اتريد ان أصحبك ؟

قال شارلو وهو يتشاءب :

— لا تزعج نفسك .

وابتعد ؛ وبقي ماتيسو وحده . وفكر : « انا عبيد ، نعم ، عبيد . » ولكنه لم يكن عاتباً على الرفاق ، فلم تكن تلك غلظتهم : لقد قضوا عشرة أشهر في الأشغال الشاقة ، وكان ثمة الآن نقل السلطة ، فهم ينتقلون الى ايدي الضباط الألمان ، وسوف يحيون « الفيلدوويل » و « الاوبرلوتنان » . ولم يكن الفرق كبيراً ، فان طبقة الضباط عالمية ؛ كل ما في الأمر ، أن الأشغال الشاقة مستمرة . وفكر : انما أعتب على نفسي . ولكن كان يعتب على نفسه انه عتب على نفسه ، لأن تلك كانت طريقة في التعالي على الآخرين . كان رحيماً مع الجميع ، قاسياً مع نفسه : حيلة اخرى من جيل الكبرياء . بريء ومذنب ، مفرط القسوة ومفرط الرحمة ، عاجز ومسؤول ، متضامن مع الجميع ، ومرفوض من كل انسان ، متبصّر غاية التبصّر ، ومخدوع غاية الخداع ، عبدٌ وسيّد : الواقع اني كجميع الناس . وأحس بيدٍ على ذراعه . وكانت يد موظفة البريد . كانت عينها تحرقان وجهها .

— إمنعه ، إن كنت صديقه .

— ماذا ؟

— انه يريد ان يقاتل : فامنعه .

وبدا بينيت خلفها ، ممتنعاً ، ميت العينين ، وعلى شفثيه بسمه رديئة .

فسأله ماتيسو :

— ماذا تريد ان تفعل إذن ، ايها العنيد الصغير ؟

- أقول لك انه يريد ان يقاتل ، لقد سمعته : فهو قد ذهب يلقي الكابيتن ويقول له انه يريد ان يقاتل .

- اي كابيتن ؟

- الذي مر مع رجاله .

وكان بينيت يقهقه ، ويداه خلف ظهره .

- لم يكن « كابيتن » ، بل هو ملازم .

وسأله ماتيو : - أضحك انك تريد ان تقاتل ؟

فأجاب : - انكم جميعاً تزعجونني !

وقالت موظفة البريد : - أترى ! أترى ! لقد قال انه يريد ان

يقاتل . وقد سمعته .

- ولكن من قال لك انهم سيتقاتلون ؟

- ألم ترهم اذن ؟ ان في عينيهم الجريمة . وهو (واومات بأصبعها

الى بينيت) انظر اليه ، انه يخيفني . فهو شيطان !

وهز ماتيو كتفيه :

- ماذا تريدني ان افعل به ؟

- أأست صديقه ؟

- بلى .

- اذا كنت صديقه ، فعليك ان تقول له انه لا يحق له ان يعرض

نفسه للقتل .

وتشبت بكفتي ماتيو :

- لا يحق له ذلك !

- ولماذا ؟

- انت تعرف السبب جيداً .

فبسم بينيت بسمة قاسية ورخوة :

- انا جندي ، فيجب ان أقاتل : إن الجنود قد خلقوا لذلك .

- كان ينبغي اذن الا تأتي للبحث عني .
وقبضت على ذراعه ، وأضافت بصوت راعش :
- انك لي .
فتخلص بينيت :
- لست لأحد .

قالت : - بلي ، انت لي (والتفتت الى ماتيو ونادته بلهجة نارية)
ولكن ، قل له انت ! قل له انه لا يحق له بعد ان يعرض نفسه للقتل !
انه واجبك ، ان تقول له ذلك .
وصمت ماتيو ، فتقدمت نحوه ، ووجهها يلتهب : وللمرة الاولى ،
وجدتها ماتيو قابلة للاشتهاء .

- انت تزعم انك صديقه ، وسواء لديك ان يناله بعد ذلك أذى ؟
- كلا ، ليس الأمر سواء لدي .
- أتجد من المستحسن ان يذهب فيطلق بندقيته كالأحمق على جيش
برمته ؟ وليت ذلك يفيد شيئاً بعد ! ولكنك تعلم جيداً ان ليس ثمة
من يقاتل بعد .

قال ماتيو : - أعلم .
- ماذا تنتظر اذن لتقول له ذلك ؟
- انتظر أن يسألني رأيي .
- هنري ! أبتهل اليك : اطلب منه النصيحة ، فهو اكبر منك
سناً ، ولا بد ان يعرف .

فرفع بينيت يده علامة الرفض ، ولكن جاءتته فكرة فترك ذراعه
تسقط وهو يغض عينيه بهيئة مرائية لم يكن ماتيو يعهدا فيه :
- أتريدين ان أناقش الأمر معه ؟
- نعم ، ما دمت لا تحبني حباً كافياً لتصغي الي .
- حسناً . اتفقنا . ولكن يجب ان تذهبي .

- لماذا ؟
- لأنني لا أريد ان اناقش بحضورك .
- ولكن لماذا ؟
- هكذا ! ليست هذه شؤوناً نسائية .
- انها « شؤوني » ما دام الأمر متعلقاً بك .
- فقال مغتاضاً : — آه ، انك تفقرين لي بيضتي !
- وغرس مرفقه في جنب ماتيو ، فقال ماتيو بحوية :
- لا حاجة بك حتى لأن تذهبي : فسوف نتمشى قليلاً على الطريق ، وليس عليك الا ان تنتظرينا هنا .
- نعم ، ثم لا تعودان .
- قال بينيت : — انك مجنونة ! اين تريدنا ان نذهب ؟ سنكون على بعد عشرين متراً منك ، وستريننا طوال الوقت .
- واذا قال لك صديقك بالا تقاتل ، فهل تصغي اليه ؟
- قال بينيت : — بالتأكيد . اني افعل دائماً ما يقوله .
- فتعلقت بعنق بينيت .
- أتقسم لي بأن تعود ؟ حتى ولو قررت ان تقاتل ؟ حتى ولو نصحك صديقك ؟ انني أفضل تحمّل كل شيء على الا اراك ثانية .
- أتقسم لي ؟
- نعم ، نعم ، نعم .
- قل انك تقسم ! قل : أقسم على ذلك .
- قال بينيت : — أقسم على ذلك .
- فقال لماتيو : — وانت ، هل تقسم على ان تعيده الي ؟
- طبعاً .
- قالت : — لا تبقياً طويلاً ، ولا تبتعدا .
- ومشيا بضع خطوات على الطريق ، في اتجاه روبرفيل ، وكانت

ادغال واشجار تبتثق من الظلام . وبعد لحظة ، التفت ماتيو : فاذا
موظفة البريد منتصبه متوترة ، يكاد الليل يمحوها ، وهي تجهد لتميزهما
في الظلمات . خطوة اخرى ، وامت تماماً . وفي تلك اللحظة ،
صاحت :

— لا تذهبا بعيداً ، فانا لا اراكما بعد .

فأخذ بينيت يضحك ، وكور يديه فوق فمه وصاح :

— او هو ! او هو هو ! او هو هو هو !

فتابعا سيرهما . وكان بينيت ما يزال يضحك :

— كانت تود ان تجعلني اصدق انها عذراء ؛ هذا هو السبب .

— آه !

— هذا ما تقوله هي . اما انا ، فلم ألاحظ ذلك .

— هناك فتيات على هذا النحو : تحسب انهن يكذبن عليك ، ثم

تتبين انهن عذراوات حقاً .

فقال بينيت مقهقهاً : — هكذا اذن ؟

— هذا يحدث .

— ماذا تقول ! حتى ولو أقررت ذلك ، فسيكون اتفاقاً عجبياً ان

يحدث هذا لي بالذات .

فابتسم ماتيو من غير أن يجيب ، وهز بينيت رأسه في الخلاء .

— ثم اسمع . انني لم أعتصبها . حين تكون الفتاة رصينة ، فهي

تجعلك تجهد كثيراً حتى تصل اليها . خذ مثلاً زوجتي : لقد كنا

كلانا نموت رغبة ، ولكن لم يحدث شيء قط قبل ليلة العرس .

وشق الهواء بيد قاطعة :

— لا نخلط الأمور : فهذه الفتاة ، كان يتأكلها حيث افكر ،

واعتمد جيداً انني انا الذي ادبت لها خدمة .

— واذا جعلتها تحمل ؟

فقال بينيت دهشاً : - انا ؟ آه ، لا ، لا ، لا ! انك لا تعرفني .
فانا النكاح القانوني . لم تكن زوجي تريد اولاداً لأننا كنا فقيرين
أكثر مما ينبغي ، فتعودت ان اراقب نفسي . لا ، لا . لقد حصلت
على لذتها ، وانا كذلك : فنحن سواء .
قال ماتيو : - اذا كانت هذه هي المرة الاولى حقاً ، فسيكون
امراً نادراً جداً ان تكون قد حصلت على لذة .
قال بجفاء : - طز ! انها في هذه الحالة هي المخطئة .
وصمتا . وبعد لحظة ، رفع ماتيو رأسه وبحث عن عيني بينيت
في الظلام .

- أصبح انهم سيقاتلون ؟

- صحيح .

- في القرية ؟

- واين تريد ان يقاتلوا ؟

فانقبض قلب ماتيو ، ثم فكر فجأة في لونجان متقيماً تحت شجرته ،
وفي غيكيولي متمرعاً على الارض الحشبية ، وفي لوبيرون الذي كان
ينظر الى روبرفيل تحترق فيصبح : « انه السلام » . وضحك من
فرط الغضب .

- لماذا تضحك ؟

قال ماتيو : - بسبب الرفاق . سيواجهون مفاجأة طريفة .

- صحيح ؟

- هل يريدك الملازم ؟

- اذا كان معي بندقية . قال لي : تعال اذا كانت معك بندقية .

- وهل انت مصمم تماماً ؟

فضحك بينيت ضحكة متوحشة . وبدأ ماتيو يقول :

- هناك ...

فالتفت بينيت فجأة اليه :

– انني بالغ سد الرشد . فثقت بحاجة الي نصيحة .

قال ماتيو : – حسناً . اذن ، لارجع .

فقال بينيت : – لا ، بل تقدم .

فتقدما بضع خطى . وقال بينيت بغتة :

– اقفز في الحفرة .

– كيف ؟

– هيا ! اقفز !

وقفزا ، وتسلفا الكثيب ، فالفيا نفسها وسط القمح ، وقال بينيت موضحاً :

– الى اليسار ، هناك ممر يقضي الى القرية .

وتعثر ماتيو ، فسقط على ركبته ، وقال :

– يلعن دين ! أية حماقة تجعلني ارتكبتها ؟

فأجاب بينيت : – انني لا أطيق ان أراها بعد .

وسمعا صوت امرأة آتياً من الطريق :

– هنري ! هنري !

قال بينيت : – كم هي لصقة ملحاح !

– هنري ! لا تركني !

وجذب بينيت ماتيو من ذراعه ، فانبطحا بين القمح ، وكان

صوت موظفة البريد يسمع وهي تعدو في الطريق ، وتطايرت حزمة

سنابل على وجه ماتيو ، وفر حيوان من بين يديه .

– هنري ! لا تركني ، افعل ماشاء ، ولكن لا تركني . عد الي .

هنري ، لن اقول شيئاً ، أعدك بذلك ، ولكن عد ، ولا تركني

هكذا ! هنري - ي - ي - ي ! لا تركني من غير ان تقبلي .

ومرت الفتاة بقرهما ، لاهثة . وهمس بينيت :

– من حسن الحظ ، ان القمر لم يظهر بعد .

وكان ماتيو يتنسم رائحة ارض قوية ؛ كانت الارض رطبة ورخوة
تحت يديه ، وكان يسمع نفس بينيت الأبح ويفسّر : « سوف
يقاتلون في القرية . » وصاحت الفتاة مرتين اخريين بصوت يقطعه
القلق ، وفجأة ارتدت على اعقابها وأخذت تعدو باتجاه معاكس .
قال ماتيو : - انها تجبك .

فأجاب بينيت : - طز فيها !
ونهبضا . فرأى ماتيو ، الى الشمال الشرقي ، فوق السنابل تماماً ،
الكرة النارية التي كانت تنوس . « اذا سقط للالمان قتيل واحد ،
احرقوا كل شيء . »
وسأله بينيت في تحدّ :

- واذن ؟ أترك لن تواسيها ؟

قال ماتيو : - انها تزعجني . ومهما يكن ، فان حكايات الفرج
لا تثير حماسي اليوم . ولكنك قد أخطأت في مضاجعتها ، اذا كان
قصيدك ان تركها بعد ذلك .

قال بينيت : - آه ، خراء ! الانسان معك ، دائماً على خطأ .
قال ماتيو : - هذا هو المر .
ومشياً لحظة . وقال بينيت :

- القمر !

فرفع ماتيو رأسه ، ورأى ناراً اخرى في الافق : كان ذلك حريقاً
مفضياً .

قال بينيت : - سنكون لهم كرتوناً سهلاً !
قال ماتيو : - على اي حال ، لا اعتقد انهم سيأتون قبل صباح

الغد .

وأضاف بعد لحظة ، من غير ان ينظر الى بينيت :
- ستعرضون انفسكم حتى يقتلوكم عن آخركم .

قال بينيت بصوت أبح :

— انها الحرب .

قال ماتيو : — الحقيقة ان لا . انها ليست الحرب « بعد » .

— لم توقع الهدنة .

وأخذ ماتيو يد بينيت فشدّها قليلا بين اصابعه : كانت مثلجة ..

— هل انت متأكد بأنك راغب في ان تُقتل ؟

— لست راغباً في ان أُقتل : وانما انا راغب في قتل الماني ..

— الأمران مرتبطان .

وخلص بينيت يده من غير ان يجيب . وأراد ماتيو ان يتكلم ،

وكان يفكر :

« انه يموت من اجل لا شيء » وكان هذا يخنقه . ولكنه أصيب

فجأة بالبرد ، فصمت : « بأي حق امنعه من ذلك ؟ وماذا

لدي لأهبه لياه ؟ » والتفت الى بينيت وصفر بهدوء : كان بينيت

غير قابل للدراك ؛ كان يمشي اعمى في ليله الاخير ؛ كان يمشي ،

ولكنه لم يكن يتقدم : كان قد وصل ، وكان موته ومولده قد اتصلا ،

كان يمشي تحت القمر ، وكانت الشمس القادمة قد بدأت تضيء

جروحه . كان قد كف عن ان يجري وراء نفسه ، فقد كان حاضراً

كله في ذاته ، بينيت برمته ، كثيفاً ومغلقاً . وتنهّد ماتيو وأخذ له ذراعه

في صمت ، اخذ ذراع موظف شاب في المترو ، نبيل وعذب وشجاع

ورقيق كان قد قتل يوم ١٨ حزيران ١٩٤٠ . وبسم له ، ومن اعماق

الماضي ، بسم له بينيت ؛ ورأى ماتيو البسمة واحس بأنه وحيد تماماً .

ينبغي لتحطيم هذه القشرة التي تفصله عني ألا اريد بعد مستقبل آخر

غير مستقبلي ، ولا شمساً اخرى غير التي سيرها غداً للمرة الاخير ؛

ولكي اعيش الدقائق نفسها ، في الوقت نفسه ، يجب ان اريد ان

ان اموت الميتة نفسها . وقال بهدوء :

— الحقيقة ان عليّ أنا ان اذهب للقتال بدلاً منك. لأنني انا ، لا
فاملك بعد اسباباً للحياة كما تملك .

فنظر اليه بينيت في فرح ، كانا قد عادا فأصبحا تقريباً متعاصرين.
— انت ؟

— لقد خدعت نفسي منذ البدء .

قال بينيت : — حسناً ، ليس لك الا ان تأتي . اننا نمحو كل
كل شيء ونبدأ من جديد .
فابتسم ماتيو وقال :

— نمحو كل شيء ، ولكننا لا نبدأ من جديد .

فوضع بينيت يده حول عنقه ، وقال في شغف :

— دولارو ، يا صديقي الصغير ، تعال معي ، تعال . انه ليسرني ،

تلمو تعلم ، ان نكون معاً نحن الاثنين : فأنا لا اعرف الآخرين .

وتردد ماتيو : ان يموت ، فيدخل في خلود هذه الحياة التي سبق
لها ان ماتت ... ان يموتاً معاً ... وهز رأسه :

— لا

— ماذا ، لا ؟

— لا اريد .

— هل انت خائف ؟

— لا ، بل اجد ذلك سخيفاً .

ان يشق يده بضربة سكين ، ان يقذف خاتم الزواج ، ان
يطلق النار على الالمان: ثم ماذا بعد ذلك ؟ التحطيم والتخريب: ليس ذلك
ببالحل ؛ وضربة عناد ، ليس هذا هو الحرية . ليتني فقط استطيع ان
اكون « متواضعاً » . وسأل بينيت مغتاضاً :

— ولماذا تراه سخيفاً ؟ اريد ان اقتل المانياً ؛ ليس في ذلك ايّ

— سخيف .

— بوسعك ان تقتل مئة ، فان الحرب ستكون خاسرة مع ذلك .
فقهقه بينيت :

— سأنقذ الشرف !

في نظر من ؟

وكان بينيت يسير خافض الرأس ، من غير ان يجيب . وقال ماتيو:
— وحتى لو نصبوا لك تمثالاً ، حتى ولو نثروا رمادك تحت «قوس

النصر» . ايستحق ذلك تعريض قرية برمتها للحرق ؟

قال بينيت : — لتحترق ، فهذه هي الحرب .

— هناك نساء واطفال .

— ليس عليهم الا ان يلتجئوا الى الحقول . آه ! (واضاف بهيئة

يلهاء) يجب ان تنفجر الفرقعات !

ووضع ماتيو يده على ذراعه :

— ألى هذا الحد تحبها اذن ، زوجتك ؟

— ما دخلها في هذا ؟

فسأله ماتيو : — أمن اجلها تريد تعريض نفسك للموت ؟

فصاح بينيت : — انك تضحكني ! لقد مللت تفسيراتك . اذا

كان هذا هو كل ما تنتجه الثقافة ، فسوف أتعزتي من اني لا املكها .

وكانا قد بلغا بيوت القرية الاولى ؛ وبغته ، اخذ ماتيو يصيح هوايضاً :

— كفى ! كفى ! كفى !

وتوقف بينيت لينظر اليه :

— ماذا دهاك ؟

فقال ماتيو مشدوهاً :

— لا شيء . اني اصبح مجنوناً .

فهز بينيت كتفيه وقال :

— يجب ان ادخل الى المدرسة . ان البنادق موجودة في غرفة الدرس .

وكان الباب مفتوحاً : فدخلا . وكان ثمة جنود ينامون على بلاط
الرواق . واخرج بينيت مصباح جيبي ، فارتسمت على الجدار دائرة
مضيئة .

— هنا .

وكان ثمة ركام من البنادق ، فأخذ بينيت احداها ، وتفحصها
طويلاً على ضوء مصباحه ، ثم وضعها وأخذ غيرها وفحصها بعناية .
وكان ماتيو يستشعر الخجل لكونه قد صرخ : يجب ان ينتظر المرء وان
يحفظ بذهنه صافياً . ان يحتفظ بنفسه لفرصة مناسبة . إن ضروب العناد
لا تيسر أمراً . ويسم لبينيت .

— يبدو عليك وكأنك تختار سيكارة .

وأخذ بينيت السلاح فوضعه راضياً على كتفه :

— اني آخذها . هيا بنا .

قال ماتيو : — اعطني مصباحك .

وأمر نور المصباح على البنادق : فكانت تبدو ضخمة ، ادارية ،
كأنها آلات كتابة . وقد كان صعباً ان يفكر المرء ان بوسعه ان يقتل
بمثل هذه الادوات . وانحنى فتناول احداها بلا تمييز .

وسأله بينيت مندهشاً :

— ماذا تفعل ؟

قال ماتيو : — كما ترى : انني آخذ بندقية .

قالت المرأة ، وهي تصفق الباب في وجهه :

— لا .

وظل على الدرج ، مسترخي الذراعين ، على تلك الهيئة المظلومة
التي يتخذها حين لا يستطيع بعد ان يخيف ، وتتم « ايتها الساحرة .

العجوز « بصوت مرتفع بما فيه الكفاية حتى اسمعه ، ومنخفض بما فيه الكفاية حتى لا تسمعه ، كلا ، كلا ، ياعزيزي المسكين جاك : كل شيء ما عدا « ساحرة عجوز » . اخفض الآن ، اخفض عينيك الزرقاوين ، وانظر ما بين قدميك : إن العدالة، لعبتك الرجالية الجميلة، هي مهشمة ، عد الى السيارة « بخطوتك » الأليمة الى ابعد حد ، انا اعرف : ان الاله الرحيم مدين لك بحساب ، ولكنك ستسويان الأمر يوم الحساب (وعاد الى السيارة « بخطوته » الأليمة الى ابعد حد) . اما بشأن « ساحرة عجوز » فلا ؛ كان بوسعه ان يجد شيئاً آخر ، ان يقول « جلد قديم ، حطام قديم ، شيء قديم ، ولكن لا « ساحرة عجوز » انك تحسدينه على لغته العامية ؛ كلا ، ما كان ليقول شيئاً ، كان الناس ليفتحوا لنا ابوابهم على سعتها ، وليعطونا سريرهم وأغظيتهم وقصانهم ، وكان ليجلس على حافة السرير ، فيضع باطن يده الكبيرة على الغطاء الاحمر ، وكان ليقول في احمرار : « اوديت، انهم يظنوننا زوجاً وامراً » وما كنت لأقول شيئاً ، وكان ليقول : « سأنام على الارض الخشبية » وكنت لأقول : « ولكن لا ، لا بأس ، انها ليلة وتنقضي بسرعة ، فلنم في السرير نفسه ؛ تعال يا جاك ، تعال ، فأغلق عيني ، واسحق فكري، اشغلي، كن ثقيلاً ، متطلباً، مستأثراً ، لا تركني وحدي معه » وأتى ، فهبط الدرج ، شفافاً ، متوقفاً جداً حتى يشبه ذكرى ، سوف تنشق وأنت ترفع حاجبك الأيمن ، وستطبل على الغطاء ، وستنظر اليّ بعمق ، وقام بنشقته ، وبرفع حاجبه ، وبتظرته العميقة المفكرة ، وكان هنا ، منحنيماً فوقها ؛ كان يطفو في هذا الليل الضخم القاسي الذي كانت تداعبه بأطراف اصابعها ، يطفو ، بلا كثافة ، عادياً وعتيقاً ، فأرى عبره المزرعة المظلمة الكثيفة ، والطريق ، والكلب الذي يروح ويجيء ، كل شيء جديد ، كل شيء ما عداه ، انه ليس زوجاً ، بل فكرة عامة ، اناديه ، ولكنه لا

يساعد . وبسمت له ، لأنه ينبغي دائماً ان تبسم لهم ، ومنحته الهدوء
وعذوبة الطبيعة ، تفاؤل المرأة السعيدة الواصل ؛ وكانت من تحت تدوب
في الليل ، تدوب في هذا الليل النسائي الكبير الذي كان يخفي ماتيو ،
في مكان ما من قلبه ؛ ولم يتبسم ، وحك أنفه ، تلك حركة استعارها
مع أخيه ، وانتفضت : ولكن بم تراني قد فكرت ، انني أنام
واقفة ، فلست بعد هذه المرأة العجوز الوقحة ، لقد حلمت ، واستغرق
الكلام في ليل حلقها ، ونُسي كل شيء ، ولم يكن باقياً على السطح
الا عموميتها المزدوجة الهادئة . وسألت بمرح :

— وإذن ؟

— غير وارد ، يدعون ان ليس عندهم عنبر ؛ ولكني أراه ،
عنبرهم . إنه في اقصى الحديقة . ليست لي مع ذلك هيئة لصّ
يجوب الطرقات .

قالت : — اسمع ، لا شك في اننا لا نبدو في حالة لامة ، بعد
اربع عشرة ساعة من السير .

فنظر اليها بمزيد من التنبه ، فأحست ان انفها ، تحت النظر ، يبرق
كأنه منارة ؛ سيقول لي إن انفي يبرق ، وقال :
— ان تحت عينيك جيوباً ، يا عزيزتي المسكينة : فلا بد
انك مرهقة .

فأخرجت بحوية علبة البودرة من حقيبتها ، ونظرت في المرآة
بقسوة ؛ انني أخيف : لقد كان وجهها ، تحت ضوء القمر ، يبدو
مرخاً بلطخات سود ؛ قد تكون البشاعة محتملة ، ولكنني استنطق القنطرة .
وسأل جاك في تبرّم :

— ما عسانا نفعل ؟

وكانت قد سحبت ممسحتها ، فجعلت تمررها على وجنتيها وتحت
عينيها ، وقالت :

- ما تشاء .

- اني أستشيرك .

وكان قد التقط اليد التي تمسك بالمسحة فجمدها بسلطة باسمه . اني
أستشيرك ، أستشيرك هذه المرة ، كلما استشرتك ؛ يا صديقي العزيز ،
انت تعلم جيداً انك لن تتبع رأيي . ولكنه كان بحاجة الى نقد افكار
الآخرين ، ليعي أفكاره . وقالت كيفما تأتي لها :

- لنتابع ، فربما وجدنا انساناً ألطف .

- لا ، شكراً ! إن التجربة تكفييني . ها ! (وأضاف بقوة)

اني احقر الفلاحين !

- اتريد ان نظل سائرين طوال الليل بالسيارة ؟

- طوال الليل ؟

- سنكون صباح الغد في غرنوبل ، فيكون بوسعنا ان نرتاح لدى
أسرة « بليريو » ، ثم نستأنف بعد الظهر لننام في كاستيلان : وسنصل
الى « جوان » بعد الظهر .

- انك لا تقدرين هذا !

واتخذ هيئته الرصينة ليضيف :

- اني متعب جداً ، وسوف أنام وراء المقود ونستيقظ في الحفرة .

- أستطيع ان أحل محلك .

- يا حبيبي ، ضعي دائماً في رأسك فكرة اني لن ادعك ابداً

تسوقين في الليل . فستكون العملية ، بسبب نظرك الحسير ، عملية قتل .
إن الطرقات مزدحمة بالعربات والشاحنات والسيارات : أشخاص لم يمسوا
المقود في حياتهم ، وقد انطلقوا مع ذلك ، يخطون خبط غشواء ،
يدافع الذعر . كلا : اننا بحاجة الى أعصاب رجل .

وانفتحت مصاريع ، فبرز رأس على نافذة ، وقال صوت خشن :

- اترانا نستطيع ان ننام بهدوء ؟ إذها فتحدثا بعيداً ! يلعن دين !

فقال جاك بسخرية صافعة :

— شكراً كثيراً يا سيدي ، انك مؤدب جداً ومضيف !
وغرق في السيارة ، فصفق البسبب وأقلع بوحشية ؛ ونظرت اليه
اوديت بطرف عينها : كان الأفضل ان تصمت ؛ انه يسير ثمانين على
الاقبل ، مطفئاً كل أنواره لأنه كان يخشى الطائرات ؛ ومن حسن
الحظ ، ان القمر بدر . وانقذت الى الباب :

— ماذا تفعل ؟

كان قد حاد بالسيارة ، من غير ان يخفف السير ، الى طريق
معتزضة . وسار فترة اخرى ، ثم توقف فجأة . فصف السيارة في
آخر الطريق ، تحت باقة من الشجر .

— سننام هنا .

— هنا ؟

وفتح الباب ، فهبط من غير ان يجيب ، فانسلت خلفه ، وكان
الهواء رطباً تقريباً .

— اتريد ان ننام خارجاً ؟

— كلا .

فنظرت بأسف الى العشب الأسود الرقيق ، وانحنت فجسته كما
تجسس الماء .

— اوه ! جاك ! سنكون في وضع مريح ؛ وبوسعنا ان نخرج

الأغطية مع سادة .

فردد : — كلا (وأضاف بحزم) سننام في السيارة ، فنحن لا
نعرف من يمر على الطرقات في هذه اللحظة .

وكانت تنظر اليه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، يدها في جيبه .
وخطوته فتية راقصة ؛ فاي شيطان يعني في الأشجار ، فيضطر جاك
الى القفز والرقص على الإيقاع . وأدار نحوها سحنة مهمومة شائخة ،

ذات عينين هاربتين : هناك أمرٌ ذو بال ؛ لكأنه كان يشعر بالعار ؛
وعاد الى السيارة ، وكانت نضارة الآلة السحرية وانطلاقها قد ذابا
فيه ، وسالا حتى قدميه يستخفانه بجذل . كان يكره النوم في السيارة .
فمن تراه يعاقب ؟ أيعاقب نفسه ، أم يعاقبني ؟ وكانت تحس نفسها
مذنبه ، من غير ان تعرف الذنب . وسألها :

— لماذا تبدين متجهمة هكذا ؟ ها نحن على دروب المغامرة الكبيرة :
فينبغي ان تكوني مسرورة .

فخففت عينيهما : لم اكن اريد الرحيل ، يا جاك ، انني أسخر
بالألمان ، وكنت اريد ان ابقى في بيتي : فاذا استمرت الحرب ،
قطعنا عنه ، بل لن نعرف إن كان قد قتل . وقالت :

— افكر في اخي وفي ماتيو .

قال جاك في بسمة مريرة :

— إن راوول في هذه اللحظة، موجود في كاراكاس ، في سريره .

— وليس ماتيو .

فاجاب جاك : — اذكري جيداً ان أخي قد مُعِين في الخدمات
للفرعية . وهو بهذا لا يجابه اي خطر . كل ما في الامر انه قد
يكون أسيراً . انت تتصورين ان جميع الجنود أبطال . ولكن لا ، يا
عزيزتي المسكينة : إن ماتيو كاتب بسيط في اركان حرب غير محدد؛
فهو لا يقل اطمئناناً عما اذا كان في المؤخرة، بل لعله اكثر اطمئناناً منا
في هذه اللحظة . وهم يسمون هذا « محباً » في لغتهم الخاصة . والحق
انني أهنيء نفسي من أجله .

فقالت اوديت من غير ان ترفع عينيهما :

— ليس طريفاً ان يكون المرء أسيراً .

فتأملها برصانة .

— لا تقولي لي ما لم أقله ! إن مصير ماتيو يُحدث لي قلقاً كبيراً .

ولكنه شخص صلب ، يعرف ان يتدبر أمره بشطارة . بلى ، بلى ، شاطر اكثر مما تظنين ، بالرغم من منظره الشارد ، وانا اعرفه خيراً مما تعرفينه . إن في تردداته ، السرمدية عمقاً وصلابة ، وهو صاحب شخصية . وسوف يتدبر امره هناك لايجاد الوضع المناسب : انني أمثله ناجحاً في ان يكون سكرتيراً لضابط ألماني ، او طبائخاً ... إن هذا يناسبه كما يناسب القفاز يداً ! (وابتسم وردد بتلذذ) طباخ ، أجل ، طباخ ، كالقفاز (وأضاف في مساراة) اذا اردت ان تعرفني فاني اعتقد ان الأسر سينقل رأسه ويزيل شروده ، فيعود الينا رجلاً آخر .

فسألت اوديت ، منقبضة الحلق :

— وكم يدوم الأسر !

— كيف تريدني أن أعرف ذلك ؟

وهز رأسه وقال :

— ان ما يمكنني ان اقوله لك هو اني لا ارى ان الحرب يمكن ان تدوم وقتاً طويلاً . ان الهدف التسالي للجيش الالماني هو انكأترا ... و « الشانيل » ضيق جداً ...

قالت اوديت : — سيدافع الانكليز عن أنفسهم .

— بكل تأكيد . بكل تأكيد (وباعد بين ذراعيه في ارهاق)

وانا لا ادري ان كان علينا ان نتمنى ذلك .

ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ كان الامر في البدء

يبدو بسيطاً : كانت قد طنت أنها ينبغي ان تتمنى النصر ، كما في

عام ١٤ . ولكن لم يكن ثمة من يبدو عليه انه يشتهي . لقد ابتسمت

في جدل . كما رأيت امها تبتسم ، ساعة هجوم « نيفل » ، ورددت

بقوة : « أجل ! سننتصر : ويجب ان نقول بيننا اننا « لا يمكن » .

الا نتصر . » وكان ذلك يوحى لها بالاشمئزاز من نفسها ، لأنها كانت

تحتقر الحرب حتى ولو في النصر . ولكن الناس كانوا يهزون رؤوسهم

من غير ان يجيبوا ، كما لو انها كانت تعوزها البصيرة ، فازمت اذ
ذاك الصمت ، وحاولت ان تجعل الجميع ينسونها ؛ كانت تسمعهم
يتحدثون عن ألمانيا ، وعن انكلترا ، وعن روسيا ، فلم تكن
تدرك حتى ما يريدونه ؛ وكانت تفكر : « لو كان هنا ، لشرح لي . ولكنه
لم يكن هنا ، بل هو لم يكن حتى ليكتب : فطوال تسعة أشهر ،
أرسل رسالتين لجاك . ما هو رأيه ؟ لا بدّ انه يعرف ، لا بدّ انه
يدرك ، واذا لم يكن يدرك ؟ اذا لم يكن ثمة أحد يدرك ؟ ورفعت
رأسها فجأة : كانت تودّ لو تجد لدى جاك تلك الهيئة من الوثوق
القرير الذي كان ما يزال يطمئنها احياناً ، كانت تودّ لو تقرأ في
نظرة ان كل شيء على ما يرام ، وان الناس كانوا يملكون اسباباً
للأمل كانت تغيب عنها . أمل في اي شيء ! أصبح ان انتصار
الحلفاء لا يمكن ان يفيد غير روسيا ؟ كانت تسأل هذا الوجه المألوف اكثر
ما ينبغي ، وفجأة بدا لها وجهاً جديداً : لقد رأت عينين مسودتين
بالقلق ؛ وكان قد بقي بعض العبوس عند زاويتي الشفتين ، ولكن
ذلك كان غطرسة متجهمة لصبني اكتشفت غلظته . « إنه يشكو شيئاً ،
فهو غير مطمئن . » والواقع انه كان يتصرف بغرابة ، منذ تركا باريس ،
فيبدو تارة اعنف مما ينبغي ، وطوراً أرق مما ينبغي . انه لمريع ان
يبدو الرجال وكأنهم مُحسّنون بأنهم مذنبون . وقال :

— انني اموت . رغبة في التدخين .

— اليس معك سكاير بعد ؟

— لا .

قالت : — خذ ، بقي معي اربع منها .

وكانت سكاير « دوريزك » ، فقط شفتيه ، وتناول احدها

بمحتدياً ، وقال وهو يضع العلبه في جيبه :

— انها من القش !

ولاول نفثة نفثها ، شمّت اوديت رائحة التبغ ؛ وجففت حلقها
رغبةً في التدخين . لمدة طويلة ، وبالرغم من انها كفت عن ان تحبه ،
كان يروق لها ان تستشعر العطش حين كاث يشرب بقربها ، والجوع
بينما يأكل ، وان تنعس إذ تنظر اليه نائماً ، كان ذلك يطمئنها : لقد
كان يأخذ منها رغباتها ، فيطهرها ، ويشبعها لها ، على نحو اكثر
رجولة واخلاقية وحسماً . اما الآن ..

وقالت بضحكة خفيفة :

— اعطني منها واحدة على الاقل .

فنظر اليها من غير ان يفهم ، ثم رفع حاجبيه .
— اوه ! عفواً ، يا عزيزتي المسكينة : لقد كانت مني
حركة آلية .

وأخرج العلية من جيبه ، فقالت :

— تستطيع ان تحتفظ بالعلبة ، ولكن أعطني منها واحدة .

ودخنا في صمت ، وكانت خائفة من نفسها ؛ كانت تتذكر
الرغبات العنيفة والتي لا تقاوم التي كانت تزرع فيها الاضطراب اذ
كانت فتاة . ربما كانت ستعاودها الآن . وسعل مرتين او ثلاثاً
ليصفي صوته : انه يريد ان يحدثني . ولكنه يتباطأ كالعادة . وكانت
تدخن بصبر : انه سيدخل موضوعه من جانب ؛ كالعقارب . وكان
قد استقام ، فألّف ملامح وجهه ونظر اليها في قسوة . وقال :

— هكذا ، يا عزيزتي المسكينة اوديت !

فبسمت له باهام . لمجرد ما سيقول . ووضع يده على كتفها :

— يجب ان تقرّي الآن انها مغامرة شاقة .

قالت : — نعم . نعم . انها كذلك .

وظل ينظر اليها . واطفاً سيجارته على عتبة السيارة وسحقها تحت

قدمه ؛ واقرب منها ، وقال لها بقوة ، كأنما ليقننها :

— ولكننا لا نواجه اي خطر .

فلم تجب ؛ وتابع بصوت ملح ورقيق :

— اني على ثقة من ان الألمان سيتصرفون جيداً ، سيحرصون على ان يتصرفوا تصرفاً جيداً .

وكان هذا هو ما فكرت به دائماً . ولكنها قرأت في عيني جاك الجواب الذي كان ينتظره منها ؛ فقالت :

— من يدري ؟ واذا أغرقوا باريس بالحراب ؟

فهزت كتفيه :

— ولكن كيف تظنين ذلك ؟ الحق ان هذه افكار نسوية !

وانحنى عليها ، وأوضح لها بصبر :

— اسمعي يا اوديت ، وحاولي بان تفهمي : لا شك في ان برلين ستكون لديها الرغبة ، بعد الهدنة مباشرة ، ان تجعل فرنسا ممثلة في عداد اعضاء « المحور » ، بل ربما كانوا يعتمدون هناك على نفوذنا في امريكا ليقبوا الولايات المتحدة خارج الحرب . هل تتابعيني جيداً ؟ وبكلمة واحدة ، إن لنا مزايا كثيرة ، حتى ولو هزمنا . (وأضاف بضحكة صغيرة) بل سيكون هناك دور هام يلعبه رجالنا السياسيون اذا أحسوا انهم قادرون على ذلك . حسناً . في مثل هذه الشروط ، لا يمكن حتى ان نتخيل الألمان وهم يوشكون ان يثيروا عليهم الرأي العام الفرنسي بارتكاب أعمال عنف غير مجدية .

فقالت منزعجة : — هذا رأيي بالذات .

— آه ؟

وكان ينظر اليها وهو يعرض شفته ؛ وكان يبدو من شدة الحيرة ، بحيث اسرعت تضيف :

— ولكن مع ذلك ، كيف لنا ان نتأكد ؟ افرض انهم أطلقوا

عليهم النار من النوافذ ؟

فالتمعت عينا جاك :

- لو كان ثمة من خطر ، لبقيت . فانما صممت على الذهاب لأنني كنت متأكداً من انه لم يكن هناك خطر .

وكانت تتمثله يدخل الصالون في هدوء كبير مستطار ، وتسمعه مرة اخرى يقول بأوضح صوت يملكه ، وهو يشعل سيجارة ييبد ترتجف : « اوديت ، احزمي امتعتك ، فالسيارة تحت ، وسرحل بعد ثلاثين دقيقة . » فما الذي يقصده ؟ وندت منه ضحكة سيئة ؛ وقال في شكل من اختتام الحديث :

- على كل حال ، هذا ما يُسمى « ترك المركز » .

- ولكن لم يكن لك مركز ؟

قال : - بل كنت قائد حاملة طائرات . (ودفع براحته اعتراضاً ممكناً) اعرف ان هذا مضحك ؛ وانا لم اقبل الا على إلحاح شامبوتوا . ولكن حتى هناك ، كان يمكنني ان اقدم خدمة . ثم انه كان علينا ان نكون قدوة .

وكانت تنظر اليه بلا ود : نعم ، نعم ، « نعم » كان عليك ان تبقى في باريس ، فلا تعتمد علي لأقول لك العكس . وتنهدي : - مهما يكن . ما حصل قد حصل . كان الامر يكون مريحاً اكثر مما ينبغي لو لم يكن لدينا الا واجبات متوافقة . (واضاف) انني أضجرك يا عزيزتي المسكينة . فهذه وساوس رجالية .

قالت : - احسب اني استطيع ان أفهمها .

- طبعاً ، يا صغيرتي ، طبعاً (وبسم بسمه رجولية متوحدة ثم أخذ معصمها وقال لها بصوت مطمئن) ولكن لنفكر : ماذا كان عساه يحدث لي ؟ في اسوأ الظروف كانوا ليأخذوا الرجال الأصحاء الى ألمانيا ، وبعد ذلك ؟ إن ماتيو هناك . صحيح أنه ليس له قلبي

الملعون . ولكن تذكريني ، حين سرتخي ذلك الماجور الأبله ؟

- نعم .

- لقد كنت مجنوناً من الغضب ، وكنت مستعداً ان افعل اي شيء : اتذكرين ؟ اتذكرين كم كنت غاضباً ؟

- نعم .

وجلس على عتبة السيارة ، ووضع رأسه بين يديه ؛ وكان ينظر امامه باستقامة ؛ وقال وعيناه ثابتتان :

- لقد بقي شرفوز .

- ماذا ؟

- لقد بقي . التقيت به هذا الصباح في المرأب ، وقد بدت عليه

الدهشة ان أرحل .

فقلت بألية : - ولكن الامر معه يختلف .

قال في مرارة : - نعم . في الواقع . فهو عازب .

وكانت اوديت واقفة الى يساره ، تنظر الى جلدة رأسه التي كانت

تلمع ، في اماكن ، تحت شعره ، وتفكر : هذا هو السبب إذن !

وكانت عيناه غائمتين . وقال بين أسنانه :

- لم يكن ثمة من أستودعه إياك .

فتصلبت :

- ماذا ؟

- اقول اني لم اكن استطيع ان استودعك احداً . ولو جرؤت

على ان ادعك تذهيب وحلك الى بيت عمك ...

فسأله بصوت مرتجف :

- أتعني انك انما رحلت بسببي ؟

فأجاب : - كانت هذه حالة ضميرية .

وكان ينظر اليها بشغف :

- في هذه الايام الاخيرة ، كنت نائرة الأعصاب جداً : كنت تخيفيني .
وكانت بكاء من الدهول : ولكن لماذا يجب ؟ لماذا يعتقد نفسه مضطراً ؟

وكان يتابع بمرح بثير الأعصاب :
- كنت تبقي النوافذ مغلقة ، وكنا نعيش طوال النهار في الظلام ، وكنت تراكمين المجلات ، وكنت امشي على عاب السردين .. وأظن بعد ذلك ان لوسيان كانت تسيء اليك كثيراً ، وحين كانت تخرج من بيتنا ، تتغيرين تماماً : لقد كانت شديدة الذعر ، وساذجة جداً ايضاً ، وتميل الى تصديق جميع قصص الاغتصاب والأيدي المقطوعة .
لا اريد . لا اريد ان اقول له ما يريد ان يحلني على قوله . فاذا يبقى لي في الدنيا اذا احتقرته ؟ وتراجعت خطوة الى الوراء ، وكان يحدد فيها نظراً فولاذياً ، ويبسود وكأنه يقول : « قولها ، ولكن آن لك ان تقوليها ! » ومن جديد كان يشعر تحت هذا النظر النسري ، هذا النظر الزوجي ، بأنه مذنب ، ربما ظن بأنه كانت لي رغبة في الرحيل ، وربما كنت ابدو خائفة ، وربما كنت خائفة من غير ان ادري . فما هو الصحيح ؟ ان ما كان صحيحاً حتى الآن ، هو ما كان يقوله جاك ، فاذا كفت عن تصديقه ، فاذا أصدق ؟ وقالت وهي تنفض رأسها :

- ما كنت احب ان أبقى في باريس .

فسألها بطيبة : - هل كنت خائفة ؟

قالت : - نعم . كنت خائفة .

وحين رفعت رأسها ، كان ينظر اليها وهو يضحك ، وقال :

- كفى ! كل هذا ليس خطيراً : صحيح ان قضاء ليلة تحت ضوء القمر لا يناسب عمرنا بعد ، ولكننا ما نزال نجد في ذلك بعض

السحر . (وداعب رقبتها قليلاً) اتذكرين « هيار » عام ٣٦ ؟
لقد نمنا تحت الخيمة ، وهذه من ذكرياتي الجميلة .
فلم تجب ، وكانت قد وضعت يدها على مقبض الباب تشده بكل
قواها . وخنق ثناؤيه .

— ولكن اصبح الوقت متأخراً . اتريدين ان ننام ؟
فأومأت برأسها إيجاباً . وصاح حيوان ليلى ، فانفجر جاك ضاحكاً ،
وقال :

— إن هذا ريفي ! ادخلي الى السيارة (قالها بملاطفة) وتستطيعين.
ان تمدّي ساقيك قليلاً ، اما انا ، فسأنام على المقود .
ودخلا السيارة ، وأقفل بالفتاح الباب الأيمن ، ودفع كلب الأيسر .
— هل انت مرتاحة ؟
— مرتاحة جداً .

وأخرج المسدس وتفحصه في متعة ، وقال :
— هذا وضع كان يمكن ان يسحر جدي القرصان (وأضاف بمرح)
انا كلنا في الاسرة لا نخلو من طبع القرصنة .
ولم تكن تقول شيئاً . والتفت من مقعده فأخذ بيده ذقنها :
— قبّلي يا حبيبي .

وشعرت بفمه الحار المفتوح ينسحق على فيها ، ولحس قليلاً شفيتها
كما كان يفعل في السابق ، فارتعشت ، وفي الوقت نفسه احست يداً
تتسلل تحت إبطها وتداعب نهدها ، وقال بحنان :
— عزيزتي المسكينة اوديت ، عزيزتي الصغيرة .
وارتمت الى خلف . وقالت :
— انني اموت من النعاس .

قال باسم : — تصبحين على خير ، يا حبيبي .
وانفعل فشبك ذراعيه على المقود وترك رأسه يسقط على يديه .

هولت هي جالسة ، مستقيمة الصدر ، منزعجة : كانت ترصده .
زفرتان ، ليس هذا بعد . فهو ما يزال يتحرك . ولم تكن تستطيع
ان تفكر بشيء ما دام ساهراً وفي رأسه هذه الصورة عنها ، لم تستطع
قط ان تفكر بشيء ما دام بالقرب منها . حسناً : لقد ارسل أاناته
الثلاث ، واسترخى قليلاً : فهو ليس بعد الا حيواناً . كان نائماً ،
وكانت الحرب نائمة . وكان عالم البشر نائماً ، غارقاً في هذا الرأس ،
المستقيم في الظلام ، بين النافذتين المغربيتين ، في جوف بحيرة قرية .
كانت اوديت ساهرة ، وعاود ذهنها انطباع قديم جداً ، كنت أعدو
على درب صغير وردي ، وكنت في الثانية عشرة ، فتوقفت وقلبي
يخفق بفرحة قلقة ، وقلت بصوت مرتفع : انني لازمة ولا غنى عني .
وردت : انني لازمة ولا غنى عني ، ولكنها لم تكن تعرف لأي
شيء ، وحاولت ان تفكر في الحرب ، وكان يخيل اليها انها ستجد
الحقيقة : « أصحيح ان النصر لن يفيد الا روسيا ؟ » وسرعان ما
قررت ، وانقلبت فرحتها الى اشمزاز : انني لا اعرف من الأمر ما
فيه الكفاية .

وأخذتها الرغبة في التدخين . ليست حقاً رغبة ، وانما هي عصبية.
وانتفخت الرغبة وانتفخت ، فلأت نهديها . رغبة حاسمة وفاتحة ، كما
كان يحدث في زمن طفولتها المتغطرة ، لقد وضع العلبه في جيب
سترته ، لماذا تراه يدخن بعد ؟ ان مذاق التبغ ذاك في فمه ، لا بد
ان يكون مضجراً جداً ، اصطلاحياً جداً ، فلماذا تراه يدخن ولا
أدخن ؟ وانحنت فوقه ، وكان يتنفس ، فلدست يدها في جيبه ،
وأخرجت السكاير ثم فتحت الباب على مهل وهي ترد الكلب ، وانسلت
إلى الخارج . ان القمر عبر الاوراق ، وبحيرات القمر على الطريق ،
وهذه النسمة الرطبة ، وصرخة ذلك الحيوان . كل هذا لي انا . وأشعلت
سيكارة ، ان الحرب تنام ، وبرلين تنام ، وموسكو ، وتشرشل ،

والمكتب السياسي ، ورجالنا السياسيون ينامون ، كل شيء ينام ، وليس
ثمة من يرى ليلى ، اني لازمة ولا غنى عني ، والمعلبات كانت لجنودي
الذين أهتم بهم في الحرب . ولاحظت فجأة انها كانت تحتقر التبغ ،
وسحبت نفسين آخرين من سيكارتها ثم رمتها : انها لم تكن لتعرف
لماذا شاعت ان تدخن . وكان حفيف الشجر ينبعث بعدوية ، وكان
للريف يقضقض كالأرض الحشبية . وقد كانت النجوم حيوانات : وكانت
هي خائفة ، كان ينام ، وكانت هي قد وجدت ثانية عالم طفولتها
المظلم ، غابة الاسئلة التي ليس لها أجوبة ، كان هو الذي يعرف اسماء
النجوم ، والمسافة الدقيقة التي تفصل الأرض عن القمر ، وعدد سكان
المنطقة ، وتاريخهم وشواغلهم ، هو ينام ، وانا احتقره ولا اعرف
شيئاً ، وكانت تحس نفسها ضائعة في هذا العالم غير القابل للاستعمال ،
في هذا العالم الذي « يُرى ويُلمس » . وهرعت الى السيارة ، وكانت
تود ان توقظه على الفور ، ان توقظ « العلم » و « الصناعة »
و « الاخلاق » . ووضعت يدها على المقبض ، وانحنت على الباب ،
فكرت عبر الزجاج فماً كبيراً فاغراً . وقالت في نفسها : ما الفائدة ؟
وجلست على العتبة ، وأخذت ككل مساء ، تفكر في ماتيو .

كان الملازم يرقى السلم المظلم راكضاً ، وكانوا يركضون ويدورون
حوله ، وتوقف في وضح الليل ، فدفع برقبته باب سقف ، فبهرهم
ضوء فضي .

— اتبعوني .

فانبثقوا في السماء الباردة النيرة المليئة بالذكريات وبالأصوات الخفيفة .

وقال صوت :

— ما هذا ؟

قال الملازم : - هذا أنا .

- انتبهوا !

قال : - استراحة .

وكانوا يجدون انفسهم فوق سطح مربع ، في رأس برج الأجراس .
وكانت اربعة اعمدة تسند السقف ، لدى الزوايا الأربع . وبين الأعمدة
كان يركض إفريز حجري بارتفاع متر تقريباً . وكانت السماء في كل
مكان . وكان القمر يعكس على الارض الخشبية ظل عمود مائلاً .
قال الملازم :

- هل الامور على ما يرام ، هنا ؟

- لا بأس ، يا سيدي الملازم .

وكان ثلاثة افراد يواجهونه : وكانوا ثلاثتهم طوالاً هزلاً يحملون
البنادق . وكان ماتيو وبينيت واقفين خلف الملازم ، خائفين . وسأل
احد الجنود الثلاثة :

- هل نبقى هنا ، يا سيدي الملازم ؟

قال الملازم : - نعم (وأضاف) لقد أقت « كلاسون » واربعة
افراد في دار البلدية ، اما الباقون فيحتلون المدرسة معي . وسيقوم
دراير بعملية الاتصال .

- وما هي الاوامر ؟

- اطلاق النار كما تريدون . وباستطاعتكم تصفية الذخيرة .

- ما هذا ؟

نداءات مخنوقة ، وجرجرة اقدام : وكانت الاصوات صادرة عن
الشارع . وابتسم الملازم :

- انهم فاتنوا اركان الحرب الذين حبستهم في قبو البلدية . ان
المكان ضيق عليهم ، ولكن ذلك سيكون لليل فحسب : فغداً صباحاً ،
يتسلمهم الالمان بعد ان يفرغوا منا .

ونظر ماتيو الى الجنود ، كان يشعر بالعار من أجل الرفاق ، ولكن الوجوه الثلاثة ظلت جامدة . وقال الملازم :
— آه ! في الساعة الحادية عشرة سيجتمع سكان القرية في الساحة ، فلا تطلقوا عليهم النار . انني ارسلهم ليقضوا الليل في الغابات . وبعد مرورهم ، أطلقوا النار على كل من يعبر الطريق . ولا تهبطوا لأية ذريعة : فاذا فعلتم ، اطلقنا نحن النار عليكم .
وتوجه نحو باب السقف . وكان الجنود يحدجون ماتيو وبينيت في صمت .

قال ماتيو : — يا سيدي الملازم ...

فالتفت الملازم ، وقال :

— لقد نسيكما . ان هذين يريدان ان يقاتلا (متوجهاً الى الآخرين)
إن معهما بندقيتين ، وقد اعطيتهما جرايين للطلقات . فانظروا ما تفعلون بهما . فاذا أساء اطلاق النار ، فاستردوا منهما الجرايين .
ونظر الى الجنود في صداقة .

— وداعا ايها الرفاق ، وداعا .

فقالوا بأدب : — وداعا يا سيدي الملازم .

وتردد لحظة وهو يهز رأسه ، ثم هبط درجات السلم متقهقراً ، ورد دونه باب السقف . وكان الافراد الثلاثة ينظرون الى ماتيو وبينيت من غير فضول ولا ود . وقام ماتيو بخطوتين الى الخلف ، فاستند الى عمود . وكانت بندقيته تزعجه ؛ كان احياناً يحملها في كثير من اللامبالاة ، وأحياناً اخرى يمسكها كشمعدان . وانتهى بأن أضجعها على الارض في حيلة . ولحق به بينيت ، وكان كلاهما يولي القمر ظهره ، وعلى العكس ، كان الجنود الثلاثة في صميم النور . وكان الزبد الأسود نفسه يلطخ وجوههم الطباشورية ؛ وكان لهم نظر واحد يشبه نظر طيور الليل .

قال بينيت : - لكأنا في زيارة .
فابتسم ماتيو ؛ ولم يبتسم الافراد الثلاثة . واقرب بينيت من ماتيو
وهمس :
- لا يبدو انهم يتقبلوننا تقبلاً حسناً .
قال ماتيو : - صحيح !
وسكتا منزعجين . ومال ماتيو ، فرأى تحته تموج اشجار الكستناء.
وقال بينيت :
- اني ذاهب للتحدث معهم .
- لا ، إلزم هدوءك .
وكان بينيت قد تقدم باتجاه الجنود :
- اسمي بينيت . اما رفيقي ، فهو دولارو .
وتوقف ينتظر . وأوماً اكبرهم برأسه ، ولكنهم لم يعرفوا انفسهم.
وتنحى بينيت وقال :
- نحن هنا لنقاتل .
فظلوا على صمتهم ، وكزّ الطويل الاشقر وصرف رأسه . وتردد
بينيت مرتبكاً .
- فأى عمل نعمله ؟
وكان الطويل الاشقر قد ارتد الى خلف يتثائب . ورأى ماتيو انه
كان « عريفاً » .
وكرر بينيت :
- اي عمل نعمله ؟
- لا شيء .
- كيف ، لا شيء ؟
- لا شيء ، الآن .
- وبعد ذلك ؟

- سنبلغكما .
- وابتسم ماتيو لهم :
- اننا نبعصمكم ، أليس كذلك ؟ انكم تفضلون ان تكونوا وخدمكم ، ونظر اليه الاشقر الطويل بتفكر ، ثم التفت الى بينيت :
- ما مهنتك انت ؟
- موظف في المترو .
- فضحك الكابورال ضحكة قصيرة ، ولكن عينيه لم تكونا تضحكان .
- أتخسب نفسك قد عدت مدنياً ؟ انتظر قليلاً .
- آه ! تعني : هنا ؟
- نعم .
- مراقب .
- وهو ؟
- على المخابرات التلفزيونية .
- مساعد ؟
- نعم .
- فنظر اليه العريف في جهد ، كما لو انه يجد مشقة في تثبيت
- قنبايه عليه :
- ما الذي تشكوه ؟ يبدو عليك القوة والشدة ...
- القلب ...
- هل اطلقت النار في حياتك على رجال ؟
- قال ماتيو : - ابدأ .
- فالتفت العريف نحو رفاقه . وكانوا ثلاثتهم يهزون رأسهم . وقال
- بينيت بصوت مخنوق :
- سنبدل جهدنا للتصويب جيداً .
- وحدثت لحظة صمت طويلة : وكان العريف ينظر اليهم وهو يحك

رأسه . وأخيراً تنهد وبدا عليه انه صمّم . ونهض فقال بصوت اجش :
- إنني أدعى كلابو . ويجب ان تطيعاني انا . اما الآخران فهما
شاسيريو ودانديو ، وما عليكما ان تفعلوا الا ما يقولانه لكما ، لأن خمسة
عشر يوماً قد انقضت ونحن نقاتل ، فألفنا ذلك .

فردد بينيت غير مصدق :

- منذ خمسة عشر يوماً ؟ وكيف حدث ذلك ؟

فأجاب دانديو : - كنا نغطي انسحابكم .

فاحمر بينيت وخفض انفه . وأحس ماتيو بفكيه يتقبضان . وأوضح

كلابو بلهجة اكثر مصالحة :

- مهمه تأخير .

وتبادلوا النظر من غير ان يقولوا شيئاً . وأحس ماتيو بالضيق ؛
وكان يفكر : « لن نكون ابدأ منهم . لقد قاتلوا خمسة عشر يوماً
متتالية ، وكنا نحن نهرب على الطرقات ، وسيكون الامر ايسر مما
ينبغي اذا كان يكفي ان ننضم اليهم حين يطلقون الاسهم النارية النهائية .
لن نكون ابدأ منهم ، ابدأ . ان الذين نمت اليهم هم تحت ، في
القبو ، يأسون في العار والشقاء ، ومكاننا بينهم ، وقد تخلينا عنهم
في اللحظة الاخيرة بدافع الكبرياء . » وانحنى فرأى البيوت السوداء ،
والطريق التي تلمع ؛ وكان يردد لنفسه : « ان مكاني هو تحت ،
مكاني تحت . » وكان يعلم في صميم قلبه انه لن يستطيع بعد ان يهبط
من جديد . وجلس بينيت راكباً الافريز ، ليمنح نفسه التماسك من
غير شك .

وقال كلابو : - انزل من هنا ، فانك قد ترشدهم الينا .

- ان الالمان ما يزلون بعيدين !

- وما ادراك ؟ اقول لك ان تنزل .

فقفز بينيت على الارض الخشبية في استياء ، وفكر ماتيو : « انهم لن

يقبلونا ابدأ . » وكان بينيت يزعجه : كان يتحرك ويتحدث حين كان ينبغي له ان يمحي ويمسك انفاسه ويجعل الناس ينسونه . وانتفض ماتيو : فقد انفجر في اذنه انفجار هائل ، ثقيل ودبق ، ثم انفجار آخر ، وثالث : صرخات برونزية ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه . وضحك بينيت ضحكة عصبية :

— لا حاجة بك للخوف : انها الساعة تدق .

وألقى ماتيو نظرة على الجنود ، فلاحظ برضى انهم كانوا هم ايضاً قد انتفضوا مذعورين .

قال بينيت : — انها الساعة الحادية عشرة .

وارتعش ماتيو : كان يحس البرد ، ولكن ذلك لم يكن بلا لذة . كان عالياً جداً في السماء ، فوق السقوف ، وفوق الرجال ، وكان يشعر بالبرد ، وكان الظلام سائداً . « كلا ، لن انزل ثانية ، لن انزل بأي ثمن . »

— ها هم المدنيون يرحلون .

وانحنوا جميعاً فوق الافريز . ورأى حيوانات سوداء تتحرك تحت الاوراق ، فكأنها اعماق البحر تتحرك . وفي الشارع الكبير ، انفتحت ابواب بيضاء ، وكار رجال ونساء واطفال ينسلون الى الخارج ، وكان معظمهم يحملون حزمًا او حقائب . وتشكلت جماعات صغيرة في الشارع : وكان يبدو انهم ينتظرون . ثم ذابت الجماعات في موكب واحد تحرك ببطء نحو الجنوب .

قال بينيت : — لكنها جنازة !

قال ماتيو : — يا للمساكين !

فأجاب دانديو بحفاء :

— لا ترث لهم . فسوف يعودون الى بلدهم . ونادراً ما يشعل
الامان النار في القرى .

- قال ماتيو وهو يشير الى روبرفيل :
- وتلك ؟
- ليس الامر سواء : فقد كان الفلاحون يطلقون النار معنا .
- واخذ بينيت يضحك :
- لم يكن الامر اذاً كما هو هنا ! فكم كان الفلاحون هنا هادئين !
- فنظر اليه دانديو :
- انكم لم تكونوا تقاتلون : واظن ان ليس على المدنيين ان يبدأوا .
- فسأل بينيت في غضب :
- ومن هو المذنب ؟ من هو المذنب اذا لم نكن نقاتل ؟
- لا ادري .
- الضباط ! ان الضباط هم الذين خسروا الحرب .
- قال كلابو : — لا تتحدث بالسوء عن الضباط . فليس لك الحق ان تتحدث عنهم بالسوء .
- ان هذا لا يزعجني .
- قال كلابو بحزم : — لن تتحدث عنهم بالسوء امامنا . لأنني سأقول لك : فباستثناء الملائم ، وهي ليست غلطته ، فان جميع ضباطنا بقوا .
- وأراد بينيت ان يوضح رأيه ، فد ذراعيه نحو كلابو ، ثم تركهما تسقطان ، وقال في ارهاق :
- اننا لا نستطيع ان نتفاهم .
- وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في فضول :
- ولكن لماذا اتيت الى هنا اذن ؟
- لقد جئنا لنقاتل ، كما قلت لك من قبل .
- ولكن لماذا ؟ انت لست مجبراً على ذلك .
- وكان بينيت يقهقه بهيئة بليدة .
- هكذا ! لنتلوى من الضحك !
- قال كلابو بلا عذوبة :

— حسناً ! ستلويان من الضحك ! أوكد لكما ذلك !

وكان دانديو يضحك اشفاقاً :

— اسمعهما : لقد جاءا يزوراننا ، ليتلويان من الضحك ، ليريا كيف يكون البارود ؛ وهما يريدان ان يتمرنا على اصابة المرمى ، كما في صيد الحمام . ثم انهما غير مجبرين حتى على ذلك !

فسأله بينيت : — وانت ، يا ابله ، من يجبرك على ان تقاتل ؟

— نحن ، ليس الامر مشابهاً : فاننا جنود مطاردة .

— يعني ؟

— لو كنت كذلك ، لقاتلت .

فهز رأسه :

— انت تتحدث كما لو انني سأطلق النار على الرجال لمجرد لذتي .

وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في مزيج من الدهول والنفور :

— هل تدرك انك تجازف بروحك ؟

فهز بينيت كتفيه من غير ان يجيب . وتابع شاسيريو :

— اذا كنت مدركاً ذلك ، فانك اشد بلاهة مما يبدو عليك .

فليس من سلامة الحس ان يجازف المرء بحياته اذا لم يكن مجبراً على ذلك .

قال ماتيو فجأة :

— كنا مجبرين على ذلك . كنا مجبرين . فقد كنا ضجرين ، ولم

نكن نعرف ما ينبغي لنا ان نعمل .

وأشار الى المدرسة تحتهم .

— كان امامنا ان نختار بين برج الاجراس والقبو .

فبدأ على دانديو الاهتمام ، وتقلصت ملامحه قليلاً . وتابع ماتيو :

— فما عساكم تفعلون ، لو كنتم في وضعنا ؟

ولم يكونوا يجيبون ، فألح قائلاً :

– ما عساكم تفعلون ؟

فهز دانديو رأسه :

– ربما كنت اختار القبو . فسترى : ان عملنا ليس بالطريف .
قال ماتيو : – صحيح ، ولكن ليس من الطريف ايضا ان نبقي
في القبو حين يحارب الآخرون .

قال شاسيريو : – لا انكر ذلك .

وأقره دانديو : – نعم ، لن يشعر المرء في هذا الوضع بالاعتزاز.
وبدا عليهم انهم اصبحوا اقل عداء . وحذج كلابو بينيت في شيء
من الدهشة ، ثم انتقل واقترب من الافريز . وامسحت قسوة نظره
المحمومة ، وكانت هيئته مبهمة عذبة ، وكان ينظر باهام الى الليل
العذب ، والريف الطفولي الاسطوري ، ولم يكن ماتيو يعرف اذا كانت
عذوبة الليل هي التي تنعكس على هذا الوجه ، ام ان وحدة هذا الجو
هي التي تنعكس على ذلك الليل .

قال دانديو : – هو ! كلابو !

فاستقام كلابو واستعاد هيئة الاخصائي الجادة :

– ماذا تريد ؟

– اريد ان اقوم بجولة في الغرفة التحتية : فقد رأيت فيها شيئاً ما .
– اذهب .

واذ كان دانديو يرفع باب السقف ، صعد اليهم صوت امرأة :

– هنري ! هنري !

وأطل ماتيو على الشارع . فكان ثمة متخلفون يعدون في كل اتجاه ،
كأنهم نمل مجنون ؛ ورأى في الشارع ، بالقرب من البريد ، طيفا
صغيراً :

– هنري !

فاسود وجه بينيت ولكنه لم يقل شيئاً . وكان ثمة نساء يمسكن بذرراع

عاملة البريد ويحاولون أن يجرونها . ولكنها كانت تتخبط وهي تصيح :

— هنري ! هنري !

وتحلف منهن ، ثم ارتمت داخل قاعة البريد ، واغلقت الباب دونها ؛ وقال بينيت بين اسنانه :

— إن هذا لبلاهة !

وكان يحك اظافره بحجر الافريز :

— يجب ان تذهب مع الآخرين .

قال ماتيو : — صحيح .

— وإلا أصيبت بشر .

— من المسؤول عن ذلك ؟

فلم يجب . وارتفع باب السقف :

— ساعدوني .

فردوا الباب الى خلف ، وانبتق دانديو من الظل ؛ وكان يحمل على ظهره فراشين .

— لقد وجدت هذا .

فابتسم كلابو للمرة الاولى : وكان يبدو على هيئته ابتهاج ، وقال :

— اننا محظوظون .

وسأل ماتيو : — ماذا تريدون ان تفعلوا بهذا ؟

فنظر اليه كلابو في دهشة :

— لأي شيء يستعمل هذا ، في رأيك ؟ لإخفاء الجواهر ؟

— هل تراكم ستنامون ؟

قال شاسيريو : — سنكسر الصفرة اولاً .

ونظر اليهم ماتيو ينشغلون حول الفراشين ، ويخرجون من قيربهم علبا من لحم القرد : اتراهم لا يدركون أنهم سيموتون ؟ وكان شاسيريو قد عثر على مفتاح علب ، ففتح ثلاث علب بحركات سريعة

ودقيقة ، ثم جلسوا وسحبوا مدهم من جيوبهم .
والقى كلابو نظرة الى ماتيو ، من فوق كتفه ، وسأل :
- هل انتما جائعان ؟
وكان قد انقضى يومان لم يأكل ماتيو فيهما شيئا ؛ وكان اللعاب
يملاً فيه . فقال :
- انا ؟ كلا .
- ورفيقتك ؟
فلم يجب بينيت . كان مطلقاً من فوق الافريز ينظر الى بناية البريد .
قال كلابو :
- هيا ، كلا : فليس الطعام هو ما ينقصنا .
قال شاسيريو : - ان من يقاتل يحق له ان يأكل .
وفتش دانديو في قربة ، فأخرج منها علبتين مدهما لماتيو . وتناولهما
ماتيو وضرب على كتف بينيت ، فانتفض بينيت :
- ماذا تريد ؟
- هذا لك : كل !
وأخذ ماتيو مفتاح العلب الذي مده له دانديو ، فأسنده على حافة
العلبة وشد بكل قواه ؛ ولكن الشفرة انزلت من غير ان تعض ،
وقفزت خارج الخط فأنت تصدم ابهامه الايسر .
وقال بينيت : - كم انت عادم الخلق ! هل آذيت نفسك ؟
قال ماتيو : - لا .
- هاته .

وفتح بينيت العلبتين ، واخذها يأكلان في صمت ، بالقرب من
من عمود : ولم يكونا قد جرؤا على الجلوس . وكانا يحفران بمدبتيهما
في لحم القرود ، ويعلقان القطع على رأس الشفرتين . وكان ماتيو يمضغ
باهتمام ، ولكن حنجرتة كانت مشلولة : انه لم يكن يحس طعم اللحم ،

وكان يشق عليه ان يتلع . وكان الجنود الثلاثة جالسين على الفراشين ،
منحنين فوق طعامهم بهيئة مجدة ؛ وكالت مداهم تبرق تحت ضوء القمر .
وقال شاسيريو حالماً :

— لذيذ ان نأكل في برج كنيسة .

في برج كنيسة . وخفض ماتيو عينيه . كانت تحت أقدامهم رائحة
البهار والبخور تلك ، وهذه الرطوبة ، وذلك الزجاج المقطع الذي كان
يلمع لمعاناً خفيفاً في ظلام الايمان . كان تحت اقدامهم الثقة والأمل .
وكان يشعر بالبرد ، وكان يرى السماء ، ويتنشق السماء ، وكان يفكر
تفكيراً مزوجاً بالسماء ، كان عارياً على كومة جليد ، في الأعالي ؛
وبعيداً جداً تحته ، كانت طفولته .

وكان كلابو قد قلب رأسه ، وكان يأكل وهو ينظر الى السماء .
وقال بصوت منخفض :

— انظر الى القمر .

قال شاسيريو : — ما به ؟

— أليس هو اليوم اكبر من العادة ؟
— كلا .

— آه ! انني أجده اكبر من العادة .
وخفض عينيه فجأة :

— تعالا فكللا معنا : إن المرء لا يأكل واقفاً .

فردد ماتيو وبينيت . قال كلابو :
— هيا ! هيا !

قال ماتيو لبينيت : — تعال !

وجلسا ؛ وكان ماتيو يشعر بحرارة كلابو ازاء خاضرته . وكانوا
صامتين : كانت هذه آخر وجبة لهم ، وكانت مقدسة .
وقال دانديو : — عندنا «روم» ولكنه غير كثير : جرة واحدة لكل انسان .

- وأمرًا وتنكة ، ووضع كل منهم شفثيه حيث شرب الآخرون .
 وآنحنى بينيت على ماتيو .
 - أظنّ أنهم تبتنونا .
 - نعم .
 - ليسوا جماعة سيئين . لأنني أحتملهم جيداً .
 - وأنا ايضاً .
 واستقام بينيت في انتفاضة كبرياء ، وكانت عيناه تلتمعان .
 - كنا نكون شبيهين بهم ؛ لو كان لنا قائد .
 ونظر ماتيو الى وجوههم الثلاثة وهز رأسه .
 - أليس صحيحاً ما أقول ؟
 قال ماتيو : - ربما .
 وكانت قد مضت لحظة على بينيت وهو ينظر الى يدي ماتيو ؛
 وانتهى بان لامس مرفقه :
 - ما بك ؟ انك تنزف ؟
 فأخفض ماتيو عينيه على يديه : كان قد جرح ابهامه الايسر .
 وقال :
 - آه ، لا بدّ ان ذلك حدث بمفتاح العلب ، منذ لحظة .
 - وتركته ينزف ، ايها الثقيل ؟
 قال ماتيو : - لم أحسّ بشيء .
 فقال بينيت بلهجة توبيخ وافتتان :
 - آه ! ما عساك كنت تفعل ، لو لم أكن هنا !
 وكان ماتيو ينظر الى ابهامه ، دهشاً ان يكون له جسم : انه لم
 يكن يشعر بعدد شيء ، لا بطعم اللحم ، ولا بطعم الخمر ، ولا
 بالألم ، كنت أحسبني من ثلج . وضحك .
 - ذات مرة ، كان معي مدينة في مرقص ..

وتوقف . وكان بينيت ينظر اليه في دهشة :

— وماذا حدث ؟

— لا شيء . لاحظاً لي مع الآلات القاصّة .

قال كلابو : — هات يدك .

وكان قد اخرج من رزمته ملفاً من الشاش وزجاجة زرقاء . وسكبه المائع المحرق على ابهام ماتيو ولفه بالشاش . وحرك ماتيو الدميمة وتأملها مبتسماً : هذه العناية كلها للحؤول دون ان يسيل الدم قبل الاوان .

قال كلابو : — هكذا !

قال ماتيو : — هكذا !

واستشار كلابو ساعته :

— الى الفراش ، ايها الرفاق : سيحلّ منتصف الليل .

وأحاطوا به ، فقال وهو يلفت نظر دانديو الى ماتيو :

— ستقوم بالحراسة معه يا دانديو .

— حسناً .

وتمدد شاسيريو وبينيت وكلابو جنباً الى جنب على الفراشين . وأخرج دانديو غطاء من رزمته فألقاه على أجسامهم الثلاثة . وتمطى بينيت بشهوة ، وغمز ماتيو غمزة خبيثة وأسبل جفنيه .

وقال دانديو : — انا احرس من هنا ، وانت من هناك . فاذا

سمعت طلقات ، فلا تفعل شيئاً قبل ان تخبرني .

ومضى ماتيو الى ركنه فاستعرض الريف بعينيه ؛ وكان يفكر بأنه سيموت ، فيبدو له ذلك طريفاً . كان ينظر الى السقوف المظلمة ، وتلاؤو الطريق بين الأشجار الزرقاء وكسل هذه الأرض الفخمة غير المسكونة ويفكر : انني اموت من اجل لا شيء . وانبعث شخير ناعم فجعله ينتفض ، والتفت : فاذا النوم قد استغرق الافراد ؛ وكان

كلابو بيتسم للملائكة ، مغمض العينين ، منتعش الشباب ؛ وكان
بينيت بيتسم ايضاً . وانحنى ماتيو فوقه ونظر اليه طويلاً ؛ وكان
يفكر : « يا للخسارة ! » . وفي الجهة المقابلة من السطیحة ، كان
دانديو قد انحنى الى امام ، ويداه على مؤخرته ، في وضع حارس
مرمى . وقال ماتيو بصوت منخفض :

- هيه !

- هيه !

- أكنت حارس مرمى ؟

فالتفت اليه دانديو مندهشاً :

- وما ادراك بذلك ؟

- هذا واضح .

وأضاف :

- وهل كنت موفقاً ؟

- مع بعض الحظ ، كنت سأصبح محترفاً .

وتبادلا تحية صغيرة باليد ، وعاد ماتيو الى مركزه . وكان يفكر :
سأموت من أجل لا شيء . وأخذته الشفقة على نفسه . وذات لحظة ،
أصدت ذكرياته كأوراق الشجر تحت الريح . جميع ذكرياته :
كنت أحب الحياة . وكان سؤال حائر يكمن في جوف حلقه :
أكنت علي حق بأن اترك الرفاق ؟ واستقام . فاستند بكلتا يديه على
الافريز ، وهز رأسه في غضب « كفى ، كفى ! هم وشأنهم
ناولئك ، هم وشأنهم ، الجميع . لقد انتهى الندم ، والتحفظات ،
والتقييدات : ليس هناك من هو قاضي ، فليس ثمة من يفكر بي ،
بولن يكون هناك من يتذكرني ، ولا يستطيع أحد ان يقرر بدلاً مني .
ووقرر بلا ندم ، واعياً لكل الوعي . لقد قرر ، وفي اللحظة نفسها ،
تدحرج قلبه الموسوس المشفق من غضن الى غضن ؟ ولم يبق ثمة قلب

بعد : لقد انتهى . اني اقرر ان الموت كان المعنى السري لحياتي ،
وانني عشت لأموت ؛ اني اموت لأشهد بان من المستحيل ان يعيش
الانسان ؛ وسوف تظفيء عيني العالم وتغلقه الى الأبد .
وكانت الأرض ترفع نحو هذا المقبل على الموت وجهها المقلوب ،
وكانت السماء المقلوبة تسيل عبره بكل نجومها : ولكن ماتيو كان
يرصد ، من غير ان يتنازل لالتقاط هذه الهدايا اللامجدية .

الثلاثاء ١٨ حزيران ، الساعة ٥,٤٥

- لولا !

وأفاقت على اشمزاز ، ككل صباح ، وعادت تقيم ككل صباح
في جسمها القديم الفاسد .

- لولا ، هل تنامين ؟

قالت : - لا . كم هي الساعة ؟

- الخامسة وخمس واربعون .

- الخامسة وخمس واربعون ؟ وقد أفاق سارقي الصغير ؟ لقد

تغيروه لي .

قال : - تعالي .

ففكرت « لا . لا اريد ان يلمسني »

- بوريس ...

ان جسمي يثير اشمزازي ، فاذا لم يكن يثير اشمزازك ، فهذا
تدجيل ، انه فاسد ، وانت لا تعرف ذلك ، ولو كنت تعرفه
تلافتار نفورك .

- بوريس ، انني متعبة .

ولكنه كان قد أمسك بها من كفيها ؛ وكان يثقل عليها . اذك

انما « سوف تدخل في جرح » . حين كان يلمسني ، كنت أصبح غملاً . اما الآن ، فان جسمي تراب جاف ، وتحت أصابعه أتصدع وأنفتت ؛ انه يدغدغي . كان يمزقها حتى أعمق أعماق بطنها ، وكان يحرك في بطنها ما يشبه السكين ، وكان يسدو وحيداً ذا هوس ، حشرة ، ذبابة تصعد زجاجاً فتسقط ثم تصعد ثانية . ولم تكن تُحس ، إلا الوجع ؛ إنه يلهث ، وهو غارق في العرق ، انه يكابد اللذة ؛ في دمي يكابد لذته ، في ألمي . وفكرت : طبعاً ، انقضت ستة أشهر عليه بلا امرأة ؛ وهو الآن يضاجع كجندي في ماخور . وتحرك فيها شيء ما ، خفق أجنحة ، ولكن لا : لا شيء . والتصق بها ، وكان نهاها وحدهما يتحركان ، ثم ابتعد فجأة ، فأحدث نهذا لولا صوت محجم يُنزع عن اللحم ؛ وأخذتها الرغبة بان تضحك ، ولكنها نظرت الى وجه بوريس فزالت الرغبة ؛ وكان قد اتخذ هيئة قاسية متوترة ، إنه يضاجع كما يشمل المرء ، فلا شك في انه يريد ان ينسى شيئاً ما . وانتهى بان تداعى للسقوط عليها ، نصف ميت ، ولامست رقبتة وشعره بألية ؛ كانت باردة وهادئة ، ولكنها كانت تشعر بخفقات جرس كبيرة تصعد سريعة من بطنها الى صدرها : لقد كان ذلك قلب بوريس يخفق فيها . اني مسنة اكثر مما ينبغي ، مسنة جداً . وبدت لها هذه الرياضة الجسدية غريبة مضحكة ، فدفعته عنها على مهل .

— انسحب مني .

— ماذا ؟

وكان قد رفع رأسه ينظر اليها باندهاش ، فقالت :

— بسبب قلبي . انه يخفق أقوى مما يجب ، وانت تخفقني .

ويسم لها ، وانزلت عنها ، وظلّ نائماً على بطنه ، وجبينه في الوسادة ، وعيناو مغمضتان ، وفي زاوية فه ثنية غريبة . وتحاملت على مرفقها فنظرت اليه ، فاذا هيئته من شدة الألفة والاعتیاد بحيث لم تكن

تستطيع بعد ان تراقبه . ليس أكثر مما لو كان يدها بالذات ، اني لم احس شيئاً . أمس ، حين ظهر في الباحة ، جميلاً كفتاة ، لم احس شيئاً ، حتى ولا ذلك المذاق من الجمي في في ، حتى ولا ذلك الثقل الكثيف في بطني : كانت تنظر الى هذا الرأس الذي تألفه ألفة مفرطة وتفكر : اني وحييدة . يا للرأس الصغير ، الرأس الصغير الذي كانت تندرج فيه غالباً اسرار مرائية ، كم أخذته بين يديها وضمته ؛ كانت تهالك ، وتسأل ، وتبتهل ، وكانت تود لو تفتحه كرمانة وتلحس ما كان في داخله ؛ وفي النهاية ، كان السر يفلت ، فلا يكون ، كما في الرمان ، الا بعض ماء مسكر . كانت تنظر اليه في حقد ، وكانت تأخذ عليه انه لم يُحسن إثارتها ، وكانت تنظر الى ثنية فه المبريرة : اذا فقد مرحة ، فاذا يبقى له ؟ وفتح بوريس عينيه فبسم لها :

— كم انا مسرور ان تكوني هنا ، ايها العجوز المجنونة .
فبادلته بسمته : انا الآن من يكنُّ سرّاً ، وبوسعك ان تحاول ان تحملي على البوح به . ونهض فدفع الغطاء ونظر الى جسم لولا في تنبُّه ؛ ولامس نهديا بيد خفيفة ، فكانت تشعر بالانزعاج .
وقال : — عاج .

وفكرت في الحيوان القدر الذي كان يتكاثر في ليل لحمها ، فصعد الدم الى رأسها .

وقال بوريس : — اني فخور بك .

— لماذا ؟

— هكذا ! لقد جعلتُ الافراد ، في المستشفى ، ينقلبون على أقيمتهم .
فضحكت لولا ضحكة صغيرة :

— ألم يسألوك عما عساك تفعل مع هذه العجوز ؟ ألم يظنوني أمك ؟
فقال بوريس معاتباً : — لولا ...

وضحك ، وقد أجذله ذكرى ، فعادت الفتوة تفيض على وجهه .
- ما الذي يضحكك ؟

- انه فرانسويون . فان صاحبه مكونة تكويناً رائعاً ، وهي لما تبلغ
الثامنة عشرة ؛ ومع ذلك ، فقد قال لي : اذا اردت ، قمتُ بالمبادلة
على الفور .

قالت لولا : - انه مؤدب جداً .

وتسلت فكرة ، كالغيمة ، على وجه بوريس ، فاسودت عيناه ،
وكانت تنظر اليه من غير ودّ : طبعاً ، طبعاً ، إن لك همومك
كجميع الناس . لو كنت أطلعه على همومي : فماذا يفعل ؟ ما عساك
تفعل لو قلت لك : « ان في رحمي دملاً » ، ويجب ان اجري عملية ،
وقد تكون نتيجة ذلك ، بالنظر لعمرى ، سيئة جداً . « إنك إذن
ستفتح عينيك البغيتين ؛ وتقول لي : « هذا غير صحيح ! » فأقول
لك بلى ، فتقول ان هذا غير ممكن ، وان ذلك يُشفى جيداً بالعقاقير ،
والأشعة ، وأني واهمة . وسأقول لك : اني لم أعد الى باريس من
أجل المال ، وانما من اجل استشارة « لوغوبيل » وقد كان قاطعاً .
فتقول لي ان « لوغوبيل » حمار ، وليس هو الشخص الذي كان ينبغي ان
أتوجه اليه : وسوف تنكر وتحتج وتحرك رأسك بهيئة من هو مطارده ،
ثم ينتهي بك الأمر الى السكوت ، على ضيق شديد ، وستنظر إليّ
بعينين مكروئيتين طافحتين بالحقد . ورفعت ذراعها العارية وأمسكت
بوريس من شعره :

- هيا ؟ ايها الدجال الصغير ! ليد ! قل لي ما الذي تشكوه .

فقال بلهجة مزيفه : - كل شيء على ما يرام .

- انك تدهشني . فليس من عادتك ان تستيقظ في الخامسة صباحاً .

فردد بلا اقتناع :

- كل شيء على ما يرام .

— ارى ذلك . ان عندك ما تقوله لي ، ولكنك تريد ان أحملك على ان تلد .

فابتسم ووضع رأسه في إبط لولا ، فتشممه وقال :

— إن رائحتك لذيذة .

فهزّت كفتيها :

— وإذن ؟ هل تتكلم ام لا تتكلم ؟

فهزّت رأسه مسحوقاً . وصمتت ، واستلقت بدورها على ظهرها :
حسناً ، لا تتكلم ! فما عسى ذلك ان ينفعي ؟ إنه يحدثني ، ويضاجعني
ولكنني سأموت وحيدة . وسمعت بوريس يتنهد ، فأدارت رأسها اليه .
« وكان له فم حزين قاس لم تكن تعهده فيه . وفكرت بلا حاسة :
« حسناً سأهّم بأمرك . » كان لا بدّ من سؤاله ، وترصده ،
وتفسير هيئاته ، كما في العهد الذي كانت تغار فيه ، واجهاد
نفسها لتحمله على ان يعترف اخيراً بما كان يموت رغبة للاعتراف به
وجلست :

— حسناً ! أعطني الروبديشامبر وسيجارة .

— ولماذا الروبديشامبر ؟ انت هكذا أفضل .

— أعطني الروبديشامبر . انني أشعر بالبرد .

فنهض ، أسمر عارياً ، وأدار عينيه ، وتناول الروبديشامبر عند
قدم السرير فمدّه لها ، فارتدته : وتردد لحظة ، ثم انزلق في بنطاله
وجلس على كرسي .

وسألته : — هل وجدت عذراء ، وتريد ان تتزوج ؟

فنظر اليها بانشداه شديد ، حتى انها احمرت وقالت :

— حسناً ، حسناً .

وساد صمت قصير ، ثم استطردت :

— ما الذي تنوي ان تفعله إذن ، حين يسرحونك ؟

- قال - أتزوجك .
فتناولت سيكارة وأشعلتها ؛ وسألته :
- ولماذا ؟
- يجب ان أكون محترماً . وليس بوسعي ان آخذك الى
كاستيلنوداري اذا لم تكوني زوجتي .
- وماذا انت تفعل في كاستيلنوداري ؟
فقال في قسوة : - أكسب معيشتي . كلا ، بلا مزاح : سأكون
استاذاً في كلية .
- ولكن لماذا في كاستيلنوداري ؟
قال : - سترين ، سترين . ستكون كاستيلنوداري .
- وهل تعني انني سأدعى السيدة سرغين ، وسأضع قبعة لأذهب
فأرى زوجة مدير المدرسة ؟
قال بوريس : - إنه يدعى رئيساً . نعم . هذا ما ستفعلينه . وأنا
سألقي في آخر العام خطاب حفلة توزيع الجوائز .
فقالت لولا : - هكذا !
قال بوريس : - وستأتي ايفيش فتعيش معنا .
- انها لا تستطيع ان تطيقني .
- صحيح ، ولكن هذا هو الوضع .
- وهي التي تريد ؟
- نعم . انها مبعوضة جداً لدى أهل زوجها ، وهي تكاد تجنُّ
معهم ، حتى انك ستنكرينها اذ تربنها .
وساد صمت . وكانت لولا تراقبه من طرف عينها . وسألته :
- وهل رتبت كل شيء ؟
- نعم .
- واذا كان ذلك لا يروق لي ؟

قال : - اوه ، لولا ، فكيف تريدان ؟
قالت لولا : - لأنك تفكر طبعاً بأني سأكون دائماً مسرورة لمجرد
ان أعيش معك .

وحسبت شعاعاً بضياء في عيني بوريس ؛ وسألها بوريس :
- أليس ذلك صحيحاً ؟

قالت : - بلى ، صحيح . ولكنك دجال صغير ، وانت تبالغ
في الثقة بمفاتيحك .
وانظناً الشعاع ؛ كان ينظر الى ركبته ، وكانت لولا ترى فكيف
يتحركان .

وسألته : - وهل تروك ، تلك الحياة ؟
فقال بوريس بأنس : - سأكون دائماً مسروراً اذا استطعت ان
أعيش معك .

- كنت تقول انك تستفزع ان تكون استاذاً .
- ماذا تريدان ان افعل غير ذلك ، الآن ؟ (واضاف) سأشرح
لك الأمر : حين كنت اقاتل ، لم اكن أطرح على نفسي الأسئلة .
غير انني اتساءل الآن لأي شيء خلقت ؟
- كنت تريد ان تكتب .

- انني لم افكر بذلك قط بصورة جدية : فليس لدي ما أقوله .
انت تدركين ، كنت احسب اني سأبقى في الميدان ، فأخذتُ علي
حين غرّة .

فنظرت اليه لولا بتنبه :

- ايوسفك ان تكون الحرب قد انتهت ؟
قال بوريس : - انها لم تنته . فالانكليز يقاتلون ، وقبل مضي
سنة أشهر سيدخل الاميركيون الحلبة .
- على كل حال ، انتهت بالنسبة اليك .

- قال بوريس : - بالنسبة لي ، نعم .
وكانت لولا ما تزال تنظر اليه . وقالت :
- بالنسبة لي ، ولجميع الفرنسيين .
فقال في حماسة :
- لا بالنسبة للجميع ! إن هناك من هم في انكلترا ، وسيحاربون
حتى النهاية .
قالت لولا : - فهمت .
وسحبت نفساً من سيكارتها وألقت بالعقب على الأرض الخشبية .
وقالت بلطف :
- هل تملك الوسائل للسفر الى هناك ؟
فقال بوريس بلهجة اعجاب وعرفان :
- اوه ، لولا ! نعم ، نعم . املك الوسائل .
- اية وسائل ؟
- طائرة .
فرددت من غير ان تفهم :
- طائرة ؟
- بالقرب من مارينيان . هناك مطار صغير خاص ، بين تلتين .
وقد حطت فيه طائرة عسكرية منذ خمسة عشر يوماً ، لأنها كانت
مضطرة . وقد أصلحت الآن .
- لكنك لست طياراً .
- عندي اصدقاء طيارون .
- اي اصدقاء ؟
- هناك فرانسويون : الشخص الذي قدمته لك . ثم غاييل ، وتيراس .
- وقد اقترحوا عليك أن تذهب معهم ؟
- نعم .

— وماذا قلت ؟

فقال بسرعة : — لقد رفضت .

— صحيح ؟ الم تقبل بكل رضى وانت تقول لنفسك : سأمهّد

للعجوز قليلاً قليلاً ؟

قال : — لا .

وكان ينظر اليها بحنو . وكان نادراً ان يظهر بهاتين العينين المائعتين تقريباً : في الماضي ، كنت مستعدة لقتل نفسي من أجل نظرة كهذه .

وقال : — انت امرأة عجوز ومجنونة . ولكني لا أستطيع ان أتركك : فلن ترتكبي الا الحماقات اذا لم أكن هنا لأحملك على السير باستقامة .

قالت لولا : — وإذن ؟ متى نتزوج ؟

فقال بلامبالاة : — متى شئت . المهم ان نكون متزوجين عند بدء

الفصل الدراسي .

— بدء فصل الدراسي في ايلول ؟

— كلا : في تشرين الاول .

قالت : — حسناً . ان لدينا متسعاً مع الوقت .

ونهبضت وأخذت تذرّع الغرفة . وكان على الارض الخشبية أعقاب

ملطخة بالأحمر : وكان بوريس قد انحنى ليلمسها بيته بلهاء . وسألته :

— متى يسافر رفاقك ؟

وكان بوريس يصفّ الأعقاب بعناية على بلاط طاولة الليل ، فقال

من غير ان يلتفت :

— غداً مساء .

قالت : — أهذه السرعة ؟

— نعم : يجب ان يعجلوا .

— بهذه السرعة !

ومشت حتى بلغت النافذة ففتحتها : وكانت تنظر الى سواري قوارب الصيد المهترزة ، والى الارصفة الخالية ، والى السماء الوردية وتفكر : غداً مساء . وكان ثمة قلس واحد بعد ينبغي ان يقطع ، قلس واحد . وحين يقطع القلس ، سوف تلتفت ، وفكرت : فليكن غداً مساء بدلاً من يوم آخر . وكان الماء يحرك بهدوء موجاته الفجرية ، وسمعت لولا في البعيد صفارة سفينة ، وحين احست انها أصبحت حرة تماماً ، التفت اليه ، وقالت :

— اذا اردت ان تذهب ، فلست انا التي أحول بينك وبين ذلك . وكانت العبارة قد خرجت بمشقة وجهه ، ولكن لولا كانت تشعر الآن بالفراغ والعزاء . كانت تنظر الى بوريس ، وتفكر ، من غير ان تعرف السبب : يا للفتى المسكين ، يا للفتى المسكين ، وكان بوريس قد نهض فجأة ، فأقبل عليها وأمسك بذراعها :

— لولا .

قالت : — انك توجعي .

فتركها : ولكنه كان ينظر اليها نظرة ارتياب .

— إن ذلك لن يعود عليك بالهم ؟

فقالت بصوت متعقل : — بلي ، سيشق علي ذلك ، ولكنني افضل

ذلك علي ان تكون استاذاً في كاستيلنوداري .

فبدا مطمئناً بعض الاطمئنان ، وسألها :

— انت ايضاً ، لا تستطيعين ان تعيشي فيها ؟

قالت : — نعم . انا ايضاً لا أستطيع .

وكان يحني كتفيه ويتهاكك بذراعيه ؛ للمرة الاولى في حياته ، كان

يبدو مرتبكاً بحسمه . وحدث له لولا ان لا يظهر فرحه . وقال :

– لولا !

ومد يده فأراحها علي كتف لولا ، فكانت بها رغبة لأن تنزع هذه اليد عن كتفها ، ولكنها تماكنت نفسها . كانت تحسن بثقل يده ، وبأنه كفّ عن ان يكون لها ، فقد كان في انكلترا الآن ، وقد ماتا ، كل من جهته .

وقال بصوت راجف :

– لقد سبق ان رفضت ، لو تعلمين ، لقد رفضت ،

– أعرف ذلك .

قال : – انني لن اخونك . لن انام مع أحد .

فابتسمت :

– يا لصغيري المسكين !

وكان وجوده في تلك اللحظة « زائداً عن اللزوم » . فقد كانت

تود لو تكون الآن في مساء اليوم التالي . وضرب جبينه فجأة :

– خراء !

فسألته : – ماذا هناك بعد ؟

– انني لن اذهب ! لا استطيع ان اذهب !

– لماذا ؟

– ايفيش ! لقد قلت لك انها كانت تريد ان تعيش معنا .

فقالت لولا غاضبة : – اسمع يا بوريس ! اذا لم تبق من أجلي ،

فأمنعك ان تبقى من أجل ايفيش .

ولكن ذلك كان غضباً « سابقاً » ما لبث ان انطفأ . وقالت :

– سأهمّ بأمر ايفيش .

– أتأخذينها معك ؟

– ولم لا ؟

– ولكن احدا كما لا تطيق الأخرى .

قالت لولا : - وماذا يمكن لذلك ان يُنتج ؟
وكانت تحس بتعب فظيع ، فقالت :
- ارتد ثيابك ونم ، فسوف تُلتحق بنفسك الأذى .
وتناول منشفة واخذ يدلك صدره . وكان يبدو مشدوهاً . وفكرت :
هذا طريف : لقد قرر الآن حياته كلها . وجلست على السرير ،
وكان يدلك نفسه بقوة ، ولكنه ظل متجهماً . وسألته :
- ماذا هناك بعد ؟

قال : - كل شيء على ما يرام . ولكن كم نزلت من العرق !
ونهضت على مشقة ، فأمسكته من خصلته ورفعت له رأسه :
- انظر إلي ؛ ماذا هناك بعد ؟

فصرف بوريث عينيه :

- انني أجدك غريبة .

- لماذا غريبة ؟

- لا اراك غاضبة لذهابي كما كنت أتوقع . وهذا ما يصدمني !
فرددت لولا : - هذا ما يصدمك ؟ هذا ما يصدمك ؟
وانفجرت ضاحكة .

دمدم ماتيو وجلس ، ثم حك رأسه . وكان ديك يغني ، وكانت
الشمس حارة جذلة ، ولكنها كانت ما تزال منخفضة .

قال ماتيو : - الطقس جميل .

فلم يجب احد : كانوا جميعاً راكعين وراء الافريز . ونظر ماتيو
الى ساعته فرأى انها كانت السادسة : وسمع هديرأ بعيداً ومتعدداً ،
فركع على ركبتيه وانضم للرفاق :
- ما هذا ؟ طائرة ؟

— لا : أنهم هم ، فرقة المشاة الآلية .
فارتفع ماتيو فوق اكتافهم ، فقال كلابو :
— حذار ! تخفّ جيداً ، فإن معهم مناظر .

وكانت الطريق ، على بعد مئتي متر قبل البيوت ، تنعطف نحو
الغرب ، وتختفي خلف رابية معشبة ، وتنساب بين ابنية المطحنة العالية
التي كانت تقنعها ، لتأتي فتحاذي القرية بشكل مائل ، في اتجاه الجنوب
الغربي . ورأى ماتيو ، في البعيد البعيد ، سيارات كانت تبدو ثابتة ،
ففكر : « أنهم الألمان ! » واصابه الخوف ، خوف غريب ، يكاد يكون
دينيا ، نوع من الرعب المقدس . كانت الاف العيون الاجنبية تلتهم
القرية ، عيون رجال فوق الرجال ، وحشرات . وغمرت ماتيو
بدهية فظيعة :

« سوف يرون » جثتي .

وقال بالرغم عنه :

— سيكونون هنا بعد دقيقة .

فلم يجيبوا . وبعد لحظة ، قال دانديو بصوت ثقيل بطيء :

— لهم نطلق النار وقتاً طويلاً !

قال كلابو : — الى الخلف .

فراجعوا وجلسوا هم الاربعة على فراش . لكان شاسيريو ودانديو
خوختان متشابهتان ، وكان بينيت قد اخذ يشبههما : كانت لهم جميعاً
السحنة المتربة نفسها والعيون الكبيرة العذبة التي لا جوف لها : وفكر
ماتيو : « ان لي هاتين العينين الوعليتين . » وكان كلابو قد تداعى
للسقوط على عقبيه ، فأخذ يحدّثهم من فوق كتفه :

— سوف يتوقفون عند مدخل القرية ، وسيرسلون عيوناً للاستطلاع

فحذار ان تطلقوا عليهم .

وتنأب شاسيريو ، وهذه الثاؤبة نفسها ، اللذيذة كالغنيان ، كانت

تفتح فم ماتيو . وحاول ان يقاوم الضيق وان يحرق نفسه بالغضب ، فقال في نفسه « اننا مقاتلون ، ولسنا ضحايا ! » ولكن ذلك لم يكن غضباً « حقيقياً » . وتشاءب من جديد ، وكان شاسيريو ينظر اليه في ود ، وقال :

– البداة قاسية ، وفيما بعد ، سيتحسن الوضع .
واستدار كلابو على نفسه وجلس القرفصاء تجاههم ، وقال لهم :
– ليس هناك الا امر واحد : الدفاع عن المدرسة ودار البلدية ، فيجب الا يقتربوا منهما ، والرفاق تحت هم الذين سيعطون الاشارة ، فما ان يبدأوا بالاطلاق ، حتى تطلقوا كما تشاءون . وتذكروا : لن يكون دورنا الا دور حماية ، ما استطاعوا ان يقاتلوا .
وكانوا ينظرون اليه بهيئة وادعة مجدة . وسأل بينيت :

- وبعد ذلك ؟

فهز كلابو كتفيه وقال :

– اوه ! بعد ذلك ..

قال دانديو : – لا اعتقد اننا سنقاوم طويلا .

– لا نستطيع ان نعرف . من المرجح ان يكون معهم مدفع للمشاة . فيجب ان نحاول منعهم من تركيزه . سنواجه مصاعب ، ولكن اذا وجدت هذه المصاعب ، فستكون لهم ايضاً ، لان الطريق والساحة يكوّنان زاوية .

وعاد يركع على ركبتيه ، وزحف حتى الافريز . كان يراقب الريف مخبئاً وراء عمود .

– دانديو ؟

– نعم ؟

– تعال .

واوضح من غير ان يلتفت :

— كلا يا داندو ، سنأخذهم مواجهة ، وانت يا شاسيريو قف الى اليمين ، ودولارو الى اليسار . وانت يا بينيت ، ستنتقل الى الجهة الاخرى ، اذا انعطفوا حولنا .

وسحب شاسيريو فراشاً الى الغرب ، فأسنده الى الافريز ، واخذ ماتيو الغطاء ، فتداعى للسقوط فوقه علي ركبتيه . وكان بينيت يقول في غضب :

— انني أريهم ظهري ، هؤلاء الملعونين .

قال شاسيريو : — اراك تشكو . ستكون الشمس في صميم وجهي . وكان ماتيو ملتصقاً بالعمود ، ودار البلدية تجاهه ، فكان اذا انحنى قليلا الى اليمين يستطيع ان يرى الطريق . اما الساحة ، فكانت حفرة ظل سامة ، شركا : وكان يؤذيه ان ينظر اليها . وكانت عصافير تغني في شجر الكستناء .

— حذار !

فأمسك ماتيو نفسه : كان راكبا دراجتين اسودان يرتديان قبعتين يدلغان الى الشارع ، فارسان من فرسان ما فوق الطبيعة : وحاول عبثا ان يتميز وجهيهما : فانه لم يكن لهما وجهان . قامتان دقيقتان ، اربع سيقان طويلة متوازية ، رأسان اسودان املسان ، لا عينان فيهما ولا فم . وكانا يسيران بتقطعات آلية ، وفي كبرياء صلبة تشبه كبرياء الاشخاص الالبيين الذين يتقدمون تحت وجه الساعات القديمة حين تدق الساعة . وكانت الساعة على وشك ان تدق .

— لا تطلقوا النار !

وقامت الدراجتان بدورة الارض وهما تضرطان ، ولم يتحرك شيء . باستثناء بعض عصفور الدوري الذي تطاير : كانت تلك الساحة المزورة تظهر بمظهر الموت وكان ماتيو يفكر ، مسحوراً : « انهم ألمان » . وارتدا الى مقربة من دار البلدية ، ومرا تحت ماتيو تماماً فرأى ايليهما

الضخمة الجلدية ترتجف على المقودين ، ودلغا الى الشارع الكبير . وبعد لحظة ، عادا الى الظهور ، مستقيمين ، مركزين فوق سرجيهما المترجرين ، ثم عادا بسرعة الى الطريق الذي جاء منه . وكان ماتيو مسروراً ان كلابو قد منعهم من الاطلاق : فقد كانا يريدان له غير قابلين للمرح . وتطايرت العصافير مرة اخرى ، ثم اندست بين الاوراق . وقال كلابو : - جاء دورنا .

وأنت فرملة ، واصطفقت ابواب ، وسمع ماتيو اصواتاً وخطى . فسقط في اثمزاز يشبه النعاس : كان عليه ان يجالسد ليُبقي عينيه مفتوحتين ، وكان ينظر الى الطريق عبر جفنيه نصف المغلقين ، ويشعر بنفسه ميالاً للمصالحة ؛ اذا هبطنا ونحن نلقي بناقنا ، فسيحيطون بنا ، وربما قالوا لنا : « ايها الاصدقاء الفرنسيون ، لقد انتهت الحرب . » وكانت الخطى تقترب ، انهم لم يفعلوا لنا شيئاً ، وهم لا يفكرون بنا ، ولا يريدون بنا شراً . وانغمض عينيه تماماً : ان الحقد سيتدفق حتى يبلغ السماء . سيرون جثتي ، وسيركلونها باقدامهم . ولم يكن يخاف ان يموت ، وانما كان يخاف الكراهية والحقد .

انتهى الامر ! وطقّ الطلق شديداً في اذنيه ، ففتح عينيه : فاذا الشارع خال صامت ، وحاول ان يصدق انه حلم . فان احداً لم يطلق ..

وتتم كلابو : - يا للحمقى !

فانقبض ماتيو : - اي حمقى ؟

- افراد دار البلدية ، لقد تعجلوا اطلاق النار ، لا بد ان في الهواء اصوات انفجار ، والا لتركوهم يجيئون .

وتطلع ماتيو في مشقة الى الطريق ، وانزلت نظره على البلاط ، وعلى ادغال من العشب بين البلاط ، حتى زاوية الشارع . لا احد . الصمت . « انها قرية في شهر آب ، فالرجال في الحقول . » ولكنه كان يعلم انهم كانوا يمتنعون موته فيما وراء هذه الجدران : انهم يعملون على

ان يلحقوا بنا اكبر اذى ممكن . وغرق في الحنو ، كان يحب جميع الناس : الفرنسيين ، الالمان ، هتلر . وفي حلم دبق ، سمع صرخات ، تبعها انفجار عنيف وتكسر زجاج ، ثم تابعت اصوات الانفجار . وشنَّج يده على قبضة بندقيته ليحول دون سقوطها .

قال كلابو بين اسنانه : - ان مدى القنبلة اقصر مما ينبغي .

وكانت الطلقات تتوالى دون انقطاع ، وكان الالمان قد اخذوا يطلقون ، وانفجرت قنبلتان اخريان . ليت هذا يمكن ان يتوقف دقيقة لأتنفس ، ولكن الطلقات كانت مستمرة ، والانفجارات تتزايد ، وفي رأسه كانت عجلة مخرمة تدور بسرعة متنامية : وكانت كل تخريمة طلقة نارية ، يلعن دين ! واذا كنت ، فوق هذا كله ، جباناً ! والتفت فنظر الى رفاقه : كان كلابو ودانديو يراقبان مقرفين علي اعقابهما ، ممتعين ، وعيونهما تلمع في قسوة . وكان بينيت مولياً ظهره ، متصلب الرقبة ، وكانت كتفاه تقفزان ، فكأنه كان في رقصه ، او في ضحك جنوني . واحتفى ماتيو بالعمود ، واطل بحذر . ونجح في الاحتفاظ بعينييه مفتوحتين ، ولكنه لم يستطع ان يقسر نفسه على لفت رأسه نحو دار البلدية : كان ينظر الى الجنوب القاحل الهاديء ، وكان يفر نحو مارسيليا ، نحو البحر . وحدث انفجار جديد تبعته تدحرجات جافة على احجار برج الاجراس . فحملق ماتيو بعينييه ولكن الطريق كانت تجري تحته باقصى سرعتها ، فالاشياء تنسرب وتنسرب وتترلق وتختلط وتبتعد ، فكأن ذلك حلم ، وكانت الحفرة تنحفر وتجذبه ، كان ذلك حلماً ، وكانت عجلة النار تدور وتدور كعجلة باعة الحلويات الناعمة ، وكان موشكاً على ان يستيقظ في سريره حين لمح ضفدعاً يزحف نحو المعركة . ونظر ماتيو لحظة الى هذا الحيوان المسطح في غير اكراث ، ثم اصبح الضفدع رجلاً ، وكان ماتيو يرى بوضوح مدهش ثنيتي رقبته الحليقة ، وسترته الخضراء ، ونطاقه وحذاءه

الطري الاسود . « لا بد انه قام بالدورة عبر الحقول ، وها هو يزحف الآن باتجاه البلدية ليلقي قبيلته . » وكان الالماني يزحف على مرفقيه وركبتيه ، وكانت يده اليمنى التي كان يرفعها في الهواء تشد عصاً تنتهي باسطوانة معدنية في شكل مرجل . وقال ماتيو : « ولكن ، ولكن ... » وتوقفت الطريق عن الجري ، وجمدت العجلة ، وقفز ماتيو على قدميه ، وركز بندقيته على كتفه ، وقست عيناه : كان واقفاً كثيفاً ، في عالم يتكون من شديدي الاسر ، وهو يمسك عدواً في طرف انبوب بندقيته ، ويصوب بهدوء الى جبينه . وقهقه قهقهة ترفع قصيرة : ان الجيش الالماني العظيم ، جيش الرجال الذين هم فوق الرجال ، جيش الجراد ، انما كان هذا الشخص المسكين ، الذي يبعث على الرأفة لفرط ما هو مخفي ، والذي كان يستغرق في الخطأ وفي الجهل ، والذي كان منهمكاً انهماك صبي مضحك ، ولم يكن ماتيو ليعجل ، كان يحدج صاحبه بفضول ، وكان لديه متسع من الوقت : ان الجيش الالماني « قابل للجرح » . واطلق ، فقام الرجل بقفزة غريبة على بطنه وهو يرمي ذراعيه الى امام ، فكان يشبه من يتعلم السباحة ، واطلق ماتيو مرة اخرى ، وقد اهبجه ذلك ، فانتفض الرجل المسكين باعين او ثلاثة وهو يترك القبلة التي تدرجت على الطريق من غير ان تنفجر . انه الآن هاديء ، مضحك ، لاخطر منه ، ميت ، وقال ماتيو بصوت منخفض : « لقد هدأته ، لقد هدأته . » وكان ينظر الى الميت ويفكر : « انهم كسائر البشر » وكان يحس بنفسه قوياً نشيطاً .

وحطت يد على كتفه : كان كلابو قد اتى ينظر الى عمل الهاوي . وتأمل الحيوان الميت وهو يهز رأسه ، ثم التفت :

— شاسيريو !

فجر شاسيريو نفسه على ركبتيه حتى بلغهما ، فقال كلابو :

– راقب قليلا من هنا .

فقال ماتيو متضايقاً :

– لست بحاجة الى شاسيريو .

قال كلابو : – سيأتون لآخذه ، فاذا كان عددهم كبيراً ،

تغلبوا عليك .

وانطلق صوت رشاش ، فرفع كلابو حاجبيه ، وقال وهو يعود

الى مركزه :

– هيه ! لقد بدأ الاطلاق جدياً .

والتفت ماتيو الى شاسيريو ، وقال في حيوية :

– حسناً ! اظن اننا نحدث للامان مصاعب .

فلم يجب شاسيريو ، كان يبدو ، ثقيلًا ، خاماً ، شبه نائم ، وسأله

ماتيو متزعجاً :

– الا ترى كم هم بطيئون ؟ كنت احسب انهم سيصفقون حسابنا

في ضربتي ملققة !

فتأمله شاسيريو في دهشة ، ثم نظر الى ساعة يده ، وقال :

– لم تنقض ثلاث دقائق على مرور الدراجات .

فانحسر هياج ماتيو ، واخذ يضحك . لقد حاول طوال اعوام ان

يعمل ولكن عبثاً : فقد كانت افعاله تُسرق منه بالتالي . اما هذا العمل ،

فلم يسرق منه شيء علي الاطلاق . لقد ضغط على الزناد ، فحدث شيء

ما ، في هذه المرة ، وفكر وهو يزداد ضحكاً : شيء حاسم . وكانت

اذنه مثقوبة بالانفجارات والصراخ ، ولكنه كان لا يكاد يسمعها ، كان

ينظر الى ميتة في رضى ، وكان يفكر : « يلعن دين ! لقد احس

به يمر . لقد فهم ، ذاك ، لقد فهم ! » ميتة « هو » ، عمله « هو » ،

اثر مرور « هو » على الارض ، واخذته الرغبة بان يقتل آخرين :

كان ذلك مسلياً وسهلاً ، كان يريد ان يُغرق المانيا في الحديد .

— حذار !

كان شخص يزحف بجذء الجدار ، وفي يده قنبلة ، وصوب ماتيو على هذا الكائن الغريب المرغوب فيه ، وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة .

— خراء !

لقد اخطأه . وانطوى الشيء على نفسه ، فاصبح رجلا تائهاً ينظر فيما حوله من غير ان يفهم ، واطلق شاسيريو ، فتمدد الرجل كأنه زنبك ، وانتصب ، فقفز في الهواء وهو يطوي ذراعه ، وقذف قنبلته ، ثم انهار على ظهره في وسط الشارع . وفي اللحظة نفسها ، تطايرت الواح زجاج ورأى ماتيو ، في نهار ممتقع باهر ، اشباحاً تتلوى في الطابق الاسفل من دار البلدية ، ثم عاد الليل ، وكانت سمادير صفراء تنسحب في عينيه ، وكان غاضباً على شاسيريو ، وردد :

— خراء ! خراء ! خراء !

قال شاسيريو : — لا تحزن ، فقد اخطأ هدفه على كل حال : ان الرفاق في الطابق الاول .

وكان ماتيو يطرف بعينيه وينفض رأسه ليتخلص من السمادير الصفراء التي كانت تبهره . وقال :

— حذار ! انني اعمى .

قال شاسيريو : — سيزول ذلك ، يلعن دين ! انظر الى الشخص الذي رميته ، انه يحرك ساقيه .

فاطل ماتيو ، وكانت قد تحسنت رؤيته ، فاذا الالماني الملقى على ظهره ، مفتوح العينين على سعتها ، يحرك ساقيه ، وركز ماتيو البندقية على كتفه فقال شاسيريو :

— هل انت مجنون ؟ لا تبذر طلقاتك !

فأراح ماتيو بندقيته في كزازة . وفكر : « ربما استطاع هذا الفرج ان ينجو بنفسه . »

وانفتح باب البلدية على سعته ، وظهر شخص على العتبة ، فتقدم
بجلاء . وكان عارياً حتى النطاق : لكأنه رجل مسلوخ . وكانت
تمتدلى من خديه الاحمرين اللذين يبدوان كأنهما منحوتان ، برايات من
اللحم . واخذ فجأة يصرخ ، فانطلقت عشرون بندقية في وقت واحد ،
فتهاوى ، وهوى بانفه ثم سقط على درجات الحاجز .

وقال شاسيريو : - انه ليس من فرقنا .

فقال ماتيو بصوت يخنقه الغضب :

- كلا ، بل هو من فرقنا ، واسمه لاتيكس .

وكانت يدها ترتجفان ، وكانت عيناه تؤلمانه ، وكان يردد

بصوت مبسوح :

- كان يدعى لاتيكس . وعنده ستة اولاد .

ثم انحنى فجأة ، فصوب الى الجريح الذي كانت عيناه الكبيرتان
تبدوان وكأنهما تنظران اليه :

- ستدفع الثمن ، ايها القدر .

قال شاسيريو : - انت مجنون . قلت لك ألا تبذر طلقاتك .

قال ماتيو : - حلّ عن ديني !

ولم يكن يعجل في الاطلاق : اذا رأيته ، هذا القدر ، فسيكون
في وضع شاق ، وكان يصوب على رأسه ، واطلق : فانفجر الرأس ،
ولكن الرجل ظل يحرك رجليه .

وصاح ماتيو : - قدر ! قدر !

- حذار ! يلعن دين ! حذار ! الى اليسار !

وكان خمسة المان أو ستة قد ظهروا ، فأخذ شاسيريو وماتيو يطلقان ،
ولكن الالمان كانوا قد غيروا خطتهم . كانوا يقفون واقفين ، مخنفيين
في الزوايا ، وكأنهم ينتظرون . وقال شاسيريو :
- تعال يا كلابو ! يا دانديو ! لقد تكاثروا .

قال كلابو : - لا استطيع .

فصاح ماتيو : - بينيت !

فلم يجب بينيت ، ولم يجرؤ ماتيو على الالتفات .

- حذار !

كان الالمان قد اخذوا يركضون ، واطلق ماتيو ، ولكنهم كانوا

قد عبروا الشارع ، وصاح بهم كلابو من مكانه :

- عجباً ! ان هناك الماناً تحت الاشجار في هذه الساعة ، فن

تركهم يعمرون ؟

فلم يجيبوا ، كانت ثمة تحركات تحت الاشجار . واطلق شاسيريو

على هواه .

- سيكون مستحيلاً ان نخرجهم من اماكنهم .

وكان افراد المدرسة قد اخذوا يطلقون ، وكان الالمان يجيبونهم ،

وهم في مخابثهم خلف الاشجار . وكفت البلدية عن اطلاق النار بتاتاً .

وكان الشارع يصعد الدخان ببطء ، على مستوى الارض .

وصاح كلابو : - لا تطلقوا في الاشجار ، فسيكون ذلك باروداً

ضائعا .

وفي اللحظة نفسها ، انفجرت قنبلة على واجهة البلدية ، في مستوى

الطابق الاول ، وقال شاسيريو : - انهم يتسلقون الاشجار .

فقال ماتيو : - اذا تسلقوا الاشجار ، سهل علينا اصطيادهم .

وكان نظره يحاول ان يحرق الاوراق ، ورأى ذراعاً ترتفع فأطلق .

ولكن ذلك بعد قوات الاوان : لقد انفجرت البلدية ، فانترعت

نوافذ الطابق الاول ، ومن جديد ، اعماه ذلك النور الاصفر الفظيع ،

واطلق كيفما تأتي له : فسمع ثماراً ضخمة ناضجة تتدحرج من غصن

لغصن ، ولم يكن يعلم ان كان الاشخاص يسقطون ام يهبطون .

قال كلابو : - لقد كفت البلدية عن الاطلاق .

وارهفوا آذانهم ، ممسكين انفسهم ، كان الالمان ما يزالون يطلقون
ولكن البلدية لم تكن تجيب . وارتعش ماتيو ، ماتوا ، قطع من اللحم
الدامي فوق ارض مبعوجة ، في قاعات فارغة .

وفجأة ، خرجت من نوافذ الطابق الاول دوامات دخان ، وتميز
ماتيو ، عبر الدخان ، لهما احمر واسود . واخذ احدهم يصيح في
دار البلدية ، وكان صوتاً حاداً ابيض ، صوت امرأة . واحس ماتيو
فجأة انه سيموت . وأطلق شاسيريو النار .

وقال له ماتيو : - انك مجنون ، هأنت الآن تطلق على دار
البلدية ، انت الذي تأخذ علي ان ابذر الطلقات .

وكان شاسيريو يصوب على نوافذ البلدية ، واطلق ثلاث مرات في
اللهيب ، وقال :

- انه هذا الذي يزعق ، لا استطيع بعد ان اسمعه .

قال ماتيو : - ما يزال يزعق .

وكانا يصغيان ، مثلوجين ، وضعف الصوت .

- انتهى .

ولكن الصرخات ما لبثت ان عادت بصورة اقوى ، وكانت
لا انسانية ، كانت اصداء هائلة ضخمة تزداد حدة وثقوباً. واطلق ماتيو
بدوره على النافذة ، ولكن بلا جدوى .

قال شاسيريو : - انه لا يريد ان يموت .

وفجأة انقطع الصراخ ، فقال ماتيو :

- أف !

قال شاسيريو : - انتهى . مات . سُوي .

ولم يكن ثمة بعد ما يتحرك ، لا تحت الشجر ، ولا في الشارع ،
وكانت الشمس تذهب مثلث دار البلدية الملتهب . ونظر شاسيريو الى
ساعته . فقال :

— سبع دقائق ،
وكان ماتيو يتلوى في اللهب ، انه لم يكن بعد الا حرقاً ، وكان
يخنتق ، ووجب عليه ان يشد يديه على صدره ويهبط بهما رويداً حتى
يظنه ، ليتأكد من انه كان سليماً . وقال كلابو فجأة :

— هناك جنود على السقوف .

— على السقوف ؟

— تجاهنا تماماً . انهم يطلقون على المدرسة ، خراء ! هكذا اذن !
— ماذا !

— انهم ينصبون رشاشاً ، (وصاح) بينيت !

فانزلق بينيت الى الخلف .

— تعال الى هنا ! ان افراد المدرسة سيتعرضون للقتل .
وانحنى بينيت على اربع : وكان ينظر اليهم بهيئة غائبة ، وكان
وجهه رمادياً .

وسأل ماتيو : — هل تشكو شيئاً ؟

فقال بجفاء : — الامور على أحسن ما يرام .

وجر نفسه نحو كلابو ، وركع .

قال كلابو : — اطلق ، اطلق في الشارع لتشلغهم ، اما نحن ،

فستتولى امر الرشاش .

واخذ بينيت يطلق ، من غير ان يقول كلمة . فقال كلابو :

— اطلق بطريقة افضل ، يلعن دين : ان الانسان لا يطلق ،

وعيناه مغمضتان .

فارتعش بينيت وبدا وهو يبذل جهداً عنيفاً على نفسه ، فعاود
خديه بعض الاحمرار ، وصوب وهو يحملق بعينيه ، وكان كلابو
ودانديو ، الى جانبه ، يطلقان بلا انقطاع ، ثم اطلق كلابو صيحة
انتصار :

— حسناً ! حسناً ! لقد اغلق الرشاس فه .

وارهف ماتيو اذنه : لم يكن يُسمع شيء بعد ، وقال :
— نعم ، ولكن الرفاق لا يطلقون بعد .

كانت المدرسة صامتة ، واجتاز الطريق ركضا ثلاثة ألمان كانوا قد
اختبأوا تحت الاشجار وارتموا على باب المدرسة فانفتح . ودخلوا ، ثم ظهروا
بعد لحظة مطلين من نوافذ الطابق الاول ، يصرخون ويأتون بالحركات .
واطلق كلابو ، فاخفتوا ، وبعد لحظات ، سمع ماتيو ، للمرة الاولى
منذ الصباح ، ازيز رصاصة ، ونظر شاسيريو الى ساعته :
— عشر دقائق .

قال ماتيو : — نعم ، انها بداية النهاية .

كانت البلدية تحترق ، وكان الالمان يحتلون المدرسة : فكأن فرنسا
هُزمت مرة اخرى .

— اطلقوا ، يلعن دين !

وكان بعض الالمان قد ظهروا ، حذرين ، في مدخل الشارع الكبير
واطلق شاسيريو ، و كلابو : فاخفتت الرؤوس .
— لقد اهدوا الى مكاننا ؛ هذه المرة .

وعاد الصمت من جديد ، صمت طويل ، وفكر ماتيو : « ماذا
تراهم يُعدّون ؟ » في الشارع الخالي ، كان ثمة اربعة قتلى ، وعلى
بعد قليل ، اثنان آخران : هذا كل ما استطعنا ان نفعله . اما
الآن ، فيجب ان ننجز مهمتنا : ان نُقتل . وبالنسبة اليهم ، ماذا
يشكل ذلك ؟ عشر دقائق تأخير عما هو مقرر .

وقال كلابو فجأة : — عليهم !

كان شيطان صغير كثيف يجري نحو الكنيسة ، وكان يلتمع في
الشمس ، وقال دانديو بين اسنانه :

– « شلفوراكنون » .

وزحف ماتيو نحوهم . كانوا يطلقون ، ولكن لم يكن يُرى احد ، وكان يبدو ان المدفع يسير من تلقاء نفسه . كانوا يطلقون ارضاء لضائرتهم ، لانه كان ثمة بعد طلقات ، وكانت لهم وجوه جميلة هادئة ومتعبة ، وجوههم الاخيرة .

– الى الورا !

وبدا فجأة الى شمال المدفع رجل يرتدي قيصاً بنصف كم ، ولم يكن يسعى للاحتواء بشيء ، بل كان يصدر اوامره في هدوء ، وهو يرفع ذراعه . وانتصب ماتيو بغتة : كان هذا الرجل القصير ذو العنق العارية يُلهبه رغبة .

– الى الورا ، وعلي بطونكم !

وارتفع فم المدفع في هدوء ، ولم يكن ماتيو قد تحرك : كان علي ركبتيه يصبّ ناره على نائب الضابط ، وصاح به كلابو :
– هل سمعت امري ؟

فدمدم ماتيو : - اسكت !

واطلق ، فصددم مقبض بندقيته كتفه ، وحدث انفجار هائل كأنه صدى مضخم لطلقة بندقيته ، ورأى لوناً احمر . ثم سمع ضجة تمزّق ، طويلة ، مائعة .

قال كلابو : – أخطأوا الهدف ، لقد صوّبوا اعلى مما ينبغي .

وكان نائب الضابط يتخبط ، وساقاه في الهواء . وكان ماتيو ينظر اليه وهو يبتسم . وكان يوشك ان يجهز عليه حين بدا جنديان فحملاه ، وزحف ماتيو القهقري ، واتى يتمدد بالقرب من دانديو ، وكان كلابو قد بدأ برفع باب السقف .

– عجلّوا ، لنهبط !

فهز دانديو رأسه :

- تحت ، ليس ثمة من نوافذ .
وتبادلوا النظر ، وقال شاسيريو :
— اننا لا نستطيع ان ندع الطلقات تذهب هدرا .
— وهل بقي معك منها كثير ؟
— مشطان .
— وانت ، يا دانديو ؟
— مشط واحد .
فعاد كلابو يغلط باب السقف ، وهو يقول :
— انت علي حق ، لا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .
وسمع ماتيو خلفه نفساً أبج ، فالتفت : كان بينيت قد امتقع
حتى الشفتين وكان يتنفس بمشقة .
— هل انت مجروح ؟
فنظر اليه بينيت نظرة قاسية :
— لا .
ونظر كلابو الى بينيت بتنبه :
— اذا اردت ان تهبط ، يا صغيري ، فلست مجبرا علي البقاء ،
ليس ثمة من هو مدين لاحد بشيء . انها كما تعلم طلقاتنا . ولا نستطيع
ان ندعها تذهب هدرا .
قال بينيت : — خراء اذن ! ولماذا تراني اهبط ، اذا لم يهبط
دولارو ؟ .
وزحف حتى الافريز ، واخذ يطلق .
وصاح ماتيو : — بينيت !
فلم يجب بينيت . وكان الرصاص يصفر فوقهم ، وقال كلابو :
— دعه وشأنه . فان هذا يشغله .
واطلق المدفع طلقتين متتاليتين ، فسمعوا صدمة قاسية فوق رؤوسهم ،
وانفصل عن السقف وابل مع احجار الجبس ، وسحب شاسيريو ساعته :

— اثنتا عشرة دقيقة .

وزحف ماتيو وشاسيريو حتى الافريز . وجلس ماتيو القرفصاء ، بالقرب من بينيت ، وكان شاسيريو ، الى يمينه ، واقفاً منحنيًا الى امام . وقال شاسيريو :

— لا بأس بها ، اثنتا عشرة دقيقة حتى الآن . لا بأس بها . وهبت الريح وأنت وصفعت ماتيو على وجهه : ريح حارة ثقيلة كأنها الحساء ، وسقط ماتيو جالساً على الارض . وكان الدم يعميه ، كانت يداه حمراوين حتى المعصمين ، وكان يفرك عينيه فيمزج دم يديه بدم عينيه ، ولكن ذلك لم يكن دمه : فان شاسيريو كان جالساً على الافريز ، بلا رأس . كان مزيج من الدم والفقاعات يخرج من عنقه . قال بينيت : — لا اريد ، لا اريد !

ونفض فجأة ، فركض الى شاسيريو وضربه في صدره بمقبض بندقيته ، فتهاوى شاسيريو وهوى من فوق الافريز . ورآه ماتيو يسقط بلا انفعال : كان ذلك بداية موته هو بالذات .

وصاح كلابو : — اطلقوا النار كما تشاءون . وفجأة ، اصبحت الساحة تنغل بالجنود ، وعاد ماتيو الى مركزه . واخذ يطلق . وكان داندو يطلق بالقرب منه . وقال داندو ضاحكاً : — ان هذه مذمحة ! وترك بندقيته التي سقطت في الشارع ، ونام على ماتيو وهو يقول : — يا عزيزي ! يا عزيزي !

فدفعه ماتيو عنه بضربة كتف . فسقط داندو الى الخلف ، واستمر ماتيو يطلق النار . وكان ما يزال يطلق حين انهار السقف عليه . وتلقى عارضة على رأسه ، فترك بندقيته وسقط . وفكر في جنون ، خمس عشرة دقيقة ، اني اهب كل شيء لاقاوم خمس عشرة دقيقة ! وكانت قبضة بندقيته تخرج من فوضى الخشب المحطم والاحجار المتناثرة ،

فسحبها اليه ، كانت البندقية دقيقة بالدم ، ولكنها معبأة بالطلقات .

وصاح بينيث : - ماتيو !

فلم يجب احد ، كان انهيار السقف يسد شمال السطیحة كله . وكانت الانقاض والعوارض تسد باب السقف ، وكانت عصا من حديد تتدلى من السقف الفاجر ، كان ماتيو وحيداً .

وقال بصوت مرتفع : - ياعن دين ! لن يقال اننا لم نقاوم خمس

عشرة دقيقة .

واقرب من الافريز واخذ يطلق واقفاً . وكان ذلك ثأراً هائلا .

كانت كل طلقة تثار له من وسواس قديم ، طلقة على لولا التي لم اجرؤ على سرقتها ، وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها ،

وطلقة على اوديت التي لم ارد ان اضاجعها . وهذه للكتب التي لم اجرؤ على كتابتها ، وتلك للرحلات التي امتنعت عن القيام بها ، وهذه الاخرى

على جميع الاشخاص ، جملة ، الذين كنت راغباً في احتقارهم والذين حاولت ان افهمهم ، كان يطلق ، وكانت القوانين تتطاير في الهواء ،

ستحب قريبك كما تحب نفسك ، طق في فم هذا الفرج ، لن تقتل ابداً ، طق في الطرح المزيف الساكن قبالي . كان يطلق على الانسان ،

على « الفضيلة » على العالم : « الحرية » هي « الارهاب » ، كانت النار تشتعل في البلدية ، تشتعل في رأسه : كان الرصاص يثر ، حرأ

كالهواء ، سينفجر العالم ، وانا معه ، واطلق ، ونظر الى ساعته : اربع عشرة دقيقة وثلاثون ثانية ، لم يبق ما يُطلب بعدُ الا مهلة نصف دقيقة ،

ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميل الفخور الذي كان يعدو نحو الكنيسة : واطلق على الضابط الجميل ، على كل « جمال »

الارض ، على الشارع ، على الازهار ، على الحدائق ، على كل ما سبق له ان احبه ، وغطس « الجمال » غطسة داعرة ، واطلق ماتيو مرة

اخرى . اطلق : وكان نقياً ، وكان قديراً ، وكان حرأ .

خمس عشرة دقيقة .

القِسمُ الثَّانِي

الليل ، النجوم ؛ نار حمراء في الشمال ، انها دسكرة تحترق في الشرق والغرب ، بروق حرّ طويلة وجافة : انها مدافعهم . لهم في كل مكان ، وسيعتقلونني غداً . ويدخل الى القرية النائمة ؛ ويعبر الساحة ، ويقترّب من بيت يراه ، فيطرق بابه ، لا جواب ، ويشد على المقبض ، فيفتح الباب . ويدخل ، ويغلق الباب خلفه : الظلام . عود ثقاب . هو في الممر ، وتخرج مرآة من الظلام بغموض ، فيرى فيها نفسه : اني بأشد الحاجة الى حلق ذقني . وينطفئ عود الثقب . وقد أُتيح له ان يامح سلماً يهبط الى اليسار . ويقترّب منه متحسناً : السلم يهبط منعطفاً ، وينعطف برونيه ، فيلمح ضياء غامضاً منتشراً ، وينعطف مرة اخرى : القبو . إن رائحة الخمر والفطر تنبعث منه . براميل ، كومة قش . رجل ضخم في قميص الليل والبنطلون ، جالس على القش بالقرب من شقراء نصف عارية تمسك طفلاً بين ذراعيها . وينظرون الى برونيه ، فاغري الافواه ، خائفين . ويهبط برونيه درجات السلم ، والرجل لا ينفك ينظر اليه . ويظل برونيه يهبط ، ويقول الرجل فجأة :

— إن زوجتي مريضة .

فيسأل برونيه : — يعني ؟

— لم ارد ان تقضي الليل في الغابات .

قال برونيه : — تقول لي هذا ، وهو لا يهمني على الاطلاق .

وهو الآن في القبو . وينظر اليه الرجل في تحدّ :

— ولكن ماذا تريد ؟

قال برونيه : — اريد ان أنام هنا .

فكزّ وجه الرجل ، وظل ينظر :

— هل انت ملازم ؟

فلم يجب برونيه . فسأله الرجل بارتياب :

- اين هم رجالك ؟
 قال برونيه : - لقد ماتوا .
 واقترّب من كومة القش ، وقال الرجل :
 - والألمان ، اين هم ؟
 - في كل مكان .
 قال الرجل : - لا اريد ان يجدوك هنا .
 ونزع برونيه سترته فطواها ووضعها على برميل . وصاح الرجل :
 - أسمع ؟
 فقال برونيه : - أسمع .
 - إن لي امرأة وطفلا : فلا اريد ان ادفع ثمن حماقاتكم .
 قال برونيه : - لا تهتمّ بالأمر .
 وجلس . ونظرت اليه المرأة في حقد . وقالت :
 - هناك فرنسيون سيقاتلون فوق . فكان ينبغي لك ان تكون معهم .
 ونظر اليها برونيه ، فرفعت قبص النوم على نهدتها ، وصاحت :
 - اخرج من هنا ، اخرج من هنا . يكفي انكم خسرتم الحرب ،
 فلا تعرّضونا فوق ذلك للقتل .
 فقال لها برونيه : - لا تخافي . فليس عليكما الا ان توقظاني حين
 يصبح الالمان هنا .
 - وماذا ستفعل ؟
 - سوف استسلم .
 . قالت المرأة : - قذارة ! بينما هناك اخيراً أناس يعرضون انفسهم للذبح .
 وتشاءب برونيه وتمطى ثم ابتسم . انه يقاتل منذ ثمانية ايام ، من
 غير أن ينام ، ومن غير ان يأكل تقريباً ، وقد اوشك عشرين مرة .
 ان يُقتل . ولقد انتهى القتال الآن ، لقد خسرت الحرب ، وهناك
 ما ينبغي ان يعمل . عمل كثير . وتمدد على القش ، وتشاءب ، ونام .

قال الرجل : - هيا ! ها هم اولاء !
وفتح برونيه عينيه ، فرأى وجهاً ضخماً أحمر ، وسمع طلقات
وانفجارات .

- هل وصلوا ؟

- نعم . والقتال دائر . اني لا استطيع ان احتفظ بك عندي .
ولم تتحرك المرأة . انها تنظر الى برونيه بعينيها المتوحشتين ، وهي
تضمّ ولدها النائم في ذراعيها .
وقال برونيه : - اني ذاهب .

ونفض ، وتثاءب ، واقرب من نافذة ، وفتش في قربته ، فأخرج
منها قطعة مرآة وآلة للحلاقة . ونظر اليه الرجل ، مذهولاً من
شدة الغيظ :

- اترك ستحلق ذقنك ؟

فسأله برونيه : - ولم لا ؟

ويحمرّ وجه الرجل :

- اقول لك انهم سيرموننا بالرصاص اذا وجدوك هنا !

ويقول برونيه : - سأنتهي بسرعة .

ويشده الرجل من ذراعه ليخرجه :

- اني لا اريد ذلك ، فلي امرأة وطفل ، ولو علمت ، لما

تركتك تدخل .

فتخلص برونيه بانتفاضة ، ونظر باشمزاز الى هذا المانع الخرع
الذي يُصرّ على الحياة ، والذي سيحيا في جميع العهود ، متواضعاً ،
مخاتلاً ، وسيحيا من اجل لا شيء . وارتدت الرجل عليه ، فقذفه برونيه
على الجدار :

- اهدأ والا

وتوقف

الكحوليتين ؛ وكانت تنبعث منه رائحة موت وزبل . واخذ برونيه
يخلق ذقنه ، بلا صابون ولا ماء ، وكان جلده يحرقه ؛ والى جانبه ،
كانت المرأة ترتجف خوفاً وغيظاً ، وعجل برونيه : اذا استمر ذلك
طويلاً ، أصبحت مجنونة . ووضع آلتة في قربه : إن الشفرة ما زالت
تصلح مرتين :

— رأيت ؟ لقد انتهيت . إن الامر لم يكن يستحق كل هذه

المشاكل .

فلم يجب الرجل ، وصاحت المرأة :

— اخرج من هنا ، ايها القدر ، ايها الجبان ، إنك ستعثرنا للقتل !

وارتدى برونيه سترته ، وأحس نفسه نظيفاً ، جديداً وصلباً ،

وكان وجهه أحمر .

— اخرج من هنا ! اخرج من هنا !

وحيماً باصبعين وقال :

— شكراً على اي حال .

ورقي السلم المظلم ، واجتاز مدخلا : وكان باب الدخول مفتوحاً
على سعته ؛ وفي الخارج ، كان شلال النهار الابيض ، وطققة
الرشاشات العنيدة ، كان البيت مظلماً ورطباً . واقرب من الباب :
يجب ان يغطس في زبد هذا النور . ساحة صغيرة ، الكنيسة ، المقبرة ،
زبل امام الأبواب . وبين بيتين يحترقان ، كانت الطريق الوطنية ،
موردة بالصباح . وكان الألمان هناك ، زهاء ثلاثين رجلاً منهمكين ،
عمال في اثناء عملهم ، يطلقون النار على الكنيسة ، ويطلق عليهم من
برج الأجراس ، فكأنهم في ورشة . وفي وسط الساحة ، كان الجنود
الفرنسيون في قصانهم تحت النيران المتشابكة ، وعيونهم متوردة من
التعاس ، يمشون على رؤوس أصابعهم ، بنحطى صغيرة مسرعة ، كما
لو أنهم يسرون في استعراض لاحدى مسابقات الجمال . وكانوا رافعين

أيديهم الممتعة فوق رؤوسهم ، والشمس تتلاعب بين أصابعهم . وينظر اليهم برونيه ، وينظر الى برج الاجراس ، والى يمينه بناء ضخمة يحترق . ويحس الحرارة على خده ، ويقول : « خراء ! » ، ويهبط درجات السلم الثلاث . وهكذا : لقد أخذ . ويحتفظ بيديه في جيبه ، وهما ثقيلتان كأنهما من رصاص . « ارفع يديك ! » ويصوب عليه ألماني ببندقيته . ويحمر وجهه ، وترتفع يداه ببطء ، وها هما في الهواء فوق رأسه : سيدفعون لي ذلك دماً . وينضم الى الفرنسيين فيرقص معهم ، فكأنه فيلم سينمائي ، لا شيء يبدو حقيقياً ، وهذا الرصاص الذي يثقل لا يمكن ان يقتل ، والمدفع يطلق باروداً ابيض . وينحني فرنسي في شكل تحية ثم يسقط ، فيتجاوزه برونيه . وينعطف غير معجل عند زاوية البيت الأسمر ثم يسلك الشارع الكبير ، في الوقت الذي ينهار فيه برج الأجراس . ليس من ألمان بعد ، وليس من رصاص ، انتهى الفيلم ، وها هو الريف الحقيقي ، ويعود فيضع يديه في جيبه . انهم فرنسيون فيما بينهم . جمع من الفرنسيين القصار في ثياب الكاكي ، متسخون ، طويلو اللحي ، مسودّة وجوههم من الدخان ، يضحكون ويمزحون وهمسون ، موجة من الرؤوس العارية ، أو طاقات رجال الشرطة ، وليس من قبعة واحدة ؛ ويعرف بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحيات : « لقد رأيتك في سافرن في شهر كانون الاول . هيد ! جيرار ، مرحباً ، يجب ان تحدث الهزيمة لنتقي من جديد ، كيف حال ليزا ؟ » ويحرس قطيع المهزومين الصغار جندي ألماني يبدو عليه الضجر ، وسلاحه على كتفه ، وهو يرافق كرددتهم المستعجلة بخطوات واسعة بطيئة . ويكرّح برونيه مع الآخرين ، ولكنه في طول الألمان ، وهو حليق الذقن مثلهم . والطريق الوردية تسيل بين العشب ، ليس من نسمة هواء ، والحر حرّ هزيمة . إن رائحة الرجال منبعثة ، وهم يثرثرون والعصافير تغني . ويلتفت برونيه الى جاره ،

وهو رجل سمين يبدو عليه اللطف ويتنفس من فمه فيسأله :

— من اين انتم قادمون ؟

— كنا نازلين من « سافيرن » وقد قضينا الليل في المزارع .

قال برونيه : — اما أنا فقد جئت وحدي . إن هذا لطيف ، فقد

كنت أحسب القرية خالية .

وكان شاب أشقر برونزي يسير على بعد صفتين منه ، عارياً حتى النطاق ، وبين راسليه قشرة ضخمة دامية . وارتفع في ظهر برونيه ضجيج طبيعي هائل ، من الضحك والصراخ واصطدام الاقدام بالأرض ، مما يشبه صوت الريح في الشجر . والتفت : إن آلاف الرجال هم الآن خلفه ، وقد جُمعوا من كل مكان ، من الحقول ، ومن اللساكر ، ومن المزارع . وانتصبت كتفا برونيه ورأسه متوحدة فوق هذا السهل المتموج .

وقال الشخص السمين : — اسمي مولو ، وانا من « بارلودوك » .

وأضاف باعتزاز : — انني اعرف المنطقة .

وفي طرف الشارع ، كانت مزرعة تحترق ، وكان اللهب اسود في

وجه الشمس ، وكان كلب يعوي . وقال مولو لجاره :

— أسمع الكلب ؟ لقد سجنوه في الداخل .

والجار هو بكل تأكيد من الشمال ، أشقر ، وليس قصيراً جداً ،

وله بشرة حلبيية ، وكان يشبه الألماني الذي يحرسهم . ويقطب حاجبيه

ويدير عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، نحو مولو :

— ماذا ؟

— الكلب مسجون في الداخل ؟

قال « الشتمي » : — يعني ؟ إنه كلب .

— اواه ! اواه ! اواه !

ولم يكن الكلب هو الذي ينبج ، هذه المرة : وانما كان الفتى ذكراً

الظهر العاري . وأقبل واحد يجره ويضع يده على فمه ؛ وأتيح لبرونيه
أن يلمح وجهه الممتنع الضخم المشدوه ذا العينين اللتين لا أجفان لها .
وقال مولو للشتيمي :

— لا يبدو على «شاربان» انه في حالٍ طيبة .

فنظر اليه الشتيمي :

— ماذا تقول ؟

— اقول إن رفيقك شاربان لا يبدو في حال طيبة .

وضحك الشتيمي فبدت اسنانه البيضاء :

— لقد كان دائماً غريباً .

وكانت الطريق صاعدة ، وكانت ترافقهم رائحة طيبة لأحجار ساخنة
وحطب محروق ، وكان الكلب يعوي في ظهرهم . وبلغوا قمة الشاطيء ،
فانحدرت الطريق في مهبط صلب . وأشار مولو باصبعه الى العمود
الذي لا ينتهي :

— اوه ! من اين تراهم يخرجون ، هؤلاء ؟

والنفت الى برونيه :

— كم يبلغ العدد ؟

— لا ادري . ربما عشرة آلاف ، وربما اكثر .

فنظر اليه مولو غير مصدق :

— وتستطيع ان ترى ذلك هكذا ، بمجرد نظرة ؟

ويفكر برونيه في ايام ١٤ تموز ، وايام اول ايار ؛ كانوا يوقفون
الأفراد في جادة ريشار — لونوار ، ثم يقومون باحصائهم وفقاً للمدة
العرض ، جموع صامتة وحارة ؛ وكان يحترق اذ يكون في وسطهم .
لأما هذا الجمع ، فهو صاحب ، ولكنه بارد وميت . ويتنسم ويقول :
— لقد ألفت ذلك .

فسأل الشتيمي :

- واين هم ذاهبون ؟

- لا أدري .

- واين هم الألمان ؟ ومن الذي يقود ؟

ولم يكن ثمة المان ، باستثناء زهاء عشرة يتفكّهون في الشارع . كان القطيع الهائل ينسرب حتى منخفض الشاطيء ، كما لو انه يستجيب لثقله وحده ، وقال مولو :

- هذا طريف .

قال برونيه : - نعم . هذا طريف .

هذا طريف ؛ كان بوسعهم ان يرتعوا على الألمان ، فيخنقوهم ويفروا عبر السهول : ولكن ما جدوى ذلك ؟ كانوا يسرون باستقامة ، أيا ن تقودهم الطريق . وها هم اولاء في اسفل الشاطيء ، في حفرة . شبه مغلقة . وها هم الآن يصعدون ثانية ، وهم يحسون بالحرق . ويسحب مولو من جيبه رزمة من الرسائل يربطها خيط من المطاط ، فيقلبها لحظة بين أصابعه الضخمة المرتبكة . ويخلف العرق لطخات على الورق ، فيكمد الحبر البنفسجي في مواضع . وينزع مولو الخيط المطاط ، ويأخذ بمزق الرسائل بانتظام ، من غير ان يعيد قراءتها ، الى قصاصات صغيرة ينثرها شيئاً فشيئاً ، في حركة باذر . ويتابع برونيه بعينه طيران القصاصات اللاهث : وكان معظمها يسقط نثراً على اكتاف الجنود ، ومن ثمّ تحت أقدامهم ؛ وتطايرت قصاصة " لحظة ، ثم حطت على باقة عشب ، فانشى العشب قليلا وحملها كمظلة . وعلى طول الطريق ، كان ثمة اوراق اخرى ، ممزقة ومدعوكة ومكورة ، في الحفر ، وبين البنادق المحطمة ، والقبعات المبعوجة . وكان برونيه يلتقط كلمة في عبوره ، اذ يكون الخط كبيراً وعالياً : "كل جيداً ، تغط جيداً ، جاءت هيلين مع الصنغار ، في ذراعيك يا حبيبي . الطريق كلها رسالة غرام ملطخة . وكانت مسوخ صغيرة مائعة ترحف .

على الارض ، وتنظر الى قطع المهزومين المرح بعيونها التي لا حدق فيها : اقنعة للوقاية من الغازات السامة . ويدفع مولو مرفق برونيه ، ويوميء الى قناع :

— إن من حظنا على كل حال اننا لم نحتاج اليها للاستعمال .
فلا يجيب برونيه ؛ ويبحث مولو عن مشاركين آخرين :
— ايه ! لامبير !

فالتفت رجل كان بالقرب من برونيه ، فنبهه مولو الى قناع ، من غير تعليقات ، فأخذوا يضحكان ، وكان الباكون يضحكون حولها : كانوا يحتقرونهم ، هؤلاء الدعاميص الطفيليين ، وكانوا يخافون منهم ، ومع ذلك فقد كان ينبغي إطعامهم والاعتناء بهم . انهم الآن ملقون تحت اقدامهم ، امواتاً ، وهم يرونهم فيتذكرون بان الحرب قد انتهت . وكان فلاحون آتون ، على مألوف عادتهم كل يوم ، ليستغلوا في الحقول ، ينظرون اليهم يمرون وهم يستندون على مقالبيهم ؛ وأخذ لامبير الجدل ، فصاح بهم : « مرحباً يا اولادي ! هذا هو الصف ! » فرددت عشرة أصوات ، مئة صوت ، في لهجة تحدّ : « هذا هو الصف ! هذا هو الصف ! اننا عائدون الى بيوتنا » . ولم يجب الفلاحون ، بل لم يكن يبدو عليهم انهم يسمعون . وسأل شاب أسمر مجعد الشعر يبدو عليه انه باريسي ، سأل لامبير :

— كم تظنّ عددهم ؟

قال لامبير : — قليل ، يا بلوندييه ، قليل .

— اتعتقد ؟ هل انت متأكد ؟

— ما عليك الا ان ترى . اين هم الأشخاص الذين يجب ان يجرسوننا ؟ لو كنا حقاً من الأسرى ، لرأيت كيف كنا نكون محاطين . فسأل مولو : — لماذا أخذونا اذن ؟

— أخذونا ؟ انهم لم يأخذونا : وانما هم ركنونا جانباً حتى لا

نكون بين سيقانهم ، فيسا هم يتقدمون .
فتنهذ الأشقر : - حتى في هذا الوضع ، يمكن لذلك ان
يدوم طويلاً .

- هل انت مجنون ؟ انهم لا يستطيعون حتى ان يركضوا في مثل
السرعة التي نهرب بها .
وكان يبدو جذلاً ويقهقه :

- إن الالمان لا يكثرثون بذلك ، فهم يتنزهون : دجاجة صغيرة
في باريس ، قدح خمر في ديجون ، وسمك مطبوخ في مارسيليا . ولكن
ينتهي الأمر في مارسيليا ، فعليهم ان يتوقفوا هناك : لأن البحر أمامهم .
وفي تلك اللحظة يتركوننا ، فنكون في بيوتنا ، في منتصف آب .
ويهز بلوندييه رأسه :

- شهران ! إن هذا طويل .

- يبدو انك مستعجل جداً . ولكن اسمع : يجب ان يصلحوا
الخطوط ، حتى يستطيع القطار ان يمر .

قال مولو : - القطار ؟ اني اهديهم إياه . اذا كان الأمر مقتصرأ
على ذلك ، فاني مستعد للعودة الى بيتي مشياً على الاقدام .
- خراء إذن ! أما انا فلا ، لقد انقضى علي خمسة عشر يوماً وأنا
أمشي ، وقد امتلأت مؤخرتي مشياً ، واريد ان ارتاح .

- أليست لك رغبة إذن في ان تضاجع صاحبك ؟

- ولكن بأي شيء أفعل ذلك ؟ لقد أفرطت في المشي ، حتى لم
يبق لي شيء في البنطلون . اريد ان أنام ، وأنام وحدي .

وكان برونيه يستمع اليهم ، وينظر الى رقابهم ، ويفكر بأن هناك
عملاً كثيراً يُعمل . شجر الحور ، شجر الحور ، جسر على ساقية ،
شجر الحور . وقال مولو :

- انني عطشان .

فقال الشيمي : - ليس هو العطش ، وإنما الجوع : فانا لم أقضم
لقمة منذ أمس .

وكان مولو يكردح ويعرق ، ويلهث ، ونزع سترته ، ووضعها
على ذراعه ، وفكّ أزرار قميصه وقال مبتسماً :

- نستطيع الآن ان نخلع ستراتنا ، فنحن أحرار .
" توقف مفاجيء . وصدم برونيه بصدرة ظهر لامبير . والتفت لامبير ؛
وكانت لحيته متصلة بسالفه ، وكانت له عينان حيتان تحت حاجبين
كثيفين اسودين .

- الا تستطيع ان تنظر امامك ، ايها الابله ؟ أليست عيناك
في ثقبك ؟

وكان ينظر الى ثوب برونيه العسكري في قحة :
- انتهى عهد المائعين . وليس هناك من يأمر . ليس هناك
إلا بشر .

ونظر اليه برونيه بلا غضب ، وصمت الرجل . وتساءل برونيه عما
يستطيع ان يعمل اذ يعود مدنياً . تاجر صغير ؟ عامل ؟ طبقة وسطى ،
على أي حال . إنهم مئات الوف على هذا الوضع : ليس ثمة أي حبس
للسلطة أو للنظافة الشخصية . ولا بد من نظام حديدي . وسأل مولو :
- لماذا توقفنا ؟

فلم يجب برونيه . إن هذا هو أيضاً بورجوازي صغير ، شبيه كل
الشبه بالآخر ، ولكنه أكثر بلاهة : فلن يكون مناسباً العمل هنا .
وتنهّد مولو رضى وتروّح :

- لعل لدينا متسعاً من الوقت للجلوس على الأرض .
ووضع قربته في الطريق وجلس عليها ، واقترب منهم الجندي
الألماني ، فأدار نحوهم وجهه الجميل الخالي من التعبير ، وكانت
غشاوة مبهمة من الودّ تطوّف بعينيه الزرقاوين ، وقال في اهتمام :

— يا للفرنسيين المساكين ، لقد انتهت الحرب : فعودوا الى بيوتكم ،
عودوا الى بيوتكم .

— ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟ اننا سنعود الى بيوتنا ؟ طبعاً سنعود
الى بيوتنا ، خراء ، يا جوليان ، أسمع ؟ سنعود الى بيوتنا ، إسأله
متى ، أجل ، إسأله متى نعود الى بيوتنا ؟

• — قل لي ، يا ألمانيّ . متى نعود الى بيوتنا ؟

كانوا يكلمونه بلا كلفة ، بألفة وودّ . إنه الجيش المنتصر كله ،
وليس هو الا عسكرياً بسيطاً . وردد الألمانيّ ، فارغ العين :
— عودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

— ولكن متى ؟

— امها الفرنسيون المساكين ، عودوا الى بيوتكم .

ويستأنفون السير ، ايتها الحور ، ايتها الحور . ويثنّ مولو ، انه
يعاني الحر ، ويعاني العطش ، ويعاني التعب ، ويودّ لو يقف ، ولكن
ليس ثمة من يستطيع ان يوقف هذا السر العنيد الذي لا يقوده احد .
وأنّ شخص آخر : « إن بي صداعاً » ومشى ، وثقلت الثرثرة ،
تقطعها لحظات صمت طويلة ؛ وقالوا فيما بينهم : « أنزل نمشي هكذا
حتى برلين ؟ » وظلّوا يمشون ؛ وكانوا يتبعون من يسبقهم ، مدفوعين
بمن يليهم . قرية ، كومة قبعات وأقنعة وبنادق في الساحة الكبرى .
وقال مولو :

— بودرو : لقد مررت من هنا أمس الاول .

فقال بلوندينه : — عجباً ، وأنا ، أمس . وكنت في الشاحنة :
وكان ثمة ناس على عتبات بيوتهم ، ولم يكن يبدو عليهم انهم ينظرون
الينا باحترام .

وكانوا ما يزالون هناك ، على عتبات بيوتهم ، صامتين ، متشابكي
الذراعين . نساء ذوات شعر أسود ، وعيون سوداء ، وثياب سوداء ،

وشيوخ . انهم ينظرون . وامام هؤلاء الشهود ، كان الأسرى ينتصبون ، فتصبح وجوههم وقحة مروسة ، وتتحرك أيديهم ويضحكون ويصرخون : « مرحباً بالأم الصغيرة ! مرحباً بالأب ! هذه هي العودة الى الصف ، انتهت الحرب ، مرحباً . » ويمرتون ويحيون ، ويرسلون غمزات وبسات مثيرة ، فيصمت الشهود وينظرون . وتتم السمانة الطيبة السمينة وحدها : « يا للشباب المساكين ! » . ويتسم الشطيحي باقتضاب ، ويقول للامير :

— من حسن الحظ اننا لسنا في الشمال .

— لماذا ؟

— لو كنا هناك ، لقدفونا بالكراسي والصحون .
نبح ، عشرة أشخاص ، مئة شخص يفصلون عن الصفوف ، ويندهبون ليشربوا . ويهرع مولو ، فينحني بارتباك ونهّم . وكانوا يتلامسون من التعب فترتعش اكتافهم ، ويسيل الماء على وجوههم . ولم يكن يبدو على الحارس انه يراهم : لسوف يقون في القرية اذا شاءوا . وإذا كانت لديهم الجرأة على مجابهة الأنظار . ولكن لا ، انهم يعودون واحداً واحداً ، معجلين كما لو انهم يخشون ان يفقدوا مراكزهم . ويعدو مولو كأنه امرأة ، وهو يلوي ركبتيه ، ويتدافعون ويضحكون ويصرخون ، يثرون الدهشة والتحدي ؛ وكانت افواههم تنشق عن جروح ضاحكة تحت عيون تشبه عيون كلابٍ مضروبة . ومسح مولو شفتيه وقال :

— كان ذلك منعشاً .

ونظر الى برونيه في دهشة :

— ألم تشرب أنت ؟ ألسنت عطشاً ؟

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ؛ مؤسف الا يكون هذا القطيع محاطاً بخمسة جندي مسلح ينغزون مؤخرات المتخلفين ،

ويقتلون الثرثارين بأعقاب البنادق : لو كان الأمر كذلك ، لكانت هيتلك مختلفة الآن . ونظر الى يمينه ، والى يساره ، والتفت ، باحثاً عن وجه شبيه بوجهه في هذه الغابة من الوجوه المهجورة ، الثملة ، التي يعدّها مَرَحٌ لا يُقهر . اين هم الرفاق ؟ إن الشيوعي يُعرف من النظرة الاولى . وجه ، وجه واحد قاس وهاديء ، وجه انسان . ولكن لا : انهم يمشون منحنيين الى أمام ، قصاراً ، قبيحين ، تسوق السرعة أجسامهم السقيمة المفتشة ، ويلهو على سحنهم القذرة كل الذكاء الفرنسي ، فيشدّ على زوايا الافواه بخيوط ، ويقلص المناخر أو عمدّها ، ويجعد الجباه ، ويلهب العيون ؛ انهم يقدرّون ، ويميزون ، ويحاكمون ، ويحكمون ، وينتقدون ، ويزنون الحسنات والسيئات ، ويتذوقون اعتراضاً ، ويدلون وينتهون الى نتائج ، جدال لا ينتهي يشكل كل وجه فيه طرفاً . انهم يسرون بوداعة ، ويحاكمون وهم سائرون ، انهم هادئون : فلقد انتهت الحرب ؛ ولم تحدث معارك ضارية ، فالألمان لا يبدون مفرطين في الوحشية . هادئون لأنهم يحسون أنهم قدروا بلمحة واحدة أسيادهم الجدد ؛ وقد عادت وجوههم تفرز ذكاء ، لأن هذا صنفٌ كالمليّ باذخ يختص به الفرنسيون ، ويمكن منحه للألمان في الوقت المناسب لقاء منافع دقيقة . شجر الحور ، شجر الحور ، والشمس تصفع ، والوقت ظهر : « ها هم اولاء ! » ويمحي الذكاء . ويثنّ القطيع برمته من الشهوة ، ولم يكن ذلك صرخة ، حتى ولا تنهدة ، بل كان نوعاً من التهالك الإعجابي ، وحفيفاً عذباً لاوراق شجر تنحني تحت ثقل المطر . « ها هم اولاء ! » وكان ذلك يعدو من أمام الى خلف ، وينتقل من رأس الى رأس كنبأ سارّ ، ها هم اولاء ! ها هم اولاء ! وتتزاحم الصفوف ، وتتدافع في الجوانب ، وترتعش دودة الفراش الطويلة : إن الألمان يمرون في الطريق ، على الدراجات ، وفي العربات والشاحنات ، حليقي الذقون ، مرتاحين ،

برونزيين ، بوجوه جميلة هادئة غامضة كأنها المراعي . انهم لا ينظرون الى أحد ، ونظرهم محدق في الجنوب ، انهم يلجون في فرنسا ، وينقلون بالمجان ، انهم فرقة المشاة راكمية ، وانا أسمى ذلك نخوض الحرب ، انظر الى الرشاشات ، اوه ! والمدافع الصغيرة ، ما اروع ذلك ، وليس مستغرباً بعد ان نكون قد خسرنا الحرب . انهم مفتونون بان يكون الألمان اقرباء الى هذا الحد . ومحسون بأنهم غير مذنبين : « انهم لا يُقهرون ، فليس هناك من شك ، انهم لا يقهرون ! » وينظر برونويه الى هؤلاء المهزومين المشدوهين ، ويفكر : هذه هي المادة . صحيح انها تساوي ما تساوي ، ولكن لا أملك سواها . بوسعنا ان نعمل في كل مكان ، ولا شك في ان هناك ، في النصيب ، من هم قابلون للاسترداد . ويمرّ الألمان ، وتزحف الدودة الى خارج الطريق ، وما هم اولاء على ساحة لكرة السلة يملأونها بضمغهم الأسود ، فيجلسون ويضطجعون ، ويصنعون من صحف شهر ايار قبعات كبيرة . تقي من الشمس ، فكأنها الارض الخضراء لخلبة سباق ، أو غابة « فانسين » يوم أحد .

— كيف حدث ان توقفتنا ؟

قال برونويه : — لا ادري .

ونظر في غيظ الى هذا الجمع المقلوب ، ولم تكن به رغبة للجلوس ، ولكن تلك حماقة ، فينبغي ألا يُحتقروا ، فتلك خير وسيلة للقيام بعمل سيء ، ثم من يدري الى اين نحن ذاهبون ، فلا بد له من مراعاة قواه ، وجلس . ومرّ ألماني خلفه ، ثم آخر : فنظر اليه وهما يضحكان بودّ ، وسألا في سخرية أبوية :

— أين هم الانكليز ؟

ونظر برونويه الى حذاءيهما الأسودين الطريين ، ولم يجب ، فضيا ، وظلّ نائب ملازم طويل في الخلف وردّد في حزن مليء بالعتاب :

- اين هم الانكليز ، ايها الفرنسيون المساكين ، أين هم الانكليز ؟
فلم يجب أحد ، وهز رأسه بضع مرات . وحين ابتعد الألمان ،
أجابهم لأمير من بين أسنانه :

- في مؤخرتي هم الانكليز ؛ وانت لا تستطيع ان تركض
بالسرعة التي يبعصونك بها !

قال مولو : - اويه !

- ماذا ؟

فأوضح مولو : - من الممكن ان يبعص الانكليز الألمان ، ولكن
ليس هناك كيلومترات طويلة حتى يصبحوا مبعوصين بدورهم ،
وبطريقة قدرة !

- ليس هذا مؤكداً .

- بلى ، بالتأكيد ، ايها المحبون ! لانهم يتطاوسون لأنهم في
جزيرتهم ، ولكن انتظر قليلاً لترى كيف يجتاز الالمان المانش ،
وسترى ! وانا اقول لك ، اذا لم يستطع الجندي الفرنسي ان يقاوم ،
فليس الانكليز هم الذين سيربحون الحرب !

اين هم الرفاق ؟ ويحس برونيه بأنه وحيد . ها هي عشرة اعوام
تنقضي من غير ان يشعر بمثل هذه الوحدة . انه جائع وعطش ، وهو
خجل ان يحس الجوع والعطش . ويلتفت اليه مولو :

- سيعطوننا طعاماً .

- صحيح ؟

- يبدو ان نائب الملازم قد قال ذلك : سوف يوزعون خبزاً
ومعلبات .

وابتسم برونيه : هو يعلم بانهم لن يعطوهم شيئاً يأكلونه . يجب
ان يسيل لعابهم لذلك ، ولن يسيل لعابهم بما فيه الكفاية ابدأ . وفجأة
نهض رجال ، وتبعهم آخرون ، ثم نهض الجميع ، ومضوا .

ويستبدّ الغضب بمولو ، ويبدى استيائه :

— من الذي أمر بأن نمضي ؟

فلم يجب أحد ، فصاح مولو :

— لا تذهبوا ، يا جماعة ، فسوف يعطوننا ما نأكله .

ولكن القطيع كان قد انخرط في السير ، أعمى أصمّ . كانوا يمشون . غابة ؛ أشعة صفراء وحمراء تتخلل الأوراق ، ثلاثة مدافع عيار ٧٥ متروكة ، ما تزال تهدّد الشرق ، الرجال مسرورون لأن هناك ظلاً ؛ وتمرت فرقة من ممهدي الطرق الألمان . فينظر اليهم الأشقر بيسمة دقيقة ، ويتسلى بان يراقب المنتصرين عليه عبر أجفانه نصف المغلقة ، ويلعبهم كما يلعب القط الفأرة ، ويتنعم بتفوقه ، ويقبض مولو على ذراع برونيه ويهزه .

— انظر هناك ؟ المدخنة الرمادية !

— يعني ؟

— أنها «بكارا» .

ويتنصب على رؤوس أصابعه ، ويكوّر يده حول فمه ويصيح :

— بكارا ! عجلوا يا رفاق : اننا نصل الى بكارا .

الرجال متعبون ، والشمس في عيونهم ؛ وهم يرددون بوداعة :

« بكارا ، بكارا » ولكنهم لا يبالون . ويسأل بلوندينه برونيه :

— بكارا ، أهى التخريم ؟

قال برونيه : — كلا ، هي معمل الزجاج .

فقال بلوندينه بلهجة غموض واحترام .

— آه ! آه !

والمدينة سوداء تحت السماء الزرقاء ، والوجوه تحزن ، ويقول رجل

يحزن : — طريف ان نرى مدينة .

وهبطوا شارعاً خالياً مسرعين ؛ وكانت شظايا زجاج تملأ الرصيف

والطريق ، ويضحك بلوندينه مشيراً إليها باصبعه، ويقول :

— هذا هو مصنع زجاج بكارا .

ويرفع برونيه رأسه : البيوت سليمة ولكن جميع الزجاج محطم ،
ويردد صوت "خافه" :

— طريف ان نرى مدينة .

جسر ؛ ويتوقف العمود ، وتلتفت ملايين العيون نحو النهر : خمسة
ألمان عراة تماماً يلعبون في الماء ، ويتراشقون به وهم يطلقون صرخات
صغيرة ؛ وعشرون الف فرنسي ترشح اثوابهم بالعرق ينظرون الى تلك
البطون والأفخاذ التي حماها متراس المدافع والدبابات مدة عشرة أشهر
والتي تعرض نفسها الآن بطراوتها في قحة هادئة . كان الأمر كذلك ،
ولم يكن الا كذلك : إن المنتصرين عليهم هم هذا اللحم الأبيض
الرخص . ومزقت الجمع تنهدة منخفضة وعميقة: لقد تحمّلوا بلا غضب
عرض جيش منتصر على دبابات النصر ؛ اما هؤلاء الألمان العراة الذين
يلعبون في الماء ، فانهم إهانة . وانحنى لامير فوق الإفريز ، فنظر الى
الماء وتمتم :

— لا بدّ انه ماء لذيذ !

وكان ذلك اقلّ من رغبة : لم يكن إلاّ أسفّ ميت . وعاد
الجمع ، وهو ميت ، منسيّ ، مدفون في حرب فات أوأنا ، عاد
يسير في الجفاف والحرق ودوامات الغبار ، وانفتح باب كبير وهو
يصرّ ، وتقاربت جدران عالية ، داخل ساحة هائلة ، عبر الهواء
الذي يرتعش ، ورأى برونيه ثكنة ذات نوافذ مغلقة ؛ وتقدم ، ودفع
من الخلف ، فالتفت :

— كفى دفعا ، سندخل جميعاً .

واجتاز العتبة ، وضحك مولو راضياً :

— انتهينا اليوم .

انتهى عالم المدنيين والمنتصرين ، عالم الحور والانهار المرتعشة من الشمس ، وهم سيكشفون بين هذه الجدران حربهم القديمة القدرة ، سينسلقون في مرفقهم ، بلا شاهد ، فيما بينهم . ويتقدم برونيه ، ويدفع من خلف ، يتقدم حتى داخل الساحة ، ويتوقف عند الجرف الرمادي . ويدفعه مولو من مرفقه :

هذه ثكنة الحرس المتحرك .

مئة شباك مغلق ؛ وسلم من ثلاث درجات يفضي الى باب مقفل . والى يسار السلم ، على بعد مترين من الثكنة ، أقيم متراس صغير من القرميد ارتفاعه متر وطوله متران ؛ واقرب منه برونيه فأسند جانبه اليه . وامتألت الساحة ، وكان تيار متصل يركم القادمين الاول بعضهم لصق بعض ويدفعهم الى جدار الثكنة ، وكانوا لا ينقطعون لحظة ؛ وفجأة دار مصراعا الباب الثقيلان على نفسها وانغلقا . وقال مولو :

— حسناً ، ها نحن في بيتنا .

ونظر لامبير الى الباب وقال في رضى :

— هناك جمع لم يستطع ان يدخل : فينبغي ان يناموا خارجاً .
وهز برونيه كتفيه :

— ان تنام في الساحة او في الشارع ..

قال لامبير : — ليس الأمر سواء .

فوافق الأشقر برأسه ، وقال موضحاً :

— نحن هنا ، لسنا خارجاً .

وأضاف لامبير :

— اننا في بيت لا سقف له .

واستدار برونيه ، فأخذ يتفحص الأمكنة ، مولياً الثكنة ظهره : كانت الساحة امامه تهبط في منحدر دقيق حتى جدار السور ، وكان مركزا مراقبة يقومان على قمة الجدار ، يفصل بينهما مئة متر : وكانا

خاليين . وكان صف من الاوتاد المغروسة حديثاً والتي مُدت بينها أسلاك حديدية وحبال ، يقسم الساحة الى قسمين غير متساويين ، كان أصغرهما - وهو رقعة أرض ضيقة نسبياً تمتد بين السور والاطاد - فارغاً . اما في القسم الآخر ، بين الاوتاد والثكنة ، فقد كان الجميع متراكمين . الرجال منزعجون ، وكأنهم في زيارة ، وليس ثمة من يجرؤ على الجلوس ؛ وهم يحملون قربهم ورزمهم في ايديهم وفوق أذرعهم ، والعرق يسيل على خدودهم ، وقد غادر الذكاء الفرنسي وجوههم ، ودخلت الشمس الى عيونهم الفارغة ، وهم يفرون من الماضي والمستقبل القريب الى موت صغير مزعج وموقت . ولم يكن برونيه ليعترف لنفسه بأنه عطش ، وقد أراح قربته ووضع يديه في جيبيه ، وأخذ يصفر . وأدى رقيب التحية العسكرية له ، فبسم له برونيه من غير ان يرد له التحية . واقترب الرقيب :

- ماذا ننتظر ؟

- لا ادري .

وكان رجلا طويلا هزيلا صلياً ذا عينين كبيرتين كدّرهما الكبير ؛ وكان شارب يعترض وجهه المعظم ، وكانت له حركات حية قاسية قد تعلمها . وسأل :

- من يأمر ؟

- ومن تريد ان يأمر ؟ انهم الألمان .

- ولكن عندنا ؟ اين هم المسؤولون ؟

فضحك برونيه وقال :

- إبحث عنهم .

فأمتلأت عينا الرقيب بلوم محتقر : كان بوده ان يأمر في المحل الثاني ، ان يجمع شكر الطاعة الى لذة اصدار الأوامر ؛ ولكن برونيه لا يريد بعد ان يأمر قط ؛ لقد انتهت قيادته حين سقط آخر رجاله

هيتاً . اما الآن فان في رأسه شيئاً آخر . وسأل الرقيب بنفاد صبر :
- لماذا يترك هؤلاء المساكين على أهبة الاستعداد ؟
فلم يجب برونيه ؛ ورماه الرقيب بنظرة غاضبة ، وقرر ان يأمر في
المحل الأول . وتجمهر ، وأحاط فمه بيديه وصاح :
- ليجلس الجميع !
فالتفتت رؤوس ، حيرى ، ولكن الأجسام لم تتحرك . وكرر
الرقيب :

- ليجلس الجميع ! الجميع !
فجلس البعض بهيئة مستنيمة ، ورددت أصوات الصدى : ليجلس
الجميع ؛ وتماوج الجمع وردد . واستدارت الصيحة فوق الرؤوس ،
ليجلس الجميع ، وانسلت الى الجانب الآخر من الساحة ، فاصطدمت
بالجدار ، وعادت مقلوبة بطريقة سرية : ليقف الجميع ، ليقوا
واقفين ، انتظروا الاوامر . وينظر الرقيب الى برونيه في حيرة : إن
له هناك منافساً ، من جانب الباب الكبير . ونهض بعض الرجال قافزين ،
فتناولوا قربهم وضموها الى صدورهم وهم يرسلون نظرات مطاردة في
كل مكان . ولكن معظمهم يظل جالساً ، ثم يعود من كان وقف الى
الجلوس رويداً رويداً . ويتأمل الرقيب عمله في ضحكة بلهاء :

- لم يكن ثمة إلا ان أمر .
فنظر اليه برونيه وقال له :
- اجلس ، يا رقيب .
فطرف الرقيب بعينه ، فردد برونيه :
- اجلس : الأمر هو ان تجلس .
فردد الرقيب ثم تداعى للسقوط على الأرض بين لامبير ومولو :
وأحاط ركبتيه بذراعيه ، ونظر الى برونيه من تحت الى فوق ، فاغر
الفم : وشرح له برونيه :

— انا أبقى واقفاً لأنني ضابط صف .

ولا يريد برونيه ان يجلس : لقد كانت الالوجاع تصعد من ركبتيه الى فخذه ، ولكنه لا يريد ان يجلس . ويرى الوقفاً من الظهور وأمشاط الأكتاف ، ويرى رقاباً تتحرك ، واكتافاً تهتز ؛ إن لهذا الجمع حركاته وعاداته . وكان ينظر اليه يحترق ويخفق ، وكان يفكر بلا ضجر ولا لذة : تلك هي المادة . انهم ينتظرون متوترين ؛ ولا يبدو عليهم بعد أنهم جائعون .. فلا بد ان الحرارة قد أفسدت معدمهم . فهم خائفون ، منتظرون . وما عساهم ينتظرون ؟ أمراً أو كارثة أو الليل : اي شيء يحرقهم من ذواتهم . ويرفع احتياطي ضخم رأسه الممتقع ، ويوميء الى احد برجى المراقبة :

— لماذا يتغيب الحراس عنه ؟ ماذا تراهم يفعلون ؟

ويتلبث لحظة ، وتغمر الشمس عينيه المقلوبتين ، ثم ينتهي الى ان يهز كتفيه ويقول بصوت خائب قاس :

— عندهم كما عندنا ، ينتهزون عدم التنظيم .

وينظر برونيه ، وهو واقف وحده ، الى الرؤوس ويفكر : إن الرفاق هنا في الداخل ، ضائعين كالإبر في التبن ، ويحتاج جميعهم من جديد الى الوقت . وينظر الى السماء ، والى الطائرة السوداء في السماء ، ثم يخفض عينيه ويدير رأسه ، فيلمح الى يمينه شخصاً طويلاً لم يجلس . انه عريف ؛ وهو يدخن سيكارة . وتغر الطائرة في ضجة هادرة ، ويحول الجمع ، وهو مقلوب كالسهل ، من الاسود الى الابيض ، ويزدهر : فبدلاً من الرؤوس القاسية السوداء ، تنفتح بالألوف زهرات كاميليا كبيرة : وتلتصع نظارات ، شظايا زجاج وسط الزهرات . ولم يتحرك العريف : بل انه يقوس كتفيه العريضتين وينظر الى الأرض بين قدميه . ويلاحظ برونيه في ودانه انه كان حليق الذقن . ويلتفت العريف وينظر الى برونيه بدوره : إن له عينين كبيرتين محاطتين بدائرة مزرقة ؛

ولولا أنه الأفتس ، لكان جميلاً على وجه التقريب ، وفكر برونيه :
« لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما . » ولكن اين « انه لا يذكر
بعد » فكثيرة هي الوجوه التي رآها ! وتخلي عن التذكر ؛ ليس لذلك
كبير أهمية ، ثم إن الرجل لم يبد عليه انه عرفه . وفجأة صاح برونيه :
- ايه !

فرجع الرجل عينيه :

- ماذا ؟

ولا يبدو السرور على برونيه : لم تكن به رغبة قط في ان ينادي
هذا الشخص . غير ان الآخر كان واقفاً ، ونظيفاً تقريباً ، وحليقاً ..
وقال برونيه بغير حماسة :

- تعال من هنا . اذا اردت ان تظل واقفاً ، فبوسعك ان تستند

الى الجدار الصغير .

فانحنى الرجل ، والتقط رزمته ، ولحق برونيه وهو يتخطى الأجسام .
إنه شديد البأس ، ولكنه سمين بعض الشيء .

وقال : - مرحباً ، يا صاح .

قال : - مرحباً .

قال الرجل : - سأقف هنا .

فسأله برونيه : - هل انت وحدك ؟

قال الرجل : - لقد مات رجالي .

قال برونيه : - ورجالي أيضاً . ما اسمك ؟

فسأله الرجل : - ماذا تقول ؟

- أسألك عن اسمك .

- آه ، نعم : اسمي شنايدر . وأنت ؟

- برونيه :

ولزما الصمت : ما حاجتي الى مناداة هذا الرجل ، انه سيزعجني .

ونظر برونيه الى ساعته : انها الخامسة ؛ الشمس مخبئة خلف الثكنة ، ولكن السماء تظل ساحقة ؛ لا غيمة ، ولا رعشة : البحر الميت . ليس ثمة من يتكلم ؛ وحول برونيه ، يحاول البعض ان ينام ، وهم يدسون الرأس بين السدراعين ، ولكن القلق يخلفهم يقظين : فيستقيمون أو يتنهدون أو يحكّون رؤوسهم ، وقال مولو :

– ايه ! ايه ! ايه !

فالتفت برونيه : كان عشرة من الضباط يقودهم حارس ألماني يمرّون خلفه وهم يلامسون الجدران ، وسأل الأشقر ، من بين اسنانه :

– الا يزال هناك بعضهم ؟ ألم يلوذوا جميعاً بالفرار ؟

ويبتعد الضباط في صمت ، من غير ان ينظروا الى احد ؛ ويقهقه الرجال في انزعاج ويصرفون رؤوسهم لدى مرورهم : فكأنهم يخافون بعضهم بعضاً . ويبحث برونيه عن نظر شنايدر ، ويتبادلان بسمة . انفجار صيحات على الأرض : انه الرقيب يضحك مع بلوندينه . وقال البلوندينه الأشقر :

– جميعاً ! في السيارات ، وعلى الدراجات ، لقد افرتقوا جميعاً وتركونا في الخراء .

وشبك الرقيب ذراعيه :

– من المؤلم ان نسمع هذا . من المؤلم ، بالرغم من كل شيء .
فأجاب الأشقر :

– والدليل ان الألمان قالوها لنا . قالوها لنا حين اصطادونا ، قالوا :

لنا : الجيش الفرنسي جيش بلا قائد !

– والحرب الماضية ، ألم يربحها القواد ؟

– لم يكونوا القواد انفسهم .

– بل كانوا هم انفسهم ! ولكن كانت لديهم فرق اخرى .

– يعني ؟ أنحن الذين خسرنا الحرب ؟ الصف الثاني ؟ ولكن قلها ،

ما دمت تعنيها !
فأجاب الرقيب : - انني أقولها . اقول انكم هربتم امام العدو
وسلمتم فرنسا .

واحر لامبير الذي كان يستمع اليهما من غير ان يقول كلمة ،
وانحنى على الرقيب :

- ولكن قل لي : يا صديقي الصغير ، كيف حدث انك هنا ،
لو لم تهرب ؟ لعلك تظن انك متّ في ساحة الشرف ، واننا الآن في
الجنة ؟ اما انا ، فأظن انهم قبضوا عليك لأنك لم تكن تستطيع ان
تركض بسرعة كافية !

- لست صديقك الصغير : فانا رقيب ، ويمكنني ان اكون اباك .
ثم انني لم اهرب : فقد قبضوا عليّ حين نفذ رصاصي .
وزحف اليهم رجال من كسل صوب ، فاستشهدهم الأشقر وهو
يضحك :

- أتسمعونه ؟

فضحك الجميع . والتفت الأشقر الى الرقيب :

- نعم ، يا بابا ، نعم ، لقد أسقطت عشرين مظلياً ، وواقفت
دبابة بمفردي . وبوسعي ان أقول مثل ذلك : فليس هناك من أدلة .
فأشار الرقيب الى ثلاثة أمكنة فاتحة على سترته ، والتمعت عيناه :
- المدالية العسكرية ، جوقة الشرف ، صليب الحرب : لقد حصلت
عليها في حرب ١٤ ، حين لم تكونوا قد ولدتم بعد ؛ هذه هي أدلتي .
- وأين هي أو سمتك ؟

- لقد نزعتهما حين وصل الألمان :

وكان الجميع يصرخون حوله ، مستلقين على بطونهم ، أو مقوسين
من الأقدام حتى الرقبة ، فكأنهم الفقمة ؛ كانوا ينبحون ، وكانت
الحماسة تلون وجوههم ؛ وكان الرقيب في جلسته يشرف عليهم ،

وحيداً ضد الجميع . وصاح رجل :

– ايه ! قل لي ايها المنفوخ ، انتظن اني كنت مستعداً للقتال حين كانت اذاعة الاب بيتان تهتف في آذاننا أن فرنسا طلبت الهدنة ؟

وقال آخر : – وكنت تريد ان نعرض نفوسنا للقتل بينما كان الجنرالية يُصفون الحساب مع الألمان في قصر تاريخي ؟

فأجاب الرقيب في غضب :

– ولم لا ؟ إن الحرب قد صنعت لقتل الناس ، أليس كذلك ؟

فصمتوا لحظة ؛ مشدوهين بالغیظ ، فانتهزها الرقيب فرصة ليتابع :

– مضى وقت طويل وانا اراكم قادمين ، انتم فتیان الـ ٤٠ ،

الضراطين الصغار ، والسجن الغرامية ، وجماعة الاحتجاجات . لم يكن

أحد يجرؤ على التحدث اليكم ، وكان يجب على الكابتن ان يضع

قبعته بيده حتى يوجه اليكم الكلام : عفواً ، المعذرة ، هل يزعجكم

كثيراً ان تقشروا البطاطا ؟ وكنت اقول لنفسي : حذار ! سيأتي يوم

تقع فيه الحرب ، فإذا تراهم سيفعلون ، قوادى الأشداء ؟ ثم جاءت

نهاية كل شيء : المأذونيات . آه ! حين رأيت المأذونيات قلت

لحقيبي وداعاً ! مأذونيات ! لا بد انهم كانوا يجدونكم منفوخين جداً ،

فكانوا يرسلونكم سريعاً لتمصكم صاحباتكم حتى يزلن نفختكم قليلاً .

أكننا نأخذ مأذونيات في عام ١٤ ؟

– نعم ، كنتم تأخذون مأذونيات . لقد أخذتم بالفعل !

– وكيف عرفت ذلك ايها الطفل ؟ هل كنت في تلك الحرب ؟

– لم اكن فيها ، ولكن كان لي فيها صديق ، وهو الذي أخبرني .

– إن صديقك كان يخوض الحرب في مارسيليا . اما نحن ، فقد

انتظرناها عامين ، هذه المأذونيات ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تُلغى لادنى

سبب ، أتعرف كم قضيت من الوقت في بيتي خلال اثنين وخمسين

شهوراً من الحرب ؟ قضيت اثنين وعشرين يوماً . أجل ، اثنان وعشرون

يوماً ، يا صغيري ، فهل يدهشك هذا ؟ وهناك من يقول اني كنت محظوظاً .

قال لامبير : - كفى ، لا تقصّ علينا حياتك .

- انني لا أقصّ عليكم حياتي ، وانما اشرح لكم لماذا ربنا حاربنا ، ولماذا خسرتم حربكم .

والتمعت عينا بلوندينه بالغضب :

- ما دمت ذكياً الى هذا الحد ، فربما كان باستطاعتك ان تشرح

لنا لماذا خسرتم السلم ؟

فقال الرقيب مندهشاً : - السلم ؟

فصاح الآخرون : - نعم ! السلم ! لقد فقدت السلم .

قال بلوندينه : - انتم المحاربين القدامى ، كيف تراكم قد حميم

ابناءكم ؟ هل جعلتم المانيا تدفع الثمن ؟ هل نزعتم سلاحها ؟ ورينانيا ؟

والرور ؟ وحرب اسبانيا ؟ والحيشة ؟

وقال فتى طويل ذو رأس شبيه برغيف سكر :

- ومعاودة فرساي ! أنا الذي وقعتها ؟

فقال الرقيب ضاحكاً من الغيظ :

- بل ربما كنت أنا !

- نعم ، أنت ! انت تماماً ! كنت تنتخب ، أليس كذلك ؟

انا لم اكن انتخب ، لاني في الثانية والعشرين ، انني لم انتخب قط .

- وعلام يدلّ هذا ؟

- هذا يدلّ على انك كنت تنتخب كالخمار ، وانك ألقيت بنا في

الخراء . كان امامك عشرون عاماً لتُعدّها او لتجنّبها ، هذه الحرب ،

فماذا فعلت ؟ اقول لك يا صديقي انني انا اساوئك ، ولو كان لي

نادة وسلاح ، لحاربت مثلك . ولكن قل لي : بم تريدني ان احارب ؟

لم يكن معي حتى الرصاص .

فسأله الرقيب : - وعلى من يقع الذنب ؟ من الذي كان يصوت
لستالين ؟ من الذي كان يعلن الاضراب لمجرد ضربة ، لا لشيء إلا
ليبعص رب العمل ؟ من الذي كان يطالب بالزيادات ؟ من الذي كان
يرفض الساعات الاضافية ؟ السيارات والدراجات ، أليس كذلك ؟
المومسات الصغيرات ، العطل المدفوعة ، ايام الأحد في الارياف ، نوادي
الشبيبة والسينما ؟ لقد كنتم كسالى الى ابعد حد . اما انا ، فقد اشتغلت
حتى في ايام الأحد ، وطوال حياتي الكلبة كلها .

وأصبح وجه الأشقر أحمر ، فاقترب من الرقيب زاحفاً على اربع
وصاح في وجهه :

- كرّرها ، كرّر اني لم أشتغل ! قلها ثانية ! انني ابن ارملة ،
ايها الفرج ! وقد تركت المدرسة وانا في الحادية عشرة لأساعد امي .
كان يحتمل ، في أقسى الظروف ، ان يكون قد خسر الحرب ،
ولكنه لا يسمح ان يتهم بأنه لم يعمل . وفكر برونيه : قد يكون في
هذا ما يفيد . وركع الرقيب ، هو ايضاً ، على اربع ، وأخذنا
يصيحان معاً ، جبيناً لجبين . وانحنى شنايدر ، كما لو انه يريد التدخل ؛
فوضع برونيه يده على ذراعه :

- دعهما : انهما يمضيان الوقت .

فلم يُصر شنايدر ، واستوى وهو يرمق برونيه بنظرة غريبة .
وقال مولو : - كفى ، كفى ، لا تتقاتلا .

فعاد الرقيب الى الجلوس وهو يطلق ضحكة قصيرة ، وقال :

- انت على حق في ذلك ! لقد فات الاوان قليلاً لنتقاتل . لو

كان يرغب في ذلك ، فما كان عليه الا ان يفعله مع الألمان .

فهزّ الأشقر كتفيه وعاد يجلس بدوره . وقال :

- عجباً ! إنك تحدث لي ألماً في بطني !

صمت طويل . انهم جالسون جنباً الى جنب ؛ وينتزع الأشقر باقات

عشب ، ويتسلى في جدّها ؛ وينتظر الآخرون لحظة ، ثم يعودون الى أمكنتهم زاحفين ، ويتمطى مولو ويبسم ، ويقول بصوت مصالح :
- هذا كله غير جدّي ، هذا غير جدي .

ويفكر برونيه بالرفاق : كانوا يخسرون معارك ، وأسنانهم منقبضة ، ومن هزيمة الى هزيمة ، كانوا يسرون الى النصر . وينظر الى مولو .
اني لا اعرف هذا النوع . انه بحاجة الى ان يتكلم : إن شنايدر هنا .
ويتحدث اليه برونيه :

- اترى ؟ لم تكن بك حاجة الى التدخل .

فلا يجيب شنايدر . ويقهقه برونيه ، مقلداً مولو :
- هذا غير جدّي !

فلا يجيب شنايدر بشيء : ويظلّ وجهه الثقيل الجميل محايداً .
وينزعج برونيه ويوليه ظهره : إنه يكره المقاومة السلبية .
ويقول لامير : - اريد ان آكل .

فيوميء مولو باصبعه الى الحيز الذي يفصل السور عن الاوتاد ،
ويتكلم بصوت بطيء حارّ ؛ كأنه ينشد قصيدة :
- سيأتي الطعام من هناك ، سينفتح الحاجز ، وتدخل الشاحنات ،
فيلقون الينا بالخبز من فوق الشريط الحديدي .

وينظر برونيه الى شنايدر من زاوية عينه ويقهقه مردداً :

- اترى ؟ يخطيء من يفعل . فالهزيمة ، والحرب ، ليسا شيئاً
جدياً . إن الطعام هو المهم .

فتسيل نظرة هازئة قصيرة بين أجفان شنايدر ، ويقول بلهجة
مشاركة :

- ماذا فعلوا لك ، يا صديقي المسكين ؟ فانه لا يبدو عليك انك
تطيعهم .

قال برونيه بجفاء : - لم يفعلوا لي شيئاً ، ولكنني أسمعهم .

ويخفض شنايدر عينيه على يده اليمنى نصف المغلقة ، وينظر الى
أظافره ، ويقول بصوته الأجهش اللامبالي :

— من الصعب ان نساعد الآخرين حين لا نكن لهم الود .
ويقطب برونيه حاجبيه : كانت صورتني غالباً ما تظهر في الصفحة
الاولى من « الاومانيتيه » ، فمن السهل معرفتي .
— ما الذي يجعلك تعتقد اني أريد مساعدتهم ؟
فانظراً وجه شنايدر ، وقال برخاوة ،
— يجب علينا جميعاً ان نساعد بعضنا بعضاً :
قال برونيه : — بكل تأكيد .

ويحتمق على نفسه : كان ينبغي عليه اولاً ألا يغضب . ولكنه كان
يؤاخذ نفسه خاصة لأنه أظهر غضبه لهذا الأبله الذي يرفض ان يشاطره
إياه . وابتسم ، وهدأ .

وقال وهو يبتسم :

— اني لست الومهم هم .

— ومن تلوم إذن ؟

فنظر برونيه الى شنايدر بعنجه :

— الذين تلاعبوا بهم .

فضحك شنايدر ضحكة رديئة ، وصحح :

— الذين تلاعبوا بنا . فكلنا مركونون تحت لافتة واحدة .

وأحسن برونيه غيظه يولد من جديد ، فكاد يحنق ، وقال بصوت

مفطرط الحلم :

— اذا شئت . ولكني انا ، لو تعلم ، لم اكن مخدوعاً بذلك .

قال شنايدر : — وانا ايضاً . وماذا يؤثر ذلك ؟ فمخدوعين كنا

ام لا ، فنحن هنا .

— وبعد ذلك ؟ لماذا لا نكون هنا ، وفي مكان آخر ايضاً ؟

أصبح الآن هادئاً تماماً ، وفكر : ان لي مكاني وعملي ، حينئذ
يوجد الرجال . وكان شنيدر قد أدار عينيه نحو الباب ؛ ولم يقل
شيئاً بعد . وينظر اليه برونيه بلا كراهية : ترى ، ما هذا الشخص ؟
مثقف ؟ فوضوى ؟ ما كانت مهنته في عهد السلم ؟ انه مفرط السمنة
وبه شيء من عدم الكلفة ، ولكنه بالاجمال متهاسك ، ربما كان باستطاعته
ان يخدم .

وهبط المساء ، رمادياً مورداً على الجدران ، وعلى المدينة السوداء
التي لا ترى ؛ إن الرجال محدّدو النظر ، وهم يتطلعون الى المدينة
عبر الجدران . انهم لا يفكرون بشيء ، ولا يتحركون بعد قط ، فقد
هبط الصبر العسكري الطويل عليهم مع المساء : انهم ينتظرون . لقد
انتظروا البريد ، والمأذونيات ، والهجوم الالماني ، وكانت تلك
طريقتهم في انتظار نهاية الحرب . ولقد انتهت الحرب ، وما يزالون
ينتظرون . ينتظرون الشاحنات المليئة بالخبز ، والحراس الالمان ، والهدنة
ليحتفظوا فقط بكسرة مستقبل أمامهم ، وحتى لا يموتوا . وبعيداً في
المساء ، في الماضي يقرع جرس . ويتسم مولو :

— ايه يا لامبير ! لعلها الهدنة !

فأخذ لامبير يضحك ، وتبادلا غمزة مفهومة . وشرح لامبير
للآخرين :

~~لقد تعاهدنا على أن نأكل وجبة لذيذة هائلة !~~

قال مولو : — سنفعل ذلك يوم الصلح .

وقهقه البلوندينه الأشقر لهذه الفكرة وقال :

— اما انا ، فلن افيق من سكري خمسة عشر يوماً .

وقال الافراد من حوله :

— خمسة عشر يوماً ، بل شهراً ! حتى نموت من السكر ، يلعن ديبو !
كانوا بحاجة الى ان تهدم آمالهم واحداً واحداً ، وفي صبر ، وأن

تفجّر اوهامهم وان يُكشِف لأعينهم وضعهم المريع عارياً ، وان يُثار
اشمئزازهم من كل شيء ، ومن الجميع ، ومن أنفسهم باديء ذي
بدء . اذ ذاك فقط ... وكان شنايدر هو الذي ينظر اليه هذه المرة ،
كما لو انه كان يقرأ فكرته . نظرة قاسية . وبادله برونيه نظره .
وقال شنايدر : - سيكون صعباً .

وانتظر برونيه ، مرفوع الحاجبين .

وردّد شنايدر : - سيكون صعباً .

- ما الذي سيكون صعباً ؟

- ان نُعطى وعياً . فنحن لسنا طبقة . لسنا اكثر من قطع . قليل
من العمال : فلاحون ، وبورجوازيون صغار . بل نحن لا نعمل :
فنحن مجردون .

فقال برونيه بالرغم منه :

- لا تحزن ، فسوف نعمل ...

- نعم ، بكل تأكيد . ولكن كعبيد ، وليس هذا عملاً يحور ،
ولن نكون ابدأ الا تكملة . فأى عملٍ مشتركٍ يمكن ان يُطلب منا ؟
إن الاضراب يمنح المضربين وعياً بقوتهم . ولكن حتى ولو شبك جميع
الاسرى الفرنسيين أزرعتهم ، فان الاقتصاد الألماني لن يتأثر بذلك .
وتبادلا النظر ببرودة ، وفكر برونيه : لقد عرفتني إذن ؛ لا
بأس ، سوف أسهر عليك . وفجأة أضاء الحقد وجه شنايدر ، ثم انطفأ
كل شيء . ولم يدرك برونيه الى من كان هذا الحقد متجهاً . وندت
صوت مندهش مفتون :

- ألماني !

- اين هو ؟ اين هو ؟

ورفع الجميع أنوفهم ، فاذا بجندي يبرز في برج المراقبة الأيسر ،
ممرتدياً قبعة ، والرشاش في يده ، والقنبلة في الرزمة ؛ وتبعه آخر
يحمل بندقية .

وقال رجل : - اوه ! لقد تأخروا في الاهتمام بنا .

فبدأ على الجميع العزاء : ها هو عالم الرجال يعود ، بقوانينه ونواميسه وممنوعاته ؛ هذا هو النظام البشري . والتفتت الرؤوس نحو برج المراقبة الآخر . إنه ما يزال خالياً ولكن الناس ينتظرون بثقة ، كما ينتظرون فتح النوافذ في البريد أو مرور القطار الأزرق . وبدأت قبعة على ارتفاع الجدار ، ثم اثنتان : مسخان يرتديان قبعتين ويحملان رشاشاً يركزانه على محمله ويصوبانه الى الأسرى . ليس ثمة من يخاف ، ويقوم الجنود في البرجين ، ويعلن هؤلاء الحرس الواقفون على قمة الجدار ليلاً لا مغامرة فيه ؛ لن يأتي أي امر فيخرج الأسرى من سباتهم ليلقي بهم في الطرقات ؛ انهم يستشعرون الطمأنينة . وسحب فتى كبير يضع نظارتين من حديد كتاباً كهنوتياً من جيبيه وجعل يقرأه مدمماً . وفكر برونيه : « انه يمارس البغاء » ولكن الغضب انزلق عليه من غير ان يحترقه . وارتاح . للمرة الاولى منذ خمسة عشر عاماً ، يسير نهاراً ببطء شديد ، وينتهي بمساء جميل ، من غير ان يكون لديه ما يفعله . وصعدت بطالة قديمة من ايام حدثه ، وكانت السماء هنا ، قد حطت على الجدار ، متوردة ، قريبة ، غير صالحة للاستخدام . ونظر اليها برونيه في خجل ، ثم نظر الى الافراد عند قدميه يتحركون ويهمسون ويحلون رزمهم ويربطونها : مهاجرون علي ظهر سفينة . وفكر : « ليس الذنب ذنبهم » وأخذته الرغبة في ان يتسم لهم . وفكر بان قدميه تؤلمانه ؛ وجلس بالقرب من شنيدر ، فحل سير حذائه . وتثاءب ، وأحس بجسمه ، غير صالح للاستخدام كالسقاء ، وقال : « بدأ الطقس يبرد » غداً سوف يبدأ العمل . وكان اللون الرمادي يشمل الأرض ، وسمع صوت مصفقات ، صوتاً صغيراً عذباً ، ضجة صغيرة متلاحمة وغير منتظمة ، فأصغى اليها ، وحاول ان يتابع إيقاعها ، وتسلّى بالتفكير بأنها « مورس » وفكر فجأة : « بل هو شخص يصفق

أسنانه « واستوى ، فبيّز أمامه ظهراً عارياً عليه قروح متصلبة سوداء ،
انه الشخص الذي كان يصرخ في الطريق ، وزحف اليه : كان الرجل
مقشعراً .

قال برونيه : - ايه !

فلم ينجب الرجل ، فأخرج برونيه صدره من قربته .

- ايه !

ولمس الكتف العارية ، فأخذ الرجل يهدر ، والتفت فنظر الى
برونيه لاهثاً ، وكان المخاط يسيل من منخريه حتى فمه . ورآه برونيه
مواجهة للمرة الاولى : انه فتى جميل نصر ذو خدين أزرقين وعينين
عميقتين ، ولكن بلا جفون . وقال له برونيه بهدوء :
- لا تنفعل ايها الصغير . اردت ان أعطيك صدره .

فأخذ الفتى الصدره بهيئة خائفة ، فارتداها بوداعة وظلّ جامداً ،
متباعد الذراعين . وكان كماها مفرطين في الطول بحيث كانا يبلغان
أظافره . وضحك برونيه :

- شمهما .

فلم ينجب الفتى ، وكانت اسنانه تصطك ؛ وأخذ برونيه ذراعيه
فشمّر كميّه ، وقال الفتى :
- انها لهذا المساء .

قال برونيه : - ما الذي هو لهذا المساء ؟

قال الفتى : - المجزرة .

قال برونيه : - حسناً ، حسناً .

وبحث في جيب الفتى ، فأخرج منه منديلاً قدراً وملطخاً بالدم ،
فرماه وأخذ منديله الخاص فدهّه له :

- بانتظار ذلك ، تمخّط .

فتمخّط الفتى ، ووضع المنديل في جيبه وبدأ يهذي . فلامس

برونيه رأسه بلطف ، كما يلامس رأس حيوان ، وقال له :

- أنت على حق .

فهدأ الفتى ، وكفّت أسنانه عن الاصطكاك . واستدار برونيه الى جيرانه :

- من يعرفه ؟

فتحامل قصير أسمر ذو هيئة حيّة على مرفقيه وقال :

- انه شاربان .

قال برونيه : - راقبه بين وقت وآخر ، حتى لا يرتكب حماقات .

قال الرجل : - سأراقبه .

وسأله برونيه : - ما اسمك ؟

- فيرنيه .

- ماذا كنت تفعل ؟

- كنت عامل مطبعة في ليون .

عامل مطبعة : حظ من ثلاثة ؛ سأحدث اليه غداً .

قال برونيه : - ليلة سعيدة .

فقال عامل المطبعة : - ليلة سعيدة .

وعاد برونيه الى مكانه ، فجلس ، واستعرض الوضع . مولو : تاجر ، هذا مؤكد . لن نفيد شيئاً كثيراً منه . وكذلك الرقيب ، لا يمكن إصلاحه ؛ فهو من نوع كاغول . لامبير : شرس معاند . وهو الآن في إبان التحلل تحت وقاحته . يمكن كسبه . الشميمي : فلاح . جدير بالاهمال . ولم يكن برونيه يحب الفلاحين . البلوندينه الأشقر : هو ولامبير من طينة واحدة ؛ ولكن الأشقر أكثر ذكاء ، ثم انه يملك حساً احترام العمل . انه ثمرة ناضجة . عامل المطبعة : هو بالأغلب رفيق جديد ، وألقى برونيه نظرة على شنايدر الذي يدخن ، جامداً ، مفتوح العينين على سعتهما . « اما هذا ، فسرى أمره . »

ووضع الكاهن كتابه ، وتكلم ؛ وكان ثلاثة فتية مضطجعين بالقرب منه ، يصغون اليه في ألفة تقيّة . لقد كسب ثلاثة : سوف يهزمي بسرعة ، في الفترة الاولى على الأقل . وفكر برونيه : إن هؤلاء الفتية محظوظون . فبوسعهم ان يعملوا في وضح النهار ؛ سيتلون يوم الأحد قداسهم . وتنهذ مولو :

— لن تأتي بعد هذا المساء .

فسأله لامبير : — من تعني ؟

— الشاحنات . فالليل مفرط الظلام .

ونام على الأرض ، واضعاً رأسه على قربته . وقال لامبير :

— انتظر . إن عندي شراع خيمة . كم يبلغ عددنا ؟

قال مولو : — سبعة .

قال لامبير : — سبعة . انه يسعنا جميعاً . وسننام عليه نحن السبعة .

وبسط شراعه امام السلم .

— ومن معه لحاف ؟

فأخرج مولو لحافه ، وبسط الرقيب والشتيحي لحافيهما . ولم يكن

بلوندينه يملك لحافاً . وكذلك برونيه . وقال لامبير :

— لا بأس . سوف نتدبر الأمر .

وخرج من الظل وجه خجول مبتسم :

— اذا تركتموني أنام على شراع الخيمة ، شاركتكم بغطائي .

فنظر لامبير وبلوندينه الى الدخيل ، وقال بلوندينه :

— لم يبق مكان لك .

وأضاع مولو في لهجة اكثر وداً :

— انك تفهم ، فنحن رفاق فيما بيننا .

واختفت البسمة ، وقد التهمها الليل . وهكذا : تشكل فريق وسط

هذا الجمع ، فريق مصادفة ، بلا صداقة ولا تضامن حقيقي ، ولكنه

قد بدأ ينغلق من دون الآخرين ؛ وكان برونيه في داخله . وقال له شنايدر :

— تعال . فسوف ننام كلانا تحت غطائي .

فتردد برونيه :

— بعد قليل . لا رغبة لي بالنوم .

قال شنايدر : — وأنا كذلك .

وظلا جالسين جنباً الى جنب بينما كان الآخرون يلتفون بأغظيتهم ، وكان شنايدر يدخن وهو يخفي سيكارتته في يده بسبب الحرس . وأخرج علبة « غولواز » فدها الى برونيه .

— سيكارة ؟ اذا اردت ان تشعلها فاذهب وراء الجدار الصغير ، فانهم لا يرون اللهب .

وكان برونيه راغباً في التدخين . ورفض :

— شكراً . ليس الآن .

لانه لن يلعب لعب التلاميذ ، فهو ليس بعد في السادسة عشرة : ان معصية الألمان في الامور الصغيرة هي طريقة للاعتراف بسلطتهم .

وأضاءت النجوم الاولى . وفي الجانب الآخر من الجدار ، كانت تُسمع موسيقى حامزة ، موسيقى المنتصرين . وكان النوم يتدحرج علي عشرين الف جسم مهتريء ، وكل جسم موجه . وكان هذا الشرح

يهدر كالبجر . وبدأ برونيه يشعر بالضجر من ان لا يفعل شيئاً ؛ إن من الممكن تقليب اوراق سماء جميلة ، ونحن في الانتظار . ومثل ذلك النوم . والتفت الى شنايدر وهو يتشاءب ، وفجأة قست عيناه ، فاستوى : لم يكن شنايدر متنبهاً ، فقد انطفأت سيكارتته ولم يشعلها من جديد ، وتدلّت من شفته السفلى ، وكان ينظر الى السماء بأسى ، آن الاوان لمعرفة ما بداخله .

وسأل برونيه : — أنت من باريس ؟

- لا .

فاتخذ برونيه هيئة اللامبالاة وقال :

- اما انا فأسكن باريس ، ولكني من كومبلو ، بالقرب من سانت إتيان .

صمت . وبعد لحظة ، قال شنايدر على مضض :

- اني من بوردو .

قال برونيه : - آه ! آه ! اني أعرف بوردو جيداً . مدينة جميلة ، ولكنها حزينة ، أليس كذلك ؟ أمناك كنت تعمل ؟

- نعم .

- وماذا كنت تعمل ؟

- ماذا كنت أعمل ؟

- نعم .

- مساعد . مساعد محام .

قال برونيه : - آه !

وتثاءب ؛ لا بدّ من ان يتدبّر الأمر لرؤية دفتر شنايدر العسكري .
وسأله شنايدر :

- وأنت ؟

~~فانتفض برونيه :~~

- انا ؟

- نعم .

- وكيل .

- وعمّ كنت تتوكل ؟

- كل شيء تقريباً .

- فهمت .

وتداعى برونيه للاستناد الى الجدار الصغير ، ثم رفع ركبتيه حتى

تفه وقال بصوت قصي ، كما لو انه يستعرض أحداث يومه قبل أن ينام :

- وهكذا !

قال شنايدر بالصوت نفسه :

- هكذا ! هكذا !

قال برونيه : - لقد عرّوا لنا مؤخراتنا .

قال شنايدر : - كان ذلك مؤكداً .

قال برونيه : - بالرغم من هزيمتنا ، فمن حسن الحظ ان ذلك

انتهى بسرعة : إن النزف أقل .

فقهقه شنايدر : - سوف ينزفوننا شيئاً فشيئاً : وستكون النتيجة

واحدة .

فرمقه برونيه : - يبدو لي انك انهزامي .

- لست انهزامياً ، ولكني أحقق الهزيمة .

فسأله برونيه : - اية هزيمة ؟ ليس تمة من هزيمة اكثر مما هناك

من خراء !

وتوقف طائفاً ان شنايدر سيحتج ، ولكنه لم يبال . وكان ينظر

الى قدميه في كسل : وكان عقب سيكارتته ما يزال متديلاً من زاوية

شفته . ولم يكن برونيه ليستطيع ان يتوقف الآن : فيجب ان يبسط

فكرته ؛ ولكنها « ليست بعد » الفكرة نفسها . فلو ان هذا الأحمق

قد سأله مجرد سؤال ، لألقاها برونيه عليه كالحاطوف ؛ اما الآن ،

فينفره ان يتكلم . إن الكلمات ستنزلق على هذه الكتلة الضخمة اللامبالية

من غير ان تخلف فيها أثراً .

- يظن الفرنسيون ان الحرب خاسرة ، بدافع من الشوفينية . انهم

يتصورون دائماً انهم وحدهم في الدنيا ، فاذا تلقى جيشهم الذي لا

يقهر صفة ما ، أقنعوا أنفسهم بأن كل شيء قد ضاع وهلك .

فأرسل شنايدر صوتاً مخنفاً صغيراً ، وعزم برونيه على ان يكفني

به واستطرد :

— إن الحرب في بدايتها يا صديقي . وبعد ستة أشهر سنقاتل من « الكاب » الى مضيق « بهرنغ » .
فقهقه شنايدر وقال :

— نحن ؟

قال برونيه : — نحن الفرنسيين ، سنتابع الحرب في ميادين اخرى .
إن الالمان يريدون ان يجعلوا صناعتنا عسكرية ؛ وتستطيع البروليتاريا
ويجب عليها ان تمنعهم من ذلك ..

فلم يكن لدى شنايدر اي رد فعل ، وظل جسمه العتاتي جامداً .
ولم يكن برونيه يحب ذلك ، فان الصمت الثقيل المربك ، هو من
اختصاصه ؛ لقد هزم على أرضه بالذات ؛ كان يريد ان يحمل
شنايدر على الكلام ، وكان هو الذي ابتلع الصنارة في آخر المطاف .
وصمت بدوره ، وظل شنايدر على صمته : وكان يمكن لذلك ان يدوم
طويلاً . وبدأ برونيه يقلق : إن هذا الرأس افرغ مما ينبغي ، او أملاً
مما ينبغي . وكان ثمة ، غير بعيد عنها ، رجل يعوي عواء خفيفاً ،
وكان شنايدر هو الذي قطع الصمت هذه المرة ، فتكلم في شيء من
الحرارة :

— أسمعته ؟ إنه يظن نفسه كلباً .

فهز برونيه كتفيه : لم يكن ذلك اوان التعطف على فتي يحلم ،
وليس لي وقت أضيعه . وقال شنايدر بصوت ثقيل متحمس :

— يا للمساكين ! يا للمساكين !

وصمت برونيه ، فأضاف شنايدر :

— انهم لن يعودوا ابداً الى بيوتهم . ابداً .

والتفت الى برونيه وجعل ينظر اليه في كراهية ، فقال برونيه
صاحكاً :

– هيه ! لا تنظر اليّ هكذا ، فليس لي في الامر دخل .
فأخذ شنايدر يضحك ، وارتخى وجهه ، وانطقت عيناه :
– صحيح ، لا دخل لك في الأمر .
وصمتا ؛ وخطرت لبرونيه فكرة ، فاقترب من شنايدر وسأله
بصوت منخفض :

– اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا لا تحاول ان تفهم ؟

قال شنايدر : – يعني !

– هل انت متزوج ؟

– وعندي طفلان .

– ألسنت متفاهماً مع زوجتك ؟

– انا ؟ بل نحن نعبد بعضنا بعضاً .

– واذن ؟

قال شنايدر : – لا ادري . وانت ؟ هل ستفهم !

قال برونيه : – لا ادري ، سئرى ذلك فيما بعد .

وحاول ان يرى وجه شنايدر ، ولكن الليل لفّ الساحة ، فلم
يكن يُرى شيء بعد ابدأ ، الا ظلّ برجى المراقبة دون السماء . وقال
برونيه وهو يتشاءب :

– أظنّ اني سأنام .

قال شنايدر : – طيب . وانا ايضاً .

وتمدّد على شراع الخيمة ، ودفعاً قريتيهما الى الجدار ؛ ونشر
شنايدر غطاءه فالتفتّ به . وقال شنايدر :

– مساء الخير .

– مساء الخير .

وانقلب برونيه على ظهره ووضع رأسه على قريته ، واحتفظ بعينيه
مفتوحتين ، وأحسّ بحرارة شنايدر ، وحس بان عيني شنايدر

مفتوحتان . وفكر : « كنت بحاجة شديدة الى ان أرتبك بهذا الشخص . »
وتساءل أيهما حاور الآخر وناوره . وبين الفينة والفينة ، كان انهيار
مضيء صغير بخط السماء بين باقات النجوم ؛ وتحرك شنايدر على مهل
تحت الغطاء وقال :

— هل نمت يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه ، وكان ينتظر . ومرّت لحظة ، فسمع شخصياً
صغيراً مخناً ؛ لقد نام شنايدر . وسهر برونيه وحده : ضوءاً وحيداً
وسط هذه الليالي العشرين ألفاً . وابتسم ، وأغمض عينيه واستسلم ؛
وكان عربيان يضحكان في الغابة الصغيرة :

— اين عبد الكريم ؟

فأجابت العجوز : — لن يدهشي كثيراً ان يكون في مخزن الثياب .
وكان ، في الواقع ، هناك ، جالساً امام طاولة عمل ، هادئاً جداً
وهو يهدر « قتلّة ! قتلّة ! » وينزع ازرار ثوبه ، فيحدث كل زر
انفجاراً جافاً والهاعاً .

وقال شنايدر : — خلف الجدار ، اسمع !

فاستوى برونيه جالساً ، وحكّ رأسه ، فاذا هو امام ليل غريب
مليء بالضجيج :

— ماذا هناك ؟

— اسمع ! اسمع !

فرمى برونيه الغطاء وانبطح خلف الجدار الصغير مع شنايدر .
وانتحب صوت :

— قتلّة !

وصرخ أحدهم بالالمانية ، ثم كانت طلقات الرشاش الجافة . وتطلع
برونيه بحذرٍ من فوق الجدار ، فرأى على ضوء الالتماعات ، فرقة
برمتها من الشجر الكسيح ، رافعاً نحو السماء أغصاناً معقدة وملوية ،

عَآلمته عيناه ، وأحسّ رأسه فارغاً فقال :

— الانسانية المتألّمة .

فجرّه شنيدر الى خلف :

— الانسانية المتألّمة ، طز فيها ؛ انهم يضحّون بنا .

فبكى الصوت : — كالكلاب ! كالكلاب !

وكفّ الرشاش عن الإطلاق ، وأمرّ برونيه يده على جبينه ،

واستيقظ تماماً

— ما الذي يحدث ؟

قال شنيدر : — لا أدري . لقد أطلقوا مرتين ؛ في المرة الأولى

ربما كان ذلك في الهواء ، اما في الثانية ، فقد كان الأمر جدّاً .

وكانت الغاية تنغل حولها : ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ ويجيب قادة

مرتجلون : اسكتوا ، لا تتحركوا ، ابقوا نائمين . ويبدو برجا المراقبة

أسوديه ازاء السماء الخليبية ، وفيها رجال يرصدون ، والاصبع على

زناد الرشاشات . وكان برونيه وشنيدر راكعين خلف الجدار ،

يريان في البعيد العين المستديرة لمصباح كهربائي . ويقترب المصباح ،

تؤرجحه يد غير مرئية : فيكنس بضوئه حشرات رمادية ومسطحة .

ويتحدّث صوتان أحمان باللغة الالمانية ، ويتلقى برونيه المصباح ملء

وجهه ؛ فيغمض عينيه ، وقد أعماه النور ، ويسأل صوت بلهجة قوية :

— من الذي صرخ ؟

فقال برونيه : — لا أدري .

ونفض الرقيب ، وكان بالغ السرور ، منتصباً باستقامة تحت النور

الكهربائي ، قريباً وبعيداً في وقت واحد :

— انه جندي أصيب بالجنون ، فأخذ يصرخ ، وخاف رفاقه فنهضوا ،

وعند ذاك أطلق الحارس النار .

فلم يفهم الالمانيان ، فحدّثها شنيدر بالالمانية ، ودمدم الالمانيان

بدورهما ، فالتفت شنايدر نحو الرقيب .

– يقولان ان تسأل ان كان هناك جرحى .

فاستوى الرقيب ، ووضع يديه حول فمه بحركة دقيقة حيية وصاح :-

– أخبرونا عن الجرحى .

فأجابته أصوات ضعيفة من كل صوب ؛ وأضاءت منارتان فجأة ، وهبط كالثلج نور ساحر يداعب الجمع الراكع ؛ وأجتاز ألمان الساحة بالحمالات ، فلقق بهم ممرضون فرنسيون ، وسأل الضابط الألماني في جهد :

– اين المجنون ؟

فلم يجب أحد ، ولكن المجنون كان هناك واقفاً ، مرتجف الشفتين . أبيضهما ، ودموع تسيل على خديه ، فأحاط به الجنود وأخذوه ، فاستسلم لهم مذهولاً ، ومسح أنفه وفمه بمنديل برونيه . وكان الرجال منتصبين نصف انتصاب ، ينظرون الى هذا الشخص الذي تألم ألمهم حتى ذروته ؛ وكان لذلك مذاق الهزيمة والموت . واختفى الألمان ، وتثاءب برونيه ، وكان النور يؤلم عينيه . وسأل مولو :

– ماذا سيفعلون به ؟

فهزّ برونيه كتفيه ، واكتفى شنايدر بالقول :

– ان النازيين لا يحبون المجانين .

وكان رجال يروحون ويجيئون بالحمالات ، وقال برونيه :

– اعتقد ان بوسعنا ان نعود الى النوم .

فعادوا الى النوم . وضحك برونيه : ففي المكان نفسه الذي كان متمدداً عليه ، كان ثمة ثقب في شراع الخيمة ، ثقب ذو أطراف مشيطة ؛ وأشار اليه ، فاخضرّ مولو وارتجفت يده وقال :

– اوه ! اوه ! اوه !

وقال برونيه وهو يبتسم لشنايدر :

- لقد انقذت حياتي بالاجمال .
 فلم يبتسم شنايدر ، بل نظر الى برونيه نظرة جدّ وتبرم وقال ببطء :
 - نعم ، لقد انقذت حياتك .
 وقال برونيه وهو يلتفّ بالغطاء :
 - شكراً على كل حال .
 قال مولو : - اما انا ، فسأنام خلف الجدار .
 وانطفأت المنارتان فجأة ، وصرت الغابة ، وطققت ، وضجت ،
 وهمست ، واستوى برونيه ، وملء عينيه شمس ، وملء رأسه نعاس ،
 ونظر الى ساعته : الساعة السابعة . وكان الرجال منهمكين في طي
 أشعة الخيم ، ولفّ الأغطية . وأحسّ برونيه بأنه متسخ دبق :
 لقد رشح في اثناء الليل وكان قميصه يلتصق بجسمه . وقال بلوندينه :
 - يلعن دين ! انني جائع !
 وبجوزن ، سأل مولو بعينيه الباب الكبير المغلق :
 - يوم آخر بلا طعام !
 ففتح لامبير عينه غاضباً :
 - لا سمح الله !
 ونهض برونيه ، فحذج الساحة ، فرأى تجمّعاً حول انبوب سقاية ،
 فاقترب ؛ كان رجل ضخّم عارٍ تماماً يغتسل وهو يطلق صرخات امرأة .
 ونزع برونيه ثيابه ، فأخذ دوره ، وتلقى على ظهره وعلى بطنه وابلاً
 مثلجاً قاسياً ؛ وارتدى ثيابه من جديد من غير ان يتجفف ، وراح
 يُمسك بالانبوب ، ويغسل الثلاثة التاليين . وكان هواة « الدوش »
 قليلين ، فقد كان الرجال يحرسون على عرقهم الليلي . وسأل برونيه :
 - دور من ؟
 فلم يجب أحد ، فوضع الانبوب في شيء من الغضب ، وفكر :
 « هكذا ! هكذا الرجال ! » سيكون الأمر قاسياً . ووضع سترته تحت

خزاعه ، ليخفي أوسمته ، واقرب من جمع يتحدث بصوت منخفض
رغبة منه في معرفة الجو . إن هناك تسعة حظوظ على عشرة أنهم
يتكلمون عن الطعام . ولن يشكو برونيه من ذلك : فالطعام نقطة
ممتازة ؛ ان ذلك شيء بسيط ومحسوس ، انه حقيقي : فان الانسان
الجائع عجينة يسهل العمل فيها . ولكنهم لم يكونوا يتحدثون عن
الطعام ؛ وعرفه شاب طويل هزيل ذو عينين حمراوين :

— أنت الذي كنت الى جانب المجنون ؟

قال برونيه : — نعم ،

— ماذا فعل ، تماماً ؟

— لقد صرخ .

— هذا كل شيء ؟ خراء إذن ! المجموع : اربعة قتلى ، وعشرون

جريحاً .

— كيف عرفت ذلك ؟

— لقد أبلغنا ذلك غارتيزر .

وكان غارتيزر رجلاً مربعاً ذا خدين رخوين ، وعينين كئيبتين

تتمتآن عن الاهتمام . وسأله برونيه :

— انت ممرض ؟

فأوما غارتيزر برأسه : نعم ، انه ممرض ، وقد أخذه الألمان الى

«الاصطبلات ، خلف الثكنة ، ليُعنى بالجرحى .

— وكان في الجرحى من مات بين يدي .

وقال رجل : — إن هذا لؤم . لؤم ان نموت هنا ، قبل ثمانية

أيام من العودة .

فسأل برونيه : — ثمانية أيام ؟

— ثمانية ايام او خمسة عشر اذا شئت . فلا بد ان يُطلقونا ما

حداً لا يستطيعون إطعامنا .

وسأل برونيه : - والمجنون ؟

فبصق غارتيزر بين قدميه :

- لا تتحدث عنه !

- ماذا ؟

- لقد ارادوا ان يسكتوه ، فقام أحدهم بوضع يده على فمه ، واذ
ذلك عضته . اوه ؟ يا امي ليتك رأيتهم ! لقد أخذوا يصرخون بلغة
غير مفهومه ، ودفعوه الى زاوية من الاصطبل وراحوا يضربونه
بقبضات ايديهم وأعقاب بنادقهم ، وكان ذلك في النهاية يسليهم ويثير
ضحكهم ، وكان ثمة أشخاص من عندنا يمتسونهم لأن ابن البغي
هذا هو ، على حد قولهم ، سبب كل شيء . واخيراً ، لم يكن الفتى
جميلاً ، كان فمه شورباء ، وعينه جاحظة ، فوضعه على حمالة
وساقوه الى حيث لا ادري ، ولكن لا بد أنهم تسلوا معه مرة اخرى ،
لأنني سمعته يزعم حتى الساعة الثالثة صباحاً .

وأخرج من جيبه شيئاً ما ملفوفاً بقصاصة جريدة :

- انظروا هذا .

وفتح الورقة :

- إنها سن . لقد وجدتها هذا الصباح في المكان الذي سقط فيه ..

ثم طوى المدقة بعناية ، ووضعها في جيبه ، وقال :

- انني احتفظ بها كتذكار .

واولاهم برونيه ظهره ، وعاد بهدوء الى السلم . وصاح به مولر

من بعيد :

- هل عرفت النتيجة ؟

- اية نتيجة !

- نتيجة هذه الليلة : عشرون قتيلاً وثلاثون جريحاً .

قال برونيه : - فظاعة !

قال مولو : - لا بأس .

وابتسم بسرور غامض وردّد :

- كنتيجة ليلة اولى ، لا بأس على الاطلاق .

وسأل لامبير : - ما حاجتهم الى تبذير رصاصهم ! اذا ارادوا ان يتخلصوا منا فليس عليهم الا ان يتركونا نموت جوعاً ، كما بدأوا .

قال مولو : - لن يدعونا نموت جوعاً .

- وما يدريك ؟

فابتسم مولو : - ليس لك الا ان تفعل مثلي : انظر الى الباب

الكبير ، فهذا يسليك ، ثم ان الشاحنات ستأتي من هنا .

وغطى صوته ضجيج محرك ، فصاح الشتيمي :

- انظر الى الطائرة .

وكانت طائرة مراقبة تحلق على ارتفاع خمسين متراً ، سوداء لامعة ، وكانت تمرّ فوق الساحة ، ثم انعطفت على جناحها الايسر مرتين ، ثلاث مرات ، وكان عشرون الف رأس تتابعها ، والساحة كلها تدور معها . وقال المجمعّد الشعر في لامبالاة :

- واذا قصفونا ؟

قال مولو : - قصفونا ؟ ولماذا ؟

- لأنهم لا يستطيعون إطعامنا .

ونظر شنايدر الى الطائرة وهو يطرف بعينيه ؛ وقال وهو يكرّ في

الشمس :

- بل أعتقد انهم يصوروننا ...

فسأل مولو : - لماذا ؟

فأوضح شنايدر بغموض : - مراسلو حرب ..

فاحر خدّاً مولو السمينان ، وتحول خوفه الى غضب ، فاذا به

يستوي فجأة . ومدّ ذراعيه نحو السماء ويصيح :

— مدّوا لهم ألسنتكم ايها الرفاق ، مدّوا لهم ألسنتكم ، فيبدو انهم
يصوروننا .

وتسألني برونيه : إن رعشة غضب قد سرت في الجموع ؛ فقد
جندي قبضته ، بينما ابرز جندي آخر بطنه ، وأدخل بنصره في شق
ينطاله ونصب إبهامه نحو الطائرة كأنه عضو تناسلي ، وارتمى الشتيمي
على أربع ، فخفض رأسه ورفع مؤخرته :

— قفاي ، سيصورونه !

ونظر شنايدر الى برونيه وقال :

— اترى ، ما تزال لدينا قوة .

ومضت الطائرة في الشمس . وقال برونيه :

— هذا لا يدل على شيء .

وقال مولو : — إذن سيرون مخي في جريدة « الفرنكفورتر » ؟

وكان لامبير قد اختفى وعاد هائجاً :

— يبدو ان باستطاعتنا ان نؤثث انفسنا بثمانٍ غير مرتفع .

— ماذا تقول ؟

— إن وراء الشكينة أثنائاً ، كالفُرُش والدلاء ، والآنية ، وليس

علينا الا ان ننحي لناخذها ، ولكن يجب ان تعجلوا لأن هذه سوق

السرقه !

ونظر الى رفاقه بعينين ملتصقتين :

— هل يأتي الرفاق ؟

قال المجعد وهو يقفز على قدميه :

— انا آتي .

ولم يحرك مولو ساكناً ، فقال لامبير :

— تعال يا مولو .

قال مولو : — لا ، فأنا أقتصد . فما دمت لم أكل ، فلن أتحرك .

فقال الرقيب : - اذن ، احرس الامتعة .
 ونهض وانضم الى الآخرين وهو يعدو . وحين بلغوا زاوية الثكنة ،
 صاح بهم مولو بصوت رخو :
 - انكم تبذرون قواكم ، ايها الفروج الحمير !
 وتنهد ، ونظر الى برونيه وشنايدر في قسوة ، وقال هامساً :
 - ما كان ينبغي لي حتى ان أصرخ .
 وسأل شنايدر : - هل نلحق بهم ؟
 فسأله برونيه : - وماذا نفعل بدلو ماء ؟
 - اوه ! لنذهب فقط خدر سيقاننا .
 وكان في الجهة الاخرى من الثكنة ساحة اخرى وبناية طويلة ذات
 طابق واحد ذي اربعة ابواب : الاصطبلات . وكان مركوماً في زاوية
 منها فرش قديمة ورفاصات وسرر ذات أطر ، وخزائن مرتعشة ،
 وطاولات عرجاء . وكان الجنود يتدافعون حول هذه البقايا ؛ واجتاز
 احدهم الساحة حاملاً فراشا ، بينما احتمل آخر تمثالا من الخيزران .
 وطاف برونيه وشنايدر بالاصطبلات ، فاكتشفا تلة صغيرة معشبة .
 وسأل شنايدر :
 - هل نرقاها ؟
 - لنصعد .
 وأحس برونيه بالضيق : ماذا يريد ، صاحبنا ؟ صداقة ؟ إن
 ذلك لا يناسب بعد عمري . وفي أعلى التلة ، رأيا ثلاث حفر مردومة
 حديثاً ، فقال شنايدر :
 - اترى ، انهم لم يقتلوا الا ثلاثة .
 وجلس برونيه على العشب بالقرب من القبور .
 - أعطني مديتك .
 فناوله شنايدر إياها ، ففتحها برونيه وبدأ يفتق أوسمته . فقال

شنايدر :

— أنت على خطأ ، إن نواب الضباط معفون من العمل .
فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ، ووضع الأوسمة في جيبه ثم
نهض . وعاد الى الساحة الاولى ، فاذا بالاشخاص ينتقلون ؛ وكان
فتى جميل ذو وجه وقح يتأرجح في أريكة هزازة ؛ وامام خيمة
منصوبة ، جرت رجلان طاولة وكرسيين ، وراحا يلعبان بالورق في
انتصار ؛ وكان غارتيزر جالساً على حافة سرير فارسي منقطة بالحروق .
وقال برونيه :

— إن ذلك يذكرني « بسوق البراغيث »^١

وقال شنايدر : — أو بسوق عربية .

واقرب برونيه من لامبير :

— بم تراك قد عدت ؟

فرفع لامبير رأسه في زهو وقال :

— صحون .

وأشار الى نضد من الصحون المثلثة ذات القعر المسود .

— وماذا تريد ان تفعل بها ؟ أن تأكلها ؟

قال مولو : — دعه وشأنه ، فرمما جاء ذلك بالطعام .

وكانت الصبيحة بطيئة : وقد سقط الرجال مرة اخرى في الخدر ؛
وكانوا يحاولون ان يناموا ، أو يتمددون على ظهورهم ، وسحنهم
متجهة الى السماء ، وعيونهم مفتوحة ثابتة ؛ كانوا جائعين . وانتزع
المجعد الشعر العشب الذي ينبت بين الحصى وأخذ يمضغه ؛ وأخرج
الشتيمي مديته وأخذ ينقش قطعة من خشب . وأشعلت جماعة من الرجال
ناراً تحت قدر صدئة . ونهض لامبير ، فذهب يرى ، وعاد خائباً ،

(١) هي سوق يباع فيها الاثاث القديم الذي قد تمسش فيه الحشرات والبراغيث لقدمه ، وهي
معروفة في باريس (المترجم) .

وقال موضحاً وهو يتداعى للسقوط بين المجدد ومولو :

– انه حساء القُرَّاس . وهو لا يغذي .

تبديل الحراس الألمان ، وقال الرقيب بلهجة غائبة :

– ذهبوا يأكلون .

وقام برونيه يجلس بالقرب من عامل المطبعة ، وقال له :

– هل نمت جيداً ؟

قال عامل المطبعة : – لا بأس .

ونظر اليه برونيه في رضى : كان على هيئة واضحة ونظيفة ، مع شعاع مرح في عينيه ؛ حيطان من ثلاثة .

– قل لي ، كنت اودّ ان أسألك : أفي باريس كنت تعمل ؟

قال عامل المطبعة : – لا ، بل في ليون .

– اين ؟

– في مطبعة ليفرو .

قال برونيه : – آه ! ليفرو ، لا أعرف غيرها . لقد قتم باضراب رائع عام ٣٦ ، اضراب جريء ومنظم .

فضحك عامل المطبعة ضحكة اعتزاز . وسأله برونيه :

– لا بدّ اذن ان تكون قد عرفت بيرنو ؟

– بيرنو ، الممثل النقابي ؟

– نعم .

– طبعاً .

ونفض برونيه : – تعال لنقم بدورة . اريد ان اكلمك :

وحين أصبحت في الساحة الثانية ، نظر اليه برونيه مواجهة :

– هل أنت في الحزب ؟

فتردّد العامل ، وقال له برونيه :

– أنا برونيه ، من جريدة « الاوما » .

قال العامل : - هكذا إذن . كنت اقول لنفسي ...
 - هل لك رفاق هنا ؟
 - اثنان أو ثلاثة .
 - أشخاص شجعان ؟
 - اشداء جداً . ولكنني أضعتهم أمس في الصفوف .
 قال برونيه : - حاول ان تجدهم . وتعال لتراني معهم : فيجب ان نتجمع من جديد .
 وعاد يجلس بالقرب من شنايدر ، فرماه بنظرة سريعة ، فإذا وجه شنايدر هادياً لا يعبر عن شيء .
 وسأل شنايدر : - كم الساعة ؟
 قال برونيه : - الساعة الثانية .
 وقال المجمعّد : - انظر الى الكلب .
 وكان يعبر الساحة كاب كبير أسود ، متدلي اللسان ، وكان الرجال ينظرون اليه نظرة غريبة . فسأل الرقيب :
 - من اين هو قادم ؟
 قال برونيه : - لا ادري .
 وربما كان في الاصطبلات . وتحامل لامبير على مرفق ، وتابع بعينيه الكلب في تملل . وقال كما تحدث نفسه :

- إن لحم كلب ليس رديئاً بالدرجة التي يقولون .
 - هل أكلت منه ؟
 فلم يجب لامبير ؛ واتي بحركة انزعاج ، ثم تداعى للسقوط على ظهره في استسلام قدره . وكان الشخصان اللذان يلعبان بالورق امام الخيمة قد تركا ورقهما على الطاولة ونهضا بهيئة اهمال ؛ وكان أحدهما يحمل تحت ذراعه شراع خيمة . وقال لامبير :
 - بعد فوات الاوان .

لقد اختفى الكلب خلف الثكنة ، فتبعاه بلا عجلة ، واختفيا خلفه
وقال الشيمي :

— اتراهما سيقبضان عليه ؟ ام لا ؟

وبعد لحظة ، عاد الرجلان : وكانا قد عقدا الشراع حول شيء
ضخم وحمله كل بطرف ، كأرجوحة للنوم . وحين ألما برونيه ،
سقطت نقطة من الشراع ، وانسحقت حمراء على الحصى . وقال
الرقيب ملاحظاً :

— مادة رديئة . فقد كان على القماش ان يكون كتيماً .
فهز رأسه ودمدم :

— كل شيء متشابه . فكيف كنت تريد ان نربح الحرب ؟
وألقى الرجلان رزمتها في الخيمة ، ودخلها احدهما على أربع ،
بينما ذهب الآخر يبحث عن خشب لإيقاد النار . وتنهّد المجدد :
— على كل حال ، سيخلف ذلك اثنين من الأحياء .
وكان برونيه نائماً ، فأيقظه في زعر صرخة من مولو :
— ! هاي ؟ هاي ! الطعام .

وانفتح الباب على مهل . ونهض مئة شخص : سيارة شحن .
ودخلت السيارة مغطاة ، وعلى ظهرها زهور واوراق ، كأنها

~~السبع ، ونهض المنس . رسلكم السيارة الطريق بين جدران~~
السور والحاجز . ونهض برونيه ، فإذا هو مدفوع ، مسحوب ،
ملقى على الاسلاك الحديدية . وكانت السيارة فارغة . وكان ألماني
عار حتى النطاق ينظر اليهم قادمين بتثاقل . بشرة سمراء ، شعر أشقر .
عضلات طويلة مغزلية الشكل ، عليه هيئة رجل مترف ، من هؤلاء
الشباب الجميلين الذين يتزلقون نصف عراة في سان موريتز . وارتفع
نحوه الف زوج من العيون ، فكان ذلك يسأيه : كان ينظر في ابتسام
الى هذه الحيوانات الليلية الجائعة التي تلتصق بقضبان قفصها لتراه رؤية

أفضل . وبعد لحظة انحنى الى خلف ، ونادى حراس البرجين الذين أجابوه وهم يضحكون . وانتظر الجمع مبهوراً ، وكان يترصد حركات سيده ، ويهذي من فرط السرور ونفاد الصبر . وانحنى الألماني ، فالتقط كرة من الخبز في قعر السيارة ، وأخرج مديّة من جيبه ففتحها وسنّها بنعله وقطع شريحة . وخلف برونيه ، أخذ شخص يلهث . وحمل الألماني الشريحة الى أنفه وتظاهر بأنه يشمّها في تلذذ ، وعيناه نصف مغمضتين ، وكانت الحيوانات تزجر ، وأحس برونيه بان الغضب يلوي حلقة . ونظر اليهم الألماني من جديد ، فابتسم وتناول الشريحة بين الابهام والسبابة كالمطّخة ، وصوّب الى مكان أقرب مما ينبغي - وربما عن قصد - فسقطت بين السيارة والأتاد . وكان رجال قد انحنوا لينسلّوا تحت الاسلاك الحديدية : فصاح حارس البرج بأمر جاف وصوّب اليهم رشاشه . وظلّ الرجال ملتصقين بالحاجز ، فاغري الفم ، وفي عيونهم الجنون . وتمتم مولو وهو ملتصق برونيه : - سيء الوضع ، فأريد ان اذهب .

ولكن ضغط الجمع يسحقه على برونيه ، فيحاول عبثاً ان يتحلّل ويصبح :

- ارجعوا ، ارجعوا ، ايها الحمقى ؛ الا ترون ان الأمر سيُعاد من جديد ، كما حدث هذه الليلة ؟

وفي السيارة ، كان الألماني يقطع شريحة ثانية ؛ وقذف بها فدارت في الهواء وسقطت بين الرؤوس المرفوعة ؛ وأخذ برونيه في اهتزاز هائل ، فأحسّ بأنه مدفوع ، مُزاح ، مضروب ، ورأى مولو تحمله دوامة فيرفع يديه في الهواء ، كما لو انه كان يغرق . وفكر : « يا للقذرين ! يا للقذرين ! » وكان يودّ لو يضرب الرجال الذين يحيطون به ، بيديه او بقدميه . وسقطت شريحة اخرى ، وثالثة ، وكان الرجال يتنازعون : وتخلّص شخص شديد البأس وهو يضغظ في

يده شريحة ، فقبضوا عليه ، وحاصروه ، فدسّ الشريحة برمتها في فمه وهو يدفعها بظاهر يده ليدخلها ؛ وتركوه ، ففضى بخطى بطيئة وهو يدير عينين قلقتين . وظلّ الألماني يتسلّى ، فيرسل الشرائح الى اليمين والشمال ، ويتصنّع حركات ليخيب الجمهور . وسقطت قطعة خبز تحت قدمي برونيه ، فرآه عريف اول ، فانزلق وهو يصدم برونيه ؛ وقبض عليه برونيه من كتفيه فألصقه به . وكان الجمع قد انقذف على القطعة الراقدة في الغبار . ووضع برونيه قدمه على القطعة ونكث الارض بنعله ، ولكن عشر أيدٍ قبضت على ساقه ، فأزاحتها والتقطت الفتات الملوّث بالتراب . وكان العريف الاول يتخبّط بغضب : لقد سقطت قطعة اخرى ازاء حدائه .

— هل لك ان تتركني ، ايها الفرّج القذر ! هل تتركني ؟
ولكن برونيه يقاوم بشدّة ، فيحاول الرجل ان يضرب ، ويتفاداه برونيه بمرفقه ، ويضغظ بكل قواه : وكان مسروراً . وقال الرجل بصوت أبيض :
— انك تخنقني !

ويظلّ برونيه يشدّ ، ويرى الشرائح تمرّ فوق رأسه في طيران أبيض ، فيظلّ يشدّ ويزداد سروراً ، فيستسلم الرجل بين ذراعيه . وقال صوت :
— انتهى .

فارتدّ برونيه برأسه الى خلف : كان البربري يُغلق مديته . ويفتح برونيه ذراعه : فيتهدى العريف الاول ، ثمّ يخطو خطوتين جانبيتين ليستعيد توازنه ، ويسعل وهو ينظر الى برونيه في ذهول حاقد . وابتسم برونيه ، ونظر الرجل الى كتفي برونيه ، فتردد ثمّ تتمّ :
— فرّج قدر !

وانقتل . وسال الجمع ببطء خائباً ، ولكن فعوراً . وكان بعض

المحظوظين ما يزالون مضمغون ، في إحساس من العار ، وايدهم امام أفواههم ، وهم يديرون عيوناً طفولية. وكان العريف الاول قد انزاع بازاء وتد ، وكانت شريحة خبز ترقد في الغبار المفحم ، بين سيارة الشحن والحاجز ، فكان ينظر اليها . وقفز الألماني من سيارة الشحن ، فسار محاذياً الجدار ، وفتح باب كوخ والتمعت عيننا العريف الاول ، وراح يترصد . وأدار الحراس رؤوسهم ، فأرتمى على أربع ، وانسل تحت اسلاك الحديد ، فدفّ يده ؛ همجرة : وصوب اليه الحارس . واراد ان يتقهقر ، فأوماً له الحارس الآخر بان يظلّ جامداً . وانتظر ممتعاً ، لا تزال يده ممدودة ، ومؤخرته في الهواء . وكان ألمانيّ سيارة الشحن قد عاد أدراجه ، فاقرب على غير عجل ، ورفع الرجل بيده ، وباليدي الاخرى ارسل له صفعة شديدة ، وضحك برونيه حتى سالتدموعه وقال صوتاً وراءه بهدوء :

— انك لا تحبنا كثيراً .

فانتفض برونيه واستدار . انه شنايدر . وساد صمت ؛ وتابع برونيه بعينه العريف الاول الذي كان الألماني يقوده بركلات شديدة نحو الكوخ ، ثم قال شنايدر بصوت محايد :

— اننا جائعون .

فهزّ برونيه كتفيه :

— لماذا تقول « اننا » ؟ هل التقطت الشرائح انت ؟

قال شنايدر : — طبعاً ، فانا جائع كجميع الآخرين .

قال برونيه : — ليس هذا صحيحاً . لقد رأيتك .

فهزّ شنايدر رأسه :

— سواء التقطت الشرائح ام لا ، فالأمر سواء .

وراح برونيه ، خافض الجبين ، ينكث الأرض بعقبه ليدفن الفتات في الغبار ؛ وعراه إحساس غريب جعله يرفع رأسه بسرعة ؛ وفي اللحظة نفسها ، أنطقاً شيء ما في عيني شنايدر ، فلم يبق بعداً الا

غضب مائع " يثقل وجهه ، وقال شنايدر :

- نعم ، نحن جشعون ! نعم ، نحن جبناء ، نحن منحطون ،
اتكون هذه غلطتنا ؟ لقد سرقوا منا كل شيء : مهنتنا ، وأسرنا ،
ومسؤولياتنا . ولكي تكون شجاعاً ، فيجب ان يكون لديك شيء تفعله ،
وإلا فانت تحلم . ولم يكن لدينا « شيء » ما نفعله بعد . حتى ولا ان
نكسب قوتنا ، لم يُحسب لنا بعد حساب . اننا نحلم ؛ واذا كنا جبناء ،
ففي الحلم . أعطنا عملاً ، وسترى كيف نستيقظ .

وكان الألماني قد خرج من الكهف ؛ وكان يدخن ؛ وخرج العريف
الاول خلفه وهو يعرج : وكان يحمل مجرفة ومعولا . قال برونيه :

- ليس عندي عمل اعطيك إياه . ولكن ، حتى بلا عمل ، يستطيع
المرء ان يتصرف تصرفات سليمة .

فرفعت رعشة شفة شنايدر العليا ، ثم سقطت . وابتسم شنايدر :

- كنت أحسبك اكثر واقعية . تستطيع بكل تأكيد ان تتصرف
تصرفاً سليماً ، ولكن ماذا يغير ذلك : إنك لن تساعد احداً ، ولن
يفيد ذلك الا بخلق رضى شخصي . (وأضاف بسخرية) الا ان كنت
تؤمن بفضيلة القدوة .

ونظر برونيه برودة الى شنايدر وقال له :

- لقد عرفني ، أليس كذلك ؟

قال شنايدر : - نعم ، انت برونيه من « الاوما » ، غالباً ما
رأيت صورتك .

- هل كنت تقرأ « الاوما » ؟

- كان يتفق لي ذلك أحياناً .

- هل أنت منا ؟

- كلا ، ولكني لست ضدكم .

فكر " وجه برونيه . وعادا بهدوء الى السلم وهما يتخطيان الأجسام :

كان الرجال قد عادوا الى النوم، بعد ان أرهقهم عنف رغبتهم وخيبتهم، فهم مزرقون وعيونهم ملتمة. وكان لاعبا الورق قد بدأ لعبة «المانيل» بالقرب من خيمتها ؛ وكان تحت الطاولة عظام ورماد . وحسب يرونيه شنايدر من طرف عينه ؛ وكان يسعى لأن يجد على هذا الوجه هيئة الألفة التي لاحظها بالأمس . ولكنه كان قد رأى ملياً هذا الأنف الكبير وهذين الخدين : فتلاشى انطباعه . وقال بين أسنانه :

— انت تعلم ما يعني ان يكون المرء شيوعياً حين يسقط بين ايدي النازيين ؟

فابتسم شنايدر من غير ان يجيب . وأضاف برونيه :

— سنكون قساة مع الثرثارين .

وظل شنايدر يبتسم ، وقال :

— لست ثرثاراً .

وتوقف برونيه ، فتوقف شنايدر ايضاً ، وسأله برونيه :

— أتريد ان تعمل معي ؟

— وماذا ستفعل ؟

— سأقول لك . ولكن أجب اولاً .

— لم لا ؟

وحاول برونيه ان يستقريء هذا الوجه الضخم الناعم المائع تقريباً ،

وقال من غير ان يغادر شنايدر بنظره :

— لن يكون العمل طريفاً كل يوم .

قال شنايدر : — لم يبق لي ما أفقده بعد . ثم إن ذلك سيشتغلي .

وعادا الى الجلوس ، وتمدد شنايدر ، عاقداً يديه خلف رقبته ،

وقال وهو يغمض عينيه :

— هذا لا يمنع انك لا تحبنا قط ، وهذا ما يقلقني .

واضطجع برونيه بدوره . ما عساه يكون هذا الشخص ؟ ايكون

من المؤيدين المتعاطفين ؟ وفكر : لقد قبلت ذلك ، لقد قبلت ذلك ، فلن اتركك بعد . ونام ، ثم استيقظ ، فكان المساء ، وعاد ينسام ، فكان الليل ، ثم كانت الشمس ، واستوى ونظر فيما حوله ، وتساءل اين يكون ، ثم تذكر واحس برأسه فارغاً . وكان بلوندينه الأشقر جالساً ، وعليه هيئة الحبل والأسى ، وكازت ذراعه تتدليان بين ساقيه المنفرجتين . وسأله برونيه :

— هل تشكو شيئاً ؟

— انني جائع . أتظن انهم سيطعموننا هذا الصباح ؟

— لا ادري .

— اتظن أنهم يريدون ان يميتونا جوعاً ؟

— لا أظن .

وتنهّد بلوندينه : — انني مبعوض . فانا غير معتاد ان أظل

بلا عمل .

— تعال إذن فاغتسل .

فنظر الأشقر جهة انبوب السقاية بغير حاسة .

— سيكون الماء بارداً .

— تعال .

ونهبضا . وكان شنيدر نائماً . وكان مولو نائماً ، وكان العريف راقداً على ظهره مفتوح العينين على سعتهما ، وكان يمضغ شاربته ؛ وكان على الأرض آلاف العيون . آلاف العيون المفتوحة ، وأخرى كانت الحرارة والشمس تفتحانها رويداً رويداً ؛ وتهادى الأشقر على ساقيه :

— خراء ! لا استطيع بعد ان أتماسك على ساقتي ، وسوف اسقط

في الهواء .

وفكّ برونيه انبوب السقاية ، فأثبته في الصنبور وأداره . وكان

بحس نفسه ثقيلًا . وتعرّى الأشقر : انه قاس ومشعر ، ذو عضلات ضخمة مكثلة . واحمرّ لحمه وتكوم تحت الفوارة ، ولكن وجهه ظل رمادياً . وقال برونيه :

— هذا دوري .

فأخذ الأشقر الانبوب وقال :

— الحقيقة انه ثقيل الوزن .

وتركه ثم التقطه . ووجه الفوارة نحو برونيه ، فاصطكت ركبته . وترك الانبوب فجأة ، ثم قال :

— إن ذلك يتعني .

وارتديا ثيابهما . وظل الأشقر جالساً على الارض فترة طويلة ، واحدى طاقتيه في يده ، وهو ينظر الى الماء الذي ينبجس بين الحصى ، ويتابع بعينيه الانبوب الموصل وقال :

— اننا نفقد قوانا .

وأغلق برونيه الصنبور ، وساعد المجدد على النهوض ، فعاد به الى السلم . وكان لامبير قد استيقظ ، فنظر اليهما مقهقهاً :

— انكما لا تسيران سيراً مستقيماً وتبدوان مرهقين .

وتداعى المجدد للسقوط على شراع الخيمة ، ودمدم :

— لقد أتعني ذلك ، ولن استعيد ما فقدت .

ونظر الى يديه الضخمتين المرتجفتين المشعرتين :

— بمثل هاتين اليدين ، لا يمكن لرد الفعل ان يحدث .

قال برونيه : — تعال ننزّه .

فالتفت بغفائه وأغمض عينيه . ومضى برونيه الى الساحة الخلفية ، وكانت فارغة . ثلاثون دورة بخطوة رياضية . ولدى الدورة العاشرة ، كان رأسه يدور ؛ ولدى التاسعة عشرة اضطر للاستناد الى جدار ، ولكنه كان متماسكاً ، وكان يريد ان يروض جسمه ، ومضى حتى

النهاية ، ثم توقف لاهتأ . وكان قلبه ينبض حتى رأسه ، ولكنه سعيد : إن الجسم قد مُخلق ليطيع . سأقوم بهذا كل يوم ، وسأتابع حتى أتمكن من القيام بخمسين دورة . ولم يكن يشعر بالجوع ، وكان سعيداً بالا يشعر بالجوع : إن هذا هو اليوم الخامس من صيامي ، وما زلت متماسكاً بما فيه الكفاية . وعاد الى الساحة الأمامية . وكان شتايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ؛ وكان جميع الافراد مضطجعين ، جامدين وبكماً ، فكأنهم الجثث . وكان برونيه يودّ ان يتحدث الى عامل المطبعة ، ولكن عامل المطبعة كان ينام ايضاً . وعاد يجلس ، ما يزال خفق قلبه على شدته ؛ وأخذ الشثيمي يضحك ، فالتفت برونيه : كان الشثيمي يضحك وعيناه منخفضتان على العصا التي ينقشها ؛ وكان قد نقش تاريخاً ، وها هو الآن يرسم زهوراً برأس مديته . وسأل لامبير :

— ما بك تضحك ؟ أتجد هذا طريفاً ، انت ؟
فظل الشثيمي يضحك ، وقال موضعاً ، من غير ان يرفع عينيه :
— أضحك لأنه قد انقضت ثلاثة ايام عليّ دون ان أحرأ .
قال لامبير : — هذا طبيعي . فمّ تريد ان تخراً ؟
قال مولو : — هناك مع ذلك من يخراًون . وقد رأيت بعضهم .
قال لامبير : — انهم محظوظون صغار . أشخاص جلبوا معهم علباً
من لحم القروود .

واستوى الرقيب ، ونظر الى مولو وهو يشدّ على شاربه :
— ما هي اخبار سيارات شحنتك ؟
قال مولو : — سوف تصل ، سوف تصل .
ولكن لم يكن في صوته بعدُ كثير من الاقتناع . وقال الرقيب :
— ولكن يجب عليها ان تستعجل ، وإلا فلن تجد بعدُ احدأ .
وظل مولو ينظر الى البوابة ، وسمعت قرقرة مائعة منغمة ، فاعتذر

مولو وقال :

— أنها معدتي !

واستيقظ شنايدر ، فأخذ يفرك عينيه ، وابتسم وتمتم :

— واحد قهوة بحليب .

فقال المجعد : — مع « الكرواسان »^١ .

قال الشتيمي : — اما انا فأفضل حساء طيباً ، مع قليل من الخمر

الأحمر فيه .

وسأل الرقيب : — أليس مع احد منكم سكاير ؟

فدّ له شنايدر علبة ، ولكن برونيه أوقفه منزعجاً : إنه لم يكن

يجب حركات السخاء الفردية :

— الأفضل ان نجعلها مشتركة .

قال شنايدر : — كما تريد . إن معي علبة ونصف العلبة .

فقال برونيه : — وانا معي علبة .

واخرجها من جيبه ووضعها على شراع الخيمة . وأخرج مولو علبة

من الحديد الابيض من قربته ففتحها :

— بقي معي سبع عشرة .

فسأل برونيه : — أهذا كل شيء ؟ وانت يا لامبير ، أليس

معك سكاير ؟

قال لامبير : — لا .

فقال مولو : — غير صحيح . كانت علبتك مملأى ، مساء امس ..

— دخنتها هذه الليلة .

— تدجيل ! لقد سمعتك تشخر .

قال لامبير : — خراء اخيراً ! اريد عنى رضى ان اعطي الرقيب

(١) نوع من المعجنات على شكل هلال - المترجم .

سيكارة ، اذا لم تكن معه سكاير ، ولكن اذا لم ارد ان اجعل سكايري
مشتركة ، فهذا يعني .

قال برونيه : - انت حر يا لامبير في ان تلمّ شرع خيمتك وان
تذهب الى مكان آخر ، ولكن اذا شئت ان تبقى معنا ، فينبغي ان
تتبنى روح الجماعة وتألف ان تضع كل شيء في حالة الاشتراك . هات
سكايرك .

فهزّ لامبير كتفيه وقذف علبته بغضب على غطاء شنايدر . وجعل
مولو يعدّ السكاير .

- ثمانون . اي احدى عشرة لكل رأس ، وتبقى ثلاث تجري
عليها القرعة . فهل نوزعها ؟

قال برونيه : - لا . إذا وزعتها ، فهناك اشخاص يدخنونها كلها
من الآن حتى المساء . اني احتفظ بها . وسوف اعطيكم ثلاثاً منها كل
يوم لمدة ثلاثة ايام ؛ وفي اليوم الرابع اعطيكم اثنتين . اتفقنا ؟
كان الافراد ينظرون اليه ، ويدركون بغموض أنهم بسبيل ان
يتخذوا قائداً لهم . وكرر برونيه :

- اتفقنا ؟

لأنهم لا يكثرثون بهذا ، في آخر المطاف : فانهم يودون ان يأكلوا ،
هذا ما كان همهم . وهزّ مولو كتفيه وقال :

- اتفقنا .

ووافق الآخرون بإمضاء رأس ، فوزع برونيه ثلاث سكاير لكل
منهم ووضع الباقي في قربته . واشعل الرقيب سيكارة ، فسحب منها
اربع مجّات واطفأها ، ثم وضعها خلف اذنه . وأخذ الشيمي احد
سكايره ، فشق ورقتها ووضع التبغ في فيه ، وقال موضعاً ، وهو يمتنع :
- إن ذلك يخدع الجوع .

ولم يقل شنايدر شيئاً : انه اكثرهم خسراناً في هذه الصفقة ، ولكنه

لم يقل شيئاً . وفكر برونيه : « ربما كان كسباً طيباً في جماعتنا . »
وفكر في شنيدر ثم في شيء آخر ؛ وتساءل فجأة بمَ كان يفكر ،
ولم يبلغ ان يتذكر ذلك بعد . وظل لحظة ثابت العينين ، وقبضة من
الخصى في يده ، ثم نهض بتثاقل ؛ وكان عامل المطبعة قد استيقظ ،
فسأل برونيه :

— وإذن ؟

قال عامل المطبعة : — لا ادري أين هم . لقد طفت بالساحة ثلاث
مرات ، فلم استطع العثور عليهم .

قال برونيه : — استمر ولا تنشط همتك .

وراح يجلس ، ونظر الى ساعته وقال :

— هذا غير ممكن . كم هي الساعة ، ايها الرفاق ؟

قال مولو : — الرابعة وخمس وثلاثون .

— إذن هذا هو الأمر ، هذا هو تماماً .

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون ولم أفعل شيئاً ، كنت احسب انها
كانت الساعة العاشرة صباحاً . وخيل اليه ان الوقت قد سُرق منه .
« وعامل المطبعة الذي لم يعثر على رفاقه ... » إن كل شيء هنا بطيء .
بطيء ، متردد ، معقد ؛ ولا بد من اشهر طويلة قبل تحقيق شيء ما .
إن السماء ذات زرقة فجأة ، والشمس قافية . وركت شيئاً فشيئاً ،
وتوردت السماء ، ونظر برونيه الى السماء ، وفكر في طير الزمج ،
وكان به نعاس ، ورأسه يطن ، ولم يكن جائعاً ، وكان يفكر : لم
اشعر بالجوع طوال النهار ، واستنام ، وحلم بأنه جائع ، واستيقظ ،
فلم يكن جائعاً ، وانما كان ثمة غثيان خفيف ودائرة من نار حول
رأسه . السماء زرقاء مرحة ، والهواء رطب ؛ وبعيداً في الريف ، كان
صوت ديك أبيض يصرّ ، وكانت الشمس مخفية ، ولكن أشعتها كانت
تتسلل ضباباً ذهبياً من فوق قمة جدار ؛ وكانت ظلال بنفسجية كبيرة

ما تزال تتمدد في الساحة . وصمت الديك ، وفكر برونيه : اي صمت !
وخيل اليه لحظة انه وحيد في العالم ، واستوى على مشقة وجلس : كان
الرجال هناك ، حوله ، الوف الرجال الجامدين النائمين . فكأنها ساحة
معركة . ولكن جميع العيون مفتوحة على سمعتها . ورأى برونيه حوله
سحناً مقلوبة وسط شعر متناثر ، وعيون تترصد . والتفت نحو شنايدر
ورأى عينيه الثابتين ، فقال برقة :

– شنايدر ! ايه ! شنايدر !

فلم يجب شنايدر . ورأى برونيه في البعيد افعى طويلة رخوة يسيل
لعابها : انبوب السقاية . وفكر : يجب ان اغتسل . وكان رأسه ثقيلًا ،
وخيل اليه انه يشده الى خلف ، فعاد يضطجع ، وانتابه شعور الطفو .
« يجب ان أغتسل » وحاول ان ينهض من جديد ، ولكن جسمه لم
يكن ليطيعه بعد ؛ كانت ساقاه وذراعاها رخوة ، ولم يكن يحس بها
بعد ، فقد كانت موضوعة الى جانبه كأنها امتعة . وبدت الشمس من
فوق الجدار : يجب ان اغتسل ، وكان يزعجه ان يكون ميتاً بين
هؤلاء الموتى المفتحي العيون ، وتشنج ، وجمع اعضاءه ، وانقذف الى
امام . وها هو ذا واقف ، ولكن ساقيه تصطكان ، وجسمه يرشح ،
وخطا بضع خطوات ، وكان يخشى ان يسقط ؛ واقرب من عامل
المطبعة فقال :

– مرحباً !

فاستوى العامل ونظر اليه نظرة غريبة . قال برونيه :

– مرحباً ! مرحباً !

فسأله العامل : – الا تريد ان تجلس ؟ هل تشكو شيئاً ؟
قال برونيه : – كلا ، فالامور على ما يرام . وانا افضل ان
أبقى واقفاً .

اذا جلس ، فليس هو على ثقة من انه يستطيع ان ينهض ثانية .

وجلس عامل المطبعة ، وكان يسدو منتعشاً ، وكانت عيناه اللوزيتان تلتمعان في وجهه الانثوي الجميل . وقال بفرح :
- لقد عثرت على احدهم ، واسمه بيران . وهو عامل في السكة الحديدية باورليان . وقد أضاع رفاقه ، فهو يبحث عنهم ، فاذا وجدهم ، جاءوا ثلاثتهم ظهراً .

ونظر برونيه الى ساعته : انها العاشرة ، ومسح بكمه جبينه الذي يرشح عرقاً وقال : « ممتاز » ، وخيل اليه انه يريد ان يقول شيئاً آخر ، ولكن لا يدري بعد ما هو . وظل لحظة يتهادى فوق عامل المطبعة وهو يكرر : « ممتاز ! ممتاز ! » ثم عاد الى السير في جهده ، ورأسه يشتعل ناراً ، وتداعى للسقوط بتناقل على شراع الخيمة ، وفكر :
« انني لم اغتسل » وتحامل شنايدر على مرفقه في قلق :
- هل تشكو شيئاً ؟

فقال برونيه منزعجاً : - لا ، لا ، لا أشكو شيئاً .
واخرج مندبلاً فده على وجهه بسبب الشمس . ولم يكن به نعاس : ليس هو تماماً بالنعاس . كان رأسه فارغاً ، وكان يخيل اليه انه يهبط في مصعد . وسعل احدهم فوق رأسه ، فنزع مندبله : إنه عامل المطبعة مع ثلاثة اشخاص آخرين ، ونظر اليهم برونيه في دهشة ، وقال بصوت دبق :

- هل جاء وقت الظهر ؟
ثم حاول ان يستوي : كان يحس الخجل ان تأخذه الدهشة ؛ وفكر في انه لم يحلق ذقنه وانه لا يقل قذارة عن الآخرين ؛ وبذل جهداً عنيفاً فاستقام على قدميه ، وقال :
- مرحباً .

فنظر اليه الأشخاص في فضول ؛ انهم فتیان كما يجبهم ان يكونوا : شديداً بالبأس ، نظيفون ، ذوو عيون قاسية . ادوات طيبة . وكانوا

ينظرون اليه ، فيفكر :

« ليس لهم هنا بعد غيري » واحس بالانتعاش . وقال :

– هل نسير قليلا ؟

فتبعوه . وانعطف عند زاوية الثكنة ، ففضى حتى الساحة الاخرى ،
والثفت فبسم لهم . وقال رجل شديد السمرة ذو رأس حليق :

– انني اعرفك .

فقال برونيه : – كان يخيّل لي جيداً اني سبق ان رأيتك في
مكان ما .

فقال الأسمر : – لقد جئت اراك عام ٣٧ ، واسمي ستيفان ؛
وكنت من « الفرقة العالمية » .

وقال الآخران اسميهما : بيران ، من اورليان ، وداوروكير ،
من لانس .

واستند برونيه الى جدار الاصطبلات . ونظر اليهم وفكر ، في غير
ما رضى ، بأنهم شبّان . وتساءل عما اذا كانوا جاثعين . وقال ستيفان :

– وإذن ماذا ينبغي لنا ان نفعل ؟

فنظر اليهم برونيه ، ولم يتذكر بعد ما كان يريد ان يقوله لهم ؛
وصمت ، وقرأ الدهشة في عيونهم ، ثم فتح فمه :

– لا شيء . ليس هناك ما يُعمل في الوقت الحاضر . سوى ان
تعدّوا بعضكم ، وتظلوا على اتصال .

وسأله بيران : – أتريد ان تجيء معنا ؟ ان معنا خيمة .

فقال برونيه بحوية : – كلا . لنبق حيث نحن ، وحاولوا ان
تروا اكبر عدد ممكن من الاشخاص ، وميّزوا الرفاق ، وتدبروا
الأمر لتعرفوا قليلاً ما يدور في رؤوس الآخرين . ولا تقوموا بالدعاية ،
لا تقوموا بها بعد .

فكزّ وجه داوروكير وقال :

— إن ما يدور في رؤوس الآخرين ، أعرفه. ليس هناك شيء على الإطلاق . انهم يفكرون في معدهم .
وخيل لبرونيه ان رأسه بدأ ينتفخ ، فأغمض عينيه نصف إغماضة
وقال :

— يمكن ان يتغير هذا . هل في قطاعاتكم كهنة ؟
قال بيران : — نعم ، في قطاعي . بل هم يقومون بأعمال مجدية .
قال برونيه: — دعوهم يعملون، ولكن احترسوا من ان يعرفوكم .
لما اذا فتحوا لكم ابواباً ، فلا تسدوها في وجوههم . مفهوم ؟
فأوماؤا برؤوسهم علامة الايجاب ، وقال لهم برونيه :
— الموعد ، غداً عند الظهر .
ونظروا اليه ، وترددوا قليلاً ، فقال لهم في لهجة لا تخلو من
انزعاج :

— هيا : اذهبوا ! اني باق هنا .
فذهبوا . ونظر اليهم برونيه ذاهبين ، وانتظر حتى انعطفوا عند
الزاوية ليقدّم رجلاً : لم يكن متأكداً من أنه لن ينهار . وفكر :
« ثلاثون دورة خطوة رياضية . » وخطا خطوتين وهو يتهدى ،
وأصعد الغضب الدم الى وجهه ، وكانت تصفق رأسه ضربات عنيفة :
ثلاثون دورة ، على الفور ! وانتزع نفسه عن الجدار ، وتقدم ثلاثة
امتار ، ثم تمدد على بطنه . وعاد ينهض ويسقط ، وهو يمزق يده .
ثلاثون دورة كل يوم . وتشبث بحلقة حديدية معلقة في الجدار ،
فاستوى واقفاً ، وقام باندفاعه . عشر دورات ، عشرون دورة .
واصطكت ركبته ، وكانت كل خطوة تشبه سقطة ، ولكنه كان يعلم
أنه سيسقط اذا توقف . تسع وعشرون دورة ؛ وبعد الثلاثين ، انعطف
لدى زاوية الشكنة وهو يعدو ، ولم يبطيء الا حين ولج الساحة
الامامية . وتخطى الأجسام ، فبلغ السلم . ولم يتحرك أحد : كانوا

كومة طافية من السمك الميت ، وبطونه في الهواء . وابتسم . واقف وحده . اما الآن ، فيجب ان أحلق ذقي . والتقط قربته ، واقترب من نافذة ، فأخذ آلة الحلاقة ، ووضع قطعة المرآة بطريقة جانبية على طرف النافذة ، وحلق ذقنه بلا ماء ؛ الألم الذي يغمض العينين نصف إغماضة . وسقطت آلة الحلاقة ، فانحنى ليلمها ، وترك المرآة التي انكسرت تحت قدميه ، فوقع على ركبتيه . وكان « يعلم » هذه المرة انه لن يستطيع بعد ان ينهض . وعاد الى مكانه ، زحفاً على أربع ، وتداعى للسقوط على ظهره ؛ وجنّ جنون قلبه ، فكان يطرق طرقات كبيرة في صدره، ولدى كل ضربة، كان حدّ من نار يثقب رأسه. ورفع شنايدر له رأسه بلا كلمة فدرس تحت رقبتة غطاء مطويّاً الى اربع . ومرت غيوم ، وكانت فيها غيمة تشبه راهبة ، واخرى تشبه غندولا . وشده أحدهم من كتمه :

— قف ! اننا ننتقل !

فنهض من غير ان يفهم، فدفعه الى السلم، وكان الباب مفتوحاً، ودلفت موجة لا تنقطع من الاسرى تتجه الى الثكنة . وأحسّ بأسه يصعد درجاً ، واراد ان يقف ، ولكنه أدفع من الخلف ، وقال له صوت :

— استمرّ في الصعود .

ولكن قدميه لم تحملاه ، فسقط ويداه الى أمام . وأخذه شنايدر وعامل المطبعة كل من ذراع ، فحملاه . واراد ان يتخلص ، ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك . وقال :

— انني لا أفهم .

فضحك شنايدر بلطف :

— انت بحاجة الى طعام .

— مثلك تماماً ، لا اكثر .

ققال عامل المطبعة :

- انت اطول وأصلب . فأنت بحاجة الى طعام اكثر .
ولم يستطع برونيه أن يتكلم بعد ، فرفعا حتى العنبر ، وكان ممرّ
طويل مظلم يخرق الشكنة من جانب الى جانب ، وعلى جانبيه شقوق
تفصل بينها حواجز ذات شقوق . وولجوا أحداها . ثلاثة صناديق
فارغة ، هذا كل شيء . لا نوافذ . كانت ثمة كوة بين كل شقتين
او ثلاث ؛ وكانت كوة الشقة المجاورة تنثر عليهم نوراً مائلا يعكس
على الأرض الخشبية ظللاً كبيرة للحواجز الخشبية . ومدّ شنايدر
غطاءه على الأرض ، فتداعى برونيه للسقوط عليه . ورأى ذات لحظة
وجه عامل المطبعة مائلاً عليه ، فقال له :

- لا تبق هنا ، بل اذهب الى بعيد ، وموعدا غداً عند الظهر .
واختفى الوجه ، فبدأ الحلم . وانسلّ ظلّ الحواجز متمهلاً على
الأرض ، انسل واستدار على الأجسام المقلوبة ، وتسلق الصناديق ،
ودار ودار وامتقع ، وصعد الليل على طول الجدار ؛ وبدت الكوة ،
عبر القضبان ، أشبه بجرح ، جرح ممتقع ، جرح أسود ، ثم بدت
فجأة عيناً صافية مرحة ، فاستعادت القضبان دورتها ، فدارت ، ودار
الظلّ كالمنارة . الوحش في القفص ، وتحرك رجالّ لحظة ثم اختفوا ،
وجنحت الباخرة مع جميع المحكومين الذين ماتوا جوعاً في أقفاصهم .
لهب عود ثقاب ، وانبثقت من الظل كلمة مرسومة بأحرف حمراء ،
وانعكست على احد الصناديق : « سريع العطب » وكان في القفص
المجاور قرود شامبانزي تحشر رؤوسها الفضولية بين الحواجز ،
وتمد أذرعها الطويلة نحو القضبان ، وكانت لها عيون حزينة ومجعدة ،
فالقرود هو الحيوان الذي يملك أحزن العيون بعد الانسان . لقد حدث
شيء ما ، وتساءل: ما الذي حدث ، كارثة . اية كارثة ؟ ربما بردت
الشمس ؟ وارتفع صوت من جوف الاقفاص : « سأقول لك ذات

مساء أشياء رقيقة . « كارثة ، والجميع في المغطس . اية كارثة ؟ ما الذي سيفعله الحزب ؟ إنه لمذاق عذب لأناناس نضر ، مذاق طري مرح بعض الشيء ، طفولي ، ومضغ الأناناس وفت مرونتها العضلية الناعمة ، متى أكلت منها للمرة الأخيرة ؟ لقد أحببت الأناناس ، وكان أشبه بنخشب مقشور لا يملك الدفاع عن نفسه ، ومضغ ، فصعد المذاق الطري الحشبي الأصفر من جوف حلقه كبزوغ الشمس المتردد ، وتفتح على اللسان ، وهو « يريد ان يقول » شيئاً ، فما الذي يريد أن يقوله ، هذا الشراب الشمسي ؟ لقد أحببت الأناناس ، اوه ! منذ وقت طويل ، يعود الى العهد الذي كنت أحب فيه التزحلق والجبال والملاكمة واليخوت الشراعية الصغيرة ، والنساء . سريع العطب . ما الذي هو سريع العطب ؟ انا جميعاً سريعاً العطب ، ويدور المذاق على اللسان ، زوبعة شمسية ، مذاق قديم ، منسي ، لقد نسيت نفسي . « تنمّل الشمس في اوراق شجر الكستناء ، سطر الشمس على جبيني ، كنت اقرأ في ارجوحة النوم ، البيت الابيض ورائي ، ورائي منطقة التورين ، كنت أحب الشجر ، والشمس والبيت ، كنت احب العالم والسعادة ، اوه ، سابقاً ! » وتحرك وتخط : إن علي شيئاً أفعله ، شيئاً أفعله على التو. إن له موعداً عاجلاً ، مع من ؟ مع كروبسكايا . وسقط من جديد : سريع العطب . ماذا فعلت بغرامياتي ؟ لقد قالوا لي ، انك لا تحبنا بما فيه الكفاية ، فهزموني ، لقد قشروني فرخ نبات طرياً دبقاً بالنسغ ، وحين اخرج من هنا ، سأكل حبة اناناس كاملة . وانتصب : موعد مستعجل ؛ فعاد يسقط في طفولة هادئة ، في حقل ، « أزيحوا العشب وستجدون شمساً ؛ ماذا فعلت بشهواتك ؟ ليست لي شهوات ، فانا قشرة ، وقد مات النسغ ؛ وكانت القروود المعلقة بالقضبان تنظر اليه بعيونها المحمومة ، لقد حدث شيء ما . وتذكر فتحامل للنهوض ، وصاح : « عامل المطبعة » وسأل :

— هل جاء عامل المطبعة ؟

فلم يجب أحد ، وعاد يسقط في النسغ الدبق ، في « الذاتية » ، لقد
خسرنا الحرب ، وسوف أموت هنا ، وانحني ماتيو وهمس : انك لم
تجنبا بما فيه الكفاية ، لم تكن تجنبا بما فيه الكفاية ؛ وانفجرت القروود
ضاحكة وهي تضرب مؤخراتها . لم تكن تحب شيئاً ، أجل ، لم تكن
تحب شيئاً على الاطلاق . ودار ظلّ القضبان ببطء على وجهه ، الظلّ ،
الشمس ، الظلّ إن هذا يسليه . انني من أعضاء « الحزب » وانا
احب الرفاق ؛ اما الآخرون فليس لدي وقت أضيعه من أجلهم ، إن
عندي موعداً . « سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة ، سأقول لك
ذات مساء اني احبك . » وجلس ، وكان يلهث ، وينظر اليهم ،
وابتسم مولو ذاهلاً ، ووجهه ملتفت نحو السقف ، وداعبه ظلّ طريّ
منسلا على خده ، فالتمعت أسنانه من الشمس .

— ايه ! مولو !

وظلّ مولو يبتسم ، وقال ، من غير ان يتحرك :

— هل تسمعها ؟

فسأل برونيه : — ماذا أسمع ؟

— سيارات الشحن .

فلم يسمع شيئاً ، وكان يخاف هذه الرغبة الهائلة التي أغرقته فجأة ،
رغبة ان يعيش ، رغبة ان يداعب نهدين أبيضين ، وكان شنايدر
مضطجعاً الى يمينه ، فاستنجد به :

— هو ! شنايدر !

فقال شنايدر بصوت ضعيف :

— الامور سيئة .

قال برونيه : — خذ السكاير من قربتي . ثلاث كل يوم .
وانزلت كليته بهدوء على الارض الخشبية ، فألقى نفسه راقداً ،

مقلوب الرأس ، ونظر الى السقف ، انني احبهم ، بكل تأكيد احبهم ، ولكن « يجب ان نخدموا » ، ما عساها تكون هذه الرغبة ؟ الجسد ، الجسد الميت ، غابة الشهوات ، على كل غصن عصفور ، يقدمون لحم الخنزير في « ويستفالي » على صحون من خشب ، المدينة تقطع اللحم ، فيحس من يسحبها التحاماً خفيفاً للخشب الرطب ، لقد هزموني ، فلست الا رغبة ، ونحن جميعاً في الخراء ، وسوف أموت هنا . اية رغبة ؟ وحملوه ، واجلسوه ، وسقاه شنايدر حساء .

— ما هذا ؟

— حساء شعير .

واخذ برونيه يضحك : كان الامر هكذا ، ولم يكن الا هكذا . تلك الرغبة الهائلة المذنبه لم تكن الا الجوع . ونام ، وسهروا عليه ، وأكل حساءه الثاني . وأحس بحروق في معدته ؛ كانت القضبان تدور ، وصمت الصوت . وقال :

— كان هناك شخص يغني .

قال مولو : — اجل .

— انه لا يغني بعد .

فقال مولو : — لقد مات . وقد نقلوه أمس .

حساء آخر ، مع الحبز هذه المرة ، وقال :

— لقد تحسنت .

وجلس بلا مساعدة ، وابتسم : الحداثة ، الحب ، « الذاتية » ، لم تكن كلها شيئاً ، لم تكن اكثر من حلم تضور . ونادى مولو بجذل :

— لقد انتهى الأمر بها الى المجيء ، سيارات الشحن ؟

فقال مولو : — أي نعم ! أي نعم !

وكان مولو يحك كرة خبز بمدبته ، فيجوفها ويفرغها في بعض

اماكن . انه ينحتها . وشرح من غير ان يرفع عينيه :

— انها كرة خبز عفته . فاذا أكلت الأزرق ، كان ذلك خراء ،
ولكن هناك ما يؤكل حولها .

ومدّ لبرونيه كسرة خبز ، ودس في فمه الكبير مثلها ، قائلاً
باعتراز :

— ظللنا ستة ايام بلا طعام . وكاد يجن جنوني .

فضحك برونيه ، وفكر في « الذاتية » ، وقال :

— وأنا ايضاً .

ونام ، ثم ايقظته الشمس ، وأحس انه ما يزال واهناً ، ولكنه
يستطيع ان ينهض .

وسأل : — هل جاء عامل المطبعة ليراني ؟

— تعلم .. اننا في هذه الأيام لم نتنبه كثيراً للزوار .

وسأل برونيه : — واين شنايدر ؟

— لا ادري .

وخرج برونيه الى المر ، فاذا بشنايدر يتحدث الى عامل المطبعة ،
وكانا يضحكان ، فنظر اليهما برونيه في ضيق . وجاء اليه عامل
المطبعة يقول :

— لقد قمنا كلانا ، شنايدر وأنا ، بعمل محترم .

فالتفت برونيه الى شنايدر وفكر : انه يندس في كل مكان . وابتسم

له شنايدر وقال :

— لقد تنقلنا هنا وهناك ، منذ أمس الاول ، فاكتشفنا رفاقاً جدداً .

فقال برونيه بجفاء : — هم ! يجب ان أراهم .

وهبط السلم ، فبعه شنايدر وعامل المطبعة . وفي الساحة ، توقف

وهو يطرف بعينيه ، مبهوراً : انه يوم جميل . وكان رجال جالسون

على درجات السلم يدخنون في سكينه ، كأنهم في بيوتهم ، يستريحون

بعد كسدّ الاسبوع ؛ وبين الفينة والفينة ، كان فيهم من يهزّ رأسه

ويساقط بضع كلمات ، فيأخذ الجميع في هزّ رؤوسهم . ونظر اليهم برونيه في غضب ، وفكر : « ها هم اولاء يستقرّون . » إن الساحة والبرجين وجدار السور « لهم » ، وهم جالسون على عتبات بيوتهم يعلقون في حكمة قروية بطيئة على جميع احداث القرية : « ماذا يمكننا ان نفعل بفتية كهؤلاء ؟ انهم مصابون بهوس الامتلاك ؛ تحشرهم في الزنزانة ، وبعد ثلاثة ايام ، لا تدري ان كانوا اسرى ام مالكي السجى . » وكان آخرون يتنزهون ، كل اثنين أو كل ثلاثة ، وكانوا يسرون بنشاط ، ويتحدثون ، ويضحكون ، ويستديرون : انهم بورجوازيون يقومون بالعرض . ويمرّ مرشحون ، بثوب عسكري خاص ، من غير ان ينظروا الى أحد ، ويسمع برونيه أصواتهم المتميزة : « كلا ، يا عزيزي ، أستميحك العذر ، انهم لم يضعوا ميزانيتهم ؛ كان المفروض ان يضعوها ، ولكن بنك فرنسا ساعدهم . » وكان ثمة شخصان يلبسان النظارات ، وهما راكعان يلعبان الشطرنج ، يحيط بهما كثيرون ؛ وكان رجل قصير أصلع يقرأ وهو مقطّب الجبين ، وكان بين فترة وفترة يضع كتابه ويقلب في هياج صفحات كتاب ضخّم . ومر برونيه خلفه : وكان الكتاب قاموساً . وسأله برونيه :

— ماذا تفعل ؟

— أتعلّم الألمانية .

وحول انبوب السقاية ، كان رجال عراة يصرخون ويتدافعون ضاحكين ؛ وكان غارتيزر الالزاسي مرتفقاً احد الاوتاد يتحدث بالألمانية مع حارس ألماني يصغي اليه وهو يشير برأسه علامة الموافقة . إن لقمة خبز كانت كافية ! لقمة خبز ، فاذا بهذه الساحة الكئيبة التي كان الجيش المهزوم يحتضر فيها تتحول الى شاطيء ، الى مشمسة ، الى سوق خيرية ، وكان ثمة شخصان عاريان يسمّران جسميهما في الشمس ، مضطجعين فوق غطاء ؛ وودّ برونيه لو يركل أفخاذهما المذهبة بقدمه :

أحرقوا مدنهم وقراهم ، خذوهم الى المنفى ، فسيصرون في كل مكان .
على اعادة بناء سعادتهم الصغيرة العنيدة ، سعادة الفقراء ؛ إذهبوا إذن ،
فاعملوا في هذا الميدان . وأولاهم ظهره ومضى الى الساحة الاخرى ؛
وتوقف مأخوذاً : ظهور ، آلاف الظهور ، قرع جرس صغير ،
وتنحني الوف الرؤوس . وقال :

— بلا مزاح !

فأخذ شنايدر وعامل المطبعة يضحكان :

— أي نعم ! أي نعم ! اليوم هو الاحد . ولقد اردنا ان نطلع
عليك بمفاجأة .

قال برونيه : — هكذا إذن ! إنه يوم الاحد !

ونظر اليهما مشدوهاً : أي عناد ! لقد صنعا لنفسيهما « احداً
تركيبياً » ، أحداً من المدينة والريف ، لانهما قرأا في رزنامة ان اليوم يوم
أحد . وفي الساحة الاخرى ، كان يوم الأحد في القرية ، يوم الاحد
في شارع الريف الكبير ، اما هنا ، فكان يوم الاحد في الكنيسة ؛ ولم
يكن ناقصاً الا السينا . والتفت الى عامل المطبعة :

— أليس من سينا ، هذا المساء ؟

فابتسم عامل المطبعة :

— إن عمال الشبيبة المسيحية سيقومون احتفال العاب نارية .

فحرق برونيه الأرم ، وفكر في الحوارنة الصغار ، فكر : لقد
عملوا بجد ، بينما كنت مريضاً . ينبغي للمرء الا يمرض قط . وقال
عامل المطبعة في خجل :

— انه نهار جميل .

فقال برونيه بين أسنانه : — بكل تأكيد .

بكل تأكيد ، نهار جميل ، نهار جميل على فرنسا كلها : إن
الخطوط الحديدية المتزعزعة الملوية تلمع تحت الشمس ، والشمس تذهب .

الاوراق المصفرة في الأشجار المقتلعة ، والماء يبرق في جوف اوعية القنابل ، والموتى يخضرون بين القمح ، وبطنهم تغني تحت سماء لا غيوم فيها . اتراكم قد نسيتم ؟ إن الرجال هم من المطاط . وارتفعت الرؤوس ، وتكلم الكاهن . ولم يكن برونيه يصغي الى ما يقول ، ولكنه كان يرى رأسه المحمر ، وشعره الرمادي ، ونظارته الحديدية ، وكتفيه القويتين ؛ وعرفه : إنه الرجل ذو الكتاب الديني الذي لاحظته في المساء الاول . واقرب . وعلى بعد خطوتين منه ، كان الرقيب ذو الشارب يصغي اليه بحماسة ، ملتصع العينين ، متواضع الهيئة :

— ... ان كثيرين منكم مؤمنون ، ولكني أعرف كذلك أن هناك آخرين يصغون إليّ بدافع الفضول ، أو ليتثقفوا ، أو بكل بساطة ليقتلوا الوقت . إنكم جميعاً اخوتي ، اخوتي الأعزاء ، اخوتي في السلاح ، واخوتي في الرب ، وانا اتوجه اليكم جميعاً ، كاثوليكين وبروتستانت وملحدين ، لأن كلمة الرب للجميع . والرسالة التي أحملها اليكم في يوم الحداد هذا ، الذي هو يوم الرب ايضاً ، تتأخص في هاتين الكلمتين البسيطتين : « لا تيأسوا !... » لأن اليأس ليس فقط إثماً ضد الرحمة الإلهية المعبودة : فتحى الجاحدون يوافقوني على أنه اعتداء من الانسان ضد نفسه . وهو اذا صح القول انتحار روحي . ولا ريب في ان فيكم ، يا اخوتي الاعزاء ، من خدعهم التعليم المتعصب فحملهم على الا يروا في التتابع الرائع لأحداث تاريخنا الا سلسلة من الحوادث لا معنى لها ولا رابطة . فهم يعمضون اليوم مرددين بأننا قد هُزمتنا لأننا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ، ولم يكن لدينا عدد كاف من الطائرات . وعن هؤلاء قال الرب ان لهم آذاناً لا يسمعون بها وعيوناً لا يرون بها ، ولا ريب في انه ، حين سقط الغضب الالهي على سدوم وعمورية ، كان ثمة في المدن الفاجرة مذنبون بلغ بهم العناد ان زعموا ان مطر النار الذي كان يحيل مدنهم الى رماد لم يكن الا

ترسباً جويًا أو شهاباً . ألم يكونوا يا اخوتي يأثمون بحق أنفسهم ؟ فاذا كانت النار قد سقطت على سدوم اتفاقاً ، فلن يكون هناك عمل للانسان أو ثمرة لصبره وصناعته الا وتتحول بين ليلة وضحاها الى عدم ، من غير سبب ، بفعل قوى عمياء . فلماذا إذن بيني الانسان ؟ ولماذا يزرع ؟ ولماذا يؤسس أسرة ؟ ها نحن اولاء مهزومون وأسرى، مذلولون في عزتنا القومية المشروعة ، متألمون في أجسامنا ، بلا اخبار من المخلوقات العزيزة علينا ، فكيف ؟ ايكون هذا كله بلا هدف ؟ بلا مصدر آخر غير لعبة القوى الميكانيكية ؟ اذا كان ذلك صحيحاً ، يا اخوتي ، فيجب ان نستسلم لليأس ، لأنه ليس ثمة ما هو أبعث على اليأس وأشد ظلماً من ان نتألم من أجل لا شيء . ولكني يا اخوتي أسأل هذه العقول القوية بدوري : «ولماذا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ؟ لماذا لم يكن لدينا عدد كاف من المدافع ؟ » انهم سيجيبون بلا ريب : « لأننا لم نكن ننتج منها العدد الكافي . » وهنا ينكشف فجأة وجه هذه فرنسا الآتمة التي نسيت ، منذ ربيع قرن ، واجباتها وورها . ولماذا ، في الواقع ، لم ننتج بما فيه الكفاية ؟ لأننا لم نكن نعمل . وما هو ، يا اخوتي ، مصدر هذه الموجة من الكسل التي سقطت علينا كما سقط الجراد على حقول مصر ؟ لاننا كنا منقسمين بخلافاتنا الداخلية : فالعمال قد قادمهم مشاغبون اوقاح ، فانهى بهم الامر الى ازدياد ارباب عملهم ، وارباب العمل قد أعمتهم الانانية ، فلم يهتموا للاستجابة للمطالب المشروعة ؛ وكان التجار يحسدون الموظفين ، وكان الموظفون يعيشون كشجرة الدبق على السنديانة ؛ ونوابنا ، في المجلس ، بدلاً من ان يناقشوا هادئين في الصالح العام ، كانوا يتصادمون ويتشائمون ويصلون احياناً الى التهاك بالأيدي . وما سبب هذه الخلافات ، يا اخوتي الاعزاء ، ما سبب هذه المنازعات على المصالح ، ولماذا هذا الانحلال في الاخلاق ؟ لأن مادية قدرة قد انتشرت في البلاد كالوباء . وهل المادية الا حالة الانسان الذي انصرف عن الرب :

فهي تفكر بأنه ولد من الارض وسيعود الى الارض ، فليس له ما يهتم به بعد الا مصالحه الأرضية . ولكني أردت على متشككينا : « انتم على حق ، يا اخوتي : لقد خسرنا الحرب لأننا لم نكن نملك «مادة» كافية ؛ ولكن لستم على حق الا جزئياً ، لان جوابكم «مادي» ، وانما هزمتم لانكم ماديون » إن فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، هي التي سجلت في التاريخ سلسلة باهرة من انتصاراتها ؛ وان فرنسا التي لارب لها هي التي عرفت الهزيمة عام ١٩٤٠ .

وتوقف ؛ وكان الرجال يصغون في صمت ، فاغري الافواه ؛ وكان الرقيب يوافق بايماءات من رأسه . وعاد برونيه ينظر الى الكاهن ، فلاحظ عليه هيئة الانتصار : كانت عيناه الملتمعتان تركضان بين المستمعين ، ووجنتاه تحمران ، ورفع يده واستأنف الكلام في اندفاع يكاد يكون جذلاً :

— وهكذا يا اخوتي ، لندع التفكير بأن هزمتنا هي ثمرة المصادفة: انها في الوقت نفسه جزاؤنا وغلظتنا ؛ انها ليست مصادفة ، يا اخوتي بل هي عقاب ؛ وهذا هو النبأ الطيب الذي أحمله لكم اليوم .

وتوقف مرة اخرى ، يراقب الرؤوس الممدودة نحوه ليحكم على الأثر الذي خلفه ، ثم انحنى وتابع بصوت اكثر تعريضاً :

— انه نبأ قاسٍ غير سارٍ ، اعترف بذلك ، ولكنه مع ذلك نبأ طيب . إن من يظن نفسه ضحية بريئة لكارثة ويلوي يديه من غير ان يفهم ، ألا نبأه نبأ طيباً حين نطلعه انه يكفّر عن خطاه ؟ ومن أجل هذا أقول لكم : ابتهجوا يا اخوتي ! ابتهجوا من أعماق هوة آلامكم ، لأنه ان كان ثمة خطأ وكان ثمة تكفير ، فهناك ايضاً فداء ، واقول لكم : ابتهجوا ايضاً ، ابتهجوا في « بيت ابيكم » لأنّ هنا سبباً آخر للابتهاج . فان سيدنا ومولانا الذي تألم لجميع البشر ، والذي أخذ اخطاءنا على عاتقه ، والذي تعذب وما يزال يتعذب

ليكفّر عنها ، إن مولانا قد اختاركم . اجل ، انتم جميعاً ، فلاحين
وعمالا وبورجوازيين ، ولستم الابرياء تماماً ، كما انكم لستم الأكثر
ذنباً ، لقد اختاركم لمصير لا يُقارن : اختار ان تفتدي الامة ،
علي غرار آلامه ، ذنوب فرنسا كلها التي لم يكفّ الربّ عن حبّها
والتي عاقبها على مضمض . هنا يا اخوتي يجب ان تختاروا ، فاما ان
تتنوا وتقطعوا شعوركم قائلين : لماذا تنزل علي هذه المصائب ؟ عليّ لا
علي جاري الذي كان غنياً شريراً ، ولا على السياسيين المتهنين الذين
قادوا بلادني الى الهلاك ؟ واذ ذلك لا يبقى لأي شيء معنى ، ويبقى
لكم ان تموتوا في الحقد والضغينة . واما ان تقولوا لانفسكم : اننا لم
نكن شيئاً ، وها نحن اولاء مختارون للألم ، ها نحن اولاء الشهداء .
وإذن ، حين يكون رجلٌ ارسلته العناية الالهية ، ابنٌ محترم لاولئك
الذين كان الرب دائماً يوقظهم في فرنسا إذ تكون على قاب قوسين
من الهلاك ..

ومضى برونيه على رؤوس أصابعه ، فوجد شنايدر وعامل المطبعة
مستندين الى جدار الثكنة وقال :
— إنه يعرف مهنته .

قال عامل المطبعة : — صحيح ! إنه ينام على بعد شبرين مني ؛
وفي المساء لا نسمع سواه يعظ الرفاق .
ومرّ رجلان بقرهم ، أحدهما طويل هزيل ذو رأس طويل يلبس
النظارة ؛ والآخر قصير سمين ذو فمٍ يحمل الازدراء . وقال الطويل
يصوت رقيق :

— لقد تكلم جيداً جداً . وببساطة . وقال ما ينبغي ان يقال .
فأخذ برونيه يضحك : — طز !
وخطوا بضع خطوات ؛ ونظر عامل المطبعة الى برونيه في ثقة
وسأل :

— وإذن ؟

فردّد برونيه : — إذن !

— هذه العظة ، ما رأيك فيها ؟

— فيها الطيب وفيها الرديء . وهو على نحو ما يعمل لصالحنا : فقد شرح لهم ان الأسر لن يكون لعبة تسلية ؛ وأعتقد أنه سيلجّ على هذه للنقطة : وفي هذا مصلحته كما فيه مصلحتنا ، فما دام هؤلاء الفتيان يتصورون بأنهم سيرون صديقاتهن الصغيرات في آخر الشهر ، فلن نستطيع ان نصنع بهم شيئاً .

ماذا ؟

وتباعدت عينا العامل الجميلتان ، وأصبحت وجنتاه رماديتين . وتابع

برونيه :

— لا بأس به من هذه الناحية ، بل ان بوسعكم ان تستغلوه .
فخذوا رفاقكم وقولوا لهم : هل رأيت الخوري ؟ لقد قال اننا سنواجه مصاعب شديدة .

فسأل عامل المطبعة جاهداً :

— وهل تظنّ انت ، اننا سنقضي هنا وقتاً طويلاً ؟

فنظر اليه برونيه بقسوة :

— هل تؤمن ببابا نويل !

فصمت العامل وابتلع ريقه ؛ والتفت برونيه نحو شنايدر وأضاف :
— غير اني ، من جهة اخرى ، لم اكن اظنّ انهم سيقروون موقفهم بهذه السرعة ، وانما كنت اعتقد بأنهم يودّون الانتظار . ومهما يكن ، فان عظته كانت برنامجاً سياسياً حقيقياً : إن فرنسا هي ابنة لكنيسة البكر ، وبيتان هو قائد الفرنسيين . شيء بخير !

ونظر الى عامل المطبعة فجأة :

— ما رأي الذين حولك فيما قال ؟

- إن الناس يحبّونه كثيراً .
- هكذا !
- ليس ما قد يؤخذ عليه بالكثير . فهو يوزّع كل ما يملك ، ولكنه يشعرك بذلك . انه يبدو عليه دائماً انه يقول لك ، انني امنحك هذا لمحبة الرب . وانا أفضل الا ادخن ، على ان أدخن تبغّه ؛ ولكني الوحيد في هذا الموقف .
- أهذا كل ما تعرفه عنه ؟
- فقال عامل المطبعة ، وكأنه يعتذر :
- انت تعرف انه لا يكون بيننا الا في المساء .
- ماذا يفعل في النهار ؟
- انه في ردهة المرضى .
- وهناك الآن ردهة للمرضى ؟
- نعم ، في البناية الاخرى .
- وهل هو ممرض ؟
- لا ، ولكنه صديق للاجور ، فهو يلعب البريدج معه ومع ضابطين جرميين .
- قال برونيه : - ها ا ها ا وماذا يقول الفتيان في ذلك ؟
- لا يقولون شيئاً ، يظنون ولكنهم لا يريدون ان يعرفوا . وأنا قد عرفت ذلك من غارتيزر ، وهو ممرض .
- حسناً ، ستفضح امامهم القضية ، وستسألهم كيف يحدث ان يكون الحوارنة محشورين دائماً مع الضباط .
- اتفقنا .
- وكان شنايدر ينظر اليهم ، منذ برهة ، ببسمة غريبة . وقال :
- إن البناية الأخرى ، هي بناية الألمان .
- قال برونيه : - آه !

واستدار شنايدر نحو عامل المطبعة ، وكان ما يزال يتسم :
- انك ترى ما ينبغي ان تقوله : إن الخوري يترك رفاقه ليذهب
فيلمق الألمان بطريقة منحطة .

قال عامل المطبعة برخاوة :

- اوه ، لا أعتقد انه يرى كثيراً من الألمان .

فهزّ شنايدر كتفيه في نفاذ صبر متكلف ، فشرع برونيه بأنه يتسلى .
وسأل شنايدر العامل : - هل يحقّ لك انت ان تنتزه في بناية الألمان ؟

فهزّ العامل كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر متصراً :

- انت ترى ! اني انا لا أبالي بنواياه : فرما كان يريد ان ينقذ
فرنسا . ولكنه « موضوعياً » أسير فرنسي يقضي أيامه مع العدو .
هذا ما ينبغي للرفاق ان يعرفوه .

والتفت عامل المطبعة ، مبلبلاً ، الى برونيه . ولم يكن برونيه قد
أحبّ على الاطلاق لهجة شنايدر ، ولكنه لم يكن يريد ان يناقضه ،
فقال :

- تدبّر الأمر بروية ، ولا تحاول ان تهدمه الآن . والواقع ان هنا
أكثر من خمسين مثله ، ولن تكفي وحدك لذلك . فجرب ان تقول ،
في الحديث : ان الخوري يعتقد بأننا لن نعود الى بيوتنا في وقت
قريب ، ولا بدّ انه يعرف ذلك لأنه يلتقي بالضباط ويتحدث مع
الألمان . فيجب ان يفهموا شيئاً فشيئاً ان الخوري ليس من رأيهم .
مفهوم ؟

قال عامل المطبعة : - نعم .

- هل في غرفة الخوري شخص منا ؟

- نعم .

- هل هو بارع ؟

- بما فيه الكفاية .

— فليتظاهر بأنه مقتنع بآرائه . اننا بحاجة الى مخبر .
واستند الى الجدار ، وفكر لحظة وقال لعامل المطبعة .
— اذهب فاصطحب رفاقك . اثنين او ثلاثة . على ان يكونوا
جداً .

وحيث أصبحا وحدهما قال برونيه لشنايدر :
— كنت افضل ان انتظر قليلاً ؛ فبعد شهرين او ثلاثة ، سيصبح
الافراد مستعدين . غير ان الحوارنة هم اقوى مما ينبغي . فاذا لم نبدأ
على الفور ، تخطتنا الاحداث . اما تزال موافقاً على ان تعمل معنا ؟
فسأله شنايدر : — أعمل بأي شيء ؟
فقطّب برونيه حاجبيه : — كنت اظن انك تريد ان تعمل معنا ،
فهل غيرت رأيك ؟

قال شنايدر ؟ — لم اغيّر رأيي . وانما اسألك عما ستعملونه .
فقال برونيه : — لقد سمعت الخوري ؟ إن هؤلاء لم يسقطوا من
المسطرة الأخيرة : وسوف تجدهم بعد شهر في كل مكان . وبالإضافة
الى ذلك ، فلن يدهشني كثيراً ان يلتقط الألمان من بيننا كويسلنغين
او ثلاثة وان يكلفوهم بان يحملوا لنا الكلام الطيب . لقد كان بإمكاننا
قبل الحرب ان نقيم بوجوههم التشكيلات الصابة ، الحزب ، النقابات ،
لجنة الطواريء . اما هنا ، فلا شيء عندنا . فالقضية إذن هي اعادة
بناء « شيء ما » . وطبعاً ، سيتحوّل ذلك الى مناقشات طويلة مملة ،
ولم يسبق لي ان احببت ذلك كثيراً ، ولكن اخيراً ، ليس لنا الخيار .
وإذن : معرفة العناصر السليمة وتنظيمها وشنّ حملة سرية معاكسة ، تلك
هي اهدافنا المباشرة . وثمة نظريتان ينبغي نشرهما : إننا نرفض الاعتراف
بالهدنة ؛ والديمقراطية هي شكل الحكومة الوحيد الذي نستطيع اليوم
ان نقبله . ولا جدوى من المضي الى أبعد من هذا : فيجب علينا في
البدء ان نكون حكماً محترسين . وانا آخذ على عاتقي ان أجد الرفاق

في الحزب الشيوعي ، ولكن هناك الآخرين ، الاشتراكيين والراдикаليين
وجميع الافراد الذين هم « من اليسار » على نحوٍ ما ، المتعاطفين
امثالك .

وبسم شنايدر بسمه باردة :

– المائعون .

– لنقل الفاترون .

وسارع برونيه يضيف :

– ولكن بإمكان المرء ان يكون فاتراً وشريفاً . ولست على يقين من
اني اتحدث تماماً بلغتهم . اما انت ، فلن تلاقي هذه الصعوبة ، لان
هذه لغتك .

قال شنايدر : – اتفقنا . المطلوب بالاجمال أن نبعث قليلاً روح

« الجبهة الشعبية » ؟

فقال برونيه : – لن يكون ذلك رديئاً جداً .

وهزّ شنايدر رأسه ، وقال :

– إذن سيكون هذا عملي . ولكن ... هل انت واثق من انه

« عمالك »

فنظر اليه برونيه مندهشاً :

– عملي ؟

قال شنايدر في لامبالاة :

– اوه ! اذا كنت واثقاً من ذلك ..

فقال برونيه : – اوضح قصدك ، فانا لا احب الافكار المضمرة .

– ليس لدي ما اوضحه . فكل ما اقصد اليه : ماذا يفعل الحزب

في هذه اللحظة ؟ ما هي اوامره ، وأهدافه ؟ انا افترض انك تعرفها .

فنظر اليه برونيه باسمياً ، وسأله :

– اتراك تدرك الوضع ؟ إن الالمان هم في باريس منذ خمسة عشر

يوماً ، وفرنسا كلها مقلوبة رأساً علي عقب : فهناك رفاق لنا قُتلوا او أسروا ، وآخرون فروا الى حيث لا يعلم الا الله مع فرقتهم ، في « بو » او « مونتبلية » وآخرون في السجن . فاذا كنت تريد ان تعرف ماذا يفعل الحزب الآن ، قلت لك انه يعيد تنظيم نفسه .

فقال شنايدر برخاوة :

— فهمت ، وانت من جهتك ، تحاول ان تجمع الرفاق الموجودين هنا ، هذا ممتاز .

قال برونيه ، بمثابة اختتام للحديث :

— حسناً ، فاذا كنت موافقاً ..

قال شنايدر : — ولكن بكل تأكيد يا عزيزي ، اني موافق ، لا سيما وان هذا لا يخصني ، فانا لست شيوعياً . انت تقول لي إن الحزب يعيد تنظيم نفسه : فانا لا اريد منه اكثر من ذلك . غير ان ما اردت ان أعرفه ، لو كنت في مكانك ..

وبحث في جيب سترته ، كما لو انه يبحث عن سيكارة ، وعاد يخرج يده بعد لحظة ويجعلها تتدلى بازاء الجدار :

— على اية اساس يعيد تنظيم نفسه ؟ ذلك هو السؤال .

وأضاف من غير ان ينظر الى برونيه .

— إن السوفييات متحالفون مع ألمانيا :

قال برونيه بنفاد صبر :

— ولكن لا . لقد وقّعوا على ميثاق عدم اعتداء ، وهو ميثاق

وقتي . اسمع قليلاً يا شنايدر : لم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي ، بعد ميونيخ ..

فتنهذ شنايدر وقال : — اعرف ، اعرف كل ما ستقوله لي .

إن الاتحاد السوفياتي فقد ثقته بالحلفاء وانه يتمهل ريثما يصبح قوياً بما فيه الكفاية ليعلن الحرب على الألمان . أليس كذلك ؟

فردد برونيه وقال : - ليس تماماً . فانا أميل الى الاعتقاد بان
الالمان سيهاجمونه .

- ولكنك تعتقد أنه يفعل ما في وسعه ليؤخر ذلك .
- أتصور .

فقال شنايدر بهدوء :

- إذن لو كنت إياك ، ما كنت واثقاً الى هذا الحد بان الحزب
سيأخذ وضعاً حازماً ضد النازيين : فان ذلك يمكن ان يضر الاتحاد
السوفيياتي .

وحدد على برونيه عينيه المغتلمتين . كان له نظر ضعيف كتيب ،
ولكن تصعب مقاومته . وشعر برونيه بالانزعاج ، فأدار رأسه وقال :
- لا تجعل نفسك أبله مما انت . فأنت تعلم جيداً ان القضية ليست
قضية اتحاد موقف علي . إن الحزب هو حزب غير مشروع منذ ٣٩ ،
وسيطل نشاطه سريراً .

فابتسم شنايدر : - سري ، نعم . ولكن ما معنى هذا ؟ أيعني
ان جريدة « الاومانيتيه » ستطبع سريراً ؟ اسمع إذن : فن أصل عشرة
الاف نسخة توزع ، ستقع مئة نسخة على الأقل في ايدي الالمان ؛ هذا
مقدور : فان بالامكان ، بقليل من الحظ ، اخفاء مصدر المنشورات ،
والمطابع ، والتحرير الخ .. اذا كان هذا غير مشروع ، ولكن ليس
بالامكان اخفاء المنشورات نفسها ؛ لأنها مصنوعة لتنتشر وتوزع . وانا
اعطي الغستابو ثلاثة أشهر ليقفوا تماماً على سياسة الحزب الشيوعي .
- وبعد ذلك ؟ انهم لا يستطيعون أن يعزوها للاتحاد السوفيياتي .

وسأل شنايدر : - والكومنترن ؟ هل تتصور ان موضوع الكومنترن

لم يثر بين ريبنروب ومولوتوف ؟

كان يتكلم بغير لهجة الهجوم ، بصوت محايد . ومع ذلك ، فقد
كان في الحاحه شيء مريب . وقال برونيه :

– لا نجعل من أنفسنا استراتيجيين في غرفة . إن ما يقوله ريبنتروب لمولوتوف أجهله ، فانا لست تحت الطاولة . ولكن ما أعرفه – لأن هذه بديهية بسيطة – هو أن العلاقات قد قطعت بين الاتحاد السوفياتي والحزب .

قال شنايدر : – أتظن ذلك ؟
وأضاف بعد لحظة : – على كل حال ، اذا كانت قد قطعت اليوم ، فستعاد غداً . فهناك سويسرا .
وانتهى القدّاس ، ومرّ جنودٌ أمامهما ، صامتين شاردين . وأخفض شنايدر صوته :

– انني واثق من ان الحكومة النازية تعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولاً عن نشاط الحزب الشيوعي .

قال برونيه : – لنقرّ ذلك جدلاً . فاين يقودنا هذا ؟
فقال شنايدر : – تصوّر ان الاتحاد السوفياتي ، رغبةً منه في كسب الوقت ، يفرض الصمت على الشيوعيين في فرنسا وبلجيكا .
فهز برونيه كتفيه وقال :

– يفرض ! كيف تراك تتمثل العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي ؟ الا تعرف ان هناك خلايا في الحزب الشيوعي وأشخاصاً يناقشون ويصوتون ، في الحلايا ؟
فابتسم شنايدر واستأنف بصبر :

– لم اكن اريد ان اجرحك . واطرح عبارتي على نحو آخر :
تصوّر ان الحزب الشيوعي ، رغبةً منه في ألا يثير صعوبات للاتحاد السوفياتي ، يفرض على نفسه صمتاً ...

– وهل يكون ذلك جديداً ؟
– ليس جديداً الى هذا الحد . ماذا فعلتم باعلان الحرب ؟ ومنذ ذلك الحين ، ساء الوضع بالنسبة للاتحاد السوفياتي . واذا استسلمت

انكلترا ، كان هتلر طليق اليدين .
- لقد اتيح للاتحاد السوفياتي الوقت الكافي للاستعداد . وهو ينتظر
الصدمة .

- هل انت واثق من ذلك ؟ إن الجيش الأحمر لم يكن لامعاً الى
هذا الحد ، في هذا الشتاء . وقد كنت انت نفسك تقول إن مولوتوف
يتمهل ...

- اذا كان بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي العلاقات التي
تشير اليها ، فسيعرف الرفاق في الوقت المناسب درجة استعداد
الجيش الأحمر .

- الرفاق ، نعم ، هناك في باريس . أما انت ؛ فلا ، « انت »
الذي تعمل « هنا » ...

قال برونيه وهو يرفع صوته :

- واخيراً ، ما هي غايتك من هذا كله ؟ ماذا تريد ان تثبت ؟
ان الحزب الشيوعي أصبح فاشستياً ؟

- كلا ، ولكنني اريد ان اثبت ان النصر النازي والميثاق الجرمانى
السوفياتي هما واقعان قد لا يروقان للحزب الشيوعي ، ولكن عليه ان
يرضى بهما . وانت لا تعرف بالذات « كيف » يرضى بهما .

- أيجب عليّ ان أشبك ذراعيّ ؟

قال شنايدر : - انا لا اقول ذلك . وانما نحن نتحدث ..

واستطرد بعد لحظة ، وهو يمرّ سبابته على جانب انفه الكبير .

- إن الحزب الشيوعي ليس أعطف من النازيين على الديمقراطيات
الرأسمالية ولو كانت الاسباب مختلفة ، وما دام انه كان ممكناً تصوّر
تحالف بين الاتحاد السوفياتي وديموقراطيات الغرب ، فقد اخترتم ،
كقاعدة ، الدفاع عن الحريات السياسية ضد الدكتاتورىة الفاشية .
ولكنك تعلم خيراً منى ان هذه الحريات وهمية . إن الديمقراطيات الآن

راكحة على قدميها ؛ وقد اقترب الاتحاد السوفياتي من ألمانيا ، وأخذ بيتان السلطة ، وإنما يجب على الحزب ان يواصل عمله في مجتمع فاشي او مرصود للفاشية . وانت ، بلا رؤساء ، ولا أمر ولا اتصال ، ولا أخبار ، ستعود بدافع من مبادرة خاصة الى اتخاذ تلك القاعدة الفاسدة . لقد كنا نتحدث منذ لحظة عن روح « الجبهة الشعبية » : ولكن الجبهة الشعبية قد ماتت . ماتت ودفنت . لقد كان لها معنى عام ٣٨ ، في السياق التاريخي . اما اليوم ، فليس لها اي معنى . فاحترس يا برونيه ، انك ستعمل في الظلام .

وكان صوته قد أصبح خشناً ، فكسره فجأة واستطرد في رقنة يقول :

— من أجل هذا ، كنت أسألك عما اذا كنت واثقاً من عملك .

فأخذ برونيه يضحك وقال :

— كفى ! إن هذا كله ليس مريعاً الى هذا الحد . فلنجمع الافراد ولنحاول ان نجابه الحوارنة والنازيين ؛ اما الباقي ، فسننظر في أمره : إن المهام تنبثق مع تلقاء نفسها .

فأقرّ شنايدر برأسه وقال :

— بكل تأكيد ، بكل تأكيد .

فنظر اليه برونيه في عينيه ، وقال :

— انت الذي تقلقني ، فاني اجدك متشائماً جداً .

قال شنايدر في غير ما اكتراث :

— اوه ! انا ؟ اذا اردت رأيي ، فاني أعتقد ان ما نفعله ليس له أية أهمية سياسية : إن الوضع مجرد ، ونحن غير مسؤولين . ان الذين سيعودون منا ، فيما بعد ، سيجدون مجتمعاً منظماً ، باطاراته وتقاليده . في هذا الميدان ، على الأقل . لأننا من جهة اخرى اذا استطعنا ان نردّ للرفاق بعض الشجاعة ، واذا حلنا بينهم وبين اليأس

وإذا اعطيناهم سبباً للحياة هنا ، ولو كان وهمياً ، فان ذلك يستحق جهد التجربة .

قال برونيه : - حسناً ، هذا ممتاز (واضاف بعد لحظة صمت)
هياً ، اريد ان اتنزه قليلا ، ما دام هذا اول خروج لي . فالى اللقاء .
فحياته شنايدر باصبعين ومضى . عقلٌ سلمي ، مثقف ، ما كان
ينقصني الا ان أرتبك به . نموذج غريب : تارة ودّيّ حارّ ،
واخرى بارد ، وقح تقريباً . فأين رأيته ؟ لماذا تراه يقول « الرفاق »
وهو يتحدث عن أفراد الحزب ، ولا يقول « رفاقك » كما يُنتظر منه؟
يجب ان اتدبر الأمر لألقي نظرةً على دفتره العسكري . وفي الساحة
المرحة بيوم الأحد ، كان الرجال يبدون بهيئة ايام النزهة ؛ وعلى
جميع هذه الوجوه المغسولة ، المحلوقة ، كانت الغيبة نفسها مرسومة .
كانوا ينتظرون ، وكان انتظارهم قد أقام فيما وراء السور مدينةً برمتها
ذات حدائق ومواخير ومقاه . وفي وسط الساحة ، كان أحدهم يعزف
على الارمونيكا : وازواج يرقصون ، وكانت المدينة الشبح ترفع
سقفها واوراقها فوق سور السجن ، وتنعكس على الوجوه العمياء التي
يحملها هؤلاء الراقصون الأشباح . واستدار برونيه على عقبه ، وعاد
الى الساحة الاخرى . تغيير في الإطار : لقد نقلت الكنيسة . كان
الفتيان يلعبون لعبة الركض وهو يصرخون ، وكانوا يعدون كالمجانين .
وارتقى برونيه الجرف الصغير خلف الاصطبل ، ونظر الى القبور ؛
فاستشعر الارتياح . وكانت زهورٌ قد القيت على الارض المنكوتة ،
وزرعت ثلاثة صلبان صغيرة متجاورة . وجلس برونيه بين قبرين ،
وكان الأموات تحته : وهدأه ذلك ؛ إن البراءة ستأتي يوماً ،
بالنسبة اليه ايضاً . وأخرج من التراب علبة سردين مفتوحة وصدئة ،
ورماها امامه . انه يوم أحد نزهة ومقبرة : كنت أنتزه على رابية ،
وتحتي كان صبية يلعبون لعبة الركض في مدينة ، وكانت أصواتهم

تصعد إليّ . اين كان ذلك ؟ إنه لا يعرف بعد ؛ ويفكر : « صحيح اننا سنعمل في الظلام » . فماذا إذن ؟ لا نفعل شيئاً ؟ واثارت قوته لهذه الفكرة . سأعود ، في نهاية الحرب ، وسأقول للرفاق : « هأنذا . لقد عشت . » وسيكون ذلك رائعاً ! هل أهرب ؟ ونظر الى الجدران ، ولم تكن مفرطة في الارتفاع : حسبي ان أبلغ نانسي ، فان اسرة « بولان » ستخبثني . ولكن كان ثمة هؤلاء الاموات الثلاثة ، تحته ، وهناك الصبية الذين يصرخون في هذا الأصيل الأبدي : وألصق باطن يديه على الأرض الرطبة ، وقرر انه لن يهرب . مرونة . تجميع الفتيان ، والانتظار ، وردّ الثقة لهم والأمل ، وعلى كل حال حشهم على فضح الهدنة ، ثم الاستعداد لتغيير التعليقات وفق الأحداث . وفكر برونيه : إن الحزب لن يتخلى عنا . إن الحزب « لا يستطيع » ان يتخلى عنا . وردد بطوله ، كالاموات ، على الاموات ؛ ونظر الى السماء ، ثم نهض ، وهبط بخطى بطيئة ، وفكر بأنه وحيد . كان الموت حوله كأنه رائحة ، كنهاية يوم أحد ؛ وللمرة الاولى في حياته ، شعر بغموض أنه مذنب . مذنب بأن يكون وحيداً ، مذنب بان يفكر ويعيش . مذنب بالا يكون قد مات . لقد كان فيما وراء الجدران بيوت مينة وسوداء بكل عيونها المفقودة : أبدية الحجر . وكان ضجيج هذا الجمع الرباني يصعد نحو السماء منذ الأزل . وبرونه وحده ليس خالداً : ولكن الخلود منصبّ عليه كأنه نظرة . انه يمشي : وحين عاد ، كان الميساء قد هبط ، لقد تنزه طوال النهار ، وكان لديه ثمة ما يقتله ، وهو لا يدري ان كان قد بلغ ذلك : إن من لا يفعل شيئاً ، يعاني حالات نفسية ، هذا طبيعي . وكانت تنبعث من ممر العنبر رائحة غبار ، وكانت الاقفاص تطنّ ، إنه ذيل يوم الأحد يجرجر نفسه ، وعلى الأرض ، كانت ثمة سماء بكاملها متألّثة ، وفيها نجوم مذنبية : كان الافراد يدخنون في الظلام . وتوقف برونيه ، وقال من غير ان

يوجه كلامه لأحد ، بصورة خاصة :

– تنبهوا حين تدخنون : حاولوا الا تحرقوا الكوخ الخشبي .
وكان الرجال يدمدمون تحت هذا الصوت الذي يهبط اليهم ، من فوق ،
على الأكتاف . وصمت برونيه ، مبلبلا ؛ وأحس انه زائد . وقام بوضع
خطوات اخرى : وانبتق كوكب أحمر فتدحرج باسترخاء عند قدميه ،
فوضع عليه حذاءه ؛ وكان الليل رقيقاً أزرق ، وكانت النوافذ تبرز
في الظلّ ، بنفسجية كالصور التي تبقى في العينين حين يكون صاحبهما
قد نظر اطول مما ينبغي الى الشمس ، ولم يجد قفصه ، فصاح :
– هو ! شنايدر !

فقال صوت : – هنا ! هنا !

فعاد أدراجه ، وكان شخص يغني برقة ، لنفسه : « على الطريق ،
الطريق الكبيرة ، كان شاب يغني » . وفكر برونيه : « انهم يحبون
المساء . » وقال شنايدر :

– من هنا ، تقدّم قليلا ، لقد وصلت .

ودخل ؛ فنظر الى الكوة ؛ اين هو المصباح ؟ كان الأشخاص من
حواله يهمسون . انهم في الصباح يصيحون ، وفي المساء يهمسون ، لأنهم
يحبون المساء ؛ فع الليل ، يدخل « السلام » نخطى ذئبية الى العلبة
الكبيرة المظلمة .. « السلام » والسنوات القديمة ؛ بل لكأنهم احبوا حياتهم .
وقال مولو :

– اما انا ، فكأس من البيرة ، من غير ربطة عتق . في مثل هذه
الساعة ، أكون في « الكادران بلو » وانا أشرب كأس بيرة ، فيما
انظر الى المارة .

وسأل بلوندينه : – و « الكادران بلو » اين تراه يكون معلقاً ؟
– في الغوبلين ، عند زاوية جادة الغوبلين وبولفارسان مارسيل ، اذا
فهمت ما أقصد .

— آه ! لأن هناك دار سينما سان مارسيل ؟
— على بعد مئتي متر . وانا أسكن مقابل ثكنة « لورسين » . وقد كنت بعد العمل أعود الى بيتي لآكل لقمة ، ثم أهبط ثانية ، فأذهب الى « الكادران بلو » أو احياناً الى « كانون دي غوبلين » . غير ان في « الكادران بلو » فرقة موسيقية .

— الكلام بسرك ، في سينما سان مارسيل برامج ممتازة .
— صحيح . هناك « شارل تريني » ، وكانت من قائل ماري دوبا ، وقد رأيتها تخرج بلحمها وعظمها ، وكانت لها سيارة صغيرة جداً .

قال بلوندينه : — كنت انا أقصدها . وانا اسكن « فانف » ، وكنت اعود الى بيتي مشياً على الأقدام ، حين يكون الليل جميلاً .
— ولكنها ليست قريبة .

— صحيح . غير اني كنت شاباً .
قال لامير : — اما انا ، فليست البيرة هي التي تنقصني ، وهي لم تؤذني قط ، وانما هو الخمر . كان بوسعي ان اشرب من الخمر لترين في اليوم . وحياناً ثلاثة . ولكن كان لا بد لي من ان أرشحها عرقاً . تصوّر لو كان لدينا خمر هذا المساء ، زجاجة صغيرة من صنع « ميدوك » .

قال مولو : — عجباً ! ثلاثة لترات ؟
— أجل !
— اما انا ، فأحسّ الدوار اذا شربت اكثر من لتر .
— ذلك انك تشرب الخمر الابيض .
قال مولو : — آه ، صحيح . الخمر الابيض . لا أعرف غيره .
— ينبغي ألا تمضي الى أبعد . خذ مثلاً : ان امي العجوز في الخامسة والستين ، وانا أسكن معها . وبالرغم من سنها ، ما تزال

تكرع كيلو خرهما كل يوم . غير انه من الخمر الأحمر .
وصمت لحظة ، وحلم . وكان الآخرون يحملون ايضاً ، ويصفون
بهدهو الى هذه الاصوات التي تتحدث باسم الجميع ، من غير ان
يحاولوا مقاطعتها . وفكر برونيه في باريس ، وفي شارع مونمارتر ،
وفي حانة صغيرة كان يقصدها ليشرب قدح خمر ابيض مصمغ اذ يخرج
من « الاوما » ، وقال الرقيب :

— في يوم أحد كهذا ، أكون ذاهباً مع زوجتي الى حديقتي . إن
لي حديقة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من باريس ، فيما بعد
« فيلنوف سان جورج » بقليل ، وهي تعطي خضاراً عظيمة .
فأقره صوتٌ ضخم من الجانب الآخر من القضبان :
— آه ! إن الأراضي هناك اراض خصبة كلها .

• قال العريف : — إن هذه هي ساعة العودة الى البيت . او ربما
قبل ذلك بقليل ، تماماً عندما تغرب الشمس ؛ وانا لا أحب ان اسير
بسيارتي على ضوء مصباحها . وقد كانت زوجتي تعود بزهور على
مقودها ، وكنت انا أضع خضاراً على « حامل الامتعة » .
قال لامبير : — اما انا ، فلم اكن أخرج يوم الأحد . فالزحام
شديد في الشوارع ، ثم انني كنت أشغل يوم الاثنين ، ولم يكن بيتي
قريباً جداً من « غاردوليون » .

— وماذا تفعل في « غاردوليون ؟ »
— انني موظف في « الاستعلامات » ؛ المبنى الذي هو في الخارج .
فاذا خطر لك يوماً ان تقوم برحلة صغيرة ، فليس لك الا ان تأتي
لحجز الأماكن . حتى ولو جئت عشية رحلتك : فاني أدبر أمرك .
قال مولو : — انا لا استطيع ان ابقى في بيتي ، فان ذلك يورث
عندي الكآبة . يجب ان اوضح اني أعيش وحدي .
قال لامبير : — وحتى السبت ، كان يحدث غالباً ألا أخرج .

- والصاحبات ؟
- والصاحبات ؟ كنتُ أُصعدهنّ الى البيت .
- قال بلوندينه مشدوهاً : - الى البيت ؟ وماذا كانت تقول في ذلك ، عجوزك ؟
- لم تكن تقول شيئاً . كانت تعدّ لنا الشورباء وتذهب الى البسيما .
- قال بلوندينه : - هكذا إذن . تستطيع ان تقول انها ماهرة ؛ فما قولك بامي التي كانت ترسل إلي الصفعات ، حتى بعد ان بلغت الثامنة عشرة ، حين كانت تلتقي بي مع فتاة ؟
- وتسكن معها ، انت ايضاً ؟
- الآن ، كلا : فقد فتحتُ الآن بيتاً .
- وصمت لحظة ثم قال : - وهذا المساء ، لم نكن لنهبط ايضاً . بل كنا بقينا للمضاجعة .
- وساد صمت طويل ، وكان برونيه يصغي اليهما ، فيحس نفسه يومياً ، ويحس نفسه خالداً ، ويقول بشبه خجل :
- اما انا ، فقد كنت في مثل هذه الساعة في حانة بشارع مونمارتر ، وكنت أشرب مع الرفاق خراً ابيض مصمغاً .
- فلم يجب أحد ، وغنى رجل « كوخى الصغير » بصوت نحاسي .
- وسأل برونيه شنايدر :
- من هو هذا الفتى ؟
- فقال شنايدر : - انه غاسو ، محصل في المالية . وهو من بلدة « نيم » .
- وظلّ الرجل يغني ، وفكر برونيه : « ان شنايدر لم يقل ماذا كان يفعل يوم الاحد . »

انتفاض نداء طويل رخم ، ما تراه قد كان ؟ ابيض لوح زجاج الكوة ؛ وعلى الارض الخشبية البيضاء ، كانت القضبان تعكس ظلالها ، الساعة الثالثة صباحاً . وكانت الدوالي تتموج تحت سلفته القمر ، وكان نهر « الأوليه » يداعب نفسه عند جزره الكثيفة العشب ، وعند جسر « فوفلورفيل » كان زارعو الكرمة ينتظرون قطار الساعة الثالثة وهم يخفقون نعالهم ؛ وسأل برونيه بجذل :

— ما تراه قد كان ؟

وانتفض لأن أحداً قد أجابه :

— هس ! هس ! استمع !

انني « لست » في سريري ، في « ماكون » ، وهذه « ليست » العطلة الكبرى . ومن جديد ، النداء الطويل الأبيض ، ثلاث صفرات تتمدد ، وتتمطى ، وتنهار . لقد حدث شيء ما . كان العنبر يضحج والحيوان الهائل يتحرك على الأرض الخشبية ؛ ومن اعماق الليل الذي لا عمر له ، صوت رقيب :

— قطار ! قطار ! قطار !

كان هذا إذن : القطار الاول . وبدأ شيء ما : إن الليل المجرد سيكتف ويحيا من جديد ، وسيعود الليل الى الغناء . وأخذ الجميع يتكلمون في وقت واحد : « القطار » القطار الاول ، لقد أصلحت السكة ؛ يجب الاعتراف بأنهم أتموا ذلك في سرعة كبيرة ، ان الالمانى هو دائماً عامل بارع ، ولكن اسمع ، إن هذه مصلحتهم ، ويجب ان يصلحوا كل شيء ؛ في هذا القطار، سترى ، فرنسا ، سترى في هذا القطار ؛ اين هو متجه ؟ الى نانسي ، وربما الى باريس ؛ اوه ايها الأصحاب ، اوه ايها الأصحاب ! لو كان في داخله اسرى ، اسرى يعودون الى بيوتهم ، هل تتصورون ؟ »

كان القطار يسير في الخارج على خط مرتجل ، وكان بيت كبير مظلم كامناً برمته . وفكر برونيه : انه قطار ذخيرة ؛ وحاول ، بدافع

الاحتراس ، ان يرفض طفولته ؛ حاول ان يرى الشاحنات الصدئة ،
وأغطية الوقاية ، وصحراء من الصلب والنحاس ؛ ولكنه لم يستطع :
فقد كانت ثمة نساء نائمات تحت ضوء مصباح أزرق خافت ، في رائحة
مع المقاتق والخمر ، وكان ثمة رجل يدخن في المرمر . وكان الليل
الراقد على الزجاج يعكس له صوته ، غداً صباحاً ، باريس . وابتسم
برونيه ، ثم عاد الى الرقاد ، ملتفماً بطفولته ، تحت ضوء القمر الهامس
غداً باريس ، ونعس في القطار ، ورأسه مستند الى كتف عارية رقيقة ،
واستيقظ في نور حريري ، باريس ! وأدار عينه نحو الشال من غير
ان يحرك رأسه : كان ثمة ستة وطاويط متشبهة بأرجلها بالجدران ، وأجنحتها
منتشرة كأنها تنابير . واستيقظ تماماً : كانت الوطاويط هي الظلال
السوداء لسترات معلقة على الجدار ، بالطبع لم ينزع مولو سترته :
فاذا اجبرناه على نزعها حين ينام ، وعلى تغيير قميصه ، لأدنى ذلك
الى إلصاق قلة بنا ، وتثاءب برونيه ، صباح آخر ، ما تراها قد
كانت ، هذه الليلة ؟ آه نعم ، القططار . وانتصب فجأة ، فنفض
غطاءه وجلس . كان جسمه من خشب ، تشنجات متعرجة ، وفرحة
مخوشبة في ضلوعه الخدرة ، كما لو ان صلابة الارض الخشبية قد
انتقلت الى لحمه ؛ وتمطى وفكر : « اذا رجعت ؛ فلن أنام بعد
في سرير أبداً . » وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر القم ، في
هيئة أليمة ؛ وكان الشتيمي يبسم للملائكة ؛ وكان غاسو مشعث الشعر ،
أحمر العينين ، يكسر فتاتاً من الخبز على الغطاء ويأكله ، وكان بين
الفينة والفينة يفتح فمه ويفرك باهامه طرف لسانه لينزع عنه قذى أو
شعرة صوف بقيت في كسرة ؛ وكان مولو يحك رأسه في تملل ،
وكانت خطوط مفرحة ترسم تجعداته : كيف السبيل الى إيجاد وسيلة
لقسره على الاغتسال ؛ وكان البلوندينه الأشقر يطوف بعينيه في هيئة
كثيبة متملمسة ، ثم يشرق وجهه فجأة :

– بلا مزاح !
ويطفو وجهه وحده من الغطاء ، ويبسده مندهشاً مفتوناً ، فسأله
مولو :

– ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟
قال بلوندينه : – بي اني متوتر !
فقال مولو غير مصدق : – انك متوتر؟ آه ، انني لا أصدقك ،
متوتر كالمنديل !
فألقي بلوندينه عنه غطاءه ، فاذا قيصه مشمّر عن ساقيه الشقراوين
المشعرتين .

وقال مولو : – هذا لعمرى صحيح ! يا لك من محظوظ !
قال غاسو بلهجة متكلفة : – محظوظ ؟ بل انا اظنّ ذلك مصيبة !
قال بلوندينه : – ايها الحاسد الكبير ! انك تودّ كثيراً لو تحدث
لك هذه المصيبة !

وهزّ مولو ذراع لامبير فصاح لامبير وانتفض :
– ماذا هناك ؟

قال مولو : – انظر !
وفرك لامبير عينيه وتطلع ، ثم اكنفى بالقول :
– خراء !

ونظر مرة أخرى : – هل أستطيع ان ألمسه ؟
قال بلوندينه : – سيحدث لي ذلك ألماً كبيراً .
– انه احياناً فضيحة .

فردد بلوندينه مشمّراً :

– فضيحة ! فضيحة ! حين كنت في الوضع المدني ، كنت
انهض كل صباح بقضيب اكبر من هذا مرتين !
وكان راقداً على ظهره ، متشابك الذراعين ، مغمض العينين نصف

إغماضة ، وعلى شفتيه بسمة طفولية . وقال ، وهو ينظر مع بين أجفانه
الى ذكره الذي كان يرتفع ويهبط على ايقاع نفسه :
- كنت قد بدأت أقلق . ذلك ان لي امرأة ، انا !
فضحكوا . وصرف برونيه رأسه وقد صعد الغضب الى حلقه
وقال مولو :

- اما انا ، فقد كنت أذهب الى الماخور . وقد يحدث ان يزول
الأمر في الطريق ، فيكون ذلك عمل توفير .
وضحكوا ايضاً ، وأخذ البلوندينه يداعب ذكره بيد مهملة حنون ،
وانتهى الى القول :
- الجنة الأرضية .

والتفت برونيه فجأة نحو البلوندينه ، وقال له من بين أسنانه :
- خبيء هذا !
فسأله المجدد بصوت مدبّق بالشهوة :
- وممّ ؟

فقال غاسو وهو يقلد برونيه :
- خبيء هذا النهد الذي لا يستطيع ان اراه !
وقال برونيه بجفاف : - انتم جميعاً خنازير !
وأدار نحوه رؤوسهم ينظرون اليه ، وفكر برونيه :
- انهم لا يحبونني .

ودمدم غاسو بيبضع كلمات مبهمه ، فانحنى عليه برونيه :
- ماذا تقول ؟

فلم يجب غاسو ، وقال مولو بلهجة مصالحة :
- ليس من الجريمة ان نتكلم بين فترة وفترة عن الحب . إن ذلك
يغيّر الجو .

قال برونيه : - انما العاجزون هم الذين يتكلمون عن الحب . إن

الجبّ يُعمل حين يستطيع المرء ذلك .

- وحين لا يستطيع المرء ذلك ؟

- يصمت .

فبدا عليهم الانزعاج والمداراة ؛ وعلى مضض ، رفع البلوندينه بهدوء غطاءه . وكان شنايدر ما يزال نائماً ؛ وانحنى برونيه على الشتيمي وهزّه ، فدمدم الشتيمي وفتح عينيه ، فقال برونيه :

- رياضة !

قال الشتيمي : - اويه !

ونفض فتناول سترته ، وهبطوا الى ساحة الاصطبلات . وامام أحد الأكواخ ، كان عامل المطبعة وداوروكير وثلاثة آخرون ينتظرونهم .

وصاح بهم برونيه من بعيد :

- كيف الحال ؟

- انفجارات . هل سمعت القصف هذه الليلة ؟

فأجاب برونيه منزعجاً : - نعم ، لقد سمعته .

ولكن غيظه ما لبث ان سقط : ان هؤلاء شبان ، نظيفون ، ذوو حيوية ، وكان عامل المطبعة قد زرع قبعته الى جانب ، في شيء من التأنق . وبسم لهم برونيه . وكانت الضجة قائمة ، وكان الجمع في جوف الساحة ينتظر القصدّاس ، ولاحظ برونيه في رضى انهم كانوا اقل عدداً من يوم الأحد الاول .

- هل قت بما كلفتك به ؟

وفتح داوروكير باب الكوخ ، من غير ان يجيب : كان قد نثر القش على الأرض ، فشم برونيه رائحة اصطبل رطبة .

- من اين أخذته ؟

فابتسم داوروكير :

- لقد تدبرت الأمر .

قال برونيه : - حسناً .

ونظر اليهم في ودّ ودخلوا فنزعوا ثيابهم ولم يحتفظوا الا بسر اويلهم
وجراباتهم ؛ وأغرق برونيه قدميه في عذوبة القش المتكسرة ، وشعر
بالرضى فقال :

- هيتا بنا .

فاصطف الرجال ، مولين الباب ظهورهم . وقام برونيه بالحركات
تجاههم ، وهو يعدّ . فاحتدوا حذوه ، وأنفاسهم تزفر خلال أسنانهم .
ونظر اليهم برونيه في سرور بينما كانوا يقرفصون على أعقابهم ،
وايديهم خلف رقابهم ، أشداء ذوي عضلات مستطيلة ، وكان داوروكير
وبرونيه أقواهم ، ولكن كانت لهما عضلات مكورة ؛ اما عامل
المطبعة فقد كان مفرط الهزال ؛ وتأمله برونيه في شيء من القلق ، ثم
جاءته فكرة ، فانتصب وصاح :

- قفوا !

فبدا على عامل المطبعة انه سرّ لتوقفهم ، وكان يلهث . واقرب
منه برونيه :

- إنك في الحقيقة شديد الهزال !

- منذ عشرين حزيران ، فقدت ستة كيلوغرامات .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- إن في مركز التمريض ميزاناً .

قال برونيه : - يجب ان تستعيد صحتك . انك لا تأكل
طعاماً كافياً .

- كيف تريد ان ...

قال برونيه : - هناك وسيلة سهلة جداً ، فسوف يعطيك كل منا
جزءاً من حصته ...

قال عامل المطبعة : - اني ...

- فترض عليه برونيه السكوت :
- انا الطبيب ، واني آمرك بزيادة الغذاء . موافقون ؟
- قالها ملتفتاً نحو الآخرين ، فأجابوا :
- موافقون .
- حسناً ، ستمرّ اذن كل صباح بالغرف لتجمع نصيبك . في الوقت المحدد .
- انحناء ، وادارة الجذع ؛ وبعد لحظة ، تهاوى العامل ، فقطب برونيه حاجبيه :
- ماذا هناك ايضاً ؟
- فابتسم العامل بسمة اعتذار :
- إن هذا قاسٍ بعض الشيء .
- قال برونيه : — المهم الا تتوقف ، لا تتوقف .
- وكانت الجذوع تدور كأنها عجلات ، وكانت الرؤوس تتحدثى السماء وترتمي بين السيقان ، ثم ترتفع من جديد . « كفى ! » واستلقوا على ظهورهم ليقوموا بالحركات المعديّة ، وستكون النهاية بالجرس الخلفي : وكان ذلك يسليهم لأنهم كانوا يظنون انفسهم مصارعين . وأحسّ برونيه عضلاته تعمل ، وكان ألمّ طويل حادّ يشدّ أربتيه ، وكان سعيداً ؛ إنه اللحظة الوحيدة الطيبة من لحظات النهار ؛ وكانت أعمدة السقف السوداء تتدحرج الى خلف ، والقش يشب الى وجهه فيستنشق رائحته الصفراء ، وتلامسه يداه امام قدميه . وقال :
- هيا ! هيا !
- قال جندي : — إنه يشدّ .
- هذا أفضل ! هيا ! هيا !
- ونفض قائلاً :
- انه دورك يا ماربو !

وكان ماربو يمتهن المصارعة قبل الحرب : وهو مدلل في مهنته .
وقد اقترب مع داوروكير فتناوله من قامته . وضحك داوروكير ،
وقد أحسّ الدغدغة ، وتداعى للسقوط الى خلف ، على اليدين
المقلوبتين . وجاء دور برونيه ، فأحسّ هاتين القبضتين بجنبه ، وارتمى
الى خلف ، فقال ماربو :

— لا ، لا ، لا تتشج . دع نفسك باسترخاء ، لا بقسر .
فضغط برونيه على فخذه ، وصدر صوت قفقه ، لقد شاخ ،
وأضحت عقده صلبة ، وجهد حتى لمس الأرض بأطراف أصابعه ،
ثم نهض ، مسروراً ، مع ذلك ، وكان يرشح ، فأولاهم ظهره
ووثب الى مكانه .

— قفوا !

والتفت فجأة ، فاذا العامل قد سقط مغشياً عليه . ووضع ماربو
بلطف على القش ، وقال بعتاب خفيف :

— ذلك أفسى من ان يحتمله .

فقال برونيه منزعجاً : — كلا . كل ما هناك انه لم يعتد عليه .
وكان العامل قد فتح عينيه ، فبدا ممتعاً ، وكان يلهث بمشقة ،
فسأله برونيه بوداً :

— وإذن ، ايها الحصان الصغير !

وابتسم له العامل في ثقة :

— لا بأس ، يا برونيه ، لا بأس . انني أعتذر ، فانا...

قال برونيه : — طيب ، طيب ، ستكون في حالة افضل اذا
أكلت أكثر . هذا كل شيء لهذا اليوم ، ايها الاصحاب . فإلى
« الدوش » ثم الى الخطوة الرياضية .

فركضوا الى انبوب السقاية ؛ بسراويلهم ، وملابسهم تحت أذرعهم
وألقوا بشياهم على شراع خيمة ، فجعلوا منها رزمة غير قابلة للاحتراق ،

ثم اغتسلوا تحت الرذاذ . وكان برونيه وعامل المطبعة بمسكان الانبوب ويوجهان الماء الى ماربو .

ورمى العامل بنظرة قلقه الى داوروكير ، وتنحنح وقال لبرونيه :
- نود ان نتحدث اليك .

فالتفت اليه برونيه من غير ان يترك الانبوب ، فاخفض العامل عينيه : كان برونيه معتاضاً بعض الشيء : انه لا يجب ان يخيف الآخرين ، وقال بجفاف :

- بعد ظهر هذا اليوم ، عند الساعة الثالثة ، في الساحة .
وفرك ماربو جسمه بنخرقة من قيص كاكبي ثم ارتدى ثيابه . وقال :
- هيه ! ان هناك جديداً ، ايها الاخوان !

كان رجل طويل شديد السمرة يخطب وسط فريق من الاسرى ، فقال ماربو ، مهتاجاً :

- انه شابوش ، السكرتير . انني ذاهب لأرى ما هناك .
ونظر اليه برونيه وهو يتعد : ان الأبله لم يُتَح له ان يلف طاقاته ، فهو بمسك واحدة في كل يد . وسأل عامل المطبعة :
- ما تظن ان هناك ؟

وكانت لهجته لهجة عدم اكتراث ، ولكن صوته لم يكن ليخضع :
انه الصوت الذي يتخذونه جميعاً ، مئة مرة في اليوم ، صوت الأمل .
وهز برونيه كتفيه :

- قد يكون نأ الروس يتزلون في « بريم » او الانكليز يطلبون الهدنة : وهذا لا يغير شيئاً .

ونظر الى عامل المطبعة بلا ود . وكان الفتى الصغير يموت برغبة في ان ينضم الى الآخرين ولكنه لا يجرؤ . ولم يكن برونيه راضياً عن حياته : فما ان اوليه ظهري ، حتى يمضي الى هناك ، فليزرع امام شابوش ، جاحظ العينين ، متمدّد المنخرين ، مفتوح الاذنين على

سعتها ، وكله ثقوب للاستماع . وقال برونيه :

- إغسلني .

ونزع سرواله ، وكان لحمه يبتهج تحت الدفق القابض ، كرات من رذاذ ، مليون كرة صغيرة من لحم ، قوة ؛ وذلك جسمه بيديه ، وعيناه محددتان في المتطلعين ؛ وكان ماربو قد انسلّ وسط الجمع ، ورفع أنفه المشتم نحو الخطيب . يا آلهي ، ليتهم يستطيعون فقط ان يفقدوا الأمل ، ليت لديهم فقط « ما يعملونه » قبل الحرب ، كان العمل هو الذي يشكل لديهم حجر الزاوية ، ويقرّر الحقيقة ، وينظم علاقاتهم بالعالم . اما وأنهم لا يعملون شيئاً ، فهم يعتقدون ان كل شيء ممكن ، أنهم يحلمون ، ولا يدرون بعد ما هو الصحيح . هؤلاء المنزهون الثلاثة ، المتمهلون اللبثون الذين يتقدمون في تموجات طبيعية طويلة ، وعلى أسفل وجوههم بسات نباتية ، أتراهم قد استيقظوا ؟ إن كلمة "تندحرج خارج خاراج أفواههم بين الفينة والفينة ، كما في الحلم ، ولا يبدو أنهم يلاحظون ذلك . بمّ تراهم يحلمون ؟ أنهم يصنعون ، من الصباح حتى المساء ، كأنه سمّ ذاتي ، الانباء المثيرة التي حرموا نفوسهم منها ؛ وهم يروون فيما بينهم كل يوم القصة التي كفّوا عن القيام بها : قصة ملأى بالأحداث المسرحية وبالدم .

- يكفي .

فانخفض الدفق، تفجّر زبد بين الحصى ، وتنشّف ماربو ، وعاد ماربو نحوها بادي النصر ، أعمى ، فتهدى لحظة ثم قرر ان يتكلم . وقال بلهجة عدم اكتراث مصطنعة :

- سنشهد زيارات .

فاصطبغ وجه عامل المطبعة :

- ماذا ؟ « أية » زيارات ؟

- العائلات .

فقال برونيه في سخرية : - صحيح ؟ ومتى ذلك ؟
فنهض ماريو بخفة ونظر اليه في عينيه نظرة مثيرة :
- اليوم .

قال برونيه : - بكل تأكيد . وقد أوصي على عشرين الف سرير
حتى يستطيع الاسرى ان يضاجعوا نساءهم .
فضحك داوروكير ، ولم يجرؤ العامل على ألاّ يضحك ، ولكن
عينيه ظلّتا جاثمتين . وابتسم ماريو في طمأنينة :

- لا ! لا ! فهذا رسمي . وشابوش هو الذي قاله .

فقال برونيه وهو يتضحك : - آه ! اذا كان شابوش !

- وهو يقول ان ذلك سيُعلّق هذا الصباح .

فقال داوروكير : - سيعلق على قفاي !

فابتسم له برونيه . وبدت على ماريو الدهشة :

- إن الأمر جدّ ، وقد قيل ذلك لغارتيزر ايضاً ، قاله له سائق

سيارة شحن ألماني ، ويبدو انها قادمة من ايبينال ونانسي .

- من هي القادمة ؟

- العائلات . لقد سارت أمس ، على الدراجات ، ومشياً على الاقدام

وفي العربات ، وفي قطار البضائع ، ونامت على القش ، وفي دار

البلدية ، وذهبت هذا الصباح تبتهل الى القائد الألماني (وأضاف)

عجباً ! خذوا ! هذا هو الاعلان .

وكان ثمة شخص يلصق ورقة على الباب ، واذا بالجمع يتدفق

ويتموج حول السلم ؛ واوماً ماريو الى الباب بحركة عريضة ، وسأل

بلاهجة انتصار :

- ماذا ترون : هل على قفاك عُلق الاعلان ؟ هل على قفاك ؟

فهزّ داوروكير كتفيه . وارتدى برونيه على مهل قيصه وبنطاله

منزعجاً ان يكون قد أخطأ . وقال :

– الى اللقاء ايها الرفاق . أغلقوا الصنبور .
ومضى على مهل ينضم الى الجمع الذي كان يتزاحم عند الباب ؛
كان باقياً حظ واحد في ألا يكون ذلك الا وهماً كسائر الاوهام ؛ كان
برونيه يحتقر السعادات التي لا يستحقها المرء والتي تأتي بين الفينة
والفينة لتملأ القلوب الجبانة ، كحساء لذيذ ، او زيارة اسرة ، إن
ذلك يعقّد العمل . وقرأ من بعيد ، من فوق الرؤوس :
« إن قائد المعسكر يسمح للأسرى بان يتلقوا زيارات أسرهم (قراية
مباشرة) وستُعدُّ قاعة في الطابق الارضي لهذه الغاية . وستظل الزيارات
مسموحاً بها حتى إشعار آخر ، يوم الاحد من الساعة الرابعة عشرة ،
حتى الساعة عشرة . ولا يمكن في حال من الاحوال ان تتجاوز عشرين
دقيقة . فاذا لم يبرر مسلك الاسرى هذا التدبير الاستثنائي ، فإنه
سيلغى .»

ورفع غودشر رأسه بصرخة سعيدة :

– يجب ان نرد لهم هذه العدالة ، فهم ليسوا حيوانات .
والى يسار برونيه ، أخذ « غالو » القصير يضحك ضحكة غريبة
ناثمة . فسأله برونيه :

– ما يضحكك ؟

قال غالو : – انه يأتي . يأتي قليلا قليلا .

– ما الذي يأتي ؟

فبدا غالو مرتبكاً ، وأتى حركة غامضة ، ثم كف عن
الضحك وردد :

– انه يأتي .

وشق برونيه الجمع فدلّف الى السلم : وحوله ، في ظل الطابق
الأرضي ، كان الجمع ينغل ، كأن المكان بيت للأرض ؛ واذ رفع
رأسه ، رأى ايادي ممتعة على الدريزين ، وخطاً لولبياً مرتعشاً من

الوجوه الزرقاء ، فدفع . ودُفع ، وارتفع بجسمه وهو يشد على القضبان ، فسحقوه على الدربزين الذي التوى ؛ وطوال النهار ، ظل الرجال يصعدون ويهبطون بلا أدنى سبب ؛ وفكر : « لا فائدة : فانهم ليسوا اشقياء بما فيه الكفاية » . لقد أصبحوا ملاكين وأصحاب إيرادات ، والثكنة غدت لهم ، وهم ينظمون بعثات الى السقف ، والى الأقبية ، وقد اكتشفوا كتباً في سقيفة . صحيح انه ليس من عقاقير في مركز التمريض ، وليس من أغذية في المطبخ ، ولكن هناك مركز تمريض ، وهناك مطبخ ، وهناك امانة سر ، وحتى حلاقون : فهم يحسون أنهم رعايا . وقد كتبوا لعائلاتهم ، ومنذ يومين ، عاد زمن المدن يجري . وحين امرهم القائد الألماني بضبط ساعاتهم على الساعة الألمانية ، اسرعوا يطيعونه ، حتى اولئك الذين كانوا ، منذ شهر حزيران ، يحملون ، على سبيل الحداد ، ساعات مينة في معاصمهم : فان تلك المدة المبهمة التي كانت تنمو كالعشب الطفيلي ، قد اتخذت صفة عسكرية ، فلقد أعاروهم وقتاً ألمانياً ، وقتاً صحيحاً من اوقات المنتصر ، وهو نفسه الذي يجري في دانتزيغ وفي برلين : وقت مقدس . ولم يكونوا أشقياء بما فيه الكفاية : فهم محاطون ، مقادون ، يقدم لهم الغذاء والمأوى والإدارة ، وهم غير مسؤولين . وفي هذه الليلة ، كانت قصة هذا القطار ، وها أن العائلات ستأتي ، محملة الاذرع بالمعلبات والمؤاساة . كم سيكون من صياح ، ومن دموع ، ومن قبلات ! « لقد كانوا بحاجة شديدة الى هذا : فقد كانوا حتى الآن متواضعين على الأقل . اما الآن ، فسوف يحسون أهميتهم . » ذلك ان زوجاتهم وأمهاتهم قد اتيج لهن الوقت الكافي لأن يخلقوا لأنفسهن الاسطورة البطولية الكبرى « للأسير » ، وهن آتيات لينقلن اليهم عداواها . وبلغ العنبر ، فحاذى الممر ، ودخل الى قفصه وهو ينظر الى رفاقه في غضب . أنهم هناك ، مضطجعون على عاداتهم ، لا يفعلون شيئاً ، يحملون

بحياتهم ، مرتاحين مضمّلين . وكان لامبير يقرأ « الفتيات الصغيرات
الهاذج » وحاجباه مرتفعان ، وهيئته عابسة مندهشة . وكانت نظرة
واحدة كافية لادراك ان النبأ لم يبلغ العنبر بعد . وتردد برونيه :
أخبرهم إياه ؟ انه يتمثل عيونهم المتمعة ، وهياجهم الثرثار . « سيعرفونه
في وقت مبكر بما فيه الكفاية . » وجلس في صمت . وكان شنايدر قد
هبط ليغتسل ؛ ولم يكن الششمي قد صعد بعد ؛ وكان الآخرون ينظرون
الى برونيه نظرة تملل . وسأل برونيه :

— ماذا هناك ايضاً ؟

فلم يجيبوا على التوت ، ثم قال مولو وهو يخفض صوته :
— ان في القفص السادس قفلاً .

فانتفض برونيه وكز وجهه . وأحس انه نائر الأعصاب ؛ فزادت
ثورة أعصابه ، وقال في عنف :

— لا اريد قفلاً هنا .

وتوقف فجأة ، وعض على شفته السفلى ، وهو ينظر اليهم في عدم
ثقة . فلم يتحرك أحد : لقد بقيت الوجوه التي التفتت نحوه كابية
مرتبكة بعض الشيء . وسأل غاسو :

— ما الذي سنفعله يا برونيه ؟

نعم ، نعم ، انتم لا تحبونني كثيراً ، ولكن حين تقع بنا مصيبة ،
فانما تسعون للبحث عني . وأجاب بلهجة اللطف :

— لم تريدوا ان تنتقلوا حين طلبت منكم .

— ننتقل الى أين ؟

— كانت هناك شقق حرّة ، وكنت قد طلبت اليك يا لامبير ان

ترى اذا كان المطبخ في الطابق الارضي حرّاً .

قال مولو : — المطبخ ؟ شكراً لك ، ننام على البلاط فنصاب .

بالمغص ، فضلاً عن انه مليء بالحشرات .

- هذا أفضل من القمل . لامبير : اني أكلمك : هل ذهبت إلى المطبخ ؟
- نعم .
- ماذا وجدت ؟
- انه مشغول .
- طبعاً : كان ينبغي ان تذهب اليه منذ ثمانية أيام .
- وأحسّ بخديّه يَحْتَقِنَان ، وارتفع صوته ، فصاح :
- لن يكون هنا قمل ! لن يكون قمل !
- قال البلوندينه : — لا ! لا ! لا تغضب : فليس الذنب ذنبنا .
- ولكن الرقيب صاح بدوره :
- انه على حق في ان يغضب ويزعق ! انه على حق ! لقد شهدت انا حرب ١٤ برمتها ، فلم أر قملًا قط ، فلن ابدأ اليوم مثلكم بالقمل انتم الذين لا تعرفون حتى ان تغتسلوا !
- وكان برونيه قد كظم غضبه ، فقال بصوت هاديء :
- يجب اتخاذ تدابير مباشرة .
- وقهقه بلوندينه : — نحو ؟ نوافق تماماً ، ولكن أية تدابير !
- قال برونيه : — اولاً ، يجب عليكم « جميعاً » ان تغتسلوا كل صباح ؛ ثانياً ، يجب عليكم ان تتفلقوا كل مساء .
- ماذا تقصد ؟
- تتعرون تماماً ، فتأخذون ستراتكم وسراويلكم وقصانكم فتنتظرون ان كان في التشرىجات صبيان . واذا كنتم ترتدون زنانير من الفلانيل ، فانها تفضّل ذلك المكان .
- وتنهّد كاسو : — هذا مرح !
- وتابع برونيه : — واذا تأوون الى النوم، تعلقون أمتعتكم بالمسامير، بما في ذلك القمصان : فسوف ننام عراة تحت الأغطية .

قال مولو : - خراء اذن ! لا بد ان أصاب بنزلة رئوية !
فالتفت اليه برونيه بحويوة : - أتى دورك يا مولو . انك عش
قل ، ولا يمكن لهذا ان يستمر .
قال مولو محتنقاً بالغيظ :

- ليس هذا صحيحاً ، وليس عندي قل .
- ربما لم يكن عندك الآن قل ، ولكن إن كان ثمة قلة على بعد
عشرين كيلو متراً ، فأنا واثق من انها ستلتصق بك ثقتي من اننا قد
خسرنا الحرب .

فقال مولو بلهجة ضيق : - ليس من مبرر . لماذا بي ، لا بك ؟
الحقيقة انه ليس من سبب لهذا .

فقال برونيه بصوت هادر : - بل هناك سبب على الاقل ، هو
انك قدر كالتزير !

فرماه مولو بنظرة سامّة ، وفتح فمه ، ولكن جميع الآخرين أخذوا
يضحكون ويصرخون :

- هو على حق ، انت متن ، ورائحتك كرائحة الفتاة الصغيرة
التي تهمل نفسها ، انت وسخ ، انت قدر ، انك تقطع لي قابليتي ،
فلا أستطيع ان أستمر في الطعام حين انظر اليك !

وانتصب مولو وهو يحدهم ، وقال في اندهاش :
- اني اغتسل ، بل ربما كنت اغتسل اكثر منكم ، ولكني لست
كالبعض الذين يتعرون في وسط ساحة الشرف ، بقصد اجتذاب الأنظار .
فوضع برونيه إصبعه تحت أنفه :

- هل اغتسلت امس ؟

- طبعاً .

- اذن أرنا قدميك .

فوئب مولو في الهواء :

— هل أنت مجنون ؟

ورد ساقيه تحته فجلس على عقبه ، على الطريقة التركية :

— اني لا أري قديمي للناس غالباً .

فقال برونيه : — انزعوا حذاءه .

فارتقى لامبير وبلوندينه على مولو ، فكشفاه وسمراه على الارض مقلوباً ، ودغدغ غاسو جنبه ، فارتعش مولو ، وصرخ وزعق ، وضحك وتنهذ :

— كفى ! كفى ! يا جماعة ! لا تكونوا حمقى ! اني لا

أستطيع ان أنحمل الدغدغات .

قال الرقيب : — إذن الزم الهدوء .

فظل مولو فاغراً ، لا تزال الرعشات تهزه ؛ وكان لامبير قد جلس على صدره ، وفك الرقيب سير حذائه الأيمن ، وشد ، فانثقت القدم ، وامتعق الرقيب ، فترك الحذاء ونهض فجأة ، وقال :

— يلعن دين !

قال برونيه : — نعم ، يلعن دين !

ونفض لامبير وبلوندينه صامتين ، ونظرا الى مولو في اندهاش معجب . وعاد مولو الى الجلوس ، هادئاً وقوراً . وصاح صوت غاضب من القفص المجاور :

— هيه ! ماذا تعملون ، يا سكان الشقة ؟ إن رائحة الزبدة

العفنة تنبعث من عنديكم !

فقال لامبير ببساطة :

— ان مولو يخلع حذاءه .

ونظروا الى قدم مولو : كان الابهام الكبير اسود ، وكان خارجاً من الجراب المثقوب الاسود .

وسأل لامبير : — هل رأيت باطن القدم ؟ إنه ليس بعد جورياً ،

ولكنه دانتيل !

وكان غاسو يتنفس في منديله ، وكان البلوندينه يهز رأسه ويردد
في لهجة احترام :

— آه ! يا للبقرة ! يا للبقرة !

قال برونيه : — هذا كاف . خبيء قدمك !

فسارع مولو يُدخل قدمه في الخذاء . وتابع برونيه بجِد :

— أنت يا مولو تشكل خطراً عاماً . وستفضل على الفور فتذهب
لأخذ حمام سريع . فإذا لم تغتسل في مدة نصف ساعة ، فلن تُعطى
طعاماً ولن تنام هنا هذا المساء .

فنظر اليه مولو في حقد ، ولكنه نهض من غير ان يحتج ،
واكتفى بالقول :

— اذن ، انت الذي تأمر هنا ؟

فتحاشى برونيه الإجابة ؛ وخرج مولو ، فأخذ الآخرون يقهقهون ،
ولكن برونيه لم يضحك ؛ كان يفكر في القمل ، كان يفكر : « على
كل حال ، لن يكون عندي « أنا » قمل » .

وسأل بلوندينه : — كم الساعة ؟ ان معدتي أصبحت في قدمي .
قال الرقيب : — الظهر .

— الظهر ، هي ساعة التوزيع . دور منّ بالسخرة اليوم ؟

— دور غاسو .

— إفرنقع اذن يا غاسو .

قال غاسو : — امامنا متسع من الوقت .

— اقول لك افرنقع ، حين تكون في السخرة ، فان دورنا يأتي

دائماً في الأخير !

فقال غاسو وهو يضع قبعته بغضب :

— كفى ! كفى !

وخرج . وعاد لامبير الى القراءة . وأحس برونيه تأكلات عصبية تسري بين راسليه ؛ وحك لامبير فخذه وهو يقرأ ، وكان بلوندينه ينظر اليه :

– هل لديك قمل ؟

قال لامبير : – كلا ، ولكن ذلك منذ جرى الحديث عنه .

قال بلوندينه : – عجباً ! وانا ايضاً .

وحك عنقه :

. – برونيه ، الا تشعر بالحكاك ؟

قال برونيه : – كلا .

وصمتوا ، وكان البلوندينه يحك رقبته المتشنجة ، وكان لامبير يقرأ وهو يحك ؛ وادخل برونيه يديه في جيبه من غير ان يحك . وظهر غاسو ثانية على العتبة ، بادي الغضب :

– هل تستهزئون بي ؟

– اين الخبز ؟

– الخبز ؟ ليس ثمة أحد تحت ، حتى المطابخ لم تفتح بعد .

فرفع لامبير وجهاً مذعوراً :

– هل يعني هذا ان الوضع سيعود كما كان في حزيران ؟

كانت نفوسهم المتنبئة الكسول مستعدة دائماً لتصديق الأسوأ او

الأحسن . والتفت برونيه نحو الرقيب :

– كم الساعة معك ؟

– الثانية عشرة وعشر دقائق .

– أنت واثق من أن ساعتك تمشي ؟

فابتسم الرقيب ونظر الى ساعته في رضى ، وقال ببساطة :

– انها ساعة سويسرية .

وصاح برونيه بافراد الشقه المجاورة :

- كم الساعة معكم ؟
فأجاب صوت :
– الحادية عشرة وعشر دقائق .
فقال الرقيب بلهجة انتصار :
– ماذا قلت لكم ؟
فقال غاسو في حقد :
– قلت لنا ، الثانية عشرة وعشر دقائق ، ايها الأبله !
– صحيح : الثانية عشرة وعشر دقائق في فرنسا ، والحادية عشرة
وعشر دقائق في ألمانيا .
فقال غاسو وهو يغلي من الغضب :
– ممحون !
وتخطى جسم لامبير وتداعى للسقوط على الغطاء . وتابع الرقيب
بهدهوء :
– اني لن اتخلي عن الساعة الفرنسية في الوقت الذي تغرق فيه
فرنسا في الخراء !
– ليس هناك بعد من ساعة فرنسية ، ايها الساذج ! فان الالمان قد
فرضوا ساعتهم من مارسيليا الى ستراسبورغ .
فقال الرقيب ، مطمئناً مصراً :
– ربما كان هذا . ولكن لم يخلق بعد من يستطيع ان يغير
« ساعتى » .
والتفت الى برونيه وأضاف موضحاً :
– حين يلوذ الالمان بالفرار ، ستكونون مسرورين جداً بان تجدوا
ساعتكم .
وصاح لامبير : – هيه ! انظروا الى لامبير كشخصية محترمة !
ودخل لامبير ، متورداً نضراً : وعليه هيئة يوم الأحد . فأخذ
الافراد يضحكون :

— كيف وجدته يا مولو ، هل هو لذيذ ؟

— ما هو ؟

— الماء .

فقال مولو بشرود : — نعم ؛ نعم ، لذيذ جداً .

فقال برونيه : — ممتاز ! بعد اليوم ، سترينا قدميك كل صباح .

فلم يبد على مولو انه سمع ، ورسم بسمه خفيه ذات أهمية :

— إن هناك اخباراً ، يا جاعة ، فاستعدوا .

— ماذا ، ماذا ؟ اخبار ؟ اية أخبار ؟

والتمعت الوجوه واحمرّت وتفتحت ، وقال مولو :

— سوف نتلقى زيارات !

ونفض برونيه بلا ضجة ، وخرج ، وكانت الاصوات تصرخ خلف ظهره ، وحث خطاه دالفاً الى غابة السلم الصاعدة ، وكانت الساحة غاصة ، وكان الافراد يدورون بهدوء في الرذاذ ، الواحد تلو الآخر ؛ وكانوا ينظرون جميعاً الى داخل الدائرة التي يرسمون ؛ وكانت جميع النوافذ ملأى برؤوس تنظر : لقد حدث شيء ما . ودخل برونيه في الصف ، فأخذ يدور هو ايضاً ، ولكن بلا فضول : في هذا المكان نفسه ، يحدث كل يوم شيء ما ، افراد يتسمرون ويبدون على انتظار ، بينما يدور الآخرون حولهم وهم ينظرون اليهم . ويدور برونيه ، ويسم له اترقيب اندريه :

— هذا برونيه ، انا اراهن انه يبحث عن شنايدر .

فسأله برونيه بحوية : — وهل رأيتته ؟

فقال اندريه مقهقهاً : — نعم وهو ايضاً يبحث عنك .

والتفت نحو الآخرين وقهقهه :

— إن هذين الاثنين قفا وقبيص ، دائماً معاً ، أو احدهما يبحث

عن الآخر .

وابتسم برونيه : قفا وقيص ، ولم لا ؟ إنه يتحمل صداقته مع
شنايدر لأنها لا تأخذ من وقته : أنها تشبه علاقة القارب ، فهي لا
تلزم بشيء ؛ فاذا عادا يوماً من الأسر ، فلن يتقابلا بعد ابداً . صداقة
بلا متطلبات ، بلا حق ، بلا مسؤولية : كل ما هنالك بعض حرارة
في جوف المعدة . انه يدور ، واندرية يدور بالقرب منه ، في صمت .
وفي وسط هذه الدوامة البطيئة ؛ كان ثمة منطقة من الهدوء المطلق :

رجال في ستراتهم ، جالسون على الأرض أو على قريهم .
ومر كلابو فأوقفه اندريه :

— ما هؤلاء الفتيان ؟

فقال كلابو : — معاقبون .

— ماذا ؟

فتخلص منه كلابو بنفاد صبر وقال :

— قلت لك معاقبون .

وعادوا يدورون من غير ان يغادروا بعيونهم هؤلاء الرجال الجامدين
البكم . ودمدم اندريه :

— معاقبون ! انها المرة الاولى التي ارى فيها معاقبين . علام هم

معاقبون ؟ ماذا اقترفوا ؟

وأشرق وجه برونيه : كان شنايدر هناك ، ملقى على حافة الدوامة ،
يتفحص فريق المعاقبين الصغير وهو يفرك أنفه . وكان برونيه
يحب طريقة شنايدر في احشاء رأسه الى جانب ؛ وفكر في سرور :
« سوف نتحدث » . كان شنايدر ذكياً جداً ، اذكى من برونيه .
صحيح ان الذكاء ليس هاماً الى حد بعيد ، ولكنه يجعل العلاقات
لذيذة . ووضع يده على كتف شنايدر وبسم له ؛ فرد له شنايدر بسمه
غير مرحة . وكان برونيه يتساءل احياناً اذا كان يروق لشنايدر ان
يلقاه : صحيح انهما لا يكادان يفترقان ، ولكن اذا كان شنايدر يكن

وداً لبرونيه ، فانه لا يكشف عنه غالباً . وكان برونيه في الحقيقة
يحمد له ذلك : فهو يستفزع المظاهرات . وسأل اندريه :
- واذن ، لقد وجدته ، صديقك شنايدر ؟
فضحك برونيه ، ولم يضحك شنايدر . وسأل اندريه شنايدر :
- قل لي ! لماذا هم معاقبون ؟
- من ؟
- هؤلاء الأشخاص ؟
قال شنايدر - أنهم ليسوا معاقبين . وإنما هم الألزاسيون . الا
ترى غارتيزر ، في الصف الاول ؟
قال أندريه : - آه ! هكذا اذن !
وبدا عليه السرور ، وظلّ لحظةً بالقرب منهم ، ويداه في جيبيه ،
مكتفياً ، عارفاً ، ثم اضطرب فجأة :
- ولماذا هم هنا ؟
فهزّ شنايدر كتفيه : - اذهب فاسألهم !
وتردد اندريه ثم اقترب منهم بخطى بطيئة وهو يتظاهر باللامبالاة .
وكان الألزاسيون جامدين قلقين ، جالسين باستقامة ، في اللاطمأنينة ،
وستراتهم حولهم كالتنانير ، وعليهم مظهر المهاجرين على ظهر سفينة .
وكان غارتيزر جالساً ويداه على فخذيّه ، وعيناه الكبيرتان الدجاجيتان
تندحرجان في وجهه العريض . وقال اندريه :
- ماذا ايها الاخوة ، هل هناك من جديد ؟
فلم يجيبوا : وتأرجح وجه اندريه المتردد فوق رؤوسهم المطرقة .
- هل من جديد ؟
لا جواب .
- كنت أحسب ان هناك جديداً لرؤيتي اياكم جالسين في دائرة .
هيه ، غارتيزر ؟

- وعزم غارتيزر على رفع رأسه ، فنظر الى اندريه في ازدراء .
 - كيف حدث انكم تجتمعم ، انتم الالزاسيين ؟
 - لقد أمرونا بذلك .
 - ولكن السرات والأمتعة ، هل قالوا لكم ان تأخذوها ؟
 - نعم .
 - ولماذا ؟
 - لا ادري .

فاصطبغ وجه اندريه من الهياج :

- على كل حال ، لا بد ان لديكم فكرة ما ؟
 فلم يجب غارتيزر ؛ وكانوا خلفه يتحدثون الالزاسية بنفاد صبر .
 وتصلب اندريه ، مجروحاً فقال :
 - حسناً . في هذا الشتاء ، كنتم اقل افتخاراً ، فلم تكونوا
 تتحدثون بها ، لهجتكم الاقليمية ، اما وقد هُزمتنا الآن ، فانكم لا
 تعرفون بعد ان تتحدثوا الفرنسية .
 ولم يكلفوا أنفسهم حتى رفع رؤوسهم ؛ إن اللغة الالزاسية هي هذا
 الحفيف المتصل الطبيعي لاوراق الشجر تحت الريح . وقهقهه اندريه
 ونظره محدد في هذا المسرح من الرؤوس :
 - ذلك انه ليس من الطريف ان يكون المرء فرنسياً ، في هذا
 اليوم ، أليس كذلك ايها الاخوة ؟
 فقال له غارتيزر بحيوية :
 - لا تحمل همّنا ، فلن نبقي طويلاً فرنسيين .
 فتردد اندريه ، وقطب حاجبيه ، وبحث عن الرد الصافع ، فلم
 يجده . واستدار عائداً نحو برونيه :
 - وهكذا !
 وارتفعت خلف ظهر برونيه أصوات مغتازة :

— ما حاجتك الى ان تحذّثهم ! ليس لك الا ان تركهم وشأنهم .
لأنهم ألمان .

ونظر اليهم برونيه ؛ وجوه شرسة ممتعة ، ابن فاسد : الحسد .
حسد البورجوازيين الصغار تجار الحيّ الصغار ، لقد حسدوا الموظفين
ثم المكلفين الخصوصيين والآن يحسدون الالزاسيين . وابتسم برونيه :
ونظر الى هذه العيون الملتهبة بالحسد ، انهم منزعجون ان يكونوا
فرنسيين : فهذا أفضل من الاستسلام السلبي ؛ وحتى الحسد ، لا بدّ
انه يشغل نفسه .

— هل تراهم قد أعاروك انت شيئاً ، او ساعدوك ؟
— هل انت مجنون ؟ لقد رأيت من كان معه طعام ، في الايام
الاولى ، وكانوا يأكلون تحت انفك ، وكأنهم على استعداد ليدعوك
تموت جوعاً وانت فاغر الفم .

وسمع الالزاسيون ، فأداروا نحو الفرنسيين وجوههم الحمراء والشقراء ،
لعلّ التضارب سوف يقع . صرخة بحياء : وقفز الفرنسيون قفزة الى
الوراء ، فوثب الالزاسيون على أقدامهم ووقفوا وقفة الاستعداد : وعلى
درجات السلم برز ضابط ألماني ، طويل ضعيف البنية ، ذو عينين
كهفيتين في وجه ملطخ . وتكلم ، فأصغى الالزاسيون ، ومدّ غارتيزر
عنقه وهو محمرّ الوجه . واصغى الفرنسيون كذلك ، من غير ان
يفهموا ، في اهتمام مليء بالاعتبار . وهذا غضبهم : فقد كانوا يشعرون
أنهم يشاهدون حفلة رسمية . والحفلة دائماً تثير الرضى . وكان الضابط
يتكلم ؛ والزمن يجري ، صلباً ومقدساً ، وكانت تلك اللغة الغريبة أشبه
بلاطينية القديّاس ؛ ولم يكن ثمة بعد من يجرؤ على حسد الالزاسيين :
فهم قد تلبّسوا وقار كورس . وهزّ اندريه رأسه ، وقال :
— ان غمغمتهم ، كلغة ، ليست رديئة .

فلم يجب برونيه : ان هذه علامات ، فهم لا يستطيعون ان يمسكوا

غضبهم أكثر من خمس دقائق . وسأل شنايدر :

— ماذا يقول ؟

— يقول لهم انه قد أطلق سراحهم .

وكان صوت الضابط يخرج من سحنه السوداء بهزات متحمسة ؛
كان يصرخ ، ولكن عينيه لا تلتمعان .

— ماذا يقول ؟

وترجم شنايدر بصوت منخفض :

— ان الالزاس ستعود ، بفضل الفوهرر ، الى صدر الوطن الأم .
والثفت برونيه الى الالزاسيين ، فاذا وجوههم بطيئة التعبير ، كأنها متخلفة
ابداً عن عواطفهم . ومع ذلك ، فقد احمرّ وجه اثنين أو ثلاثة منهم .
وتسلى برونيه . وارتفع الصوت الألماني وتسارع ، فقفز من سطح الى
سطح ، ورفع الضابط قبضته فوق رأسه ، ووقع بمرفقيه صوته المجيد ،
فاذا الجميع منفعلون ، كما يحدث إذ يمرّ العلم ، أو الموسيقى العسكرية ؛
وانفتحت القبضتان ، ووثبتا في الهواء ، وارتعش الافراد حين هدر
الضابط : « هايل هتلر ! » وبدا على الالزاسيين انهم متحجرون ؛
والثفت غارتيزر نحوهم ، فصعقهم بنظره ، ثم واجه القائد ، وقذف
ذراعيه الى أمام ، وصاح : « هايل ! »

وسقط صمت غير ملحوظ ، ثم ارتفعت الأذرع ؛ وقبض برونيه
بالرغم منه على معصم شنايدر وشده بقوة . وانطلقت الهتافات . وكان
هناك من يهتف « هايل » في نوع من الاندفاع ، وآخرون يكتفون
بفتح افواههم دون ان يطلقوا صوتاً ، كالأشخاص الذين يتظاهرون
بأنهم يرتلون في الكنيسة . وكان في الصف الأخير رجل شديد البأس ،
مطرق الرأس ، ويداه في جيبه ، يبدو وكأنه يتألم . وانخفضت الأذرع ،
فترك برونيه معصم شنايدر ؛ وكان الفرنسيون صامتين ، وعاد الالزاسيون
يقفون وقفة الاستعداد ، وكانت لهم وجوه مرمية بيضاء ، وكانوا

عياناً وصماً تحت لُهب شعرهم الذهبي . وألقى القائد امرأ ، فاهتزّ
العمود ، وابتعد الفرنسيون ، ومشى الالزاسيون بين صفين من
الفضوليين . والتفت برونيه ، فنظر الى وجوه رفاقه اللاهثة . وكان
يودّ ان يقرأ فيها الغضب والحقد ، فلم يرَ فيها الا رغبة عذبة ترف .
وكان الحاجز البعيد قد انفتح ؛ وكان القائد الألماني واقفاً على الدرج
ينظر ببسمة طيبة الى العمود الذي يبتعد . وقال اندريه :

— مهما يكن ! مهما يكن !

وقال صاحب الحية : — خراء اذن ! حين افكّر بأني وُلدت في

« ليموج » ...

وهزّ اندريه رأسه ، وردّد :

— مهما يكن !

وسأله « شاربان » الطباخ :

— ما الذي لا يعجبك ؟

فقال اندريه : — مهما يكن !

وكان يبدو على الطباخ المرح والحيوية . وسأل :

— قل لي ، ايها الرأس الصغير ، اذا كان يكفي ان تصرخ « هائل

هتلر » حتى يعيدوك الى بيتك ، الا تصرخ ؟ ان هذا لا يلزم في
شيء . انت تصرخ ، ولكنك لا تقول ما تفكر به .

قال اندريه : — اوه ! انا ، بكل تأكيد ، أصرخ بما يريدون ،

ولكنهم هم الآخريين ليسوا كذلك : انهم الزاسيون ؛ وان لهم واجبات
تجاه فرنسا .

واوماً برونيه الى شنيدر ، فتسللا والتجأ الى الساحة الاخرى الخالية .

واستند برونيه الى الجدار ، تحت القسم المسقوف من الساحة ، تجاه
الاصطبلات ؛ وكان ثمة ، غير بعيد عنهم ، جندي جالس على
الارض ، ذو رأس مدبب ، وشعر نادر ، وكان يحيط ركبتيه بذراعيه .

ولكنه لم يكن ليضايق ، وكان في هيئة معتوه القرية . ونظر برونيه الى قدميه وقال :

– هل رأيت الاشتراكيين الالزاسيين ؟

– اي اشتراكيين ؟

– لقد اكتشفنا اشتراكيين في الالزاسيين . وقد اتصل بهما داوروكير في الاسبوع الماضي ، وكانا يريدان ان يلتها كل شيء .

– وبعد ذلك ؟

– لقد رفعا ذراعيهما مع الآخرين .

فلم يجب شنايدر بشيء : وحدد نظره في معتوه القرية ، فألفاه شاباً ذا أنف معقوف منقوش ، انف ثري . وكان الشرود المطمئن قد أقام على وجهه ، وجه النخبة ، الذي كلفته ثلاثون سنة من الحياة البورجوازية ، مع تجهيزات دقيقة وشفافيات وجميع انحناءات الذكاء ، ورفع برونيه كتفيه :

– انها دائماً القصة نفسها : تلمس شخصاً ذات يوم ، فتجده موافقاً ، فاذا كان اليوم التالي ، لم تجد احداً ، اذ يكون قد غير رأيه ، او يتظاهر بأنه لا يعرفك .

وأوماً باصبعه الى المعتوه :

– كنت معتاداً ان أعمل مع الرجال ، ولكن لا مع هذا .

وابتسم شنايدر :

– « هذا » كان مهندساً من عند تومبسون . ما يسمى بفتى المستقبل .

قال برونيه : – واذن ، فان مستقبله الآن قد أصبح خلفه .

وسأل شنايدر : – كم نحن في الواقع ؟

– قلت لك اني لا استطيع ان اعرف ذلك ؛ فالوضع فضفاض .

على كل حال ، افرض اننا زهاء مئة .

– مئة على ثلاثين الفاً ؟

– نعم . مئة على ثلاثين الفاً .
وكان شنايدر قد طرح السؤال بلهجة محايدة ، ولم يقم بأي تعليق :
ومع ذلك ، فلم يجرؤ برونيه على النظر اليه ، وتابع برونيه :
– هناك شيء لا يجري على ما يُرام . فاذا حسبنا على أسس ٣٦ ،
فقد كان بوسعنا ان نجمع ثلث الأسرى .
قال شنايدر : – لسنا بعد في عام ٣٦ .
فقال برونيه : – أعرف ذلك .
ولمس شنايدر منخره بطرف سبابته :

– الواقع اننا نختار المحتجين المعارضين خصوصاً . وهذا يفسر عدم
ثبات زبائننا . ان المحتج المعارض ليس هو بالضرورة المستاء ؛ على
العكس ، فهو مسرور بان يحتج ويعترض . فاذا عرضت عليه ان
يستخرج النتائج مما يقول ، زعم انه موافق طبعاً ، حتى لا يبدو عليه
انه يفقد اعترازه ، ولكن ما ان توليه ظهره ، حتى يتحول الى تيار
هوائي : ولقد قتت هذه التجربة عشر مرات .
قال برونيه : – وأنا ايضاً .

وقال شنايدر : – ينبغي ان نستطيع اختيار المستائين الحقيقيين ،
جميع الافراد اليساريين الشجعان الذين كانوا يقرأون « ماريان »
و « فاندرودي » والذين يؤمنون بالديمقراطية والتقدم .
قال برونيه : – نعم ! صحيح .

وكان ينظر الى الصليبان الخشبية في قمة الجرف والعشب الملتصق
بالرذاذ ؛ وأضاف :

– ألتقي بين الفترة والفترة بفتى وحيد يجر حذاءه بهيئة ناقه كبير ،
فأقول في نفسي : هذا أحدهم . ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟ فما ان
تقرب حتى يأخذهم الخوف ، فكأنهم يحدرون من كل شيء .
قال شنايدر : – ليس هذا كل شيء . انني اميل الى الاعتقاد

بأنهم أشخاص يشعرون بالعار . فهم يعرفون أنهم مهزومو الحرب الكبار
وانهم لن ينهضوا ابداً من هذه العثرة .

فقال برونيه : - أنهم في الحقيقة لا يحرضون علي استئناف الصراع :
انهم يفضلون اقناع أنفسهم بأن هزيمتهم لا علاج لها ؛ وهذا أيسر
وأشدّ اغراء .

قال برونيه بين أسنانه ، بلهجة غريبة :

- صحيح . إن هذا يُعزّي .

- ماذا ؟

- ان مما يُعزّي دائماً ان تستطيع التفكير بان سقوطك هو سقوط
الجنس كله .

فقال برونيه في اشمزاز : - منتحرون !

قال شنايدر : - اذا شئت .

وأضاف برقة : - ولكنك تعرف ان فرنسا ، هي هم ؛ فاذا لم

تدركهم ، فان ما تفعله لا يجدي .

وأدار برونيه رأسه ونظر الى المعتوه ، فانسحر بهذا الوجه القاحل ؛

وتثاءب المعتوه بشهوة وبكى ، وتثاءب كلب ، تثاءبت فرنسا ، تثاءب

برونيه : وكف عن التثاؤب ، وسأل ، من غير ان يرفع عينيه ،

بصوت منخفض وسريع :

- هل ينبغي ان نستمر ؟

- بيمَ نستمر ؟

- بالعمل .

وضحك شنايدر ضحكة جافة لا تروق :

- تسألني انا في هذا ؟

فرفع برونيه رأسه بحوية ، ففاجأ على شفطي شنايدر الغليظتين بسمة

سادية مؤلمة توشك ان تمحّي . وسأل شنايدر :

- ما عساک تفعل ان تخلیت عن العمل ؟
واختفت البسمة ، وعاد الوجه فأصبح أملس ثقيلًا ، هادئًا ، بحراً
ميتًا ، لن أفهم شيئاً من هذا الوجه .
- ما أفعله : أنسحب ، وأذهب فأنضمّ الى الرفاق في باريس .
— في باريس ؟
وحكّ شنايدر رأسه ، فسأله برونيه بحیوية :
— اتحسب ان الامر مشابه هناك ؟
وفكر شنايدر :
- اذا كان الالمان مؤدبين ..
قال برونيه : — اما هذا ، فهم لا بدّ مؤدبون ! يمكن ان تتأكد
من انهم يساعدون العميان على عبور الشوارع .
قال شنايدر : — اذا كان الامر كذلك ، فلا بدّ انه مشابه .
واستقام فجأة ونظر الى برونيه في فضول لا ألم فيه :
— ماذا تؤمل ؟
فتصلّب برونيه : — اني لا أومل شيئاً : ولم أومل قط شيئاً ،
وانا لا أهتمّ بالامل : وانما انا « اعرف » .
— اذن ، ما الذي تعرفه ؟
- أعرف ان الاتحاد السوفياتي سيدخل حلبة الرقص ، عاجلاً ام
آجلاً . اعرف انه ينتظر ساعته ، واريد ان يكون رفاقنا مستعدين .
قال شنايدر : — لقد انقضت ساعته . إن انكلترا ستكون هالكة
قبل الخريف ، فاذا كان الاتحاد السوفياتي لم يتدخل اذ كان ثمة امل بخلق
جبهتين ، فلماذا تريده ان يتدخل الآن ، ليكون وحده في القتال !
قال برونيه : — إن الاتحاد السوفياتي هو بلد العمال . ولن يسمح
العمال الروس بان تبقى البروليتاريا الاوروبية تحت الحذاء النازي .
— لماذا سمحوا إذن بان يوقع مولوتوف الميثاق الجرمانى السوفياتي ؟

– في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل ، ان الاتحاد السوفياتي لم يكن مستعداً .

– وما هو دليلك على أنه الآن اكثر استعداداً ؟

فأطبق برونيه باطن كفه على الجدار في غيظ وقال :

– لسنا في مقهى « التجارة » ، ولن اناقش ذلك معك : انني مناضل ، ولم يسبق لي قط أن أضعت وقتي في افتراضات سياسية : كان لي عملي ، وكنت أقوم به . اما ما دون ذلك ، فكنت ألبأ فيه الى اللجنة المركزية والى الاتحاد السوفياتي ؛ ولن اغير اليوم مسلكي . فقال شنايدر بحزن:– هذا هو تماماً ما كنت أقوله، إنك تعيش بالأمل فاغتاظ برونيه من هذه اللهجة الجنائزية : وخيّل اليه ان شنايدر يتكلّف الحزن . فقال من غير ان يرفع صوته :

– اسمع يا شنايدر : ليس من المستحيل ان يكون المكتب السياسي قد سقط برمته في الجنون ، ولكن على هذا الاساس ، ليس من المستحيل كذلك ان يسقط سقف هذه الساحة على رأسك. غير انك لا تقضي حياتك في مراقبة السقف. وبعد هذا تستطيع ان تقول لي، اذا خطر لك، انك تؤمل في الرب ، او انك تثق بالمهندس المعمار ، فهذه كلمات : فانت تعلم جيداً ان هناك قوانين طبيعية ، وان البنائيات قد اعتادت. ان تظل قائمة حين تكون قد بنيت وفقاً لهذه القوانين . وإذن ؟ لماذا تريدني ان أقضي وقتي متسائلاً عن سياسة الاتحاد السوفياتي ، ولماذا تحدثني عن ثقتي بستالين ؟ انني أثق به ، أجل ، وبمولوتوف وجدانوف : بمقدار ما تثق بصلافة هذه الجدران . وبعبارة أخرى ، أعرف ان هناك قوانين تاريخية ، وان بلد العمال والبروليتاريا الاوروبية ، بفضل هذه القوانين، ذات مصالح واحدة. والحق اني لا افكر بذلك غالباً، كما انك لا تفكر اكثر من ذلك بأسس بيتك : انها الارض تحت قدمي ، والسقف فوق رأسي ، وذلك يقين يحملي ويحميني ويتيح لي ان اتابع الأهداف

المحسوسة التي يرسمها لي «الحزب». انك حين تمد يدك لتأخذ منظارك ،
فان حركتك وحدها تسلم بالحتمية العالمية ، وكذلك ، انا : ان ادني
فعلٍ من أفعالي يؤكد صراحة ان الاتحاد السوفياتي هو طليعة الثورة العالمية.
ونظر الى شنايدر في سخرية ، وانتهى الى القول :
- ماذا تريد ؟ اني لست الا مناظلاً .

ولم يتخلَّ شنايدر عن هيئة الحزن ؛ كانت ذراعه متدلّيتين، وعينه
كابتيتين . فكأنه كان يريد ان يقنّع حيوية فكره ببطء حركاته . وقد
لاحظ برونيه ذلك مراراً : إن شنايدر يحاول ان يبسط المعية كما لو
كان يريد ان يؤقلم في نفسه نوعاً معيناً من الفكر الصابر الثابت الذي
يظنّ بلا ريب أنه نصيب الفلاحين والجنود . لماذا ؟ أليؤكد حتى
أعماق ذاته تضامنه معهم ؟ ام ليحتج على المثقفين وعلى الرؤساء ؟ ام
ان ذلك بدافع من الادعاء والتظاهر بالعلم ؟ وقال شنايدر :

- حسناً ، ناضل ، يا عزيزي ، ناضل ، غير ان عمك يشبه شيئاً
غريباً خطب مقهى « التجارة » : لقد جمعنا بمشقة كبيرة زهاء مئة
مثالي مسكين ، ورحنا نلقي عليهم الانباء الكاذبة عن مستقبل اوروبا .
قال برونيه : - لا مفر من ذلك : فما داموا لا يعملون بعد ، فاني
لا أستطيع ان اعطيهم شيئاً « يعملونه » ؛ اننا نتحدث ، ونصل فيما
بيننا ، فانتظر ريثما ينقلوننا الى المانيا، وسرى جيداً كيف نبدأ العمل.
فقال شنايدر بصوته الناعس : - أجل ، سأنتظر ، ويجب ان
انتظر . ولكن الحوارنة والنازيين لا ينتظرون . ودعايتهم أجدى كثيراً
من دعايتنا .

فزرع برونيه نظره في عينيه :

- ما الذي ترمي اليه ، اخيراً ؟

فقال شنايدر مندماً :
- أنا ... ولكني لا أرمي الى شيء . كنا نتحدث عن صعوبات

الاختيار ..

فسأله برونيه بعنف :

– ايكون الذنب ذنبى اذا كان الفرنسيون قذرين وليس لهم وازع
ولا شجاعة ؟ ايكون ذنبى اذا ...

فاستقام شنايدر وقاطعه ، وقد قست ملامحه ، وغدا صوته من فرط
السرعة والتأتأة بحيث يُظن ان « شخصاً آخر » قد سرق فمه ليهن به
برونيه ، فصاح :

– انت ... انت دائماً ... انت القدر ، انت ! إن من السهل على
المراء ان يتخذ مظاهر الترفع حين يكون وراءه حزب ؛ ومن اليسير على
من يملك ثقافة سياسية ومن تعود الضربات القاسية ان يحقر المساكين
الذين لا يبدون حراكاً .

فلم يفعل برونيه : وانما آخذ نفسه أنه قد فقد صبره ، فقال :
– انى لا أحتقر أحداً . اما الرفاق ، فمن البديهي أنى أعطيهم
جميع الظروف المخففة .

ولم يكن شنايدر يصغي اليه ، وقد تمددت عيناه الكبيران ، فبدا
وكأنه ينتظر حدثاً داخلياً . وفجأة أخذ يصرخ :
– نعم ! انه ذنبك ! طبعاً انه ذنبك !

فنظر اليه برونيه من غير ان يفهم : وكانت حمرة خبيثة تحمر
خدتي شنايدر ، هي اكثر من الغضب ، ولكأنها حقد قديم ، حقد
عائلي مكتوم منذ مدة طويلة ، وهو يبتهج اخيراً بالانفجار . ونظر
برونيه الى هذا الرأس الهائل المحتدم بالغضب . هذا الرأس ذي الاعتراف
العلمي وفكر : سيحدث شيء ما . وقبض عليه شنايدر من ذراعه فأراه
مهندس « التومبسون » الذي كان يدير أصابعه في براءة . وكانت تلك
لحظة صمت ، لأن شنايدر كان اشد انفعالا من ان يستطيع الكلام ؛
وأحس برونيه انه بارد وهاديء : ان غضب الآخرين يهدته دائماً .

وانتظر ؛ سيعلم عما قليل ما يخفيه شنايدر . وبذل شنايدر جهداً عنيماً :
- هذا أحدهم ! أحد أولئك القدرين الذين لا وازع لديهم ولا
شجاعة ، رجل مثلي ومثل مولو ومثلنا جميعاً . ليس مثلك ، بالتأكيد .
« صحيح » انه قد أصبح قدراً ، هذا « صحيح » بل هو من الصحة
بحيث انه اقتنع به هو بالذات . غير اني رأيت اناس في « تول » في
شهر ايلول ، كان يستفزع الحرب ، ولكنه كان يلوم نفسه ، لأنه
كان يعتقد بأن لديه اسباباً وجيهة للقتال ، وأقسم لك انه لم يكن قدراً
أو جباناً ... ولكنك انت تجعله كذلك . انتم جميعاً متفقون ، بيتان
مع هتلر ، هتلر مع ستالن ، وانتم جميعاً تشرحون لهم أنهم مذنبون
ذنباً مزدوجاً : مذنبون لأنهم خاضوا الحرب ، ومذنبون لأنهم خسروها .
وجميع الاسباب التي كانوا يبررون بها قتالهم ، انما تنزعونها منهم
الآن . هذا الفتى المسكين الذي كان يتصور انه ذاهب لخوض صليبية
« الحق » و « العدل » ، تريدون ان تقنعوه انه انزلت بدافع الطيش
في حرب استعمارية ؛ إنه لا يدري بعد ماذا يريد ، ولا يعرف بعد
ماذا فعل . وليس جيش اعدائه هو وحده المنتصر : وانما ايدولوجيتهم
ايضاً ؛ اما هو ، فيبقى هناك ، ساقطاً خارج العالم وخارج التاريخ ،
ومعه افكارٌ ميتة ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه ، وان يفكر مجدداً
بالوضع . ولكن بأية وسائل ؟ ان وسائل تفكيره بالذات قد فسدت :
لقد أشعث الحزن العميق والموت في روحه .

فلم يمالك برونيه نفسه من الضحك ، فسأل :

- ولكن ، لمن تراك تتحدث ، في آخر الأمر؟ إليّ انا ، ام الى هتلر ؟
قال شنايدر : - انني اتحدث الى محرر « الاومانيتيه » ، الى عضو
الحزب الشيوعي ، الى الذي كتب يوم ٢٩ آب ٣٩ على عمودين محيياً
توقيع الميثاق الجرمانى السوفياتي .

قال برونيه : - ها نحن قد وصلنا .

فقال شنايدر : - أجل ، ها نحن قد وصلنا .
قال برونيه بهدوء : - كان الحزب الشيوعي ضد الحرب ، وانت تعلم ذلك جيداً .
- أجل ، ضد الحرب . كان يهتف بذلك عالياً ، على الأقل .
ولكنه في الوقت نفسه كان يقرّ الميثاق الذي يجعل الحرب لا مفر منها .
فقال برونيه بقوة : - كلا ، بل ان الميثاق كان حظنا الوحيد في منعها .
فانفجر شنايدر ضاحكاً : وابتسم برونيه وصمت . وكفّ شنايدر فجأة عن الضحك :

- ولكن نعم ، انظر اليّ ، انظر اليّ لحظة ؛ اتخذ هيئة طيب الموتى . لقد فاجأتك مئة مرة وانت تراقب الرفاق بعينيك الباردتين ، فكأنما كنت تقوم بتحقيق . حسناً ، فاذا تحققت ؟ تحققت اني نفاية السير التاريخي ؟ اتفقنا . نفاية الى الحد الذي تريد . ولكني لست ميتاً ، يا برونيه ، لست ميتاً ، مع الأسف . اني مدعوّ الى ان اعيش سقوطي ، فهو مذاق في في ، ولن تفهم ذلك ابداً . انك تجريديّ ، وانتم التجريديين جميعاً ، انتم الذين صنعتم منا النفاية التي نحن اياها . وصمت برونيه ، وهو ينظر الى شنايدر : وتردد شنايدر ، وكانت عيناه قاسيتين مذعورتين ، وكان يبدو وكأنّ على لسانه كلاماً غير قابل للإصلاح . وقد امتقع فجأة ، وأقبلت غمامة من الارهاب تغشى نظره ، فأغلق فيه . وبعد لحظة ، استأنف بصوته الخشن ، الهاديء ،
الرتيب :

- طيب ، نحن اخيراً في الخراء جميعاً ، انت ونحن ، وهذا عذرك . صحيح انك ما تزال تأخذ بالسير التاريخي ، ولكن قلبك ليس بعد مؤمناً به . ان الحزب الشيوعي يتشكل من جديد بدونك ، وعلى اسس تجهلها . فبوسعك ان تهرب ولكنك لا تجرؤ ، لأنك تخاف

ما سوف تجده هناك . فالموت والحزن العميق في نفسك انت أيضاً .
وابتسم برونيه : لا ، ليس الأمر كذلك . لن يهزم هكذا ، وهذه
كلمات لا تعنيه . وصمت شنايدر وارتعش : لم يحدث شيء بالاجمال .
لم يحدث شيء على الاطلاق : ان شنايدر لم يعترف بشيء ، ولم يكشف
شيئاً ؛ كل ما في الأمر ان أعصابه ثارت قليلاً . اما المقطع المتعلق
بالميثاق الجرمانى السوفياتى ، فرمما كانت هذه هي المرة المثة التي يسمعه
برونيه فيها منذ ايلول . ولا بد ان الجندي قد ادرك ان الحديث كان
يجري عنه : فاستقام على مهل ومضى على قدميه الطويلتين العنكبوتيتين
وهو يسير جانبياً كحيوان مذعور . « من » هو شنايدر ؟ مثقف
بورجوازي ؟ فوضوي يميني ؟ فاشي يجهل نفسه ؟ ان الفاشيين لم
يكونوا كذلك يريدون الحرب . والتفت اليه برونيه : فرأى جندياً
يرتدي الاسمال ، متبرماً ليس لديه ما يدافع عنه ، ولم يبق له ما يفقده ،
وهو يفرك أنفه بهيئة شاردة . وفكر برونيه : « لقد اراد ان يؤذيني »
ولكنه لم ينجح في الحقد عليه . وسأله بلطف :

— اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا انضممت الينا ؟
فبدت على شنايدر هيئة الشيخوخة والتهدم ، وقال بصوت يدعو
الى الرثاء :

— حتى لا أبقى وحيداً .
وساد صمت ، ثم رفع شنايدر رأسه وعلى فمه بسمة مترددة :
— يجب علينا ان نفعل شيئاً ، أليس كذلك ؟ اي شيء . من
الممكن ألا نكون متفقين على بعض النقاط ...
وصمت وصمت برونيه . وبعد لحظة ، نظر شنايدر الى ساعته :
— انها ساعة الزيارات ، فهل تأتي ؟
قال برونيه : — لا ادري ، اذهب انت ، وربما لحقت بك .
ونظر اليه شنايدر لحظة كما لو انه يريد ان يحدثه ، ثم استدار

مبتعداً واختفى . انتهى الحادث ، ووضع برونيه يديه خلف ظهره ، وراح يتنزه في الساحة ، تحت الرذاذ ؛ ولم يفكر بشيء ، وأحس نفسه أجوف مُصدياً ، واستشعر على خده ويديه ذبذبات صغيرة مبتلة . الموت في النفس والحزن العميق ، حسناً ، وبعد ذلك ؟ وقال في نفسه باحتقار : « إن هذا من علم النفس ! » وتوقف ، وفكر في الحزب . وكانت الساحة خالية ، رمادية ، بلا كثافة ، وكانت تنبعث منها رائحة الأحد؛ انها منفي . وفجأة أخذ برونيه يعدو ، ودلف الى الساحة الاخرى . وكان الرجال يتزاحون عند الحاجز صامتين ، وجميع رؤوسهم متجهة نحو الباب الكبير : « انهم » هنا ، خلف الجدران ، تحت الرذاذ نفسه . ورأى برونيه ظهر شنايدر القوي في الصف الاول ، فشق لنفسه ممراً ، ووضع يده على كتفه . والتفت شنايدر فبسم له بسمه حارة ، وقال :

— آه ، ها أنت ذا .

— هأنذا .

قال شنايدر : — انها الثانية وخمس دقائق . وسيفتح الحاجز عما قليل . وانحنى مرشح الى جانبها نحو رفيق له وتمم :

— ربما كانت هناك نساء .

وقال شنايدر في حيوية : — يسليبي ان ارى مدنيين ، فذلك يذكرني بيوم الأحد في المدرسة .

— هل كنت داخلياً ؟

— نعم ، كنتا نصطف امام قاعة الانتظار لنرى وصول الأهل . وابتسم برونيه من غير ان يجيب : إنه لا يبالي بالمدنيين ؛ وانما هو مسرور لأن جميع الرفاق كانوا حوله يبعثون لديه الحرارة . وفتح الباب الكبير وهو يصر ، فسرت في الصفوف متممة خائبة :

— هؤلاء هم فقط ؟

أنهم زهاء ثلاثين ، وقد رأى برونيه من فوق الرؤوس جمعهم الصغير الاسود المزدحم العنيد تحت المظلات . وذهب المانيان للقائهم ، فتحدثا اليهم وهما يبتسمان ، وفحصا أوراقهم ، ثم ابتعدا ليتيحاً لهم الدخول . نساء وشيوخ ، جميعهم تقريباً في لباس اسود ، جنازة تحت المطر ؛ وكانوا يحملون حقائب واكياساً وسلالات تغطيها المناشف . وكانت النساء ذوات وجوه رمادية وعيون قاسية وهيئة متعبة ، وقد تقدمن من خطى صغيرة ، تتزاحم مؤخراتهن ويشعرن بالانزعاج من هذه العيون التي تلتهمهن . وتنهت المرشح :

— طز ! كم هنّ بشعات !

قال الآخر : — ايه ، هناك ما يمكن عمله : انظر الى تلك المؤخرة

السمراء !

ونظر برونيه الى الزائرات في ود . انهنّ بالتأكيد قبيحات ، وهيتهن قاسية مغلقة ، فكأنهنّ قادمات ليقلن لازواجهنّ . : « هل انت مجنون حتى تقع في الاسر ؟ فكيف تريدني ان اتدبر امري وحدي مع الصغير ؟ » غير انهنّ قد جثن ، مشياً على الاقدام او في عربات ، يحملن سلال الاغذية هذه الثقيلة . انهنّ دائماً انفسهنّ اللواتي يأتين ويتتظرن ، بلا حراك ، ولا تعبير ، امام ابواب المستشفيات ، والثكنات والسجون : الدمى الجميلة ذوات النظر الراعش تحمل الحداد الى البيت ، وقد لقي برونيه على وجوههنّ — بانفعال — ضيق السلم وبؤسه . كانت هنّ تلك العيون المحمومة ، الامينة ، اللاموافقة حين كان ازواجهنّ يقمن بالاضراب « الاحتلالي » ، فكنّ يأتين لهم بالحساء . اما الرجال فقد كان معظمهم مسنين سناناً اشداء ذوي هيئة هادئة . وكانوا يمشون ببطء وتناقل ، انهم احرار : فقد ربحوا حربهم في زمنهم ، وهم مُحسّون راحة الضمير . ومع ذلك ، فهم يقبلون مسؤولية هذه الهزيمة التي ليست « هزيمتهم » ؛ انهم يحملونها على اكتافهم العريضة . لأنّ

من ينجب طفلاً ، عليه ان يدفع ثمن البلاط الذي يكسره : انهم قادمون بلا غضب ولا خجل ليروا الصبي الذي ارتكب آخر حماقة له كشاب . وعلى هذه الوجوه ، نصف الفلاحية ، لقي برونيه فجأة من جديد ما سبق ان فقده : معنى حياته ، كنت أتحدث اليهم ، فلا يستعجلون الفهم ، وانما يصغون بمثل هذه الهيئة من الهدوء العميق ، وهم يتحسسون قليلاً ؛ وهم لن ينسوا بعد ابدأ ما فهموه . وعادت رغبة قديمة فدت رأسها في قلبه : يجب ان أشتغل ، وان أحس على جسمي بأعين راشدة مسؤولة . ورفع كتفيه ، وانصرف عن هذا الماضي ، ونظر الى « الآخرين » عصابة الثائري الاعصاب الصغار ذوي الوجوه اللامعبرة الكازة : ذلك هو نصيبي . لقد كانوا منتصبين على رؤوس اقدامهم ، مادّين اعناقهم ، يتابعون الزوار بنظرة قردية ، وقحة ، جازعة . كانوا يعولون على الحرب لتقلهم الى سن الرجال ، ولتمنحهم حقوق رب الاسرة والمحارب القديم ؛ وكان ذلك طقساً احتفالياً للتدريب ، فقد كان لا بدّ لهذه ان تطرد تلك الحرب « العظمى » ، العالمية ، التي ختق بعدها طفولتهم ؛ ولا بدّ انها كانت أعظم ، واكثر عالمية ؛ فلو أطلقوا على الالمان لأنجزوا مذبحه الآباء الطقسية التي بها يبدأ كل جيل في الحياة . انهم لم يطلقوا على أحد ، ولم يذبحوا شيئاً على الاطلاق . انهم فوتوا عليهم ذلك : فلقد بقوا صغاراً غير راشدين ، وكان الاباء يمشون امامهم في عرض ، ينبضون بالحياة . كانوا يسرون مكروهين ، محسودين ، معبودين ، مرهوبين ، فيغرقون من جديد عشرين الف محارب في طفولة الكسالى المراثية . وفجأة ، التفت أحدهم وواجه الاسرى : فراجعت جميع الرؤوس ، وكان له حاجبان كثيفان أسودان وخذان قرمزيان ، وكان يحمل راية ثياب بطرف عصاه . واقرب فوضع يده على شريط الحديد ونظر اليهم . بعينيه الكبيرتين المخططين بالدم ، وتحت

هذا النظر الحيواني ، البطيء ، اللامعبر ، كان الافراد ينتظرون متوترين ، ممسكين أنفاسهم ، وعلى استعداد لأن يرفضوا : كانوا ينتظرون الصفعتين . وقال العجوز :

— ها أنتم أولاء ، اذن !

وساد صمت ، ثم تتم أحدهم :

— نعم ، يا بابا : ها نحن اولاء .

فقال العجوز : — يا لها من مصيبة !

فتنحج المرشح واحمرّ وجهه ؛ وقرأ برونيه على وجهه التحديّ المتشجج نفسه . أجل يا بابا ، ها نحن اولاء : عشرين الف رجل كانوا يريدون ان يكونوا ابطالاً ، ولكنهم استسلموا بلا قتال في سهل منبسط . وهزّ العجوز رأسه ، وقال بلهجة عميقة ، ثقيلة :

— يا لكم من مساكين !

فسرّي عن الجميع ، وابتسموا له ، وانحنت القامات نحوه . واقترب الحارس الألماني فلمس ذراع العجوز بادب ، واوماً له ان يبتعد ، فلم يكن يلتفت اليه وقال :

— دقيقة واحدة ، اني آت .

وغمز الأسرى غمزة مشاركة ، فابتسم الافراد ، وكانوا مسرورين لأنه عجوز لم تكن في عينيه برودة ، عجوز عيسد من بلادهم ، فأحسوا انهم أحرار بالوكالة . وسأل العجوز :

— هل الامر أقسى من ان يحتمل ؟

ففكر برونيه : هكذا . سيبدأون الآن . ولكن عشرين صوتاً

مرحاً أجابت :

— لا يا بابا ، لا ، لا ، بل يمكن احتماله .

قال العجوز : - حسناً ، هذا أفضل ، هذا أفضل .
ولم يبق لديه شيء يقوله لهم ، ولكنه ظلّ هناك ، وازناً ، مركوماً ،
صلباً ، فجرة الحارس من كمة على مهل ؛ وتردد ، واستعرض
الوجوه بنظره ، فكأنه يبحث عن وجه ابنه : وبعد لحظة ، صعدت
الى عينيه من البعيد البعيد فكرة ، فبدأ على هيئة مترددة ، وقال اخيراً
بصوته ذي العقد :

- لو تعلمون ، ايها الفتية ، انها ليست غلطتكم .
فلم يجب الافراد بشيء : كانوا واقفين بصلابة ، كأنها وقفة
الاستعداد . واران العجوز ان يوضّح فكرته . فأستطرد :

- لا أحد عندنا يفكر بأنها غلطتكم .
فظلّ الافراد على صمتهم ، وقال :
- الى اللقاء ، ايها الاخوة .
ومضى . وعند ذلك سرت فجأة في الجمع إرتعاشة ، فأخذوا يصرخون
بحماسة :

- الى اللقاء ، يا بابا ، عما قريب ! الى اللقاء ! عما قريب !
وكانت اصواتهم تتضخم ما ابتعد العجوز ؛ ولكنه لم يلتفت . وقال
شنايدر لبرونيه :

- أرايت ؟

فانتفض برونيه ، وقال :

- ماذا ؟

ولكنه كان يعلم جيداً ما سوف يقوله له شنايدر . وقال شنايدر :
- يكفي ان يوثق بنا بعض الشيء .

فابتسم برونيه وقال :

- هل تبدو عليّ هيئة طبيب الموتى ؟

قال شنايدر : - في هذه اللحظة ، لا .

وتبادلا النظر في صداقة : وانفتل برونيه فجأة وقال :
- انظر الى تلك المرأة .

كانت تعرج ، وتوقفت ، قصيرة رمادية ، وتركت رزمتها تسقط في الوحل ، ونقلت الى يدها اليمنى الباقية التي كانت تحملها باليسرى ، ثم رفعت ذراعها اليمنى فوق رأسها . ومضت لحظة ، لكأنها انتصبت بالرغم منها ، هذه اليد المنتصرة التي تشد كنفها وعنقها ؛ وانتهت بان قذفت الزهور بحركة مرتبكة أسقطتها على الارض ، فتناثرت ، زهور حقول ، رمنثور ، وهندباء ، وترنشاہ : لا بد أنها قطفتها من حافة الطريق . وتدافع الرجال ، فنكثوا الارض ؛ وقرصوا الأغصان بين اظافرهم الموحلة : ونهضوا وهم يضحكون فأروها الزهور كما لو أنهم يحيونها . وأحس برونيه بانقباض في حلقه ، فالتفت الى شنايدر وقال غاضباً :

- زهور ! ماذا كانوا يقدمون لو كنا ربنا الحرب !
ولم تبسم المرأة ، بل أخذت رزمتها ومضت ، فلم يكن يُرى بعد الا ظهرها يتهاوى تحت المعطف المشمع ، وفتح برونيه فمه ليتكلم ، ولكنه رأى وجه شنايدر وصمت . وتخلص شنايدر وهو يدافع جيرانه ، وخرج من الصفوف . إنه لم يكن على ما يرام . وتبعه برونيه ، فوضع يده على كتفه :

- ما بك ؟

ورفع شنايدر رأسه ، فصرف برونيه عينيه ، وهو يحس الانزعاج من نظره بالذات ، نظر طبيب الموتى ، وردد ، وهو ينظر الى قدميه :
- قل ، ما بك ؟

وأصبحا وحيدين وسط الساحة ، تحت الرذاذ . وقال شنايدر :

- شيء مريع !

وساد صمت ، ثم أضاف : - ان نرى مدنيين من جديد .

وقال برونيه ، من غير ان يرفع عينيه :
- يرعني هذا كما يرعك .

قال شنايدر : - الامر بالنسبة اليك مختلف ؛ فليس لك أحد .
وبعد برهة ، فكّ شنايدر ازرار سترته ، وبحث في جيبه الداخلي ،
فأخرج منه محفظة مسطحة . وفكر برونيه : لقد مزق كل شيء .
وفتح شنايدر محفظته : لم يكن باقياً فيها غير صورة بحجم بطاقة بريدية .
ومدّها شنايدر لبرونيه من غير ان ينظر اليها ، فرأى برونيه امرأة
شابة ذات عينين معتمتين . وكان تحت العينين بسمه : ولم يسبق
لبرونيه ان رأى شيئاً لها . كان يبدو عليها أنها تعرف جيداً ان في
العالم معسكرات اعتقال وحروباً واسرى مسجونين في ثكنات ؛ كانت
تعرف ذلك ، وهي مع هذا تبسم : وللمهزومين والمبعدين ونفايات
التاريخ ، كانت تمنح ضحكاتها . ومع ذلك ، فقد بحث برونيه عبثاً
في عينها عن شعاع الاحسان السادي الكريه : انها تبسم لهم بسمه
ثقة بهدوء ، تبسم لقوتهم كما لو انها كانت تطلب منهم ان يصفحوا
عن المنتصرين عليهم . وكان برونيه قد رأى صوراً كثيرة في تلك
الفترة ، وابتسامات كثيرة . وكانت الحرب قد أفسدتها كلها ، فلم
يعد النظر اليها ممكناً . اما هذه البسمه ، فقد كان النظر اليها ممكناً :
لقد ولدت هذه اللحظة ، وكانت موجهة الى برونيه ، الى برونيه وحده ،
الى برونيه الأسير ، برونيه النفاية بزونه المنتصر . وانحنى شنايدر
فوق كتف برونيه ، وقال :

- بدأت تتعب .

قال برونيه : - نعم ، فلا بدّ من ان تقصّ أطرافها .
وردّ له الصورة وهي تتلألأ بالرداذ ، فسحها شنايدر في عنايه
بطرف كمه وأعادها الى محفظته . وتساءل برونيه : « هل هي جميلة؟ »
ولم يكن يدري ، انه لم يتح له الوقت الكافي لمعرفة ذلك . ورفع رأسه

فنظر الى شنايدر ، وفكر : «أنا إنما تبسم له هو . » وخيل اليه انه يراه بعينين أخريين . ومرة شخصان شابان ، يضعان زهرتي منشور في عروتيهما ، ولم يكونا يتكلمان ، وكانت جفونهما تضيئي عليهما هيئة متناولين هزلية . وتبعها شنايدر بالنظر ؛ وتردد برونيه ، وصعدت الى شفثيه كلمة قديمة ، فقال :

— أجدهما مؤثرين .

فقال شنايدر : — صحيح ؟

وكان صفّ الفضوليين خلفهما قد تمزق ، ودخل الزوار الى الثكنة ، ووصل داوروكير وهو يتهادى ، يتبعه « بران » وعامل المطبعة . وفكر برونيه : «صحيح ، انها الساعة الثالثة .» وكانت لهم ، ثلاثتهم ، وجوه مغلقة ؛ وتضايق برونيه وهو يفكر بأنهم قد تحدثوا فيما بينهم : فتلك أشياء لا يمكن منعها . وصاح من بعيد :

— ماذا ، يا جماعة ؟

فاقتربوا وتوقفوا ، وتبادلوا النظر ، على رهبة . وقال برونيه بصراحة :

— تكلموا ، ما بكم ؟

فأوقف عامل المطبعة عليه نظر عينيه الجميلتين القلقتين ، وكان وجهه يتمّ حقاً عن الأستياء وقال :

— لقد قمنا دائماً بما طلبته منا ، اليس كذلك ؟

فقال برونيه نافذ الصبر :

— نعم ، نعم . وإذن ؟

فلم يستطع عامل المطبعة ان يضيف شيئاً آخر ، وانما تكلم داوروكير بدلاً منه ، من غير ان يرفع عينيه :

— اننا نريد ان نستمر ، وسنستمر ما طلبت منا ذلك . ولكننا نعتقد ان هذا عبث .

فلم يقل برونيه شيئاً . وقال بيران :
- إن الافراد لا يريدون ان يفهموا شيئاً .
وظل برونيه على صمته ، فاستطرد العامل بصوت محايد :
- بالأمس فقط ، تنازعت مع شخص لأنني كنت اقول إن الالمان
سيأخذوننا الى المانيا . فجنّ جنون الرجل ، واتهمني باني من الطابور
الخامس .

ورفعوا عيونهم فنظروا الى برونيه بعناد :
- لقد بلغ الأمر حدّ أنه لا يمكن بعد ان تقال لهم كلمة سوء
عن الالمان .

وجمع داوروكير شجاعته ونظر الى برونيه مواجهة :
- اننا بصراحة يا برونيه لا نرفض ان نعمل ، ولكن اذا باشرنا
الأمر بطريقة خاطئة ، فاننا مستعدون بالبدا مع جديد على طريقة اخرى .
غير انه ينبغي ان تفهمنا . اننا نتنقل في كل مكان . ويندر ألاً
نتحدث في اليوم الواحد الى مثني شخص ، فنسبر غور المعسكر ؛ اما
انت ، فانك بالضرورة ترى أقل منا ، فلا تستطيع ان تعرف ما
نعرف .

- يعني ؟

- يعني اذا أطلق غداً سراح العشرين ألف اسير ، فانهم ، بهذا الوضع ،
سيكونون عشرين الف نازي .

فأحسّ برونيه بان الحرارة تصبغ وجنتيه . ونظر اليهم واحداً بعد
واحد . وسأل :

- أهذا هو رأيكم ؟

فأجاب الثلاثة « نعم » . وانفجر فجأة :

- إن في الجمع عمالاً وفلاحين ، ويجب ان تخجلوا من التفكير
بأنهم سيصبحون نازيين ، وإلا كان ذلك من خطأكم : إن الانسان

ليس حطبة ، وانما هو يتحرك ، لو تعلمون ، يقتنع : فاذا لم تنجحوا في تحريكهم ، فعنى ذلك انكم لا تحسنون القيام بعملكم .
وأولاهم ظهره . وقام بثلاث خطوات ، ثم عاد اليهم فجأة ،
مقدماً لإصبعه :

— الحقيقة انكم تعتبرون انفسكم قواداً . فانتم تحقرون رفاقكم .
فاحفظوا هذا : إن عضو « الحزب » لا يحقر أحداً .
ورأى عيونهم مشدوهة ، فزاد غيظه وصاح :

— عشرون الف نازي ! هل انتم مجانين ؟ إنكم لن تصنعوا منهم شيئاً اذا احتقرتموهم . حاولوا اولاً ان تفهموهم : إن في نفوسهم الموت والحزن العميق ، هؤلاء الأشخاص ، وهم لا يدرون بعد كيف يتصرفون . وسيستسلمون للشخص الاول الذي يوليهم الثقة .
وأزعجه حضور شنايدر ، فقال له :

— هيياً ، تعال .

واذ مضى ، التفت نحو الآخرين الذين ظلوا بكماً ومشدوهين :
— اعتبر انكم أصبتم بخوار . وهذا أمرٌ قد نسي . ولكن لا تعودوا بعد بهذا الحبط العشوائي . الى الغد .
ورقي السلم عدواً ، وشنايدر يلهث خلفه ؛ ودلف الى الشقة ،
وتداعى للسقوط على غطائه ؛ ومدّ يده فتناول كتاباً : « اخواتهم »
لهنري لافيدان . وراح يقرأ في تنبه ، سطرأ فسطراً ، وكلمة فكلمة ؛
وهدأت نفسه . وحين بدأ النهار يرمد ، وضع الكتاب وتذكر انه لم يتناول الغداء ؟

— هل احتفظتم لي برغيفي ؟

فدّه له مولو ، فقطع برونيه القطعة التي كان عليه ان يعطيها
لعامل المطبعة غداً ، ووضعها في قربته ، وأخذ يأكل . وبدا « كانتريل »
و « ليفار » في فتحة الباب : كانت تلك ساعة الزيارات . وقالوا من

غير ان يرفعا رأسيهما : « مرحباً ، مرحباً . » وسأل مولو :
- ما لديكما من انباء ؟

قال ليفار : - يقال ان البعض قد هرب ! ومن الذي يدفع الثمن؟
طبعاً ، نحن .

قال مولو : - ها ! هناك إذن جديد ؟

فقال ليفار : - هناك ان المعاون قد هرب .

- هرب ؟ لماذا ؟

كان هذا سؤال بلوندينه الذي جعلته المفاجأة وحشياً . وانقضى بعض الوقت قبل ان يهضم الافراد النبأ ، وكان في عيونهم بعض الذعر :
وخوف خفيف يشبه خوف الجمع المتعب في المترو حين يأخذ مجنون في النباح العنيد ، وردد غاسو بهدوء :
- هرب .

وكان الشيمي قد وضع العصا التي ينحتها وبدا قلقاً . وكان لامبر يعضغ في صمت ، وعيناه ثابتتان قاسيتان . وبعد لحظة ، قال في ضحكة استياء .

- هناك دائماً من يعتقدون أنهم اكثر استعجالاً من سواهم .

فقال مولو : - او انه يجب المشي على الأقدام .

وكان برونيه ينتف برأس مديته اجزاء عفنة من الخبز ، ويسقطها على غطائه ؛ وكان يشعر بعدم الراحة . ودخل هواء الخارج الرمادي الى الغرفة ؛ وفي الخارج ، في المدينة الميتة كان ثمة رجل مطارد نخبسيء . اما نحن ، فاننا هنا ، نأكل ، وهذا المساء سننام تحت سقف ، وسأل على مضض :

- كيف تمكن من الفرار ؟

فنظر اليه ليفار متصنعاً الأهمية ، وقال :

- احزر !

- لا ادري : من الجدار الخلفي ؟

فهزّ ليفار رأسه مبتسماً ، وانتظر لحظة ، ثم قال بلهجة انتصار :
- من البواب الكبير ، في الساعة الرابعة بعد الظهر ، تحت
أعين الألمان !

فشده الرجال ، واستمتع ليفار وكانتريل برهة بالذهول العام ، ثم
أوضح كانتريل بصوته الحادّ السريع :

- لقد جاءت زوجته العجوز للزيارة ، وكانت تحمل له ثياباً مدنية
في حقيبة ، فغيرّ المعاون لباسه في خزانة ، ثم خرج متأبطاً ذراعها .
فسأل غاسو مغتاضاً :

- ولكن ألم يكن ثمة أحد ليوقفه ؟

فهزّ ليفار كتفيه :

- يوقفه ؟ كيف تريد ذلك ؟

قال غاسو :

- لو عرفته انا مثلاً عند الخروج لناديت ألمانياً فقبض عليه .

ونظر اليه برونيه في ذهول :

- هل أنت مجنون ؟

فقال غاسو في غضب : - مجنون ؟ يا لفرنسا المسكينة ! إن من
يريد ان يقوم بواجبه اليوم ، يُتهم بالجنون .

وألقى نظرة دائرة على الجمع ليرى ان كانوا يقرّونه وأجاب
باندفاع أشدّ :

- سترى اذا كنت مجنوناً حين يبلغون الزيارات . انني اؤكد لك

انهم تركوهم يدخلون ولم يكونوا مجبرين على ذلك . أليس هذا رأيكم ،
يا جماعة ؟

فهزّ مولو ولامبير رأسيهما ، وأضاف غاسو بلهجة قاسية :

- هذا صحيح أيضاً ! لقد اتفق ان الألمان لم يكونوا وحوشاً في هذا ،

فكيف نشكرهم ؟ بان نخرأ في ايديهم . سيثور غضبهم ، ولن يكونوا

على خطأ .

وفتح برونيه فمه ليصفه بأنه قدر ، ولكن شنايدر رماه بنظرة سريعة
وصاح :

– غاسو ، انك كرهه !

وصمت برونيه وهو يفكر بمرارة : « لقد سارع يشتمه ليمنعني من
ان « أدينه » ، انه لا يدين غاسو ، ولا يدين قط أحداً : فهو يشعر
امامي بالعار بدلا منهم ؛ ومهما حدث ، ومهما فعلوا ، فقد اختار
ان يكون معهم . » ونظر غاسو الى شنايدر بعينين يلتصع فيهما الشرر ،
فرد له شنايدر نظرتة : وأخفض غاسو عينيه وقال :

– حسناً ! حسناً ! هيتا ، اعملوا على الغاء الزيارات . انا لا
يهمني ذلك : فان أبويّ في « اورانج » .

قال مولو : – وأنا ، ما تظني ؟ اني يتيم . ولكن يجب مع
ذلك ان تفكر بالرفاق .

قال برونيه : – صحيح . ويليق بك جداً ان تقول ذلك يا مولو ،
أنت الذي تغتسل كل يوم بعناية كبيرة لتجنب الراق القمل .

فقال البلوندينه فجأة : – ليس الامران متشابهين . صحيح ان مولو
وسخ ، ولكنه لا يبعض سوانا . بينما ذاك شخص لا يخاف ان يغرق
عشرين الف شخص في الخراء لمصلحته الشخصية .

قال لامبير : – اذا قبض عليه الألمان ، فوضعه في السجن ، فلن
اكون ممن يرثون له .

وقال مولو : – هل ترى ؟ إن صاحبنا يذهب قبل ستة اسابيع من
العودة . ألم يكن بوسعه ان يفعل مثلنا ؟

فأقرّهم الرقيب لأول مرة ، وقال متنهداً :

– هذه هي الشخصية الفرنسية ، ومن أجل هذا خسرتنا الحرب .
فقهقه برونيه وقال لهم :

— هذا لا يمنع انكم تودون كثيراً ان تكونوا مكانه ، وان تشعروا بالخجل لانكم لم تقوموا بالمحاولة .

فقال كانتريل بحموية :

— هذا ما يجعلك على خطأ . فلو جازف بشيء ، بأي شيء ، طلقه بندقية في المؤخرة ، لما انكرت ، فبالامكان التفكير : إنه أحق ، رأس فارغ ، ولكنه كان ذكياً . فبدلاً من هذا ، ذهب صاحبنا بهدوء ، محتماً بزوجته ، كالجناء . إن هذا ليس فراراً ، بل هو اساءة للثقة .

وسرت في صلب برونيه رعشة باردة ، فانتصب ونظر في عيونهم واحداً بعد الآخر وقال :

— حسناً ، اذا كان الامر كذلك ، فاني اخبركم اني مساء الغد سأتسلق الجدار وأهرب . وسنرى ان كان هناك من يشي بي .

فبدأ عليهم الانزعاج ، ولكن غاسو لم يسقط في يده ، فقال :

— لن نشي بك ، أنت تعلم ذلك جيداً ، ولكن حين أخرج من هنا ، فتأكد اني سأقصد اليك لأعاقبك : لأنك اذا هربت ، فكن على ثقة بان نتيجة عملك ستسقط على رأسنا .

فقال برونيه في ضحكة شائمة :

— تعاقبني ؟ أنت ؟

— اوه ! كفى ؛ اذا لزم الأمر ، فسنكون عدة اشخاص .

— كلمني في هذا بعد عشرة اعوام ، حين تعود من المانيا .

واراد غاسو ان يجيب ، ولكن ليفار قاطعه :

— لا تناقشه في هذا . فسوف يطلق سراحنا يوم ١٤ . وهذا رسمي .

فسأل برونيه وهو يقهقه : — رسمي ؟ وهل رأيت مکتوباً ؟

فتقصّد ليفار ألا يردّ عليه ، والتفت الى الآخرين وقال :

— لم اره مکتوباً ، ولكن الامر شبيه بهذا .

فأشرفت الوجوه في العتمة : لمبات راديو ، معتمة ولبنية . وتأملهم
ليفار في بسمة طيبة ، ثم أوضح :

– لقد قال هتلر ذلك .

فقال برونيه مشدوهاً : – هتلر !

وتجاهل ليفار المقاطعة ، فاستطرد يقول :

– هذا لا يعني أنني احبّه ، ذلك الشخص : انه بكل تأكيد
عدونا . والنازية لست معها ولا ضدها : فمن الممكن ان تنجح مع
الألمان ، ولكن ذلك لا يناسب المزاج الفرنسي ، غير ان له ميزة ،
هتلر : إنه يفعل دائماً ما يقول . لقد قال : في ١٥ حزيران ،
سأكون في باريس ؛ فكان فيها ، بل سبق ذلك .

وسأل لامبير : – وهل وعد بان يطلق سراحنا ؟

– نعم . لقد قال : في ١٥ حزيران سأكون في باريس ، وفي

١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم .

وارتفع صوت خجول ، هو صوت الشتيمي :

– كنت احسب انه قال : « سترقص مع زوجاتنا » نحن :

نحن الالمان .

فحدجته ليفار قائلاً : – وهل حضرت انت خطابه ؟

قال الشتيمي : – كلا هذا ما قيل لي .

فقهقه ليفار ، فسأله برونيه :

– وانت ، هل حضرته ؟

– طبعاً حضرته ! في « هاغونو » ، كان للرفاق جهاز راديو ،

وحين دخلت ، كان قد نطق بهذه العبارة .

وهز رأسه وردّد في تلمّظ : « سنكون في ١٥ حزيران في

باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم . »

فردّد الأشخاص في جدل : – ها ! في ١٥ حزيران في باريس ،

وسرقت يوم ١٤ تموز .

النساء . الرقص . وأخذ الافراد يرقصون ، واعناقهم في اكتافهم ، ووجوههم مقابوة ، واكتفهم مطبقة على أشعة الخيم : وقضقت الأرض الخشبية ، ودارت ورقصت الفالس تحت النجوم ، بين الحروف الكبيرة لضاحية « شاتودان » . وانحنى غاسو رقيقاً نحو برونيه ، وشرح له بصوت منطقي :

– ان هتلر ليس مجنوناً . فهل تشرح لي لماذا يُدخل مليون أسير الى المانيا ؟ مليون فم تطلب الطعام ؟
قال برونيه : – ليجعلهم يشتغلون .
– يشتغلون ؟ مع العمال الألمان ؟ ستكون معنويات الالمان عظيمة حين يكونون قد تحدثوا قليلا معنا .
– بأية لغة ؟

– بأية لغة كانت ، بالزنجية ، بالاسبيرنتو : لقد وُلد العامل الألماني خبيثاً ، وهو نقاد هزأة وذكي ، فيكفيه يومان حتى يفسدهم ، الألمان ، وبوسعك ان تثق بان هتلر قد فكر في ذلك . اوه ! أجل ، انه ليس مجنوناً ! وانا مثل ليفار : لا أحبه ، ذلك الشخص ، ولكني احترمه ، وليس هناك كثيرون أستطيع ان اقول عنهم مثل هذا .
فوافق الأشخاص برؤوسهم ، في رصانة :

– يجب ان نعرف له بهذه الميزة : انه يجب بلده .
– انه رجل له مثل أعلى . ليس هو مثلنا بالتأكيد ، ولكنه جدير بالاحترام .

– جميع الآراء جديرة بالاحترام ، شرط ان تكون مخلصه .
– ونوابنا نحن ، ماذا كان مثلهم الأعلى ؟ ان يملأوا جيوبهم ، أجل ، والنساء الصغيرات وكل ما هنالك . كانوا يشترون لأنفسهم الطعام اللذيذ بأموالنا . اما عندهم ، فليس الأمر كذلك : انك تدفع ضرائبك ،

ولكنك تعرف ما يفعلون بمالك . فكل عام ، يرسل لك موظف الضرائب رسالة : لقد دفعت يا سيدي كذا ، فهذا يمثل كذا من العقاقير للمرضى أو كذا من الامتار المربعة للاوتوستراد . أوكد لك ذلك . قال مولو : - انه لم يكن يريد ان يحاربنا ، بل نحن الذين أعلننا الحرب عليه .

- على رسلك ، بل لسنا نحن الذين أعلنناها ؛ انه دالاديه ، وهو لم يستشر حتى مجلس النواب .

- هذا ما ا قوله . والذي حدث انه هو ، لو تعلم ، ليس انساناً ذليلاً ؛ لقد قال : انكم تبحثون عني ، ايها السادة ، فسوف تجدوني . وفي أقل من يومين ، ركلنا على القفا . حسناً ، والآن ؟ اتظنه مسروراً مع مليون اسير ؟ سوف ترى : سيقول لنا بعد ايام : انكم ايها السادة تزعجونني ، فابقوا في بيوتكم . ثم ينصرف الى الروس ، فيأكل البعض انوف بعض . فرنسا ؟ ما عساها تفيده ؟ إنه غير محتاج اليها . سوف يأخذ منها الألزاس ثانية ؛ بمثابة استعادة النفوذ ، هذا صحيح . ولكني اقول لك : طز في الالزاسيين ، فاني لم أستطع يوماً ان أطيقهم . فضحك ليفار لنفسه ، بصمت : وكانت هيئته مزهوة ، وقال :

- الكلام بسرّك ، لو اننا رزقنا ، نحن ، هتلراً !

قال غاسو : - آه ، يا صديقي المسكين ! هتلر مع الجندي الفرنسي ؟ مريع ! في هذه الساعة ، كنا نكون في القسطنطينية . (واضاف بغمزة عين جدلة) لأن الجندي الفرنسي هو افضل جندي في العالم حين يكون له قائد .

وفكر برونيه بان شنيدر لا بد وان يحس بالعار ، فهو لا يجرؤ على النظر . ونهض ، فأدار ظهره لأفضل جنود العالم ، وفكر بأنه ليس ثمة بعد ما يُعمل ؛ وخرج . وتردد على السطيحة ، ونظر الى السلم الذي يغرق في العتمة : كان المفروض في تلك الساعة ان يكون

الباب مغلقاً . وللمرة الاولى ، شعر بأنه أسير . عاجلاً ام آجلاً ، لا بد ان يدخل زنزاته ويتمدد على الارض الخشبية الى جانب الآخرين ويصغي الى أحلامهم . وكانت الثكنة تحته تضج ، فترتفع صيحات واغنيات عبر قفص السلم . وقضضت الارض الخشبية ، فالتفت بحوية : كان شنايدر يتقدم نحوه في الممر المظلم وهو يعبر آخر شعاعات النهار ، واحداً واحداً . سأقول له : « قل لي ! أتكون لك الشجاعة للدفاع عنهم ! » وأصبح شنايدر بازائه تماماً ، فنظر اليه برونيه ولم يقل شيئاً . وارتفق الحاجز ، فأقبل شنايدر يرتفق بالقرب منه ، وقال برونيه :
- إن داوروكير هو الذي كان محقاً .

فلم يجب شنايدر : ماذا تريد ان يجيبني ؟ بسمة ، زهور حمراء تحت الرذاذ ، يكفي ان يولوا الثقة ، قليلاً من الثقة ، قليلاً جداً ، آه ! انني أصدقك ، وردد بغضب :

- لا جدوى ! لا جدوى ! لا جدوى !

إن الثقة لا تكفي ، بكل تأكيد . الثقة بمن ؟ الثقة بأي شيء ؟ لا بد من الألم ، والخوف والحقد ، لا بد من التمرد والقتل ، لا بد من نظام حديدي . أما حين لا يبقى لهم ما يفقدونه ، وحين تصبح حياتهم أسوأ من الموت ... وانحنى كلاهما فوق الظلام ، فانبعثت رائحة غبار . وسأل شنايدر وهو يخفض الصوت :

- أصبح انك تريد ان تهرب ؟

فنظر اليه برونيه من غير ان يجيب ، وقال شنايدر :

- سوف أشعر بالشوق اليك .

وقال برونيه بمرارة :

- ستكون الوحيد في ذلك .

وفي الطابق الارضي ، كان أشخاصٌ يغتوون في جوقة : لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين ، أهرب ، أشحط صليلاً على

عشرين الف رجل ، أتركهم يموتون في خرائمهم ، أياكون لنا الحق بالقول : لم يبق ثمة ما يفعل ؟ واذا كانوا ينتظرونني في باريس ؟ وفكر في باريس باشمئزاز أدهشه عنفه . وقال : « لن أهرب : لقد قلت ذلك وأنا غاضب . »

— اذا كنت تظن انه ليس ثمة بعد ما يعمل ...
— هناك دائماً ما يعمل . يجب ان نعمل حيث نكون ، بالوسائل التي نملك . وفيما بعد ، سنرى .
وتنهذ شنايدر ، وقال برونيه فجأة :
— انت الذي ينبغي لك ان تهرب .
فهزّ شنايدر رأسه نفيماً ، وقال برونيه في خجل :
— ان لك هناك زوجتك .
فهز شنايدر رأسه نفيماً ؛ فسأله برونيه :
— ولكن لماذا ؟ ليس لك هنا ما ممسكك .
فقال شنايدر : — سيكون كل مكان أسوأ .
لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نجب المحبين . وقال برونيه :
— لتعش المانيا !
وللمرة الأولى ردّد شنايدر في شيء من الشعور بالعار :
— لتعش ألمانيا ! نعم ! لتعش ..
وظز في ملك انكلترا الذي أعلن لنا الحرب .

سبعة وعشرون رجلاً ، الشاحنة تصرّ ، والقناة تتمطى على طول الطريق ، ويقول مولو :
— في الحقيقة ، ليست مهدمة الى حد بعيد .

ولم يكن الالمان قد أغلقوا باب الممرات ، وكان النور والذباب تدخل الى الشاحنة ؛ وكان شنايدر وبرونيه وعامل المطبعة جالسين على الارض الحشبية ، عند فتحة الباب ، وسيقانهم تتدلى الى الخارج ؛ انه

يوم صيف جميل . وقال مولو بارتياح :

— أجل ، ليست على الاطلاق مهدمة الى حد بعيد .

ورفع برونيه رأسه : كان مولو واقفاً ينظر الى الحقول والسهول
تجري في رضى . وكان الطقس حاراً ؛ ورائحة الرجال قوية ؛ وكان
شخص يشخر في جوف القاطرة . وانحنى برونيه : كان في الشاحنة
قبعات المانية تلمع فوق البنادق . يوم صيف جميل ، وكل شيء
هاديء ؛ القطار يجري والقناة تجري ؛ ومن بعيد لبعيد يرى طريق
حضرتة قبلة ، او حقل مخدّد ؛ وفي جوف الحفر ، ماء يعكس السماء .
وقال عامل المطبعة لنفسه :

« لن يكون القفز صعباً » .

فأوماً شنايدر الى البنادق بهزة كتف :

— سيصطادونك كالارنب .

فلم يجب عامل المطبعة ، وأطلّ كما لو انه سوف يشب ، فأمسكه
برونيه من كتفه ؛ وردّد عامل المطبعة مبهوراً :

— لن يكون ذلك صعباً جداً .

فدغدغ له مولو رقبته :

— ما دمنا ذاهبين الى « شالون » .

— ولكن هل هذا صحيح ؟ هل نكون ذاهبين اليها ؟

— لقد رأيت البلاغ مثلي .

— لم يكن مكتوباً اننا ذاهبون الى شالون .

— صحيح ، ولكن كان مكتوباً اننا باقون في فرنسا . أليس

كذلك ، يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه على التو : « صحيح » أنه كان في الليلة السابقة
اعلان معلق على الجدار ، يحمل توقيع القائد : « إن اسرى معسكر
باكارا مرصودون للبقاء في فرنسا . » وهذا لا يمنع انهم الآن في

القطار ، محمولين الى جهة مجهولة . وألحّ مولو :

– أصحيح هذا ام غير صحيح ؟

وصاحت خلفها أصوات نافذة الصبر :

– نعم ، صحيح ، لا تضجرونا ، فانتم تعلمون جيداً ان هذا صحيح .

وألقى برونيه نظرة الى عامل المطبعة ، وقال بلطف :

– هذا صحيح .

فتنهذ العامل وقال في بسمة مطمئنة :

– هذا طريف . انا اشعر دائماً بأني غريب حين أسافر .

وضحك من قلبه ، وهو متجه الى برونيه :

– قد اكون ركبت القطار عشرين مرة في حياتي ؛ ولكن ذلك يحدث لي كل مرة اثراً عميقاً .

وضحك ، فنظر اليه برونيه يضحك وفكر : « انه ليس علي ما يرام . » وكان لوسيان جالساً الى الخلف ؛ وقال وهو يحيط كعبيته بذراعيه :

– كان المفروض ان يأتي امي وابي يوم الأحد .

وكان شاباً رقيق الهيئة يضع نظارات . وقال له مولو :

– الا تفضل ان تلقاهما في البيت ؟

فقال الشاب : – بلى طبعاً ، ولكن ما دام المفروض ان يأتيا يوم الأحد ، فقد كنت افضل ان نذهب يوم الاثنين .

فاحتج ركاب القاطرة :

– هذا شخص كان يفضل ان يبقى ثلاثة ايام اخرى ؛ خراء إذن!

ان هناك من ينكرون الآن أنفسهم ؛ يوم آخر ، ولكن قل ، لماذا لا تنتظر حتى الميلاد ؟

فبسم لهم لوسيان برقة ، وقال موضحاً :

- انهما ليسا بعد في سن الشباب ، لو تعلمون ، فيسوثوني ان
 ينزعجا من اجل لا شيء .
 قال مولو: - عجباً ! حين يعودان إذن، فستكون انت الذي تستقبلهما .
 قال لوسيان : - اود ذلك كثيراً، ولكن لن يكون لي هذا الحظ :
 فسيحتاج تسريحنا الى ثمانية أيام على الأقل .
 قال مولو : - من يدري ؟ من يدري ؟ مع الالمان ، من الممكن
 ان تسير الامور بسرعة .
 قال جوراسيان : - ان كل ما اطلبه شخصياً ، هو ان أصل الى
 بيتي في موسم قطف الخزامى .
 والتفت برونيه : كانت الشاحنة بيضاء من الغبار والدخان ، وكان
 البعض جالساً ، والبعض الآخر واقفاً ؛ وعبرَ جذوع مقدسة لغاية
 من السيقان ، لمح وجوهاً هادئة مبتسمة بغموض . وكان جوراسيان
 رجلاً سميناً ذا مظهر قاسٍ ورأس حليق وعصابة سوداء على عينه .
 وكان جالساً القرفصاء ليحتل اصغر مساحة . وسأله برونيه :
 - من اين انت ؟
 - من مانوسك . كنت في البحرية . وانا في الوقت الحاضر اسكن
 مع زوجتي ، ولا احب ان تقوم بالقطاف من دوني .
 وكان عامل المطبعة ما يزال ينظر الى الطريق ، وقال :
 - لقد آن الاوان .
 فسأله برونيه : - ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟
 - آن الاوان ليسرّحونا .
 - نعم ؟
 قال عامل المطبعة : - كنت مصاباً بالسويداء .
 وفكر برونيه : « هو ايضاً ! » ولكنه رأى عينيه اللامعتين
 المجوّفتين فصمت . وفكر : « سيلاحظ شأنه في وقت مبكر . »

وقال شنايدر :

— صحيح ، ايها الرأس الصغير ، لقد انقطعت عن إضحاكنا ،
فما بك ؟

قال العامل : — اوه ! لا شيء الآن .

وكان يود ان يشرح امراً ما ، ولكن الكلمات كانت تعوزه . واتى
بحركه اعتذار واكتفى بالقول :

— انني من « ليون » .

وأحسّ برونيه بالانزعاج ، وفكر : « لقد نسيت انه كان من
ليون . ها قد مضى شهران ، وانا أشغله من غير ان أعرف عنه
شيئاً . وها هو الآن حارّ . بازائي ، وهو يشعر بالحنين الى بلده . »
وكان العامل قد انفتل اليه ، فقرأ برونيه في اعماق عينيه لوناً من الرقة
القلقة ؛ وسأل العامل فجأة :

— أصحيح اننا ذاهبون الى شالون ؟

فقال مولو نافد الصبر : — آه ؟ انك تطرح السؤال من جديد !
قال برونيه : — هيا ، كفى ، هيا ! حتى ولو لم نكن ذاهبين
الى شالون ، فسوف ينتهي الأمر بعودتنا .

قال عامل المطبعة : — بل ينبغي ان نذهب الى شالون ، ينبغي
ان نذهب الى شالون .

وبدا وكأنه يقوم بصلاته . وقال لبرونيه :

— أتعلم ؟ لولاك هربت منذ وقت طويل .

— لولاي ؟

— نعم . كان ينبغي ان أبقى ، ما دام هناك مسؤول .

فلم يجب برونيه ، وفكر : « طبعاً ، إن هذا بسببي » ولكن
ذلك لم يكن يسره قط . واستطرد العامل :

— سأكون اليوم في ليون . هل تتصور ، انني مجتهد منذ عام ٣٧ ،

وانا لا أعرف بعد مهنتي .

قال لوسيان : - ولكن سرعان ما تعاداها من جديد .

فهزّ العامل رأسه ، بهيئة عاقلة ، وقال :

- اوه ! ليس بهذه السرعة . سترى . إن العودة اليها ذات مشقة .

وظلّ جامداً ، فارغ النظرات ، ثم قال :

- كنت لدى أهلي في المساء ألمتّع كل شيء ، فانا لم اكن احب

ان ابقى من غير ان اعمل شيئاً ، ويجب ان يكون كل شيء نظيفاً .

ونظر اليه برونيه من زاوية عينه : لقد فقد هيئته الواضحة المرحّة ،

وكانت الكلمات تتدافع برخاوة خارج فمه ؛ وكانت باقات من الشعر

الأسود تنمو بالاتفاق على خديه الهزيلين . وابتلع نفق شاحنات الرأس ،

ونظر برونيه الى الثقب الأسود الذي يغرق فيه القطار ، ثم التفت فجأة

الى العامل :

- اذا كنت تريد ان تهرب ، فهذه هي اللحظة المناسبة .

قال العامل : - ماذا ؟

- ليس عليك الا ان تقفز حين ندخل النفق .

ونظر اليه العامل ، ثم غدا كل شيء اسود ؛ وتلقى برونيه دخاناً

في فمه وعينيه ، فسعل . وابطأ القطار ، فقال برونيه وهو يسعل :

- اقفز . هيّا اقفز !

ليس من جواب ؛ وارمدّ النهار عبر الدخان ، ومسح برونيه عينيه

وغمرته الشمس دفعةً واحدة . وكان عامل المطبعة قائماً هناك . فسأله

برونيه :

- ماذا اذن ؟ .

فطرف العامل بعينيه وقال :

- وما الفائدة ؟ ما دمنا ذاهبين الى شالون .

فرفع برونيه كتفيه ونظر الى القناة . وكان على حافة الشاطئ

قارب ، وفوقه رجل يشرب ، وترى قبعته وقدحه وانفه الطويل فوق
المشى . وكان آخران يسيران على الحافة ، وهما يرتديان قبعة من
القش ويتحدثان بهدوء ؛ ولم يتكلفا حتى ادارة رأسيهما نحو القطار .
وصاح مولو :

— هيه ! هيه ! يا جماعة !

ولكنهم كانوا قد أصبحوا خارج مدار النظر . حانسة اخرى ؛
جديدة كل الجدة : « صيد سمين ! » وضربت انغام بياض راعشة
صاهلة وجه برونيه ، ثم اخفت ؛ وانما كان يسمعها الآن ألمان القطار ،
ورأى برونيه قصراً لا يروونه بعد ، قصراً في نهاية حقل ، يكتفنه
برجان مروّسان ؛ وكان في الحقل فتاة صغيرة تمسك دولاباً وتنظر
برصانة : وعبر عينيها الفتيتين ، كانت فرنسا بريئة عتيقة تنظر اليهم
يمرون . ونظر برونيه الى الفتاة الصغيرة وفكر في بيتان ؛ وكان القطار
يجري عبر هذه النظرة ، عبر هذا المستقبل المليء بالألعاب العاقلة ،
والافكار الطيبة ، والهموم الصغيرة ، كان يجري نحو سهول البطاطا
والمصانع وفبارك السلاح ، نحو مستقبل الرجال الحقيقي الأسود . وكان
الاسرى ، خلف برونيه ، يحركون ايديهم ؛ وفي جميع القاطرات ،
كان برونيه يري ايدياً تحمل المناديل : ولكن الصغيرة لم تكن لتجيب ،
وكانت تشدّ دولابها على جسمها . وقال اندريه :

— ان بوسعهم ان يرسلوا لنا تحية : لقد كانوا مسرورين جداً ،
في ايلول ، بان نذهب فنحطم رؤوسنا دفاعاً عنهم .

قال لامبير : — صحيح ، ولكن ما حدث ، اننا لم نخطمها .

— وما معنى ذلك ، أهو ذنبنا ؟ اننا أسرى فرنسيون ، ونحن
نستحق تحية .

وبدا عجوز ، وهو يصطاد بالصنارة ، جالساً على كرسي قابل

للطيّ ؟ ولم يرفع حتى رأسه ، وقهقه جوراسيان :

— لقد استعادوا حياتهم الصغيرة الطيبة .

قال برونيه : — هذا ما يبدو لي تماماً .

وكان القطار يجري عبر السلام : صيادو صنارة ، قوارب ،
مجدفون ، والساء الصافية . والقي برونيه نظرة خلفه ، فرأى وجوهاً
متمتمة متدمرة ، ولكنها مفتونة .

قال مارتياي : — الكلام بسرّكم ، إن العجوز ليس على خطأ .
فبعد ثمانية ايام ، سأذهب انا نفسي للصيد .

— وبأيّ شيء تصطاد ؟ بالصنارة ؟

— ! كلا ، طز : وانما بالقارب .

أنهم « يرونه » ، تحرّتهم ؛ يلمسونه تقريباً في هذا المنظر
المألوف . فوق هذه المياه الهادئة . السلام ، العمل ، سيدخل العجوز
هذا المساء وهو يحمل سمكاً ، بعد ثمانية ايام سيكونون احراراً : إن
الدليل هنا ، رقيقاً موحياً . وشعر برونيه بضيق :

ليس حسناً ان يعرف وحده المستقبل . وصرف رأسه ، فنظر الى
ازقة الطريق الآخر وهي تهرب . وفكّر : « ماذا أستطيع ان أقول ؟
أنهم لن يصدقوني . » وفكر بأن عليه ان يتهج ، وبأنهم سيفهمون
في آخر الأمر ، وان بوسعه أخيراً ان يعمل ولكنه أحسن ازاء كتفه
وذراعه حرارة عامل المطبعة المحمومة ، فأخذه اشمئزاز غامض شبيه
بندم . وابطأ القطار في سيره .

— ما هذا ؟

فقال مولو بلهجة مزهوة : — انه تغيير السكة . انني اعرف
هذا الخطّ . فنذ عشرة اعوام كنت رحالة ، وكنت اسافر
عليه كل اسبوع . سترون : اننا سنعطف الى الشال والسكة

الى اليمين تفضي الى لونا فيل وستراسبورغ .
فقال بلوندينه : - لونا فيل ؟ ولكي كنت أحسب اننا سنمر
بلونا فيل حتماً .

- لا ، لا . اقول لك اني اعرف الخط . من المرجح ان تكون
السكة الى لونا فيل مقطوعة ، وقد مررنا عن طريق « سان ديا »
لنتجنبها ، وها نحن الآن نصعد مع جديد .

وسأل صوت « راميل » القلق :

- والمانيا ، الى اليمين ؟

- نعم ، نعم ، ونحن نساك الى اليسار . فهناك نانسي وبارلودوك
وشالون .

وابطأ القطار وتوقف . والتفت برونيه ينظر اليهم . كانت لهم وجوه
هادئة طيبة ، وكان فيهم من يتسمم . الا « راميل » استاذ البيانو ،
فقد كان يعض شفته السفلى ويلمس نظارتيه بهيئة مضطربة متوزعة .
وحدث مع ذلك صمت ، ثم أخذ مولو فجأة يصرخ :

- هيه ! الفراخ ؟ قبله ايها الغندورات ، قبله صغيرة !

فالتفت برونيه ، فاذا هن ست بأثواب خفيفة واذرع سمينة حمراء
ووجوه نضرة ، ست ينظرن اليهم ، من وراء الحاجز . وارسل مولو
لهن قبلات ، فلم يتسمن ؛ واخذت سمينة سمراء ، غير قبيحة ، تتنهد ؛
وكانت التنهدات تعلو بصدرها الكبير ؛ اما الاخريات فقد كن ينظرن
بعيون كبيرة حزينة : وكانت الافواه الستة تقلد حركات طفل يوشك
ان يبكي في هذه الوجوه الريفية اللامعبرة . وقال مولو :

- هيا ! هيا ! حركة لطيفة !

وأضاف وقد أخذه إلهام مفاجيء :

- الا تُرسلن قبلات لفتيان ذاهبين الى المانيا ؟

فارتفعت من خلفه أصوات احتجاج :

– هيه ! لا سمح الله ! لا تتحدث عن المصائب !
فالتفت مولو ، في ارتياح كامل :
– اصمتوا ! إني اقول لهن ذلك لكي يُرسلن لنا بسمه !
فضحك الافراد وصاحوا : – هياً ! هياً !
وظلت السمراء تنظر اليهن بعينيها الخائفتين ؛ ورفعت يداً مترددة ،
فأسندتها الى شفتيها المتدلّيتين ثم قذفتها بحركة آلية . فقال مولو :
– أحسن من هذا ! أحسن من هذا !
فصاح به صوت باللغة الألمانية ، فسارع يدخل رأسه . وقال
جوراسيان :

– لإخرس ! انك ستسبب اغلاق القاطرة .
فلم يجب مولو ، ولكنه دمدم لنفسه وحده :
– كم هن فروج حمقاوات ، نساء هذا البلد !
وأخذ القطار يصير ، واهتز على مهل ، فصمت الأفراد ، وظل
مولو ينتظر ، فاغر الفم ، وفكر برونيه : هذه هي اللحظة ، وحدثت
قضيق مفاجئة ، اهتزازة ، ففقد مولو توازنه وتشبث بكتف شنايدر
وهو يطلق صرخة نصر :
– انتهى الأمر ، يا جماعة ، انتهى الأمر ، فنحن ذاهبون
الى نانسي .

فضحك الجميع وصاحوا . وارتفع صوت راميل العصبي :
– هذا مؤكد اذن ، اننا ذاهبون الى نانسي ؟
فقال مولو وهو يشير الى الطريق :
– ما عليك الا ان تنظر .
وفعلاً انعطفت القططار الى اليسار ، فرسم قوس دائرة ، وكان
بإمكان المرء في تلك اللحظة ان يرى المحرك ، من غير ان يُطل .
– وبعد ذلك ؟ توأ الى نانسي ؟

والتفت برونيه ، فاذا وجه راميل ما زال رمادياً ، وشفتاه الممتعتان
ما انفكتا ترتجفان .

وسأل مولو مقهقها :

— توأ ؟ أتظن انهم سيغيرون لنا القطار ؟

— لا ، وانما أقصد : هل هناك تغيير سكة آخر ؟

فقال مولو : — بل هناك تغييران آخران . واحد قبل « فروار » ،
والآخر عند « بايني سورنوف » .

ولكن لست بحاجة للاهتمام بذلك ، فنحج ذاهبون يساراً ، دائماً
الى اليسار ، باتجاه بار لودوك وشالون .

— ومتى نتأكد من ذلك ؟

— ماذا تريد اكثر من هذا ؟ اننا متأكدون .

— أقصد بالنسبة لتغيير السكة ؟

قال مولو : — آه ، اذا كان هذا ما تقصده ، فلدى التغيير
الثاني . إذا سلكتنا الى اليمين ، فهذا يعني ميتر واللكسمبورغ . اما
الثالث ، فلا يُعوّل عليه : فالى اليمين خط فردان وسيدان ، وماذا
تريدنا ان نفعل هناك ؟

قال راميل : — انه الثاني إذن ، وهو القادم ...

ولم يقل بعد شيئاً ، وانطوى على نفسه ، وركبته الى ذقنه ، بهيئة
راعشة ضائعة . وقال اندريه :

— اسمع ، إنك تكاد تخزينا . سوف تتأكد عما قليل .

فلم يجب راميل ، وهبط على الشاحنة صمت ثقيل ، وكانت الوجوه
لا معبرة ، ولكنها متقلصة بعض الشيء . وسمع برونيه لحن هارمونيكا
لطيفاً ، فقفز اندريه في الهواء :

— آه ! كلا ، لا موسيقى !

فقال صوت من جوف الشاحنة : — ان لي الحق بان أعزف على

المارمونيكا .

قال اندريه : - لا موسيقى .

وصمت الرجل . وكان القطار قد أخذ يسرع قليلا ، ومرّ علي
جسر ، فتنهد عامل المطبعة :
- انتهت القناة .

وكان شنايدر نائماً وهو جالس ، ورأسه مهتز . وأحس برونيه
الضجر ، وهو ينظر الى الحقول ، فارغ الرأس ؛ وبعد لحظة ، خفف
القطار سيره . فاستقام راميل ، وعيناه شاردتان :
- ما هذا ؟

فقال مولو : - لا تهتم . انها نانسي .

وارتفع رمل السكة الحديدية فوق القاطرة ، وواجهوا آنذاك جداراً.
وفوق الجدار كان يمتدّ كورنيش من الحجارة البيضاء ، وفوق الكورنيش
دريزين حديدي ذو الواح متوازية ، وقال مولو :
- هناك شارع ، فوق .

وأحس برونيه فجأة انه مسحول بعبء هائل ، فقد انحنى الافراد
وهم يستندون عليه ، مديرين رؤوسهم نحو السماء . ودخل الدخان في
غيوم كبيرة الى الشاحنة ، فسعل برونيه ، وقال مارتياي :
- انظروا الى الجماعة فوق .

فارتدّ برونيه برأسه الى الخلف ، فأحس لدى رأسه بشيء قاس ،
وكانت أيدٍ تدفع كتفيه : كان ثمة في الواقع شخص منحني علي
الدريزين . وعبر القضبان ، كانت ترى سترته السوداء وبنطاله المخطط .
وكان يحمل محفظة جلدية ، ويبدو في الاربعين . وصاح مارتياي :
- مرحباً .

فقال الرجل : - مرحباً .

وكان له شارب أنيق في وجهه هزيل صلب ، وكانت له عينان

زرقاوان شديدتنا الصفاء .

وقال الافراد : - مرحباً ! مرحباً !

وسأل مولو : - كيف حال نانسي ، هل هي مهدمة جداً ؟

قال الرجل : - لا .

قال مولو : - هذا أفضل ، هذا أفضل .

فلم يجب الرجل ، وكان يحدث فيهم ، بشيء من الفضول . وسأله جوراسيان :

- وهل عاد الناس الى أعمالهم ؟

وصفر المحرك ، فوضع الرجل يده حول اذنه وصاح :

- ماذا ؟

فقام جوراسيان بحركات فوق رأس برونيه ليوضح انه لا يستطيع

ان يصيح بصوت أعلى . وقال له لوسيان :

- أسأله عن اسرى نانسي .

- وماذا ، بشأن الأسرى ؟

- أسأله ان كان يعرف شيئاً عن الأسرى .

فقال مولو : - انتظر ، ان أحدنا لا يسمع الآخر بعد .

- أسأله بسرعة ، فالقطار يكاد يسير .

وانقطع الصفير ، فصاح مولو :

- الأعمال ، هل عادت ؟

فقال المدني : - أتظن ذلك ؟ وجميع الألمان الموجودين في المدينة؟

وسأل مارتياك : - وهل فتحت دور السينما من جديد ؟

فسأل المدني : - ماذا ؟

فقال لوسيان : - طز ! علي قفانا دور السينما ، حلّ عنا انت

ودور السينما ، ودعني أتحدث .

وأضاف : - والأسرى ؟

فسأل المدني : - أيّ أسرى ؟
 - أليس من أسرى ، هنا ؟
 - بلى ، ولكن لم يبق بعد من أسرى .
 وصاح مولو : - اين ذهبوا ؟
 فنظر اليه المدني في شيء من الدهشة وأجاب :
 - ولكن ، الى المانيا !
 قال برونيه : - ايه ! لا تدفعوني !
 وتقوَّس بكنتا يديه على الارض الخشبية ؛ وكان الافراد يسحقونه
 ويصيحون معاً :
 - الى المانيا ؟ هل انت مجنون ؟ تريد ان تقول الى شالون ؟ الى
 المانيا ؟ من قال لك انهم كانوا ذاهبين الى المانيا ؟
 فلم يجب المدني بشيء ، وكان ينظر اليهم بهيئته الهادئة . وقال
 جوراسيان :
 - اسكتوا يا جماعة ، ولا تتكلموا جميعاً معاً .
 فسكت الافراد ، وصاح جوراسيان :
 - وكيف عرفت ذلك ؟
 وانبعثت صيحة غاضبة ، ثم قفز من العجلة حارس ألماني ، وحرَبته
 في بندقيته ، فارتدى أمامهم . وكان شاباً فتياً محمراً من الغضب ،
 وكان يصرخ بالالمانية بلهجة سريعة جداً ، وصوت أبجّ ؛ وأحسّ
 برونيه بغتة أنه قد تخفف من العبء الهائل الذي كان يسحقه ، فلا بد
 ان الافراد قد عادوا الى الجلوس بسرعة . وصمت الحارس ، وظل
 قربهم ، وسلاحه امام قدمه . وكان المدني ما يزال هناك ، مطلقاً فوق
 الدرابزين ، وهو ينظر ، وتمثل برونيه ، في ظل القاطرة ، جميع هدم
 العميون المحمومة التي ارتفعت تسائل في صمت .
 وتمتم لوسيان خلفه : - انها قدارة ! قدارة !

وظل الرجل جامداً ، أبكم ، غير صالح للاستعمال ، ومع ذلك مليئاً
بعلم خفي . وصفر المحرك ، ودلفت الى القاطرة دوامة من الدخان ،
فاهتز القطار وعاد السير . وسعل برونيه . وانتظر الحارس ان تمر
العجلة امامه ، فألقى فيها بندقيته ؛ ورأى برونيه أربع ايدي ذات
اكمام خضراء تلتقطه من كتفيه وترفعه .

— اولاً ، ما يدريه ، ذلك الفرغ ؟

— نعم ، ما يدريه ؟ اذا كانوا قد ذهبوا ، فكل ما هناك انه
رأهم يذهبون .

وانفجرت الأصوات الغاضبة خلف برونيه ، وابتسم برونيه من غير
ان يقول شيئاً .

وقال راميل : — كل ما في الامر انه يفترض ذلك ، « يفترض »
انهم ذهبوا الى المانيا .

وأسرع القطار في سيره ، وحاذى محطات كبيرة خالية ، وقرأ
برونيه على لافتة :

« باب خروج . ممر تحت الارض » . ومضى القطار . المحطة
ميتة . وكانت كتف عامل المطبعة ترتجف ازاء كتف برونيه . وانفجر
العامل بوحشية :

— انها قدارة إذن ، ان يقول ذلك ، من غير ان يكون متأكداً .
قال مارتياك : — صحيح . انه لقدر !

قال مولو : — وكيف ! ليست هذه أشياء تعمل . لا بدّ انّه
فرجٌ غريب ...

فردد جوراسيان : — فرج ؟ انك لم تنظر اليه ! اقسام لك انه
ليس فرجاً ، ذلك الشخص . كان يعلم ما يفعله ، اؤكد لك .
— كان يعلم ما يفعله ؟

والتفت برونيه ، فابتسم جوراسيان بهيئة وحشية وقال :

- انه واحد من الطابور الخامس .
 قال لامبير : - واذا كان على حق ، يا جماعة ؟
 - اخرس ايها الفرع ! انا كنت راغباً في الذهاب الى المانيا ،
 فتطوع ، ولا تأت الينا لتخربنا .
 قال مولو : - ثم طز ! سنعرف الحقيقة عند مفترق السكة .
 فسأل راميل : - ومتى نصل اليه ؟
 وكان أخضر اللون ، يربت بأصابعه على معطفه .
 - بعد ربع ساعة ، أو عشرين دقيقة .
 وكفّ الافراد عن الكلام ، وجعلوا ينتظرون . وكانت لهم وجوه
 قاسية ، وعيون ثابتة لم يعهدها برونيه منذ الكارثة . ثم سقط كل شيء
 في الصمت ، فلم يكن يسمع غير صرير القاطرات . وكان الطقس
 حاراً ، وكان بودّ برونيه ان ينزع سترته ، ولكنه لم يستطع ، فهو
 محشور بين عامل المطبعة والجدار . وكانت قطرات من عرق تتدحرج
 على عنقه . وقال عامل المطبعة ، من غير ان ينظر اليه :
 - اوه ! برونيه !
 - ماذا ؟
 - هل كنت تسخر مني ، حين قلت لي ان أقفز ؟
 فسأله برونيه : - لماذا ؟
 فأدار العامل اليه وجهه الطفولي الرقيق الذي لم تكن التجمعات ولا
 الاوساخ ولا اللحية لتستطيع ان تشيخه ، وقال :
 - لن يكون في استطاعتي ان اتحمل الذهاب الى المانيا .
 فلم يجب برونيه بشيء . وقال العامل :
 - لن أستطيع ان أتحمّل ذلك . سوف أموت . انني متأكد اني
 سأموت هناك .
 وهزّ برونيه كتفيه وقال :

- ستفعل كما يفعل الجميع .
- قال العامل : – ولكن الجميع . يموتون . الجميع . الجميع . الجميع .
- وأخرج برونيه يداً فوضعها على كتفه وقال له بشغف :
- لا تثر أعصابك ، ايها الرأس الصغير .
- وكان العامل يرتجف ، وقال له برونيه :
- اذا ظلت هكذا ، فستنقل الخوف الى الرفاق .
- فجرض العامل بريقه ، وبدت عليه الوداعة ، فقال :
- انت على حق يا برونيه .
- وندت عنه حركة يأس وعجز ، فأضاف بحزن :
- انت دائماً على حق .
- فابتسم له برونيه . وبعد لحظة ، استطرد عامل المطبعة بلهجة صماء :
- كان ذلك إذن مزاحاً ؟
- ما هو ؟
- حين قلت لي ان اففز ، كنت تمزح ؟
- قال برونيه : – لا تهتم بذلك .
- قال العامل : – واذا قفزت الآن ، هل تلومني ؟
- وكان برونيه ينظر الى رؤوس البنادق التي كانت خارجة من العجلة متلألئة . وقال :
- لا ترتكب حماقات ، فانك ستدق رأسك .
- قال العامل : – دعني أجرب حظي ، دعني أجرب حظي .
- فقال برونيه : – ليست هذه لحظة مناسبة .
- قال العامل : – مهما يكن ، فاذا ذهبت الى هناك ، مت . فادام الأمر كذلك ...
- فلم يجب برونيه ؛ وقال عامل المطبعة :
- قل لي فقط اذا كنت تلومني ؟

وكان برونيه ما يزال ينظر الى رؤوس البنادق ، فقال بهدوء وبرودة :

– نعم ألوئك . واني أمنعك من ذلك .
فخفض العامل رأسه ، ورأى برونيه فكته الذي يتحرك .
وقال شنايدر : – إنك فقط الى ابعده حد .

فلفت برونيه رأسه : كان شنايدر ينظر اليه نظرة قاسية . ولم يجب برونيه ، بل تجمع لدى العمود ؛ وكان بوّده ان يقول لشنايدر : « اذا لم أمنعه من الوثوب ، الا ترى أنه سيقتل نفسه ؟ » ولكنه لم يستطع ، لأن العامل سوف يسمعه ؛ وأحسّ باستياء أن شنايدر يدينه . وفكر : « ان هذه لحماقة » ونظر الى رقبة عامل المطبعة الهزيلة ، وفكر : « واذا كان سيموت هناك ؟ » وفكر : « خراء ! انني لست بعدُ أنا . » وأبطأ القطار : هذا موقف تغيير السكة . بكل تأكيد ، الجميع يعلمون ان هنا التغيير ، ولكنهم لا يقولون شيئاً . وتوقف القطار ، وساد الصمت . ورفع برونيه رأسه . وكان مولو منحنيّاً فوقه ينظر الى السكة ، فاغر الفم . وكان ازرق متجهماً . وفي عشب الردم ، كان يسمع صوت صراصير تغني . وقفز ثلاثة من الألمان الى السكة ليزيلوا خدر سيقانهم ، فمروا امام القاطرة ضاحكين . واخذ القطار يسير ، فاستداروا على أعقابهم وركضوا ليلحقوا بالركبة . وارسل مولو هديراً :

– الى اليسار ، يا جماعة ، اننا ننعطف الى اليسار !
واهتزّت القاطرة وصرت ، حتى لكأنها ستنتزع نفسها من الخط .
ومن جديد ، أحسّ برونيه على كتفيه وزن عشرة أجسام منحنية الى أمام ، وكان الافراد يصرخون :

– الى اليسار ! اننا ذاهبون الى شالون !
وعلى ابواب القاطرات الاخرى ظهرت رؤوس سوداء من الدخان ،

وهي تضحك ، وصاح اندريه :

— ايه يا شابو ! اننا ذاهبون الى شالون !

وكان شابو مطلقاً من القاطرة الرابعة ، وهو يضحك ويصيح :

— هذا قليل يا جماعة ! هذا قليل !

وكان الجميع يضحكون ، وسمع برونيه صوت غاسو :

— لقد خافوا مثلنا .

فقال جوراسيان : — اترون يا جماعة ؟ لقد كان من الطابور

الخامس .

ونظر برونيه الى عامل المطبعة . فاذا هو صامت ، وما يزال

يرتعش ، ودمعة تسيل على خده الايسر فتخط ثلماً في الوسخ والفحم .

واخذ رجلٌ يعزف على الهارمونيكا ، فيغني آخر على الايقاع :

« سابقى اميناً لك ، يا ثوبي الكاكي . » وأحس برونيه بحزن

فظيع ، وكان ينظر الى السكة التي تجري ، فتأخذه في الرغبة القفز .

وكانت القاطرة في الرأس ، والقطار يغني ، كقطارات المفاجأة فيما قبل

الحرب . وفكر برونيه : « إن في النهاية مفاجأة ، وارسل عامل

المطبعة تنهدة ارتياح ورضى كبيرة ، وقال :

— آه لا لا ! آه لا لا !

ونظر الى برونيه نظرة خبيثة ، وقال :

— انت ، كنت تظن اننا ذاهبون الى المانيا .

فتصلب برونيه قليلاً ، وأحس بان نفوذه قد تمس ، ولكنه لم

يجب بشيء . والواقع ان عامل المطبعة كان يظهر بمظهر مصالحة ،

فأضاف بحوية :

— يمكن لكل انسان ان يخطيء : فانا نفسي كنت اظن هذا ،

مثلك .

وصمت برونيه ، واخذ العامل يصفر ، وقال بعد لحظة :

– سأخبرها قبل ان اذهب اليها .
فسأله برونيه : – من تقصد ؟
قال العامل : – صاحبي . وسوف تقع مغشياً عليها !
قال برونيه : – هل لك صاحبة ؟ في سنك هذه ؟
قال العامل : – نعم . بل كان المفروض ان نتزوج ، لولا قصة
الحرب هذه .

– وما عمرها ؟
قال العامل : – ثماني عشرة سنة .
– هل التقيت بها في الحزب ؟
– كلا ، في حفلة رقص .
– وهل تفكر مثلك ؟
– في اي شيء ؟
– في كل شيء .
قال العامل : – الحقيقة ، لا ادري بم تفكر . وأعتقد أنها لا
تفكر بشيء : فهي طفلة . ولكنها طيبة وعاملة . . ثم انها ملتفة
الجسم !

وحلم قليلاً ، وقال :
– وربما كان هذا هو الذي أثار سويدائي . كنت مشتاقاً اليها .
هل لك صاحبة ، يا برونيه ؟
قال برونيه : – ليس لديّ الوقت .
– إذن ، كيف تدبّر أمرك ؟
فابتسم برونيه وقال : – احياناً ، هكذا ، بطريقة عابرة .
قال العامل : – اما انا ، فلا أستطيع ان اعيش هكذا . الا
يعجبك ان يكون لك بيت حقيقي وبداخله امرأة صغيرة ؟
– لن يكون لي ذلك ابداً .

قال العامل : - نعم ، نعم .
وبدا عليه الاضطراب ، وقال كأنما يعتذر :
- انا لست بحاجة الى شيء كثير ؛ وهي كذلك . ثلاث كراسي
وسرير .

وابتسم في الفراغ ، وأضاف :
- لولا هذه الحرب ، لكننا سعيدين .
وانزعج برونيه ، فنظر الى عامل المطبعة بلا ود ؛ وعلى هذا
الوجه الذي كان الهزال قد جعله شديد التعبير ، قرأ شهوةً نهمة للسعادة ،
وقال على مهل :

- لم تقع هذه الحرب بطريق المصادفة . ثم انك تعرف جيداً اننا
لا نستطيع ان نعيش سعداء في عهد الطغيان .
قال العامل : - اوه ! كنت سأخذ لنفسي ركني الصغير ..
فهزّ برونيه كتفيه وقال له بجفاء :
- لماذا انت شيوعي إذن ؟ إن الشيوعيين لم يُخلقوا ليُدفنوا انفسهم
في الثقب !

قال العامل : - من اجل الآخرين . كان في الحي الذي اسكنه
بؤس كثير ، وكنت اودّ ان يتغير ذلك .
قال برونيه : - حين ندخل في الحزب ، فلا يبقى ما هو هامّ
غير الحزب . كان ينبغي لك ان تعرف ما الذي تلتزمه .
فقال العامل بحموية : - ولكنني كنت أعرفه . هل حدث ان رفضت
يوماً ما كنت تطلبه مني ؟ ولكن قل لي ، حين أضاجع ، لا يكون
الحزب موجوداً ليحمل لي الشمعدان . فهناك لحظات ..
ونظر الى برونيه وتوقف فجأة . ولم يقل برونيه شيئاً ، وكان يفكر :
- إنه هكذا لأنه يعتقد اني اخطأت . ينبغي للمرء ان يكون
معصوماً .

وكان الحرّ يشتدّ ، والعرق يبيلل قيصه ، والشمس تصفع وجهه :
يجب ان نعرف لماذا يدخل هؤلاء الشبان جميعاً الحزب الشيوعي ؛ فحين
يدخله احدهم بدافع من افكار سمحة ، فلا بدّ ان تأتي لحظة يُحس
فيها بالضعف والتداعي . «وانت، انت، لماذا دخلته! اوه ! لقد انقضى
على ذلك وقت طويل ، فليس له بعد من أهمية ، انا شيوعي لانني شيوعي ،
هذا كل ما في الأمر .» واخرج يده اليمنى ، فمسح العرق الذي يبيلل حاجبيه
ونظر الى الساعة : الرابعة والنصف . اننا لسنا على وشك ان نصل ،
بالنسبة لهذه الدورات . سوف يغلق الألمان القاطرات هذه الليلة ، فننام
على سكة مرأب . وتثاءب . وقال :

— انك لا تقول شيئاً ، يا شنايدر .

وسأل شنايدر : — وماذا تريد ان أقول ؟

وثثاءب برونيه ، ونظر الى السكة تجري ، وكانت سحنة ممتعة
تقهقه بين الخطوط ، ها ، ها ، ها ، وسقط رأسه ، واستفاق منتفضاً ،
وكانت عيناه تؤلمانه ، واندفع الى خلف ليتفادى من الشمس ، وقال
احدهم « حكمٌ بالاعدام » ، وسقط رأسه ، واستفاق مرة اخرى
فحمل يده الى ذقنه المبللة : لقد سال لعابي ، فلا بد اني نمت مفتوح
القمم ؛ واستبشع ذلك .

— هل تريد ان تفرغها ؟

ومدّ له علبة مفتوحة من لحم القرد ، وكانت ساخنة ، فقال :
— ما هذا ! آه ، حسناً .

وقلبها في الخارج ، فسقط المائع الأصفر مطراً على السكة :
— ايه ! ارجعها بسرعة .

فدّها من غير ان يلوي ، فأخذت من يده ، واراد ان يعود الى
النوم ، ولكن يداً ضربته على كتفه ، فأخذ العلبة وأفرغها . وقال
عامل المطبعة :

— اعطني اياها .

فقد برونيه العلبة الى العامل الذي نهض على مشقة . ومسح برونيه أصابعه الرطبة بسترته ، وبعد لحظة ، امتدت ذراع فوق رأسه فأملت علبة التنك ، فتناثر الماء الأصفر وجرى قطرات بيضاء نحو الخلف . وعاد العامل الى الجلوس وهو يمسح أصابعه ، وترك برونيه رأسه يسقط على كتف العامل ، وسمع أنغام الهارمونيكا ، ورأى حديقة جميلة ملائى بالزهور ، واستغرقه النوم . وأيقظته صدمة ، فصاح :

— ماذا ؟

كان القطار قد توقف في الريف .

— ماذا ؟

قال مولو : — لا شيء ، بوسعك ان تعود الى النوم : انها

« بانبي سور موز »

والثفت برونيه ، كل شيء هاديء ، لقد الف الافراد فرحتهم ، وكان بينهم من يلعب الورق ، آخرون يغنون ، وآخرون صامتون مسحورون يروون لانفسهم الحكايات ، وعيونهم ملائى بالذكريات التي يجروون أخيراً على ان يتركوها تصعد من أعماق قلوبهم ، ولم يتنبه أحد لتوقف القطار ، وغرق برونيه في النوم ، وحلم بسهل غريب يجلس فيه حول نار كبيرة رجال عراة ذوو لحى رمادية ، هزيلة الاجسام كأنهم هياكل ؛ وحين استيقظ ، كانت الشمس قد انخفضت كثيراً على الافق ، وكانت السماء بنفسجية ؛ وكانت بقرتان ترعيان في مرج ، وكان القطار على سكونه ، والافراد يغنون ؛ وعلى المنحدر ، كان جنود ألمان يقطفون زهوراً ، وكان ثمة جندي قصير سمين شديد البأس ، ذو خدين أحمرين ، اقترب من الأسرى وقد وضع بين اسنانه زهرة لؤلؤية ، وهو يبسم لهم بسمة عريضة . فبسم له مولو واندرية ومارتيال . وظل الالمانى والفرنسيون لحظة يتبادلون النظر باسمين ، ثم

قال مولو فجأة بالالمانية .

— سجائر .

فتردد الجندي والتفت الى المنحدر ؛ وكان رفاقه الثلاثة المنحنون
يبدون مؤخراتهم .- وبحث بخفة في جيبه ، ثم قذف بعلبة سجائره الى
القاطرة ؛ وسمع برونيه خلفه ضجة وصخباً ، ونهض راميل الذي لم
يكن يدخن فصاح بالالمانية وهو يتسم :

— شكراً .

فأشار له القصير السمين بان يصمت . وقال مولو لشنايدر :

— اسأله الى اين نحن ذاهبون .

وتحدث شنايدر بالالمانية الى الجندي ، فأجاب الجندي وهو يتسم ؛
وكان الآخرون قد فرغوا من قطف الزهور ، فاقربوا حاملين باقاتهم
باليدي اليسرى ، والزهور متجهة الى أسفل ؛ وكانوا الرقيب وجنديين ،
وكان يبدو عليهم الجذل ، وقد انخرطوا مشاركين في الحديث وهم
يضحكون . وقال مولو وهو يتسم ايضاً :

— ماذا يقولون ؟

فقال شنايدر نافذ الصبر :

— انتظر قليلا ، ودعني أفهم .

وألقى الجنود نكتة أخيرة وعادوا الى المركبة ، على غير ما عجل ،
وتوقف الرقيب ليبول عند وتد القاطرة ، ثم زرر فتحة بنطاله ، وهو
متباعد الساقين ، ورمى الى رجاله بنظرة ، وفيما هم مديرون ظهورهم ،
قذف بعلبة سجائر الى القاطرة .

وقال مارتيال بصحة سعيدة :

— ها ! انهم ليسوا حيوانات !

قال جوراسيان : — ذلك لأننا قد أطلق سراحنا : فهم يريدون ان

يتركوا لنا تذكراً جميلاً .

قال مارتياال حلاماً : - هذا ممكن . ان كل ما يفعلونه هو في الواقع من قبيل الدعاية .

وسأل مولو شنايدر : - ماذا قالوا ؟

فلم يجب شنايدر ؛ وكانت هيئته غريبة .

قال اندريه : - نعم ، ماذا قالوا ؟

فابتلع شنايدر ريقه بمشقة وقال :

- انهم من هانوفر ، وقد قاتلوا في بلجيكا .

- والى اين نحن ذاهبون ، كما قالوا ؟

فبسط شنايدر ذراعيه وابتسم وقال بلهجة اعتذار :

- الى « تريف » ؟

قال مولو : - تريف ؟ واين هي معلقة ؟

فقال شنايدر : - في مقاطعة بالاتانيا .

وساد صمت غير محسوس . ثم قال مولو :

- تريف ، في المانيا ؟ لقد سخروا بك اذن !

فلم يجب شنايدر . وقال مولو في ثقة هادئة :

- إن من يمرّ بـ « بارلودوك » لا يذهب الى المانيا .

وظل شنايدر على صمته ، فسأل اندريه بلا اكتراث :

- كانوا يضحكون ام ماذا ؟

فقال لوسيان : - لقد رأيت جيداً انهم كانوا يضحكون ..

وقال شنايدر على مضض : - ولكنهم لم يكونوا يضحكون حين

قالوا لي ذلك .

فسأله مارتياال في غضب : - ألم تسمع ما قال مولو ؟ ان الطريق

الى المانيا لا يمرّ بـ « بارلودوك » ، فليس هذا معقولاً .

فقال شنايدر : - اننا لا نمرّ بـ « بارلودوك » وانما ننعطف

الى اليمين .

فأخذ مولو يضحك : - آه ! هذا لا ! اسمح لي ان اعرف الطريق خيراً منك . فالى اليمين فردان وسيدان . واذا تابعت الى اليمين ، فربما وصلت الى بلجيكا ، أما الى المانيا ، فلا !
واستدار نحو الآخرين بهيئة اقتناع مطمئن :
- ما دمت اقول لكم اني كنت اتجول في المنطقة كل اسبوع .
واحياناً ، مرتين في الاسبوع !
أضاف هذه الجملة الاخيرة ، ووجهه يعبر بياس عن الاقتناع .
وقال الافراد :

- طبعاً ، طبعاً ، لا يمكن ان يكون مخطئاً .
قال شنايدر : - اننا نمرّ بالكسمبورغ .
وجهد في ان يتكلم ؛ وشعر برونيه ، انه ما دام قد بدأ الكلام ، فانه يريد ان يغرس الحقيقة في رؤوسهم ، وكان ممتنعاً ، يتكلم من غير ان ينظر الى أحد . وأدنى اندريه وجهه من وجه شنايدر وصاح به :
- ولكن لماذا نقوم بهذه الدورة ؟ لماذا ؟
وكان الافراد يصيحون من خلفه :
- لماذا ؟ لماذا ؟ فهذه حماقة ! لماذا ؟ ما كان لنا الا ان نمرّ إذن
بـ « لونا فيل » .

فاحمرّ وجه شنايدر ، والتفت تماماً الى جوف القاطرة ، وواجه
الذين يصرخون ، فصاح في غضب :
- انا لا اعرف شيئاً من هذا ، لا اعرف شيئاً . ربما لأن السكك
منسوفة ، أو لأن على الخطوط الاخرى قطارات المانيا ، فلا تجعلوني
اقول اكثر مما أعرف ، وفكروا بما تشاءون .
وصاح صوت ثاقب من فوق جميع الاصوات الأخرى :
- لا حاجة بكم الى الغضب يا جماعة ، فسوف نعرف عما قليل .
وردّد الافراد : - هذا صحيح ، سنرى ، سنرى ، ولا حاجة

- الى جعل دمنا يغلي .
- وعاد شنايدر الى الجلوس من غير ان يجيب . وبرز من القاطرة قبل
 الأخيرة رأس "مجمد الشعر ، وصاح بهم صوت " فتي " :
- ايه ! هل قالوا لكم يا جماعة الى اين نحن ذاهبون ؟
 – ماذا يقول ؟
- انه يسأل الى اين نحن ذاهبون .
 وانفجر الافراد في القاطرة ، انفجروا ضاحكين :
- ان هذا يجيء في اوانه . إن حاسة شمه قوية ، فهذه لحظة مناسبة
 لهذا السؤال .
- وانحنى مولو ، وقد كور يديه حول فمه ، وصاح :
- الى قفاي !
 واختفى الرأس المطل . وضحك الجميع ، ثم انقطع الضحك ،
 وقال جوراسيان :
- هل نلعب ، يا جماعة ؟ هذا افضل من ان نختلق الافكار .
 فقالوا : – هيا بنا .
- فجلس الأفراد حول معطف مطوي الى أربع ، وكان جوراسيان
 قد التقط الورق فأخذ يوزعه . وكان راميل يقرض أظافره في صمت ؛
 وكانت الهارمونيكا تعزف رقصة فالس ؛ وكان ثمة شخص واقف بازاء
 الجدار الداخلي يدخن سيجارة ألمانية ؛ بهيئة تفكير . وقال ، كأنما
 يحدث نفسه :
- إن التدخين الآن لذة .
 والتفت شنايدر نحو برونيه فقال له بلهجة اعتذار :
- لم اكن أستطيع ان اكذب عليهم .
 فهز برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر :
- أجل ، لم اكن أستطيع .

قال برونيه : - ما كان ذلك ليجمدي شيئاً ، فلا بد ان يعرفوا ذلك عما قليل .

ولاحظ انه تكلم برخاوة ؛ كان مغتاضاً من شنايدر ؛ من أجل الآخرين .

ونظر اليه شنايدر نظرة غريبة وقال :

- من المؤسف ألا تعرف الألمانية .

فسأله برونيه مندهشاً : - ولماذا ؟

- لأنك « انت » كنت تكون مسروراً بإخبارهم .

فقال برونيه في تعب : - انك مخطيء .

قال شنايدر : - ومع ذلك ، فان هذا الرحيل الى المانيا قد تمنيتَه .

فقال برونيه : - نعم ، لقد تمنيتَه .

وعاد عامل المطبعة يرتجف ، فأحاط برونيه كفيه بذراعه وشده اليه

بارتباك . وبهزة من رأسه ، اوماً الى شنايدر نحوه وهو يقول :

- اسكت .

فنظر شنايدر الى برونيه ببسمة مندهشة ؛ وكان كأنما يقول له :

متى بدأت تهتم بتوفير الهموم على الناس ؟ وأدار برونيه رأسه ، ولكن

ليرى وجه العامل النهم . كان العامل ينظر اليه ، وشفته ترتعشان ،

وعيناه الكبيرتان الرقيقتان تدوران في وجهه الشفقي . وكان برونيه يهم

بان يقول له : « هل كنت مخطئاً ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً ، ونظر

الى رجليه تتدليان فوق العجلات الجامدة ، وكان يصفر . ومالت

الشمس ، وكان الحر قد خف . وكان ثمة فتى يهش على البقرات

بعصاه ، فتكردح ثم تهدأ وتمضي على الطريق بخيلاء ؛ فتى يدخل الى

بيته ، وبقرات تعود الى الاصطبل ، إن هذا لخيبة . وفي البعيد البعيد ،

فوق احد السهول ، كانت طيور سود تحوم : ليس جميع الموتى في

الأرض . ذلك القلق الذي كان يحفره ، لم يكن برونيه يعرف بعد ان

كان قلقه ام قلق الآخريين ؛ والتفت فنظر اليهم ليبيهم على بعض المسافة منه : وجوه رمادية شاردة ، هادئة تقريباً ، فعرف فيهم تلك الهيئة الغائبة لجموع ستلتهب بالغضب . وفكر : « هذا حسن . حسن جداً . » ولكن بلا فرح . واهتز القطار ، وسار بضع دقائق ، ثم توقف . وكان مولو مطلاً من القاطرة ، يرقب الأفق ، وقال :

— إن نقطة تغيير السكة على بعد مئة متر .

قال غاسو : — الا ترى أنهم يركوننا هنا حتى الغد ؟

قال اندريه : — ستكون معنوياتنا عظيمة !

وأحس برونيه ، حتى عظامه ، بجمود القطار الثقيل . وقال أحدهم :

— انها حرب الأعصاب تعود .

وسرت في القاطرة طقطقة جافة ، انها ضحكة . وانطقت . وسمع

برونيه صوت جوراسيان الهاديء :

— « أتو وأتو . »

وأحس بهزة ، فالتفت ؛ كانت يد جوراسيان الذي يحمل « آس قلب » قد ظلت في الهواء ، حين عاد القطار الى السير ؛ وانتظر مولو ، وبعد برهة ، أسرع القطار ، ثم انبثق خطان حديديان من تحت العجلات ، برقان متوازيان سيضيغان الى الشال ، بين الحقول . وقال مولو :

— خراء ! خراء ! خراء !

وصمت الافراد : لقد فهموا . وترك جوراسيان آسه يسقط على المعطف ، وسوى الثنية ؛ وكان القطار يسير بلطف وهو يلهث بانتظام ، وكانت الشمس الغاربة تحمر وجه شنايدر ، وقد بدأ الطقس يترطب . ونظر برونيه الى عامل المطبعة وأمسك به فجأة من كتفيه :

— لا ترتكب حماقات ، أسمع ؟ لا ترتكب حماقات ، يا صديقي الصغير ! فتشج الجسم الهزيل تحت أصابعه ، فشدّ شدّاً أقوى ، فتقلص الجسم ، وفكر برونيه . « سأمسكك حتى الليل » وعند الليل ، يأتي

الألمان فيغلقون القاطرة ، حتى اذا جاء الصباح ، تكون نفسه قد هدأت .
وكان القطار يجري تحت السماء البنفسجية ، في صمت مطلق : انهم الآن
يعرفون ، في جميع القاطرات يعرفون . واستسلم عامل المطبعة كامرأة
على كتف برونيه . وفكر برونيه : « هل بحق لي ان امنعه من ان
يقفز ؟ » ولكنه ظلّ يشدّ . ضحكة خلف ظهره ، صوت :
- صاحبتى التي كانت تريد طفلاً ! يجب ان اكتب لها ان تدعو
الجار الى ان يتسلقها !

وضحكوا . وفكر برونيه : « يضحكون من فرط الشقاء ؟ »
وملأت الضحكة القاطرة ، وصعدا الغضب ، وردّد صوت ضاحك :
- كم كنتا فروجاً حمقى ! كم كنتا فروجاً حمقى !
سهل بطاطا ، مصانع الصلب ، المناجم ، الاشغال الشاقة : بأي
حق أمنعه من ذلك ؟ وردّد الصوت :
- كم كنا فروجاً حمقى !

وتدحرج الغضب وصعد . وشعر برونيه تحت اصبعيه بتمايل الكنتين
المزيتين ، وتهافت العضلات الرخوة ، وفكر : « انه لن يستطيع ان
يتحمّل المجازفة » وضغط ، بأي حق ؟ وزاد ضغطه ، فقال عامل المطبعة :
- انك تؤلني .

وظلّ برونيه يضغط : انها حياة شيوعي ، فهو نخصنا ما دام حياً .
ونظر الى هذا الوجه السنجابي الصغير : أجل ، ما دام حياً . ولكن
أما زال يعيش ؟ لقد انتهى ، فقد تحطمت النواياض ، وهو لن يشتغل
بعد ابداً . وصاح عامل المطبعة :

- ولكني دعني ! يلعن دين ! دعني !
واستغرب برونيه نفسه ؛ كان يمسك بين يديه هذه الجثة : عضواً
من الحزب لا يستطيع بعد ان يخدم . كان بوده ان يحدّثه . وان
يحثه ، وان يساعده ، فلا يستطيع ، فان كلماته « للحزب »
و « الحزب » هو الذي اكسبها معانيها ؛ وفي داخل « الحزب »

كان برونيه يستطيع ان يحب ، ويقنع ، ويعزّي . ولكن عامل المطبعة قد سقط خارج هذا المغزل الضوئي الهائل ، ولم يكن لدى برونيه بعداً ما يقوله له . غير ان هذا الطفل ما يزال يعاني . ما دام هنا موت وهناك موت... آه ! فليصمم ! ومن الافضل ان يفترّ ، فاذا بقي ، فان موته سيجدى . وكانت القاطرة تضحك اكثر فاكثر ؛ وكان القطار يجري ببطء ، فكأنه موشك على التوقف . وقال عامل المطبعة بصوت مداور :
- أعطني العلبة ، فيجب ان ابول .

فلم يقل برونيه شيئاً ، ونظر الى العامل ، فرأى الموت . الموت ، هذه الحرية .

وقال العامل : - خراء ! الا تستطيع ان تعطيني العلبة ؟ اتريد ان ابول في ثوبي !

والنفت برونيه فصاح : - العلبة !..

ومن العتمة المألثة بالغضب ، خرجت يد تمد العلبة ، وازداد بطء القطار ، وتبرّد برونيه ، ونقش أصابعه في كتف العامل ؛ ثم ترك فجأة كل شيء ، واخذ العلبة ، كم كنا فروجاً حمقى مع ذلك ، كم كنا فروجاً حمقى ! وكفّ الأفراد عن الضحك . واحسّ برونيه بصدمة قاسية في مرفقه ، لقد انزلت عامل المطبعة من تحت ذراعه . ومدّ برونيه يده ، فالتقط الفراغ : لقد سقطت الكتلة الرمادية مطوية الى اثنين ، طيراناً ثقيلاً ، وصاح مولو ، وانسحق طيف على التراب المردوم ، متباعد الساقين ، متصلب الذراعين ، وانتظر برونيه طلقات النار ، وكانت « قد أصبحت » في اذنيه ؛ وطفّر عامل المطبعة بعد ان مسّ الأرض ، وهما هو ذا واقف ، شديد السواد ، حراً . و « رأى » برونيه طلقات النار : خمسة اشعاعات فظيعة . وأخذ عامل المطبعة يعدو بجذء القطار ، لقد أخذه الخوف ، فهو يريد ان يصعد ، وصاح به برونيه :

- اقفز الى المنحدر ، يلعن دين ، اقفز !

وصاحت القاطرة برمتها :

– اقفز ! اقفز !
فلم يسمع العامل ، وكان يكرّح ، فوصل الى مستوى القطار ،
ومدّ ذراعيه وصاح :

– برونيه ! برونيه !

ورأى برونيه عينيه المذعورتين ، فهدر فيه :

– المنحدر !

ولكن العامل أصمّ ، وليس هو بعد الا هاتين العينين الهائلتين ،
وفكر برونيه : « اذا صعد بسرعة ، فان له حظاً بالنجاة » وانحنى :
كان شنايدر قد فهم ، فزّره بذراعه اليسرى ليمنعه من السقوط . ومدّ
برونيه ذراعيه ؛ فلمست يد عامل المطبعة ، وأطلق الألمان ثلاث طلقات
فتداعى العامل باسترخاء الى الوراء ، وسقط ، وابتعد القطار ، ووثبت
ساقا العامل في الهواء ، ثم سقطتا ، واذا العارضة والحصى اسود من
الدم حول رأسه . وتوقف القطار فجأة ، ووقع برونيه على شنايدر ،
فقال وهو يكرّ بأسنانه :

– لقد رأوا جيداً انه سيصعد من جديد ، فأردوه بطيب خاطر .
وكان الجسد هناك ، على بعد عشرين خطوة ، وقد أصبح شيئاً ،
أصبح حراً . « سأخذ لنفسى زاويتي الصغيرة » ولاحظ برونيه انه ما
يزال يمسك العلبة في يده ، لقد مدّ ذراعه للعامل من غير ان يتركها .
انها فاترة . وتركها تسقط على الحصى . وخرج اربعة ألمان من المركبة
وركضوا نحو الجسد ؛ وكان الافراد ، خلف برونيه ، يدمدمون ،
وهكذا ، أطلق عقاب الغضب . ومن احدى قاطرات الرأس ، خرج
زهة عشرة ألمان ، فتسلقوا العارضة وواجهوا القطار ، ورشاشاتهم في
ايديهم . ولم يخف الافراد ، وهدر أحدهم خلف برونيه :

– يا للقدرين ! يا للقدرين !

وكان الغضب بادياً على الرقيب الألماني الضخم ، فانحنى ورفع
الجسد ، ثم تركه يسقط وركله بقدمه .
والتفت برونيه فجأة :

– هيه لا ! انكم ستلقونني الى الأرض !
كان عشرون شخصاً قد اطلوا ، ورأى برونيه عشرين زوجاً من
العيون الملأى بالقتل : ستكون هذه الضربة القاسية . وصاح :
– لا تقفزوا يا جماعة ! فستعرضون نفوسكم للقتل .
ونهب على مشقة ، وهو يصارعهم ، وصاح :
– شنايدر !

فنهض شنايدر ايضاً ، وأخذ كل منهما بقامة الآخر ، وتشبثا ،
بواسطة الذراع الأخرى ، بقوائم الباب .

– لن تمرّوا .
وظلّ الافراد يدفعون ؛ ورأى برونيه هذا الحقد كله ، حقهه ،
أداته ، فأخذته الخوف . واقترب ثلاثة ألمان من القاطرة ، فصتوبوا على
الافراد . وتمم الافراد ، وكان الألمان ينظرون اليهم ؛ ورأى برونيه
المجعد الضخم الذي كان يرمي اليهم بالسجاير : كانت له عينا قاتل .
وتبادل الفرنسيون والألمان النظر ، « انها الحرب » : انها الحرب للمرة
الاولى منذ ايلول ٣٩ . وتراخى الضغط رويداً رويداً ، وتراجع الافراد ،
فأمكنه التمرّين . واقترب الرقيب وقال :

– « هينايين ، هينايين »

وتراكم برونيه وشنايدر ازاء الصدور ، وكان خلفهم ألماني يقفل
الباب بالملزلاج ، فما تلبث القاطرة ان تغرق في السواد ، وتنبعث رائحة
العرق والفحم ، ويقرقر الغضب ، وتضرب الأقدام الخشب ، فكأنه
جمع يسير . وفكر برونيه :

« انهم لن ينسوا . وهذا كسب . » وشعر بالضيق ، وتنفس
بضيق ، وكانت عيناه مفتوحتين على الظلام : وكان بين الفينة والفينة
يحسهما منفوختين ، كبرتقالتين ضخمتين ، يوشكان على تفجير محجريه .
ونادى بصوت منخفض :

– شنايدر ! شنايدر !

فقال شنايدر : - انا هنا .

وتلمس برونيه فيما حوله ، وكانت به حاجة للمس شنايدر .
وأخذت يده فشدتها .

- هذا انت ، يا شنايدر ؟

- نعم .

وصمتا ، جنباً الى جنب ، واليد في اليد . وحدثت هزة ، وتحرك
القطار وهو يصير . ماذا فعلوا بالخبثه ؟ وأحس نفس شنايدر بازاء
أذنه . وفجأة ، سحب شنايدر يده ، واراد برونيه ان يستبقها ، ولكن
شنايدر تخلص بانتفاضة ، وذاب في الظلام . وظل برونيه وحيداً
متصلياً ، غير مرتاح ، في حرارة تنور . وكان واقفاً على قدم ، بينما
كانت الاخرى محشورة فوق الأرض الخشبية ، في خليط معقد من
السيقان والأحذية . ولم يحاول ان يخلصها ، فقد كانت به حاجة لأن
يبقى في الوقت : إنه عابر ، وفكره عابر في رأسه ، والقطار عابر
في فرنسا ، وتدبقت الافكار ملثثة فسقطت على السكة ، خلفه ، قبل
ان يتمكن من تمييزها ، وابتعد ، وابتعد ، وابتعد ، على هذا النحو
من السرعة ، يمكن للحياة ان تُطاق . توقف تام : انزلقت السرعة
وسقطت على قدميه ، وكان ما يزال واثقاً من ان القطار يسير : فهو
يصير ويصدم ويرتج ، ولكنه لم يكن يشعر بعد بالحركة . إنه في وعاء
ضخم للقمامة ، وهناك من يركله بقدمه . وخلف ظهره ، على المنحدر ،
كان الجسد باقياً ، مجرداً من العظام ؛ وكان برونيه يعلم انهم كانوا
يبتعدون عنه كل لحظة ، وكان يود ان يحس ذلك ، ولكنه لا يستطيع :
فكل شيء يأسن . والليل وحده ، يمر حياً ، فوق الميت وفوق القطار
الساكن . غداً يغطيهما الفجر بالنسدى نفسه ، وسيقطر اللحم الميت
والفولاذ الصديء بالعرق نفسه . غداً تأتي الطيور السود .

انتهت